ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره





الجزء الثاني

منشورات الجمل

ابن قرناس: الشرعة والمنهاج ـ الجزء الثاني


مكتبة
الفكر الجديد

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني

منشورات الجمل



ابن قرناس: الشرعة والمنهاج، الجزء الثاني، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

ISBN: 978-9-93335-110-6

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي: كمال يوسف
+970 599 273872, ky.design.a2@gmail.com



«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»

(٨٩) النحل.



هذا القسم يتكون من خمسة أقسام، هي كما يلي:

(١) أدلة ومواضيع من القرآن

ويحتوي على بعض الأدلة والمواضيع التي وردت في كتاب الله، ويبقى غيرها كثير، يمكن للقراء التعرف عليها أثناء قراءة التدبر.

(٢) أحداث من عصر الرسول

ويتناول بعض ما أمكن حصره من أحداث ورد ذكرها في كتاب الله من البعثة وحتى وفاة رسول الله.

(٣) تشريعات من القرآن

ويحتوي على بعض التشريعات التي وردت في كتاب الله.

(٤) أماكن وشخصيات

وهذا القسم يذكر فيه عدد محدود جداً من الأماكن والشخصيات التي ورد ذكرها في القرآن.

(٥) مفردات من القرآن

ويحتوي على مفردات وردت في القرآن الكريم ومعانيها حسب سياقها وليس كما تقول عنها المعاجم.

وكل ما ورد في هذه الأقسام عبارة عن أمثلة ولا يمكن أن يقال عنها أنها أقسام قامت بحصر كل ما ورد في كتاب الله.



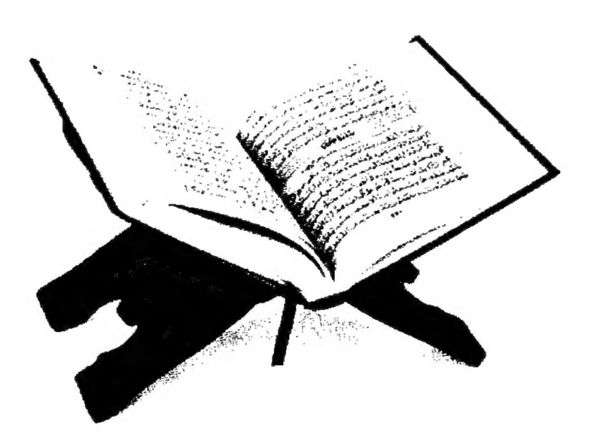

مكتبة
الفكر الجديد

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



القسم الأول

أدلة ومواضيع من القرآن






مكتبة
الفكر الجديد

هذا القسم يهتم بتلك المواضيع التي تناولها القرآن أو التي لها علاقة بها تحدث عنه القرآن، ولا تدخل ضمن التشريعات، ولا التاريخ القديم، ولا أحداث التاريخ الإسلامي في عصر الرسول، ولا المفردات، وليست من أساليب القرآن.

وكغيره من الأقسام في هذا الجزء من الكتاب ليس الغرض منه حصر جميع المواضيع التي وردت عنه في كتاب الله، أو التي لها علاقة بها ورد في كتاب الله، ولكن لإعطاء أمثلة عليها وترك الباقي ليستنتجه القراء أو ليتم الحديث عنه أثناء تدبر السور.




مكتبة
الفكر الجديد

المحتويات




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

البسملة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(١) الفاتحة.

لا يمكن تصور أن يبدأ الوحي بنص غير "بسم الله الرحمن الرحيم"، لأن الله جل وعلا قد فرض على المسلم أن يبدأ كل نشاط ينوي القيام به باسم الله.

فباسم الله نُطلق الجوارح أو كلاب الصيد أو السهام أو القذيفة، أو نضع الشباك للصيد: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤) المائدة.

ونبدأ الأكل والشرب باسم الله: فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١٠٨) الأنعام.

وهذا نوح يركب السفينة ويبدأ رحلتها باسم الله: وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(٤١)هود.

وسليمان يبدأ رسالة كتبها لملكة سبأ باسم الله: إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣٠) النمل.

والمقصود بالبدء باسم الله هو النشاط نفسه (الكتابة أو الحديث أو الفعل) وليس ما تحويه الرسالة أو الحديث من عبارات وألفاظ تعبر عما يقوله الشخص، ولا تعني أن الشخص يتحدث أو يكتب نيابة عن الله. فنقول: بسم الله نبدأ الأكل أو الكلام أو أي نشاط آخر، ولو قلت "اسم الله" عند بداية النشاط فلا معنى لذلك. لأن المطلوب هو أن نبدأ النشاط باسم الله، وليس المطلوب هو التلفظ باسم الله قبل النشاط.



وعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» ليست عبارة سحرية تحمي من العين والسحر والجن كما يعتقد بعض العامة، الذين يسارعون - بمجرد تعرضهم لموقف مفاجئ أو مفزع - بنطق «بسم الله» ظناً منهم أنها ستحميهم. وإن كان هذا لا ينفي أنها بديل مثالي لأي عبارة أخرى يمكن أن تحقق الاطمئنان والهدوء لمن يتعرض لهذه المواقف. على أن تذكر ككلمة لا تحمل في ذاتها أي قدرة سحرية، مثلها مثل أي عبارة في القرآن، الذي نزلت آياته لتشفي الصدور وليس الأبدان.

رب وليس الرب

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الفاتحة.

رب تعني مالك الشيء وراعيه. وتأتي في القرآن على الدوام مضافة، مثل: رب العالمين، ربي، ربك، ربكم... الخ. أما «الرب» بالتعريف فتستخدم في المسيحية ويقصد بها عندهم يسوع الإله. ولا وجود للفظ «الرب» بالتعريف، في كتاب الله، وعلى المسلم تجنب استخدامه.

عالم للخالق وعالم للمخلوقات

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) الشورى

يصف الله جل وعلا ذاته بأن أي شيء للمخلوقات ليس لله منه شيء على الإطلاق، لا شبيه له ولا مختلف عنه. فالخالق سبحانه ليس له يد، ولو كانت مختلفة عن يد المخلوق. وليس له صفة من صفات أي من خلقه، ولا هيئة ولا ملكة ولا غريزة ولا حاسة يمتلكها أي من مخلوقاته. ولا حتى أي شيء يمكن لأي مخلوق تصوره أو التفكير فيه فليس لله جل شأنه منه شيء. والله جل وعلا لا يمكن تخيل ما يكون وكيف؟ ولا يمكن معرفة أين يكون؟ ولا يمكن معرفة أي شيء عنه سبحانه إلا ما أخبر به. وهو سبحانه لم يخبر بهيئته ولا صورته ولا أي معلومة حسية عن عالمه.

ومع ذلك تذكر العديد من الآيات أن لله أعضاء كما للخلق مثل اليد والوجه وغيرها. والمتدبر لكلام الله يجد أن كل الآيات التي تذكر صفات وهيئات لله مشابهة لما عند خلقه هي في الواقع جاءت بتعبير مجازي، ومن ذلك تقول سورة الليل: وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ



تُجْزَى(١٩) إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى(٢٠).

ويقصد بابتغاء وجه الله رضاه سبحانه، ولا يعني أنه سبحانه له وجه.

وعندما نقرأ في القرآن: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ(٢٥) القيامة.

فلا يعني أن المؤمن سيرى الله يوم القيامة كما يؤمن أتباع بعض المذاهب، لأن للمخلوقات قدرات محدودة لا يستطيع معها التواصل مع الخالق مباشرة. والآيات السابقة جاءت على شكل تعبير مجازي يعني الرضى للمؤمن، والتعاسة للكافر، ولا تعني أن الله يمكن أن يراه الخلق.

ولو كانت الآيات تقول بإمكانية رؤية الله – تعالى سبحانه علواً كبيراً – لرآه المؤمن والكافر على حد سواء، لأن قدرات الإنسان التي خلقها الله له واحدة بغض النظر عن كفره أو إيمانه. وقدرات النفس البشرية العظيمة، هي ضعيفة بالنسبة لعالم الخالق، ولن تتغير هذه القدرات في الآخرة. لأن الله سيبقى هو الخالق، وسيبقى البشر بل وكل المخلوقات في الكون مخلوقات ضعيفة لا يمكنها التواصل مع الله مباشرة ولا رؤيته. ومن لا يستطيع رؤية الخالق في الدنيا فلن يراه في الآخرة، لأن قدراته التي فطره الله عليها لن تتغير بمجرد موته ثم بعثه، ولأن الله جل شأنه لا تدركه الأبصار في الدنيا أو الآخرة: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) الأنعام.

ولو تمكن مخلوق من رؤية الخالق فهذا يعني أن المخلوق أصبح لديه قدرات مشابهة لقدرات الخالق سبحانه، وهذا يتنافى مع وصف الله لنفسه سبحانه بأنه: «ليس كمثله شيء».

فالله جل وعلا لا يدانيه شيء، وله عالم خاص به سبحانه لا يقربه ولا يعرفه مخلوق، وكل ما في الكون عبارة عن عالم للمخلوقات، لا يتصل بعالم الخالق: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ(١٧) الأنبياء.

"من لدنا" تشير لعالم الخالق سبحانه المنفصل عن عالم المخلوقات.

وليس هناك اتصال مباشر بين أي نوع من المخلوقات وبين الله جل وعلا. لأن كل المخلوقات الحية لها عالم خاص بها، بمختلف أنواعها، وهو ما يعرف بالكون. وهو منفصل عن عالم الخالق الذي لا نعرف عنه شيئاً. وجميع المخلوقات الموجودة في هذا الكون في



مستوى منخفض لا تدنو من مرتبة الله لا في الهيئة ولا في القدرة ولا في أي شيء آخر.

فالله جل شأنه فوق التصنيف أو التعريف.

وليس هناك تدرج من مرتبة الله الكاملة إلى مرتبة الملائكة الأقل كمالاً ثم مرتبة البشر الأقل ثم مرتبة خلق آخر...الخ. وهذا التصنيف لا وجود له إلا في مخيلة بعض الناس.

هناك عالم الله فوق التصنيف والمستويات، وهناك عالم المخلوقات (بما في ذلك الملائكة) بمستويات وتصنيفات فيما بينها، لكن لها سقف لا تتجاوزه المخلوقات جميعا، مهما اختلفت فيما بينها في الخلق والقدرات والتفكير ...الخ، لكنها كلها مخلوقات قاصرة ضعيفة لا يمكن أن يكون لها شيء مما لله.

فالخالق جل شأنه له عالم خاص لا علاقة له بعالم المخلوقات الذي يمثله ويضمه ما يعرف بالكون. فكل ما في الكون ليس لله مثيل له، وما لله ليس للمخلوقات مثيل له.

وتقول سورة الأنعام: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٠١) ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٠٢) لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٠٣).

وعندما تقول سورة الأنبياء: وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(٢٠).

فهل هذا يعني أن عند الله في عالمه خلقاً من خلقه؟

الجواب: لا.

لكن الآية تخاطب قريشاً بما يفهمون، وقريش مثل كثير من الناس يظنون أن الله له مكان يقع فوق السماء السابعة التي تمثل أعلى الكون. وعنده سبحانه «ملائكة» يخدمونه. وهو تصور بشري يظهر وكأن الله بحاجة لأن يخدمه الخدم كما هي حال الزعيم البشري. وإلا فالله جل شأنه يسير كل خلقه بقوانين ثابتة لا يحتاج معها لا لأن يديرها مباشرة ولا أن يتابع عملها فهي لا تحتاج لا لصيانة ولا لمراقبة ولن تتعطل. وقول الآية: « وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ» تشير للقوانين الإلهية وليس لمخلوقات حية (عبيد وخدم من الملائكة).



وقد مر بنا خلال تدبر سور القرآن العديد من الآيات التي تؤكد أن لله عالماً خاص به سبحانه لا علاقة له بعالم المخلوقات، وأن الله جل شأنه لا يتواصل مباشرة مع أي من خلقه.

الملائكة

الملائكة في القرآن لا تدل على معنى واحد كما قد يتبادر لذهن البعض، ولكنها تأتي بمعنى مخلوقات حية، وتأتي بمعنى آليات، ومعنى ثالث، وفيما يلي بعض التفصيل:

أولاً: الملائكة تعني مخلوقات حية عاقلة

ونقصد بحية أنها تحس وتشعر بما حولها، ونقصد بعاقلة أنها تدرك.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) البقرة.

فهذه المخلوقات عاقلة لها مشاعر وأحاسيس وتعرف الخطأ وتعرف الصواب لأنها احتجت على خلق بشر بأنه سيفعل ما فعله بشر مثله خلقوا قبله « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء "

ومن يعرف الصواب والخطأ قد يقع في أي منهما. وقد وقع إبليس في الخطأ، وهو واحدٌ من الملائكة. كما أن أي واحد من الملائكة غيره قد يقع في الخطأ والعصيان: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٢٩) الأنبياء.

وادعاء أحد الملائكة للألوهية افتراض قد يقع، ولو وقع فمصير من صدر منه الخلود في النار. لذا فلابد أن هناك رسلاً من الملائكة أرسلت لهم لدعوتهم للإيمان بالله، كغيرهم من المخلوقات اللاحسية كالجن، أو الحسية كالبشر. وقد أشارت سورة بني إسرائيل إلى أن الملائكة يرسل لهم رسل منهم بالفعل: قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا



عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً(٩٥).

هل الملائكة (الحية العاقلة) جنس واحد أم إنها أجناس متباينة؟

القرآن يقول إن ملائكة حضروا لمريم وكانت لديهم قدرة على إحداث حمل دون الحاجة لتخصيب البويضة من حيوان منوي: إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٤٧).

الملائكة بلفظ الجمع هنا تعني أحدهم، فلم تقابل مريم جماعة من الملائكة، ولكن واحداً فقط والدليل: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياًّ(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياًّ(١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياًّ(١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِياًّ(١٩) مريم

هذا جنس من الملائكة قادر على إحداث هذا العمل فوق العادي. وقد كرروا ذلك مع زوجة زكريا (مريم: ٧-٩) ومع زوجة إبراهيم كما ورد في سورة هود: (٦٩-٧٣).

وهذه المخلوقات لديها القدرة على التشكل بهيئات محسوسة كما حدث مع ضيوف ابراهيم الذين رآهم بهيئات بشرية وظنهم بشراً وقدم لهم عجلاً حنيذاً من ماشيته لضيافتهم لكنهم لم يأكلوا، لأنهم لا يملكون أجهزة هضمية، وليست لهم هيئات حسية، سواء تلك الهيئات الحسية التي رآهم عليها أو غيرها.

فهل هذه المخلوقات هي التي منها جبريل وميكال: مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ(٩٨) البقرة.

أم أن جبريل وميكال من جنس آخر من الملائكة؟

وجبريل هو من قام بإنزال الوحي على محمد: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) البقرة.

وهو ما يعني أن الملائكة التي من جنس جبريل لديهم القدرة على الوصول للأرشيف الإلهي الذي يحتفظ فيه بنسخة الوحي الأصلية: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ



لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

ولديهم القدرة على فك رموز ما في الأرشيف الإلهي، وتحويله إلى نصوص بشرية مفهومة بلغة الرسول البشري، وحفرها في ذاكرته: فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ(٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٤٣) الحاقة.

والملائكة مخلوقات لا جسدية مما ينفي عنهم أي هيئة محسوسة، فلا يملكون أرجلاً لأنهم ليسوا بحاجة للسير، ولا أجنحة لأن تنقلهم لا يتم بالطيران ولا يملكون أجهزة تنفسية ولا هضمية ولا غيرها.

لأنها مخلوقات لا أجساد لها ولا هيئات حسية، وبالتالي فهي لا تستطيع حمل الأشياء. وهذا لا يمنع من أن تقول سورة البقرة: وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨).

وذلك من باب المجاز للتعبير عن البركة الإلهية، ولا يعني أن الملائكة ستحمل التابوت.

الخلاصة أن الملائكة كمخلوقات حية لا أجساد لها، لأنها مخلوقة من طاقة، كما أكد ذلك القرآن ضمن الحديث عن موقف إبليس (أحد الملائكة) من خلق آدم: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦) ص.

ومما سبق يمكن القول إن الملائكة كمخلوقات حية تعني أنواعاً مختلفة من سكان الكون، بعضهم مخلوقات لا جسدية وبعضهم يستطيع التشكل على هيئة مخلوقات جسدية. وليس المقصود بالملائكة مخلوقات من جنس ونوع واحد، وإن أطلق القرآن «ملائكة» على كل المخلوقات الكونية التي تواصلت مع البشر.

أين تعيش هذه المخلوقات الحية؟

يقول تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨).



والملأ الأعلى تدل على أن الملائكة (المخلوقات الحية منها) تعيش في مناطق علوية قصية من الكون بالنسبة للأرض.

ما جنسها؟

سور القرآن تخبرنا أن قريشاً تظن أن الملائكة مؤنثة الجنس: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى(٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً(٢٨) النجم.

وقريش مثلها مثل كثير من الناس يظنون أن الملائكة مؤنثة ولها أجنحة، وهذا لم يأت من مشاهدات شهود عيان، ولكنه خيال فقط ولا يقوم على أساس. وسورة الزخرف تنفي نفياً قاطعاً أن يكون للملائكة جنس مذكر أو مؤنث: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩).

فلا الملائكة إناث كلها ولا هي ذكور كلها وليست خليط من الإناث والذكور، ولكنها أحادية الجنس، لأنها مخلوقات من طاقة لا تتكاثر. فجبريل خلق بدون أب وأم منذ خلقت الملائكة (الجنس الذي ينتمي إليه) وسيبقى جبريل هو جبريل وبدون نسل حتى يأتي اليوم الذي يهلكون فيه: وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨) القصص.

وليس لهم أجهزة تناسلية ولا هضمية، لذا فهم باقون منذ خلقهم الله، وحتى نهاية هذا الكون، ولا جنس بينهم لأن الجنس حاجة ملحة لبقاء الإنسان ومخلوقات الأرض المحسوسة، لأن حياتهم قصيرة ويموتون. أما الملائكة فحياتهم باقية حتى نهاية الكون فليس لهم حاجة للجنس والتكاثر.

وليس هناك ما يمنع أن تكون الملائكة (المخلوقات الحية) التي يطلق عليها ملائكة مختلفة في الخلق والقدرات وفي أماكن تواجدها في الكون، وهو ما يؤكده القرآن في سورة فاطر: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١).

ووصفهم بأن لهم أجنحة هنا وصف مجازي، يعني أن لهم قدرات وإمكانيات متفاوتة،



وبعضهم أقدر من بعض. وهو ما يعني أنهم أجناس ومخلوقات كونية مختلفة، تشترك في أنها مخلوقات من طاقة وليست جسدية، لكنها تختلف في قدراتها وخلقها وأماكن تواجدها في الكون.

هل تنزل الملائكة (المخلوقات الحية) وتختلط بالبشر بهيئات حسية؟

فيما عدا الرسل والأنبياء مثل إبراهيم ولوط وزكريا ومحمد، إضافة لمريم التي أصبحت أم عيسى، لم يذكر القرآن أن الملائكة تخالط البشر العاديين بهيئات جسدية. بل إن القرآن يؤكد في أكثر من موضع أن الناس العاديين متى ما رأوا الملائكة بهيئات جسدية فإن العذاب سيحل بهم لا محالة ولن يبقوا على قيد الحياة بعدها، لذا يمكن الجزم أنه لا أحد من البشر (العاديين) رأى الملائكة أبداً وبقي حياً ليصفهم. وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً(٢٢) الفرقان

وهو ما تؤكده سور أخرى مثل الحجر: (٥) وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ(٨).

رؤية البشر للملائكة يعني وقوع الهلاك

وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ(٨) الحجر.

قريش تقول للرسول: إن رغبت في أن نؤمن أنزل علينا ملائكة. وهو طلب كررته كثيراً قريش وكررته كل الأمم السابقة لرسلها كون الناس لا يؤمنون بأن بشراً عادياً مثلهم يمكن أن يتواصل مع السماء ولا يمكنهم ذلك. لذا لابد له إن كان بالفعل رسولاً من الله ويتواصل مع السماء أن يطلب من الملائكة أن يحضروا للأرض ويراهم الناس.

والآية ترد عليهم وتقول بأن الملائكة لا يمكن للبشر غير الرسل رؤيتهم إلا في اللحظة التي تسبق وقوع كارثة مهلكة، ولو رأت قريش الملائكة فهذا يعني وقوع كارثة ستهلكهم ولن يكون بإمكانهم البقاء بعدها.



الملائكة ككل المخلوقات قد تعصي

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) الأنبياء.

الآيات ترد على مزاعم قريش بأن الملاكة بنات الله، وتقول لو أن أحدهم تجرأ وادعى الألوهية من دون الله فمأواه جهنم. وهو ما يعني بداهة أنه قد يصدر منهم هذا الكفر أو أي عصيان آخر. فكل المخلوقات بلا استثناء قد تعصي وكل المخلوقات ستحاسب وبعضها سيدخل النار.

وقصة عصيان أحد الملائكة (إبليس) تكررت كثيراً في القرآن. لذا فلابد أن هناك رسلاً من الملائكة لدعوتهم للإيمان بالله، كغيرهم من المخلوقات اللاحسية كالجن، او الحسية كالبشر. وقد أشارت سورة بني إسرائيل إلى أن الملائكة يرسل لهم رسل منهم بالفعل: قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً(٩٥).

ويفهم من هذا أن كل المخلوقات الحية في الكون – جسدية كانت أو لا جسدية – أرسل الله لها رسلاً من جنسها. فالله جل وعلا لم يخلق كل المخلوقات إلا لكي يعلم من آمن ومن كفر: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) الذاريات.

ويوم القيامة كل مخلوق حي في الكون سيحاسب: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩) هود.

والجِن والجِنة بكسرة تحت الجيم لا تعني الجن فقط، بل تعني كل مخلوقات الله غير المرئية للإنس ويدخل فيهم الملائكة، كما أكدت سورة الصافات: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠).



والآيات تخاطب قريشاً مستنكرة عليهم زعمهم أن الملائكة بنات الله. وتنفي أن تكون الملائكة إناثاً، لأن المخلوقات الروحانية كالملائكة والجن ليس لها جنس، فهي ليست مذكراً ولا مؤنثاً. وتقول الآية (١٥٨) إن قريشاً باعتقادها أن الملائكة بنات الله قد جعلت بينها وبين الله جل وعلا نسباً، مع أن الجنة (الذين هم الملائكة هنا) يعلمون أنهم خلق من خلق الله سيحضرون للحساب يوم القيامة كغيرهم من المخلوقات. والملائكة بالنسبة لقريش جِنّة لأنهم مخلوقات خفية لا جسدية. فالجنة هنا تعني الخفية. وكل المخلوقات في الكون وإن اختلفت هيئاتها تتفق في أن لديها جانب الخير وجانب الشر. وتملك الإرادة الحرة لاختيار الطريق والتحكم في المشاعر. وكلها مخلوقات ضعيفة لا تعرف عن الرحمن أكثر مما يعرف البشر، ولا تستطيع التواصل معه سبحانه مباشرة، وليس بينها من هو أفضل عند الرحمن من بعض. وكلهم عباد لله، سواء كانوا ملائكة: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩) الزخرف.

أو كانوا من بني إسرائيل: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) الدخان.

ثانياً: الملائكة كآليات وليست مخلوقات حية

يقول تعالى في سورة النحل: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) النحل

هنا نتساءل: هل موت الإنسان عملية ميكانيكية تحتاج لمخلوقات حية (ملائكة) لديها أدوات خاصة لنزع النفس من الجسد؟

أم أن الموت حالة تنعدم فيها وظائف الدماغ وساق الدماغ والنخاع الشوكي بشكل كامل ونهائي – نتيجة لمفارقة النفس الجسد بسبب مرض أو هرم أو حادث – مما يتسبب بتوقف استهلاك الأوكسجين والانتفاع من التغذية وتصلب الشرايين والأوردة وبالتالي توقف كل نشاطات الجسد ودخولها لمراحل متعددة تنتهي بالتحلل.

يقول تعالى في سورة محمد: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ(٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(٢٨).

هل الكافر عند الموت يتعرض لمثل هذا الضرب؟



أم أن الحديث مجازي للدلالة على سوء عاقبة الكافر يوم القيامة الذي يحل لحظة الوفاة؟ لذا قالت الآية « فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ». لأن الميت لا يشعر بمرور الوقت لتوقف الذاكرة عن التسجيل، وعندما تقوم القيامة ويبعث يظن أنه للتو مات: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٥٣) يس.

والميت لا يعلم أنه يموت إلا بعد أن يبعث يوم القيامة، عندها يعرف أنه مات في الدنيا وأنه الآن في الآخرة، مثلما أن النائم لا يمكن أن يعلم أنه نام إلا بعد أن يستيقظ: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢) الزمر.

ولذلك وصف القرآن القيامة كأنها تأتي الناس بغتة: بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٤٠) الأنبياء.

وكما أن الملائكة لا تضرب الكافر فهي لا تحقق مع الميت أثناء الوفاة: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً (٩٧) النساء.

والملائكة لا تتحدث مع الميت أثناء الموت: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) النحل.

ولكنه أسلوب القرآن المجازي لتقريب الصورة من الذهن.

وتقول سورة المدثر: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١).

الآيات تتحدث عن أن النار عليها تسعة عشر، وتؤكد أنهم ملائكة.



والملائكة كمخلوقات حية موجودة الآن ستفنى كبقية مخلوقات الكون الحالي، ويوم القيامة سيبعثون ويحاسبون. فالدنيا لكل المخلوقات الحية في هذا الكون، هو عالمٌ للعمل والتحصيل والإيمان. ويوم القيامة هو عالمٌ للحساب والجزاء والعقاب، وليس هناك عمل. فلن يكلف مخلوق من هذا الكون بالعمل في كون القيامة.

وبناءً على هذا فالملائكة المذكورون في سورة المدثر أعلاه لا يمكن أن يكونوا مخلوقات حية كانوا يعملون في هذا الكون، وسيكلفون بأعمال يوم القيامة، لأن هذا مخالف لقوانين الله جل وعلا الذي وضع داراً للعمل هي الدنيا وداراً للحساب. كما أن الجنة والنار ستعملان بموجب قوانين فيزيائية ثابتة، ولا حاجة لمخلوقات تديرها. مثلما أن هذا الكون يعمل بموجب قوانين ثابتة دون تدخل من المخلوقات لإدارته أو تشغيله أو صيانته. وتكون الملائكة التي على النار يقصد بها الآليات والقوانين التي تسيرها وليس المقصود مخلوقات حية تدير النار وتشغلها.

ومثل ذلك ما ورد في سورة الحاقة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ(١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٨).

ومثله: قالوا أولم تك تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٥٠) غافر.

وتقول سورة الزخرف: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٨).

الآيات تتحدث مجازاً عن المجرمين في نار جهنم، وأنهم يتمنون الفناء ولا البقاء في النار، وتصور ذلك وكأنهم ينادون أحد الملائكة: «يا ملك ليقضي علينا ربك». وبما أنه لن يكون هناك ملائكة تدير النار، جاء الرد من رب العالمين وليس من الملائكة: «قال إنكم ماكثون، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون».

المفسرون أفسدوا المعنى – كعادتهم – بإضافة حرف (مد) ليتحول اللفظ، من (ملك) إلى



(مالك) وجعلوه اسماً لأحد الملائكة الخازن لجهنم، أي المسئول عنها. ونكرر أن جهنم وكل كون القيامة لن يكون له مخلوقات حية تسيره، ولكنه يسير ويستمر بقوانين ثابتة أوجدها الله. ويكون الملك الذي ناداه المجرمون هو الآلية التي تسير النار، ولم يخاطبه المجرمون ولكنه أسلوب مجازي يظهر استمرار العذاب بلا نهاية.

ثالثاً: الملائكة تعني التأثير النفسي

تروي سورة آل عمران ما حدث ببدر: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥).

لقد نزلت آلاف من «ملائكة» على جيش المسلمين في بدر، فما كان دورها؟

تقول سورة آل عمران: وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦).

لقد اقتصر دور هذه الآلاف من الملائكة على إحلال الطمأنينة والسكينة على قلوب المؤمنين، ولم يكونوا مخلوقات حية شاركت في الحرب فعلياً، كما يخرف المفسرون. فكل الذين قتلوا من قريش في تلك المعركة كانوا (٧٠ رجلاً حسبما ورد في كتب التراث) وقد يكونون أقل. وكلهم قتلوا على أيدي المسلمين وليس الملائكة. ولو كان هناك مخلوقات كونية خاضت المعركة في بدر مع المسلمين وعددها وصل لخمسة آلاف ولم تستطع قتل سوى (٧٠) رجلاً فهي مخلوقات ضعيفة لا تصلح أن تكون مدداً من الله للمؤمنين.

لكن لو كان المدد معنوياً، يتمثل بإحلال السكينة وإبعاد الرهبة والخوف من النفوس، فهو مدد هام جداً لكسب المعركة. وبما أن المدد معنوي، فالاحتمال أن الشعور بالطمأنينة وذهاب القلق والخوف، نتيجة لقدرة تلك المخلوقات على التأثير على المخ لزيادة إفرازات هرمونية معينة، مسئولة عن شعور المسلمين بالثقة في النفس والطمأنينة ونزع الخوف والقلق.

أو أن الملائكة هنا المقصود بها تلك القدرة الخفية في الجسم لتنشيط أجزاء من المخ المسئولة عن الإفرازات والهرمونات داخل الجسم والتي تتحكم بإحلال السكينة والطمأنينة بدل الخوف والقلق.



وسواء كان هناك ملائكة (مخلوقات حية) قادرة على إحلال السكينة على المسلمين، أو أن المقصود بالملائكة هنا قوى في النفس البشرية، ففي كلا الحالين سيكون معنى الملائكة هنا ليس مخلوقات حية ولا آليات، ولكنها مشاعر وقوى خفية في النفس.

خلق الكون (السماوات والأرض)

القرآن يتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولا يتحدث عن خلق كل الكون. وهذا عائد إلى أن القرآن يخاطب الناس حسب مداركهم وما يفهمون. والناس زمن الرسول في مكة لا يعرفون الكون كما نعرفه اليوم وأنه مكون من مجرات ومجموعات شمسية وكواكب ونجوم، ولكنهم يعرفون ما يمكنهم رؤيته بأعينهم المجردة ; أرض وسماء. الأرض التي يعيشون عليها، والسماء التي تظلها وفيها الشمس والقمر ونجوم لا يعرفون كنهها. لذا فالقرآن يتحدث عن خلق السماوات والأرض عندما يتحدث عن خلق الكون. وأول سورة تحدثت عن خلق السماوات والأرض هي سورة «ق» من سور المرحلة الرابعة: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(٣٨) ق.

ثم تحدثت عنه سورة السجدة، من سور المرحلة الخامسة: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(٤).

والآيتان – مثل كل الآيات التي تذكر خلق السماوات والأرض – تقولان بأن الخلق تم خلال ستة أيام. والمقصود باليوم هنا فترة زمنية: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤) المعارج.

ويكون اليوم في سياق الحديث عن خلق السماوات والأرض، عصراً جيولوجياً متشابه السمات، وإن استمر لآلاف الملايين من السنين.

ولذلك فلن نجد أي تعارض بين ما جاء به الوحي من أن الخلق كان على ست فترات زمنية وبين ما اكتشفه وقد يكتشفه العلم الحديث حول الكيفية التي تم فيها الخلق، والتي امتدت عبر ملايين ومئات وآلاف الملايين من السنين.



ولكن رجال الدين اليهود فهموا نص الوحي حرفياً بما يعني أن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الأرض التي لا يعرفون غيرها، وأطلقوا لخيالهم البشري القاصر العنان لتصوير ما حدث خلال الستة أيام فقالوا: "بأن النور خلق في اليوم الأول، (قبل أن يكون هناك شمس يقاس بشروقها وغروبها اليوم). ثم خلق الجلد بين المياه في اليوم الثاني. وخلقت الأرض وما عليها في اليوم الثالث. وخلقت الشمس لتكون نور النهار والقمر ليكون نور الليل والنجوم لتنير الليل في اليوم الرابع. وخلقت المخلوقات الحية على الأرض في اليوم الخامس. وخلقت الوحوش والإنسان في اليوم السادس"[1].

وقد فسر اليهود استواء الله على العرش على أنه خلد إلى الراحة والسبات ولذلك سمي اليوم السابع بيوم السبت والراحة. وبما أن الوحي يقول بأن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، والأسبوع سبعة أيام، فقد تخيلوا أن الله لابد أنه قد استراح في ذلك اليوم من عناء الخلق، قبل أن يبدأ في بداية الأسبوع التالي بإدارة ملكوته.

وحيث إنه يستحيل عليهم تخيل ما يمكن أن يكون في الكون البعيد فقد أهمل رجال الدين اليهود ذكر خلقه، وأسهبوا في الحديث عن خلق الأرض وما فيها وما حولها مما يمكن للإنسان رؤيته.

وقد تكرر نص خلق الكون في القرآن حرفياً، كما ورد في التوراة: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) السجدة.

وتبنت كتب التراث الديني للمسلمين المفهوم اليهودي الحرفي للنص على أنه ستة أيام من أيام الدنيا. وإن حوروا كلام اليهود قليلاً ليبدو وكأنه إسلامي، فقالوا بأن الأيام من أيام الدنيا الأولى التي كانت أطول من أيام الدنيا الحالية[2]، كما غاصوا في تفاصيل مشابهة للتفاصيل اليهودية أو منقولة عنها. فابن مسعود وابن عباس المسلمان قالا بنفس ما قاله عبد الله ابن سلام، ذو الخلفية الثقافية اليهودية، ومثله ابن جريج وكعب الأحبار ووهب ابن منبه وغيرهم، من أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والإثنين،

---

١ انظر كتاب التكوين في كتاب اليهود المقدس

٢ شاهدت فيلماً وثائقياً يقول بأن الأرض تكونت أولاً بدون قمر، وكان طول اليوم ست ساعات فقط، لأن دورانها كان أسرع. ولما تكون القمر أدت جاذبيته إلى تباطؤ سرعة دوران الأرض فأصبح اليوم على الأرض يساوي ٢٤ ساعة تقريباً كما هو اليوم.



وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السماوات يوم الخميس والجمعة ففرغ آخر ساعة من الجمعة فخلق فيها آدم، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة[1].

وعندما جاء الجيل الثاني والثالث من المفسرين المسلمين أمعنوا أكثر في الخيال من سابقيهم. فقد نقل ابن جرير الطبري في تفسيره للآية ٢٩ من سورة البقرة: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات. عن السدي المتوفى سنة ١٢٧ للهجرة قوله: أن الله عز وجل كان على عرشه فوق الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع الدخان فوق الماء فسما عليه فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الإثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره الله تعالى في القرآن في قوله « ن والقلم» والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرت، والجبال تفخر على الأرض[2].

انتهى كلام السدي الذي يبدو متأثراً بفلسفة يونانية في حديثه عن الحوت الذي يحمل الأرض، مع بقاء أسلوب كتاب اليهود المقدس واضحاً عندما نقارن بين كلام السدي السابق وبين نص الكتاب المقدس التالي: في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل بين النور والظلمة. ودعا النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. ...... ودعا الله الجلد سماء.... وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة...ودعا الله اليابسة أرضاً. (التكوين: الإصحاح الأول). واتفق المفسرون المسلمون مع اليهود بأن الشمس والقمر والنجوم ليست أكثر مما تراها عليه العين المجردة من الأرض. فالشمس لإنارة النهار والقمر لإضاءة الليل، في تفسير الآية القرآنية: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) الفرقان.

---

١ انظر تفسير الطبري للآية السابعة من سورة هود.

٢ ج١ ص١٤٩ - جامع البيان في تفسير القرآن.



والنجوم أبراج وزينة للسماء، وليهتدي بها المسافر في تفسيرهم لقوله تعالى: وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) النحل.

والكون خلق لحكمة

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) ص.

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(٣) الأحقاف.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(٣٨) الدخان.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥) الحجر.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(١٦) الأنبياء.

خلق الكون بقوانين ثابتة

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(٤٩) القمر.

كل الكون وما فيه خلقه الله بقوانين ثابتة دقيقة، ولا يخضع خلق الله للارتجال، كما يظن البعض. فالمطر – على سبيل المثال – ينزل إذا ما توفرت الظروف المناخية المناسبة لنزوله، والتي أودعها الله بقوانين ثابتة. ولا يمكن أن يغير الله جل وعلا هذه القوانين من أجل سؤال بشر أو لأي سبب آخر.

وقد حدث خلق الكون بسرعة متناهية، ولم يستغرق الأمر منه سبحانه لإيجاد هذه القوانين المثالية شيئاً يذكر من الزمن، كما تؤكد الآية التي تلي: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ(٥٠).

والآية تأكيد على أن نشأة الكون حدثت بموجب تلك القوانين الفيزيائية التي أوجدها الله، خلال وقت أقل من أن يقاس. وهو ما يعرف علمياً بالانفجار العظيم، والذي حدث – كما يقول العلماء – من نواة كتلتها صفر وحجمها صفر، يعني من لا شيء. أو كما قال القرآن: «كن، فيكون». فالله أوجد القوانين، والتي بموجبها تولد ذلك الانفجار العظيم الذي نتج



عنه هذا الكون الهائل. والانفجار العظيم بالفعل حدث بسرعة متناهية تقاس بجزء من تريليون من الثانية.

وتقول سورة «يس» للرد على اتهامات قريش للرسول: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٣).

والآيات تؤكد أن الله لا يعجزه شيء، وأنه إذا أراد خلق شيء، كالكون مثلاً، فكل ما يحتاجه هو أن يقول: «كن». وكن هنا ليست بمعنى فعل الأمر، لأن الأمر يكون لكائن موجود، ولكنها تعني أن إرادة الله تتحول إلى مخلوق محسوس بمجرد أن يبدع سبحانه القوانين الثابتة. فالكون انبثق من العدم بموجب قوانين فيزيائية وطبيعية، وتكونت مجراته والمخلوقات فيه بموجب هذه القوانين. فكن تعني إيجاد القوانين وبدأها العمل والتفاعل.

وتقول سورة الجاثية: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

الله جل وعلا خلق الكون (السماوات والأرض) بالحق، والحق يعني عدم التغيير والتبديل والتصرف بعواطف ولكن تسيير الخلق بموجب قوانين ثابتة، وبنفس المبدأ سيحاسب الناس.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٦٨) غافر.

فالله جل وعلا لا يباشر العمل بنفسه ولكن يُوجِدُ القوانين التي تقوم عليها الحياة في الكون وما فيه.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ(١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢١) الحجر.

الله جل شأنه خلق كل شيء بقوانين ثابتة ولا يتدخل فعلياً: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً(٢) الفرقان.

وعندما تأتي آيات تبدو وكأنها تقول بأن الله جل وعلا يباشر خلق مخلوقاته بذاته سبحانه



فهي آيات مجازية، ومن ذلك: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) يس.

فالأنعام مخلوقات حية ضمن مخلوقات كثيرة خلقت بموجب قوانين «كن فيكون» الثابتة، دون تدخل مباشر منه سبحانه. ويكون معنى: «مما عملت أيدينا» مجازاً يقصد به أنه من خلق الله. وما يؤكد هذا أن الله، تبارك وتعالى منزه عن أن يكون له أيد أو أرجل.

وتقول سورة الأنبياء: وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(٢٠)

الآيتان هنا تشيران إلى أن الله لا يحتاج لمخلوقات حية لتدير ملكوته، ولا يحتاج لمخلوقات حية لتخدمه سبحانه. فهو جل وعلا لا يحتاج لخدمة ويدير كل مخلوقاته بقوانين ثابتة لا تحتاج لصيانة ولا تتعطل، ولا إدارة من مخلوقات حية. لكن عبارة الآيتين تتلاءم مع إدراك وفهم المخاطبين في زمن نزول القرآن الذين يقيسون الله بمفاهيمهم البشرية وبالتالي يتصورون أنه سبحانه يحف به ملائكة يخدمونه ويديرون له خلقه ويقومون على صيانته، كما يفعل البشر.

الخلق والبعث كنفس واحدة

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٢٨) لقمان.

قريش لا تؤمن بإمكانية البعث بعد الموت ظناً منها أن البعث سيكون بخلق كل فرد على حدة وهذا سيتطلب مجهوداً مضنياً ووقتاً لا حدود له، وكأن الله جل شأنه سيقوم بإعادة خلق كل إنسان على ما كان عليه في الدنيا.

والآية تقول إن بعث كل البشر مثل خلقهم لا يحتاج من الله جل شأنه جهداً ولا وقتاً: كن فيكون بواسطة قوانين ثابتة دقيقة، بحيث إن خلق أو بعث كل الناس وكأنه خلق أو بعث لواحد منهم.



كون القيامة سينشأ بعد نهاية هذا الكون

تقول سورة إبراهيم: فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩).

وسورة الأنبياء تقول: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(١٠٤).

مظهر من مظاهر انهيار الكون حيث ستبدو السماء وكأنها تطوى كما تطوى السجلات. وكما بدأ الكون بانفجار عظيم سينتهي بانكماش عظيم. هكذا سينتهي الكون، إن كان فهمي صحيحاً.

وتقول سورة الزمر: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨).

الصور هو الكون بلغة عصرنا. والآية تقول إن صورنا هذا (كوننا) سينهار وستكون نهايته وكأنه تعرض لنفخة عظيمة تؤدي إلى تهاوي النجوم والكواكب وانفراط نظامها.

ثم ينشأ صُور القيامة، وبدايته ستكون وكأن نفخة عظيمة ولد منها. وهي بداية مماثلة لما يعرف بالانفجار العظيم الذي تولد منه هذا الكون.

يوم القيامة سيشعر المرء أن بقاءه في الدنيا لم يدم سوى لحظات

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا(٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا(٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا(٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا(٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا(٤٦) النازعات.

قريش تلح على الرسول أن يخبرهم متى الساعة، والرسول لا يعلم الغيب ليخبرهم. ولو كانت القيامة ستقوم بعد عام أو مئة عام أو ألف عام، لتم تحديد اليوم لقريش. لكن قيام الساعة سيكون بعد مليارات السنين من فناء البشر وفناء الأرض، وبالتالي فليس هناك يوم محدد بالنسبة للبشر تقوم فيه الساعة.

والآية تقول إنه عندما تقوم الساعة سيشعر الناس أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا فترة قصيرة من



الزمن لا تزيد عن عشية أو ضحاها. وهذا الشعور هو مشابه للشعور الذي يشعر به المرء بالنسبة لسنوات عمره الماضية والتي مرت كأنها لحظات.

وتؤكده سورة الأحقاف وذلك بعد أن دعت قريشاً للتفكير بعظمة الخلق للاستدلال على قدرة الخالق على بعثهم الذي ينكرون، وبما أنهم لن يتراجعوا عن رفضهم للدعوة، وهو ما يحزن رسول الله، توجهت السورة لمخاطبة الرسول: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

فالأيام ستمر سريعاً وسيهلك كبراء قريش وبعدها سيواجهون مصيرهم المشئوم يوم القيامة، وسيشعرون أن بقاهم في الدنيا لم يزد عن ساعة من نهار.

وهو ما تؤكده سورة الجاثية: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

وكررته سورة المؤمنون في حديثها عن المكذبين يوم القيامة: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ(١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١٤).

وسورة «طه»: يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً(١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً(١٠٤) طه.

كل سنوات العمر الماضية والزمن السابق مهما طال، مر على الإنسان كأنه لحظات. والآيات تنقل لنا صورة مجازية لمجموعة من الناس يتجادلون حول الفترة التي قضوها في الدنيا، هل كانت بطول عشرة أيام أو بطول يوم واحد؟ وهذا المشهد قد لا يحدث لكنه فقط لتقريب الصورة من الذهن. فالحياة الدنيا مهما طالت فهي قصيرة وزائلة، ومن يدرك هذا لن يجعل الدنيا أكبر همه ولا غاية له، ولكنه سيعيشها كممر ودار عمل وتحصيل ليوم القيامة الدائم.

وتقول سورة المؤمنون: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ(١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١٤).



والآيات جاءت ضمن سياق يصور حال قريش يوم القيامة ودخولهم النار.

وتقول سورة يونس: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(٤٥).

والآية تصور حال كفار قريش في الآخرة، لأن الحديث في سياق الآيات عنهم. فهم يظنون أنهم سيعمرون ولكن سرعان ما تمر الأيام ويهلكون ليواجهوا مصيرهم المحتوم، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

وتقول سورة بني إسرائيل عن قريش: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً(٥٢).

سورة الصافات تتحدث عن رفض قريش الدعوة مبررين موقفهم باستحالة البعث: بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ(١٨).

بمجرد موت الإنسان تقوم قيامته

ما إن يموت الإنسان حتى تتوقف ذاكرته عن التسجيل، فيمر الوقت مهما طال ولو كان بمليارات السنين، وهو لا يشعر به. وعندما يبعث يوم القيامة سيشعر أنه للتو مات، وكأنه انتقل من الدنيا للآخرة في نفس اللحظة: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١) الصافات.

وتقول سورة «يس»: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠).

وتقول سورة الأنبياء: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٤٠).

تأتيهم بغتة، لأن كل من يموت من كفار قريش الذين تخاطبهم الآيات سيشعر أنه انتقل فجأة للقيامة، وكأن البعث حدث بغتة.



فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً(٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً(٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً(٧) المعارج.

قريش تكرر سؤال الرسول عن موعد يوم القيامة، وهو قريب جداً، ولا يفصلهم عنه إلا الموت.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(١٨٧) الأعراف.

قريش تسأل سخرية وليس لليقين، والآية تقول إن الساعة تأتي بغتة. وهذا لا يعني أن القيامة ستقوم والناس أحياء ينظرون، لأن القيامة تكون بعد انهيار هذا الكون والذي سيكون بعد مليارات السنين من الآن وبعد فناء الإنسان من على وجه الأرض أو حتى فناء الأرض كلها واختفائها من هذا الكون. وبعد انهيار الكون سيمر مليارات سنين أخرى لكي يخلق كون القيامة ويبعث الناس، فالقيامة لم تأت بغتة في الحقيقة.

لكنها ستكون بغتة لكل فرد على حدة، بمعنى أن كل شخص يموت سيشعر أنه انتقل للآخرة في نفس اللحظة، لأن ذاكرته ستتوقف عن التسجيل ولن يشعر بمليارات السنين التي تفصل بين موته وبعثه يوم القيامة، وستمر تلك الفترة الزمنية الطويلة كلمح البصر كما تقول الآية (٧٧) في سورة النحل أو بغتة كما تقول هذه السورة.

وتقول سورة الزخرف: هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٦٦).

وتقول سورة الأنعام: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٣٢) الأنعام.

بمجرد موت الإنسان تتوقف الذاكرة عن التسجيل وإذا ما قامت القيامة سيظن أنه مات للتو. وتكون الساعة قد جاءت بغتة حسب ما يشعر به الإنسان.

وتقول سورة الحج: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥).



كيف تشكلت الأرض

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣).

الآيات تخبر قريشاً عن عدة حقائق كونية بطريقة يفهمونها:

أن الأرض كانت كتلة واحدة (رتقاً) مع ما يرون من السماء (النجوم والكواكب) وملتصقة ببعض. وهذه الحقيقة التي يوردها القرآن بأسلوب بسيط يتلاءم مع مدارك قريش ومعارفها، تشير إلى أن الأرض وكل الكواكب لم تنشأ لوحدها، ولكنها تكونت من انفصالها عن الأجرام السماوية (في مجموعتها أو مجرتها). وتخلقت ببطء عن طريق تجمع الغبار والصخور المتفتتة إلى أن تشكلت بشكلها النهائي.

وكل المخلوقات الحية كان الماء عنصراً أساسياً لتخلق سلالاتها الأولى، ولولا الماء لما تخلقت[1]. ولا تقول الآية إن الكون بدأ بوجود ماء فقط ومنه تشكل الكون، كما ورد عن كتاب اليهود المقدس، واقتبسه منهم المفسرون.

السماء (الغلاف الجوي) عبارة عن سقف ومانع وحامٍ للأرض «سقفاً محفوظاً». نعرف الآن أنه يحفظها من أشعة قاتلة ويعمل على احتراق الصخور التي تخترق الغلاف الجوي فتحترق قبل اصطدامها بالأرض، والتي نراها على شكل شهب.

الشمس تسبح في فلك «مسار» خاص بها، وكذلك القمر.

سبع سماوات

أول إشارة لسبع سماوات ورد في سورة النبأ: وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً(١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً(١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً(١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً(١٦).

والآية: (١٢) تشير إلى أن هناك سبعاً (سبع سماوات) شداداً فوقنا. والسبع الشداد هي

---

١ يمكن الرجوع لفقرة: خلق الإنسان الأول/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



السماوات السبع. وبما أنه لا يمكن أن يكون الحديث عن وجود سبعة أكوان، لأن المخاطب (قريش) لن يستطيع رؤيتها، فقد تكون السماوات السبع طبقات الجو المحيطة بالأرض، وهي المسماة بالإنجليزية Atmospheres of Earth والتي لابد أنها سبعة، وليس كما يقول بعض العلماء أنها ست أو خمس طبقات متداخلة.

الكون له عمر محدد

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠) النبأ.

هذا الكون سينتهي في وقت محدد، لأن يوم الفصل (القيامة) سينشأ في وقت محدد مسبقاً. مما يعني فناء هذا الكون أولاً في وقت محدد، ثم ينفخ في صور (كون) جديد للقيامة بعد ذلك في وقت محدد.

وتقول سورة الأحقاف: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣).

أجل مسمى (محدد).

وتقول سورة مريم: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٤٠).

وإن كانت الأرض ستنتهي يوماً فهي جزء من الكون الذي ينتهي أيضاً.

وتقول سورة الكهف: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً(٨) الكهف.

بعدما كانت الأرض عامرة بالحياة والنبات ستتحول إلى صعيد جرز لا حياة فيها، كناية على أنها ستنتهي. والأرض كوكب من كواكب الكون، مما يعني أن كل الكون سينتهي كذلك.

وتقول سورة سبأ: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ(٣٠).

سينتهي هذا الكون في وقت محدد، وسينشأ كون القيامة في وقت محدد، وسيبعث الناس في وقت محدد.

والوقت المحدد هنا يعني ما يعرف بالعمر الافتراضي، فهذا الكون خلق بعمر افتراضي



ينتهي بعدها، ولا يعني أن الله قد حدد لحظة معينة لإنهاء هذا الكون، لكنه سينتهي بكل حال.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٤) يونس.

الله جل شأنه خلق السماوات والأرض (الكون) في ستة أيام (عصور جيولوجية) والآية الرابعة تقول بأنه بدأ خلق هذا الكون وسيعيده، أي أنه سينتهي. ثم سيعيد خلق كون القيامة حيث الجزاء والحساب.

وهو ما أكدته السورة في مكان آخر: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤) يونس.

والآيات في هذا الموضوع كثيرة.

كل ما في الكون يسجل

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ(٤) ق.

الآية (٤) تؤكد أن هناك سجلاً للبشر، مما يعني أن هناك سجلاً لكل المخلوقات، وبالتالي لكل ما يجري في الكون.

وتقول سورة القمر: وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ(٥٣).

وهي تخاطب قريشاً وتؤكد لهم أن كل شيء يصدر من الشخص من الولادة للوفاة يسجل في الزبر (السجلات) والمقصود بها صحيفة الأعمال. مثلما أن كل شيء مهما صغر في كل خلق الله (الكون) مستطر (مكتوب وموثق). فالله لا يدير خلقه مباشرة ولكن بقوانين ثابتة يضعها ويقوم عليها الخلق دون حاجة لمخلوقات حية تديرها. وتسجيل ما يحدث لا يعني أنه مقرر مسبقاً: وَاللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى



وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١) فاطر.

ومثله ما ورد في سورة سبأ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣).

ولا يقوم بالتسجيل رب العالمين بنفسه جل وعلا، كما لا يقوم به مخلوقات حية نيابة عن مخلوقات حية غيرها، كما رسخت كتب التراث من أن الملائكة مكلفة بتسجيل أعمال البشر. مع أن الملائكة مخلوقات تسجل عليها أعمالها، كما البشر وكل مخلوقات الكون. وتسجيل كل كائن – حي أو جماد – لما يحدث له ويصدر منه ويمر به يكون بآلية في نفس المخلوق، وهو ما يظهر عدل الله المطلق المثالي. فالمخلوق يختار طريقه بكل حرية للإيمان أو الكفر، وهو يسجل أعماله بنفسه على نفسه بكل دقة، ويوم القيامة يحاسب بناءً على ما سجل على نفسه، ويكون هو نفسه من ذهب للنار أو الجنة باختياره.

انهيار الكون

هذا الكون الذي نعيش فيه عمره قرابة (١٣,٧) مليار عام، حسب تقديرات العلماء الذين يقولون إنه يعيش في مرحلة منتصف العمر، أي أنه سينتهي بعد فترة مماثلة. والقرآن الكريم يؤكد أن هذا الكون سينهار وينتهي في إجاباته المتعددة لتساؤل قريش عن موعد البعث الذي يطالبون الرسول أن يحدده لهم ويخبرهم كيف سيكون. والإجابات كلها جاءت على شكل صور مجازية حسية تصف نهاية الكون، وتقول بأن الحساب سيكون بعد ذلك. ثم ورد في سور لاحقة بأن انهيار هذا الكون سيتبعه نشأة كون آخر، وفي ذلك الكون سيكون الحساب.

وأول آيات تقدم صوراً مجازية لانهيار الكون هي المزمل: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً(١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً(١٤).



فعذاب المكذبين سيكون بعد أن ترجف الأرض وتصبح الجبال كثيباً مهيلاً. وهذه الصور الحسية كناية عن خراب الأرض ونهايتها، وهو ما يشير إلى خراب الكون الذي تقع ضمنه الأرض. ولا تقول الآيات إن خراب هذا الكون سيتبع بنشأة كون القيامة، لأن المقصود بالحديث هو التأكيد على أن الحساب لن يكون في هذا الكون الذي سينتهي. وهو ما يعني بداهة خلق كون جديد للقيامة.

ثم تقول سورة القارعة: الْقَارِعَةُ(١) مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ(٥).

الصورة المجازية الحسية هنا تصور الناس عند البعث وكأنهم فراش مبثوث، في وقت تحولت فيه الجبال كالصوف المنفوش. كناية عن انهيار الأرض، وهو ما يعني انهيار هذا الكون. والآيات تقول لقريش إن البعث الذي تسألون عنه لن يكون إلا بعد انهيار هذا الكون وهذه الأرض.

وهذه صورة مجازية حسية أخرى تقدمها سورة الزلزلة: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(٦).

والسورة كلها جاءت بأسلوب مجازي. ومن ذلك أن الأرض تُزلزل كناية عن فقد مسارها، وتخرج أثقالها كناية على أنها ستنفجر. وبعد أن يحدث ذلك سيصدر الناس ليروا أعمالهم ومصيرهم، وهذا يكون يوم القيامة، وبما أن كون الدنيا قد انهار، فمن البديهي أنه سينشأ كون لعالم القيامة، لم تتحدث عنه السورة، لكن سوراً نزلت بعد ذلك ستشير له.

ولن يكون الإنسان على وجه الأرض حينها ومع ذلك تقول الآية (٣) إن الإنسان سيتساءل عما حدث للأرض. وهو موقف افتراضي بمعنى لو رآه الإنسان لتساءل.

كما أن الأرض لا تنطق ومع ذلك تصورها السورة وكأنها ستتحدث عن أخبارها وستقول بأن ما حدث لها هو بأمر من الله، وهو موقف افتراضي بمعنى أن الأرض لو كانت تنطق لقالت.

وتؤكد سورة الانفطار نفس الصورة: إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣).



وهذه السورة تعطي صوراً أكثر تفصيلاً لانهيار الكون. فالسماء ستنفطر، والكواكب ستنتثر، والبحار ستنفجر. وهي صور تقول بأن هذا الكون بمجراته ونجومه وكواكبه سينهار، وليس فقط الأرض.

ثم تأتي سورة الانشقاق، لتقول: إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ(٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٥).

تكرار للصورة التي قدمتها السور السابقة عن نهاية هذا الكون، حيث تنشق السماء، تعبيراً عن انفراط نظام الكون. وتُمد الأرض وتلقي ما فيها وتتخلى عنه، نتيجة انفجارها. بعد ذلك يكون الحساب. أي تقوم القيامة بعد أن ينشأ لها كون جديد، وهو ما تتحدث عنه آيات سورة التكوير التي تلت في النزول: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ(٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(٧) وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ(١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ(١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ(١٤).

تفاصيل أكثر هنا: الشمس ستتكور وتنتهي، النجوم ستنكدر وتتهاوى، الجبال ستسير كناية عن انهيارها. والبحار سجرت وكأنها تغلي وتتبخر، والسماء كشطت ولن يعود لهذا الكون وجود. عندها سينشأ كون القيامة، حيث تسعر الجحيم (تُخلق)، وتقرب الجنة «أزلفت» (تُخلق)، ويكون الحساب.

وتقول سورة الفجر: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً(٢١).

فالدك صورة حسية مجازية لما سيعتري الأرض عند زوالها.

وتؤكد سورة القيامة أن البعث لن يكون في هذا الكون بل بعد انهياره: فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ(٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(١٠).

أسلوب مجازي لن يحدث حرفياً، فلن يكون هناك بشر لرؤية القمر وهو يخسف أو وهو يصطدم بالشمس، ولن يقول: أين المفر؟

وجاء في سورة النبأ: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠)



والآيات هنا تصور نشأة كون القيامة على شكل نفخة، وتقول بأن الحساب سيكون بعد ذلك. والصور في القرآن هو الكون بلغة عصرنا. وتصوير نشأة الكون بالنفخة مماثل لما يقول العلماء أن هذا الكون قد بدأ بانفجار عظيم، من لا شيء، وكأنه نفخة عظيمة.

وتكرر سورة الواقعة وصف انهيار هذا الكون: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً(٥) فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً(٦).

فالأرض سترتج وتخرج عن مسارها وتبس الجبال وتتهاوى، كون الأرض ستتمزق.

وتقول سورة الحاقة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ(١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٨).

النفخة الواحدة تتسبب في دك الأرض المنبسطة التي يراها الإنسان مع الجبال بحيث لا يعود هناك أرض منبسطة ولا جبال. يعني أن شيئاً ما سيصيب الأرض ويدك تضاريسها قبل أن تنتهي كما بدأت. بعدها تقع الواقعة (تقوم القيامة).

وتعود الآيات لتقديم صور إضافية لانهيار الكون ممثلة بانشقاق السماء وضعفها، وبعد ذلك ستكون القيامة، حيث يكون العرض والحساب.

وتقول سورة المرسلات: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ(٨) وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ(٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ(١٠).

الصورة المقدمة هنا لانهيار الكون تقول بأن المجرات لن يكون لها وجود، فنجومها (وكواكبها) ستطمس، والسماء (الفضاء بين النجوم والكواكب والمجرات) ستنشق، والجبال التي تبدو أشد تضاريس الأرض رسوخاً ستنسف، ومعها كل الأرض.

وتقول سورة الطور: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ(٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ(٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً(٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً(١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(١١).

فعذاب المكذبين واقع لا محالة (يوم القيامة) الذي سيأتي بعد خراب هذا الكون الذي أعطت الآيات بعض الصور المجازية الحسية لمظاهر انهياره. فالسماء ستمور، أي تختلط وتتبعثر. والجبال ستذوب صخورها وتسير. ثم ينشأ كون القيامة ويبعث الناس ويكون



مصير المكذبين النار.

وتقول سورة «طه»: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً(١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً(١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً(١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً(١٠٨).

قريش تسأل الرسول عن مصير هذه الجبال يوم القيامة التي يرونها تحيط بمكة فيأتي القرآن بجواب مجازي يصور الجبال وكأنها نسفت وسويت بالأرض. والآية تقول بأنه بعد نسف الجبال ستقوم الساعة، وكأنها ستقوم على هذه الأرض. وتقديم هذه الصورة الحسية المجازية بديل للقول بأن هذا الكون كله سينتهي ثم ينشأ كون آخر للقيامة. لأن المهم هو أن تعرف قريش أن الجبال ستنتهي ولن يروها يوم القيامة، وهو مفهوم يتناسب مع مداركهم وما يعرفون من العلم.

اليوم يعني فترة زمنية

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ(١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢) فصلت.

اليوم له عدة معانٍ في لغات عدة وليس فقط العربية، ومن معانيه الفترة الزمنية. وهي تطول لتكون عصراً جيولوجياً لملايين السنين.

والآيات تقول إن الأرض خلقت في يومين، اي عصرين جيولوجيين.

ومن ثم مرت الأرض بأربعة عصور جيولوجية مختلفة حتى ظهرت فيها الحياة.

ومر الغلاف الجوي للأرض بعصرين جيولوجيين حتى اكتمل.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ(١٩) القمر.

الآية تقول إن عاداً أهلكت بريح في يوم نحس مستمر، والمقصود بذلك اليوم: سبع ليال



وثمانية أيام، وليس يوماً واحداً، كما ورد في سورة الحاقة: سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧).

لأن اليوم يأتي لعدة معانٍ أحدها اليوم المعروف، أو فترة زمنية متشابهة الصفات والملامح، سواء امتد لعدة أيام كما ورد هنا، فسبع ليال وثمانية أيام متواصلة هي يوم استمر فيه هبوب الريح. أو لفترة أطول كألف سنة، أو خمسين ألف سنة، كما ستذكر السور. وقد يمتد اليوم بهذا المعنى ليكون عصراً جيولوجياً يقدر بملايين أو بلايين السنين، ومن ذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام (ستة عصور جيولوجية). فاليوم يعني: فترة زمنية متجانسة الملامح، بغض النظر عن طولها. وهذا المعنى لليوم يوجد في لغات أخرى ولا تنفرد به العربية.

خلق الإنسان

السائد الذي ترسخ من كتب التراث هو ما تبنته تلك الكتب من روايات إسرائيلية وموروث اليهود وكتبهم المقدسة. ويتمثل في أن الله قد خلق آدم أولاً وخلق له امرأة من أحد أضلاعه، وكانا يرزقان توأمين، ولد وبنت، في كل مرة تحبل فيها امرأة آدم التي أسموها «حواء». وكان الولد يتزوج بأخته التي ولدت مع أخيه وليست التي ولدت معه. (حكايات وأساطير شعبية تصلح لمتعة الأطفال وليس للحديث عن خلق الخالق جل وعلا).

وتستمر الحكايات لتقول بأنهم بعد آدم كفروا فأرسل لهم نوح الذي ولد له ثلاثة أبناء ذكور. وأن الله أغرق كل الناس لكفرهم ما عدا أهل بيت نوح. ومن بينهم أولاده الثلاثة الذكور وأسموهم أسماء هي: سام، والذي جعلوه أبا اليهود والغربيين. وحام وجعلوه أبا الأفارقة والعرب، ويافث وجعلوه أبا للجنس الأصفر. فمن أولاد نوح خرجت كل الأجناس البشرية الحالية، «كما تقول الحدوتة».

ويمكن ملاحظة التحقير المتعمد للعرب حيث جمعوهم بالأفارقة الذين ظلموا عبر التاريخ باعتبارهم عبيداً فقط لأن لون بشرتهم داكن، وجعلوهم مع العرب أقل الشعوب البشرية درجة. ومع أنه تحقير متعمد من اليهود للعرب فقد قبله العرب وتبنوه واعتبروه هو الحق وما يخالفه الباطل.



المؤسف هو أن رواد علماء الأجناس بصفتهم من الغرب فقد تبنوا مقولة كتاب اليهود المقدس، كونهم مسيحيين يؤمنون بكتاب اليهود المقدس ككتاب لهم أيضاً، ولتأثير المد اليهودي الفكري وتغلغله في الغرب. لذا حاول أولئك الرواد أن يأولوا الدلائل التاريخية لنشأة البشر لتبدو مطابقة لما قالت كتب اليهود. فقالوا إن هناك فقط ثلاث سلالات بشرية تفرع منها سلالات أصغر نتيجة اختلاط السلالات الثلاث، مكونة كل البشر. وبقيت هذه الأكذوبة معتمدة في علم الأجناس حتى مؤخراً، عندما اضطر العلماء إلى الاعتراف بأن سكان صحراء كلهاري الأفريقية (البوشمن) لا ينتمون لأي من السلالات الثلاث، وهو ما يندرج على سكان أستراليا الأصليين. ثم وفي خمسينات القرن الماضي قاموا بتقسيم سكان الكرة الأرضية إلى تسع مجموعات، أسموها أجناساً جغرافية، هي: الأسترالي، الأفريقي، الآسيوي، الهندي، الأوروبي، الهندي الأمريكي، البولينيزي، الميكرونيزي، الميلانيزي.

وبرغم أن هذا التقسيم يحاول ألا يقول بصراحة أن نظرية كتب اليهود المقدسة عن نشأة البشر هي مجرد خرافة، إلا أنه أسقطها عملياً وعلمياً.

والسلالات البشرية كغيرها من سلالات المخلوقات الحية على الأرض، من حيوانات وطيور، بل ونبات، عبارة عن مجموعات ظهرت للوجود بمواصفات تتناسب مع البيئة التي خلقت فيها. حيث نجد ثعلباً قطبياً يختلف عن الثعلب الصحراوي وعن الثعلب المداري. كما نجد أن أنواع الثعالب على الأرض بالمئات، مثلها مثل الحمام أو أي حيوان أو طائر آخر. والإنسان لا يختلف عنها في هذا المجال: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨) فاطر.

الإنسان الأول

المخلوقات الحية على الأرض من حيوانات ونبات تتشابه مع الإنسان في العديد من الصفات ويهمنا منها ما يلي:

- أنها تعتمد على تزاوج ذكر وأنثى للإنجاب واستمرار الجنس: وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٤٩) الذاريات.



- وأنها سلالات مختلفة الألوان والأشكال: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨) فاطر.

وهذا يعني أن بداية خلق المخلوقات الحية على الأرض متشابهة.

ولو تمعنا في أي جنس حيواني وليكن الخيل أو الحمام أو الكلاب أو القطط المستأنسة أو غيرها فسنجد أن هناك سلالات متنوعة من كل جنس من هذه الحيوانات. وكل سلالة خلقت لتتلاءم مع البيئة التي خلقت فيها. فالحيوانات في المناطق الباردة تختلف عن مثيلاتها في المناطق الحارة. والتي تعيش في مناطق مطيرة تختلف عن تلك التي تعيش في مناطق جافة، والتي تعيش في السهول تختلف عن حيوانات من جنسها تعيش في المناطق الوعرة والجبلية ... وهكذا.

وهذا ينسف نظرية داروين التي تقول إن المخلوقات توجد في البيئة أولاً ثم تتطور لتتلاءم معها. وينسف نظرية علماء الأجناس (المتأثرين بتاريخ كتاب اليهود المقدس) والذين يقولون إن الإنسان انحدر من أبناء نوح الثلاثة.

والقرآن يقول إن هناك عناصر أساسية تكونت منها الأجيال الأولى للمخلوقات الحية على الأرض ومن بينها الإنسان، ومن هذه العناصر:

الماء

وَاللهَّ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهَّ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٥) النور.

وهذا لا يعني أن هناك خلية أولى ظهرت في الماء ومنها انبعثت كل أشكال الحياة على الأرض، ولكن يعني أن الماء عنصر أساسي في تكون الهيئة الأولى للمخلوقات الحية على الأرض: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً(٥٤) الفرقان.

ولم يكن الماء هو العنصر الوحيد الذي بدأت منه الحياة للمخلوقات الحية كما يقول داروين بل كان معه عنصر آخر، هو:

الطين

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) السجدة.



والطين عبارة عن تراب ممزوج معه الماء. وتكون الحياة بدأت بعنصري الطين والماء معاً، وليس بالماء فقط.

كيف خلقت السلالات الأولى للبشر

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤) المؤمنون.

هذه الآيات تقول إن هناك أطواراً (مراحل زمنية) مر بها خلق الإنسان، وهو ما ينطبق على كل المخلوقات الحية في الأرض. وأن البشر لم يبدأوا من رجل واحد ولكن من سلالات، كل سلالة ظهرت للوجود في بقعة ما من الأرض في نفس الوقت. والآيات تتحدث عن الظروف المناخية والكيميائية التي تظافرت لنمو أجيال السلالات البشرية الأولى. والتي احتاجت لماء وتراب وقرار مكين (مكان معزول داخل تجويف أرضي). ثم فترات طويلة متعاقبة مرت على هذا المزيج، تشكل خلالها بهيئات مختلفة، حتى أصبح بهيئة بشرية، كما يلي:

الطور الأول

بدأ بنقع التراب في الماء لفترة طويلة من الزمن في مكان تحت سطح الأرض (قرار مكين) حتى أصبح (طيناً لازباً) كما تقول سورة الصافات: إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١).

طين شديد اللزوجة.

الطور الثاني

تحول الطين إلى صلصال، كما تقول سورة الرحمن: خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤).

أي بدأ الطين يتماسك.

الطور الثالث

ثم تحول الصلصال إلى حمأ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦) الحجر.

والحمأ هو الطين المتغير للسواد من طول مكوثه في الماء الراكد.



والمسنون يعني المصبوب بشكل وقالب معين والمصقول والمملس. وهذا يعني أنه قد تشكل على هيئة ما.

تحول الخليط إلى نطفة (قد يكون شكلاً هلامياً)، ذات أمشاج كما أطلقت عليه سورة الإنسان: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ.... (٢). والنطفة هنا لا تعني بالضرورة شكلاً صغيراً، ولكنه متكون هلامي.

وكل هذا حدث تحت ظروف مناخية وكيميائية معينة، وفي مكان معزول (قرار مكين)، قد يكون تجويفاً تحت السطح.

وكل طور عبارة عن فترة تستمر لمدد طويلة من الزمن قد تكون آلاف السنين. لذا سمتها سورة الإنسان حيناً من الدهر: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً(١).

الطور الرابع

تحول النطفة إلى علقة. أي تشكل الطين الهلامي بشكل آخر لزج التصق بجدار التجويف الذي تحت الأرض.

الطور الخامس

تشكلت العلقة إلى شكل غير متناسق بنتوءات "مضغة".

الطور السادس

قست المضغة وتصلبت، وبدأت تتشكل على شكل هيكل عظمي بشري ينبت من التجويف الأرضي إلى سطح الأرض، كما تقول سورة نوح: وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً(١٧).

الطور السابع

كسي الهيكل العظمي باللحم والأعصاب والأوردة ...الخ، حتى أصبح على هيئة إنسان كامل.

الطور الثامن والأخير

نفخ الله فيه من روحه فأصبح كائناً حياً.



وكل سلالة من السلالات البشرية الأولى خلق منها مجموعة من الذكور والإناث، بهذه الطريقة، وفي وقت واحد. وهو ما ينطبق أيضاً على كل المخلوقات الحية على وجه الأرض.

وهذه الأطوار والمراحل التي مرت على خلق الإنسان غابت عن المفسرين واعتبروها تتحدث عن خلق الجنين في الرحم. فما كان من المستشرقين إلا أن اعتبروا هذه الآيات في سورة المؤمنون خطأً علمياً في القرآن يتعارض مع تخلق الجنين. وبما أنه ليس لدينا علماء مسلمون يعتمدون القرآن في إطلاق نظريات وحقائق علمية جديدة، فلم يتعرف أحد على ما يقول القرآن بوضوح هنا. لأن كل من يقرأ الآيات السابقة يفهمها بما يقول المفسرون وليس بما يقول القرآن.

وتقول سورة الأنعام: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ(٢) الأنعام.

الآية تتحدث عن أصل الأجيال الأولى للإنسان، وأنها مرت بعدة آجال (أطوار)، إلى أن وصلت للأجل الذي تشكلت فيه على هيئة إنسان ونفخت فيه الروح.

نشأة السلالات البشرية كانت في وقت واحد وخرجت للحياة في وقت واحد في كل الأرض

يقول تعالى في سورة لقمان: مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٢٨).

فالله جل وعلا خلق الناس بنفس الطريقة وبنفس الوقت وكأنهم نفس واحدة. وسيبعثهم معاً وبنفس الطريقة وكأنهم نفس واحدة وفي نفس الوقت.

استمرار الجنس البشري

بعد أن أصبح هناك جيل أول لكل سلالة بشرية، في عدة أماكن من الأرض، استمر الجنس البشري بالتزاوج بين الرجل والمرأة: أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠) القيامة.

الآيات تتحدث عن بعض مراحل تخلق الجنين في الرحم، بما يمكن للمخاطب (قريش) تصوره وما هو معروف لديهم. فهم يعلمون أن المني يتخلق منه الإنسان، لكنهم لا



يعلمون أن السائل المنوي يحتوي على حيوانات مجهرية، ولا يعلمون أن المرأة تفرز ما يسمى بالبويضة، وأن واحداً من هذه الحيوانات المجهرية يصل للبويضة ويلقحها فيحدث الحمل. لذا لم يذكر البويضة ولكنه ذكر أن الإنسان يتكون من المني وهذا صحيح. وأنه يبدأ كنطفة (شيء متناهي الصغر) ثم يتحول لعلقة (شيء يتعلق بجدار الرحم) ثم ينمو ليتشكل كإنسان، رجلاً كان أو امرأة. وهذا التفصيل في السرد يخاطب قريشاً لتفكر أن من خلق الإنسان بهذه الطريقة الإعجازية قادر على إعادة خلقه يوم القيامة.

وتقول سورة المرسلات: أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ(٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ(٢١) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(٢٣).

بداية خلق الجنين تكون من السائل المنوي (حيوان واحد يصل لبويضة المرأة ويلقحها) ويتم هذا وكل مراحل الحمل التالية «في قرار مكين» مكان مؤمن ملائم. ويستمر التخلق طوال فترة الحمل، إلى أن تحين الولادة: «إلى قدر معلوم». ليس مقدراً مسبقاً متى تلد كل امرأة ولكن بمعنى أن الحمل جعله الله مرحلة تنتهي. ليخرج إنساناً: «فقدرنا فنعم القادرون».

وتقول سورة غافر: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧).

وبداية السورة تتحدث عن البداية الأولى للسلالات البشرية (من تراب) ثم تتحدث بقية الآية عن تكون الجنين. والذي ي بدأ مع تخصيب البويضة واندماج الأحماض النووية وانقسام الخلايا لتتكون (النطفة) التي تسافر عبر قناة فالوب لتلتصق بالرحم وتتحول إلى (علقة) ومن ثم يبدأ تخلق الجنين بتكون الأنسجة والأعضاء (يخرجكم طفلاً).

والقرآن لا يخاطب قريشاً بما لا يفهمون، ولا بما سيعرفه الناس بعد قرون من تطور العلم، فكيف خاطبهم هنا بمراحل تكون الجنين في الرحم؟

الجواب سهل، ويتمثل في أن الناس منذ وجدوا على الأرض وهم يعرفون أن الجنين يتكون من ماء الرجل (الذي يرون)، ويعرفون أنه بعد ذلك يبدأ الحمل بنطفة أو تخلق صغير جداً، ثم يبدأ يكبر فيتحول إلى علقة قطعة لحمية عالقة ولاصقة بالرحم. ومن البديهي أن تتعرض بعض النساء للإجهاض في أي مرحلة من مراحل الحمل. وهو ما يعني التعرف على مراحل



تخلق الجنين بشكل عملي تشريحي عرفه الناس منذ القدم. ولم تكن الآية تتحدث لقريش بما لا يفهمون وما سيكتشفه العلم بعد قرون.

وهو ما كررت ذكره سورة غافر: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧).

وسورة فاطر: وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١).

والآية تقول بأنه سبحانه يعلم بكل تفاصيل خلقه، لكن الآية لا تؤخذ كدليل على أن الله قد قرر وقدر كل شيء مسبقاً فهي لا تقول بهذا.

وتقول سورة السجدة: ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٩).

فالله جل وعلا خلق الأجيال الأولى للسلالات البشرية من طين، ثم جعلهم يتناسلون بالتزاوج: «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ". ثم يولد الطفل ويكون له سمع وبصر وعقل.

وهو ما حدث لكل المخلوقات الحية على الأرض: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) الشورى.

فبعد ظهور الجيل الأول من كل سلالة من البشر أو أي مخلوق حي آخر، استمر الجنس بالتزاوج.

وكل زوج (ذكر وأنثى) خلقهما الله من مواصفات واحدة: وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ(٩٨) الأنعام.

نفس واحدة تعني من نفس المواصفات والتركيب، ولا تعني من إنسان واحد. فليس للبشر شخص واحد تناسلوا منه. لأن هذا غير ممكن. إذ لابد من نفسين (ذكر وأنثى) للتوالد.



خلق آدم

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٣٤) البقرة.

- الملائكة مخلوقات كونية حية.
- الملائكة هم وحدهم من أطلعهم الله على خلق آدم، وهو ما يعني أن إبليس أحدهم.

الآية (٣٠) تؤكد بشكل قاطع أن الله أخبر الملائكة بخلق آدم دون بقية مخلوقاته. أي أنه لم يخبر غيرهم معهم كالجن: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً». وهذا يعني أن كل من أخبرهم الله بخلق آدم ملائكة بما فيهم إبليس.

وقول الملائكة: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء» قياساً على ما اختبروه ويرونه من أفعال البشر. وهذا يؤكد أن آدم ليس أول البشر، وإن خلق بدون أب أو أم، مثلما خلق عيسى بلا أب: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٥٩) آل عمران.

وكلاهما رجلان من البشر وليسا أول البشر.

والله جل شأنه أبلغ الملائكة في أماكن تواجدهم في الكون، والذي يطلق عليه القرآن: «الملأ الأعلى»، كما جاء في سورة ص: مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١).

لقد أبلغ الله الملائكة في المكان الذي يعيشون فيه (الملأ الأعلى)، ولم يحدث ذلك في الأرض، التي خلق عليها آدم. وبمجرد أن أبلغهم الله بخبر خلق آدم حتى تباينت مواقف الملائكة منه، وحصل خلاف بينهم حول ذلك. البعض قبل دون اعتراض، والبعض عارض بشدة « قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ."



وهذا الاعتراض بني على حجة أنهم أفضل من البشر وأن هذا البشر سيفعل ما فعله أمثاله من البشر المنتشرين على الأرض قبل خلق آدم. فهم هنا يقولون لماذا تريد خلق بشر يفسد في الأرض ويسفك الدماء، كما يفعل البشر الموجودون، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ لقد بنى المعترضون من الملائكة اعتراضهم على خلق آدم، على شعورهم بأنهم أفضل من هذا الإنسان. ولم يكن إبليس وحده من شعر بشعور الفوقية هذا، لكن بقية الملائكة امتثلوا لأمر الله.

وقد أخبر الله الملائكة بأشياء خفيت عليهم، تتعلق بخلق آدم، وبين جزءً منها بالدليل المحسوس: «قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣).

هنا أعلن من عارض في البداية تراجعهم عن اعتراضهم، إما عن قناعة تامة واعتراف بخطأ موقفهم، أو تسليماً بمشيئة الله، والسكوت لأنهم لا يستطيعون الاعتراض على مشيئة الله رضوا أم لم يرضوا، مع الاحتفاظ بالشعور الشخصي حيال خلق آدم.

الموقف من السجود

كان من المحتمل ألا يعلن إبليس عصيانه، وسيعيش مع غيره من الملائكة الذين اعترضوا ثم سكتوا، لولا أن الله جلت قدرته طلب من الملائكة السجود لهذا الإنسان: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٣٤) البقرة.

عندما طلب الله منهم السجود سجدوا جميعاً، بما في ذلك المعارضون لخلق آدم، والذين شعروا أنهم أفضل منه، إلا واحداً منهم، لم يستطع كبح جماح نفسه. فأعلن أنه لن يسجد لهذا المخلوق الذي شعر منذ البداية أنه أفضل منه.

نعم لقد سكت عن الاعتراض لأنها مشيئة الله ولا يستطيع الاعتراض على مشيئة الله في خلق من يشاء. لكن أن يسجد لهذا المخلوق وهو أفضل خلقاً منه، فلا.

وموقف الملائكة مشابه لمواقف المخلوقات البشرية. فمثلاً لو أن حُكماً قضائياً وقع ضد



أشخاص. فنجد أنهم سيعارضون، لكن شكل الاعتراض سيختلف بينهم. فمنهم من يعارض في البداية، وعندما يشرح له مبررات الحكم سيقتنع ويسكت، أو يسكت ولو لم يقتنع.

والبعض الآخر سيستمر بالاعتراض وقد يتصرف بتصرفات تؤدي لضرره شخصياً، لأنه شعر أن تراجعه تخل عن حق من حقوقه.

إبليس كان ممن عارض وسكت دون قناعة، ولما طلب منه السجود أعلن أنه يرفض السجود لمخلوق اعتبره أقل شأنناً وقدراً منه منذ البداية. فطرد من رحمة الله ليس لأنه قال إنه أفضل من آدم، ولكن لأنه عصى أمر ربه. وعصيان أوامر الله موجبة للعقاب.

وطلب السجود لآدم كان في المكان الذي يعيش فيه الملائكة، ولم يتشكلوا بهيئات محسوسة ويقفوا أمام آدم ليراهم وهم يسجدون له. لأن السجود ليس لتعظيم وتقديس آدم، بل استجابة لأمر الله، واحتراماً لمشيئته في خلق آدم. فهم سجدوا لله وليس لآدم.

الجنة

تستمر الآيات بسرد ما حدث لآدم بعد ذلك: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧) قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩).

لقد سكن آدم وزوجه «الجنة» بمفهومها الأرضي التي تعني الغابة والأرض الخضراء الشجرية التي تجري فيها الجداول المائية. وقول المفسرين إنها جنة الخلد، يظهر كم يجهلون القرآن، الذي يؤكد أن جنة الخلد لم تخلق بعد، لأنها ستخلق في كون القيامة الذي لن يخلق إلا بعد انهيار وانتهاء هذا الكون، وقد مررنا بآيات كثيرة تؤكد ذلك.

ولأن القرآن يؤكد أن جنة الخلد لا تكون إلا بعد الحساب، والحساب يوم القيامة. فكيف يدخل آدم الجنة قبل أن يعمل وتسجل أعماله ويحاسب ثم يستحق الجنة، كما نص عليه القرآن: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ



فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً(٥٧) النساء.

والجنة لفظ موجود قبل نزول القرآن وقبل نزول التوراة في اللغة ويعني الأرض العشبية الشجرية والتي تمر بها الجداول المائية. كما أن الجنة هي البستان وخاصة بستان النخيل. والوحي سمى مكان النعيم في الآخرة جنة بناءً على ذلك. ولم يكن القرآن هو من استخدم كلمة «الجنة» وبل استخدمها الناس للبستان والأرض الخضراء أيضاً.

زوج آدم

من أين أتت؟

القرآن لا يشير إطلاقا إنها خلقت معه وبالطريقة التي خلق بها، وإن بقي هذا الاحتمال قائماً. فإن كانت زوجة آدم لم تخلق معه، فهل تزوج آدم من البشر القريبين منه؟

الطرد من الجنة

الآيات تقول إن الشيطان قادهما للزلل المتمثل بعصيان نهي الله بألا يأكلا من شجرة معينة، وأكلا. فعاقبهما الله بطردهما من الجنة وأمرهما بالهبوط منها، وهذا يشير إلى أن الجنة تقع على جبل، وهبطا إلى أرض سهلية تحت الجبل.

ولنا أن نسأل: هل الشيطان هو إبليس؟

أم أن الشيطان هنا وساوس النفس، أنا أميل إلى أن الشيطان هو الوساوس وليس ذاك المخلوق من الملائكة الذي عصى ربه بعد السجود لآدم. وإن كان إبليس لديه القدرة على تحريك الوساوس لكنه لا يستطيع فرضها، وهي موجودة في النفس وليس إبليس مصدرها. فإبليس قد يكون شيطاناً، مثلما أن هناك شيطاناً من البشر يحرك وساوس أخيه، وهناك وساوس خفية من النفس البشرية ذاتها هي شيطان أيضاً[1].

خلق الله مستمر

خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(٤) وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى

١ حديث مفصل عن آدم تجدونه في كتاب: من آدم إلى محمد/ تاريخ الأمم والأشخاص المذكورين في القرآن.



بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨) وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩) النحل.

إشارة إلى أن الخلق مستمر ولم يتوقف ولن يتوقف. قد يكون في أماكن من هذا الكون، وقد يكون في أكوان أخرى، وقد يكون خلق كون آخر بعد هذا الكون.

الجن

مخلوقات لا مرئية، ولا تملك القدرة على التشكل بهيئة مرئية ولو بصفة مؤقتة، وسنتتبع بعض ما جاء في القرآن عنهم. وبداية ذكرهم ورد في سورة الجن والتي تروي كيف استمع نفر منهم لتلاوة الرسول:

الحادثة بدأت صدفة

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً(٧).

الرسول لم يعلم حينها أن أحداً يستمع لتلاوته القرآن، غير البشر الذين أمامه من قريش. ونقول من قريش لأن السورة نزلت في وقت كان المخاطب هم قريش فقط، في مرحلة كانت الدعوة موجهة لهم وحدهم دون بقية الناس. ولولا أن القرآن أخبر الرسول أن نفراً من الجن استمعوا إليه لما عرف بذلك أبداً، مهما تكرر حضور الجن واستماعهم لتلاوته. لأنهم خلق بلا أجساد محسوسة، لن يكون بإمكان الرسول وأي بشر آخر رؤيتهم. والسورة تؤكد أن النفر قد تزاحموا حول الرسول: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

ومع ذلك لم يشعر بهم ولم يحس بوجودهم.

والكون لابد أنه ممتلئ بمخلوقات جسدية وغير جسدية، لكن القرآن دائماً لا يتحدث عن



أي مخلوقات غير أرضية إلا إذا كان لهم علاقة بالناس على الأرض. بل إن القرآن لم يتحدث عن مخلوقات لا تعرفها قريش، ولا عن أناس لا يعرفونهم من أهل الأرض. ولذا فحديث السورة عن الجن سببه أن نفراً منهم استمعوا لتلاوة الرسول، وآمنوا بالدين الذي يدعو له، وذهابهم لقومهم ودعوتهم للإيمان، مما جعل هناك مبرراً للحديث عنهم وإطلاع البشر على ما حدث. وهذا مماثل لحديث القرآن عن الملائكة الذين شهدوا خلق آدم، لأن أحدهم لم يستجب للسجود لآدم فطرد من مجتمع الملائكة ومن رحمة الله، وحبس في محيط الأرض – وهو نفس المحيط الذي يعيش فيه الجن كما سنرى – وأصبح إبليس – الملَك العاصي – مصدر إغواء للناس. وهي وإن كانت علاقة خفية ولا تجعل إبليس مرئياً من قبل البشر، إلا أن مناسبة حضور الملائكة خلق آدم وعصيان إبليس كانت سبباً لحديث القرآن عنهم. ولم يتحدث القرآن عن مخلوقات لابد أنها تملأ هذا الكون الهائل، سواء كانت مرئية أو غير مرئية، لأنها لا علاقة لها بحياة الناس وليس بينها وبينهم اتصال وتواصل في ذلك الوقت. وإن كان هذا لا يعني أنه لن يتمكن البشر يوماً من التواصل بمخلوقات حية تعيش في أماكن في هذا الكون. نظرياً هذا محتمل، ولا شيء يمنعه إلا بعد المسافات.

يتواصلون فيما بينهم

عندما يقول القرآن: " فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً" فهو كلام على لسان الجن، ينقل لنا أنهم استمعوا وأحاطوا وفهموا ما كان رسول الله يتلوه من القرآن، فالقرآن ينقل لنا أنهم فهموا ما كان يتلى بمقدرة ما يتمتعون بها وتناقلوا المعلومة بمقدرة ما يتمتعون بها، ولا يعني أنه كان لديهم آذان كآذان البشر وأنهم كانوا يتحدثون بلغة بشرية. وهو دليل على أن التواصل بين مخلوقات خفية علينا في الكون ليس بالضرورة أن يكون بالكلام أو خروج أصوات من الحنجرة كما هي الحال مع الطيور والحيوانات الأرضية. وهذا ينفي أن يكون القرآن إما مخلوقاً، بمعنى أن حروف الآيات مخلوقات خلقها الله، أو أنه منطوق، بمعنى أن الله نطق به للملائكة الذين نقلوه للرسول. ولكنه مجرد معلومة تم توصيلها بطريقة غير معتادة عندنا، إلى الأرشيف الإلهي – وقامت ملائكة لديها قدرة خاصة بتحويل تلك المعلومة المحفوظة في الأرشيف الإلهي بصيغة معينة إلى نصوص عربية تحفر في ذاكرة الرسول.



لديهم القدرة على فهم لغة البشر

فقد استمعوا لتلاوة الرسول للقرآن وفهموها: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ».

لكن: هل يستطيع كل الجن فهم أي لغة أو لهجة يتكلم بها البشر؟

المرجح أنهم يستطيعون، فكونهم مخلوقات من طاقة فإن تنقلاتهم السريعة تجعلهم يتواجدون في أي بقعة من الأرض في وقت قصير مهما كان بعد هذه البقعة. وبالتالي يمكن القول بأنهم إن كانوا يفهمون لغة واحدة من لغات البشر فهم سيفهمون بقية اللغات واللهجات، وهذا ما أعتقد. وفهم ما يقال لا يعني أنهم قادرون على الكلام.

الجن جنس واحد وليسوا شعوباً مختلفة

وهذا يمكن فهمه ضمناً من الآيات، حيث يتحدث النفر الذين استمعوا لتلاوة الرسول عن الجن كمجموعة واحدة أو جنس واحد، ليس بينهم أي اختلاف لا في الخلق ولا في القدرات. فالآية الأولى تقول بأن من استمع لتلاوة الرسول نفر من الجن، وليس نفراً من طائفة معينة من الجن: « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ».

وأولئك النفر يتحدثون عن عموم الجن بضمير المتكلم: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ .... وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ..... وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ".

والناس انقسموا لشعوب وقبائل ليتعارفوا، بنسبة كل شخص لوالده، أما الجن فلا يتناسلون وبالتالي فهم أمة واحدة خلقت معاً، وسيموتون معاً، ككل المخلوقات اللاحسية.

يعيشون في محيط الأرض

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً(١٠) الجن.

الآيات تظهر أنهم يعيشون في محيط الأرض، وكانوا في أزمنة قديمة يستطيعون التجول في الفضاء والتنصت على مخلوقات كونية بعيدة: « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ». أما الآن



(وقت نزول السورة) فقد منعوا من التجوال في الكون: « فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً، وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً». ولم يعد بإمكانهم الخروج من محيط الأرض وغلافها الجوي.

وقد أشارت لذلك سورة الملك: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(٥).

وسورة الصافات: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠).

وسورة الرحمن: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(٣٣) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ(٣٥).

وأشارت له سورة فصلت: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢).

وتنصت شياطين الجن كان على مخلوقات بعيدة في الكون وليس على الوحي، كما تزعم كتب التراث من تفسير وأحاديث. لأن الوحي لا ينقل من الله جل وعلا مشافهة للملك المكلف بنقله لرسول البشر.

وتؤكد سورة الأحقاف ما ورد في سورة الجن من أنهم يعيشون في محيط الأرض: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٣٢).

والآية: (٣٢) تقول على لسان النفر من الجن: إن من يكفر (منهم) فلن يعجز الله في الأرض (مكان إقامتهم).

وتقول سورة الحجر: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن



كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ(١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ(١٨).

السماء الدنيا (طبقة من طبقات الجو) وهي الطبقة التي أصبحت تحجز الجن من التجوال في الكون بعيداً عن محيط الأرض الذي يعيشون فيه كما كانوا يفعلون في أزمنة سابقة. وكل من يحاول منهم الآن الخروج يتبعه شهاب.

فهل شهاب تعني مفهومنا الحالي للشهب وهي النيازك؟

أم أنها تعني قوة إشعاعية أو مغناطيسية أو غيرها هي التي تصيب الجان عندما يحاول الخروج من محيط الأرض، وسميت شهاباً وشهباً لأن الإنسان يرى الشهب وهي تحترق. أظن ذلك.

مكلفون بالإيمان بالأديان التي أرسل الله بها رسل البشر

فقد آمن النفر الذين استمعوا للرسول بالإسلام ودعوا قومهم له: « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ».

وفيه تأكيد على أن الجن يستطيعون فهم أي لغة يتكلم بها البشر، لأن الله جل وعلا يرسل الرسول من البشر بلغة قومه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤) إبراهيم.

ولو كانت الجن لا تفهم لغات البشر فلن تطالب بالإيمان برسلهم، والنفر من الجن فهموا ما يتلو الرسول من القرآن فقامت عليهم الحجة، ولزمهم الإيمان، أو دخول النار، وكأن القرآن أرسل لهم أيضاً. وهذا فيه إشارة إلى أن دين الله واحد ليس فقط لكل البشر، بل لكل مخلوقات الكون الحية. سواء منها الجسدي كالبشر أو اللاجسدي كالجن والملائكة ومن على شاكلتهم.

فآمن بعضهم وكفر البعض

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥) الجن.

والجن يتبعون عقائد متنوعة، ويتباينون في الأخلاق: وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(١١) الجن.



وهذا ليس وقفاً على الجن والإنس ولكنه موجود عند كل المخلوقات الحية في الكون. وكلهم سيحاسبون، والمؤمن منهم سيكون مصيره الجنة أما الكافر فمأواه النار.

خلقهم قديم سبق خلق الإنسان

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩) الجن.

هذه الآيات فيها إشارة لقدم خلق الجن، فهم في أزمنة قديمة كانوا يتجولون في الفضاء. وما يؤيده قوله تعالى: قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) الأحقاف.

فقد كان نفس النفر آمنوا بكتاب موسى (التوراة) التي سبقت عهد الرسول محمد بألفي عام، ومن يعش ألفي عام فقد يكون عاش آلاف وملايين الأعوام.

وهو ما أشارت له سورة الحجر: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ(٢٧).

فخلقهم سبق خلق الإنسان: «وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ". وخلق الإنسان حدث قبل عشرات الآلاف من السنين. وبما أن الجن مخلوقات لا تتناسل، فقد خلقوا بنفس العدد في وقت واحد قبل خلق الإنسان، وسيموتون في وقت واحد، في الغالب بعد الإنسان.

خلق الجن من طاقة

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ(٢٧) الحجر.

النار طاقة والجن خلقوا من نار السموم يعني من بعض عناصر الطاقة.

وهو ما أكدته سورة الرحمن: وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦).

وقد ترجمت الآية (١٥) للإنجليزية في بعض الترجمات التي ترعاها جهات رسمية سعودية بهذا الشكل: And the jinn did He create of smokeless fire

والحقيقة أن كلمة "مارج" لا تعني «نار عديمة الدخان» smokeless fire ولكنها تعني



عناصر أو أجزاء Elements. كما أن نار Fire قد تعني طاقة بلغة العصر. ويكون من الأفضل لو ترجمت الآية بهذا الشكل: .And the jinn did He Create of Elements of Energy

استحالة تواصل الجن مع الإنس أو الظهور لهم

لأن الجن بكل بساطة خلقوا من طاقة، وليست لهم أجساد حسية كالمخلوقات التي تعيش على الأرض. ولا يملك الجن القدرة على التشكل بهيئة جسدية كما بعض المخلوقات الكونية الأخرى مثل أولئك الذين رآهم إبراهيم ولوط، كما تخبرنا سورة الذاريات: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ(٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ(٢٨).

ولو كان الجن يستطيعون التخاطب مع الإنس لخاطبوا الرسول، ولو كان الجن يستطيعون التشكل بهيئة بشرية جسدية مرئية لفعلوا ذلك مع الرسول لحاجتهم إلى محادثته والاجتماع به وسؤاله عن دينهم الجديد (الإسلام) الذي اهتدوا له بعد استماعهم لتلاوته.

وتقول سورة الرحمن: وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ(١٥) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٦).

ومع ذلك فقد رسخ المفسرون أن الرسول رآهم وتحدث إليهم، وهذا نتيجة لأن المفسرين تسيطر على عقولهم وعقول الكثير من الناس في مجتمعاتهم اعتقاد أن الجن يتشكلون بهيئات مرئية للبشر. وهو معتقد قديم منتشر في جزيرة العرب قبل الإسلام، لدرجة أنهم كانوا يعوذون بالجن ظناً منهم أنه بإمكانهم حمايتهم من المجهول، أو إصابتهم بضرر: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦).

وتقول كتب التراث إنهم كانوا عندما يهبطون وادياً في ترحالهم يرددون عبارات مثل: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه". لأن المسافر في الصحراء الموحشة يكون بحالة خوف، ليس لأن الجن لديها القدرة على التشكل بهيئات مفزعة أو أنها تطارد الناس، ولكن لوجوده وحيداً بعيداً عن الناس والعمران في أرض قفر جرداء، إلا من السراب الذي يحول الأشياء البعيدة إلى أشكال مخيفة أو «جن» في عين الرائي. وهذه شهادة من القرن العشرين على وحشة الصحراء من ياباني وجد نفسه وسط صحراء نجد في العام ١٩٣٩.



يقول إيجيرو ناكانو في كتابه الرحلة اليابانية في الجزيرة العربية[1]: " أعتقد أن العرب القدامى الذين تحدثوا عن الجن لم يتحدثوا من فراغ، بل تحدثوا عنهم من واقع معايشتهم لمثل هذه الطبيعة الصعبة التي تضمني الآن، حيث لا يمكن للمرء أن يرى شيئاً سوى الفراغ الهائل يحيط به من كل جانب. ولابد أن العرب كانوا يشاهدون الصخور البعيدة تتشكل بفعل السراب إلى أشكال غريبة أقرب إلى الجن منها إلى أي شكل آخر".

قدرات الجن محدودة

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) الجن.

لو لم يصادف تواجد هذا النفر من الجن في عين المكان الذي كان يتلو فيه الرسول القرآن لما سمعوه ولما عرفوا عنه شيئاً. وهو ما يعني عدم قدرتهم على معرفة ما يدور في أماكن بعيدة عنهم، ويعني أيضاً أن قدراتهم محدودة، وليس كما يظن الناس.

وتؤكد هذا سورة الأحقاف التي تعيد ذكر حادثة استماع الجن للرسول: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) الأحقاف.

"فلما حضروه" تأكيد على لزوم تواجدهم في المكان ليحيطوا بما يجري فيه، ولو لم يحضروا لما سمعوا الرسول.

ونفس الآية تؤكد هذا مرة أخرى بالقول: «فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين» فأولئك النفر لما انتهى الرسول من تلاوته غادروا المكان لقومهم الجن المتواجدين بعيدا ليخبروهم بما سمعوا.

إشارة إلى أن الكون مليء بمخلوقات حية

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(٢٩) الشورى.

فالسموات بالنسبة للمخاطب قريش هي تلك الطبقات المتراصة فوق الأرض على شكل سماء دنيا وثانية وثالثة .. إلى السابعة. والتي لا يرون منها (حسب ظنهم) إلا السماء الدنيا.

١ من اصدار دارة الملك عبد العزيز.



والآية لا تعطي صورة دقيقة عن الكون كما هو، ولكن تتحدث عنه بنفس مفهوم قريش له وتقول لهم إن تلك السماوات مليئة بمخلوقات الله.

ونظرياً كل الدلائل العلمية والمنطقية تدل على أن الكون مليء بالمخلوقات الحسية الحية، لكن في كواكب بعيدة جداً عنا لا نملك وسيلة للوصول إليها حتى الآن. وليس من المعقول أن يتفرد كوكب الأرض بهذه الميزة، من بين تريليونات الكواكب. كما أن من المنطق أن يكون هناك مخلوقات لا حسية لا حصر لها في هذا الكون، ولا نتواصل معها لأنه لا حاجة لهم بنا ولا حاجة لنا بهم.

جميع المخلوقات في الكون تمتلك نفس المشاعر

سورة «ص» التي تتحدث عن موقف الملائكة من السجود لآدم، تخبرنا أن إبليس قد عصى بمحض إرادته: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ(٧٤) ص.

وإبليس واحد من الملائكة الذين تقول عنهم كتب الموروث إنهم مخلوقات معصومون عن الخطأ وإنهم لا يعرفون إلا جانب الخير. لذا حاولوا أن يقولوا إن إبليس جني متطفل على الملائكة الذين أبلغوا بخلق آدم، ولم يكن منهم. ومع أن هذا القول فيه اتهام لله أنه يمكن أن يخدع بواحد من خلقه ويحضر المخلوق في مكان أراد الله أن يكون مقصوراً على خلق معينين. إلا أن هذا الاتهام عند السلف أهون من أن يقبلوا بأن إبليس من الملائكة وتنهار عقيدتهم التي تقول إن الملائكة لا يعصون، ومخلوقات لا يعرفون الشر وخلقوا للتنفيذ والطاعة المطلقة. ويستدلون على ذلك بجزء من آية تقول: "عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَّ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ".

وهذا الاستشهاد خاطئ – كعادة استدلالات المفسرين والمحدثين وأتباع السلف – لأن جزء الآية انتزع من سياقه، وهذا نص الآية بتمامها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَّ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٦) التحريم.



ولو عدنا للسياق لوجدنا الآية تخاطب المسلمين بعد الهجرة، طالبة منهم أن يتقوا الله ويتمسكوا بأوامره لئلا يكون مصيرهم النار التي لا تبقي ولا تذر والتي يقوم عليها (ملائكة شداد غلاظ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) والنار لن تخلق إلا يوم القيامة وبعد انهيار هذا الكون ونشأة كون القيامة. ويوم القيامة يوم تحديد المصير والثواب والعقاب لكل المخلوقات – بما في ذلك الملائكة - وليست حياة عمل وتحصيل.

والملائكة في القرآن لفظ يأتي بعدة معانٍ – كما سبق وذكر - منها أنه يأتي بمعنى آلية وليس مخلوقات حية. لذا فالملائكة الذين تقول الآية إنهم على النار ليسوا مخلوقات حية، ولكن آليات بموجبها تعمل النار وتبقى. والآليات ليس لديها ميول ولا مشاعر لذا فهي تعمل باستمرار دون توقف ودون أن يكون لها رأي فيما تعمل. فهي بالفعل قوية غليظة كون النار تعمل بواسطتها، ولا تعصي الله ما أمرها، وهو تسيير عمل النار بكل دقة. وهذه الآلية عبارة عن قوانين ثابتة أوجدها الله جل وعلا (كن فكانت) ليس فقط لتسيير عمل النار بل وعمل الجنة والحساب ونشأة كون القيامة وكل ما فيه.

ويكون عصيان إبليس – وهو أحد الملائكة – ليس مستغرباً، لأنه كعصيان البشر يمكن حدوثه على الدوام. وما يشاع عن الملائكة أنهم جنس لا يعرف الخطأ هو مجرد أسطورة شائعة، ترسخ بسبب جهل الناس بعالم الخالق وقياسه بما يعرفون في عالمهم. معتبرين أنه سبحانه قد اختار أنواعاً من مخلوقاته للقيام على خدمته كما يفعل البشر. ومن هؤلاء الملائكة الذين خلقهم الله مسلوبي الإرادة ولا يحملون سوى جانب واحد هو الخير والطاعة المطلقة. في صورة أقرب ما تكون لحال الرقيق الذين يقوم أسيادهم بخصيهم ويسخرون للخدمة والطاعة المطلقة طوال حياتهم، وكأنهم خلقوا كآلات للتنفيذ والطاعة دون تفكير.

والله جل وعلا لا يحتاج لأحد من خلقه لا في خدمة ولا في إدارة ومعاونة. فتسيير الكون وما فيه لا يحتاج لمخلوقات حية تسيره تديره أو تشرف عليه، وكل ما احتاجه هو: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) يس.

وفعل الأمر «كن» يعني إيجاد قوانين فيزيائية وطبيعية ثابتة هي الكفيلة بإيجاد الكون من العدم، وهي الكفيلة بتسييره بعد ذلك، وهي الكفيلة بانهياره فيما بعد. وسيكون هناك قوانين ثابتة لنشأة كون القيامة والجنة والنار وتسييرها دون حاجة لمخلوقات حية ملائكة



كانت أو غيرها لا للمعاونة في خلقها ولا في تسييرها.

فالقوانين في عالم الخالق توجد لينشأ منها خلق، بينما هي في عالم الخلق موجودة تكتشف لكي يفهم منها كيف تعمل.

والناس يظنون أن هناك سلم مفاضلة بين المخلوقات، بحيث إن بعضها أفضل وأميز من بعض. نتيجة لأنه ترسخ لديهم تفاضل جنس أو فصيل على آخر، أو تفاضل البعض من نفس الفصيلة أو الجنس، أو تفاضل بين الأمم أو من داخل المجتمع الواحد..الخ. وبناءً على ما سبق فالإنسان يأتي في أعلى السلم بالنسبة لمخلوقات الأرض، يليه الحيوانات بدرجات متفاوتة ثم الحشرات ..الخ. أما الملائكة فيعلو شأنهم ويفضلون البشر، وهم في أعلى السلم بين جميع مخلوقات الله، ثم يعلوهم رب العالمين. ومن هنا جاء تصور أن الكون عبارة عن سبع طبقات (سماوات) تعلو الأرض. وكل طبقة فيها سكان يفضلون من تحتهم. وفوق الطبقة السابعة هناك الخالق يعلو الجميع لأنه أفضلهم. وهذا تشبيه لا يليق بالخالق وتقليل لقدره سبحانه. فهو لا يكون أفضل من خلقه، لأن «أفضل» تعني مقارنة. والله جل وعلا لا يقارن بخلقه مهما كبرت النسبة.

وهو سبحانه لا يحده مكان وكرسي يجلس عليه بحيث يستطيع الاطلاع على ما يجري في خلقه. تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا التصنيف لا وجود له إلا في عقول بعض الناس، ولا يقره خالق الخلق. والقرآن ينص على أن هناك عالمين منفصلين:

عالم الخالق الذي لا نحيط بشيء من علمه، ولا نعرف عنه شيء، لا نحن كبشر ولا أي مخلوقات أخرى. وعالم الخالق لا يمكن لمخلوق الوصول له ولا التواصل معه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ(١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨) الأنبياء.

وعالم المخلوقات كلها تكون ضمن الكون. وليس بين المخلوقات تفاضل وتمايز طبقي، ولكن بينها اختلافات تتناسب مع هيئاتها وما خلقت له. وليست الملائكة أفضل عند الله – طبقياً – من الناس أو الجن، كما أن الإنسان ليس أفضل – طبقياً – من الحيوانات، مع



بقاء التفاضل في القدرات. لكن التفاضل في القدرات وطريقة الحياة لا تعطي الحق لنوع أو جنس أن يبغي أو يتكبر.

والقرآن يحتوي على عدة قرائن تشير إلى أن كل المخلوقات الحية في الكون – الجسدية منها واللاجسدية – لديها نفس المشاعر. لأنها جميعاً تحمل جانباً سيئاً يمكن أن يظهر في أي لحظة على شكل مشاعر سيئة كالحسد والكراهية والكفر وغيرها، وجانب خيِّر يظهر على شكل مشاعر الود والإيثار والإيمان وغيرها. وفيما يلي بعض هذه لقرائن:

ورد في عدة سور خبر خلق آدم وموقف إبليس الرافض للسجود، معللا رفضه بأنه أفضل منه، ومن ذلك ما جاء في سورة «ص»:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ(٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦).

ورفض إبليس جاء نتيجة لأن جانب الشر المتمثل بالحسد والشعور بالزهو والتميز سيطر عليه وتصرف بموجبه. وهو ما يعني أن الملائكة يملكون جانبي الشر والخير كما البشر. ولديهم كامل الحرية لاختيار تصرفاتهم ومشاعرهم كما البشر، وليسوا كما تخيلنا نتيجة لموروثنا الثقافي والديني.

وترد سورة الأنبياء مزاعم قريش حول الملائكة:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٢٩).

والآية (٢٩) تؤكد أنه لو تجرأ أحد الملائكة وزعم الألوهية فسيجزى جهنم كأي ظالم من البشر أو أي مخلوقات أخرى. فالملائكة ستحاسب، وكل من يحاسب فهو يملك جانبي الشر والخير. ويملك الإرادة لكي يظهر أي جانب يشاء، فهو مخير وليس مسيراً. ومن يحاسب من المخلوقات فالبعض سيدخل الجنة لأنه آمن وأطاع، والبعض سيدخل النار



لأنه عصى وكفر. فالملائكة مجرد عباد للرحمن كما البشر، يعملون في الدنيا وسيحاسبون في الآخرة، وليسوا كما تخيلهم البشر معصومين تارة وبنات الله تارة أخرى: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩) الزخرف.

وكل تصوراتنا عن عالم الملائكة والجن هي تصورات خرافية. ومن ذلك الاعتقاد بأنهم يستطيعون معرفة ما يجري في مكان ما ولو كانوا بعيدين عنه، وهذا غير صحيح. فسورة الجن تخبر الرسول أنه قد استمع إليه وهو يتلو القرآن نفر من الجن: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١). وهذا يعني أنهم كانوا في عين المكان عندما كان الرسول يتلو القرآن فاستمعوا له، ولو كانوا في مكان آخر لما عرفوا بذلك، برغم أنهم يعيشون في محيط الأرض. فهم وإن كانوا مخلوقات لا جسدية فليست لديهم قدرات خارقة، بل إن قدراتهم محدودة، ولكن خلقهم هو المختلف عن الإنس والمخلوقات الجسدية.

وسورة البقرة تظهر أن الملائكة لم يعلموا أن الله قد خلق آدم عندما أخبرهم بخلقه: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) البقرة.

والسورة تؤكد أن الله أبلغ الملائكة بخلق آدم بعدما خلقه ولم يعلموا هم بذلك وظنوا أنه يشاورهم هل يخلقه أم لا؟: وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣).

وتخبرنا سور عدة عن ضيف إبراهيم (من الملائكة) وكيف أنهم عندما حضروا لإبراهيم وذهب لذبح العجل وطبخه انتظروا حتى أتى وقدم لهم الطعام. ولو كانوا يعلمون أنه ذهب ليعد لهم الطعام لأخبروه أنهم لا يستطيعون تناوله ووفروا عليه الوقت وخسارة العجل: وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ(٧٠) هود.

وإن كانت الملائكة تحمل جانب الخير والشر وتكفر – كما فعل إبليس – وهي التي يعتقد



الناس أنها مخلوقات لا يصدر منها إلا الخير، فمن باب أولى أن يصدر الخير والشر من أي مخلوقات في الكون، بغض النظر إن كانت جسدية أو لاجسدية. ووجود الخير والشر والقدرة على إظهار أي جانب من ضرورات الدنيا. لأنها دار عمل وتحصيل، ويوم القيامة ستحاسب المخلوقات على قدرتها على ضبط النفس والتحكم بجانب الشر وإظهار جانب الخير. ولو كان هناك مخلوقات لا تملك إرادة اختيار طريقها، فلا حاجة لخلقها في الدنيا، لأن الله جل وعلا ليس بحاجة لخلقه: وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) العنكبوت.

والله جل وعلا لم يخلق كل المخلوقات إلا لكي يعلم من آمن ومن كفر: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) الذاريات.

ويوم القيامة كل مخلوق حي في الكون سيحاسب: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩) هود.

والجِن والجنة بكسرة تحت الجيم لا تعني الجن فقط، بل تعني كل مخلوقات الله غير المرئية للإنس ويدخل فيهم الملائكة وجميع مخلوقات الكون التي لا يراها الإنسان سواءً كانت جسدية أو لا جسدية، كما أكدت سورة الصافات: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠).

والآيات تخاطب قريشاً، مستنكرة عليهم زعمهم أن الملائكة بنات الله. وتنفي أن تكون الملائكة إناث، لأن المخلوقات الروحانية كالملائكة والجن ليس لها جنس، فهي ليست مذكراً ولا مؤنثاً. وتقول الآية (١٥٨) إن قريشاً باعتقادها أن الملائكة بنات الله قد جعلت بينها وبين الله جل وعلا نسباً، مع أن الجنة يعلمون أنهم خلق من خلق الله سيحضرون للحساب يوم القيامة كغيرهم من المخلوقات. والملائكة بالنسبة لقريش جِنّة لأنهم مخلوقات خفية لا جسدية. فالجنة هنا تعني الخفية. وكل المخلوقات في الكون وإن اختلفت هيئاتها تتفق في أن



لديها جانب الخير وجانب الشر. وتملك الإرادة الحرة لاختيار الطريق والتحكم في المشاعر. وكلها مخلوقات ضعيفة لا تعرف عن الرحمن أكثر مما يعرف البشر، ولا تستطيع التواصل معه سبحانه مباشرة، وليس بينها من هو أفضل عند الرحمن من بعض. وكلهم عباد الله، سواء كانوا ملائكة: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩) الزخرف.

أو كانوا من بني إسرائيل: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهَّ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) الدخان.

الدين واحد لكل مخلوقات الكون

تقول سورة الذاريات: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ(٥٧) إِنَّ اللهَّ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨).

فكل المخلوقات الحية التي في الكون وتخفى على الإنس مطلوب منها الإيمان بدين واحد، سواء كانت جسدية كالإنسان أو لا جسدية كالملائكة والجن. وكلها ستحاسب، وكثير منها سيدخل النار كما البشر: وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣) السجدة.

وخبر استماع الجن للرسول وإيمانهم به يؤكد أن الدين واحد ليس فقط للأمم السابقة واللاحقة من البشر، ولكن لكل المخلوقات الحية في الكون. ولو اطلعت مخلوقات على دين مخلوقات أخرى في الكون فستجده نفس الدين المرسل لهم، كما حدث مع الجن الذين استمعوا للرسول. ولو كان الدين الذي أرسلت به رسل البشر خاصاً بهم، لما آمنت به الجن الذين كانوا يؤمنون برسالة موسى، قبل أن يؤمنوا برسالة محمد: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهَّ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللهَّ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٣٢) الأحقاف.

وإيمان الجن بنفس الدين الموجه للبشر، يعني أن الدين واحد للجن والإنس والملائكة وكل



المخلوقات الكونية وسيكون حسابها واحداً ولها جنة واحدة ونار واحدة، بمنتهى العدل الإلهي. ولابد أن هناك رسلاً للجن منهم، وللملائكة منهم، ولكل مخلوقات جسدية أو لا جسدية في الكون رسلهم منهم. وهو ما أشارت له سورة بني إسرائيل: قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥).

ولهذا خاطبت سورة الرحمن الإنس (البشر) والجن (كل المخلوقات الحية الخافية على الإنسان في الكون).

الدين واحد

الحقيقة التي لم يدركها بعض المستشرقين، ولم يرد البعض الآخر إدراكها، تتمثل في كون كل الأديان السماوية متماثلة التشريع، وهذا ما يؤكده القرآن بكل جلاء: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) الشورى.

فالدين الذي أرسلت به جميع الرسل هو دين واحد: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ (آل عمران:١٩)

ولو جاء كل رسول بتشريعات تختلف عن التشريعات التي جاء بها غيره من الرسل، فإن هذا سيكون مدعاة للتشكيك بمصداقيته. وبناءً على ذلك، فلو وجدت نصوص أصلية من أي عقيدة قديمة في الشرق الأدنى أو الأقصى أو أوروبا أو أمريكا أو أفريقيا أو أي مكان على الأرض، فمن المستحيل أن تتعارض مع ما جاءت به التوراة التي نزلت على موسى أو القرآن الذي نزل على محمد، لأن الله لا يمكن أن يخلق بشراً متساوين في قدراتهم العقلية والجسدية ويعدهم بجنة واحدة، ثم يكلفهم بمعتقدات متباينة، فيطلب من أناس فرائض وواجبات حرمها على آخرين. ولذلك فلا غرابة لو وجدنا في ثنايا العقائد التي نعتبرها وثنية وبدائية تعاليم سامية ووحدانية مشابهة لما دعت إليه توراة موسى والقرآن.

فالقبائل الأصلية الأسترالية تؤمن بالوحدانية، ومن صفات الإله عندهم: أنه خالد لا



يفنى، لأنه لا ينشأ عن أي كائن آخر. (فيلسيان شالي - موجز تاريخ الأديان– ص٣٤)[١] وفي أقدم كتاب مقدس في العالم وهو كتاب الديانة الهندية الفيدية، وصف الإله بأنه: هو الذي يهب الحياة ويمنح القوة وظله هو الخلود وظله هو الموت... (من النشيد ١٢١ من كتاب العاشر من كتب الريغ – فيدا)

وتدين الديانة الزرادشتية لإله عظيم واحد يطلق عليه أهورا مازدا، وهو: الخالق، اللامع، الجليل، الكبير...

وكل هذه الأوصاف للخالق لا تخرج عما وصفه به القرآن: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) الحديد.

ومن تعاليم البوذية: سعيد من صبر على الأذى في سبيل الحق، وسعيد من لا يتناول بالأذى أحداً، وسعيد ذلك الذي ذهب من نفسه كل هوى، وتغلب على عناد الأنا. والبوذية دعت أيضاً لنبذ الطبقية باعتبار أن الناس سواسية وأن الفروق بينهم خلقها الخلق وليس الخالق.

ومما قاله بوذا: لا تؤمنوا بشيء لمجرد أنه مسموع الكلمة، ولا تؤمنوا بشيء تضعونه على ذمة التقاليد، أو لأنه مقبول منذ أجيال كثيرة، ولا تؤمنوا بشيء تبعاً لمكانة قائله، ولكن آمنوا بالذي يتواءم مع خيركم وخير الآخرين. (نص منقول بتصرف من كتاب دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية لمؤلفه كريك لينكلر)

وكلام بوذا السابق يتشابه مع قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (١٧٠) البقرة.

ومن تشريعات البوذية الأساسية: لا تقتل، لا تستول على ملك غيرك (لا تسرق)، لا تأخذ امرأة غيرك (لاتزن)، لا تكذب، ولا تشرب شراباً مسكراً.

وهذا ما يقوله كتاب اليهود المقدس حرفياً: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق (الخروج: ٢٠:١٣-١٥)، لا تقبل خبراً كاذبا. (الخروج: ٢٣:١) خمراً ومسكراً لا تشرب (اللاويين: ١٠:٩).

والكونفوشيوسية تدعو لنفس المبادئ والتشريعات وتؤكد على بر الوالدين وإشاعة العدل والإحسان والمساواة بين الناس. وهي نفس المبادئ التي نادت بها رسل الله جميعاً: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ

١ ترجمة حافظ الجمالي الناشر: طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق.



لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) النحل.

ولأن الوحي الذي نزل على كل الرسل كان واحداً فمن البديهي أن التشريعات التي جاءت في التوراة تتكرر في القرآن ويعمل بها في الإسلام: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) المائدة.

وقد أزال القرآن الغموض في هذا الموضوع حيث بين أن التشابه في التشريع جاء لأن لدين الله نسخة أصلية واحدة سماها القرآن « أم الكتاب »: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) الزخرف.

وتلك النسخة الأصلية محفوظة بآلية معينة أطلق عليها القرآن « اللوح المحفوظ »: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) البروج.

واللوح المحفوظ طريقة وآلية لا نعلمها حفظت بموجبها نسخة الكتاب الأصلية، والتي تسمى في القرآن أيضاً بالكتاب المكنون: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) الواقعة.

وتبقى النسخة الأصلة من الوحي محفوظة بعلم الله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) الحجر[1].

وقد يكون هناك أحداث خاصة، وليست تشريعات، وقعت زمن أمة من الأمم، فتذكر في رسالة لاحقة دون الرسالات الأخرى للاستشهاد بها في مواقف معينة. مثل قصة عذاب قوم لوط، التي نزلت فيما نزل على موسى وليس فيها تشريع ولكن للإخبار عما حدث في زمن سابق، وتكرر نزولها على محمد حرفياً. وقد نقلها مؤلفو الكتاب المقدس لليهود ليس بنص الآيات المنزلة على موسى التي غابت بغياب التوراة من الوجود، ولكن بعبارات الإخباريين والمفسرين اليهود لتلك الآيات. حيث يذكرون أن امرأة لوط خرجت مع لوط ومن آمن معه من القرية التي سيقع عليها العذاب وأثناء سيرهم « نظرت امرأته من ورائه

---

١ ويكون معنى الحفظ هنا هو حفظ النسخة الأصلية التي في اللوح المحفوظ وليس النسخة المنزلة على الرسل في الأرض والتي ضاعت كلها بما في ذلك التوراة التي كان من ضمن آياتها هذه الآية والتي ما زال اليهود يستشهدون بها على أن ما بين أيديهم من كتب هي التوراة لأن الله ضمن حفظها بموجب هذه الآية، وهو استدلال مغلوط، لأن الآية تتحدث عن حفظ الله للنسخة التي في السماء.



فصارت عمود ملح" (التكوين: ١٩: ٢٦)

بينما يقول النص الأصلي للوحي والذي ورد في القرآن عن نفس الحادثة: قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) هود.

وهو نفس النص الذي نزل على موسى، والذي فهم منه رجال الدين اليهود عدم الالتفات بمعناه الحرفي، بحيث إن من يلتفت إلى الوراء لينظر ما يحل بالقرية من عذاب سيهلكه الله. بينما المعنى الذي تقصده الآية من عدم الالتفات هو الإسراع بالخروج من القرية. وامرأة لوط كانت من ضمن الذين كتب عليهم الهلاك ولم تخرج مع لوط من القرية، وليس كما فهم المفسرون اليهود من أنها كانت قد خرجت مع لوط من القرية وكانت ستنجو من العذاب لولا أنها التفتت. فيكون استثناؤها من النجاة وليس من الالتفات، وتكون « إلا » في قوله تعالى: إلا امرأتك، بمعنى» أما ". وهو نفس معنى " إلا " في الآية الثالثة والعشرين من سورة الغاشية: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(٢٤) الغاشية.

ومما بقي في كتب اليهود المقدسة بنصه الذي أوحي به في التوراة: أن كل من أهلك نفساً من إسرائيل فالكتاب يحسبه كأنه أهلك العالم جميعاً. وكل من أحيا نفساً فالكتاب يحسبه كأنه أحيا العالم جميعاً. (التكوين: ١٠: ٤) وقد ورد ذلك في الحديث عن قتل ابن آدم لأخيه.

وهو ما جاء بنصه في القرآن: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢) المائدة.

وحتى الخطاب التقريري من الوحي كان يتكرر نزوله على الرسل، ومن ذلك الحديث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام فقد وردت في التوراة وفي القرآن بنفس النص: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(٥٩) الفرقان.

كما قد يشتمل الوحي لكل الرسل على خطاب تفاعلي يتحدث عن مواقف حدثت زمن الرسول، والقرآن يزخر بمثل هذه الأحداث، ومنها: بسم الله الرحمن الرحيم. عَبَسَ



وَتَوَلَّى(١) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى(٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) عبس.

وأيضاً: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥) المسد.

ولأن نص الوحي المنزل على الرسل واحد فإننا نجد بأن ما حوته كتب اليهود المقدسة من النصوص التوراتية على ندرتها، تبدو وكأنها نصوص قرآنية مترجمة للعبرية. وليس أدل على ذلك من أن الوصية الأولى من الوصايا العشر، والتي يسميها اليهود « السماع »، أي الشهادة، تقول: " أدوناي إلوهيم، أدوناي إحد". وقد ترجمت في النسخة العربية للكتاب المقدس بهذه الصيغة: الرب إلهنا، رب واحد. وإلى اللغة الإنجليزية بهذه الصيغة: (The Lord our God the Lord is one) وبرغم التراجم المتعاقبة على الكتاب المقدس من لغة إلى أخرى، والاختلاف في الثقافة والتمكن من اختيار الجمل بين مترجم وآخر وكاتب وآخر، فقد بقي هذا النص وكأنه ترجمة حرفية لجزء من الآية القرآنية: وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) البقرة.

ومن التعاليم التي نص القرآن على أنها كانت موجودة في التوراة: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ(٨٣) البقرة.

وهو مطابق لما وجهه القرآن للمسلمين: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا(٣٦) النساء.

وفي آية أخرى: وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٠) البقرة.

والقرآن يؤكد أن الله سينصر من ينصره: وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الحج.

وهو ما كتب في نسخة الوحي الأصلية التي أطلقت عليها سورة الأنبياء «الزبور»: وَلَقَدْ



كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ(١٠٥).

الدين واحد ومصدره نسخة أصلية واحدة، وإن وجدت اختلافات بين رسالة وأخرى ففي الخطاب التوجيهي من الوحي وليس في الخطاب التشريعي. مثلما حدث مع اليهود: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٦٤) الأنعام.

وهذا التحريم الاستثنائي استوجبه جرمٌ اقترفوه: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا(١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(١٦١) النساء.

فإن كانت التشريعات واحدة في كل الأديان، والوحي واحد فهل هذا يعني أنه حتى الخطاب الدعوي لكل الرسل كان واحداً. حيث يقومون بتلاوة ما ينزل عليهم من الوحي دون اللجوء لاستخدام عباراتهم الشخصية في الدعوة؟[1]

الخطاب الدعوي في كل الرسالات وحي ونصه واحد

نوح ورسل كثيرون غيره مثل هود وصالح وشعيب ولوط لم تتجاوز دعوتهم الخطاب الدعوي، وماتوا ولم يؤمن بهم إلا نفر قليل لا يكفي لتكوين مجتمع مسلم وبالتالي لم تنزل عليهم تشريعات إلا الأساسي منها كالصلاة والإنفاق، كما هي الحال بالنسبة لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام. حيث بقي السنوات الأولى في مكة يدعو قريشاً ولم يكن مطلوباً من المسلم خلال تلك المدة سوى أداء الصلاة دون تحديد أوقات لأدائها، والإنفاق والغش التجاري، بجانب الإيمان.

والفقرة السابقة أكدت أن دين الله المتمثل بالتشريعات واحد، وعبارات الوحي المنزلة على الرسل واحدة. فهل كان الخطاب الدعوي لكل الرسل واحد ونصه واحد كما هي الحال بالنسبة للتشريعات؟

هل كان نوح – على سبيل المثال – يتحدث بكلامه الشخصي عندما كان يقول لقومه: قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) نوح؟

١ هذا السؤال توجه به الأخ الفاضل موسى محمد المالكي.



أم أن هذا وحي نقله لنا القرآن على شكل خبر فجاءت الصياغة وكأنها توحي بأنه كلام شخصي لنوح؟

وهنا لابد من التفريق بين نقل القرآن لخبر وقع ونقل القرآن لعبارات وحي نزلت على رسول سابق. فالقرآن أحياناً يروي ما حدث مع تلك الرسل وقومهم من أحداث، وهي ليست وحياً ولكنها أخبار، مثل قوله تعالى: وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) هود.

فهذا كلامٌ دار بين لوط وقومه ولم يكن وحياً.

أما الخطاب الدعوي فالقرآن يؤكد أنه كان واحداً لكل الرسل، وهو وحي وليس فيه كلام شخصي للرسول. وفيما يلي بعض الأمثلة:

يقول شعيب لقومه: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ(٩٣) هود.

ونجد نفس كلمات الوحي نزلت على الرسول محمد بعد مئات السنين: وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢٠) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٢١) هود.

ومثله ما قاله نوح لقومه: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا(١٢) نوح.

هنا كأن نوحاً هو الذي تكلم بكلامه الشخصي، لكن نفس العبارات قالها هود بعد مئات السنين لقومه: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ(٥٢) هود.

فالوحي نزل على نفس الرسولين بنفس العبارات، لكن القرآن رواه لنا كخبر، فاختلفت صياغة الخبرين بما يتناسب مع صياغة عبارات السورتين.

ومثله: يقول نوح: وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(٣١) هود.



ونفس العبارة أوحيت للرسول محمد بعد آلاف السنين: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠) الأنعام.

ومثل ذلك: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ(١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١١٠) الشعراء.

وبعد مئات السنين نزلت نفس العبارات على هود: كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٢٧) الشعراء.

وبعد مئات السنين نزلت نفس العبارات على صالح: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ(١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٤٥) الشعراء.

وبعد مئات السنين نزلت نفس العبارات على لوط: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٤) الشعراء.

ومرة أخرى تنزل نفس العبارات على شعيب: كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ(١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٠) الشعراء.

فهذا الخطاب الدعوي نزل على كل الرسل بنفس العبارات.

وبعد ذلك تؤكد سورة الشعراء نفسها أن ما نزل على الرسول محمد هو بنصه ما كان في زبر (السجلات والوحي المنزل) على الأولين (الرسل الأولين): وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ(١٩٦) الشعراء.

وسورة الشعراء سورة دعوية نزلت في مكة، وهي تؤكد أن الوحي المنزل على الرسول (وهو خطاب دعوي في الغالب) هو نفسه الذي نزل على الرسل الأولين.



الخلاصة: كل الرسل سواء توقفت رسالاتهم بالخطاب الدعوي كالرسل المذكورين هنا، أو نزلت عليهم تشريعات كموسى ومحمد، تلقوا نفس الوحي بكل أنواع الخطاب فيه[1] ليس بفحواه ولكن بنصه وعباراته دون تغيير. ولو أردنا أن نعرف ما ورد في التوراة التي لم يعد لها وجود، فلا حاجة للتفتيش في كتب اليهود المقدسة (كتب تاريخية) فالقرآن حفظها لنا، كما حفظ لنا نصوصاً من الوحي المنزل على كل الرسل المذكورين في القرآن.

كل المخلوقات الحية في الكون ستفنى قبل يوم القيامة وكلها ستحاسب

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٨) الرحمن.

وهو ما أكدته سورة الزمر: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨).

وهو ما كررت تأكيده سورة النمل: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧).

وتؤكده سورة مريم ضمن ردها على مزاعم قريش بأن الملائكة بنات الله: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥).

لكن المخلوقات اللاجسدية معمرة، وتبقى حية ما بقي الكون، ولهذا ترد سورة الأنبياء على قريش طلب إرسال ملائكة، وتؤكد لها أن كل الرسل للبشر كانوا بشراً مثلهم، ولم يكونوا ملائكة تشكلت بهيئات جسدية دون أن يتمكنوا من أكل الطعام كالبشر لأنهم لا يملكون جهازاً هضمياً. كما أن كل الرسل بشر بأعمار البشر المحدودة، وليسوا خالدين، مثل الملائكة وكل المخلوقات اللاجسدية التي تبقى حية حتى نهاية الكون: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً

---

١ هناك عدة أنواع من الخطاب في الوحي، ومنها: الخطاب الدعوي، الخطاب التشريعي، الخطاب الترجيهي، الخطاب التقريري، الخطاب الإخباري، الخطاب القصصي، والخطاب التفاعلي... وغيرها. وقد سبق وتحدثنا عن هذه الخطابات بالتفصيل في أول الكتاب.



نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨).

وتقول سورة بني إسرائيل: وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨).

وفيه إشارة إلى أن البشر سينقرضون قبل نهاية الكون.

وتقول سورة الأنعام: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(١٣٠) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١٣١).

الآيات تؤكد حقيقة أن الله لن يعذب أمة لم يرسل لها رسولاً، وكل الأمم أرسل لهم رسول.

التوازن البيئي

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ(١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢١) الحجر.

كل النباتات والكائنات الحية والفطرية أوجدت بحيث يكون هناك توازن بيئي مثالي يبقي على كل أنواع الحياة على الأرض. وتدخلات الإنسان هي التي أخلت بهذا التوازن وعملت على انقراض كائنات حية ونباتية لا حصر لها.

فكل شيء موزون: بقدر مثالي. وكل شيء بقدر معلوم: بقدر مثالي.

نظرية تدجين الحيوانات غير صحيحة

هناك نظرية شائعة بين العلماء تقول: إن بعض الحيوانات قد تم تدجينها من قبل الإنسان فتحولت من متوحشة إلى مستأنسة كالإبل والبقر والضأن والماعز. ومما قالوه إن اليهود هم أول من استأنس الإبل.

أما القرآن فيؤكد أن الأنعام خلقت مستأنسة بطبعها، مما يسهل انقيادها للإنسان: أَوَلَمْ يَرَوْا



أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(٧٣) يس.

وقوله: «وذللناها» تعني أن من خلقها هو من ذللها (دجنها)

بينما خلق الله جل شأنه حيوانات جائرة «متوحشة» بطبعها ومنذ خلقت: وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩) النحل.

والفارق بين الحيوان المستأنس (المُذلل) والمتوحش (الجائر) هو أن المتوحش كالفهود والنمور والأسود ونحوها حتى لو تمت تربيتها بين الناس أو أنها ولدت في قفص أو حديقة خاصة وبين الناس الذين قاموا على تربية أبويها، فلا يؤمن جانبها لأنها قد تعود لطبيعتها المتوحشة وتهاجم وتقتل، برغم أنها لم تعرف حياة التوحش. بينما الحيوانات (المستأنسة) فحتى لو عاشت طليقة كحياة الوحوش، وولدت كمتوحشة، فسرعان ما تتحول لمستأنسة بمجرد تدريبها لفترة قصيرة، ولا تعود للتوحش بعد ذلك.

الموت

باختصار هو: التوقف التام والنهائي للعمليات الحياتية في كافة أعضاء وخلايا وعضلات وأعصاب الجسم ودورته الدموية، نتيجة لحادث أو مرض أو شيخوخة أو عجز وقصور في أحد الأعضاء الحيوية أو بعضها. وينتج عنه مفارقة النفس للجسد الذي لم يعد قادراً على حملها. ومتى ما فارقت النفس الجسد فلا يمكن أن تعود له مرة أخرى، لأنه سرعان ما يتعرض للتلف والتحلل، ولا يكون في حالة صالحة لمعاودة نشاط النفس فيه.

فالإنسان هو النفس، والجسد هو الوعاء الحامل للإنسان. ويلزم أن تتواجد النفس في وعاء آخر لكي تعاود نشاطها، وهذا لن يكون إلا يوم القيامة. وضرورة وجود حامل للنفس ليس قصراً على الإنسان أو على مخلوقات الأرض، أو على المخلوقات الجسدية، بل يشمل أيضاً المخلوقات اللاجسدية كالجن والملائكة، وأي مخلوق آخر في الكون.

والموت – حسب ما تقدم – يعني أن تكون النفس في حالة خمول، بينما تعني الحياة أن تكون النفس في حالة نشطة. ولا يمكن أن تكون النفس في حالة نشطة خارج حامل صالح يحملها، جسدياً كان أو غير جسدي. لذا فلا يمكن أن يكون فيها بعد الموت أي نوع من



النشاط للنفس، إلا بعد أن تحل في وعاء آخر. وهو ما ينفي نفياً قاطعاً أي نشاط في القبر أو في الفترة ما بين الموت والبعث، لأن النفس خلالها ستكون خاملة. ولن تعود للنشاط إلا بوجود وعاء حامل لها وهذا لن يتوفر إلا يوم القيامة.

ووعاء الدنيا البشري «الجسد» يتناسب مع حياة الدنيا، من حيث إنه قابل للفناء ولا يدوم. فهو يتكون من خلايا وأنسجة قابلة للتلف ولها عمر افتراضي. ومهما تحسنت وسائل العلاج ومكافحة الأمراض فلن تبقي الإنسان حياً على الدوام، لأنه سيموت بالهرم وعجز الخلايا والأنسجة، ولو تفادى المرض بالأدوية والغذاء.

وحياة الآخرة تختلف عن الدنيا، كونها حياة أبدية، وتحتاج لوعاء غير قابل للتلف أو الضعف أو الهرم أو المرض. لذا يستحيل أن يعاد بعث الإنسان «النفس» بوعاء الدنيا الحسي القابل للتلف.

وليس لدينا أدلة على ماهية وعاء الآخرة، لكن لدينا بعض المؤشرات التي تفيد أن هناك أوعية غير حسية تدوم أكثر بكثير من الأوعية الحسية «الأجساد». فالقرآن يتحدث عن نوعين من المخلوقات الدنيوية اللاجسية، وهما: الملائكة والجن. وهذه المخلوقات تعيش في وعاء خلق من طاقة لا يعتمد على الأكل والشرب ليعيش، وليست لها خلايا وأنسجة قابلة للتلف. لذا نجد أن الملائكة كانت مخلوقة قبل خلق آدم، بل وقبل خلق الإنسان على الأرض، وقد تكون خلقت قبل خلق الأرض، وما زالت كما هي: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) البقرة.

والجن كذلك، فالذين استمعوا للرسول وهو يتلو القرآن كانوا مخلوقين قبل زمن موسى، الذي كانوا شهوداً عليه: قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) الأحقاف.

وهذه المخلوقات ستبقى إلى نهاية العالم: قَالَ انظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ(١٥) الأعراف.

ذلك لأنها مخلوقات من طاقة: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦) ص.

فكون وعائها من طاقة سمح لها أن تبقى على قيد الحياة دهوراً لا تفنى دون الحاجة للطعام



والشراب، عكس المخلوقات الحسية محدودة العمر كالإنسان. ولو أضفنا لهذا حقيقة أن المخلوقات الحسية تحتاج للتناسل لكي يستمر الجنس ولا ينقرض، ولو كانت مخلوقات لا تفنى كالجن والملائكة، لما احتاجت للتناسل.

وهذا يعطينا انطباعاً أن أوعيتنا التي تحملنا يوم القيامة ستكون من طاقة أو شيء آخر يدوم ولا يفنى، ويستحيل أن تكون أوعية حسية تحتاج للأكل والشرب، وتفنى، وتحتاج للتناسل لكي تستبدل الأجيال.

وكل ما ورد في القرآن من تصوير للموت بصور حسية هو من باب المجاز لتقريبه لذهن المخاطب بما يتناسب مع مداركه. ومن ذلك تصوير الموت وكأن هناك ملائكة (مخلوقات حية) تنتزع النفس من الجسم، كما ورد في سورة النحل: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨).

وتقول نفس السورة عن موت المؤمنين: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٢).

والصورة المقدمة في الآيات مجازية حسية لتهويل الوضع بالنسبة للكافر وتلطيفه للمؤمن.

وتقول سورة السجدة: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١١).

وليس هناك ملائكة (مخلوقات حية) تقوم بإخراج النفس من الجسد، لكن القرآن يخاطب الناس بما يفهمون. ووصف آلية الموت وكأن هناك مخلوقات حية تقوم بها لتقريب الصورة من الذهن.

الموت كالنوم

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢) الزمر.

والإنسان لا يعلم أنه خلد للنوم إلا بعد أن يستيقظ، والحال كذلك بالنسبة للموت. فالميت لن يعلم أنه مات إلا بعد أن يبعث. وهو ما أكدته سورة الأنعام: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠).



ففي كلا الحالين يحدث الموت والنوم بشكل آلي دون تدخل من مخلوقات أخرى. ويكون هناك توقفٌ للذاكرة عن التسجيل وغيابٌ عن الواقع. ولن يعلم الميت أنه مات إلا بعد أن يبعث، مثلما أن النائم لا يعلم بأنه نام إلا بعد أن يستيقظ. لأن الذاكرة لا تسجل لحظة النوم أو الموت، وهذا أصبح ممكناً التأكد منه علمياً وعملياً.

فالعلم يؤكد أن الموت يُسبق بإغماءة تمتد من برهة من الزمن إلى ثوانٍ أو دقائق أو ساعات أو أكثر، مما يعني أنه لن يعلم أنه مات إلا عندما يبعث. ونتيجة لكثرة الحوادث المرورية وإطلاق النار، أصبح التحقق من هذه الحقيقة السابقة متاحاً عملياً للإنسان العادي. فهناك الكثير من الناس تعرض لحادث مميت ودخل في غيبوبة وحالة حرجة تقربه من الموت، سواء نتيجة لتلقيه طلق ناري في الرأس أو لكسر في الجمجمة نتيجة حادث مروري. والكثير من هذه الحالات تنتهي بالوفاة، لكن بعضها يستفيق فيه المصاب ويعود للحياة. ولو سئل هؤلاء فسيقولون إنهم لا يتذكرون لحظة الحادث ولم يشعروا بألم، وكل ما هناك أنهم دخلوا غيبوبة لم يعلموا بها إلا بعدما استفاقوا. وخلال الغيبوبة لم يكونوا يشعرون بمرور الوقت ولا بآلام، ولا يرون الأحلام. ومهما طالت الغيبوبة فعندما يستفيقون يشعرون أنه للتو حدث لهم ما حدث. وهو وضع مشابه لمن يموت وتمضي ملايين السنين وينهار هذا الكون وتمر ملايين أخرى من السنين لينشأ كون القيامة، وعندما يبعث سيشعر أنه للتو كان في الدنيا. وهو ما تؤكده سورة النحل: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧) النحل.

فالقيامة تأتي للميت بغتة، كما تقول سورة الأنعام: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٣١).

وأكدته سور عديدة منها: الزخرف:٦٦، الأعراف: ١٨٧، الأنبياء: ٤٠، العنكبوت: ٥٣.

الموت مرحلة

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧) غافر.



فالموت مرحلة كما أن الحياة مرحلة وليس الموت عدماً. فالنفس لكي تكون قادرة على العيش في كون القيامة لابد أن تنتقل لجسد (حامل) يتناسب مع كون القيامة الدائم، وهذا لا يكون إلا بخروج النفس من جسد الدنيا أولاً، وبخلق كون القيامة ثانياً، ثم خلق الجسد الملائم لعالم القيامة، وحلول النفس فيه. وهذا ما ينفي ما يعتقد بعض أتباع الفرق الباطنية بما يعرف عندهم بتناسخ الأرواح. لأن النفس البشرية وجدت في جسد خاص بها ومتى ما عجز هذا الجسد عن حملها فلن تنتقل للعيش في جسد آخر في الدنيا.

البعث

الفكرة الموروثة عن البعث أن الناس بأجسادهم الحالية سينهضون من قبورهم ويجتمعون في مكان واحد أمام الله حيث سيقوم بحسابهم واحداً واحداً، على شكل سؤال وجواب. وهذه الصورة للبعث لا يمكن أن تحدث، لأن كل أجساد البشر قد تحللت ولم يعد لها وجود. وحتى لو افترضنا أن الله جل شأنه سيعيد الأجساد للحياة مرة أخرى فيستحيل أن تقوم من قبورها التي قبرت فيها، لأن تلك القبور قد اندثرت ولم يعد لها وجود، باندثار الأرض برمتها عندما ينهار هذا الكون.

ولكي نفهم البعث علينا أن نفهم معنى الموت والحياة.

والحياة تعني بكل بساطة أن النفس نشطة، ولكي تنشط النفس البشرية لابد من وجود وعاء يحملها. وبمجرد مفارقة النفس للحامل الذي يحتويها تصبح خاملة لا قدرة لها على النشاط، وهو ما نسميه «الموت». والأنفس الحية منا الآن سيأتي يوم وتصاب بالخمول وعدم القدرة على النشاط، نتيجة لمفارقتها الجسد الذي كان يحملها في الدنيا، لمرض أو حادث أو هرم، لأن الجسد الدنيوي خلق من خلايا وأنسجة قابلة للتلف. ويوم القيامة سيكون البعث عبارة عن إعادة النفس للنشاط والحيوية وذلك بإحلالها في وعاء آخر يحملها يتناسب مع عالم القيامة الأبدي غير القابل للتلف.

ومما ورد في القرآن من أوصاف مجازية للبعث ما يلي:

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(٦) الزلزلة.

صورة مجازية تصور الناس وكأنهم يتوافدون جماعات جماعات ليروا نتيجة أعمالهم وما



سيؤول إليه مصيرهم. وهي صورة مطابقة لما اعتاد الناس من التوافد على مكان إعلان خبر أو مشاهدة حدث. وليس بالضرورة أن هذا ما سيحدث لأن هناك آيات تقدم صوراً مختلفة عن البعث. وتقديم هذه الصور المجازية يهدف لتأكيد أن هناك بعثاً وحياة لما بعد الموت لأن المخاطب قريشاً تنكره.

وتقدم سورة النبأ صورة مماثلة: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠).

وكأن الناس سيأتون أفواجاً لمكان الحساب، وأفواجاً تعني جماعات وهو قريب من معنى أشتاتاً المذكور في السورة السابقة.

وتقول سورة الانفطار: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥).

السورة تصور البعث وكأن القبور بعثرت (فتحت) وخرج منها الأموات، ومن ثم حوسبوا وعلموا مصائرهم. مع أن الناس يوم القيامة لن يبعثوا بأجسادهم الدنيوية التي كانت عبارة عن وعاء حامل للإنسان (النفس) يتلاءم مع حياة الدنيا، وقد فني وانتهى. ولن يخرج الناس من القبور التي قبروا فيها في الدنيا لأن الأرض برمتها قد فنيت وانتهت ولم يعد لها وجود، وقام كون جديد لعالم القيامة. لكن الوصف يتناسب مع مدارك المخاطب، فالمهم هو أن يفهم أن هناك بعثاً وحياة لما بعد الموت وهناك حساب.

الحساب

الفكرة الموروثة السائدة عن الحساب أن الناس ستجمع في مكان واحد، ثم يقف الخالق أمامهم ثم يبدأ بمحاسبة كل واحد على حدة. في منظر مماثل لوقوف التلميذ أمام معلمه، أو الموظف أمام مديره، أو المتنفع أمام السلطان، أو المتهم أمام القاضي. ويبدأ الله جل وعلا بفتح صحيفة أمامه قدمها له مخلوقات حية «الملائكة» الذين وثقوا كل أعمال المتهم، وكأنهم يقومون بدور المدعي العام. وبعد الاطلاع على ملف القضية، يقوم تعالى بإعلان مصير المتهم، فيتقدم ملائكة ويجرونه للنار أو يصحبونه للجنة.

وهي صورة خيالية لم تبن على أسس.

ولا يعلم أحد كيف سيكون الحساب بشكل مؤكد، لكن القرآن يعطي مؤشرات يمكن



فهمها بعقولنا ومداركنا عن ذلك اليوم. مفادها أن الناس لن يصطفوا أمام رب العالمين يوم القيامة ويقوم تعالى بسؤال كل واحد منهم عما فعل في دنياه وبناءً على إجاباته سيتقرر المصير. فكل شيء في خلق الله يقوم على قوانين ثابتة لا تحتاج من يديرها، ومن ذلك الحساب يوم القيامة. فهو سيكون للناس جميعاً في وقت واحد، حيث يقوم كل منهم بالاطلاع على ما سجلته صحيفة أعماله ويتعرف على المصير الذي ينتظره نتيجة لذلك، من جنة أو نار. دون أن يتدخل أحد بتعريفه بصحيفة الأعمال أو بالمصير. ومع ذلك تصور السور الحساب بصور مجازية حسية كالتي تعرفها قريش في الدنيا لتقريبها للذهن، فالمهم هو أن تعلم أن هناك حساباً وعقاباً ومن ذلك:

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً(١١) وَيَصْلَى سَعِيراً(١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً(١٥) الانشقاق.

الآيات تصور الحساب وكأنه عبارة عن لجنة تمتحن الناس، ومن ثم تناول كل واحد منهم نتيجة امتحانه. فمن أوتي كتابه (شهادته وإجازته) بيمينه فقد تجاوز الامتحان بنجاح، واستحق الجنة التي عبر عنها بانقلابه لأهله مسروراً كناية عن الفرح. ومن علقت شهادته وراء ظهره فهو راسب، واستحق النار التي عبرت عنها الآيات بدعاء الإنسان بالثبور كناية عن الفشل.

وسنتتبع بعض الآيات التي تذكر الحساب لنتعرف على ما تقول:

ورد في سورة القارعة: فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١).

الآيات تصور الحساب وكأن الأعمال تكون على شكل أثقال، وهناك ميزان بكفتين – كأي ميزان يعرفه الناس وقت نزول السورة – وتوضع الأعمال في كفة، ولم تذكر الآيات ما الذي يوضع في الكفة الأخرى. لكن مقياس النجاة من النار ودخول الجنة يعتمد على رجحان الكفة التي فيها الأعمال. فإن كانت ثقيلة بما يكفي لترجح بالكفة الأخرى فقد نجا صاحبها وذهب للجنة، وإلا فمصيره النار.



وقد استخدم المجاز هنا، لتصوير الحساب، ولم تنقل الآيات الصورة الحقيقية له.

وتؤكد سورة الانفطار أنه بعد نشأة كون القيامة سيكون الحساب: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥).

وبما أن الأرض يوم القيامة لن يكون لها وجود، ومثلها كل هذا الكون، فلن يخرج الناس من قبورهم الحالية التي ستنتهي بانتهاء هذه الأرض. مما يشير إلى أن هناك كوناً جديداً سينشأ لعالم القيامة.

الإنسان في الآخرة لن يكون بجسد مادي

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً(٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي(٢٩)

الآيات تصف الإنسان يوم القيامة بأنه نفس، والإنسان بالفعل نفس. لكن هذه النفس لابد لها من حامل لكي تنشط (تعيش) وهذا الحامل في الدنيا عبارة عن جسد مادي يتكون من خلايا بعمر افتراضي لا يمكن أن تتجاوزه. ومتى ما عجز الجسد عن حمل النفس نتيجة لمرض أو هرم أو حادث، فارقت النفس الجسد، ودخلت في حالة همود وخمول، وهو ما نسميه الموت. وليست كل مخلوقات الدنيا بوعاء وحامل مادي(جسد) فهناك مخلوقات لها وعاء حامل لا جسدي، كالملائكة والجن. وهذا الوعاء يوفر لنفس المخلوق حياة طويلة لأنه لا يتكون من خلايا محدودة العمر. ولا يكون قابلاً للعطب نتيجة حادث، كما أنه لا يهرم.

ويوم القيامة ستستعيد أنفس كل المخلوقات الدنيوية نشاطها (تعاد للحياة) وذلك باستقرارها في وعاء حامل جديد. والآيات تشير إلى أن النفس البشرية ستحل في وعاء حامل لا مادي (ليس جسداً مادياً) وهو ما يعني بقاء النفس نشطة (حية) على الدوام، يتلاءم مع حياة الآخرة الأبدية. وهذه الإشارة جاءت في مخاطبة الإنسان في الآخرة بالنفس: « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ.

وتقول سورة الدخان في حديثها عن أهل الجنة:

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ(٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٥٧).



نص صريح بأن من في الجنة سيبقون فيها إلى الأبد، ولن يكون فيها موت. مما يعني أن هيئاتهم لن تكون على شكل أجسام محسوسة مادية كما في الدنيا، لأن الأجساد المادية عرضة للتلف. بينما المخلوقات من طاقة تكون دائمة، كما هو حال الملائكة والجن في الدنيا.

الحور والولدان

الناس يعتقدون أنه سيكون هناك مخلوقات حية على شكل نساء غاية في الجمال والجاذبية الجنسية خلقن في الجنة لمتعة الرجال المؤمنين، سماهن القرآن «حوراً". وهناك مخلوقات ذكرية يتمتعون بجاذبية جنسية لا يمكن وصفها خلقوا في الجنة لخدمة أهلها. وتحرج المفسرون من القول بأنهم لمتعة النساء المؤمنات الجنسية كما قالوا عن الحور، لأن الموروث الديني عند المسلمين يجيز للرجل التسري بالإماء ولا يجيز للمرأة التسري بالموالي والعبيد من الرجال. وهناك بعض التلميحات الخجولة في كتب التراث أنهم غلمان يمكن للرجال المؤمنين التمتع بهم جنسياً كما الحور[1].

وفيما يلي قرائن على استحالة أن يكون المقصود بالحور والغلمان مخلوقات حية خلقوا في الجنة أو أنهم مخلوقات دنيوية بعثوا في الجنة لخدمة المؤمنين:

- الدنيا دار العمل والتحصيل، لكل المخلوقات الحية في الكون، وليس فيها ثواب وعقاب. بينما الآخرة دار الثواب والعقاب الدائم الخالد، وليس فيها عمل وتحصيل لأي مخلوق حي في الكون. ولو كانت الحور والغلمان مخلوقات حية خلقت في الآخرة لخدمة المؤمنين في الجنة -- بغض النظر عن نوع الخدمة -- فهذا يعني أن الله خلق مخلوقات حية في عالم الثواب والعقاب وأمرهم بالعمل والتحصيل، وهو مخالف لقوانينه سبحانه. كما أنه لو افترض أن هذا ما حدث فلابد من موت وقيامة للحور والغلمان لكي يحاسبوا على ما قدموا وهذا لن يحدث لأن عالم القيامة عالم دائم لكل من فيه لا ينتهي أبداً. ولو كانت الحور أو الغلمان مخلوقات دنيوية فلا يمكن أن يبعثوا ليعملوا مرة اخرى في دار الثواب والعقاب. لأن هذا مخالف لقوانين الخالق سبحانه

---

١ الإسلام لا يجيز التمتع الجنسي خارج إطار الزواج لا للرجل ولا للمرأة، والتسري بالإماء مخالفة دينية صريحة لنص القرآن انتشرت بعد عصور الفتوح، عندما تأول المفسرون بعض الآيات التي تتحدث عن «ما ملكت أيمانكم» وكأنها تبيح التسري بالإماء. وكل ما قالته كتب التراث يعكس الأوضاع الاجتماعية حين كتابة تلك الكتب، حيث انتشار التسري والمتع الجنسية الحرام ومنها مضاجعة الغلمان. ولا يعكس ثقافة إسلامية أو ما كان عليه الوضع وقت رسول الله.



وتعالى الذي خلق الدنيا للعمل من كل المخلوقات والآخرة للثواب والعقاب لهم.

- أن المتعة الجنسية للمخلوقات الجسدية في الدنيا -- ومنها الإنسان – ضرورة وليست متعة. بمعنى أن الله خلقها بهذه الجاذبية ليقدم عليها الناس، ولو كانت أقل جاذبية لما تناسل البشر وبقيت أجناسهم إلى أن يشاء الله. ويوم القيامة لن يكون هناك تناسل، وبالتالي لن يكون هناك جماع لانتفاء الحاجة له. كما أنه لن يكون هناك أكل وشرب لانتفاء الحاجة إليها، كون النفس البشرية في الآخرة ستدوم حية إلى الأبد وهذا يحتاج لوعاء لا يعتمد على الأكل والشرب. كون الجسد الحسي المعتمد على الأكل والشرب يكون له عمر افتراضي وعرضة للمرض والموت وهو يتنافى مع الحياة الدائمة التي ستكون عليها المخلوقات يوم القيامة بما فيها الإنسان.

فالحور والغلمان ليسوا من مخلوقات الدنيا، ولا مخلوقات حية خلقها الله في الآخرة. ولكنها صور مجازية حسية لتقريب النعيم من ذهن المخاطب (قريش) ترغيباً لها لعلها تؤمن. والحور والغلمان مثل شجرة الزقوم وأنهار العسل والخمر وغيرها من صور مجازية حسية لنعيم وجحيم القيامة للترغيب والترهيب وكلها موجهة لرجال قريش.

الدعاء

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(١٨٦) البقرة.

لعل هذه الآية الأكثر ترديداً بين الناس كدليل على أن الدعاء بمعنى طلب أمور دنيوية يستجاب. وآيات البقرة لا تتحدث عن مطالب دنيوية ولكنها إما دعوية موجهة لبني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله عليهم في قديم تاريخهم وحديثه، أو تشريعية موجهة للمؤمنين. والآية هنا تقول إن الله يجيب دعوة الداعي، والداعي هنا هو من يقول يا رب. لكن ليس لطلب دنيوي، ولكن يقول يا رب اغفر لي ذنوبي، يا رب اقبل توبتي، يا رب اقبلني مسلماً، لأن الآية تواصل قائلة: «فليستجيبوا لي». وهو ما يعني أن على الناس أن يستجيبوا لدعوتي كي أستجيب لدعوتهم. ودعوة الله جل شأنه للناس لاتباع دينه، والاستجابة تكون بقبول دعوة الله والتوبة عن الذنوب أو الإقلاع عن الكفر، أو كما ورد في الآية: "وليؤمنوا بي".



ولو دعا الإنسان بهذا فالتوبة بابها مفتوح على الدوام . وذلك بأن كل ما يضمر أو يظهر الإنسان من قول أو تصرف أو مشاعر ..الخ، يسجل عليه في صحيفة أعماله. ولو عزم شخص على التوبة فستسجل الصحيفة نيته وأفعاله في اللحظة ذاتها، إن كان صادقا مخلصا أو غير ذلك. ويكون الله جل شأنه قريباً ليس فعلياً (وجسدياً) تعالى الله عن ذلك. ولكن بزرعه لآلية تسجيل الأعمال في النفس البشرية، وسيسجل طلب التوبة مباشرة دون تأخير، وما يصحبه من نية.

فالدعاء في الآية، هو مناداة الله جل شأنه استغفاراً وتوبة من المعاصي.

وقد ورد الدعاء في القرآن عدة مرات، ولابد من المرور على بعض الآيات لبيان معنى الدعاء فيها، كما يلي:

١. كهيعص(١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً(٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً(٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً(٦) مريم.

والآيات تظهر أن زكريا نادى ربه أن يرزق بولد، وبالفعل رزق بولد: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً(٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً(٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً(١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(١١) مريم.

لكن تعالوا نتمعن فيما تقول الآيات عن ردة فعل زكريا عندما بشر بالغلام، حيث ظهر عليه الاستغراب: قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨).

ردة الفعل هذه تشير إلى أن زكريا كان يتمنى داخل نفسه أن يرزق بولد، ولم يكن يرفع يديه بالدعاء لله. ولو كان يدعو الله أن يرزق بولد وتأتيه البشرى لكانت ردة فعله أن يحمد الله ويشكره على استجابة دعائه.

وتكون البشرى بالولد قد حققت لزكريا أمنية ظنها لن تتحقق، ولم يرزق بولد لأنه دعا الله.



لذا ظهر عليه الاستغراب لما تحقق له ما تمنى.

ولو كان زكريا رزق بالولد نتيجة استجابة دعائه فكان سيرزق به في بداية زواجه، وهو الوقت الذي تمنى فيه أن يرزق بولد. لكن أمنيته لم تتحقق حينها، ومضت الأيام والأعوام، حتى هرم وأصبح عجوزاً، وتجاوزت امرأته سن الإنجاب، عندها جاءت البشرى ورزق بالولد.

فالولد جاء لحكمة معينة وليس تحقيقاً لأمنية، لذا كان لابد من معالجة المرأة وإعادة قدرتها على الإنجاب في عمر لا يمكنها الإنجاب فيه.

هناك شيء هام لو وعيناه لأصبحت الصورة أكثر وضوحاً، تتمثل في فهم أن الخالق سبحانه وتعالى خلق هذا الخلق الذي نراه عظيما لا متناهي ولا يمكن تصور عظمته لحكمة أكبر من خلق الإنسان. وخلق الكون يحتاج لقوانين ثابتة لا تتغير. مُحكمة، دقيقة، مثالية، ولا تحتاج لمتابعة أو تعديل أو تبديل. لكن الإنسان يقيس الخالق بما يعرف. وهو يعرف أن الحاكم أو المدير يمكنه أن يعدل القوانين والأنظمة لو اقتنع بطلب مقدم له، ويريد أن يصور الله كما الحاكم أو المدير. بحيث يستجيب مرة لدعاء أحد مخلوقاته ويحقق له أمنيته ويمتنع عن تحقيق أمنية آخر.

والإنسان مخلوق حقير لو لم يوجد أصلا لما نقص في خلق الله شيئاً. ولكنه صور نفسه أنه أكرم خلق الله على الله، وظن أنه أهم خلقٍ لله في الكون، أو كأنه هو السبب في خلق الله للكون. مع أن الإنسان خلق قبل فترة قصيرة جداً لا تتجاوز مئات الآلاف من السنين، فيما مضى على خلق الأرض حوالي ٥ ,٤ مليار عام، وخلق الكون ما يزيد عن ١٣ مليار عام. وسينقرض الإنسان خلال فترة قصيرة، بينما الكون سيبقى لمدة تساوي المدة التي مضت على خلقه، كونه يعيش منتصف العمر، حسب تقدير العلماء. ولأن الخالق عظيم، فقد وفر في الأرض الرزق الكافي للناس، لكنهم هم من ظلم بعضهم بعضا وسلبوا أرزاق بعض، وهم من سبب الفقر.

كما أوجد جل شأنه في الجسم البشري مضادات حيوية قادرة على تحدي الأمراض لو لم يخرب الإنسان صحته بنفسه ويورث أجياله أجسادا مريضة ضعيفة. والإنسان هو من خلق التصحر والتلوث وكل المصائب. والله جل شأنه وهب الإنسان وكل مخلوقات الأرض ما



تحتاج ويزيد، والإنسان هو من أفسد كل ما وهبه الله.

فهل يمكن أن يمد الإنسان يده لله ويقول يا رب وظيفة فتلين قلوب من استولوا على حقوقه ويوظفونه؟

أو يقول: يا رب أهلك اليهود وهو يمد يده لهم في الخفاء ويتآمر على إخوانه معهم. بعض التفكير بتعقل سيظهر عدل الله لو ابتعدنا عن العاطفة الزائفة.

واللجوء لله شيء طبيعي، وسنبقى ندعو الله أن يوفقنا ويرزقنا ويشفينا و .. و..... لكنه سبحانه لن يتدخل مباشرة. إنما ستكون الاستجابة بأن نهتدي نحن للأسباب التي أودعها الله مسبقاً فينا وفيما حولنا وفي أرضنا منذ خلق الكون وقبل خلق الإنسان من نعم لا تعد ولا تحصى. فلو كنت مريضاً فعلي بالعلاج ولو شفيت فالله قد استجاب دعائي. ليس مباشرة ولكن لأنه أودع في كونه هذه التركيبة العلاجية ويسر للإنسان اكتشافها وقد حصلت عليها وشفيت. لكنه لم يتدخل مباشرة وقتل الفايروس الذي سبب لي المرض. ولولا العلاج لما شفيت ولو كبيت على وجهي ساجدا لله ليل نهار.

هكذا تفهم الاستجابة وهكذا يفهم الدعاء وليس بالصورة الشائعة.

وبلا شك هناك قوى هائلة في النفس البشرية بعضها عرف وبعضها عرف جزء منه وكثير منها لم يعرف. كلها زرعها الله في النفس البشرية لتأمين احتياجاته ولمعاونته، ويمكن للمرء الاهتداء إليها إذا ما احتاجها. وما على الإنسان سوى أن يحسن استخدام هذه النعم الإلهية وقبل ذلك عليه أن يكتشفها.

هذه القوى للإنسان والتي وفرها الله له قبل خلقه، وليست للمؤمن فقط، هي البديل للتدخل الفوري من الخالق في شئون الخلق.

هكذا تكون الاستجابة للدعاء، وهكذا هو العدل الإلهي المثالي.

وسنطبق هذا على ما حدث في معركتي بدر وأحد (مع مراعاة أسلوب القرآن واستخدامه للألفاظ)، وسنجد أن القرآن يقول إن هناك ملائكة عاونت المسلمين. وإذا ما أبعدنا تخاريف المفسرين الذين أولوا الآيات وجعلوها تتحدث عن مخلوقات حية تقاتل مع المسلمين، فالقرآن يقول إن الملائكة دورها اقتصر على إحلال السكينة في نفوس المسلمين. وقد شعر المسلمون بالسكينة بالفعل لأن معنوياتهم كانت مرتفعة قبل المعركة: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ



الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٤٤) الأنفال.

فالشعور بالراحة نابع من داخل نفوس المسلمين ومن قدرات أودعها الله في النفس البشرية منذ الأزل، وساعد على الإحساس بهذا الشعور ارتفاع معنويات المسلمين، واختفاء الشعور بالرهبة من المعركة.

هنا كان دور الملائكة كما وصفته الآيات: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ....(١٢) الأنفال.

في نفس الوقت كانت معنويات الكفار منهارة فحدث لهم العكس: .... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ ..... (١٢).

دون أن يتدخل الله جل شأنه مباشرة، أو يرسل مخلوقات حية تفعل ذلك، لكن القوى في النفس هي التي تدخلت. فيكون الله جل شأنه هو من تدخل بطريق غير مباشر.

والملائكة هنا هي تلك القوى الخفية في النفس وليست مخلوقات حية.

أما في معركة أحد فلم يكن هناك ملائكة لأن معنويات المقاتلين المسلمين لم تكن بالمستوى المطلوب لكي تحصل على ذلك الشعور بالراحة النفسية والثقة. مع أنه في بدر وأحد كان المسلمون يلهجون بالدعاء، إلا أنهم انتصروا في بدر وهزموا في أحد، لأنهم هم أنفسهم لم يستعدوا كما يجب نفسياً ومعنوياً، إضافة لعوامل أخرى.

وفي كلا المعركتين فالله جل شأنه لم يتدخل مباشرة، لكنه كان موجوداً بما أودع من قدرات في النفس البشرية: مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً(٧٩) النساء.

فكل ما يصاب به المرء من شيء حسن فمن الله، لأن الله أودع في النفس هذه القوى التي تمكنه من تحقيق الحسن. وكل ما أصيب به من سوء، فمن نفسه لأنه أساء التصرف. وفي كلا الحالين فالله لم يتدخل مباشرة.

٢. ورد في سورة لقمان: وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢) لقمان.



والمتبع عندنا لفهم أي آية هو السياق والمخاطب وعوامل أخرى، والآية وردت ضمن آيات تخاطب قريش. والسورة مكية، والآيات التي جاءت ضمنها الآية نذكر منها: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢).

والآيات تُذكّر قريشاً ببعض نعم الله على الناس - مثلها مثل معظم السور المكية - لعلها تعي قدرة الله العظيمة التي تظهر في خلقه وتؤمن أنه قادر على البعث الذي ينكرون. ومما تقدمه الآيات هنا أن عليهم أن يتذكروا كيف تسير السفن في البحر وأن الركاب متى تعرضوا لأمواج عاتية لجأوا لله ولهجوا بالدعاء أن ينجيهم، لأنهم يعلمون يقيناً أن الله قادر على أن ينجيهم، وإذا نجوا عادوا لكفرهم، وتناسوا ما يعلمون عن عظم قدرة الله.

وعندما يدعو راكب السفينة الله أن ينجيه لا يعني أن السفينة نجت بسبب دعائه وتدخل رب العالمين فعليا وأمر الموج بالهدوء. ولكنه يعني أن هناك سفناً تنجو لأسباب عدة منها تجاوز منطقة الأمواج أو هدوء الأمواج أو غير ذلك. وهناك سفن تغرق لأن الأمواج كانت أقوى من مقاومتها. وفي كلا الحالين كان الناس يدعون الله مخلصين له الدين أن ينجيهم.

ولا اعتراض هنا على الإطلاق فكلنا في وقت الشدة نقول يا الله، ويجب علينا حتى في وقت الرخاء أن نقول يا الله. وكمسلمين يجب أن يكون تعاملنا اليومي مرتبطاً بالله، وبدل أن نقول مثلا: شكرا، نقول: أحسن الله إليك. ليس لأن الله سيحسن لمن يستحق شكرنا لأننا دعونا له، ولكن لكي نقر له بالعرفان والامتنان بصيغة تربطنا بالله.

ومثل أن تقول لي كيف أحوالك؟ فأقول: الحمد لله. وأقصد أن كل ما أتمتع به من صحة فهو من الله ليس فعلياً بل بما أودعه في جسمي منذ خلق الله البشر من موانع للمرض وقدرة على البقاء وغيرها من قدرات خفية.

٣. الآية التالية هي: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الأنبياء.

وسنستعرض الآيات المحيطة ونتحدث عنها لأنها تدخل ضمن ما يمكن أن يستدل به على



أنه استجابة فعليه من الله جل شأنه لمطالب دنيوية.

تقول السورة: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ(٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ(٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ(٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ(٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ(٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(٩١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(٩٢).

الآيات تقول:

الله جل شأنه يسر لسليمان وداوود حكما وعلما وسخر لداوود الجبال والطير وعلمه صنعة لبوس.

فهل فعل الله ذلك مباشرة وفعلياً؟

أم أن المعنى أن سليمان وداوود كانا يتمتعان بالحكمة ولديهما معارف ببعض العلوم.

وهذه قدرات مكتسبة، فهناك نوابغ في كل مجال مثلما نبغ آينشتاين في الفيزياء، وبيليه في لعب كرة القدم. وهذا النبوغ من الله لأنه سبحانه خلق في العقل البشري قدرات هائلة لو استغلت لأصبحنا جميعا نوابغ. وآينشتاين من القلائل الذين توفر لهم تنشيط واستغلال هذا النبوغ. فالله هو من وهب له هذا ليس مباشرة ولكن بما أودع الله في كل نفس بشرية.

وتقول السورة: "ولسليمان الريح تجري بأمره إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا".

فقد استغل سليمان معرفته وعلمه واستفاد من الريح، ولم يكن سليمان يأمر الريح فتتغير



مسارها، كما صور المفسرون.

وتقول السورة: «ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون".

وهذا ليس بتدخل من الله مباشرة بحيث يأمر سبحانه الشياطين للعمل مع سليمان وتحت إمرته، ولكنه بفضل الله الذي جعل لسليمان قدرة على إدارتهم.

والسورة تقول إن "أيوب نادى ربه، فكشف الله ما به من ضر».

وأيوب كأي إنسان عندما يمرض أو تحل به ضائقة يقول يا الله. هنا الله جل شأنه لا يتدخل فعلياً بتسليط مضادات حيوية على الجراثيم أو الفايروسات المسببة للمرض وتقتلها، ولكن لأن جسد أيوب أو العلاج الذي تناوله أو استخدمه كان مناسباً فشفي. وقد شفي وسيشفى كثيرون غيره، وسيموت كثيرون لأنهم لم يوفقوا باختيار العلاج المناسب أو أن أجسادهم كانت ضعيفة.

وإن كان ما حل بأيوب ضائقة وانفرجت فكثيرون غيره لم تنفرج. وسبب الانفراج لم يتدخل به الله شخصياً، ولكن لولا أنه سبحانه أوجد في البيئة أسباب الانفراج لما حصل عليه أيوب وغيره.

وهناك فصل مستقل بذي النون يمكن الرجوع إليه لتبين أن نجاته كانت بفضل من الله لكن دون تدخل مباشر منه سبحانه.

وكل الحالات التي ذكرتها الآيات متشابهة في أن الله لا يتدخل فعلياً لكنه موجود بما أوجده ويسره لخلقه: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٦١) يونس.

الله سبحانه يعلم كل شيء في الكون وكيف يسير، ولولا مشيئته لما سار، لكنه لا يتدخل سبحانه مباشرة بما يجري، وهو سبحانه موجود وقريب.

٤. ويستدل البعض بما ورد في سورة نوح، على أن الطلب الدنيوي يستجاب. والآيات هي:

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ



بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً(١٣).

فالمفسرون رسخوا أن الآية الدعاء يجلب المطر، وعلينا أن نعود للآيات ونرى ماذا تقول.

والسورة تتحدث عن نوح وكيف دعا قومه وموقفهم من دعوته. ومما قال لهم، أن يؤمنوا بالله الذي نعمه تحيطهم. فهو من ينزل المطر (لا ننسى أن المطر ينزل حسب توفر الظروف التي خلقها الله لنزوله) والله يمدهم بالأموال (بتوفير الأرزاق في الأرض واستغلال الناس لها) ويمدهم بالبنين (الذي يكون نتيجة قانون التقاء البويضة والحيوان المنوي الذي وضعه الله).

ولا تقول السورة إن المطر لم ينزل على قوم نوح أو غيرهم، ولم يرزقوا بأموال وبنين إلا بعد الاستغفار والدعاء. لأن هذه الأمور الدنيوية وغيرها متاحة لكل الناس بغض النظر عن المعتقد، وليست نتيجة لقبول الدعاء: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

ومع أن الدعاء لا يمكن أن يحقق الأماني والمطالب الدنيوية، إلا أن الناس يختلط عليهم الأمر. فالقول بأن الله لا يتدخل في أمور الدنيا لا يعني أن نتوقف عن التوجه لله بالدعاء والتضرع في الأزمات. لأن الله قبل أن يخلق الإنسان أودع فيه (داخل جسمه) وفيما حوله كل ما يحتاجه في حياته ويعينه على التغلب على المحن المختلفة. وكل ما على الإنسان اكتشافها والاستفادة منها. وبعضها يحتاج لأن يكون الإنسان بوضع نفسي خاص، وهو ما يحققه لنا الدعاء. لأن الدعاء المخلص يصدر من نفس صافية عالية التركيز والتجرد. وهو ما يصنع المواقف التي تبدو مستحيلة أو صعبة المنال.

فمثلاً: تعرضت سفينة لعاصفة هوجاء أطاحت بالشراع وحطمت جسد السفينة وتناثر الناس في عرض البحر. وأحد هؤلاء بدأ يدعو الله بعمق وتركيز وصفاء ذهن، وهو يلتفت يمنة ويسره لعله يجد ما ينقذه. هذا الشخص سيكون أقدر من غيره على التفكير بعيداً عن القلق والهلع وسيكون أقدر على البحث عن لوح طاف يتعلق به ويصل عليه للشاطئ. فهو قد دعا واستجيب دعاؤه، وهو أقدر على النجاة من شخص يصاب بالهلع والخوف من الموت فيموت بالصدمة قبل أن يغرق، ولن يكون لديه الوقت الكافي للتفكير ومحاولة النجاة.



هنا الله جل وعلا هو من نجّى الرجل الذي دعاه، وهو من أهلك الآخر. ليس بالتدخل المباشر وتحريك اللوح الخشبي من مكان بعيد ليصل للناجي. الله لم يفعل هذا سبحانه. ولكن تركيز الرجل وتفكيره دون اضطراب وقلق جعله يجد اللوح ويستفيد منه. بينما الرجل الآخر الذي سيطر عليه الهلع لن يرى اللوح الخشبي ولو مر بجواره، ولم يكن الله هو من تدخل مباشرة وجعل الخوف والهلع يسيطران عليه. ولو كان هناك تدريبات للناس عن كيفية ضبط النفس والابتعاد عن الهلع، وكيف نتصرف في اللحظات الحرجة فنكون ساعدنا الناس على الاقتراب من الله والحصول على عونه سبحانه.

ونجاة ذلك الشخص ليس لأنه مسلم أو كافر، ولكن لأنه استغل ما أوجده الله له من عقل وتفكير وهدوء وحسن تصرف، وكلها نعم أوجدها الله في النفس البشرية. وهذا ما يؤكده القرآن، ومن ذلك ما ورد في سورة العنكبوت في حديثها عن المشركين: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦).

فالسفينة التي تتعرض لعاصفة وتنجو. لم تكن نجاتها بتدخل مباشر من الله لكنه سبحانه هو من أنجاها. فهو سبحانه من جعل العاصفة تهدأ، ليس بشكل مباشر بحيث يرسل ملائكة ويهدئون العاصفة. ولكن لأن العاصفة تثور وتهدأ بفعل عوامل جوية أوجدها الله على الأرض قبل خلق الإنسان. وفي اللحظة التي كادت السفينة أن تتحطم توفرت العوامل الجوية التي تسببت بهدوء العاصفة، فهدأت ونجا الناس برغم أنهم كفار.

الخلاصة:

الخلط الذي عليه الناس أنهم يدعون الله لكي يتدخل مباشرة فيما يريدون. بينما رب العالمين (رب كل الناس كافرهم ومؤمنهم) تدخل في حياة الناس بكل ما يحتاجون قبل أن يخلقهم بتوفير ما يحتاجون له. والدعاء مهم جداً في حال الأزمات لأنه يساعد الإنسان على اكتشاف ما أودعه الله له وفيه نجاته.

الناس يريدون الخالق أن يكون إنساناً يتعامل بالعواطف، ولديه قوى خارقة ليستفيدوا منها. بينما الواقع هو أن الخالق يدير كونه كخالق عظيم وليس بعقلية مخلوق.

والله جل وعلا أودع في الكون وفي النفس وحولها وفي الأرض قوى محسوسة وغير محسوسة



كنعم للمخلوقات، وما لم يوجده سبحانه فلا سبيل لأي مخلوق من إيجاده: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٣) فاطر.

فمثلاً قوانين الفيزياء والرياضيات أوجدها الله واكتشفها الإنسان، مثلها مثل الماء والطعام، ومثل تطويع المعادن وغيرها: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(٢٠) لقمان.

والآية تخاطب قريش وتدعوهم للتفكير بعظمة الخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث الذي ينكرون. والآية تقول هناك نعم ظاهرة لكم مثل الماء والطعام والأنعام وغيرها. وهناك نعم باطنة مخفية وقوى خارقة في النفس وفي طبيعة من حولنا قد تجهلها قريش لكنها تعينهم في حياتهم ولو لم يشعروا بها. ومن ذلك قانون الجذب والقوى الخفية في النفس وفي الكون وما حولنا.

القضاء والقدر

لفظان شاع استخدامها معاً بمعنى أن الله جل وعلا قد قرر كل الأحداث مسبقاً. فسرقة سيارة أو سجن بريء أو قتل عمد أو سرقة مال عام كلها أحداث مقدرة منذ الأزل، ومثله من يملك المال والسلطة. ومن يولد بصحة جيدة ثم يفقد والديه ويصبح مشرداً ولا يحصل على تغذية مناسبة ثم يموت نتيجة لتعطل الكلى وهو في التاسعة من عمره لأنه لا يستطيع دخول المستشفى فهو مقدر منذ الأزل. كما أن من ولد للشهر الخامس لكنه يحظى بعناية مركزة وينمو في بيئة بديلة لرحم الأم ويعيش بكامل صحته إلى أرذل العمر لأنه ولد في عائلة غنية فهو مقدر منذ الأزل.

فهل بالفعل قدر الله جل وعلا الأحداث ومصائر الناس يوم القيامة مسبقاً كما هو شائع؟

وهل هناك آية واحدة في كتاب الله تذكر لفظ «القضاء»؟

وهل هناك في كتاب الله آية تذكر القدر بمعناه الشائع؟



تقول سورة الفجر: فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠).

الآيات هنا تتحدث عن إحدى طباع الانسان السائدة، والمتمثلة في أنه إذا ما أصاب الإنسان من المال الكثير يشعر بأن الله أكرمه بهذا المال لأنه يستحقه. بينما لو لم يوفق وكان حظه قليلاً مادياً وافتقر، فسيخالجه شعور أن الله هو من قدر عليه ضيق العيش.

ثم جاءت كتب التراث لتهون على الفقير أو من تعرض لمصيبة بالزعم أن ما حدث له امتحان من الله، وعليه أن يتقبله ويصبر عليه ليكتب له أجر في الآخرة. وإذا ما كان المالك للمال عدواً قالوا هو استدراج من الله له ليستمر في غيه ويدخل النار. أما من أصابته مصيبة وهو مسلم فيقولون بأن هذا عقاب من الله له على كبيرة ارتكبها. وقد اختلقت في هذا أحاديث كثيرة لن نتطرق لها.

والقرآن ينفي هذا المعتقد، ويقول إن ما يحدث هو أن الغني يجمع المال بسبب عوامل كثيرة، ليس منها أن الله قسم له هذا المال وخصه به. وعندما يصبح الإنسان غنياً وذا مال وفير، يحجبه عن غيره، فيصيب الفقر البعض نتيجة لذلك. لهذا أوجب الله على الغني الإنفاق على الفقير. ولو أنفق الغني من ماله على حاجات الفقير لعاش الغني بغناه واختفى الفقر من المجتمع. فالفقر نتيجة لجشع الغني وجمعه لمال يفوق احتياجاته بطرق مختلفة بعضها حرام. وهناك المزيد من الأدلة سبق ذكرها في فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة، وفقرة: خلق الكون بقوانين ثابتة.

والله جل وعلا لم يقرر على أحد دخول جنة أو نار بل الإنسان هو من يقرر مصيره: إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً(٤٠) النبأ.

فالمرء هو من يقرر مصيره بنفسه بناءً على ما تقدم يداه (أي ما يصدر منه من قول وفعل)، ولا شيء مقدر عليه مسبقاً.

وتبدأ سورة الإنسان مؤكدة أن الخالق الكريم خلق الإنسان من ماء مهين ثم سواه بشراً ذا سمع وبصر وعقل وقدرات كثيرة تؤهله لأن يكون قادراً على تبين الحق من الباطل: هَلْ



أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً(١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً(٢).

ثم ترك له كامل الاختيار ليختار الطريق التي يريد: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً(٣).

فهو من يختار لنفسه الشكر والهداية، أو الكفر والنكران دون تدخل من خالقه سبحانه. مما يؤكد أنه ليس هناك مصير مكتوب مسبقاً على أحد من الخلق في حياته ورزقه ومماته وهدايته وضلاله[1].

وتقول سورة فاطر: وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١).

الله جل شأنه يعلم كل ما يدور في خلقه، لكنه لا يتدخل مباشرة في تسييره أو في حياة مخلوقاته. ولم يقرر آجالها مسبقا[2].

وقوله في الآية السابقة: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ». ليس المقصود أن الآجال والأرزاق مقررة مسبقاً، ولكن كل ما يحدث بإمكان الله جل وعلا أن يمنعه ولكنه لم يفعل. وكل ما يحدث فالله يعلمه ولكنه لا يقدره مسبقاً على الخلق. لأن حرية الاختيار من عدله المطلق سبحانه.

وتقول سورة فصلت: وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(٢٥).

وكأن الله قد كتب عليهم الضلال، وليس الأمر كذلك، ولكنه أسلوب القرآن المميز والذي يقول بأن كفر الكافر لم يكن ليحدث لو لا أن الله جل وعلا أتاح لهم القدرة على الاختيار، ولما اختاروا الكفر، فكأن الله هو من قيض هذا.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) سبأ.

وقوله: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ

١ انظر فقرة: الدين خيار شخصي.

٢ انظر فقرة: كل نفس بما كسبت رهينة.



وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩) سبأ.

ومثله ما ورد في سورة الشورى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٢).

وبسط الرزق أو قدره (قلته) لا يعني أن الله جل شأنه كتب منذ الأزل أن فلاناً سيكون فاحش الثراء وفلاناً سيكون فقيراً معدماً. ولكن الآية تقول بأن كل من كسب مالاً أو أصبح فقيراً فبمشيئة الله. بمعنى أن هناك ظروفاً وعوامل اجتمعت فنتج عنها الغنى أو الفقر وهذه الظروف تحدث للمؤمن والكافر على حد سواء، ووجودها كان بمشيئة الله ولو لم يشأ سبحانه لم توجد.

ومن ذلك أن النجاح في التجارة يقوم على عوامل كثيرة منها: الإدارة، التسويق، الحظ، التخطيط...الخ

وتقول سورة الحجر: وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ(٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٥).

والكتاب المعلوم هنا يعني أن ما حدث لهم مسجل وموثق، ولا تعني أن هلاكهم قدر عليهم مسبقاً[١].

كما في سور أخرى مثل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣) سبأ.

وقوله: « مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ" فكل أمة هلكت بكارثة طبيعية سجل وقت وقوع الكارثة ولن يتقدم قبل أوانه أو يتأخر. فالكوارث الطبيعية تحدث لتوفر عوامل حدوثها. ومتى توفرت العوامل حدثت الكارثة لا تتأخر بعدها ولا تتقدم قبل توفرها. ولا تتحدث السورة عما عرف بالقضاء والقدر وكأن الله جل شأنه قد حدد لكل شخص عمره وكيف سيموت.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ(٥٦) المؤمنون.

١ انظر فقرة: كل ما يدور في الكون يسجل بدقة.



الله جل وعلا لم يتدخل مباشرة لكي يحصل رجال قريش على الأموال، ولكن ما حدث هو أن رجال قريش استطاعوا أن يكونوا الناقل الأهم للبخور والبهارات واللبان من جنوب جزيرة العرب لبلاد الشام والعراق، ويجنوا من ذلك الأموال الطائلة. لكن بما أن الله جل وعلا خلق الجمال التي ينقلون عليها البضائع، وخلق العقول التي تفكر. ونحو ذلك، فالله جل وعلا هو من أنعم عليهم بالمال.

ومثله: حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٠٠) المؤمنون.

الآيات تتحدث بتعبير مجازي يصور الكافر عند الموت وكأنه يخاطب أحداً يمكنه إعادته للحياة، وهذا لا يتم على أرض الواقع لأن الميت يدخل في غيبوبة قصيرة لبضع ثوانٍ أو دقائق أو ساعات وأيام قبل أن تفارق نفسه جسمه. ولا يدري الميت أنه مات إلا يوم القيامة عندما يبعث.

والآيات لا تقول بأن لحظة الموت مقدرة مسبقاً بل تصور ندم الكافر على التفريط بحياته في الكفر وخسارته الآخرة.

ومثل ما سبق قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢) الحديد.

فسورة الحديد نزلت قبيل معركة أحد وفي فترة يفترض أن ينفق فيها المسلمون أموالهم لتجهيز الجيش، لكن يبدو أن العام كان عام قحط ولم تنزل الأمطار فكان هناك شح في الأموال وامتنع كثير من الناس عن الإنفاق، فجاءت الآيات تحثهم: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٧) الحديد.

وإن احتبس المطر هذا العام فقد يأتي في عام قادم، وتحيا الأرض بعد موتها. والخسارة المادية لهذا العام قد تعوض في عام قادم، لكن الامتناع عن الإنفاق ذنب لا يغفره إنفاق العام القادم. والإنفاق تجارة رابحة مع الله مضمونة لا تعتمد على المطر وليس لها موسم: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٩) الحديد.



وإذا كنتم تباطأتم عن الإنفاق خوف الفاقة، فتذكروا أن الدنيا كلها سرعان ما تزول، مثلما زالت حشائش الأعوام السابقة التي نمت بفعل المطر، فكيف تحرصون على الزائل، بينما لو أنفقتم فسيكتب لكم أجر ومكسب دائم: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١) الحديد.

وخسارة محاصيلهم نتيجة القحط مصيبة حلت بهم بالمقاييس الدنيوية. لكن عليهم أن يتذكروا أن احتباس المطر وهطوله نتيجة لقوانين وضعها الله في الكون. أي أن المطر يتوقف بإذن الله (أي لعدم توفر الظروف الجوية المناسبة لهطوله) وينزل بإذن الله (أي بتوفر الظروف الجوية المناسبة لهطوله). وهذه الظروف تتواجد بموجب قوانين ثابتة منذ خلقت الأرض وليست نتيجة لتدخل مباشر من الله جل وعلا بأن يأمر سحاب فيمطر على منطقة ويأمره فيمتنع عن أخرى، كما صورت كتب التراث.

فإذا عرف المسلم ذلك هانت عليه مصيبة فقدان المحصول واحتسب عند الله ولم يتوقف عن الإنفاق. بل أنفق لكي يزرع له محاصيل ثابتة يوم القيامة. وإذا ما عرف المؤمن أن كل مباهج الدنيا (الأموال والأولاد) كزرع سرعان ما يصفر وتذروه الرياح، فلن يتباهى بما يملك ولن يكون زيادة ماله مدعاة للفخر، ولا نقصه مدعاة للحسرة: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٢٤) الحديد.

فالمصيبة في الآية هي خسارة المحاصيل والأنعام وقد حدثت لأن الله قد قررها (في كتاب من قبل أن نبرأها) أي وضع القوانين التي تتسبب بهذه المصيبة منذ خلق الأرض وقبل خلق الإنسان والمتمثلة بضرورة توفر عوامل مناخية معينة لكي ينزل المطر، وإذا لم تتوفر فلن يهطل. ولا تتحدث الآية عن (القدر) بمعناه الشائع.

وقد نزلت سورة التغابن مباشرة بعد سورة الحديد وفي نفس الفترة التي تسبق غزوة أحد



- وتكرر الحديث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق بسبب شح المطر ونقص الموارد، وتقول إن ما أصابهم فهو بأمر من الله، لأن المطر ينزل بناءً على تظافر ظروف مناخية ملائمة، قد لا تتوفر في مناخ الصحراء في بعض السنوات، كما حدث في يثرب تلك السنة، وتسبب بضيق العيش. لكن هذا يجب ألا يثني الناس عن الإنفاق، لأن دولة الإسلام تعتمد عليه في بقائها وفي تسليح جيشها: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٣) التغابن.

وهناك آيات أخرى يظن الناس أنها يمكن أن يستدل بها على أن الله يتدخل مباشرة في الدنيا وقد تطرقنا لها في تدبر السور وفي فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة / قسم أدلة من القرآن.

وهناك العديد من الآيات التي يظن البعض أنها أدلة على ما يسمى بالقضاء والقدر، وكلها تم تأويل معانيها ولا علاقة لها بما يسمى بالقضاء والقدر. وقد تطرقنا لها أثناء تدبر السور وفي فقرة: الله لا يتدخل مباشرة في أمور الدنيا.

وباختصار:

القضاء والقدر بمعناهما السائد لا وجود لهما في القرآن، فالقضاء لفظ يخلو كتاب الله من ذكره. والقدر بالتعريف تكرر في سورة القدر ولكن بمعنى يختلف عن المعنى السائد. وكل الآيات التي يُستدل بها على أن هناك قضاء وقدراً بالمعنى السائد تم نزعها من سياقها وتأويلها لغير معناها. وبسبب ما ورد في كتب التراث حول ما عرف بالقضاء والقدر، ترسخ لدى الناس أن الأرزاق والأعمار والمصير مكتوبة قبل أن يولد الإنسان، وهذا وربي تثبيط للهمم وتأصيل للاتكال والتكاسل. فهم لا يتعلمون ويصنعون سلاحهم ويحمون أنفسهم، وعندما يجتاح العدو بلادهم تتعالى أصواتهم نحو السماء طالبين من الله أن يتدخل لدفع العدو عنهم ونيابة عنهم، لأنهم يعتقدون أن من قرر اجتياح بلادهم هو الله. وعندما يحل بهم ظلم وتعسف يطلبون من الله أن يرفعه عنهم بدل أن يدفعوه بأنفسهم، لأنهم يعتقدون ان الله هو من سلط عليهم الظالم ومتى شاء كف يده عنهم. وهكذا سارت حياة المسلمين طوال القرون الماضية، اتكال وتكاسل ومهانة وذل. إضافة إلى إهمالهم لاحتياطات السلامة



لأنهم مقتنعون أن الله هو من كتب عليهم المصائب وهو من يرفعها عنهم. وكل ما عليهم فعله هو الصبر وعدم معارضة قدر الله وقضائه. وبموجب هذا المفهوم الخاطئ يتمكن الشخص من التنصل من مسئولياته وفشله وتحميلها على القضاء والقدر. فهو عندما تهاون في توفير سبل السلامة في منزله ونتج عنه حريق التهم البيت ومن فيه لم يكن خطأه ولكنه مكتوب منذ الأزل أنه سيخسر بيته وأسرته في حريق. وعندما يضع سائق السيارة ابنه الرضيع امامه متمسكاً بمقود السيارة وتنحرف سيارته وتصدم بخرسانة على جانب الطريق ويقتل الطفل، لا يشعر الأب أن الله سيحاسبه على قتل ابنه، ولا يشعر بأي تأنيب ضمير لأن ما حدث خارج عن مسئولياته ومكتوب عليه. فالله هو من قدره وليس له ذنب فيه .... الخ

وهذا المفهوم الأعوج، كان موجوداً عند قريش التي تبرر رفضها للدعوة وتمسكها بعبادة الأوثان بأنه قضاء وقدر من الله عليهم: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ(٢٢) الزخرف.

والسورة تقول لهم هذا تخريف، لم يقل به الله ولكنهم ظنوه بلا دليل: « مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ". والحقيقة التي تريد قريش أن تتعامى عنها هي أن الله لم يقدر عليهم ضلالاً وهداية بل هم من يختار طريقهم بكامل حريتهم. ورفضهم الدعوة يعود إلى تمسكهم بالموروث ورفض ما يخالفه ولو كان هو الحق من ربهم.

إلا أن القرآن تحدث عن معنى أشمل من مفهوم القضاء والقدر السائد، وهو أن الله جل شأنه أوجد في الأرض وكل الكون كل ما يحتاجه الخلق من بشر وغير بشر، بعضها قوى خفية قد لا يعرفها المخلوق إلا في حالات استثنائية، وبعضها ظاهر. وأوجد في جسد المخلوق ما يحتاجه ليحافظ على صحته منذ الأزل، لكنه سبحانه لم يقرر الأرزاق الفردية والأجيال بالمفهوم السائد. كما أن كل شيء في الكون يسير بأمر الله ومشيئته بالمعنى العام المتمثل في أنه لولا مشيئة الله لم يكن هناك خلق، ولولا مشيئة الله لما وقع ما وقع، فلا شيء يحدث خارج مشيئته سبحانه. لكنه سبحانه لا يتدخل مباشرة بتصرفات الناس أو مصائرهم أو في أحداث الدنيا على الأرض أو في أي مكان من الكون فكل شيء يسير بقوانين ثابتة.



اللافت، أن من يؤمن بالقضاء والقدر يؤمن بأن الله عادل عدلاً مثالياً مطلقاً، وهو سبحانه كذلك. لكن ما يتصوره الناس عن القضاء والقدر يتعارض جذرياً مع عدل الله المطلق.

لأن العدل المطلق يحتم أن يكون الإنسان حراً باختياره وألا يجبر على تصرف أو قول. والمفهوم الشائع عن القضاء والقدر يعني أن هناك من قرر الله عليه المرض والفقر. وهناك من قرر له الغنى والصحة. وهناك من قرر له الإيمان وغيره قرر عليه الكفر ... الخ. ويوم القيامة يدخل النار من قرر الله عليه الضلال، ويدخل الجنة من قرر الله له الهداية.

فأين هو العدل هنا؟

ولو قال قائل: إن الله لا يسال عما يفعل نقول له نعم. فالله لا يسأل لماذا خلق الخلق؟ ولكن ما نتحدث عنه ليس له علاقة بهذا.

ما نتحدث عنه هو ما قاله الله عن ذاته سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) يونس.

فالله جل وعلا لا يظلم الناس شيئاً مهما كان صغيرا: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) النساء.

ولا يوجد ظلم مثقال ذرة، يعني لا يمكن أن يقدر على أحد شيئاً ولا يمكن أن يتدخل مع أحد ضد أحد. ولو كان سبحانه سيقرر مسبقاً أو يتدخل في أمور الدنيا لما خلق الآخرة، ولما كان هناك قيامة. فمن يشأ الله يدخله الجنة ومن يشأ يدخله النار، ولا حاجة للحساب.

وهناك حديث مضحك مبكٍ على شكل دعاء يقول: اللهم لا أسالك رد القضاء ولكني أسالك اللطف فيه.

فالله إن كان كتب على شخص ما أنه سيقتل تحت عجلات سيارة، فهذا الدعاء لو استجيب سيجعل عملية القتل ألطف لكنه لن يوقفها.

وبطبيعة الحال هذه الحديث منكر عند اهل الحديث ولا أحد يقول بصحته (عندهم) لكن هناك حديث يعتبرونه صحيحاً منسوباً لابن عباس ورواه الترمذي ويقول: «الدعاء يرد القضاء».

يعني أن الله لو أنه كتب مسبقاً أن فلاناً سيقتل يوم الجمعة تحت عجلات سيارة وقام



الشخص بدعاء الله أن يحفظه في ذلك اليوم فإن الله سيغير رأيه وسيلغي ما كتبه على ذلك الشخص وسيختار له يوماً آخر ليموت وبطريقة أخرى.

وقريب من مفهوم القضاء والقدر:

الأجل المسمى

يعني الوقت المحدد المعروف التاريخ، كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ....(٢٨٢) البقرة.

فالتداين يكون إلى يوم محدد معروف التاريخ.

وقوله: اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢) الزمر.

لا يعني أن كل إنسان له وقت محدد مسبقاً لموته بما يتفق مع ما هو سائد عن مفهوم القضاء والقدر. بل يعني أن الإنسان له عمر افتراضي لا يستطيع أن يتجاوزه، فهو مخلوق بجسد قابل للهلاك إن لم يكن بحادث فبمرض وإلا فالهرم كفيل بموته، ولن يعيش إلى الأبد. فهو له أجل مسمى (محدد لا يتجاوزه).

ومثله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) الحج.

فالجنين لا يمكن أن يبقى في الرحم إلى الأبد أو أطول من الفترة الافتراضية والتي تقدر بحوالي أربعين أسبوعاً. لكن الجنين يمكن أن يولد قبل ذلك بأسبوع وقد يتأخر عن ذلك بأسبوع أو اسبوعين لفترة الحمل الطبيعية. أو بمعنى آخر مدة الحمل الطبيعي تكون بين ٣٨ – ٤٢ أسبوع. مثلما أن عمر الإنسان لا يزيد عن ١٠٠ – ١٢٠ سنة في الحالات الاستثنائية وعادة ما يكون ٦٠ – ٨٠ سنة. فهذا هو المقصود بالأجل المسمى هنا.

ونأتي إلى آية تثير بعض التساؤلات عند الناس لأنه ترسخ لديهم أن الله جل شأنه قد قرر



الأعمار والأقوات والجنة والنار وكل شيء مسبقاً. وبرغم أن هذا القول يتعارض مع رحمة الله ومع أن اختيار الهداية والضلال خيار شخصي حر ومع عدل الله المطلق إلا أن الموروث أقوى من العقل ومن المنطق.

ولو لم تترسخ فكرة القضاء والقدر عند الناس لما توقفوا عند هذه الآية وفهموها كما يمكن أن تفهم الآيات الأخرى التي تذكر الأجل المسمى والذي يعني أن الكون سينتهي بعمر محدد وينشأ كون القيامة بوقت محدد أو أن الإنسان له عمر محدد لا يستطيع أن يعيش للأبد أو أكثر منه.

ونص الآية: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٦١) النحل.

فالآية تقول إن الله لن يهلك الناس بظلمهم وكفرهم وسيعيشون حياتهم (ويوم القيامة سيحاسبون).

الله سيتركهم يعيشون، وسيؤخر حسابهم لأجل مسمى، وهو يوم القيامة. وليس المعنى أن الله قدر لكل فرد عمراً محدد بالأيام والساعات والثواني.

والحديث هنا عن الناس جميعاً، مما يعني استحالة أن يكون لهم جميعاً عمر محدد لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

فالآية لا تتحدث عن شخص بعينه وأنه سيموت في لحظة محددة لا يتأخر عنها ساعة ولا يتقدم.

إذا، المقصود بالأجل المسمى هو يوم الحساب.

فلن يكون للناس عذاب في الدنيا لظلمهم وكفرهم ولكن سيعيشون حياتهم، وحسابهم سيكون في موعد محدد لن يتأخروا عن حضوره ساعة ولن يتقدموا ساعة والمقصود به يوم الحساب. فهو الأجل المحدد هنا.

والعبارة مجازية لزيادة التأثير، فوصف الأجل (الموعد) بأن الناس لن يتأخروا عنه ساعة ولن يتقدموا عليه ساعة، وصف لدقة موعد يوم القيامة وأنه قادم لامحالة في وقت محدد بدقة لا تأخير فيه ولا تقديم، لأن الحديث في الآية موجه لقريش التي تنكر البعث.



وفي الغالب وفي الحالات العادية، فالإنسان يريد أن يؤخر موته. وهو ما يتوافق مع قول الآية: «لا يستأخرون ساعة» لكن لا يرغب الإنسان في أن يعجل بموته قبل أوانه، لذا لا يمكن أن يكون المقصود شخصاً يريد أن يقدم موعد موته ساعة أو أي مدة...

وهذه آية أخرى تكرر ما قالته الآية السابقة: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً(٤٥) فاطر.

ويمكن ملاحظة أن هذه الآية تكرر حرفياً ما قالته آية النحل إلا أنها تقول:« فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً» فالأجل هنا هو يوم الحساب عندها سيكون سبحانه بهم بصيراً وعليماً بمصائرهم لأنه هو سبحانه من سيحاسبهم. وهو توضيح للمقصود بالأجل المسمى (القيامة) والذي سيأتي في وقته دون تأخير ولا تقديم.

ومثله: يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤) نوح.

فالمقصود بالأجل المسمى هو يوم الحساب، وهو سيأتي في موعد محدد بدقة. فانهيار هذا الكون سيتم في وقته المحدد سلفاً وكذلك نشأة كون القيامة.

ومثله: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(٣) الأحقاف.

السماوات والأرض هنا تشير للكون والذي خلق بعمر محدد وسينتهي في وقت محدد.

ومثله: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(٥) الزمر.

الشمس والقمر وكل ما في الكون يجري لأجل مسمى (الوقت المحدد لنهاية الكون).

وهو ما تكرر في قوله تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣) فاطر.

وفي قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) لقمان.



فالأجل المسمى في آية النحل يعود لموعد القيامة، ولكن المفسرين أولوه لكي يسندوا ما يريدون ترسيخه من أن الإنسان مسير ومقدر عليه كل شيء مسبقاً.

وحديثنا عن القضاء والقدر بمفهومه الشائع لا يتعارض مع أن كل شيء في الكون يسير بإذن الله ولا شيء يخرج عن سيطرته. ومشيئة الله في القرآن تعني أن كل ما يجري في الكون لا يمكن له أن يتم لولا أن الله شاء له وأذن لها بذلك وهذا يكون بقوانينه حين خلق الكون. ولو أن الله جل شأنه قدر علي مسبقاً وقبل خلقي أني من اهل النار، فلماذا يطالبني (كغيري من الناس) أن أفكر وأتلمس الطريق لاتباع دينه لأنجو بنفسي من النار، ما دامت النجاة من النار ليست بخياري بل بما كتبه الله علي؟

الإنسان يريد أن يلوم الله بدل أن يعترف بتقصيره. نراه يهمل مراقبة طفله فينطلق الطفل في مسار السيارات وتدهسه السيارة فيقول والده قدر الله وما شاء فعل. وبهذا فالطفل مات لأن الله قبل ولادة الطفل قرر أنه سيموت بالدهس في هذا اليوم. بينما الحقيقة هي أن الوالد هو المهمل وعليه أن يحاكم بالقتل الخطأ في الدنيا، ويواجه حسابه يوم القيامة على إهماله.

فالقضاء والقدر بمفهومها الشائع أسهل وسيلة للتخلص من الشعور بالذنب وإلقاء اللوم على الله فيما تقترفه أيدينا من تجاوزات ومعاصي.

الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة

مشيئة الله تتمثل بخلق كل شيء بقدر، ومشيئة الإنسان تتمثل بتقرير مصيره واختيار طعامه وعلاجه وطريقة حياته ... الخ. فلو دخل النار أو الجنة فذلك نتيجة لأعماله التي فعلها باختياره. ومشيئة الله أن جعل لجسمه عمراً افتراضياً لا يتجاوزه (خلايا تهرم وتموت) لكن مشيئة الإنسان قد تتدخل داخل إطار مشيئة الله. فالطب والغذاء أطالا عمر الإنسان، وهما من إنتاج الإنسان، داخل دائرة مشيئة الله. لكن مهما بلغ الطب والغذاء من تطور لن يبقيا الإنسان حياً للأبد. لكن قد يمتد بالإنسان العمر لو لقي عناية طبية متقدمة أكثر ممن لا يجد، ونفس الشيء بالنسبة للغذاء. وقد يتوصل العلم عن طريق ما يعرف بالخلايا النخاعية أو غيرها من استزراع أعضاء جديدة بدل التالفة كالقلب والرئة والكبد وغيرها، مما يتيح إطالة حياة الإنسان.



في المقابل فإن الحوادث تقصر عمر الإنسان، وهي من صنع وتدبير الإنسان لم يكتبها الله عليه. فالذي يقود سيارته بتهور ويقع له حادث ويموت فهو من قتل نفسه ولم يقتله الله. كذلك التهور وعدم أخذ الحيطة في كل شيء.

والمسلمون وبتأثير من الموروث فهموا أن الله يسير الكون حسبما يرى في ذات اللحظة. فمثلاً يمكن أن يوجه الرياح المحملة بالسحاب لبلدة ما اليوم لأنه ارتأى ذلك لحظتها، ثم يرتئي أن يحرمها من المطر لسنة أو عشر أو عشرين سنة. ويمكن أن يتدخل ويشفي إنساناً مصاباً بمرض لا يمكن برؤه، ويقتل آخر بصحة جيدة. ويمكن أن يفتح أبواب الكسب المادي على شخص ويحرم آخر منها. ويعطي حكم بلدٍ لحكام متسلطين يتوارثونها أباً عن جد، ويعطي بلداً آخر لأناس يحكمون بالعدل والقانون. وإلى غير ذلك.

وهناك بعض الآيات التي يستشهد بها من يعتقد أن الله يتدخل فعلياً وفي كل لحظة بما يجري على الأرض وبين الناس، وسنمر على بعضٍ منها لنبين أن وجه الاستدلال خاطئ ويُحمّل الآيات ما لم تقل، ومن ذلك:

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً(٢٧) نوح.

هذا الدعاء الصريح من نوح لم يستجب له رب العالمين، لأن الخالق سبحانه خلق الدنيا دار عمل، والآخرة لتقرير المصير: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٦٥) الأنعام.

ولو استجاب الله لدعوة بشر (أي بشر حتى لو كان رسول من الرسل) وألحق ضرراً بالشخص المدعو عليه فهذا ظلم يخالف عدل الله المطلق الذي بموجبه خلق الكون وكل المخلوقات والحساب وكل شيء، فالله لا يتعامل بالعواطف. مثله مثل لو استجاب لبشر وحقق له طلباً دنيوياً، ولم يستجب لغيره فقد ظلمه، والله لا يظلم أحداً ولا يحابي أحداً وكل الخلق يتم التعامل معهم بعدل مثالي كافرهم ومؤمنهم في الدنيا.

والدعاء المستجاب في القرآن يأتي بمعنى طلب المغفرة، وليس طلب شيء دنيوي: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠) غافر.



الآية يستدل بها من يظن أن الله – جل شأنه – يستجيب لدعاء الناس لأمور دنيوية ويحققها لهم، وذلك ببتر الآية والتوقف عند قوله تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" ولا يكملون قراءة بقية الآية لئلا ينتبه السامع أن الآية تتحدث عن الاستغفار والتوبة من الذنوب، وليست لمطالب دنيوية.

ومثله: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٥) غافر.

فالدعاء المستجاب لطلب المغفرة وليس لأمور دنيوية.

والمؤسف أن الشائع الآن بين كثير من الناس أن يطلب من الشخص المقابل أن يدعو له، وكأن الله يستجيب للواسطة (المعروفة جداً في مجتمعنا). ولو كان الله يستجيب للدعاء بالمفهوم الشائع فلماذا لا يستجيب دعائي لنفسي ويقبله من غيري؟

وما يجب أن يعرفه الناس هو أن الدعاء لشيء في الدنيا لا يمكن الاستجابة له لأن الدنيا مشاعة للكافر والمؤمن على حد سواء: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

والتوفيق في الدنيا لا يعني رضا الله، كما أن عدم التوفيق لا يعني سخط الله. فالكافر أو المسلم لو خطط ونجح تخطيطه لكسب في الدنيا بغض النظر عن عقيدته. لأن نجاح الدنيا يخضع لعناصر دنيوية منها الحظ والتخطيط السليم ...الخ.

كما أن كل ما يقع في الدنيا من ظلم وأكل لحقوق الناس أو تعديات، لن يعاقب عليها الظالم والمعتدي في الدنيا ولكن يوم القيامة.

وتضرب سورة الكهف لقريش مثلاً على أن الدنيا نعمتها لا تدوم وسرعان ما تنتهي، لعلها تعبر وتؤمن: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً(٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً(٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً(٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً(٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً(٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً(٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً(٣٩) فَعَسَى



رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً(٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً(٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً(٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً(٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً(٤٤) الكهف.

فالأعمال الدنيوية قصيرة العمر وسريعة العطب، بينما الأعمال للآخرة تبقى وتدوم.

ولو وجد مزرعتين، واحدة لمؤمن يسعى للآخرة فلن يهتم ويصاب بالغم لو أصاب مزرعته البوار، لأنه يعلم أن كل شيء دنيوي إلى زوال. بينما المزرعة الأخرى لكافر لا يؤمن بالآخرة ويعتبر الدنيا غاية. لذا فلو أصيبت مزرعته فسيقضي عليه من الحزن والأسى عليها، كونها غاية.

والآيات تظهر وكأن الكافر يتباهى على المؤمن بأن مزرعته أغنى وأكثر ثمراً، ولديه أولاد أكثر من صاحبه المؤمن الذي يعلم أن الدنيا وما فيها لا تساوي شيئاً.

والمؤمن – أثناء الجدال – قال لصاحبه: فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً(٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً(٤١).

ثم أحيط بثمر صاحبه وتلف، لكن هذا لم يكن نتيجة لدعاء المؤمن (الذي لم يقع) ولكنه حدث لعوامل أخرى، وإن وقعت بعد أن حذر المؤمن الكافر بأنه لا شيء يدوم وأن ما في الدنيا عرضة للفناء في أي لحظة. والمؤمن لم يطلب من الله أن يرسل حسباناً من السماء على مزرعة الكافر أو يغور ماؤها. لكنه كان يحذر الكافر بأن هذا قد يحدث وبالفعل حدث.

كما أن ما أصاب الثمر لم يكن نتيجة لكفر صاحب المزرعة، ولكنه يحدث لمزارع المؤمن والكافر بسبب عوامل لا شأن لها بالمعتقد. وهذه المرة حدث لمزرعة الكافر.

والفارق أن الكافر يجزع مما يحدث لمزرعته وماله، بينما المؤمن لا يجزع لأنه مؤمن أن الدنيا متاع لا يدوم.

ومثله: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٥) غافر.

فالدعاء المستجاب لطلب المغفرة وليس لأمور دنيوية.



ومثله: أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ(٦٢) النمل.

الله جل شأنه أودع في النفس البشرية قوى هائلة تمكنه – لو استطاع استغلالها – من النجاة. ولو نجا فالله سبحانه هو من أنجاه، ليس مباشرة لكن بما أودع من قوى.

فلو دعا إنسان الله أن ينجيه من الغرق في بحر هائج ونجا إما بسبب أن الأمواج هدأت أو لأن الشخص استطاع أن يطفو فوق لوح خشبي ويصل للشاطئ أو بأي وسيلة أخرى، فالله هو من نجاه، ليس بأمر الموج – فعلياً – بالهدوء ولكن لأنه سبحانه هو من أوجد العوامل التي أدت لهدوء الموج، وهو سبحانه من ألهم الإنسان لركوب اللوح الخشبي، وهو سبحانه من سير اللوح باتجاه الشاطئ ليس فعلياً ولكن لأن الريح هبت باتجاه الشاطئ... وهكذا

وتقول سورة الزخرف: أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢).

ولو كان الله جل وعلا يتدخل في أمور الدنيا لضمن لرسوله البقاء حياً حتى يكمل رسالته، ولم تقل الآيات إن الرسول قد يموت أو يقتل في أي لحظة. ولو قتل في مكة فلن يكون هناك إسلام، لأن التشريعات لم تكتمل إلا في المدينة. ولكن سيكون إيمان بالله وسيحتاج الناس إلى رسول آخر تكتمل معه رسالة رب العالمين للناس في كل زمان ومكان.

وقد أكدت سورة غافر ما ذكرته الزخرف: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧).

وهو ما كررت ذكره سورة الرعد: وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(٤٠).

وتقول سورة يونس: وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧).

لا يعني أن الله قد قرر مسبقا الحوادث والمرض على الناس، ولا يعني أن الله هو الذي يبرئ المريض مباشرة. ولكن المعنى أن كل ما يحدث في الكون بعلم الله وتقريره، ولو لم يشأ لما حدث.



قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٤) يوسف.

استجابة الله لا تعني هنا أن الله هو من أمر بسجنه، فالذي أمر بسجنه العزيز، ولم يكن بإيحاء من الله، ولكن تلبية لرغبة زوجته. لكن موافقة العزيز على إصدار قرار السجن جاء في وقت كان فيه يوسف يدعو الله أن يسجن، أو يتمنى أن يسجن ولا يقترف الفاحشة مع المرأة. لأن المرأة قد خيرته بين السجن أو موافقتها على الفاحشة، فكان خياره هو السجن. فلما علم يوسف أن قرار السجن قد صدر بحقه حمد الله على أن دعاءه (رغبته) قد تحققت.

والله جل وعلا لم يقرر الغنى لأحد والفقر على أحد، ومع ذلك يقول تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٢) الشورى.

بسط الرزق لمن يشاء لا يعني أنه سبحانه قد قرر مسبقاً أن فلاناً سيكون ثرياً وفلاناً سيكون فقيراً. لكنها تعني أن ما يجري في كونه بمشيئته، ومن أصبح ذا مال فلأن عوامل توفرت له. وهذه العوامل لا يمكن أن تخرج عن مشيئة الله، كما أن الله هو من أوجدها.

ولا شأن للغنى والفقر بالكفر أو الإيمان، أو رضى الله أو غضبه سبحانه: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

وبما أن قريشاً متعلقة بالدنيا ومتعها التي تملك منها الكثير فهي راغبة عن الآخرة، ومن الممكن أن بعض المسلمين تساءل لماذا لا يحرم الله قريشاً من أموالها لأنها كافرة؟ وفاتهم أن الدنيا ومتاعها لا تساوي شيئاً، وأنها مشاعة لكل الناس بغض النظر عن المعتقد. وكسب المال يعتمد على عوامل عدة ليس منها الإيمان والكفر.

وتقول السورة: وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ(٣٠) الشورى. الآية واضحة صريحة: كل ما يصيب الإنسان نتيجة لعوامل دنيوية وبشرية، وليس مقدراً سلفاً من الله.

فالتلوث – مثلاً – في الهواء والماء والغذاء ينتج عنه أمراض قاتلة للناس والحيوان والبيئة. هذا ليس من الله بل مما كسبت أيدي الناس. وحوادث السيارات مما كسبت أيدي الناس، وعلى هذا يقاس أموراً كثيرة.



وتقول سورة الأنعام: وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ(١٧) الأنعام.

كل شيء في الكون أوجده الله، ومن ذلك أسباب الصحة والمرض والغنى والفقر. والآية تقول: لو أصيب المرء بسوء فالله هو من تسبب بهذا – ليس مباشرة – ولكن لأنه سبحانه أوجد أسباب السوء. ولو أصاب المرء خير، فالله هو من أصابه بالخير – ليس مباشرة – ولكن بما أوجده سبحانه من أسباب الخير.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩) الأنعام.

قول قريش لو شاء الله ما أشركنا مشابه لمنطق لو شاء الله ما اغتنى الغني ولا افتقر الفقير ولا مرض المريض.... الخ.

وقريش لم يجبرهم الله على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية.

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥) المسد.

السورة تتوعد أبا لهب وامرأته بالنار يوم القيامة وهما ما زالا على قيد الحياة، وهذا ليس لأن الله كتب عليهما الشقاء. ولكن السورة تتحدث عما يعرف بالضرورة. فمن لا يؤمن في بداية سماع الدعوة لن يؤمن أبداً. وأبو لهب كغيره من كبراء قريش رفضوا الدعوة من بدايتها ولن يؤمنوا. لذا جاء السورة تتوعده بنار جهنم لأنه سيستمر على الكفر ويموت عليه وكذلك امرأته.

وتقول سورة الرعد: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ(١١).

لن يغير الله جل وعلا حال المسلمين ما لم يغيروه بأنفسهم. ولذلك على المسلمين أن يغيروا الظلم الواقع عليهم ويضحوا لذلك إن رغبوا في رفعه. وليغيروا طريقتهم التي ساروا عليها طوال القرون الماضية والتي كانت وراء مصائبهم. فهم ينتظرون من الله في عليائه أن



يحرك ما على الأرض لصالحهم. فيدفع عنهم ظلم من ظلمهم ويصد من هاجمهم ويعلمهم ويغنيهم ويثقفهم، وإلا فعليهم أن يبقوا كما هم لأن الله لم يشأ لهم التحرر من الظلم والتقدم والمعرفة.

هذا المنطق الأعوج هو سبب طردهم من الأندلس وجزر البحر الأبيض وشرق أوروبا وجنوب روسيا والهند وأفريقيا، وسبب طمع الصليبيين، واستيلاء المستعمرين، ووجود إسرائيل والحكام المتسلطين. وسيبقون ما بقي المسلمون يفكرون بطريقة بني إسرائيل: «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون».

وإذا لم ينصروا أنفسهم ويقاوموا الظالم بأيديهم ويبنوا قدراتهم بسواعدهم فسيبقون أذلاء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧) محمد.

فاستعدادهم النفسي والبدني والخططي والتسليحي والصناعي هو نصر لله، ولو فعلوا فسينصرهم الله بمعنى سينتصرون في الحرب وسيقفون في وجه من ظلمهم[١].

الدنيا لا تساوي شيئاً

تصف سورة الكهف ما في الدنيا من متع، كما يلي: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً(٤٥).

وتقول سورة أخرى: وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ(٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(٣٥) الزخر

متاع الدنيا ومتعها مجرد زخارف هشة، وامتلاكها لمن لا يحصل عليها أمنية، سرعان ما تتحول هذه الأمنية إلى شيء معتاد لا إثارة فيه بعد امتلاكه. وهي زخارف زائلة، كما أن من يملكها سيموت ويتركها وراءه. وامتلاك الكافر لها لا يعني سعادة وعدم حصول المسلم عليها لا يعني حرمان.

وتقول سورة إبراهيم: مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

١ انظر فقرة الدعاء في هذا القسم.



عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ(١٨).

فكل أعمال الدنيا مهما بدت عظيمة في عين الإنسان فهي لا شيء. ولهذا فكل الأعمال التي يقوم بها الكافر تذهب أدراج الرياح. والأعمال في الدنيا لو صاحبها إيمان فستحسب لصاحبها في الآخرة، ليس لأنها أعمال عظيمة عند الله، ولكن لأنها التي يمكن للإنسان القيام بها.

وتقول سورة الشورى إن كل متع الدنيا تافهة زائلة: فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِّ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٣٦).

لذا فمن عمل للدنيا فسيجني نتيجة عمله كافراً كان أو مؤمن: من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً(١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً(١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً(٢٠) انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(٢١) بني إسرائيل.

فمن يريد الدنيا وهو كافر ويسعى لها فسيحصل على ما يريد لو توفر العوامل المساعدة على النجاح. وقد يستمر تفوق الكفار على المسلمين – كما نرى الآن – لأن الكفار سعوا للنجاح ووفروا عوامل النجاح فنجحوا بعكس المسلمين الاتكاليين الذين يظنون أن مجرد الدعاء سيكفل لهم التفوق على أعدائهم لأن الله سيتدخل وينصرهم.

فالتفاضل في الدنيا نتيجة الجهد والعمل والتخطيط وليست للكافر أو المؤمن.

والآية (٢٠) من سورة بني إسرائيل – أعلاه – تؤكد حقيقة أن الله جل وعلا أودع في الأرض كل ما يحتاجه الإنسان قبل أن يخلق، وما عليه سوى تعلم كيف يكتشف ويستغل هذه النعم المودعة. وهي لكل الناس وليست للكافر دون المسلم، أو المسلم دون الكافر.

وكثيرة هي السور التي تؤكد أن النجاح في الدنيا لمن سعى له بغض النظر عن المعتقد، ومن ذلك: مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ(١٥) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٦) هود.

وهذه الآيات دليل على أن أعمال الدنيا بدون إيمان لا تقبل.



ومثلها: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ(٥٢) هود.

هذه الآية تماثل ما ورد في سورة نوح: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢).

والمفسرون فهموا أن الله إذا ما آمن به الناس سيرسل المطر عليهم، وكأنه سيمنعه لو كفروا أو عصوا، وهذا ليس ما تقوله الآيات.

فالآيات تقول آمنوا بالذي يمدكم (وكل الناس) بالمطر والبنين والقوة والأموال وكل ما في الدنيا.

فالله جل وعلا هو من يرسل المطر، لكنه لا يعني أن التوبة شرط لنزول المطر. فالمطر ينزل إذا توفرت ظروف مناخية مناسبة، بغض النظر على من ينزل، ولذلك فالمطر ينزل على المحيطات والبحار.

وهذا لا ينفي أن يكون:

كل شيء بمشيئة الله

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦) المدثر.

الآيات تقول بأن مشيئة التذكر وقبول الدعوة مرتبطة بمشيئة الله، وهذا لا يعني أن الله يختار بعض خلقه ليدخل الجنة واختار غيرهم لدخول النار، لأن هذا ضد عدله المطلق سبحانه. ولكنه يعني أن كل ما يجري في الكون يجري بمشيئة الله، وليس هناك شيء يجري خارج مشيئته، ومن ذلك اختيار المرء الكفر أو الإيمان. فالله سبحانه هو من أودع العقل في الإنسان ويسره له، وعندما يختار الكفر أو الإيمان فقد اختاره بعقله (تلك الآلية التي خلقها الله) وبالتالي هو لم يخرج عن مشيئة الله، وجاءت مشيئة الفرد من مشيئة الله سبحانه.

ومثله: وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً(٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ.... الكهف.

والآية تقول بضرورة أن يقترن كل عمل يعتزم المرء القيام به بمشيئة الله، من باب إسناد كل



ما للمخلوق إلى الخالق. لأنه لولا الله جل وعلا لما وُجِد المخلوق، ولولا الله جل وعلا لما كان للمرء القدرة على القيام بما يقوم به. وليس لأن الله جل وعلا سيعمل على تعطيل أي عمل يحاول المرء القيام به إذا لم يقل: «إن شاء الله».

وقول: سأفعل كذا إن شاء الله، تعمل على إحضار ذكر الله في النفس وربط الإنسان بخالقه على الدوام.

ولا تعني مشيئة الله تقريره مصائر الخلق مسبقاً: وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(١٠) الشورى.

ومشيئة الله هنا تعني أن كل شيء في الكون يسير بمشيئته ولو لم يشأ لم يحدث. لكن دخول الناس في رحمته سبحانه يكون باتباع دينه، واتباع الدين يكون بخيار شخصي حر، ولا يقرره الله جل شأنه سلفاً على خلقه.

وتخبرنا سورة هود كيف يكون التقدير والمشيئة بوجه عام: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٦).

الآية تقول بأن كل دابة (مخلوق حي) على الأرض يصلها رزقها من الله. وهذا ليس حرفياً. ولكن المعنى أن الله جل شأنه قد أودع في الأرض الأرزاق الكافية لكل من يعيش عليها، على أن يقوم كل مخلوق بالبحث بنفسه عن الرزق والحصول عليه. ومن لا يفعل فسيموت جوعاً لأن الله جل شأنه لن يناوله له وهو في مكانه. وحرم الظلم والبغي الذي يحرم الغير من الرزق.

والاعتقاد بأن الله يتدخل فعلياً في أمور الدنيا مفهوم خاطئ، كما يفهم من سورة الأنعام: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩).

قول قريش: "لو شاء الله ما أشركنا" منطق يردده الناس في كل العصور، وهو مجرد تبرير



للرفض. وإلا فالله لم يفرض عليهم ولم يجبرهم على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية.

ومثله ما هو سائد بيننا الآن، ومن ذلك:

أن أحدنا إذا سار بسيارته بسرعة جنونية ثم تعرض لحادث مروري، نسب ما حدث لمشيئة الله، وكأن الله جل وعلا قد قرره عليه مسبقاً. وهذا لا يمثل مشيئة الله، ولكنه تبرئة المرء لنفسه من الخطأ ونسبته لله. فلا يكون عليه لوم، ولكن اللوم يقع على الله.

ومشيئة الله في كل شيء ولو أراد سبحانه فلن يقع الحادث، لكن الله جل شأنه لا يتدخل في أمور الدنيا، وكل ما يقع على الإنسان يكون بأسباب بعضها يعود للشخص نفسه كحادث السيارة، وبعضها يعود لأسباب خارجة عنه.

أدلة على انتفاء الحياة في القبر

تقول سورة الحاقة على لسان المكذب يوم القيامة عندما يبعث ويحاسب ويعرف أن مصيره النار: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ(٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧).

قوله: «يا ليتها كانت القاضية» دليل مؤكد على أن الميت الكافر لم يكن يعذب في القبر بل كان ميتاً لا يشعر بشيء. وعندما بعث وعرف مصيره، تمنى لو بقي ميتاً إلى الأبد ولم يبعث. ولو كان يعذب في القبر لفرح ببعثه. لأن فترة الحساب ستكون فترة راحة من العذاب تفصل بين عذاب القبر الذي انتهى للتو وعذاب النار القادم.

وورد في سورة يس: مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠).

الآيات تصور كيف سيكون البعث بصورة حسية بسيطة واضحة تلائم مدارك قريش التي جاءت الآية للإجابة على سؤالها: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٨).

فمن يموت سيشعر أنه انتقل مباشرة وخلال لحظات للقيامة وبعث، ذلك أن الذاكرة تتوقف عن التسجيل أثناء الموت. والشعور بالانتقال للآخرة مباشرة يعني بداهة أنه ليس هناك حياة للنفس بين الدنيا والبعث للآخرة، وبالتالي فليس هناك حياة في القبر ولا عذاب ولا ثواب.



وهو ما تؤكده الآيات اللاحقة في نفس السورة: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢).

فالكافر سيتمنى أنه بقي راقداً (ميتاً) ولم يبعث. ولو كان يعذب في قبره لفرح بالبعث لأنه سيكون عبارة عن فترة راحة من العذاب قبل دخول النار. لكن بما أنه كان راقداً منذ وفاته في الدنيا وحتى البعث فهذا يؤكد أنه لم يتعرض لعذاب في مرقده.

وسورة النجم تقول: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ(٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(٥٨).

الآيات تخاطب قريشاً بأسلوب مجازي يقول إن القيامة (الآزفة) قد حلت، بمعنى أن وقتها قد قرب بالنسبة للإنسان الحي الذي سرعان ما يموت، وبمجرد موته سيشعر أنه انتقل مباشرة للآخرة، لأن ذاكرته توقفت عن التسجيل ولم يعد يشعر بمرور الزمن مهما امتد لمليارات السنين. ولو كان هناك حياة في القبر أو في الفترة بين الموت والقيامة لشعر بها الإنسان وسجلتها ذاكرته وصحيفة أعماله. وصحيفة الأعمال تسجل الإعمال ولا تقرأ إلا يوم القيامة، وليس قبلها. مثلها مثل الحساب الذي يكون يوم القيامة وبناءً عليه يكون المصير لجنة أو نار.

ولو كان هناك عذاب أو ثواب في القبر أو في الفترة بين الموت وقيام القيامة فتحت أي عنوان يكون؟

هل سيكون عقاباً أو ثواباً قبل الحساب؟

ولو كان كذلك، فكأنه عقاب على ذمة التحقيق، وقبل المثول أمام المحكمة. وهذا لا يكون في قوانين الله العادلة، ولكنه قد يحدث في عالم البشر. خاصة استخبارات العرب الذين يعذبون المتهم قبل أن يعرض على المحكمة وقبل أن يتأكدوا أنه مذنب أو بريء.

وتقول سورة الصافات: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١).

تأكيد على أن الميت سيشعر أن القيامة قامت بمجرد موته. والآيات تخاطب قريشاً التي تسخر من القرآن الذي يتلوه الرسول عليهم والذي يقول لهم إن هناك حياة وحساباً بعد الموت. وتقول لهم سرعان ما تموتون وتجدون أنفسكم في الآخرة التي تنكرون.



وهو ما كررته سورة النازعات ضمن الحديث عن قريش المنكرة للبعث: أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ(١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ(١٤).

وتؤكد سورة فاطر أن الميت لا يسمع: وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢) فاطر.

والآية تنفي ما قالته كتب السير والحديث والتفسير من أن قتلى قريش في بدر بعدما ألقي بهم في بئر من آبار بدر، قد سمعوا الرسول وهو يتحدث إليهم. فالآية تنفي أن يستمع الميت لكلام الرسول، وهي هنا كناية على أن قريشاً لن تؤمن وشبهتهم بالموتى لأنهم لن يصغوا لدعوة الرسول مهما دعاهم وكأنهم أموات.

كما أن الآية تنفي أن يكون هناك حياة للميت بعد موته وحتى بعثه يوم القيامة.

وهو ما تؤكده سورة النحل: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧).

فلو كان هناك عذاب أو ثواب في القبر فلن يشعر الميت أن قيام الساعة تم بعد موته كلمح البصر.

واستحالة وجود عذاب أو نعيم في القبر يتفق مع حقيقتين هامتين، هما:

١. أن الدنيا دار العمل، والآخرة دار الجزاء. والثواب والعقاب لا يكون إلا بعد الحساب، والحساب لا يكون إلا يوم الحساب. وبعد الحساب تكون الجنة أو النار.

٢. أن الموت لا يعني فناء وعدم الإنسان، الذي هو عبارة عن نفس. ولكن الموت عبارة عن سكون النفس ودخولها حالة من الخمول بعد مفارقتها للجسم لعجزه عن حملها لهرم أو مرض أو حادث. فالجسم عبارة عن وعاء لازم لحمل النفس لكي تنشط، لأن النفس لا يمكن أن تنشط خارج الجسم. وبالتالي فيستحيل أن تنشط النفس في الفترة من مفارقتها للجسد الدنيوي الذي عجز عن حملها، وحتى يوم القيامة وحلولها في (حامل) جديد.

وبمجرد فهم هاتين الحقيقتين تنتفي كل التخاريف التي تقول بعذابٍ أو نعيمٍ في القبر.



وفيما يلي موضوع آخر يعتبر امتداداً لموضوع نفي أن يكون في القبر حياة:

البرزخ

استكمالاً للحديث عن عذاب القبر لابد من الحديث عن البرزخ الذي ورد في القرآن بمعنيين اثنين فقط، كما يلي:

- الأول في سورة الفرقان: وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا(٥٣).

وكررته سورة الرحمن: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢).

والبرزخ هنا يعني تلك المساحة التي تلتقي فيها مياه نهر مع آخر أو بحر مع آخر أو نهر مع بحر. حيث تحتاج لبعض الوقت لكي تختلط وتذوب المياه الأقل في المياه الطاغية.

فالبرزخ هنا هو الفاصل المكاني بين لحظة لقاء المائين وبين لحظة اختفاء أحد المائين بالآخر تماماً.

- المعنى الثاني للبرزخ ورد في سورة المؤمنون: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١).

والبرزخ هنا يعني الفاصل الزمني بين لحظة الموت في الدنيا وبين لحظة البعث في الآخرة.

وهي فترة زمنية طويلة جداً تقدر بمليارات السنين، لكن الميت لن يشعر بها لأن ذاكرته تتوقف عن التسجيل، وعندما يبعث سيشعر أنه مات للتو: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧) النحل.

فالميت سيشعر أنه بعث بعد لحظات من موته.

المؤسف هو أن الناس – كالعادة – تركوا تدبر كلام الله وفهمه كما ورد، واتجهوا لكتب التراث وما يقول المفسرون والمحدثون عن البرزخ، والذين صوروه بصور خرافية. وخلطوا مفهومهم الخرافي الآخر الذي يقول بعذاب القبر بالبرزخ. فتصوروا البرزخ مكاناً تجتمع فيه



أرواح الموتى لتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار عن الناس الذين يعرفون في الدنيا. وقالوا هو مكان تجميع «أرواح الموتى» يقصدون « الأنفس» وغيرها من قصص مضحك مبك كثير ومتناقض. ومن ذلك قولهم إن من يموت ليلة الجمعة فلن يصيبه عذاب البرزخ.... إلى غير ذلك.

وللأسف مرة أخرى فهذه التخاريف هي التي علقت في عقول الناس وهم يقرأون كتاب الله في الليل والنهار ويمرون بالآيات التي تذكر البرزخ ولا يتوقفون عندها ويحكمون عقولهم.

والسبب أن العقل لا مكان له عند أتباع الموروث، وكأن الله خلقه لأمور الدنيا فقط.

ونقول لمن يريد تحكيم العقل إن البعث سيكون في كون آخر سينشأ بعد انهيار هذا الكون: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) الزمر.

وهو ما تؤكده سور عدة، بأساليب مختلفة، ومن ذلك: يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) إبراهيم.

والإنسان نفس تحتاج لحامل لكي تنشط (تحيا)، وبمجرد خروجها من هذا البدن (الحامل لها) لأنه أصبح غير قادر على حملها لهرم أو حادث أو مرض فلن تعود للنشاط خارج البدن، ومتى ما خلق كون الآخرة فسيخلق حامل جديد للنفس يحملها لتعود للنشاط (الحياة).

والفترة بين موت الإنسان وحتى بعثه لا يمكن لنفسه أن تعود للحياة، وهي فترة البرزخ التي مهما طالت فلن يشعر بها الإنسان.

لا عذاب في الدنيا

المقصود بالعذاب هو العقاب الذي يلقاه الكافر أو العاصي من الله مقابل كفره وعصيانه، وهذا لا يحدث في الدنيا. فالدنيا دار تحصيل، ولا حساب فيها. والآخرة دار حساب ولا عمل فيها.

والله جل شأنه لا يتدخل في أمور الدنيا ولا يستجيب دعاء بشر يطلب التدخل، ولا يعاقب المسيء والكافر بعذاب في الدنيا: وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ



تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(٤٢) إبراهيم.

وكل ما يحدث للناس في الدنيا من مصائب لا علاقة له بما تقترفه أيديهم وليس عذاباً لهم ولا استجابة من الله لدعوة مظلوم. فقد يموت الظالم شر ميتة، لكن هذا ليس لأنه ظالم. وقد يموت الصالح شر ميتة لكن هذا ليس لأنه صالح أو امتحان له كما ترسخ بيننا، بل هو نتيجة لأحداث دنيوية. كما أن الكوارث الطبيعية كالبراكين والزلازل والريح والغرق وغيرها يمكن أن تقتل الصالح كما الطالح ولا علاقة لها بما فعله الناس.

لكن أتباع الموروث يؤولون الآيات لتبدو وكأنها تقول بأن هناك عذاباً دنيوياً، وفيما يلي بعض هذه الآيات:

وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٥٨) بني إسرائيل.

والآية تأكيد على أن البشر سينقرضون قبل موعد انهيار الكون، وهو ما ينفي ما تزعم كتب الموروث من وجود علامات للساعة تسبق القيامة. والعذاب يعني الهلاك بكارثة طبيعية كالغرق أو الزلازل أو البراكين أو الرياح والأعاصير وغيرها. ومن ذلك: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ(١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٧) فصلت.

فالآية (١٦) تتحدث عن عاد الذين هلكوا بالريح، والآية (١٧) تتحدث عن ثمود الذين هلكوا بالزلزال، وسمت الآيات ما حدث بالعذاب. وهو ليس عذاباً دنيوياً مقابل ما اقترفوه من كفر أو معاصٍ، لأن هذا سيكون يوم القيامة. ولكنه عذاب كونه كارثة مؤلمة وساحقة.

وكتب التراث تصور أن هلاكهم وغيرهم لأن الله كتب عليهم الهلاك كعقاب لهم على كفرهم، وهذا ليس صحيحاً. فالعذاب يكون بعد الحساب يوم القيامة وليس في الدنيا، وهذه الأمم أهلكت بسبب حدوث كوارث طبيعية. واللافت هو نجاة الرسول والقلة الذين آمنوا معهم، وذلك بإبلاغهم أن كارثة ستقع وأن عليهم أن يغادروا القرية. واحتمال أن يكون قد نجا أفراد من أولئك القوام كانوا يتواجدون في مكان بعيد عن المكان الذي



وقعت فيه الكارثة وقتلت معظم قومهم.

وسورة الصافات تخبرنا أن إلياس أرسل لقومه الذين كانوا وثنيين يعبدون صنماً اسمه بعل، وأنهم – كغيرهم – لم يؤمنوا برسولهم، ومع ذلك لم يهلكوا: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(١٢٥) اللهَّ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللهَّ الْمُخْلَصِينَ(١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ(١٣٠) الصافات.

ولو كان العقاب مقرراً من الله كعقاب لمن يكفر لما استثني منه أحد، ولما بقي على الأرض من الكافرين دياراً.

لكن القرآن يخالف الموروث ويؤكد أن العذاب عن أعمال الدنيا لن يكون في الدنيا ولكن بعد الحساب يوم القيامة، ومن ذلك ما أكدته الآيات التي سبق ذكرها.

ولو استعرضنا قصص هلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب ولوط لوجدنا أنهم أهلكوا بكوارث طبيعية: زلازل، براكين، ريح، غرق. وهذه الكوارث كانت ستقع في تلك المناطق، سواء بقوا فيها أو ابتعدوا عنها، ولم تقع لعقابهم، ولو لم يكونوا هناك لما وقعت. لكن لو أنهم آمنوا فسيبتعدون مع رسولهم ومن آمن معه وينجو من الهلاك. فإبلاغ الرسول بالابتعاد ومن آمن معه هو المعجز هنا، وليس وقوع الكارثة.

والكوارث ستستمر بالوقوع، وهي تقع الآن، بغض النظر عن سكان المناطق التي تقع فيها. فقد يكونون مؤمنين صالحين، وقد يكونون كفاراً مسالمين أو مجرمين.

وتقول سورة الدخان: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهَّ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) وَأَنْ لَّا تعلو عَلَى اللهَّ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ(٢٠) وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(٢١) الدخان.

ولو سمح فرعون بخروج بني إسرائيل فسيترك وشأنه ولن يعذب في الدنيا أو يهلك بسبب كفره.

ومثل فرعون كل كافر، فليس هناك عذاب دنيوي للكافر، لأن العذاب لا يكون قبل الحساب، والحساب لا يكون قبل يوم القيامة. ولأن الدنيا دار تحصيل وليست دار مصير: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا



مِن دُونِهِ مَوْئِلاً(٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً(٥٩) الكهف.

والمخاطب في الآيات هو الرسول، والحديث عن قريش التي رفضت الدعوة ولن تتراجع. والآية تقول بأن الله لن يهلكهم بسبب كفرهم، ولكنهم سيهلكون قريباً – واحداً تلو الآخر لأسباب مختلفة – ثم يكون الحساب.

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ(٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٢) غافر.

والقرآن عندما يذكر الأمم التي هلكت بكوارث طبيعية فالمخاطب دائماً قريش، لعلها تعتبر وتؤمن قبل أن يصيبها ما أصاب تلك الأمم. والقرآن يخاطب قريشاً بما يفهمون، وبما يتناسب مع مداركهم الضحلة وقلة معارفهم. وعندما تقول الآيات إن الله أهلك تلك الأمم، فالله بالفعل هو من أهلكها، لكن بطريقة غير مباشرة. بمعنى أنه سبحانه هو من خلق الريح التي أهلكت عاد. لكنه سبحانه لم يوجه الريح فعلياً لكي تهلكهم ولم يغير الظروف الجوية لكي تتواجد في تلك المنطقة خلال تلك الأيام. ومثل عاد كل الأمم التي ذكرها القرآن.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١) يونس.

وتقول سورة إبراهيم مخاطبة الرسول عن قريش:

وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء(٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ(٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ(٤٥) وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(٤٦) فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ



الْقَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ(٥٠) لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٥١).

وتقول سورة الشورى:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٢٢) الشورى.

لولا كلمة الفصل لقضي بينهم.

لولا أن الله جل شأنه قرر أن الحساب والعقاب سيكون في الآخرة، لكان هناك عذاب وعقاب في الدنيا.

ومثله:

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٨) هود.

قريش تتساءل من باب السخرية لماذا لا يعذبهم الله الآن على كفرهم، والله سيعذبهم يوم الحساب، وعندها لن يكشف عنهم.

وبالنسبة للآيات أخرى تحذر قريشاً من أن يحل بهم العذاب فالمقصود بها الكوارث الطبيعية والتي قد تصيب مكة . فمكة مهدد بالزلازل والبراكين في أي لحظة بحكم وقوعها على الحزام البركاني الخاص بصدع البحر الأحمر. وقد يحدث زلزال ويثور بركان يدمر مكة.

ومثله:

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ(١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ(١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ(١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا



مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ(١٠٨) فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ(١٠٩).

بعد أن تحدثت سورة هود عما حدث لأقوام نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وفرعون وكيف هلكوا ونجا الله الرسل ومن آمن معهم، تقول السورة إن سرد هلاك تلك الأمم للعبرة، وهو موجه لقريش لعلها تؤمن.

وهلاك تلك الأمم بالكوارث ليس عذاباً عن كفرهم لأنه لا عذاب في الدنيا لمن لا يؤمن، ولكن العذاب يكون يوم القيامة وبعد الحساب، والكوارث التي تقع في الدنيا تقع للكافر والمؤمن. وما حدث لأمم سابقة مثل قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وفرعون وغيرهم، أنهم لو آمنوا لابتعدوا مع رسولهم ومن آمن معه ونجوا من الهلاك، لكن الكارثة كانت ستقع، سواء كانت زلزالاً أو بركاناً أو غيره. لكن لو آمنوا لنجوا من تلك الكوارث، وكفرهم تسبب في تركهم يواجهون الهلاك.

وتقول سورة العنكبوت: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٥٥).

وتكرره سورة النحل: لَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٦١) النحل.

الأرشيف الإلهي

القرآن عبارة عن وحي ينزل به أحد الملائكة على الرسول[١] والملك يقوم بنقل الوحي من أرشيف إلهي – لا نفهم كنهه – يحفظ فيه النسخة الأصلية للوحي بصيغة لا نعلمها: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) الحجر.

١ انظر فقرة: الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



الذكر هما المقصود به الوحي[1]. والآية تقول بأن الله أنزل الوحي (على الرسل كلهم) أي نزل على كل رسول نسخة من النسخة الأصلية المحفوظة. وحفظه سبحانه، أي حفظ نسخته الأصلية التي نزل منها نسخ على كل الرسل. فقوله: "وإنا له لحافظون" يعني حفظ نسخته الأصلية في اللوح المحفوظ ولا يعني حفظ القرآن المكتوب في المصحف. والآية تقول بأن الله هو من أنزله وهو من حفظه عنده، وقد نزلت في مكة في وقت لم يكتب فيه حرف واحد من القرآن. أما القرآن ككتاب فقد بقي بتمامه كما نزل لأن الله جل شأنه وصف الرسول محمد بأنه خاتم النبيين، ولذا كان بقاء القرآن كما نزل كافياً لمن يريد التعرف على دين الله دون الحاجة لإرسال رسول بعد محمد. ولو نقص القرآن فإن عدل الله المطلق يحتم إرسال رسول آخر للناس لكي تقوم عليهم الحجة: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) بني إسرائيل. لذا فحفظ النسخة الأصلية للوحي في اللوح المحفوظ هو الذي تتحدث عنه الآية التاسعة من سورة الحجر والتي لا شأن لها بحقيقة بقاء القرآن كما نزل.

أما ماهية « الأرشيف»، وأين هو؟ فلم يتطرق له القرآن، إلا أنه عرفه بعدة مسميات، منها:

اللوح المحفوظ

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ(٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(٢٢) البروج.

وليس اللوح المحفوظ كما صوره المفسرون، من أنه لوح بمعناه الحرفي، محفوظ في جبهة أحد الملائكة. وهو وصف فيه سخرية من اللوح المحفوظ ومن الملائكة، وفي هذا يقول القرطبي في تفسيره لآيتي سورة البروج: روى الضحاك عن ابن عباس قال: اللوح من ياقوته حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَك يقال له ما طِرْيون. ويقول القرطبي: وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل. وبمثل ذلك قال الطبري في تفسيره، وغيره من المفسرين.

الكتاب المكنون

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

---

[1] الذكر يعني وصفاً للوحي. انظر الذكر في قسم ألفاظ من القرآن.



والمطهرون هنا هم الملائكة المكلفون بنقل الوحي للرسول من البشر، ذلك أن لديهم قدرة على تحويل الصيغة التي عليها الوحي في الكتاب المكنون إلى نصوص تحفر في ذاكرة الرسول.

صحف مكرمة مرفوعة مطهرة

تقول سورة عبس: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ(١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ(١٦).

الآيات تؤكد لقريش أن الوحي تذكرة لمن يشاء، وأنه في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة. وهذا تأكيد على أن الوحي ينزل من آلية تحفظ بواسطتها نسخته الأصلية. وتقول الآيات إن هناك مخلوقات حية (ملائكة) لديها القدرة على نقل صيغة الوحي الأصلية المحفوظة في تلك الآلية إلى ذاكرة الرسول على شكل نصوص عربية.

أم الكتاب

حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤) الزخرف.

الآيات أعلاه تقول بأن الوحي (المتمثل بالقرآن) عربي اللسان ونسخته الأصلية محفوظة بآلية إلهية سمتها الآيات هنا «أم الكتاب».

وليس الوحي وحده الذي تحفظ نسخته في الأرشيف الإلهي بل إن السجلات التي تسجل كل ما يدور في الكون وما يصدر من كل المخلوقات تحفظ: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) سبأ[١].

ومسميات غيرها مررنا بها أثناء تدبر السور.

[١] انظر فقرة: كل ما في الكون يسجل / قسم مواضيع من القرآن.



الوحي

الوحي في القرآن يأتي على عدة معانٍ، منها:

الغريزة

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) النحل.

فالله جل وعلا لا ينزل وحياً على النحل يخبرها كيف تصنع الشمع الذي تضع فيه العسل، ولكنه سبحانه أودع هذه المعرفة في النحل منذ خلقت.

تسجيل الذاكرة للحظة معينة وعقد العزم على اتخاذ موقف معين تجاهها فيما بعد

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٥) يوسف.

فيوسف في تلك اللحظة لم يكن رسولاً ولا نبياً، لأنه ما زال صغيراً، لكنه عقد العزم على أن يحاسب أو يراجع إخوته على فعلتهم، عندما يلتقيهم. أو سجل عقله الباطني تلك اللحظة، وتذكرها فيما بعد.

الاستعداد النفسي لقبول أمر ما

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) المائدة.

فالحواريون لم يكونوا يتلقون وحياً من السماء، والحديث كان موجهاً لعيسى في الآية السابقة، والتي يذكره الله فيها ببعض نعمه عليه، ومنها شرح صدور الحواريين للدين.

الإلهام

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى(٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) طه.

فأم موسى لم تتلق وحياً من الله يقول لها أن تضع رضيعها في تابوت وتلقيه في اليم، ولكنها تصرفت لتقديرها الشخصي، وكان تصرفاً موفقاً بتوفيق الله الذي خلق لها العقل.

وبمعان أخرى....



لكن الوحي الذي يهمنا هنا هو: الوحي عبارة عن توصيل رسالة الله من الأرشيف الإلهي إلى رسول من البشر:

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ(٥٣) الشورى.

والآية تبين أن هناك عدة وسائل لوصول الرسائل الإلهية للرسول من البشر، هي:

- الوحي: في قوله: «إلا وحياً»، ومن ذلك ما حدث لمحمد عليه الصلاة والسلام.
- تكليم من وراء حجاب: كما حدث مع موسى. ولم يتحدث رب العالمين مع موسى، لأن الله جل جلاله لا يتصل مباشرة مع أي من خلقه. لأن للمخلوق كوناً يعيش فيه، وللخالق عالم آخر لا يحد بزمان ولا مكان. وموسى تلقى التوراة بطريقة ما لكنه لم يسمع صوت الله جل وعلا، لأن الله لا يتكلم كالمخلوقات، وليس كمثله شيء من مخلوقاته. ولهذا وصف القرآن ما حدث بقوله: «وكلم الله موسى تكليماً» في قوله تعالى: وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) النساء.

فموسى تلقى التوراة بتكليم من نوع خاص. أي أنه استمع لصوت كصوت البشر يملي عليه نصوص التوراة. هذا الصوت لم يكن صادراً من الله جل وعلا، ولكن من مخلوق كوني لديه القدرة على إصدار صوت كأصوات البشر. كما كان لدى ضيف إبراهيم التشكل بهيئات بشرية والتحدث كما البشر.

وبما أن تلقين التوراة وإملاءها على موسى بأمر الله ومشيئته فكأن الله هو من كلم موسى، كون المخلوق منفذاً فقط لأمر الله.

- وهناك نوع آخر للوحي وصفته الآية بأنه: « أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ". وهو ما حدث لإبراهيم ولمريم وزكريا وغيرهم. وتتمثل في حضور مخلوقات كونية بأمر الله إلى بشر والتحدث معه مباشرة بحيث يسمع الإنسان كلاماً مفهوماً ويرى شخصاً بهيئة بشرية.



وبَيَّنَ القرآن أن الله يختار من الملائكة من يكلفهم بنقل نصوص الوحي من «الأرشيف الإلهي» إلى الرسول: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) الحج.

والرسل من الملائكة مهمتهم توصيل نصوص الوحي للرسول من البشر: يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ (٢) النحل.

والملائكة المكلفون بنقل الوحي لهم قدرات خاصة من بين الملائكة الآخرين، هذه القدرات تمكنهم من الاطلاع على نصوص الوحي في صورته الأصلية في الأرشيف الإلهي، ونقله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) التكوير.

وقدرات أولئك الملائكة تمكنهم من تحويل نصوص الوحي من صورتها الأصلية الأرشيفية إلى نصوص بلغة الرسول التي يتحدثها هو وقومه بكل دقة وأمانة في النقل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) الرعد.

ويتم النقل مباشرة لذاكرة الرسول (قلبه) دون الحاجة للكلام أو التلقين: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) الشعراء.

ومع أننا لا نعلم كيف يتم حفر نصوص القرآن في ذاكرة الرسول حتى الآن، إلا أن العلم الحديث يقول بأن ذاكرة الإنسان لديها القدرة لحفظ كل ما يصل إليها، سواء عن طريق النظر أو السمع أو الحس أو الشم أو التذوق، لكن ليس بإمكان الشخص العادي استرجاع هذه السجلات متى رغب. فيكون نسخ وحفر الوحي في ذاكرة الرسول جاء بطريقة تمكنه من استرجاعه متى شاء طوال حياته، وهو مخالف للمعتاد.

والملائكة المكلفون بتوصيل الوحي، وصفهم القرآن بالسفراء الكرام البررة: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ(١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ(١٦) عبس.

وأنهم مطهرون: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ



كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

وتبقى نسخة الوحي الأصلية محفوظة بصيغتها الأرشيفية الإلهية: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) الحجر.

فالحفظ في الآية لما في الأرشيف الإلهي، ولا تتحدث عن حفظ المصحف على الأرض.

المحكم والمتشابه

هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ(٧) آل عمران.

الآيات هنا تعني الأحكام والتشريعات ولا تعني الآيات بمعناها السائد. والآيات المحكمات هي الأحكام الواضحة التحريم مثل قوله: حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير[1].

والآيات المتشابهة التي يتأولها الناس لتبدو وكأنها غير واضحة التحريم مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) المائدة.

فالبعض يسارع ويقول إن الخمر ليست حراماً لأنه لا يوجد نص تحريم واضح (محكم). هؤلاء وصفهم القرآن بالذين في قلوبهم زيغ، ويتبعون ما تأولوا أنه ليس تحريماً ابتغاء الفتنة

---

١ الخنزير لا وجود له الان في جزيرة العرب، مثلما أنه لم يعد هناك وجود للنعام والأسود وحيوانات كثيرة انقرضت نتيجة للصيد الجائر والتصحر. لكن من المؤكد أن الخنزير كان منتشرا في كل جزيرة العرب وليس أدل على ذلك من النقوش التي عثر عليها وتظهر رسومات للخنازير البرية ومن ذلك الصورة المرفقة وتمثل نقوشاً عثر عليها في وادي ماسل وسط نجد وبالقرب من مدينة الدوادمي الحالية، وتظهر رسومات لحيوانات برية لم يعد لها وجود في جزيرة العرب ومنها الخنزير. والتي نشرت في الكتاب المصور : «مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية» وهو من اصدار إدارة الآثار والمتاحف - وزارة المعارف وزارة التربية والتعليم الحالية) - المملكة العربية السعودية / الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.



والاستمرار على تعاطي كبيرة الخمر[1].

١ انظر فقرة: وقفة حول تسمية عبارات القرآن آيات / في بداية الكتاب.



الدين واحد

بما أن الله جل جلاله خلق الناس من نفس واحدة (بمعنى نفس القدرات والإمكانات الأساسية العقلية والملكات) وسيكون هناك جنة واحدة ونار واحدة وحساب واحد، فمن البديهي أن يكون الدين واحداً لكل الأمم منذ وجد الناس على الأرض. ولا يمكن أن يكون هناك تشريع في دين سماوي يؤمر به الناس ليدخلوا الجنة، نجده في رسالة أخرى من أداه دخل النار، أو العكس. ولابد أن التشريعات الدينية واحدة في كل الرسالات، وهو ما يؤكده القرآن في العديد من الآيات التي سنورد ما أمكن حصره منها:

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى(١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى(١٩) الأعلى.

فهذا ضمير يعود على القرآن، والآيات تقول بأنه مشابه ومماثل للدين الذي دعا إليه إبراهيم وموسى، ونسخة مطابقة له.

وتقول سورة الصافات: سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(٨٣).

لأن إبراهيم يحمل نفس المعتقد والفكر الديني الذي يحمله نوح الذي سبقه بمئات السنين، فقد أمكن القول بأن إبراهيم من شيعة نوح. لأن الشيعة تعني اجتماع مجموعة من الناس على فكر أو معتقد واحد. وهو ما يعني – بداهة – أن دين نوح هو دين إبراهيم وبقية الرسل.

وتقول سورة فاطر: وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١).

الدين الموحى به لمحمد – القرآن – متوافق مع كل الأديان الموحاة للرسل السابقين. وقوله: «مصدقاً لما بين يديه»[1] أي أن القرآن مصدقاً لما سبقه ومتوافق معه.

وتقول سورة المؤمنون: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢).

أمة الرسل واحدة، لأن الدين الذي يدعون له واحد.

---

١ انظر فقرة: ما بين يديه/ قسم مفردات من القرآن.



وتقول سورة الأنبياء: أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٤).

الخطاب لقريش التي تعبد الأصنام، وتترك دين الله الواحد الذي أرسل به كل الرسل السابقين، ولم يأتهم دين مختلف عما جاء الناس قبلهم.

وتقول سورة الأنبياء نفسها: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠).

ما أوتي موسى وهارون (التوراة) مماثل لهذا الذكر المنزل على محمد.

ونفس السورة تقول: أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٤) الأنبياء.

الخطاب لقريش التي تعبد الأصنام، وتترك دين الله الواحد المرسل به كل الرسل السابقين.

وتقول سورة الشورى: حم(١) عسق(٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣) الشورى.

من أوحى إليك يا محمد هو الله الذي أوحى لكل الرسل قبلك.

وتقول: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) الشورى.

المخاطب المسلمون في مكة والآية تؤكد أن الدين الذي هم عليه هو نفس الدين الذي أرسلت به كل الرسل.

ومثله تقول سورة الشعراء: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(١٩٦).

زبر الأولين[١] أي سجلات الأولين، والمعني بها الأديان السابقة، ورسالة محمد نسخة مماثلة لأي دين سابق.

قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ

١ انظر فقرة: الزبر/ قسم مفردات من القرآن.



وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ(١٣٨) البقرة.

فتكون ملة إبراهيم هي نفس ما جاء به الرسول محمد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

الصيام كتب على الأمم السابقة، وهو ما يعني أن التشريعات الدينية واحدة في كل الرسائل السماوية.

وما في التوراة هو ما ورد في القرآن بالنص الحرفي، ومن ذلك: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ(٨٣).

وهذه التشريعات متطابقة مع ما ذكره القرآن، كدليل أن القرآن والتوراة التي نزلت على موسى، دين واحد بل ونص واحد[1].

وحتى العبادات واحدة في كل الأديان السابقة:

الصلاة مفروضة في كل الرسالات السابقة

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) لقمان.

الآية جاءت ضمن آيات تتحدث عن موعظة لقمان لابنه، ومن ذلك أمره بإقامة الصلاة. مما يعني أن الصلاة معروفة ومفروضة عليهم، وليست الصلاة خاصة بدين الإسلام.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل الديانات السماوية

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) لقمان.

١ تحدثنا عن هذا بشيء من التفصيل في كتاب: سنة الأولين/ تحليل مواقف الناس من الدين وتعليلها.



الآية جاءت ضمن آيات تتحدث عن موعظة لقمان لابنه، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمفهومها القرآني الذي يعني أن تكون قدوة حسنة بالتقيد بأوامر الدين، وألا ترضى بتفشي الفساد. وليس المقصود أن تأخذ عصاً بيدك وتلاحق الناس.

وإنكار المنكر يكون بسن عقوبات صارمة على كل من يسعى لنشر الفساد. وفي أيامنا هذه هناك هيئات في السعودية ينتمي لها أعضاء مهمتهم المعلنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بملاحقة الناس في الشوارع والتجسس عليهم في أماكن تواجدهم ثم إلقاء القبض ومعاقبة كل من يخالف ما يظنونه ممارسة مخالفة للدين حسب فهمهم.

ولو أردنا تطبيق مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما نص القرآن فسيكون بسن القوانين التي تمنع انتشار الفساد وقوانين صارمة تطبق بكل من يتجاوز أنظمة منع انتشار الفساد.

وما نراه اليوم هو أن هناك قنوات تلفزيونية مملوكة من أصحاب النفوذ في الدولة تبث الفساد والتغريب وتفسخ الأخلاق. والنهي عن المنكر بمفهومه القرآني يحتم ألا تعطى تصاريح عمل ويسمح لها بمزاولة نشاطاتها، ولو نشرت أي مواد إعلامية فاسدة فيجب أن يكون هناك عقوبات صارمة بحقها والعاملين فيها والمالكين لها.

وفي كل مجالات الحياة هناك إفساد منظم ومخطط له، ومن ذلك: لا تجد المرأة المسلمة في أي محل لبيع الملابس في كل البلاد سوى ملابس فاضحة غربية لا تمت للحشمة بصلة وهذا نوع من نشر المنكر والفساد وجب محاربته بمنع استيراد هذه الملابس وتشجيع إقامة المصانع لملابس محتشمة عصرية.

هناك مأكولات ومشروبات ضارة وقاتلة تستورد بمباركة الدولة ومنها المشروبات الغازية والأكلات السريعة والدخان وكان يجب محاربتها لأنها ضارة بالصحة وإيجاد البديل العصري النافع. وهي تدخل ضمن الغش التجاري، المحرم لأنه كبيرة.

ولا يكون النهي عن المنكر بملاحقة أصحاب المحلات ومنعهم من بيع الدخان المصرح باستيراده وبيعه وتوزيعه.

وهناك الكثير من مظاهر الفساد التي يتم رعايتها رسمياً وينشرها أصحاب النفوذ والنهي عن المنكر يحتم القضاء عليها من المصدر.



هكذا يجب أن يكون النهي عن المنكر.

أما الأمر بالمعروف فهو بنشر العادات الحميدة والأخلاق الإسلامية من الصدق في التعامل والحرص على الوفاء بالعهود والمواثيق والمواعيد وتسيير الحياة بأسلوب عصري صحي نظيف نزيه.

الدين خيار شخصي

في كل العصور تأتي الرسل برسالة رب العالمين للناس لتسمعهم وتقيم عليهم الحجة: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً(١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً(١٦٤) رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٦٥) النساء.

ولم يأت رسول من الرسل ليكره الناس على الدخول في الدين، لأن الدعوة إسماع وليست إقناعاً. وبعد السماع فلكل شخص حرية الاختيار بين التصديق والهداية أو التكذيب والغواية: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً(٣) الإنسان.

وكون الإنسان هو من يختار طريقه بكامل حريته يتوافق مع عدل الله المطلق، الذي لا يظلم أحداً: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢) الجاثية.

فمن دخل الجنة فقد اختارها بنفسه وبحريته، ومن دخل النار فقد اختارها لنفسه وبحريته.

وهذه بعض الأدلة من كتاب الله تؤكد هذه الحقيقة:

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩) المزمل.

المزمل سورة نزلت قبل بدء الدعوة، والآية (١٩) تؤكد أن (هذه) أي القرآن تذكرة. فمن



شاء أن ينقذ نفسه من العذاب فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وهذا الإعلان سبق بدء الدعوة الفعلي، وسيستمر التأكيد عليه طوال مراحل الدعوة.

إذاً، القرآن أعلن منذ البداية أن قبول الإسلام خيار شخصي، وأنه مستعد للتعايش السلمي مع غير المسلمين (قريش)، لكن غير المسلمين هم من لا يقبل التعايش السلمي معهم[1].

وهو ما أكدته سورة المدثر: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

فالدعوة إنذار، لكن قبولها من عدمه خيار للمُنْذَر. وهو ما أكدته المدثر مرة أخرى: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦) المدثر.

وهذه الآيات تكرار بألفاظ قريبة لما ورد في الآيات: (٣٥-٣٨) السابقة من أن الدعوة، المتمثلة بالقرآن، تذكرة لمن شاء أن يتذكر. وتضيف الآيات هنا أن مشيئة التذكر وقبول الدعوة مرتبطة بمشيئة الله، وهذا لا يعني أن الله يختار بعض خلقه ليدخل الجنة ويختار غيرهم لدخول النار، أو أنه سبحانه يختار البعض ليكون كافراً وغيرهم ليكونوا مؤمنين، لأن هذا ضد عدله المطلق سبحانه. ولكنه يعني أن كل ما يجري في الكون يجري بمشيئة الله، وليس هناك شيء يجري خارج مشيئته، ومن ذلك اختيار المرء الكفر أو الإيمان. كما أن الله سبحانه هو من أودع العقل في الإنسان ويسره له، وعندما يختار الكفر أو الإيمان فقد اختاره بآلية العقل التي خلقها الله، وبالتالي فهو لم يخرج عن مشيئة الله، وجاءت مشيئة الفرد من مشيئة الله سبحانه[2].

وسورة المدثر تمثل بدء الدعوة للإسلام، مؤكدة أن قبول الدين أو رفضه خيار شخصي ولا يمكن إكراه الناس عليه أو فرضه عليهم بالقوة.

فشعار الإسلام الدائم هو: الدين خيار شخصي لا أكراه فيه.

وتقول سورة التكوير: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨) وَمَا

١ انظر فقرة: دين الله يدعو للتعايش السلمي بين الناس وغير المسلمين يرفضون في هذا القسم.

٢ انظر فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة / قسم أدلة من القرآن.



تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩).

فالقرآن أو الوحي أو الدعوة ذكر وتذكير للعالمين، لمن شاء، وليست قسراً.

وهو ما كررته سورة الشمس: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا(٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا(٤) وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا(٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا(٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) الشمس.

الإلهام هنا ليس مباشراً ولكن بطريقة غير مباشرة، فالله جل شأنه غرس في كل نفس عقلاً قادراً على تمييز الحق من الباطل، والاختيار الحر دون تدخل من الله. وكأن أي اختيار هو إلهام من الله، لأن الله خلق الآلية التي تمكن الإنسان من الاختيار.

وسورة الليل بمجملها تشير إلى أن خيار الكفر أو الإيمان شخصي حر.

وتقول سورة البلد: أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠).

فالله خلق الإنسان قادراً على الرؤية والتفريق بين الأشياء، والكلام للتعبير عما يجول في خاطره، والعقل لاختيار طريقه في الحياة واختيار معتقده. فخياره للكفر أو الإيمان خيار شخصي قام به بحريته.

وتقول سورة القيامة: بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥).

الإنسان يقرر هو مصيره بنفسه، ولن يعذر لكفره لأي سبب، لأنه كان بإمكانه أن يختار الهدى ولم يفعل.

وورد في سورة النبأ: ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً(٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً(٤٠).

الخيار بين الإيمان والضلال مشيئة حرة للمرء، والوعيد لمن يختار الضلال. ومن دخل النار فهو من مشى لها بخياره.

وتقول سورة الحاقة: وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ(٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ(٥١).

القرآن الممثل للدعوة لدين الله تذكرة لمن يشاء أن يتقي وينقذ نفسه من النار.

وتقول سورة عبس: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١٣)



مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ(١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ(١٦).

تذكرة لمن يشاء، بلا إكراه ولا وعظ قصصي.

وتؤكد سورة الإنسان هذه الحقيقة. فهذا الإنسان القدير العليم المتصرف كان لاشيء: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً(١).

ثم خلقه الله من ماء مهين، وسواه شخصاً عاقلاً: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً(٢).

يمتلك قدرات هائلة وله سمع وبصر وعقل يفكر ويحلل وقادر على الكلام للتعبير عما يريد، وأحيط بكل ما يحتاج للحياة، ثم ترك له أن يختار كل قراراته بنفسه، ومن ذلك اختيار الإيمان أو الكفر. فكل من دخل الجنة دخلها باختياره، وكل من دخل النار دخلها باختياره، ولا يظلم الله أو يحابي أحداً: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً(٣).

فالله جل وعلا لم يقرر مصائر الناس ولا أرزاقهم ولا آجالهم ولا أي شيء مسبقاً[1].

وهو ما تؤكده سورة الإنسان مرة أخرى في نهايتها: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(٢٩) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٣١).

فدخول الجنة أو النار هو بمشيئته سبحانه. وهذا التقرير جاء بعد أن قالت الآية (٢٩) أن القرآن تذكرة لمن يختار الهداية، وهو ما أكدته السورة في بدايتها بالقول: « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً». فمشيئة الله هنا تعني أن كل ما يجري في الكون وما سيجري في عالم القيامة قدره الله مسبقاً، بمعنى هو من خلق الكون وقدر له عمراً سينتهي وسيخلق كون قيامة وما فيه من جنة ونار، والله قادر على ألا يخلق هذا ويخلق غيره حسب مشيئته واختياره.

وتقول سورة فصلت: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(٤٦).

لا وجود لما تقول كتب التراث من أن الإنسان مسير وليس مخيراً وأن الآجال والأعمال تقرر مسبقاً على الإنسان. فالأعمال يقوم بها الإنسان بخياره الشخصي الحر، ولو كان هناك أي

---

١ انظر فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة في هذا القسم. وفقرة: القضاء والقدر/ قسم مواضيع من القرآن.



تدخل من رب العالمين لكان ظلماً، وما ربك بظلام للعبيد.

وتقول سورة غافر: أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَّ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨).

مع أن الله أنـــلم يقرر الهداية للبعض والغواية للآخرين، ومع أن قبول الحق ورفضه قرار شخصي حر، إلا أن الآية تصف الهداية والغواية بأنها من الله، وكأن الله جل شأنه قرر من يهتدي ومن يغوى. والمقصود هو أن خيار الشخص حر لكنه داخل ضمن مشيئة الله، بمعنى أن الله لو لم يخلق هذا الإنسان ويخلق له عقلاً يفكر ويختار لما استطاع الاختيار. وبالتالي فلو اختار الحق أو اختار الباطل فقد جاء الاختيار بمشيئة الله، والله جل وعلا هو من اختار.

وتؤكد سورة فاطر حقيقة أن الدين خيار شخصي: هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً(٣٩).

وتقول سورة الكهف: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً(٢٩) الكهف.

لا إكراه في الدين، ودعوة للتعايش السلمي بين الناس بغض النظر عن المعتقد، وويل لمن يختار الضلال.

وتقول السورة في آية لاحقة: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً(١١٠).

وتقول سورة الزخرف: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦).

فهم من اختار الكفر، ومن يختار الكفر فمصيره النار. وبالتالي فمن دخل النار فقد اختارها وهو بكامل قواه العقلية، ولم يقدرها الله عليه أو يجبره على الضلال.

وتقول سورة لقمان: وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِّ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢).



من يشكر ويؤمن فقد اختار ذلك بمنتهى الحرية، ومن يختار الكفر فهو خياره.

وتقول سورة النمل إن كل إنسان يختار الطريق التي يريد بمحض إرادته: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢).

الله جل وعلا قادر على أن يميل قلوب الناس للحق، ولكن عدله المطلق يحتم ألا يتدخل سبحانه في خيار الإنسان لمصيره. وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣) السجدة.

وأكثر الناس الذين لم يقبلوا الحق.

وتقول سورة الزمر: وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧).

الهداية من الله من باب الفضل، لأنه سبحانه أوجد العقل للإنسان الذي بواسطته يستطيع أن يختار، وليس من باب أن الله قد اختار من خلقه بعضاً للجنة وبعضاً للنار. وهو ما تؤكده السورة في آية قادمة: إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٤١) الزمر.

وتقول سورة الأعراف: مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٧٨).

والله هو الهادي وهو المضل ولكن ليس بشكل مباشر. فهو سبحانه أودع في كل إنسان عقلاً قادراً على تمييز الحق من الباطل، وترك له حرية الاختيار. ولو اختار الضلال فكأن الله هو من أضله، ولو اختار الهدى فكأن الله سبحانه هو من هداه. لأنه لولا وجود العقل لما كان لدى الإنسان القدرة على التمييز والاختيار.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥) يونس.

الله يهدي، لكن هذا لا يعني أنه سبحانه قرر هداية البعض وضلال الآخرين مسبقاً. بل يعني أن الله بإرسال الرسل يهدي للحق لمن يرغب في الهداية.

وتقول سورة يونس: إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٤).

وتؤكد سورة يونس هذه الحقيقة مرة أخرى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ



فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(١٠٨).

وتقول سورة هود: ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ(١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(١٠١).

ومر بنا أثناء التدبر المزيد من الآيات التي تؤكد أن الدين خيار شخصي خالص.

وتقول سورة البقرة: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧) البقرة.

أهل الكتاب في يثرب هم من اختار الكفر ولم يقرره الله عليهم، وقول الآية «ختم الله على قلوبهم...» كون من لا يؤمن في البداية فلن يؤمن وكأنه ختم على قلبه. ولأن من خلق القلب وسهل التفكير هو الله فكأن الله سلب هذه القدرات من الرافض للدعوة.

وتؤكد سورة البقرة أن الدين خيار شخصي: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) البقرة.

وسورة البقرة نزلت في وقت أصبح للمسلمين دولة وكيان ولم يعد المسلمون عبارة عن قلة ضعيفة وسط مجتمع قوي معادٍ كما كان حالهم في مكة. وتأتي هذه الآية وآيات أخرى في السورة لتؤكد أن قوة دولة المسلمين وكثرة عددهم لا تعني السماح لهم بفرض دينهم على غيرهم بالقسر والجبروت. وهو نسف لأقوال بعض المفسرين والتي تبناها المستشرقون والتي تقول إن الإسلام فرض بالقوة بعد الفتوح.

ومما سبق يمكن فرض القوانين التالية:

القانون: الدين خيار شخصي.

القانون: قوة دولة المسلمين وكثرة عددهم ليست مبرراً لفرض دينهم على الغير.

القانون: لو آمن كل أهل الأرض بدين الإسلام ما عدا شخصاً واحداً فلا يجبر على اعتناق الإسلام.



دين الله يدعو للتعايش السلمي بين الناس وغير المسلمين يرفضون

كل الآيات التي تؤكد أن الدين خيار شخصي تحمل دعوة ضمنية مفادها التعايش السلمي بين المؤمن والكافر. فقبول الدعوة أو رفضها يجب ألا يكون سبباً في الخلاف والعداوة بين الناس. لأن الدنيا حياة مشتركة بينهم، والإيمان والكفر سيحكم به الله على الناس يوم القيامة. وهناك آيات كثيرة تكرر الطلب من قريش أن تقبل بالتعايش السلمي مع المسلمين، واحترام حرية اختيار الشخص لدينه. لكن قريشاً لم تقبل وناصبت المسلمين العداء من أول يوم للدعوة، ولاحقتهم حتى بعد هجرتهم ليثرب في سبيل القضاء عليهم.

وهذه الحقيقة تخالف ما يشاع من أن الإسلام جاء مسلطاً السيف على رقاب الناس، ليجبرهم على قبوله.

والقاعدة الثابتة أن كل رسل الله جاؤا يدعون الناس بالحسنى ولم يحملوهم قهراً على قبول الدين، ونادوا بالتعايش السلمي بين الناس كافرهم ومسلمهم، لكن الكافر عادة هو من لا يقبل التعايش السلمي، وهو من يبدأ الحرب على المسلم. لأن تمسكه بموروثه يجعله ينبذ الآخر المخالف له، وهذه سنة أزلية سارت عليها كل الأمم في كل زمان ومكان. وموجودة في هذا العصر في كل المجتمعات التي تدعي الحضارة والتمدن، كما كانت موجودة عند قريش أو قوم عاد وثمود.

وسنورد في الأسطر القادمة آيات تؤكد عرض الدعوة الإسلامية التعايش السلمي ورفض الكفار ذلك:

تقول سورة «يس» متحدثة عن قريش: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٧).

ويستفاد من هذه الآية أن دعوة الإسلام كانت تنشد التعايش السلمي مع قريش الكافرة، بحيث يعيش الكافر والمسلم في مكة بوئام وسلام، ويبنون مجتمعاً عادلاً، يقوم على الإنفاق والصرف على احتياجات المجتمع والناس بغض النظر عن المعتقد. ولو وافقت قريش على عرض القرآن الذي يقول بأن المواطن من ينفق إن كان غنياً أو يستفيد من الإنفاق إن كان محتاجاً بغض النظر عن عقيدته، لعاش الناس في مكة في مجتمع متكافل لا يوجد فيه محتاج ولا بائس. إلا أن قريشاً لم ترغب في التعايش السلمي مع المسلمين، ورفضت المشاركة في



الإنفاق.

وورد في سورة النجم: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى(٤١).

والآيات تتحدث عن أحد مشركي قريش الذي استمع للقرآن وهو يحث على الإنفاق لسد حاجات المحتاجين بغض النظر عن المعتقد، فاستجاب لهذه الدعوة وقام بدفع بعض المال، لكنه توقف ولم ينفق مرة أخرى ظناً منه أن الإنفاق يكون لمرة واحدة.

وتقول سورة الهمزة: وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ(٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ(٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ(٩).

وهي تتوعد من يجمع المال ولا ينفقه في مصلحة المجتمع والتكافل الاجتماعي. والمقصود هنا كبراء قريش الذين يملكون الأموال الطائلة ولا ينفقون منها القليل لسد حاجة المحتاجين في مكة.

وهي دليل آخر على أن الإسلام سعى للتعايش السلمي مع قريش مع حقها في الإبقاء على معتقداتها وموروثها الديني، إذا ما قبل أغنياؤها الإسهام في الإنفاق للصرف على المحتاجين في مكة بغض النظر عن المعتقد، لكن قريشاً هي من رفض هذا العرض السلمي ولم تتوقف عن عداء المسلمين وحربهم.

وتقول سورة الدخان: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) وَأَنْ لَّا تعلو عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ(٢٠) وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(٢١).

فموسى طلب من فرعون أن يقبل بالتعايش السلمي معه إن لم يقبل دعوته للإيمان، لكن فرعون لم يقبل وسعى لحرب موسى وملاحقته ومن معه، شأنه في ذلك شأن كل الأمم والمجتمعات في كل زمان ومكان. فكل دعوة إصلاح ستحارب ولن يقبل المجتمع التعايش معها أو تركها في حال سبيلها.



وتقول سورة سبأ: قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(٢٦).

وتقول في مكان آخر: قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠).

وتقول سورة الكافرون: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ(٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(٦). لكن قريشاً لم تقبل بالتعايش مع المسلمين.

ونستفيد مما تقدم أنه لو كان هناك دولة إسلام، فسيعيش فيها كل الناس مواطنين بنفس الحقوق بغض النظر عن المعتقد. وتقوم هذه الدولة على تفعيل قانون الإنفاق من كل من يملك المال (بغض النظر عن العقيدة) الذي سيدعم موازنة الدولة، التي ستنفق على البنى التحتية الكفيلة بالنهوض بالمجتمع ومحاربة الفقر وتوفير الخدمات (لكل الناس بغض النظر عن العقيدة)[1]. وتقول سورة يونس عن قريش: بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٣٩).

فقريش كذبت بالدعوة منذ اللحظة الأولى التي بدأت، ولم يسمحوا لأنفسهم بالتعرف عليها أو فهمها. وقد بقي الرسول فيهم سنوات دون أن تصغي قريش لما يقول. فأتباع الموروث لا يمكن أن يسمحوا لأنفسهم بالتعرف على المخالف وفهم ما يدعو له، لأنه سيشككهم بموروثهم. وتقول سورة يونس نفسها إن الإسلام كرر عرضه لقريش بالتعايش السلمي في مكة بين المسلمين وغيرهم: وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٤١) يونس.

لكن قريشاً لم تقبل، ولم يكن متوقعاً منها أن تقبل التعايش السلمي، أو حتى فهم رسالة المخالف أو الإصغاء إليه، أو مجرد القبول بوجوده ولو في مكان بعيد. لأنه ينتقد موروثهم، وخطر عليه. لذا نجد قريشاً حاربت المسلمين في مكة بالسخرية وكل أنواع المضايقات، بل ووصل بها الأمر أن عذبت المستضعفين لتردهم عن الإسلام. ولما هاجروا للمدينة لم تتركهم لشأنهم بل لاحقتهم ودخلت معهم في حرب طويلة ومعارك طاحنة. وحشدت كل

[1] يمكن الرجوع لكتاب: رسالة في الشورى والإنفاق / قوانين قرآنية مغيبة تضمن حقوق الفرد وحرية الجماعة. من منشورات دار الجمل.



طاقاتها لسحق المسلمين والحصول على عون لمساعيها من الروم والفرس وقبائل في جزيرة العرب. كل هذا لأن الإسلام ينتقد موروثهم، وهو ما تؤكده سورة يونس: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ(٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ(٤٣).

وكل أتباع موروث لا يمكن ان يقبلوا بالاستماع للمخالف ولا فهم دعوته، بل يتجنبون الاطلاع عليها ومحاربة من يدعو لها. فليس المهم إن كانت حقاً أو باطلاً، لكن المهم أنها خالفت الموروث.

وتعود سورة يونس مرة أخرى لدعوة أي مجتمع للتعايش السلمي مع الإسلام بعدما رفضته قريش: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٤).

وبطبيعة الحال لن يقبل أي مجتمع غير مسلم بالتعايش السلمي مع الإسلام، لأن التعايش السلمي يعني إقرار أتباع الموروث أن موروثهم فيه عيوب وأخطاء وضلال.

وتستمر سورة يونس لتقول للرسول أن يتمسك بعبادة الله ولا يهتم بما يعبد الناس، وليصبر على أذى من لا يرغب بالتعايش السلمي مع المؤمنين: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(١٠٩).

وتقول سورة الأنبياء: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ(١٠٩).

مسئولية الرسول التبليغ، وكل إنسان يختار طريقه. ومن اختار الكفر فالآية تدعوه للتعايش السلمي مع المسلم.

ومثله: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٥) الشورى.

اعملوا ما تريدون واعبدوا ما تريدون وسنعبد من نريد ونعيش معاً بسلام.

ومثله: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً(٨٤) بني إسرائيل.



واستمر الإسلام يسعى للتعايش السلمي مع قريش وبناء مجتمع متكافل: قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً(١٠٠) بني إسرائيل.

والآية تخاطب قريشاً وتقول لهم إن امتناعكم عن الإنفاق ليس لقلة أموالكم، لأنه حتى لو كنتم تملكون خزائن رب العالمين لأمسكتم عن الإنفاق.

ويفهم من هذا أن قريشاً رفضت دعوة الإسلام للإنفاق والمشاركة في القضاء على الفقر وتلبية حاجات المحتاجين، وهي دعوة للتعايش السلمي بغض النظر عن المعتقد. ودعوة الإسلام قريشاً للمشاركة في الإنفاق ليس للصرف على فقراء المسلمين، ولكن للصرف على فقراء مكة وغالبيتهم من الكفار، لكن فكرة التعايش السلمي مرفوضة.

ومثله: وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ(١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٢٢) هود.

الآية فيها تهديد لقريش بأن عذاب الآخرة سيحيط بهم، وفي نفس الوقت إشارة لإمكانية التعايش السلمي معهم لو وافقوا وتركوا الرسول والمسلمين بحالهم أو تعاونوا معهم لبناء مجتمع واحد متسامح.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(١٣٥).

وهو ما كررته عدة سور منها: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٤٠) الزمر.

والتعايش السلمي دعوة حملها كل رسل الله: وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ(٨٩) الأعراف.

وعلى مر العصور وفي كل مكان فالذي لا يقبل التعايش هو الكافر أو الضال الذي خرج عن مسار الحق وتبع معتقدات مستحدثة. لأنه لو قبل التعايش مع دعوة الحق والتصحيح



فهو اعتراف بأن موروثه باطل، وهذا ما لا يرضى به أتباع الموروث أبداً. بغض النظر إن كان غربياً يدعي الحضارة أو هندياً يعبد البقر أو من أتباع المذاهب.

أما دعوة الإسلام التي جاء بها الرسل أو أي دعوة تصحيحية للعودة للقرآن فستبقى تدعو للتعايش السلمي، وبناء مجتمع متعاون متسامح[1].

وسورة الممتحنة تنهى مسلمة قريش من موالاة المشركين الذين أخرجوا الرسول والمسلمين من مكة وحاربوهم وحاولوا القضاء على الإسلام، ولو ظفروا بهم فسيبيدوهم، ثم تستدرك السورة قائلة: عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩).

فالمودة والتعايش السلمي هو أصل تعامل المسلمين مع غيرهم، ما لم يحاربوا الإسلام والمسلمين. فالإسلام لا يعادي الكافر لكفره، ولكنه فقط يعادي من يعتدي على الإسلام والمسلمين، ويعلن الحرب عليهم بأي وسيلة.

التعامل الإنساني في الإسلام

ورد في سورة النحل: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

هذا القانون الإلهي الذي يحكم العلاقات بين الناس (بغض النظر عن المعتقد)، يتمثل بالعدل في التعامل والتواصل والإحسان الذي يشمل كل ما يؤلف بين قلوب الناس، معنوياً كالتبركات أو الهدايا في المناسبات، ومادياً كالعون وسد الحاجات.

والتعامل الإنساني بالتخاطب الحضاري واللباقة هو المقصود بقوله تعالى: "وقولوا للناس حسناً" في الآية التالية: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ

---

[1] والتسامح هنا يعني ألا يكون المعتقد سبباً للعداء، وليس المقصود به التسامح مع الكافر لو اعتدى على حرمة الدين وتشريعاته فهذا إعلان للحرب على دين الله يجب أن نتعامل معه بكل جدية وحزم.



تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ(٨٣) البقرة.

أما التعامل الإنساني الشامل بما في ذلك المعنوي والمادي والعيني فذكر في آيات عدة، منها: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦) النساء.

فقد أمر الله سبحانه بالإحسان، بالكلام والعين والمعاملة، بنفس مستوى الأمر بعبادة الله والبعد عن الشرك، لأن كل أمر إلهي في القرآن لا يحمل إلا معنىً واحداً هو الوجوب، وليس هناك أمر إلهي في القرآن يعطي للناس الخيار في اتباعه أو رفضه حسب الرغبة.

والآية توضح أن الإحسان يكون لكل الناس، دون النظر للمعتقد، كل بما يحتاج. فالغني والفقير يحتاج الإحسان بالكلمة الطيبة والتعامل الإنساني، مثل السؤال عن الصحة، والمواساة، والمشاركة في المشاعر، والتبركات والهدايا في المناسبات..........الخ.

والدليل على أن هذا الإحسان لكل الناس أن الآية المذكورة تقول إنه للوالدين، ولكل من للشخص به قرابة ولو من بعيد، ولليتامى نعرفهم أو لا نعرفهم.

(تصور لو أنك عاهدت نفسك على زيارة اليتيم واصطحابه للترفيه وشراء الهدايا له، بمناسبة ميلاده أو نجاحه ..الخ، كم ستكون نبيلا في نظره).

والإحسان تقول الآية أنه يكون أيضاً للمساكين نعرفهم أو لا نعرفهم، والجار ذي القربى أي الملاصق، والجار بالجنب أي الجار الذي يحيط بنا من كل الجهات ولو لم يكن ملاصقاً، والصاحب بالجنب، قد تعني بلغة العصر أهل الحي.

والإحسان يكون لابن السبيل حتى ولو لم نعرفه، وابن السبيل يدخل ضمنه الوافد حالياً. والإحسان يجب للرقيق، بالمعاملة الإنسانية والمادية، عندما كان هناك رقيق.

وإذا نحن أحسنا لهؤلاء نكون قد أحسنا لكل الناس بلا استثناء، لأنه لن يتبقى أحد من الناس لا يدخل ضمن من ذكر في هذه الآية.

الإحسان إذاً، هو تعامل حسن وإنفاق مادي لمن نعرف ومن لا نعرف، فعله عمل صالح وتركه كبيرة. يهدف لإشاعة الألفة والتواد بين الناس، فيدخل فيه الهبات والهدايا، والتبركات والمشاركة في المشاعر ... وبقية ما يشمله الإحسان.



وإكمالاً للإحسان (أي العيش بتحضر وسلام) لابد أن نشير إلى أن الإسلام جاء ليعيش الناس بوئام، مسلمهم وكافرهم. متى ما رضي الكافر بالعيش بسلام، ولم يقم بأي تصرف يفهم منه أنه عداء للإسلام وأهله.

فالعداء ليس للكافر على عدم إيمانه بالله أو رسالة محمد، ولكن بإعلانه الحرب على الإسلام بأي وسيلة: لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) الممتحنة.

والمخاطب في الآية هم المسلمون زمن الرسول، حيث كان هناك من أسلم من قريش وهاجر لكنه أبقى علاقات ود وولاء لأقاربه المشركين (المحاربين)، فجاءهم النهي عن ذلك وأمروا بضرورة قطع علاقاتهم بالمشركين في آيات الممتحنة السابقة للآية المذكورة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١) الممتحنة.

وتواصل التحذير في الآيات التالية حتى الآية (٨) التي يبين الله فيها أن النهي عن موالاة من حارب الله ودينه والمسلمين. أما مشركو مكة الذين « لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ» فيجب عليكم " أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ."

فالأصل في التعامل في الإسلام بين الناس هو البر بكافة وسائله (والبر هنا يعني أسمى درجات التعامل الإنساني) والقسط في كافة التعاملات (والقسط هنا يعني أسمى درجات العدل) والإحسان بكل أشكاله (والإحسان هنا يعني أسمى درجات الود والتواصل). وهذه تختلف حسب الزمان والمكان – بطبيعة الحال.

ولا نحتاج للقول إن الإحسان يكون بتقديم الحلال وعدم التبذير لئلا نعصي الله من جهة أخرى. فلا يكون البر والإحسان بمحرم، سواء كان عيناً أو غيرها. كما لا يجوز أن نصل بالبر والإحسان للتبذير، مثل أن نقدم هدية بملايين الريالات. لأن الهدية ترمز للمشاركة في المشاعر (التواد) ولو تحولت للتباهي فقد خرجت من الهدف المرسوم لها إلى التباهي المحرم.



ولو تعاملنا بالبر والإحسان والإيتاء والقسط، لكل من يتعامل معنا من مسلم أو كافر مسالم. وأضفنا لذلك قانوناً إسلامياً آخر يؤكد على أن مخالفة المواعيد كبيرة تؤدي لجهنم، وقوانين أخرى. فهل سيكون هناك مجتمع أفضل من المجتمع المسلم؟

أما من كفر وحارب الإسلام وأهله بأي وسيلة، فيجب أن يحارب بكل قسوة ويحرم تحريماً قاطعا موالاته أو الإحسان إليه.

فبعض أهل الكتاب في يثرب طردوا من يثرب ليس لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ولكن: بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَّ فَإِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤) الحشر.

فالإسلام سِلمٌ وسلام مع المسالمين وحرب على المحاربين.

السجن والإسلام

السجن والحبس يعني تقييد حركة وحرية الإنسان رغماً عن إرادته، وهذا ضد العزة والكرامة التي يضمنها الإسلام للبشر. وقد ذكر القرآن السجن في سورة يوسف أثناء الحديث عما جرى ليوسف في «مصر» التي كان لديها سجون ومعتقلات. ولم يذكر القرآن السجن ليقره كعقوبة، أو يحث عليه.

ولا يمكن أن يقر القرآن السجن الحكومي أبداً، والعقوبة الإسلامية الوحيدة التي تفرض تقييد حرية الحركة لإنسان، هي تلك التي ضد من تقترف فاحشة ما يعرف الآن بالسحاق. حيث يفرض عليها الإقامة الجبرية في منزل ذويها، حتى تتوب أو يجعل الله لها سبيلاً، كالعلاج النفسي :وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥) النساء.

وهذا التقييد ليس سجناً شبيهاً بسجون الحكومات، ولكنه أقرب للإقامة الجبرية. وما عدا هذا فلم يكن من المتوقع أن يقر الإسلام السجن، لأنه ضد حرية الإنسان، التي جاء الدين ليضمنها، حتى بعدما أصبح للمسلمين دولة كانت تضم منافقين لم يؤمنوا، وصدرت منهم تصرفات مشينة أخلاقياً. ومع ذلك لم يسجنهم الرسول ولم يفرض القرآن سجنهم، برغم نزول القرآن بمعاقبتهم بعقوبات تصل لطردهم من يثرب أو قتلهم كما ورد في الآيات: (٦٠-٦٢) من سورة الأحزاب.



وهذا ما يؤكد أنه لم يكن هناك سجن زمن رسول الله، وبالتالي فليس هناك سجن في الإسلام، ولا يجب أن يكون.

فالقاتل يحاكم ويقتل لكن ليس عليه سجن ولا تعذيب، وكذلك أي جريمة أخرى أقل من القتل.

وأول من سجن في تاريخ الإسلام – كما ذكر العسكري في كتابه الأوائل – هو علي ابن أبي طالب، الذي كان يسجن من يخالفه الرأي. وكونت تلك الخطوة نواة لظهور المعتقلات السياسية التي عرفها المسلمون فيما بعد، ومورست فيها أنواع من التعذيب الوحشي ضد السجناء لم يمارسها جلادو محاكم التفتيش. لدرجة أن عبد الملك ابن مروان أمر بإنشاء أول مستشفى للأمراض العقلية في تاريخ المسلمين. ولعله لمعالجة سجناء الرأي الذين فقدوا عقولهم في السجن تحت التعذيب. واليوم فالحكومات العربية تحرص على بناء السجون التي تمارس فيها أنواع من التعذيب الوحشي، وتسميها إصلاحيات، في وقت تهمل فيه بناء المستشفيات. فالمواطن الطليق خطر دائم، بينما المريض لو مات فقد أُمن شره. وكأن الحكومات ترى أن المواطن الصالح هو المسجون أو المريض النفسي أو الميت.

سعادة الدنيا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٩٦) الأعراف.

متى وجد مجتمع مؤمن يطبق أفراده تعاليم الدين على حياتهم العامة ليتمتعوا بنعيم دنيوي. وذلك لأن قوانين الإنفاق ستضمن لهم حياة كريمة خالية من الفقر والفاقة وكفيلة ببناء بنية تحتية عصرية ومنتجة تعتمد على ذاتها ومنتجاتها.

وبتطبيق قوانين الشورى سيتمتعون بعدل مثالي وحقوق مصانة وحرية مكفولة ومشاركة في القرار السياسي ومراقبة دائمة ودقيقة للمال العام.

وسيعيش المجتمع المسلم في سلام مع كل من يتعايش معه في سلام. ولن يدخل في حروب مع أحد. في المقابل سيكون لديه جيش قوي مدرب مستعد لصد وسحق أي عدوان[١].

١ التفاصيل في كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق «قوانين قرآنية مغنية تضمن حقوق الفرد وحرية الجماعة» / من منشورات الجمل.



أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ(٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤) يونس.

ويتحقق هذا بتطبيق شرع الله وقوانين القرآن: مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) الحج.

ذكر الله والتسبيح والنسيان

وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً(٢٤) الكهف.

الآية تفرض على الإنسان أن يذكر الله عند النسيان، لأن الذكر والتسبيح يعمل على تهدئة الأعصاب، وإذا هدأ المرء كان تذكره أسهل. وليس لأن الله جل وعلا سيحرك ذاكرة الإنسان ويذكره بما نسي لأنه ذكره وسبحه.

الدعوة تبليغ وإسماع وليست للإقناع

الدعوة للإسلام لا تعتمد المواعظ واستمالة القلوب وتحريك المشاعر، وأساليب الترغيب والترهيب، ولكن تعتمد على توصيل القرآن للناس وإسماعه لهم. لأن دين الله يعتمد التذكير بالحقائق، وليس الإقناع، وبعد ذلك فالقبول والرفض خيار شخصي لكل إنسان.

ما يؤسف له أن المسلمين - ومنذ أيام العصر الأموي - تبنوا طريقة المبشرين المسيحيين الذين يعتمدون الوعظ والتشويق القصصي لاستمالة القلوب لأن عقائدهم لا تحتوي حقائق، فيغطون هذا النقص بالبلاغة الكلامية والقصص المشوق والمثير. فبعد سيطرة المسلمين على بلاد الشام والعراق ومصر التي تنتشر فيها المسيحية، تحول كثير من أهلها للإسلام. ومما أبقوه من موروثهم الديني، اعتماد القصص والوعظ الذي اعتادوه في المسيحية. لذا لا غرابة أن يكون أول القصاص في الإسلام ممن كانت خلفياتهم الدينية مسيحية، مثل تميم الداري والحسن البصري وابن سلام، وغيرهم.

وبقيت وترسخت مجالس القصاص والوعظ، واعتمدها المسلمون للدعوة إلى الإسلام حتى اليوم. ونسي الناس أن رسول الله لم يكن واعظاً في يوم من الأيام، وكان طوال فترة الدعوة يعتمد تلاوة القرآن على الناس دون وعظ أو قصص. لأن الوعظ يميل القلوب لكنه



يميلها لقصص الداعية أو المبشر وليس لدين الله النقي الذي لا يمثله سوى القرآن بعيداً عن القصص الخرافي. وكان على الدعاة للإسلام أن يذكّروا الناس بالقرآن ويتركوا المدعو لنفسه، إن شاء أطاع وإن شاء أعرض. فالداعية المسلم تنتهي مسئوليته بتبليغ القرآن، وليس مطالباً بإقناع أحد بالدخول في الإسلام. كما كان الحال مع رسل رب العالمين، المبشرين والمنذرين، الذين لم يكن منهم من هو وكيلٌ على هداية الناس.

العقول متحجرة دائماً فيما يخص نقد المعتقد، وإن كانت متفتحة لمواضيع أخرى. لذا نجد إنساناً عصرياً بعقلية حرة وعالية الثقافة لكنه هندوسي أو أوروبي مسيحي متعصب لتلك الديانة التي تتنافى مع العقل.

التغير في المعتقد يقابل بمعارضة اجتماعية أشد من التغير في أي مجال آخر. ولكن متى ما قبل المجتمع التغير فإن رسوخ المعتقدات يتم بصورة أعمق من رسوخ التغيرات في المجالات الأخرى، لأن المعتقدات المتبناة تصبح جزءً من ثقافة المجتمع وشخصيته يصعب التخلي عنها. وقبول الدعوة لدين جديد أو العودة لأصل دين قائم، لن يقبل بها إلا قلة قليلة من الناس، مهما كانت الدعوة مقنعة ومدعومة بالأدلة والبراهين: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) يوسف. وهذا حدث لكل رسل الله السابقين، وحصل لكل مصلح مثل ذلك الرجل الذي أخبرتنا عنه سورة يس: وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ(٢١) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ(٢٣) إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٣٠).

فالدعوة للعودة للدين يجب أن تسلك نفس طريق الرسل. (أنا هنا لا أشبه المصلح بالرسول، ولكني أطالب باتباع سنة الرسل في الدعوة) والرسل لم يكن من مسئولياتهم هداية الناس للحق، وكل مسئوليتهم تنحصر وتقف عند التبليغ: وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٨) العنكبوت.



وسورة يونس تخاطب محمداً: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(١٠٨) يونس.

وكل من يشعر بالأسى لما عليه الناس ويود لو يجد طريقة لإقناعهم بالعودة لكتاب الله، فهو شعور مماثل لمشاعر رسول الله محمد أثناء دعوته قريشاً في مكة. فكانت الآيات تنزل لتقول له لا تقتل نفسك حزناً وأسفاً على إصرارهم على الكفر: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) الكهف.

ولأن قريشاً استمرت تكرر على الرسول أن يظهر لهم «آية»، فقد كان محمد عليه الصلاة والسلام يتمنى لو يعطيه الله معجزة حتى تؤمن قريش، فيأتيه الرد: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧) يونس.

ولكن محمداً الإنسان استمرت عنده مشاعر الشفقة على قريش واستمر يتمنى لو أنزل عليه آية فنزل القرآن: وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٥) الأنعام.

فهل عليك أن تهدي الناس، أم أن كل ما عليك هو أن تقول: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩) المزمل.

وبعد ذلك فمن عمل صالحاً فلنفسه، و (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ)الشورى٦ وهذا لا يعني الجفاء بينك وبينهم بل عاملهم في الدنيا معروفاً، ما داموا لم يقاتلوك في الدين. لأن الإسلام لا يقاتل الناس على عقائدهم ولا يجبرهم على اعتناقه، ويتعامل معهم بكل ود ما بقوا يتعاملون معه بسلام. أشعر أني متى ما أوصلت شخصاً للشك بأنه قد يكون في معتقده الموروث شيء ما غير صواب فهذا منتهى ما أريد الوصول له. فالشك أول درجات اليقين. ومن يشك سيبحث ومن يبحث سيجد. والمتشبث بالموروث عادة يفتح جدالاً لا ليُسْمعك نقده لما قدمت ويسمع منك ما تنقد به معتقده. ولكنه يأتي وفي مخيلته شيء واحد، وهو أنك ضال وهو على الحق، وهو قادم لكي يأطرك على الحق – الذي يظن أنه بجانبه – أطراً رغماً عن أنفك. لذا هو لا يصغي لما تقول، ولكنه يستمع له فقط لكي يجد عبارة يهاجمك منها ولو كانت خارج الموضوع أو بعيدة عن



صلب الموضوع. فإن لم يجد فيسعى لتشتيت الموضوع وأخيراً يبدأ بالتهجم. لذا فالمهم هنا هو تقديم الدليل، ومن لا يقتنع بالدليل فهو لا يرفض كلامي بل يرفض الدليل وهذا لا شأن لي به وليس علي أن أقنعه بقبوله. فالداعي يجب ألا يتقمص دور الهادي لأي موضوع ديني أو يعتبره وكأنه مشكلته الشخصية وكأنه مسئول عن إقناع الناس.

وعلى الداعي لدين الله أن ينظر للنقاش الديني على أنه تبادل معارف، وليس رأياً ورأياً آخر وكل رأي يحاول فرض نفسه على الرأي الآخر لينتصر لشخصه أو لرأيه.

وأول إشارة في القرآن على أن الدعوة لدين الله تعتمد التبليغ – أو تلاوة القرآن – وليس إقناع المدعو وردت في سورة المزمل: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩).

فالآية (١٩) تشير للقرآن بأنه تذكرة وليس إقناعاً. والمزمل سورة نزلت قبل بدء الدعوة الفعلي في سورة المدثر، وتقول للناس إن الدين للإسماع وليس للإقناع، وهذا إعلان سبق بدء الدعوة، يؤكد أن ما سيدعو له الرسول من دين هو للتذكير والإسماع وليس للإقناع. وعلى الرسول مسئولية إسماعه وتوصيله للناس وليس عليه أن يحاول إقناعهم باتباعه.

وتقول سورة المدثر التي بدأت بها الدعوة للإسلام فعلياً: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

هنا قسم لتأكيد أن الدعوة نذير، وبعد ذلك فالخيار للشخص: «يتقدم» كناية عن الإيمان والفوز، أو «يتأخر» كناية عن الكفر. فكل نفس بما كسبت رهينة، وليس هناك أي محاولات لإقناعه باتباع الحق بأي وسيلة.

وفي آيات لاحقة تقول نفس السورة: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

الدعوة إنذار «نذير» لمن شاء أن يقبل «يتقدم» أو يرفض «يتأخر»، وبعيداً عن الإقناع.



وتؤكد هذا السورة نفسها: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦) المدثر.

فمن شاء ذكره: تعني من شاء أن يؤمن بخياره وباقتناعه هو دون إقناع من المبلغ، فليفعل.

وتقول سورة الأعلى التي نزلت في بداية مرحلة استمرار الدعوة، وهي ترشد الرسول كيف يدعو: فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى(٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥) الأعلى.

الآيات تخاطب الرسول وتطلب منه التذكير «الدعوة» دون إلحاح أو محاولة إقناع.

وورد في سورة القيامة قوله تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩).

فكل ما على الرسول فعله هو أن يتلو ما يوحى إليه على قريش كما نزل، دون الحاجة لا لشرحه أو التعليق عليه بكلامه هو: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. فحد مسئولية الرسول (وكل داعية) تنحصر في التبليغ، وليس الاقناع.

وتقول سورة «ق»: نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥).

الآية نزلت ضمن آيات تخاطب الرسول وتشد من عزيمته في إشارة إلى تعرضه للأذى النفسي نتيجة لسخرية قريش التي بدأت تتنامى، ولحزنه الشديد لاستمرارهم على الكفر برغم وضوح الحق. والآية تقول للرسول ألا يهتم لكفرهم، فلن يسأل عنه، لأنه ليس عليه هدايتهم. وكل ما عليه هو تبليغ الوحي بقراءة القرآن عليهم، فمن خاف وعيد الآخرة فسيؤمن.

وتقول سورة الغاشية: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(٢٦).

مسئولية الرسول تنحصر بتبليغ الناس ما نزل عليه من القرآن، وليس مسئولاً بعد ذلك عن إقناعهم بالقبول.

وهو ما تؤكده سورة الذاريات: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ(٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ



الْمُؤْمِنِينَ(٥٥).

مسئولية الرسول تنتهي بتذكير الناس (تبليغ رسالة ربه)، ولن يلام على رفض الناس دعوته، فليس عليه هدايتهم أو إقناعهم. والإيمان يجب أن يكون من قناعة، أما الإقناع فقد يستجيب له البعض ويعلنون إسلامهم لكن لو لم يقتنعوا هم بأنفسهم بقبول الحق، فإعلان الإسلام لن يكون كافياً ولن يحولهم لمؤمنين. ومن أعلن الإسلام دون اقتناع فلن يلتزم بأوامر القرآن ونواهيه، ومن لا يلتزم بذلك فليس بمسلم ولو أعلن الإسلام. ويكون دخول الإسلام بلا اقتناع مجرد زيادة عدد المنافقين.

وتقول سورة الأحقاف: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٨) الأحقاف.

كل من يجادل في حقيقة الدين يقال له: كن كما تعتقد وأنا كما أعتقد، ويوم القيامة – إن كان هناك قيامة – ستندم، وإن لم يكن قيامة فلن أندم لأني لن أعلم بذلك أبداً. دون محاولة لإقناعه بالحق.

وتقول سورة فاطر: وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ(٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٢٦).

الآيات تؤكد لمحمد أن مسئوليته تتوقف عند التبليغ وليس مسئولاً عن هداية البشر.

وقد يكون رسول الله يشعر أحياناً أن سبب عدم إيمان قريش هو انه لم يحسن التبليغ فيلوم نفسه، فتنزل الآيات تنفي ذلك. وتؤكد له أن ما يحدث له حدث مع كل الرسل قبله، وأن الله أهلك المكذبين. وتنتهي مسئولية المبلغ بتوصيل رسالة ربه للناس، أما اقتناعهم فلا شأن له به.

وتقول سورة الكهف: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً(٥٦) .

كل الرسل كلفوا بالتبليغ لكن لم يطلب منهم إقناع الناس، أو الدخول مع الكافرين في جدال لإقناعهم بالحق. لأنه لو كانت الغاية من إرسال الرسل الإقناع، فلن يرسلهم الله،



لأنه قادر على إقناع الناس بالحق بدون رسل. لكن الرسل دورهم التذكير والإنذار فقط، وبعد ذلك فلو كفر المرء أو أسلم فهو من اختار طريقه.

وتقول نفس السورة: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً(٢٩) الكهف.

إذا كان خيار الحق أو الباطل شخصياً وبكل حرية فمن اختار الضلال وقد أنذر من النار فهو من اختار العذاب لنفسه بنفسه. ولذا فليس الرسول مطالباً بمحاولة تغيير قناعة أحد، وهو ما تشير له سورة الزخرف:

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢).

وكررته سور أخرى مثل سورة النمل: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ(٨١).

فمن رغب في الموت فليس على الرسول محاولة إجباره على الحياة. ومن رغب العمى فليس من مسئولية الرسول إجباره على البصر.

وتكرر في نفس السورة: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢) النمل.

الدعوة ليس محاولة لتغيير القناعات، ولكنها تذكير بأن هناك حقاً يؤدي للجنة، وهناك باطل مصير صاحبه النار. وعلى الداعي (رسول أو مسلم عادي) ألا يتحول لمبشر.

وبعد الإسماع يترك القرار للمدعو كما تقول سورة الأنبياء: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ(١٠٩).

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم



بِوَكِيلٍ(٦) الشورى.

وتقول نفس السورة مخاطبة الرسول عن قريش: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ(٤٨).

وتقول سورة الأعراف: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(١٠٦) وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(١٠٧).

فكل ما عليك فعله يا محمد هو تبليغ ما يوحى إليك، وبعد ذلك فليس عليك هداية الناس ولست عليهم بوكيل، فلا تنصب نفسك منصباً لم يكلفك الله به.

وتقول سورة الأنعام: وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(٦٦).

وهذا ما يجب أن يلتزم به كل دعاة الإسلام. لكن ما يحدث اليوم هو الاعتماد على الوعظ القصصي والترغيب والترهيب الخطابي لإقناع المخالف. وهذا الأسلوب الذي تبناه المسلمون من المسيحيين يجب أن يتخلو عنه ويتمسكوا بهدي الله الذي اختار لرسله. والمتمثل بعرض حقائق القرآن وتذكير المخالف بما ينتظره لو بقي على مخالفته للحق.

وهو ما تؤكده نفس السورة: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(١٠٦) وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(١٠٧).

ومثله ما جاء في سورة العنكبوت: وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٨).

وسور كثيرة سيمر بها القراء أثناء تدبر القرآن أو أثناء تلاوتهم للقرآن في أوقاتهم الخاصة.

ويمكن استخلاص قانون قرآني من هذه الفقرة يقول: الدعوة للإسلام تكون بتلاوة القرآن، وبيان حقائقه، أو تيسير القرآن لغير المسلم بلغته. ويجب التوقف عن الأساليب الحالية، التي يستخدمونها للدعوة. لأنها تعتمد الإقناع بالوعظ القصصي أو الدخول في جدال مع المخالف يهدف لدحض حججه وعزه في الخطاب. وهذا ما يقوم به المبشرون المسيحيون وأدخله للتراث الإسلامي بعض من دخل الإسلام منهم بعد الفتوح الأولى.



كل نفس بما كسبت رهينة

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) المدثر.

ما يقوم به الإنسان بنفسه لنفسه هو ما يسجل له في صحيفة أعماله، وليس ما يقوم به غيره بعلمه أو بدون علمه. مثل ما يسود الآن من الحج عن الميت أو التصدق أو عمل أعمال خيرية باسمه بعد موته. وصحيفة الأعمال آلية في النفس، تقوم بتسجيل ما يمر بالحواس الخمس من الولادة حتى الموت، وبناءً على هذا السجل يكون الحساب، ولن تسجل ما يقوم به الغير.

وفي سورة الانفطار يقول تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ(١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ(١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ(١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ(١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ(١٩).

فكل نفس لن تملك لنفس أخرى شيئاً، وكل سيحاسب بناءً على ما قدم، ولن تقبل «واسطة» ولا عمل بالنيابة. وهو ما يؤكد أن أي عبادة أو عمل صالح يقوم به شخص نيابة عن شخص آخر لن يقبل، لأن صحيفة أعماله لن تسجل إلا ما يقوم به هو. لذا فلن يقبل حج ولا صوم ولا صلاة ولا أعمال خير بالنيابة، كما يفعل ويظن كثير من الناس الآن.

وتتحدث سورة النجم عن أحد كبراء قريش الذي اقتنع بفائدة الإنفاق فدفع بعض المال لسد حاجة محتاجين، لكنه توقف ولم يستمر بالإنفاق كلما دعت الحاجة كما هو مطلوب: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى(٤١) النجم.

والآيات تؤكد أن كل إنسان سيكتب له من عمله ما قام به هو بنفسه لنفسه، سواء كان عبادة أو إنفاقاً أو أي عمل خيري. ولن يكتب للمرء أجر عمل قام به غيره بالنيابة عنه، لأن الأعمال لا تؤدى بالإنابة.

وسيحاسب الإنسان بما سجلته له هو صحيفة أعماله، ولن تسجل صحيفة الأعمال المغروسة في نفس كل بشر إلا ما صدر من النفس ذاتها. وما يصدر من الشخص من أعمال يسجل



برفقة تسجيل النية في تلك اللحظة، وهل قام بهذا العمل خالصاً لوجه الله أم شابه نفاق أو رياء. أما ما قام به الغير عنه فستسجله صحيفة أعمال ذلك الشخص، على أنها أعمال للغير. فيحرم من أجرها من قام بها، لأنه لم ينو أن يخرجها لنفسه. ولن تصل لمن نويت له، لأنه لم يقم بها بنفسه لنفسه. لكن كتب التراث رسخت أن هذا ممكن، لذا ما أكثر من يحج وينفق عن الغير ويؤدي أعمالاً أخرى عنهم، خاصة الوالدين ظناً منه أنهم سينالون ثواب ما قدم نيابة عنهم.

ومثله من يوصي ببعض ماله أن يُنفق (بعد مماته) على أعمال خيرية غالباً تكون بناء مسجد. وهذه الأموال لن يصل أجرها للموصي، لعدة أسباب منها:

- لأنها خالفت قانون الوصية القرآني الذي ينص على أن الوصية لا تكون للشخص نفسه ولكن للوالدين والأقارب: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.
- ولأن أعمال الخير يجب أن تصدر من الشخص في حياته وبرضاه وبنية خالصة، وليست بوصية بعد مماته ومفارقة ماله[1]. ومن يؤمن بالله ويرجو لقاءه فلن يحجم عن عمل الخير طوال حياته ويوصي به بعد مماته.

وهو ما تؤكده سورة الجاثية: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥).

فالأعمال لكي تسجل أعمالاً صالحة لابد أن يقوم بها المرء لنفسه وبنفسه، مقرونة بنية صالحة.

وهو ما تؤكده السورة نفسها: وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

فكل نفس ستجزى بما كسبت هي وتحاسب عليه ويكون مصيرها بناءً عليه.

وتؤكده سورة فاطر: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(١٨).

الآية تقول لو أن نفساً مثقلة بالذنوب دعت نفساً أخرى لحمل بعضه عنها فلن يسجل

١ انظر فقرة: الوصية / قسم تشريعات من القرآن.



عليها ولو قبلت. لأن الأعمال تسجلها آلية مزروعة في النفس ولا تسجل إلا ما يصدر من حواس تلك النفس وما تفكر فيه وتنويه. وكل ما يعمل من قبل أناس آخرين فلن يسجل، ولن يصل أجره أو وزره إلا لمن صدر منه.

وتقول سورة الأحقاف: وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٩).

ما تسجله صحيفة الأعمال هو ما يصدر من الإنسان لنفسه، لا ما يقوم به غيره نيابة عنه. ومن كان مريضاً أو عاجزاً فلا حرج عليه، أما القادر فبإمكانه أن يقوم بالعمل أو العبادة لو رغب في حياته وحين قدرته. وهو ما ينفي قبول أعمال الغير للميت أو الحي مثل الحج أو الإنفاق بالنيابة كما هو سائد الآن، والذي يستند على حديث مختلق على الرسول يقول: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

ولعله إن كان الرسول قد قال شيئاً من هذا الحديث فهو: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله". لأن أعمال الإنسان تسجل في صحيفة أعماله تلك الآلية المودعة في النفس، وبمجرد الموت يتوقف التسجيل.

وزيد على الحديث بعد وفاة الرسول: " إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

والصدقة الجارية إن كان أجراها الإنسان في حياته فهي عمل صالح مقبول، وإن كان أوصى بأن تجرى له بعد موته، فليس من حقه أن يوصي لنفسه بناءً على ضوابط الوصية. ولن تسجل له على أنها أعمال خير.

والعلم الذي ينتفع به إن كان فعله لوجه الله وفي حياته فهو عمل صالح له، وإن قام به غيره فلا.

ودعاء الولد الصالح لن يُخرج مستحق النار من النار، ولن يدخل مستحق النار الجنة، ولن يغفر الله لمرتكب الكبائر بسبب دعاء ابنه. فالدعاء مجرد أمنيات، فبدل أن نقول: أرجو أن يرحمه الله، أقول: اللهم اغفر له وارحمه. وإن دخل الجنة فبعمله وإيمانه، وليس بدعاء ابنه أو كل الناس له.

وسورة الزخرف تؤكد أن الجنة يرثها من آمن بعمله، والنار يرثها من كفر بعمله، وليس



بأعمالٍ بالنيابة: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦).

فالإنسان هو من يرسم مصيره بنفسه.

وتقول سورة الزمر: إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧) الزمر.

وتقول سورة إبراهيم: لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٥١).

وتقول سورة الأنبياء: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧).

ومثله: اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) بني إسرائيل.

ما يصدر من الإنسان من قول أو فعل أو تصرف أو نية يكتب له أو عليه، وما يصدر من إنسان لآخر لا يكتب، سواء كان مذموماً أو عملاً صالحاً.

قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(١٦٤) الأنعام.

لا تسجل صحيفة الأعمال إلا ما يقوم به ويقوله الإنسان لنفسه، ولا تسجل ما يقوم به غيره له. وهذا يعني أن كل من يقوم بعبادة أو أعمال خيرية لغيره فلن تسجل له.

كل نفس مستقلة وليست جزء من الوالدين

الإنسان نفس، والجسد وعاء حامل للنفس. والإنسان يرث من والديه بعض صفاتهم الجسدية والمكتسبة لكنه ليس جزءاً من نفس والده أو والدته، وإنما نفس مستقلة لا شأن لها بهم أمام الله.

تقول سورة هود من الحديث عن نوح وما حدث لقومه وغرقهم في الطوفان: وَقَالَ ارْكَبُواْ



فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ(٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٣).

وقد جزع نوح: وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ(٤٧).

الآيات تبين أن نوحاً أُبلغ بحقيقة أن كل نفس مستقلة عن غيرها وليست جزءً من أبويه. لكن بما أن النفس البشرية تحتاج لجسم يحملها لكي تنشط وتحيا فكان لابد من تخلق الجسم بواسطة التقاء الحيوان المني بالبويضة في رحم الأم ونموه ثم ولادته. وكل هذا لا يجعل الطفل جزء من نفس أبيه وإن حمل بعض الصفات الوراثية عن الأبوين. فالوالدين دورهما لا يزيد عن كونهما سبباً لتخلق الإنسان وولادته وتربيته ورعايته ما دام يحتاج الرعاية لضمان بقاء المخلوق البشري.

أما عندما يبعث الناس يوم القيامة فلن يكون هناك داع للحمل والولادة وبالتالي ينتفي دور الأبوة والأمومة. ولن يكون هناك مشاعر ود وكراهية، لأنه لا حاجة لها: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ(١٠١) المؤمنون.

ونوح عندما جزع من هلاك ابنه كان يظن أن مشاعر الأبوة مستمرة في الدنيا والآخرة وجزء من النفس، لكنه لما عرف أنها ضرورات دنيوية ولن تكون موجودة في الآخرة، تفهم الوضع وقبله.

ولو دخل الابن النار أمام ناظري أبيه فلن يجزع لأنه نفس مستقلة وليس جزء منه. كما تقول سورة النحل: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١١١) النحل.

وتقول سورة الممتحنة: لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣).



والآية تخاطب مسلمة قريش الذين أعلنوا إسلامهم ولكنهم أبقوا على موالاتهم لأقلربهم المشركين. وتقول السورة بأنه كان يجب عليهم أن يتأسوا بإبراهيم ومن آمن معه الذين تبرءوا من قومهم وأقاربهم لأنهم استمروا على الكفر وأعلنوا حربهم على دين الله، ومن آمن: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهَّ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهَّ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهَّ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤).

فالنسب والقربى صلات ضرورية في الدنيا لتستمر الحياة ويبقى الجنس البشري، ويوم القيامة ستختفي من النفس لانتفاء الحاجة لها.

الإسلام دعوة عالمية لكل الناس

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٨٧) ص.

أول مرة يقول القرآن إن دعوة الرسول للإسلام موجهة لكل الناس مستخدمة لفظ "العالمين" الذي يعني العالم. وتقول: إن هو (أي القرآن الذي يمثل دعوة محمد) ذكر للعالمين. أي أن دعوة الإسلام موجهة لكل الناس ولم تعد الدعوة محصورة بقريش.

وسورة «ص» هي أول سورة نزلت في المرحلة الخامسة للدعوة والتي تغير فيها الخطاب الدعوي من قريش فقط، لكل الناس. وهي أول سورة تخاطب بني إسرائيل الذين يعيشون في الجوار مثل يثرب وخيبر تيماء ووادي القرى. ومخاطبتهم جاءت على شكل حديث مفصل عن بعض جوانب حياة داوود وسليمان، في الآيات: (١٧-٤٦). وهما من أنبياء بني إسرائيل وجزء من تاريخهم، وذلك كدليل على صدق رسالة محمد، لأنه لم يكن يتلقى وحياً من السماء لما عرف بهذه التفاصيل.

ثم استمرت سور المرحلة الخامسة والمراحل التي تلت، تؤكد حقيقة أن رسالة محمد لكل الناس:

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٨) سبأ.

وتقول سورة الفرقان، مخاطبة الرسول عن حجج قريش التي تقدمها كمبرر لرفض الدعوة:



وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً(٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً(٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً(٥٢).

قريش تسأل الرسول: لماذا لم يرسل الله رسولاً لكل قرية بدل أن يرسلك يا محمد لكل القرى والناس؟

وتقول سورة الأنبياء: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ(١٠٧).

وتقول سورة الشورى: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧) الشورى.

وهذه الآية تقول إن الوحي المنزل على محمد – وهو القرآن – لينذر به ليس مكة فقط بل وكل ما حولها من قرى. والآية لم تقل إنه رسول لكل الناس، لأن المقام هنا هو لمخاطبة قريش وما حولها، ولا حاجة لأن يقال إنه رسول لكل الناس، لكن متى ما كان المقام يستدعي التأكيد أنه رسول لكل الناس فالآيات تؤكد ذلك. ومن ذلك ما ورد في سورة الأنعام: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهَ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩).

الآية دليل على أن محمداً رسولٌ لكل من بلغه القرآن، بغض النظر عن المكان والزمان واللون والجنس واللغة.

وتأتي «عبارة يا أيها الناس» التي تدعو للإسلام في القرآن حسب السياق، كما يلي:

أحياناً تخاطب قريشاً: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٣٣) لقمان.

وأحياناً تخاطب المسلمين، كما في الآية (١٣) من سورة الحجرات: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

وأحياناً نخاطب بني إسرائيل، كما في سورة الأعراف: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ



الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨).

ومثلها ما ورد في سورة البقرة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(١٧٠).

والخلاصة هي باختصار ما ذكرته سورة آل عمران في خطابها الموجه لأهل الكتاب: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٨٥).

والإسلام هنا ما جاء به محمد.

وهناك الكثير من الآيات التي تطلب من أهل الكتاب الإيمان بالرسول محمد والدخول في الإسلام والتي تؤكد أن الإسلام الذي جاء به محمد لكل الناس وليس لقومه. وهو ما تتحدث عنه الفقرة التالية:

الإسلام الذي جاء به محمد هو وحده الدين المقبول عند الله

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦) البقرة.

الآيات تدعو بني إسرائيل يثرب للدخول في الإسلام، وهو ما يعني يقيناً أن أي دين لا يقبل بعد ظهور الإسلام. وأن كل من يتمسك بدينه فهو كافر مخلد في النار.

وتؤكد سورة البقرة كفر بني إسرائيل لأنهم رفضوا دعوة محمد: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠).

رفض العمل بالدعوة كفر بها، وبنو إسرائيل كفروا برسالة محمد. فهم كفار وعليهم لعنة



الله لكفرهم، ولهم عذاب مهين.

وكقاعدة مستخلصة مما سبق، يمكن القول: إن الإسلام (رسالة محمد) وحده المقبول عند الله، ومن لا يؤمن به فهو كافر ولو آمن بالله على دينه السابق. والبقرة تؤكد هذا مرة أخرى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٩١).

دين اليهود وأي دين آخر ولو كان أتباعه يؤمنون بالله فليس مقبولاً بعد رسالة محمد، ومن لا يتبع الإسلام فهو كافر.

وتعيد سورة البقرة تأكيد أن من لا يؤمن بمحمد ويتبع تشريعات الإسلام فهو كافر ولو آمن بالله: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ(٩٩).

وتأكيد آخر على كفرهم لأنهم لم يتبعوا رسالة محمد: وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١).

أي دين غير الإسلام لا يقبل وبنو إسرائيل كفار

تبدأ سورة البقرة بمخاطبة بني إسرائيل يثرب: الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

الآيات تقول إن القرآن هدى للمتقين، الذين من صفاتهم « والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ". فالإيمان برسالة موسى ليس كافياً لدخول الجنة ولابد من دخول الإسلام الذي جاء به رسول الله محمد.

وكل من يرفض فهو كافر، ومن يعلن الكفر فلن يؤمن: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧).

وبنو إسرائيل يثرب زمن الرسول دعاهم القرآن للإسلام: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١)



وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦).

ولو كان دينهم كافياً لدخولهم الجنة ما دعاهم القرآن لدخول الإسلام.

وبعد أن تسرد السورة تفاصيل لأحداث من تاريخهم تقول: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥).

فمن كفر بموسى في عصره وحرف الكلم عن مواضعه برغم شهادتهم لنعم الله عليهم حينها، فلن يؤمن برسالة جاء بها أحد أبناء إسماعيل المغضوب عليهم من قبل بني إسرائيل.

وتؤكد السورة أنهم لم يؤمنوا بمحمد، برغم أن ما جاء به متوافق مع ما يعرفون من الدين: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠).

الآيات تقول: بنو إسرائيل كفار لأنهم كفروا بدعوة محمد، وكل من يكفر برسالة محمد فهو كافر.

وتؤكد السورة مرة أخرى أنهم كفار، لتمسكهم بالإيمان بالله على ديانتهم، وعدم الدخول في الإسلام، والآيات تقول هذا غير مقبول: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٩١).



اليهود كفار

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ(٤٤) وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً(٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(٤٦) النساء.

الحديث عن يهود يثرب زمن الرسول، والآية تؤكد أنهم كفار وملعونون، ولن يؤمن بالرسول منهم إلا قلة قليلة.

وتعيد سورة البقرة تأكيد أن من لا يؤمن بمحمد ويتبع تشريعات الإسلام فهو كافر ولو آمن بالله: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ(٩٩).

وتأكيد آخر على كفرهم لأنهم لم يتبعوا رسالة محمد: وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١).

أهل الكتاب في يثرب كفار

سورة البقرة تبدأ بمخاطبة أهل الكتاب في يثرب بخطاب دعوي لقبول دعوة الإسلام: الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

والآيات تقول لهم إن الإيمان المقبول هو الإيمان بما أنزل إليك (يا محمد) مع الإيمان بما سبق ونزل من رسالة (التوراة). ومن لا يؤمن بمحمد كرسول لله ويتبع القرآن فليس بمؤمن.

وتقول السورة واصفة من يرفض دعوة الرسول محمد بأنهم كفار: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧).

والآيات تصف حال أهل الكتاب في يثرب بأنهم رفضوا الدعوة، ومن يرفض الدعوة عند سماعها لأول مرة لن يقبلها مرة أخرى كسنة سارت عليها كل الأمم.



وتقول سورة البقرة في خطاب موجه لكل الناس بمختلف أطيافهم ومعتقداتهم في يثرب: وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤).

فمن يبقي على معتقده السابق بعد سماع دعوة الإسلام فهو كافر مخلد في النار. ويثرب كانت تضم بني إسرائيل الذين كان أسلافهم من أتباع موسى، واليهود كمذهب استحدث بعد موسى. والنصارى الذين أسلافهم آمنوا بعيسى، وبعضهم غالوا فيه وعبدوه كإله مع الله أو أنه الله (تعالى الله وتبارك). والدعوة للإسلام موجهة لهم ولغيرهم من الوثنيين.

وتستمر سورة البقرة تُذكر بني إسرائيل بنعم الله على أسلافهم ضمن دعوتهم للإيمان برسالة محمد ودخول الإسلام، إلى أن تقول: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢).

الوفاء بعهد الله طاعته فيما يأمر، ومن ذلك أمره لهم بالإيمان بما نزل على محمد مصدقاً لما معكم (سبق ونزل على موسى فالدين واحد)، وأنتم تعلمون أنه دين واحد. فمن لا يؤمن برسالة محمد فهو كافر.

وتستمر السورة تذكرهم بتاريخهم كدليل على صدق رسالة رسول الله وإلا لما عرف بهذه التفاصيل، إلى أن تقول موجهة الخطاب للرسول والمسلمين: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥).

وتقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً(٤٧).

دعوة للإيمان بقبول رسالة الرسول محمد، ومن بقي على دينه ورفض الدعوة فهم كفار ملعونون.

وتعود السورة وتلعنهم مرة أخرى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ



وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٤٩) انظر كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً(٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً(٥١) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً(٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً(٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً(٥٥).

وتقول سورة النساء متحدثة عن أهل الكتاب:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١٥٠) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٥٢).

من لا يؤمن بمحمد ولا يتبع القرآن فهو كافر ولو آمن بالله.

من لا يؤمن بمحمد فهو كافر

منذ القرون الأولى للإسلام وأهل الديانات الأخرى - خاصة اليهودية والمسيحية - يحاولون أن يرسخوا أنهم مؤمنون بالله وهو ما يكفي لدخول الجنة، ونتيجة لأننا نعيش في هذا العصر بخنوع وذلة ويعيش الغرب «المسيحي - اليهودي» تفوقاً مادياً وعسكرياً علينا. فقد انساق الكثير من المسلمين خلف الغرب نتيجة لانبهارهم بواقعهم، لدرجة أنهم تبنوا فكرة أنهم سيدخلون الجنة ولو لم يؤمنوا برسول الله محمد ولا بالإسلام. معتبرين أن ما يقومون به من خدمة للإنسان في مختلف العلوم يجعلهم أفضل ممن ينتسبون للإسلام ولا يصدر منهم سوى العنف والبغضاء. فكيف يعذب الله من نذر حياته لخدمة البشرية بينما يدخل الجنة جلف ضيق الأفق جاهل لا ينتج إلا مواعظ لا تنفع الناس، وتحول يوم المسلم ليوم من أيام رهبان العصور الوسطى يُقضى في التعبد والأدعية ومحاربة الجن والشياطين والسحر والشعوذة.

والحقيقة أن اتباع إسلام اليوم لا يؤدي بصاحبه للجنة، لأنه يتبع تشريعات كتب التراث التي لم ينزل الله بها من سلطان والتي هي عبارة عن صناعة فقهية بشرية حولت صورة



الإسلام الناصعة لما هو عليه الآن. كما أن الغرب الخادم للبشرية لن يدخل الجنة لأن العمل الصالح مهما عظم لا ينفع صاحبه في الآخرة إن لم يصحبه إيمان: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢) طه.

ودخول الجنة مطلوبٌ له الإيمان بمحمد كرسول وباتباع الدين الإسلامي الذي دعا له، ومن لم يؤمن برسول الله وبدين الإسلام فلن يدخل الجنة ولو آمن بوجود الله كاليهود.

وفيما يلي بعض الآيات التي تؤكد على هذا:

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً(٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً(٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٢) إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً(٢٣) الجن.

الآيات ترد على قريش والآية (٢٣) تؤكد أن من يعصي الله ورسوله (وهو هنا محمد) فله النار، وهو ما ينطبق على كل من لا يؤمن برسالة محمد، ولو آمن بالله كاليهود.

وتخاطب سورة الجاثية بني إسرائيل مذكرة إياهم أنه قد وصلتهم دعوة الحق ولكنهم اختلفوا فيها وتحولوا عنها – كغيرهم من الأمم – لتشريعات ابتدعوها: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٧).

ثم تقول السورة من رغب في العودة للحق فعليه اتباع رسالة محمد: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ(١٩).

وكل من لا يتبع رسالة محمد فهم من الظالمين.

وتقول سورة طه: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً(١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً(١٠١).

كل من يعرض عن الذكر المعطى للرسول محمد (القرآن) فسيحمل وزراً يوم القيامة كفيلاً بتخليده بالنار. والإعراض عن القرآن يعني عدم اتباع رسالة الرسول محمد، كما يعني



الإعراض عن بعض أو كل ما ورد في القرآن. فمن يخالف أمراً أو نهياً قرآنياً فكأنه خالفه كله، ومصيره الخلود في النار أيضاً. فيكون ليس فقط اليهودي سيدخل النار لعدم اتباعه القرآن وتصديقه بالرسول، ولكن من ينتسب للإسلام ويكفر ببعض الكتاب.

وتقول سورة هود: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١١٠) وَإِنَّ كُـلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢).

دليل على أن بني إسرائيل زمن الرسول خرجوا عن دين الله الحق، وأن ما كانوا يعتنقون تشريعات بشرية، ومن يتبع تشريعات من غير الله فقد كفر بالله، ولو شهد بوحدانيته سبحانه.

وتقول سورة العنكبوت: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧).

فمن آمن به (أي القرآن) فهو مؤمن ومن كفر به فهو كافر. ولا يمكن دخول الجنة لمن لا يؤمن بالرسول محمد والقرآن.

وهو ما تؤكده عنهم سورة يونس: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣).

جاءهم دين من الله فاختلفوا فيه وابتعدوا عنه، فهم لم يكونوا مؤمنين حين بعث رسول الله.

لأن الإيمان الموجب للجنة يعني الإيمان بالله والعمل الصالح، الذي يعني طاعة كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه، وعدم اتباع تشريعات من غير الله.

ولو أطاع المرء بعض أوامر الله وعصى بعضها أو انتهى عن بعض نواهيه وأتى بعضها فهو في النار، لأن الدين كل لا يتجزأ ولا يقبل إيمان ببعضه دون بعض: ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) البقرة.



فما بالك بمن لم يؤمن بالرسول، أو بالقرآن.

وتقول سورة البقرة: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥).

فمن لا يؤمن بمحمد كرسول لله فهو كافر: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) البقرة.

عيسى مقابل يسوع، والنصارى مقابل المسيحيون[١]

بعد وفاة رسول الله وقعت حروب الردة تلتها حروب الروم والفرس التي نتج عنها الاستيلاء على بلاد العراق والشام ومصر. وبعد مقتل عثمان حدثت الحرب الأهلية بين معاوية وعلي ابن ابي طالب. ونتج عن هذه الأحداث المتسارعة الكثير من التغيرات في المفاهيم وفي المجتمع.

فالمدينة التي كانت مهد دولة المسلمين وحاضرة الإسلام هجرت كحاضرة للدولة بعدما اختار علي ابن أبي طالب نقل مقر حكومته إلى الكوفة قبل نقلها مرة أخرى إلى دمشق على يد معاوية. ومع المدينة هجر المسلمون الأتقياء القلة الذين بقوا على قيد الحياة. وأصبحت دولة المسلمين لا يعرف الغالبية العظمى من أهلها من الإسلام سوى اسمه.

وبما أن من تحول إلى الإسلام من سكان البلاد المفتوحة كان أكثرهم من المسيحيين، فإن كل ما ذكره القرآن عن النصارى وعن عيسى ابن مريم اعتبره المسلمون حديث عن يسوع والمسيحية (ديانتهم القديمة)، وهو ما ترسخ في تراث المسلمين حتى اليوم.

فأصبحت كتب المسيحيين المقدسة هي إنجيل عيسى الذي ذكر في القرآن الكريم ولكن رجال دينهم، غيروا آياته وبدلوها وحرفوها حتى بدت بهذه الصورة التي عليها الآن.

ويسوع هو عيسى، والاختلاف في اللفظ هو اختلاف تهجئة خاطئة.

والمسيحيون هم النصارى الذين تحدث عنهم القرآن.

---

١ هناك كتاب مستقل يتناول الموضوع واسمه: مسيحية بولس وقسطنطين من منشورات الجمل. وهذه الفقرة عبارة عن تلخيص لما ورد في ذلك الكتاب.



ورسوخ هذا الاعتقاد لدى المسلمين اليوم – ومنذ قرون –لا يعني صحتها. لأن الكثير من المعتقدات الراسخة غير صحيحة أو لا أساس لها ولكنها بقيت لظروف مختلفة، ومع مرور الوقت أصبحت واقعاً ممارساً لا يختلف عليه اثنان.

وبما أن الإعلام الغربي «المسيحي» هو المسيطر علينا للأسف فقد سوق بيننا طبق الهامبرجر والأكلات السريعة الأخرى التي ينتجونها، برغم أنها طعام رديء مضر بالصحة، أو كما سموها هم «Junk Food». وسوق لنا كل العادات والسلوكيات القبيحة في تلك المجتمعات وتقبلناها بقبول حسن للأسف واستبدلنا مكارم أخلاقنا القديمة بها، انسياقاً لتبعية الضعيف للقوي. وبنفس الطريقة سوق بيننا أن دينهم دين سماوي يستحق الاحترام، مع أنه عبارة عن معتقد وثني بدأ، وثني استمر. أو دينٌ «Junk» حسب تعبيرهم. لكن فساده لم يمنع من انتشاره بيننا لدرجة أن كثيراً من شباب المسلمين البعيدين عن القرآن ينظرون للمسيحية بإعجاب واحترام. ويخلطون بين هذا الإعجاب وبين ضرورة أن نتعايش مع المخالف بسلام. وهو خلط خاطئ. لأن التعايش مع المسيحي بسلام يجب إذا كان مسالماً للمسلمين ولا يعمل ضدهم، مثلهم مثل كل أتباع المعتقدات الأخرى. لكن التعايش بسلام لا يعني احترام ديانة غير الإسلام ولا اعتبارها ديانة سماوية وهي ليست كذلك.

فكان من الواجب التوسع في بيان حقيقة يسوع والمسيحية التي يجهلها كثير من المسلمين في هذه الفقرة التي ستتناول عدة محاور لتغطية الموضوع كاملا بعون الله، والبداية مع:

الاختلافات بين عيسى ويسوع

الاختلافات بين عيسى ويسوع كثيرة وجوهرية وسنقوم بإلقاء الضوء على بعضها.

عيسى اسم ويسوع اسم آخر وليسا اسما لشخص واحد

لو قرأنا الكتاب المقدس بتمعن لوجدنا أن عيسى ويسوع اسمان معروفان عند بني إسرائيل واليهود، وقد تكررا كثيراً في كتب العهد القديم. حيث ذكر عيسو (عيسى) في التكوين ٧٠ مرة، وفي التثنية ٦ مرات، أخبار الملوك الأول مرتين، أرميا مرتين، عوبديا ٦ مرات، ملاخي مرتين. بمجموع ٨٨ مرة – إن لم أخطئ في الجمع – كما تكرر ذكر يشوع (يسوع) قرابة ١٧٠ مرة.



وهناك كتاب مستقل من كتب اليهود المقدسة يسمى كتاب يشوع، يتكون من ٣٤ إصحاحاً، تكرر فيه ذكر يشوع أكثر من ١٥٠ مرة. و يشوع هنا هو يشوع بن نون الذي تصفه كتب اليهود بأنه خادم موسى ووريثه.

وكتاب يشوع ذكر فيه اسم عيسو، ومن ذلك: وأعطيت اسحق يعقوب وعيسو وأعطيت عيسو جبل سعير ليملكه. وأما يعقوب وبنوه فنزلوا إلى مصر. (٢٤ : ٤).

كما جاء ذكر عيسو في كتب المسيحيين أيضاً، وتحديداً في رسالة بولس إلى أهل روميه (الإصحاح التاسع: ١٣)، ومرتين في الرسالة إلى العبرانيين في الإصحاحين ١١ ، ١٢.

ويكون عيسو (عيسى) اسم يختلف عن اسم يسوع.

والملاحظ أنه كلما جاء ذكر يشوع (يسوع) في العهد القديم (كتب اليهود المقدسة) كُتِبَ بالإنجليزية Joshua بينما يكتب نفس الاسم Jesus إذا ورد في كتب العهد الجديد (كتب المسيحيين المقدسة). ولعل هذا ناتج عن أن ترجمة كتب اليهود المقدسة للغات الأوروبية تمت قبل ترجمة كتب المسيحيين بزمن طويل، ومن قبل أناس مختلفين في العصر والثقافة واختيار العبارات.

أما اسم عيسو (عيسى) فيكتب دائماً في النسخ الإنجليزية من الكتاب المقدس بهذا الشكل (Esau)، سواءً ورد في كتب العهد القديم أم في كتب العهد الجديد.

وكتب المسيحيين المقدسة كتبت أولاً باليونانية ثم بلغات ألمانية وشرق أوروبية قبل أن تصل منها إلى الإنجليزية. وبما أن تلك اللغات تنطق حرف «J» اللاتيني كما تنطق الياء العربية، فقد كتبت الياء التي يبدأ بها اسم يسوع بـ «J» وبما أنه لا وجود للعين في اليونانية فقد تحول يسوع إلى (يسو) ولأن الأسماء باليونانية تلحق في آخرها سين، فاسم مثل بيتر يصبح بيتروس، فقد أصبح يسوع (يسوس).

وعندما ترجمت الكتب للإنجليزية نطقت «J» كما تنطق بالإنجليزية (جيم) فصار يسوع ينطق (جيسوس) بدل (يسوس باليونانية).

وبقي في العربية والعبرية والآرامية كما هو في الأصل: «يسوع».

والمؤسف هو أن كل الترجمات للقرآن للغة الإنجليزية يترجم فيها عيسى على أنه Jesus ولم يتوقف أحد حول هذه الترجمة الخاطئة حتى من قبل غربيين دخلوا الإسلام وكانوا



رجال دين مسيحيين، ويفترض بهم معرفة أن Jesus ترجمة ليسوع وأن عيسى يجب أن يترجم Esau أو Esa.

أم عيسى

- هي مريم: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.(آل عمران:٤٥)
- ومريم أم عيسى معروفة النسب، فوالدها هو عمران: وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ.(التحريم:١٢)
- وهذا دليل آخر على أن مريم بنت لعمران وأمها زوجة لعمران: إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. (آل عمران:٣٥-٣٦).
- وهو ما يعني أن مريم كانت معروفة في مجتمعها الذي عاشت فيه، والذي حملت فيه بعيسى، وولدته فيه، ولم تكن نكرة. والمجتمع الذي عاشت فيه هو

مجتمع بني إسرائيل وفي موطنهم الأصلي الذي هو قرية مصر فرعون.

- ولم يذكر القرآن أن لمريم أخوات. ولكن لها أخوة. على الأقل هارون، الذي ذكرته الآية التالية: يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً.(مريم:٢٨)
- وهارون ذكر في القرآن كأخ لموسى، والمرسل معه لفرعون: ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. (المؤمنون:٤٥)

وحتى لو قلنا أن مريم أخت لهارون آخر وليس هارون شقيق موسى، فلا يغير من واقع أن مريم ابنة عمران من بني إسرائيل وعاشت في مجتمع إسرائيلي وفي موطنهم الأصلي.

لكن ورد في كتاب اليهود المقدس ما يؤيد أن مريم أخت لموسى وهارون (وهو كتاب تاريخي فيه أخبار بعضها صحيح وبعضها دون ذلك)

- وهذا نص ما جاء في كتاب الخروج (١٥ : ١٩ – ٢٠): « فان خيل فرعون دخلت



بمركباته وفرسانه الى البحر. وردّ الرب عليهم ماء البحر. وأما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر. فأخذت مريم النبية أخت هرون الدف بيدها. وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص».

وأخت هارون هي أخت لأخيه موسى لكنها لقبت بأخت هارون لأنه الأخ الأكبر سناً. وقد ورد في عدة مواضع من الكتاب لمقدس ما ينص بكل وضوح على أن عمرآن هو والد موسى وهارون وأختهم مريم، ومن ذلك:

- « واسم امرأة عمرام (عمرآن) يوكابد بنت لاوي التي ولدت للاوي في مصر. فولدت لعمرام هرون وموسى ومريم اختهما. (عدد: ٢٦ : ٥٩).

وهارون وموسى ومريم ولدوا في مصر بالفعل لأنها كانت موطناً لبني إسرائيل.

- وفي مكان آخر نقرأ: « وبنو قهات عمرام ويصهار وحبرون وعزيئيل. وبنو عمرام هرون وموسى ومريم. وبنو هرون ناداب وابيهو والعازار وايثامار. (أخبار الأيام الأول :٦ : ١-٣).

فإن كانت مريم هي ابنة عمرآن، وأخت لهارون. وهارون أخ لموسى، فعمرآن أب لموسى كما ذكرت كتب اليهود، وما قد يفهم من القرآن. وقد لا يكون هارون أخو مريم هو نفسه أخو موسى، وهذا لا يغير من حقيقة أن مريم ابنة عمران وعيسى ولد في عصر تال مباشرة لعصر موسى.

- مريم، أم عيسى، كانت عذراء ولم يذكر القرآن أنها تزوجت قبل أو بعد ولادة عيسى: وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ.(التحريم:١٢)
- وتظهر الآيات القرآنية أن مريم قد أصبحت يتيمة في وقت كانت قد فقدت فيه أيضاً أخويها الذكور على ما يبدو، ولذلك احتاجت لمن يكفلها كفالة يتيم. وقد تنافس على كفالتها عدد من الناس، لمكانة أهلها آل عمران الدينية، فموسى رسول الله وهارون ساعده الأيمن: ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ.(آل عمران:٤٤)
- وقد فاز بالقرعة زكريا: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا



دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ.(آل عمران:٣٧)

والمحراب في الآية يقصد به صالة الجلوس الرئيسية في المنزل، وليس كما ذهبت إليه في كتاب مسيحية بولس وقسطنطين من أنه المعبد.

- وزكريا، الذي كفل مريم، رزق بولد سماه يحيى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء. فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ

يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء.(مريم: ٣٨ – ٤٠)

وتكون مريم معروفة النسب وولدت في مجتمع بني إسرائيل، كما أن يحيى ابن زكريا قد تربى مع مريم في كنف زكريا، وعاشت مريم ويحيى كالأخ وأخته من عائلة واحدة.

أم يسوع

- أم يسوع في كتب المسيحيين المقدسة ليست ابنة لعمران، بل ويستحيل أن تكون ابنة عمران، الذي كان والد موسى وهارون، لأنها جاءت بعدهم بقرون طويلة. وقد اعتبر المسيحيون أن القرآن يخطئ عندما نعت أم عيسى بأنها أخت هارون، وللأسف المحزن فقد تبنى المفسرون المسلمون هذا القول، وحاولوا أن يأولوا كلام الله تعالى لكي يتوافق مع كلام المسيحيين، ظناً منهم أن يسوع هو عيسى[١].
- وأم يسوع لم يكن اسمها مريم، ولكن كان لها أخت اسمها مريم، أي خالة عيسى، وهذا ما يقوله بولس ويتفق معه يوحنا بقوله: وكانت واقفات عند صليب يسوع: أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية.(يوحنا ١٩:٢٥) وبولس الأب الحقيقي للمسيحية لم يذكر أن اسم والدة يسوع كان مريم على الإطلاق.
- وفي الكتب الثلاثة الأخرى (متى ومرقس ولوقا) ذكر بأن اسم أم يسوع كان مريم، ولعل هذا جاء من الإضافات والتنقيحات اللاحقة، لأنهم عندما كتبوا كتبهم كان

١ انظر تفسير الآية ٢٨ من سورة مريم في أحد كتب التفسير المشهورة مثل القرطبي.



قد انتشر بين الناس القول بأن شخصية يسوع هي شخصية المسيح وأنه قد ولد من عذراء، كما أراد بولس ذلك وعمل من أجله وبشر به كما سنرى لاحقا.

- وأم يسوع مجهولة الهوية والتاريخ، ولا يعرفها الناس في فلسطين، ولم يكفلها زكريا، ولها أخت.
- المطلعين على تاريخ الكتاب المقدس يعلمون أن أم يسوع لم يكن اسمها مريم Miriam كما نقرأ في كتب المسيحيين المقدسة المنتشرة حالياً، ولكنها ماريه Maria. وهو اسمها الذي كان يستخدم في الكتابات المسيحية الأولى باليونانية، لكنه استبدل بدءً من القرن الرابع باسم مريم أو ميري. وما يؤكد هذا أن لها ابنة اسمها مريم وأخت اسمها مريم.
- تذكر الكتب المسيحية أن أم يسوع تزوجت، ولم يستطع بولس، الأب الروحي للمسيحية، أن يقول بأن يسوع ولد من عذراء، كما اعترف بأن أمه تزوجت بيوسف النجار. وكل الكتب المسيحية الأربعة تقول بأن أم يسوع كانت زوجة ليوسف النجار، وهذه حقيقة.
- وقد ذكر اسم زكرايا في كتب المسيحيين المقدسة بشكل غير واضح، فكتاب لوقا يقول بأن هناك كاهن، اسمه زكرايا وأنه رزق بولد سماه يوحنا، وليس يحيى، وأن يوحنا هو يوحنا المعمدان الذي كان يعمد الناس في نهر الأردن وعمد يسوع فيمن عمد، وقتله الحاكم الروماني. وهو على ما يبدو شخصية وهمية ألبست شخصية النبي يحيى الذي عاش قبل عهد يسوع بمئات السنين، بطريقة لم تكن محكمة.
- ويوحنا، الذي تقول كتب المسيحيين بأنه ابن زكرايا، لم يجتمع بيسوع ولم يره إلا قبل صلب يسوع بسنتين، وهذا نص ما جاء في الكتاب المقدس:
- وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل الحمامة من السماء فاستقر عليه. (أي على يسوع) وأنا لم أكن أعرفه. (يوحنا: ١:٣٢،٣٣). وهذا ينفي أن يكون ليوحنا المعمدان أي صلة قربى أو معرفة سابقة بيسوع التي ادعاها كتاب لوقا.
- ويوحنا اسم عبري يختلف عن اسم يحيى، ولذلك فيوحنا يكتب باللغة الإنجليزية بهذا الشكل (John) أو (Johann) أما يحيى فيكتب بطريقة مختلفة، هي أقرب لهذا الشكل (Yahya) أو (Yohya).



- ولم تذكر كتب المسيحيين المقدسة أن يوحنا كان من أنبياء بني إسرائيل، ولا أن والده كان كذلك، وإن قالت تلك الكتب أن يوحنا المعمدان كان رجل دين وكان يدعوا للتخلص من حكم الرومان، ولذلك قبض عليه وأعدم.
- وتكون شخصية يوحنا المعمدان شخصية وهمية أو أنها إن وجدت فلا تمت بصلة ليحيى ابن زكريا الذي عاش في وقت عاشت فيه مريم ابنة عمران وولدها عيسى.

وسنرى كيف أن بعض الأسماء والأحداث التي كانت في عصر عيسى قد نسبت لعصر يسوع، مثلما نسب ليسوع كثير مما كان لعيسى، وذلك في حلقات قادمة بعون الله.

نسب عيسى

- عيسى بدون أب في القرآن: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران:٥٩).

نسب يسوع

- يسوع له شجرة نسب في كتب المسيحيين المقدسة، وسلسلة نسب يسوع توصله إلى داوود ومن ثم إلى ابراهيم، وسنكتفي بإيراد سلسة النسب حتى داوود، والتي جاءت في كتاب متى بهذه الصورة: يسوع ابن يوسف ابن يعقوب ابن متّان ابن أليعازر ابن أليود ابن أخيم ابن صادوق ابن عازور ابن لياقيم ابن أبيهود ابن زربابيل ابن شألتئيل ابن يكنيا ابن يوشيا ابن آمون ابن منسى ابن حزقيا ابن أحاز ابن يوثام ابن عزيا ابن يورام ابن يهوشافط ابن آسا ابن أبيا ابن رحبعام ابن سليمان ابن داوود. (متى ١ : ١)

وعلى القراء ملاحظة أن سلسلة نسب يسوع تقول إنه ابن يوسف النجار ولا تورد سلسلة النسب من جهة الأم كما يحاول بعض رجال الدين المسيحيين أن يغالطوا الحقيقة عندما يتحدث عن سلسلة نسب يسوع وانه يتصل بداوود من ناحية الأم.

- وإيراد نسب ليسوع في كتب المسيحيين المقدسة فيه أمانة أدبية تفتقر لها كتب المسيحيين في الغالب عند نقل أحداث عصر يسوع. أو أنها حقيقة فات على المدققين ملاحظتها فوصلتنا. فيسوع بالفعل ابن ليوسف النجار الذي يتصل نسبه فعلاً بداوود، ولم يولد يسوع بدون أب كما سنرى لاحقاً. وهي حقيقة بقيت برغم محاولات بولس طمسها،



ولكن ولسبب ما لم تمتد يد لشجرة النسب وتحذفها من كتب المسيحيين المقدسة لتبقى شاهداً على حقيقة يسوع وأنه ابن ليوسف النجار ولم يولد بدون أب.

وكتب المسيحيين تقول بكل وضوح أن أم يسوع عندما حملت به كانت مخطوبة ليوسف النجار بدل أن تقول إنها كانت متزوجة به. ولابد أن من قال بهذا كاتب ليس من اليهود ولا من بني إسرائيل ولكنه يحمل ثقافة رومانية أو يونانية، لأنه يجهل أنه في ذلك الزمن لو أن امرأة يهودية أو من بني إسرائيل لم تتزوج بعد وكانت مخطوبة فقط وظهر عليها الحمل فسيقام عليها حد الزنا وهو الرجم.

حمل وولادة عيسى في القرآن

- قصة الحمل بعيسى في القرآن تتلخص بأن مريم كانت ذاهبة للخلاء: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا. (مريم:١٦-١٧)

وعادة الذهاب لمكان ظاهر البلد لقضاء الحاجة كانت منتشرة في أجزاء من جزيرة العرب حتى بعد مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه.

- وأثناء ما كانت مريم في متبرزها حضر إليها أحد مخلوقات الله الروحانية من الفضاء الخارجي، والذي قد يكون من جنس رسل إبراهيم، الذين لديهم قدرات تعتبر في العرف البشري خارقة للعادة. فقد حملت امرأة ابراهيم بولد نتيجة معالجتهم لها بطريقة لم تشعر بها ولم تتعرض لعملية جراحية أو تخدير وهي عجوز طاعنة في السن، توقف عندها نزول البويضة منذ عقود. ومثل ذلك حصل لزوجة زكريا أيضاً عندما حبلت بيحيى. ومن قدرات هذه المخلوقات أنهم يستطيعون التشكل على هيئة البشر والتحدث بلغاتهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا كبشر ولا يتناول الطعام والشراب، لأنهم أجساد نورانية، ليس لها جهاز هضمي أو تنفسي: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. (هود:٦٩ - ٧٠)

- وقد حضر أحدهم لمريم عندما كانت في الخلاء لقضاء حاجتها، على هيئة بشرية، وابلغها بإرادة الله التي قضت بأن تحبل بولد، وقيام ذلك المخلوق بتلقيح البويضة



التي في رحم مريم، وبطبيعة الحال بطريقة مشابهة للطريقة التي تمت بواسطتها إعادة تخلق البويضة لامرأة ابراهيم وامرأة زكريا وهما قد بلغتا من العمر عتيا، وبدون عمليات جراحية أو تماس جنسي، لأن تلك المخلوقات ليست مادية وليس لديها غرائز بشرية وليس لها جهاز تناسلي، ولا تستطيع ممارسة الجنس البشري: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا. (مريم:١٧-٢١)

- ولعل اكتشافات الطب الحديث قد جعلت تقبل فكرة حمل مريم بدون اتصال جنسي، أكثر من أي وقت مضى، خاصة بعد أن استطاع الإنسان أن يلقح البويضة بدون اتصال جنسي فيما عرف بالاستنساخ وهو عبارة عن تفريغ بويضة المرأة وحقن خلية من الرجل فيها، والاستبسال وهو حقن بويضة المرأة بخلية امرأة، ويتم الحمل بدون اتصال جنسي بين الرجل والمرأة. وبطبيعة الحال الحمل بعيسى لم يكن عن طريق الاستبسال باستخدام خلية من أمه وإلا لولد أنثى. ولم يكن استنساخ لأن بويضة مريم لم تلقح بخلية ذكر بشري. وقد يكون الحمل حدث دون الحاجة لبويضة ولا خلية، وهو ما توكده الآية (٥٩) من سورة آل عمرآن في قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ).
- وبعد حمل مريم بعيسى، فاجأها المخاض وهي بقرب نخلة، ومن الألم الحسي للمخاض والألم المعنوي لما سيسببه الطفل لها أمام الناس من حرج، تمنت مريم لو كانت قد ماتت ولم تر تلك اللحظة: فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا. (مريم: ٢٣)
- فلما وضعته: فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. (مريم: ٢٤)
- وهذا قد يكون إيحاءً وليس وحيا، فبمجرد ما رأت الطفل حنت عليه وشعرت بالقوة النفسية والشجاعة لمواجهة الناس والتصدي لما قد يقذفوها به من ألفاظ بذيئة واتهامات باطلة.



- ومن ثم ألهمها الله أن تهز النخلة لكي تسقط الرطب، وهو ما يعني أنها ولدته في أواخر الصيف وأوائل الخريف وهو وقت تحول معظم البلح إلى رطب، وليس كما يلغي أي ظن عند بعض المسلمين أن احتفالات عيد الميلاد التي تكون في الشتاء ترمز لميلاد عيسى[1]: وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا. (مريم:٢٥- ٢٦)
- كما أن ولادتها تحت النخلة تؤكد أنها كانت في مناطق صحراوية حارة، وهو ما ينفي أن يكون عيسى ولد في فلسطين لأنها تقع ضمن مناخ البحر الأبيض المتوسط، والذي لم تكن النخيل تنموا فيه زمن عيسى وموسى، وقبل آلاف السنين. ولم تدخل زراعة النخيل لفلسطين إلا في عصور متأخرة لعلها جاءت مع الفتوح الإسلامية.
- وكلمة صوم في الآية تعني صوماً عن الكلام وليس عن الأكل. والصوم عن الحديث في اللحظات الأولى للقاء الناس سيمكن مريم من كسب الثقة بنفسها والتفكير فيما يقال، لتكون أكثر قدرة على الرد لاحقاً بعدما تهدأ هي وتزول لحظة المفاجأة عند الناس.
- وقد فوجئ قومها كما هو منتظر، وأمطروها بالتساؤلات الملحة عن كيفية الحمل ومن كان السبب في حملها: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. (مريم:٢٧)
- فلم يُشهد عليها خلال حياتها السابقة بأي تصرف ينم عن فساد أخلاقها، كما أنها من أسرة محترمة، فكيف حملت بدون زواج: يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. (مريم:٢٨)
- ويمكن فهم أن أبوي مريم كانا قد رحلا، من الآية السابقة. ولو كانا على قيد الحياة لكان الحديث عنهما بصيغة المضارع وليس الماضي. كما انه لو كانا على قيد الحياة فسيشاركان في الأحداث، وهو ما ينطبق على أخوي مريم.
- وقد ساعدها صمتها على جعل الناس يفرغون ما في جعبتهم من تهم وتساؤلات ثم

[1] الكريسماس تقليد وثني وتم تبنيه في المسيحية بعد ذلك.



تهدأ ثائرتهم، ولو ردت عليهم مريم بأي رد فسوف تؤجج عاصفة الغضب لديهم وقد يتجرأون على مهاجمتها والإضرار بها: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. (مريم: ٢٩ – ٣٣)

- وإن كان عيسى تحدث في المهد فهذا يعني أن تلك المخلوقات المسئولة عن الحمل به، لديها القدرة على تنمية ذاكرة المولود وقدراته العقلية التي يكتسبها مع الزمن من كلام وتفكير وخلافه، بسرعة ليكون قادراً على التحدث بعد فترة بسيطة من مولده. أو أنه بالفعل كان مخلوقا مميزاً.

ولابد من ذكر ملاحظة هامة تم إضافتها لكتاب مسيحية بولس وقسطنطين، وهي أن حمل مريم بعيسى وولادته تمت في نفس اليوم، ولم تبق حاملاً به لمدة تسعة أشهر. فالآيات تقول إنها خرجت للمتبرز فتاة عذراء وعادت للقرية وبين يديها مولودها. وهذا ما ينفي عنها شبهة الزنا من جهة وما يؤكد تميز عيسى من جهة أخرى وأنه مخلوق غير عادي حيث ابتدر الناس بالحديث وهو رضيع في المهد.

حمل وولادة يسوع في الكتاب المقدس

علينا أن نتذكر أن كل كتب المسيحيين كتبت بعد صلب يسوع بعشرات السنين وبعد أن نشر بولس فكرة أن يسوع كان ابن الله وأنه ولد من عذراء وبالتالي فكل ما قيل هو مجرد قصص مختلق، وقليل جدا من الحقيقة المشوهة.

- ولذلك اختلفت كتب المسيحيين المقدسة في كيفية ولادة يسوع، فكتاب متى يقول: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس. (١٩:١) ((لاحظ التناقض هنا: المسيحيون يعتقدون أن الأب (الله تنه عن ذلك) هو الأب ليسوع، لكنهم في نفس الوقت يقولون إن من أحدث الحمل لأم يسوع به هو الروح القدس! وفي هذه الحالة فيسوع ابن للروح القدس وليس للأب)).
- أما كيف حدث الحمل فلم يذكره متى، وإنما ذكر قصصاً أسطورية بعيدة عن الواقع عن توقعات المجوس لولادته، على أنه ملك اليهود المنتظر وليس ابن الله الذي



سيقتل من أجل خطايا الناس. يقول متى: ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى أورشليم. قائلين اين هو المولود ملك اليهود. فإننا رأينا نجمه في المشرق واتينا لنسجد له. (متى: ١ : ١ -٢) هذا الكلام بالفعل يظهر أن يسوع طالب ملك وليس رسول الله (ستتوسع في هذه النقطة لاحقا).

- ويذكر متى أن يوسف وأم يسوع قد هربا بيسوع لمصر (بلاد النيل) وعاشا هناك عدد سنين، خوفاً من أن يقتله الحاكم الروماني هيرودس، وهذا لم يثبته الواقع ولم يسجله التاريخ على الإطلاق. وهذا نص ما جاء في كتاب متى: فقام واخذ الصبي وامه ليلا وانصرف الى مصر. وكان هناك الى وفاة هيرودس، لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني. (متى: ٢ :١٤-١٥)
- ولا يذكر كتاب مرقس كيف حمل بيسوع ولا كيف ولد، بل إنه قال بأن يسوع ظهر فجأة في فلسطين قادماً من ناصرة الجليل: وفي تلك الايام جاء يسوع من ناصرة الجليل[1] واعتمد من يوحنا في الاردن. (مرقس: ٩:١) ولعل مرقس أصاب الحقيقة فيسوع لم يولد في فلسطين ولم يحضر إليها إلا وهو رجل بالغ كما سنرى لاحقاً.
- وللتدليل على أن ما قيل عن كيف ولد يسوع وأين ولد ما هي سوى قصص مختلق تقتبس نصوصها من كتب العهد القديم (كتب اليهود) وتحاول أن تنسبها
- ليسوع، ومن ذلك على سبيل المثال القول بأن يسوع ولد في بيت لحم، حيث يقول متى: فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلّص شعبه من خطاياهم. وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل. هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.(متى: ١ : ٢١-٢٣) وبطبيعة الحال كان اسمه يسوع ولم يسم بعمانوئيل، ولكن لا أحد من مؤرخي المسيحية يود أن يفطن لهذا الخطأ الظاهر.
- وقد ذكر متى قصصاً خرافية صاحبت مولد يسوع ومنها أن المجوس الذين لا يؤمنون بالكتب السماوية قد جاؤا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود (لاحظ أنه لم يقل ابن الله المخلص) فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له (مع أنهم عبدة نار لا يؤمنون بالديانات السماوية) فلما سمع هيرودس الملك (الروماني) اضطرب

[1] وهذه الناصرة ليست الناصرة المعروفة حاليا في فلسطين كما ستتعرف على ذلك لاحقا.



وجميع أورشليم معه. فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح (الملك اليهودي المنتظر). فقالوا له في بيت لحم اليهودية. لأنه هكذا مكتوب في الكتب (أي العهد القديم) وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبرٌ يرعى شعبي إسرائيل. (متى: الإصحاح الثاني: ١ -٦) وبطبيعة الحال كل هذه الخرافات لم تحدث وكذبها الواقع والتاريخ، فلم يحدث أن قام هيرودس بقتل أطفال اليهود كما ذكر متى بعد ذلك خوفاً من ملك اليهود (يسوع) القادم لتأسيس مملكة يهودية مستقلة عن حكمه. ومن الواضح أن ما ذكر عن ولادة يسوع والحمل به ما هو إلا محاولة للربط بين النبوءات التي تقرأ في كتب العهد القديم وبين سيرة يسوع، أو معلومات عرفها كتبة العهد الجديد عن عيسى ابن مريم وحاولوا أن يقمصوها شخص يسوع. وهذا ما عرف عن بولس في كل كتاباته. وسوف نشير إلى بعض تلك النبوءات ونناقش مصداقيتها في فصل مستقل لاحقاً.

- وتبقى حقيقة ثابتة مفادها انه لا أحد من مؤلفي الكتاب المقدس يعرف أين ولد يسوع يقيناً. بل وأين عاش قبل أن يأتي لفلسطين.
- وعيسى ابن مريم ليس له إخوة أو أخوات في القرآن، بينما تقول كتب المسيحيين المقدسة أن يسوع له أربعة إخوة ذكور وعدد من الأخوات: أليس هذا
- ابن النجار. أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا. (متى: ١٣: ٥٤-٥٥)
- في القرآن، عيسى تكلم في المهد: وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ. (آل عمران:٤٦)
- بينما لم تذكر الكتب المسيحية المقدسة أي شيء عن أن يسوع قد تكلم في المهد أو في صغره، بل إن كتاب لوقا نسب الكلام في المهد إلى يوحنا وليس ليسوع، لأن يوحنا كان قد مات عندما كتب كتاب لوقا، ولم يعد له ذكر بين الناس، وبالتالي فلن يكذبه أحد فيما نسبه عنه، يقول لوقا في الإصحاح الأول: وفي اليوم الثامن جاؤا ليختنوا الصبي (أي يوحنا) .... وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله. (لوقا ١: ٥٩- ٦٤).



- عيسى في القرآن ولد في بلاد تنموا فيها نخيل التمر، وهي ذات المناخ الصحراوي: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً. (مريم:٢٣)
- وهو ما يعني بداهة أن عيسى لم يولد في بيت لحم الفلسطينية كما يقول المسيحيون، لأن بيت لحم مناخها صحراوي والنخيل ليست من أشجار البحر المتوسط.
- عيسى ولد في مجتمع بني إسرائيل وقبل ظهور ما عرف باليهود الذين لم يكن لهم وجود زمن موسى وعيسى ولم يظهروا إلا فيما بعد. بينما ظهر يسوع في وقت كان اليهود لهم التأثير الأكبر ويسيطرون على الوظائف الدينية في إيليا، بينما من ينتسب لبني إسرائيل يحتلون منزلة أقل.

النصارى والحواريون مقابل المسيحيون وتلاميذ يسوع disciples

القرآن يذكر النصارى في السور المدنية ويخاطبهم ويدعوهم للدخول في الإسلام وسور أخرى تذكر أن كثير منهم أسلم: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُواْ

مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٨٣) وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ(٨٥) المائدة.

وهذا يعني أن هناك بقية باقية من النصارى كانوا يعيشون في يثرب عند هجرة الرسول.

والنصارى هم إما متحدرون من موحدين آمنوا بعيسى وهم الحواريون الذين ذكرتهم عدة سور منها: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) آل عمران.

أو مشركين غالوا في عيسى. بعضهم اعتقد انه الله، وبعضهم اعتقد أنه إله مع الله وبعضهم قالوا إن الله وعيسى وأمه ثلاثة آلهة.



وكل أنواع النصارى كانوا قلة في يثرب وهم من تبقى من النصارى وقد انتهى أمرهم خلال الفتوح، فمن لم يدخل الإسلام ذاب في المجتمعات المسيحية. وعلى ما يبدو لم يكن لهم وجود خارج يثرب. وقد بينا في عدة مواضيع وفي كتاب أحسن القصص أنهم قدموا ليثرب بعد أن اجتاحت ديارهم الأصلية في جنوب غرب جزيرة العرب جيوش أجنبية.

الحواريون

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين امنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين(١٤) الصف.

الحواريون مجموعة من الناس هم من آمن مع عيسى من بين بني إسرائيل. والحَوْرُ في اللغة يعني العودة والرجوع من شيء إلى شيء. وعيسى ابن مريم جاء لإعادة وإرجاع بني إسرائيل للتوراة والحق. فعاد ناس وصفوا بالحواريين (العائدين التائبين) وبقي أغلب بني إسرائيل على ضلالهم. ولا يحدد القرآن عدد من رجعوا للحق (الحواريون).

بينما كان ليسوع تلاميذ تقول كتب المسيحيين أن عددهم (١٢) وقد ظن المفسرون أن الحديث في القرآن عن الحواريين هو حديثٌ عن أتباع يسوع. ولهذا، جعل المفسرون الحواري يعني التلميذ والتابع المخلص، وقام مؤلفو المعاجم فثبتوا هذا المعنى للحواري، وأصبح يعرف به.

المسيحيون

هم أتباع الديانة المسيحية التي تقوم على الإيمان بأن هناك ثلاثة آلهة، هم: الأب والإبن (يسوع) وإله ثالث مجهول الهوية يسمونه الروح القدس. وأن هذا الروح القدس قد اعتلى أم يسوع وتسبب بحملها بيسوع. ومع ذلك يعتبرون يسوع ابن للأب مع أن من تسبب بحمله هو الروح القدس. وكل من يؤمن بأن يسوع قتل على الصليب لفداء ذنوبه فهو في الجنة.

فالأب قتل ابنه الوحيد لكي يكون دمه فداء لذنوب خلقه الذين خلقهم وجعل المعصية تجري في دمائهم. وبدل أن يعدل جيناتهم اتصل الروح القدس بامرأة من البشر وحملت بولد منه عاش بينهم لفترة لكي يفهم مشاعر الناس الذين خلقهم، ثم تخلى عن ابنه بحيث



تمكن منه الناس وصلبوه.

والمسيحيون والمسيحية لا ذكر لها في القرآن. بل إن القرآن عندنا يتحدث عن الراعي الرسمي للمسيحية في العالم (الرومان) كان يسميهم «الروم» ولا يطلق عليهم «مسيحيون».

إذاً، النصارى لا علاقة لهم بالمسيحيين، والحواريون لا علاقة لهم بمن سموا «تلاميذ يسوع».

*** بعض النصارى كانوا يؤمنون بثلاثة آلهة والمسيحيون يؤمنون بثلاثة آلهة، لكن آلهة النصارى تختلف جذرياً عن آلهة المسيحيين. وهذا دليل قاطع على أنه لا علاقة للنصارى بالمسيحيين.

فالتثليث عند النصارى يتكون من (الله تنزه وتبارك) وعيسى وأمه.

بينما تثليث المسيحيين يتكون من الأب (الله تنزه وتبارك) ويسوع والروح القدس.

والروح القدس لا يعرفه النصارى كما أن المسيحيين لا يعتبرون أم يسوع ثالث ثلاثة وإن كان هناك فرقة مسيحية صغيرة يعبدون أم يسوع. وهذا الفرق يؤكد ان النصارى لا علاقة لهم بالمسيحيين. والنصارى لا يؤمنون أن الله قتل ابنه لفداء ذنوب البشر.

والروح القدس شخصية غامضة جدا ولا يعرف من اين أتى؟ فالله لم يخلقه حسب معتقدات المسيحيين. وهو (أي الروح القدس) من حملت منه أم يسوع فهو أبو يسوع. لكن يسوع ينسب لله وليس لوالده المفترض.

ولا يوجد مسيحي واحد يعتبر الروح القدس أخ لله (تبارك الله وتنزه). أو أنه خلق نفسه.

الكنيسة بكل أطيافها ومذاهبها لا تعرف الإجابة عن أصل هذا الإله (الروح القدس).

والقرآن لا يذكر الروح القدس بالتعريف أبداً، ولكن القرآن يذكر (روح القدس) كوصف وليس كاسم.

كيف نسب ليسوع كثير مما كان لعيسى ابن مريم؟

يسوع هو شخص من بني إسرائيل قدم إلى فلسطين رجلاً وبدأ يدعو للثورة على الحكم الروماني ليؤسس مملكة إسرائيلية تعيد مجد مملكة داوود الغابرة. واختياره فلسطين لأنها كانت تضم أكبر جالية من بني إسرائيل في المنطقة (كما يقول كمال سليمان الصليبي) الذي



يعتبر أفضل كاتب مسيحي يستطيع تعريفنا بشخص يسوع باللغة العربية. فهو أحد أشهر المختصين بدراسة التاريخ القديم واللغات السامية وألف عدة كتب تناولت الكتاب المقدس وأحدثت ردود فعل عالمية ما زال صداها يتردد، ومن هذه الكتب «البحث عن يسوع» الذي يناقش حقيقة يسوع من واقع نصوص الكتاب المقدس عند المسيحيين.

وخلاصة ما توصل إليه الصليبي حول شخصية يسوع الحقيقية ذكرها في آخر فصل من كتابه «البحث عن يسوع» ويحمل عنوان « الواقع والصورة» ويقول فيه:

((أما بالنسبة ليسوع، فالذي تبين لنا عنه بوضوح هو الآتي: كان يسوع ابن يوسف النجار المعروف بالناصري أميراً من بيت داوود، اقتدى بجد له اسمه زربابل، فحاول الوصول إلى الملك على إسرائيل، منفقاً على مسعاه ما كان قد ورثه عن أبيه من مال. ومن الإسرائيليين في زمانه، من غير اليهود، من كان لا يزال ينتظر ظهور « مسيح» من بيت داوود يعيد الملك إلى الشعب الإسرائيلي في شتاته، فاعترف بيسوع على كونه ذلك المسيح، وهب لنصرته. لكن مطالبة يسوع بعرش إسرائيل – وهي التي حدثت في «اليهودية» بفلسطين في زمن الرومان – اصطدمت بمقاومة شديدة من المؤسسة الكهنوتية اليهودية، وهي المؤسسة ذاتها التي سبق لها أن تصدت لمسعى جد يسوع زربابل إلى الملك على إسرائيل قبل خمسة قرون تقريباً، فأفشلته بطريقة أو بأخرى.

وحاول الكهنوت اليهودي أن يردع يسوع عن مسعاه في البداية عن طريق التهديد والوعيد، فلم يرتدع. وكانت نهاية الأمر أن قبض عليه، واقتيد أمام رئيس كهنة اليهود في أورشليم للمحاكمة على أساس ادعائه بأنه المسيح الداوودي المنتظر، وليس على أي اساس آخر. فحكم عليه بالموت، ثم سلم إلى السلطات الرومانية لتنفيذ هذا الحكم عليه صلباً، وقد تم تنفيذ الصلب بيسوع فعلاً.

ويكون يسوع قد حضر لفلسطين وهو رجل في مقتبل العمر بهدف واضح هو أن يصبح ملكاً على اليهود الإسرائيليين. لذا فمكان ميلاده لم يكن معروفاً مؤلفي كتب المسيحيين المقدسة عندما كتبوها. وقد تتبع رجال الدين اليهود تحركاته وقبضوا عليه في الليلة التي قرر فيها قتل الحاكم الروماني وإعلان مملكته. وحكم عليه بالصلب بتهمة محاولة الثورة))

انتهى الاقتباس



وكتب المسيحيين مليئة بالشواهد على ذلك، وهو ما سنقدمه في الفقرة القادمة.

شواهد من كتب المسيحيين المقدسة

الكتب المسيحية الرسمية التي تعترف بها الكنيسة كليئة بالشواهد على حقيقة يسوع ومن هو، وفيما يلي بعضها:

يسوع من الناصرة (بلد خارج فلسطين)

يقول كتاب متى في الإصحاح (٢١): ١٠ ولما دخل اورشليم ارتجّت المدينة كلها قائلة من هذا. ١١ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل.

فالناس لا يعرفونه وتساءلوا من أين أتى فقيل جاء من ناصرة الجليل. والناصرة في فلسطين لم تكن موجودة في عصر يسوع كما يؤكد المؤرخون ويقولون إنها لم توجد إلا بعد (٣٠٠) سنة بعد يسوع. يعني سميت على اسم الناصرة الأصلية.

يسوع لغته الأصلية تختلف عن اللغة التي يتكلم بها بنو إسرائيل واليهود في فلسطين

وكل المختصين بدراسة تاريخ الكتاب المقدس يعلمون أن يسوع كانت لغته الأم هي لغة تختلف عن اللغة التي كان سكان فلسطين في ذلك الوقت يتحدثون بها، بما فيهم اليهود وبني إسرائيل.

وكتاب مرقس يؤكد لنا هذه الحقيقة، حيث يقول إنه عندما تعاظم على يسوع الألم وهو مصلوب، وقبيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، صرخ بلغته الأصلية بعبارات لم يفهمها من كان يسمعه من يهود فلسطين المتحلقين حول الصليب. وهذا نص ما جاء في كتاب مرقس: «وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: «إلوي إلوي لما شبقتني». الذي تفسيره الهي الهي لما تركتني. فقال قوم من الحاضرين لما سمعوه: هوذا ينادي ايليا. فركض واحد وملأ اسفنجة خلا وجعلها على قصبة وسقاه قائلا اتركوه لنرى هل يأتي ايليا لينزله. فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح.» (مرقس: ١٥ : ٣٤ - ٣٧).

وهذا يظهر أن اليهود الموجودين في فلسطين زمن صلب يسوع لم يكونوا يتكلمون نفس لغة يسوع الأم التي نطق بها من شدة الألم، وظنوا أنه يستغيث بشخص اسمه إيليا. وقد أورد متى نفس هذه الشهادة في الإصحاح (٤٦ بدءً من الفقرة ٢٧) وهو ما يعني أن يسوع جاء



إلى فلسطين، كغريب، ولم يولد فيها أو يعيش فيها مدة طويلة بما يكفي لنسيان لغته الأصلية.

يسوع من نسل داوود

كما ذكر كتاب متى في أول إصحاح:١-١٧ ومن ذلك: يسوع ابن يوسف النجار ابن يعقوب ابن متان ابن اليعازر ابن أخيم ابن أليود ابن صادوق ابن عازور ابن ألياقيم ابن أبيهود ابن زربابل ..... إلى أن نصل إلى أبيا ابن رحبعام ابن سليمان ابن داوود. وكما ذكر لوقا في الإصحاح الثالث: ٢٣-٢٨.

ليس هذا فحسب بل إن الناس المعاصرين ليسوع في فلسطين يعرفون أنه من نسل داوود لأن أبيه يوسف النجار ينحدر من نسل داوود، وهذا ما ورد في كتاب متى الإصحاح (٢٠): ((وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير. ٣٠ وإذا أعميان جالسان على الطريق. فلما سمعا ان يسوع مجتاز صرخا قائلين ارحمنا يا سيد يا ابن داود.٣١ فانتهرهما الجمع ليسكتا فكانا يصرخان أكثر قائلين ارحمنا يا سيد يا ابن داود)).

الفريسيون ضد قيام دولة لبني إسرائيل

الفريسيون لا يرغبون في أن تقوم مملكة لبني إسرائيل فحاولوا توريط يسوع بكلمة أمام رجال من الحكومة لكي يقبض عليه. لكن يسوع فطن لمخططهم وفوت الفرصة عليهم في إحدى المرات كما ورد في كتاب متى في الإصحاح (٢٢): حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة.١٦ فارسلوا اليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين يا معلّم نعلم انك صادق وتعلّم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر الى وجوه الناس.١٧ فقل لنا ماذا تظن. أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا.١٨ فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربونني يا مراؤون.١٩ أروني معاملة الجزية. فقدموا له دينارا.٢٠ فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة.٢١ قالوا له لقيصر. فقال لهم اعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

((الهيروديسيون يعني رجال هيرودس الحاكم. يعني رجال الحكومة، يعني مباحث))

يسوع كان متزوجاً

جاء في كتاب يوحنا، الإصحاح الثاني من الفقرة الأولى إلى العاشرة، ما يلي:

وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت ام يسوع هناك. ودعي ايضا يسوع وتلاميذه الى العرس. ولما فرغت الخمر قالت ام يسوع له: ليس لهم خمر. قال لها يسوع: ما



لي ولك يا امرأة، لم تأت ساعتي بعد. قالت امه للخدام: مهما قال لكم فافعلوه. وكانت ستة اجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين او ثلاثة. قال لهم يسوع: املأوا الاجران ماء، فملأوها الى فوق. ثم قال لهم: استقوا الآن وقدموا الى رئيس المتكأ. فقدموا. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هي. لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا. دعا رئيس المتكأ العريس، وقال له: كل انسان انما يضع الخمر الجيدة اولا ومتى سكروا فحينئذ الدون. اما انت فقد ابقيت الخمر الجيدة الى الآن. انتهى

والآن تعالوا نراجع ما قرأنا:

تقول الفقرة الأولى: أنه كان هناك حفل زفاف أقيم في قانا الخليل، وكانت ام يسوع هناك.

ودعي أيضا يسوع وتلاميذه الى العرس.

ولو وضعنا بالحسبان أن الترجمة غير دقيقة ولغتها ضعيفة أو أن النص قد عدل، فالاحتمال أن كلمة «دُعي» المبنية للمجهول هي الفعل الماضي «دَعَا»، ليكون النص أصلاً بهذا الشكل:

«ودعا أيضاً يسوع تلاميذه إلى العرس.»

ويكون يسوع هو من دعا التلاميذ للعرس.

وهذا ليس تأويلاً للنص نؤوله من عند أنفسنا، ولكن فقرات النص اللاحقة تؤكده، كما سنرى.

الفقرة الثالثة تقول بأنه لما فرغت الخمر هرولت أم يسوع قاصدة يسوع لتبلغه بنفاذ المشروب وأن عليه أن يتصرف بسرعة منعاً للحرج.

ولو كان يسوع وأمه من ضمن الضيوف المدعوين فليس من مسئوليتهما الحرص على تأمين الشراب للحفل، وليس مطلوباً منهما إنقاذ المضيف إذا هو لم يحرك ساكناً لإنقاذ ما واجهه من حرج أمام ضيوفه.

(الفقرة ٤) من الواضح أن النص قد تم العبث به، لأن إجابة يسوع لأمه عندما أبلغته بنفاذ الخمر، تبدوا لا علاقة لها بتساؤل أمه. إذ ليس الجواب المنتظر أن يقول: «ما لي ولك يا امرأة. لم تأت ساعتي بعد.» ولكن من المناسب أن يجيب بأنه لا علاقة له بالموضوع إن لم يكن هو المسئول عن خدمة المدعوين.



أو أن يكون مسئولاً فعلاً عن حفل الزفاف، ويبلغها بأنه سيعمل ما في وسعه لتأمين المزيد من الخمر، وهو ما قام به فعلاً.

حيث نقرأ أنه قد أحضر للمدعوين خمراً جيدة بشهادة رئيس المتكأ، وبطبيعة الحال لم يكن ماءً حوله يسوع لخمر، بل كان خمراً جيداً بالفعل استطاع يسوع تأمينه. لكن النص الأصلي حور وتم تغييره ليبدو وكأن هناك معجزة حسية قام بها يسوع، تتمثل بتحويل الماء خمراً معتق.

في المقطع الخامس، أم يسوع تؤكد على الخدم أن ينفذوا كل ما يطلبه منهم يسوع. ولو كانت ليست في موقع المسئولية في هذا العرس، ولو لم يكن يسوع كذلك، فلا داعي لأن تطلب من خدم يعملون في عرس ليس لها به صلة، ومدعوة هي وابنها إليه كضيوف، أن ينفذوا أوامر يسوع ويتركون مهامهم المطلوبة منهم. لكن لو أن يسوع هو العريس فعلى الخدم تنفيذ أوامره لإدارة حفل الزفاف.

الفقرات (٦-٨) تصور تحويل يسوع الماء إلى خمر وليس بالضرورة هذا ما حدث، بل هو من صنع خيال الكاتب أو المحرر.

الفقرتان التاسعة والعاشرة هامتان جداً لأنها تقولان بالحرف الواحد: «ودعا رئيس المتكأ العريس. وقال له. كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون. أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة الى الآن.»

وهو تصريحٌ، وأكرر، تصريحٌ وليس تلميحٌ بأن يسوع هو العريس (ودعا رئيس المتكأ العريس).

فقد كان رئيس المتكأ يوجه كلامه للشخص الذي جلب الخمر الجيدة، والذي وفر الخمر هو يسوع، وهو من دعاه رئيس المتكأ بالعريس، لأنه هو العريس فعلاً.

ووصف يسوع بالعريس عبارة لم يفطن لها كل من عدل وبدل في كتب المسيحيين المقدسة وبقيت كما هي في كتاب يوحنا أحد الكتب الأربعة التي اعترفت بها الكنيسة، كممثل شرعي للديانة المسيحية، ومع ذلك فهو يقول بكل وضوح: أن يسوع كان هو (العريس) وهو كعريس دعا تلاميذه لحضور حفل زفافه، وهو وأمه كانا المسئولين عن تأمين احتياجات حفل العرس.



وهذا النص موجود في الترجمات العربية والإنجليزية المتداولة، وبالتأكيد في الترجمات الأخرى لكل اللغات.

وهذه شواهد أخرى من كتاب متى الإصحاح (٢٦)

يسوع يختار عيد الفصح لثورته فيذهب لأورشليم مع (١٢) من أتباعه

يظهر هذا الإصحاح أن يسوع قد احتفل بعيد الفصح مع النخبة من أتباعه (عددهم ١٢) الذين اختارهم ليصحبوه في مهمته الخاصة والحاسمة لإعلان مملكته بعد قتل الحاكم الروماني. حيث احتفل عند رجل من أنصاره في المدينة (أورشليم) مقر إقامة الحاكم الروماني: فقال (يسوع) اذهبوا الى المدينة الى فلان وقولوا له: المعلم يقول ان وقتي قريب. عندك اصنع الفصح مع تلاميذي. ففعل التلاميذ كما امرهم يسوع واعدوا الفصح. ولما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر. (٢٦: ١٩-٢١).

العشاء الأخير تحضير لإعلان دولة يسوع

وفي هذا الإصحاح وصف لما عرف بالعشاء الأخير عند المسيحيين، وهو في الحقيقة، ليلة التخطيط للتسلل لقصر الحاكم وقتله وإعلان مملكة بني إسرائيل. وكان ذلك في بيت ذلك الرجل الذي استضافهم لعيد الفصح، ويبدو أن يسوع قرر أن يكون الاحتفال بعيد الفصح مناسبة لإعلان مملكته بعد قتل الحاكم. ولذلك كان ذلك الاجتماع في أورشليم وقرب قصر الحكم من أجل وضع اللمسات الأخيرة على خطة الهجوم المفترضة تلك الليلة:

وفيما هم يأكلون اخذ يسوع الخبز وبارك وكسر واعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا، هذا هو جسدي. واخذ الكاس وشكر واعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم. لان هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من اجل كثيرين لمغفرة الخطايا. واقول لكم إني من الآن لا اشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت ابي. ثم سبحوا وخرجوا الى جبل الزيتون (٢٦: ٢٦-٣٠).

وهذه الكلمات تصف كيف أعلن يسوع أن ساعة الصفر لقيام ملك إسرائيل قد حانت، وأن الجميع عليهم الاستعداد لأسوأ الاحتمالات، وقال لهم يسوع إنه مستعد للتضحية بجسده ودمه في سبيل ذلك، وعليهم أن يكونوا مستعدين بالتضحية كذلك. وقال بأنه سيحرم شرب النبيذ حتى يتحقق له النصر ويصبح ملكاً في مملكة اسرائيل الربانية. ثم



خرجوا لجبل الزيتون تحت جنح ظلام تلك الليلة لبدء المرحلة العسكرية.

وعلى جبل الزيتون أوضح يسوع لتابعيه أن الخطة تتمثل بالتسلل وقتل الملك الحالي لضمان تبدد عسكره، وتمثل بمثل معروف لديه يقول: لأنه مكتوب أني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية.(الفقرة:٣١)

وتدل الفقرة على أن يسوع هو من سيتسلل ليقتل الملك، ثم وفي فقرة لاحقة يقول: ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل.(الفقرة:٣٢) أي أن يسوع يقول وبعد أن أقتل الملك وأصبح ملكاً (قيامي) سأذهب إلى الجليل للقاء الأتباع والمؤيدين.

وقد عاهده بطرس على ألا يتخلى عنه بقوله: إن شك فيك (تخلى عنك) الجميع فأنا لا أشك أبداً (لا أتخلى).

(الفقرة: ٣٣) ولكن يسوع راوده بعض الريبة في صدق بطرس، قائلاً: إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات، فأكد له بطرس: ولو اضطررت أن أموت معك لن أنكرك أبداً، وهكذا قال أيضاً جميع التلاميذ.(الفقرتان: ٣٤-٣٥)

ومع اقتراب يسوع ومن معه من قصر الحكم استمر يسوع في الاستعداد للتسلل وقتل الملك، حيث أمر تلاميذه بالجلوس بينما ذهب هو وتضرع طلباً للعون من الله: حينئذ جاء معهم يسوع الى ضيعة يقال لها جثسيماني فقال للتلاميذ اجلسوا ههنا حتى امضي واصلّي هناك.(الفقرة:٣٦)

وقد اختار ثلاثة من بين أتباعه الاثنا عشر وانفرد بهم ولعله يكلفهم بمهام يريد أن تكون سرية حتى عن بقية الرجال: ثم اخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب (الفقرة:٣٧).

ولم يأخذهم وينفرد بهم لكي يراقبوه وهو يدعوا كما تقول العبارة.

وفي الفقرة التالية يقول يسوع مخاطباً أتباعه: نفسي حزينة جداً حتى الموت. أمكثوا معي ههنا واسهروا معي.

(الفقرة:٢٨) لقد كان قلقاً جداً حتى الموت وحتى لا ينهار، طلب من أتباعه أن يسهروا معه ويشدوا من عضده ويرفعوا من معنوياته، قبل أن تحين لحظة الصفر التي حددها هو للتسلل وقتل الملك.



وطلبه منهم البقاء معه يظهر أنه لا يثق بهم ولا ببقائهم معه.

ولكي يشعر بشيء من القوة اتجه للدعاء والطلب من الله أن يهون عليه مهمته ويقوي قلبه: ثم تقدم قليلاً وخر على وجهه وكان يصلي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. (أي ساعدني على تجاوز هذه المحنة) ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت (وقد رضيت بما قدرت علي). (الفقرة:٣٩)

ويصاب بالإحباط عندما يجد أتباعه وقد غلبهم النوم أثناء قنوته: فقال لبطرس أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة. (الفقرة:٤٠).

ويحاول حثهم على الدعاء والتضرع لكي يحميهم الله، لكن التفاعل ضعيف: اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. اما الروح فنشيط واما الجسد فضعيف (الفقرة: ٤٢).

ويعاود يسوع التضرع مرة أخرى ومرات: فمضى ايضا ثانية وصلّى قائلا يا ابتاه ان لم يمكن ان تعبر عني هذه الكاس الا ان اشربها فلتكن مشيئتك (٤٣)

مرة أخرى وثالثة وبنفس التضرع لله بأن يعينه ويحميه.

والكأس التي يتخوف من شربها هي كأس المنون لو قبض عليه قبل أن يتمكن من قتل الملك وإعلان مملكته.

ولكن أتباعه كانوا غير متحمسين: ثم جاء فوجدهم ايضا نياما. اذ كانت اعينهم ثقيلة. فتركهم ومضى ايضا وصلّى ثالثة قائلا ذلك الكلام بعينه (الفقرة:٤٤).

ثم يأمر يسوع أتباعه بالقيام للتوجه لقصر الملك: قوموا ننطلق.(الفقرة:٤٦)

القبض على يسوع

وفي تلك اللحظة ظهرت جموع فرآهم يسوع وعرف أنهم قد اكتشفوا أمره نتيجة لخيانة أحد أتباعه والإبلاغ عنه:

هو ذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم الى أيدي الخطاة. قوموا ننطلق. هو ذا الذي يسلمني قد اقترب. وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحد من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. والذي اسلمه اعطاهم علامة قائلا الذي اقبّله هو هو. امسكوه.



فللوقت تقدم الى يسوع وقال السلام يا سيدي، وقبّله. فقال له يسوع يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا والقوا الايادي على يسوع وامسكوه (الفقرات: ٤٥-٥٠).

لقد عرف يسوع أنه قد أحيط به وسيسلم لأيدي الخطاة (وصفه لرجال الدين اليهود الذين قدموا لإلقاء القبض عليه).

وقد حاول يسوع أن يهرب مع رجاله وهو ما يظهره قوله: « قوموا ننطلق» لكنه لم يتمكن فقد احاط بهم جمع من الكهنة ورؤساء الشعب، وهم من كانوا يودون أن يمسكوا به منذ حضر للهيكل في السابق، ولكن منعهم من ذلك في تلك المرة أنه حضر معه جموع غفيرة.

ويسوع واتباعه كانوا مسلحين استعدادا لقتل الملك وحراسه وهو ما يظهر ما ورد في الفقرة (٥٠) التي تقول: وإذا واحد من الذين مع يسوع مدّ يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع اذنه.

ويسوع أمر الرجل برد السيف لأنهم لو حاولوا الدفاع لقتلوا لأن المهاجمين أكثر منهم بكثير.

وقد هرب أتباعه: حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا(٥٦).

أما كيف عرف هؤلاء الكهنة بوجود يسوع مع نفر قليل من أتباعه في هذا المكان وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل فيبدو أنهم كانوا يتجسسون عليه ويرصدون أخباره وحركاته. وعلى ما يبدو أن أحد أتباع يسوع واسمه يهوذا هو من وشى به.

وقد سلبوه سلاحه واقتادوه إلى رئيس الكهنة للتحقيق معه حول زعمه أنه المسيح (أي ملك الإسرائيليين الذي يدهن رأسه تعهداً بخدمة الدين والوطن) فالمسيح لقب يهودي للملك الذي ينذر نفسه ليكون خادما للدين والوطن والشعب واليهود يؤمنون بأن هناك مسيح سيأتي ليقيم لهم مملكة مستقلة.

وأثناء التحقيق سأله رئيس الكهنة: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله.(الفقرة:٦٣)

(ابن الله هنا تعني التقوى وليس ابن فعلي لأن ابن الله تأتي في كتب اليهود بهذا المعنى، واليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله)

قال يسوع أنت قلت! (الفقرة: ٦٤) (أي ها أنت اعترفت لي بذلك).



وهو بهذا لم ينكر أنه يسعى ليؤسس مملكة لبين إسرائيل يكون هو مسيحها.

فمزق رئيس الكهنة ثيابه قائلاً قد جدف (أو لعلها اعترف وليس جدف) ما حاجتنا بعد لشهود ها قد سمعتم تجديفه (اعترافه). ماذا تريدون. فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت. (الفقرات: ٦٥-٦٦)

وهكذا قرر الكهنة أن يسوع يستحق أن يسلم للحكومة ليحاكم لأنه جاء ليكون ملكاً على بني إسرائيل. وهم كهنة يهود من غير نسل بني إسرائيل ولا يرغبون بأن يتولى عليهم الملك أحد من نسل بني إسرائيل، ولذلك يجب تسليمه للحكومة بتهمة التخطيط للثورة. وبدأوا يستهزؤون به ويبصقون في وجهه ويقولون: تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟ (الفقرة:٦٨)

بحكم أن خرافات اليهود تقول إن ملك اليهود يكون من الأخيار القريبين من الله والقادرين على معرفة مالا يعرفه الشخص العادي ككرامات.

الإصحاح السابق أخبرنا أن رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ألقوا القبض على يسوع في الليلة السابقة وهرب تلاميذه، وهذا الإصحاح يخبرنا بما حدث صباح اليوم التالي:

تسليم يسوع إلى بيلاطس البنطي

ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه. فاوثقوه ومضوا به ودفعوه الى بيلاطس البنطي الوالي. (الفقرة:١)

«وتشاوروا على يسوع ليقتلوه» قد تكون العبارة الصحيحة بهذا الشكل: «واتفقوا على تسليمه للحاكم ليحاكم بتهمة محاولة القيام بثورة ليقتل».

محاكمة يسوع

فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلا: أأنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع: أنت تقول. (الفقرة:١١)

لقد كانت تهمة محاولة الثورة وتأسيس مملكة هي التهمة الموجهة ليسوع ولا شيء غير ذلك.

وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء. (يشتكون عليه أي يشهدون عليه) فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك. (أي لماذا لا تدافع عن نفسك وتقول بأنهم يكذبون) فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدا. (الفقرات: ١١-



١٤) ويسوع لم يجب لأنه فعلاً كان يتطلع للحصول على الملك.

الفقرات: ١٥-٢٥ تتحدث عن أن الوالي كان معتادا على أن يطلق سجيناً وسأل رؤساء الكهنة إن كانوا يودون منه إطلاق سراح يسوع فأبوا. وهو كلام لا يمكن أن يكون قد حدث، لأن يسوع متهم بمحاولة الانقلاب وهي من التهم الكبرى التي لا تهاون فيها. وتظهر الفقرات أن الوالي لم يكن يريد صلب يسوع لكن رؤساء الكهنة أصروا على صلبه. وكأن الوالي صلبه تنفيذاً لرغبتهم، وهذا أيضاً لا يمكن أن يكون حدث، لأنه هو الوالي وهم مجرد رجال دين يدينون باليهودية، وهي دين لا يؤمن به الوالي، ورجال الدين اليهود يعيشون تحت حكمه ويأتمرون بقوانينه، وليس العكس.

وتظهر الفقرة (٢٦) أن الوالي حكم على يسوع: وأخيراً جلد الوالي يسوع وأسلمه ليصلب.

تنفيذ الحكم

فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة. فعروه وألبسوه رداءَ قرمزياً. وضفروا إكليلاً (تاج) من شوك ووضعوه على رأسه (سخرية منه كملك) وقصبة في يمينه (عصا يمسكها الملك). وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين السلام على ملك اليهود.

ويصقوا عليه وأخذوا القصبة ضربوه على رأسه. وبعدما استهزأوا به ونزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب. (الفقرات: ٢٧-٣١)

وقد وضعوا فوق رأسه لوحة مكتوب عليها هذا هو يسوع ملك اليهود. (الفقرة:٣٧)

واستمر الناس والكهنة ورجال الدين اليهود يستهزئون به ويسخرون منه وهو مصلوب، ومما قالوه: إن كان ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به. إذا كان قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن كان قد جاء بإرادة الله. (الفقرتان:٤٣-٤٤)

وبعد وقت من صلبه سمعه الناس وهو يتحدث بلغته الأصلية التي ليست لغة يهود فلسطين، قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني. أي إلهي إلهي لم تركتني.(الفقرة:٤٦)

(وهذا دليل واضح على أنه قدم من مكان غير فلسطين ولم يولد أو ينشأ هناك، وكل المدة التي بقي فيها في فلسطين لم تتجاوز ثلاث سنوات حسب تقديرات علماء تاريخ كتاب المسيحيين المقدس)



ولذلك لم يفهم الناس الموجودين حول الصليب ماذا قال، وظنوه ينادي إيليا (أحد الأولياء الصالحين القدامى من بني إسرائيل): فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيليا. وللوقت ركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملآها خلاً وجعلها على قصبة وسقاه. وأما الباقين فقالوا أتركه لنرى هل يأتي إيليا ليخلصه. فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح. (الفقرات:٤٧-٥٠)

بعد ذلك يروي الكاتب أن زلزلة وظواهر غير طبيعية حدثت بسبب موته، وهو خيال من نسج الكاتب نفسه ليصور عظم المأساة التي حدثت.

ويذكر الكاتب أن من بين من كان يراقب صلب يسوع بعض النسوة ومنهن مريم المجدلية (زوجته) ومريم أم يعقوب ويوسي وأم ابني زبدي، ولم يذكر أن أم يسوع معهم، لعله تعمد ذلك حتى لا يذكر اسمها الذي لم يكن مريم، أو لعل الكاتب الأصلي قد ذكر اسم أم يسوع، فتم حذفه لاحقاً لأنه لم يكن مريم.

أما بقية الإصحاح فيتحدث عن أن قبر يسوع قد أحيط بحرس، بناءً على طلب اليهود من بيلاطس أن يضع عليه حرس حتى لا يسرقه أتباعه.

وهكذا تم القبض على يسوع قبيل تنفيذه لمخططه بقتل الوالي الروماني وإعلان مملكته لبني إسرائيل، وقد حكم عليه وصلب ومات.

وفيما يلي بعض الحقائق عن:

عيسى ابن مريم

القرآن يتحدث عن عيسى ابن مريم وعن النصارى ولا يتحدث عن يسوع ولا المسيحية، وذلك أن عيسى كان رسولاً لبني إسرائيل وبقية منهم كانوا يعيشون في يثرب زمن رسول الله، ولكي يبرهن القرآن على أن محمداً رسول الله ذكر تفاصيل كثيرة عن تاريخهم ورسلهم وأشخاص يعرفون. وتحدث القرآن عن النصارى وخاطبهم لأن لهم بقية في يثرب في عصر رسول الله، وذكرهم القرآن بتاريخهم وفرقهم التي ظهرت بعد عيسى وغالت فيه.

ولم يتحدث القرآن عن يسوع لأنه لا علاقة له بتاريخ بني إسرائيل ولا بتاريخ النصارى، وكل الأحداث والأشخاص الذين ليس لهم علاقة بالمخاطب في القرآن لم يتحدث عنهم



القرآن. لذا لم يتحدث القرآن عن ممالك اليمن إلا حملة الفيل، التي كان لها علاقة بمكة وأهلها. ولم يتحدث القرآن عن ممالك العراق العظيمة ولا عن بلاد النيل وحضارتها الغير عادية، ولم يتحدث عن بلاد الشام وعراقتها، إلا أنه تحدث عن الروم (حماة المسيحية) لأنهم ابتدروا حرب المسلمين في الأحزاب وهزموا جيش مؤتة الذي تحدثت عنه سورة الروم. لكنه لم يسمهم المسيحيون لأن هذه التسمية لا علاقة لها بالمسيح الحقيقي عيسى ابن مريم، وإنما هم من تسموا بها. ولو تسمى المجوس بعباد الله وحدثت بينهم وبين المسلمين حادثة تستحق أن يذكرها القرآن فلن يسميهم كتاب الله عباد الله ولكن سيسميهم إما بجنس ملوكهم كما الروم أو بتسمية ملائمة أخرى.

واليوم سنرى بعض ما يقول القرآن عن عيسى ابن مريم باختصار مع بعض الاستنتاجات.

مولده

ولد عيسى في زمن لازالت القدرات الخارقة منتشرة في المجتمع، استمراراً لعصر موسى وما قبله. لذا جاء الحمل بعيسى وولادته بطريقة خارقة للعادة، كأكثر الطرق إقناعاً لهم بأنه رسول لله، لعلهم يؤمنون بما يدعوا له من العودة للدين وتصحيح ما دخله من معتقدات وتفاسير ونصوص باطلة.

فهو قد ولد بلا أب وتكلم معهم كرسول وهو في المهد، ومع ذلك يخبرهم عن نصوص التوراة وكأنه كان مع موسى عندما تلقاها من ربه: (إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.... (٤٩) آل عمران.

أم عيسى

هي مريم ابنة عمران، واحد من الرجال الصالحين أمام الله، الذين اصطفاهم لتكون في ذريتهم الرسالة: (إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) آل عمران.



وإبراهيم كان من ذريته أبناء ورسل مثل إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وعمران أحد أحفاد إبراهيم، كونه من بني إسرائيل. والقرآن يؤكد أن عمران هو والد مريم أم عيسى: (وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(٢١) التحريم.

وهناك آية تقول إن مريم، أم عيسى، هي أخت هارون: (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً(٢٨) مريم.

لكن هل هارون مريم هو أخو موسى الذي أرسل معه لفرعون؟ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٧٥) يونس.

أم أن هناك هارون آخر غير هارون موسى؟

وسواء كانت مريم أخت لهارون وموسى أو أخت لهارون آخر، فليس مهماً، والمهم هو أنها عاشت في عصر موسى.

وأم عيسى كفلها زكريا، وهو ما يشير إلى أن والديها فارقا الحياة، ولم يكن لها إخوة أحياء عند ولادتها. كما أنها نشأت في رعاية زكريا وكفالته بعد غرق فرعون، وعودة موسى وبني إسرائيل لمصر. واحتمال أن مريم ولدت عندما كان موسى على قيد الحياة، ولما حبلت بعيسى كان موسى قد توفي. (لا شيء مؤكد)

وعيسى لم يرسل بكتاب كما أرسل موسى أو محمد، لأنه لا يحتاج لكتاب. وإنما أوتي البينات، التي ولد وهو يعرفها: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ(٨٧) البقرة.

أليست البينات هي القدرة على بيان نصوص التوراة: (وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٦٣) الزخرف.

ومن أكثر ما اختلفوا فيه تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فجاء عيسى ليبين لهم الحلال والحرام كما في التوراة، التي يبدو أنه قد ضاع قسم منها في ذلك الوقت: (وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠) آل عمران.



الحمل بعيسى

قصة الحمل بعيسى بسيطة لكنها غير عادية، تخبرنا عنها سورة مريم. فقد بدأت بخروج مريم للخلاء إلى الشرق من مزارع مصر: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً(١٦).

وبمجرد ما توارت عن الأنظار ظهر لها مخلوق من مخلوقات الله، بهيئة بشرية: (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً(١٧).

فخافت أن يكون شخص تعقبها في هذا المكان المتقي المستور عن الأنظار، لكي يفعل بها الفاحشة: (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً(١٨).

وتقياً لوصف المخلوق، حسب ظن مريم، بأنه كان يحاول أن يتقي ويتخفى لها في مكان منعزل. فطمأنها وأخبرها من يكون: (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِياً(١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً(٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً(٢١).

وخلال لحظات شعرت مريم بالحمل، واقتراب الولادة، فحاولت البحث عن مكان بعيد عن أعين الناس قدر ما يسمح به وقتها: (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً(٢٢).

وخلال لحظات أخرى فاجأها المخاض، فاستندت لجذع نخلة من النخيل المنتشرة حولها، وعندما أيقنت أنها ستلد، تخيلت ردة فعل قومها، وتمنت لو أنها ماتت قبل ذلك أو لم تخلق أبداً: (فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِياً(٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً(٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً(٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِياً(٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً(٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً(٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً(٣٢).

والنخل من أشهر الأشجار المثمرة في قرية مصر كما ورد على لسان فرعون وهو يتوعد



السحرة بعد إيمانهم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى(٧١) طه.

وسواءً كان هارون موسى أخ لمريم أم لا، فإن عيسى ولد في فترة تلت وجود موسى مباشرة، فهما من عصر واحد، حتى أن اسميهما متشابهين في الوزن والإيقاع. والأسماء لها دلالات هامة في تحديد المكان والزمان. فمن الملاحظ انتشار أسماء معينة في منطقة دون المناطق الأخرى، حتى في هذا الوقت الذي اختلطت فيه التسميات. ولو أخذنا جزيرة العرب حالياً، فسنلاحظ أن هناك أسماء منتشرة وشائعة في مكة وجدة والمدينة، تختلف عن تلك المنتشرة شمال الجزيرة، أو جنوبها. وأسماء تنتشر في الوسط غير التي تنتشر في الشرق. وأسماء تنتشر في البادية لا وجود لمثلها في الحواضر، والعكس. كما أن ما كان منتشراً في مكة من أسماء زمن الرسول، على سبيل المثال، أصبحت غير معروفة في أزمنة لاحقة، وحلت محلها أسماء مختلفة.

وفي مصر زمن فرعون وموسى، كانت الأسماء المنتشرة، عيسى، موسى، يحيى، زكريا، هارون، قارون، هامان، لقمان، فرعون، أحمد. ولم يعرفوا بعد أسماء كتلك التي كانت منتشرة زمن يسوع وبعد تغرب بني إسرائيل في بلاد أجنبية حيث انتشرت أسماء مثل: أندراوس، بطرس، بولس، يوحنا، فيلبس، برتلماس، متى، لوقا، مارك، توما، يهوذا .. الخ.

بينما كانت الأسماء المشهور زمن إبراهيم تبدأ بالألف مثل: آزر، إبراهيم، إسحاق، إسماعيل، أو الياء مثل: يعقوب، يوسف، والتي لم يعد لها وجود بينهم في مصر، لتغير الزمان والمكان.

وسنجد أن الأسماء ستتغير مرة أخرى إلى داوود، طالوت، هاروت، ماروت، في زمان ومكان سليمان .. وهكذا.

ويضاف إلى التشابه في أوزان الأسماء، قرينة أخرى تؤكد أن عيسى كان في عصر موسى، وتلاه مباشرة، وهي: أن المجتمع كان مأخوذاً بالعجائب الخارقة للعادة، فكانت معجزات عصا موسى ويده مناسبة لذلك الزمن، الذي يجيد أهله السحر والأعمال الخارقة، كما فعل السامري. لذا جاء الحمل بعيسى بهذه الطريقة الخارقة، كون الحمل وتكون الجنين والولادة، كلها حدثت في يوم واحد، بل وخلال فترة تغيب مريم في الخلاء. وهذا ما يجعل



اتهامها بالزنا مستحيلاً. ولو استغرق الحمل تسعة أشهر، فلن يصدق أحد أنها لم تحبل به سفاحاً مهما حاولت الدفاع عن نفسها[1].

يضاف لذلك أنها عندما جاءت به تحمله وهو للتو خرج من رحمها، تحدث إليهم، مما جعل أي شك منهم في أنها قد تكون أخفت حملها عنهم طوال الأشهر الماضية، غير وارد.

وكل الخوارق التي صاحبت الحمل وولادة عيسى وما جرى على يديه بعد ذلك، امتداداً لما سبق ورأوه أو عرفوه عن خوارق موسى، وذلك لكي يسهل إقناعهم بقبول كل ما سيبينه لهم عيسى عن معاني نصوص التوراة، وما يضيفه من نصوص نقصت منها. وهذه هي الغاية من خلق عيسى بهذه الطريقة، لكن بني إسرائيل أخذوا العبرة بطريقة خاطئة.

متى بدأ عيسى دعوته

هل بدأ عيسى تجديد دعوة موسى، وتصحيح ما طرأ على التوراة من تغيير، وهو طفل في المهد، أم أنه ترعرع وكبر ولما أصبح رجلاً راشداً، بدأ دعوته؟

ولأن القرآن لا يذكر شيئاً عن عمر عيسى، سنلجأ للمنطق، ونقول عيسى استغرق حمله لحظات، وتكلم في المهد كلام الرجل العاقل الراشد الملم بالتوراة التي جاء يصحح ما أدخل عليها مما ليس منها. وهنا لابد من وضع الاحتمالات، كما يلي:

إما أنه وبعد أن رآه الناس في المهد، نما بسرعة وأصبح بحجم الرجل العاقل الراشد في نفس اليوم واللحظة، وبدأ دعوته. أو أن جسده بقي بحجم الطفل حديث الولادة، لكنه كان يكلم الناس ويصحح التوراة.

أو أنه سكت بعد أن كلم الناس عندما أحضرته أمه بعد ولادته، ونما كأي طفل آخر، ولما تجاوز المراهقة، وأصبح راشداً بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة، بدأ يدعوا الناس وينقح التوراة لهم.

ولو أن ما حدث هو الاحتمال الثاني، فإن هناك إمكانية أن الناس سيطول بهم الزمن، ولن يتذكر ما حدث له أثناء ولادته وحديثه في المهد، إلا قلة قليلة ممن بقي على قيد الحياة،

---

١ أخ فاضل لم أحظ بمعرفته شخصياً، له جهود حثيثة في مناقشة ما أكتب على شبكة الإنترنت وفي مواقع عديدة. وأثناء نقاشه لبعض مواضيع كتاب مسيحية بولس وقسطنطين، سألني إن كان الحمل بيسوع تم في نفس اليوم. واجبته أنه لم يخطر ببالي قبل تلك اللحظة أن أفكر بذلك. والآن وبعد إعادة مراجعة الآيات اتضح لي أن تساؤله في مكانه. هذا الرجل الفاضل يكتب في النت باسم الشايب.



وبذكرى مشوشة. وقد يصدقه البعض منهم. لكن غيرهم سينظرون لعيسى عندما يبدأ دعوته بعد هذه السنين التي قضاها بينهم كإنسان عادي، على أنه شخص يحاول أن يدعوهم لدين باطل يختلف عن دين الله الذي ورثوه. وسينظرون لما يقوم به من قدرات خارقة على أنها نوع من السحر يريد أن يسحرهم به ليصدقوا دعوته الباطلة.

لكن لو أن ما حدث هو أن عيسى تكلم في المهد وهو على شكل طفل وليد، ثم نما بسرعة غير طبيعية، حتى أصبح بهيئة رجل راشد عاقل، مع استمراره بدعوته، كونه لا يحتاج لا للخبرة ولا للحكمة، لأنه ولد وهو يتمتع بها والدليل كلامه الحكيم وهو في المهد.

في هذه الحالة، من يريد الإيمان سيصدق ويقتنع أنه يقول الحق. بينما سيدخل الشك آخرين، وسيبالغ آخرون برواية ما هو عليه وما يقوم به وكيف حمل به وكيف ولد، بقصص مختلقة.

وهؤلاء هم من سيوجد التربة المناسبة لنمو الغلو في شخص عيسى بين الأجيال اللاحقة، الذين لم يعرفوه شخصياً ولا موسى قبله، ولكنهم نشأوا على سماع قصص خيالية لميلاد عيسى وقدراته، لا يمكن أن تصدر إلا من الله، مثل شفاء المرضى وذوي العاهات. ولأن من نقل لهم هذه القصص، بدل أن يقول عن عيسى أنه كان يجعل من الطين على هيئة الطير ويطير وكأنه طائر. نقل للناس أن عيسى كان يخلق الطيور من لحم وعظم وريش حقيقية وتطير أمام أعين الناس.

عندها سيبدأ بعض الناس بالتساؤل: هل هو الله؟

هل هو إله مع الله؟

هل هو ابن لله؟

هكذا ولد الاعتقاد في أن عيسى ابن لله، ثم تطور في أجيال لاحقة بضم مريم لتكون والدة الله الابن، ليكون هناك ثلاثة: الله الأب، الله الأم، والله الابن.

وقد يكون الغلو في عيسى لم ينشأ في مصر، لأن الإسرائيليين هناك رأوا عيسى وموسى، وكانوا على أربع فرق:

١. إما مؤمنون بموسى، ولم يجدوا غضاضة في الإيمان بعيسى.

٢. أو أنهم آمنوا بموسى، ولكنهم ممن أدخل بعض المستحدثات على الدين، وبالتالي فلن



يطيعوا عيسى بالتراجع عن بعض معتقداتهم.

٣. أو أنهم آمنوا بموسى، لكنهم لما رأوا مريم مقبلة عليهم وبين يديها طفل وليد، سارعوا باتهامها: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً(٢٨).

وقد يكونوا قد غيروا رأيهم بعد ذلك: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً(٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً(٣٢).

٤. أو أنهم لم يؤمنوا بموسى، ولم يؤمنوا بعيسى.

وأميل للقول إن عيسى لم يطل به المقام في بني إسرائيل لأنه خلق، بطريقة مختلفة، لمهمة خاصة أنجزها لمن تقبلها، ومن ثم توفي. لذا لم يذكر القرآن أي مواجهة بينه وبين من اعتقد بألوهيته، لأن وقته كان قصيراً جداً بين الناس لدرجة أن فكرة القول بأنه ابن الله، تحتاج لوقت لكي تتبلور، أطول من فترة حياة عيسى، الذي مات قبل أن يبدأ بعض الناس بالجهر باعتقادهم أنه قد يكون ابن لله.

وفيما يلي بعض الآيات التي تحدثت عن عيسى:

(إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦) آل عمران.

لقد أصبح كهلاً، أو بهيئة الكهل، هذا مؤكد، لكن هل بلغ سن الكهولة بنفس عدد السنوات التي يحتاجها الإنسان العادي لبلوغها؟

من المؤكد أنه لم يبق في بطن أمه سوى لحظات، وليس تسعة أشهر.

ومن المؤكد أنه لم يحتج سوى للحظات لكي يتحدث بمنطق العاقل الحكيم، بينما يحتاج الطفل العادي من البشر لسنة تقريباً ليبدأ نطق بعض العبارات البسيطة، ومع السنوات تبدأ حصيلته من المفردات اللغوية تزداد. كما أن الحكمة والرشد تأتي مع تقدم السن والاستفادة من المواقف والخبرات. لقد خلق عيسى بعقلية ناضجة، وذاكرة مكتملة، فلا حاجة له لخبرة السنوات، ولا لحفظ مزيد من الكلمات.



والقرآن لا يذكر أن عيسى ترعرع وكبر حتى أصبح رجلاً راشداً، لكنه يذكر أنه في المهد وكهلاً، وكأنها إشارة إلى أنه انتقل من طور المهد إلى الكهولة، دون المرور بالمراهقة وطيش الشباب، ودون أن يمر بسنوات طويلة.

لقد خلق مختلفاً، وعلمه الله الكتاب، والحكمة، والتوراة والإنجيل، ولم يتعلمها بنفسه أو يتلقاها أو يوحى بها إليه: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٤٨) آل عمران.

إضافة لذلك: (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٤٩) وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠) إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٥١) آل عمران.

لقد ولد عيسى ولديه طاقة قادرة على تأثيرات عجيبة، ومن ذلك أن يصمم شكلاً على هيئة الطير ثم ينفخ فيه فيطير كالطير الحقيقي. وهذا يذكرنا بما فعل السامري، عندما قام بتصميم عجل من الذهب، واستطاع أن يجعله يخرج صوت خوار مشابه لخوار البقر. لقد صمم بقرة تتصرف كالبقر الحقيقي. وهو ما يدل على أن ذلك المجتمع يتواجد فيه من لديهم مهارات تصميم وتصنيع أشكال وهيئات بالغة الدقة، كما سبق وذكرنا مراراً.

وحتى المؤمنون من بني إسرائيل في عصر موسى وعيسى بقي الإيمان بالخوارق مسيطراً عليهم، حيث نجد أن القلة من الذين صدقوا عيسى، وهم الحواريين، طلبوا منه أن يدعوا الله لينزل عليهم مائدة من السماء، وكأنها مقابل إيمانهم: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ(١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤) قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ(١١٥) المائدة.

والله جل وعلا أرسل لهم عيسى بطريقة يسهل عليهم فهمها. لكنه يتفوق عليهم بالقدرة



على القيام بأشياء فوق قدرة المصممين والسحرة، كم فعل موسى من قبل، عندما التهمت عصاه كل ما قام السحرة بتصميمه بمهارة فائقة. وعيسى الآن يستطيع أن يبرئ «الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» وهو ما لا يمكن للسحرة القيام به.

كل هذه القدرات الخارقة التي تثبت أنه يتمتع بمهارات لا يمكن أن يتمتع بها البشر، للتدليل على أنه مرسل من الله، في مهمة خاصة، فهو ليس رسول جديد لبني إسرائيل، بل هو مجدد فقط، ولم يأت بأي شيء جديد لم تذكره التوراة» وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ».

فالهدف هو العودة لما في التوراة، وترك كل ما طرأ عليها وأحدث فيها. ليقتنعوا بأن التوراة بالفعل قد تم التلاعب بنصوصها، وأن بعض ما يعتقدون أنه من دين الله، ليس منه.

ويقول تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٥٩) آل عمران.

فآدم خلق من تراب ثم نفخت فيه الروح فقام رجلاً بالغاً عاقلاً، وكأنه مر بسنوات وتجارب، لدرجة أنه كان يعلم أسماء مخلوقات الله، وهو الذي للتو نهض من العدم، بينما الملائكة الموجودين منذ القدم، لم يعرفوها: (وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) البقرة.

فعلم عيسى وقدراته لا تحتاج للخبرة ولا للحكمة، لأنه ولد وهو يتمتع بها، مثل آدم، الذي بمجرد أن نفخت فيه الروح كان يعلم أشياء في عالم البشر لا تعرفها الملائكة.

يبشر برسول يأتي من بعده

قبل وفاة عيسى، بشر الناس بأن هناك رسول سيأتي بعده مباشرة: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٦) الصف.



وهذه البشارة امتداد للقدرات التي أودعها الله فيه، حيث أن لديه القدرة على الإخبار ببعض ما سيأتي، وهو ما سبق وذكرته سورة آل عمران: (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٤٩).

فهو يستطيع أن يتنبأ بما يأكلون خلف جدران بيوتهم، وما تحويه، من متاع ومدخرات. كما أنه تنبأ لهم برسول سيأتي من بعده وحدد اسمه بأنه أحمد. لأن أي شخص يستطيع أن يتوقع أن يأتي بعد عيسى رسول ورسل، لكن لا أحد يستطيع أن يحدد اسم الرسول التالي، إلا من أبلغه الله بذلك، أو لديه قدرة خارقة، مثل عيسى.

وأحمد كان واحداً من رسل بني إسرائيل الذين قص القرآن بعض أخبارهم، وكثيرون غيرهم لم يتحدث القرآن عنهم: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً(١٦٤) النساء.

والآية التي تذكر أحمد، حورها المفسرون وكأنها تتحدث عن محمد. ويريدون منا أن نتعامى عن حقيقة أن أحمد اسم، ومحمد اسم آخر، والأسماء لا تعلل، وليس لها معاني. فلا نقول أحمد بمعنى أشكر ومحمد بمعنى مشكر أو مشكور، وبناءً على ذلك يعتبران اسماً واحداً. لأنهما جاءا من الحمد والشكر. إذ لو كان الوضع كذلك فمحمود وحامد وحميد وحمد وحمدون وحمدي وقائمة طويلة من الأسماء التي تشترك في جذر واحد (ح م د) هي اسم واحد. إذاً، محمد ليس أحمد، وكل اسم من هذه الأسماء مستقل بذاته، ولا صلة له بالبقية.

وأحمد بشر به عيسى بني إسرائيل، كواحد من رسلهم، ولا علاقة لمحمد ولا لقريش به. لأن قريش في مكة منذ أيام إبراهيم، بينما بشرى عيسى كانت موجهة لبني إسرائيل في مصر، في عصر موسى وعيسى. ولا يمكن أن يبشر عيسى بني إسرائيل بمجيء محمد لقريش، لأن الغاية من بشرى عيسى هي تأكيد صدقه، وأن ما يقوله لبني إسرائيل، هو ما علمه الله. ومن ذلك أنه سيأتيهم رسول بعده اسمه أحمد، وسيأتي بعده مباشرة، وليس في وقت ما. كما أن أحمد مرسلاً لبني إسرائيل وليس لغيرهم.

وكون عيسى علم أنه سيأتي بعده رسول اسمه أحمد، ويستطيع أن يخبر بني إسرائيل بما في



بيوتهم، لا يعني أنه يستطيع أن يعلم الغيب، ويتنبأ بمجيء رسول يبعث في مكة بعد زمن طويل جداً. لأنه لا فائدة من أن يعلم ذلك، فكل قدراته الفوق عادية تهدف لإثبات أنه رسول من الله لبني إسرائيل، وليس لقريش علاقة بذلك. مثلما أن إرسال محمد لقريش في عصور لاحقة لا علاقة لبني إسرائيل زمن عيسى به.

وكبشر فعيسى لا يمكن أن يكون على علم بمجيء محمد، بل لا يمكن أن يكون قد علم بمجيء سليمان وداوود، ولا أي رسول آخر من الرسل الكثر لبني إسرائيل بعده، ما عدا أحمد، لأن الله أبلغه بذلك، كبرهان على صدق رسالته لمن عاصره. أما البقية من رسل بني إسرائيل فسيرسلون بعده بزمن طويل، ولا حكمة في إبلاغه عنهم.

وعلى القراء أن يتذكروا أن البيئة التي ولد فيها عيسى وموسى عربية اللسان، كما سبق وأثبتنا في بداية الحديث عن مصر. واسم أحمد عربي مثل كل أسماء بني إسرائيل كموسى، عيسى، يحيى، زكريا، هارون، إبراهيم، إسماعيل، وإسحاق. أما نطق موشي، عيسو، زكرايا، آرون، أبرهام، إشماعيل، ويتسحك، فهو نطق فيه عجمة اكتسبها بنو إسرائيل في وقت لاحق من تاريخهم، وبعد شتاتهم، عندما اختلطت ألسنتهم بلغات أخرى، فأصبحت عربيتهم خليط من مفردات لغات شتى، دون قواعد وضوابط خاصة بها. وأصبحت أسماؤهم أسماء البلاد التي انتقلوا إليها واعوجت ألسنتهم.

ولو وافقنا المفسرون أن أحمد هو محمد، فكأننا لم نصدق بأن محمداً رسول الله إلا لأن كتب اليهود شهدت له، وليس لأن الله قال بذلك. بل وأعظم من ذلك هو أننا نضرب بكلام الله الواضح البين عرض الحائط، ونحرف الكلم ونحن نعلم، فالآية تقول عن رسول بني إسرائيل أحمد الذي بشر بمجيئه عيسى أنه جاء وبعث لبني إسرائيل وبلغ رسالته ومات في زمانه، ولنتدبر مرة أخيرة الآية التي أوردت الخبر: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٦) الصف.

فالآية تقول: عيسى أخبر بني إسرائيل أنه سيأتيهم رسول لهم بعده اسمه أحمد.

فأحمد جاء ومات مباشرة بعد عيسى، ومات قبل عصر محمد بفترة تقارب (٢٠٠٠) عام، ولو كان هو محمد فالأحرى أن تبشر به قريش لأنه رسولهم، وليس بني إسرائيل.



وفاته

ما فهمته من الآيات أن عيسى لم يدم به المقام طويلاً بين بني إسرائيل، فهو خلق لمهمة خاصة، ولم يخلق لكي ينشأ كبقية الناس ويتزوج وينجب مثلهم للحفاظ على الجنس البشري. لذا فقد أدى مهمته ثم توفاه الله: (إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥) آل عمران.

ولا أشك للحظة أن «رافعك إلي» لا تعني أنه حي يرزق بجوار الله (تعالى الله عن خلقه علواً كبيراً). وكل ما يحويه الكون عبارة عن خلق لله، وكل مخلوقات الله بعيدةً عن ذات الله، الذي لا يحد بمكان ولا زمان. فهو سبحانه ليس داخل ملكه، ولو كان معنى «رافعك إلي» تعني التواجد بقرب الله، فهذا يعني أن الله موجود في مكان محدد، داخل هذا الكون الذي هو خلقه، وأن له جسد .... الخ.

مما يجعلنا نشبه الله بالخلق، مع أنه سبحانه: (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(١١) الشورى.

وأي صفة لخلق من خلقه فليس لله منها شيء. وعيسى توفاه الله قبل أن يرفع روحه، أي أنه مات، كبقية مخلوقات الله التي ستموت كلها، وستحفظ أرواحها بعلم الله، لتعاد لها الحياة يوم القيامة. ولا يوجد مخلوق حي مستثنى من هذا القانون الإلهي، سواءً كان من البشر أو من غيرهم: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) الرحمن.

وحفظ الأرواح لا علاقة له بهذا الكون، لأن هذا الكون سينتهي وينشأ كون جديد للقيامة: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

مما يعني أن ما نطلق عليه الكون هو خلق من خلق الله الذي لا حدود لقدرته، ولو قلنا أن عيسى رفعه الله إليه كجسد وليس نفس، فهذا يعني أن الله داخل الكون في مكان ما، وهذا تحجيم لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. أو أن عيسى خارج الكون وخارج كل المخلوقات، وهذا كثير في حق المخلوق.



ورفع عيسى لله يعني رفع النفس بعد الوفاة دون الجسد، مثله مثل كل المخلوقات، والدليل في نفس الآية حيث تقول: «إني متوفيك ورافعك إلي».

التثليث

سنحاول التعرف، إن أمكن، على بداية ظهور عقيدة الغلو في عيسى والنظر إليه على أنه ابن لله وثالث ثلاثة. والآيات تقول إن الناس قد انقسموا حيال عيسى إلى ثلاث فرق، كما يلي:

- أناس لم يصدقوه، وهم ممن لم يصدقوا موسى قبله، وهم أكثر بني إسرائيل.
- وأناس أتقياء صدقوا موسى وصدقوه، وهم القلة: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٥٣) وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤) آل عمران.
- وأناس بنوا حوله عقيدة لم يعلم بها، واعتقدوا أنه ابن الله. وهؤلاء لم يرهم عيسى ولم يسمع بهم أثناء حياته، لأن عقيدتهم احتاجت كغيرها من العقائد المستحدثة، للوقت الكافي للتحول من قصص وأخبار إلى عقيدة.

ويحتمل أن تكون عقيدة الغلو في عيسى واعتباره ابناً لله بدأت في مصر، التي ولد فيها عيسى، واحتمال أنها ولدت في مكان آخر غير مصر.

وأميل إلى أن الغلو في عيسى حدث خارج مصر، حيث أخذ الناس يتناقلون قصصاً وأخباراً عن عيسى بعد موته، وكما هي العادة فالراوي يضيف على القصة ما يزيد من تشويقها في أذن السامع، ويأتي قاص آخر ويقصها على مستمعيه بطريقة يريد أن يوصل بواسطتها فكرة معينة، ويأتي راو آخر، ويضيف للقصة وينقص منها لتتوائم مع الجو العام للمستمعين وما يجب مراعاته في المجلس حسب الأعراف المتبعة. ويأتي راو ويقص ما سمع حسبما فهم هو وليس كما كانت القصة.

وهكذا يتولد من خبر واحد عن عيسى عشرات الأخبار والقصص، عن شخص لم يروه ولم يعرفوه، مما يجعل اختلاق القصص أسهل وأكثر تنوعاً.

والقرآن لا يذكر أن هناك من اعتقد أن عيسى ابن لله أثناء حياته، ولكن الآيات تقول:



(وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١١٨) المائدة.

وهذا سؤال افتراضي سيكون يوم القيامة، لعيسى إن كان هو من قال للناس أنه ابن لله أو إله مع الله.

والآيات تظهر من الجواب على لسان عيسى أنه لم يكن يعلم أن الناس قد اعتبروه إلهاً من دون الله أو مع الله « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ».

وآيات أخرى تقول: (لعن الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(٧٨).

ولا ذكر للتثليث زمن عيسى. لأن الناس إما مؤمن به أو كافر، لكن أجيال أخرى لم تره بدأت تتخيل عنه غير ذلك لأن الوقت اختلف ولم ير الناس معجزات موسى ولا عيسى لكنهم سمعوا ما حدث بروايات مشوشة.

ومن المؤكد، أن التثليث لم يعتقده الناس بين يوم وليلة، ولكن الفكرة بدأت باعتقاد بعض الناس أن عيسى يستطيع أن يخلق خلقاً حقيقياً لمخلوقات حية. ولأن الخلق لله وحده، فقد ظهر من يقول بأن عيسى كان هو الله، وسورة المائدة تخبرنا عن بداية هذه العقيدة وتطورها: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ......

مع أن عيسى لم يقل سوى ما كلفه الله به: (.... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٧٢).

ثم جاء من استكبر أن يكون عيسى هو الله خالق كل شيء، لكنه قد يكون ابن لله، فهو إله محدود القدرات، ومريم إله، لأنها أمه، والثالث هو الله القادر على كل شيء، فهم ثلاثة آلهة: (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا



يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٧٥).

وهذه الآيات لا تتحدث عن عصر عيسى ولكن عمن جاءوا بعده، وهو لم يعلم بهم. مثلها مثل آية أخرى في نفس سورة المائدة، والتي تقول: (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٧) المائدة.

وسورة المائدة تتحدث لمحمد وتخاطب بني إسرائيل، والنصارى منهم تحديداً، الموجودين في يثرب.

ونفس السورة في آية أخرى تقول: (..... وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(١١٠).

لقد اتهم عيسى بالسحر والدجل في حياته، لكن لا أحد قال له أو عنه أنه إله أو ابن لله، لأن المعتاد هو أن الغلو بشخص لا يأتي في حياته ولكن بعد عقود من وفاته. فعلي ابن أبي طالب لم يصبح ولياً لله في حياته، ولم تعلم زوجته فاطمة أنها الزهراء في حياتها. ولم يعلم ابن حنبل أو ابن عبد الوهاب أنهما أصبحا بهذه القداسة في حياتهما.

وبما أننا نعتقد جزماً أن قرية فرعون تقع في جنوب غرب جزيرة العرب وقد تكون فيما يعرف اليوم برنية، فقد توارد في ذهني تساؤل لا أجد ما يعضده، ويتمثل بحاضرة قديمة من حواضر أودية جنوب غرب جزيرة العرب الهامة، وهي تثليث التي لا تبعد كثيراً عن مصر.

وتثليث اسم قديم، قدم الحاضرة ذاتها، يبدأ بحرف التاء، مثل تبوك، تهامة، تيماء، ولعل أسماء حواضر جنوب غرب جزيرة العرب القديمة دائماً لا تلحقها «أل» التعريف.

والسؤال هو: هل تثليث اسم مكان لا يدل على معنى معين، أم أن له علاقة بالغلو في عيسى وأمه؟

التثليث لو أخذناه كلفظ، فهو من ثلاثة. وبعد عيسى وجدت عقيدة النصارى الذين



يعتقدون أنه ثالث ثلاثة، مع الله (جل جلاله) ومريم أمه. وهنا علينا أن نتذكر الفرق بين عقيدة النصارى وعقيدة من تسموا بالمسيحيين، الذي يعتقدون بالتثليث، لكن بيسوع والله والروح القدس، وليس أم يسوع. وهو فارق هام جداً وجذري، لأن النصارى لا يعتبرون ما يسمى «الروح القدس» إلهاً.

ونتساءل: ترى هل ظهرت عقيدة التثليث بعيسى في مصر، وطردوا منها بسبب عقائدهم، فلجأوا لمكان على وادي تثليث، عرف ببلاد التثليث، نسبة لهم؟

مجرد تساؤل لا أملك ما يسنده، ولا ما ينفيه.

النصارى وكيف التبس أمر يسوع على اليهود

بعد غرق فرعون وبعد كتابة موسى للتوراة في وادي طوى قرب المسجد الحرام في مكة، عاد موسى وبني إسرائيل إلى قرية مصر واستمروا يعيشون هناك: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(٦١) البقرة.

وقد أضاع بنو إسرائيل التوراة أو بعض الألواح التي كتبت فيها في عصر موسى أو بعد وفاته مباشرة فبعث فيهم عيسى لإعادتهم لدين الله، كما سبق وذكر في اللقاء الماضي. ولم يؤمن بعيسى من بني إسرائيل إلا نفر قليل، هم الحواريون (العائدون للحق). وهم قلة قليلة من بني إسرائيل: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) آل عمران.

ولابد أن معتقداتهم تحورت بعد موت عيسى مثلهم مثل كل الأمم، واتبعوا تشريعات بشرية بديلة لدين الله، متفرقين لفرق ومذاهب، منها:

- بعضهم اعتقد أن عيسى هو الله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٧٢) المائدة.



- وبعضهم اعتقد أن عيسى ابن الله: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) براءة.
- وبعضهم اعتقد أن عيسى وأمه آلهة مع الله: لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) المائدة.

ويمكن ملاحظة أن النصارى لا يعرفون إلهاً اسمه «الروح القدس»، بينما لا يعتبر المسيحيون يسوع هو الله، ولكنهم يعتبرونه ابن لله وثالث ثلاثة مع الله والروح القدس. وهذه الفروق جوهرية بين النصارى والمسيحيين.

وفي عصور لاحقة لما بعد موسى وعيسى تعرضت بلاد بني إسرائيل (قرية مصر) إلى اجتياح أجنبي: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً(٥).

وقد تسبب هذا الاجتياح في هروب الكثير منهم وتفرقوا يمنة ويسرة. وبعضهم سلك طريق التجارة القديم المتجه إلى بلاد الشام مروراً بالقرب من مكة ويثرب وخيبر وتيماء ووادي القرى وبقية الحواضر التي قامت بالقرب منه واستقروا فيها، وبعضهم واصلوا مسيرهم لبلاد الشام وبلاد النيل.

وقد استوطن بعض بني إسرائيل يثرب، بعضهم كانوا من نسل من لم يؤمن بعيسى وبعضهم كان من الفرق التي غالت بعيسى، وبقوا حتى هجرة الرسول، وقد خاطبهم القرآن في عدد من السور، وأخبرنا عن معتقداتهم.

ومما قاله القرآن عن بني إسرائيل الذين في يثرب: وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(١٥٨) النساء.

لقد كانت لديهم اعتقاد أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم، أو أنهم صلبوه.



والآيات تؤكد أن المسيح مات ولم يقتل ولم يصلب.

والآيات تتحدث عن لبس بين بعض أهل الكتاب زمن رسول الله أن المسيح ابن مريم حدث له الذي حدث ليسوع أو أنهم يعتقدون أنه هو يسوع.

أما النصارى في يثرب زمن رسول الله فلم يكن عندهم هذا اللبس.

فمن هم الذين التبس الأمر عليهم؟

آيات سورة النساء السابقة تكمل لتقول: وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا(١٦٠) النساء.

إذا من التبس عليهم الأمر هم اليهود وليس كل بني إسرائيل.

فكيف حدث اللبس؟

اليهود معتقد (مذهب) استحدث بعد عصر موسى وعيسى، بل قد يكون أول ما ظهر في المملكة التي أسسها داوود. وهم يختلفون في معتقداتهم عن بني إسرائيل الذين تحدروا من أتباع موسى. والمعتقد اليهودي يعتقده أناس من أجناس مختلفة ومنهم قلة قليلة من بني إسرائيل. وهم من وقع السبي على كثير منهم في الحملة العسكرية الفارسية على مملكة داوود (التي تقع في أقصى جنوب جزيرة العرب وليس في فلسطين) واقتيدوا لبابل العراق وبقوا هناك لعشرات السنين. وهم من بدأ بكتابة تاريخهم وهم من كتبوا التلمود. وهم من حلو محل بني إسرائيل كممثلين لدين موسى: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً(٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً(٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً(٨) بني إسرائيل.

وقد هرب كثير منهم أثناء اجتياح مملكة داوود بعضهم وصل لفلسطين واستوطنها وبعضهم استقر في يثرب مع بني إسرائيل والنصارى.

وبعد أن تحرروا من أسر بابل انتقل بعضهم للعيش في الخزر وأسسوا هناك دولة لهم، والبعض الآخر انتقلوا لفلسطين وانضموا لليهود وبني إسرائيل هناك. وكانت لهم اليد



الطولى على بني إسرائيل منذ ذلك الوقت.

وبما أن ثقافتهم بعصر موسى مشوشة كونهم ليسوا من بني إسرائيل ولم يعيشوا في مصر زمن موسى، وبما أنهم عاشوا في فلسطين التي ظهر فيها يسوع وقتل وصلب نتيجة لإمساك رجال الدين اليهود به قبل تنفيذه لمخططه بقتل الحاكم الروماني وإعلان مملكته، فقد اعتقدت أجيالهم التالية بعد عصر يسوع أن يسوع هو عيسى. وبما أن تواصل اليهود بعضهم مستمر فقد وصل هذا الاعتقاد ليهود يثرب.

فجاء القرآن، ليبين هذا اللبس ويوضح الحقيقة: وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(١٥٨) النساء.

فمريم ليست هي أم يسوع التي تزوجت بيوسف النجار، والتي ظنوا أنها زنت.

وعيسى ليس هو يسوع الذي قتل وصلب بمؤامرة يهودية.

ولكن الأمر التبس عليهم (ولكن شبه لهم). هنا المفسرون دورهم جاء لتشويه الحقيقة كالعادة، فقالوا إن يسوع هو عيسى لكنه عندما حان وقت صلبه ألقى الله شبهه على رجل آخر فصلب ذلك المسكين ونجا يسوع (عيسى)، «مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ».

هكذا حدث اللبس عند اليهود زمن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبعد عصر الفتوح ودخول الكثير من أهل البلاد المفتوحة الإسلام وجلهم من المسيحيين فقد رسخ لديهم أن الحديث عن عيسى في القرآن هو حديث عن يسوع. خاصة أن بقايا النصارى قد انتهى أمرهم إما بالدخول في الإسلام أو الهجرة للبلاد المفتوحة والذوبان في المجتمعات المسيحية.

ومما ساعد على ذلك هو أن المسيحي العادي لا يقرأ كتابه المقدس ليعرف أن يسوع اسم وعيسى اسم آخر. وعندما دخلت الأفواج الأولى من سكان

البلاد المفتوحة إلى الإسلام بقي القرآن بعيداً عنهم. وعندما جاء المفسرون عوضاً عن بيان اللبس رسخوا هذه الأساطير ولم يعد هناك مكان للحقيقة التي توارت عن الأنظار.



وهكذا تحول عيسى ابن مريم إلى يسوع.

وبقي السؤال التالي:

كيف ألبس يسوع شخصية عيسى ابن مريم في الكتاب المقدس للمسيحيين ونسب له كثير مما كان يتمتع به عيسى؟

كيف أُلبس يسوع شخصية عيسى ابن مريم؟

شخصيتان ذكرتا في الكتاب المقدس للمسيحيين، أحدهما مشهور جداً وهو من قام بالتبشير بشخصية يسوع المصطنعة، والآخر لا يعرفه المسيحي العادي وكثير من رجال دينهم برغم أنه هو من ابتدع فكرة تلبيس يسوع كثير مما كان يتمتع به عيسى وزاد عليه تأليهه وأنه صلب فداء لذنوب البشر.

وفيما يلي تعريف بالرجلين وما فعلاه.

بولس الطرسوسي (واسمه الحقيقي شاؤول)

بولس (أو كما أصبح يعرف بالقديس بولس) رجل ذو شخصية غامضة، لا يُعرف متى ولد ولا أين نشأ على وجه الدقة، ولذا فالكنيسة لا تحبذ التحدث عن تاريخه أو سيرته الذاتية. وهو يعترف في رسائله بأنه حرباء يتلون حسب المناسبات، فهو يهودي مع اليهود، وروماني مع الرومان.

ظهر في فلسطين فجأة بعد سنوات من موت يسوع، الذي لم يره أو يجتمع به في حياته. وقد ولد في طرسوس ذات البيئة الوثنية الإغريقية، ولم يكن من بني إسرائيل، بل إنه لم يعتنق اليهودية إلا بعد أن أصبح رجلاً، ويزعم أنه أصبح من المتقدمين في تلك الديانة (كما يقول الصليبي في البحث عن يسوع).

وأصبح من أكثر الناشطين للقضاء على أتباع يسوع وحركتهم التحررية، حيث تولى منصب رئيس الوكلاء في القدس المكلف بمتابعة أفراد تلك الحركة (كما ذكر الصليبي في كتابه البحث عن يسوع). فطاردهم وقتل وأدخل الكثير منهم السجن. ويقول لوقا عنه: « وأما شاؤول (إسمه الحقيقي قبل أن يغيره إلى بول) فكان يسطو على الكنيسة، ويدخل البيوت ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن.» (أعمال الرسل: ٨ : ٣)



ويكون أول ما عُرف عنه أنه رجل من رجال أمن الدولة الرومانية في فلسطين، ولديه السلطة التي تخوله لملاحقة أتباع يسوع وسجنهم أو قتلهم في محاولة للقضاء نهائياً على حركتهم التحررية.

وهذا ما يؤكده بولس بلسانه قائلاً: أنا رجل يهودي ولدت في طرسوس كيليكية ولكن ربيت في هذه المدينة مؤدبا عند رجلي غمالائيل على تحقيق الناموس الابوي وكنت غيورا لله كما انتم جميعكم اليوم. واضطهدت (أتباع يسوع) حتى الموت مقيدا ومسلما الى السجون رجالا ونساء. كما يشهد لي ايضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين اذ اخذت ايضا منهم رسائل للإخوة والى دمشق ذهبت لآتي بالذين هناك (منهم) الى اورشليم مقيدين لكي يعاقبوا (أعمال الرسل:٢٢ : ٣ - ٥)»

لكن كيف تحول بولس من مطارد لأتباع يسوع إلى مبشر بيسوع؟

ثانيا سبب تحول بولس

يذكر بولس كيف تحولت مشاعره بقوله إن يسوع ظهر له (في المنام) وهو في طريقه إلى دمشق للقبض على مناصري حركة يسوع هناك، ومنذ تلك اللحظة تحول وأصبح المبشر الأول بما عرف فيما بعد بالمسيحية.

وهذا نص ما قاله الكتاب المقدس: «أما شاؤول فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ يسوع. فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل (توصيات) إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً (من أتباع حركة يسوع) في الطريق رجالاً ونساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم. وفي الطريق حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء. فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال من أنت يا سيد؟ فقال الرب أنا يسوع الذي تضطهده. صعب عليك أن ترفس مناخس. فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن أفعل. فقال له الرب قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي لك أن تفعل (أعمال الرسل: ٩ : ١-٦)

وحسب ظاهر هذا الكلام يكون شاؤول في طريقه لدمشق لمطاردة من فيها من أتباع يسوع والقبض عليهم واقتيادهم لأورشليم ليسجنوا ويحاكموا.



والنص الذي ورد على لسان بولس في أعمال الرسل يقول بأنه قد رأى رؤيا خرافية ظهر فيها يسوع، الذي لم يسبق له أن رآه حياً، ولا يعرف شكله. وطلب منه الكف عن مطاردة أتباعه، وأمره أن يدخل المدينة (دمشق) ليقال له ماذا ينبغي أن يفعل.

ومنطقياً لم يكن على شاؤول إلا أن يكف عن مطاردة أتباع يسوع فقط، لا أن يطلب منه أن يفعل شيئاً آخر. فهو كان يضطهدهم ويقتلهم ويسجنهم، وظهور يسوع المزعوم يفترض أن يكون ليطلب من شاؤول الكف عنهم فقط، أو الانضمام إليهم. لكن ما حدث لشاؤول بعد هذه الرؤيا المزعومة هو أنه تحول إلى مبشر بآراء وأفكار عن يسوع تخالف تماماً ما كان يسوع وأتباعه عليه.

وبدأ شاؤول بنشر أفكاره الجديدة التي منها أن يسوع لم يأت ليخلص اليهود من حكم الغير ويؤسس لهم مملكة مستقلة، كما ورد على لسان يسوع نفسه عندما لم يلتفت للمرأة الكنعانية وقال: لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة (متى: ١٥ : ٢٤)

ولكنه جاء ليخلص الناس من ذنوبهم ويؤسس لهم مملكة في السماء وليس في الأرض. وهذا يعني أن يستكين الناس ومنهم الإسرائيليون، أتباع يسوع، لحكم الرومان ولا يقوموا بثورات تحررية ضدهم كما حاول يسوع، وكما استمر أتباع يسوع يحاولون من بعده عندما ظهر شاؤول.

وقد اندفع شاؤول بحماس منقطع النظير، كما هي عادته، بنشر أفكار كثيرة جعلت الناس تنسى الغاية الأساسية التي جاء من أجلها يسوع لفلسطين، وهي البحث عن تأسيس مملكة وحكم، وتتذكر ما نسبه إليه شاؤول بعد موته فقط.

والتحول من مندفع لمطاردة أتباع يسوع بدرجة مبالغ فيها، إلى استخدام العقل للتوصل لوسيلة فعالة تهدف لنشر أفكار تتعارض مع ما كان يدعوا به يسوع في حياته، والتزم به إخوته وأتباعه من بعده، ونسبة تلك الأفكار المخالفة إلى يسوع نفسه. يجعل من المستحيل التصديق أن شاؤول، الذي يؤمن بالعنف المبالغ فيه لدرجة التطرف في ملاحقة وتقتيل وسجن أتباع حركة يسوع، يمكن أن يتحول إلى رجل يؤمن بأن الحيلة والعمل السلمي الماكر يؤديان إلى نتائج أكثر فتكاً بحركتهم من العمل المسلح.

فالشخص المتطرف في الاندفاع للعنف البدني عادة لا يملك الدهاء الكافي لاستنتاج أن



نهج وسائل سلمية المظهر ستكون فتاكة أكثر في القضاء على الحركة التي يريد القضاء على أفرادها. ولكن لو تم إقناعه بها من قبل الغير فسيتحمس ويندفع لنشرها، مثلما كان متحمساً ومندفعاً لنهج طريق العنف قبل ذلك.

فمن هو ذاك الشخص الذي اهتدى إلى استخدام شاؤول المندفع، لتنفيذ وسيلة أكثر فاعلية للقضاء النهائي على حركة أتباع يسوع التي تهدف لجمع المؤيدين لها للقيام بثورة على الحكم الروماني، كما رغب يسوع، وتأسيس مملكة إسرائيلية في فلسطين؟

والإجابة على هذا التساؤل لازال موجوداً في ثنايا نصوص الكتاب المقدس المسيحي وبالتحديد في سفر أعمال الرسل حيث نقرأ أن يسوع في تلك الرؤيا المزعومة قد طلّب من شاؤول أن يذهب لدمشق ويلتقي رجلاً سيقول له ما ينبغي عليه أن يفعل، وهذا نص ما جاء في أعمال الرسل، الإصحاح الثاني والعشرين: «١٠ فقلت ماذا افعل يا رب؟ فقال لي الرب قم واذهب الى دمشق وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك ان تفعل.١١ واذ كنت لا ابصر من اجل بهاء ذلك النور اقتادني بيدي الذين كانوا معي فجئت الى دمشق.١٢ ثم ان حنّانيا رجلا تقيا حسب الناموس ومشهودا له من جميع اليهود السكان.١٣ أتى اليّ ووقف وقال لي ايها الاخ شاؤول ابصر. ففي تلك الساعة نظرت اليه.١٤ فقال: إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتا من فمه.١٥ لأنك ستكون له شاهدا لجميع الناس بما رأيت وسمعت.١٦ والآن لماذا تتوانى؟ قم واعتمد واغسل خطاياك داعيا باسم الرب.»

إذاً، شاؤول لم ير يسوع في الحلم، ولم يقل له ما هي المبادئ الجديدة التي يجب عليه نشرها. وهذه حقيقة هامة يعترف بها شاؤول نفسه، عرضاً.

ولعل النص قد تم التلاعب به، وليكون ما حدث فعلياً هو أن شاؤول قد التقى رجلاً يهودياً آخر، لا يرغب في رؤية مملكة مستقلة للإسرائيليين في فلسطين، ويتمنى القضاء على حركة أتباع يسوع التحررية التي يبدو أنها استمرت كحركة تحررية سرية بعد موت يسوع، وبقيادة إخوته. وهذا الرجل اليهودي يمتلك الذكاء والدهاء والمكر، وكان متابعاً لنشاطات رجال السلطة الرومانية في ملاحقة أتباع يسوع وعلى رأسهم شاؤول طوال العشر سنوات التي تلت موت يسوع، وتوصل إلى قناعة تامة أن الملاحقة والتقتيل لن يضعفا تلك الحركة، بل سيزيد من تعاطف الناس معها، وانضمام أفراد جدد لها.



وأوصله تفكيره الماكر إلى طريقة سلمية، ولكنها فعالة جداً، وكفيلة بالقضاء على حركة أتباع يسوع من الداخل. ولم يكن هناك شخص أكثر ملائمة للقيام بها من شاؤول ذو الشخصية المندفعة.

وقد ورد نصٌ في أعمال الرسل، يؤكد أن حنّانيا هو الذي زعم أنه رأى يسوع في الحلم، وهو الذي أبلغ شاؤول أن الرب قد اختاره لتنفيذ تلك المهمة، وهو من درّسه كل ما يجب عليه أن يفعل.

وهذا هو النص: «١٠ وكان في دمشق تلميذ اسمه حنّانيا. فقال له الرب في رؤيا: يا حنّانيا. فقال هانذا يا رب. ١١ فقال له الرب قم واذهب الى الزقاق الذي يقال له المستقيم واطلب في بيت يهوذا رجلا طرسوسيا اسمه شاؤول. لأنه هو ذا يصلّي. ١٢ وقد رأى في رؤيا رجلا اسمه حنّانيا داخلا وواضعا يده عليه لكي يبصر. ١٣ فأجاب حنّانيا يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسيك في اورشليم. ١٤ وههنا له سلطان من قبل رؤساء الكهنة ان يوثق جميع الذين يدعون باسمك. ١٥ فقال له الرب اذهب. لان هذا لي اناء مختار ليحمل اسمي امام امم وملوك وبني اسرائيل. ١٦ لأني سأريه كم ينبغي ان يتألم من اجل اسمي. ١٧ فمضى حنّانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه وقال ايها الاخ شاؤول قد ارسلني الرب يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه لكي تبصر وتمتلئ من الروح القدس. ١٨ فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور فأبصر في الحال وقام واعتمد. ١٩ وتناول طعاما فتقوى.» (الإصحاح التاسع)

وهذا هو شاؤول ينقل لنا بلسانه ما حدث في دمشق، قائلاً: ثم إن حنّانيا رجلاً تقياً حسب الناموس ومشهود له من جميع السكان (أي أنه رجل دين يهودي متعصب) أتى إلي ووقف وقال لي أيها الأخ شاؤول أبصر ففي تلك الساعة نظرت إليه فقال إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتاً من فمه. لأنك ستكون له شاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت (أعمال الرسل: ٢٢ : ١٢-١٥)

إذاً هو حنّانيا الذي أخضع شاؤول لعملية غسيل دماغي، أوهمه بواسطتها أن إله أبناء اليهود، وليس يسوع، قد اختاره لكي ينشر بين الناس أفكاراً جديدة عن يسوع لم يقل بها في حياته ولم يسمع بها أتباعه.



ويكون ما حدث لشاؤول ليس حلماً جعله يغير استراتيجيته حيال أتباع يسوع، ولكنه ذهب إلى دمشق لملاحقة بعض من ينتمون لحركة إخوة يسوع التحررية المحظورة. ولم يكن تغير موقف شاؤول ناتج من قناعته الشخصية، لأن الذي يؤمن بالقضاء على المعارضين بالبطش يعجز عن التفكير بطريقة أخرى، تعتمد على المكر والدهاء، ولكنه تبنى دوراً رسمه له شخص ماكر.

خطة حنّانيا

استغرق تلقين شاؤول الدرس عدة سنوات، وتم تنفيذ الخطة على عدة مراحل:

المرحلة الأولى «الإقناع»

إقناع شاؤول المضطهد الأول لحركة يسوع، أن يسوع قد ظهر لحنّانيا في المنام متزعجاً من اضطهاد شاؤول لأتباعه، ويطلب منه أن يكف عن ذلك، كما يبلغه أن رب اليهود قد اختاره لكي يكون المبشر بمبادئ عن يسوع، مات ولم يبلغها لأتباعه.

وقد صدق شاؤول أن حنّانيا قد رأى يسوع في المنام فعلاً، وقد أختارك رب اليهود. فأعلن إقلاعه عن ملاحقة أتباع يسوع واستعداده لأن يفني بقية حياته في التكفير عن أفعاله السابقة ضدهم. وهو ما يعني أن حنّانيا قد نجح في ترويض شاؤول لقبول وتبني أي مبادئ يتم تلقينها له، ونشرها على أنها لخدمة رب الآباء الذي اختاره لهذه المهمة، دون تساؤل عن صدق هذه المبادئ أو عقلانيتها.

وهكذا أصبح شاؤول عجينة لدنة بين يدي حنّانيا يشكله كيف يشاء.

المرحلة الثانية «ولادة المبادئ»

توصل حنّانيا إلى أن أفضل ما يمكن أن ينسب ليسوع، وهو الرجل الغريب عن فلسطين لأنه جاء منذ سنوات قليلة إليها، هو ما نسبه بعض اليهود في غابر الأيام لأحد أنبياء بني إسرائيل، عيسى، الذي ولد بدون أب، فظن الناس أن والده هو الله، وهي عقيدة لم يسمع بها الناس في فلسطين لأن عيسى كان يعيش في جزيرة العرب، ومات قبل مئات السنين من العصر الذي عاش فيه يسوع. لكن حنّانيا اليهودي سمع بها لأنه على علاقة باليهود داخل جزيرة العرب.



وبما أن الهدف هو القضاء على حركة يسوع التحررية التي يقوم عليها إخوته، والتي تسعى لجمع مؤيدين لهم ليتمكنوا من الثورة على الحكم الروماني في فلسطين وتأسيس الدولة التي صلب بسببها يسوع. فإن من الملائم أن ينسب ليسوع أنه لم يأت ليؤسس دولة دنيوية ولكنه ابن الرب الذي جاء ليقتل على الصليب بإرادة والده (الرب) لكي يخلص الناس من ذنوبهم. فهو لم يكن المخلص للإسرائيليين فقط من حكم الغير، ولكنه المخلص للناس جميعاً من الذنوب.

ولهذا توجب على حنّانيا أن يلقن شاؤول عقيدة النصارى، الغير معروفة لديه، لأنه ولد ونشأ في طرسوس البعيدة عن جزيرة العرب مسافة وثقافة، وعاش في فلسطين التي تنتشر فيها لغات وثقافة يونانية رومانية. وما بقي من عقائد النصارى مكتوب بلغة من لغات جزيرة العرب التي لا يفهمها شاؤول.

ويبدو أن حنّانيا احتاج لبعض المعلومات الإضافية عن عقيدة النصارى، فبعث شاؤول بكتاب إلى موطنهم في جزيرة العرب، لجلب ما يمكن جلبه من معلومات مكتوبة، دون أن يخشى من أن يكتشف شاؤول ما يخطط له لأنه يجهل تلك اللغات.

وقد سافر شاؤول بالفعل إلى الجزيرة العربية كما يقول هو بنفسه: «ولكن لما سر الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ لأبشر به بين الأمم، للوقت لم أستشر لحماً ودماً ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطلقت إلى العربية، ثم رجعت أيضاً غلى دمشق. ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم (غلاطية: ١ : ١٥ – ١٨)

لقد ذهب شاؤول إلى العربية يحمل رسالة من حنّانيا إلى يهود هناك، وقد عاد شاؤول ببعض اللفائف المكتوبة وسلمها حنّانيا.

المرحلة الثالثة « التلقين»

ما يؤيد ما ذهبنا إليه أن حنّانيا هو من أوحى لشاؤول أن الرب يدعوه ليكون رسوله للتبشير بالصورة الجديدة ليسوع، أن شاؤول لما عاد من جزيرة العرب، لم يذهب مباشرة لأورشليم، ولم يبدأ بنشر مبادئه، لأنه لا يعرف ماذا سيبشر به حتى تلك اللحظة. بل ذهب إلى دمشق لمقابلة حنّانيا وسلمه اللفائف التي جلبها من بلاد النصارى. وهذا ما يعترف به شاؤول بقوله: « بل انطلقت إلى العربية، ثم رجعت أيضاً إلى دمشق. ثم بعد ثلاث سنين صعدت



إلى أورشليم (غلاطية: ١ : ١٧ – ١٨)

إذا، شاؤول أحضر لفائف مكتوبة من جزيرة العرب (العربية) وسلمها إلى حنّانيا، وبقي شؤول مع حنّانيا في دمشق طوال ثلاث سنوات ولم يعد إلى أورشليم. وخلال السنوات الثلاث درس حنّانيا تلك اللفائف بكل عناية، واستقر رأيه على أن يتم تلبيس يسوع كل ما عرفه عن شخصية عيسى ابن مريم كما اعتقد النصارى القدامى، مع إضافات استوجبها صلب يسوع. وخلط ذلك بما كان يعرف عن الوثنيات المنتشرة في فلسطين وآسيا الصغرى وسوريا وما حولها في ذلك الزمن. وقد بقي شاؤول في دمشق يتلقى ما يلقيه حنّانيا في روعه، لمدة ثلاث سنوات، كما جاء في كلام شاؤول نفسه السابق: « بل انطلقت إلى العربية، ثم رجعت أيضاً إلى دمشق. ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم (غلاطية: ١ : ١٧ – ١٨)

المرحلة الرابعة «التبشير»

وبعد أن أستوعب شاؤول ما سيقوم به جيداً، بعد ثلاث سنوات من التوجيه المركز من حنّانيا، غير اسمه إلى بول (بولس) ولابد أن تغيير الاسم تم بناءً على توجيه حنّانيا وضمن خطته الماكرة؛ ليتم حبك المؤامرة، وينسى الناس شاؤول القديم، الذي ارتبط اسمه بمحاربة حركة أتباع يسوع.

وما إن أعطى حنّانيا الضوء الأخضر لشاؤول (بولس) بالبدء بنشر الأفكار الجديدة حتى سارع بالجهر بها وهو لا يزال في دمشق. ويبدو أن اليهود الذين في دمشق لم يعجبهم ما سمعوا من شاؤول فتآمروا على قتله، لأنه تجديف وكفر مخالف لمعتقداتهم. ولكن بعض من يعمل مع حنّانيا استطاعوا تهريبه خارج أسوار المدينة ليلاً. وهذا نص ما ورد في أعمال الرسل: « وكان شاؤول مع التلاميذ الذين في دمشق اياما.٢٠ وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح ان هذا هو ابن الله.٢١ فبهت جميع الذين كانوا يسمعون وقالوا أليس هذا هو الذي اهلك في اورشليم الذين يدعون بهذا الاسم. وقد جاء الى هنا ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة.٢٢ واما شاؤول فكان يزداد قوة ويحيّر اليهود الساكنين في دمشق محققا ان هذا هو المسيح.٢٣ ولما تمت ايام كثيرة تشاور اليهود ليقتلوه.٢٤ فعلم شاؤول بمكيدتهم. وكانوا يراقبون الابواب ايضا نهارا وليلا ليقتلوه.٢٥ فأخذه التلاميذ ليلا وانزلوه من



السور مدلين اياه في سل.»

((التلاميذ الذين أدلوه في سلة خارج أسوار دمشق هم من تلاميذ حنّانيا)).

ومن هناك انطلق إلى أورشليم لمقابلة إخوة يسوع الذين يترأس حركتهم يعقوب، عله يقنعهم بالتخلي عن مبادئهم التحررية واعتناق الأفكار الجديدة عن يسوع، ولكنه لم يفلح.

وهذا ما يقوله شاؤول عن تلك الرحلة لأورشليم:١٨ ثم بعد ثلاث سنين صعدت الى اورشليم لأتعرّف ببطرس فمكثت عنده خمسة عشر يوما.١٩ ولكنني لم ار غيره من الرسل الا يعقوب اخا الرب (غلاظية:١)

ولم يبق في أورشليم سوى خمسة عشر يوماً، كما يقول في النص السابق.

أما سبب خروجه من أورشليم فيبدو أنه كان بأمر من حنّانيا، الذي لا يريده أن ينشر مبادئه بين اليهود، وهذا هو الدليل على لسان شاؤول نفسه في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل: «١٧ وحدث لي بعدما رجعت الى اورشليم وكنت اصلّي في الهيكل أني حصلت في غيبة.١٨ فرأيته قائلا لي أسرع واخرج عاجلا من اورشليم لأنهم لا يقبلون شهادتك عني.»

ويكون شاؤول لم ير رؤياً (غيبة) ولكنه رأى رجلاً حقيقياً أرسله حنّانيا وطلب منه الخروج من أورشليم. وها هو شاؤول يخبرنا أين ذهب: «وبعد ذلك جئت الى اقاليم سورية وكيليكية.» (غلاظية:١:٢١)

وقرار البدء بنشر المبادئ الجديدة حول شخص يسوع في أرض لا تنتشر فيها اليهودية، غاب عن شاؤول الضيق الأفق، بينما كان واضحاً في ذهن المدبر حنّانيا، الذي يرمي للقضاء على حركة تحررية، وليس نشر ديانة جديدة بين اليهود قد تشكل خطراً على عقيدتهم اليهودية.

واختيار كيليكية كان لأسباب مقنعة، منها:

- أنها البلد التي ولد فيها شاؤول، والتي معظم سكانها يعتقدون معتقدات مختلفة، إغريقية ووثنية.
- إذا كان بعض سكان تلك البلاد البعيدة عن أورشليم قد سمع عن محاولة يسوع الثورية الفاشلة ضد الرومان، فقد أصبحت ذكراها ضبابية لديهم، لأنه قد مضى على صلبه



أكثر من عشر سنوات. ولأن معظم سكانها لم يكونوا من اليهود، فهي تمثل بيئة مناسبة للدعوة إلى يسوع مخالف ليسوع الحقيقي. وعندما تنتشر تلك المبادئ فسرعان ما يصل تأثيرها إلى أورشليم، وستنمو على حساب تناسي الناس لشخص يسوع الحقيقي، وهو الهدف الذي سعى حنّانيا لتحقيقه.

وبالفعل نشط شاؤول في دعوته، ويبدأ الناس يتسامعون عن شخص ولد في فلسطين قبل أكثر من أربعة عقود من الزمن، من أم عذراء بعد أن التقاها الروح القدس، لتلد يسوع الذي هو ابن الله الوحيد والذي نشأ كما البشر لكي يتعرف الله على نفسيات وطبائع البشر، لأنه لم يتمكن من فهم لماذا استمروا باقتراف الخطايا منذ أن أقدم آدم على عصيان ربه وطاعة الشيطان وتناول الفاكهة التي أمره ربه بعدم أكلها أو الاقتراب منها. وقد اقتنع الأب أن البشر لا يمكنهم الامتناع عن اقتراف الخطيئة، لأنهم جبلوا على ذلك، ولأن الأب هو من خلقهم بهذه الصفة، فيجب عليه أن يصحح خطأه، لأنه لا يمكن أن يحاسب

الناس على اقتراف الخطايا، وقد خلقهم ولديهم صفة اقتراف الخطيئة، التي لا يستطيعون منع أنفسهم بأنفسهم عنها. لذا فقد قرر الأب أن يقتل ابنه الوحيد يسوع، لكي يكون دمه فداء لذنوب وخطايا ومعاصي البشر، وبالتالي فلم يعد فعل الأعمال الصالحة والعبادات هو المعيار الذي بموجبه سيحصل الناس على النعيم أو العذاب في الآخرة كما يقول دين اليهود، واستبدل ذلك بأن الخلاص من العقاب والحصول على النعيم يكون بالإيمان بأن يسوع، ابن الله الوحيد، وأنه مات على الصليب ليس لأنه حاول الثورة على الرومان، كما يحاول إخوته ومن تبعهم الترويج له، ولكن لأن الأب، قد قرر ذلك رأفة بعباده من البشر.

وهكذا بفضل دم يسوع أصبحت الحياة بالنسبة للمسيحي أكثر متعة، ولم يعد مطالباً بأي عبادات أو واجبات دينية، مع ضمان نعيم الآخرة.

وبعد أربع عشرة سنة من النشاط المحموم في بقاع كثيرة عاد شاؤول أو بولس إلى أورشليم، وهذا نص كلامه: ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضاً (أي مرة أخرى) إلى أورشليم مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً. (أعمال الرسل: ٢ : ١- ٢)

ولكن بولس لم يرحب به رجال الدين اليهود، واستمروا يطاردونه، حتى مات أو قتل. ولن نتتبع ما حدث له لأنه لا يهم موضوعنا.



ويكون حنّانيا هو العقل المدبر لبدعة يسوع الجديد، وبولس هو المنفذ لنشر تلك البدعة. ويبدو أن حنّانيا قد مات عندما كان بولس في كيليكية، لأن بولس عندما عاد لم يذهب إلى دمشق لملاقاته، ولم يذكر أنه رآه أو اجتمع به بعد ذلك.

وهكذا بدأ بولس بنشر عقيدة جديدة تعتمد على تلبيس يسوع ما ليس فيه، وأصبحت هذه العقيدة الأساس الذي قامت عليها المسيحية فيما بعد.

- فهو أول من أطلق على يسوع لقب المسيح (Christ). وذلك عندما قال: فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه رباً ومسيحاً.(أعمال الرسل: ٢:٣٦)
- وهو أول من قال بأن يسوع ارتفع إلى السماء، وذلك فيما زعمه بأن يسوع بعد أن تحدث إلى بعض أتباعه:

ارتفع وهم ينظرون. وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا يشخصون الى السماء وهو منطلق إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس ابيض. وقالا ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء. إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا الى السماء. حينئذ رجعوا الى اورشليم. (أعمال الرسل: ١: ٦-١٢)

وهو من قال بأنه جلس على يمين الرب (أبوه)، وأن يسوع هو ابن الرب، وأن أمه كانت عذراء عندما حملت به. وهو من أمر بإلغاء الختان والسماح بأكل لحم الخنزير وشرب الخمر.

- وهو الذي ألغى جميع التشريعات الدينية التي كان اليهود يمارسونها على أنها جاءت في التوراة، واعتبر الإيمان بيسوع على أنه المخلص كاف وحده لنجاة المرء، ولا حاجة لأي أعمال أو تشريعات دينية أخرى، وهذا ما قاله: نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بالإيمان بيسوع المسيح. آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس. لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما. (غلاطية: ٢: ١٦)

((الناموس هو التشريعات الدينية الواردة في التوراة)).

ويقول: « ولكن إن كان بالناموس بر، فالمسيح مات بلا سبب.» (غلاطية:٢: ٢١)

أي أنه إذا كانت تشريعات الدين تنجي من النار فإن موت يسوع على الصليب لم يكن لخلاصنا، ولا فائدة منه لنا. ((يعني أن التمسك بتعاليم اليهود الدينية يجعل المسيحية بلا



معنى، لأن تعاليم اليهود تقوم على التوحيد بينما المسيحية البولسية تقوم على التثليث))
وهكذا تم إلغاء كل التشريعات التي كان يدين بها اليهود.

ونشط بول في تحركاته التبشيرية ما بين عامي (٤٠ – ٧٠م) فقام بالاتصال بروما وبآسيا الوسطى وبعدد من المناطق الأخرى، ويحتفظ لنا كتاب المسيحيين المقدس بـ ١٣ رسالة تنسب لبولس تضمنت تشريعات ومبادئ المسيحية الحالية.

وفي الفترة من (٧٠م) إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، ظهرت، فيما يظن دارسوا تاريخ الكتاب المقدس، الكتب الرئيسية للعهد الجديد. وهي كتب تاريخية تتحدث عن الأحداث التي وقعت إبان وجود يسوع، والتي عدلت لتوافق المسار الذي استنه بولس، ومع ذلك بقيت تحتوي على كثير من الحقائق، وقد أوردنا بعضها في بحثنا هذا، لكن رجال الدين يأولون معناها لتتفق مع مبادئ المسيحية الشاؤولية، والمسيحي العادي لا يقرأ كتابه المقدس، ولو قرأ فلا يفكر بما يقرأ. ولم يعد يسمع الناس عن حركة يسوع المُطالِبة بتأسيس مملكة إسرائيلية في فلسطين، وحل محلها تلك العقيدة التي رسمها حنّانيا ونشرها بولس وسماها المسيحية.

وطوال ثلاثة قرون لم يتقبل معظم الناس مبادئ بولس الجديدة، ولم يكتب لدعوته النجاح والانتشار كديانة إلا بعد أن اعتنقها الحاكم الروماني قسطنطين في بداية القرن الرابع الميلادي، وعمل على إدخال مناسبات وأعياد دينية وثنية كان يعتقدها في دينه السابق إليها، ليكمل الصورة الحالية للمسيحية التي انتشرت في كل أوروبا وأجزاء أخرى من العالم بقوة الدولة الرومانية صاحبة المبدأ الشهير «القوة تنشئ الحق وتحميه».

وفي الفقرة القادمة سنتعرف على كيف انتشرت المسيحية وكيف تطور المعتقد المسيحي.

مرحلة قسطنطين

العقيدة المسيحية التي ابتدعها اليهودي حنّانيا «الدمشقي»، ونشرها يهودي آخر هو «بول»، وجدت للقضاء نهائياً على دعوة يسوع وإخوته من بعده، الهادفة إلى تأسيس مملكة إسرائيلية لليهود. ولتحل محلها فكرة أن يسوع لم يأت ليخلص اليهود من حكم الرومان ويقيم مملكة لهم، بل جاء ليخلص العالم من ذنوبهم، من خلال دمه المسفوك على الصليب، وبالتالي فمملكة يسوع ستكون في الآخرة، وليست في الدنيا، كما يحلم الإسرائيليون.



وعندما وصل قسطنطين إلى حكم الإمبراطورية الرومانية في العام ٣١٣ كانت مسيحية بولس قد وصلت إلى روما الوثنية. لذا ارتأى الإمبراطور أن يجمع الناس تحت مسمى ديني واحد درءً للمشاكل، فأعلن اعتناقه للمسيحية، ثم عمل على تبنيها ممارسات ومناسبات دينه الوثني السابق، وبدأ بإجبار الغير على اعتناق معتقده الجديد.

ونتيجة لذلك أمر في العام ٣١٨ بقتل أساقفة يتحدرون من اقرباء يسوع، بعد مناظرتهم لأساقفة من روما، لأنهم يؤمنون ببشرية يسوع ويعلمون أنه لم يولد من عذراء ولم يأت ليخلص الناس من ذنوبهم بدمه، بل جاء ليخلصهم من حكم الرومان وتأسيس مملكة لهم في فلسطين.

وهي أفكار تختلف عن مسيحية روما التي يريد قسطنطين أن ينشرها في العالم.

وفي العام ٣٢٥ م عقد أول مجمع كنسي في نيقيه بأمر قسطنطين الذي ترأس جلسات ذلك المجمع، من أجل فرض عقيدة أثناسيوس الرومانية (العقيدة الكاثوليكية فيما بعد) وسحق كل من يعارضها[١].

وكان من أهم القرارات التي أصدرها هذا المجمع ما يلي:

١. أن الذي يترمل من الكهنة لا يتزوج مرة آخرى.

٢. إقرار قانون الإيمان المسيحي الذي ينص على النقاط التالية:

- الإيمان بإله واحد، آب ضابط للكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى.

(المقصود هنا هو الأب «الله»)

- الإيمان برب واحد يسوع المسيح. وهذا المسيح هو ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور.

(هنا يسوع رب واحد، وفي نفس الوقت مولود وابن للإله الأب)

- وهو (أي يسوع) إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق.

(وهو ما يعني انتفاء أن يكون الله إله واحد كما جاء في الفقرة الأولى من هذا القانون العجيب المستعصي على الفهم)

---

١ المصدر: تاريخ الكنيسة/ الحروب بين الموحدين والثالوتيين - كنائس الله المسيحية ورابط الموقع: http://www.originalcatholicchurch.org/arabic/s/p268.htm



- وهو (أي يسوع) مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، وبه كان كل شيء.

(أي بواسطة يسوع خلق كل شيء، فهل هذا يعني أنه هو الخالق لكل شيء وليس الأب)

- ومن أجل البشر وخلاصهم من الذنوب، نزل من السماء وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء، وصار إنساناً وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي.

(أي أن يسوع كان يعيش في السماء منذ الأزل، ولأن الله عجز عن منع البشر من التوقف عن الخطيئة، ولأنه لم يستطع أن يفهم لماذا يصرون عليها، فقد قرر أن يتعرف على خلقه بأن بعث فيهم ابنه الوحيد يسوع ليعيش بينهم كبشر، حتى يتمكن الأب من التعرف على مخلوقاته.

ولأنه يجهل مشاعر خلقه منذ الولادة إلى الممات قرر الله أن يمر ابنه بكل الأطوار التي يمر بها خلق الأنسان.

- وقد تألـم ومات وقُبر. (الإله يتألم ويموت ويقبر؟)

- ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وهو الآن جالس عن يمين الآب. (لم يقل هذا القانون هل قام الرب يسوع من الموت من تلقاء نفسه، أم أن الأب قد أعاد إليه الحياة، لأنهم لو قالوا قام من عند نفسه فهو مناقض لكونه مات لأن الميت لا يحيط بما حوله، وإن قالوا أعاده الأب للحياة فهذا يعني أنه مخلوق)

- وسينزل إلى الأرض بمجدٍ عظيم ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه. (أي أنه سيكون هو الحاكم بين الناس على الأرض، ويبنهم يوم القيامة، ويحتل ما تفرد الله به)

وبناء على هذه العقائد التي شرعتها الكنيسة فإن يسوع وإخوته وأمه لم يكونوا مسيحيين، وبالتالي فلن ينالوا الحياة الأبدية، لأنهم ماتوا قبل أن تولد هذه المبادئ بثلاثمئة سنة.

ومنذ ذلك الوقت قامت حملة مسعورة بحرق وإتلاف كل الكتابات التي تقول بأن ليسوع طبيعة بشرية وأنه لم يولد من عذراء، وحلت محلها أربعة كتب هي المعروفة الآن بكتب متى ولوقا ومرقس ويوحنا، إضافة لرسائل بولس وبعض الرسائل الأخرى التي يحتويها كتاب المسيحيين المقدس الحالي. وحتى تلك الكتب تعرضت نصوصها للحذف والإضافة لتتوافق مع العقيدة الجديدة، ولم تبق على حالها المعدلة التي كانت عليها زمن كتابتها.



ونتيجة لجهود قسطنطين والكنيسة الكاثوليكية في روما تم تبني المسيحية للعديد من المناسبات والأعياد الوثنية، والتي سنمر على أهمها في لقاء قادم بعون الله.

الأطوار التي مرت بها المسيحية عبر المجامع الكنسية

توالى عقد المجامع الكنسية عبر القرون التالية لعصر قسطنطين، وفي كل مرة ينعقد أحدها يتمخض عنه قرارات ملزمة بتغيير لعقيدة مسيحية أو إضافة أخرى، وهذه أهم هذه المجامع التي عقدت عبر التاريخ، وكيف ساهمت بتغيير وتطور الديانة المسيحية حتى أصبحت بالصورة التي هي عليه اليوم.

مجمع القسطنطينية الأول في العام ٣٨١

حتى قبل وقت انعقاد ذلك المجمع كان المسيحيون يدينون لإلهين إثنين، هما: الأب والابن (يسوع) ولكن قرارات مجمع القسطنطينية الأول نصت على « أن الروح القدس هو الرب المحيي، المنبثق من الآب، وهو مع الآب والابن يُسجد له ويُمجد.»

ولكن رجال الدين المسيحي لم يبينوا معنى كون الروح القدس، الإله الثالث الجديد، «منبثقاً من الأب» وهل يعني أنه أخ ليسوع بطريقة ما، أم أنه مخلوق من الأب، وبالتالي فهو أقل درجة من الأب ومن ابنه يسوع.

وهكذا أصبح قانون الإيمان المسيحي ينص على الإيمان بوجود ثلاثة آلهة، هم الأب، وابنه المولود الذي لم يخلق، ومعهم الإله الجديد، الروح القدس، المبهم الشخصية، والذي خرج أو انبثق من الأب، ولم يولد، وذلك بعد أكثر من ٣٥٠ سنة على موت يسوع.

مجمع إفسيس عام ٤٣١

عقد هذا المجمع لمناقشة بطريك القسطنطينية، نسطور، حول إنكاره لألوهية يسوع، وإنكار أن يكون للإله أم بشرية، بحجة أن ما يولد من الجسد فهو جسد، وما يولد من الروح فهو روح، وأم يسوع ولدت يسوع كإنسان.

وقد أقر المجمع أن ليسوع طبيعة ومشيئة إلهية واحدة. وأن أمه عذراء ولدته كإله، وبالتالي فيجب أن تدعى أم الإله.

وكان من نتيجة ذلك أن أعلنت كنيسة القسطنطينية انشقاقها عن عقيدة كنيسة روما،



وأصبح هناك عقيدتين للمسيحيين حول المسيح، هما:

١. عقيدة كنيسة روما تؤمن بأن يسوع إله وأمه أم الإله، وهي العقيدة التي عرفت فيما بعد بالكاثوليكية.

٢. عقيدة كنيسة القسطنطينية التي تؤمن بأن يسوع إنسان ولد من إمرأة ولكنه أداة للقدرة الإلهية، وهي العقيدة التي سميت بالأرثوذوكسية.

مجمع إفسيس الثاني عام ٤٤٩

وأهم قراراته تمثلت بإعلان أن ليسوع طبيعتين، واحدة إلهية (لاهوت) وأخرى بشرية (ناسوت) وقد امتزجتا معاً، وبالتالي فجسده ليس مساو لأجساد البشر.

مجمع خلقيدونية عام ٤٥١

ومن أهم قرارته:

- إلغاء قرارات المجمع السابق، واعتبار أن ليسوع طبيعتين ومشيئتين، إلهية وبشرية.
- تلى ذلك خلاف آخر بين الكنائس حول الإيمان بالروح القدس كثالث التثليث، والمضاف لقانون الإيمان المسيحي، حيث أضافت الكنيسة الأرثوذوكسية عبارة: «أن الروح القدس منبثق من الأب. بينما أضافت الكاثوليكية عبارة: أن الروح القدس منبثق من الأب والابن».

فأصبح هناك عقائد مسيحية مختلفة هي:

- عقيدة كنيسة الروم الأرثوذوكسية التي تؤمن بطبيعة واحدة بشرية ليسوع، متحدة مع الصفات الإلهية دون اختلاط، وأن الروح القدس منبثق من الأب فقط.
- عقيدة كنيسة القسطنطينية التي تؤمن أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب فقط.
- عقيدة كنيسة روما الكاثوليكية التي تؤمن أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب والابن معاً.
- ثم انفصلت كنيسة أخرى عن الكاثوليكية بزعامة البطريك يوحنا مارون، الذي أعلن في العام ٦٦٧ أن ليسوع طبيعتين ومشيئة واحدة، وأصبحت تلك العقيدة تعرف



بالمارونية على اسم مؤسسها، وهي التي تنتشر في لبنان حالياً.

وتتابع انعقاد المجامع الكنسية، وفي كل اجتماع كانت تضاف عقائد وتشريعات جديدة للمسيحية.

- **تقرر في مجمع روما المنعقد عام ١٢٢٥ أن للبابا حق تملك الغفران ومنحه لمن يشاء.**
- **وأصبح البابا معصوماً بعد انعقاد مجمع روما في العام ١٨٦٩.**

ومن أهم الانشقاقات التي حدثت في المسيحية، الحركة الإصلاحية التي تزعمها مارتن لوثر في القرن السادس عشر، والتي كانت وراء ظهور الكنيسة البروتستانتية التي من أهم معتقداتها ما يلي:

- الإيمان بأن ليسوع مشيئتين وطبيعتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب والإبن معاً، مثل الكاثوليك.

لكنهم لا يؤمنون بالاعتراف للكاهن بل إلى الله مباشرة، ولا يؤمنون بأسرار الكنيسة السبعة، ولا تحول قطعة الخبز والخمر الذي يقدمه الكاهن للناس في الكنيسة إلى دم وجسد يسوع.

- يؤمنون بأن يسوع سيعود وسيقضي على الشر، ويحكم العالم ألف سنة بسلام، أو ما يعرف عند اليهود بهر مجدون.

وقد انقسمت البروتستانتية إلى عقائد مختلفة مثلها مثل الكنائس الأخرى، وظهرت فرق بروتستانتية تؤمن بأن اليهود شعب الله المختار، وأن هناك عهد من الله لتوطينهم في فلسطين، وربط الإيمان بالمسيحية بالإيمان أن يسوع سيعود ليؤسس دولة صهيونية في فلسطين والقضاء على معارضيهم الأشرار، وهو ما يعرف بهرمجدون عند اليهود.

ومن البروتستانت ظهر ما يعرف اليوم بالمسيحيين الصهاينة، ومن أهم تأثيراتهم على الكنيسة أن المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد عام ١٩٦٥ قد أعلن تبرئة اليهود من دم يسوع.

ثم ظهرت فرق أحدث، ومنها:

- المسيحيون المولودون من جديد (Born Again Christians)
- وشهود ياهوه (Jehovah's Witnesses).



- المورمون.

وغيرها مئات الفرق المتباينة اليوم.

وليتذكر القراء أن المسيحيون يعتبرون كتاب اليهود المقدس كتاب لهم، برغم أن كتاب اليهود يدعوا للتوحيد بينما تؤمن المسيحية بالتثليث. وبناءً على هذا، فالمسيحي عبارة عن ربع مسيحي وثلاثة أرباع يهودي. ولا يمكن فصل المسيحية عن اليهودية.

إنجيل عيسى

الإنجيل كلمة عربية قديمة من الجذر «نجل» والنجل هو الولد، والإنجيل ليس رسالة منفصلة مستقلة، ولكنه نِجْلٌ للتوارة، ومجدد لها. لكن المفسرون تبنوا ما قال المسيحيون، ورسخوه على أنه الحقيقة.

والمسيحيون يقولون إن كلمة إنجيل الواردة في القرآن مقتبسة من كلمة يونانية هي «Euanghilion» والتي تتكون من مقطعين: «Eu» وتعني جيد أو حقيقي. والمقطع الثاني: «Anghillon» ويعني بشارة. وهذا الوصف لكتب المسيحيين لم يقل به مؤلفو الكتب المسيحية: متى، لوقا، يوحنا، ومرقس، ولم يعرفوه في حياتهم. وإنما سميت به كتب المسيحيين من قبل الكنيسة بعد مئات السنين من تأليف تلك الكتب، وبعد ترجمتها لليونانية. ولعل جستن مارتر (الشهيد) هو أول من استخدم كلمة «Anghillon» وذلك في العام (١٥٠ ميلادية)[1].

ولم يستخدمها يسوع الذي كان لا يعرف اليونانية المنتشرة في بلاد الشام، ولكن لغته كانت الآرامية كما تقول الكنيسة. وبالتالي فالكلمة اليونانية التي زعموا أنها أصل كلمة «إنجيل» العربية غير صحيح.

بل إن كلمة «Anghelos» اليونانية تعني «ملك (أحد الملائكة)» أو روح وشبح، ولا علاقة لها بالإنجيل.

والكلمة المستخدمة لكتب متى ويوحنا ولوقا ومرقس في اللغة الإنجليزية هي: «Gospel»

---

١ قاموس الكتاب المقدس – دائرة المعارف الكتابية المسيحية الذي تنشره الكنيسة القبطية على هذا الرابط:
http://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/Kamous-Al-Engeel-index.html



وتعني التبشير والنشر. فيقال: The Gospel According to Matthew, Mark, Luke, and john.

لكنها تكتب بالعربية: إنجيل متى، مرقس، لوقا، يوحنا. للإيحاء أن ما كتبه هؤلاء هو الإنجيل. ولتوخي الأمانة الأدبية في الترجمة فيجب أن تكون عناوين الكتب الأربعة بالعربية، كما يلي: البشارة حسب رواية متى، أو لوقا، أو مرقس، أو يوحنا.

والخلاصة: إنجيل كلمة عربية تصف رسالة عيسى بأنها نجل للتوارة ومجددة لها، وليس هناك كتاب مكتوب اسمه الإنجيل، لأن عيسى كان يذكر الناس بتعاليم التوارة التي كتب موسى ولم يقم بإعادة كتابتها.

ولا علاقة للإنجيل (الكلمة العربية) بالكلمة اليونانية التي تعني البشارة والتي بدأ استخدامها للإشارة لكتب المسيحيين بعد (١٥٠) سنة من عصر يسوع، ثم اعتمدتها الكنيسة بعد ذلك. ولم يسمع بها يسوع ولا من في عصره، ولم يستخدمها.

وبعد فقد وصلنا لنهاية بحثنا وفيما يلي تلخيص لما سبق:

المحصلة النهائية

برغم أن دعوة يسوع لإقامة دولة إسرائيلية قد لاقت رواجاً عند بعض الإسرائيليين البسطاء ممن كانوا يعيشون في فلسطين، أملاً في أوضاع أفضل من أوضاعهم المعيشية التي كانوا عليها تحت الحكم الروماني، إلا أن كهنة ورجال دين اليهود من نسل غير إسرائيلي كان لهم رأي مخالف. لأنهم لا يريدون أن يتولى عليهم ملك إسرائيلي، كونهم مستفيدون من وجود الحكم الروماني في فلسطين ويديرون معبد أورشليم. فوقفوا ضد دعوة يسوع حتى استطاعوا أخيراً القبض عليه ومحاكمته بتهمة التخطيط لثورة على الحكم الروماني في البلاد، مما جعل الحاكم بيلاطس يصادق على حكمهم بالموت على يسوع ويأمر بتنفيذه صلباً.

وكان يمكن ليسوع أن يصبح ملكاً لو كان الفريسيون والكهنة من نسل إسرائيلي، حيث سيتضامنون مع دعوته، ومن المحتمل أن يوافق الرومان على تنصيبه ملكاً على اليهود في فلسطين تحت مظلة الحكم الروماني. ولو تم ذلك فلن يسمع الناس على الإطلاق بما أصبح يعرف فيما بعد بالديانة المسيحية.

كما أنه كان بالإمكان أن يعفو الزمن على ما حدث ليسوع ويتناسى التاريخ ما صاحب



وجوده من أحداث، وإن رويت فستروى باقتضاب عن رجل غير معروف قدم لفلسطين بحثاً عن استعادة ملك اسرائيلي ولكنه قبض عليه وقتل، لولا أن إخوة يسوع وأتباعه المخلصين قد استمروا في اجتماعاتهم ونشر دعوتهم بسرية على أمل أن تحين لهم الفرصة يوماً ويتمكنوا من تأسيس مملكتهم المنتظرة، عندما تتغير الظروف في فلسطين. وهذا ما يفسر بقاء إخوة يسوع في فلسطين وعدم عودتهم لبلادهم بعد صلبه، وإصرارهم على تكوين تجمع لهم هناك.

وكان يمكن ألا يتمكن أولئك النفر من الثورة على الملك ومع الزمن تنتهي تجمعاتهم وينساهم التاريخ، لولا أن أحد أشد المتحمسين اليهود للدفاع عن مبادئ الكهنة والفريسيين، والمؤيدين لبقاء الحكم الروماني في فلسطين، قد أخذ على عاتقه محاربة أتباع وإخوة يسوع وملاحقة كل من ينتمي إلى تجمعهم. وبناءً على مشورة من رجل دين آخر في دمشق واسمه (حنّانيا)، قرر ذلك اليهودي المتحمس واسمه « شاؤول الذي غيره إلى بول» أن يغير تكتيكه في حرب أتباع يسوع وإخوته. فذهب إلى جزيرة العرب، ومعه توصية من حنّانيا لأناس هناك. واستطاع أن يعود لفلسطين ومعه بعض المعلومات المكتوبة عن تلك العقيدة. وبعد أن درسها حنّانيا أضافها لما يعرفه سابقاً عنها وعن الوثنيات السائدة، وقام بتلبيس كل ذاك الخليط ليسوع، ذلك الغريب الذي قدم لفلسطين، والذي كان قد مات قبل أكثر من عشر سنوات ولم يبق ما يتذكره الناس عنه سوى أنه مات مصلوباً.

ويدأ بولس بنشر ما يود حنّانيا أن يؤمن به الناس عن شخص يسوع لكي يقطع الطريق نهائياً على أتباعه وإخوته للمطالبة بملك اسرائيلي في المستقبل، وذلك إذا ما اعتقد الناس أن يسوع لم يكن مطالباً بملك بل جاء ليفتدي ذنوب البشر بموته على الصليب. فهو مسيح لم يأت ليخلص الإسرائيليون من حكم الرومان، ولكنه مخلص لكل الناس من ذنوبهم. (المسيح عند اليهود هو رجل يأتي ليخلصهم من حكم الغير ويبني لهم مملكة مستقلة)

وهكذا ولدت المسيحية لغرض القضاء النهائي على مطالبة الإسرائيليين بحكم اليهود، وتخريب حركتهم التحررية من الداخل. ولكنها تطورت وانتشرت بصورة أكبر مما رسمه لها المبشر بها بول نفسه وأستاذه حنّانيا.

وكان يمكن ألا يكتب للديانة المسيحية التي بشر بها بول البقاء لولا أن الحاكم الروماني قد



اعتنقها، في القرون اللاحقة، ومن ثم عمل على نشرها في أوروبا والشرق الأوسط بالقوة التي كانت تتمتع بها روما في ذلك الزمن، بعد أن أغنتها بمناسبات وأعياد دينية متبناة من الوثنيات الأوروبية وغيرها.

ومع تتابع الأجيال تطورت العقيدة المسيحية وتعددت فرقها ومذاهبها مثل اي عقيدة أخرى، ولم يعد يذكر الناس كيف نشأت أو لماذا.

وأصبحت المسيحية اليوم ديانة تختلف في مجملها حتى عن تلك التي نادى بها بول أو القديس بولس كما أصبح يطلق عليه عند المسيحيين.

وكان يمكن أن تعتبر المسيحية وثنية مثل البوذية أو الهندوسية، لو لم تكن ديانة للغرب، الذين يعملون على نشر ثقافتهم وتراثهم وطريقة حياتهم بين الشعوب الأخرى كنوع من التبعية لتفوقهم العلمي والحضاري والإمكانيات المادية. فنجحوا في إظهار المسيحية وكأنها عنواناً للرحمة، وأصبح شعارها «الصليب» رمزاً للشفاء والإنقاذ والنجدة، وتقاطر الناس للدخول فيها برغم أن من أراد التحول للمسيحية فعليه أن يلغي عقله، لأن الأسس التي تقوم عليها هذه الديانة لا تتوافق مع المنطق.

ولا يهمنا أن تسمى بالمسيحية أو أن تسمى بالبولية نسبة لبول الذي نشرها، أو يسوعية نسبة لمن نسبت له. إنما المهم للمسلمين هو أن يعرفوا أن النصارى لا علاقة لهم بمسيحية بولس وقسطنطين، وأن عيسى ابن مريم لا علاقة له بيسوع.

وعلينا تذكر نقطة هامة وهي:

أن المسيحية ليست دين إلهي وأن المسيحيين كفار. وكون المسيحية دين الغرب فقد فرض علينا هذه الأيام ان نعتبر المسيحية دين وأن المسيحي مؤمن بالله ولا يطلق عليه كافر.

والإيمان بوجود الله لا يكفي، والمسيحيون مشركين، لأنهم يعتبرون يسوع والروح القدس ألهة مع الله. فالتثليث بأي شكل كفر بالله، بشهادة كتاب الله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) المائدة.

فكل من يعتقد بالتثليث فهو كافر، سواءً كانوا نصارى (يعتقدون بالله وعيسى وأمه) أو كانوا مسيحيون (تثليثهم يقوم على الأب ويسوع والروح القدس).



بل إن القرآن يكفر اليهود الموحدين الذين يؤمنون بالله إله واحد لا شريك له، لكنهم لا يؤمنون برسالة محمد: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١) البقرة.

فكل من لا يؤمن بالله ويدخل الإسلام فهو كافر: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) البقرة.

أهم الأعياد والمناسبات وأصولها الوثنية وكيف تم تبنيها في المسيحية

عيد الميلاد (الكريسماس)

كان ساتورن في روما القديمة هو إله الزراعة، وكانت الاحتفالات تقام لهذا الإله كل عام لمدة أسبوع كامل فيما بين السابع عشر من ديسمبر وحتى الخامس والعشرين منه. وخلال هذا الأسبوع كانت محاكم روما تغلق، ويمنع توقيع عقاب على إتلاف الممتلكات أو التعرض للأشخاص. وخلال ذلك الأسبوع الاحتفالي يتم اختيار شخص ممن لديهم نشاطات عدائية ضد الحكومة، ويطعم من كل أصناف المأكولات ويسمح له بممارسة كل أنواع المتع، وفي اليوم الأخير يتم إعدامه، لكي يتم القضاء على قوى الشر والظلام.

وخلال أسبوع الاحتفالات يمارس الناس كل أنواع الموبقات، ومن ذلك شرب المسكرات، والتنقل من بيت لآخر وهم يغنون عراة، وتتعرض النساء والغلمان للاغتصاب العلني، وإلى غير ذلك.

كما يتم خبز أنواع من البسكويت على شكل أجساد بشرية، وهذه العادة لازالت قائمة في بعض مناطق بريطانيا وألمانيا إلى اليوم أثناء الكريسماس.

وقد تم تبني احتفالات عيد الآلهة ساترون وإدخالها للمسيحية على يد رجال الدين في القرن الرابع الميلادي في محاولة لجذب الوثنيين للمسيحية بالسماح لهم بالاحتفال بذلك العيد.



ولكي يتم تبني تلك الاحتفالات كجزء من المسيحية فقد أوحى رجال الدين أن اليوم الأخير من تلك الاحتفالات وهو الخامس والعشرين من ديسمبر، هو اليوم الذي ولد فيه يسوع.

وسمحت الكنيسة بأن تستمر الاحتفالات بالكريسماس بنفس الاحتفالات السابقة للآلهة ساترون، فأستمر المسيحيون يفرطون في شرب المسكرات، والعهر الجنسي الفاضح، والغناء عراة في الشوارع.

وبسبب أصوله الوثنية فقد تم تحريم الكريسماس في ولاية ماساتشوستس الأمريكية في العام ١٦٥٩ وبقي هذا التحريم ساري المفعول حتى العام ١٦٨١.

كما استمرت احتفالات الكريسماس المتضمنة ممارسات غير أخلاقية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

سانتا كلوس

تبدأ قصة سانتا كلوس (Santa Claus) عندما ولد في بارار في آسيا الصغرى رجل اسمه نيكولاس (Nicholas) سنة ٢٧٠ ميلادية، وقد عمل في الكنيسة حتى أصبح مطراناً، وتوفي في السادس من ديسمبر من العام ٣٤٥ ميلادية، ولم يطلق عليه لقب « قديس» إلا في القرن التاسع عشر.

والمطران نيكولاس ممن سعى لانعقاد مجمع نيفيه الكنسي في العام ٣٢٥ ميلادية، حيث تبلورت الصورة الحالية لكتاب المسيحيين المقدس، وتم تبني عقيدة القول بأن يسوع ذو طبيعة واحدة إلهية وليس بشراً، كما كان من توصيات ذلك المجمع أن وصف اليهود بأبناء الشيطان، الذين حكموا على يسوع بالموت.

وفي العام ١٠٨٧ ميلادية قامت مجموعة من البحارة الإيطاليين المتأثرين بأفكار نيكولاس، بحفر قبره، ونقلوا ما تبقى من عظامه إلى مزار في باري الإيطالية، حيث حل محل آلهة أنثى مشهورة بالهبات تسمى « الجدة» أو «باسكا إبيفانيا » والتي كان الناس يعتقدون أنها تملأ جوارب الأطفال بالهدايا. وتحول مزار الجدة إلى مزار لطائفة نيكولاس، وأصبح من المعتاد أن يتبادل أتباع نيكولاس الهدايا في ذكرى وفاته يوم السادس من ديسمبر كل عام.



وسرعان ما انتشرت أراء وطقوس أتباع نيكولاس شمالاً ووجدت من يتبناها في الجماعات الوثنية الألمانية والسلتيك الذين كانوا يعبدون مجموعة من الآلهة يتزعمها إله يسمى وودن (Woden) الذي كان لديه لحية طويلة بيضاء، والذي كان يظهر في إحدى ليالي الخريف في السماء وهو يمتطي حصاناً طائراً.

وقد امتزجت شخصية نيكولاس بشخصية وودن، فاختفى مظهر نيكولاس البحر متوسطي، وأصبح يمتطي حصاناً طائراً، وغير موعد ظهوره من ليالي الخريف إلى السادس من ديسمبر، وأرتدى ملابس الشتاء الثقيلة.

وفي محاولة لإقناع الوثنيين في شمال أوروبا بالدخول في المسيحية، قامت الكنيسة الكاثوليكية بتبني عقيدة أتباع نيكولاس، وبدأت تبشر بأنه كان يعطي الهبات والهدايا، ولكن بمناسبة ميلاد المسيح في يوم الخامس والعشرين من ديسمبر وليس في اليوم السادس.

وفي ١٨٠٩ ميلادية كتب الروائي الشهير واشنطون إيرفينج (Washington Irving) رواية حول التراث الألماني بعنوان:

(Knickerbocker History) وقد أشار فيها عدة مرات إلى القديس نيكولاس ذو اللحية الطويلة البيضاء والذي يمتطي الحصان الطائر، مستخدماً اسمه الألماني سانتا كلوس (Santa Claus)

وقد قرأ الرواية الدكتور كليمنت مور البروفيسور في معهد لاهوتي. وفي العام ١٨٢٢ ميلادية نشر البروفيسور قصيدة تتحدث عن صفات سانتا كلوس كما قرأ عنها في رواية واشنطون إيرفينج، مع بعض التحوير. حيث صورت القصيدة سانتا كلوس وهو يهبط على أهل المنزل من مدخنة المدفئة ممتطياً عربة تجرها ثمانية من حيوانات الرنة، بدل الحصان الطائر.

وفيما بين عامي ١٨٦٢ و١٨٨٦ قام الفنان البافاري توماس ناست (Thomas Nast) برسم ٢٢٠٠ شكل كرتوني لسانتا كلوس أو القديس نيكولاس، معتمداً على قصيدة كليمنت مور.

وكان القديس نيكولاس قبل ذلك يصور بصور شتى، من القديس الصارم الملامح إلى قزم في عباءة راهب. كما أوجد الفنان ناست للقديس نيكولاس بيتاً في رسوماته، في القطب



الشمالي، مليئ بالأقزام، ويحوي قائمة بأسماء كل الأطفال الطيبين والأشرار في العالم.

وبذلك اكتملت صورة سانتا الحالية فيما عدا ملابسه الخارجية الحمراء.

وفي العام ١٩٣١ ميلادية وقعت شركة كوكا كولا عقداً مع الرسام السويدي هادون صندبلوم (Haddon Sundblom) لرسم لوحات إعلانية عن مشروبها باستخدام شخصية سانتا. وقد اختار الفنان هيئة سانتا على شكل صديقه البدين (Lou Prentice) الذي يتمتع بوجه ممتلئ ولكنه بشوش جداً. ولأن شركة كوكا كولا قد أصرت على أن تظهر بدلة سانتا بلون الشركة الأحمر فقد ظهر سانتا كلوس بهيئته الحالية لأول مرة في رسومات الفنان السويدي الدعائية لمشروب الكوكا كولا في ذلك العام. (وهذه المعلومات موجودة في موقع شركة كوكا كولا على الإنترنت)

وهكذا ولد سانتا كلوس، مزيجاً من حملات التبشير الصليبية لتنصير أوروبا، مع آلهة للوثنيين الأوروبيين، إضافة لشخصية وهمية في إعلان تجاري.

شجرة الميلاد

وكما عيد الميلاد فإن شجرة الميلاد أيضا تقليد وثني سمح رجال الدين المسيحي بتبنيه في المسيحية لجذب الوثنيين الأوربيين الذين كانوا يعبدون الأشجار، ويجلبونها لبيوتهم ويزينونها كما تزين شجرة الميلاد الحالية.

قيام يسوع

كان الوثنيون في آسيا الوسطى القدماء يؤمنون بآلهة الطبيعة والإخصاب سيبل (Cybele)، وكان لها عشيق اسمه آتيس (Attis) وهو إله مولود من عذراء، ويقوم من الموت كل سنة مرة في الفترة من ٢٢ - ٢٥ مارس.

وفي حوالي ٢٠٠ قبل الميلاد بدأت هذه المعتقدات الغريبة تظهر في روما، فعرفت الآلهة سيبل ورفيقها أتيس. وأصبح الاعتقاد بأن أتيس مات في يوم الجمعة، فسميت الجمعة السوداء، أو الجمعة الحزينة، وأنه قام من الموت في اليوم الثالث، وكانت الاحتفالات تتواصل كل عام في هذه الأيام الثلاثة.

ولما اعتنق الرومان المسيحية نسبت القيامة ليسوع من أجل اجتذاب الوثنيين للدخول في



المسيحية، فأصبحت الجمعة الحزينة هي التي صلب فيها يسوع، وأصبح يوم الأحد هو اليوم الذي قام به يسوع من الموت.

عيد الفصح (Easter Day)

تم تبنيه للمسيحية من معتقدات وثنية، حيث أن إيستر كانت أم الآلهة للشعوب الأنجلو ساكسونية في شمال أوروبا.

وليس في المسيحية مناسبة دينية واحدة ليس لها أصل وثني على الإطلاق. لذا أصبحت أوروبا الوثنية مصدراً غنياً للمسيحية.

وبهذا نكون قد انتهينا من توضيح أن عيسى ابن مريم رسول الله لبني إسرائيل ليس له علاقة بيسوع لا في المكان ولا في الزمان ولا في المعتقد ولا في التكليف. وأن النصارى لا علاقة لهم بالمسيحيين. وأن كتب المسيحيين المقدسة لا علاقة لها برسالة عيسى ولا إنجيله.

والغاية من هذا هو أن يعي المسلمون هذه الفروق وأن يتعاملوا مع المسيحية على أنها ليست ديانة إلهية تحول أهلها عنها عبر الأجيال كما يحدث مع كل الأديان. ولكنها ديانة بشرية من البداية لا يهمنا أمرها. ولم يكن لديهم كتاب اسمه إنجيل نزل من السماء، ولكن كتبهم عبارة عن تسجيلات تاريخية مشوهة عن فترة يسوع وما حدث له. ولو كف المسيحيون أيديهم وألسنتهم عن المسلمين وكتاب الله القرآن ورسوله محمد ولم يحاولوا نشر خزعبلاتهم بيننا وكأنها دين إلهي، فلن يهمنا أمرهم ولا كتبهم ولا يسوعهم. مع الإبقاء على التعامل الإنساني مع المسيحيين المسالمين كما يجب أن نتعامل مع كل أهل الأرض بمختلف عقائدهم. دون أن نحترم تلك العقيدة المختلقة أو ننظر ليسوع كنظرة تبجيل كما ننظر لرسل الله عليهم الصلاة والسلام، أو نترجم عيسى في القرآن إلى Jesus في الترجمات الأجنبية بدل Esau أو Esa كما هو بالفعل[1].

---

١ المصادر التي استقينا منها ما ورد في هذه الفقرة هي: القرآن الكريم، الكتاب المقدس/ طباعة ونشر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى. هيم ماكابي/ بولس وتحريف المسيحية / ترجمة سميرة عزمي الزين/ منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. شارل جنيبير، أستاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الأديان، جامعة باريس / المسيحية « نشأتها وتطورها» / ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود / منشورات المكتبة العصرية / صيدا، لبنان. أندريه نايتون وإدغار ويند وكارل غوستاف يونج / الأصول الوثنية للمسيحية/ ترجمة سميرة عزمي الزين/ منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. د. إدوارد / م.هـ. بوب/ ن. رولينغ / قاموس الآلهة والأساطير/ ترجمة محمد وحيد خياطة. خليل ابن مخائيل البدوي / الكنيسة الكاثوليكية/ السنة الثانية، الجزء الأول عام ١٨٨٩/ المطبعة الكاثوليكية/ بيروت. ألكسندر كرافتشوك / الوثنية والمسيحية « مرحلة الصراع الحاسمة وإيقاف الأولمبيادات في العصر القديم عام ٣٩٣» / ترجمة: د. كبرو لحدو / الناشر: دار الحصاد باربرا براون / نظرة



أكذوبة شعب الله المختار

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ(٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(٩٦) البقرة.

الآيات تنفي أي تميز لليهود عند الله وتؤكد أنهم كفار.

وتعود السورة لتأكيد ما سبق وأشارت له الآيات: (٩٤-٩٦) وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢).

بنو إسرائيل - كيهود اليوم - يعتقدون أن الله اختارهم وفضلهم على كل البشر، وبالتالي هم وحدهم من سيدخل الجنة. كما أن هذا الاعتقاد يعتقده النصارى في يثرب، والآية تنفي هذا الاعتقاد وتؤكد أن الجنة لمن أسلم وجهه لله على الطريقة المحمدية «الإسلام».

وتقول سورة المائدة: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٨).

الآية تنفي نفياً قاطعاً أن يكون اليهود أو النصارى أو غيرهم شعباً مختاراً لله، لأن الله جل وعلا خلق البشر سواسية وليس بينهم من يقربه الله أكثر من بعض وهو الغني عن كل خلقه.

أول من آمن بالإسلام من يثرب كان رجلاً من بني إسرائيل

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ

عن قرب في المسيحية / ترجمة المهندس مناف حسين الياسري. مقالات عن تاريخ الكنيسة / المصدر كنائس الله المسيحية / رابط: http://www.originalcatholicchurch.org/arabic/s/p268.htm

موقع شركة كوكا كولا، وهذا رابطه:
http://www.coca-colacompany.com/holidays/the-true-history-of-the-modern-day-santa-claus



عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢) الأحقاف.

أول مرة يذكر القرآن أن أحد بني إسرائيل قد آمن برسالة محمد، وهو دليل موثق في أن أول من أسلم من خارج مكة بعد تغير خطاب الدعوة كان من بني إسرائيل (يثرب)، ولم يكن خزرجياً أو أوسياً، كما تزعم كتب السير. وسنرى أن القرآن لم يذكر أبداً أن الأوس أو الخزرج هم أول من أسلم من يثرب، بل ستؤكد السور على أن بعض بني إسرائيل هم أول من أسلم وبالتالي هم من نقل الإسلام ونشره في يثرب. وقد تقبله غالبية الأوس والخزرج ورفضه غالبية أهل الكتاب، تبعاً لسنة الأولين التي تنص على أن من يقبل الدين هم المستضعفون ومن ليس لهم مصالح دنيوية تذكر.

الإيمان لا يعني إعلان الإسلام

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهَّ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهَّ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

الدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه عقد اتفاق وعهد مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

تعريف المسلم

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) الزخرف.

الإيمان بالإسلام وبالتالي فليس الإيمان أعلى درجات الإسلام. بل الإيمان يقين واعتقاد والإسلام هو الدين الذي علينا أن نؤمن به. فالمسلم مؤمن بالإسلام.



الدعوة بلسان المرسل لهم

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً(٩٧) مريم.

كل رسول أرسل بلسان القوم المرسل لهم ويكون واحداً منهم نشأ بينهم ويعرفونه حق المعرفة.

وتقول سورة إبراهيم: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤).

فكيف يكون الإسلام عربياً ويكون لكل الناس بألسنتهم المختلفة؟

لا لبس في هذا.

فرسالة أي رسول تكون بلسان قومه الذين يبعث فيهم، وهذا ما حدث للرسول محمد فقد أرسل بلسان عربي مبين وهو لسان من بعث فيهم وهم قريش، وهو لسان أهل يثرب وما حولها، والذين كانت لغتهم هي نفس اللغة التي نزل بها القرآن ولو كانوا من بني إسرائيل أو يهود أو نصارى أو غيرهم.

والدعوة للإيمان هي التي تبدأ بها رسالة الرسول، وهي التي تكون بلسان قوم الرسول. بينما الدين هو التشريعات، وهذه يمكن أن تقال بأي لغة. ودعوة محمد بدأت لقومه لأنه بعث فيهم وبين ظهرانيهم. ولم يؤمن في مكة إلا نفر قليل لم تسمح أعدادهم بنزول التشريعات. ولو توفي رسول الله والدعوة موجهة لقريش فقط، فلن يكون هناك إسلام. لأن الإسلام (الممثل بالتشريعات) لم تبدأ السور فرضه إلا بعد أن تكونت جالية مسلمة في يثرب، دعا لها نفر ممن أسلم من بني إسرائيل، واستجاب لها غالبية الأوس والخزرج وقلة من أهل الكتاب. ثم استكمل الدين بعد الهجرة في المدينة بعد دعوة صريحة لأهل يثرب من أهل الكتاب للدخول في الإسلام.

فالدعوة بدأت كأي رسالة بلسان قوم الرسول، لكن الدين الإسلامي المتمثل بالتشريعات، فمطلوب من كل أهل الأرض. ويمكن تبليغهم بأي لغة هيئة الصلاة والصوم، وأن الكبائر موردة للنار والأعمال الصالحة موجبة للجنة.

والخطاب الدعوي يتوقف بعد أن تفرض التشريعات. لأن الدعوة يشترط لها أن تكون بلغة



من أرسل الرسول منهم لكي يفهموا ما يقول، ليؤمنوا. لكن بعد فرض التشريعات فإن الدعوة لا تكون بخطاب دعوي، ولكن بتقديم أوامر الدين ونواهيه للناس. وبهذا ليس من الضروري أن يكون الدين (التشريعات) بلغة قوم الرسول، ولا يشترط له لغة معينة. لأنه يمكن ترجمة أوامر الدين ونواهيه لأي لغة.

وكل المطلوب من المسلم الأعجمي أن يحفظ سورة الفاتحة للصلاة، وأن يعرف ما يقال في الصلاة ومعانيها، ولا شيء أكثر من ذلك.

وله الخيار فيما بعد إن رغب في تعلم العربية لقراءة القرآن بلغته.

واللغة لم تكن عائقاً أبداً، إلا لمن يبحث عن أي شيء للنيل من الإسلام. والمستشرقون الذين يثيرون أن الإسلام للعرب لأنه نزل بالعربية يتناسون أن دينهم المسيحي يعتمد اللغة اللاتينية وهي لغة ميتة، ولم تكن عائقاً لبقاء الكنيسة. فما بالك بالعربية اللغة الحية والتي تعتبر أغنى لغات العالم وأكثرها حيوية وأقدم لغة منطوقة على الإطلاق لمن يتحرى التجرد.

لكن من لا يرغب في اتباع الحق سيبرر لنفسه رفضه ومحاولة التشكيك، ولو بتبريرات بعيدة عن المنطق. وقد سبق المستشرقين وكتب التراث، كل الأمم السابقة التي تبرر تمسكها بموروثها ورفضها للدعوة بتبريرات تصل لحد الإسفاف، وشبيهة بما يثير المستشرقون. وفيما يلي بعض هذه التبريرات التي قالت بها قريش:

تقول سورة فصلت: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤).

قريش نزل عليهم القرآن بالعربية، فما كان منهم إلا أن قالوا: لماذا لم ينزل بالعربي والأجنبي؟ ولو نزل القرآن بلغة أعجمية لقالوا لماذا لم ينزل بالعربية: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٢٠١) الشعراء.

ولما كان القرآن ينزل سورة سورة ويتفاعل مع الأحداث، قالت قريش: لماذا لا ينزل دفعة واحدة: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ



تَرْتِيلاً(٣٢) الفرقان.

ولو نزل جملة واحدة لقالت قريش لماذا لم ينزل مفرقاً؟

ولما بدأ الرسول بدعوة كل الناس غير قريش، قالت قريش لو كان ما تقول من عند الله لأرسل الله لكل قرية رسولاً بدل أن يرسلك لكل القرى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا(٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً(٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً(٥٢) الفرقان.

ولو أرسل الله لكل قرية رسولاً لقالت قريش: لماذا لم يرسل الله رسولاً واحداً للجميع؟ وهكذا...

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ(٧١) المؤمنون.

الدين كل لا يتجزأ وعصيان أمر واحد لله مساوٍ للكفر

أي أمر مباشر من الله فهو واجب الطاعة، وأي نهي مباشر منه سبحانه فيجب الابتعاد عنه، وكل من يخالف أمر الله عالماً بالحكم فهو في النار ولو كان يؤمن بالله ورسله.

وتخبرنا سورة «ص» أن إبليس المؤمن بالله وأحد ملائكته قد كفر، ليس بوجود الله ولكن بعصيانه أمراً واحداً له سبحانه: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ(٧٤) ص.

وهذا دليل واضح بين على أن كل من يعصي أمراً لله أو يعمل بخلافه وهو يعلم بحرمته وما يتوجب على عصيانه فهو في النار، حتى لو أمن بالله ورسوله. وهو ما ينطبق على مقترف الكبيرة وهو عالم بحرمتها ووعيد من يقترفها، فهو في النار ولو استمر بعمل الطاعات. فالدين كل لا يتجزأ، ولا يجزئ بعضه عن كله. كما أن الدين ليس إيماناً وعبادات فقط، ولكنه استسلام تام لكل أمر أو نهي من الله جل شأنه.

وتقول سورة البقرة في حديثها عن مسلمة يثرب الذين يظهرون الإيمان ويؤدون الصلاة: الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي



الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِّ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨).

فهم كفار برغم إعلانهم الإسلام، لأنهم نقضوا عهد الله وميثاقه المتمثل بقبولهم الإسلام. وقبول الإسلام يعني أن توافق على طاعة كل أمر لله وتنتهي عن كل نهي نهى الله عنه طوال حياتك. وأي مخالفة لأمر أو نهي فهو نقض للميثاق مع الله مساوٍ للكفر ومصير صاحبه النار كالكافر ولو سماه المسلمون شيخ المؤمنين والإسلام.

وتقول سورة النساء: إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً(٣١).

اجتناب الكبائر شرط لازم لدخول الجنة، ولا يمكن دخول الجنة مع الاستمرار على كبيرة أو كبائر.

وكتب التراث تحدثت بكلام كثير مختلف ومتخالف عن مرتكب الكبيرة، لن نتطرق لتفاصيله لأنه قول بشر لا يغني عن الحق شيئاً. ومجمله أن المسلم يمكن أن يرتكب كبيرة وكبائر ويصر عليها ويغفر له متى تاب قبل أن يحضره الموت. وحتى لو لم يتب ومات فسيجد رسول الله يوم القيامة ليشفع له ويدخل الجنة. وحتى لو لم يشفع له الرسول، ودخل المسلم النار فسيعذب على قدر ذنوبه ثم يخرج ويدخل الجنة.

وسنكتفي باقتباس فقرة من كتاب الحديث والقرآن بعنوان:

يخرج من النار من كان في قلبه حبة خردل من إيمان

حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثَني مالكٌ عن عمرِو بنِ يحيى المازنيِّ عنْ أَبيهِ عنْ أَبي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ أَهلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهلُ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى أَخْرِجوا مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَيُخْرَجونَ منها قدِ اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ـ أو الحَياةِ، شَكَّ مالكٌ ـ فيَنبتُون كما تَنْبُتُ الْحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، أَلم ترَ أَنَّها تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟». (رواه البخاري في باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال – كتاب الإيمان)



مناقشة النص

إذا كان الحديث قال به الرسول، فمن أخبره بخبر الجنة والنار، وهما من عالم القيامة الذي لم يخلق بعد، بشهادة القرآن الكريم: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٣-١٨) الحاقة.

وعندما يحدث ذلك سيكون هناك كون جديد غير هذا الكون: يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) إبراهيم.

وسيضم ذلك الكون الجنة والنار: وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) آل عمران.

وكل ما سيحدث في يوم القيامة هو من عالم الغيب، الذي تفرد الله سبحانه بعلمه لوحده: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) الجن.

والرسول لو عصى ربه عذب وهو رسول الله: قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢٦) الأنعام.

وهو عليه الصلاة والسلام لا يعلم ما سيكون يوم القيامة وما سيحل بالناس: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) الأحقاف.

ونعود للحديث الذي يقول: " فَيُخْرَجونَ منها قدِ اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ـ أو الحَياةِ" أي أنهم أخرجوا وهم على هيئاتهم، ولكن سودت ألوانهم النار، فيكون إلقاؤهم في النهر لكي ينظفهم وتعود ألوانهم لحالها الطبيعية قبل دخولهم النار.

لكن الحديث يناقض نفسه بالقول: " فَيَنبتُون كما تَنبُتُ الحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، ألم ترَ أنَّها تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟" مما يعني أنه قد أعيد خلقهم من جديد، وأنبتوا كما تنبت الحبة في جانب السيل. وهذا يناقض الكلام السابق الذي ينص على أنهم كانوا مخلوقين وبهيئات ولكن النار سودتهم.



المسيحية، فأصبحت الجمعة الحزينة هي التي صلب فيها يسوع، وأصبح يوم الأحد هو اليوم الذي قام به يسوع من الموت.

عيد الفصح (Easter Day)

تم تبنيه للمسيحية من معتقدات وثنية، حيث أن إيستر كانت أم الآلهة للشعوب الأنجلو ساكسونية في شمال أوروبا.

وليس في المسيحية مناسبة دينية واحدة ليس لها أصل وثني على الإطلاق. لذا أصبحت أوروبا الوثنية مصدراً غنياً للمسيحية.

وبهذا نكون قد انتهينا من توضيح أن عيسى ابن مريم رسول الله لبني إسرائيل ليس له علاقة بيسوع لا في المكان ولا في الزمان ولا في المعتقد ولا في التكليف. وأن النصارى لا علاقة لهم بالمسيحيين. وأن كتب المسيحيين المقدسة لا علاقة لها برسالة عيسى ولا إنجيله.

والغاية من هذا هو أن يعي المسلمون هذه الفروق وأن يتعاملوا مع المسيحية على أنها ليست ديانة إلهية تحول أهلها عنها عبر الأجيال كما يحدث مع كل الأديان. ولكنها ديانة بشرية من البداية لا يهمنا أمرها. ولم يكن لديهم كتاب اسمه إنجيل نزل من السماء، ولكن كتبهم عبارة عن تسجيلات تاريخية مشوهة عن فترة يسوع وما حدث له. ولو كف المسيحيون أيديهم وألسنتهم عن المسلمين وكتاب الله القرآن ورسوله محمد ولم يحاولوا نشر خزعبلاتهم بيننا وكأنها دين إلهي، فلن يهمنا أمرهم ولا كتبهم ولا يسوعهم. مع الإبقاء على التعامل الإنساني مع المسيحيين المسالمين كما يجب أن نتعامل مع كل أهل الأرض بمختلف عقائدهم. دون أن نحترم تلك العقيدة المختلقة أو ننظر ليسوع كنظرة تبجيل كما ننظر لرسل الله عليهم الصلاة والسلام، أو نترجم عيسى في القرآن إلى Jesus في الترجمات الأجنبية بدل Esau أو Esa كما هو بالفعل[1].

---

[1] المصادر التي استقينا منها ما ورد في هذه الفقرة هي: القرآن الكريم، الكتاب المقدس/ طباعة ونشر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى. هيم ماكابي/ بولس وتحريف المسيحية / ترجمة سميرة عزمي الزين/ منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. شارل جنيبر، أستاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الأديان، جامعة باريس / المسيحية «نشأتها وتطورها» / ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود / منشورات المكتبة العصرية | صيدا، لبنان. أندريه نايتون وإدغار ويند وكارل غوستاف يونغ / الأصول الوثنية للمسيحية/ ترجمة سميرة عزمي الزين/ منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. د. إدوارد / م.هـ. بوب/ ن. روليتغ / قاموس الآلهة والأساطير/ ترجمة محمد وحيد خياطة. خليل ابن مخائيل البدوي / الكنيسة الكاثوليكية | السنة الثانية، الجزء الأول عام ١٨٨٩/ المطبعة الكاثوليكية | بيروت. ألكسندر كرافتشوك / الوثنية والمسيحية «مرحلة الصراع الحاسمة وإيقاف الأولومبيادات في العصر القديم عام ٣٩٣» / ترجمة: د. كبرو لحدو / الناشر: دار الحصاد باربرا براون / نظرة



أكذوبة شعب الله المختار

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالمِينَ(٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(٩٦) البقرة.

الآيات تنفي أي تميز لليهود عند الله وتؤكد أنهم كفار.

وتعود السورة لتأكيد ما سبق وأشارت له الآيات: (٩٤-٩٦) وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢).

بنو إسرائيل – كيهود اليوم – يعتقدون أن الله اختارهم وفضلهم على كل البشر، وبالتالي هم وحدهم من سيدخل الجنة. كما أن هذا الاعتقاد يعتقده النصارى في يثرب، والآية تنفي هذا الاعتقاد وتؤكد أن الجنة لمن أسلم وجهه لله على الطريقة المحمدية «الإسلام».

وتقول سورة المائدة: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٨).

الآية تنفي نفياً قاطعاً أن يكون اليهود أو النصارى أو غيرهم شعباً مختاراً لله، لأن الله جل وعلا خلق البشر سواسية وليس بينهم من يقربه الله أكثر من بعض وهو الغني عن كل خلقه.

أول من آمن بالإسلام من يثرب كان رجلاً من بني إسرائيل

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ

عن قرب في المسيحية / ترجمة المهندس مناف حسين الياسري. مقالات عن تاريخ الكنيسة / المصدر كنائس الله المسيحية / رابط: http://www.originalcatholicchurch.org/arabic/s/p268.htm

موقع شركة كوكا كولا، وهذا رابطه:

http://www.coca-colacompany.com/holidays/the-true-history-of-the-modern-day-santa-claus



عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢) الأحقاف.

أول مرة يذكر القرآن أن أحد بني إسرائيل قد آمن برسالة محمد، وهو دليل موثق في أن أول من أسلم من خارج مكة بعد تغير خطاب الدعوة كان من بني إسرائيل (يثرب)، ولم يكن خزرجياً أو أوسياً، كما تزعم كتب السير. وسنرى أن القرآن لم يذكر أبداً أن الأوس أو الخزرج هم أول من أسلم من يثرب، بل ستؤكد السور على أن بعض بني إسرائيل هم أول من أسلم وبالتالي هم من نقل الإسلام ونشره في يثرب. وقد تقبله غالبية الأوس والخزرج ورفضه غالبية أهل الكتاب، تبعاً لسنة الأولين التي تنص على أن من يقبل الدين هم المستضعفون ومن ليس لهم مصالح دنيوية تذكر.

الإيمان لا يعني إعلان الإسلام

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

الدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه عقد اتفاق وعهد مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

تعريف المسلم

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) الزخرف.

الإيمان بالإسلام وبالتالي فليس الإيمان أعلى درجات الإسلام. بل الإيمان يقين واعتقاد والإسلام هو الدين الذي علينا أن نؤمن به. فالمسلم مؤمن بالإسلام.



الدعوة بلسان المرسل لهم

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً(٩٧) مريم.

كل رسول أرسل بلسان القوم المرسل لهم ويكون واحداً منهم نشأ بينهم ويعرفونه حق المعرفة.

وتقول سورة إبراهيم: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤).

فكيف يكون الإسلام عربياً ويكون لكل الناس بألسنتهم المختلفة؟

لا لبس في هذا.

فرسالة أي رسول تكون بلسان قومه الذين يبعث فيهم، وهذا ما حدث للرسول محمد فقد أرسل بلسان عربي مبين وهو لسان من بعث فيهم وهم قريش، وهو لسان أهل يثرب وما حولها، والذين كانت لغتهم هي نفس اللغة التي نزل بها القرآن ولو كانوا من بني إسرائيل أو يهود أو نصارى أو غيرهم.

والدعوة للإيمان هي التي تبدأ بها رسالة الرسول، وهي التي تكون بلسان قوم الرسول. بينما الدين هو التشريعات، وهذه يمكن أن تقال بأي لغة. ودعوة محمد بدأت لقومه لأنه بعث فيهم وبين ظهرانيهم. ولم يؤمن في مكة إلا نفر قليل لم تسمح أعدادهم بنزول التشريعات. ولو توفي رسول الله والدعوة موجهة لقريش فقط، فلن يكون هناك إسلام. لأن الإسلام (الممثل بالتشريعات) لم تبدأ السور فرضه إلا بعد أن تكونت جالية مسلمة في يثرب، دعا لها نفر ممن أسلم من بني إسرائيل، واستجاب لها غالبية الأوس والخزرج وقلة من أهل الكتاب. ثم استكمل الدين بعد الهجرة في المدينة بعد دعوة صريحة لأهل يثرب من أهل الكتاب للدخول في الإسلام.

فالدعوة بدأت كأي رسالة بلسان قوم الرسول، لكن الدين الإسلامي المتمثل بالتشريعات، فمطلوب من كل أهل الأرض. ويمكن تبليغهم بأي لغة هيئة الصلاة والصوم، وأن الكبائر موردة للنار والأعمال الصالحة موجبة للجنة.

والخطاب الدعوي يتوقف بعد أن تفرض التشريعات. لأن الدعوة يشترط لها أن تكون بلغة



من أرسل الرسول منهم لكي يفهموا ما يقول، ليؤمنوا. لكن بعد فرض التشريعات فإن الدعوة لا تكون بخطاب دعوي، ولكن بتقديم أوامر الدين ونواهيه للناس. وبهذا ليس من الضروري أن يكون الدين (التشريعات) بلغة قوم الرسول، ولا يشترط له لغة معينة. لأنه يمكن ترجمة أوامر الدين ونواهيه لأي لغة.

وكل المطلوب من المسلم الأعجمي أن يحفظ سورة الفاتحة للصلاة، وأن يعرف ما يقال في الصلاة ومعانيها، ولا شيء أكثر من ذلك.

وله الخيار فيما بعد إن رغب في تعلم العربية لقراءة القرآن بلغته.

واللغة لم تكن عائقاً أبداً، إلا لمن يبحث عن أي شيء للنيل من الإسلام. والمستشرقون الذين يثيرون أن الإسلام للعرب لأنه نزل بالعربية يتناسون أن دينهم المسيحي يعتمد اللغة اللاتينية وهي لغة ميتة، ولم تكن عائقاً لبقاء الكنيسة. فما بالك بالعربية اللغة الحية والتي تعتبر أغنى لغات العالم وأكثرها حيوية وأقدم لغة منطوقة على الإطلاق لمن يتحرى التجرد.

لكن من لا يرغب في اتباع الحق سيبرر لنفسه رفضه ومحاولة التشكيك، ولو بتبريرات بعيدة عن المنطق. وقد سبق المستشرقين وكتب التراث، كل الأمم السابقة التي تبرر تمسكها بموروثها ورفضها للدعوة بتبريرات تصل لحد الإسفاف، وشبيهة بما يثير المستشرقون. وفيما يلي بعض هذه التبريرات التي قالت بها قريش:

تقول سورة فصلت: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤).

قريش نزل عليهم القرآن بالعربية، فما كان منهم إلا أن قالوا: لماذا لم ينزل بالعربي والأجنبي؟ ولو نزل القرآن بلغة أعجمية لقالوا لماذا لم ينزل بالعربية: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٢٠١) الشعراء.

ولما كان القرآن ينزل سورة سورة ويتفاعل مع الأحداث، قالت قريش: لماذا لا ينزل دفعة واحدة: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ



تَرْتِيلاً(٣٢) الفرقان.

ولو نزل جملة واحدة لقالت قريش لماذا لم ينزل مفرقاً؟

ولما بدأ الرسول بدعوة كل الناس غير قريش، قالت قريش لو كان ما تقول من عند الله لأرسل الله لكل قرية رسولاً بدل أن يرسلك لكل القرى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا(٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً(٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً(٥٢) الفرقان.

ولو أرسل الله لكل قرية رسولاً لقالت قريش: لماذا لم يرسل الله رسولاً واحداً للجميع؟ وهكذا...

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ(٧١) المؤمنون.

الدين كل لا يتجزأ وعصيان أمر واحد لله مساوٍ للكفر

أي أمر مباشر من الله فهو واجب الطاعة، وأي نهي مباشر منه سبحانه فيجب الابتعاد عنه، وكل من يخالف أمر الله عالماً بالحكم فهو في النار ولو كان يؤمن بالله ورسله.

وتخبرنا سورة «ص» أن إبليس المؤمن بالله وأحد ملائكته قد كفر، ليس بوجود الله ولكن بعصيانه أمراً واحداً له سبحانه: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ(٧٤) ص.

وهذا دليل واضح بين على أن كل من يعصي أمراً لله أو يعمل بخلافه وهو يعلم بحرمته وما يتوجب على عصيانه فهو في النار، حتى لو آمن بالله ورسوله. وهو ما ينطبق على مقترف الكبيرة وهو عالم بحرمتها ووعيد من يقترفها، فهو في النار ولو استمر بعمل الطاعات. فالدين كل لا يتجزأ، ولا يجزئ بعضه عن كله. كما أن الدين ليس إيماناً وعبادات فقط، ولكنه استسلام تام لكل أمر أو نهي من الله جل شأنه.

وتقول سورة البقرة في حديثها عن مسلمة يثرب الذين يظهرون الإيمان ويؤدون الصلاة: الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي



الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨).

فهم كفار برغم إعلانهم الإسلام، لأنهم نقضوا عهد الله وميثاقه المتمثل بقبولهم الإسلام. وقبول الإسلام يعني أن توافق على طاعة كل أمر لله وتنتهي عن كل نهي نهى الله عنه طوال حياتك. وأي مخالفة لأمر أو نهي فهو نقض للميثاق مع الله مساوٍ للكفر ومصير صاحبه النار كالكافر ولو سماه المسلمون شيخ المؤمنين والإسلام.

وتقول سورة النساء: إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً(٣١).

اجتناب الكبائر شرط لازم لدخول الجنة، ولا يمكن دخول الجنة مع الاستمرار على كبيرة أو كبائر.

وكتب التراث تحدثت بكلام كثير مختلف ومتخالف عن مرتكب الكبيرة، لن نتطرق لتفاصيله لأنه قول بشر لا يغني عن الحق شيئاً. ومجمله أن المسلم يمكن أن يرتكب كبيرة وكبائر ويصر عليها ويغفر له متى تاب قبل أن يحضره الموت. وحتى لو لم يتب ومات فسيجد رسول الله يوم القيامة ليشفع له ويدخل الجنة. وحتى لو لم يشفع له الرسول، ودخل المسلم النار فسيعذب على قدر ذنوبه ثم يخرج ويدخل الجنة.

وسنكتفي باقتباس فقرة من كتاب الحديث والقرآن بعنوان:

يخرج من النار من كان في قلبه حبة خردل من إيمان

حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن عمرِو بنِ يحيى المازنيِّ عنْ أَبيهِ عنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهلُ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى أَخْرِجوا مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَيُخْرَجونَ منها قدِ اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ـ أو الحَياةِ، شَكَّ مالكٌ ـ فيَنبتُون كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، أَلم ترَ أَنَّها تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟». (رواه البخاري في باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال – كتاب الإيمان)



مناقشة النص

إذا كان الحديث قال به الرسول، فمن أخبره بخبر الجنة والنار، وهما من عالم القيامة الذي لم يخلق بعد، بشهادة القرآن الكريم: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٣-١٨) الحاقة.

وعندما يحدث ذلك سيكون هناك كون جديد غير هذا الكون: يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) إبراهيم.

وسيضم ذلك الكون الجنة والنار: وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) آل عمران.

وكل ما سيحدث في يوم القيامة هو من عالم الغيب، الذي تفرد الله سبحانه بعلمه لوحده: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) الجن.

والرسول لو عصى ربه عذب وهو رسول الله: قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢٦) الأنعام.

وهو عليه الصلاة والسلام لا يعلم ما سيكون يوم القيامة وما سيحل بالناس: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) الأحقاف.

ونعود للحديث الذي يقول: " فَيُخْرَجونَ منها قدِ اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ـ أو الحَياةِ" أي أنهم أخرجوا وهم على هيئاتهم، ولكن سودت ألوانهم النار، فيكون إلقاؤهم في النهر لكي ينظفهم وتعود ألوانهم لحالها الطبيعية قبل دخولهم النار.

لكن الحديث يناقض نفسه بالقول: " فَيَنبتُون كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، ألم ترَ أنَّها تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟" مما يعني أنه قد أعيد خلقهم من جديد، وأنبتوا كما تنبت الحبة في جانب السيل. وهذا يناقض الكلام السابق الذي ينص على أنهم كانوا مخلوقين وبهيئات ولكن النار سودتهم.



والقرآن الكريم يخالف هذه التخاريف وينص بكل وضوح على أن الخلق سينشئون جميعاً في وقت واحد يوم القيامة: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (فاطر:٥١)

ثم يحاسبون: ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (الأنعام:٦٢)

وبعد الحساب يكون المصير، فمن حقت عليه الشقاوة، بما كسبت يداه، فهو في النار، ومن حقت له السعادة، فهو في الجنة، ولن يكون هناك خلق ثالث، ولن ينبتوا كما تنبت الحبة في جانب السيل صفراء ملتوية.

يقول تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (آل عمران:١٨٥)

ومن يدخل النار بعد الحساب فسيخلد فيها ولن يخرج منها، ولو كان بسبب سيئة (كبيرة) واحدة داوم عليها ولم يتب: بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة:٨١)

وستكون وجوه من حكم عليهم بالنار مسودة مجازاً، أي مكفهرة، وليست سوداء من الاحتراق، لأن النار لم تحرقها بعد. يقول تعالى: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (الزمر:٦٠)

والاعتقاد بالخروج من النار، من عقائد بني إسرائيل، فهم من قال إن صاحب الكبيرة يعذب فترة في النار ويخرج، وتبنتها كتب التراث: وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨٢) البقرة.

والآيات تنفي هذا الاعتقاد، وتقول بكل وضوح. إن زعم بني إسرائيل ليس له مصدر، وهو تَقَوُّلٌ على الله ما لم يقل. فالله جل شأنه يؤكد أن من اكتسب خطيئة (كبيرة)، فسيخلد في النار ولن يخرج منها ولو أعلن الإيمان.

وأن من التزم العمل الصالح والبعد عن الكبائر مع الإيمان فسيخلد في الجنة[١].

[١] انظر فقرة: الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً.



الكبيرة واحدة سواء عملت في الخفاء أو في العلن

وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦) بني إسرائيل.

صحيفة الأعمال آلية مودعة في النفس، تسجل كل ما يصدر من الإنسان عبر حواسه الخمس، وسيسأل عن كل ما صدر منه وفكر به. والآية تقول: انتبه! وراقب كل ما يصدر منك وتفكر به لأن ما لا يراه الناس أو يخفى عليهم يسجل وستسأل عنه.

وكل مخالفة دينية أو ذنب يصدر من الإنسان في خلوته وبعيداً عن الناس سيحاسب عنه يوم القيامة دون تخفيف. وهو ما ينفي ما يشاع بين الناس أن التخفي لاقتراف الذنب أخف من المجاهرة به.

وتقول سورة الرعد: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ(٩) سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ(١٠).

ويجب أن تحل ثقافة جديدة عند المسلمين مفادها أن المسلم لا يرتكب الكبائر ولو لم يشاهده أحد، لأن صحيفة أعماله ستسجل ما اقترف وسيُسأل عنه: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) مريم.

ولأن من يقترف الكبيرة عالماً بحرمتها سيدخل النار ولو أخفاها عن الناس: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

الكافر والعاصي يمني نفسه بالغفران

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً(٧٧) أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً(٨٠) مريم.

هذا القرشي يعتقد أنه إن كان هناك بعث فسيدخله الله الجنة لأنه يعتبر في الدنيا من خيرة رجال المجتمع. وهذا الشعور موجود عند كل الطغاة والعصاة، يتبنونه لتبرير عصيانهم.



ولعله من خيار رجال قريش وأكرمهم. وهذا الشعور هو نفسه عند البعض اليوم الذين يقولون كيف سيعذب الله مخترع البنسلين أو الإنترنت على سبيل المثال بينما يدخل الجنة ملتح ينشر الخزعبلات فقط لأنه مسلم. وهذا الفهم قاصر، فالله لن يدخل الناس الجنة بمجرد إعلانهم الإسلام، وكثير ممن يعلن الإسلام سيخلد في النار. فالجنة لمن آمن وعمل صالحاً. والعمل الصالح يشمل أوامر القرآن إضافة للأعمال الجليلة الدنيوية التي يستطيع الإنسان القيام بها. ولو أن مخترع البنسلين على سبيل المثال مسلم تقي الإيمان فهو قد قام باكتشافه لخدمة البشرية لوجه الله، وليس للشهرة والحصول على التكريم. لكن لو أن شخصاً يعتقد بوجود الله لكنه ليس مسلماً وقام بخدمات جليلة للبشرية فهذا ليس كافياً للجنة. فهو لم يقم بأعماله لوجه الله، ولكن من أجل الشهرة والتفوق الشخصي وقد حصل عليه في الدنيا، ولن يكون له في الآخرة من خلاق.

الإنسان يقرر هو مصيره بنفسه، ولن يعذر لكفره لأي سبب، مثل قوله إن الله لو أراد هدايته لهداه، وهو ما ستستمر قريش بتكراره في سور لاحقة كما ورد في سورة الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨).

وتقول سورة القيامة: بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥).

الإنسان يعرف جيداً الطريق التي يختار. ولكنه جبل على اختلاق الأعذار لكيلا يؤمن، أو إن كان مسلماً بالوراثة فيختلق الأعذار لئلا يقوم بالواجبات الدينية أو يستسهل اقتراف الكبائر، ظناً منه أن أعذاره ستقبل عند الله.

وهذا مشاهد بيننا، فالذي يشرب الخمر مثلاً يحاول أن يقنع نفسه أن قليلاً منها لن يكون كبيرة، أو أن صلاته وقيامه بكل الطاعات الأخرى سيشفع له ولن يدخل النار بسبب شرب قليل من الخمر أو ملامسة امرأة دون المعاشرة الجنسية أو شيء من هذا القبيل.

والآية تقول هذه الأعذار لن تقبل ولن تخفف من الذنب، كما أن الإنسان نفسه يعلم في قرارة نفسه أن هذه الأعذار ليست مبرراً كافياً، ومع ذلك يكررها المرء مخادعاً نفسه على أنها ستقبل.



وتقول سورة فاطر: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ(١٨).

كل إنسان سيسجل له من الأعمال ما يقوم بها هو بنفسه لنفسه، ولن يسجل له أعمال أو عبادات يقوم بها غيره،

التهاون بعذاب الآخرة والظن أن بالإمكان النجاة منه

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥) سبأ.

هذا المنطق يردد مثله بعض الناس ممن ينتسبون للإسلام، ولكنهم مستمرون على الكبائر. ولديهم ظن أن الله سيغفر لهم، لأنهم ينفقون في بناء المساجد أو معاونة بعض الفقراء. والبعض يقنع نفسه أن الله لا يتلذذ بتعذيب الناس خاصة من يؤمن به. وهم يخدعون أنفسهم وهم لا يشعرون، لأن الله جل شأنه لا يتعامل بالعاطفة فيغفر لمن يعصيه ويصر على المعصية. ولكنه سبحانه وضع قواعد ثابتة واضحة للتوبة من عمل والتزم بها غفر له، ومن خالفها عذب ولو شهد بالله ورسوله.

والله جل وعلا خلق كل المخلوقات ووعد من يؤمن بالجنة ومن يكفر بالنار، فالعذاب والنعيم يختاره المخلوق لنفسه، ولا يختاره الله للمخلوق.

وتقول سورة فصلت: لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ(٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥٠).

والآيات وإن كانت تتحدث عن كبراء قريش، إلا أنها تنطبق على كثير من العصاة الذين يعلنون الإسلام، حيث نجدهم يقترفون الموبقات ويشعرون أنهم إن ماتوا عليها فسيغفر الله لهم وسيدخلهم الجنة. والآية تقول لهم: « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ".

وتخبرنا سورة مريم أن أحد كبراء قريش يظن أنه سيكون له المال والولد في الآخرة كما له في الدنيا: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً(٧٧) أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ



الرَّحْمَنِ عَهْداً(٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً(٨٠) مريم.

ومثله ما ورد في سورة الكهف على لسان ذلك الكافر الظالم لنفسه المغتر بدنياه: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً(٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً(٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً(٣٧).

وتؤكد سورة سبأ المعيار الإلهي لدخول الجنة: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧).

فليس المال والأولاد ولكن الإيمان والعمل الصالح.

أما الجنة فليست بالأماني ولكنها لمن آمن بالإسلام وعمل صالحاً، كما تؤكد سورة البقرة: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢).

الإنسان يلجأ لله عند الشدة وينساه في حال الرخاء

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢) لقمان.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ للهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(٨) الزمر.

والإيمان يحتم المواصلة، وهو ما تؤكده الآية التالية: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) الزمر.

ومن ينسى الله ولو لفترة بسطة نسيه الله.

ومثله: فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) الزمر.



والمؤمن لا ينسى الله ولا يغفل عنه لأنه يعلم أن كل ما يصدر منه يسجل وسيحاسب عليه.

وتقول سورة الأنعام:

قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١) الأنعام.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٥٥) النحل.

كما ورد في سور سابقة، مثل: بني إسرائيل:٨٣، وفصلت:٥١.

القرآن يخاطب الناس حسب مداركهم

إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً(٤١) فاطر.

الآية تصور السماء وكأنها سقف مبني يحتاج لدعائم لكيلا يسقط، ويصور الأرض بسطح يحتاج لأسس لكيلا ينهار. والسماء بمعنى الكون ليس سقفاً، والأرض ليست مسطحة، لكن رجال قريش – المخاطبين في الآية – لا يعون سوى ما تشاهده أعينهم المجردة لقلة مداركهم في ذلك العصر. لذا فهم يرون السماء فوقهم مرصعة بالنجوم والشمس والقمر وتبدو كسقف سقوطه محتمل. ويرون الأرض سطحاً تحتاج لدعائم لتستقر. فجاءت الآية تقول لهم إن السماء لن تسقط لأن الله ممسك بها، والأرض ستبقى مستقرة لأن الله ممسك بها أيضاً.

والله جل شأنه بالفعل ممسك بالكون كله بكواكبه ونجومه، ولكن ليس بالمعنى الحرفي. بل بقوانينه الثابتة التي يسير بموجبها هذا الكون العظيم وكل ما فيه، بما في ذلك الإنسان.

ومخاطبة القرآن الناس حسب مداركهم تتكرر في تصوير ما في الجنة والنار ومظاهر انهيار الكون وطريقة تسجيل الأعمال وغيرها.

ومثله: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٧) لقمان.



الخطاب موجه لقريش، والآية عبارة عن جملة مجازية تصور عظم قدرة الله على مخاطبة الناس بها لا نهاية.

والله جل شأنه لا يصدر منه كلام بحروف وعبارات كما البشر، كما أن رسائله للناس لن تقف لو احتاجت العبارات لأكثر من سبعة أبحر. لكن الآية قالت مداد بسعة مياه سبعة أبحر لتصور عظم القدرة بصورة تفهمها قريش وبأسلوب معتاد لديهم.

مثال آخر من نفس السورة: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَّ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) لقمان.

المفسرون يقولون: يدخـل ما ينقص من ساعات الليـل فـي ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد فـي هذا. وَيُولِـجُ النَّهارَ فِـي اللَّـيْـلِ ويدخـل ما انتقص من ساعات النهار فـي ساعات الليـل، فما نقص من طول هذا زاد فـي طول هذا.

ولو كنا نعيش في عصر الرسول لعرفنا أن قريشاً تشاهد مجيء الليل ويعقبه نهار ثم ليل ثم نهار وهكذا، وكأن الليل يلج في النهار ثم يلج النهار في الليل. هذا ما تراه اعينهم وهو ما صورته الآية.

وجاء في سورة النحل: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٧٥) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٧٦).

والقرآن هنا لا يقرر العبودية، ولا يقرها، لكنه يضرب مثلاً من واقع اجتماعي موجود.

كما أن الآية (٧٦) لا تقرر أن الأبكم «كلٌّ» بمعنى عالة.

وكل الآيات التي تصور انهيار الكون ونشأة يوم القيامة، وما في الجنة من نعيم وما في النار من جحيم وصور صحيفة الأعمال الحسية المجازية وكل ما شابهها تخاطب قريشاً بما تدرك، وليس وصفاً حقيقياً لهذه الأشياء.



القرآن شفاء للفكر وليس للجسد

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤) فصلت.

قريش تتحجج بحجج واهية لرفض الحق والتمسك بالموروث، وإلا فمن يريد أن يؤمن فالمهم هو ما يقول القرآن وما يشرع وليس بأي لغة نزل. فالقرآن شفاء للفكر، ويضمن لمن تبعه الجنة. هذه هي غاية القرآن، وبالتالي فالقرآن لا يشفي أسقام الجسد كما يزعم بعض المشعوذين ورجال الدين: لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٥٨) يونس.

وليس كما يظن البعض أن قراءة بعض الآيات والسور يشفي من الأمراض العضوية، واستغل هذا ضعاف النفوس والإيمان واتخذوها تجارة لهم ستكسبهم المال في الدنيا والحسرة في الآخرة.

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً(٨٢) بني إسرائيل.

وهو ما ينفي زعم من يستغل القرآن وكأنه يشفي من الأمراض ليمتص أموال الناس بالباطل.

القرآن لم يكتب في مكة

تقول سورة الشورى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٤).

لو شاء الله لختم على قلب محمد فنسي كل ما نسخ في ذاكرته من القرآن الذي سبق وأوحي له به. مما يعني أن القرآن لم يكتب منه شيء في مكة، لأنه لو كان الرسول يكتب كل سورة تنزل



عليه عند نزولها فحتى لو نسي ما سجل في ذاكرته فسيبقى محفوظاً في الصحف.

ومثله: وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً(٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً(٨٧) بني إسرائيل.

وتقول سورة الأنعام: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧).

قريش تكرر طلبها للرسول بأن يظهر بعض الآيات والخوارق، ولو رأوا ما طلبوا فلن يؤمنوا. والآية تقول بأنه لو نزل القرآن مكتوباً في قرطاس لقالوا سحر. وهذا يدل على أن القرآن لم يكتب في مكة، لأن السورة نزلت في أواخر العصر المكي.

وتقول سورة العنكبوت: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩).

الرسول لم يكن يقرأ ولا يكتب، وكان القرآن يحفظ في الصدور. فالرسول كان ينسخ في ذاكرته، والمؤمنون يحفظون منه ما يستطيعون. وهكذا بقي الوضع طوال فترة الدعوة في مكة، لأن العنكبوت من أواخر السور التي نزلت في مكة.

ولم يكتب منه شيء عند نزول سورة البقرة: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ(١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(١٦٢) البقرة.

والآيات تحذر كل من يكتم الوحي ولا يبلغه للناس الذين لا يعرفونه. وكل من يفعل ذلك فهو كافر وعليه اللعنة وسيخلد في النار.

والآيات تشير إلى أن هناك بعض من يحفظ القرآن عندما يسأل عن حكم القرآن في مسألة لا يخبر السائل بما يقول القرآن، أو أنه يخبره بشيء مخالف وينسبه للقرآن.



القرآن ليس مخلوقاً ولا منطوقاً

تقول سورة الصافات: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١).

ويستفاد من هذه الآيات أن الجن لم يكونوا يستمعون لكلام منطوق من الملائكة قبل منعهم، مثل كلام البشر. لأن الملائكة لا يتخاطبون بكلام مثل البشر ولا تصدر منهم أصوات لأنهم لا يملكون جهازاً تنفسياً، فكيف تمكن الجن من معرفة ما يدور بين الملائكة؟

لابد أن الجن وكل المخلوقات اللاجسدية في الكون يستطيعون التقاط لغة التواصل التي يتواصلون بها فيما بينهم. وهي لغة ليست منطوقة كما لغات البشر، ولا مخلوقة، لأن المخلوقات لا تخلق. وهذا يدل على أن توصيل المعلومة ليس بالضرورة محصوراً بأن تكون منطوقة أو مخلوقة كما اقتتل أصحاب الكلام فيما بينهم في العصر العباسي حول إن كان القرآن مخلوقاً أو منطوقاً.

والقرآن لم يكن قرآناً إلا بعدما حفر في ذاكرة الرسول بنصوص عربية، أما قبل ذلك فكان عبارة عن صيغة مشفرة لا نعلمها، مطبوعة في الأرشيف الإلهي. وقد كلف جبريل بنقلها للرسول. وهو أحد الملائكة الذين لديهم قدرة على فهم شفرة الأرشيف الإلهي، وطبعه في ذاكرة الرسول على شكل نصوص عربية يمكن للرسول تذكرها وقراءتها على الناس.

وتم نقل الوحي بطريقة ليست منطوقة ولا مخلوقة. وسبق ذلك أن الله جل وعلا أودع في الأرشيف الإلهي نسخة الوحي الأصلية، دون حاجة لأن ينطق بها ولا حاجة لأن يخلقها على شكل كلام أو حروف. فالوحي في الأرشيف الإلهي ليس كلاماً ولا حروفاً محسوسة مخلوقة.

ولكن أصحاب الكلام في العصر العباسي قاسوا ما لله على ما يعرفون. فتخيلوا أن هناك تواصلاً مباشراً بين الله والملائكة. وأن الله جل وعلا أوصل الوحي لجبريل مباشرة. وبهذا وحسب مداركهم الضيقة ليس هناك مجال لنقل المعلومة إلا بطريقين: إما أن الله نطق بها، وسمعها الملك وحفظها. أو أن الله خلقها في عقل الملك.



القرآن هو ما بقي بعد الرسول / لا عيسى ولا مهدي / محمد خاتم النبيين

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ(٣٧) فاطر.

بعد وفاة الرسول سيبقى الكتاب (القرآن) بين الناس لحمل الرسالة لكل زمان ومكان فمن آمن فله الجنة، ومن كفر ففي النار.

ولن يكون هناك حاجة لرسول أو مهدي لأنه لن يأتي بأكثر مما قال القرآن.

الإنجيل تجديد لشريعة موسى وليس شريعة منفصلة

للأسف فغالبية المسلمين رسخ لديهم أن الديانة الغربية المنتشرة في العالم اليوم باسم المسيحية مستمدة في الأصل من ديانة عيسى ابن مريم، وأن كتابهم المقدس هو في الأصل إنجيل عيسى. وهذا الخلط ظهر بعد الفتوح الأولى التي استولى فيها المسلمون على بلاد الشام ومصر والعراق حيث كانت تنتشر المسيحية. وفي وقت انتهى أمر البقية الباقية من النصارى الذين كانوا يعيشون في يثرب عند بعثة رسول الله. فبعضهم أسلم وقلة قليلة منهم هاجرت من يثرب وذابت في المجتمعات التي عاشت فيها. ولأن سكان البلاد المفتوحة كانوا يعتنقون المسيحية، ولأن القرآن تحدث عن النصارى، ولأن عقيدة النصارى الذين غالوا في عيسى فيها شبه من عقيدة المسيحيين في يسوع فقد ظن من دخل الإسلام من البلاد المفتوحة أن ديانتهم السابقة تحدث عنها القرآن، وأنه سماها «النصرانية» بدل



المسيحية، وتسمية يسوع عيسى. وظهر اعتقاد بأن رسالة عيسى هي كتب المسيحيين لكنها تعرضت للتبديل والتغيير. وأصبح ينظر لكتب المسيحيين وعقيدتهم بنظرة احترام كونها امتداداً لديانة إلهية مثل الديانة اليهودية. وتأول المفسرون كل الآيات التي تتحدث عن عيسى على أنها تتحدث عن يسوع. والحقيقة هي أن عيسى ابن مريم رسول لبني إسرائيل أرسل لهم مباشرة بعد موسى ليعيدهم لتشريعات التوراة وليس هناك كتاب مكتوب اسمه الإنجيل حمله عيسى في دعوته. وللمزيد عن هذا الموضوع يمكن الرجوع لكتاب: مسيحية بولس وقسطنطين[1].

أما الإنجيل فلم يكن كتاباً مكتوباً كما التوراة

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢) الأحقاف.

الحديث عن قريش ورفضها لدعوة رسول الله، والآيات تؤكد أن دعوة الرسول كتابٌ موحى به من الله، لم يسبقه كتاب إلا كتاب موسى. ولو كان إنجيل عيسى شريعة متكاملة مستقلة بذاتها كما التوراة والقرآن لذكر هنا. ولكن دعوة عيسى مجرد تجديد لدعوة موسى فقط. ولم يسبق القرآن شريعة متكاملة غير التوراة. والتوراة والقرآن هما الشريعتان الوحيدتان اللتان كتبتا على شكل كتاب في صحف من بين كل رسالات الرسل المذكورين في القرآن. وهو ما تؤكده السورة في موضع آخر: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) الأحقاف.

فالجن الذين استمعوا لرسول الله وهو يتلو القرآن يؤكدون أنه لم ينزل كتاب (وحي متكامل) منذ نزول التوراة، غير القرآن، ولو كان الإنجيل كتاباً (شريعة متكاملة) لذكروه. وهي شهادة شهود عيان عاصروا زمن موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وجاء في سورة الزخرف:

---

١ من منشورات الجمل.



وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٦٣).

فعيسى لم يأت برسالة خاصة ولكنه جاء ليبين لبني إسرائيل ما تركوه واختلفوا فيه من التوراة.

وتسمية الإنجيل بالكتاب ولو لم يكتب، مثل قوله تعالى: لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٠) الأنبياء.

والكتاب هنا يقصد به القرآن، الذي لم يكتب منه حرف واحد عند نزول سورة الأنبياء، ولم يكتب منه حرف واحد طوال فترة الدعوة في مكة، ومع ذلك سمي كتاباً. لأنه نصوص معروفة يمكن كتابتها.

العقل وحده كاف للتعرف على الحق

أصحاب الكهف فتية اهتدوا إلى أن الله الخالق أحق بالعبادة من الأصنام التي يعبدها قومهم: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً(١٤) هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً(١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً(١٦).

والعقل آلية خلقها الله كافية لأن تهدي صاحبها بأن الله واحد وأنه أحق بالعبادة لكل من يسمح لعقله بالتفكير الحر. والاهتداء لوحدانية الله بواسطة العقل كافية للجنة لكل من لم يصله رسالة، كما يفهم من هذه الآيات، ومن الآيات التي تتحدث عن اهتداء إبراهيم إلى وجود خالق واحد هو أحق بالعبادة من الأصنام.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٨) الزخرف.

إبراهيم مثال وبرهان حي بأن الله جل شأنه أنعم على الإنسان بعقل لو سمح له صاحبه بالتفكير الحر لهداه لوجود خالق للكون، وهو الأحق بالتعظيم والعبادة. وهذا كاف



لدخول الجنة لكل من لم يصله رسالة أو رسول، وإجابة لمن يتساءل عن مصير من لم يسمع بدين الله.

لا يؤمن سوى قلة مستضعفة

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥) الشعراء.

الحديث عن نوح وقومه.

ومثله: حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ(٤٠) هود.

ومثله: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) يوسف.

فغالبية الناس تتمسك بموروثها الذي قامت عليه مصالحها الدنيوية ولا تميل للدين.

وأكثر الناس لن يؤمنوا: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢) الأعراف.

وتقول سورة غافر: إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ(٥٩) غافر.

حقيقة أن أكثر الناس لن يؤمن، ليس لأن الحق غامض ولكن لأن الناس يتشبثون بالدنيا.

وهو ما تؤكده سورة الرعد: المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١).

من يرفض الدعوة مرة، لن يؤمن بها أبداً

يخبرنا القرآن أن من السنن الأزلية التي تسير عليها كل الأمم والمجتمعات والأفراد في كل زمان ومكان، أن من يرفض الدعوة (دينية أو إصلاحية) عندما يسمعها للمرة الأولى، فعادة لا يعود ويقبل بها أبداً. ولذلك لا غرابة في تمسك قريش والأمم السابقة بموروثها ورفض الدعوة برغم بقاء الرسل بينهم سنوات عديدة. ولا غرابة في أن ينزل القرآن يتوعد



أفراداً من قريش أحياءً بالنار، لأنهم سيبقون على كفرهم ويموتون وهم كفار.

وفيما يلي بعض الأدلة مما ورد في القرآن:

تقول سورة «يس»: يس(١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ(٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(٩) وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١).

الآيات تقول عن قريش إنهم غافلون عن الحق، وحق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. فكل من قال: لا للدعوة عند سماعها لا يؤمن بها أبداً. ولهذا فالآيات تصفهم وكأن هناك أغلالاً في أعناقهم تجبرهم على تنكيسها. ونكس الرأس تعبير مجازي يستخدمه القرآن للدلالة على الإعراض ورفض الحق، بعد أن تبين لهم. ومن ذلك ما ورد في سورة الأنبياء التي تتحدث عن تكسير إبراهيم للأصنام ليثبت لقومه أنها لا تستحق العبادة وعليهم عبادة الله، وقد وجدوا في البداية فعله منطقياً، لكن التمسك بالموروث غلبهم فنكسوا على رؤوسهم (نكصوا عن الحق): قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ (٦٥) الَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦).

فنكسوا على رؤوسهم كما نكست قريش على رؤوسها، ولن تقبل بدعوة الحق التي يدعوهم لها رسول الله محمد أبداً. وهو ما أكدته سورة يس نفسها في مكان آخر: وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤٦).

وسيبقى رجال قريش معرضين عن الدعوة مهما دعوا.

وسورة نوح تظهر بتفصيل واضح كيف حاول نوح كل السبل لإقناع قومه بدعوته ولكنهم



أصروا على الكفر ولم يستجيبوا لدعوة الحق برغم جلد نوح وصبره ومواصلته ووضوح الحق الذي يدعو له: إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ(٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً(٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً(٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً(٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً(١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً(١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً(١٦) وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً(١٨) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً(١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً(٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً(٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً(٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً(٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَاراً(٢٥).

وقوم نوح يشبهون قريشاً في أنهم عبدة أصنام منكرون للبعث وإن كانوا يؤمنون بوجود الله الخالق. وبرغم وضوح الحق وقوة حجة نوح إلا أن قومه أعلنوا رفضهم لها وتمسكوا بموروثهم الهش البعيد عن المنطق، حتى هلكوا على الكفر. وهو ما حدث لكبراء قريش سواء من مات أو قتل قبل فتح مكة أو من مات أو قتل بعد الفتح. ولا عبرة بزعم كتب السير والتاريخ أنهم أسلموا، لأنها كتب كتبت بإشراف قريش بعد استيلائها على حكم دولة المسلمين ولا يركن لروايتها لمخالفتها سنة أزلية أكدها القرآن وسارت عليها كل الأمم.

وتقول سورة القمر: وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ(٣) وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ(٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ(٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ(٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ(٨).



والحديث في الآيات عن قريش التي أعلنت كفرها وتمسكت بموقفها الرافض للدعوة برغم استمرار الرسول بدعوتهم لسنوات حين نزول هذه السورة التي تؤكد أنهم لن يؤمنوا مهما دعوتهم يا محمد. وهذا لا شأن له بقوة حجتك ولا وضوح الحق الذي تدعو إليه. ولا يعود تعنت قريش ورفضهم للحق لأنك يا محمد لم تظهر لهم آية (معجزة)، ولكن قريشاً تبعت سنة أزلية سارت عليها كل الأمم وستسير عليها كل الأمم إلى يوم الدين. وتتمثل بالتمسك بالموروث ونبذ أي دعوة تخالفه وحرب الداعي لها، مهما كان الموروث متهاوياً كما هو حال موروث قريش القائم على عبادة أصنام من حجارة يدعون لتركها وعبادة رب العالمين.

وتخاطب سورة الأحقاف قريش: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(٣) الأحقاف.

والآية تؤكد أن قريشاً التي أعرضت عن الدعوة منذ بدايتها ستستمر في معارضتها أبداً.

وتتوجه سورة الجاثية بوعيد شديد لقريش لإصرارهم على الكفر: وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠).

سخرية قريش بالقرآن لن تتوقف، ورفضهم الدعوة سيستمر، لأن من لا يتخلص من قيود الموروث ويتبع الدعوة بداية سماعه لها دون تردد فسيبقى على تمسكه بالموروث ولن يصغي للحق مهما دعي. وهذا ينطبق على كل الناس في كل زمان ومكان، فأتباع المذاهب الذين يترددون عند سماع الحق في التخلص من الموروث سيبقون على موروثهم مهما دعوا بعد ذلك وسيموتون على معتقدهم وسيذهبون للنار بمحض إرادتهم.

وتقول سورة فاطر عن قريش: إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(١٤).

هذه السورة نزلت بعد سنوات من بدء الدعوة في مكة، وقريش باقية على رفضها للدعوة ولن تستجيب مهما دعيت.

وكررت سورة فصلت تأكيد موقف قريش الرافض للدعوة: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ



الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥) فصلت.

برغم أن القرآن نزل بلغة عربية سليمة واضحة وسهلة الفهم إلا أن قريشاً لم تؤمن ليس لأنها لم تفهم القرآن، ولكن لأنها رفضت الدعوة وتمسكت بموروثها، وهو ما أصم آذان رجالها عن سماع الحق وأغلق عقولهم عن التفكير بما يتلى عليهم، وكأن بينهم وبين الرسول جداراً عازلاً.

وبرغم مرور سنوات على بدء الدعوة في مكة إلا أن موقف قريش الرافض لم يتغير أبداً ويزداد تعنتاً.

وتقول سورة الكهف: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً(٥٧) الكهف.

مهما دعا الرسول قريشاً فلن يؤمنوا « وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً» ليس لأن الله قد كتب عليهم الضلال، ولكن لما يعرف بالضرورة والعادة. فحسب سنة الأولين التي سارت وتسير عليها كل الأمم، من يقول لا للدعوة لا يتراجع أبداً.

وبناءً على هذه القاعدة يمكن معرفة خاتمة كل طاغية أنه لن يتراجع وسيموت طاغية، وكل ضال سمع الحق ورفضه بأنه سيموت وهو ضال.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(٨) سبأ.

هذه الآية نزلت بعد مرور عدة سنوات على بدء رسول الله الدعوة في مكة، دون أن تتغير مواقفهم الرافضة للدعوة، ولو بقي الرسول في مكة إلى الأبد فلن يؤمن به من أهلها إلا من آمن عند بداية سماعه للدعوة.

وتقول سورة الحجر: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ



سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ(١٥).

قريش لم تؤمن وأصرت على الكفر. ولكي تبرر موقفها كانت تطالب الرسول أن يريهم "آية" ليثبت صدق رسالته أو ينزل الملائكة أو مطالب تعجيزية أخرى. والآيات تؤكد للرسول أن مطالبهم للجدل فقط ولو تحقق لهم ما أرادوا فلن يؤمنوا. حتى لو فتح لهم باب إلى السماء وعرجوا منه لقالوا لم نر شيئاً ولن نؤمن.

وفتح باب للسماء يعرج منه الناس مجرد مثل افتراضي يتناسب مع مدارك قريش وما يتصورون السماء عليه في وقتهم. فهم يظنون أن الأرض طبقة دنيا تعلوها طبقة هي السماء الدنيا ثم الثانية والثالثة إلى السابعة ثم يعلوها عرش الرحمن. وهذا ليس الواقع الذي بدأ يتكشف في عصرنا، والذي يظهر أن الأرض عبارة عن كويكب تافه في مجرة حقيرة في كون هائل الاتساع يمثل عالم المخلوقات. وهناك عالم الخالق جل وعلا الذي لا يمكن تخيله. وليس هناك طبقات فوق بعض أسفلها الأرض وأعلاها العرش.

وتقول سورة المؤمنون: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ(٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(٤٤).

وتقول سورة يونس: قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٣٣).

لو كانت قريش ترغب في الإيمان فإن التفكر بخلق الله كفيل بتأكيد البعث الذي ينكرون. لكن قريشاً رفضت الدعوة في البداية تمسكاً بموروثها، ولن تؤمن بعد ذلك أبداً مهما دعيت، ومهما اتضح لها أن الدعوة حق.

وتقول سورة الأنبياء: بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ(٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ(٦).

اتهام الرسول تبرير يُشعر قريشاً بأن تمسكها بموروثها هو الحق، وكل الأمم قبلها نهجوا



نفس النهج، وهو ما يسير عليه كل أتباع موروث. ولن تؤمن قريش ليس لأن الدعوة باطلة، ولكن لأن أتباع الموروث الذين لا يقبلون نقد موروثهم من البداية لن يقبلوا بنقده أبداً، بغض النظر عما يقول المخالف.

ومثله: وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(٣٦) هود.

وتقول سورة الأنعام: وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤) فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٥) أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ(٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧) وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ(٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ(٩) الأنعام.

التمسك بالموروث يحتم صم الآذان عن سماع ما يخالفه ومحاولة جدال الداعي والبحث عما يخرجه لتبرير موقفهم الرافض والشعور بالرضى.

ولو كانت قريش تريد الحق لاعتبرت مما حدث لأمم قبلهم، لكنها مستمرة بالكفر وتكرر طلب آيات من الرسول. ولو رأت الآيات فلن تسلم وستبحث عن تبريرات أخرى.

وتقول نفس السورة: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٢٦) الأنعام.

قريش رفضت الدعوة ولن تؤمن أبداً. وكانوا يجادلون الرسول في محاولة لدحض الحق. إضافة لإلصاق تهم باطلة عند من لا يعرفه من الناس القادمين لمكة للاستماع إليه.

وتقول سورة الشعراء: قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ(١٣٦).

والحديث عن عاد وإعلانهم الرفض التام للدعوة، ولن يتغير موقفهم مهما دعاهم رسولهم هود. مثلهم مثل كل أتباع المعتقدات المختلفة.



وتقول سورة الرعد: كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ(٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل للهِّ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِّ إِنَّ اللهَّ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(٣١).

لن تؤمن قريش ولو رأت كل آية.

وتقول سورة الحج: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥).

فإن كان الرسول بقي في قريش سنين عدداً يدعوهم، ولم يؤمن منهم إلا من قد آمن في بداية سماعهم للدعوة، فإن زعم كتب التراث أن رجال قريش قد آمنوا بعد فتح مكة، زعم لا أساس له لأن القرآن يؤكد أنه لا يمكن أن يحدث. وبالتالي فالتصديق بالأخبار التي تروى عن بقاء رجال قريش على الكفر بعد الفتح هي التي تصدق لأن القرآن يؤيدها، بينما القصص التي تروى عن تقوى أبي سفيان أو العباس فمناقضة للقرآن ولا يمكن ان تكون قد حدثت على أرض الواقع مهما حاولت كتب التراث التي كتبت في عهد أبنائهما تلمع صورتيهما.

وأجدني أميل بلا تحرج إلى القصص التي تظهر بقاء قريش على الكفر، ومن ذلك ما ورد في كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من آثار للأزرقي، والذي يقول: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال بعض الناس :يا عباد الله لهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة فقال بعضهم أن يسخط الله عليه هذا الأمر يغيره فأنزل الله عز وجل" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى "الآية وأخبرني جدي عن محمد بن إدريس الشافعي عن الواقدي عن أشياخه قالوا جاءت الظهر يوم الفتح فأمر رسول الله بلالاً أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فر وجوههم وتغيبوا خوفاً أن يقتلوا فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد أومن فلما أذن بلال رفع صوته كأشد ما يكون قال: فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله تقول جويرية بنت أبي جهل :قد لعمري رفع لك ذكرك، أما الصلاة فسنصلي ووالله ما نحب من قتل الأحبة أبداً ولقد جاء إلى أبي الذي كان جاء إلى



محمد من النبوة فردها ولم يرد خلاف قومه، وقال خالد بن أسيد :الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم، وكان أسيد مات قبل الفتح بيوم، وقال الحارث بن هشام :واثكلاه ليتني مت قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة، وقال الحكم بن أبي العاص :هذا والله الحدث الجليل أن يصيح عبد بني جمح ينهق على بنية أبي طلحة[1].

ومثل ما نقل ابن هشام عما حدث بعد هزيمة المسلمين في حنين، قال ابن إسحاق: فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته.

وصرخ جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم! (يقصد أن سحر الرسول على الناس بدعوته)

ولعل للعباس ابن عبد المطلب مواقف مماثلة لكن استيلاء بني العباس على السلطة مكنهم من حذف كل ما يسيء لجدهم، بينما بقي بعض القصص عن أبي سفيان وبنيه وقد يكون أضيف عليه وزيد. وقد لا يكون حدث ما تقول القصص التي أوردنا لكن دلالتها على عدم إيمان رجال قريش بعد الفتح هو الثابت بشهادة القرآن.

سنة الأولين

هي مواقف تتكرر عند كل الأمم منذ خلقت البشرية وحتى نهايتهم، ولها عدد من التشعبات، منها:

- أن غالبية الناس يرفضون دعوة الرسول ويحاربونها، ولا يقبلها إلا الضعفاء.
- أن من يؤمن تبدأ أجيالهم بعد الرسول بالتحول عن الدين إلى دين خليط يتكون من بقايا الدين الأصلي وتشريعات بشرية. بعضها مبتدع، وبعضها بقي من معتقدات سابقة.

وهذا الخليط يصبح موروث الأمة الديني، الذي يتمسك به الناس ولا يرون له بديلاً.

وكل من ينتقد هذا الموروث أو يدعو لتركه يعتبر هو الضال والخارجي، ولو كانت دعوته

---

[1] باب ما جاء في رقي الكعبة وأذانه عليها يوم الفتح.



للعودة لدين الله.

وفيما يلي بعض الأدلة على هذه الحقائق من القرآن:

التمسك بالموروث

التمسك بالموروث ورفض دعوة الرسل أو الدعوات التصحيحية للعودة للدين، سنة أزلية سار عليها البشر منذ وجدوا على ظهر الأرض وسيسيرون عليها إلى أن ينقرضوا: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ(١٥) الحجر.

وتقول سورة الأعراف: أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢).

وورد في سورة مريم مثله: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً(٥٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً(٥٩).

وتقول سورة سبأ: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣٤).

وتكرر هذه الحقيقة سورة المؤمنون بشيء من التفصيل: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ(٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ(٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ(٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ(٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(٣٧)



إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ(٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ(٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ(٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ(٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(٤٤).

فكل الأمم تمسكت بموروثها ورفضت دعوة الرسل، وبررت كفرها بنفس التبريرات، ولم تغير من موقفها الرافض أبداً وهلكت على الكفر.

وهي حقيقة هامة بينها القرآن وغفل عنها الناس، تفسر مواقف الناس الرافضة لأي دعوة دينية أو إصلاحية في أي مجال. ويعود تمسك الناس بالموروث ورفض التغيير إلى أن الموروث هو شخصية الأمة والقبول بتغييره يعني اعترافاً بوجود قصور أو نقص أو عيب في تلك الشخصية، وهو نقد لا يحبذ الإنسان الاعتراف به داخل نفسه، ويكره سماعه من الغير، وبالتالي فلن يقره أو يقبل به، بغض النظر عن خطأ الموروث أو صحة الدعوة المناهضة له.

وقريش كانت تؤمن بوجود الله الخالق: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(٨٧) الزخرف.

وهو ما تؤكده سورة لقمان: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٢٥) لقمان.

وسور أخرى.

وإيمانهم بوجود الله بقي من دين أبيهم إبراهيم، لأن قريشاً لم يسبق أن أرسل لهم رسول: وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ(٤٤) سبأ.

وهو ما تؤكده سورة الزخرف: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ(٢٩) وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(٣٠) الزخرف.

وسورة طه: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى(١٣٤).

وسورة السجدة: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣).



وسورة يس: يس(١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦).

وغيرها.

وقريش هم نسل إسماعيل ابن إبراهيم، الذي ولد في مكة وبقي نسله فيها حتى ظهور الإسلام، ولا عبرة بما ورد في بعض كتب التاريخ من أن أبناء إسماعيل طردوا من مكة وعادوا لها. وبعد وفاة إسماعيل بقي أبناؤه وأحفاده على دين أبيهم إبراهيم، لكن – وحسب قانون سنة الأولين – بدأت الأجيال تعتنق تشريعات بشرية، وشيئاً فشيئاً تحول الناس من دين الله الحق إلى تشريعات بديلة أدت بهم في النهاية إلى الوثنية. وطوال الفترة بين وفاة إسماعيل وظهور رسول الإسلام محمد عليهما الصلاة والسلام، لم تعرف قريش رسالة ولا رسولاً. وعندما بعث محمد كانت الوثنية قد ترسخت وأضحت دين السلف وتمثل الموروث المقدس. وبما أن دين الله الذي دعا له محمد يتعارض مع الوثنية وثقافتها وأعرافها المترسخة في المجتمع فقد رفضت قريش الإسلام وتمسكت بموروثها الوثني، معتبرين الحق باطلاً، والباطل هو الحق.

ورجال قريش ليس فقط يؤمنون بوجود الله، بل كانوا يعرفون أن الله يرسل الرسل للناس، ولهذا كانوا يتمنون أن يرسل الله لهم رسولاً ليهتدوا. لكن عندما أرسل لهم محمداً كفروا به: وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ(١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الْأَوَّلِينَ(١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(١٧٠) الصافات.

وهو ما أكدته سورة فاطر التي تبين أن كفر قريش نتيجة لأن الدين الذي يدعو له الرسول يتعارض مع موروثهم، وليس لأنه غير صحيح. فرفضوا الدين الحق وتمسكوا بالموروث الباطل: وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً(٤٢) اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً(٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً(٤٤).



وتقدم سورة الزخرف بعض تبريرات قريش التي تبرر بها رفضها للدعوة، وهي تبريرات مماثلة لما صدر عن كل الأمم غيرها: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ(٢٩) وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢).

لكن السبب الرئيسي والجوهري لرفض الدعوة هو التمسك بالمورث: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ(٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ(٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ(٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(٧٤) الصافات.

والتمسك بالموروث لا يعني أن المجتمعات تبقى على موروثها وتتوارثه دون تغيير، بل التغيير جار في كل المجتمعات الإنسانية وباستمرار. وكل جيل سيكون في بدايته ثائراً على الموروث ويحاول فرض أسلوب حياته الجديد في طريقة التفكير والملبس والتصرف وكل جوانب الحياة الأخرى، معتبراً ما وجد الجيل السابق يفعله عتيقاً لا يتناسب مع عصره. وتمر السنين وينشأ جيل جديد بأفكار وتصرفات ومظاهر جديدة، ويصبح الجيل السابق الذي كان ثائراً، جيلاً محافظاً يتمسك بما لديه من تراث بعضه ورثه من أجيال سابقه، وبعضه كان قد أحدثه، وهذه الصورة مستمرة بالتكرار منذ نشأ البشر على الأرض وستدوم ما بقي الناس عليها. والتغير في العقائد يتم عبر الأجيال مثل التغير في الذوق الموسيقي أو طريقة المآكل والملبس، ولكن بطريقة مختلفة. لأن الدين يشتمل على مواضيع وجوانب كثيرة ومتشعبة، ويتم التحول في هذه المواضيع والجوانب حسب درجة التأثيرات المحيطة في كل منطقة أو مجتمع أو مجموعة على حدة. ولذلك لا تتغير هذه الجوانب كلها بنفس الوقت والسرعة والنوعية عند كل أهل المعتقد في كل مكان. وقد يحدث تغير في جانب من جوانب العقيدة في مكان أو عند فرقة معينة دون أن يطرأ على نفس الجانب نفس التغير في مكان آخر أو فرقة أخرى، وهذا ما يفسر ظهور الفرق والمذاهب التي تختلف في المسائل الفقهية في الدين الواحد.



والتغير في المعتقد يقابل بمعارضة اجتماعية أشد من التغير في أي مجال آخر. ولكن متى ما قبل المجتمع التغير فإن رسوخ المعتقدات تتم بصورة أعمق من رسوخ التغيرات في المجالات الأخرى، لأن المعتقدات المتبناة تصبح جزءً من ثقافة المجتمع وشخصيته يصعب التخلي عنها.

ومنذ وجد الإنسان على الأرض والمفاهيم الدينية تتحور ويتحول الناس عن جوهر الدين مع مرور الزمن، فيبعث الله الرسل لإعادة الناس للدين الصحيح: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. (البقرة: ٢١٣).

ليتكرر المشهد بوتيرة واحدة لا تتغير، برغم اختلاف الزمان والمكان: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ.(الذاريات: ٥٢-٥٣)

ولذلك أصبحت كل المعتقدات والأديان عند تابعيها، نقلاً وليست عقلاً. لأن النقل يعني الإبقاء على آراء السابقين والموروث الديني كما هو، أما العقل فهو نقد لتلك الآراء وكشف عيوبها أو زيفها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(٨) سبأ.

وفي نفس السورة: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ....(٣١).

وقريش – كغيرها من الأمم – تمسكت بالموروث في تصرف مماثل لتصرف القرود الخمسة في التجربة - التي يعرفها الكثيرون – والتي تجسد بالفعل التمسك بالموروث دون وعي أو تفكير.

والتجربة عبارة عن وضع خمسة قرود في قفص واحد، وفي وسط القفص وضع سلم وفي أعلاه بعض الموز. وفي كل مرة يصعد أحد القرود لأخذ الموز يرش العلماء باقي القرود بالماء البارد. وبعد فترة أصبح كل قرد يصعد لأخذ الموز، يقوم البقية بمنعه وضربه حتى لا يتم



رشهم بالماء البارد.

بعد فترة، تم استبدال أحد القرود الخمسة ووضع مكانه قرد جديد. وبطبيعة الحال كان أول شيء قام به البديل هو محاولة صعود السلم للحصول على الموز، لكن وبمجرد أن بدأ الصعود حتى قامت القرود الأربعة بضربه وإجباره على النزول. وبعد عدة مرات من المحاولات والضرب هم القرد الجديد بأن عليه ألا يصعد السلم مع أنه لا يعرف السبب.

ثم استبدل قرد آخر من القرود القدامى وحل محله قرد جديد، ليتكرر معه ما حدث للقرد البديل الأول، حتى أن القرد البديل الأول شارك زملاءه بالضرب وهو لا يدري لماذا يضرب القرد الجديد كلما حاول الصعود لأخذ الموز؟

وهكذا حتى تم استبدال جميع القرود الخمسة الأوائل بقرود بديلة لم يرش عليها ماء بارد أبدا ومع ذلك استمروا يضربون كل وافد جديد يحاول صعود السلم للوصول للموز وهم لا يعرفون السبب. وكأنهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

فالمجتمع السلفي يتمسك بموروثه ليس لأنه صحيح أو عقلاني ولكن لأن المجتمع يمنعه من الخروج عنه أو نقده. لذا كان النقل دون العقل معتقداً راسخاً عند أتباع أي موروث.

ويؤكد القرآن أن كل الأمم قد أرسل الله لها رسلاً، وأن كل الأمم قد تشابهت مواقفها من رسلها، برغم تباعدهم في المكان والزمان: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(المؤمنون:٤٤).

وأصبح التمسك بالموروث ومقاومة أي دعوة تخالفه نهجاً ومساراً وسنة أزلية سار عليها كل الناس في كل مكان وزمان، بغض النظر عن صلاح الموروث أو فساده أو صلاح الدعوة الجديدة أو فسادها. وقد أطلق عليها القرآن «سنة الأولين»: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) الحجر[١].

والتمسك بالموروث أبقى على عبادة الأبقار عند عقلاء وحكماء وعلماء الهند، وعلى الاعتقاد بأن لخالق الكون ابناً بشرياً عند الغرب. وعلى الاعتقاد أن هناك صبياً دخل مغارة قبل (١٢٠٠) عام وسيعود ليعلمنا ديننا كما يظن الشيعة. وعلى أن ما يقوله قتادة وابن جريج

١ هذه الفقرة مقتبسة بتصرف من كتاب: سنة الأولين / تحليل مواقف الناس من الدين وتعليلها. من منشورات الجمل.



وكعب الأحبار وأمثالهم هو الإسلام، كما يظن السنة.

ومهما كانت الحجة واضحة فلن يقتنع معظم الناس بخطأ الموروث. لذا فأي جدال حول الموروث الديني يأخذ منحى واحداً – وهو الدفاع عن الموروث وليس سماع عيوبه - وإن اختلفت البدايات والمواضيع.

والجدل عن الموروث وسيلة قديمة لها أصول ومنهج، وغايتها ليس سماع الحق ولكن الدفاع عن المعتقد.

هذا الجدل استخدمته الأمم السابقة التي ذكرها القرآن ضد الرسل. وهذا الجدل لا يبحث عن الحق، ولا يهمه أسلوب الجدال، ولكن يهمه أن يدحض الحجة المقابلة، وإسكات صوت المخالف، وكل وسيلة تحقق ذلك فهي مطلوبة ولو كانت غير مشروعة.

فتارة يقوم على الاستفزاز وتارة على تشتيت الفكرة الرئيسية والدخول في جدل جانبي ومرة على السخرية الشخصية ومرة أخرى على إلصاق التهم، وأساليب أخرى كثيرة. وعندما لا تفلح الأساليب السابقة يتم اللجوء لأسلوب الوعيد والتهديد. وقريش استخدمت كل أساليب هذا القانون ضد رسول الله.

من يتمسك بالموروث لا يمكن أن يصغي لما يخالفه

هذه سنة أزلية أخرى من سنن الأولين، لأن الاستماع لما يخالف الموروث إقرار ضمني بأن الموروث قد يكون على ضلال أو به عيوب أو أخطاء وهذا ما لا يقبل به أتباعه، بغض النظر إن كان المخالف على خطأ أو صواب. وبغض النظر إن كان الموروث وثنياً أو مذهبياً أو حتى إلحادياً.

تقول سورة الأعراف: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٧٩) وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٨١) الأعراف.

التمسك بالموروث أقوى من السماح للعقل بالتفكير ونقد التراث. وكأن العقل يتعطل عند أهل العقول عندما يتعلق الأمر بالتفكير بالمعتقد. فرجال قريش العقلاء يتمسكون بعبادة



الأصنام لأنها موروثهم ويرفضون عبادة الله. حق واضح وحجة بينة لكن العقلاء لا يرونها لأن عقولهم غم عليها، وهو ما تشرحه السورة في آيات أخرى: أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ(١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ(١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ(١٩٥) إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ(١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(١٩٨).

وتقول سورة فصلت: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥) فصلت.

تذكر سورة يونس ما حدث لقوم نوح في الآيات (٧١-٧٣) ثم تقول: ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤).

فكل الأمم على الإطلاق سارت على نفس السنة والطريقة. حيث يؤمن قلة مستضعفة بينما يرفض الدعوة البقية وغالبيتهم ممن له مصالح دنيوية. ومن لا يؤمن في بداية سماعه الدعوة لا يؤمن أبداً.

وتقول سورة فصلت: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥)

وتقول سورة بني إسرائيل: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦).



ومن يتمسك بالموروث فسيرفض الحق حتى لو رأى العذاب

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) الأنعام.

ومن يتبع الموروث لن يؤمن لأنه كالميت لا يشعر بما حوله: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) الأنعام.

الآية جاءت ضمن سياق يتحدث عن حزن الرسول على إصرار قريش على الكفر ويتمنى لو أعطي معجزة لعلهم يؤمنون. وهذه الآية تقول له: لقد اتبعوا موروثهم ولن يؤمنوا مهما دعوا لأنهم كالأموات لا يشعرون بما حولهم. وسيبعثون ويحاسبهم الله.

حقيقة تفرق الناس إلى عقائد مختلفة

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٥٣) المؤمنون.

دعوة الرسل واحدة، والناس دائماً ما يتركون دعوة الرسول إلى تشريعات مبتدعة. فتنشأ الفرق والمذاهب، وكل أتباع فرقة أو مذهب يعتقدون أنهم هم على الصواب.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(٤٥) فصلت.

الناس يتركون الدين ويختلفون لمذاهب وفرق.

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١٤) الشورى.

الآيات تحذر المسلمين القلة في مكة من أن يتركوا دين الله إلى تشريعات بشرية يبتدعونها كغيرهم من الأمم، الذين يتفرقون لفرق ومذاهب بعد الرسالة، بحيث تصبح الرسالة



وكلام الرحمن هو المشكوك فيه والتشريعات المذهبية هي التي يتمسك بها الناس. وهو ما حدث للمسلمين في عصور لاحقة.

أتباع الموروث يرون موروثهم حسناً

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(١٤) محمد.

المقارنة في الآية بين المسلمين وقريش. وتؤكد أن قريشاً – كغيرهم من أتباع أي موروث – يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم على الحق مهما كان موروثهم ظاهر الضلالة.

أتباع الموروث يعيشون داخل دائرة مظلمة ولا يعلمون بالنور خارجها

أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢٢) الأنعام.

الآية تصور - مجازاً – أتباع الموروث وكأنهم يعيشون داخل دائرة مظلمة ولا يعلمون أن هناك عالماً مضيئاً خارجها. بمعنى أنهم بتجاهلهم لما يوجه لموروثهم من نقد وعدم إصغائهم لصوت الحق والتفكير بالموروث، فكأنهم أحاطوا أنفسهم بعازل مظلم يعزلهم عن العالم المضيء. وعاشوا في الظلام لدرجة أنهم يظنون أن ما هم فيه هو الوضع الطبيعي لأنهم لم يروا عالماً آخر.

فيما تصور الآيات المهتدي للحق بالميت الذي عاد للحياة.

التمسك بالموروث يعمي البصيرة

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً(٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً(٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٤) الفرقان.

فرجال قريش الحكماء العقلاء يسخرون من الرسول لأنه يدعوهم لترك عبادة الحجارة



والتوجه لعبادة الله خالقهم. وتظهر الآيات أن التمسك بالعقائد الموروثة لا شأن له بحكمة المرء ورجاحة عقله. وعلى محمد ألا يستغرب أن رجال قريش الذين يراهم عقلاء لا يستطيعون تبين الحق واتباعه. ولهذا يتمسك المسيحي بعقيدته التي تنافي العقل، وكذلك الهندوسي، ومثلهم أتباع المذاهب.

محمد عليه الصلاة والسلام دعا قريشاً لعبادة الله وحده، وقريش تعلم أن الله خلقهم وخلق كل شيء، وأنه هو وحده من يضر وينفع. ومع ذلك رفضت هذه الدعوة وتمسكت بعبادة الأصنام، برغم أنها حجارة مخلوقة ولا تخلق ولا تملك ضراً ولا نفعاً، لأن التمسك بالموروث أقوى من العقل والمنطق.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ(٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ(٤٣) إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٤) يونس.

كل من يتبع الموروث لا يصغي لصوت مخالف أبداً: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(٥) الأحقاف.

وتقول سورة الحج: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦).

وتصف سورة الفرقان قريش الرافضة للحق برغم وضوحه وقوة حجته: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا(٤٤).

وضوح الحق وقوة الحجة لا يكفي لقبوله

تقدم سورة النمل حججاً لا تقبل الجدل على أن الله الخالق – الذي تعرفه قريش – أحق بالعبادة من الأصنام، وأن البعث الذي تنكره قريش سهل على الخالق: قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ(٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضطَرَّ



إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ(٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ(٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(٦٩).

وتقول سورة الشورى: وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٩) الشورى.

كل الرسل يدعون لعبادة الله الخالق. ويواجهون بالرفض من أناس يعبدون الأصنام، برغم قوة حجة الرسل ومنطق دعوتهم.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٧١) وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(٧٣).

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(٨٣) الأنعام.

إبراهيم كان يحاج قومه بأن الخالق أحق بالعبادة من الحجارة، لكن هذا لم يكن كافياً لاقتناع القوم بترك موروثهم.

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ



اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١١٧) الأنعام.

التمسك بالموروث لا يعني صحته

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ(٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤) الشعراء.

إبراهيم يقول إن الخالق أحق بالعبادة من حجارة جماد، لكن القوم لم يقبلوا الدعوة برغم بيان الحجة وقوتها، لأنها دعوة لترك الموروث وتعريته والاعتراف بأنه خاطئ وهذا لا يمكن قبوله. لأن التمسك بالموروث دائماً يعمي الأبصار عن الحقيقة ويعطل العقل عن التفكير.

ومثله: فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ(١٠٩) هود.

قد يكون جال بخاطر رسول الله أحياناً تساؤل عن سبب تشبث رجال قريش العقلاء بعبادة الأصنام الصماء الجماد والإعراض عن عبادة الله الذي يعلمون أنه خلقهم ومن كان قبلهم وخلق كل شيء.

فتأتي الآية لتؤكد له أن تمسكهم بالباطل لا يعني أنه حق، ورفضهم للحق برغم وضوحه لا يعني أنه باطل. لكن التمسك بالموروث متأصل في النفس وقوته لا تقاوم.

التمسك بالموروث يقلب الحقائق: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَّ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهَّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ(٦٤) الأعراف.

فقوم نوح يتهمونه بانه ضل وحاد عن الصواب لأنه يدعوهم لترك الموروث الوثني والإيمان بالله.



ومثله في نفس السورة وضمن حديثها عن قوم عاد وتعليلهم لرفض الدعوة بقولهم: قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧٠) الأعراف.

وتقول سورة سبأ على لسان قريش: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(٨).

فالقول بالبعث كذب على الله وجنون، وإنكاره هو الحق.

ومثله: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً(١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً(١٠٦) الكهف.

المتمسكون بالموروث سيلعنون بعضهم

يقول تعالى في سورة الأعراف عن كبراء قريش الرافضين للحق لتمسكهم بالموروث الذي اختلقه سلفهم وكذبوا به على الله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(٣٧) قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ(٣٨) وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ(٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) الأعراف.

الآيات تتحدث عن كبراء قريش الذين تمسكوا بموروثهم الديني الوثني ورفضوا دين الله برغم وضوح الحق. متبعين سنة سارت عليها كل الأمم قديمها وحديثها، وهي نفس السنة



التي يسير عليها أتباع المذاهب. حيث يتمسكون بموروثهم الديني ويرفضون ما سواه أو نقده. والموروث الديني هو ما تناقلته الأجيال ممن يسمون (السلف) وهم رجال تقولوا على الله ما لم يقل في كتابه وترسخت أقوالهم كتشريعات أضيفت للدين وتمسك بها الناس كدين لله، وقدسوا من قالها عوضاً عن محاكمتهم بتهمة التقول على الله.

وهذه الآيات تبدأ بذكر التقول على الله « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً" وهو ما يفعله سلف كل أمة ومذهب.

ثم تذكر حال المتمسكين بالموروث « أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ"

وتؤكد أن مصير التابع والمتبوع واحد: « أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ". وكلمة الكتاب هنا تشير للعذاب.

فالذين افتروا على الله وقولوه ما لم يقل، وكل من تبعهم مصيرهم واحد.

والسورة تصور – مجازاً – ما سيحدث للمتمسكين بالموروث: « حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ".

وكأن هناك مخلوقات حية ستتوفاهم، وفي تلك اللحظة سيسألون تابع الموروث: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أين موروثكم الديني الذي تمسكتم به ورفضتم الحق؟

فيجيبون: « ضَلُّواْ عَنَّا"

لن ينفعنا.

وهم بهذا يشهدون أن اتباع غير كلام الله كفر: « وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ".

وهذه المحادثة لا تحدث في الدنيا بل هي تصوير مجازي لما سيكون عليه حالهم في الآخرة، حيث الحساب ومعرفة المصير، وهو ما تؤكده الآية التالية: « قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا".

ولأن من يموت سيشعر أنه انتقل للآخرة مباشرة (لأن ذاكرته تتوقف عن التسجيل وبالتالي لن يشعر بمرور الزمن) وعندما يبعث تبدأ الذاكرة بالتسجيل مرة أخرى ويعرف أنه انتقل للآخرة وكأنه فارق الدنيا قبل لحظات. لذا صورت الآية السابقة ندم المتمسكين بالموروث وكأنه حدث لحظة الموت. لأن لحظة الموت هي – بالنسبة للميت – لحظة البعث.



والآية تبين أن التمسك بالموروث ديدن كل أمة قديماً وحديثاً وليس قريشاً فقط، وكلهم مصيرهم واحد: « قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا". وكلهم سيلعنون بعضهم بعضاً.

وتستمر السورة تصور الموقف مجازياً لتقريبه في الذهن، وبعد أن اكتمل دخولهم النار، تدعو الأجيال المتمسكة بالموروث ربها أن يزيد من عذاب أسلافهم لأنهم هم من أضلوهم عندما تبعوا تشريعاتهم على أنها هي الحق: « حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ".

فيأتي الجواب: «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ(٣٨)". التابع والمتبوع في النار.

لأنه كان بإمكان التابع تحكيم عقله وترك الموروث واتباع الحق، وهو ما يؤكده السلف (أولاهم) للأتباع (أخراهم) في المحادثة المفترضة: وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٣٩).

كلا الفريقين يستحقان النار، السلف بالكذب على الله، والخلف بالتمسك بموروث السلف الضال دون تحكيم للعقل.

وهو ما كررته سورة يونس التي تلت الأعراف في النزول: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ(١٧) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٩).

والآية (١٩) تؤكد أن الناس يتحولون من الإيمان للكفر.

وسورة يونس تعود للموضوع مرة أخرى بصورة مجازية عن الأتباع (كبراء قريش) الذين أشركوا سلفهم مع الله وضلوا باتباعهم: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(٢٨) فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ(٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٣٠) يونس.

فالسلف الذين شرعوا من دون الله ومن تبعهم وتمسكوا بموروثهم سيكون مصيرهم النار،



وهذا ينطبق على أي سلف وأتباع.

وتواصل سورة يونس في نفس الموضوع موجهة الخطاب لقريش الذين يتمسكون بموروثهم الذي خلفه لهم السلف وجعلوه شريكاً لله: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥) يونس.

وتقول السورة أن إتبّاع الموروث ظن لا يغني عن الحق: وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٣٦) يونس.

وهو ما ينطبق على أتباع كل مذهب.

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ(٢٥) العنكبوت.

والآية جاءت ضمن آيات تتحدث عن جدال إبراهيم لقومه، وتؤكد ما سبق وذكرته سورة الأعراف في الآيات: (٣٧-٤١) من أن الذين يتمسكون بالموروث ويرفضون دعوة الحق سيلعنون بعضهم يوم القيامة.

مثال من هذا العصر على التمسك بالموروث وحرب من يخالفه

جوزيف سميث مؤسس كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة المعروفة باسم المورمون. وُلد سنة (١٨٠٥) في ولاية فيرمونت في الولايات المتحدة الأمريكية. قُتل سنة (١٨٤٤) في ولاية إلينوي في الولايات المتحدة الأمريكية. يعتبره أعضاء كنيسة المورمون نبيا من الأنبياء. وبدون مقدمات معروفة في عام ١٨٢٣ أعلن جوزيف سميث (وكان عمره حينها ١٨ عاماً) أن وحيًا من السماء أتاه وأخبره أنه رسول للقارة الأمريكية لتأسيس الكنيسة الأصولية، وأنه على يديه سوف تظهر الألواح الذهبية المختفية أو ما أسماه بالألواح المصرية القديمة، وفي عام (١٨٢٧) ناوله الآتي من السماء واسمه موروني (كما يروي اتباعه) نص اللوح، وقام جوزيف بترجمة النص إلى اللغة الإنجليزية وصارت هذه الترجمة كتاب المورمون المقدس، وتعتبر تكملة للعهد القديم أو التوراة (وسنعرض لما فيه لاحقا). وفي



عام (١٨٣٠) قام جوزيف سميث بتأسيس كنيسته التي سماها «كنيسة يسوع المسيح للقديسين الجدد أو العصريين» وسمى مذهبه وديانته المورمونية، وقد استجاب العديد من المسيحيين لدعوة جوزيف وبدأ يُرسي نظامًا خاصًا بكنيسته. وأشهر مخالفته لكافة المذاهب المسيحية بسماحه بتعدد الزوجات في ديانته، واستمر في نشاطه في المناطق المحيطة به. وقد اعتبرته المذاهب الأخرى مرتدًا، ونشبت عدة اضطرابات بين أتباعه وأتباع المذاهب المسيحية الأخرى، وكان أشدها في عام (١٨٤٤) والتي هاجم فيها الأهالي جوزيف وسجنوه وشقيقه ثم قتلوهما دون محاكمة. ولم يكتفوا بذلك، بل أحرقوا كنائس المورمون، وقتلوا العديد من أتباعها وأحرقوا منازلهم وممتلكاتهم وأعمالهم، مما أدى إلى هجرة قسم كبير منهم إلى الغرب الأمريكي. وكل هذه القسوة في التعامل مع سميث وأتباعه لأنه خرج عن الموروث، برغم أن الغرب يتشدقون بأنهم متحضرون لدرجة أن قوانينهم تنص على حرية المعتقد، وبرغم أن الهجرة لأمريكا - في كثير من الأحيان - تمت تحت شعار الحرية الدينية والتخلص من التعسف الكنسي في أوروبا. مما يؤكد أن التمسك بالموروث وعدم قبول الخروج عليه سنة أزلية في كل مكان وزمان. برغم أن الموروث ظن: أَلا إِنَّ لله مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(٦٦) يونس.

وحتى اللحظة فكل من يسلم من الغرب يواجه من أهله بالعداء ومعارفه بالجفاء، بل إن من ينتقل من مذهب مسيحي لآخر، يقابل بعداء وجفاء. ولولا القوانين التي تنص على حرية الاعتقاد لتعرض للأذى البدني، برغم تبجح الغرب بأنهم لا يهتمون بالأديان[1].

كثرة أتباع الباطل لا يحوله لحق

قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠٠) المائدة.

كثرة أتباع الضلال لا تحوله لحق، وقلة أتباع الحق لا تحوله لباطل، وانتشار الخبائث كما في زماننا وكثرة الناس الذين يستحلونها أو يمارسونها لا تحولها لطيبات.

١ القوانين الغربية التي تنص على حرية الأديان وضعت من اجل المسيحيين، وقبل أن ينتشر الإسلام عندهم. وعندما كانت المذاهب المسيحية على عداء مستحكم فيما بينها، فتم سن هذه القوانين لعدم تجريم من يغير مذهبه من الكاثوليكية إلى البروتستانتية مثلاً. ولم يكن المقصود بها تشجيع الإلحاد، أو التسامح مع من يخرج من المسيحية لدين آخر.



وقلة أتباع الحق لا يحوله لباطل

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(١٤) إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى(١٦) طه.

المخاطب موسى في بداية تكليفه بالرسالة، حيث أمر أولاً باتباع الدين وأن يكون أول المسلمين، ولو لم يشاركه في اتباع الحق أحد. فالحق حق ولو تركه الناس جميعاً، والباطل باطل ولو تبعه كل الناس. فكثرة الأتباع لا تحول الباطل لحق وقلتهم لا تحول الحق إلى باطل.

لا يتبع الحق في البداية سوى قلة مستضعفة

وعندما تظهر دعوة إصلاح ديني (يقودها رسول أو مصلح) أو إصلاح دنيوي يقف المجتمع ضدها، ولا يؤمن بها ويتبعها إلا قلة. وهذه القلة ليسوا من صفوة المجتمع وكبرائه، ولكن من الضعفاء والمهمشين والمستضعفين في الغالب، وقلة قليلة من طبقات أخرى في المجتمع تبحث عن وضع أفضل مع الدعوة الجديدة مما حصلت عليه في مجتمعها: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥) الشعراء.

الحديث عن نوح وقومه.

وهو ما حدث لكل الرسل ومنهم الرسول محمد، فلم يؤمن برسالته في مكة إلا قلة غالبيتهم من المستضعفين والمهمشين.

الكبراء هم من يقود الحملة ضد الدعوة

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣٤) سبأ.

والمترفون (الكبراء كالزعماء وأصحاب المنافع والنفوذ) هم من يحمي الموروث ويدافع عنه لأنه بنيت عليه مصالحهم. وقيادة الحملة ضد دعوة الحق تعني تعبئة الرأي العام ضدها، وهو ما يقوم به الكبراء الذين يملكون المال والسلطة والإعلام. وتكون تعبئة الرأي العام



بوسائل شتى منها:

اتهام الرسول أو المصلح

محاولة إلصاق التهم بالخصوم وسيلة قديمة تتكرر باستمرار على مستوى الدول والمجتمعات والأفراد. وتعتمد اختلاق تهمة ونشرها، لتشويه سمعة المعارض. وحتى لو لم يصدقها الناس، فمجرد ترديدها من منتفعين ومأجورين، يعمل على ترسيخها وفرضها كواقع، ولا يستطيع المتهم ومن يهتم بأمره نفيها علناً لئلا يتعرض للعقوبة كون من نشرها هم من يملكون السلطة أو يحتمون بها. وفي هذا العصر فكل من يطالب دولته بحقوقه المهضومة أو يدعو للإصلاح يتهم بالإرهاب والعمالة وخدمة أجندات خارجية. وكل من ينتقد عادات سيئة ويسعى لتطهير المجتمع منها يتهم بتهم مماثلة. وكل من يدعو للإصلاح الديني والعودة للحق يتهم بالزندقة والكفر. ويتم التعرض لأشخاصهم وتشويه سمعتهم، بل والتضييق عليهم وإخماد أصواتهم. فالناس لا تبحث عن الحق بقدر ما تصر على حماية موروثها.

ورسول الله محمد – ككل الرسل – تعرض لمثل هذه المواقف من قريش، إلا أن احترام حرمة مكة من قبل قريش حماه من الأذى الجسدي والقتل. لكنه لم يسلم من التعدي النفسي والسب والشتم واتهامه بكل أنواع التهم التي سنمر عليها أثناء تدبر السور، والتي منها:

ساحر أو مجنون

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ(٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤).

فقريش اتهمت الرسول بأنه ساحر وكذاب، لكي تبرر موقفها الرافض للحق، ولتظهر بأنها تدافع عن الحق وترفض الكذب والخداع.

وما نسبته قريش للرسول نسبته كل الأمم لرسلها: كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) الذاريات.



شاعر أو كاهن

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) الحاقة.

كذاب

أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(٢٥) القمر.

الرسول يدعو لشيء غير معقول

عندما كان الرسول يقول لقريش بأن هناك بعثاً، فهو مجرد كلام لا يمكن إثباته بشكل محسوس:

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢) الجاثية.

والآية تخبرنا أن قريشاً كانت تقول بأن كلام الرسول عن البعث والقيامة هو مجرد خيال لا يمكن إثباته بدليل محسوس. وبالتالي فلن يتنازلوا عن موروثهم ومصالحهم التي قامت عليه لمجرد زعمٍ لا يملك محمد عليه دليلاً محسوساً يؤكد وقوعه.

الملذات والمتع

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ.(آل عمران:١٤)

وكبراء قريش نشروا أن قبول دعوة محمد ستحرمهم من متعهم الدنيوية التي يستمتعون بها. وهذا يماثل قول المعارضين للعودة للحق بأنها دعوة إخوانية أو تكفيرية أو خارجية.

الطبقية والامتيازات الاجتماعية

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ.(الأحقاف:١١)

والنظرة الطبقية الاجتماعية التي يؤمن بها الكبراء ويدافعون عنها ولا يقبلون بأي دعوة تحد منها أو تلغيها، يصورها المثل العامي الذي يقول: إذا كنت أميراً وأنا أمير فمن يسوق الحمير. بمعنى أنه لابد أن يكون هناك خادم ومخدوم وإلا لفسدت الأرض ولما صلح حال



الناس.

ولكن الدين له وجهة نظر مخالفة، تتمثل بأن التأفف عن القيام بأي عمل من الأعمال الخدمية الضرورية لاستمرار الحياة اليومية، هو تكبر وغطرسة تقسم الناس إلى براهما وعمال ومنبوذين. ويجب أن يحل محلها ثقافة تقول بأن الإنسان السوي مساو لكل الناس الأسوياء، وأن الأعمال يجب أن يقوم بها الناس بناءً على تقسيم حرفي وليس على تقسيم طبقي، وأن أي عمل شرف لصاحبه مادام يساهم في دفع عجلة الحياة الكريمة بغض النظر عن ماهيته. ولذلك فأي شخص يجب أن يسوق الحمير بنفسه أحياناً إذا تطلب منه الأمر ذلك ولا ينتظر غيره ليسوقها بالنيابة عنه، كما أن نفس الشخص مؤهل لأن يمارس دور الأمير إذا اقتضت الظروف منه ذلك. وليس في الثقافة الإسلامية دور محدد طوال العمر لكل شخص لا يتعداه لغيره، بل يجب أن يتداول المسلمون الأدوار حسب الحاجة أثناء مراحل الحياة المختلفة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.(الحجرات:١٣)

الدين كلٌ لا يتجزأ

ولهذا يحارب الدين، لأنه لا يقبل بإيمان فقط أو عمل صالح دون إيمان. ولا يتجاوز عن الاستمرار في المعاصي. والناس يريدون ديناً يسمح لهم بالموبقات ويضمن لهم الجنة في الاخرة. ولو كان هناك حد أدنى من التشريعات الدينية يلزم على جميع الناس أن يتمسكوا بها، وليس عليهم بعد ذلك من حرج بممارسة ما يوائم مصالحهم الشخصية، لكان بإمكان الكثير من الكبراء أن يبقوا على موروثاتهم وميزاتهم الاجتماعية وأن يؤمنوا بدين سيضمن لهم ميزات أغلى وأعلى في الآخرة، إن هم آمنوا بوجود آخرة فعلاً.

فمجتمع مثل مجتمع قوم لوط الذي اعتاد أفراده الشذوذ الجنسي واعتبروه ممارسات شخصية لا تخل بشرف ولا كرامة ولا تنقص من شهامة، لم يكن كثير منهم ليقف ضد دعوة لوط لو أن الدين سمح لهم بالإبقاء على تلك الممارسات، ولكن الرسول لا يستطيع تجزئة الدين الذي نزل عليه من الله كوحدة لا تتجزأ: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا



امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ. (النحل:٥٤-٥٨)

وقد لا يكون لدى البعض من قوم شعيب مانع من الإيمان بالله وتأدية العبادات لو سمح الدين لهم بالإبقاء على ما اعتادوا من تعاملات تجارية اعتبروها نجاحاً في مجال إدارة الأعمال: وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

ولكن الدين يمنع الغش التجاري في المنتج وفي التعامل وفي كل المجالات التجارية، ولا يبيح سوى الربح المعقول مع ضمان جودة المنتج: بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ. (هود:٨٦)

وهذا مرفوض لأنه سيلغي تميز قوم شعيب التجاري: قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ(هود:٨٧)

وبما أن أوامر الدين ونواهيه ليس بينها هام ومهم وأهم ولا كبير وصغير وأصغر، فإن الدين إما أن يؤخذ كله ولو تعارض مع المصالح، أو يترك كله. ولذلك لم يكن من الممكن على كبراء الأمم أن يقبلوا الانضواء تحت مظلة الدين وخسارة امتيازاتهم وميزاتهم الاجتماعية وملذاتهم مقابل وعود غيبية لحياة لا يمكن لهم التأكد من أنها ستحدث فعلاً، برغم أنهم أناس لا ينقصهم الذكاء والتفكير السليم والعقلية المبدعة.

والالتزام بالدين الصحيح (إيمان وعمل صالح يتمثل باجتناب كل نواهي القرآن وطاعة كل أوامره) عبارة عن دخول في مضاربة، مثلها مثل أي مضاربة مالية، تزداد نسبة الأرباح بازدياد نسبة المخاطرة. فالإنسان كلما ارتفعت قناعاته بالآخرة - لأي سبب أو أسباب كانت - انقاد للإيمان بسهولة. لأنه يكون مستعداً لأن يخسر الجاه أو المال أو النفوذ أو المتع التي كان يتمتع بها مقابل وعود الآخرة الغيبية، التي إذا حدثت فستكون أرباحه هائلة بشكل لا يمكن مقارنتها بأي أرباح دنيوية. وكلما تناقص يقين المرء بالآخرة، كلما كان لدى الإنسان تحفظ حول الدخول في المضاربة الدينية.

ونتيجة لذلك، فمعظم الناس لن يقبلوا على الدين لأنهم يملكون من المتاع والمتع الدنيوية ما قد يخسرونها دون مقابل لو كانت الدعوة الدينية غير صحيحة، وبالتالي يكونون قد ضاربوا بكل ما يملكون من ممتلكات ذات قيمة مادية ومعنوية محسوسة مقابل وعود خيالية. وهي



وعود لا يمكن تحقيقها في هذه الحياة، ولا يمكن التأكد من أن هناك حياة أخرى بعد المات، وإذا كان هناك حياة فليس هناك طريقة للتأكد من أن وعود الرسول ستتحقق لهم، لأن الرسول نفسه لا يستطيع تقديم دليل واحد محسوس على ذلك.

لهذا فكل الدعوات العقائدية تبدأ بالانتشار بين الفقراء والمساكين والمغلوبين على أمرهم والمسحوقين في المجتمع: فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.(هود:٢٢-٢٨)

لأن هؤلاء الناس مكاسبهم من الدخول في الدين مضمونة. وأقل ما سيحصلون عليه سيتمثل بالخلاص من الأوضاع المتردية التي كانوا يعيشونها في الدنيا. ولن يعاملوا كعبيد ومسخرين للآخرين، بل سيصبح الجميع عباداً لله إخوانا. وسيقاسمهم الغير لقمة العيش والتي ستزيد عما كانوا يحصلون عليه من طعام مقابل سخرتهم في السابق. وإن كان هناك حياة آخرة وحصلوا على نعيمها فهو مكسب إضافي، وتكون مضاربتهم ناجحة بكل المقاييس، لأنهم لم يخسروا أي شيء ذا قيمة مقابل دخولهم في الدين.

فيما ستكون المضاربة لبقية أفراد المجتمع باهظة التكاليف، ولذلك يبقى الناس على عداوتهم لصوت الحق، ويقنعون أنفسهم بأن ما أبقوا عليه هو الحق: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَّ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ.(فاطر:٨)

فهم يبقون على الضلال ليس لأنهم يعلمون أنهم على ضلال ولكن لأنهم يعيشون داخل دائرة الضلال فيظنون أن ما يحيط بهم هو الحق لأنهم لا يستطيعون رؤية غيره: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.(الأنعام:١٢٢)

وبطبيعة الحال يبقى باب الحق مشرعاً على الدوام لكل من يريد أن يراجع نفسه وأن يحكم عقله في معتقده وطريقة حياته من أي طبقة من طبقات المجتمع: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ. (البقرة:٢٦٩)



وهذا خيار متاح للشخص نفسه: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً.(الانسان:٣) يحصل عليه كل من يحاول أن يسمح لعقله بالتفكير الحر، وأن يتقبل الرأي الآخر والنقد من الذات ومن الآخرين مع عدم ممانعة للتغيير إن كان للأفضل: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ.(الرعد:١٩)

وليس أدل على ذلك من أن القرآن يخبرنا بأن قوم يونس الذين كانت أعدادهم تزيد عن مائة ألف نسمة قد آمنوا جميعاً: وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ. (الصافات:١٤٧-١٤٨)

والناس اليوم يحاولون أن يمسكوا العصا من المنتصف، فهم يريدون الجنة في الآخرة مع إبقائهم لبعض الممارسات التي تدخل ضمن الكبائر. فبعض النساء مثلاً تريد أن تتبرج وترتاد أماكن العهر، لكنها تصلي وتصوم، لأنها اقنعت نفسها وأقنعتها كتب التراث أن الحسنات (الصلاة والصوم) يذهبن السيئات (الكبائر). وبعض الرجال يريد أن يشرب الخمر أو يزني ويصوم ويصلي لنفس القناعات الموروثة.

وعندما يقال له إن القرآن يؤكد أن أفعاله ستورده النار يسارع للحكم على القائل بأنه تكفيري.

و«تكفيري» لفظ استغل في هذا العصر أسوأ استغلال للتنفير من الدين وتمييع أوامر القرآن، وتحويل دين الله إلى ممارسات تعبدية وما عداها فأشياء هامشية.

وكل الأمم تحاول إيجاد مبررات لتمسكها بموروثها ورفض دعوة الحق تتماشى مع زمانها ومكانها وثقافتها. فالأمم السابقة كانت تتهم الرسول بالكذب أو السحر أو أنه بشر مثل غيره فكيف استطاع أن يتصل بالسماء أو يطلبون منه خوارق أو رؤية الملائكة وعندما لا يستجيب يشعرون بالرضى عن أنفسهم وتمسكهم بموروثهم ورفض دعوته.

وقريش كغيرها من الأمم بررت عدم قبولها دعوة محمد لأنه مجرد شخص عادي في مكة فكيف اختير من بينهم وليس له أي تميز: وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤) ص.

فمن المستحيل – في ظنهم – أن يختار الله محمداً – الشخص العادي بينهم – على سادة قريش وحكمائها، ولو أراد الله – في ظنهم – أن يرسل لهم رسولاً منهم لاختار واحدا من



سادتهم: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) الزخرف.

فمن يكون هذا الرسول وماهي الصفات الخاصة التي يمتلكها والتي مكنته من مخاطبة السماء؟ ولماذا تم اختياره من بين كل الناس؟: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ(١٢٤) الأنعام.

لهذا كان أول أسئلة يواجه بها الرسول هي: من أنت لتغير ديانتنا، وعاداتنا وثقافة مجتمعنا؟

هل أنت تعرف ما لا يعرف علماؤنا؟

لا يعقل أن يكون كل العارفين على خطأ وأنت على صواب؟

كل آبائنا وأجدادنا كانوا على ضلال طوال مئات السنين وأنت من اكتشف هذا؟

وغيرها من الأسئلة التي يقابل الناس بها كل رسول أو مصلح، لكي يشعروا أنفسهم أنهم على حق وأن آباءهم ليسوا على ضلال وأن معتقداتهم صحيحة، ليتحاشوا نقد الذات أو قبول أن الموروث على خطأ.

وموقف الناس هذا من الرسل مماثل لموقفهم من أي مصلح أو مناد بالتصحيح، والذي عادة ما يواجه بأنه نكرة، أو أنه لا يمكن أن يغير العالم. أو أن ما يدعو إليه باطل لأن من يعتبرونهم مفكرين وعلماء لم يفطنوا له ولم ينادوا به طوال تاريخهم الطويل فتأتي أنت (يا نكرة) وتكتشفه. ويتناسون عمداً أن الحق ليس له رجال، ليستمر منطق الرفض واحد في كل زمان ومكان: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ(٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ(٢٥) المؤمنون.

وإذا استمرت الدعوة يبدأ أتباع الموروث بالعمل على وقفها بأي وسيلة، بداية بالسخرية والضغوط النفسية وانتهاءً بتلفيق التهم والأذى الجسدي.

السخرية والضغوط النفسية

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) البقرة.



محاولة إلصاق تهمة تجرم المصلح للخلاص منه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٢٤) فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ(٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ(٢٧) غافر.

بمجرد أن يهاجم الرسول أو المصلح الموروث الديني حتى يواجه بالتهم، بغض النظر عن صحة ما قال من عدمه. فأتباع الموروث لا يسمحون بنقد موروثهم وبالتالي لا يتمعنون فيما يقال عنه، وحكمهم على من ينتقده معروف مسبقاً.

وموسى هنا بمجرد ما قال لفرعون اتق الله واترك عبادة الأوثان لعبادة الله، فقد مس المحظور، وحق قتله لأنه جاء ليبدل الدين الموروث.

الإيذاء الجسدي أو حتى القتل يكون مشروعاً عند أتباع الموروث

فالمهم إسكات أي صوت ينتقد موروثهم بأي وسيلة: قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ(١١٦) الشعراء.

عليك بنفسك ولا تهتم لكثرة المخالفين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥) المائدة.

لو ضل الناس جميعاً فليس مبرراً لمن عرف الحق أن يضل معهم، واتباع الحق واجب لأنه حق ولو لم يتبعه أحد.

قل هاتوا برهانكم

يقول القرآن: كل من يزعم أن معتقده من دين الله فعليه تقديم برهانه وأدلته. والأدلة المقبولة هنا هي القطعية الثبوت، لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى(٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن



سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى(٢٣) النجم.

وقريش تعتقد أن الملائكة بنات الله، والآيات تطلب منهم أن يقدموا أدلتهم وعلى أي أساس بنوا معتقدهم هذا. فإن لم يستطيعوا تقديم أدلة يقينية الثبوت فمعتقدهم باطل، لأنه لا يزيد عن ظن واتباع ما تهوى الأنفس.

وهذا ينطبق على أي معتقد يقول به أي مذهب من مذاهب المسلمين لم يقل به القرآن.

وتؤكد سورة الطور ما ذكرته سورة النجم: فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ(٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ(٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ(٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٣٨).

فقريش تكيل التهم للرسول بلا دليل، والقرآن يطلب منهم دليلاً على مزاعمهم. وهو ما يقال لكل من يتهم الرسول أو القرآن، ولكل من يتبع معتقداً ليس في القرآن.

وتؤكد سورة الصافات هذه الحقيقة: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠) الصافات.

وتقول سورة الأحقاف مخاطبة قريش: قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤).

قريش لا تعتمد في معتقداتها على مصادر، فالأصنام جماد لا يخلقون شيئاً، ولا يشاركون الله في ملكه. كما أن قريشاً لا تملك سجلاً موثوقاً يقول بأن عبادة الأصنام صحيحة، وليس هناك كتاب من الله يقول بذلك.



وتقول سورة فاطر: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً(٤٠).

تكرار لما سبق وذكرته آية سورة الأحقاف أعلاه. والآية تدعو قريشاً للتفكير بعقلانية، فأصنامهم لا تستطيع شيئاً وليس لها شرك مع الله ولا يوحى إليهم بعبادتها، فكيف يعبدونهم. وهذا الكلام ينطبق على أي تشريعات خارجة عن القرآن.

وكل من يدعي أمراً عليه تقديم البرهان: أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦٤) النمل.

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٤) الأنبياء.

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) البقرة.

وأتباع الموروث عليهم تقديم أدلة من القرآن على معتقداتهم أو ليعلموا أنها ظن وباطل. وعلى أهل المذاهب تقديم أدلتهم على صحة تشريعاتهم بأدلة من القرآن، وليس من كتبهم، لأنه لا يمكن قبول شهادة الظن على صحة ظن منه.

من له مصالح دنيوية لن يؤمن في الغالب

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) الأحقاف.

دائماً، وكقاعدة ثابتة، لا يؤمن أو يعود للحق إلا من غلب عقله على مصالحه الدنيوية. لذا فالغالبية من أنصار الحق من الفقراء والمستضعفين، وقلة من غيرهم ممن سمحوا لعقولهم بالتفكير فغلب العقل على المصلحة.

والآية تظهر أن كبراء قريش يبررون لأنفسهم تمسكهم بموروثهم، لأن أتباع محمد من الفقراء والمستضعفين، ولو كانت الدعوة صحيحة لتبعها علية القوم.



المال والسلطة تحول الباطل حقاً وتحميه

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ(٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ(٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(٥٤) الزخرف.

فرعون زعيم طاغية له مصالح دنيوية ولن يقبل دعوة الحق التي أتى بها موسى لأنها ستشل يده من تسخير الناس له كعبيد، وتمنعه من التحكم بمعاشهم وحياتهم وكأنهم قطيع غنم مملوك له. ولن يقبل بأن يتحول من حاكم ومالك مطلق لواحد من الناس له ما لهم وعليه ما عليهم. لذا استخدم نفوذه وإعلامه لتصوير الحق باطلاً وخروجاً وما هو عليه حق يجب التمسك به. وكما هي العادة، تبعه الناس.

واليوم نرى فرعوناً على شكل دولة كأمريكا، وفراعنة على شكل حاكم كحكام العرب. وهؤلاء الفراعنة يلمعون من يخدم مصالحهم ويحولونهم لرجال الصدق والأمانة والحق والتدين، بينما يحولون كل من يخالفهم الرأي إلى خوارج ومارقين، ولو كانوا من أهل الحق والدين والصلاح.

الكبراء في أي مجتمع هم من يقود الناس لرفض الدعوة

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(١٢٣) وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ(١٢٤).

قريش كأي مجتمع آخر، الكبراء فيه يقودون بقية الناس لرفض الدعوة، لأنها تصحيحية ستغير من أوضاع الناس وستلغي التميز للكبراء. وتحجج كبراء قريش برؤية آية ويؤمنون، هو مجرد تبرير، ولو رأوا كل الآيات فلن يؤمنوا.



أي حاكم قد يصل لحالة من الزهو كما فرعون

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى(١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى(١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى(٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى(٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى(٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى(٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى(٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى(٢٦) النازعات.

أي حاكم مستبد عندما يصل لدرجة من الزهو بالنفس يظن أنه لا قوة إلا قوته ولا حول إلا حوله، وينسى أنه مجرد خلق حقير سرعان ما يهلك.

وكل مستبد طاغية غايته الدنيا ومصيره جهنم: فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) النازعات.

كل مهووس بمتع الدنيا بعيد عن الدين

فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) النازعات.

ولا يمكن أن يجتمع التعلق بالدنيا ومتعها والخوف من الله. والعكس: كل من آمن سيخاف الله، ومن يخاف الله ترخص الدنيا عنده، ولا تهمه متعها: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١) النازعات.

الناس جبلوا على حب الدنيا والتمسك بالماديات

برغم أن الدنيا قصيرة جدا، ومن يموت يترك خلفه كل ما حرص عليه في الدنيا، نجد أن كثيراً من الناس كلما تقدم بهم العمر واقتربوا من النهاية، كلما زاد تعلقهم بالدنيا وبالمال والمتع.

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(٨) التكاثر.

السورة تخاطب قريشاً قبل بدء الدعوة الفعلي، وتذكرهم بوضع شائع بين الناس عليهم أن



يتخلو عنه. وأن يهتموا بأمور الآخرة والاستعداد لها، لأن سعادة الآخرة ومتعها دائمة لا تزول بينما متع الدنيا سطحية زائلة.

إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ(٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ(٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ(١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ(١١) العاديات.

وهو ما كررته سورة العلق: كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى(٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى(٨).

وأكدته سورة الأعلى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٧).

وسورة الانفطار: كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ(٩).

وسورة الانشقاق: فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ(٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ(٢٢) وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤).

وسورة الفجر: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٧).

وهو ما تؤكده سورة القيامة: كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ(٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ(٢١)

والمخاطب هم قريش.

الإنسان يكره الفقر لكن لو ملك المال فلا ينفق لمعاونة الفقير: إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً(١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً(٢١) المعارج.

وتقول سورة يونس: إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(٧) أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٨).

انغماس قريش في الدنيا ومتعها، أنساها الآخرة، وهو ما نشاهد شبيهاً له في أوضاعنا الحالية.

وتقدم سورة يونس وصفاً بليغاً لمتع الحياة: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢٤) وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٥).



الإنسان يعلم أن الله موجود والإلحاد مجرد تظاهر وتصنع

في أوقات الرخاء ينكر الملحد وجود الله، ويرفض المشرك توحيد الله بالعبادة، لكن بمجرد أن يتعرض لموقف حرج حتى يعود لله: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٦) فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ(٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ(٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(٥٠) الزخرف.

فهو في داخله على يقين بوجود الله: وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢) يونس.

لكنه ينسى ربه في الرخاء: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً(٨٣) بني إسرائيل.

وفي أيامنا عندما يصاب الفرعون ببلاء يهرع ذووه للتبرع ودفع المال ومعاونة المحتاجين ويطلبون من الناس الدعاء له، وكأن الله جل وعلا تميّله العواطف.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢) لقمان.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(٨) الزمر.

والإيمان يحتم المواصلة، وهو ما تؤكده الآية التالية: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) الزمر.

ومن ينسى الله ولو لفترة بسيطة نسيه الله.

ومثله: فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ



فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) الزمر.

والمؤمن لا ينسى الله ولا يغفل عنه لأنه يعلم أن كل ما يصدر منه يسجل وسيحاسب عليه.

وتقول سورة الأنعام:

قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١) الأنعام.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٥٥) النحل.

كما ورد في سور سابقة، مثل: بني إسرائيل:٨٣، وفصلت:٥١.

المستضعف لا يعذر في عدم الإيمان تبعاً لسيده

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ(٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٣) سبأ.

ومثله:

وَبَرَزُواْ للهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ(٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ(٢٣) إبراهيم.



لا عقل مع الموروث

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٦) الأنبياء.

قريش تسخر من الرسول لأنه ينكر عبادة الأصنام، بينما هم ينكرون عبادة الرحمن.

دليل واضح على أن التمسك بالموروث يعطل العقل، وهناك قاعدة عند كل أتباع الموروث تقول: الدين نقل وليس عقلاً. لأن العقل يسمح بإظهار العيوب والمثالب. أما النقل فيبقي على الموروث دون تغيير ويحرم نقده.

النفاق

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ(١٢) البقرة.

كل من يصدر منه إفساد في الأرض أو ضد الناس أو عداء للإسلام بأي وسيلة فهو منافق وفي قلبه مرض وعدو وليس مسلماً. فإعلان الدخول في الإسلام لا يكفي ليكون المرء مسلماً.

الإيمان لا يعني إعلان الإسلام

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

الدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه عقد اتفاق وعهد مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه،



مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

والمنافق مصيره جهنم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً(١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً(١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً(١٤٧) النساء.

الآيات تخاطب مسلمة قريش في محاولة أخيرة لعلهم يتراجعون عن موالاة المشركين ويتصرفون كمؤمنين. وتقول بأنهم لو لم يفعلوا فإن ولاية الكفار كفر ولو أعلنوا إسلامهم.

وتتحدث سورة الجمعة عن بني إسرائيل: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥) الجمعة.

لقد تركوا العمل بالتوراة برغم أنهم يحتفظون ببعضها، والمسلم أيضاً الذي يحفظ القرآن ويعمل بتشريعات أخرى مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

المنافقون في المدينة معروفون بأشخاصهم من الرسول والمسلمين

وهذا يخالف مزاعم كتب التراث التي تقول إن الرسول لا يعرفهم ولا المسلمون، وهذه بعض الأدلة:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٤٢) المائدة.

كان الرسول يسمع أقوالهم ويعرفهم شخصياً.



وتقول سورة المائدة نفسها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ(٥٣).

والآية (٣٥) تؤكد أن المسلمين كانوا يعرفون المنافقين بأشخاصهم.

وهذا لا يمنع ان يكون هناك نفر قليل من المنافقين لا يعلمهم الرسول والمؤمنون، وهم الذين أشارت لهم الآية (١٠١) من سورة براءة: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ.

طه ويس حروف افتتاح أصبحت أسماء للرسول

برغم أن كتب التراث لا تسجل لنا أن رسول الله ناداه أحد صحابته أو نادته قريش في عصره بـ «طه» أو بـ «يس» إلا أنه ترسخ لدى الناس منذ العصر العباسي أنهما اسمان لمحمد عليه الصلاة والسلام، ونودي بهما في العديد من القصائد الدينية والكتابات الأدبية المتأخرة. ونتيجة لذلك تحول حرفا (ط ، هـ) وحرفي (ي ، س) إلى أسماء، وصار من المعتاد أن يسمى بهما الذكور، ولم يعد أحد يتذكر أنهما مجرد حروف افتتاح للسور مثل: طس، طسم، حم، ألر، ألم ..... الخ.

وسيظن البعض أن بداية السورة خير دليل على أن «طه» اسم للرسول، فالسورة تقول: طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢).

وتكون السورة – في نظرهم تقول: محمد! ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.

وهذا سيكون منطقياً لو أننا نتحدث عن عبارة كتبناها، لكن القرآن يختلف في صياغة العبارات عما اعتدنا من عبارات. ومن الأمثلة على ذلك أن سورة الجاثية تبدأ بهذا الشكل: حم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢).

بينما تبدأ سورة الزمر بنفس عبارة الجاثية لكن بدون حروف افتتاح (حم) وبهذه الصيغة:



تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(٢).

دون أن يتغير المعنى أو يختل.

سيقول القارئ هذا المثال بعيد ومختلف عن بداية سورة طه، ونقول نعم، لكنه يدلل على أن حروف الافتتاح ليست هي التي تقيم العبارة. فقد تأتي نفس العبارة بدون حروف الافتتاح. وهذا هو المقصود في إعطاء هذا المثال، قبل أن نعطي أمثلة قريبة ومشابهة لبداية سورة طه، كما يلي:

تبدأ سورة الأعراف بقوله تعالى: المص(١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢).

والسورة تخاطب الرسول. فهل هذا يعني أن "المص» اسم له عليه الصلاة والسلام؟ لا أحد يقول بذلك، لأن التراث لم يحول هذه الحروف الافتتاحية إلى اسم مثلما فعل مع طه ويس.

مثال آخر: سورة إبراهيم تبدأ بمخاطبة الرسول: الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١).

لاحظ أن حروف الافتتاح (الر) ليست آية لوحدها بل هي ضمن الآية الأولى التي تخاطب الرسول ومع ذلك فقد بقيت حروف افتتاح وليست اسماً لمحمد. والآية تستقيم معها أو بدونها.

ومثله :المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١) الرعد.

ومثل «طه» نجد «يس» التي جعلت اسماً آخر للرسول.

السورة تبدأ بهذه الصيغة: يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣).

لاحظ أن حروف الافتتاح «يس» يليها آية أخرى ثم آية ثالثة هي التي تخاطب الرسول. ومع ذلك اعتبرت "يس" اسماً، وألصق بالرسول.

ولو أخذنا بهذا فلابد أن نقول بأن «ن» اسم لمحمد، لأن سورة القلم تبدأ بداية مشابهة لسورة يس: حرف افتتاح ثم آية، ثم آية ثالثة تخاطب الرسول: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢).



ومثلها بداية سورة القصص: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣).

ومثلها سورة الشورى: حم(١) عسق(٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣).

وسورة الشعراء: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣).

وعليه، فـ«طه» و «يس» مجرد حروف افتتاح مثل «حم» أو «طس» لكن على ما يبدو استساغ الناس تسمية أبنائهم بها ولكي يتم قبولها في المجتمع قالوا بأنها أسماء لرسول الله قال بها القرآن. ولم يكن يهمهم التقول على الله وكتابه ما لم يقل، بقدر ما يهمهم قبول المجتمع لهذه الأسماء الجديدة. وكان بالإمكان اتخاذ هذه الحروف كأسماء دون الحاجة للزعم بأن الله سمى بها نبيه.

أمية الرسول بين كتب التراث والقرآن

كل محاولات المستشرقين للتشكيك بالإسلام والرسول مصادرها كتب التراث، ومن ذلك القول بأن معنى الأمي ليس من لا يقرأ ولا يكتب، ولكنها تعني (الأممي) الذي يرد في كتب اليهود المقدسة كوصف لغير اليهود.

ومن أشهر من حاول الترويج لهذا المعنى الملتوي هو الأمريكي صاموئيل زويمر (١٨٦٧-١٩٥٢) مؤسّس العمل التنصيري البروتستانتي في العالم الإسلامي. وقد حاول البحث في كتب التراث الإسلامي عن أي خبر يدعم مزاعمه، فلم يجد سوى خبرين، واحد مصدره كتب التراث السني والآخر كتب التراث الشيعي.

وخبر كتب السنة هو الذي يتحدث عن منع أهل مكة الرسول دخول مكة حتى اتفقوا معهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فكتبوا بينهم كتاباً يقول: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

قالوا: لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا، ولكن أنت محمد بن عبد الله!



فقال الرسول: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله!

ثم قال لعلي بن أبي طالب: امح رسول الله! قال علي: لا والله لا أمحوك أبدًا.

فأخذ رسول الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب.

التعليق

مناقشة الخبر لا تعني أننا نعتبر الأحاديث حجة أو مصدراً موثوقاً أو أنه يتحدث عن حادثة وقعت بالفعل، ولكن لنبين من ثناياه أنه خبر فاسد لا يمكن الاستدلال به.

وقبل ذلك نُذكّر أن هناك من يصر على أن الرسول وإن كان أمياً في بداية حياته إلا أنه تعلم القراءة والكتابة في آخر أيامه. وعندما يقال لهم كيف يمكن أن يتعلم القراءة والكتابة في آخر عمره وما حاجته لذلك، خاصة أن كل أيامه كانت مشغولة بالدفاع عن الأمة والوقوف بوجه الأعداء؟ يقولون بأن الله علمه القراءة والكتابة دون معلم ودون الحاجة للدراسة والتجربة، وبدون جهد. وبطبيعة الحال هذا القول لا يستقيم لأن الله لا يتدخل مباشرة في أمور خلقه ولو كانوا من الرسل، ولأنه لو افترض – جدلاً – أن الله علم الرسول فلم لم يعلمه في بداية حياته لحاجته للقراءة حينها، وعلمه في آخر حياته بعدما جفت الأقلام ولم يعد هناك حاجة له عليه الصلاة والسلام بالقراءة والكتابة. ومن يقول بهذا القول السطحي الخرافي يستشهد بالخبر السابق الذي تعلق به المستشرقون، والذي سنناقشه في الأسطر التالية:

فالخبر جاءت صياغته ليبدو كفضيلة لعلي ابن أبي طالب أكثر من الاهتمام برواية ما حدث.

ولو تتبعنا رواياته المختلفة فسنجد التالي:

هناك رواية أخرى منسوبة للبراء الذي روى الرواية السابقة، أوردها ابن حبان، تقول: فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الكتاب وليس يحسن يكتب فأمر فكتب مكان رسول الله محمدًا، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.

فالرسول أمر من يستطيع الكتابة فكتب له، ولم يكتب الرسول بنفسه لأنه كما قال الخبر: «وليس يحسن الكتابة».



وهناك روايات للخبر أوردها البخاري على لسان أنس ابن مالك والمسور ابن مخرمة وغيرهما، تقول بأن الرسول أمر بأن يكتب له، بقوله: اكتب. ولم يكتب الرسول بيده.

فهذا هو الخبر الوحيد في كتب التراث السني الذي حاول المستشرقون جعله أداة لنسف كل ما قال القرآن عن أمية الرسول.

وهناك خبر آخر من التراث الشيعي، برغم أن التراث الشيعي لا يعتد به عند المستشرقين.

والخبر يقول: إن محمد ابن علي «الرضا» (ت ٢٢٠ هـ) قيل له إن الناس يقولون بأن الرسول لا يكتب. قال: كذبوا عليهم لعنة الله أني يكون ذلك والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]؛ فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن؟! والله لقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقرأ ويكتب باثنين وسبعين، أو قال بثلاثة وسبعين لسانًا، وإنما سمي الأميّ لأنه كان من أهل مكة، ومكة من أمهات القرى ... انتهى

ومحمد ابن علي لم ينقل عن الرسول ولا عمن عاصره، ولكنه أدلى برأيه الذي يظهر كم هو جاهل بمعاني ألفاظ القرآن لدرجة أنه اعتبر تلاوة الرسول القرآن على الناس دليلاً على أنه يحسن القراءة، وكأن الرسول كان يقرأ القرآن من صحف مكتوبة. وفهمه للأمي على أنه نسبة للأم، كون مكة واحدة من أمهات القرى. والقرآن - الذي لا يعرفه ولا يفهمه محمد ابن علي - لم يقل بأن مكة من أمهات القرى، ولكنها هي وحدها: أم القرى.

وجهله بمعاني ألفاظ القرآن وعباراته أضاف لها جرأته على الكذب على الرسول بقوله: إنه كان يتحدث (٧٢) أو (٧٣) لغة، وهي كذبة تؤكد أن كلامه مجرد اختلاق.

وإيراد المستشرقين لهذا الخبر المتهاوي - برغم أنهم يعلمون أن روايات الشيعة لا يمكن الأخذ بها - دليل على علمهم أن تأويل الأمي إلى أممي غير مقبول.

والمستشرقون يتمنون أن ينشروا فكرة أن الرسول لم يكن أمياً لأنه سيؤيد مزاعمهم أنه كان يقرأ كتبهم وتعلم منها رسالته.

وقد بقي من المسلمين من يردد بين فينة وأخرى مزاعم المستشرقين من أن «أميّ» جاءت من «أممي» التي يعني بها اليهود الأمم غيرهم. وهو خلط بائس متعسف بين النسبة للأمية

---

١ سورة الجمعة/ الآية (٢)



«أمي» وبين النسبة للأمم «أممي». كما أن المستشرقين الذين ظهرت منهم هذه البدعة أجبروا عن التخلي عنها لاكتشافهم أنه لا يعتد بها. خاصة أنهم يعلمون علم اليقين أنه وإن تقاربت حروف الأمي والأممي في اللغة العربية فهما متباعدتان في المعنى ويظهر هذا جلياً عند ترجمتهما للغات المستشرقين ومنها الإنجليزية. فالأمي: ILLITRATE تعني من لا يجيد القراءة والكتابة، بينما الأممي تأتي: GENTILE والتي تعني وثنياً، لأن اليهود يعتبرون أي أمة غيرهم وثنيين وهم وحدهم المؤمنون وأحباء الله وأبناؤه.

وتجاهل هذه الحقيقة البسيطة من قبل كتاب ومفكرين يصنفون من الكبار في الغرب، مرده لعدة أسباب، منها:

- أن المفكرين الغرب عندما تتناول بحوثهم أي موضوع له علاقة بكتب اليهود المقدسة أو تحدثت عنه، فهم يتبنون كل ما تقول تلك الكتب ولو خالف المنطق والعلم، ومن ذلك اعتبار أن اليهود هم أول قوم في التاريخ عرفوا التوحيد. مع ما تكشف لأولئك العلماء من أن كل الأمم القديمة ديانتها تظهر عقائدها على أنها كانت في السابق أمماً موحدة.
- محاولاتهم البائسة في التشكيك في الإسلام كدين سماوي، ولأنه لو سلموا بصحته فهذا يعني الاعتراف بخرافة الدين المسيحي وبطلان الدين اليهودي، وهذا ما لا يستطيعون. فالتأثير الإعلامي اليهودي في الغرب لن يسمح لهم بذلك.
- أن المستشرقين الغربيين الذين كتبوا عن الإسلام هم رجال دين مسيحيون أو ممولون من قبل الكنائس، وهذا يعني التركيز على تشويه الإسلام وليس الكتابة عنه بحياد.
- أنهم يكتبون للقارئ الغربي لترسيخ فكرة بطلان الإسلام كدين سماوي وتصوير الرسول بالناقل للموروث المسيحي واليهودي.

وقد ورد لفظ الأمي في القرآن خمس مرات، أولها سورة الأعراف التي تقول:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي



لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٥٩).

والآيات تتحدث عن بعض بني إسرائيل الذين آمنوا بالرسول والذي تصفه الآيات بالنبي الأمي ومن أمة قريش الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب. فتاريخ قريش مجهول تماماً قبل الإسلام وكل ما قيل عنه في كتب التاريخ كتب في العصر العباسي ولا يمكن أن يصل لدرجة الثقة أبداً لأنه مجرد قصص مختلق عن عصور قديمة مجهولة تماماً، ولم يوثق.

بينما بنو إسرائيل يعتبرون أمة قارئة كونهم يكتبون ويسجلون تاريخهم ويقرأون. ولا يعني هذا أنهم كلهم متعلمون ويقرأون ويكتبون. كما أنه إن وجد في قريش من يكتب ويقرأ فنفر قليل جدا لدرجة لا يمكن أن يشكل ظاهرة تنسب للمجتمع.

وورد لفظ الأمي في الآية الثانية من سورة الجمعة، وفي الآية (٢٠) والآية (٧٥) من سورة آل عمران. وكلها تؤكد أن الأمي هو الشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب، والمجتمع الأمي هو المجتمع الذي لا تنتشر فيه ثقافة التدوين، وإن وجد نفر قليل يعرف القراءة والكتابة.

وقد جاءت آيات بينات تؤكد بكل وضوح أن الرسول لم يعرف القراءة ولا الكتابة، ومن ذلك:

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً(٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً(٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً(٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(٦) الفرقان.

وسورة الفرقان تبدأ بالحديث عن قريش ومواقفهم من دعوة الرسول. والسورة نزلت في مرحلة بدأ القرآن يخاطب كل الناس بعد سنوات اقتصرت فيها دعوة القرآن على قريش. فصار من المعتاد تواجد أناس من خارج مكة قدموا لرؤية الرسول والاستماع له، وهذا



مقلق لقريش التي لا ترغب في انتشار الدعوة. فكانت تقوم بجدال الرسول أمام الناس لكي تحرجه وتظهره بمظهر الكاذب. كما كان بعض القرشيين يؤلف بعض النصوص ويتلوها على القادمين ويزعم أنها نصوص من القران لكي ينفر الناس من لقاء الرسول (والآيات التي تتحدث عن هذا هي تلك التي تذكر الكذب على الله، مثل: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً» أو «مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ»). ومن محاولات قريش صد الناس هو أنهم كانوا يقولون لهم إن الرسول ليس رسولاً من الله وكل ما يتلو على الناس قصص قديم كتبه له شخص: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً».

هذا الكلام الذي بدأ رجال قريش يقولونه عن الرسول، لم تكن قريش تتهم به الرسول طوال سنوات الوحي الأولى التي كانت الدعوة موجهة لقريش فقط. لأن أهل مكة يعلمون أن الرسول لا يعلمه أحد ولو زعم أحدهم هذا عن محمد فلن يستمع له أهل مكة، لأنهم يعرفون بعضهم وكل من يعيش فيها. لكن عندما توسعت الدعوة وبدأ الناس من خارج مكة التوافد للقاء الرسول والاستماع له أصبح من الممكن لرجال قريش القول للغرباء إن الرسول مدع كاذب يتعلم ما يقول من أشخاص وليس من الله. ومن يأتي من خارج مكة لا يعرف مكة ولا الرسول وقد يصدق ما يقال له.

فالآية ليست لتقرير أن الرسول يعرف القراءة والكتابة ولكنها لنفي اتهام قريش الكاذب للرسول أمام الناس القادمين للقائه من خارج مكة.

والآية الثانية تقول: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩) العنكبوت.

العنكبوت نزلت في آخر مراحل الدعوة في مكة وفي وقت شديد الصعوبة على المسلمين حيث كانت قريش تعذب المستضعفين بشتى أنواع التعذيب ومنها الحرق بالنيران التي تشعل في الأخاديد لكي تردهم عن الإسلام بعد أن تكاثرت أعداد الذين دخلوا الإسلام منهم ومن الناس خارج مكة، خاصة من أهل الكتاب في يثرب وهو ما تشير له الآية: (٤٧) أعلاه: « وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ»



والسورة تتساءل عن سبب رفض كبراء قريش للدعوة برغم وضوح الحق، وتقول: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨).

فلو كنت يا محمد تقرأ وتكتب لكان هناك مجال للمشككين بأنك قد تعلمت القرآن من مصادر بشرية، لكنهم يعلمون أنك لا تقرأ ولا تكتب. فالآية تؤكد على مسامع قريش أن الرسول لا يعرف القراءة والكتابة، كما يعلمون، وبالتالي فلا مجال لأن يرتاب المشككون بأن الرسول قد يكون نقل القرآن من مصادر مكتوبة.

والتأكيد على أن الرسول لا يعرف القراءة والكتابة جاء في أواخر العصر المكي لأن قريشاً كانت تستخدم كل ما في وسعها لصد الناس القادمين من خارج مكة عن لقاء الرسول والدخول في الإسلام. ولم تتورع عن اختلاق عبارات منفرة ونسبتها للقرآن، كما سبق وذكرته عدة سور. وسورة العنكبوت تقول بأن قريشاً كانت تقول للناس إن الرسول لا يتلقى وحياً من السماء، ولكنه كان يقرأ كتب الرسالات القديمة ويعيد صياغتها ويقول هي قرآن منزل. وهذا الزعم تعلم قريش أنه كذب، وتعلم أن الرسول لا يقرأ ولا يكتب، لذلك لم تتهمه بهذه التهمة طوال السنوات التي كانت الدعوة موجهة لقريش فقط. كون أهل مكة يعرفون بعضهم ويعرفون كل من يقطن مكة، ويعرفون أن الرسول لا يقرأ ولا يكتب. لكن بعدما تحولت الدعوة لغير قريش، وبدأ الناس من خارج مكة يأتون إليها للقاء الرسول، كان الزعم بأن الرسول يتعلم القرآن من أناس آخرين موجهاً لمن يقدم لمكة ولا يعرف أهلها ولا يعرف نشأة الرسول.

الرسول لم يكن يعرف من الدين شيئاً قبل البعثة

ورد في سورة الشورى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢).

وهو ما يؤكد أن الرسول لم يكن يعرف شيئاً من الدين قبل البعثة، وينفي نفياً قاطعاً ما تزعمه كتب التراث من أن الرسول كان يتحنث قبل البعثة، ويتعبد الله في غار حراء. أو أنه



اطلع على كتب مسيحية ويهودية كما يحاول المستشرقون الترويج له بسبب ما ورد في كتب التراث.

وكلام كتب التراث عن تعبد رسول الله قبل البعثة، فيه خلط والتباس. حيث تسامعوا عن قضاء الرسول عليه الصلاة والسلام فترة في غار حراء، فظن القصاص أن بقاءه في الغار كان قبل البعثة وكان للتعبد، وليس بعد البعثة وبعد نزول سورة المزمل. ونقل هذا الظن المحدثون والمفسرون وترسخ بيننا على أنه ما حدث بالفعل. ولم يتساءل أحد إن كان الرسول يريد أن يتعبد الله فلماذا يبتعد عن بيت الله الحرام الذي وضع للناس ليعبدوا الله فيه، ويذهب لغار منعزل في جبل ليس مكاناً للتعبد أصلاً؟

وقد أكدت سور أخرى أن الرسول لم يكن يعرف عبادة الله قبل البعثة، وعندما جاء الإسلام كان أول من أسلم، ومنها سورة الأنعام: قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١٦٣).

وسورة الزمر: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَّ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣).

فالرسول كان أول من أسلم، ولم يعرف الإسلام قبل البعثة.

وليس محمد عليه الصلاة والسلام الوحيد الذي لم يعرف دين الله قبل البعثة بل يشاركه في هذا كل الرسل. ومن ذلك موسى الذي ما إن وصل لمكان النار في وادي طوى حتى سمع صوتاً يكلمه وأول شيء طُلب منه – بعد خلع نعليه – هو أن يكون أول المسلمين: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى(١٣) إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(١٤) إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥) فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى(١٦) طه.

لقد طلب من موسى الإيمان والصلاة والبقاء على الإيمان ولو كفر غيره قبل أن يكلف بالرسالة لفرعون، وهو ما يؤكد أنه لم يكن يعرف الدين قبل تكليفه بالذهاب لفرعون: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٢٤) طه.

والرسول قد يكون عرف الله – مثل قريش – لكنه لم يكن يعرف دين الله ولم يتعبد لله قبل



الإسلام. لذا فقد خاطبته سورة الضحى واصفة إياه بأنه كان ضالاً قبل الإسلام: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى(٧).

محمد ختمت به الرسالات

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) الأحزاب.

النبوة هي تلقي الوحي، والرسالة هي تبليغ ما يوحي. ومحمد كان آخر من نُبِّئ، وآخر رسول بلغ نبوته. وختمت الرسالات به عليه الصلاة والسلام لأن هناك عوامل اجتمعت فيه لم تجتمع في غيره، منها:

- أنه لم يكن دخيلاً على النبوة والرسالات: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩) الأحقاف.

ولكنه سليل بيت الرسالات، فوالداه إسماعيل وإبراهيم كانا من الرسل. وإبراهيم – ككل الرسل المذكورين في القرآن – من نسل آدم. وآدم هو أبو كل الرسل المذكورين في القرآن: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(٥٨) مريم.

وخلق آدم بصفة منفردة تجعل له تميزاً على بقية البشر، وقد يكون أودع فيه طاقات خاصة تجعله قادراً على تلقي الوحي. وهذه القدرة ورثها منه بعض من جاء من نسله وآخرهم محمد. ولعل سورة البقرة تشير إلى شيءٍ من هذه القدرات في قوله تعالى: قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) البقرة.

فمن قدرات آدم معرفته لأسماء (أو صفات) أشياء لا تعرفها الملائكة، وهو للتو خلق ولم يعش على الأرض ويتعلمها بالتجربة، أي أن هذه المعرفة خلقت معه.

- وقد ولد ونشأ محمد عليه الصلاة والسلام في مكة – بيت الله الوحيد على الأرض –



ومنها بعث. ولم يولد أو يبعث في مكة قبله رسول من الرسل المذكورين في القرآن.

- إضافة لكتابة رسالته وبقائها مكتوبة بين الناس كما نزلت، وهو ما لم يتوفر لأي رسالة أخرى. وإن كانت التوراة قد كتبت أيضاً إلا أنه سرعان ما ضاعت ولم يعد لها وجود.

وبقاء الرسالة كما نزلت يغني عن إرسال رسول بعده عليه الصلاة والسلام، لأن الرسول يرسل للناس بعدما تندثر رسالة من كان قبله، ولو بقيت رسالة رسول سابق كما نزلت لما كان هناك داع لإرسال رسول آخر لمن نزلت عليهم.

- أن الإسلام هو الرسالة السماوية الوحيدة الموجهة لكل الناس في كل زمان ومكان. ولم يبعث رسول قبله أبداً إلا لقومه فقط.

وعوامل أخرى تفرد بها الإسلام ورسوله.

وبالتالي فليس هناك من هو أنسب منه عليه الصلاة والسلام ليكون خاتماً للرسالات.

الرسل لا يعلمون الغيب

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً(٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً(٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨) الجن.

هذه الآيات يستدل بها من يقول بأن الرسول يعلم غيب قادم الأيام، لكي يعتبروا الأحاديث المنسوبة إليه والتي تتحدث عما يأتي بعد عصره من أحداث، صحيحة وليست مختلقة. وكلما وقعت أحداث جسام انبرى البعض واختلق حديثاً على لسان الرسول وكأنه أخبر بها.

والرسول لم يعلم الغيب وما سيقع من أحداث مستقبلية سواء في عصره أو بعد مماته، لذا لم يعرف أن المسلمين سيهزمون في أحد ولم يعلم أن الأحزاب ستجتمع لحرب المسلمين ولم يعلم أن قريشاً ستخونه يوم الفتح ولم يعلم بأي حدث قبل وقوعه أبداً لا في حياته الشخصية ولا على مستوى المجتمع المسلم ولا على مستوى أشمل.

وهذه الآيات تؤكد أنه لا يعلم، لكن كتب التراث أولتها لغير معناها. ولو أعدنا قراءتها كما نزلت لوجدنا أن الآيتين: (٢٥-٢٦) تؤكدان أن الرسول لا يعلم الغيب، وأن الغيب من علم الله وحده جل وعلا. وهنا ينتهي الحديث عن الغيب، ويبدأ موضوع جديد بـ"إلا"



في الآية: (٢٧): إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨).

والقاعدة التي عرفناها من القرآن الكريم تقول بأنه في حال بدأ موضوع جديد بـ«إلا» فهي تأتي بمعنى «أما» وليست للاستثناء[١]، وهي كذلك هنا. فالحديث توقف عن الغيب في الآية (٢٦)، وبدأ الحديث عن الرسل الذين يختارهم الله لنقل رسالته، سواء من الملائكة الذين ينقلون الوحي من اللوح المحفوظ لذاكرة الرسول، أو من الرسل البشر.

والآية تقول بأن من يرتضي الله ويختار من الرسل سيُراقب بكل دقة وتسجل أقواله وأفعاله (يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) لئلا يقول على الله ما لم يقل:-«ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم».

وجاء في سورة الملك: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٦).

قريش تسأل الرسول عن موعد البعث الذي يتحدث عنه، والآيات تؤكد لهم أن محمداً لا يزيد عن رسول يبلغهم رسالة ربه، ولا يعلم ما يحل به ولا بهم ولا ما سيكون في قادم الأيام ومن ذلك موعد البعث.

وتقول سورة «ص» ضمن آيات موجهة للرسول وتتحدث عن خلق آدم: مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠).

فالرسول لا يعلم الغيب، وكل ما يعلمه من قصص سابق علمه الله إياه وحياً على شكل قرآن يتلوه على الناس. وهذا يلغي الزعم أن الرسول يعلم الغيب لأن الله يوحي له بغير القرآن – حسب زعمهم – ويحدث به أو ببعضه لمن شاء من صحبه بما يسمى "أحاديث".

والمؤكد هو أن القرآن لا يتحدث عن أي حدث مستقبلي ولو كان بعد يوم واحد من نزول السورة. وإلا لأخبر المسلمين أن يحترزوا يوم أحد ويغيروا تكتيكهم وخططهم ليكسبوا المعركة. ولم يتحدث القرآن ولو تلميحاً عما سيحدث بعد الرسول، وإلا لتجنب المسلمون خلافاتهم، وانتبهوا لألاعيب قريش ومكرها الذي مكنها من الاستيلاء على حكم دولة المسلمين.

١ انظر فقرة: استخدام «إلا» بمعنى «أما»/ قسم من أساليب القرآن.



وليس هناك مخلوق من مخلوقات الله التي لا حصر لها في الكون يعلم غيب المستقبل. وفي سورة «ص» وأثناء الحديث عن خلق آدم لدينا دليلان على أن الملائكة لا تعلم الغيب، وهما:

- الملائكة لم تعلم أن آدم سيخلق: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) ص.

ولما عصى أحد الملائكة – وهو إبليس – وطرد كان مما سأله ربه قوله:

- قَالَ رَبِّ فَانظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ(٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ(٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٥) ص.

لأنه لا يدري أنه سيبقى إلى نهاية البشر على الأرض، ولا يدري إلى متى سيبقى حياً.

وتقول سورة الأحقاف: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩).

والخطاب لقريش وبعد سنوات من بدء الدعوة، ولم يعلم الرسول من الغيب إلا كما كان يعلم قبل أن يبعث. ولو كان الله مطلعاً الرسول على علم الغيب أو شيئاً من هذا العلم لعرفه الرسول بعد سنوات من بعثته.

وتؤكد سورة الأنبياء أن الرسول لم يعلم من الغيب شيئاً: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ(١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(١١١).

وليس فقط الرسول بل إن الملائكة (المخلوقات الكونية) التي زارت إبراهيم لا تعلم الغيب، وهو ما تشير له سورة هود: وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ(٧٠).

المخلوقات الكونية لو كانت تعلم أن غياب إبراهيم عنهم كان لذبح العجل وتنظيفه وإشعال النار في الفرن حتى تحولت لجمر ثم تحضير العجل على شكل حنيذ لما تركوه طوال هذه المدة الطويلة التي تستغرق عدة ساعات، وهم لن يأكلوا منه؟



لكنهم لم يعلموا وظنوا أنه تغيب لسبب آخر، فانتظروه حتى عاد. فهم وإن كانوا مخلوقات كونية لا يعلمون الغيب ولا حتى ما يجري في نفس الوقت بعيداً عنهم.

وهذا يوصلنا لتساؤل آخر: إن كانوا لا يعلمون ما سيحدث في المستقبل القريب، ولا ما يجري في أماكن غير المكان الذي يتواجدون فيه، فكيف عرفوا أن براكين وزلازل ستضرب قرية لوط التي هم في طريقهم إليها؟

الجواب: لابد أنهم أبلغوا أن هذا سيحدث.

وتقول سورة الأنعام: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠).

فالرسول لا يعلم الغيب، ولا يستطيع أن يخبر بشيء غير ما يقول القرآن. وهذه الحقيقة البسيطة الواضحة تنسف كل ما يحاول أتباع الموروث المذهبي الترويج له من أن الرسول قد أخبر عن أحداث ستقع بعد وفاته. لذا فهم يتغافلون عن هذه الآية وآيات مماثلة، أو يؤولونها لغير معناها.

وتتحدث سورة النساء عن حادثة وقعت زمن الرسول وتظهر بكل وضوح أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، وليس بينه وبين الله تواصل مباشر وخفي غير القرآن الذي ينسخ في ذاكرته: إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ



وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(١١٥) النساء.

الآية: (١٠٥) توجه الحديث للرسول كمقدمة للموضوع، وتذكره بأن الحكم بين الناس لا يكون بمرئيات الرسول الشخصية ولكن بما نزل عليه من الكتاب (القرآن).

والآية: (١٠٦) تطلب منه الاستغفار من ذنب اقترفه، وهو ما سيتضح لنا أثناء استعراض الحادثة. وهذا يعني أن الرسول استعجل وحكم برأيه دون القرآن، فجاءه التوبيخ بألا ينسى نفسه ويظن أن بإمكانه التكلم نيابة عن الله.

وتقول الآيات: (١٠٧-١٠٩) إن الرسول جادل (دافع) عن أناس اختانوا أنفسهم (أي كذبوا وأصروا على الكذب) والله يعلم ما تخفي أنفسهم. وتوجه التوبيخ للرسول مرة أخرى، بأنه إن دافع عنهم في الدنيا وظلموا غيرهم فمن سيجادل عنهم يوم القيامة.

فالرسول استعجل ودافع عن شخص اقتنع بأنه بريء، وقد كان مذنباً.

وتقول الآيتان: (١١٠-١١١) إنه كان من الواجب على المذنب أن يعترف بذنبه ويستغفر وسيغفر الله له. لكنه قام بإلصاق التهمة ببريء وهو يعلم، كما تقول الآية: (١١٢).

والآية: (١١٣) تبين كيف اقتنع الرسول ببراءة المذنب لأنه وأهله أقنعوا الرسول أنه بريء وأن ذاك البريء هو المذنب، فصدق الرسول كلامهم ودافع عن المذنب[١].

ومثله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

---

١ انظر تفاصيل القصة في فقرة: حادثة وقعت وكاد الرسول أن يصدق الجاني ويتهم البريء/ قسم أحداث من عصر الرسول.



وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٥) المجادلة.

الآيات تخبرنا أن امرأة جاءت للرسول تشتكي له زوجها الذي ظاهرها، ولم يستطع الرسول أن يعطيها رأياً فيما يجب عليها أن تفعل. بل ولم يذهب للزوج لينصحه بألا يظاهر زوجته، وانتظر نزول الوحي لأنه خشي لو أدلى برأيه في الموضوع فقد يتعارض مع القرآن. ولما نزلت الآيات قام بتلاوتها على الزوجين، والتي فيها حكم الظهار، وما يجب على الزوج القيام به.

وتؤكد سورة المائدة أن الرسل كلهم لا يعلمون الغيب، ولا ما سيقع بعد موتهم: يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١٠٩).

فإن كانت الملائكة لا تعلم غيب الغد والرسول لا يعلمه، فمن باب أولى ألا يعلم بذلك أحد من الخلق. وينفرد الله سبحانه ويختص بهذا العلم: إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٣٨) فاطر.

الرسول لم يؤت آية

والآيات في القرآن تعني بالمفهوم السائد المعجزات والخوارق.

وقريش ككل الأمم السابقة كانت تصر على رسولها أن يظهر لهم بعض الآيات والخوارق كدليل على أنه رسول من الله، والقرآن ينفي نفياً قاطعاً أن يكون الرسول محمد قد أوتي آية حسية واحدة سواء لتلبية طلب قريش المستمر أو فيما بعد. وهذه بعض الأمثلة:

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى(١٣٣) طه.

قريش استمرت تطلب من الرسول أن يريهم آية لكي يتأكد لديهم أنه رسول من الله، لكن الرسول لم يعط آية. ولعل السبب أن رسول الله محمداً أرسل لكل الناس في كل العصور، ولم يرسل لقريش. لذا حتى لو لم تسلم قريش فالدعوة باقية إلى نهاية الجنس البشري. وقد يعطى آية لو كان الرسول كمن سبقه من الرسل، أرسل لقومه فقط.

وتقول سورة القمر: وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ(٣) وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ(٥).

وآيات سورة القمر تؤكد أن قريشاً لن تؤمن لو رأوا الآيات التي طلبوا من الرسول.



وتقول سورة بني إسرائيل: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩).

ومثلها: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣) الأعراف.

وتؤكد سورة يونس أن الرسول لم ولن يعطى آية برغم مواصلة قريش طلبها: وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(٢٠).

وهنا تأكيد قاطع أن الرسول محمداً لم يؤت أي آية: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) بني إسرائيل.

"ما منعنا" نفي قاطع أن الله لن يظهر أي معجزة على يد رسوله محمد، والله لا يبدل رأيه أبداً سبحانه. وبالتالي فكل من يظن أن الرسول قد أعطي آية فهم «يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ» ويتهمونه سبحانه بتغيير رأيه (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

ومثله: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَّسُولاً(٩٤) بني إسرائيل.

والآيات تقول إن قريشاً تطلب من الرسول معجزات، ولو تحققت لهم مطالبهم فلن يؤمنوا وسيبحثون عن تبريرات أخرى. وتخبرهم أن محمداً لا يستطيع أن يقدم لهم المعجزات لأنها من الله القادر عليها أما محمد فكونه رسولاً لا يعني أنه أصبح أعلى قدرة من البشر.

وترد الآية: (٩٥) على طلب قريش نزول الملائكة: قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً(٩٥).

لو كان أهل الأرض ملائكة لأرسل لهم ملائكة مثلهم، لكن الملائكة لا ترسل للبشر. فالرسول لابد أن يكون من نفس القوم المرسل لهم ويتحدث بلسانهم ويمارس نفس عاداتهم وأعرافهم: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ



وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤) إبراهيم.

وتستمر السور تنفي نفياً قاطعاً أن يكون الرسول أعطي آية: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٩) الشعراء.

قريش لن تؤمن لو رأت آية لذا فلن تعطى يا محمد أي آية.

وتقول سورة هود: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢).

والآية تظهر أن الرسول كان يتمنى لو يستطيع تأخير تلاوة الآيات التي تقول لن يعطى آية، لعله ينزل عليهم آية ويؤمنون كما كانوا يقولون. وتذكر الآية الرسول أنه مجرد رسول عليه تبليغ الوحي حال تلقيه.

وتقول سورة الأنعام: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧).

والآية من سور المرحلة السابعة والأخيرة في مكة، وهي تنفي بشكل قاطع أن يكون الرسول أوتي آية.

وتقول سورة العنكبوت من سور نفس المرحلة الأخيرة في مكة: وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١).

لن يكون هناك آيات، ومن رغب في الحق فسيكفيه القرآن.

وتقول سورة الأنعام: فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٢٥).

وهذه الآية استدل بها بعض من يروج للقول إن القرآن يحوي معجزات علمية لم تكتشف



إلا في العصر الحديث، وهذا القول مجرد خيال وظن وإنهم إلا يخرصون. فالقرآن يحدث قريشاً بما تعرف ولم يتوجه بالحديث لنا في هذا العصر. لأن كل رسالات الرسل تبدأ بخطاب دعوي وبعد أن يؤمن الناس يتحول الخطاب إلى تشريعي. وبعد نزول التشريعات يختفي الخطاب الدعوي، فمن أراد أن يؤمن فليتدبر تشريعات الدين، ولن يكون هناك خطاب دعوي لمن يأتي بعد نزول التشريعات. فليس في القرآن خطاب دعوي موجه لمن سيأتون بعد عصر الرسول في أي عصر من العصور.

والآية ككثير من الآيات تعطي صوراً حسية لزيادة التأثير، وتشبيه الكافر بمن يصعد في السماء، يعني باتجاه السماء يعني إلى الأعلى يعني بالصعود إلى الأعلى سواء بدرج أو مرتفع، حيث سيشعر بضيق تنفس « صَدْرَهُ ضَيِّقاً». ولا علاقة لها بطبقات الجو العليا ونقص أو اختفاء الأوكسجين كما يروجون.

وتستمر قريش تطالب بالآيات وتكرر السور التأكيد على أن الرسول لن يعطى آية واحدة: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧) الرعد.

الرسل قد يعصون ويكفرون

تقول سورة غافر مخاطبة محمداً عليه الصلاة والسلام: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٦).

فالرسول أمر كغيره من البشر بالطاعة والإيمان، لأنه كغيره من البشر قد يخطئ ويعصي ويكفر.

وتقول سورة الزمر: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ(٦٦).

فالرسل سيحاسبون كغيرهم، وقد يشركون.

وتقول سورة يونس: فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦)



وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧).

والآيات تتحدث عما قد يجول في خاطر الرسول من تساؤلات بشرية، وتوجهه لطردها. والتحذير من التكذيب بآيات الله يعني إمكانية حدوث ذلك، من أي بشر بما فيهم الرسول.

وتعود سورة يونس لتوجيه الرسول: وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥) وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦).

وتحذره من الشرك، ولو كان من المستحيل شرك أو عصيان الرسل لما افترض القرآن ذلك.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ(١٤) قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(١٦).

وتقول نفس السورة: قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ(٥٨) وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٥٩) الأنعام.

الآيات تخاطب الرسول، وتظهر أنه مطالب بكل تعاليم الدين، ولو قصر فسيعاقب. وليس له معاملة خاصة من الله كونه رسولاً. لأن تكليفه بالرسالة جاء من خالق إلى عبده وعليه التنفيذ.

وتقول سورة القصص: وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ(٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨).

تحذير شديد اللهجة لرسول الله، لئلا يطلق لنفسه العنان بأفكار قد تجره للعصيان. فهو إنسان معرض – كغيره – للعصيان. وعليه – كغيره – مجاهدة نفسه ليبقى على الحق.

وتقول سورة الرعد مخاطبة الرسول: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ(٣٧).

وقد أوردت سورة الأعراف خبراً عن إنسان أوتي آيات ربه فانسلخ منها وكفر بها، وقد



يكون أحد الرسل: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦).

الرسول لم يعرف الغنى والثروة

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً(٤٥) الكهف.

الخطاب في هذه الآية موجه للرسول، وهو دليل على أن الرسول فترة نزول السورة لا يملك مالاً وفيراً كما هي حال الكثير من رجال قريش، ولا يملك أثاثهم ومتاعهم. وهو ما ينفي ما روجته كتب الأخبار أنه تزوج سيدة أعمال (خديجة) وأنها كانت غنية.

ودليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق من خديجة بذرية، سواء كن إناثاً أو كانوا ذكور. والآية تشجعه وترفع من معنوياته كبشر يشعر بالانجذاب لمتاع الدنيا وتذكره بالمتاع الدائم في الآخرة.

وتقول سورة الزخرف: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢).

والتفاضل بين الناس يكون بالمال والولد اللذين يكسبان الجاه والشهرة الدنيوية، ومحمد بنص الآية لا يملك المال ولا الولد، فهو ليس من عظماء مكة، حسب مواصفاتهم. ولم يتزوج بامرأة غنية.

الرسول معرض للموت والقتل في أي لحظة أثناء الدعوة

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢) الزخرف.

والقرآن لم يذكر أن محمداً خاتم النبيين في مكة ولا حتى في المدينة قبل اكتمال التشريعات في



سورة المائدة: ....الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣).

لأن الرسول عرضة للقتل والموت – كغيره من البشر – في أي لحظة. ولو مات الرسول قبل اكتمال التشريعات لأرسل الله جل وعلا رسولاً آخر يبلغ الناس كل تشريعات الله ودينه بتمامه وتختم به الرسالات.

ولكن الرسول محمداً بقي حياً واكتملت التشريعات في وقته، فجاء التأكيد في سورة الأحزاب على أنه خاتم النبيين: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

وباكتمال الدين، وبقاء القرآن كاملاً كما نزل لن يكون الناس بحاجة لرسول آخر. لأن المهم هو وجود الدين الكامل وليس المهم تواجد الرسل.

وتؤكد سورة غافر احتمال قتل أو وفاة الرسول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧).

وهو ما كررت ذكره سورة يونس: وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(٤٦).

وتقول سورة الأنبياء: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ(٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٣٥).

وفي معركة أحد أصيب الرسول وكاد أن يقتل. ولو قتل حينها فالتشريعات قد اكتملت وسيبقى الدين: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) آل عمران.

مسجد الرسول وحجراته بنيت قبل وصوله

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) الحجرات.

الآيات تتحدث عن وفود الأعراب الذين سارعوا للقاء الرسول بمجرد معرفتهم بوصوله



ليثرب مهاجراً، وقد ظهرت منهم تصرفات فظة بعيدة عن اللباقة ومنها أنهم إذا لم يجدوا الرسول في مجلسه ينادونه بصوت عال أجش وهو في حجراته يستريح، دون مراعاة لخصوصية.

والسورة ثاني سورة نزلت في المدينة وبعد الممتحنة. وكتب التراث تقول إنه عليه الصلاة والسلام نزل عند أبي أيوب في داره فترة حتى بني مسجده وحجراته، وهذا يحتاج وقتاً. والأعراب توافدوا على الرسول بمجرد سماعهم خبر وصوله. أي بعد عدة أيام من وصوله ليس بعد أشهر، وعندما وصلوا كان الرسول قد استقر في حجراته.

وتقول سورة براءة في حديث عن فئة منافقة حاولوا تفريق كلمة المسلمين ببناء مسجد خاص بهم ويمنع عنه المستضعفون: وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨).

وقوله: « لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ» دليل على أن المسجد أقام الرسول فيه الصلاة من أول يوم وصل ليثرب. ولو كان بني بعد وصوله فسيستغرق البناء أياماً، ولن يقيم الرسول فيه الصلاة من أول يوم.

الانتساب للرسول لا يعني الإيمان والصلاح

سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ(١١٣) الصافات.

إبراهيم رائد العقلانية على مر العصور، والتي هدته لعبادة الخالق، والذي اتخذ الله خليلاً، وكلفه سبحانه بالقيام على بيته الحرام وخدمة ضيوفه الحجاج، وهو جدّ الرسول محمد خاتم النبيين. ومع ذلك خرج من صلبه نسل كافر، فالنسب لا يغني من الحق شيئاً. وبالفعل تحولت أجيال لاحقة من نسل إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم إلى الوثنية والكفر، وهو ما تشير له الآية: (١١٣).



وكان أحد أبناء نوح ممن غرق، ولما جزع نوح على غرقه، جاءه الوحي يقول له إنه عمل غير صالح وليس على دينك: وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦) هود.

وكانت امرأة نوح وامرأة لوط من الكافرين: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(١٠) التحريم.

آل الرجل وأهل الرجل

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ(٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(٣٤) القمر.

ولم يؤمن مع لوط ويخرج معه سوى ذريته الذين يعيشون معه في بيته. وسواء كانت ذرية لوط ذكور وبنات، أو بنات فقط، لكنهن لم يتزوجن فهن ما زلن يحملن اسمه، ويعتبرن من آله. لأن آل الرجل هم من يحملون نسبه، سواء كانوا أبناءه الذكور الذين سيبقون آله بعد زواجهم وعلى الدوام، وسيورثون نسب والدهم إلى أولادهم. أو كن بناته غير المتزوجات. وبعد زواج البنات يبقين يحملن نسب أبيهن ويكن من آله، دون أولادهن. لأن أولاد وبنات المرأة من آل زوجها (أبيهم) وليس من آل المرأة. لذا فسورة الصافات تقول: وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ(١٣٦).

ومثله: فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ(٥٧) النمل.

والآيات تقول إن الذين خرجوا مع لوط هم أهله. وأهل الرجل أعم من آله. لأن الأهل هم من يعيشون في بيت الرجل ويدخل في ذلك أبواه وإخوته وأخواته إن كانوا يعيشون معه، ومنهم زوجته التي ليست من آله، ولكنها من آل والدها وتحمل نسبه. ولكن بما أن زوجة لوط كافرة فهي مستثناة من الخروج معهم. وبالتالي فمن خرج مع لوط هم أهله باستثناء زوجته. وهم في نفس الوقت آله أي أولاده، ذكور وإناث لم يتزوجن.



ويكون آل الرجل من يحملون نسبه على الدوام، وهم أولاده الذكور والإناث. والذكور يبقون آل أبيهم يورثون نسبه لأبنائهم، بينما تحمل البنات نسب أبيهن لكن أبناءهن ينتسبون لآبائهم وليس لأبيها.

وتقول سورة الصافات: وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ(٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(٧٩) الصافات.

فأهل نوح هنا هم أهل بيته ومن يعيش معه، كالوالدين والإخوة والأخوات والزوجة والأولاد والبنات بالتبني والرقيق إن وجدوا، وكل من يعول.

وقد نجا نوح وأولاده وبناته باستثناء واحد منهم، الذي غرق مع الكافرين: قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٣) هود.

ودون زوجته الكافرة بشهادة سورة التحريم: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(١٠).

كما أن آل تأتي بمعنى «بني»

تقول آل بكر يعني بني بكر، يعني قبيلة بكر: وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ(٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ(٤٢) القمر.

وآل فرعون هنا ليس المقصود بهم بنيه وذريته ولكن قومه، وقوم فرعون هم آل فرعون.

أهل البيت وآل البيت

ورد مصطلح أهل البيت في القرآن مرتين وكلاهما تؤكدان على أن أهل البيت هم من يعيش في بيت الرجل ويعولهم الرجل من زوجة وأولاد: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ(٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ



إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ(٧٣) هود.

الآيات تتحدث عن مخاطبة المخلوقات الكونية امرأة إبراهيم ومناداتها بأهل البيت. أي أنها تمثل أهل بيت إبراهيم. وفي ذلك الوقت الذي بشرت به بولد كانت تعيش مع زوجها إبراهيم وابنها إسماعيل، وهم أهل بيت إبراهيم.

وتخاطب سورة الأحزاب نساء النبي قائلة:

يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهَّ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَّ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا(٣٤).

فنساء النبي يمثلن أهل بيته.

وآل الرجل هم بنوه. يقال آل محمد لأولاده وأولادهم الذكور فقط. وبنات الرجل من آل الرجل، لكن أبناء وبنات البنات يكونون من آل بيت والدهم، وليسوا من آل بيت جدهن لأمهن، لأنهن ينتسبن لأبيهن وليس لجدهن من أمهن.

آل الرجل إذن هم سلالته، لذا يقال للقبيلة بنو فلان لأنهم ينحدرون في نسبهم من ذاك الرجل وينسبون إليه:

إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٣٤) آل عمران.

الآية تقول إن الله اصطفى آدم ونوح كأنبياء ورسل، ولم يقل آل آدم وآل نوح، لأن أبناء آدم وأبناء نوح لم يكن منهم أنبياء ورسل. بينما تقول الآية: وآل إبراهيم، لأن إسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا من الأنبياء، وبما أنهم يحملون نسب إبراهيم فهم آل إبراهيم. وكذلك الحال مع عمران، الذي هو والد مريم. ومريم ابنة عمران كانت صديقة وولدت عيسى ابن مريم من غير أب، ولو كان له أب فلن يكون من آل عمران. لذا قالت الآية آل عمران.

لكن القرآن لم يذكر آل محمد أبداً، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له نسل.



ولا عبرة ولا أهمية لاقتطاع جزء من الآية (٣٣) من سورة الأحزاب من سياقها الواضح وتأويلها بشكل متعسف وكأنها نزلت لوحدها وتتحدث عن آل أبي طالب (الحسن والحسين وأمهم فاطمة من آل أبي هالة) وكأنهم نسل للرسول.

ذرية الرسول

المصادر التي تحدثت عن إن كان للرسول ذرية، هي كتب التراث أو القرآن. وسنذكر ما تقول كتب التراث باختصار ثم نستعرض بعض ما ورد في القرآن بسياقه ومناسبته لنخلص لنتيجة نهائية.

وكتب التراث، تقول إن الرسول تزوج بخديجة وعمرها (٤٠) سنة، ومع ذلك رزق منها بأربع بنات وولدين أو ثلاثة أو أربعة. ولو افترضنا أن بين حمل وآخر سنتين فهذا يعني أنها بقيت تنجب إلى أن قارب عمرها الستين أو تجاوزه، وهذا مستحيل.

هذه الأخبار وحدها تكفي للشك في أن للرسول ذرية من خديجة.

وخديجة تزوجت قبل الرسول برجلين، أحدهما اسمه عتيق بن عابد المخزومي الذي توفي عنها، ثم تزوجت بأبي هالة بن زرارة التميمي. وكلا الرجلين أنجبا من خديجة. وبعد وفاة زوجها الثاني بقليل تزوجت بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وتقول كتب التراث إن للرسول ولداً من رقيق اسمها مارية القبطية في المدينة. وهذا الخبر بني على قصة مكذوبة تتمثل في أن الرسول قام بإرسال دعوة للمقوقس ملك القبط للدخول في الإسلام. فما كان من المقوقس إلا أن أرسل له هدايا من بينها جارية اسمها «ماريه». ولو قبل الرسول الهدية فقد قبل أجرا على دعوته للناس. والدعوة ليس لها أجر في الدنيا ومن الناس ولكن أجرها على الله كما أبلغ القرآن الرسول محمد: قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٤٧) سبأ.

وكتب التراث ينظر لها بعين الشك والريبة والكذب حتى يثبت العكس، فهي كتب كتبت بعد عصر الرسول بمئات السنين وبعد ظهور الفرق والبدع وكثرة الكذب واختلاق القصص لخدمة المعتقدات.

ومجرد ورود خبر في كتب التراث لا يعني أنه صحيح، بل لا يعني أنه قد وقع بالفعل.



فكتب التراث مثلاً أوردت أن هناك حماراً كان يتكلم مع الرسول ويكلمه الرسول. وكتب التراث اختلقت أن الرسول قتل ما بين ٦٠٠-٩٠٠ يهودي وسبى نساءهم. وأنه تزوج بطفلة عمرها ست سنوات. وأنه كان يلاحق تجارة قريش ويغير على قوافلها.. وغير ذلك الكثير الذي تمتلئ به كتب التراث، ولم يكن له وجود على أرض الواقع.

أما القرآن فهو المصدر الوحيد الموثوق الذي نقل لنا كل ما كان يحدث من أحداث ومواقف مرت بالرسول والمسلمين زمن بعثته حتى مات عليه الصلاة والسلام. مهما كان الحدث أو الخبر صغيرا أو هامشياً. فلو تهكم قرشي على الرسول لنقله القرآن. وعندما استمع نفر من الجن للرسول وهو يتلو القرآن نقله القرآن. بل لو حدث في بيت الرسول مشكلة عائلية لنقلها القرآن.

ولو تحدثت كتب التراث عن أحداث زمن الرسول ولم يذكرها القرآن فهي مكذوبة بلا شك.

والقرآن ينقل ما حدث كما حدث، ومما نقله القرآن ما يعتري الرسول من ضغوط نفسية ومضايقات وسخرية من قريش، ومن ذلك: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) ن والقلم.

مثلما ينقل القرآن الآيات التي تنزل لتشد من أزر رسول الله وتخفف عنه آثار الضغوط النفسية المترتبة على السخرية: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً(٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً(٢٦) إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً(٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً(٢٨) الإنسان.

وتذكره سورة الأنبياء أن كل الرسل سخر منهم واستهزئ بهم: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٤١).

وهكذا ...

والآن سنورد بعض ما أخبر به القرآن من الأحداث التي لها علاقة بموضوعنا:

ورد في سورة الكهف: وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن



دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) الكهف.

الرسول كبشر تميل نفسه لمتاع الدنيا، المتمثل بالمال الذي يملك رجال قريش منه الكثير. وهذا دليل قوي على أن الرسول لم يكن غنياً، مما ينفي ما روجته كتب التراث أنه تزوج سيدة أعمال ثرية (خديجة).

والآيات تقول للرسول ألا يهتم بالماديات الدنيوية وأن يهتم بحاله وحال المسلمين.

ثم تعود سورة الكهف نفسها للحديث مرة أخرى عما تهفو نفس الرسول له كبشر:

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦).

ليس فقط المال الذي تهفو له نفس الرسول، ولكن الذرية أيضاً. وهذا دليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق من خديجة بذرية.

وفي نفس المسار تنزل سورة الكوثر:

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(٣).

وسورة الكوثر نزلت في أواخر المرحلة الخامسة بحق أحد زعماء قريش الذي كان يعير الرسول وينعته بالأبتر. والأبتر تعني من لا عقب له.

ومن الواضح أنها نزلت بعد وفاة خديجة، زوجة رسول الله الوحيدة في مكة، ولو كان الرسول قد ولد له أولاد ذكور، كما يزعم المؤرخون، وإن ماتوا وهم صغار، فلن يعيره القرشي بأنه أبتر. وحتى لو أن خديجة لم تنجب لمحمد سوى بنات، فلا يمكن أن يعير بالأبتر، حتى لو حاول بعض المفسرين أن يقصروا معنى الأبتر بالذي ليس له ولد ذكر. لأن من يستطيع إنجاب الإناث يمكن أن ينجب ولداً ذكراً فيما بعد. والقرشي لم يعير الرسول بأبي البنات ولكنه عيره بالأبتر. مما يؤكد أن القرشي يعلم أن الرسول لم ينجب من خديجة كما أنجبت من أزواجها السابقين. ولو كان له منها بنات فالاحتمال ما زال قائماً بزواجه مرة أخرى وإنجاب الذكور. لكن إن كان الرسول لبث زوجاً لخديجة حيناً من الدهر، ولم ينجب، لا إناثاً ولا ذكوراً، وهي قد أنجبت من رجال قبله، فهو مدعاة للقرشي أن يعيره بالأبتر، لأنه ثبت بالبرهان أنه لا ينجب. وإن كان هذا ما حدث، فلم يكن للرسول بنات



في مكة. وتكون رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة بنات لخديجة وربيبات لمحمد عليه الصلاة والسلام، أو بناته تجاوزاً. ولم يولد له ولد ذكر.

ثم في منتصف العصر المدني تأتي سورة الأحزاب وتقول: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٤٠).

الآية تنفي نفياً قاطعاً أن يكون له أولاد عليه الصلاة والسلام. مع أن كتب التراث تقول إنه ولد له من خديجة أولاد. ويكون ما قالته كتب التراث عن إنجاب خديجة للرسول ليس صحيحا.

وآية سورة الأحزاب وردت ضمن سياق يتحدث عن زواج الرسول بمطلقة ابنه (بالتبني). أي أن الرسول كان قد تبنى ابناً.

هذه الحقيقة تثير أسئلة واحتمالات، منها:

لو كان للرسول بنات أربع وسبق وأنجب أولاداً، وهو متزوج لحظة نزول سورة الأحزاب بثلاث نساء على الأقل بينهن زوجة شابة (عائشة) التي تزوجها بداية العصر المدني، فهو ليس بحاجة لتبني ولد في المدينة.

الولد المتبنى (زيد) رجل متقدم بالعمر ومتزوج، يعني أن الرسول لم يتبناه بعد وفاة خديجة ولكنه تبناه وهو (أي زيد) طفل رضيع. لأن التبني يكون للطفل وليس للرجل العاقل.

وزيد المتزوج في المدينة لابد أنه كان طفلا رضيعاً في مكة. أي عندما كان رسول الله زوجاً لخديجة.

وهذا يعني الاحتمالين التاليين:

أن خديجة لم تنجب للرسول ولدا، لأنه تزوجها وقد وصلت سن اليأس. وبالتالي فقد تبنى ولدا كعادة المجتمع حينها، لكي ينادى به كغيره من الناس حسب العادة المتبعة.

وتبني الرسول لطفل من غير خديجة وهي على قيد الحياة بعيد الاحتمال، لأن خديجة كان لديها بناتها ولديها ولد على الأقل من زوجها السابق (أبو هالة) وهو أصغر من بناتها بما فيهم فاطمة. وبالتالي فكل بنات خديجة ربيبات (بنات) للرسول، وابنها ربيبه (ابنه).

ولو ثبت هذا فالبنات وأخوهن بنات لأبي هالة.



ولو ثبت هذا فسيقودنا للاحتمال الثاني وهو: أن الطفل المتبنى للرسول هو ولد خديجة وربيه الذي تربى في حجره. ولا يمكن أن يقوم الرسول بتبني طفل وليه في بيته أربع بنات وولد كلهم يعتبرون أبناءه ولو كانوا من زوج امرأته السابق.

وإن كان الرسول قد تزوج بخديجة ولها طفل من زوجها الذي توفي (أبو هالة) فلو كان عمره خمس سنوات عند البعثة مثلا، فسيكون بعد الهجرة قد بلغ مبلغ الرجال وتزوج ثم طلق زوجته التي تزوجها بعده رسول الله. وهذا منطقي ومقبول.

ويكون زيد المذكور في القرآن على أنه ابن رسول الله بالتبني هو ابن زوجته خديجة من زوجها السابق، وتبناه الرسول.

وليس زيد ابن حارثة كما تقول كتب التراث لأن زيد ابن حارثة عمره أصغر من الرسول بخمس سنوات فقط. ولا يمكن للرسول أن يتبناه.

صدق الله العظيم: ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم لا في مكة ولا في المدينة.

فهل ما تقدم من طرح مقنع بأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينجب لا ولداً ولا بنتاً؟

بقيت آية واحدة تقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥٩) الأحزاب.

من هن يا ترى بنات الرسول المشار لهن في الآية؟

السورة كما سبق وذكرنا نزلت بعد معركة الأحزاب أي في منتصف العصر المدني وقبل سنوات قليلة من وفاة الرسول.

وقد سبق وذكرت في كتاب أحسن القصص أنه قد يكون أن الرسول قد أنجب بناتاً من واحدة أو أكثر من نسائه. معتمداً على أن قوله بناتك يدل على أنهن لا زلن صغيرات وفي بيت والدهن حين نزلت سورة الأحزاب. وقلت لابد أنهن متن وهن صغيرات لذا لم يكن لهن سيرة.

ولو كان هذا صحيح فالرسول أنجب بناتٍ من غير خديجة. وهذا مستبعد تماماً الآن.

أو أن قوله تعالى: «وبناتك» المقصود ربيباته، فهن بمثابة بناته. وهذا احتمال منطقي.

هناك رأي للأخ الباحث والصديق عبد الرحمن أسعد «أبو حزم» يقول إن القرآن لا يوجد



فيه تحريم لتبني البنات، كما حرم تبني الولد. وقدم لهذا تعليلاً مفاده: أن الولد يدخل في نسب والده وأبناؤه ينسبون لنسب والدهم وجدهم. لذا فلو ألحق الولد المتبنى بالنسب فهو خلط في النسب.

لكن لو أن الرجل تبنى بنتاً فحتى لو ألحقها بنسبه فلن يتسبب هذا بخلط نسب، لأن ذريتها سيعودون بنسبهم لنسب والدهم زوجها. لذا فليس هناك نص قرآني يحرم تبني البنات.

ويكون الرسول قد تبنى بنات وولد خديجة، لكن القرآن نهاه عن تبني الولد، ولم ينهه عن تبني البنات. لأن نهي الرسول ورد في آيتين الأولى تقول: وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) الأحزاب.

والثانية تقول: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(٣٨) الأحزاب.

فأبناء ورجال جمع ابن ورجل، وهذان اللفظان يخصان الذكر دون البنت. فالبنت مؤنث ابن، والمرأة مؤنث رجل. وبالتالي فالنهي بصريح الآيتين يتجه للذكر. كما أن التعليل "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ"[1] امتداد النسب بالذكور وليس بالإناث، ولم يقل "أمهاتهم".

وهذا الاحتمال وارد جداً، ويحل إشكال ذكر بنات للرسول.

وسواء كان المقصود ببناتك هو ربيباته، أو أنهن بناته بالتبني فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن له ذرية من صلبه أبداً.

ونحن نرى الآن أن أحفاد أبي طالب وصل تقديسهم عنان السماء فقط لأن أمهم كانت ربيبة للرسول فحولوها لابنته، وجعلوا نسب أولادها على غير المتبع أولاداً لجدهم لأمهم (المفترض) مع أن الله جل وعلا يقول إن النسب يكون للأب وليس للأم والخال: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥) الأحزاب.

ترى لو كان للرسول ولد ذكر من صلبه فكيف سيقدسه الناس؟

وفي الختام نقول إن تقديس فاطمة ليس لأنها بنتاً للرسول ولكن لأنها زوجة لعلي ابن أبي

---

١ كما في الآية هو: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٤) الأحزاب.



طالب وعلي والد للحسين. فهل لزواج الحسين بشاه زنان بنت يزدجرد ابن أنوشروان آخر أكاسرة الفرس علاقة بهذا التقديس في البداية؟

خاصة أن هذه الأميرة الفارسية هي التي أنجبت زين العابدين ابن الحسين الذي أصبح الإمام الرابع في سلسلة أئمة الشيعة الاثني عشرية؟

لأنه لو كان التقديس لفاطمة كونها بنت الرسول، فلماذا لا نكاد نسمع برقية وأم كلثوم وزينب؟

ولماذا قالت كتب التراث إن أولادهن ماتوا وهم صغار أو إنهن لم ينجبن؟ فالتقديس لآل أبي طالب لم يكن لأن فاطمة ابنة للرسول.

هل تزوج الرسول بطفلة

هناك حديث مشهور منسوب للرسول يقول: عَنِ أَبِي هُرِيرة أن رسول الله قال: « تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لمالها ولِحَسَبِها وجَمَالها وَلدِينها: فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ.

وبناءً على هذا الحديث نتساءل:

إن كان رسول الله تزوج أم المؤمنين عائشة وهي بنت ست كما يقول الإخباريون، فبكل تأكيد ليس لأحد الأسباب الأربعة المذكورة في الحديث؟ فهل كان السبب أنه رآها، فأثارته، فرغب بها جنسياً؟

أو أن هذا ما يريد مختلق قصة زواج الرسول بعائشة وهي بنت ست منا أن نصدقه عن الرسول؟

هم يقولون إن الرسول تزوجها لست، وبنى بها (واقعها) لتسع. والمهووس بالجنس مع الأطفال، لن يصبر ثلاث سنوات حتى يشبع رغبته. خاصة أنه تزوجها أي أصبحت زوجته وهي بنت ست. فمن يمنعه من زوجته؟ والدها، الذي ضحى بها؟

لو كان والدها يريد حمايتها لما زوجها أصلاً إلا بسن الزواج. وحتى لو كان هناك اتفاق بين والدها وزوجها على ألا يكون هناك معاشرة جنسية، فإن المهووس بجنس الأطفال لن يكون لديه ضمير يحترم معه العهود. وسيتحجج بأي حجة ليتفرد بالطفلة الضحية ويفترسها. ثم إن الفقه الذي ورثناه من السلف لا يعتبر أي شرط قبل الزواج ساري



المفعول بعد الزواج. يعني حتى لو اشترط على الزوج ألا يواقع زوجته قبل ثلاث سنين، فبمجرد أن يعقد النكاح يسقط ذلك الشرط – حسب الفقه السائد.

ولو افترضنا أن الرسول جاهد نفسه وانتظر ثلاث سنوات عجاف، حتى بلغت تسعاً وذاق عسيلتها. فإن كان استمرأ جنس الأطفال، فلماذا لم يكرره؟ لماذا تزوج عجائز ونساء لسن في مقتبل العمر بعد عائشة؟ وهوس الجنس مع الأطفال مرض، وليس متعة، والمصاب به لا يكتفي بمرة واحدة أو طفل واحد.

وإن كان قد أنبه ضميره بعد أن افترس الطفلة، وأشبع نزوته، وعاد له رشده. فلماذا لم يتخلص منها ويطلقها؟ فهي في تلك السن لا يمكن أن تكون ربة منزل، ولا شريكة حياة، بل مجرد دمية للجنس، ومدعاة لأعدائه أن يشمتوا به.

وإن تمسك بها هو فلماذا لم تنسلخ منه عندما حصلت لها الفرصة، ونزلت سورة الأحزاب التي ورد فيها: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً(٢٩)

وبعد، لو أن هذا العفن المزعوم على الرسول صحيح، فلماذا لم ينقل لنا كتاب السير احتجاجاً واحداً وجه للرسول، أو سخرية من قريش أو اليهود أو غيرهم؟

وهذا يعني أن هذا الزواج لم يحدث وعائشة بنت ست أو تسع، ولكنه حدث وعائشة بسن الزواج. هذا إذا نظرنا للموضوع بعقل. وسنترك العقل والمنطق، ونذهب للنقل الحرفي من كتب السير والحديث التي نقلت لنا أن عمر عائشة كان ست سنوات أو تسعاً في واحدة من قصصها، وسنجد قصصاً أخرى كثيرة يتجاهلها الناس تؤكد أن عائشة كانت امرأة بالغة راشدة عندما تزوجها رسول الله. ومن ذلك:

١- قالوا لنا إن الرسول تزوج عائشة وعمرها ست وإن لم يدخل بها. وهذا يعني أنه يعرفها حق المعرفة. لكن ابن هشام ينقل عن ابن اسحاق في سيرته أن الرسول عندما عزم على الهجرة لم يكن يعرف عائشة ولا كيف تبدو، وهذا نص الرواية: قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما



بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرج عني من عندك؛ فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي! فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؛ قال: الصحبة. انتهى الاقتباس.

فكيف يجلس الرسول على طرف سرير أبي بكر في غرفة واحدة وعنده بنتان من بناته ويقول الرسول: «أخرج عني من عندك» فيرد أبو بكر قائلاً إنهما ابنتاه؟

هذا يعني أن الرسول لم ير عائشة قبل تلك اللحظة التي هاجر فيها أبدا. ولو كان قد عقد عليها لعرفها. أرجو ألا يأتي أحد ويقول قد تكونان تلبسان برقعاً أو نقاباً أو غطاء على الوجه، وهو ما لم يعرفه المجتمع المسلم إلا في عصور لاحقة.

٢- قالوا لنا إن عائشة كانت طفلة بمعنى الكلمة عندما دخل بها الرسول وهي بنت تسع، لدرجة أنها كانت تلعب مع الأطفال، وهذا ما يقوله البخاري: حدّثني فَروةُ بن أبي المَغراءِ حدَّثَنا عليُّ بن مُسهِرٍ عن هشامٍ عن أبيهِ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: «تزوَّجَني النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأنا بنتُ ستِّ سنينَ، فقَدِمْنا المدينةَ فنزَلنا في بني الحارثِ بن الخَزْرَج، فوَعِكتُ فتمزَّقَ شعري، فوَفَى جُمَيمةً، فأتتني أُمِّي أمُّ رُومانَ - وإني لَفي أُرجوحةٍ ومَعي صَواحبُ لي - فصَرَخَت بي فأتيتُها، لا أدري ما تُريدُ بي، فأخذَتْ بيدي حتى أوقفَتْني على بابِ الدار، وإني لأُنهِجُ حتى سَكنَ بعَضُ نَفَسي. ثمَّ أخذَتْ شيئاً من ماءٍ فمسحَتْ بِهِ وَجهِي ورأسي، ثمَّ أدخَلَتني الدارَ، فإذا نِسوَةٌ من الأنصارِ في البيتِ، فقُلْنَ: على الخيرِ والبرَكة، وعلى خَيرِ طائر. فأسلَمَتْني إليهنَّ، فأصلَحْنَ من شأني، فلم يَرُعني إلا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ضُحًى، فأسلَمَتْني إليه، وأنا يومئذٍ بنتُ تسعِ سنين.

ما تقدم يظهر أن عائشة طفلة في العام الذي تزوجها فيه رسول الله. وأهل السير والحديث



يقولون إنه تزوجها في العام الثاني للهجرة.

وهذا ما يقوله البخاري نفسه في حديث آخر عن أم المؤمنين بعد عام واحد من الزواج: حدّثنا أبو مَعْمرٍ حدَّثنا عبدُ الوارثِ حدَّثنا عبدُ العزيز عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال: «لمّا كانَ يومُ أُحُدٍ انهزَمَ الناسُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. قال: ولقد رأيتُ عائشة بنتَ أبي بكرٍ وأُمَّ سُلَيمٍ وإنهما لَمُشمِّرَتان أرَى خَدَمَ سُوقِهِنَّ تَنقُزان القِرَب ـ وقال غيرُهُ: تَنقُلانِ القِرَبَ ـ على متونِهما ثمَّ تُفرغانِه في أفواهِ القوم، ثمَّ ترجعانِ فتملآنِها ثمَّ تَجيئانِ فتُفْرغانه في أفواهِ القَوم».

فكيف تحولت في ظرف سنة من طفل لا يعي ما يفعل بها، إلى امرأة تقوم بأعمال لا تقوم بها أعتي النساء؟

٣- روى البخاري في كتابه: حدَّثنا إبراهيمُ بن موسى حدَّثنا هِشامُ بن يوسف أَن ابنَ جُريج أخبرهم قال: أخبرني يوسُف بن ماهَكٍ قال: «إني عند عائشةَ أمِّ المؤمنين قالت: لقد أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة، وإني لجاريةٌ ألْعَبُ: (بل الساعةُ موعِدُهم، والساعةُ أدهى وأمرُّ) (القمر:٤٦)

والمفسرون يقولون إن السورة نزلت قبل الهجرة بثماني سنين. وعائشة – بناءً على ما جاء في هذا الحديث – كانت جارية قبل ثماني سنين من الهجرة. وليكن سنها ثماني سنوات، كونها فهمت وحفظت الآية. وهذا يعني أنها عام الهجرة كانت تبلغ (١٦) سنة، وعندما تزوجها الرسول كانت بنت (١٨) لأنهم يقولون إن الرسول تزوجها في العام الثاني للهجرة.

٤- يؤكد المؤرخون كما ورد في البداية والنهاية أنه بعد وفاة خديجة، جاءت إحدى (الخطّابات) واسمها خولة بنت حكيم للرسول وقالت تزوج. وهذا نص ما نقلوه لنا: جاءت خولة بنت حكيم فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: «وَمَنْ؟ » قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال: «مَنِ البِكْرُ وَمَنِ الثَّيِّبُ ؟ » قالت: أما البكر فابنة أحب خلق الله إليك، وأما الثيب فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك. قال: «فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ » .

وعلينا الانتباه لعبارة « فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ» والتي تعني اذكريني لهما. أي أن الرسول قال للخاطبة اذكريني لهما فمن قبلت بي تزوجتها. فهل تدرك بنت ست سنوات معنى الزواج



لتسألها خولة بنت حكيم، رأيها في محمد، وهل ستقبل به زوجاً؟ لابد أنها كانت في سن يؤهلها للزواج، وتقرير مصيرها بنفسها.

٥- يقول الطبري في تاريخه ضمن أحداث سنة ثلاث عشرة: إن أبا بكر رزق بأطفال في الجاهلية وأطفال في الإسلام. وقد رزق بأربعة أطفال في الجاهلية، من زوجتين، من بينهم عائشة. وهذا ما يقوله الطبري في تاريخه: تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة - ووافقه على ذلك الواقدي والكلبي - قالوا: وهي قتيلة ابنة عبد العزى بن عبد بن أسعد بن جابر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي فولدت له عبد الله أسماء. وتزوج أيضاً في الجاهلية أم رومان بنت عامر بن عمير بن ذهل بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة - وقال بعضهم: هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذنية بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة - فولدت له عبد الرحمن وعائشة فكل هؤلاء الأربعة من أولاده ولدوا من زوجتيه في الجاهلية.

ولو افترضنا أن عائشة كان عمرها قبل البعثة سنتين فقط، فسيكون عمرها عند هجرة الرسول: (١٥) عاماً. وبما أنها تزوجت الرسول - كما يقولون - في العام الثاني للهجرة، فإن عمرها حينئذ كان (١٧) عاماً.

٦- ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء ضمن ترجمته لأسماء بنت أبي بكر: قال عبدُ الرحمن بنُ أبـي الزِّناد: "كانت أسماءُ أكبرَ من عائشةَ بعشر".

وإذا عرفنا أن أسماء توفيت عام (٧٣) للهجرة - حسب ما يقولون - ولها (١٠٠) سنة، فيكون عمرها عام الهجرة (٢٧) عاماً، وعمر عائشة أقل بعشر، أي (١٧) عاماً على الأقل.

٧- يقول الطبري إن عائشة كانت ستتزوج ابن المطعم ابن عدي قبل الرسول، وذلك أن أبا بكر عندما عزم الهجرة للحبشة ذهب للمطعم ابن عدي وطلب منه أن يأخذ عائشة زوجة لابنه فرفض المطعم لأن أبابكر مسلم. والهجرة للحبشة كانت قبل (٨) أعوام من الهجرة للمدينة، لأن الإخباريين قالوا إن الهجرة للحبشة حدثت في العام الخامس. ولأن الإخباريين يقولون إن الدعوة استمرت في مكة (١٣) عاماً.

فكم كان عمر عائشة عندما أراد أبو بكر تزويجها لابن المطعم؟

إن كان الرسول دخل بها في العام الثاني للهجرة وهي بنت تسع، فعمرها عام الهجرة للحبشة



سيكون (-١). يعني أنه بقي لها عام لكي تولد، يعني لم تحبل بها أمها بعد. لكن لو كانت في سن الزواج عام الهجرة للحبشة وليكن عمرها (١٣) عاماً فسيكون عمرها في السنة الثانية للهجرة (٢١) عاماً حسب تقديراتهم.

٨- ينقل لنا الطبري وصاحب الإصابة وغيرهم أن فاطمة كانت أكبر من عائشة بخمس سنوات. فمتى ولدت فاطمة؟

يقول أتباع المذهب السني أن فاطمة ولدت في العام الخامس قبل البعثة، ليكون عمرها عند هجرة الرسول ٥ + ١٣ = ١٨ عاماً.

لكن هذا يعني أن أمها خديجة قد ولدتها قبل وفاتها بسنتين أي عندما كان عمر خديجة (٦٢) عاماً. لأن الإخباريين يقولون إن خديجة توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات وعمرها (٦٥) عاماً. وهذا غير واقعي.

هذه أخبار، لا يعرفها الكثير من الناس، لأنهم سلموا عقولهم لرجال دينهم. ورجال الدين لا يتداولون مثل هذه الأخبار لحاجة في نفس يعقوب، إن كان بعضها عن حسن نية، فالبعض الآخر ليس كذلك.

وبعد: فالاستشهاد بها في كتب التراث لا يعني أنها مصادر موثوقة، ولكن من يظن أن أم المؤمنين عائشة تزوجت الرسول وعمرها ست، هم من يؤمن بتلك الكتب، لذا لزم أن نأتي لهم بشواهد من الكتب التي يصدقون تؤكد كذب زعم زواج عائشة وهي طفلة.

علي ابن أبي طالب ونسله لم يأت لهم ذكر في القرآن

كل أجزاء الآيات التي يستشهد بها أتباع المعتقد الشيعي على أن عليا أو أبناءه ذكرهم القرآن هي أجزاء اقتطعت من الآية ومن السياق وتم تأويلها بكل تعسف وكأنها تتحدث عنهم. وسنورد أهم آيتين استشهدوا بها وإعادتها لسياقها ثم إعادة قراءتها كما نزلت لكي يتضح لكل من لديه أدنى شك أنها لا علاقة لها بما استشهد به الشيعة.



والبداية مع:

آية المائدة

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥).

ويقولون إن المقصود بقوله «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» هو علي ابن أبي طالب الذي ناول خاتمه لمتسول مر به وهو راكع يصلي. وبطبيعة الحال لو كان هذا ما حدث فعلياً كان لاهياً في صلاته ومنشغلا بمتابعة من هم حوله. ولو كان هذا ما حدث فالمتسولون كانوا يطوفون بين صفوف المصلين أثناء صلاتهم زمن رسول الله.

ولو أعدنا الآية لسياقها فسنجد أن الآيات: (٥١-٥٨) من سورة المائدة تحذر منافقين في المدينة كانوا يوالون اليهود والنصارى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(٥٢).

وتقول الآيات إن من يتولى قوماً فهو منهم في المعتقد والمصير للنار، ولو أعلن الإيمان وقام بالواجبات الدينية. والآيات تتحدث عن مسلمة يثرب الذين أبقوا على موالاة اليهود والنصارى مثلما أبقى «مسلمة قريش» على موالاة المشركين. وكلا الفريقين كَفَرَ، ولو بقي يعلن إسلامه.

والآيات تخاطب المنافقين «بيا أيها الذين آمنوا» على اعتبار أن غير المسلمين يعتبرونهم من المؤمنين، كما تصفهم الآيات «بالذين في قلوبهم مرض».

وتنقل لنا السورة ما يقوله المؤمنون المخلصون من (أهل المدينة) عن هؤلاء المنافقين: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ(٥٣).

وتعود السورة لتحذير المنافقين مرة أخيرة من الإبقاء على موالاة اليهود والنصارى لأن



موالاتهم ردة عن الإسلام، لعلهم يعقلون: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ(٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ(٥٨).

وقوله إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يخاطب المنافقين ويقول لهم لو كنتم مؤمنين فلا توالوا اليهود والنصارى وليكن وليكم الله ورسوله والمؤمنون.

ولا علاقة لها بعلي ابن أبي طالب ونسله.

وتظهر الآيات أن اليهود والنصارى كانوا يسخرون من مناداة المسلمين للصلاة (الأذان).

وسنورد آية أخرى يستشهد بها الشيعة على أنها تتحدث عن علي ابن أبي طالب وهي:

جزء من آية في سورة آل عمران

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١).

ويقولون إن المقصود أبناؤنا ونساؤنا وأنفسنا هم الرسول وعلي ابن أبي طالب وامرأته فاطمة وابناهما الحسن الحسين دون بقية المسلمين في المدينة.

وسورة آل عمران تبدأ بمخاطبة أهل الكتاب في يثرب بدءً من قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٢٠).

وتستمر السورة، حيث تبدأ بالحديث عن الحمل بمريم من الآية (٣٥): إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ



عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

وتتحدث عن الحمل بعيسى وولادته وتبليغه الرسالة ومن آمن به بدءً من الآية: إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥).

ويستمر الحديث متواصلا في نفس الموضوع إلى أن نصل لقوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهَّ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُّ وَإِنَّ اللهَّ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦٢).

فالآية (٦١) كما هو واضح تخاطب النصارى في يثرب وتقول للرسول لو حاجوك بعد أن بينت السورة حقيقة الحمل بعيسى وولادته ونشأته ورسالته ومن آمن به ووفاته، فقل لهم: « تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهَّ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

وتقول الآية بعدها: إن كل ما قيل عن عيسى قصص حق من رب العالمين وليس مع الله إله آخر كما يظن النصارى أن عيسى إله مع الله.

كتب التراث اقتلعت جزء من الآية (٦١) وكأنها نزلت لوحدها لتمجد علي ابن أبي طالب وأبناءه، حيث قالوا إن هناك وفداً من نصارى نجران حضروا للمدينة لمجادلة الرسول فنزلت الآية لتقول لمحمد قل لهم أن يجمعوا أبنائهم ونسائهم ويجمع الرسول علي ابن أبي طالب وزوجته فاطمة وولديها الحسن والحسين وتكون المباهلة.

وتغافلوا عمدا عن أنه حتى لو افترضنا أنها تتحدث عن وفد نجران، فكيف يأتون بأبنائهم ونسائهم وقد حضر وفد من الرجال فقط ولم يكن ضمنه نساء وأولاد كما تقول كتب التراث التي اختلقت القصة؟

الآية كما نرى ضمن الآيات التي تخاطب نصارى يثرب زمن الرسول، وبعد أن أخبرتهم عما حدث لعيسى تقول للرسول إن استمروا في جدالك لدحض الحق فاطلب منهم المباهلة.

حيث يجتمع رجال عموم المسلمين وأبناؤهم ونساؤهم، ورجال النصارى وأبناؤهم ونساؤهم، لأنهم من أهل يثرب ومن السهل إحضار أبناؤهم ونساؤهم. ولم يحضر



مسيحيون (وليس نصارى) من نجران إلى المدينة النائية لمحاورة محمد، لينتهي بهم المطاف لقبول دفع الجزية، برغم أن بينهم وبين المدينة «خرط القتاد».

لكن بحكم أن قصة جدال الرسول مع النصارى وردت في القرآن فقد اختلقت لها قصص فيها بعد عصر الظلمات والفتن. وبما أن من اختلق القصة لا يعرف أن المخاطب هم نصارى يثرب لأنه لا يعرف أن يثرب كان فيها نصارى، ولأن الناس بعد عصر الظلمات والفتن اختلط عليهم أمر النصارى فظنوهم المسيحيين. وبما أن نجران بقي فيها مسيحيون فقد ظنوا أنهم هم من تتحدث عنهم الآيات فاختلقوا عنهم القصص. بل وسموا وفدهم بأسماء عجيبة مثل: العاقب، والأيهم، وكوز... ونحوهم. ولعل من المفيد الإشارة إلى أن الجزية لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة في سورة براءة التي نزلت في العام الذي توفي فيه رسول الله. بينما نزلت سورة آل عمران قبلها بعدة أعوام. والجزية المذكورة في سورة براءة تخص طائفة من أهل الكتاب بعينها ولم تعمم على غيرهم.

ولم يفطن كثير من الناس أن سورة آل عمران نزلت بعد معركة أحد مباشرة لأنها تتحدث عنها. ومعركة أحد وقعت في العام الثالث الهجري (كما تقول كتب التراث) وعلي ابن أبي طالب تزوج بفاطمة في العام الثاني للهجرة يعني قبل عام واحد من معركة أحد ونزول سورة آل عمران. وولد له ولده البكر (الحسن) في العام الثالث الهجري على أحد الأقوال (وقيل في العام الرابع وقيل الخامس) وسنعتبر أنه ولد في العام الثالث، وهو ما يعني أنه ولد في نفس عام المباهلة.

يعني عندما طلبت سورة آل عمران المباهلة مع النصارى كان علي للتو ولد له أول مولود ولم يولد أولاده الآخرون إلا بعد ذلك. يعني الآية لا تنطبق على علي وأولاده كما حاول المفسرون والشيعة تأويل معناها.

ونعيد التذكير أن الآية جاءت ضمن سياق آيات تخاطب نصارى يثرب ولا علاقة لها بنجران والمسيحيين الذين يعيشون فيه. والذين لم يحضروا للمدينة أبدا ولم يقابلوا الرسول طوال حياته.

والخلاصة: أنه لا يوجد آية واحدة في كتاب الله تتحدث أو تشير لعلي ابن أبي طالب على الإطلاق.



الولد يعني الذكر والأنثى

قريش تظن أن الملائكة إناث وبنات لله، والملائكة ليس لها جنس، فليست إناثاً ولا ذكوراً، لأنها لا تحتاج للتزاوج فهي لا تتكاثر: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) الصافات.

والآية: (١٥٢) تستخدم لفظ «ولد» لتعني البنت، لأن قريشاً تقول إن الملائكة بنات الله.

محمد ليس له سنة

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٣٢) البقرة.

الملة هي الطريقة الصحيحة لعبادة الله، وملة إبراهيم طريقته في عبادة الله. وإبراهيم له ملة لأنه تعبد الله بالطريقة الصحيحة. والرسول محمد تبع ملة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ولم يكن له ملة منفردة، لأن الدين واحد. والصلاة التي صلاها إبراهيم صلاها محمد، والحج كذلك. السنة تأتي في القرآن على معنيين كما يلي:

القاعدة المتكررة

فالله وعد المؤمنين الذين ينصرون دينه بالدفاع عنه أن ينصرهم: وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الحج.

لذا فالنصر تكرر دائماً لرسل الله ومن يؤمن معهم: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) غافر.

هذه القاعدة والنتيجة والمآل المتكرر يسميها القرآن «سنة الله»: وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا(٢٣) الفتح.



سيهزم كل من يقاتل الرسول ومن آمن معه نصرة لدين الله.

ومن ذلك سحق المخادعين: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا (٦١) سُنَّةَ اللهِّ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِّ تَبْدِيلا(٦٢) الأحزاب.

ومثله: مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُّ لَهُ سُنَّةَ اللهِّ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِّ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِّ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَّ وَكَفَى بِاللهِّ حَسِيبًا(٣٩) الأحزاب.

فسنة الله هنا هي في فرض التشريعات ولو لم تعجب الناس.

وتأتي سنة في القرآن بمعنى الطريقة التي يتكرر ظهورها عند كل الأمم

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا(٥٥) الكهف.

غالبية الناس لا يؤمنون برسلهم، وهي سنة سارت عليها كل الأمم منذ وجد الإنسان.

وهو ما أكدته سورة الحجر: وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣).

وسورة الأنفال: قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(٣٨).

ومثله: وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) بني إسرائيل.

والآيتان هنا تتحدثان عن أن كل الأمم تستفز رسلها وتحاول إخراجهم.

وعد الله بنصرة الرسول ومن آمن

تسرد سورة القمر أخباراً عدد من الأمم السابقة الذين كفروا – كما قريش – ثم تقول: أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ(٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ(٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ(٤٥).



والبشرى بالنصر للمسلمين ذكرته هذه السورة في وقت كانوا قلة قليلة في مكة، ولا يتوقع أكثر المتفائلين أن يأتي يوم وينتصروا على قريش. وهذه البشرى ليست نبوءة ولكنها مما يعرف بالضرورة. فمن يتمسك بالحق ويصر عليه سيتجاوز المحن التي تمر به والاضطهاد من الكثرة المتسلطة، وتتزايد أعداد من يقبل الحق مع الأيام. وعندما يكون هناك مواجهة بين الفريقين فالنصر في النهاية سيكون حتماً من نصيب المؤمنين. لأن المؤمن يقاتل عن قضية يؤمن بها، بينما يقاتل المتسلط للسلطة وجنوده مدفوعين للقتال دونما إيمان بقضية.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣) الصافات.

والنصر يكون بالبقاء وهلاك المخالف. سواء بهلاك المكذبين بكوارث طبيعية، كما حدث لأمم سابقة عندما كان الرسول ينجو ومن آمن معه ويهلك الكافرون. أو يكون النصر بالحرب، ومن ذلك ما حدث لرسول الله محمد ومن آمن، حيث كانت الغلبة لهم في النهاية على قريش، التي اضطهدتهم حينما كانوا ضعفاء قلة، ولم تقبل بالتعايش السلمي معهم. ولما هربوا من مكة ليثرب طاردتهم هناك وحدثت بين الفريقين معركتان كان من نتائجها انهيار قريش فعلياً ومعنوياً بسبب خسارتها جل رجالها، بينما قويت شوكة المسلمين. وقبل وفاة رسول الله تم إخضاع مكة للمسلمين وكانت العقبى لهم والنصر حليفهم كما وعدت هذه الآيات وغيرها.

وانتصار الرسول ومن آمن في الحرب ليس لأن الله سيتدخل فعلياً ويقلب موازين القوى، ولكن لأن المسلم يجب عليه الأخذ بأسباب النصر من تسلح واستعداد وخطط وتمويل وغيرها، إضافة للصبر وعدم التخاذل أو الشعور بالإحباط لو هزموا في معركة. فالنصر في حالة تعادل القوى يكون لمن معنوياته مرتفعة أكثر. وبما أن المؤمنين يحاربون بدافع قوي يتمثل بالذود عن دين الله، مع الإيمان بأن مصير المقتول منهم الجنة، فهم يقاتلون للعزة في الدنيا وللجنة في الآخرة. بينما يقاتل عدوهم بلا دافع معنوي قوي سوى كسب الحرب مع الحرص على تجنب القتل. فالقتل خسارة للعدو ومكسب للمؤمن. لذا ينتصر المؤمن لو أحسن تجهيز جيشه وإعداده. وهذا يتطلب أن يصنع سلاحه بيده ويعد خططه بنفسه ويهيئ أفراده على أكمل وجه. ولو لم يفعلوا فلن يتدخل الله جل وعلا مباشرة لنصرتهم،



وسيهزمون وينتصر عدو الله وعدوهم.

وتقول سورة الصافات: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣).

وهذا تأكيد على أن الإيمان بالقضية يكون دافعاً في نفوس الأتباع يجعلهم يدافعون عنها بكل صلابة.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٥٢) غافر.

الإخبار هنا عن النصر لا يعني أن الله جل وعلا سيتدخل في تحويل الأوضاع، ولكن الآيات تتحدث عما يعرف بالضرورة. فمحمد أرسل لكل الناس وسيتكاثر المسلمون، ولو دخلوا في حرب مع الكفار فسيكسبون الحرب في النهاية ولو خسروا بعض المعارك. لأنه سيكون لديهم دافع وحماس وعقيدة، بينما الكفار يحاربون حمية. إضافة إلى أن تعداد المسلمين سيزداد وتقل أعداد الكفار. أما نصر الله لرسل سابقين، فتمثل بنجاة الرسول ومن آمن، وترك الكفار يهلكون بكوارث طبيعية.

وتقول سورة الأنعام: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤).

فالعاقبة دائماً لمن يبقى على الحق.

من آمن بالرسول في مكة من المستضعفين أو المهمشين

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) الأحقاف.

الآية تتحدث عن قريش التي تزدري من آمن، وتقول إنه لو كانت دعوة محمد صحيحة لما تسابق على قبولها الضعفاء والمستضعفون، ورفضها أعيان مكة وكبراؤها.

وهو ما ذكرته سورة الأعراف: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣).



وقبول الضعفاء والمستضعفين للدعوة ورفضها من الكبراء سنة أزلية سارت عليها كل الأمم في كل مكان وزمان. ومنطق قريش مشابه لمنطق الأمم السابقة وما قالوه هنا كأنه تكرار لما قاله كفار ثمود لمن آمن: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٧٥) الأعراف.

وكما قال كفار قوم نوح لمن آمن: فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧) هود.

ويمكن القول، كقاعدة: إن كل حركة إصلاح ديني أو اجتماعي أو في أي مجال إذا رفضها المتفعون والمتنفذون وقبلها المتضررون والضعفاء فهي صحيحة.

بعد الرسول سيبقى القرآن ولن يأتي مسيح ولا مهدي

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ(٣٧).

ما أوحي للرسول إلا القرآن وهو الذي سيبقى بعد وفاته، فمن تبع أوامره وانتهى عن نواهيه فله الجنة ومن خالف بعض أو كل أوامر القرآن ونواهيه أو رفضها فله النار. وهذا يعني أنه لا عيسى ابن مريم سيعود ولا المهدي. لأن الحاجة للوحي وليست للأشخاص، والوحي محفوظ كما نزل في المصحف.



الحديث ليس من الدين حتى لو ثبت عن الرسول

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(١١٥)

الآيات تتحدث عن واقعة في المدينة تعجل الرسول – على غير العادة – وأبدى رأيه فيها قبل نزول الوحي عليه. فنزل الوحي يوبخه ويبين له حقيقة ما جرى والتي غابت عن الرسول كونه بشراً.

وكل الرسل لا يؤخذ كلامهم الشخصي أو أحكامهم دون الوحي كجزء من دين الله: وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٥٤) البقرة.

الآية: (٥٤) تؤكد أن موسى هو من طلب ممن عبدوا العجل أن يقتلوا أنفسهم ليطهروها وتقبل توبتهم.



ونفس الآية تقول إن الله تاب عليهم من القتل، ويبين سبحانه أن التوبة من الكبيرة كاف ولا حاجة لقتل النفس للتطهر من الذنب.

والآية دليل على أن اجتهاد موسى في دين الله لم يكن مقبولاً وجاء الوحي لنفيه. وهو ما ينطبق على أي حديث منسوب للرسول محمد حتى لو ثبت عنه فهو ليس من دين الله لأن دين الله لا يمثله سوى كلام الله جل وعلا.

لا نفرق بين أحد من رسله

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(٢٥٣) البقرة.

المخلوقات جميعا مختلفة فيما بينها في الخلق والتفكير والقدرات ...الخ، لكنها كلها مخلوقات قاصرة ضعيفة لا يمكن أن يكون لها شيء مما لله.

والمخلوقات جميعاً خلقت لذات الحكمة، وهي في مستوى واحد من العبودية، وكلها ستحاسب.

مما يعني أنها كلها عرضة لاقتراف الخطأ، وليس منها معصوم: لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للهِّ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً(١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٧٣) النساء

وكلها عليها الخوف من عذاب الله والعمل على الحصول على رضاه: وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ(٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٥٠) النحل.

ومن يعصي الله منهم سيعذب.

وكل المخلوقات في الكون ستهلك: وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ



إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨) القصص.

وكلها ستقف يوم القيامة للحساب: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً(١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً(١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً(١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً(١١٢) طه.

ولن يكون هناك معيار خاص لمحاسبة محمد أو الرسل، ومعيار آخر لمحاسبة الناس، بل هناك معيار واحد للحساب لكل الناس كافرهم ومؤمنهم ورسلهم وملائكتهم وجنهم وكل مخلوقات الكون الأخرى.

إذا استوعبنا هذه النقطة الهامة كان بإمكاننا أن نقرأ القرآن ونتدبر آياته التي تتحدث عما قالت عن محمد عليه الصلاة والسلام.

والقرآن - لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ - لم يقل أبداً إن محمداً سيد الخلق أو الشفيع أو المصطفى أو أفضل الأنبياء والمرسلين أو أي لقب وصفة أخرى قالت بها كتب التراث، وانتشرت بين الناس.

وعندما استمرت قريش تطالب محمداً بدليل محسوس على صدق رسالته، نزلت السور لتجيبهم، ومن ذلك: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ...

وبقية الآية تبين حقيقة محمد لهم: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) بني إسرائيل.

وهو عليه الصلاة والسلام لا يزيد عن ذلك.

والرسل جميعاً، بما فيهم محمد، حملت بهم أمهاتهم وولدوا كما ولد غيرهم من البشر، فيما عدا عيسى وآدم اللذين خلقا بطريقة مختلفة لكنهما بقيا بشراً كالبشر.

وكل ما وصفت كتب الأخبار به الرسول لا يعدو عن كونه خيالاً جامحاً أراد من كتبه



أن يضفي على شخصية الرسول هالة من القدسية والعظمة والقدرة، تظهره وكأنه خلق من طينة غير تلك الطينة التي خلق منها البشر. طينة خلطت ببعض القدسية لكي يتمكن من مخاطبة السماء والإحاطة بعلوم ومعارف لا يعلمها البشر العاديون، وفي نفس الوقت يمكنه أن يعيش كإنسان ويتخاطب مع الناس كواحد منهم. لأن الإنسان منذ الأزل يواجه صعوبة في التصديق بأنه باستطاعة إنسان عادي أن يتلقى وحياً من الله، وكان هذا العامل من أهم أسباب عدم قبول الناس في كل العصور دعوة الرسل: قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥) يس.

ولذلك كان الناس دائماً يطلبون من رسولهم أن يسمح لهم بالكلام مع الله، كدليل حسي يؤكد صحة ما يدعيه الرسول. لأنه (حسب زعمهم) إذا كان الله يكلم الرسول وهو إنسان عادي، فلماذا لا يكلمهم الله أيضاً وهم سادة القوم؟: وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١١٨) البقرة.

ولكي نتعرف على شخصية محمد الحقيقية لابد من قراءة ما وصفته به الآيات القرآنية، ونبذ كل ما وصف به في كتب الأخبار. والقرآن يقول بأن كل الرسل الذين أرسلهم الله للناس اختارهم سبحانه من البشر العاديين: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) الأنبياء.

ولم يكونوا أنصاف ملائكة: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨) الأنبياء.

وكل ما نسب إلى محمد من قدرات خارقة في كتب الأخبار ينفيها القرآن بما في ذلك علم المستقبل (الغيب): قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١٨٨) الأعراف.

فهو لا يعرف ماذا سيحل به وما سيحل بقومه بعد وفاته ولا بالمسلمين ولا بمقتبل الأيام وما سيطرأ على تعاليم الإسلام، وكل خبر يقول بخلاف ذلك فقد خالف قول الله تبارك وتعالى.

وحتى أخبار الأمم السابقة وما مضى من الأحداث لا يعلم محمد منها إلا ما علمه الله: تِلْكَ



مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩) هود.

والقرآن يخبرنا بالصورة البشرية النقية لمحمد عندما أذن لكل من اعتذر عن الخروج لغزوة من الغزوات، ولم يكن يعلم من الصادق منهم ومن المخادع: عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣) براءة.

فكان الرسول كغيره من البشر بحاجة لتوجيه: وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥) يونس.

وإلى تحذير: وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦) يونس.

وإلى بيان: وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧) يونس.

وليس لمحمد منزلة فوق البشر ولا يعزم على الله بشيء: قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا(٢١) الجن.

ولذلك فلن يكون له حق الشفاعة عند الله لأحد من الناس، بمعنى الشفاعة الشائع.

وليس محمد فقط هو الذي يعتريه كل ما يعتري البشر غيره، ولكن الرسل الآخرين كانوا جميعاً مثله بشراً وقد يتصرفون بما يتصرف به البشر:

فآدم عصى أمر ربه: .... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) طه.

وموسى قتل نفساً: فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) القصص.

ويونس غضب من رفض قومه الدعوة، فترك الدعوة: وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧) الأنبياء.

وداوود تعدى في حكمه: قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا



فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ(٢٤) ص.

وإخوة يوسف يمثلون الإنسان بخيره وشره، حسد، إضمار الشر، الميل للعنف والجريمة، السعي للتخلص من المنافس بأي وسيلة، مع أنهم أبناء نبي: اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(٨) يوسف.

إضافة للكذب: قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(١٧) يوسف.

ويوسف ضعف أمام الجنس: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤) يوسف.

ويعقوب نفسه تطير في لحظة من اللحظات: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٦٨)يوسف.

وكان يعقوب السبب غير المباشر فيما حدث بين أبنائه، نتيجة الزواج بأكثر من واحدة وإنجاب إخوة غير أشقاء فتولدت الضغينة بينهم، نتيجة إحساسهم بالتفرقة في المعاملة من قبل والدهم: إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٩) يوسف.

ومحمد حذره القرآن أكثر من مرة: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧) الحاقة.

ومثله: وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥) بني إسرائيل.

لكنه كلف بالتبليغ، وهي مهمة صعبة شاقة، قام بها بكل أمانة برغم الضغوط الهائلة: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤).



وقد رسخ الموروث بيننا أن هناك رسلاً عاديين ورسلاً أعظم (أولي العزم)، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

ويقولون إن أولي العزم: آدم، نوح، موسى، عيسى، ومحمد.

دون أن يزعجوا أنفسهم ببيان مصدرهم في تحديد هؤلاء الخمسة بأنهم أولو العزم وأن هوداً وصالحاً وشعيباً ولوطاً ليس لديهم عزم وأقل شأناً منهم.

وسورة الأحقاف لم تقل بها قال المفسرون، بل إنه لم يرد فيها حديث عن رسل أمم سابقين فيما عدا عاداً ورسولهم هوداً في الآيات: (٢١-٢٦). وليس هناك سورة في القرآن تصنف رسل الله على شكل مستويات بعضها أفضل من بعض، ويأتي محمد في أعلى مستوى. هذا خيال مفسرين لا يسنده برهان. كما أن النظر لأي رسول بأنه يتميز عن البشر غلو.

وكتاب الله الكريم يقول بصريح العبارة على لسان محمد: قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٨٤) آل عمران.

والآية ضمن سياق موجه لبني إسرائيل، الذين لم يؤمنوا بمحمد بحجة أن لديهم ديناً أفضل جاء به موسى لهم. واليهود هم من لديهم هذه النظرة السقيمة في تصنيف الرسل، حيث يأتي موسى أولا. فقد ورد في سفر التثنية: ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه (٣٤:١٠).

فأصبح موسى الأعظم في نظر اليهود، ويبدو أن المفسرين المسلمين قالوا إن محمداً أفضل الأنبياء والمرسلين، كرد على مزاعم اليهود تلك. فإن كان اليهود يعتقدون أن موسى هو الأعظم فمحمد في نظر المفسرين هو الأعظم.

وقد أكد القرآن أن كل الرسل على مستوى واحد كبشر وكرسل لله، ولا يجوز تصنيفهم لمستويات: قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) البقرة.



وهو ما كررت تأكيده السورة في آية أخرى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(١٨٥) البقرة.

ويمكن ملاحظة أن الآيات الثلاث التي تؤكد على أن الرسل بمستوى واحد كلها تخاطب بني إسرائيل في يثرب الذين يظنون أن موسى أعظم الرسل.

ومما سبق يمكن الجزم أن الإيمان ببشرية الرسول محمد التامة وكل الرسل مطلب إيماني. وأن الغلو فيهم جاء نتيجة لأن الإنسان منذ الأزل يواجه صعوبة في التصديق أن باستطاعة إنسان عادي أن يتلقى وحياً من الله.

لكن هناك آية في سورة البقرة يستدل بها البعض على أن الرسل مصنفون لدرجات مختلفة، والآية هي: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(٢٥٣).

ولو تمعنا في الآية فسنجد أنها لا تتحدث عن تفضيل في القرب والبعد من الله لأن هذا لا يقرره الله مسبقاً، ولن يتضح قبل يوم الحساب. ولكن الآية تتحدث عن الفروقات التي تمتع بها رسول عن آخر، ومن ذلك ما أعطت الآية أمثلة عليه: فموسى كُلّم، وعيسى بدون أب، ومحمد خاتم الأنبياء ورسول لكل الناس.... وهكذا فهذا التفضيل (والذي يعني الاختلاف) فرضته الظروف التي وجد فيها الرسول عندما أرسل، ولا تعطي الرسول أفضلية على غيره من الرسل.

الناس –إذاً– هم من أوجد الفروق التفضيلية لرسول على غيره من الرسل. فموسى عند اليهود لا مثيل له أبداً، فجاء من المسلمين من قال بمثل ذلك عن محمد. فوصف بسيد الأنبياء والمرسلين وسيد أبناء آدم. والمصطفى، وكأن الله لم يصطفِ للرسالة غيره، مع أن القرآن يقول: وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ(٤٧) ص.

بعد أنه ذكر داوود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ويقول القرآن في مكان آخر: إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى



الْعَالَمِينَ(٣٣) آل عمران.

وحتى لو كان هناك فروق بين الرسل عند الله، فإنهم بالنسبة للبشر متساوون، بلا تفضيل واحد على آخر.

الله أرسل رسلا لكل الناس

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(٧٨) غافر.

فكل أمم الأرض أرسل لها رسل، وهو ما يفسر وجود بقايا توحيد وإيمان في المعتقدات الوثنية.

ومن لم يرسل له رسول فلن يحاسب ولن يعذب: مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) بني إسرائيل.

وهذا وعد من الله، ومنتهى العدل.

ومثله: وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ(٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ(٢٠٩) الشعراء.

وفي هذا العصر كل من وصله القرآن فقد وصلته الرسالة. وتصرفات المسلمين الخرقاء لا تعفي الغير ممن وصلهم القرآن أن يتدبروه.

وتقول سورة الأنعام: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(١٣٠) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١٣١).

الجن هنا قد تعني كل المخلوقات الخافية عن البشر من مخلوقات الكون، وليس فقط جنس الجن المعروفين. وتكون كل الأمم جاءها رسول، ليس فقط الإنس بل كل المخلوقات الحية في الكون.



الله جل وعلا يختار رسله بمواصفات غير مواصفات البشر

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢) الزخرف.

ومحمد رجل من عامة قريش لم يكن يملك مالاً ولا سلطة وهي المواصفات التي يتفاضل الناس بها فيما بينهم. أما اختيار الرسول فيكون بمواصفات إلهية. وكل الرسل كانوا من الناس العاديين في مجتمعاتهم، ولم يكونوا من الكبراء.

تدوين القرآن ونسخ المصاحف

كل ما وصلنا من أخبار عن عصر رسول الله والخلفاء بعده قال بها أناس في العصر العباسي وجاء من يوثقها في كتب بعد الأحداث بمئات السنين، وكأنها هي بالفعل ما حدث. وبما أن العصر العباسي تميز بانتشار الفجور فكرياً وأخلاقياً وبكافة أشكاله، فقد امتلأت كتب التراث بالكذب الوقح والصريح على الرسول وباختلاق أحداث عن عصره لم تقع.

ولأن الصلة بين عصر الرسول وبين العصر العباسي منقطعة تماماً بسبب وجود فجوة عميقة وانقطاع ثقافي بين العصرين جاءت بعد عصر الفتوح. فإن القليل جداً من تلك القصص والأحداث والأخبار والأحاديث التي نجدها في كتب التراث عن عصر الرسول محورة أو معدلة من قصص وأحداث وأخبار وأحاديث أصلية. أما غالبيتها فمختلقة جملة وتفصيلاً من أساسها في عصر ما بعد فترة الانقطاع. وهذا يعني أن كل ما تحمله كتب التراث مكذوب، أو أن أصحه مشكوك في صحته. ومثل هذه المصادر يجب ألا تؤخذ للحكم لا على الإسلام ولا له.

والمقصود بفترة الانقطاع بين عصر الرسول وعصر ما بعد الفتوح هو أن المدينة كانت هي الممثل للإسلام عندما توفي رسول الله، وأهلها هم شهود العيان لأحداث عصر الرسول، لأنهم هم من عاصر الأحداث وصحب رسول الله. وإن كانوا على فئتين: فئة رضي الله عنهم ورضوا عنه من المهاجرين والأنصار، وفئة منافقين «اللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا».

وقد شارك المؤمنون الأتقياء في حروب الردة والفتوح، ولم تنقض تلك الفترة حتى كان من



بقي على قيد الحياة منهم لا يزيدون عن نفر قليل مبعثرين في طول الدولة المسلمة وعرضها. بينما بقيت أعداد أكبر من المنافقين، ومعهم رجال قريش الذين لم يؤمنوا على الإطلاق، حتى لو زعمت كتب التراث دخولهم الإسلام. وكل هؤلاء هم من كان ينظر لهم أهالي البلاد المفتوحة على أنهم هم الصحابة، ومنهم تستقى الأخبار عن عصر الرسول. ومع أنهم كانوا شرار الخلق في عصر الرسول وأعداء الدين، إلا أن الناس استقوا منهم أخبار الرسول والصحابة ومعها أمور الدين. ولم يروي عنهم كان عبارة عن قصص مختلق كان يقصه القصاص في مجالسهم ليسند ما يريد توصيله لمستمعيه[1].

ولو فتحنا الكتب التي تتحدث عن أعداد «الصحابة» مثل كتاب: الإصابة في تمييز الصحابة، أو الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أو أسد الغابة في معرفة الصحابة أو الطبقات لابن سعد أو سير أعلام النبلاء أو غيرها لوجدنا أن أعداد من سموا بالصحابة يقدرون بالآلاف وعشرات الآلاف. لأن تلك الكتب تعتبر كل من نسب له رؤية الرسول ولو للحظة فهو صحابي، ومن قيل عنه إنه أسلم في عصر الرسول فهو صحابي، أما الأتقياء فلم يزد عددهم عن المئات وكلهم عاشوا في المدينة في عصر الرسول.

وما روي عن الصحابة الأنقياء عن أحداث وقعت في عصر الرسول على قلته، تعرض للتشويه والتحريف أثناء تناقل الناس له عبر العصور حتى وثق في الكتب في العصر العباسي. ومن ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد انعزل عن الناس في غار حراء عندما نزلت عليه سورة المزمل. وقد تحول الخبر إلى أنه كان يتحنث في الغار قبل البعثة.

ومن ذلك، العهد المبرم مع قريش عند فتح مكة في مكان اسمه الحديبية بظاهر مكة، وقد تحولت الواقعة إلى أنها وقعت قبل الفتح بعام أو عامين واختلقت لها أسباب أخرى غير السبب الحقيقي وهو استسلام قريش وقبولها بتسليم مكة للمسلمين مقابل الحفاظ على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم.

ومنه، جلاء قبيلتين من بني إسرائيل بسبب خيانتهما للمسلمين، وكان جلاء أحدهما بعد قتال مع المسلمين والأخرى بدون قتال. فتحول الخبر إلى جلاء ثلاث قبائل لبني إسرائيل في ثلاثة أوقات مختلفة. وتعرض واحدة منهم لقتل كل رجالها بعد استسلامهم وسبي

---

[1] بداية ظهور القصاص كان في البلاد المفتوحة وعلى أيدي الذين دخلوا الإسلام من المسيحيين، كون المسيحية تعتمد الوعظ القصصي.



نسائهم واسترقاق صبيانهم ممن لم يبلغوا الحلم.

ومنه ما روي عما عرف «بجمع القرآن».

فكتب التراث تروي أن الرسول توفي والقرآن مكتوب على رقاع وعظام حيوانات وجلودها وسعف النخيل بل وقطع الحجارة ولم يكن مجموعاً في مكان واحد. وأن من جمعه وأعاد كتابته هو أبو بكر.

وللقراء تصور عظم حيوان وقد كتب عليه جزء من سورة الجاثية بينما كتبت بقية السورة على قطعة حجر وعلى قطعة خشب، فكيف يمكن جمع هذه السورة مع بعضها؟

خاصة أن كتب التراث رسخت أن القرآن كان ينزل آية آية، وكلما نزلت آية قام الرسول بإملائها على كتبة الوحي فكتبوها على رقعة أو عظم أو سعفة أو نحوها. ولو صدقنا هذه التخاريف فكم هي قطع الحجارة والجلود والعظام وسعف النخيل التي كتبت عليها آيات سورة بطول البقرة. ولنا أن نتصور آيات القرآن وقد أحضرت لكي ينسخها أبو بكر وهي عبارة كومة من سعف النخيل وأخرى من الحجارة وثالثة من الجلود ورابعة من الرقاع وخامسة من الصحف، وسادسة من أقمشة. وكومة سابعة وثامنة وعاشرة وعشرين من مواد أخرى.

وهناك آيات لم تكتب وأخرى كتبت وأكلتها داجن، وغيرها لم يتذكرها سوى رجل من المسلمين. وهناك سور ضاع منها آيات كثيرة. والكثير من الطوام المختلق الذي نقلته كتب التراث.

فكيف أمكن لمن كلفهم أبو بكر بترميم هذه الأكوام المتناثرة من تجميع آيات كل سورة على حدة أولاً ثم ترتيب آيات السورة الواحدة، دون أن يختلط عليهم الأمر؟

خاصة أن عدد آيات القرآن تزيد عن ستة آلاف آية، وحسب زعم كتب التراث فهناك بعض الآيات نزلت مجزأة على ثلاثة أوقات مختلفة، مما يعني أن الآية الواحدة تحتاج لتجميع، ثم بعد ذلك تجمع آيات كل سورة، ثم بعد ذلك ترتب السور. ولو كان هذا ما حدث فلن تكون مدة خلافة أبي بكر كافية لإنجاز العمل من قبل زيد ابن ثابت (الذي تقول كتب التراث إنه هو من قام بالعمل).

وزيد ابن ثابت هو وحده من يروي عنه قوله إن أبا بكر كلفه بجمع القرآن، وهو رجل



حوله الكثير من الشبهات التي أوردتها كتب التراث، منها:

- قيل عنه إنه وفد على الرسول بعد الهجرة مع أهله وهو طفل لم يتجاوز الحادية عشر. وقيل للرسول إنه يحفظ سبع عشرة سورة. فكيف حفظها والرسول للتو هاجر للمدينة، وكل السور المكية لم تكن متوفرة في المدينة قبل الهجرة لا حفظاً في الصدور ولا مكتوبة على رقاع؟
- يقول عن نفسه إن الرسول كلفه بأن يتعلم لغة يهود « تعلّمْ كتاب يهود، فإنّي ما آمنهم على كتابي ». ففعلتُ، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذِقْتُهُ.

واليهود في المدينة قلة ليس لهم شأن والكثرة كانت لبني إسرائيل وهم من لديهم كتب ومنها بقية من التوراة بشهادة القرآن وليس بها يقول ثابت عن نفسه: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ(٤٣) المائدة.

لكن بعد الفتوح انتشر استخدام لفظ «يهود» ليشمل حتى بني إسرائيل، لأنهم كانوا الأكثرية في فلسطين. فاستخدم مختلق القصة اللفظ الشائع في الزمان الذي اختلق فيه قصته عن زيد وجمع القرآن.

وما يؤكد أن القصة مختلقة هو الزعم بأن زيد ابن ثابت أتقن لغة اليهود خلال نصف شهر.

وهذه الأكاذيب عن ثابت، وضعت كمقدمة لقبول أنه استطاع جمع القرآن خلال مدة وجيزة، لأنه يتمتع بقدرات خارقة، يمكن لمجتمع العصر العباسي تصديقها، وللمستشرقين تبنيها، لكن لا يمكن لأحد الآن أن يسلم بها.

- واختلقوا لذلك حديثاً ينسب للرسول قوله: أفرض أمتي زيد». أي أنه أعلمكم بالفرائض.

والإرث أصبح في عصور لاحقة يسمى علم الفرائض بعدما تدخل الناس فيه وزادوا فيه وعدلوا وبدلوا عما ورد في كتاب الله، ولم يكن له وجود في عصر الرسول.

وإلا فالمواريث نزلت في سورة المائدة التي سبقت غزوة بدر، وزيد لم يحضر بدراً ولا أُحُداً لصغر سنه، فكيف يصبح هذا الطفل متخصص علم فرائض لم يكن له وجود في عصر الرسول؟



وكيف يتخصص زيد بوجود الرسول وعدم الحاجة لاجتهادات الناس. فما اختلفوا فيه من الحق ردوه للرسول وانتظروا نزول القرآن بالتوضيح كما هي العادة، دون حاجة لطفل يعلمهم ما لا يعلم رسول الله.

وما قيل عن زيد إنه أفرض أمتي قيل عن غيره كثير كنوع من اختلاق فضائل للبعض، ومن ذلك: «أقضاكم علي». مع أنه لم يكن هناك قضاء بمفهومه العباسي زمن الرسول. ومثله: أرحمُ أمتي أبو بكر، وأشدها في أمر الله عمر، وأشدها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ، وأمينها أبو عبيدة.

- زيد بن ثابت نسب له قوله: قبض رسول الله ولم يكن القرآن جمع».

لكي ينسب له الفضل كله في جمع القرآن وليظهر بصورة المنقذ لكتاب الله ولو على حساب رسول الله الذي صور وكأنه أهمل القرآن.

والمرويات عن جمع القرآن لم تقتصر على ما نسب لزيد ابن ثابت، ولكن هناك مرويات تفوقها في الضعف وتختلف فيما بينها، ومنها:

- الحسن يقول إن عمر هو من جمع القرآن وليس أبو بكر، وذلك أنه سأل عن آية فقيل كانت مع فلان، وقتل في اليمامة. فأمر عمر بجمع المصحف.
- ثم يأتي ابن سيرين الذي ينسب له قوله: إنه توفي عمر ولم يجمع القرآن.

يعني لا أبو بكر ولا عمر جمعا القرآن.

- وينسب لسالم مولى أبي حذيفة قوله: أن الصحابة احتاروا في تسمية القرآن بعد جمعه زمن أبي بكر، فقال بعضهم: سموه إنجيلاً، فكرهوه. فقيل: سفر، فكرهوه. فقال ابن مسعود رأيت الحبش يسمون كتاباً عندهم المصحف، فسموه به[1].

ولن نتتبع السيرة المنسوبة لزيد ابن ثابت لنعدد شبهاتها، ولا المرويات المتخالفة عما سمي بجمع القرآن. فما قدم كافٍ للتأكد من أن كل ما قيل عن جمعه للقرآن اختلاق مثل هذه

---

١ وهذه القصة تذكرنا بالقصة المختلقة الأخرى عن الأذان، وكيف حار المسلمون كيف ينادون للصلاة. فقال بعضهم يرفع راية في موعد الصلاة، فإذا رآها المسلمون أقبلوا. وقال بعضهم: نستعمل البوق لننادي به على الصلاة كما تفعل اليهود. وقال آخرون: تستعمل الناقوس كالمسيحيين، فلم يعجب الرسول ذلك. وفي اليوم التالي قدم على الرسول عبد الله ابن زيد وقال إنه رأى رؤيا علم فيها الأذان فاعتمده الرسول. وبطبيعة الحال لم يكن في المدينة نواقيس للمسيحيين، لأنه ليس فيها مسيحيون، ولكن نصارى يختلفون في عقائدهم عن المسيحيين جذرياً.



الإختلاقات المنسوبة له. وكتب التراث تريدنا أن نصدق أن رسول الله أهمل القرآن لهذه الدرجة غير المسؤولة، وهو رسول الله الأمين؟

ترى لو لم يكن أميناً فهل سيحرق الرقاع التي كتب عليها القرآن أو يمزقها؟

أليست هذه الأخبار المختلقة أبقتها كتب التراث لتكون متاحة طوال القرون الماضية كخير معين لأي متطفل أو مستشرق لأن يشكك بالإسلام وليقول إن القرآن الذي بين أيدينا ليس هو القرآن الذي نزل على محمد، أو على الأقل ليقول: إن هذا القرآن الذي بين أيدينا ناقص، أو محرف أو تم التلاعب بآياته، وقد أكثروا في هذه المزاعم بالفعل.

أليست جريمة بحق الله وكتابه ورسوله أن تبقى تلك الكتب، وتجد من يحامي عنها ويجرم من ينتقدها، ويسمى مسلماً؟

وخبر جمع القرآن له أصل ولكن تم تشويهه.

فالرسول هو من جمع القرآن في مصحف واحد على رقاع بشكل منظم، ولم يكن عبارة عن جموع حجارة وعظام حيوانات ميتة وجلودها وسعف نخيل. وجمعه عليه الصلاة والسلام للمصحف ليس كرماً منه ولا مبادرة. ولكنه واجب عليه وجزء من مسئوليته كرسول لكل الناس في كل زمان ومكان.

ولو أنه تركه عليه الصلاة والسلام ولم يكتبه أو أنه كتب بتلك الطريقة الإهمالية التي تصفها كتب التراث، فيكون قد ترك المصحف يتلاعب به أصحاب الأهواء وما أكثرهم في المدينة عندما توفي الرسول. وسيكون من السهل عليهم حرق السعف وإخفاء الجلود والحجارة. وسيكون اعتماد أبي بكر في جمعه للقرآن على حفظ الناس وليس على ما في تلك الرقاع لأن غالبيتها قد تم العبث به أو إخفاؤه أو تدميره. ولو اعتمد في جمع القرآن على ما في الصدور لظهر المصحف كما هي تلك المصاحف المشبوهة التي تنسب لابن مسعود وأبي وغيرهما.

والرسول لو ترك حرفاً لم يبلغه فما بلغ رسالة ربه، ولوجب عليه العذاب.

فهل هذا ما تريد منا كتب التراث أن نظن برسول الله الذي كان غصة في حلوقهم طوال فترة حياته؟

فقريش تحقد على الرسول لأنه أهان كبراءها وأجبرهم على الاستسلام حفاظاً على حياتهم بلا كرامة. وبنو إسرائيل يحقدون على الرسول لأنه أجبر كثيراً منهم على مفارقة بلدهم



يثرب، وأجبر من بقي منهم على العيش محكومين بحكم الإسلام، ولو لم يسلموا.

واليهود يحقدون على الرسول لأن الإسلام انتشر ولم يعد الناس ينظرون لهم كشعب الله المختار. وأصبحت مكة هي المقدسة وليست إيليا.

وأصحاب المصالح في البلاد المفتوحة يحقدون على الرسول لأنه أضاع مصالحهم وألغى امتيازاتهم. وهناك المنافقون وفئات مريضة أخرى كلها تحقد على الإسلام والرسول.

وكل هؤلاء لا شيء يمنعهم من اختلاق القصص للنيل من الإسلام ورسوله، أو تحريف الأحداث وتزييفها. وساعدهم على نفث سمومهم الأوضاع السائدة تحت حكم قريش (الأموي والعباسي).

ونكرر القول بأن كتابة القرآن وجمع أبي بكر للمصحف له أصل لكن تم تشويهه.

فلدينا خبر يقول إن جبريل كان يراجع القرآن مع الرسول كل عام مرة في ليالي رمضان، وفي السنة التي توفي رسول الله راجعه جبريل مرتين، لكي يتأكد أنه حفظ القرآن.

ولا أدري كيف فات على الناس ملاحظة تهافت هذه الروايات.

فالقرآن يؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام ينزل على قلبه (ذاكرته) ويحفر فيها ولا يحتاج بعدها لحفظ ولا يخشى نسيانه. لذا فالقرآن لم يكتب منه حرف واحد في مكة وكتب في المدينة.

ثم لماذا يحفظ الرسول القرآن، ويموت وهو حافظ للقرآن؟ ما هي مصلحة الناس في ذلك؟

إذاً جبريل لم يكن يحضر ليتأكد أن الرسول يحفظ القرآن، لأنه عليه الصلاة والسلام يحفظه بشهادة القرآن. ولأن الرسول لم ير جبريل أو أي ملك إلا مرتين فقط طوال حياته، وكلا المرتين حدثتا في بداية بعثته، وذكرتها سورة النجم. ولو رأى الرسول الملك مرة أخرى لذكرها القرآن.

ويكون جبريل ليس هو من يراجع الرسول ليتأكد أنه يحفظ القرآن، ولكن الذي حدث هو أن الرسول بعد الهجرة كان يملي على كتبة الوحي كتابة القرآن. فكتبوا السور المكية ثم السور المدينة، ثم كانوا يكتبون كل سورة وقت نزولها ويضيفونها للمصحف الذي كان على رقاع ومجموع في مصحف واحد. وبعدما اكتمل نزول القرآن بنزول سورة النصر في السنة



التي توفي الرسول فيها، قام عليه الصلاة والسلام بمراجعة كامل المصحف المكتوب مرتين في تلك السنة، لكي يتأكد أنه قد ترك كامل الرسالة التي تلقاها من ربه دون نقصان. وبهذا يكون قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة. وعندما توفي رسول الله ترك نسخة المصحف الكاملة مكتوبة بوضوح وعلى أفضل ما يمكن توفره من مواد للكتابة في تلك البيئة.

ولهذا أمكنه عليه الصلاة والسلام أن يقول: أَيُّها النَّاسُ إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ الله فاعْمَلُوا بِهِ.

وهذه هي الرواية الأصلية والتي أضيف لها وغيرت حسب الأهواء، فيما بعد. فالشيعة قالوا: إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وعترتي. والسنة قالوا: إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي.

(لاحظ أن عبارة: "ما إن تمسكتم به" بقيت بضمير المفرد بعد تعديل النص وإضافة (عترتي عند الشيعة، وسنتي عند السنة).

ولو أن القرآن كان يحفظه الرسول بصدره ومات حافظاً له دون أن يكتبه فسيموت الدين معه. ولو أن القرآن كان يكتب على سعف النخيل ورقاق الحجر والعظام ومخلفات غيرها، فهو ليس فقط إهمالاً بل واستخفافاً بكلام الرحمن.

ولو صدقنا هذا الزعم فنحن نتهم الرسول بطريق غير مباشر أنه لم يؤد الأمانة ولم يبلغ الرسالة.

وأن أبا بكر قد حاول أن يتستر على إهمال الرسول فقام هو بجمع ما استطاع من القرآن.

ولو كان الأمر كذلك، فلابد أنه فاته الكثير من القرآن، كما تريد منا كتب التراث أن نصدق.

فقد روت تلك الكتب على لسان أبي ابن كعب أن سورة الأحزاب كانت بطول سورة البقرة، أي أن هناك (٢١٣) آية فقدت من السورة.

فلماذا لم يأخذها أبو بكر من أبي؟

ولماذا لم يأخذ من أبي موسى الأشعري ما نسب له أنه كان يحفظ آية تقول: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب».

ولماذا لم يأخذ على الأقل آية الرجم التي يحفظها أبي ابن كعب عن ظهر قلب، كما تقول كتب التراث؟



كما نسبت تلك الكتب عن أم المؤمنين عائشة قولها: إن آية الرجم وآية رضاعة الكبير كانت في صحيفة مرمية تحت سريرها وتشاغلوا عنها بموت الرسول فدخلت داجن وأكلتها.

ولو كان أبو بكر يجمع القرآن من صدور المسلمين لجمع آية الرجم وآية رضاعة الكبير من ابنته عائشة. وإن كان تحرج من النقل من ابنته فلماذا لم ينقلها من أقرب الناس إليه بعد الرسول وأقربهم لقلبه: عمر ابن الخطاب؟

فقد نسبت كتب التراث لعمر أنه كان له مصحف وأنه قال وهو على منبر رسول الله: إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ. قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ.

ولماذا كتب أبو بكر سورتي الفلق والناس في المصحف وابن مسعود يعتبرهما ليستا من القرآن (بزعم كتب التراث).

ولماذا لم يدون أبو بكر سورتي «الحفد والخلع» اللتين في مصحف أبي ابن كعب كما تزعم كتب التراث؟

وهاتان السورتان المزعومتان ما زال إمام الحرم يشدو بهما في بيت الله الحرام كل يوم في رمضان، وقد حفظهما الكثير من الناس، ومن ذلك: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير كله ونشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك.

ومن سورة الحفد: اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق.

وكأن إمام الحرم يريد أن يبقي ذكرهما حياً، وهو بهذا يعضد ضمناً من زعم أنها كانت من القرآن. مع أن الواجب هو حرقهما كما حرق عثمان كل المصاحف المشبوهة.

إذاً، كل ما ورد في كتب التراث عن جمع أبي بكر للقرآن وإهمال الرسول لكتابته في مصحف واحد هو من نسج خيال المغرضين في عصور لاحقة ودونته كتب التراث ليصلنا ويعتبر هو الحق لا غيره.

ويكون القرآن بكماله وتمامه قد قام رسول الله بكتابته كاملاً في حياته وفي مصحف واحد من أجود المواد المستخدمة للكتابة في عصره. وحرصاً من أبي بكر قام بمراجعة المصحف الإمام الذي كتبه الرسول، والتأكد من ألا تكون بعض الحروف قد طمست. ولم يضف له



أو يجمعه من عظام وجلود وسعف وحجارة متفرقة وصدور الرجال.

وإن كان هناك أي لوم على أبي بكر فهو عدم قيامه بنسخ عدة مصاحف وتوزيعها على الأمصار، وهو لوم يوجه لعمر ابن الخطاب أيضاً. فتأخر نسخ المصاحف لعصر عثمان وعدم مواكبته للفتوح، فتح الباب على مصراعيه لانتشار مصاحف مشبوهة لابد أن وراءها قريشاً وأعداء للإسلام معهم في محاولة لإفساد كتاب الله. وتلك المصاحف المشبوهة هي التي حرص عثمان على إتلافها وقام بإتلاف مصحف ابن مسعود معها وأي مصحف شخصي آخر، ودفع ثمناً لذلك حياته.

ثم وفي عصور لاحقة انتشرت القصص عما في مصحف ابن مسعود، ولأنه صحابي فقد استغل المغرضون مصحفه لنسبة كل مطاعن يريدون إثارتها حول القرآن. فقالوا إنه كان يحوي غير ما يحوي القرآن وكان له قراءات وعبارات مختلفة .. الخ. وانتشرت هذه الأقاويل والمزاعم لأن مصحف ابن مسعود لم يعد له وجود لكي يتم التأكد من وجود ما نسب له.

ويكون مصحف رسول الله «المصحف الإمام» هو الذي راجعه أبو بكر، وحفظ عند حفصة حتى نسخ منه عثمان المصاحف، دون أن يعدل فيه حرفاً واحداً عما كتبه عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وما يؤكد هذه الحقيقة التي طمستها كتب التراث أن المصحف الحالي يستطيع أن يثبت بنفسه أنه كامل لكل من يتدبره بحيادية وبطريقة أكاديمية بحتة، بعيدة عن أكاديمية المستشرقين الذين ينسون البحث العلمي عندما يتعلق الأمر بدراسة القرآن. وخير دليل على ذلك ما كتبه كبارهم أمثال نولدكه وزويمر وريتان وغيرهم، والذين يتمسكون بروايات واهية من كتب التراث ولو كان من كتبها كالزمخشري والسيوطي والسجستاني.

القطع بالثبوت والدلالة

أتباع الموروث صنفوا نصوص القرآن وما أسموه بالحديث إلى أربعة أصناف، هي:

- قطعي الثبوت قطعي الدلالة
- قطعي الثبوت ظني الدلالة
- ظني الثبوت قطعي الدلالة



- ظني الثبوت ظني الدلالة

ولمن لم يسمع بهذه التعريفات نقول:

إن المقصود بقطعي الثبوت هو ما ثبت يقيناً وصوله إلينا من رسول الله. وظني الثبوت هو ما وصلنا بطرق لا يمكن الجزم بثبوتها، أي أنها ليس بالضرورة صدرت من رسول الله برغم نسبتها إليه.

ويقصدون بقطعي الدلالة أن معنى النص ظاهر واضح لا لبس فيه ولا يحتمل أكثر من معنى.

وهم يقولون إن كل القرآن قطعي الثبوت، وهذا لا شك فيه. إلا أنهم يقولون إنه ليس كل القرآن قطعي الدلالة. بمعنى أن هناك بعض العبارات تحتمل عدة معانٍ، أو أن معناها غير واضح. أي أن القرآن بعضه قطعي الدلالة وبعضه ظني الدلالة.

وبالنسبة «للحديث» فيقولون هو مثل القرآن، فهناك أحاديث قطعية الثبوت قطعية الدلالة كبعض الأحاديث التي يسمونها متواترة.

وبقية الأحاديث ظنية الثبوت، بعضها قطعي الدلالة وبعضها ظني.

والتعليق على هذا كما يلي:

القرآن لا يحتاج لشهادة أحد حول قطعية ثبوته، لكن هل هناك في نصوصه ما يمكن تصنيفه على أنه ليس واضح الدلالة؟

الجواب بوجه عام: نعم، لكن بتقييد.

فنصوص القرآن غير الواضحة الدلالة محدودة جداً، وليس من بينها ما له علاقة بالتشريع أو العبادات، ولعلها أهمها حروف افتتاحيات السور، مثل: ألم الر، طس، طسم، كهيعص، حم ..... الخ.

وأتباع الموروث قالوا عن بعض نصوص القرآن إنها تحتمل أكثر من معنى أو أنها ظنية الدلالة، لأنهم وضعوا لكل آية في القرآن تأويلات عدة، بعضها يخالف البعض الآخر. ولو وافقناهم في أقوالهم فلن نجد آية واحدة في القرآن لم يضعوا لها تأويلات عدة مختلفة، وبالتالي فكل القرآن ظني الدلالة حسب قاعدتهم. لذا فأي لفظ قرآني يقول عنه المفسرون



أنه ظني الدلالة، فهو ظني بالنسبة لهم، لأنهم أولوا الآيات لغير معناها. لكنه لا يعني إنه كان كذلك زمن رسول الله. لأن المسلمين لو لم يفهموا المقصود باللفظ لسألوا الرسول، ولو سألوا الرسول فسينزل الوحي بالتفصيل.

فمثلاً نزل تحريم أكل الميتة في مكة في البداية في قوله تعالى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)النحل ١١٥ ثم تكرر تأكيد ذلك حرفياً بعد الهجرة: نَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)البقرة١٧٣

ويبدو أن بعض المسلمين تساءلوا عن المقصود بالميتة، فنزل التوضيح في سورة المائدة: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣) المائدة.

فالميتة تشمل: الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ.

كما أن من يقرأ القرآن بعيداً عن تأثير كتب الموروث وبعيداً عن تأثير الأقوال الشاذة سيجد أنه كلام واضح يمكن فهمه من الشخص العادي كما يفهمه المتعمق في علوم اللغة. لذا لا عبرة لقول أتباع الموروث إن هناك ألفاظاً ظنية الدلالة في القرآن.

وأتباع الموروث يصنفون «الحديث» على أن ما أسموه «الحديث المتواتر» يقيني الثبوت يقيني الدلالة.

والأحاديث التي يعتبرونها "متواترة" عن الرسول لا يعني أنها كذلك. ولكن يعني أن سلسلة الرواة فيها يعتبرونها صحيحة لأن الأسماء فيها لأناس يصعب أو يستحيل تواطؤهم على الكذب. لكن لا يمكن الجزم أنهم هم من رووا الحديث، لأن سلسلة الرواة لم تبدأ مع بداية تداول «الأحاديث» زمن الفتوح، ولكنها ألحقت بالأحاديث في عصور لاحقة وبعد وفاة رواتها المنسوب لهم أنهم سمعوا الرسول. وهذا يبقي الأحاديث «المتواترة» ظنية الثبوت، وتسميتها بالمتواترة ممن يؤمنون بها لا ينفي أن تكون أحاديث مختلقة أو طرأ عليها التغيير



والتبديل.

وبناءً على المحدثين فليس هناك سوى ١٢ حديثاً تعتبر متواترة، ثم جاء من زادها لعشرين وخمسين، وأوصلها البعض إلى (٣٠٠)، أما بقية الأحاديث البالغ عددها مئات الآلاف فكلها آحاد ظنية الثبوت عندهم. يعني أنهم يعترفون أن نسبتها للرسول فيها نظر، فقد لا يكون قالها عليه الصلاة والسلام، وهذه هي الحقيقة. ولا يهم إن كانت نصوص بعضها قطعي الدلالة، فقطعية الدلالة للعبارة لا تعني أن نسبتها للرسول صحيحة، فلو أورد البخاري حديثاً يقول: مَن بَلَغَتْ عندَهُ مِنَ الإبلِ صدقةُ الجَذَعةِ ولَيْستْ عندَهُ جَذَعةٌ وعندَهُ حِقَّةٌ فانها تُقبَلُ منهُ الحِقَّةُ ويَجعلُ معها شاتَيْنِ إنِ استَيْسَرَتا له أو عشرينَ دِرهماً.

فالدلالة قطعية، في تعريف الحقة والجذعة والشاة والدراهم. بمعنى أن الحقة والجذعة مفهومة ولا تحتم معاني مختلفة، لكن هذا لا يعني أن الرسول قد قال الحديث. وبناءً على ذلك فإن إنكار أي حديث ليس متواتر لا يمكن أن ينعت بالكفر من ينكره عند أهل الحديث والفقه والتفسير. هذه قاعدة فقهية يجهلها الكثير، ويتجاهلها رجال الدين ومن يتسمون بالفقهاء، وهي موجودة في صميم عقيدتهم.

بعبارة بسيطة – حسب هذه القاعدة الثابتة لديهم – يمكن لأي شخص ألا يعمل بموجب نص حديث آحاد ولا يمكن اتهامه بالكفر أو ترك شيء من الدين.

والخلاصة مما تقدم:

أن قولهم إن هناك في القرآن ما هو ظني الدلالة، غير دقيق. لأن ما كان ظني الدلالة بالنسبة للمفسرين الذين جاؤا بعد رسول الله، لا يعني أنه كان ظني الدلالة زمن رسول الله.

أن ما اعتبروه أحاديث متواترة هي على أكثر الأقوال ٣٠٠ حديث فقط، وما عداها فلكل إنسان الحق باتباعها أو تركها ولا يعتبر تركها مخالفة لدين الله أو كفراً في عقيدة أهل الحديث أنفسهم.

أن يقين الدلالة لا يعني يقين الثبوت عن الرسول.



رجال الدين

في عصر رسول الله لم يكن هناك رجال دين ولم يكن هناك مذاهب وفرق. بل إن رسول الله كان لا يستطيع أن يصدر حكماً حتى ينزل عليه القرآن فيتلوه على الناس. ولو سئل في مكة فسينتظر حتى ينزل عليه الحكم فيها، ثم سئل نفس السؤال في المدينة بعد الهجرة فسينتظر حتى ينزل عليه الوحي، حذراً من أن يكون هناك حكم بعد الهجرة لأهل يثرب والمدينة يختلف عن ذلك الحكم في مكة الموجه لقريش. لأن محمداً مجرد رسول، لا يستطيع أن يشرع نيابة عن الله.

ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام سئل في مكة عما يحرم من المآكل فنزلت سورة النحل التي منها آية تقول: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥) النحل.

ونفس الحكم تكرر نزوله في المدينة لأن الرسول سئل عنه مرة أخرى، فنزلت سورة البقرة وفيها آية تبدو وكأنها تكرار حرفي لآية النحل المكية: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣) البقرة.

وبعد أن فتح المسلمون البلاد التي تنتشر فيها المسيحية (العراق والشام وبلاد النيل) دخل الكثير من الممارسات المسيحية لتراث المسلمين ومن ذلك ما أصبح يعرف «برجال الدين» كصورة مقتبسة للرهبان. وكان دورهم في البداية لا يزيد عن حفظ القصص التي يتداولها الناس عن زمن رسول الله والتحدث بها في مجالسهم التي تغص بالمستمعين. ثم تحولوا إلى أئمة يقتدى بهم، ولهم الحق بالأخذ برواية من روايات الأخبار المنسوبة للرسول — التي انتشرت في المجتمع المسلم يتناقلها الناس مشافهة - وبناء حكم عليها وترك أخبار أخرى منسوبة للرسول تخالف ما أخذوا به، وهو ما أدى لظهور الفرق والمذاهب. ثم أصبح لهم الحق بالتشريع ليس فقط باعتماد ترجيح حديث على آخر، ولكن بسن تشريع ليس له دليل، حتى ولو كان حديثاً، فيما عرف بالاجتهاد الذي حول رجل الدين إلى «كاهن» يملك الصلاحية بالتحريم والتحليل اعتماداً على رأيه الشخصي. ولكي يسهل انقياد الناس لهم وطاعتهم فيما يشرعون انتشرت أحاديث منسوبة للرسول تقول: إن «العلماء» ورثة الأنبياء.



(كما ورد في سنن أبي داوود (ت ٢٧٥ هـ) والترمذي (ت ٢٧٩ هـ) مع أن الإسلام الذي جاء به الرسول، مطلوب من كل الناس على حد سواء، وكلهم ورثة للأنبياء بهذا المعنى.

لكن «ورثة الأنبياء» حُصرت برجال الدين، وكأن لديهم قدرة التعرف على الحلال والحرام بما يتوافق مع ما سينزل على الرسول لو كان حياً. أما كيف يمكنهم ذلك، فمبهمٌ يعتمد إيحاءهم لغيرهم أن الله أودع فيهم هذه القدرة، دون غيرهم، لكي يستمر تواجد رسل الله «الأنبياء» في أشخاصهم. وهذه العقيدة موجودة عند الشيعة والسنة والمذاهب الأخرى على حد سواء، وإن اتخذت مسميات مختلفة.

ولأن الابتعاد عن الدين لا يتوقف عند حد بل يتعاظم بمرور الزمن، فما كان منكراً في وقت يتحول إلى مقبول وواقع في وقت لاحق. لذا نجد قريشاً وقد تحولوا تماماً لعبادة الأصنام كبديل إلى توحيد الله الذي كان عليه إبراهيم. ولما جاء محمد ليعيدهم لدين الله سخروا منه واتهموه بالكفر بدينهم – الصحيح في نظرهم – لأنهم توارثوه وأصبح واقعهم الذي لا يحيدون عنه.

ونتيجة لهذه القاعدة، أصبح رجال الدين يوقعون عن الله في القرون التالية، لدرجة أن ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) لم يجد أي حرج من أن يسمي أحد كتبه بـ (أعلام الموقعين عن رب العالمين) وهو على يقين أن الناس ستتقبله بقبولٍ حسنٍ، ولن يجد من يقول له: اتق الله! فالله ليس له نواب من خلقه ولم يعين من يوقع عنه في الأرض.

وهكذا أصبح لدى المسلمين رجال دين يعتبرون أنفسهم نواباً عن الله في الأرض، وينسب كلامهم لدين الله. وحتى لا يكون كلامي تنظيراً فقط، أو مغالطة أورد قليل القليل مما قاله رجال الدين السلف حول قوله تعالى: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا» وهي جزء من آية هذا تمامها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠) الكهف.

يقول الطبري في تفسيره: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاووس، عن ابن عباس قال: كان اسمه (يقصد إبليس) قبل أن يركب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم



علماً، فذلك هو الذي دعاه إلى الكبر، وكان من حيّ يسمى جنا.... انتهى كلام ابن عباس

(إبليس اسمه عزازيل، وهو ينتسب لقبيلة)

فهل هذا كلام الله أم كلام رجل الدين؟

والاختلاق واضح، فـ(جنا) أخذها من جني، وعزازيل مقتبس من كتب اليهود[1].

ونواصل مع تفسير الطبري: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي قال: ذرّيته: هم الشياطين، وكان يعدّهم «زلنبور» صاحب الأسواق ويضع رايته في كلّ سوق ما بين السماء والأرض، و«ثبر» صاحب المصائب، و«الأعور» صاحب الزنا و«مسوط» صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس، ولا يجدون لها أصلاً، و«داسم» الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه........الخ

هل هذه التفاهات السخيفة كلام لله، أو من كلام رسوله؟ أم هي اختلاق يظهر تسطيحاً لكلام الله من رجل دين؟

وقبل ما يتساءل أحد كيف صار لإبليس أولاد، نقول إن رجال الدين فطنوا لهذا، ومما جاء في تفسير الطبري في هذا المجال قوله: قال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته.

وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً وفي اليسرى فرجاً؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يُخرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة.

وفي مسند أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلماً ألبستُه التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق

---

[1] ورد لفظ «عزازيل» ثلاث مرات في سفر اللاويين الإصحاح (١٦). ومن تعريفات عزازيل في قاموس الكتاب المقدس/ دائرة المعارف الكتابية المسيحية: عزازيل هو الشيطان أو الجن في الصحاري والبراري.



زوجته، قال: يوشِك أن يتزوّج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عَقّ؛ قال: يوشِك أن يَبَرّ. قال ويقول القائل: لم أزل بفلان حتى شَرِب؛ قال: أنتْ قال ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال: أنتْ قال ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال: أنت أنتْ.

ولن نعلق على سخافة هذه التخيلات، ولكننا نتساءل: من أخبر هؤلاء بما قالوه عن إبليس؟

إن كان الله قد أخبرهم فهم يتلقون وحياً من الله لم ينله محمد عليه الصلاة والسلام.

وإن لم يكن وحياً فهو مجرد قصص خرافي مختلق نسبوه لدين الله، ووجدوا منا من يحامي ويدافع عنه وكأنه من دين الله للأسف. ولكي يعي الإنسان العادي هول ما يشرعه رجال الدين ما عليه سوى الرجوع لفتاوى كبار رجال الدين كابن تيمية والتي تبلغ (٣٧) مجلداً، أو فتاوى هيئة كبار العلماء في السعودية والتي كانت تبلغ عند آخر مرة راجعتها (٣٠) مجلداً، وهي تتعاظم باستمرار. ولدى كل مذهب مجلدات مماثلة.

سورة القدر لا تتحدث عن ليلة القدر بالمفهوم الشائع

سورة القدر نزلت في بداية الدعوة في مكة، وفي وقت لم يكن هناك صوم في رمضان الذي لم يفرض إلا في المدينة بعد الهجرة وفي سورة البقرة، وبعد سنوات من نزول سورة القدر وعندما كانت قريش تلاحق الرسول بالأسئلة:

متى البعث الذي تزعم؟

فينزل القرآن ليقول لهم إن البعث سيكون بعد فناء هذا الكون، مثل:

إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت.

إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢).

إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣).

فيعيدون التساؤل: إذا انهارت السماء والأرض فأين سيكون البعث؟

فينزل القرآن ليقول:

يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) إبراهيم.

فهذا الكون سينهار وينشأ كون آخر فيه البعث:



وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

وتستمر قريش بالأسئلة: هل رأيت الملك الذي تقول إنه يتنزل عليك بالوحي يا محمد، أو أنك مجنون تتخيل أن أحداً يكلمك؟

فينزل القرآن بالإجابة: وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ(٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) التكوير.

وقريش كانوا يلاحقون الرسول بالأسئلة سخرية منهم وعدم تصديق، وليس للمعرفة واليقين. ومن الأسئلة التي وجهتها قريش لمحمد كان التساؤل عن بداية تلقيه الوحي، متى كان؟

وهو سؤال كررته قريش كثيراً، وجاء جوابه في عدد من السور، لكن سورة القدر جاءت بكاملها للرد على هذا السؤال: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥).

والسورة تقول بأن بداية تلقي محمد للوحي كان في ليلة أصبحت مباركة لأن الوحي بدأ النزول فيها، وليس لأنها ليلة مقدسة أصلاً، كما ترسخ لدينا بواسطة المفسرين. وقد تكرر ذكر هذه الليلة التي بدأ فيها نزول الوحي «ليلة القدر» في سور أخرى، لأن قريشاً كررت السؤال، ومن ذلك ما جاء في سورة الدخان من سور نزلت في مكة في فترة لاحقة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥).

كما تكرر ذكر ذلك مرة ثالثة في المدينة أثناء الحديث عن رمضان والصيام، وذلك في قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥) البقرة.



وسورة القدر لا تقول بأن القرآن كله نزل من الأرشيف الإلهي للسماء الدنيا في تلك الليلة ثم أنزل على محمد ترتيلاً على مدى سنوات الدعوة، كما تزعم كتب التراث. لأن القرآن الكريم ينزل ليتفاعل مع الأحداث لحظة حدوثها. فحادثة الأعمى نزل بها القرآن في وقتها ولم تنزل من الأرشيف الإلهي قبل الحادثة بسنوات. ومثلها كل الأحداث التي يتحدث عنها القرآن صغيرها مثل المجادلة وكبيرها مثل معركة بدر وأحد والأحزاب وغيرها. فالقرآن لا يتحدث أبداً عن أحداث ستقع.

والمسلمون اليوم يقدسون ليلة مبهمة في رمضان، ليس لأنه بدأ الوحي ينزل فيها، لكن لأن المفسرين حولوا معناها إلى ليلة تحدث فيها أعاجيب وظواهر غير طبيعية، وزعموا أن من دعا فيها فستحقق له أمانيه. ونسي الناس أن قدسيتها استمدت من كونها أول ليلة يتلقى فيها الرسول أول سورة من القرآن، وليس لها قدسية بذاتها. وهذه هي حقيقتها التي يمكن للمسلمين الاحتفال بها - إن شاءوا - دون انتظار لتحقق أماني أو حدوث معجزات حسية، أو تحويلها لليلة يقبل فيها الله الدعاء أكثر من غيرها، أو أنه مطلوب فيها الذكر وقراءة القرآن أكثر من غيرها، فكل هذه المزاعم لا أصل لها في دين الله وإنما ألصقت فيه بواسطة البشر.

واللافت أن أكثر من يهتم بليلة القدر بمفهوم المفسرين هم السلفيون الذين يعتبرون أشد مذاهب المسلمين تشدداً ومحاربة للغلو، كما يزعمون. فهم يحرمون الاحتفال بمولد النبي أو الهجرة، بل وقاموا بتكسير كل ما له علاقة بزمن الرسول من كتابات ونقوش عثروا عليها وهدموا بيوت الصحابة بحجة أن الناس قد يعظمونها[1]. لكنهم يتناسون ما ينهون عنه غيرهم عندما تكون المسألة مما يمارسون ويدعون له ويرسخون، مثل التراويح ومثل ليلة القدر «العجيبة».

ولأن كل ما قيل عن «ليلة القدر» هو قصص مختلق وتخاريف فإليكم هذا الحديث الموضوع المكذوب عنها:

---

١ شجعت السلطات السعودية فتاوى هؤلاء لهدم بيوت مكة القديمة والقضاء على كل أثر إسلامي في مكة والمدينة. والغاية لم تكن دينية بقدر ما هي مصالح دنيوية. حيث كان هناك تعويضات مالية هائلة للأماكن المدمرة التي استطاع المتنفذون شرائها من أصحابها ولما هدمت تم تعويضهم بالمليارات. دون أدنى شعور بتأنيب الضمير للقضاء على آثار لا تقدر بثمن. وبما أن الحكومة السعودية ذات نفوذ عالمي فقد صمتت الهيئات العالمية المسئولة عن الآثار ولم تحتج على ما حدث. وقد بلغت قيمة التعويضات مبالغ فلكية.



يقول البخاري: حدّثني محمدُ بنُ المُثنّى حدَّثني خالدُ بنُ الحارثِ حدَّثنا حُميدٌ حدَّثنا أنسٌ عنِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ قال: «خَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليُخْبِرَنا بليلةِ القَدْرِ، فتَلاحىٰ رجُلانِ منَ المسلمينَ فقال: خَرجتُ لأخبِرَكم بليلةِ القَدْرِ، فتَلاحىٰ فُلانٌ وفلان فرُفِعَتْ، وعسىٰ أن يكونَ خيراً لكم، فالتَمِسوها في التاسعةِ والسابعةِ والخامسةِ».

مناقشة النص

الحديث يقول إن الرسول أبلغه الله عن ليلة القدر متى تكون، وأنه خرج ليبلغ بها الناس، ولكن التلاحي (أي الشجار والنزاع) الذي حدث بين رجلين - لم يذكر اسمها - أحدث ردة فعل لدى الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - فقرر أن يرفع خبرها ويخفيها عن الناس.

وهذا الحديث فيه قدح لذات الله - جل وعلا - فهو لم يخبر الناس متى تكون عندما نزل بالقرآن على الرسول ثم قرر فيها بعد أن يخبرهم. (يعني غير رأيه وكأنه أحد زعماء العرب في هذا الزمان الذي يقرر اليوم شيئا ثم يقرر نقيضه غداً) تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً.

وعندما قرر أن يخبر الناس أبلغ رسوله بأن يبلغهم، ولم يبلغهم هو بقرآن. وكأن الرسول عليه الصلاة والسلام حاجب أو خادم ببلاط عند الله. وليس رسولاً من البشر ينسخ الوحي في ذاكرته دون أن يكون له رأي بقبوله أو رفضه ودون أن يكلمه الله بكلام خاص وسري وعليه أن يبلغ كل ما يوحى له لحظة نزوله، وإن لم يبلغ فسيهلكه الله ويعذبه.

وليس هناك أحاديث جانبيه بين الله الخالق وبين عبده من البشر محمد عليه الصلاة والسلام. لكن قصاص السلف لديهم الجرأة أن يقولوا على الله ورسوله ما لا يقال، وتصويره سبحانه أنه قرر أن يتراجع عن إخبار الناس بليلة سيكون لهم فيها خير وستقبل دعواتهم وستحقق أمانيهم، فقط لأنه حدث شجار بين رجلين تسبب في غضب الخالق وارتفاع ضغطه (تعالى الله وتبارك علواً كبيراً من جرأة السلف).

وليلة القدر لا تعني أنها ليلة خاصة أو عجيبة أو حتى يستجاب فيها الدعاء.

فالدعاء للدنيا لا يستجاب أبداً لأنه يخالف عدل الله المطلق الذي خلق الدنيا للعمل والآخرة للحساب. ولو تدخل في أمور الدنيا فقد ألغى قانون العدل وقانون الاختيار الحر للإنسان وقوانين كثيرة وضعها سبحانه بنفسه. فالدنيا مجالها مفتوح لكل الناس والنجاحات فيها لهم



جميعاً بغض النظر عن المعتقد.

والناس بمختلف عقائدهم عرضة للمرض والحوادث والفقر والغنى والموت ولن يتدخل الله جل شأنه ليبرئ هذا ويمرض آخر.

ولو فكر الناس بأن بُرء المريض من مرض لا يعني أنه لن يصاب بغيره ولا يعني أنه لن يموت. وهذا كاف لمعرفة أن الله جل جلاله لا يبرئ ولا يمرض مباشرة. ولا يقبل دعوة من يطلب بيتاً أو مالاً. لكنه سبحانه وضع كل سبل الحياة الكريمة في الأرض لكل الناس ولو كان هناك فقر فلابد أن هناك لصاً وسارقاً يجب انتزاع حق الناس منه ووقف ظلمه، وليس الحل برفع الأكف لله الذي لم يظلم أحداً ولم يسرق مال أحد.

والله أودع للإنسان عقلاً يفكر ويخترع ويتقدم ويصنع ويتطبب ويكتشف العلاج الذي أودعه الله في العالم. فالله أودع كل شيء يحتاجه الخلق وعليهم إيجاده.

وفيما يلي ملاحظتان هامتان:

١. أن كل الأحاديث الواردة عن ليلة القدر من أناس لم يصحبوا الرسول في مكة وعايش نزول السورة، ومن هؤلاء: أبو هريرة، ابن عباس، الحسن ابن علي، أبو سعيد الخدري، أبو بكرة، وغيرهم. ولو افترضنا أن ما قيل عن ليلة القدر صحيح فإن المسلمين غفلوا عنها أكثر من عشر سنوات إلى عشرين سنة من نزول السورة في مكة وحتى بدأ الناس يسألون الرسول عنها في المدينة.

٢. أن كل ما قيل عن فضائل ليلة القدر لم يقل به الله ولم يسمع به الرسول كما سنرى، وإنما هو من اختلاق المفسرين.

ولبيان اختلاق المفسرين نورد فيما يلي بعض أقوالهم في قوله تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» ليتبين للقراء أنهم لا يملكون علماً وإن هم إلا يخرصون دون خوف من الله:

عن ابن عباس، قال: نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يُحدث في الأرض شيئا أنزله منه حتى جمعه. وبمثل قوله قال الشعبي.

سعيد بن جُبير: أنزل القرآن جملة واحدة، ثم أنزل ربنا في ليلة القدر: فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.



عن ابن عباس مرة أخرى، قال: نزل القرآن في ليلة من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فُرِّق في السنين، وتلا هذه الآية: فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ قال: نزل متفرّقا .

ومرة ثالثة يقول ابن عباس: أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر، إلى السماء الدنيا، فكان بموقع النجوم، فكان الله ينزله على رسوله، بعضُه في إثر بعض.

ملاحظات سريعة

القرآن ينزل ليتفاعل مع الأحداث وقت وقوعها ولا يذكر حادثة ستقع أبداً، فكيف ينزل القرآن كله في ليلة واحدة وهو يتحدث عن وقائع لم تقع؟

كيف تحدث عن حادثة الأعمى والجن وغزوة بدر وأحد والأحزاب وحرق المسلمين بالنار... الخ قبل وقوعها؟

ولو قال متحذلق إن الله يعلم الغيب وأنزل القرآن يتوافق مع ما سيحدث، فأقول لو كان الأمر كذلك لماذا لم يخبر القرآن المسلمين أنهم سيهزمون في أحد؟

لماذا لم يخبر رسوله بأن الأعمى سيأتيه فلا يعبس في وجهه؟ ..الخ

لا ندري من أين جاء ابن عباس والشعبي وابن جبير بهذه المعلومة ؟

طبعاً كل كلام المفسرين مختلق لا يحتاج لمصدر. فما يقول الشعبي أو ابن عباس أو قتادة أو غيرهم يؤخذ بلا نقاش. مع أنه لو أن أحدهم قذف غيره فسيطلب منه أربعة شهود عدول أو يجلد ثمانين جلدة ولا يؤخذ كلامه كشاهد بعدها.

فكيف يترك هؤلاء يتقولون على الله بدون شهود ويؤخذ كلامهم وكأنه كلام الله.

ابن عباس يظن أن القرآن نزل بمواقع النجوم .. كيف؟ لا أدري.

فلا شأن بقوله تعالى: فلا أقسم بمواقع النجوم بنزول القرآن.

اختلاق القصص كسبب للنزول

فيما يلي أمثلة لقصص المفسرين الذي اختلقوه لترسيخ تقديس ليلة القدر:

- قال مجاهد إن النبي ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر قال: فعجب المسلمون من ذلك قال: فأنزل الله عز وجل (إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) التي لبس ذلك الرجل



السلاح في سبيل الله ألف شهر. رواه ابن كثير في تفسيره

- ونفس مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية (لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل.
- علي بن عروة اختلق قصة أخرى قائلاً: ذكر رسول الله يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً، لم يعصوه طرفة عين فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن العجوز ويوشع بن نون، قال: فعجب أصحاب رسول الله من ذلك فأتاه جبريل فقال: يامحمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين، فقد أنزل الله خيراً من ذلك فقرأ عليه (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك، قال: فسر بذلك رسول الله والناس معه.

ملاحظات سريعة

كعادة المفسرين يختلقون القصص ويجعلونها سبباً لنزول الآية. ومجاهد اختلق القصة الأولى ثم اختلق قصة أخرى مختلفة. ويبدو أنه اختلق القصة الأخرى في مجلس آخر وبعد مضي وقت طويل على اختلاق القصة الأولى التي نسيها.

معنى القدر عند المفسرين

مجاهد: ليلة القدر تعني ليلة الحكم في الأرزاق والآجال وغيرها.

وهو نفس الكلام المنسوب لسعيد بن جُبير الذي يقول: يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيُكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم، ولا ينقص منهم.

ملاحظات سريعة

الآجال والأرزاق أودعها الله للجميع في أرضه ولم يقرر مسبقاً أن فلاناً سيكون غنيا وسيعيش مئة سنة وفلاناً سيعيش فقيراً ويموت في العشرين .كما أن اختيار الحق أو الضلال خيار شخصي حر، والله جل وعلا لا يقرر على العبد أنه شقي ويعذبه.



متى تقرر أنها في رمضان

ونقل الطبري في تفسيره أن ربيعة ابن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: رأيت ليلة القدر في كلّ رمضان هي؟ قال: نعم، والله الذي لا إله إلا هو إنها لفى كلّ رمضان، وإنها لليلة القدر، فيها يُفرق كلّ أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وعمل ورزق، إلى مثلها .

وعن سعيد بن جُبَير، عن ابن عمر. قال: ليلة القدر في كلّ رمضان .

ملاحظات سريعة

مثل هذه الأقوال تظهر بكل وضوح أن الجدل حول متى هي ليلة القدر وفي أي شهر كان يحدث بعد عصر الرسول وعندما بلغ الحسن مبلغ الرجال وهو الذي مات الرسول وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره.

وهو ما ينطبق على حوار ابن جبير مع ابن عمر.

من الذي قرر أن عملها أفضل

فيما يلي بعض ما أورده الطبري في تفسيره:

- عن سفيان، قال: بلغني عن مجاهد قوله: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر.
- وعن عمرو بن قيس الملائي، قوله: خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قال: عملٌ فيها خير من عمل ألف شهر .
- وقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، رواه ابن جرير.
- وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة عن ابن جريج عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر.
- وهكذا قال قتادة بن دعامة والشافعي وغير واحد وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل ألف شهر.



ملاحظات سريعة

مجاهد وعمرو ابن قيس الملائي وغيرهم هم من قرروا أن عملها وصيامها خير من ألف شهر، ولو كان الرسول هو من قال بذلك فلن يكون هناك حاجة لمجاهد والملائي وكثيرين غيرهم ليقرروا.

كيف يقنع المفسرون الناس بكلامهم أن عمل ليلة القدر خير من ألف شهر؟

باختلاق قصة!

- عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدوّ بالنهار حتي يُمْسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قيام تلك الليلة خير من عمر ذلك الرجل.

طبعا اختلاق القصص حسب المذهب والميول والهدف منها وهذا ظاهر في القصة التالية:

- عيسى بن مازن، قال: قلت للحسن بن عليّ رضي الله عنه: يا مسوِّد وجوه المؤمنين، عمدت إلى هذا الرجل، فبايعت له، يعني معاوية بن أبي سفيان فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِي في منامه بني أميَّة يَعْلُون منبره خليفة خليفة، فشقّ ذلك عليه، فأنزل الله: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ و إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَما أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ الْقَدرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يعني مُلْكَ بني أمية قال القاسم: فحسبنا مُلْكَ بني أمية، فإذا هو ألف شهر .

ملاحظات سريعة

بطبيعة الحال لم تنزل سورة القدر بسبب القصة التي اختلقها مجاهد، ولا القصة التي اختلقها عيسى ابن مازن والتي تهدف لتبرير بيع الحسن ابن علي مبادئه لمعاوية بالمال مقابل ولائه له.

والأمر لم يقف عند اختلاق قصة لتكون سبباً للنزول، بل يصل بهم لتحريف القرآن من أجل ترسيخ أقوالهم.

وهذا ابن عباس حرف القرآن لكي يتفق مع ما يريد قوله، فقد روى الطبري وابن كثير وغيرهم من المفسرين عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «مِنْ كُلِّ امْرِىءٍ سَلامٌ».



ملاحظات سريعة

ابن عباس لا يتوانى عن تحريف القرآن لكي يقول إن معنى " تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ " هو: أن كل واحد منهم لا يلْقَى مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلَّم عليه.

وبدل أن يُسأل ابن عباس ويحاكم على تحريف القرآن، رُسِّخ كلامه وأصبح هو ما نفهم من خلاله كلام الله ولو أنه حرف كلام الله لأنه يرى أن عبارة القرآن خاطئة.

زيادة في اقناع الناس نسبت أقوال المفسرين للرسول على شكل أحاديث

فالأحاديث المنسوبة للرسول عن فضل ليلة القدر وعملها ظهرت لكي تكون أكثر إقناعاً للناس من كلام مجاهد وسفيان وغيرهم. وقد يكون كلام مجاهد وغيره نسب للرسول فيما بعد وتنوعت عباراته فأصبح وكأنه أحاديث مختلفة عن الرسول.

ومن ذلك:

روى أحمد بن حنبل: عن أبي هريرة قال: لما حضر رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم».

ويقول أحمد: عن مرثد قال: سألت أبا ذر قلت: كيف سألت رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن ليلة القدر ؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها قلت: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال: «بل هي في رمضان» قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة» قلت: في أي رمضان هي ؟ قال: «التمسوها في العشر الأول والعشر الأواخر» ثم حدث رسول الله صلى الله عليه وسلّم وحدث ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي ؟ قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها». ثم حدث رسول الله ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب عليَّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيئاً بعدها» ورواه النسائي

- وحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: من قام ليلة القدر إيماناً



واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه.

- وعن أبي بكرة أن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلّم قال: «في تسع يبقين أوسبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث يبقين أو آخر ليلة» يعني التمسوا ليلة القدر وقال الترمذي: حسن صحيح

وغيرها...

ملاحظات سريعة

حديث أبي ذر يظهر الرسول شخصاً عصبياً جدا وبشكل لا يحتمل. فهل كان الهدف من الحديث هو إظهار فضل ليلة القدر أو إظهار أن الرسول شخص سيء الخلق؟ فالسم يدس في الدسم.

وحديث أحمد الأول يقول إن الجنة تفتح أبوابها وتغلق أبواب النار.

فإن كان ورد على المجاز فإن الناس تقترف الذنوب في رمضان بنفس النسبة خارجه. وحتى لو امتنع شخص عن المعاصي في رمضان وعاد لها فيها بعد فقد قضى على حسناته السابقة. وإن كان الكلام على ظاهره وكأن الجنة والنار موجودتان الآن فهذا يكذبه كلام الله الذي يؤكد أنهما لن تخلقا إلا يوم القيامة.

والحيث يظهر أنه حتى تلك اللحظة لم يكن أبو ذر يعرف متى ليلة القدر مع أن سورة القدر نزلت قبل الهجرة بعشر سنين لو افترضنا أن دعوة الرسول في مكة استمرت (١٣) سنة.

وحديث أبي هريرة عن غفران الذنوب مثله أحاديث كثيرة قيلت في الحج والعمرة وصلا الجمعة وغيرها.

وأبو بكرة لم يسلم إلا بعد حنين ومع ذلك سمع الرسول يخبر الناس عن موعد ليلة القدر. وهذا يعني أن المسلمين لم يعلموا موعدها إلا في آخر حياة الرسول لأن كتب التراث تقول إن حنيناً وقعت قبل وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بسنتين.

فإن كانت سورة القدر نزلت قبل الهجرة بعشر سنين ويضاف لها ثماني سنوات مضت قبل إسلام أبي بكرة فإن المسلمين بقوا ١٨ سنة لم يعلموا بفضلها وضاع عليهم قيامها.



ابن عباس يعرف عن ليلة القدر أكثر من أي أحد وحتى من الرسول

تعالوا نقرأ:

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبري أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة وعاصم أنهما سمعا عكرمة يقول: قال ابن عباس دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلّم فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس فقلت لعمر إني لأعلم أو إني لأظن أي ليلة القدر هي فقال عمر: وأي ليلة هي؟ فقلت سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر فقال عمر: من أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس فقلت خلق الله سبع سماوات وسبع أرضين وسبعة أيام، وإن الشهر يدور على سبع وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها، فقال عمر لقد فطنت لأمر ما فطنا لـه .

ملاحظات سريعة

عمر ابن الخطاب أسلم قبل نزول ليلة القدر في مكة وصاحب الرسول طوال حياته بعد ذلك، واستلم الخلافة بعد وفاة الرسول بسنتين ونصف، وطوال هذه المدة لم يكن يدري شيئاً عن ليلة القدر. لدرجة أنه جمع الصحابة ليسألهم عنها.

ومن بقي من الصحابة في عصر عمر لا يرقون لمنزلته في الصحبة ولا التقوى فكيف يسألهم؟

والحديث يظهر أن ما يفعل في ليلة القدر كان غير معروف يقيناً حتى خلافة عمر على الأقل - هذا لو افترضنا أن هذه القصة صحيحة - وإن كانت غير معروفة في عصر الرسول فهي كغيرها من العبادات التي ألحقت بالدين وليست منه، في عصور لاحقة، وبالتالي فهي بدعة.



الجهاد

يعني بذل أقصى جهد ممكن، معنوي كان أو جسدي. ويأتي في القرآن على معانٍ، منها:

بذل أقصى الجهد الممكن لإقناع المقابل أو الرد عليه

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) لقمان.

جاهد هنا تعني بذل كل ما يمكن من جهد في الإقناع.

ومثله: فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(٥٢) الفرقان.

حاول الرد عليهم به (بالقرآن).

ومثله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٩) التحريم.

لا تجاملهم وتحدث معهم بكل قسوة وغلظة.

الجهاد في الله

وهو بذل أقصى جهد ممكن للصبر على الأذى والتعذيب في سبيل التمسك بدين الله.

وهذا المعنى للجهاد تذكره بعض السور المكية دون المدنية، ومن ذلك: مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) العنكبوت.

وتقول نفس السورة: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩).

وسورة العنكبوت تتحدث عما واجهه المسلمون المستضعفون من تعذيب لإجبارهم على ترك الإسلام، وتحثهم على أن يصبروا (يجاهدوا في الله).

ومثله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا



لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) النحل.

وهو ما ورد في سورة الحج: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(٧٨).

بذل أقصى جهد مستطاع للدفاع عن الإسلام ودولة المسلمين

سواء في قتال المعتدين أو في الإنفاق على تجهيز الجيش. وهذا النوع لا يرد في السور المكية أبداً، ويرد على الدوام في السور المدنية فقط. وهو أكثر الأنواع التي تحدث عنها القرآن.

والقتال فُرِضَ على المسلمين ولم يختاروه، وكان موجهاً ضد قريش فقط. وهذه النقطة هامة جداً ولا يفطن لها البعض، ويتغافل عنها البعض الآخر عمداً. فقد بدأت قريش عداءها للمسلمين في مكة قبل الهجرة عندما حاولت أن توقف الدعوة بأي وسيلة ولم تقبل التعايش السلمي مع المسلمين، كما عرض القرآن: لكم دينكم ولي دين. ومن ثم تحولت لتعذيب المستضعفين بكل أنواع التعذيب الوحشي بما في ذلك الحرق بالنار. ولو تمكنت من الإمساك بالرسول خارج مكة لقتلته، وهو ما جعل الرسول يتسلل مع صاحبه أبي بكر هاربين من مكة دون علم قريش عندما هاجرا ليثرب.

وبعد أن ترك الرسول والمسلمون مكة لم تتوقف قريش. بل أعلنت النفير العام لكي تلحق بهم في منفاهم وتسحقهم. وهو ما يدحض كلام كتب التراث التي تقول إن المسلمين هم من بدأ مطاردة قريش وقوافلهم التاريخية وأن قريشاً (التي صوروها بمظهر البريء المسكين) اضطرت لحرب المسلمين للدفاع عن أموالها.

ومنطقياً لا يمكن أن يبدأ المسلمون التحرش بقريش بعد أشهر قليلة من هربهم من مكة، لأنه لو كان لديهم القدرة على مواجهة قريش لواجهوها في مكة، ولكنهم كانوا ضعافاً قلة. وحتى بعد الهجرة وانضمامهم لإخوان لهم من الأوس والخزرج، فجمعهم وقوتهم لا تتساوى مع جمع قريش وقوتهم. بينما قريش كان لديها هدف القضاء على الإسلام والمسلمين منذ أن كانوا في مكة، ولما هربوا ليثرب عقدت العزم على مطاردتهم هناك. وهذا ما أوجب



الجهاد على المسلمين للذود عن أرواحهم ودينهم.

وبما أن المسلمين مستجيرون في يثرب، فقد كان على قريش أن تحصل على موافقة من أهل يثرب (بني إسرائيل، اليهود، النصارى، الوثنيين) كون غالبية الأوس والخزرج دخلوا الإسلام وصارت قريش تنظر لهم كمطاردين كما المهاجرين. وتأخرها لبضعة أشهر عن الخروج لابد أنه عائد لاتصالاتها ببني إسرائيل وبقية أهل الكتاب في يثرب في محاولة لإقناعهم أن يسمحوا لها بالقدوم ليثرب لحرب المسلمين. لأنه لو دخلت قريش ليثرب وهي مسلحة دون إذن من أهلها (أهل الكتاب) لاعتبر تعدياً وعدواناً ولوجب على أهل الكتاب الاشتراك مع المسلمين لحرب قريش وصد عدوانهم.

ويبدو أن أهل الكتاب قد توصلوا لإقناع قريش والمسلمين على أن تكون الحرب بعيداً عن يثرب، فوقعت المعركة بالقرب من آبار بدر. وهذا استغرق وقتاً، وهو ما يفسر تأخر خروج جيش قريش، فمعركة بدر تحدثت عنها سورة الأنفال التي نزلت بعد مرور حوالي العام على هجرة الرسول. نزل خلالها عدة سور كلها تتحدث عن القتال القادم وتحث المسلمين على الاستعداد بالنفس والمال.

وسنتتبع ما قالته السور المدنية حسب نزولها عن الجهاد في سبيل الله، بدءً من سورة البقرة التي تضع احتمالات لما قد يحدث في الصراع الذي سيطول مع قريش بحكم أن قريشاً مستمرة في عداء المسلمين وملاحقتهم وقتالهم لأنها تهدف للقضاء عليهم.

من يقتل في سبيل الله حي عند الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٣) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧).

مع أن القتال لم يحدث بعد، فقد بدأت سورة البقرة بالحديث عمن سيقتل في سبيل الله، قبل أن تتحدث عن الاستعداد للقتال. وهذا أسلوب متبع في القرآن رأينا آيات مشابهة في سور



سابقة، حيث تبدأ الآيات بالحديث عن موضوع جديد وكأنه سبق الحديث عنه، مع أن الحديث عنه سيأتي بعد ذلك[1].

والآيات تهيئ المسلمين لما قد يواجهون عندما يبدأ القتال مع قريش التي يبدو أنها مصرة على ملاحقة المسلمين، وتنامت الأخبار عن حشودها ضدهم وقدومها لحربهم.

وقوله: « أحياء عند ربهم» تعبير مجازي لتأكيد قبولهم عند الله، لأنه لا حياة بعد الموت إلا يوم القيامة، سواء من مات مقتولاً في سبيل الله أو في حادث سيارة أو على فراشه. والميت سيشعر أن القيامة قامت بعد لحظات من موته، لأن ذاكرته تتوقف عن التسجيل فيمر الزمن مهما طال وكأنه ثواني. لذا فمن يقتل في سبيل الله وهو مؤمن ويعمل صالحاً فسيجد نفسه وكأنه انتقل من الدنيا للقيامة حيث سيدخل الجنة وسيرزق فيها من الثمرات.

وأصبح من المعتاد والمتعارف عليه إطلاق الجهاد على القتال في سبيل الله. لكن المعنى انحرف كما انحرفت الكثير من معتقدات المسلمين. فصار يطلق الجهاد على حروب دولة قريش (الأمويين والعباسيين) التوسعية، وعلى كل الحروب التي قادتها دول المسلمين. واليوم أصبح لفظ «جهاد» لفظاً عالمياً في غالب اللغات، لكنه للأسف يستخدم بمعنى سيء جداً. حيث تنسب له كل ما يقوم به بعض من ينتسب للإسلام من قتل بغير حق. واستخدم الغرب اللفظ إعلامياً للنيل من الإسلام بوصفه ديناً دموياً.

أول ذكر للقتال في سبيل الله

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤) البقرة.

---

[1] وقد تكون قريش قد قتلت بعض من حاول الهجرة، وبما أن القتال في سبيل الله لم يفرض بعد فقد تساءل المسلمون عن مصير من قتل. وهو احتمال أورده «أبو حزم».



لأول مرة يأتي الأمر بالقتال في سبيل الله، ويمكن ملاحظة أن آيات الجهاد في سورة البقرة والنساء والمائدة ومحمد والصف والأنفال والحديد والتغابن وآل عمران كلها موجهة لقتال قريش فقط، ولا أحد غيرهم. لأن قريشاً هي التي اعتدت على المسلمين طوال هذه الفترة. ولم يكن هناك سرايا وغزوات للرسول على الناس كما تقول كتب التراث.

والآيات تبين بعض الضوابط التي يجب على المسلمين مراعاتها والأخذ بها في القتال، لكي يعتبر قتالاً في سبيل الله، كما يلي:

القاعدة الأولى للقتال في سبيل الله: عدم الاعتداء.

"وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ". فالقتال في سبيل الله يشترط له عدم الاعتداء لأي سبب كان، لأن الله لا يحب المعتدين. وأي شيء لا يحبه الله فهو كبيرة. وكل قتال بغير هذا الشرط فليس قتالاً في سبيل الله، ولكنه صراعات دنيوية.

- القتال في سبيل الله يعني صد العدوان وعدم مبادرة الغير بالقتال لأي سبب.

القاعدة الثانية للقتال في سبيل الله: القسوة في قتال المعتدي والتعدي عليه بمثل ما اعتدى.

" وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ". فعندما يعتدي أحدٌ على المسلمين ابتداءً، فيجب قتاله بكل قسوة، وملاحقته في كل مكان والتضييق عليه، والتعدي عليه كما اعتدى على المسلمين. فقريش تعدت على المسلمين في مكة واضطرتهم للخروج منها، واستمرت تعاديهم وتلاحقهم وتحشد الجيوش لقتالهم وهم بعيدون عنها. فجاءت الآيات هنا تقول للمسلمين أن يحشدوا لهم ويقاتلوهم بكل قسوة، ولو أمكن فيجب إخراجهم من مكة كما أخرجوكم أول مرة.

- المسلمون يجب أن يكونوا أشداء قساة في حربهم ضد المعتدي، ويعتدوا عليه بمثل ما اعتدى.

القاعدة الثالثة: حماية المسلم من أن يفتن في دينه من أهم دواعي القتال في سبيل الله.

«وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ». فقريش فتنت بعض المستضعفين في دينهم بإجبارهم – تحت



التعذيب – على الردة: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠) البروج.

وقريش هي من بدأ حشد الحشود لقتال المسلمين بعد هجرتهم ليثرب وترك مكة، وغايتها القضاء عليهم وفتنتهم في دينهم. وفي كل زمان ومكان يتعرض مسلم أو جماعة من المسلمين للفتنة في دينه فيجب على كل مسلم قادر القتال في سبيل الله لحمايته من الفتنة.

القاعدة الرابعة: لا تستحل حرمة البيت إلا إذا رفعت قريش السلاح ضد المسلمين في الحرم.

«وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ». في حال طالت الحرب مع قريش ووصل المسلمون لمكة، فلا يجوز لهم القتال عند المسجد الحرام (منطقة الحرم). لكن لو أن قريشاً هاجمتهم في الحرم فلهم حق قتالها بل والقضاء عليها إن أمكن.

القاعدة الخامسة: في أي وقت تنتهي قريش عن قتال المسلمين فعلى المسلمين وقف الحرب.

«فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». القاعدة الأولى للقتال في سبيل الله عدم الاعتداء وبدء قريش أو غيرها بالحرب برغم أنها عذبت المسلمين واضطهدتهم واضطرتهم للهرب إلى يثرب. ومع ذلك فمتى ما أعلنت قريش وقف حربها على المسلمين وتأكد المسلمون من صدقها فعليهم وقف الحرب حالاً.

القاعدة السادسة: حرب قريش لمنعها من فتنة المسلمين في دينهم.

«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ».

فقريش تلاحق المسلمين وتحاربهم لتفتنهم في دينهم، كما فعلت بهم في مكة. فوجب قتالهم والقضاء عليهم – إن أمكن – لئلا يتمكنوا من المسلمين ويفتنوهم في دينهم.

القاعدة السابعة: متى انتهت قريش فيجب وقف الحرب.

«فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ».



هذه القاعدة تأكيد للقاعدة الأولى والقاعدة الخامسة، وتأكيد على أن قتال المسلمين لقريش لدفع أذاهم ولحماية المسلمين الذين تسعى قريش للقضاء عليهم وعلى دينهم. ومتى ما رغبوا في وقف العدوان فيجب على المسلمين التوقف.

القاعدة الثامنة: الحرمات قصاص

«الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

القتال في سبيل الله قصاص. يقاتل من يبدأنا بالقتال، لا نبدأ أحداً بالقتال. من حاربنا في الأشهر الحرم نحاربه فيها. لو نقضت قريش معاهدات أو أعرافاً فعلى المسلمين خرقها. ومن اعتدى علينا اعتدينا عليه. ونتقي الله ونخافه فلا نخالف أوامره ولا نخالف قواعد القتال المبينة في القرآن.

الخلاصة: القتال في سبيل الله ليس للتعدي ولكن لدفع العدوان وحماية الدين: «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ»، «فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ»، «فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ»، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ».

المسلمون لم يرحبوا بالقتال

وهو ما تشير له آيات أخرى في سورة البقرة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦).

القاعدة التاسعة: لو قاتلت قريش المسلمين في الشهر الحرام

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧).



قريش مصممة على ملاحقة المسلمين وحربهم حتى تردهم عن دينهم لو استطاعت.

القاعدة العاشرة: تحريم الزواج من العدو المحارب

وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١).

والتحريم موجه لمشركي قريش لأنهم محاربون للمسلمين، وليس لكفرهم. وهو ما ينطبق على أي حالة مماثلة.

وإذا كان هناك تزاوج مختلط مع غير المسلمين وحدث بينهم عداء فيجب التفريق بين الأزواج وإعادة المهر للزوج سواء كان المسلم أو الكافر، كما أخبرتنا الآيات: (١٠-١١) من سورة الممتحنة.

القاعدة الحادية عشر: الإنفاق لتجهيز الجيش والإعداد للحرب

هناك الكثير من الآيات التي تدعو المسلمين للإنفاق لتجهيز الجيش، وسنكتفي بآية واحدة تقول: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٩٥) البقرة.

الإنفاق هو علاقة بين العبد والعبد، مثلما أن العبادات علاقة بين العبد وربه. والإنفاق مطلوب في كل وقت يكون هناك حاجة في دولة الإسلام. والآية هنا تأمر المسلمين بالإنفاق في سبيل الله. أي في تجهيز جيش المسلمين لما ينتظره من حروب مع قريش. مما يحتم على المسلمين أن يكونوا مستعدين لها بالعتاد والسلاح والرجال، وهذا يحتاج للمال الذي يجب أن يغطيه الإنفاق من القادرين. والآية تحذر من لا ينفق وهو قادر، واصفة إياه بمن ألقى بنفسه للتهلكة لأن مصيره سيكون النار، ولو قام بكل أمور الدين الأخرى. فالدين لا يتجزأ وترك أمر مثل ترك كل الأوامر.

القاعدة الثانية عشر: عدم التعرض للمسالمين وقت الحروب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ



مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤) النساء.

هذه القاعدة ذكرت في القرآن قبل معركة بدر وقبل أن يدخل المسلمون في قتال مع العدو، فهي من القواعد الاستباقية.

وتقول بتحريم التعرض للمسالمين الذين لم يرفعوا السلاح على المسلمين ولو كانوا من أقارب المقاتلين. لأن الإسلام حربٌ على المحارب وسلم على المسالم. ولأن الإسلام لا يعاقب إنساناً بجريرة غيره، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وهذا فيه تأكيد بعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ وكل من لم يقاتل من عائلات المقاتلين وغيرهم. وهو ما ينفي نفياً قاطعاً أن يكون هناك سبي أو استرقاق في حروب دولة المسلمين زمن الرسول والخلفاء الأخيار بعده أبو بكر وعمر. وأن السبي أصبح سمة حروب المسلمين بعدما استولت قريش على حكم دولة المسلمين زمن بني أمية والعباس.

القاعدة الثالثة عشر: في حال الحرب يجب على كل مسلم النصرة في أي مكان كان

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً(٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً(٩٨) فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً(٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٠٠) النساء.

الآيات تتحدث عن بعض المسلمين الذين بقوا في مكة ولم يهاجروا، وتحثهم على الهجرة لأن المسلمين مقبلون على حرب ويحتاجون لكل فرد مسلم للمشاركة لصد العدوان.

ويستفاد من هذا أنه في حال الحرب فيجب على كل مسلم يعيش في بلاد العدو أو في بلاد أخرى المشاركة في الحرب مع المسلمين، ولا يعذر المتخلف.

وفي هذا العصر يمكن المشاركة بطرق شتى منها المشاركة اللوجستية والتقنية والتسليح بالإضافة للمشاركة الفعلية في القتال.



القاعدة الرابعة عشر: لا يجوز التعدي والظلم ولو على من ظلمنا وتعدى علينا

تقول سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

تحذير شديد للمسلمين من أن يحلوا ما له علاقة بحرمة بيت الله ولو كان لمعاقبة قريش التي اعتدت عليهم وبدأتهم بالعدوان. سواء بقطع الطريق على المتجهين للحج «آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً». أو الاستيلاء على الهدي، لمن هو في طريقه للحج. والهدي كان في زمن الرسول يسوقه الحاج من خارج مكة معه وهو قادم للحج.

وكون قريش منعتكم من المسجد الحرام واعتدت عليكم وظلمتكم، وكراهيتكم الشديدة لهم ليس مبرراً للتعدي.

وتعود السورة لتأكيد أن التعرض للظلم ليس مبرراً للظلم، ولو كان ظلم الظالم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٠).

فإن كان الهدي والقلائد ممنوعاً التعرض لها ولو كانت لقريش، فمن باب أولى تحريم التعرض لقوافل قريش التجارية وأموالها. وهو ما يدحض كل مزاعم كتب التراث أن المسلمين تربصوا بقافلة لقريش للاستيلاء عليها فتسبب ذلك بمعركة بدر.

القاعدة الخامسة عشر: متى يفضل قتل الأعداء على أسرهم والعكس

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

قريش كانت تتفوق على المسلمين (مهاجرين وأنصار) في العدد، وفي العتاد لأنها تملك



الأموال. والآية تقول إذا ما حدثت المعركة المرتقبة فيجب على المسلمين التركيز على قتل أكبر عدد منهم لإثخانهم (إضعافهم) حتى لا يحاربوا المسلمين مرة أخرى. ولا يلجا المسلمون للأسر إلا إذا أنهك العدو وقلت أعداده. في هذه الحالة يفضل الأسر على القتل. وتعطي الآية سبب ذلك: « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء". ولو من المسلمين على الأسرى وأطلقوا سراحهم فسيكون هذا دعاية إعلامية لحسن تعامل المسلمين يؤلف القلوب عليهم. وإن كان المسلمون في وضع اقتصادي حرج فيمكنهم أخذ فدية مقابل إطلاق الأسرى.

القاعدة السادسة عشر: على المسلمين نصرة أنفسهم لينصرهم الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧) محمد.

الله جل وعلا لا يتدخل في أمور الدنيا بشكل مباشر، وقد خلق الكون وما فيه بموجب قوانين ثابتة لن تتغير. وعلى المسلمين الأخذ بكل أسباب النصر، ولو فعلوا فقد نصروا الله. ولو نصروا الله فسينصرهم الله في الحرب بسواعدهم وخططهم وتجهيزاتهم وتصنيع أسلحتهم. ولا يكون النصر بالدعاء وحده كما شاع بين الناس.

ويمكن الرجوع للآيات: (١٦-٣٨) من سورة محمد للتعرف على أحوال المسلمين ومواقفهم المتراخية من الحرب ضد قريش والتي تدل على عكس ما صورته كتب التراث من أنهم كانوا تواقين للحرب.

القاعدة السابعة عشر: النصر يكون بالإخلاص والاستبسال وليس بكثرة العدد

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ(٤) محمد.

البنيان المرصوص تعبير مجازي لوصف ما يجب أن يكون عليه حال الجيش المسلم، ليس فيه ثغرات ولا ضعف وكأنه قالب واحد. وهذا يتطلب أن يكون المسلمون مؤمنين بقضيتهم ومسلحين ومتدربين كما يجب ولديهم تصور واضح عن عدوهم. ولديهم الإخلاص والعزيمة الكاملة بعقيدتهم.

القاعدة الثامنة عشر: الاستمرار بدعوة العدو المحارب للتعايش السلمي ونبذ الحرب

بعد أول معركة للمسلمين ضد قريش والتي انتصر فيها المسلمون وكسروا شوكة قريش، تنزل سورة الأنفال لتقول: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ



مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ(٣٨).

دعوة صريحة لنبذ الحرب وإنهاء العداء.

القاعدة التاسعة عشر: إذا لم يقبل العدو التعايش السلمي وأصر على العداء والحرب فعلى المسلمين قتالهم بقسوة لاستئصال مصدر الخطر.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣٩) الأنفال.

الآية: (٣٨) تعرض التعايش السلمي، وإنهاء الحرب والعداء ولكل فريق دينه ومعتقده.

الآية: (٣٩) إن لم يقبلوا بالسلم فيجب سحقهم لأن وجودهم المعادي سيشكل خطراً دائماً على الإسلام لأنهم سيسعون باستمرار على محاولة استئصاله. فليقض عليهم قبل أن يقضوا على الإسلام.

وفي أي وقت يعلنون أنهم مع السلم فيجب وقف الحرب عليهم وقبول التعايش السلمي معهم: «فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

القاعدة العشرون: خيانة معاهدة سلام مع المسلمين إعلانٌ للحرب عليهم

تقول سورة الأنفال عن قريش: الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ(٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٥٧).

فقريش — كما تظهر الآية — خانوا معاهدة مع المسلمين.

ومن يخون المعاهدة مع المسلمين فيجب قتالهم بكل قسوة لأنهم لن يستجيبوا للسلام والتعايش السلمي وسيبقون خطراً يهدد المسلمين.

القاعدة الحادية والعشرون: على المسلمين الاتصال بكل من يحدث نفسه بخيانة معاهداته مع المسلمين

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ(٥٨) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ(٥٩) الأنفال.

يجب على المسلمين التواصل مع من وقع معاهدة سلام من الأعداء لو بدر منهم ما يشير إلى



أنهم قد يخونون المعاهدة، لتحذيرهم من أن خيانة المعاهدة يعني إعلان الحرب. ولو أعلنت الحرب فستكون حرباً قاسية بلا هوادة.

القاعدة الثانية والعشرون: وجوب تجهيز الجيش المسلم بأحدث وأقوى الأسلحة وتصنيعها محلياً وأن يكون الجيش جاهزاً على الدوام

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٦٠) الأنفال.

لإرهاب كل عدو تسول له نفسه إعلان الحرب على المسلمين. فجاهزية الجيش للدفاع وحرب المعتدي وليست للاعتداء.

القاعدة الثالثة والعشرون: يجب إظهار أن المسلمين على استعداد للتعايش السلمي على الدوام

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦١) الأنفال.

القاعدة الرابعة والعشرون: الحذر من العدو واليقظة الدائمة

وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢) الأنفال.

فتوقيع معاهدات السلام مع العدو لا يعني التخلي عن التسليح والحذر. وليكن شعار المسلمين الدائم: جيش جاهز ودعوة سلام.

القاعدة الخامسة والعشرون: عندما يتعرض المسلمون لاعتداء فتفوق العدو لا يعني الاستسلام ولا يعفي من المواجهة

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ(٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٦٦) الأنفال.



متى تعرضوا لهجوم أو أجبروا على دخول قتال في أي وقت فعليهم الإقدام، دون اعتبار لكثرة العدو أو تفوقه عتاداً. لأن هذه العوامل لا يجب اعتبارها مبرراً لطلب الصلح مع عدو مهاجم أو التراجع عن القتال.

القاعدة السادسة والعشرون: كل من يعيش من المسلمين في دولة معادية فليس له حقوق على دولة المسلمين، لكن متى استنصرهم وجبت نصرته

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢) الأنفال.

الآية تتحدث عن بعض المسلمين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة، برغم أن أهلها أعداء محاربون للمسلمين.

ويفهم من الآية أنه لو استنصر أحد المسلمين الذين يعيشون في بلاد معادية دولة الإسلام لوجب نصره ولو أدى لقيام حرب مع تلك البلاد من أجل مسلم واحد.

القاعدة السابعة والعشرون: المسلم (من ذكر وأنثى) هو من يؤمن ويهاجر (من بلاد العدو المحارب) ويجاهد في سبيل الله بالمال والنفس وكل ما يستطيع

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٧٤) الأنفال.

القاعدة الثامنة والعشرون: كل من يهاجر من بلاد العدو المحارب هرباً بدينه فعلى المسلمين إيواؤه ونصرته

وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧٥) الأنفال.



القاعدة التاسعة والعشرون: المال مال الله وعلى الناس إنفاق ما يكفي منه لتجهيز الجيش

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ(٧) الحديد.

القاعدة الثلاثون: الإنفاق بما يكفي لتسليح الجيش

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٠) الحديد.

وهذا يعني وجوب تسليح الجيش وتجهيزه على الدوام.

القاعدة الواحدة والثلاثون: الإنفاق قرض لله

مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٢) الحديد.

القاعدة الثانية والثلاثون: الإنفاق على تسليح الجيش واجب مهما كانت الظروف الاقتصادية سيئة

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٧) الحديد.

سورة الحديد تتحدث عن قحط أصاب المدينة وتسبب في امتناع كثير من الناس خشية إملاق، فجاءت الآيات لتقول لهم إن تقهقر الظروف الاقتصادية ليس سبباً كافياً للامتناع عن الإنفاق على الجيش.

القاعدة الثالثة والثلاثون: لا للاعتماد على الغير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩) الحديد.



كان أهل الكتاب يعرضون على المسلمين أن يقرضوهم المال مقابل فوائد ربوية لكي يجهزوا أنفسهم للقتال، فنزلت الآيات تقول لهم ان عليهم أن يتكافلوا فيما بينهم ولا يعتمدوا على غيرهم في بناء قواهم الاقتصادية وتسليح جيوشهم وبناهم التحتية.

القاعدة الرابعة والثلاثون: وجوب الصبر والاستعداد والتجهيز والتخطيط

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٤٨) آل عمران.

الضعف والتخاذل وعدم الصبر عوامل تؤدي للهزيمة. وعكسها يؤدي للانتصار مع التخطيط والتجهيز والتصنيع وكل أسباب النصر الأخرى، ثم يأتي دور الدعاء لكي يكلل الله جهودنا بالنجاح ويلهمنا الصواب.

القاعدة الخامسة والثلاثون: لا يجوز الهروب من المعركة

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٥٥) آل عمران.

هرب بعض المسلمين في أحد والآية تلومهم وتبين أن الله عفا عنهم، وفي نفس الوقت تحرم الهرب من أرض المعركة.

القاعدة السادسة والثلاثون: الصبر وعدم الخوف من القتال

الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧٥) آل عمران.

يتقبلون الهزيمة بالصبر ولم يرتعبوا من المعركة وسيواصلون الجهاد في سبيل الله.



القاعدة السابعة والثلاثون: كل من يحجم عن الإنفاق فهو في النار

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠) آل عمران.

القاعدة السابعة والثلاثون: المطاردة والحصار والتقتيل لكل من يخون المسلمين

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.

قريش خانت معاهدة الفتح مع المسلمين، فجاءت براءة تعطيهم مهلة للتراجع، ومن لا يتراجع فيلاحق ويحاصر ويقتل في أي مكان وجد.

القاعدة الثامنة والثلاثون: عدم التعرض لمن لم يخن المسلمين

إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

هذه الآية تحذر من المساس بأي قرشي مشرك لم يخن المعاهدة. فالحرب لمن بدأ حرب المسلمين، وليس بسبب الكفر. فالكافر المسالم تضمن له دولة الإسلام العيش بسلام.

القاعدة التاسعة والثلاثون: المشرك المحارب للمسلمين لو استجار بالمسلمين يجار

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ(٦) براءة.

برغم أن قريشاً بدأت حرب المسلمين وخانت المعاهدات معهم تأتي هذه الآية لتقول إن المستجير منهم يجار ويسمعه المسلمون كلام الله، فإن أسلم فهو منهم. وإن بقي على كفره فلا يسلم لقومه خوفاً على سلامته، ولكن يتم توصيله لمكان آمن لا تستطيع قريش الوصول إليه.



القاعدة الأربعون: قتال المعتدي والخائن يجب أن يكون قاسياً

وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ(١٢) أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣) براءة.

فسحقه مطلب أمني للمسلمين لأن بقاءه خطر يهددهم على الدوام.

وهناك عقوبات خاصة في زمن رسول الله موجهة لأناس بعينهم، ومن ذلك:

- **فرض جزية على قبيلة من أهل الكتاب في يثرب مقابل كيدهم للمسلمين**

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

والآية تتحدث عن قبيلة من أهل الكتاب الذين تعاونوا مع الأحزاب الثانية في حنين، وتفرض عليهم جزية كتعويض للمسلمين على كيدهم وتعاونهم مع الأعداء. فالجزية خاصة بهم، لكن المفسرين أولوها لتشمل كل أهل الكتاب في كل مكان. وهذا ما يكذبه الواقع، فالمسلمون زمن الرسول لم يتعرضوا لأهل الكتاب في تيماء ووادي القرى واليمن وغيرها. وستخبرنا سورة الحشر أن هذه الرسالة وصلت للقبيلة المعنية، فبادروا بلقاء الرسول حال وصوله المدينة وعرضوا عليه الجلاء مقابل عدم التعرض لهم وعوضاً عن الجزية.

- **جهاد المنافقين في يثرب**

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(٧٤) براءة.

والآيات تفرض قانوناً للتعامل مع المنافقين في مجتمع دولة الإسلام ينص: على جهادهم بكل وسيلة، فإن ثابوا وإلا يغلظ لهم التعامل حتى تختفي أصواتهم ونشاطاتهم. فلا مكان لهم في المجتمع المسلم. والمنافق هو كل من قام بعمل فيه حرب للإسلام أو إفساد للمجتمع



أو كان موالياً للكفار المعادين للإسلام، ولو صلى وقام بالعبادات وأظهر الإسلام.

- **قتال القبائل**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣) براءة.

والكفار هنا المقصود بهم الذين اعتدوا على المسلمين فعلياً بالاشتراك في حملة الأحزاب أو حنين أو أحد، وهم من القبائل المحيطة بالمدينة وبالقرب من مكة الذين بدأوا قتال المسلمين نصرة لقريش. والأمر بقتالهم يمثل بداية ما عرف في كتب التراث بغزوات الرسول، وهي تختلف من حيث الهدف والعدد عن حقيقة ما قام به الرسول. فالرسول وجه سراياه وجيوشه لقتال القبائل التي ثبت تورطها في مناصرة أعداء المسلمين والمشاركة معهم في القتال، سواء في الأحزاب الأولى أو الثانية. والهدف من قتالهم هو معاقبتهم على عدوانهم، وكسر شوكتهم وإضعافهم لئلا يعيدوا الكرة ويقاتلوا المسلمين مرة أخرى.
وقد استكانوا وأعلنوا الدخول تحت طاعة دولة المسلمين في أواخر أيام الرسول، وما إن توفي رسول الله حتى ثاروا على المسلمين وكادت ثورتهم تعصف بالإسلام وأهله، لولا حزم المسلمين وصد تعدياتهم وملاحقتهم والقضاء على شوكة بها عرف بحروب الردة.

الصلاة

معنى الصلاة في القرآن، يأتي على معنيين:

١. الصلاة المعروفة من قيام وركوع وسجود، وقد كانت فرضاً في الأديان السابقة ومن شواهد ذلك:

فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) آل عمران.

والآية تتحدث عن زكريا، وقد كان يؤدي الصلاة المعروفة.

ومن ذلك ما ورد في سورة الأنبياء أثناء الحديث عن إبراهيم، وتكمل قائلة: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ(٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ(٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ



وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ(٧٣).

ومثله ما ورد في سورة يونس: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٨٧).

٢. الصلاة بمعنى أسمى التحيات

إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(٥٦) الأحزاب.

فالله وملائكته يصلون (يحيون ويسلمون على النبي)، والآية تأمر المسلمين في عصر الرسول أن يحيوا ويسلموا على النبي أيضاً.

وهذا المعنى للصلاة هو نفس المعنى في قولنا أثناء جلوس التشهد في الصلاة: «التحيات لله والصلوات الطيبات». فالمسلم يبدأ جلوس التشهد بإهداء أسمى أنواع التحية إلى الله جل وعلا.

وتقول سورة براءة ضمن حديثها عن فئة من المسلمين: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣) براءة

والآية (١٠٣) توجه الرسول بأن يقبل صدقاتهم ويحييهم بتحيات جيدة على التزامهم بالقيام بواجب الصدقة، وتسعدهم.

ولا ترد الصلاة بمعنى الدعاء في القرآن أبداً، كما أنها لا ترد في القرآن بمعنى آخر غير الصلاة العادية والتحية السامية.

هل تأتي الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء؟

المعاجم اللغوية تقول إن الصلاة قد تأتي بمعنى الدعاء، وقد أورد صاحب لسان العرب دليلاً على ذلك ببيت شعر ينسب للأعشى، وهو:

وصَهْباءَ طافَ يَهودِيُّها **** وأَبْرَزَها وعليها خَتَمْ

وقابَلَها الرِّيحُ في دَنِّها **** وصلى على دَنِّها وارْتَسَمْ



والشاعر يقول إن اليهودي قد صلى لخمره ألا تحمض وتفسد.

وهناك بعض الأحاديث المنسوبة للرسول تذكر فيها الصلاة بمعنى الدعاء أو هكذا تأولوها. والأحاديث لن نعتد بها، كما أن ورود الصلاة في المعاجم بمعنى الدعاء فيه لبس، سنوضحه فيما يلي:

فدولة المسلمين بعد الفتوح كان غالبية سكانها ذوي أصول مسيحية، والمسيحيون في كنائسهم، يقومون بتلاوة بعض النصوص، فيما يسمى بالقداس. وبما أن المسلمين يؤدون صلواتهم في المسجد، فقد قوبلت صلاة المسلمين بقداس المسيحيين. والتي تعني التوسل والتضرع والدعاء، وهو ما يقوم به المسيحيون في كنائسهم وهم جلوس على الكراسي. فجاء وصف قداس المسيحيين بالصلاة، مقابل صلاة المسلمين في المساجد. ومن هنا جاء القول بأن الصلاة من معانيها الابتهال والتضرع والدعاء. وبما أن المعاجم اللغوية تأخر ظهورها كثيراً (القرن السادس الهجري)، فقد ظهر فيها هذا المعنى للصلاة.

وبناءً على ما تقدم، فعلى المسلمين وقف ترجمة الصلاة إلى "Prayer" التي تعني قداس المسيحيين، لأن الصلاة هيئة فريدة لتمجيد ذات الله، وليست أدعية وترانيم. وكتابة الصلاة في اللغات الأجنبية يجب أن تكون كما تنطق بالعربية Salat ثم وضع تعريف دقيق مختصر لها، بحيث تدخل القواميس الأجنبية كاسم علم بهذه الصيغة وتحمل معنى الصلاة عند المسلمين، البعيدة عن ابتهالات المسيحيين وترانيمهم. وفي المقابل يجب ألا نترجم ترانيم المسيحيين أو أي ترانيم أخرى لأي عبادة على أنها «صلاة»، بل تترجم إلى ترانيم أو شيء من هذا القبيل.

والخلاصة أن الصلاة تأتي في القرآن الكريم على معنيين اثنين لا ثالث لهما:

١. الصلاة المعروفة.

٢. أسمى التحيات.

وليس هناك معنى آخر للصلاة في القرآن.

هيئة الصلاة

الصلاة بهيئتها الحالية وما يقال فيها لا يمكن أن يكون رسول الله، أو أحد من البشر قد ابتدعها، لأنها تصل لدرجة الكمال في توافق كل وضع وهيئة مع ما يقال فيها. ومنذ



الدخول في الصلاة وحتى ختامها، فهي عبارة عن أقوال وأفعال مقصورة على تمجيد ذات الله وحده، فيما عدا ما يقال في جلوس التشهد، لأنه جلوس يمهد لختام الصلاة والخروج منها، وسنتطرق له لاحقاً.

الدخول في الصلاة

والدخول في الصلاة يتم عبر التلفظ بعبارة «الله أكبر» والتي تذكر الإنسان بأن الله أكبر – قدرة وعظمة وليس حجماً – من أي شيء يمكن للإنسان تصوره. والتلفظ «بالله أكبر» أيضاً يُكرر في كل مرة ينتقل فيها المصلي من وضع لآخر.

والله أكبر تترجم للغات الأجنبية وكأنها تعني «الله الأكبر» "Allah is the greatest" وهذه الترجمة لا تليق بذات الله جل وعلا لأننا لو قلنا إنه سبحانه الأعظم أو الأكبر فنحن نضع نسبة مقارنة بينه وبين غيره. فهو الأكبر لكنّ هناك من هو كبير وإن كان أقل من الله، والله جل وعلا ليس بينه وبين خلقه نسبة مهما صغرت.

وعلينا أن نغير هذه الترجمة لتعطي معنىً يقول: «الله أكبر من كل شيء، وهو أكبر من مقارنته بغيره". ولا أدري هل يمكن أن نقول هنا: "Allah is greater" لتعني أنه سبحانه أكبر من أي شيء وبدون مقارنة، وإلا يجب اختيار عبارة تعني أن الله أكبر من أي شيء مع ضمان انتفاء العبارة من نسبة مقارنة. وأفضل من ذلك هو أن تكتب العبارة باللغات الأجنبية بحروف أجنبية وبنفس نطق: «الله أكبر» كأن تكتب في الإنجليزية بهذه الصورة: "Allah-u-Akbar" ثم يشرح معناها باللغة الأجنبية. وهذا ما يجب أن يتم في كل المصطلحات الإسلامية في القرآن عند ترجمتها للغات الأجنبية، لأنها أسماء علم ويجب أن تكب في كل اللغات كما تنطق ويوضع لها تعريف في القواميس الأجنبية.

الوقوف

بعد الدخول في الصلاة يتلو المصلي سورة الفاتحة، والتي لا مثيل لها في كل سور القرآن، فهي عبارة عن تمجيد لذات الله وتسبيح له مع طلب العون منه والهداية. لذا فالصلاة لا تقوم إلا بالفاتحة، وتقوم الصلاة لو اكتفينا بالفاتحة فقط.

وبما أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد صلى من أول يوم بعث فيه، ولم يكن نزل عليه سوى سورة الفاتحة، فإن بالإمكان القول إن الصلاة تقوم على تلاوة الفاتحة (التي تمثل



سورة تمجيد ذات الله، والذي يعتبر أساس الصلاة الذي تقوم عليه). وبما أن الصلاة تجوز بالفاتحة وحدها - وهو ما يقر به كل أتباع المذاهب المختلفة — فيمكن القول إن تلاوة آيات أو سور من القرآن غير الفاتحة في الصلاة دخل على الصلاة بعد الرسول. فالصلاة تقوم على الخشوع وتمجيد ذات الله جل وعلا، وليس على الإطالة والترانيم الصوتية في التلاوة. كما أن تلاوة القرآن ممكنة في أي وقت خارج الصلاة، ولا حاجة لأن يقرأ الإمام بسور وآيات لا علاقة لها بالصلاة، كقوله تعالى: «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد». ومن يرغب في التعبد بتلاوة القرآن فيمكنه ذلك في أي وقت خارج الصلاة.

ويمكن القول أيضاً إن على الإمام في الصلوات الجهرية أن يقرأ الفاتحة آية آية بهدوء وتؤدة مع فترة زمنية بين كل آية وأخرى تتيح للمأمومين تكرار ما يتلفظ به الإمام. لكي يتمكن الإمام والمأموم من تلاوة الفاتحة في وقتها.

والصلاة لا تتم بدون تلاوة الفاتحة، ولا عبرة بأقوال بعض أتباع الموروث التي يمارسها الناس اليوم. والتي تتيح للمأموم أن يقرأ الفاتحة أثناء تلاوة الإمام سورة أخرى، أو عدم قراءة الفاتحة في الركعات الجهرية. بأقوال مختلفة متخالفة كعادتهم. فمن يعتقد بوجوب قراءة الفاتحة للمأموم يجيز للمأموم قراءة الفاتحة أثناء تلاوة الإمام بعد الفاتحة. ومن يجيز للمأموم عدم قراءة الفاتحة في الركعات الجهرية فهو يعتبر قراءة الفاتحة له وللمأمومين.

وهذا فهم خاطئ، لأن كل مسلم مطالب بالصلاة كغيره، والإمام لا يمكن أن ينوب عن المأموم بقراءة أو بغيرها من أعمال الصلاة[1]. وكل ما يطلب من الإمام يطلب من المأموم. لذا فلكي نوفق بين تمكن الإمام من تلاوة الفاتحة مع تمكن المأموم كذلك، لابد أن يقرأ الإمام الفاتحة آية ثم ينتظر لبعض الوقت لكي يتمكن المأموم من أن يأتم بالإمام وتلاوة ما يتلو. فيقول الإمام: بسم الله الرحمن الرحيم، ويصمت لبعض الوقت ليتيح الفرصة للمأمومين لتلاوة البسملة. ثم يقول: الحمد لله رب العالمين، ويصمت لبعض الوقت لكي يتمكن المأمومين من تلاوتها بأنفسهم. ويكون الإمام قرأ الفاتحة المطلوبة في الصلاة وقرأها أيضاً المأموم.

---

١ والحديث المنسوب للرسول والذي يقول: إنما جعل الإمام ليؤتم به، حتى لو افترض أن الرسول قاله فهو لا يعني أكثر من أن يتبع المأموم الإمام، لكنه لا يلغي وجوب قراءة الفاتحة للمأموم.



ولابد أن الرسول فعل ذلك، وتعلم منه المصلون الجدد كيف يتلون الفاتحة. ولم يكن هناك ترتيل لآيات أو سور في الصلاة ولا تنميق للصوت ولا مقامات غنائية للتلاوة.

الركوع

بعد الوقوف يقول الإمام: «الله أكبر» وينحني في وضعية الركوع ويقول: سبحان ربي العظيم. وينحو المأمومون نحوه، ويقولون قوله. وانحناء المصلي في الركوع لإبداء الخضوع التام لله بينما يسبح عظمته، ويتفكر بتلك العظمة التي لا تضاهى. ويكفي أن يقول المصلي: «سبحان ربي العظيم» مرة واحدة، فالمهم أن يستحضر ما يقول، ويقوله بخشوع. أما ترديدها عدة مرات دون خشوع، فلن يفيد.

النهوض من الركوع

والانتقال من الركوع للقيام لا يقال فيها: «الله أكبر» ولكن يقال: سمع الله لمن حمده. وهذه العبارة ليست حكراً على الإمام، بل يجب على المأموم قولها، لأنها تقرر حقيقة أن كل من حمد الله فإن حمده يصل إليه سبحانه. المتبع الآن أن يكتفي المأموم بحمد الله، ولا يقول: سمع الله لمن حمده.

السجود

يضع المصلي رمز أنفته (الأنف والجبهة) على الأرض معترفاً بذلته ومسبحاً علو ربه، من التعالي والعظمة، وليس من العلو والارتفاع. ويقول الساجد: «سبحان ربي الأعلى»، مرة واحدة.

وهناك فاصل بين السجدتين ليس له أقوال، ولكنه وجد ليفصل بين السجدتين، ففي كل ركعة في الصلاة هناك سجودان.

جلوس التشهد أو جلوس التحيات

وهو يتبع كل ركعتين في الصلاة، وذلك لإنهاء أقوال وأفعال تلك الركعتين، ومن ثم الشروع بركعة أو ركعتين أخريين، أو يكون الجلوس لإنهاء الركعتين والصلاة كلها إن كانت الفجر.



وذلك الجلوس الذي تنتهي فيه أعمال الركعتين والصلاة اصطلح على تسميته جلوس التشهد أو جلوس التحيات، وهذا التعريف يدل على مضمون ما يقال فيه. فهو جلوس تشهد لأن الصلاة تنتهي بقول: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وهو جلوس التحيات، لأن الصلاة تختم بإلقاء التحيات.

وفي هذا الجلوس يتلفظ المصلي بأقوال مناسبة لإنهاء الصلاة: حيث يبدأ بتحية الله جل وعلا، قائلاً: « التحيات لله والصلوات الطيبات لله »، والصلوات هنا - كما هو واضح - تعني أسمى أنواع التحيات. يلي ذلك تحية الرسول عليه الصلاة والسلام: «السلام على النبي ورحمة الله وبركاته ». ثم تحية المصلي وبقية المسلمين: « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ». بعد ذلك يأتي ختام المسك للصلاة، بأن يقر المصلي بالشهادة بألا إله إلا الله سبحانه: «أشهد ألا إله إلا الله»، يلي ذلك الإقرار والشهادة بأن محمداً – بالاسم - ما هو إلا عبد لله مكلف بالرسالة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». حتى يتذكر الناس على الدوام بألا ينسب للرسول دور أكبر من كونه عبداً لله أولاً كلف بالرسالة وليس شريكاً له سبحانه في وحدانية أو ربوبية أو ألوهية، أو قريباً من ذلك. بعد ذلك لن يتبقى للمصلي سوى الالتفات يميناً وإلقاء السلام، إيذاناً بالخروج من الصلاة: السلام عليكم ورحمة الله، دون أن يكون هناك مجال لقول أكثر مما قيل، لأن الأقوال ختمت. وما زاد عن ذلك فليس من أقوال الصلاة، مثل قول» اللهم صل على محمد وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد» والتي تطفح بالتشيع الذي ابتدع بعد وفاة الرسول وظهور الفتن. ومثل قول: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، ومثل أقوال وادعية كثيرة غيرها. وكلها ليست من الصلاة ولا مطلوبة فيها ولا تضيف للصلاة بل تنقص منها، لأن الصلاة لتمجيد الله وليست للدعاء أو تمجيد أناس من الناس.

وتكون الصلاة من أولها وحتى ختامها أقوالاً تتناسب مع الأوضاع التي تقال فيها، فلا يمكن أن يقال سبحان ربي الأعلى في الركوع، مثلاً، لأن سبحان ربي الأعلى تتناسب مع وضع السجود الذي يقر فيه المصلي بسمو الله وحقارته هو. وهكذا بقية الأقوال في الصلاة.

الركعة التامة

الصلاة تتكون من أربع ركعات أو ثلاث أو ركعتين، والركعة التامة هي التي يقرأ فيها



المصلي الفاتحة في الوقوف، ويكمل كل أعمال الصلاة وأقوالها كاملة. ومن أنقص عملاً كأحدى السجدات، أو أنقص قولاً كقول ربي العظيم في الركوع فهو لم يصل. ولا ينوب الإمام عن المأموم في أقوال الصلاة وأعمالها، مع تجاهل ما تقول كتب التراث، التي تقول إن المأموم لو لم يقرأ الفاتحة في الصلاة الجهرية فلا شيء عليه لأن قراءة الإمام كافية. وهذه الأقوال بلا دليل، وتخالف تمام الصلاة، وتخالف حقيقة أن كل مسلم مطالب بكل ما يطالب به غيره دون زيادة أو نقصان، ولا ينوب أحد عن أحد في الطاعات.

ومن دخل الصلاة والإمام في الركوع فقد فاتته الركعة لأنه لم يتمكن من الوقوف وتلاوة الفاتحة، التي هي جزء أساسي في الصلاة. وهو بخلاف ما يعمل به كثير من المسلمين اليوم، وبناءً على تشريعات كتب التراث، التي تقول إن من أدرك الركوع فقد أدرك الركعة.

فكيف يدرك الركعة وأهم ما فيها الفاتحة قد فاتته؟

لذا على المصلي الدخول بهدوء وخشوع للمسجد فما أدركه من الصلاة مع الإمام فليصله وما فاته فليقضه. ومن دخل مع الإمام في الركوع أو حتى في القيام ولكنه لم يتمكن من تلاوة الفاتحة فقد فاتته الركعة وعليه قضاؤها.

هل هذه هي هيئة الصلاة التي صلاها الرسول؟

لو كان للصلاة هيئة أخرى لوجدنا من يصلي تلك الهيئة المختلفة. والصلاة الحالية اتفق المسلمون جميعا بكل فرقهم ومذاهبهم على تأديتها بهيئتها، إذا ما استثنينا الشكليات. وهيئة الصلاة تعتبر الإجماع الوحيد الذي اجتمع المسلمون عليه، مما يدل على أنها هي نفس الهيئة التي كان الرسول يؤديها وأداها المسلمون في عصره. والمقصود بهيئة الصلاة الموحدة هي أن هناك وقوفاً (بغض النظر أين يضع المصلي يديه)، وركوعاً يلي الوقوف، ثم قياماً يلي الركوع، ثم سجوداً، ثم جلوساً ثم سجوداً ... وهكذا إلى أن نصل لجلوس التشهد وننهي الصلاة). وكل ما قيل عن وضع اليدين وتحريك الإصبع (السبابة) في جلوس التشهد، أو سجود الشيعة على حجر، فهو مما وجد في عصور لاحقة، والدليل اختلاف الأقوال فيها. مثله مثل الإضافات كالدعاء أثناء السجود أو قول: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم...الخ، مع أن الرسول ليس له آل. وغير ذلك من أقوال تقال في الصلاة ليست منها.



وبما أنه لا وجود لصلاة بهيئة أخرى فيمكن الجزم أن هذه الهيئة هي صلاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي عصور الفتن والظلام (العصر العباسي) وجد من يقول إن الصلاة مجرد أدعية ولا حاجة لسجود وركوع، وما زالت هذه العقيدة موجودة عند بعض الفرق المنحرفة، ويرددها بعض مثقفي الإنترنت الجدد.

ويمكن أن يقال لكل من يتساءل إن كانت هذه هي الصلاة التي صلاها الرسول أم لا، إن المُشكِك لا يستطيع أن يأتي بهيئة أخرى. مما يعني أنه لا خلاف في هيئة الصلاة، ولو كان هناك خلاف فسيكون هناك احتمال أن هيئتها الحالية ليست هي التي كانت زمن رسول الله.

فكل ما اختلف عليه المسلمون من المسائل الفقهية، كان لوجود آراء وأقوال متضاربة حول مسألة واحدة، إلا الصلاة فلا وجود لرأي مخالف. ولا عبرة لأقوال متناثرة لا تستحق الذكر.

ثم إن كل من يقول بصلاة مخالفة ليس لديه دليل سوى كلامه هو أو كلام شخص آخر. ومن الحمق ترك صلاة توارثها الناس عملياً لأقوال شخصية قد تتغير في آخر النهار.

وقد ذكرت عناصر الصلاة المعروفة متفرقة في القرآن (من قيام وركوع وسجود) بشكل عرضي، وتوارث الكافة ترتيب هذه العناصر عن الرسول وتوارثه منهم الكافة عبر العصور.

كيف وصلتنا الصلاة؟

أتباع الموروث الذين معرفتهم بموروثهم ليست عميقة، يسارعون بالقول لكل من ينفي علاقة «الحديث» بدين الله: لولا الحديث لما عرفنا أن نصلي.

ولو بحثوا في كتب الحديث، لن يجدوا حديثاً يقول لنا: أن نقوم ونقرأ الفاتحة، ثم نركع ونقول «سبحان ربي العظيم»، ثم نرفع ونقول «سمع الله لمن حمده»، ثم نسجد ونقول «سبحان ربي الأعلى»... الى آخر أعمال الصلاة.

ولن نجد حديثاً يقول: صلاة الفجر ركعتان والمغرب ثلاث والعشاء أربع ... الخ.

ومن أشهر الأحاديث التي يرددها أهل الحديث هو حديث مالك ابن الحويرث والذي



يقول فيه إن الرسول قال له: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

والحديث عبارة عن خبر يرويه مالك ابن الحويرث عن ذهابه للمدينة برفقة وفد من قبيلته (في عام الوفود وهو العام الذي توفي فيه رسول الله) وبقوا هناك عشرين يوماً ولما عزموا الرجوع لأهلهم ودعهم الرسول وأوصاهم بتعليم أهلهم الدين والحرص على مواصلة تأدية الصلاة بهيئتها التي رأوا الرسول يصليها وصلوها معه طوال العشرين يوماً.

ولم يقل لهم قوموا واركعوا واجلسوا وسلموا بل قال: كما رأيتموني أصلي.

فتعلم الصلاة كان عملياً ولم يكن نظرياً.

وهذا الحديث يردده أتباع الحديث للرد على من يقول إن هيئة الصلاة لم ترد في الحديث وغفلوا – كعادتهم – أنه حجة عليهم لأنه برهان قاطع على أن الصلاة تعلمها الناس بدروس عملية وليس بحديث قولي. وكان الناس يصلون منذ بعث رسول الله عندما قدم مالك ابن الحويرث للقاء الرسول.

فالخبر تأكيد على أنها انتقلت بتواتر عملي من كل المسلمين جيلا بعد آخر. ولم نُصلِ لأن مالك ابن الحويرث أو غيره قال له الرسول في آخر حياته صلوا كما رأيتموني أصلي. أو لأن الترمذي أو النسائي بعد (٣٠٠) سنة من زمن الرسول روى لنا عن مجاهد أو شعبة أو ابن جريج أو الزهري أو كعب أو عبد الله ابن سلام أنهم رأوا الرسول يصلي الفجر ركعتين.

فالرسول صلى من اليوم الأول للبعثة، وكل من دخل الإسلام تعلم الصلاة من الرسول عملياً، واستمر الناس يتعلمون أداء الصلاة عملياً جيلاً بعد آخر، وكابراً عن كابر.

من علم الرسول الصلاة ومتى؟

لن نجد في القرآن آية تبين أن الرسول تعلم الصلاة، لكن كتاب الله يخبرنا أن الرسول قد رأى الملك المكلف بنقل الوحي، مرتين في حياته. وكلاهما في بداية البعثة، بل وفي الأيام الأولى التي بعث فيها محمد. وإذا كان الوحي لا يتلقاه الرسول مشافهة وتلقيناً[١]، ولكن نصوص الوحي تحفر في ذاكرة الرسول دون الحاجة لرؤية الملك أو الاجتماع بين الرسول والملك، فلنا أن نتساءل:

---

١ انظر فقرة: الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول / قسم أدلة من القرآن.



لماذا رأى الرسول الملك مرتين في الأيام الأولى من البعثة، ولم يره بعدها أبداً؟

وما هي الحكمة من ذلك؟

وإذا كان الرسول قد رأى الملك للمرة الأولى – في الأفق – كبرهان على أنه أصبح رسولاً لله، وأن ما سيتلقاه وحي، من الله، وليس تهيؤات. فما المانع أن تكون رؤية الملك للمرة الثانية لتعليم الرسول الصلاة، وإلا فلا حاجة لرؤية الملك مرة ثانية وأخيرة.

يقول تعالى في سورة النجم: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(١٨).

والقراء يلاحظون أن رؤية الرسول للملك في المرة الثانية، كانت على الأرض، ولم يره في الفضاء، كما المرة الأولى: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦).

لقد رآه الرسول يهبط في منطقة عشبية وبقرب شجرة سدر تقع على أطراف تلك المنطقة العشبية[1]. وبما أن القرآن لم يخبرنا لماذا رأى الرسول الملك في هذه المرة، فلا نرى ما يمنع من أن هبوط الملك على الأرض أمام الرسول في تلك البقعة المعشوشبة، كان لتعليمه كيف يصلي، وما يقول في صلاته؟

وسورة العلق تؤكد لنا ذلك بطريقة غير مباشرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام بدأ يصلي عند الكعبة مع بداية البعثة، ومباشرة بعد رؤية الملك. فهي تتحدث عن أن أحد كبراء قريش قد انبرى للرسول أثناء صلاته قرب الكعبة، ونهره عن الصلاة: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ

---

١ المفسرون – كعادتهم – حولوا كلام الله لخرافات بتأويلاتهم، ومن ذلك قولهم إن السدرة تقع تحت عرش الرحمن الذي يتخيلون أنه كرسي يحده زمان ومكان، ويعلو السماوات السبع التي تخيلوا أنها طبقات فوق بعض. (تعالى الله وتبارك أن يحد بزمان أو مكان أو يحتاج للجلوس)



خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩).

والعلق نزلت في بداية الدعوة، وتخبرنا عن هذه الحادثة التي سبقت نزولها. ويكون الرسول قد صلى منذ الأيام الأولى للبعثة وفي وقت لم ينزل عليه من القرآن سوى سورة الفاتحة التي تلقاها في أول يوم لبعثته عليه الصلاة والسلام. ولهذا فقد أمكن تعليم الرسول الصلاة، ولم ينزل عليه من القرآن سوى الفاتحة، لأنها هي التي تقوم بها الصلاة. ولعل في هذا ما يؤكد أن صلوات الرسول كانت تقتصر على الفاتحة فقط.

وهناك بعض الأخبار في كتب الحديث تؤكد أن جبريل هو من علم الرسول الصلاة، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم ومالك وغيرهم، وهذا نصه:

"أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخَّرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ أَخَّرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا وَهُوَ بِالْكُوفَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا مُغِيرَةُ؟ أَلَيْسَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ جِبْرِيلَ نَزَلَ فَصَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: (بِهَذَا أُمِرْتَ) فَقَالَ عُمَرُ لِعُرْوَةَ: انظر مَا تُحَدِّثُ يَا عُرْوَةُ؟ أَوَ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام هُوَ أَقَامَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقْتَ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ عُرْوَةُ: كَذَلِكَ كَانَ بَشِيرُ بْنُ أَبِي مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ".

ونحن نورد الخبر ليس لتأكيد كلام الله، ولكن لأن الخبر يعكس حدثاً يتناقله الناس عن زمن الرسول، وهو تعليم الصلاة للرسول بواسطة الملك.

قريش عند بعثة الرسول لا تعرف الصلاة

نهر القرشي لرسول الله عندما رآه يصلي ينفي أن تكون الصلاة معروفة لدى قريش – كما يظن البعض – لأنه لو كانت معروفة لما فطن القرشي أن الرسول يؤدي حركات غريبة اقترنت ببدئه الكلام عن بعث وحساب وتلاوة نصوص لم يسمعوا بها من قبل.

لماذا لم يذكر القرآن تفاصيل الصلاة؟

هناك قاعدة أزلية في كل الرسالات، تتمثل في أن الرسالة تبدأ بدعوة الناس للإيمان



بوحدانية الله والإيمان بالبعث، فإن آمن عدد كافٍ من الناس لتكوين مجتمع مسلم فرضت التشريعات، ولو لم يؤمن العدد الكافي من الناس فلن يكون هناك تشريعات. ويمكن ملاحظة أن أقوام نوح وعاد وثمود وشعيب لم يكن فيها سوى الإيمان بالله والنشور، لأن تلك الأقوام لم يؤمن منها إلا نفر قليل، وماتت رسلهم ولم يكن مطلوباً لدخول الجنة سوى الإيمان.

وهذه القاعدة وجدت في رسالة محمد، حيث بقي الرسول في مكة يدعو سنين عدداً للإيمان، ولم يفرض أثناء تلك الفترة سوى الصلاة والإنفاق وتحريم الغش، إلى أن تغير خطاب الدعوة وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فبدأت التشريعات تفرض في النصف الأخير من الدعوة في مكة وأكملت في المدينة.

والتشريعات تفرض لكي يتعلمها الناس ويعلموها ويعملوا بها، ولو كانت موجودة مسبقاً فلن ينزل القرآن ليفرض تشريعاً موجوداً ويعمل به الناس. وليست الصلاة وحدها التي لم يتحدث القرآن عنها، فهناك صيغة الزواج، لأن الناس كانوا يتزوجون قبل الإسلام واستمروا يتزوجون بنفس الطريقة في الإسلام، ولم يكن هناك حاجة لأن يتحدث عنها القرآن. لكن لو أن صيغة الزواج السائدة كانت مخالفة للدين لنزل القرآن يفرض صيغة إسلامية. أو أن هناك صيغة دينية للزواج، فسينزل القرآن ليفرضها.

كما نجد أن القرآن لم يتحدث عن كشف شعر المرأة أو تغطيته بينما أمر بالبعد عن التبرج. وذلك لأن التبرج (وهو استخدام أدوات الزينة) كان موجوداً، ويثير فتنة من في قلبه مرض فأمر القرآن بالابتعاد عنه، بينما كانت النساء يغطين شعورهن كعرف اجتماعي، فلم يتحدث القرآن عن تغطية المرأة لشعر رأسها، ولا عن تسريحات الشعر كأداة إغراء.

وهكذا.

فكل ما كان موجوداً حين بدء فرض التشريعات ويؤديه الناس فلا حاجة لفرضه، ولهذا لم يتحدث القرآن عن هيئة الصلاة لأن المسلمين اعتادوا أداءها منذ سنوات. ولن يأتي القرآن ليقول صلوا كما تصلون، أو الصلاة تكون بقيام كما تقومون، وركوع كما تركعون وسجود كما تسجدون... الخ. لهذا لم يأت تفصيل الصلاة في القرآن.



أوقات الصلاة

أول سورة ذكرت فيها الصلاة هي سورة المدثر في حديث افتراضي عن أهل الجنة وهم يتساءلون لماذا دخل أهل النار، النار: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣).

ثم تلتها سورة العلق التي تتحدث عن القرشي الذي ينهر الرسول عن الصلاة، وهي من أوائل السور التي نزلت على الرسول. وتوالى ذكر الصلاة والحث على أدائها في عدد من السور المكية دون تحديد أوقات معينة لذلك. وفي المرحلة الخامسة للدعوة في مكة التي تحول فيها الخطاب الدعوي في القرآن لكل الناس ولم يعد وقفاً على قريش، نزلت سورة طه، وورد فيها: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢).

والخطاب موجه للرسول ويأمره بالاستمرار على أداء الصلاة، وأن يأمر أهله (زوجته وابنها وبناتها) على أدائها.

وفي المرحلة السادسة (حيث فرضت بعض التشريعات) فرض في سورة بني إسرائيل وقتين لأداء الصلاة: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(٧٨).

الوقت الأول يبدأ " لِدُلُوكِ الشَّمْسِ"، أي غروبها. ونهايته « إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ» أي غياب الشفق. وهي صلاة المغرب.

أما الوقت الآخر فقد أشارت له الآية بالقول «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ». وما يعضد أنه إشارة لصلاة الفجر، هو أن هناك بالفعل صلاة للفجر، وقد ورد ذكرها عرضاً في سورة النور المدنية أثناء الحديث عن موضوع آخر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٨).

ثم نزلت في نفس المرحلة سورة هود، والتي تفرض ثلاثة أوقات أخرى لأداء الصلاة: وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى



لِلذَّاكِرِينَ(١١٤).

وهذه الأوقات كما هو واضح في الآية، كما يلي:

صلاة عند كل طرف من طرفي النهار، يعني بداية النهار وبعد شروق الشمس، ونهاية النهار وقبيل غروب الشمس.

والوقت الثالث يؤدى بعد مضي زلف من الليل، وهو صلاة العشاء التي ذكرت في الآية: (٥٨) من سورة النور التي سبق ذكرها في الأسطر السابقة.

وبنزول سورة هود أصبح هناك خمسة أوقات لأداء الصلاة في اليوم والليلة، هي:

صلاة الفجر، ووقتها من بزوغ خيوط الفجر الأولى، إلى شروق الشمس، وهي صلاة النهوض من النوم، وتوديع الليل.

صلاة طرف النهار الأول، والتي تؤدى بعيد شروق الشمس والاستعداد للعمل، فهي صلاة استقبال النهار.

وصلاة طرف النهار الثاني والتي تؤدى قبيل غروب الشمس، وبعد الانصراف من العمل، فهي صلاة توديع النهار.

صلاة المغرب، والتي تؤدى بعد غروب الشمس وقبل غياب حمرة الشفق، وهي صلاة استقبال الليل.

صلاة العشاء، وتؤدى بعد غياب الشفق، وهي صلاة ما قبل النوم.

وأوقات الصلاة في القرآن تتفق مع الوضع الطبيعي لما يجب أن تكون عليه الحياة، من نوم وراحة في الليل ويقظة وإنتاج في النهار: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً(٤٧) الفرقان.

فالوضع الطبيعي أن ننام باكراً في أول الليل، وبعد أن نؤدي صلاة العشاء (صلاة ما قبل النوم).

ونستيقظ لنصلي صلاة الفجر (صلاة الاستيقاظ). ثم نتناول الإفطار ونستعد للعمل او الدراسة وتكون الشمس قد أشرقت فنصلي صلاة طرف النهار الأول (صلاة استقبال اليوم). وفي آخر النهار وعندما ننتهي من العمل والدراسة نصلي صلاة طرف النهار الثاني



(صلاة توديع اليوم). وما إن نصل لمنازلنا إلا وتكون الشمس قد غربت فنصلي صلاة المغرب (صلاة استقبال الليل). وبعد الصلاة نتناول طعام العشاء وننهي استعدادات اليوم التالي ثم نؤدي صلاة العشاء إيذانا بحلول وقت النوم.

وهذه الأوقات الخمسة المذكورة في القرآن نجد أن ثلاثة منها ما زال الناس يؤدون الصلاة فيها، وهي: الفجر والمغرب والعشاء، بينما يؤدون الصلاة في وقتين في وسط النهار وليس عند طرفي النهار وهما: الظهر والعصر.

فهل حدث تأخير لصلاة طرف النهار الأول لمنتصف النهار لأن الخليفة الأموي أو العباسي كان يسهر في الليل إلى أن يؤم الناس لصلاة الفجر (كما كانت العادة) ثم يغلبه النوم قبل صلاة طرف النهار الأول، وعندما يستيقظ وسط النهار يؤدي الصلاة بالناس. وبما أن من المعتاد الإيواء للقيلولة بعد الظهر فإن الخليفة يؤم الناس عصراً قبل أن يأوي لقيلولته، فقدمت صلاة طرف النهار الثاني وأخرت صلاة طرف النهار الأول لتلائم الوقت الذي يكون فيه «طويل العمر» مستيقظاً.

وإن كان هذا ما حدث، وهو ليس بمستغرب، فهو يفسر كثرة الأحاديث التي تنهى بشدة عن الصلاة بعد شروق الشمس وقبيل الغروب وهما وقتا صلاة طرفي النهار. ونهي الأحاديث الشديد لإقناع الناس بترك وقت مفروض، واستبداله بوقت مبتدع. ولو لم يكن هناك صلاة في هذين الوقتين لما جاء النهي، لأن النهي يكون لشيء موجود.

ومن يصلي الظهر والعصر الآن فهو يصلي في وقتين لا ذكر لهما في كتاب الله، وهو يتبع كتب التراث، واحتمال خطئه وارد أكبر من الصواب. أما من يصلي وقتي طرفي النهار فهو يتبع كلام الله، ولن يحاسبه الله على اتباعه لكلامه.

هناك من يقول إن الصلوات ثلاث وليس خمساً، وهي: صلاة المغرب وهي المذكورة في سورة بني إسرائيل: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(٧٨).

ويقولون هي المقصودة بصلاة طرف النهار الأخير الواردة في سورة هود: وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤).

والوقت الثاني للصلاة هو: العشاء، والمذكورة في نفس آية هود «زلفاً من الليل».



والصلاة الثالثة هي الفجر، ويقولون هي المقصودة بطرف النهار الأول الواردة في سورة هود.

بطبيعة الحال بالإمكان عدم الالتفات لهذا الرأي لأنه واهٍ لا يعتد به، ولم يقل به سوى فرق منحرفة في السابق. لكن ذكرناه لأن بعضاً من شباب اليوم قد أعجبهم.

ونقول لهم إن الدقة مطلوبة في تحديد النهار من الليل، والقرآن فرق بين الليل والنهار: وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣) الأنعام.

والقول بأن الليل يبدأ بحلول الظلام، والنهار يبدأ بانبلاج الفجر ليس دقيقاً. ولكن الدقة هي أن الليل يبدأ بغياب الشمس، وليس بغياب الغسق، وهو اختفاء خيوط النور في الأفق. والنهار يبدأ بشروق الشمس وليس بانبلاج أول خيوط الفجر.

وصلاة المغرب تكون في بداية الليل أو طرف الليل، ولا يمكن أن تكون في طرف النهار. وقد ذكرها القرآن لا كصلاة لطرف النهار، بل كصلاة ليل. لأنه حدد بدايتها بدلوك الشمس خلف الأفق، ونهاية وقتها بغياب الشفق من السماء وحلول غسق الليل أي ظلامه. ولا يمكن أن تكون هي صلاة طرف النهار، لأن طرف النهار الأخير يكون قبل انتهاء النهار، أي قبل مغيب الشمس.

ومثله صلاة الفجر. والفجر حدده القرآن بدقة في حديثه عن الصيام: " وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل". فالفجر يبدأ بانبلاج أول خيوط النور في الأفق بعدما كان ظلام الليل (الخيط الأسود) هو السائد. وانبلاج الفجر يسبق شروق الشمس بوقت طويل على الأرض فيما عدا الأقاليم المتطرفة شمالاً وجنوباً. وصلاة الفجر تؤدى في الليل وقبل شروق الشمس، بينما طرف النهار يبدأ بعد طلوع الشمس.

ونذكرهم أن سورة بني إسرائيل فرضت وقتين فقط وليس ثلاثة، ثم جاءت بعدها سورة هود، وفرضت ثلاثة أوقات أخرى. ولو كان الحديث في السورتين عن ثلاثة أوقات للصلاة وليس خمسة، لذكرتها كلا السورتين. أو لذكرت إحدى السورتين وقتاً وأضافت السورة الثانية الوقتين الآخرين. أما أن تذكر سورة بني إسرائيل وقت المغرب، وتحدد بدايته بغياب الشمس، ثم تأتي سورة هود وتقول إن ما ذكرته سورة بني إسرائيل يسمى طرف



النهار، مع أن النهار ينتهي بدلوك الشمس الذي يبدأ فيه وقت الصلاة الذي حددته سورة بني إسرائيل.

ثم يتأول المتأولون أن النهار لا ينتهي ولا يبدأ بالشمس ولكن بالضوء الذي في الأفق، فهو كمن تأول أن قطع اليد يعني كف من يريد أن يسرق عن السرقة، وأن الجبال تعني الرجال نحو ذلك الكثير من التخاريف. وكل الأوقات للعبادات وضعها القرآن لما يراه الإنسان على الأرض بعينه المجردة. فدخول صلاة المغرب يكون بدلوك الشمس إلى الأرض (غروبها) بالنسبة للإنسان الواقف على الأرض ورؤيته للغروب بعينه المجردة. وليس بلحظة غياب الشمس الفعلية من تلك البقعة من الأرض التي يقف عليها المشاهد، لأننا عرفنا الآن أن الضوء يقطع حوالي ثماني دقائق ليصلنا من الشمس أي أن الشمس قد غربت قبل رؤيتنا غروبها بثماني دقائق. لكن لو صلى أحدنا صلاة المغرب قبل خمس دقائق من رؤيته الشمس تغيب فقد صلى قبل دخول الوقت.

المناداة للصلاة

الأذان كما نسميه اليوم أيضاً ورثناه عملياً، ولم يخبرنا القرآن كيف نؤديه. والأذان كان موجوداً زمن رسول الله، وقد جاء ذكره في القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) الجمعة.

وبما أن الأذان لم يذكر في أي سورة مكية على الإطلاق، وكان أول ذكر له في سورة الجمعة التي نزلت في الأيام الأولى لهجرة الرسول، فهذا يعني أن المسلمين قبل الهجرة كانوا يصلون بدون أذان. وذلك لأن قريشاً لم تكن لتسمح للمسلمين برفع الأذان لا من المسجد الحرام ولا من أي مكان في مكة. ولما هاجر المسلمون للمدينة وتوفرت لهم حرية العبادة، وجد الأذان، أو أعيد رفع الأذان. وهذا وضع يتعرض له المسلمون كثيراً، فقد منعوا من رفع الأذان في روسيا وفي تركيا بداية القرن العشرين. وكان المسلمون يصلون بالخفاء وبدون أذان فيهما وفي الأندلس وغيرها.

وقد يكون الأذان عرف مع بداية البعثة والصلاة، لكن قريشاً أجبرت المسلمين على عدم رفعه. وفي كتب التراث روايات تقول إن بلالاً قد رفع الأذان على سطح الكعبة يوم الفتح، وأن رجال قريش امتعضوا وصدر من بعضهم كلام بذيء. ولعل الحقيقة أن بلالاً رفع



الأذان في بداية البعثة فما كان من كبراء قريش إلا أن تعاملوا معه بغلظة، وحينها قام أحدهم ونهر الرسول من الصلاة قرب الكعبة، وحظروا على نفر المسلمين رفع الأذان والصلاة قرب الكعبة حينها.

وقد جاء ذكر الأذان مرة أخرى في سورة المائدة: وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ(٥٨) المائدة.

ومع أن الصلاة تجوز بلا أذان إلا أن رفع الأذان ضرورة لكي يعلم الناس بدخول الوقت ويتوجهوا للمساجد.

الوضوء والغسل

فرض الوضوء للصلاة في المدينة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦) المائدة.

ولابد من ملاحظة أن الوضوء واجب لكل صلاة، ولا تمكن الصلاة بوضوء واحد لوقتين أو أكثر كما يفعل البعض في عصرنا، استناداً على الأحاديث والفتاوى. فالآية تقول بوضوح إن الوضوء يكون « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ». وهو يخالف ما يسود الآن، حيث يقول رجال الدين بجواز وضوء واحد لعدد من أوقات الصلاة.

والوضوء عبارة عن تنظيف الأطراف الظاهرة من الجسم مما قد يكون علق بها من أتربة وغبار. والجلد يحتاج للماء لتنظيفه بينما يكفي مسح الشعر، لذا جاء الأمر بغسل اليدين والذراعين والوجه والأرجل، والاكتفاء بمسح شعر الرأس.

ويأتي من يقول إن الأقدام تمسح لأن آية الوضوء تقول: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين». ومن يقول بهذا لا يعرف أن اللغة تجيز أن يكون عطف « أرجلكم» على «فاغسلوا» في قوله تعالى: « فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ".



ونقول لمثل هؤلاء إنه لو كان المطلوب مسح الأقدام فلا حاجة لتحديد المسح إلى الكعبين. فالمسح هو تمرير اليد المبللة بالماء على المكان المطلوب مسحه ولا يشترط له الدقة. فقد نمرر أيدينا المبللة بالماء على الرأس ولا يصيب الماء كل الشعر، ومع ذلك فهو مسح لكل الرأس. لكن لو أن المطلوب هو الغسل فقد جاء تحديد الكعب ليكون هو الموضع الذي يجب أن يصله الغسل، كما حددت المرافق لغسل اليدين.

فالوضوء تنظيف وليس تطهراً من نجاسة، والتي فرض لها تطهر كما يلي:

التطهر الموضعي

فرض القرآن التطهر بالماء من الغائط وكل ما يخرج مخرج الغائط أو ما هو بحكمه، من بول أو ريح. ويكون بتطهير مخرج النجاسة بالماء، ولا يستعاض عن الماء بما سمي "الاستنجاء والاستجمار" وهو عبارة عن حك مكان النجاسة بحجر أو تراب. والذي شرعه رجال الدين، ولم يذكر في كتاب الله، الذي ينص على أن من لا يجد الماء فيستعاض عنه بالتيمم.

التطهر بالغسل الكامل للجسم

وذلك في حال معاشرة النساء (عبرت الآية عنها بالملامسة) وذلك للتطهر من الجنابة، ويدخل في ذلك الاحتلام. ومن لا يجد الماء فيتيمم ويصلي.

صلاة الجمعة

نبدأ بالتذكير بحقيقتين هامتين جداً، هما:

١. أن القرآن لم يذكر صلاة خاصة بيوم الجمعة.

٢. وأن كتب التراث لا تحتفظ بخطبة واحدة للرسول من خطب الجمعة.

وذكر القرآن يوم الجمعة مرة واحدة ضمن خطاب إخباري يروي واقعة حدثت للمسلمين وكان حدوثها يوم الجمعة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ



الرَّازِقِينَ(١١).

والخطاب في الآيات إخباري – كما سبق وذكر – يروي ما حدث ويوجه المسلمين لما يجب عليهم القيام به، وليس خطاباً تشريعياً يفرض صلاة معينة.

فالآية: (٩) تطلب من المؤمنين أن يسعوا للصلاة ويتركوا البيع بمجرد سماع صوت النداء للصلاة في ذلك اليوم الذي كان يوم جمعة. ويستفاد من هذا ما يلي:

- النداء للصلاة (الأذان) كان معروفاً عند نزول السورة.

وبما أن السورة نزلت في الأيام الأولى للهجرة وقبل فرض الوضوء في سورة المائدة فهذا يدل على أن الأذان وجد مع وجود الصلاة ومنذ اليوم الأول صلى الرسول في بداية البعثة في مكة. فالصلاة والأذان وجدا معاً وبنفس الطريقة التي تعلم الرسول فيها الصلاة فقد تعلم الأذان. وبالتالي يمكن القول إن الرسول كان يؤذن قبل كل صلاة صلاها. وهذا ينفي ما زعمته كتب التراث من أن الأذان ولد نتيجة لاقتراحات من بعض الصحابة وبعد أن اقترح بعضهم جرساً كالمسيحية وآخر بوقاً كاليهود ثم اتفقوا أخيراً على الصيغة الحالية. أو أن أحدهم رأى حلماً جاءه رجل فيه وعلمه الأذان وأخبر به الرسول فأقره. وهذه تخاريف مفسرين، لأن دين الله لا يفرض عن طريق الأحلام.

وللعلم فيثرب كان فيها نصارى، والنصارى ليس لهم كنائس ولكن بِيع، ولا يستخدمون الأجراس كما يفعل المسيحيون. وهذا دليل على أن قصة الأذان اختلقت بعد فتح البلاد التي تنتشر فيها المسيحية واليهودية.

الآية (٩) أيضاً تشير إلى وجود بيع، والبيع يكون في السوق، والسوق فيما مضى وحتى اليوم في مناطق جنوب غرب الجزيرة العربية يكون يوماً في الأسبوع في مكان ويوم آخر في مكان آخر وهكذا، لدرجة أن هناك مدناً حالية تحمل اسم سوقها الأسبوعي، مثل: خميس مشيط، خميس مطير، أحد رفيدة، أحد المسارحة، وغيرها.

ولأن للقرآن أساليب مميزة، تختلف عما اعتدنا، ومن ذلك أن سرد الحدث لا يبدأ أحياناً من أوله. لذا سنقرأ الآيات بترتيب حسب وقوع الأحداث وليس حسب تسلسل الآيات، كما يلي: وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا



إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠).

فالرسول كان يصلي بالناس، عندما وصلت للسوق تجارة، فتراكض البعض وتركوا الصلاة لعلهم يظفرون ببعض منها: " انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً". لقد تركوا الرسول قائماً يصلي وخرجوا من المسجد.

والآيات تتحدث عن صلاة كانت تقام وقت السوق، وتلك الأسواق الأسبوعية كانت تبدأ أول النهار ومع شروق الشمس، ولا تبدأ آخر الليل أو مع الفجر. وتنتهي عادة منتصف النهار. حيث يبدأ الباعة يتوافدون على السوق ببضائعهم، مع شروق الشمس، ويتوافد المشترون للشراء. والقافلة أو الحمولة من البضاعة التي وصلت للسوق أثناء الصلاة مع الرسول، تشير إلى أن الصلاة أقيمت في بداية السوق، أي في الصباح الباكر. وليس هناك صلاة في الصباح الباكر الذي يعقب شروق الشمس إلا صلاة طرف النهار التي نصت عليها سورة هود: وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤).

وصلاة طرف النهار واجبة كل يوم وليست مخصصة ليوم الجمعة فقط، وهي صلاة رباعية وليس فيها خطبة. والآيات تؤكد أن الرسول كان قائماً يصلي بالناس وليس قائماً يخطب بهم. مثلما كان زكريا قائماً يصلي عندما بشر بيحيى: فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) آل عمران.

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يخطب في الناس على الإطلاق. لأن الدعوة لا تقوم على الخطب ولكن بتلاوة ما ينزل من القرآن. ولهذا لا يوجد للرسول خطب لا في الجمعة ولا في غيرها. لأن الخطب والمواعظ لم يعرفها المسلمون زمن الرسول بل عرفوها عندما اختلطوا بالمسيحيين من أهل البلاد المفتوحة في العراق والشام وبلاد النيل. مما يؤكد أنه لم يكن هناك خطب في يوم الجمعة ولا صلاة خاصة بها، وإنما كان الرسول يصلي بالناس صلاة طرف النهار المفروضة، والتي تصلى كل يوم. لكنه في ذلك اليوم – وكان يوم جمعة – ترك بعض المسلمين الصلاة مع الرسول للحاق ببضاعة للتو وصلت للسوق الأسبوعي



الذي يقام قريباً من المسجد يوم الجمعة.

ويبدو أن مسجد رسول الله بني قرب السوق، أو المدينة كما كان يسمى قديماً خاصة عند بني إسرائيل[1]. وقد بنى المهاجرون مساكنهم حول المسجد، ثم في عصور لاحقة أصبحت يثرب كلها تسمى المدينة.

وما يؤكد أن الصلاة التي تركها بعض المسلمين مع الرسول، لم تكن صلاة خاصة بالجمعة، أن كتب التراث تقول إن الجمعة فرضت في المدينة وفي بداية الهجرة. ولو وافقنا – جدلاً – فلابد أن هناك مئات الخطب، فكيف اختفت هذه الخطب.

ولو تمعنا في خطب الجمعة التي يؤديها المسلمون، لوجدنا أنها مجرد توجيهات سياسية. ومن أجل إجبار الناس على سماعها والإصغاء إلى كل حرف فيها، أحيطت بهالة من التقديس لم تحظ بها الصلاة المفروضة، ومن ذلك:

- أنه لا يجوز أن تقاطع الخطيب لأي سبب من الأسباب.

وهذا يعني أن بإمكانه أن يقول أي شيء يريده دون مقاطعة. وعلى الناس أن يسمعوا ويعوا ما يريد إسماعهم دون احتجاج أو اعتراض أو مداخلة أو نقد. وهذه الحماية لا تتمتع بها الصلاة ولا أي عبادة أخرى.

- أنه ليس فقط لا يجوز مقاطعة الخطيب، بل يجب ضمان إصغاء الناس لما يقول الخطيب إصغاءً تاماً.

لدرجة أن السامع لو مس الحصى (عندما كانت أرض المسجد حصى) أو مس الفرش الآن فقد لغى (بمعنى أثم)، ومن لغى فلا جمعة له وفسدت صلاته.

هذه الإجراءات المبالغ فيها لدرجة الريبة لم تفرض للصلاة نفسها ولا أي عبادة أو تشريع. وهي تجعل سماع الخطبة والانتباه لما يقال فيها أهم من الصلاة. والتحقيقات البوليسية تقول إنه عندما يكون هناك مبالغة في النفي من المتهم فهذا مؤشر إلى أنه يخفي شيئاً. والمبالغة في التأكيد على سماع الخطبة يخفي وراءه أنها مفروضة فرضاً على الناس ولا يمكن أن تكون من الدين.

ويحضرني تساؤل هنا: إذا كان من مس الحصى فلا جمعة له، فمن لا يحضر الخطبة كلها لا

[1] انظر فقرة: المدينة / قسم مواضيع من القرآن.



جمعة له من باب أولى؟

لكن لا أحد من رجال الدين السلف والخلف تجرأ وقال إن من لا يحضر الخطبة لا تقبل صلاته، بل يقولون إن من يحضر ركعة فقد صلى الجمعة.

تناقض! أليس كذلك؟

في الظاهر يبدو أن في الأمر تناقض، لكن قد يكون لهذا التناقض الظاهري تفسير.

فخطبة الجمعة أوجدت أولاً لخدمة الحاكم، وشددوا على وجوب الاستماع لها، دون أن يعيروا اهتمامهم للصلاة. لذا اختصرت الصلاة في الجمعة من أربع ركعات إلى ركعتين وخطبة. ولما جاء دور رجال دين فيما بعد، وفرضوا أن من يدرك ركعة فقد أدرك الصلاة، لم يستطيعوا استثناء صلاة الجمعة. فبقي حكم العسكر الذي يشدد على الخطبة أكثر من الصلاة ولحق به حكم رجال دين المناقض له.

- وهناك حديث في الحث على الحضور مبكراً قبل الخطبة لضمان الاستماع لها، يقول: من اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة، ثم راح فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر.

والحديث رواه البخاري وعدد من كتب الحديث، ومن يتمعن فيه يجده وكأنه اختلق للسخرية.

فهو يقول قرب بقرة، ثم كبشاً، ثم دجاجة، ثم بيضة.... ما هذا؟

ومن اختلق الحديث جاء من بيئة تؤمن بالقرابين، لأن الإسلام لا يوجد فيه قرابين. وحتى الهدي وهو الذبيحة الوحيدة المطلوبة في الإسلام، فهي من أعمال الحج وبين القرآن سبب فرضها بأنه رمز لشكر الله على ما أعطانا ويسر لنا من بهيمة الأنعام ولكي يأكل منها الفقير وكل محتاج.

ثم ما هذه السخرية في قوله تقديم دجاجة وبيضة؟

فهل الأعمال التي تقدم لله ينظر لها الله بحجمها ويعطي على حجمها أو أن الأعمال تقابل بالقدرة؟



ولو قمت بإنفاق ما قيمته بيضة لأني لا أملك أكثر فسيعادل عند الله ما يقدمه من يملك قيمة بقرة.

ونص الحديث ليس فقط أقرب للسخرية ولكن من قاله لا يفقه كيف تحسب الحسنات.

- وليس في الإسلام خطبة لصلاة أبداً، وكل الصلوات المصحوبة بخطب ليست من الدين ولكنها دخيلة عليه، مثل العيدين والكسوف والخسوف والاستسقاء.

ولهذا قالت بعض كتب التراث إنه إذا صادف أن جاء العيد يوم الجمعة فلا تصلى الجمعة ولكن تصلى الظهر.

وهو مخالف لقواعدهم الفقهية، لأنه يلغي صلاة الجمعة "الواجبة" لمن صلى العيد، وهي صلاة حكمها عندهم "سنة" أو ليست واجبة لأنها فرض كفاية.

وهذا الذي يبدو متعارضاً له تفسير.

فبما أن اختلاق الخطبة في الجمعة كان سياسياً يهدف لنشر قرارات وأوامر السلطان وسياساته، فلو جاء العيد في يوم الجمعة، فصلاة العيد مختلقة سياسياً، بخطبتها المشابهة لصلاة الجمعة وخطبتها، ولنفس السبب الذي اختلقت فيه خطبة الجمعة. وبما أن القرارات والأوامر الملكية ستتلى في خطبة العيد، فلم يعد هناك حاجة لخطبة الجمعة، ويعود الناس للصلاة المعتادة بأربع ركعات دون خطبة.

- وكل خطب الجمعة القديمة والحديثة لا يمكن أن تكون من دين الله. لأن الخطبة عبارة عن سرد قصصي ومواعظ لم يعرفها الإسلام ولا يستخدمها في الدعوة.

ولم يكن الرسول يخطب في المسلمين لا في صلاة ولا خارجها ابداً، وهذا لا ينفي تشاورهم وكلامهم بينهم. الذي ننفيه هو أن يقف الرسول خطيباً أو يجلس في مجلس ويعظ كما بدأ يفعل الحسن البصري وتميم الداري وغيرهم بعد رسول الله. ورسخ بين المسلمين وقويت شوكته في هذا العصر.

ويمكن تلخيص ما سبق، كما يلي:

- أن سورة الجمعة لا تتحدث عن صلاة خاصة بيوم الجمعة.
- أن الصلاة التي كان الرسول يصليها والتي تتحدث عنها سورة الجمعة كانت صلاة طرف النهار الصباحية التي تتزامن مع بداية السوق الأسبوعي.



- أن سورة الجمعة تؤكد حقيقة تاريخية أن هناك سوقاً أسبوعياً يقام في يثرب قريباً من مسجد رسول الله.
- أن شكل الخطبة وما يقال فيها وما قيل في وجوب الاستماع لها يؤكد أنها مختلقة.
- وأن على كل من يقول إن هناك صلاة للجمعة تختلف عن صلاة أي يوم آخر أن يأتي هو بالدليل.
- أن الأذان فرض مع فرض الصلاة منذ البداية، وهذا لا يعني أن المسلمين في مكة كانوا على الدوام يعلنونه بالقرب من الكعبة – خاصة في الوقت الذي صعدت فيه قريش من مضايقتها للمسلمين وبدأت تعذب المستضعفين منهم. لكن الأذان كان موجوداً ولم يكن وليد حلم. فالدين لا يفرض بالأحلام.
- ولو كان هناك خطب للجمعة لنقلتها لنا كتب التراث بغض النظر عن دقة النقل، وبما أن كتب التراث تقول إن الرسول لبث في المدينة عشر سنين والجمعة – كما يزعمون – فرضت في المدينة فأين هي تلك الخطب التي تعد بالمئات؟
- ولماذا صلاة الجمعة جهرية، والصلاة النهارية لا تكون جهرية؟
- وإن كانت صلاة الجمعة ليست الظهر، فلماذا ألغيت صلاة الظهر؟
- وإن كانت الجمعة مفروضة فلماذا اختلفوا في كل شروطها؟

تساؤلات منطقية لا يملك أهل الموروث جواباً لها، وفي نفس الوقت تثير الشكوك حول ما يعرف بصلاة الجمعة.

والآيات تتحدث عن صلاة في يوم الجمعة وتشير لسوق تجاري يقام في نفس اليوم. ولو كان السوق في أي يوم وترك الناس الصلاة بسبب التجارة فستقول الآيات: إذا نودي للصلاة من يوم الأربعاء أو السبت ... الخ

وتكون صلاة الجمعة وكل الصلوات التي تشبهها وكأنها نسخة منها مختلقة، مثل: العيدين، والكسوف، والخسوف، والاستسقاء. وهي صلوات اختلقت للمناسبات لكي يتسامع الناس خلال خطبها، ما يملى عليهم من القصر الملكي، وليس لها شأن بالله وكتابه ودينه ورسوله. واستشهدوا بآيات سورة الجمعة بعدما أولوها لغير معناها الظاهر.



القصر والجمع

جمع وقصر الصلاة بسبب السفر لا حكمة له ولا فائدة على الإطلاق. فالسفر زمن رسول الله كان على الجمال، ويمتد لأيام وأسابيع. وعندما تتوقف القافلة، فلن يكون هناك كبير فرق بين أن يركع أربعاً أو ركعتين. ولن يكون هناك عسرٌ من صلاة أربع ركعات ولا يسرٌ بالصلاة ركعتين عندما يُنيخ جِماله. بل يمكن للمسافر أن يتوقف ويصلي أربعاً دون حاجة لتوقف جماله، ويلحق بها دون أن تبتعد عنه سوى أمتار.

ولو التزم الناس بصلاة طرفي النهار، فلن يكون للقصر والجمع معنى لتباعد الوقت بين الطرفين. فالمسافر يمكنه أداء صلاة طرف النهار الأول، ثم يواصل السير حتى قبيل الغروب حيث يتوقف ويصلي طرف النهار الأخير، ويهيئ مكان المبيت قبل الظلام. وحتى الجمع بين المغرب والعشاء لا ضرورة له، لأن المسافر يكون قد أعد مكان مبيته ثم صلى المغرب ثم أعد عشاءه وأكله ثم صلى العشاء وأخلد للنوم.

وقصر الصلاة وجمعها للسفر، لو افترضنا أنه وجد، فاليوم لا معنى له. فمن يسافر بالسيارة حتى لو كان بالليل، لن يعيقه التوقف لبضع دقائق للصلاة في وقتها. ولو توقف فلن يعيقه أن يصلي أربع ركعات بدل ركعتين، ولن يريحه الصلاة ركعتين بدل أربع. وهو ما ينطبق على المسافر بأي وسيلة نقل أخرى. والملاحظ هو أن بعض المسافرين بالسيارة اليوم يتوقفون ويصلون صلاتين جمعا وقصرا، ثم يقضون ساعة أو بعض ساعة في التبضع وخلافه. مما يلغي حكمة أن قصر الصلاة يوفر على المسافر الوقت.

وهناك من يقصرون صلاتين ويجمعونها جمع تقديم، وهم يعلمون أنهم سيصلون وجهتهم قبل حلول وقت الصلاة الثانية، وبالفعل يصلون ويحل وقت الصلاة ولا يصلونها كونهم جمعوها مسبقاً. والصلاة قبل وقتها مثل الصلاة بعد خروج الوقت، ولو كانت تقبل بغير وقتها لما حدد لها القرآن وقت، وأمر بالمحافظة على الصلاة في وقتها.

ومثل المسافر من يقيم في بلد للدراسة أو لرحلة عمل ويجمع ويقصر بحجة فتوى من رجل دين قال له إنه يحق له ذلك لأنه بنية العودة. وهذا مخالف للحكمة من القصر — لو كان هناك حكمة — كما يقولون من أنها تيسير للمسافر. فمن وصل لبلدة وبقي فيها ولو لوقت صلاة واحد فلا يجمع ولا يقصر (على افتراض أن هناك جمعاً وقصراً) لأن الجمع والقصر



يكون لمن هو على سفر وليس للمسافر ولو كان مستريحاً.

أما القرآن فيخلو مما يعرف بالجمع البتة، ولا تقصر الصلاة إلا في حالة واحدة، وهي أن يكون المسلمون في مواجهة جيشٍ للعدو، وقد بينها لنا قوله تعالى: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً(١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً(١٠٣) النساء.

فيكون ما يقوم به بعض المسلمين اليوم من قصر الصلاة في السفر، أو الجمع بين وقتين، ومثلها المسح على الخفين، عبارة عن منتجات فقهية لم يأمر الله بها في كتابه العزيز ولم يفرضها على عباده. ومن فعلها فقد أطاع تشريعاً لم يأمر به الله وليس من دينه.

صلاة الجماعة

تقول سورة براءة التي نزلت في نفس العام الذي توفي فيه الرسول: وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠).

والآيات تتحدث عن مسلمة قريش وقد يكون معهم مسلمة يثرب، قاموا ببناء مسجد أثناء غياب الرسول في رحلته إلى تبوك، وذلك بغرض أن تكون الصلاة فيه مقتصرة عليهم دون المستضعفين من المسلمين.



ولو لم تكن صلاة الجماعة واجبة، وكان المنافقون يحرصون على أدائها، لما قاموا ببناء مسجد لهم، ولأدوا الصلاة في بيوتهم، أو لم يصلوا بتاتاً، إذا كانوا يشعرون بأنهم ينتمون لطبقة اجتماعية أعلى من المستضعفين ولا يمكن أن يصلوا معهم في مسجد واحد.

وتقول سورة الماعون المدنية: فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(٥).

ولو كانت صلاة الجماعة ليست لازمة لأمكن للمرائين الصلاة في بيوتهم أو عدم الصلاة أساساً.

ما لا يثير الحديث حوله المسلمون كثيراً هو عدم صلاة المرأة في المسجد، ذلك أنه إن كانت صلاة الرجل في المسجد واجبة أو مستحبة، فهي كذلك بالنسبة للمرأة. ومتى عادت المرأة للصلاة في المسجد، فلا يجب أن تكون في غرف معزولة، بل في نفس الساحة التي يصلي فيها الرجال. ويمكن الفصل بين الجنسين أثناء الصلاة بتخصيص قسم في الساحة للرجال وقسم للنساء وبينهما ممر مشاة، وبدون حواجز أو حجاب، ولا تعزل النساء في غرف مغلقة في المسجد[1].

كما أنه من المشاهد حالياً كثرة من يصلون على كراسي في المسجد ومن يأتون وهم أنصاف مشلولين، مع أن الله فرض اليسر لهؤلاء وأجاز لهم الصلاة في بيوتهم: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا(١٧) الفتح.

فالأعمى والأعرج والمريض ليس عليه أن يحضر للمسجد للصلاة، ويجب أن تزال الكراسي من المساجد، لأن من يطلب منهم الصلاة في المسجد، هم من يطيقون الصلاة بيسر وقدرة.

ولابد من الإشارة إلى أن رفع الأذان وإمامة الصلاة أصبحتا وظائف حكومية وهذا خطأ ديني فادح.

لأن من يؤديها أصبح ينظر له على أنه عالم في الدين أكثر من غيره، وهذا نوع من الرهبنة. والإسلام لا رهبانية فيه. ويجب تعليم الدين بكل تفاصيل تشريعاته لكل المسلمين على حد سواء، فلا يكون فيهم رجل دين وجاهل في الدين.

---

[1] من يحرصون على حجب النساء في غرف معزولة في المسجد هم من يعتقد أن المأموم لا تجزئ صلاته ما لم يكن والإمام في مكان واحد بلا حجاب. لكنهم يحرصون بشكل مبالغ فيه لمخالفة معتقدهم هذا عندما يتعلق الأمر بالنساء.



ثم إن رفع الأذان أو إمامة الصلاة لو اعتبرنا من الوظائف التي يتلقى من يؤديها أجراً دنيوياً فهو متاجرة بالدين، لو شجعته الحكومات لكي تكون المساجد تحت سيطرتها، فلا يجب على المسلمين قبوله، إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر. فكل عمل ديني له أجر من الله يوم القيامة، وتلقي أجر له في الدنيا – مادي أو معنوي – يعني عدم الحصول على أجر الآخرة.

الصلاة خارج وقتها

لو كانت الصلاة تقبل خارج وقتها لما فرضت أوقات محددة للصلاة، أو لكانت الصلاة في وقتها مستحبة. لكن الأمر في القرآن دائماً للوجوب وليس للتخيير او الاستحباب. وسورة بني إسرائيل تقول: «أقم الصلاة لدلوك الشمس»، ومثلها سورة هود: «أقم الصلاة طرفي النهار».

ويكون كل من يصلي صلاة في غير وقتها فكأنه لم يصل. سواء برر فعلته بما سمي بالجمع أو تعذر بالنوم وغيره.

الصوم

صامَ صَوْماً وصِياماً واصْطامَ أمسك وامتنع. فالصوم والصيام يعني الإمساك والامتناع عن أي شيء. فقد يكون الإمساك عن الأكل والشرب والجماع كما في رمضان. وقد يكون الإمساك عن الكلام، كما حدث لمريم: فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(٢٦) مريم.

وقد يكون الإمساك عن السير أو أي نشاط.

وقد فرض الصوم على المسلمين في السنة الأولى للهجرة وفي سورة البقرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ



بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

وتكمل السورة تشريع الصيام بالقول: .... وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ.... (١٨٧) البقرة.

وهذه الآيات واضحة الدلالة وتقول بأسلوبنا: كتب عليكم صيام أيام شهر رمضان لمن يشهد منكم الشهر، على أن يبدأ الصيام مع بزوغ الفجر وينتهي بنهاية النهار. ومع ذلك أثير لغط كثير حول هذه الآيات، كما أثير اللغط حول كل القرآن وشخص الرسول.

ومن النقاط التي أثيرت، ما يلي:

- هل الصوم هو الصيام؟
- كيف يتم التأكد من دخول الشهر؟
- هل يتوقف الصائم عن الأكل بانبلاج أول خيوط الفجر في السماء، أو عند تمييز خيط أبيض من خيط أسود حرفياً؟
- وهل يفطر الصائم بمجرد غروب الشمس أم ينتظر حتى يغيب الشفق؟
- وما المقصود بالذين يطيقونه.

وهذا اللغط ظهر في عصر الظلام والفتن واختلاق القصص. وفي بلاد الفتوح الزراعية التي لا تعرف التقويم القمري ومعتادة على التقويم الشمسي، مثل بلاد العراق والشام ووادي النيل. ولو حدث في عصره عليه الصلاة والسلام لجاءت الإجابة في القرآن. فكل ما يكون فيه سوء فهم أو عدم وضوح للمعنى عند بعض المسلمين زمن الرسول، يعودون لسؤال الرسول عنه وينزل القرآن بتوضيحه. وهذا مثال على ذلك:

نزل تحريم الميتة مع مآكل أخرى في سورة النحل المكية :إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥).

وبعد الهجرة جاء البعض وسأل الرسول عما يحرم من المآكل فجاء الجواب في سورة البقرة: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣).

وهو تكرار حرفي لما ورد في سورة النحل.



ويبدو أن البعض أشكل عليه ما يدخل في مصطلح «الميتة» وسأل الرسول عن ذلك، فنزلت سورة المائدة تحمل الجواب التفصيلي: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

فالميتة تشمل: «ما أهل لغير الله به وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ».

وهذا ما يؤكد أن التساؤلات السابقة حول بدء الشهر وبدء الصوم والإفطار كان في أزمنة الفتن العباسية وبعد عصر الرسول.

وفيما يلي استعراض لهذه النقاط:

هل الصوم هو الصيام؟

هذه الإشكالية عند البعض مردها إلى أنهم من متابعي أناس جعلوا جل اهتمامهم بالبحث في دين الله هو في الاستغراق في بيان معانٍ غير معتادة للألفاظ الواردة في القرآن، والإطناب في ذلك. ومن ذلك القول إن الصوم شيء والصيام شيء آخر. وأن الصوم يقال لما له علاقة بالكلام بينما الصيام لما له علاقة بالطعام، أو نحواً من ذلك. وهذا التقعر محاولة للكاتب بالظهور بمظهر المفكر الذي سبق أقرانه، وقد يحقق بعض الانبهار عند بعض الناشئة، كونه يأتي بمعانٍ لم يسمعوا بها من قبل. وإن كان لا يصمد للنقد عند العارفين، كونه لا يزيد عن تأويل يشبه تأويل المفسرين القديم، وإن ظهر بثوب جديد، وليس فيه خدمة لدين الله[1].

التأكد من دخول الشهر

الصوم والحج عبادات حولية، تأتي في العام مرة واحدة، وتعتمد الأشهر القمرية التي يبدأ فيها اليوم من غروب شمس الليلة السابقة[2]. ومتى ما رؤي الهلال الوليد بعد غروب

---

١ التقعر في معاني الألفاظ والبحث عن معان شاذة مشابه للقول بأن القرآن يحوي معجزات حسية أو عددية .. الخ، لا تهدف لخدمة الدين بقدر إظهار قائلها بمظهر العالم عند من يجهل ما يقول.

٢ اليوم الإسلامي يتكون من الليلة السابقة كاملة، أي منذ غروب الشمس والنهار التالي حتى غروب الشمس. وليس كما اصطلح عليه الآن من أنه يبدأ منتصف الليل، فيكون هناك نصف ليل ثم نهار كامل ثم نصف ليل من الليلة التالية ليكتمل



الشمس فهذا يعني أن أول أيام الشهر هو يوم الغد. والذين يعتمدون رؤية الهلال بالعين المجردة يعتمدون على حديث منسوب للرسول يقول: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته.

وهذا الحديث يستحيل أن يكون رسول الله قاله، لأسباب منها:

- أن تحديد بدء الأشهر القمرية كان معروفاً للناس قبل وأثناء زمن الرسول في جزيرة العرب ومنذ القدم ولابد أن لديهم أساليب لمعرفة بدء الأشهر القمرية أكثر عملية من ترائي الهلال.
- لو أن الحديث المنسوب للرسول صحيح فهذا يعني أن الناس سألوا الرسول عن كيفية تحديد بدء شهر رمضان. ولو سألوا الرسول فلن يأتيهم الجواب من الرسول نفسه كحديث، ولكن سينزل به القرآن كما نزل تفصيل المقصود بالميتة وغيرها.

وبما أن القرآن يخلو من ذكر رؤية الهلال فهو تأكيد على أن الناس لم يشكل عليهم أبداً معرفة دخول شهر رمضان وخروجه زمن الرسول. ولو رأوه بالعين المجردة في اليوم الذين يعلمون أنه بداية الشهر القمري فهو حسن وإن لم يروه فلديهم طريقة حساب تثبت لهم دخول الشهر. وحتى لو افترضنا جدلاً أنهم كانوا يعتمدون كلياً على رؤية الهلال بالعين المجردة، فهذا لا يعني أن رؤية العين هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دخول الشهر. ولكنها تعني أنهم حينها لم يكونوا يملكون وسيلة أنجع للتأكد من دخول الشهر، ولو كانوا يملكون أدق منها لاستخدموها. وبالتالي فمتى ما اكتشفت طرق أدق لتحديد دخول الشهر فيجب على المسلمين الأخذ بها، لأن الغاية التأكد من ثبوت دخول الشهر وليس التأكد من رؤية الهلال. وبالتالي فيمكن بوسائل متطورة التأكد من دخول الشهر ولو لم ير أحد الهلال.

- أن الشهر القمري يبدأ بظهور الهلال، ولن يتساءل الناس زمن الرسول وفي المدينة كيف يبدأ الشهر القمري، لأنهم يعلمون أنه يبدأ بظهور الهلال.

لكن لو أن الإشكال حدث لأناس لا يعرفون الأشهر القمرية ويتعاملون بالأشهر الشمسية المناسبة لطبيعتهم الزراعية فسيتساءلون عن كيفية التأكد من دخول شهر رمضان. وهذا سيكون في البلاد المفتوحة مثل الشام ومصر والعراق وليس في المدينة زمن الرسول.

اليوم. وهذا لا يطبق إلا نظرياً. فهم يعتبرون ليلة الخميس مثلاً هي الليلة التي تليه، أي نصف الليلة التي تلي نهار الخميس، بينما الليلة السابقة ليوم الخميس فتسمى تجاوزاً ليلة الأربعاء. بينما في التقويم الإسلامي على الدوام ليلة اليوم هي التي تسبق النهار، فليلة الخميس هي الليلة التي تسبقه.



- أن الصوم – بنص الآية – يكون لأيام شهر رمضان، وليس للأيام التي يستطيع الناس رؤية هلال الشهر، ولو تأخرت الرؤية لليوم الثاني أو الثالث من الشهر. كما أن الصوم ينتهي بنهاية شهر رمضان وليس برؤية الناس هلال شهر شوال.

ولو غم على الناس رؤية الهلال واتضح لهم فيما بعد أنهم أفطروا في أيامٍ من رمضان لوجب عليهم القضاء. فرؤية الهلال بالعين المجردة فقط أداة للتأكد من دخول الشهر. لذا يجب عليهم البحث عن وسائل أدق للتأكد من دخول الشهر لئلا يصوموا أياماً من شهر شوال أو شعبان ويفطروا بعض أيام شهر رمضان.

- وكل الشهور القمرية تبدأ بظهور الهلال، الذي لم يكن يواجه الناس في جزيرة العرب مشكلة في معرفته وتحديده بدقة، دون حاجة لرؤيته. والدليل أن الأشهر القمرية الإثني عشر بقيت تبدأ وتنتهي في وقتها دون أن يكون هناك أي خطأ.

ولو كان الناس يحددون بدء الشهور برؤيتهم للهلال بالعين المجردة فلابد أن يحدث خطأ كما يحدث بيننا في هذا العصر، حيث صمنا في بعض السنوات يوماً أو يومين من شعبان، وصمنا في سنوات أخرى يوماً أو يومين من شوال. وكما رمضان تحدث أخطاء في تحديد بدء شهر ذي الحجة، لأننا اعتمدنا تحديد بدء الشهر برؤية الهلال وليس ببدء الشهر الفعلي.

ومن ذلك ما حدث في العام ١٤٢٥ حيث أعلن مجلس القضاء الأعلى في السعودية يوم ١٢/ ١/ ٢٠٠٥ أن بداية شهر ذي الحجة لذاك العام ١٤٢٥ هـ هو يوم الأربعاء ١٢ / ١/ ٢٠٠٥م وقد جاء في إعلانه: نظراً لأن شهر شوال ثبت دخوله يوم السبت ولم يتقدم أحد يخبر بدخول شهر ذي القعدة يوم الأحد ولأن يوم الثلاثاء / ٣٠ ذي القعدة / حسب تقويم أم القرى هو تمام ستين يوماً بعد شهر رمضان ولم يرد للمجلس عن دخول شهر ذي الحجة ليلة الثلاثاء ما يفيد دخول الشهر وإنما ورد نفي الرؤية وعليه فإن يوم الأربعاء ١ / ١٢ / ١٤٢٥هـ حسب تقويم أم القرى الموافق ١٢/ ١/ ٢٠٠٥م هو أول أيام شهر ذي الحجة وبهذا يكون الوقوف بعرفة يوم الخميس التاسع من ذي الحجة وعيد الأضحى المبارك يوم الجمعة الموافق ٢١ / ١/ ٢٠٠٥م".

ثم عاد مجلس القضاء الأعلى في السعودية وأصدر بياناً آخر بعد يومين يقرر فيه تغيير موعد الوقوف بعرفات لأن ثلاثة أشخاص قد شهدوا بأنهم رأوا الهلال، ومما جاء في البيان: "نظرا



لأنه تقدم في مساء يوم الجمعة الموافق ٣ ذي الحجة حسب تقويم أم القرى عدة شهود برؤية الهلال ليلة الثلاثاء وهم من السيح شرق محافظة الرين وتبلغت محكمة الرين بذلك فطلبهم فضيلة قاضي الرين وحضر منهم اثنان شهدا برؤيتهما هلال ذي الحجة بعد مغرب يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة ومكث كل واحد منهما يراه بعد أن صليا فريضة المغرب وفي ليلة الأربعاء ذكر كل واحد منهما أنه رآه عاليا وبقي يرى إلى صلاة العشاء وجرت تزكيتهما وذكر فضيلة قاضي الرين أنهما معروفان لديه بالعدالة والثقة والثبات ومعهما شاب رآه معهما لكن لم يحضر إلى المحكمة لبعدها وبناء على ذلك ولأنه إذا ثبتت الرؤية المعتبرة للعبادة وقد ثبتت لذا فإن مجلس القضاء الأعلى في المملكة العربية السعودية يقرر أنه ثبت دخول ذي الحجة هذا العام ١٤٢٥هـ - يوم الثلاثاء الموافق ١١ يناير عام ٢٠٠٥م والوقوف بعرفة يوم الأربعاء الموافق ١٩ يناير ٢٠٠٥م وعيد الأضحى المبارك يوم الخميس الموافق ٢٠ يناير ٢٠٠٥م".

وقد تسبب هذا التغيير المفاجئ والمتأخر بمشاكل جمة مالية وتنظيمية لحجاج الخارج وشركات الطيران وللفنادق والشقق التي سيقيم فيها الحجاج. إضافة إلى أن التعديل الأخير لموعد الوقوف بعرفات جاء مخالفاً للحساب الفلكي، أي أن التغيير قد يكون تسبب في أن يبدأ الناس حجهم في يوم خطأ.

وفي العام ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ لم ير الهلال في السعودية يوم الأربعاء ليلة الخميس ٣١/ ٥/ ١٩٨٤ فأصدرت السلطات الرسمية ممثلة بمجلس القضاء الأعلى أمراً بعدم الصيام، وبدأ الصوم الرسمي من يوم الجمعة ١/ ٦/ ١٩٨٤. وفي نهاية الشهر تحروا رؤية هلال شوال يوم الخميس ليلة الجمعة ٢٩/ ٦/ ١٩٨٤ وتقدم أشخاص زاعمون أنهم رأوا الهلال فأصدر مجلس القضاء الأعلى في السعودية بياناً أعلن فيه أن يوم الجمعة ٢٩/ ٦/ ١٩٨٤ هو أول أيام شهر شوال. وهذا يعني أن الناس صاموا ٢٨ يوماً فقط، مع أنه ليس في الأشهر القمرية شهر تكون عدد أيامه (٢٨)، ثم أعلن للناس أن يصوموا يوماً كقضاء عن يوم فاتهم صيامه. والحقيقة أن هناك يوماً آخر لم يصوموه، ذلك أنه بناءً على الحساب الفلكي فإن رمضان ذلك العام كان ٣٠ يوماً، يبدأ يوم الخميس ٣١/ ٥/ ٢٠٠٤ وينتهي بنهاية يوم الجمعة ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٤ ويكون العيد يوم السبت ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٤.



- ولو أن تحديد شهر رمضان يتم بالعين المجردة زمن رسول الله لحدثت بعض الأخطاء عند دخول الشهر وخروجه، وهذا لم يحدث زمن الرسول برغم أن فرض الصوم جاء في السنة الأولى للهجرة لأن البقرة نزلت بداية الهجرة وقبل معركة بدر بشهور.

ويكون المسلمون قد صاموا عشر رمضانات زمن الرسول (على اعتبار أن الرسول توفي بداية السنة الحادية عشر) دون أن يذكر التاريخ أنهم أخطأوا في تحديد بدء الشهر وخروجه، مرة واحدة أو كان هناك شك في أحد الأعوام. برغم أن شهر رمضان – طوال عصر الرسول – كان يأتي في فصل الشتاء وبداية الربيع حيث يكون احتمال وجود غيوم في سماء المدينة وارداً[1]. ومع ذلك لا يذكر التاريخ أنهم كانوا يتراءون الهلال لإثبات دخول رمضان، فيما عدا خبرين أو ثلاثة لا وزن لها. ولعل أشهرها الخبر الذي ينسب للرسول قوله: "أحصوا هلال شعبان لرمضان" وخبر آخر منسوب لابن عمر أنه رأى الهلال وأخبر الرسول فأمر الناس بالصوم.

وهناك خبر منسوب لكريب يقول: إن أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية رضي الله عنه بالشام، قال: فقدمت الشام فقضيت حاجتها، واستهلَّ عليَّ رمضان وأنا بالشام، فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر، فسألني عبد الله بن عباس ثم ذكر الهلال، فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة. فقال: أنتَ رأيتَهُ؟ فقلت: نعم، ورآه الناس، وصاموا وصام معاوية رضي الله عنه. فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل الثلاثين، أو نراه. فقلت: أوَلا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا، هكذا أمرنا رسول الله ... انتهى.

- وهذه القصة مختلقة، قد تكون فقط للنيل من معاوية وجاء من يستدل بها لرؤية هلال رمضان. لأن ابن عباس – الذي هو ابن أم الفضل بنت الحارث – كان في العراق ولما حدث بينه وبين علي ابن أبي طالب خلاف حول اتهامه بالاستيلاء على أموال بيت المال ترك العراق وذهب للطائف وبقي فيها حتى مات عام ٦٨ للهجرة (كما تقول كتب التراث)، ولم يعش في المدينة زمن معاوية، بل ولا في أي زمن آخر.
- ثم أن أم الفضل بنت الحارث واسمها لبابة – زوج العباس ووالدة ابن عباس – كانت

---

١ لأن رمضان في السنة الأولى للهجرة وافق شهر مارس، ورمضان في السنة العاشرة وافق شهر نوفمبر. وبقية السنوات كانت فيما بين هذين الشهرين.



قد توفيت قبل حكم معاوية، حيث توفيت في خلافة عثمان وقبل زوجها العباس الذي توفي في السنة (٣٢) للهجرة، وهذا ما يؤكد اختلاق القصة السابقة.

- والأهم من كل هذا أنه حتى لو كان الناس في زمان ما اعتمدوا رؤية الهلال لإثبات دخول الشهر فهذا لا يعني أن الرؤية بالعين دليل شرعي على دخول الشهر ولا يعني عدم الأخذ بأساليب أكثر دقة عرفها الناس أو سيعرفونها في عصور لاحقة.

ونعود لتأكيد أن المهم هو دخول الشهر وليس رؤية هلاله "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ" .. "فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ". وأي وسيلة تعين على تحديد دخول الشهر بدقة فهي المطلوبة، لأنها تعين على إحقاق الحق، بغض النظر عن ماهيتها. وفي هذا العصر يمكن وبكل سهولة تحديد بدء الشهر القمري ولسنوات قادمة، ولا حاجة لمحاولة رؤيته بالعين المجردة على الإطلاق.

ويكون التمسك برؤية الهلال بالعين المجردة تمسك بالموروث المرتبط بالمصالح، ولا شأن له بدين الله. وعلى المسلمين إعداد تقويم دقيق لكل أشهر السنة في كل مكان من العالم كما هي الحال بجداول الصلاة، واعتمادها لدخول شهر رمضان وخروجه وغيره من الأشهر القمرية لسنوات قادمة[1].

متى يتوقف الصائم عن الأكل؟

لابد أن نتذكر دائماً حقيقة مفادها: أن كل التساؤلات التي أثيرت وتوجد في كتب التراث عن أي مسألة دينية ولم يشر لها القرآن، قد أثيرت في عصر الظلمات والفتن، سواءً كان الهدف منها بريئاً أو للتشكيك، أو كوسيلة لأسلمة معتقد من ديانات سابقة. ولم يتساءل عنها الناس في عصر الرسول، لأنه لو أشكل عليهم فهمها لسألوا الرسول، ولو سألوه لنزل القرآن بالتوضيح كالعادة.

---

١ يتوفر الان على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) عدة مواقع تظهر وبدقة متى سيدخل كل شهر من الأشهر القمرية طوال العام، ومنها هذا البرنامج المعروض على اليوتيوب تحت عنوان:
NASA | Moon Phases 2015, Northern Hemisphere
وهذه تواريخ بدايات بعض الأشهر القمرية لعام ١٤٣٦ هـ والتي ستأتي بعد طباعة هذا الكتاب:
رجب يبدأ يوم الإثنين ٢٠/ نيسان أبريل/ ٢٠١٥. شعبان يبدأ يوم الثلاثاء ١٩/ أيار مايو/ ٢٠١٥. رمضان يبدأ يوم الخميس ١٨/ حزيران يونيو/ ٢٠١٥. شوال يبدأ يوم الجمعة ١٧/ تموز يوليو/ ٢٠١٥. ذو القعدة يبدأ يوم الأحد ١٦/ آب أغسطس/ ٢٠١٥. ذو الحجة يبدأ يوم الإثنين ١٤/ أيلول سبتمبر/ ٢٠١٥. وتجمع الحجاج في عرفات يوم الثلاثاء ٢٣/ أيلول سبتمبر/ ٢٠١٥.
ورابط الفيديو هو:http://www.youtube.com/watch?v=tmmyu88wMHw



والتساؤل عن بداية صوم الصائم هي من التساؤلات التي أثيرت في عصور الفتن. لأن خيوط الفجر تعني أشعة النور التي تظهر في السماء من الجهة التي تشرق منها الشمس، كبداية للفجر. وهي التي يجب على المسلم أن يبدأ صومه عندما تبدأ بالظهور.

الآن كثيرون يثيرون التساؤل: هل يبدأ الصوم بانبلاج أول خيوط الفجر في السماء، أو عند تمييز خيط أبيض من خيط أسود حرفياً؟

والشمس تحدد النهار والليل، فالنهار يبدأ من اللحظة التي تبزغ فيها الشمس، وينتهي باختفاء كامل قرص الشمس تحت خط الأفق بالنسبة للناظر. ولو أن الآية قالت كلوا واشربوا في أيام رمضان لوجب التوقف عن الأكل والشرب مع بزوغ الشمس، وحل الأكل والشرب مع غروبها. لكن الآية تحدد بدء الصيام ببزوغ الفجر (الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر)، وليس ببداية النهار. والفجر ظاهرة تُحدِّدُ بدقة بدء انبلاج النور وليس بدء النهار.

فالصوم يكون طوال النهار إضافة للوقت الفاصل بين بدء ظهور الفجر وشروق الشمس.

ويكون معنى «تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» تعبيراً مجازياً يعني تبين انبلاج أول أشعة النور في صفحة السماء باتجاه المشرق بالنسبة للرائي.

وهذا الكلام لا يمكن أن يكون قد أشكل على الناس زمن الرسول ولم يسألوا الرسول عنه، خاصة أن المسلمين زمن الرسول صاموا عشر رمضانات[1]. ولو أشكل عليهم فسيكون في السنة الأولى وسيسارعون للرسول طلباً للتوضيح، ولو فعلوا لنزل القرآن بما يزيل الإشكال.

وتبين خيط أبيض من خيط آخر أسود عبث، بينما تبين شعاع الفجر في الأفق ظاهرة تتناسب مع تشريع الصوم الذي يعتمد الليل والنهار والفجر لتحديد أوقات الصوم ولا علاقة للخيوط والأقمشة في ذلك.

وهذا التساؤل يعود لعصر الظلمات والفتن وأول من قال به بعض المفسرين الذين لهم خلفية تلموديه. فقالوا إن المقصود خيوط فعلية أسود وأبيض، محاكاة لما ورد في التلمود ونصه: «يقرأ السماع فجراً منذ أن يميز بين خيوط اللونين الأزرق والأبيض إلى بزوغ

---

[1] على افتراض أن الرسول توفي في بداية العام الحادي عشر الهجري، ورمضان فرض في السنة الأولى.



الشمس، وهي خيوط تتدلى من الشال الذي يلبسه اليهود».

متى يفطر الصائم

هل يفطر الصائم بمجرد غروب الشمس أم ينتظر حتى يغيب الشفق؟

يقول تعالى: .... وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ.... (١٨٧) البقرة.

اليوم عبارة عن نهار وليل، والعامل الحاسم في تحديد متي يبدأ النهار ومتى يبدأ الليل بدقة متناهية، هو الشمس، وليس اختفاء النور من السماء، كما سبق وذكرنا. لذا فالصيام يستمر إلى الليل، أي إلى أن يغيب قرص الشمس خلف الأفق.

ولو كان المقصود بالليل هو اختفاء الغسق (خيوط النور في السماء) لقالت الآية: «فأتموا الصيام إلى غسق الليل»، كما في تحديد نهاية وقت صلاة المغرب: أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) بني إسرائيل.

فالقرآن حدد بدقة بدء الصوم ليس بالنهار ولكن بخيوط الفجر، وحدد انتهاء الصوم بالليل وليس بغسق الليل.

الإفطار يكون حكماً

يعتبر الصائم مفطراً بعد غروب الشمس ولو لم يتناول شيئاً. لأن الإفطار يعني أن الأكل والشرب مباح، ولا يعني أن على الصائم أن يكسر صيامه بأكل أو شرب وإلا بقي صائماً أثناء الليل.

لكن شاع في عصر الظلمات والفتن أن على المفطر أن يكسر صيامه لئلا يستمر صائماً، واختلقوا أحاديث منسوبة للرسول تحرم ما أسموه بمواصلة الصوم. ويعنون به امتناع المرء عن الأكل والشرب أثناء ليل رمضان حتى يبزغ الفجر ويبدأ صوم اليوم التالي. كما اختلقوا أحاديث تحث وتحبب وتعطي أفضلية وأجراً وثواباً لمن يسارع بكسر صيامه حال غروب الشمس. ومن ذلك: "لاتزال أمتي بخير ما أخروا السحور وعجلوا الفطور".

ومثل هذه الأحاديث جعلت الناس في بلادنا يصابون بما يشبه الهستيريا قرب الفجر وبشكل أسوأ عند اقتراب الغروب. فتصبح الشوارع مسرحاً لسباق السيارات، ويكثر



تجاوز إشارات المرور، ويتسبب هذا التسارع إلى حوادث مميتة.

وكل هذا نتيجة لجهل من أشاع هذا المعتقد بأن الإفطار يكون حكماً ولو لم يأكل الصائم. يعني يحل للمرء الأكل والشرب بعد غروب شمس نهار رمضان، ومن لم يأكل فهو مفطر لأنه يستطيع الأكل ولا شيء عليه لكنه امتنع عن فعلٍ مباح، كمن يمتنع عن الأكل والشرب لعدة ساعات أثناء نهار أي يوم غير رمضان، فهو ليس صائماً ولكنه امتنع عن ممارسة ما يباح له فعله. لذا ليس على الناس التسابق المحموم على وضع التمر في أفواههم بمجرد سماع صوت الأذان، وليس على بعض المؤذنين وضع التمرة في فمه قبل أن يؤذن أو حال الأذان لأنه ليس هناك أجر للإسراع بالفطور. وليس هناك أجر لمن يبدأ بتمر يزيد على من يفطر بخبز أو أي نوع آخر من الطعام والشراب. وليس هناك أجر لمن يأكل آخر لقمة أو جرعة ماء مع أذان الفجر الذي اتخذ كعلامة على بزوغ الفجر وبدء الصيام في بلاد الحرمين وبعض البلاد العربية.

فالصيام – مرة أخرى – يعني تحريم الأكل والشرب من بزوغ الفجر لغروب الشمس. والإفطار يعني إباحة الأكل والشرب من غروب الشمس حتى بزوغ الفجر. فمن شاء فليأكل ويشرب أثناء هذا الوقت، ومن شاء فليمتنع لكنه مفطر حكماً في كلا الحالين.

وهذا الحل والإباحة مماثل لقوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ(١٨٧) البقرة.

فهل هذا يعني أن على الصائمين ممارسة ما يحل لهم، وإلا أثموا، أم أنه يعني أن من ممارسته حلال، لمن رغب؟

ما المقصود بالذين يطيقونه؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).



لنتذكر أن ترقيم الآيات لم يكن لها وجود في عصر الرسول، وإنما هو عمل اجتهادي توافقي بعد عصر الرسول. وهذا يعني أن الوقوف عند رقم الآية لا يعني انتهاء العبارة على الدوام.

لذا سنقوم بإعادة تقسيم الآيات حسب عباراتها وليس حسب رقم الآيات، هكذا:

(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ.

(٢) فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤).

(٣) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ

(٤) فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ.

(٥) وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

والآن سنعيد قراءة وفهم العبارات بترتيب مختلف لتتضح الصورة أكثر:

(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ.

الصيام كتب على المؤمنين وهو أيام معدودات من العام والمعني بالأيام المعدودات (شهر رمضان) (٣) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ

(٤) فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ

من شهد الشهر أي كان مقيماً (وليس مريضاً) فليصمه. هذا أمر وليس تخييراً.

فالصيام واجب على المقيم المتعافي، لا خيار له بتركه.

أما المريض أو الذي على سفر أي كان مرتحلاً خلال نهار يوم أو أيام في رمضان فيحل له الإفطار. كتيسير وتسهيل من الله. ومن أفطر فليصم نفس عدد الأيام التي أفطرها فيها بعد.

ومن أفطر بسبب المرض أو كونه على سفر (مرتحلاً في نهار رمضان) ثلاثة أيام مثلاً، وكان الشهر في تلك السنة (٢٩) يوماً فعلى من أفطر الثلاثة الأيام إكمال عدة الشهر (٣٠) يوماً



أي يصوم أربعة أيام، ثلاثة قضاء ما فات، ويوماً لإكمال عدة الشهر.

وتكرر الآيات الكلام للتأكيد ولتوضيح نقطة أخرى: (٢) فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤)

من أفطر بسبب المرض أو كان مرتحلاً فليقض.

لكن من عليه قضاء وهو بصحة جيدة ومقيم، فله حق الاختيار بين أن يقضي الثلاثة الأيام التي أفطرها بمثلها أو ألا يصوم ويقدم فدية عن كل يوم طعام مسكين.

ومن اختار إطعام المسكين وقرر أن يزيد في الإطعام، سواء بكثرة الطعام أو زيادة عدد الأيام فبدل ثلاثة يطعم ستة أيام فهو خير له.

ويبقى صوم الثلاثة أيام التي أفطرها أفضل من الفدية.

مرة أخرى لم يكن فهم هذه الآيات صعباً زمن الرسول ولم يتساءل عنه الناس. ومع وضوحه يأتي الآن من يقول إنه يعني أن الناس في رمضان يمكنهم ترك الصوم والاكتفاء بإطعام المساكين. وهذا القول يعتمد على كتب التراث وتخاريف المفسرين المضحكة المبكية، التي سأذكر أهمها مع تعليق قصير، دون ذكر من قالها للاختصار:

القول الأول: قالوا إنه في أول الإسلام، خيّر الله تعالى من يطيق الصيام بين أن يصوموا ولا يكفروا، وبين أن يفطروا ويكفروا كل يوم بإطعام مسكين، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)، وقال آخرون بل نسخ بقوله: (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُم).

ومن قال بهذا لا يدري أن رمضان فرض في المدينة ولم يفرض منه شيء أول الإسلام في مكة. وسبب هذا أنهم قطعوا القرآن لآيات وأجزاء آيات. وقالوا إن جزء الآية هذا نزل في مكة والجزء الآخر في المدينة، واختلقوا لكل جزء سبب نزول، ومتى أُحصروا قالوا نسخت الآية بآية أخرى.

والقول الثاني: أن من كان يطيقه في شبابه وكبرت سنه وعجز عن الصوم فليفطر ويفدي ولا قضاء.

وهذا قول بديهي فمن لا يستطيع الصوم لن يصوم، شاباً كان أو في أرذل العمر.

ومرة أخرى يتجلى جهلهم بالقرآن وأحكامه وتشريعاته، فمن لا يستطيع الصوم فلا جناح



عليه لو أفطر ولا يفدي ولا يقضي.

والقول الثالث: كان من شاء صام ومن شاء أفطر ودفع فدية عن كل يوم مسكينا حتى نزلت فمن شهد منكم الشهر فليصمه. فصار من يطيقه ولا يصومه فعليه فدية، ثم نسخت، بمن شهد منكم الشهر.

انظر كيف مزقوا الآية على شكل أجزاء كل جزء نزل في زمان ومكان مختلف عن بقية الآية.

وقول رابع: أنها نزلت في الحامل والمرضع فقط ثم نسخت.

وقول خامس: إنه أول ما فرض الصوم شق عليهم، فرخص لهم من يرغب في الإفطار فعليه فدية، إلى أن تعودوا على الصيام فنسخ الترخيص.

وقد تفرد ابن عباس بتشريع خاص. فقد كانت له أم ولد ترضع فأجهدت فأمرها أن تفطر ولا تقضي. وتأول الآية وكأنها نزلت للتسهيل على من تسرى بها خارج نطاق الزواج وبالحرام، ولما حبلت أراد ان يخفف عنها بالسماح لها بالإفطار في رمضان. فذهب ما قال مثلاً وأصبح تشريعاً للمسلمين.

لقد كان المفسرون يستسهلون التقول على الله أسهل من شرب الماء، ولكن المؤسف هو أننا تمسكنا بتخاريفهم واعتبرناها دين الله.

ولا يتوقف أحد ويتساءل: هذه ستة أقوال مختلفة في معنى جزء من آية، وكلها لا تستقيم مع المنطق قبل أن تستقيم مع عدل الله وحكمته وقدرته ومعرفته ما ينزل من أحكام. واعتمادها على علم لا صحة له والذي أسموه (الناسخ والمنسوخ).

ولو نبذنا قولهم بنزول القرآن على شكل آية وجزء من آية وقولهم بالناسخ والمنسوخ، فسنقرأ الآية ونفهمها بكل وضوح كما تقدم دون حاجة لتأويل المتأولين الذين لا يجدون غضاضة في تقويل الله ما لم يقل.

صلاة جماعية في ليالي رمضان

البعض يسميها تراويح، والبعض يسميها تهجداً، وآخرون يسمونها قياماً، وهي عبارة عن صلوات تقام خصيصاً في ليالي شهر رمضان. ويعتقد من يؤديها أن من سنها هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ورغب فيها.



وهذا يستحيل أن يكون حدث:

- لأن الرسول لا يستطيع أن يفرض أي تشريع أو يحبب بعبادة دون القرآن.
- ولأن دين الله الذي يمثل تشريعاته كتابه، ليس فيه حكم يقول: للفاعل أجر ولا شيء على التارك، وهو ما يعرف في الفقه بالسنة والمستحب. والمباح والحلال في القرآن لا أجر لمن يقوم به، ولا ذنب لمن تركه. ومن ذلك أن الله جل وعلا يقول: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦) المائدة.

فصيد البحر حل، لكن لو لم آكله فليس علي ذنب. بينما في الفقه المعتمد على كتب التراث، يؤجر من يفعل المستحب والسنة، ولا ذنب على من تركها. ولا يأثم من فعل المكروه. مثل هذه الأحكام يخلو منها دين الله وكتابه. ويكون الرسول لم يأمر بما يسمى التراويح أو أي صلوات أو عبادات أخرى غير المفروضة، لأنها تدخل في حكم السنة والمستحب.

ويستدلون على هذه الصلوات بحديث روته كتب الحديث، وهذه إحدى رواياته في البخاري: حدَّثنا عبدُ الله بنُ يوسُفَ قال أخبرَنا مالكٌ عن ابنِ شهابٍ عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صلَّى ذاتَ ليلةٍ في المسجدِ فصلَّى بصلاتِهِ ناسٌ، ثمَّ صلَّى منَ القابلةِ فكَثُرَ الناسُ، ثمَّ اجتمعوا منَ الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ فلم يَخرُجْ إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا أصبحَ قال:قد رأيتُ الذي صنَعْتم، ولم يمنَعْني منَ الخروجِ إليكم إلاّ أني خشيتُ أن تُفرَضَ عليكم، وذلك في رمضان.

ولو عدنا للحديث وتمعنا فيه فلن نجد أن الرسول حث الناس على أداء هذه الصلوات، لكننا سنجد أن الحديث ينص على أن الرسول نهى عنها وعن فعلها. وذلك بامتناعه من أدائها في المسجد لئلا يصلوا معه، وقوله لهم إنهم لو صلوها فيخشى أن تفرض عليهم.

ونقول هذا لمن يؤمن بالحديث.

وحتى هؤلاء يعلمون ألا أحد من الصحابة زمن رسول الله صلاها، باستثناء أولئك النفر المجهولين الذين لم يذكر من أسمائهم أحد. ولم يصلها أبو بكر، لأنه لم يصلها أحد في عصره، ولو كان صلاها لاستمر يصليها. ولم تورد كتب التراث أن أحداً من كبار الصحابة بالاسم قد صلاها.



وتقول كتب التراث إن عمر ابن الخطاب هو من أعاد أداء التراويح، وهذا هو الخبر الذي استدلوا به على ذلك: عنِ ابنِ شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عبدِ الرحمنِ بن عبيدٍ القارِيِّ أنهُ قال: خرَجتُ معَ عُمرَ بن الخَطّابِ رضيَ الله عنهُ ليلةً في رمضانَ إلى المسجدِ فإذا الناسُ أوزاعٌ مُتَفَرِّقونَ يُصلِّي الرجلُ لنَفْسِهِ، ويُصلِّي الرجُلُ لنفسه ويُصَلِّي الرَّجُلُ فيُصلِّي بصلاتِهِ الرَّهطُ. فقال عمرُ: إني أرَى لو جَمعتُ هؤلاءِ على قارئ واحدٍ لَكانَ أمْثَلَ. ثمَّ عَزمَ فجمَعَهم على أُبَيِّ بنِ كعبٍ. ثمَّ خَرَجتُ معهُ ليلةً أُخرى والناسُ يُصَلُّونَ بصلاةِ قارِئهم، قال عمرُ: نِعْمَ البِدْعةُ هذهِ، والتي يَنامونَ عنها أفضَلُ منَ التي يَقومونَ ـ يُريدُ آخرَ الليلِ ـ وكان الناسُ يَقُومونَ أوَّلَه. رواه البخاري

وعبد الرحمن ابن عبد القاري – الذي نسب له الحديث – كل ما استطعت الاطلاع عليه حول ما قيل عنه في كتب الرجال أنه ولد في عصر الرسول.

فإذا كان عمر ابن الخطاب لم يصل هذه الصلاة طوال زمن رسول الله وزمن خلافة أبي بكر، ولم يصلها بنفسه عندما رأى الناس في خلافته يصلونها، ولم يصلها بعدما أمرهم بصلاتها جماعة «على افتراض أنه أمرهم»، فهل يعقل أن يأمر الناس بصلاة هو لم يقم بأدائها طوال عمره مرة واحدة؟ ولم يصلها بعدما أمرهم أبداً. خاصة أن الخبر ينسب لعمر أنه أطلق عليها «بدعة». فكيف سمح عمر للناس بمزاولة بدعة في مسجد رسول الله، وهو الذي ضرب عدداً من الصحابة لأنهم يحدثون عن الرسول، معتبراً تحديثهم عن الرسول بدعة.

وحتى لو افترضنا أن عمر قد أخطأ عندما قال للناس صلوا جماعة في صلاة يعلم هو قبل غيره أنها بدعة، فهل من الشرع طاعة عمر؟

وحتى لو أطاعه الناس فلن تتحول البدعة إلى فضيلة يثيبهم الله عليها، لأن عمر أو غير عمر أمر بأدائها. ولو كان عمر فعل ذلك – وهو لا يمكن أن يكون فعل – لأثم بتصرفه وتشجيعه للناس على أداء صلاة رفض الرسول أن يصليها الناس معه. وأثم الناس بصلاتهم وطاعة عمر، لأن عمر ليس نبياً يوحى إليه، ولا يستطيع تشريع صلاة لم يفرضها الله على الناس. ولو أن هذا ما حدث فيأثم كل من يصلي تلك الصلاة لأنه جعل عمر رباً من الأرباب من دون الله.

ثم إن مسمياتها لم يسمها الله ولا رسوله، بل إن هذه المسميات لم يسمع بها الناس في عصر



الرسول وحتى عصر عمر ابن الخطاب على الأقل، وقد لا يكون الناس سمعوا بها إلا فيها بعد عصر الفتوح. ولم يتفق المسلمون على عدد ركعاتها أبداً.

أصل هذه الصلوات

يبدو أن الناس في عصر الظلمات تناقلوا أخباراً عن سهر الرسول الخاص الذي كلفه القرآن به لوحده، في بداية البعثة لتهيئته لتحمل أعباء الدعوة، والذي ورد في العشر الآيات الأولى من سورة المزمل: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً(٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً(٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً(٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً(٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً(٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً(٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً(٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً(١٠).

وكما نرى فالآيات تأمر الرسول وحده على السهر للتأمل وتلاوة القرآن وذكر الله وليس هناك أمر بأداء صلوات أبداً[1]. وبعد هجرة الرسول وقيام دولة المسلمين انتفت الحاجة لبقائه عليه الصلاة والسلام مستيقظا طوال الليل للتأمل والذكر، فنزل القرآن يعفي الرسول من قيام الليل فيما اعتبر آخر آية في سورة المزمل (وهي سورة قائمة بذاتها ألحقت بسورة المزمل أو أنها كتبت بعدها فظن الناس في عصور لاحقة أنها منها فألحقت بها): إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٠).

والآية (السورة) تظهر أن الرسول التزم بأمر القرآن الذي ورد في أول سورة المزمل بدقة طوال السنوات التي قضاها في مكة وداوم على ذلك بعد الهجرة حتى نزلت هذه الآية (السورة) التي نزلت بعد أشهر من الهجرة.

وتظهر الآية (السورة) أن نفراً من المسلمين كانوا يسهرون بسهر الرسول ويصلون بصلواته،

١ انظر قسم الأحداث واعتكاف الرسول في غار حراء للمزيد.



فجاء الأمر الصريح للرسول ومن صلى بصلاته أن يتوقفوا – لانتفاء الحاجة لها – ولكي ينصرفوا لأعمالهم الدنيوية وللجهاد وعليهم إقامة الصلوات المفروضة وإيتاء الزكاة.

فتوقف الرسول ومن تابعه من المسلمين، وانتهى أمر سهر الليل. لذا لم يكن الناس يفعلونه في عصر أبي بكر.

وفي عصر الظلمات والفتن كان البعض يبحث عن أي خبر يتحدث عن أي عبادة كان الرسول يؤديها غير ما فرض على المسلمين، ومن ثم يحاول أن يقوم بها ويأمر الناس بفعلها، تأسياً برسول الله. ومما تسامع به الناس أن الرسول كان يقوم الليل، فتناقل الناس أن الرسول كان يقوم الليل ليس فقط لذكر الله وتسبيحه وقراءة القرآن، بل وليصلي. وتحولت متابعة نفر من المسلمين له بقيام الليل لتلك القصة التي تقول إنهم رأوه يصلي فصلوا بصلاته إلى أن احتجب عنهم بعد عدة ليال[1]. وحتى لو افترضنا أن الرسول كان يصلي صلوات غير المفروضة، وصلى معه بعض الصحابة، فإنه لا يستطيع أن يمنع الناس من الصلاة. وكان سينتظر نزول القرآن ليتلو عليهم أنهم ممنوعون، كما جرت عليه عادته كرسول. ولم ينزل قرآن يأمر بوقف صلاة، لأنه لم يحدث أن صلى الرسول غير المفروضة وصلى أحد بصلاته.

ومع الأيام أصبحت هذه الحكاية تترسخ شيئاً فشيئاً وتم تقويتها بقصص أخرى مثل تلك القصة المروية عن عمر وأنه وصفها «بنعم البدعة» وأمرهم بأن يصلوها جماعة. وهكذا تحول سهر الرسول من أجل التأهيل النفسي في بداية الدعوة، إلى صلوات جماعية يؤديها الناس لأن الناس تناقلوا سهر الرسول مشافهة وزيد عليه وعدل وبدل إلى أن تحول لصلوات يحرص الناس على أدائها. وخصوا رمضان بها، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يسهر طوال ليالي العام قبل أن تنزل عليه السورة الملحقة بآخر سورة المزمل والتي تعفيه ومن تبعه من المسلمين وسهروا بسهره: " إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا

---

[1] ولعل الرسول كان في بداية الهجرة وقبل نزول سورة (آخر آية من المزمل) يسهر الليل في مسجده الملاصق لحجراته، وقد لاحظ بعض المسلمين ذلك فكانوا ينضمون إليه. ولعله بالفعل قد أخبرهم أنه لن يسهر في المسجد بعد ذلك واضطر لمواصلة السهر في حجرته بعد ذلك.



الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ".

وهذه السورة (الآية) نزلت في السنة الأولى من الهجرة وقبل أن يفرض الصوم. لكن الناس خصوا بها رمضان دون بقية الشهور بما عرف بالتراويح.

وفي تطورات أخرى قام الناس بإضافة ما عرف (بالشفع والوتر) وهي ختام التراويح بركعة واحدة أو ثلاث وتكون مصحوبة بما شاع اسمه (القنوت) وهو دعاء يعتمد السجع في ألفاظه وإسباغ الحزن على الصوت، ويقال بعد الرفع من الركوع في آخر ركعة.

وهكذا تطور مفهوم صلوات الليل زماناً بعد آخر حتى أصبحت بصورتها الحالية.

وأصبحت خاصة برمضان، ويحرص الناس على أدائها أكثر من حرص بعضهم على أداء الصلاة المفروضة. بل إن النساء يحضرن للمساجد لأداء تلك الصلوات، ولا يحضرن لأداء صلاة المغرب التي تسبقها.

وأصبحت تلاوة القرآن أثناء تلك الصلوات تجارة يتلقى المقرئ الحسن الصوت أموالاً مقابل إمامته لأن المقرئ الحسن الصوت يؤدي لامتلاء المسجد بالمصلين ويجذب النساء أكثر[1].

الاعتكاف

يعني لزوم المكان أو الشيء دون تحديد لمدة.

وسنستعرض الآيات التي ذكرت الاعتكاف لكي نلم بالمعنى الكامل للفظ بعيداً عن أقوال المفسرين.

الآية الأولى

قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) طه.

والحديث في الآية عن بني إسرائيل الذين عبدوا العجل أثناء غياب موسى لتلقي التوراة. وعبادة العجل لا تعني أن القوم مستمرون طوال ساعات الليل والنهار على عبادة العجل،

---

١ انظر فصل: كتب التراث المعروفة بعلوم الدين/ فقرة: تلاوة القرآن بإيقاع/ قسم تدبر القرآن.



ولكنها تعني أنهم يتبركون به ويعبدونه لبضع دقائق خلال اليوم والليلة، ومع ذلك وصفتهم الآية بأنهم عاكفون.

ويفهم من هذا أن الاعتكاف يعني أداء فعل لوقت قصير ثم معاودة ذلك بعد فترة بتكرار مستمر ولا يعني ملازمة الفعل لوقت طويل.

الآية الثانية

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظر إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً(٩٧) طه.

موسى في الآية يخاطب السامري - الذي صنع العجل الذي عبدته بنو إسرائيل- واصفاً إياه بأنه ظل عاكفاً على عبادته. وعكوف السامري على عبادة العجل مشابهة لعبادة بني إسرائيل للعجل، ليس مستمراً طوال الليل والنهار ولكنه قد يومئ للعجل مرة أو مرات في اليوم ويقية الوقت يصرفه في أعمال أخرى لا علاقة لها بالعجل. لكن مجرد اعتقاده بعبادة العجل طوال الوقت ومعاودته التوجه بالعبادة له، فهو عاكف على عبادته.

ويفهم من هذا نفس معنى الاعتكاف في الآية السابقة.

الآية الثالثة

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢) الأنبياء.

إبراهيم يصف عبادة أبيه وقومه للتماثيل على أنها اعتكاف، مع أنهم يقضون معظم ساعات الليل والنهار بعيداً عنها. وقد تمر أيام دون أن يتوجه أحدهم للأصنام. لكنهم وإن لم يقوموا بأداء حركات تعبدية فهم يؤمنون بعبادتها طوال الوقت. فهم عاكفون على المعتقد، وإن لم يمارسوه على الدوام.

فالاعتكاف لا يعني الالتزام بالمكان ولكن بالمعتقد.

وهو ما كررته سورة الشعراء في قوله تعالى: قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١).

الآية الرابعة



إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥) الحج.

الآية تتحدث عن صد قريش المسلمين من دخول البيت، في أواخر الدعوة في مكة، وهذا ليس من حقهم. لأن البيت وضع لكل الناس سواء العاكف (أي من اهل مكة) أو الباد (القادم من بلاد أخرى).

فالعاكف تعني من يتردد باستمرار على البيت كونه في مكة وقد يحضر عدة مرات في اليوم للبيت. بينما الباد يقدم لمكة لعدة أيام من أجل الحج، ولا يقضيها في الاعتكاف. فهو ليس عاكف. بمعنى مداوم على المجيء.

وهو نفس معنى الاعتكاف في الآيات السابقة.

الآية الخامسة

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

والعاكفون في الآية تشير لمن يقطن مكة، وبإمكانهم المجيء للبيت على الدوام وكل يوم.

وهو نفس معنى الاعتكاف في الآية السابقة.

الآية السادسة

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧) البقرة.

المسلمون في المدينة زمن الرسول لم يكونوا يقضون رمضان في المسجد كما يفعل الناس حالياً. لكنهم عاكفون على المجيء للمسجد خمس مرات في اليوم ولنفس المسجد. وقد يبقى الرجل بعض الوقت في المسجد بعد أو قبل الصلاة. لكن لا يبيتون في المسجد أو يبقون عدة أيام أو العشر الليالي الأخيرة من رمضان كما يفعل الناس اليوم. فهذا استيطان



وليس اعتكافاً.

والآية جاءت لتنهى عن مباشرة النساء في المساجد وليس من أجل تشريع الاعتكاف. فقد يبقى المصلي لبعض الوقت في المسجد، وفي حال قدمت إليه امرأته فلا يجوز له مباشرتها أو مقدمات المباشرة في المسجد. سواءً كان هذا في رمضان أو في غيره من الأشهر. لأن الحديث عن مباشرة النساء في رمضان توقف عند قوله: «ثم أتموا الصيام إلى الليل». وبدأت السورة بموضوع جديد وهو النهي عن مباشرة النساء في المسجد.

والقرآن كله يخلو من تشريع لما يسمى "الاعتكاف"، لأنه ليس هناك اعتكاف بالمعنى الشائع حالياً. والاعتكاف ورد في القرآن ضمن سياق إخباري عن أحداث وقعت ولم يرد في القرآن آية تشريع واحدة تفرض الاعتكاف.

ويكون الاعتكاف هو تكرار الحضور للمكان أو فعل الشيء ذاته مع الاعتقاد الدائم بما نفعل.

فالمسلم يؤمن بالله ودينه وأن الصلاة واجبة طوال الوقت فيتردد على المسجد دائماً لأدائها، وقد يبقى فيه لبعض الوقت خارج وقت الصلاة. وبما أن المسلمين زمن الرسول كانوا يؤدون الصلاة جماعة في المسجد نساءً ورجالاً، ومن الطبيعي أن يبقى رجل بعد أداء الصلاة في المسجد وتبقى زوجته. ولابد أنه حدث بالفعل أن رجلاً أو أكثر واقع امرأته بالفعل في المسجد، فنزل النهي، لأن القرآن لا يفترض مواقف لم تحدث ويفرض لها أحكاماً.

وليس هناك أخبار مؤكدة تشير إلى أن رسول الله كان يبقى في المسجد ليوم كامل أو لعدة أيام على شكل اعتكاف بمعناه الشائع. وعلينا أن نتذكر أنه في زمن الرسول لم تكن المساجد مليئة بالمصاحف مثل هذه الأيام، ليعتكف المسلمون لقراءة القرآن. فقد كان القرآن يحفظ في الصدور، وكل من يرغب في قراءة القرآن فليستحضره من ذاكرته وهو في بيته أو في مكان يخلو فيها لنفسه، ولا يشترط تواجده في المسجد.

وكل ما نراه اليوم من تخصيص أيام سبات وإقامة في المسجد وخلوة وانقطاع هي صورة منسوخة لحياة الدير في البلاد المفتوحة، حيث ينقطع رجال الدين المسيحيون عن الحياة العامة في أديرتهم لتلاوة الكتاب المقدس والعيش الخشن. وقد أبقى من دخل الإسلام منهم على هذه الرهبنة على شكل ما عرف بالاعتكاف.



وبقي التذكير بحديث يقول: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به".

ومن اختلق الحديث يظن أن كل البشر تناسلوا من آدم. وما آدم سوى بشر خلقه الله بدون أب وأم والأرض عامرة بسكانها البشر وبسلالاتهم الحالية.

وهذا الحديث مختلق لأنه لا يمكن أن يكون قاله الله ولا قاله رسوله، والدليل هو:

إن كان الصوم فقط لله والله جل وعلا من يجزي به، فلمن الصلاة ومن يجزي بها؟

ولمن الحج ومن يجزي به؟

ولمن العدل وقول الحق والبعد عن الزور والإحسان والإنفاق وكل الأعمال الصالحة المأمور بها في القرآن، ومن يجزي بها؟

ولنفترض أن مختلق الحديث بلغ به السفه أنه لا يعي ما يقول، فكيف غُشيت عقول مؤلفي كتب الحديث وضمنوه كتبهم؟

وكيف غشيت عقول أتباع المذاهب ورددوه في مجالس قصصهم؟

وكيف غشيت عقول من يرتاد مجالسهم ومن يستمعون لهم ولم يفطنوا إلى أن هذا الحديث لا يستقيم، ونسبته لله تشبيه له بمختلق الحديث. وكأن الله غشي على عقله[1] فقال كلاماً لا معنى له. (تبارك الله وتنزه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا)

فكل الأعمال مطلوبة من الله وعلى المسلم فعلها ليس لأن الله بحاجتها، ولكن لأنها جواز سفر للجنة لمن يرغب.

ونختم الحديث عن شهر رمضان بالقول إنه شهر لا تفتح فيه أبواب الجنان ولا تغلق أبواب النيران، بالمعنى الحرفي ولا بالمعنى المجازي. وليس فيه صلوات إضافية. وهو شهر لا تقبل فيه الأعمال الصالحة أفضل من غيره، ولا يجب أن يقل فعل الخيرات في غيره من الأشهر عنه.

في المقابل ليس شهر رمضان شهراً للمجون والسهرات، ولا للنوم في النهار. ولا للإسراف في الطعام والشراب. وليس شهرا تقصر فيه ساعات العمل، وينخفض الأداء ويقل الإنتاج. (طبعاً بلادنا العربية ليست منتجة ولن يلاحظ أي انخفاض لا للأداء ولا للإنتاج، لأنها

---

١ نسبة العقل لله من باب المجاز، استدعته ضرورة الحديث، وليس تثبيت ما للبشر للخالق الذي ليس كمثله شيء.



أصلاً في أدنى المستويات).

شهر رمضان بكل بساطة شهر لا يأكل في نهاره المسلم ولا يشرب، دون أن يكون هناك تغيير في مواعيد النوم والنهوض والعمل والنشاط.

زكاة الفطر

ليس هناك آية واحدة تشير لها، وكل ما تقوم عليه حديثان:

أحدهما ينسب لابن عباس ويقول فيه: "فَرَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنْ الصَّدَقَاتِ".

والحديث الآخر نسب لابن عمر ويقول: «فَرَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ".

والحديثان لو افترضنا أن نسبتهما لمن نسبا له صحيحة فهما ابن عباس وابن عمر، وليس فيهما كلام للرسول.

وصوم رمضان عبادة والزكاة عمل صالح واجب، لا علاقة له بالعبادات ولا يرتبط بها. وكما أن عبادة الصلاة ليس لها زكاة، وعبادة الحج ليس لها زكاة، فلماذا يكون للصيام زكاة؟

وماهي غاية زكاة الفطر؟

فإن كانت زكاة الفطر لمعاونة المحتاج فإنها تدخل في الزكاة العامة التي هي صفةٌ للإنفاق في القرآن. والإنفاق واجب على كل قادر ويهدف لسد حاجة المحتاج في أي وقت يحتاج، ولا يقتصر على المواسم، ويؤدى كلما دعت الحاجة وليس مرة في العام.

ولماذا يجب إخراجها قبل صلاة العيد؟

فإن أخرجت بعده فتتحول إلى صدقة بالمفهوم الشائع؟

فتحديد وقت لإخراجها يجعلها كالصلاة المفروضة، وكأن لها وقتاً مفروضاً.

كما أن قولهم إنها لو أخرجت بعد الصلاة فهي صدقة يشير إلى معتقدات رسخت في عصور ما بعد الفتوح، منها:



أن إسلام القرآن عندما يذكر الصدقة فهي تعني الإنفاق.

أن الإنفاق في القرآن واجب على القادر وحق للمحتاج لسد كل احتياجاته.

أن الصدقة بمعناها الشائع عبارة عن تقديم فتات لا يغني ولا يشبع من جوع من الغني للفقير، يشعر الفقير بالذلة ويشعر الغني بالزهو. وهو بخلاف رسالة الإنفاق القرآني الذي تتمثل غايته بتحقيق التكافل الاجتماعي وحرب الفقر وسد حاجات المحتاج مع احتفاظه بكرامته. فما يدفعه القادر واجب عليه وما يحصل عليه المحتاج حق له لا مجال فيه لمنة ولا معروف ولا تفضل.

وزكاة الفطر عبارة عن صدقة بمعناها الشائع الآن، سواءً سمتها كتب التراث زكاة أو لم تسمها. وسواءً أخرجت قبل صلاة العيد أو بعده.

وذكر صلاة العيد في الحديثين يؤكد اختلاقهما، لأن صلاة العيد ليست مفروضة في الإسلام ولا يمكن إثبات أن الرسول صلاها. لأنه لا وجود لها في القرآن، ولا يمكن أن يفرض الرسول صلوات ليست في القرآن.

وستتحدث عن العيدين لاحقاً.

ويكون كل ما قامت عليه «زكاة الفطر» هو حديثان منسوبان لابن عباس الذي لم يعش في المدينة زمن الرسول، ومات صلوات الله عليه وهو طفل. وقد يكون الحديث الثاني امتداداً للأول ومنسوباً أصلاً لابن عباس، ثم فصل كحديث مستقل ونسب لابن عمر.

ودين الله لا يقوم على أقوال ظنية لا يعلم من نقلها ولا من قالها، أو لماذا قالها وما هي دوافعه. ولكن الدين يقوم على كتاب الله، وكتاب الله بريء من ذكر زكاة الفطر[1].

العيدان

هل فرض الإسلام العيد؟

** القرآن المجيد يخلو تماماً من أي إشارة لفرض عيد على المسلمين.

وقد ورد لفظ «عيد» في القرآن مرة واحدة: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤)

[1] من يرى ما يحدث الآن في السعودية من بيع لكميات هائلة من الأرز في السعودية بأحجام مقدرة لتكون زكاة للفطر ي



المائدة.

والعيد في الآية ليس بمفهوم العيد السائد والذي يعني مناسبة دورية لإظهار الفرح، ولكنه في الآية يعني وليمة.

** والقرآن لا يتحدث عن الأعراف السائدة والعادات ما لم تتناقض مع تشريع.

** هناك أحاديث تذكر أن الرسول صلى العيد، لكن لا يوجد حديث يفرض العيد كتشريع ديني.

وأرجو أن يكون الفرق واضحاً بين أن يقال أدى الرسول صلاة العيد أو حضر عليه الصلاة والسلام العيد، وبين أن يقال أمر الرسول بالعيد أو بصلاة العيد، أو قال: صلوا العيد أو صلاة العيد فرض...الخ.

** وبما أن كتاب الله يخلو من ذكر العيد ويخلو من تشريع يفرض صلاة العيد فهذا يعني أنه عرف اجتماعي مباح ولا شأن لدين الله به.

وحكم صلاة العيد في فقه المذهب: فرض كفاية.

ويشرحون مصطلحهم هذا بأنه: إذا قام به البعض سقط عن البقية.

يعني لو صلى جماعة صلاة العيد سقط وجوبه على بقية أهل البلدة. وما لم يفطن له من قال بهذا الحكم هو: أن كان من لم يصل العيد سينال أجر من صلاه بحكم أن صلاته فرض كفاية؟

وتعريف فرض الكفاية يخرجه من أن يكون من دين الله. لأن دين الله كل تشريع فيه مطلوب من كل مسلم ومسلمة ولا يسقط عن البعض لأن البعض الآخر قام به.

ونحن هنا لا نقول بعدم إقامة العيد ولا كراهية إقامته ولا ضد أن يكون هناك أيام فرح ومتعة للناس، فليس هذا موضوعنا. ما نتحدث عنه هو: هل عيداً الفطر والأضحى من دين الله؟

هل لي أجر من الله لو شاركت بصلاة العيد أو بمظاهر العيد؟ وهل علي ذنب لو لم أفعل؟

الجواب: لا!

العيد مظهر اجتماعي ومناسبة تقرب بين الناس، وليس في الدين نهي أو أمر بإقامته.



الاعتراض ألا ينسب العيد لدين الله وينظر له على أنه تشريع وفريضة دينية.

ونتوقف هنا قليلاً عند حديث يقول: لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ.

ونسأل: لماذا يفرح المسلم بانتهاء شهر الصوم لدرجة أنه يقيم الأفراح ويعتبر انتهاء شهر الصوم عيد؟

ألا يوحي هذا وكأن الصوم هم وانزاح؟

وكأن الصائم في نهاية رمضان يتمثل بالمثل الشعبي القائل: فراقك عيد.

كيف يعقب المسلم شهر الصوم برقص وغناء وفرح؟

الخلاصة: عيد الفطر وعيد الأضحى مناسبتان اجتماعيتان ترسخت بين المسلمين وتفردوا بها عن بقية الناس، ولا أدري متى ظهرتا للوجود. ما يجب أن يعرفه الناس أن الله جل وعلا لم يأمر بصلاة العيد ولا بإقامة العيد. وهذا لا يعني أن العيد ومظاهره السعيدة حرام أو منهي عنها أو مكروهة. بل هي مباحة، لكنها ليست من دين الله.

ولو اتفق الناس على الاحتفال بمناسبة ما، واعتادوا الاحتفال بها سنوياً فلا شأن للدين بهذا، مثل الأعياد الزراعية في بعض البلاد والأعياد المحلية لبعض البلدان الأخرى فكلها لا شأن للدين بها لا أمراً ولا نهياً.

صيام ستة أيام من شوال

يعتمد رجال الدين الذين يُرغّبون الناس في صيام ستة أيام من شوال على خبر نسب للرسول، ونصه: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِسِتٍ مِنْ شَوَّالَ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ، أو فَكَأَنَّمَا صَامَ السَّنَةَ كُلَّهَا.

وهذا الخبر لم يرد في كتاب البخاري (١٩٤-٢٥٦ هـ)، وأورده مسلم،(٢٠٦-٢٦١ هـ) وكرره أحمد (١٦٤_٢٤١ هـ) في مسنده، والترمذي (٢٠٩-٢٧٩ هـ) والدارمي (١٨١-٢٥٥) وأبو داوود (٢٠٢-٢٧٥ هـ). وقد ورد الخبر إما عن طريق سعد بن سعيد الأنصاري، الذي ينسب منه الخبر إلى عمر ابن ثابت، ثم إلى أبي أيوب الأنصاري. أو عن طريق سعيد بن أبي أيوب ومنه نسب إلى عمرو بن جابر الحضرمي عن جابر بن عبد الله في



عدد من الروايات في مسند أحمد. وعمرو ابن جابر الحضرمي من غلاة الشيعة كما ورد في تاريخ الثقات للعجلي.

وقد أورد مالك ابن أنس (٩٣-١٧٩ هـ) في الموطأ خبراً أظهر بجلاء كيف بدأت فكرة صيام ستة أيام شوال بين الناس، وكيف كان موقف رجال دين والناس المتدينين من هذا الصيام، ثم توقعاته في أن هذه البدعة سوف تتحول مع الأيام إلى فضيلة تقرب من الفريضة.

وهذا نص ما ورد في الموطأ: قَالَ يَحْيَى: وَسَمِعْتُ مَالِكاً يَقُولُ فِي صِيَامِ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ إِنَّهُ لَمْ يَرَ أَحَداً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ يَصُومُهَا وَلَمْ يَبْلُغْنِي ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ وَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ يَكْرَهُونَ ذَلِكَ وَيَخَافُونَ بِدْعَتَهُ وَأَنْ يُلْحِقَ بِرَمَضَانَ مَا لَيْسَ مِنْهُ أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْجَفَاءِ لَوْ رَأَوْا فِي ذَلِكَ رُخْصَةً عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَرَأَوْهُمْ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ. إنتهى!

وكتاب الموطأ قام مالك بتأليفه بتكليف رسمي من أحد خلفاء بني العباس وأغلب الظن أنه المنصور الذي طلب منه أن يضع كتاباً للناس يحملهم على الاستشهاد بما جاء فيه من أحاديث وترك ما عداها مما كان منتشراً بين الناس ويتناقلونه من أحاديث. ويعتبر أقدم كتب الأحاديث الموجودة لدينا الآن، وتأليفه سبق تأليف البخاري لكتابه بنحو مئة عام.

وقد بقي موطأ مالك بأحاديثه الأقل من (١٠٠٠) حديث الكتاب الوحيد للأحاديث المنسوبة للرسول أكثر من نصف قرن. وما إن بدأ البخاري بجمع الأحاديث المنتشرة في عصره وتسامع بذلك الناس حتى انبرى كثيرون غيره لجمع الأحاديث التي يتناقلها الناس في مجالس قصصهم مشافهة. وقد حوت كتب الحديث التي ألفت في تلك الحقبة أحاديث تزيد بعشرات ومئات الأضعاف عما حواه كتاب الموطأ. وهذا يعني أن دخول البدع والتشريعات البشرية للموروث الديني مستمر، وكلما مر الزمن ظهر للوجود أحاديث تعتمد عليها البدع الجديدة، لم يسمع بها الناس في عصور سابقة.

وهو ما ينطبق على بدعة صيام ست من شوال، والتي لم تكن معروفة في القرن الأول ولا بداية القرن الثاني ثم بدأت في الظهور منتصف القرن الثاني كبدعة، عندما ألف مالك الموطأ، وأصبحت فضيلة منذ منتصف القرن الثالث للهجرة. لذا نجد أن البخاري لم ينقل في كتابه أي خبر يُرغِّبُ في هذا الصيام لأن «أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْجَفَاءِ» -كما سماهم مالك – لم



يلحقوه برمضان بعد.

وأول من أورده كان مسلم، وذلك تحت باب أسماه: باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان. وهو ما يشير إلى أنه في عصر مسلم انتشر صوم ستة أيام شوال أكثر بين الناس، فأورد مسلم الحديث ولكنه ذكر أنه للاستحباب فقط، مثلما أورد باباً آخر بعنوان: باب استحباب التزوج والتزويج في شوال، واستحباب الدخول فيه. وكأن التزويج في شوال له درجات عند الله أكثر ممن يتزوج في شهر آخر.

ثم تبع مسلم غيره في ذكر حديث استحباب صوم ست من شوال، وأحاديث ظهرت لاحقا، مما جعل رجال دين الذين جاؤا في عصور لاحقة، يعتقدون بأن ورود الخبر في كتب مسلم والترمذي والدارمي وأبي داوود وغيرهم يعني أن الرسول والصحابة قد صاموه بأمر من الله، فصامه «أهل العلم» (رجال الدين) في عصور لاحقة، بعدما كانوا يتكرهونه في عهد مالك، وأوصوا غيرهم بصيامه.

وهكذا صدق حدس مالك، فقد بدأ في زمانه ينتشر بين الناس صيام الستة الأيام من شوال، مع إنكار رجال الدين (أهل العلم) له باعتباره بدعة لم يفعلها السلف، ولكن هذا لم يمنعه من الانتشار.

واليوم، فصيام ستة أيام من شوال يقرب في فضله بين الناس من فضل صيام رمضان، على الأقل في بلاد الحرمين. وينظر إلى الشخص الذي لا يصوم هذه الأيام الستة، على أنه ترك عبادة من العبادات، ولم يعد أحد يجرؤ على القول بأن هذا الصيام بدعة كما قال عنه مالك، وإلا لتعرض للاتهام بالمروق من الدين وحوكم على مقولته.

صلاة وصوم الحائض

حدَّثَنا سَعيدُ بنُ أبي مَريمَ قال: أخبرَنا محمدُ بنُ جَعفرٍ قال: أخبرَني زيدٌ هوَ ابنُ أسْلَمَ عن عِياضِ بنِ عبدِاللهِّ عن أبي سَعيد الخُدْرِي قال: «خرَجَ رسولُ اللهَّ صلى الله عليه وسلم في أضحى ـ أو في فِطرٍ ، إلى المصلَّى، فمرَّ عَلَى النساءِ فقال: يا مَعشَرَ النساءِ تَصَدَّقْنَ، فإني أُرِيتكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ. فقُلنَ: وبمَ يا رسولَ اللهَّ؟ قال: تُكثِرْنَ اللَّعنَ، وَتَكفُرْنَ العَشيرَ، ما رأيتُ من ناقِصاتِ عَقلٍ ودِينٍ أذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازِمِ مِن إحداكنَّ. قلنَ وما نُقصانُ



دِينِنا وعَقلِنا يا رسولَ اللهِ؟ قال: أَلَيسَ شَهادةُ المرأةِ مِثلُ نِصفِ شَهادةِ الرجُلِ؟ قلن: بَلى. قال: فذلِكَ من نُقصان عَقلِها. أليسَ إذا حاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟ قلن: بَلى. قال: فذلِك من نُقصانِ دِينِها» رواه البخاري.

والحديث له روايات أخرى عند مسلم وغيره من كتب الحديث.

والحديث عندما قال:» شَهادةُ المرأةِ مِثلُ نِصفِ شَهادةِ الرجُلِ»، يشير إلى الآية (٢٨٢) من سورة البقرة، فلماذا لا نتدبر هذه الآية ونرى هل تعني فعلاً أن شهادة المرأة نصف شهادة المرأة، أم إن المفسرين على عادتهم، يؤولون آيات القرآن لغير معناها الذي نزل على محمد.

يقول تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ٢٨٢().

وقوله تعالى:» وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ» يعني أن المطلوب هو شهادة شاهدين.

ثم يقول تعالى:» فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء»، ولكنه لا يقف هنا، بل يبين سبحانه وتعالى السبب من وجود امرأتين، وهو:» أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى»، وليس المقصود أن المرأة بنصف شهادة الرجل. لأنه لو لم تضل الشاهدة الأولى وتدلي بالشهادة كاملة، فلن نحتاج لسماع شهادة الأخرى، وتكون الشهادة تمت بامرأة واحدة ورجل واحد.

أما لماذا تضل (تنسى) المرأة ولا ينسى الرجل، فلعل كون الاشتغال بالمال والتجارة كان في عصر الرسول بيد الرجل، ولم يكن من اهتمامات المرأة في العادة. وكل ما ليس في اهتمامات الشخص فنسيانه يكون أسرع.



أما قول الحديث بأن المرأة ناقصة دين لأنها إذا حاضت لا تصلي ولا تصوم، فهي حاضت لأن الله خلقها لتحيض، كعملية طبيعية لتخرج البويضة التي لم تلقح من جهازها التناسلي وتنظفه. وهذه المهمة نبيلة ويقوم عليها استمرار الجنس البشري، وليس فيها من نقص الدين أو العقل شيء.

وتبقى المرأة تتمتع بنفس قدرات الرجل العقلية، وعليها نفس الواجبات الدينية، وهي كاملة العقل والدين، إن هي آمنت وعملت صالحاً، ولها نفس الجنة التي للرجل: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

فمن رغب في كتاب الله فالمرأة كما الرجل لا فرق. ومن رغب في كتب الأخبار فالمرأة ناقصة عقل ودين وأكثر أهل جهنم، كما قالت الأحاديث.

صوم الحائض

حدّثنا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ مُعَاذَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلاَ تَقْضِي الصَّلاَةَ؟ فَقالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ. وَلٰكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ: كَانَ يُصِيبُنَا ذٰلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلاَ نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاَةِ. رواه مسلم.

هذا الحديث برواياته المختلفة هو دليل من يقول إن الحائض لا تصوم ولا تصلي، لكنها تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة. إضافة إلى أن ابن عبد البر (المتوفى بعد ٤٦٣ عام من الهجرة) والنووي (المتوفى بعد ٦٧٦ عام من الهجرة) قالا إن أهل العلم اتفقوا على أن الحائض يحرم عليها الصوم.

و"أهل العلم" يقصد بهم رجال الدين في نفس المذهب الذي يتبعانه ولا يعني كل رجال الدين في المذاهب الأخرى. وحتى لو اتفق كل رجال الدين في كل المذاهب على تشريع، فلا يعني قبوله في دين الله.

فما الذي يمكن فهمه من كتاب الله عن صلاة الحائض؟

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ



فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(٢٢٢) البقرة.

الآية تؤكد أن الحيض أذى، وتصف المرأة التي تتجاوز فترة الحيض بأنها تطهرت. أي نظفت من ذلك النزيف المعتاد. فالمرأة مخلوق بشري طاهر، ولم تكن نجسة أثناء المحيض، ثم عادت طاهراً بعدها.

ولا حاجة لأن نقول إنه لا يوجد في كل كتاب الله ما يحرم على الحائض الصوم، لأن الصوم لا يحتاج للطهارة. ولكنه ينتقض بما يدخل الجوف كالأكل والشرب، أما ما يخرج من الجسم فلا يفسد الصيام.

ومن حرم الصيام على الحائض هم رجال الدين، وقدموا بعض التبريرات.

فهل دين الله يحكم بتبريرات رجال الدين أم بالأدلة الإلهية والبراهين وبالعقل والمنطق؟

أما صلاة المرأة أثناء الحيض فيمنعها القرآن، لأن من شروط قبول الصلاة هو التطهر بالماء. سواء كان ذلك بواسطة الوضوء أو بالغسل للتطهر من جنابة أو حيض.

والجنابة سببها خروج المني من الرجل – بالجماع أو الاحتلام – المشابه بخروجه – خروج الحيض لتنظيف رحم المرأة من البويضة غير المستعملة. فالغسل وجب لأن هناك سائلاً «مني» خرج من عضو الرجل، أو سائلاً «حيض» خرج من عضو المرأة. والمني والبويضة لازمان لتخلق الجنين، وخروجهما خارج الجسم يوجب الغسل ولا تجوز الصلاة بدونه. وكون المحيض يستمر لعدة أيام فلا يمكن الغسل منه إلا بعد انقضاء أجله.

فالصلاة يشترط لها الطهارة، بعكس الصيام. والحيض لا يحول المرأة لإنسان نجس، مثلما أن المني لا يحول الرجل لإنسان نجس.

لذا فالصلاة لا تجوز للمرأة حتى تتجاوز مرحلة المحيض.

وهي لا تقضي الصلاة تبعاً لقاعدة قرآنية التي تعفي من له عذر من الواجبات الدينية: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً(١٧) الفتح.

فقد كانت معذورة أيام الحيض، وليس على من له عذر قضاء الصلاة.



ويبدو أن أتباع السلف وأهل الحديث قد وافقوا القرآن هنا، فهم يقولون بمثل ما قال القرآن. الحائض لا تصلي ولا تقضي.

والآن إلى صلاة المرأة في المنزل والمسجد.

فالنساء لا يصلين في المسجد جماعة مع الرجال اليوم ومنذ عقود طويلة. فهل منعها الله جل جلاله في كتابه أم أن المنع جاء مما دون ذلك؟

رجال دين بعض المذاهب يعتمدون في إبعاد النساء عن المساجد على أحاديث نورد لكم واحداً منها، يقول:

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا هارون ، حدثنا عبد الله بن وهب قال: حدثني داود بن قيس ، عن عبد الله بن سويد الأنصاري ، عن عمته أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي ، أنها جاءت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك؟ قال: «قد عَلمتُ إنَّكِ تُحِبِّينَ الصَّلاةَ مَعي، وَصلاتُكِ في بَيْتِكِ خَيْرٌ لَكِ من صَلاتِكِ في حُجْرَتِكِ، وَصلاتُكِ في حُجْرَتِكِ خَيْرٌ مِنْ صلاتِكِ في دارِكِ، وَصلاتُكِ في دارِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلاتِكِ في مَسْجِدِ قَوْمِكِ، وَصَلاتُكِ في مَسْجِدِ قَوْمِكِ خَيْرٌ لكِ مِنْ صَلاتِكِ في مَسْجِدِي» قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل. رواه أحمد في مسنده وورد في كتاب ابن خزيمة.[1]

ويتغافلون عن أحاديث تقول بخلاف ذلك، مثل حديث يقول: حدّثنا يوسفُ بنُ موسى حدَّثَنا أبو أُسامةَ حدَّثَنا عُبيدُ الله بنُ عمرَ عن نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ قال: «كانت امرأةٌ لعمرَ تَشهدُ صلاةَ الصبحِ والعِشاءِ في الجَماعةِ في المسجدِ. فقيلَ لها: لِمَ تخرُجينَ وقد تَعلَمينَ أنَّ عمرَ يَكْرَهُ ذلكَ وَيغارُ؟ قالت: وَما يمنَعُهُ أن يَنهاني؟ قال: يَمنَعُهُ قولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماءَ الله مَساجدَ الله»». رواه البخاري

وورد بصيغ مختلفة في مسلم، أحمد، الدارمي، أبو داوود، موطأ مالك، ابن خزيمة، ابن حبان، وابن ماجه.

وحديث يقول: حدّثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،

1 تختلق هذا الحديث لم يعرف المدينة زمن الرسول، وإلا لعرف أن بيوت الناس كانت عبارة عن غرفة أو غرف متجاورة، وليست كبعض بيوت الأباطرة في الشام والعراق والتي يكون المنزل عبارة عن قصر متعدد الحجرات والصالات بعضها متداخل ببعض.



قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا». رواه مسلم

وورد بصيغ أخرى في أحمد، الترمذي، الدارمي، أبي داوود، ابن خزيمة، ابن حبان، النسائي، وابن ماجه. ولو تدبرنا القرآن فلن نجد أي إشارة لتفضيل الصلاة للنساء في منازلهن أو في أظلم غرفة في البيت، كما يقول الحديث.

ولأن الدين واحد للرجال والنساء فإن المرأة يجب عليها الصلاة في المسجد إن كانت صلاة الجماعة واجبة. أو يجوز للرجل والمرأة الصلاة في البيت إن كانت صلاة الجماعة غير واجبة.

المؤسف هنا هو أننا نرى النساء في بلاد الحرمين يحضرن للمسجد قبل أذان العشاء في ليالي رمضان، لحرصهن على حضور ما يعرف بصلاة «التراويح». بينما يغبن عن المسجد في بقية الصلوات المفروضة طوال العام.

لمس الحائض للمصحف

يُحرِّمُ رجال الدين عند بعض المذاهب مس المصحف على الحائض.

وحسب علمي فلم يجدوا حديثاً يعتمدون عليه هذه المرة، لأنه ليس هناك حديث يقول بهذا التحريم. فاعتمدوا على آية سورة الواقعة التي تقول: «لا يمسه إلا المطهرون».

على اعتبار أن الضمير في «يمسه» يعود للمصحف (الكتاب الذي يحوي سور القرآن).

وعلينا الرجوع للسياق والمخاطب لنتعرف على من يعود له الضمير ومن هم المطهرون.

الآية رقمها (٧٩) في سورة الواقعة، والسياق كما يلي:

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

والسورة نزلت في بداية استمرار الدعوة في مكة، والمخاطب هم قريش.

وهذه الحقيقة نستفيد منها أنه لم يكن هناك مصحف في ذلك الوقت، بل لم يكن هناك آية واحدة مكتوبة والدليل جاء من القرآن. فقد ورد في سورة العنكبوت أثناء الحديث عن مواقف قريش الآية التالية التي تتحدث عن القرآن: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩).



والعنكبوت نزلت في المراحل الأخيرة من الدعوة في مكة، وبالتالي فالقرآن حتى تلك اللحظة لم يكتب. والواقع يؤكد أن الرسول لم يكتب القرآن إلا في المدينة، وبالتالي فعندما هاجر الرسول لم يكن يحمل معه صحفاً مكتوبة. والتاريخ يقول إن كتابة الوحي كانت في المدينة، مما يعني أنه لا يمكن أن تكون الآية تتحدث عن مس المصحف.

وهناك حقيقة أخرى.

الآيات تؤكد لقريش (الذين تخاطبهم السورة) أن القرآن في كتاب مكنون.

هذا الكتاب المكنون سمته سورة أخرى لوحاً محفوظاً: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ(٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(٢٢) البروج.

وفي سورة أخرى سمي أم الكتاب: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤) الزخرف.

وسورة الزخرف تظهر المعنى الواضح لأم الكتاب بأنها (آلية) بعلم الله، يحفظ فيها نسخة الوحي الأصلية.

وهذا هو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المكنون في الواقعة.

ويكون الحديث عن نسخة القرآن الأصلية أنها محفوظة في كتاب مكنون ولا يمسه (يتعامل معه وينقله للرسول من البشر) إلا المطهرون. هنا المطهرون هم الملائكة، وهم من ينزله على قلب محمد: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) البقرة.

فالمقصود هنا ليس لمس المصحف الذي لم يكن موجوداً وقت نزول الواقعة، ولكن عن نسخة الوحي الأصلية المحفوظة في الأرشيف الإلهي. ويكون الاستدلال بهذه الآية على أن الحائض لا تمس المصحف لا أساس له وهو تأويل للآية عن معناها.

فقوله «لا يمسه» الضمير يعود على نسخة الوحي الأصلية، والمس هنا كناية عن التعامل ولا يعني المس من اللمس.

ثم إن القول بأن الحائض لا تمس المصحف يعني أنهم يعتقدون أن المرأة تصبح نجسة وقت المحيض، وهذا ما لم يقل به الله وبينا أن هذا المعنى خاطئ فيما سبق. (القول بنجاسة المرأة ما زال ساري المفعول في جزيرة العرب، وإن تناقص. فهناك البعض ما زال يعقب بعد ذكر



المرأة أن يقول «أعزك الله» أو عبارات مشابهة تعني تنزه المخاطب عن ذكر نجاسة والمقصود بها المرأة. وهناك من لا يأكل مع الحائض حتى تطهر. وهناك من يعزل الحائض حتى تطهر. وعلى صغار السن من القراء سؤال آبائهم وأجدادهم عن هذه الحقائق المؤسفة).

الحج

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧) آل عمران.

الحج هو العبادة الثالثة في الإسلام بعد الصلاة والصوم، وهي واجبة لمن يستطيع إليها سبيلاً. أي القادر على القيام بها بيسر وسهولة. ويخرج من هذا المسن والمريض ومن لا يملك مالاً للوصول لمكة وكل من لا يستطيع لأي سبب من الأسباب. وهذا بخلاف السائد عند المسلمين الذين يظنون أن الحج يكفر كل المعاصي قبله فلا يحجون إلا في أواخر العمر وعند الهرم والعجز. حتى أصبح هناك مسارات خاصة حول الكعبة وفي المسعى للعربات التي تحمل المقعدين والشيوخ والعجائز. وهذا مرده الاعتقاد كما قلنا - بأن الحج يجب ما قبله من المعاصي، واعتقاد آخر مفاده أن الثواب على قدر المشقة، وكلما صعب الحج على الإنسان لعجزه أو هرمه فكلما زاد أجره. واعتقاد ثالث مفاده أن من يموت في الحج فقد حقت له الجنة.

وكل هذه المعتقدات الثلاث باطلة ومردها كتب التراث التي روجت لها باختلاق أحاديث منسوبة للرسول تقول بها. وهناك موضوع يلي موضوع الحج يبين أن الثواب على قدر الاستطاعة وليس على قدر المشقة. وسنرى في حديثنا عن الحج أن الهرم والشيخوخة مانع للحج وكذلك الإعاقة. ويجب على المسئولين في العالم الإسلامي توعية الناس أن الحج يجب على القادر جسمانياً، وبالتالي فمن أدركه الهرم أو العجز قبل الحج فلا يحج.

وقد ورد الحج في عدة سور: الحج: (٢٥-٣٧)، البقرة: (١٥٨، ١٩٦-٢-٣)، المائدة: (١-٢)، آل عمران: (٩٧)، وسورة براءة: (٣).

وسورة الحج تحدثت عن أعمال الحج دون تفصيل.



أما سورة البقرة فقد تحدثت بتفصيل عن أعمال الحج وسنعود لها.

وتتحدث سورة المائدة عن تحريم صيد البر على الحُرُم، وسنعود لها في حينها.

وسورة آل عمران تبين من يجب عليه الحج.

وسورة براءة ذكرت يوم الحج الأكبر (تجمع الناس في عرفات لبدء الإفاضة للحج).

وسنمر بكل هذه الآيات، كما سنتحدث عن كل ما يخص الحج أو له علاقة به، والبداية مع:

وقت الحج

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

الحج يكون في أشهر معلومات لكل الناس، وهي:

الأشهر الحرم

واتفق الناس على أنها أربعة أشهر، وإن كان هناك منذ العصر العباسي (عصر ترسخ الخلافات والاختلافات) خلاف هل هي متتابعة، أو أن هناك شهراً منفرداً؟ ولو كانت متتابعة فهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم. وقال آخرون إنها: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم وصفر. ومن يقول بالرأي الثاني، فالأشهر المتتابعة هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، إضافة لشهر منفرد هو رجب.

وسورة براءة تبدأ بإعلان براءة الله ورسوله من خيانة المعاهدة المبرمة يوم الفتح مع قريش وأن قريش هي التي خانتها. وبناءً على خيانتها ستمهل أربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم: بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١) فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤)



فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فالرسول أعلن على رؤوس الأشهاد في عرفات التي يجتمع الناس فيها للتوجه للبيت وبدء الحج، بأن القرآن قد أمهل قريشاً أربعة أشهر تنتهي في آخر يوم من آخر شهر من الأشهر الحرام. فهذا يؤكد أنها أشهر أربعة متتابعة. وتكون تبدأ بشوال وتنتهي بمحرم، أو تبدأ بذي القعدة وتنتهي بصفر.

ومما يؤيد أن الأشهر الحرم أربعة متتالية هو أنها وضعت منذ عهد إبراهيم لكي تكون موسماً للحج، وليس كما تقول بعض كتب التراث من أنها وضعت في الجاهلية وذلك لكي تتوقف الحروب والسلب والنهب فيأمن الناس ويأتون للحج فيها، لأن هذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحاً. فمن يريد أن يسلب وينهب لن يلتزم بالتوقف خلال أشهر معينة فقط لأن أناساً غيرهم يؤمنون بالحج ويريدون أن يحجوا. ومن يعتدي على الناس ويسلبهم أموالهم لن يتوقف عن ذلك احتراماً لما يقومون به وهو لا يؤمن به. والسلب والنهب يكون من البادية المتنقلين وليس من أهل القرى. بينما عادة ما يكون الحج من أهل القرى، لأنهم هم من تنزل عليهم الرسالات، ولا تنزل الرسالات على أهل البادية المتنقلين، فكل الرسل الذين ذكرهم القرآن أرسلوا لأهل القرى.

والأشهر اسمها الحُرُم، مما يعني أن لها علاقة بالحرم والحج، وليست حرماً لأنه يحرم فيها السلب والنهب. وقد خصصت للحج منذ أن أذن إبراهيم للناس بالحج وبقيت حتى جاء الإسلام. ولذا لم يذكرها القرآن بالاسم لأنها معروفة، بل قال: الحج أشهر معلومات، والأشهر الحرم.

وعندما أصبحت مواجهة قريش عسكريا أمراً حتمياً تساءل بعض المسلمين عن القتال في الأشهر الحرم وفي المسجد الحرام: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧)البقرة.



فالآية تجيب على التساؤل قائلة إنه لو قاتلتهم قريش في أشهر الحج الحرم، الذي يكون الناس فيه حاضري المسجد الحرام، أو في المسجد الحرام، فليقاتلوها. ولم تأت الآيات لتقرر أن الأشهر الحرم شهور سلام لا حرب فيها، ولا لتقر تحريم قتال المشركين لو اعتدوا على المسلمين في المسجد الحرام: وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) البقرة.

الأشهر القمرية

هناك من يظن أن الأشهر القمرية قد سميت لتدل على الموسم الذي تأتي فيه: فرمضان من الرمضاء وهي شدة الحر، فهو يأتي في القيظ. وجمادى يأتي في شدة البرد، والربيع في وقت الربيع. ويظن البعض أن ما يسمى بالنسيء هو الذي جعل ترتيب الأشهر الأصلي يختلف وتصبح بهذا التسلسل.

وهذا ما تقول كتب التراث، فهل هذا صحيح؟

ولو كانت الأشهر سميت في الأصل لتدل على مواسمها، فيمكن إعادة ترتيبها وستوافق مع فصول السنة. ولو أعدنا ترتيبها لتتوافق مع المواسم فسيختل تسلسلها، كما يلي:

تقول كتب التراث إن محرماً كان اسمه الأصلي هو صفر الأول وصفر الحالي هو صفر الآخر. ومحرم صفة له بعد أن أصبح من الأشهر الحرم فصار يسمى صفر المحرم، ثم غلبت الصفة فصار يسمى المحرم، وهذا كلام منطقي قد يحدث.

إلا أن كتب التراث تواصل قائلة: إن صفر سمي بهذا الاسم لأن ديار العرب تصفر أي تخلو من أهلها لخروجهم للقتال والبحث عن الطعام بسبب الحر.

- فمحرم وصفر شهرا حر.
- والربيعان شهرا ربيع. والجماد ان شهرا البرد، لأن الماء يتجمد فيهما.
- ورجب كان العرب يتركون فيه القتال، حسب زعم كتب التراث.
- شعبان سمي بذلك لأن العرب تتشعب للاقتتال.
- رمضان من الرمضاء وشدة الحر، فهو شهر الحر.



- شوال من تشول الإبل، ولن نناقش هذا الآن، لكن المهم هو أن شوالاً – حسب هذا الزعم – من أشهر الاعتدال المناخي.
- ذو القعدة وذو الحجة لا تدل على موسم.

وبناءً على ما سبق يكون للحر ثلاثة أشهر هي محرم وصفر ورمضان. وأشهر الشتاء: الجماديان وشعبان. وأشهر الربيع: الربيعان وشوال. وما بقي من أشهر فهي أشهر الخريف وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة.

ولو بدأنا السنة بالمحرم فستكون الأشهر بالترتيب المناخي الافتراضي التالي: محرم، صفر، رمضان (الصيف)، رجب، ذو القعدة، ذو الحجة (الخريف)، جمادى الأول، جمادى الآخر، شوال (الشتاء)، ربيع الأول، ربيع الآخر، شعبان (الربيع).

وبطبيعة الحال لو كان هذا الترتيب - أو أي ترتيب آخر - هو الترتيب الحقيقي فسيخبرنا القرآن أنه أمر الرسول بالعودة له. لكن لا القرآن طلب ولا الرسول قام بتغيير ترتيب الأشهر، ما يعني أن الأشهر كانت بنفس الترتيب عندما بعث رسول الله وتوفي وهي بنفس الترتيب الذي نعرفه اليوم. وهناك الكثير من النصوص والدلائل التي وصلتنا من عصر الرسول تؤكد أن شعبان يأتي قبل رمضان وذي الحجة يليه محرم وأن الترتيب الحالي للشهور هو نفسه في ذلك العصر.

ويستحيل أن يكون سبب تسمية الأشهر القمرية للدلالة على مواسمها، لأنها أشهر قمرية. والأشهر القمرية عامها يساوي ٣٥٤ يوماً تقريباً، أي بنقص ١١ يوماً عن السنة الشمسية تقريباً. وبالتالي فالشهر القمري يمر بكل مواسم العام، بحيث يأتي في الشتاء في بعض الأعوام وفي الربيع في أعوام أخرى وفي الصيف في أعوام والخريف في أعوام أخرى.

وهذا ما ينفي أن تكون تسميتها في الأصل للدلالة على مواسمها، إلا لو كانت في الأصل أشهراً شمسية، وهذا تنفيه عدة عوامل، منها:

أن الحج مستمر منذ القدم، وإن توقف لفترة وتهدم البيت، قبل أن يعيد إبراهيم بناءه ويستأنف معه الحج. والحج – كغيره من العبادات الإسلامية منذ القدم – يعتمد على القمر، وليس الشمس. والراجح أن تكون الأشهر القمرية الحالية تحمل نفس مسمياتها زمن إبراهيم – كونه عربياً يتكلم العربية – أو كانت الأشهر تحمل مسميات أخرى، وفي



كلا الحالين فليس أصل تسميتها دالاً على مواسمها.

والعرب ليسوا أهل كتابة، ولهذا فكل ما قيل عن تاريخهم القديم هو مجرد قصص كتب في العصرين الأموي والعباسي ولا يمت للحقيقة بصلة. لذا فاعتماد أقوال كتب التراث عن سبب تسمية الأشهر – التي يجهلون نشأتها – لا يمكن قبوله أو الأخذ به.

ويمكن الجزم أن سبب التسمية مجهول، كما أن زمن تسميتها ومتى كان ذلك مجهولٌ أيضاً، لقدمه، ولعدم وجود المصادر الكتابية كون عرب الحجاز لا يكتبون، على النقيض من عرب اليمن.

ولو أجرينا فحصاً لرمضان على - سبيل المثال – من الهجرة إلى وفاة الرسول، فسنجد التالي:

- في العام الأول للهجرة جاء رمضان بالتزامن مع شهر آذار (مارس) للعام المسيحي: (٦٢٣) يعني في أواخر الشتاء وبداية الربيع، يعني لم يكن الجو رمضاء.
- العام الخامس للهجرة جاء رمضان بالتزامن مع شهر شباط (فبراير) للعام المسيحي: (٦٢٧) يعني جاء رمضان في الشتاء وفيها يسمى عند أهل الجزيرة العربية بنوء شباط، وهي أيام شديدة البرد مصحوبة برياح قوية، وأبعد ما تكون عن الرمضاء وشدة الحر.
- العام العاشر للهجرة جاء رمضان بالتزامن مع شهر كانون الأول ديسمبر للعام المسيحي: (٦٣١)، يعني في الشتاء.

ويكون الرسول لم يصم يوماً واحداً من رمضان في الحر طوال حياته. ولا عبرة بقول كتب التاريخ وغيرها التي كتبت في العصر العباسي، الذي لا يتورعون عن اختلاق القصص لأي شيء لا يعرفون.

وهناك زعم آخر لكتب التراث حول الأشهر القمرية، يقول: إن لكل شهر من الشهور الحالية اسماً آخر أقدم منه، فمحرم كان اسمه المؤتمر، وصفر ناجر، وربيع الأول خوّان، وربيع الثاني بصّان، وجمادى الأول الحَنين، وجمادى الآخر رنة وربى، ورجب الأصم، وشعبان عادل، ورمضان ناتق، وشوال وعل، وذو القعدة هواع و ورنة، وذو الحجة بُرك. وكل مصادرهم قال فلان عن فلان إنه قال كان شهر محرم يسمى كذا .... الخ. لذا جاء آخرون واختلقوا أسماء أخرى، هي كما يلي: المحرم ناتق، وصفر ثقيل، وربيع الأول



طليق، وربيع الآخر ناجر، وجمادى الأول أسلخ، وجمادى الآخر أميح، ورجب أحلك، وشعبان كسع، ورمضان زاهر، وشوال برك، وذو القعدة حرف، وذو الحجة نعس. وكل من يرغب الاطلاع على أقوالهم في أسماء الأيام والشهور والسنين الرجوع لكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ).

وهذا الاختلاق ينفي كلامهم السابق من أن الأشهر القمرية سميت حسب مواسمها، وبالتالي فليس هناك كلام لهم واحد يمكن الأخذ به. وهذا ليس مستغرباً فكتب التراث تضم كل الأقوال المنتشرة بين الناس فقد وجد فيها القول وضده، فحين يأتيأتي مختلق القصة التي تقول إن الأشهر سميت بمواسمها يأتي مختلق آخر ويقول إن لها أسماء قديمة ويختلق تلك الأسماء وهو لا يعلم أن غيره قال بخلاف قوله. ثم يأتي من يجمع كل هذه ألقوال ويضمنها الكتب وتبقى لنتمسك بها نحن ونستشهد بها على أنها الحقيقة.

وقد اختلقوا للأيام أسماء يزعمون أنها قديمة، مثلما اختلقوا للشهور، فقالوا: إن السبت شِيَار، والأحد أَوَّل، والاثنين أَهْون وأوْهَد، والثلاثاء جُبَار، والأربعاء: دُبَّار، والخميس: مُؤْنِس، والجمعة: عَرُوبة.

وهذا يكذبه القرآن الذي يخبرنا أن أيام الأسبوع الحالية هي نفس الأيام زمن موسى وإبراهيم: وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(١٦٣) الأعراف.

وإن كان السبت معروفاً حينها، فسيكون الأحد وبقية أيام الأسبوع معروفة كذلك. وليس أدل على هذا من أن اليهود في كتبهم يظنون أن الأحد سمي الأحد (من واحد) منذ الخليقة لأن الله بدأ فيه الخلق ثم الاثنين (اليوم الثاني) والثلاثاء (الثالث) والأربعاء (الرابع) والخميس (الخامس) ويوم الجمعة (يوم الانتهاء والجمع) ويوم السبت (الراحة والسبات).

وكلام اليهود ناتج من أن مفسريهم فهموا أن الله تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، على أنها أيام مثل أيامنا فقالوا ما قالوا. فأيام الأسبوع قديمة بقدم اللغة العربية وكذلك أسماء الأشهر، ونكرر أنه لا عبرة بما تقول كتب التراث.



النسيء

النسيء في اللغة هو التأجيل.

وقد ورد النسيء مرة واحدة في كتاب الله، وفي سورة براءة التي نزلت في آخر عام من حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتتحدث عن عدة مواضيع وأحداث تهم المسلمين في حينها، ومن ذلك إعطاء مهلة لقريش للتراجع عن خيانة معاهدة الفتح التي تعهدت بها للمسلمين. وتكشف السورة أوضاع المسلمين وكيف أنه ليس كل من أعلن الإسلام مسلماً، إضافة لضرورة تأديب كل من بدأ المسلمين بالحرب. ولم تكن السورة سورة تشريع، كون التشريع اكتمل بنزول سورة المائدة.

والحديث عن النسيء جاء ضمن مخاطبة المسلمين عن قريش، التي ما زالت تعيش في مكة بيت الله، وتقول السورة: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٣٧) براءة.

والآية (٣٦) تؤكد أن الأشهر الحرم أربعة أشهر. وتشير الآية إلى أن الأشهر الحرم لها علاقة بدين الله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ». وهو ما يعني أن تحريم الأشهر الحرم ليس من أجل المحافظة على الطيور والحيوانات من الانقراض (وإن كان هذا مطلوباً شرعاً لكن لا يستدل بهذه الآية عليه). فالأشهر الحرم حرمت لكي يؤدى شيء ديني، وهو بلا جدال الحج. ويؤيد ذلك قوله تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

وتتحدث الآية (٣٧) عن النسيء الذي تمارسه قريش، دون أن تطلب من المسلمين فعله أو تركه. فهي آية إخبارية عما كان يحدث قبل الإسلام، وليست آية تشريعية تحرم أو تحل للمسلمين النسيء. لذا لا حاجة لأن نغرق أنفسنا والقراء في افتراضات لا وجود لها ونكتب الكتب عن النسيء ما هو، وما يجب أن نفعله أو كيف يجب تركه؟ لأنه ليس مطلوباً منا أي



شيء نفعله لا لتجنبه ولا لفعله، لأنه ليس له وجود منذ أن استولى المسلمون على مكة. فالنسيء بالنسبة للمسلمين هو فعل قرشي جاهلي كان موجوداً وانتهى.

والآية تقول: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٣٧) براءة.

النسيء زيادة في الكفر. قريش كافرة وزيادة على كفرها تمارس النسيء.

ولا حاجة لأن أفترض أن «زيادة في الكفر» جملة اعتراضية وجودها لا معنى له كما تكلف البعض.

ويكون النسيء - كما يفهم من الآيات - عبارة عن تلاعب بالأشهر الحرم من قبل قريش بحيث تحل شهراً محرماً في عام، ثم تعيد الأشهر الحرم في عام آخر كما كانت، وهكذا.

والمفسرون قرأوا «يضل» بضمة على الياء، وفي هذه الحالة نحتاج لمعرفة من الذي ضل. كون قريش هي التي تُضِل بالنسيء، حسب هذه القراءة.

لكن لو كان التشكيل فتحة على الياء وكسرة تحت الضاد «يَضِل» (مبني للمعلوم) فالمعنى أن قريش ضلت بممارستها للنسيء. هم من ضلوا بالنسيء ضلالاً على ضلالهم.

ولا حاجة لأي افتراضات أخرى.

وتكون الآية تقول: إن قريشاً ضلت بممارستها للنسيء فكان زيادة في الكفر على كفرها.

ما هو النسيء

الآية تعرفنا بالنسيء قائلة: "يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً".

فإذا كان النسيء هو التأجيل والإرجاء، وكانت الآية (٣٦) تتكلم عن أن هناك أربعة أشهر حرم ثابتة، فإن اعتبار أحد الأشهر الحرم حلال هو ما تقوم به قريش بحيث تنسأ (تؤجل وترجئ) شهراً من الأشهر الحرم ولا تعتبره شهر حرام لعام من الأعوام. ثم تعود في العام التالي وتعتبره حُرُم. سواءً كان هذا الشهر أول الأشهر الحرام أو آخرها، دون أن يتغير مكان الشهر بين الشهور، ودون أن تغير ترتيب الأشهر.

وبطبيعة الحال لا يمكن تغيير تسلسل الأشهر ونقل شهر من مكانه لمكان آخر. كأن تنقل



شهر رجب من مجيئه بعد محرم ليأتي بعد جمادى الثانية أو نحو ذلك. لأن الأشهر ليست حكراً على قريش ومكة، ولكن كثير من مناطق جزيرة العرب يتعاملون بالأشهر القمرية وبنفس مسمياتها، ولا يمكن لقريش أو غيرها تغيير تسلسل الأشهر. لكن يمكن لقريش أن تحل شهراً محرماً وتحرم شهراً ليس من الأشهر الحرم.

فالأشهر القمرية أسماؤها وترتيبها لم تتغير قبل الإسلام ولا في عصر الرسول، وكانت كما هي الآن. والنسيء تأخير شهر في عام وليس نقل الشهر من مكان تسلسله ووضعه إلى مكان آخر. فلو افترضنا أن شهر محرم هو الذي يكون عليه النسيء فقريش تعتبره من الأشهر الحرم في عام لتكون الأشهر الحرم أربعة، وفي العام التالي لا يعتبر من الأشهر الحرم، فتكون الأشهر الحرم ثلاثة دون محرم، على أن يبقى محرم في موقعه، كونه يأتي بعد شهر ذي الحجة وقبل صفر.

وتكون الأشهر الحرم في السنة التي يكون فيها التأجيل ثلاثة وليس أربعة. لذا قالت الآية: (٣٧) أن الأشهر الحرم أربعة على الدوام ولا تتغير: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ». وقوله: «فلا تظلموا أنفسكم فيهن» بالنسيء.

وتكون الأشهر الحرم أربعة ليس من أجل الصيد، ولكن من أجل تأدية الحج. ولا نحتاج لأن نفترض أي افتراضات أخرى.

أعمال الحج

وسنبدأ باستعراض أعمال الحج بإجمالها الذي ورد في سورة الحج ثم ننتقل لسورة البقرة لنتحدث عنها بتفصيل، وذكر ما ورد في السور الأخرى كل في محله. إضافة لمواضيع ذات علاقة بالحج.

أعمال الحج مجملة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ



وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ(٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ(٣٧) الحج.

سورة الحج آخر سورة نزلت في مكة قبل الهجرة. والآيات تخبرنا أن قريشاً منعت المسلمين قبيل الهجرة من دخول البيت، مع أن البيت مشاع لكل الناس وليس ملكاً لقريش لكي تتصرف به كيفما تشاء. فتمنع هذا من دخوله وتسمح لآخر، لأن بيت الله في كل العصور ليس ملكاً لأحد. وتشرع الآيات بالتذكير في أن البيت لكل من يرغب في زيارته والتعبد لله، منذ أن اهتدى إبراهيم بعون من الله إلى مكانه الذي كان متهدماً وأعاد بناءه وحرص على تنظيفه وخدمة الحاج.

والآية (٢٦) تشير إلى العبادات التي تؤدى في المسجد، وهي: الطواف والصلاة: «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

وتذكر السورة أعمال الحج بالإجمال:

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩).



فالحج عبارة عن هذه الأعمال:

- ذكر لله في أيام معلومات.
- تذكية الهدي.
- قضاء التفث.
- الوفاء بالنذر.
- الطواف بالبيت.

والسورة تذكر أعمال الحج لكنها لا تذكرها بالترتيب، لأن ذكر الحج في سورة الحج ليس لتشريعه ولكن للحديث عما يجب فيه.

تفاصيل أعمال الحج

ورد في سورة البقرة آية واحدة لوحدها هي الآية: (١٥٨) ثم ثماني آيات متتالية: (١٩٦-٢٠٣).

والآية (١٥٨) تقول: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ.

وسورة البقرة سورة تشريعات، كثير منها فرض إجابة لأسئلة سألها الناس الرسول. حيث تبدأ بعض آياتها بلفظ «يسألونك". مثل: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ، يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ... لذا يحتمل أنها وردت إجابة عن تساؤل تساءله بعض الناس إن كان الطواف بين الصفا والمروة من الحج فنزلت الآية لتقول: إنه لا جناح ولا إثم على من تطوف بين الصفا والمروة.

الآية (١٩٦): وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

- قريش كانت منعت المسلمين من دخول الحرم قبل الهجرة كما تخبرنا بذلك الآية (٢٥) من سورة الحج، والبقرة نزلت بداية الهجرة وفي وقت كانت قريش تستعد لحرب



المسلمين. ومن الطبيعي أن تتعنت قريش وتمنع أي مسلم يريد الحج من دخول مكة أو حتى من دخول الحرم. لذلك تقول الآية مخاطبة المسلمين، إنه في حال ذهبتم للحج ومنعتكم قريش فانحروا هديكم ثم احلقوا رؤوسكم، ولا تحلقوا رؤوسكم قبل النحر.

- وتقول السورة إنه في حال أمن الحاج وأكمل حجه فعليه الهدي.
- ومن لم يجد هدياً – لأي سبب كان – فعليه فدية صيام عشرة أيام، ثلاثة أثناء الحج وسبعة بعد عودته لبلده لمن هو من غير أهل مكة.
- ومن كان من أهل مكة فليواصل الصوم ليكمل العشرة أيام.

وتقول الآية (١٩٧): الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ.

- الرفث والفسوق بأي شكل والجدال يفسد الحج، والفسوق حرام في كل وقت.

والرفث هو المضاجعة الزوجية، بدليل قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لهن .... (١٨٧) البقرة.

ويدخل فيها كل ما له علاقة، مثل التقبيل والتحسس ... الخ.

الآية (١٩٨): لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ.

- هنا، الآية تبين كيف يبدأ الحج. وذلك بتجمع الحجاج القادمين من كل مكان في سهل عرفات.
- ثم يفيضون متوجهين للمشعر الحرام ليذكروا الله هناك.

وتواصل سورة البقرة: ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ(٢٠٠).

- بعد المشعر الحرام إفاضة أخرى لقضاء المناسك.
- وبعد قضاء المناسك يلهج الناس بذكر الله.



وتواصل سورة البقرة: وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢) وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٠٣).

الحاج يمكنه أن يبقى في مكة قبل الإفاضة لمنى لتقديم الهدي يوماً أو يومين.

سورة المائدة

المائدة تبدأ بالحديث عن تحريم الصيد: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

لا يحل الصيد للمُحْرِم.

الآية الثانية تنهى عن عدة أمور منها تحذير من أن يُحِل المسلمون الشهر الحرام، كما كانت قريش تفعل قبل الإسلام.

وتقول إن الصيد يحل إذا حللتم.

وفي آيات أخرى تقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦) جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٩٧) المائدة.



تأكيد على تحريم الصيد وأنتم حرم.

وكل من يقتل صيداً وهو محرم فعليه أن يذكي ذبيحة أو يطعم مساكين أو يصوم.

سورة آل عمران

ورد فيها آية واحدة تقول: الحج يجب لكل من يقدر عليه.

وتقول إن مكة يجب أن يأمن من فيها، لأنها بيت الله: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧).

سورة براءة

نزلت قبل عام من وفاة الرسول، وورد فيها آية واحدة تذكر يوم الحج الأكبر، وهو الوقوف بعرفات حيث يكون أكبر تجمع للحجاج في مكان واحد، استعداداً لانطلاقهم نحو البيت لبدء أعمال الحج: وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣).

هذه هي الآيات التي وردت في القرآن الكريم عن الحج وفيها تفاصيل أعماله كما يلي:

الحج والعمرة

مما سبق ذكره في الآيات أعلاه سنقوم بالتعرف على أعمال الحج والعمرة، ثم نضع بعض المقارنات بين ما يقول القرآن وبين ما يمارسه الناس باسم الحج ولم يقل به كتاب الله.

ونبدأ ببيان: الفرق بين الحج والعمرة.

أعمال الحج

تكون، كما يلي:

- الانطلاق من عرفات إلى البيت.
- الطواف وذكر الله وتسبيحه.



- البقاء في مكة لقضاء التفث والوفاء بالنذر والمتاجرة بالبيع والشراء.
- التوجه لمنى ونحر الهدي والأكل منها وإطعام الفقير.
- حلاقة شعر الرأس.
- إنهاء الحج كما بدأ بذكر الله، والطواف بالبيت.

فالحج صفة واحدة وليس ثلاث صفات كما يقول الناس.

مع ملاحظة أنه لا ذكر ليوم العيد، ولا يقول القرآن إن النحر يبدأ يوم العيد أو يوم العاشر. بل إن القرآن يعطي الحاج فرصة للبقاء في مكة يوماً أو يومين. أي يوم العيد واليوم التالي، ثم يخرج لمنى للنحر والحلاقة. وهناك يمكنه أن يبقى يوماً أو يومين.

أعمال العمرة

العمرة تكون كما يلي:

- تبدأ بالطواف بالبيت، دون حاجة للتجمع بعرفات كما الحج.
- العمرة عمل فردي، بينما الحج عمل جماعي.
- ليس للعمرة هدي ينحر، وبالتالي لا يحلق المعتمر رأسه، لأن الحلق لا يكون إلا بعد نحر الهدي: «وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ".
- العمرة عبارة عن الطواف بالبيت ومن رغب طاف بالصفا والمروة فقط. ولو قدم الحاج لمكة فيمكنه أن يؤدي العمرة أولاً بالتوجه مباشرة لمكة والبدء بطواف البيت ثم ينتظر في مكة أو قريباً منها حتى يحين يوم التجمع في عرفات فيخرج لعرفات وينضم لقوافل الحجاج ويفيض معهم باتجاه البيت ليبدأ حجه معهم.

وهذا هو الذي يسميه الناس «التمتع بالعمرة مع الحج". بينما يكون وصول بعض الحجاج في موعد التجمع في عرفات، أو حتى قبل ذلك لكنهم لا يدخلون مكة بل يبقون في عرفات لعدة أيام ويفيضون مع الناس ويبدأون حجهم درن عمرة.

فروق بين ما يقول القرآن وبين ما يمارسه الناس في الحج

- الناس يقولون: إن الحج يبدأ بعيداً عن مكة فيما أطلقوا عليه مواقيت الحج. وهي أماكن تم اختيارها على الطرق المؤدية لمكة لكي يتوقف فيها الحاج ويبدل ملابسه العادية بملابس



خاصة للحج بالنسبة للرجال دون النساء. وهي عبارة عن إزار يغطي الجزء من السرة إلى أسفل الجسم، وقطعة ثانية مشابهة، يلفها الرجل على الجزء الأعلى من الجسم. ويعتبرون هذه الملابس من أعمال الحج ولا يجوز خلعها ولبس الملابس العادية إلا بعد النحر والحلاقة. وأي حاج لا يلبس هذه الملابس ولا يمر بواحد من هذه الأماكن فليس له حج، حسب اعتقادهم.

والأماكن المختارة هي: ذو الحليفة لحجاج المدينة، والجحفة لحجاج أهل الشام، وقرن المنازل لأهل نجد والعراق، ويلملم لأهل اليمن.

والملاحظ أن هناك ميقاتاً لأهل الشام والعراق والرسول توفي قبل أن تفتح تلك البلاد ويكون فيها مسلمون، وهو مما يسهل الحكم على كذب خبر (حديث) المواقيت.

ويحتمل أن الناس قبل الإسلام اتفقوا على ملابس الحج لكي يضمنوا بقاء مكة آمنة خالية من السلاح، وكل من يرغب الحج عليه أن يأتي بهذه الملابس التي لا يمكن أن يخفي فيها سلاحاً.

أقول هذا الظن لأني لا أعرف سبباً آخر، وليس هناك حكمة من لبس الرجال ملابس خاصة يجب أن تكون عبارة عن إزار ورداء. ولا عبرة في تبريرات رجال الدين الذين يقولون إن هذه الملابس لكي تضمن تساوي الناس (فقيرهم وغنيهم) في الحج. لأن الكبرياء محرمة في الحج وفي غيره، وفي مكة وفي أي مكان، ولا يجوز التباهي بمظاهر الغنى ولا الكبرياء، في كل الأوقات وفي كل مكان، وليس فقط في موسم الحج. كما أن لبس «ملابس الإحرام» لم يمنع الكبر والخيلاء في الحج، ففي أيامنا الحالية يمارس الكبر والخيلاء أثناء الحج والعمرة بشكل لا مثيل له. فالحكام والمتنفذون تخلى لهم الشوارع لكي يمروا بسياراتهم للحرم أو لمنى أو لعرفات أو لأي مكان آخر. ويخلى لهم مكان الطواف والسعي والجمرات وكل مكان. ويضيق على بقية الحجاج ويحشرون. كل هذا بحجة الخوف على حياتهم. وبطبيعة الحال كل من يخاف على حياته يسقط عنه الحج، ويبقى في بيته. لا أن يأتي للحج ويضايق خلق الله ويسامون من أجله سوء العذاب. ومن أسوأ مظاهر الكبر غسل الكعبة وتخصيص الدخول لداخل الكعبة للحكام والمتنفذين ولو كانوا فساق ويصحبون معهم فساق.

- القرآن لا يذكر ما أسماه الناس المواقيت، ويقول القرآن إن الحج يبدأ في التجمع



بعرفات، وليس بعيداً عن مكة وعن المشاعر.

- الناس يقسمون الحج إلى ثلاثة أنواع:

المفرد: وهو من يحج فقط دون عمرة، وهذا يسقط عنه الناس الهدي.

القارن: هو أن يعتمر ثم يواصل ليؤدي الحج دون أن يخلع ملابس الإحرام.

المتمتع: وهو أن يعتمر أولاً ثم يخلع ملابس الإحرام، ثم يوم الثامن من ذو الحجة يلبس ملابس الإحرام مرة أخرى ويحج.

أما القرآن فيقول: الحج واحد وليس هناك أنواع. ومن رغب أدى الحج وحده ومن رغب أدى عمرة ثم أدى الحج. والعمرة عمل قائم بذاته لا علاقة له الحج.

- الناس أسقطوا الهدي عمن أسموه «المفرد» مع أن الهدي يعتبره القرآن من أعمال الحج التي لا يجوز بدونها. ومن لا يجد لينحر الهدي أوجب القرآن عليه كفارة: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ».
- وسواء أدى الحاج العمرة ثم حج، أو حج بدون عمرة فالهدي واجب عليه لأنه من أعمال الحج ولا شأن له بالعمرة. بينما يقول الناس إنه لا هدي مع من يفرد الحج دون عمرة.
- ويقول الناس بتقليد الهدي إن كان من البقر والغنم بنعل قد صلى فيه، أما الإبل فيخير بين تقليدها النعل أو شق سنامها من الجانب الأيمن وتلطيخ جسدها بدمها، ويسمونه «إشعاراً». وبعضهم يجمع بين تقليدها النعل والإشعار، وهذه الممارسات من بقايا الوثنية الجاهلية بلا شك، كما أن شق السنام إيذاء للحيوان لا يقره الإسلام.
- القرآن يقول: وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) البقرة.

فلو تأخر الحاج في مكة يومين، قبل الخروج لمنى للنحر فلا إثم عليه. لأنه ليس عليه أن ينهي طوافه بالبيت وقضاء تفثه ونذره وحوائجه في مكة في يوم محدد، ولا إنهاء حجه في يوم محدد.

والناس يقولون: الحج يبدأ وينتهي بأوقات وأيام محددة لا يتجاوزها الحاج.

- الناس يعتبرون البقاء في عرفات يوماً كاملاً من الحج، وكذلك المبيت في منى عدة ليال.



ويوجبون التوجه لعرفات في وقت محدد (بعد شروق شمس التاسع من ذي الحجة) ويوجبون أن تصلى الظهر والعصر جمعاً وقصراً في وقت الظهر. ويوجبون الخروج من عرفات بعد غروب شمس التاسع ليلة العاشر والبقاء في مزدلفة طوال الليل ويقصرون صلاة العشاء ويجمعونها مع المغرب. وبعد الفجر يتوجهون لرمي الجمرات. ويعتبرون خلع ملابس الإحرام (ويسمونها التحلل) جزء من الحج. فالبعض تحلل قبل البعض الآخر حسب نوع حجه ما بين مفرد وقارن ومتمتع.

وتفاصيل كثيرة مختلفة كلها لم يذكرها القرآن من أعمال الحج، ولا يمكن أن تكون منه. فعرفات مكان تجمع لبدء الحج فقط، وتقع خارج حدود الحرم، والحج يكون في الحرم. ومنى مكان لنحر الهدي، اختاره إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتوفيق من الله لئلا تنتشر الأوبئة والروائح الكريهة في مكة لو نحر الحجاج هديهم فيها (وليست منى كمكان من أعمال الحج)[1]. وليس في كتاب الله جمع وقصر في الصلاة لا في الحج ولا في غيره، ولم ينص القرآن على ملابس خاصة بالحج.

- فالحج في القرآن صفة واحدة تبدأ بالتجمع في عرفات ثم التوجه للبيت والطواف والبقاء في مكة لقضاء الحاجات والوفاء بالنذر وقضاء التفث مع الاختلاف من شخص لآخر. فالبعض يكفيه يوم، وغيرهم أكثر. ليكون البقاء في مكة ما بين يوم وبضعة أيام، قبل الخروج لمنى لنحر الهدي والبقاء هناك يوماً أو يومين. ثم حلق الرأس وإنهاء أعمال الحج.
- والقرآن يقول الطواف من أعمال الحج: وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) الحج.

لكنه لا يحدد عدداً للطواف حول الكعبة. بينما يقول الناس إن على الحاج الطواف حول الكعبة سبع مرات، لو زادت شوطاً أو نقصت فلا يقبل الطواف ويفسد الحج عند بعضهم، وبعضهم يوجب الفدية وبعضهم لهم آراء أخرى.

- القرآن يجيز الطواف بين الصفا والمروة كون الطواف يكون لبيت الله لأنه عبادة يذكر

---

١ يقول كتاب التكوين في كتب اليهود عن إبراهيم: «ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب» (١٢:٨). وهذا المذبح الذي يقع شرقي بيت إيل (بيت الله) هو منى الحالية. وإبراهيم بعدما قدم هديه «دعا باسم الرب»، وهو ما يتفق مع قوله تعالى في القرآن الكريم: «فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم اباءكم او اشد ذكرا....(٢٠٠) البقرة. والمقصود بقضاء المناسك هنا هو الانتهاء من نحر الهدي وإطعام الفقراء، وهو ما فعله إبراهيم.



فيها الله ويسبح باسمه حول بيته: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ(١٥٨) البقرة.

دون تحديد لعدد أشواط الطواف. بينما يقول الناس بوجوب الطواف بين الصفا والمروة سبعة أشواط لا يجوز الحج ولا العمرة بدونها. وهم بهذا غفلوا عن حقيقة أن الحج يقوم على الطواف ببيت الله كرمز لطاعة الله ولتسبيحه وذكره سبحانه، والطواف بأي مكان آخر لا علاقة له بالحج، لذا لما سئل الرسول عن عادة كانت متبعة بين الناس وهي التردد بين الصفا والمروة أجازها القرآن ولكن هذا لا يعني أنها من أعمال الحج اللازمة. فالقرآن يقول إن من طاف بالصفا والمروة فلا جناح عليه (لا يأثم). أي أن الحج يكون بدون الطواف بهما، لكن من فعل فلا إثم عليه.

- القرآن يوجب الهدي على الحاج كرمز لشكر الله أن ذلل للناس بهيمة الأنعام، ولكي يأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير. ولا يجوز الحج بدون هدي، ومن لا يجد فعليه صيام عشرة أيام.

بينما يقول الناس: إن الحج (كمفرد) يتم دون حاجة للهدي.

- الناس يقولون إنه بمجرد أن يتحلل الرجل من ملابس الإحرام يجوز له جماع زوجته.

أما القرآن فيحظر الجماع طوال فترة الحج: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

ما بقي في الحرم فلا رفث ولا جدال ولا فسوق.

- القرآن ذكر حلق الشعر ولم يذكر التقصير أبداً.

بينما الناس يعطون الرجل الخيار بين الحلاقة أو التقصير.

- القرآن ذكر حلاقة الشعر، ولم يحدد هل هو للرجل فقط أم للرجل والمرأة.

الناس: يجيزون التقصير للرجل ويوجبونه على المرأة، ولا يجيزون لها حلاقة الشعر.

يعني حج القرآن يعتمد الحلاقة للرجال والنساء، فليس هناك دين للرجل وآخر للمرأة وملابس حج خاصة بالرجل دون المرأة.



- الناس يقولون إن رمي الجمرات من أعمال الحج ولا يجوز الحج بدونها وتشددوا كثيراً حتى في مكان التقاط الحصى التي يرمى بها الجمرات.

القرآن لا يذكر رمي الجمرات على الإطلاق ولا يعدها من أعمال الحج[1].

- القرآن يقول إن حلاقة شعر الرأس تكون بعد نحر الهدي ولا تجوز قبله. وبعد الحلاقة يكون الحاج قد أنهى أعمال الحج.

الناس يقولون إن للحاج أن يقدم ويؤخر بين ثلاثة أشياء: الحلاقة والنحر ورمي الجمرات، ويعتبر بعد ذلك متحللاً من الحج.

- في حال المرض أو أن الحاج يشكوا من داء يصيب فروة الرأس مثل الثعلبة والحزاز والذئبة وغيرها، ففي هذه الحالة يجب عليه فدية، وهو مخير بين أن يصوم أو يتصدق أو يقدم نسكاً.

والنسك هنا – أميل إلى – أنه نحر ذبيحة وتقديمها للفقراء. لأن النسك جاءت بهذا المعنى في قوله تعالى: قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢) الأنعام.

- القرآن يقول إن الهدي يكون بنحر الحاج الواحد واحدة من بهيمة الأنعام كما ورد في الآية (٣٣) من سورة الحج، أو من البدن كما ورد في الآية (٣٦).

الناس يقولون يمكن لعدد من الحجاج الاشتراك في هدي واحد إن كان من البقر أو الإبل.

- الناس يقولون لا يجوز إطعام غير فقراء الحرم من الهدي، والقرآن يقول: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِّ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) الحج.

فكل فقير يمكنه الاستفادة من لحوم الهدي، سواء كان حاجاً أو مقيماً. وفي هذا العصر يمكن الاستفادة من هذه اللحوم بطرق حديثة سواء بالتعليب أو التجميد أو التبريد وإرسالها

---

[1] ورمي الجمرات يقول الناس أنها تقليد لما فعلته هاجر (أم إسماعيل المزعومة) فقد تراءى لها إبليس في مكان الجمرة الأولى فحذفته بسبع حصوات (الحصاة الواحدة بحجم حبة الفاصوليا) ثم تراءى لها في مكان الجمرة الثانية فكررت حذفه بسبع حصوات لا أكثر ولا أقل. وتكرر المشهد للمرة الثالثة عند مكان الجمرة الثالثة. وبطبيعة الحال فالقصة مختلقة وغير معقولة. كما أنه ليس هناك أم لإسماعيل اسمها هاجر، ولم يترك إبراهيم أم ولده وابنه في البرية ويعود لفلسطين. كلها تخاريف يهودية لتحقير بني عمهم إسماعيل. ولابد أنها من بقايا الوثنية التي أبقتها قريش بعد الإسلام خاصة أن الرسول لم يحج سوى مرة واحدة، ومات بعدها بأشهر في وقت نقضت فيه قريش معاهداتها مع المسلمين التي وقعت بعد الفتح. مما يعني أن أهل مكة لم يدخلوا الإسلام حين توفي رسول الله.



لفقراء دول أخرى. ويبقى ضرورة أن يتم هذا بطرق علمية واضحة صادقة لا استغلال فيها ولا محاباة وبكل عدل وبحسب ضوابط ونظم واضحة تضمن وصولها لمستحقيها بعيداً عن استغلالها للكسب.

وهناك الكثير من التفاصيل لكن القاعدة الأساسية للحج هي: أن ما ذكره القرآن من الحج فهو منه، وما لم يذكره القرآن فليس منه، ولو أصر على فعله الناس.

وقفة مع آية

يقول تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

في نفس الوقت يفهم من آيات سورة براءة أن هناك (يوم الحج الأكبر) حيث يجتمع الحجاج في سهل عرفات لبدء أعمال الحج.

فإن كان بدء الحج يكون في يوم التاسع من شهر ذي الحجة تحديداً، ألا يعني أن العمرة هي التي يمكن أداؤها في أي يوم خلال أشهر الحج (الأشهر الحرم)؟

خاصة أن سياق الآيات التي جاءت ضمنها الآية أعلاه تتكلم عن الحج والعمرة، ومن ذلك الآية قبلها: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

فالأشهر الحرم يطلق عليها أشهر الحج، ليس لأن الحج ممكن في أي يوم ولكن لأن الحج أهم وأشهر من العمرة فسميت الأشهر بالحج دون العمرة. ويكون من المتاح أن تؤدى العمرة في أي وقت خلال أشهر الحج (الأشهر الأربعة الحرم) دون بقية أشهر العام. بينما



يؤدى الحج فقط بدء من تجمع الحجاج في عرفات في اليوم التاسع لشهر ذي الحجة. والشهر سمي بذي الحجة لأن الحج يؤدى فيه ولا يؤدى في غيره. وكل من فاته الحج ووصل إلى مكة خلال الأشهر الحرم فيؤدي العمرة.

مقدسات تحيط بالكعبة لا قدسية لها في الإسلام

الكعبة هي البناء الوحيد في المسجد الحرام والتي يجب أن تبقى في مكانها، مع إباحة أن تهدم ويعاد بناؤها – لو اقتضت الحاجة ذلك – ويمكن أن يستخدم لإعادة البناء أي حجارة أو مواد بناء يتم اختيارها ولا حرج. فحجارة الكعبة لا قدسية لها، ولا سمك جدرانها، وإنما الكعبة رمز لازم الوجود. ذلك أنها رمز لبيت الله على الأرض، وقبلة يتوجه لها المسلمون في صلاتهم، ويدورون حولها في طوافهم. وهذا لا يخرجها عن كونها كومة من الحجارة لا تضر – بذاتها – ولا تنفع.

وما عدا الكعبة فليس له علاقة بدين الله، سواء كان بئراً، كزمزم، أو مخلفات قديمة كالمقام أو الحطيم أو الحجر الأسود أو الشاذروان أو القماش الذي تستر به الكعبة أو غيرها. لكن الناس توارثوا التعلق بالماديات وهو ما يؤدي للوثنية.

فالتعلق بأستار الكعبة أو تقبيل الحجر أو وضع الخد والصدر واليدين على الملتزم أو مس قفص المقام أو الحديد المقام على قبر الرسول، تبرك مماثل للتبرك بالقبور، وعبادة الأصنام.

والمذهب الحنبلي عموماً والمذهب الوهابي وتفريعاته المتأخرة خصوصاً، يزعمون أنهم ضد التبرك بالقبور والحجر والشجر ويمارسون تصرفات فجة ضد من يظنون أنهم يمارسون التبرك. وبرغم هذا نجدهم يحرصون حرصاً مبالغاً فيه على تقديس الحجر الأسود وتقبيله، ويغالون كثيراً – مع غيرهم – في ماء زمزم بطرق شتى. والأمر نفسه ينطبق على الحطيم والحرص على الصلاة قرب المقام. كما أنهم وافقوا غيرهم في الغلو في مسجد رسول الله معتبرين للمدينة حرماً كحرم الله مكة، مع أن هذا مساواة للرسول مع الله (تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً).

وهذه التصرفات المغالية تقرب وتشابه الغلو فيما يسمى بآل البيت عند الشيعة ومزاراتهم، وتشابه التبرك بالقبور عند مذاهب أخرى وبالأولياء وبمعتقدات مختلفة عند أتباع المذاهب



الأخرى. وبالتالي يمكن القول إن كل أتباع المذاهب الإسلامية لديهم نوع أو أكثر من أنواع الغلو المقرب للشرك، لكن كل أتباع مذهب لا يرون غلوهم الذي يمارسون، فيما ينتقدون غلو غيرهم.

وفيما يلي سنتحدث عن أشياء موجودة في المسجد الحرام توارث الناس العناية بها وتقديسها واختلقوا حولها قصصاً لا ينتهي لكي تبدو وكأنها بالفعل لها مكانة دينية وليست مجرد غلو محرم. وهذه الأشياء هي: زمزم، الشاذروان، الملتزم، الحطيم، الحجر الأسود، والمقام. وكل هذه الأشياء تتفق في أن القرآن بريء منها ولم يذكرها، فيما عدا ذكر (مقام إبراهيم) وضمن سياق لا علاقة له بما يسمى المقام الآن، كما سنرى. كما أنها كلها حيكت حولها القصص واختلقت لها الأحاديث لكي يقتنع الناس بقدسيتها بطريقة أو بأخرى.

وهذه صورة للكعبة والأشياء التي تحيط بها والتي يجب تطهير المسجد الحرام منها[1]:

الكعبة وما حولها

١ - الحجر الأسود
٢ - باب الكعبة
٣ - الميزاب (مزراب الرحمة)
٤ - الشاذَروان
٥ - حجر إسماعيل (الحطيم)
٦ - المُلتَزَم
٧ - مقام إبراهيم
٨ - ركن الحجر الأسود
٩ - الركن اليماني
١٠ - الركن الشامي
١١ - الركن العراقي
١٢ - ستار الكعبة
١٣ - خط المرمر البني

١ الصورة من موقع: Dalil-alhaj.com

زمزم

أولا: ليس صحيحاً أن بئر زمزم حفرها جبريل من أجل أن يشرب منها إسماعيل. لأن قصة إسماعيل وإحضاره وأمه (التي سموها هاجر) قصة مكذوبة جملة وتفصيلاً. فإسماعيل ابن إبراهيم ولد في مكة ونشأ في مكة وبقي نسله فيها حتى قيام الإسلام. وكذلك ولد إسحاق في مكة ونشأ فيها لكنه خرج منها وعاش هو وعائلته في البادية، حسب رواية القرآن التي لا يرقى إليها الشك.

ثانيا: كان في مكة بئر أو أكثر لكل بطن من بطون قريش، سبقت في الظهور زمزم. ومن هذه الآبار كما ورد في كتب السير: الطوى لعبد شمس، وبذر لهاشم، وسجلة للمطعم ابن عدي، والحفر لأمية ابن عبد شمس، سقية لأسد بن عبد العزى، أم حراد لعبد الدار، السنبلة لبني جمح، الغمر لبني سهم. وآبار غيرها. ولو كانت زمزم من عصر إبراهيم وماؤها بهذه الغزارة الحالية فسيحرص الناس على صيانتها والانتفاع بمائها الذي لا ينضب، ولن يحتاجوا لحفر آبار أخرى بحثاً عن الماء.

ثالثا: تقول كتب التراث إن سقاية الحاج كانت لقصي الذي كان يسقي الحجيج في حياض من أدم وكان ينقل الماء إليها من آبار خارجة من مكة منها بئر ميمون الحضرمي، وكان ينبذ لـهم الزبيب. ثم احتفر قصي العجول في دار أم هانئ بنت أبي طالب، وهي أول سقاية احتفرت بمكة، قبل أن يكون لزمزم وجود.

ولو كانت زمزم هبة سماوية وحفرها إبراهيم فستبقى تجود بالماء على مر العصور ولن يحتاج من عليه السقاية من قريش أن يجلب الماء للحجاج من خارج مكة.

رابعاً: العباس ابن عبد المطلب هو جد الخلفاء العباسيين.

والخلفاء العباسيون هم من كتب التاريخ الذي وصلنا. وهم يقولون في تاريخهم إن جدهم العباس تولى سقاية الحاج بعد أبيه. وهم من قال إن زمزم حفرها جدهم عبد المطلب أبو العباس.

فهل يصعب عليهم إيجاد من يختلق لهم الأحاديث التي تقدس زمزم؟

لم يصعب عليهم إيجاد من اختلق أحاديث تمتدح خليفتهم السفاح بالاسم، ومن ذلك ما أورده أحمد ابن حنبل في مسنده: دّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا عثمان، وسمعته أنا من



عثمان، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح، فيكون اعطاؤه المال حثياً».

فكيف يستصعبون اختلاق أحاديث تمجد زمزم؟

خامساً: أثناء استقلال عبد الله ابن الزبير بالحكم في مكة عن الأمويين، كان يسبهم يوم عرفه ويفضح فسادهم على مسمع من الحجاج ومن بينهم حُجاج الشام. فقام عبد الملك ابن مروان ببناء ما عرف بالمسجد الأقصى في القدس والقبة المعروفة حالياً بقبة الصخرة، التي كساها مثلها تكسى الكعبة وصرف الناس للحج إليها بدل مكة حتى لا يستمعوا لابن الزبير.

ومنذ عهد ابن مروان أصبحت القدس بمنزلة مكة أو تزيد وظهرت الأحاديث التي لا نهاية لها بفضلها وقدسيتها وأن الصلاة فيها تعدل آلاف الصلوات في غيرها وظهرت قصة الإسراء والمعراج وغيرها. وبقي كثير من الناس خاصة في بلاد الشام حتى اغتصاب القدس من قبل إسرائيل، يقدسون أي يذهبون للقدس، كما يحجون لمكة.

فهل من العسير ترسيخ قدسية زمزم (بئر العباسيين) وهم من كتب التاريخ؟

وكثير من الناس يظنون أن زمزم منذ حفرها عبد المطلب وهي تفيض بالماء، فهل كانت كذلك؟

سأورد شاهدين يثبتان أن ماء زمزم يغور باستمرار على مر العصور:

- يقول الطبري في تاريخه: «خرج عمر بن عبد العزيز سنة ثمان وثمانين بعدة من قريش أرسل إليهم بصلات وظهر للحمولة من قريش منهم ابن أبي مليكة وغيره. فأخبروه أن مكة قليلة الماء وأنهم يخافون على الحاج العطش، وذلك أن المطر قل.»

يعني لا زمزم ولا أي بئر في مكة بقي فيها ماء لأن المطر الذي يغذيها قل. فزمزم ليست هبة سماوية ماؤها يفور من باطن الأرض ومن أماكن لا يعرفها إلا الله.

- ورد في كتاب أخبار مكة للأزرقي (ت ٢٥٠ هـ) ما يلي:

«بابُ ذِكْرِ غَوْرِ زَمْزَمَ، وَمَا جَاءَ فِي ذَلِكَ قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ: كَانَ ذَرْعُ زَمْزَمَ مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى



أَسْفَلِهَا سِتِّينَ ذِرَاعًا، وَفِي قَعْرِهَا ثَلَاثُ عُيُونٍ، عَيْنٌ حِذَاءَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، وَعَيْنٌ حِذَاءَ أَبِي قُبَيْسٍ وَالصَّفَا، وَعَيْنٌ حِذَاءَ الْمَرْوَةِ، ثُمَّ كَانَ قَدْ قَلَّ مَاؤُهَا جِدًّا حَتَّى كَانَتْ تَجُمُّ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ، قَالَ: فَضُرِبَ فِيهَا تِسْعَةَ أَذْرُعٍ سَحًّا فِي الْأَرْضِ فِي تَقْوِيرِ جَوَانِبِهَا، ثُمَّ جَاءَ اللهُ بِالْأَمْطَارِ وَالسُّيُولِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ فَكَثُرَ مَاؤُهَا، وَقَدْ كَانَ سَالِمُ بْنُ الْجَرَّاحِ قَدْ ضَرَبَ فِيهَا فِي خِلَافَةِ الرَّشِيدِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَذْرُعًا، وَكَانَ قَدْ ضَرَبَ فِيهَا فِي خِلَافَةِ الْمَهْدِيِّ أَيْضًا، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ مَاهَانَ - وَهُوَ عَلَى الْبَرِيدِ وَالصَّوَافِي - فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّشِيدِ - قَدْ ضَرَبَ فِيهَا، وَكَانَ مَاؤُهَا قَدْ قَلَّ حَتَّى كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ مشيرٍ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ يَعْمَلُ فِيهَا، فَقَالَ: أَنَا صَلَّيْتُ فِي قَعْرِهَا.»

ولو كانت زمزم تفيض كما تفيض اليوم لما قامت زبيدة بالأمر بإنشاء مشروع زبيدة لسقاية مكة والحجاج من وادي نعمان وبطول يزيد عن (٤٠) كليو متراً وذلك في العام (١٩٧ هـ). وبقي هذا المشروع يزود مكة بالماء إلى سبعينات القرن الهجري الماضي، وهو عهد قريب جداً.

وماء زمزم الإلهي غار فتفضلت الملكة زبيدة بإمداد مكة من عين خارج مكة في وادي النعمان وسميت العين باسمها، كما يفعل الحكام حالياً حيث تسمى كل المشاريع والشوارع والهيئات والمدارس وكل شيء بأسمائهم.

إذاً، زمزم تكرر غور مياهها وتكرر حفر قعرها وتعميقه عبر العصور. ولم تعرف النشاط المتواصل والماء الدائم الجريان قبل حفرها من قبل السلطات السعودية في العام ١٣٧٥ هـ. وبعد ذلك أصبحت زمزم تدر مياهاً غزيرة وبمواصفات ثابتة بسبب تقنيات التنقية، وليس ببركات السماء، لأنها ليست مباركة.

ولدينا ثلاثة تقارير تؤكد أن ماء زمزم يتلوث، وهي:

١. في عام ١٣٠٤هـ نشرت القنصلية الإنجليزية في جدة تقريراً تحت عنوان: حجة مكة وكوليرا زمزم، ورد فيه أن ماء زمزم يحتوي على ميكروبات ضارة قد تصيب بالكوليرا وأنه أسوأ من مياه المجاري. وقد نشرت مجلة لواء الإسلام في عددها الرابع الصادر في أول ذي الحجة عام ١٣٦٧ في القاهرة مقالاً بعنوان: زمزم، كتبه د. محمد محفوظ، وذكر فيه خبر تقرير القنصلية الإنجليزية.



٢. في العام ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٧١ نشرت دار نشر أوروبية تقريراً قدمه طبيب عن ماء زمزم ورد فيه أن الماء موبوء وتتجمع فيه مياه المجاري وأنه يقع تحت مستوى سطح البحر.

٣. وفي العام ٢٠١١ نشرت البي بي سي تقريراً عن تحليل مياه زمزم يفيد أنه ملوث بالزرنيخ ويحتوي على مكونات كيماوية وبيولوجية ضارة بصحة الإنسان. وقد جاء الرد على هذه التقارير بصوت الإعلام الرسمي، لكن لا يتوفر تحليل مستقل.

وسواء كان الماء ضاراً أو يتم تعقيمه، فهذا لا يجعله مقدساً ولا يهم موضوعنا.

وغزارة مياه زمزم المفاجئة والحديثة حام حولها تساؤلات كثيرة، منها:

- لماذا ملوحة ورائحة ماء زمزم مماثلة لمياه البحر؟
- وعندما كانت البئر مكشوفة إلى وقت قريب، لماذا لم تكن النباتات تنمو حولها وفي مسيل المياه التي تنساب منها مع أنها أرض ترابية؟

أليس في هذه التساؤلات إشارة إلى أن قعر بئر زمزم يقع تحت سطح البحر بالفعل؟ «كما نص التقرير الثاني».

والبئر تم حفرها وزيادة عمقها عبر التاريخ، ومع ذلك بقيت مياهها تغور وتكاد تفقد حتى بدأت أعمال توسعة الحرم في العصر السعودي. مما جعل مياهها التي كانت شحيحة أو غائرة حتى العام ١٣٧٥ هـ تصل إلى ٢٠٠ ألف عبوة في اليوم ينتجها مشروع سقاية زمزم الذي أنشئ في العام ٢٠١١.

ولو ثبت أن بئر زمزم يقع تحت مستوى سطح البحر فقد تكون وفرة مياه البئر في العصر الحديث - والناتجة عن التوسعة الرسمية للبئر - أدت لفتح فجوات لممر مائي تحت البئر متصل بالبحر.

وما قيل عن مشروع تنقية الماء يدخل ضمنه نوع من التحلية الخفيفة لماء البحر تسمح بإبقاء نوع من الملوحة، وتضمن أن يستمر طعم الماء واحداً باستمرار دون أي تغيير، وهو ما أصبح سمة لماء زمزم.

مع بقاء احتمال تلوث البئر قائماً كون مجاري مكة ستتجه إليه لانخفاضه وإن كان التلوث يمكن تعقيمه خاصة بعد مشروع سقاية زمزم الجديد، إلا أن هذا لا يلغي الاحتمالات



الأخرى.

وفي الختام نكرر أن زمزم لا قدسية لها في دين الله، سواء كان ماؤها أحلى من العسل أو كان أمر من العلقم. وأن نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل لم يعلما بوجودها. وقد حفرها عبد المطلب الذي كان مسئولاً عن سقاية الحاج، وورثها عنه ابنه العباس، الذي أصبح جداً لخلفاء بني العباس. فكان هذا أحد العوامل التي ساعدت على تعظيم شأن البئر دون سائر آبار مكة. بما في ذلك بئر طوى التي تقع في وادي طوى المقدس بشهادة القرآن، والذي كلم الله فيه موسى، وفيه تلقى موسى التوراة وكتبها.

وتقول كتب الأخبار من تاريخ وسير وحديث إن رسول الله بات في وادي طوى ليلة فتح مكة. ويصف ابن إسحاق في سيرته - حسبما نقل ابن هشام - كيف أن الرسول كان يمشي بكل سكينة وخشوع في الوادي:

- قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل.

وإن صدق الخبر فإن قول ابن إسحاق إن خشوع الرسول يعود لأن الله يسر له الفتح، غير صحيح، لأن مروره بطوى كان قبل دخول مكة وليس بعد الفتح. ويكون خشوعه عليه الصلاة والسلام لأنه في الوادي المقدس طوى.

- وورد في البداية والنهاية أنه في كتاب البخاري باب اسمه: باب دخول النّبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مكة شرّفها الله عزّ وجل، جاء فيه: حدّثنا مسدد، ثنا يَحْيَىٰ بن عبد الله، حدَّثني نافع عن ابن عمر. قال: بات النّبيّ صلى الله عليه وسلم بذي طَوَى حتى أصبح، ثم دخل مكة وكان ابن عمر يفعله. ورواه مسلم من حديث يَحْيَىٰ بن سعيد القطّان به. وزاد حتى صلّى الصبح، أو قال: حتى أصبح.

- وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبيت بذي طوى حتى يصبح، فيصلي الصبح حين يقدم مكة، ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أكمة غليظة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل فرضتي الجبل الذي بينه وبين



الـجبل الطويـل نـحو الكعبة، فجعل الـمسجد الذي بنى ثَمّ يسار الـمسجد بطرف الأكمة، ومصلـى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفل منه علـى الأكمة السوداء. يدع من الأكمة عشرة أذرع أو نـحوها، ثم يصلـي مستقبل الفرضتـين من الـجبل الذي بـينك وبـين الكعبة. أأخرجه البخاري ومسلم.

- وأورد ابن كثير في موضع آخر من البداية والنهاية، ما يلي: قال غير واحد من المفسّرين من السلف والخلف لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد فوقف متعجّباً، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربـي منه عن يمينه، كما قال تعالى: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِـيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (القصص: ٤٤) وكان موسى في واد اسمه طوى، فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربّه بالوادِ المقدّس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

وما تقدم يؤكد أن الوادي المقدس طوى هو القريب من مكة، وأن الرسول كان يعظمه ويبيت فيه. وكان يحاول الصلاة في مكان بحيث يكون مكان التكليم أمامه على خط واحد مع الكعبة.

وهناك أخبار في كتب التراث عن أن بني إسرائيل إذا قدموا لمكة خلعوا نعالهم في وادي طوى، ومن ذلك:

- ورد في كتاب أخبار مكة للأزرقي: حَدَّثَنِي جَدِّي، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتَقْدُمُ مَكَّةَ، فَإِذَا بَلَغَتْ ذَا طُوًى، خَلَعَتْ نِعَالَهَا تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ».

وخلع النعال لتعظيم طوى، لأنه لو كان للحرم لخلعوها إما من حدود الحرم أو عند المسجد الحرام، وليس عند مرورهم بوادي طوى.

- وورد في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠) : «حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا عبد الله بن سليمان ثنا محمود بن خالد ثنا عمرو بن عبد الواحد عن الأوزاعي ثنا عبده



بن أبي لبابة عن مجاهد قال: كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف فإذا بلغوا أنصاب الحرم قلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة».

وحتى لو كان هناك مبالغة في أعدادهم، فالمهم هو خلع نعالهم لقدسية المكان ولإحياء ذكرى التكليم حيث أمر موسى بخلع نعليه: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) طه.

- ويورد الفاكهي في كتابه أخبار مكة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَرَ [قَالَ : ثنا سُفْيَانُ ، عَنْ مِسْعَرٍ ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالَ : « كَانَتِ الْأُمَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا جَاءُوا ذَا طُوًى خَلَعُوا نِعَالَهُمْ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ».

وإن صدق الخبر فخلع النعال كان تعظيماً لطوى.

ونحن لا نورد الأخبار على أنها دليل قاطع، لكن نقول إن القرآن ذكر الوادي المقدس طوى وأمر موسى بخلع نعليه. وقد سبق وناقشنا موطن النبي إبراهيم في أحسن القصص وفي مواضيع نشرت على الفيس بوك، وأنه عاش في قرية قريبة من مكة ثم انتقل لمكة وعاش فيها بقية حياته. وأن موسى حج لمكة وعندما خرج منها مع زوجته أول الليل عائدا لبلاده رأى النار وكان في وادي طوى وهناك حدث التكليم. ولو وجدت أخبار تشير لهذه الحقائق فهذا يقوي صحة الأخبار وليست الأخبار هي التي تقوي ما يقول القرآن.

المهم هو أن طوى القرآن أهملت وزمزم قريش قدست.

فوادي طوى طواه النسيان بعدما اختفى تحت البنايات الشاهقة، وإن بقي جزء منه تحت أرصفة وإسفلت شارع طوى. وسجنت فوهة البئر داخل بناء كئيب وأهملت، وقد قمنا بنشر صور لمبنى البئر في كتابنا أحسن القصص. بينما أصبح ماء زمزم لما شرب له وشفاء من كل داء حسب أحاديث تم اختلاقها ونسبتها للرسول، كنوع من الترويج لزمزم. واليوم طبقت سمعة زمزم الآفاق ووصل ماؤها إلى كل بقاع الأرض. مع أنها بئر عبد المطلب ولا قدسية لها في الإسلام، واستغلت رسميا للكسب.

وجدير بالمسلمين ردم زمزم بئر عبد المطلب، وإحياء طوى القرآنية والاهتمام بواديها المقدس.



الشاذروان

وأول ما يمكن ملاحظته هو أن هذا اللفظ يبدو وكأنه فارسي أو تركي أو بلغة أعجمية أخرى وليس عربياً.

وهو مسطبة ترتفع عن الأرض بحوالي (١٣ سم) وبعرض (٤٥ سم)، وتحيط بالكعبة وملاصقة لها في ثلاث جهات من جهاتها الأربع. ويقال إن الذي بناه عبدالله ابن الزبير (قتل ٧٣ هـ) عندما كان حاكماً لمكة، وذلك لحماية الحجارة السفلى للكعبة من مياه الأمطار والسيول.

وكما هو واضح فهو مجرد بناء بشري لا علاقة له بالكعبة ولا بالحرم ولا قدسية له. لكن المشكلة أن كل من جدد في المسجد الحرام يجدد في هذا الشاذروان حتى أصبح وكأنه قطعة من الكعبة، وكأن إزالته تزلزل عرش الرحمن.

ولأنه اكتسب التقديس، يجب إزالته، فهو مجرد فكرة معمارية بغرض صد السيول. واليوم يمكن لشبكات تصريف السيول الحديثة أن تحل المشكلة (لو وجدت في مكة) دون حاجة لشاذروان ابن الزبير.

الملتزم

هو الجزء من جدار الكعبة الواقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة، وهو جزء ضيق. وكثيرون من القراء لم يسمعوا به ولا يعرفونه، نتيجة للزحام الشديد في الحرم في السنوات الأخيرة والمصحوبة بالفوضى، مما يجعل الاقتراب من الكعبة مستحيلاً إلا على الرسميين ورجال الدين.

واليوم يمكن رؤية بعض الحجاج وهم يتبركون بمسح أيديهم ووجوههم بجدار الكعبة ونجد من ينهرهم من رجال الدين لأنه نوع من أنواع التبرك المحرم الشركي – كما يعتقدون – لكن الملتزم هو مكان خصص بجدار الكعبة، لكي يتم التبرك به وذلك بمسح اليدين والوجه والصدر بمباركة رجال الدين أنفسهم الذين ينكرون تمسح الحاج بالكعبة لأنه نوع من الشرك، ويفسحون المجال لهذا الشرك بالتمسح بالملتزم معتبرينه حلالاً، مع أن الملتزم من جدار الكعبة.



وليس التبرك بالملتزم حلالاً فقط، بل هو أكثر من ذلك. فكتب التراث تورد أحاديث ينسبون فيها أن الرسول كان يفعل ذلك، ويزعمون أن من يلتزم تقبل دعوته.

والالتزام يعني أن تكون في ذلك المكان وتضع وجهك وذراعيك وكفيك على جدار الكعبة. يعني تتبرك!

فإن كان يجوز التبرك بجدار الكعبة في منطقة (الملتزم) فهو جائز في كل جزء من جدران الكعبة. وإن كان التبرك شركاً فالملتزم مكان خصص للشرك، ومما بقي من شرك ما قبل الإسلام وحافظ عليه المسلمون بالزعم أن الرسول مارسه. وحاشا لرسول الله أن يمارس التبرك والشرك.

ولو تذكرنا أن أحجار الكعبة تبقى أحجاراً ومن تبرك بها أو تبرك بهبل واللات والعزى فهو تبرك شركي، بنفس المستوى.

والكعبة رمزٌ ببنائها، لكن حجارتها لا قدسية لها، كما سبق وذكر. والدعاء سبق وناقشنا أنه لا يقبل لأمور الدنيا وهو في القرآن خاص بالاستغفار والتوبة. وحتى لو كان الدعاء يستجاب، فالله يستجيب دون حاجة لتبرك ولا لوقت معين ولا لتواجد في الحرم.

الحطيم

هو الحِجْر أو حجر إسماعيل.

حائط يقع شمال الكعبة على شكل نصف دائرة بطول (١١،٣٠ متر)، وارتفاعه (١,٣٢ متر)، وعرض الجدار (١,٦ متر).

وهناك أقوال متخالفة حول منشئه كلها ليست دقيقة، ومن ذلك قولهم: إنه كان جزءً من الكعبة ولكن عندما أعادت قريش بناء الكعبة نقصت مؤنتها فقصرت بناء الكعبة عنه. ورجال قريش متخمون بالثروات التي يكسبونها من نقل البهارات واللبان والبخور من قرب سواحل بحر العرب إلى الشام ومنها لأوروبا، ويستحيل أن تنقص مواردهم عن بناء جدار الكعبة. وما يؤكد أن ما قيل غير صحيح هو أن شكل الكعبة بأربعة أضلاع بينها الحطيم على شكل قوس.

وسأورد رواية أميل لمغزاها، دون تفاصيلها، وهي: روي عن ابن عباس أن أبا طالب قال



في الجاهلية لقرشي قتل هاشمياً خطأ وأنكر قتله: اختر منا إحدى ثلاث؛ إن شئت أن تؤدي مائة من الإبل، وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله، فإن أبيت قتلناك به[1]. قال: فأتاه قومه فذكر لهم ذلك فقالوا: نحلف. فأتته امرأة من بني هاشم كانت تحت رجل منهم قد ولدت له فقالت: يا أبا طالب أحب أن أتخير ابني هذا ولا تصبر يمينه، حيث تصبر الأيمان (يعني الموضع الذي كانوا يحلفون فيه، وهو حطيم الكعبة ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر) لأن الناس كانوا يحطمون هناك بالأيمان ويستجاب فيه الدعاء على الظالم للمظلوم، فقلّ من دعا هنالك على ظالم إلا أهلك، وقلّ من حلف هنالك إثماً إلا عجلت له العقوبة[2].

فالحطيم قد يكون في الأصل مكاناً وثنياً للاستقسام بالأزلام والأنصاب، وقد يكون مذبحاً للقرابين أيضا. وهذه الأعمال الوثنية نهت عنها سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ ... (٣)﴾.

وبما أن رسول الله والمسلمين لم يبقوا في مكة إلا يوم الفتح ثم نقضت قريش معاهدتها معهم وخرجت مكة عن سيطرة المسلمين حتى ما قبيل وفاة الرسول. وبما أن الرسول حج مرة واحدة فقط في آخر أيامه ومات بعدها بأشهر قليلة فإن بقاء مخلفات وثنية حول الكعبة وارد ومحتمل. ومع الأيام أصبح التخلص منها وكأنه عبث بدين الله، خاصة أن قريشاً حكمت وتحكمت بدولة المسلمين عبر الأمويين والعباسيين لقرون. ولعل ابن الزبير عندما قال التاريخ إنه هدم الكعبة وأعاد بناءها، قد هدم هذه الملحقات وأبعدها، فلما قتل أعادتها قريش كما كانت. لأن ابن الزبير ليس لديه سبب لهدم الكعبة، وحتى لو أراد تجديدها وترميمها فيمكنه هذا دون أن يهدمها.

---

١ هذا العرف ما زال قائماً عند بعض قبائل الحجاز وجنوب غرب جزيرة العرب. ويتبع القسم الذي يحلفه الخمسون رجلاً بالعبارة التالية: «لو أن الذي حصل منا عليكم حصل منكم علينا لرضينا بما رضيتم به». ويطلق عليه «الخط والمثل» أي الحلف على خطاه ومثله.

٢ تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام لابن ضياء المكي.



الحجر الأسود

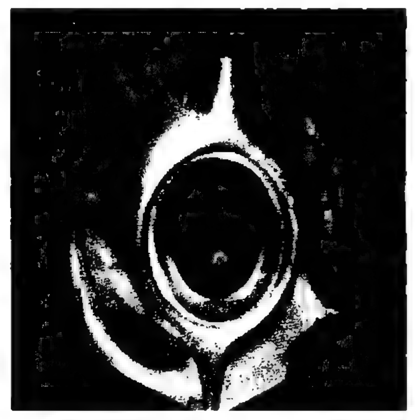
لعله الأشهر من بين كل الأشياء المحيطة بالكعبة بجانب مقام إبراهيم.

وكغيره فتاريخه مجهول، وهناك الكثير من الروايات المختلفة وكلها لا أساس لها، وما هي إلا اختلاقٌ ممن كتب عنها في العصر العباسي. بعضها لا يمكن حدوثه مثل قولهم "إنه حجر من الجنة"، لأن الجنة لم تخلق بعد.

ومثل قولهم إن الملائكة أنزلته على إبراهيم، كما ورد في حكاية خرافية تقول: إن إبراهيم عليه السلام طلب من إسماعيل أن يحضر له حجرا، فلما رجع وجد أن إبراهيم قد وجد حجرا، فقال إسماعيل: يا أبتي من أين لك هذا قال: جاءني به من لم يكلني إلى حجرك، جاء به جبريل[1].

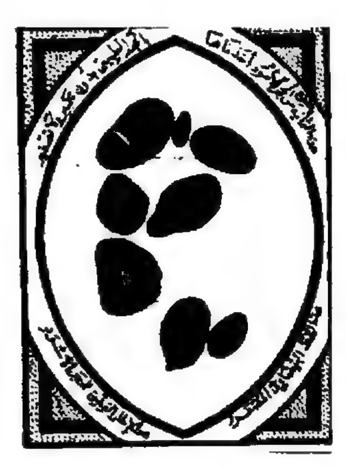
أو القول بأنه كان أبيض فسودته ذنوب البشر، وغير ذلك من الخزعبلات التي تزخر بها كتب التراث.

ويقع مكان الحجر يسار باب الكعبة، ويرتفع عن أرض المطاف (بـ١٠ , ١ متر). وهو ليس حجراً بل فتاتٌ من حجر عددها (٨) قطع أكبرها لا يزيد طولها عن ٤ سم وبعرض لا يزيد عن ٢ سم، وأصغرها لا يزيد طولها عن نصف سم. وهذه القطع مغروسة في مادة لاصقة داخل وعاء فضي مثبت داخل الركن الشرقي لجدار الكعبة إلى يمين بابه. كما هو موضح في الصورة.



[1] جبريل وكل المخلوقات اللاحسية لا تستطيع نقل الأشياء، لأنه ليس لديها جسد حسي.

وهذه هي قطع الحجر الثمان التي داخل الإطار الفضي كما رسمها بحجمها الطبيعي الرسام محمد طاهر كردي بعد أن وضع ورقة على الحجر ورسمها بنفس حجمها الصحيح، غرة ربيع الأول عام ١٣٧٦ هـ[١]:



ويقال إن الحجر الأسود كان بطول (٣٠سم)، وقد مرت أحداث تسببت في تكسيره، ولم يبق منه سوى هذه الشظايا الصغيرة.

وهو مجهول الأصل، ولا قيمة له في الإسلام، والحديث الوحيد الذي يستشهد به على قدسية الحجر مختلق وهو المنسوب لعمر ابن الخطاب ونصه في كتاب مسلم: قَبَّلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحَجَرَ. ثُمَّ قَالَ: أَمَ وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ حَجَرٌ. وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ

ومع أن مختلقي الأحاديث لم يتمكنوا من التصريح بقدسية الحجر وكل ما استطاعوا قوله هو هذا الحديث فإنه كان كافياً مع تتابع الأجيال أن يقدس الحجر كما هو عليه الآن.

وأميل شخصياً أنه بقايا حجر وثني كان بالقرب من الكعبة، وتم تكسيره عمداً، ولعل من كسره هو عبد الله ابن الزبير عندما قام بإعادة بناء الكعبة. ولما قتل ابن الزبير وأعادت بني أمية بناء الكعبة كما كانت زمن الجاهلية احتفظوا بما استطاعوا العثور عليه من حطام الحجر، وهو الذي قد يكون بطول ٣٠ سم. وهذه هي القطعة التي استولى عليها القرامطة

١ كما ورد في الموقع الحكومي «بوابة الحرمين الشريفين» وهذا رابط موقعهم:
http://www.alharamain.gov.sa/index.cfm?do=cms.conarticle&contentid=4048&categoryid=210



وكسروها. إلا أنه تم إعادة القطع التي تم العثور عليها من حطامه وهي الشظايا الثماني الباقية لليوم، وهي التي يحتفظ بها في هذا الوعاء الفضي وقد غمست بمادة لاصقة لئلا تنتزع من مكانها. والتي يحتفظ فيها بهذا الوعاء الفضي وقد غمست بمادة لاصقة لئلا تنتزع من مكانها.

وتجدر الإشارة إلى أنه تم اكتشاف صنم عند أحد أبواب المسجد الحرام واسمه باب السلام، عن طريق الصدفة. وقد طالبت به الحكومة الهندية في عهد سعود بن عبد العزيز، لكن طلبهم رفض واختفى الصنم منذ تلك اللحظة. وقد أورد الخبر الدكتور محمد عبده يماني الذي قد تولى عدة مناصب وزارية دينية، عبر لقاء مع قناة اقرأ التلفزيونية[1]. ولعل قريش قامت بدفن أصنامها لما تأكد لديها أن المسلمون قادمون لفتح مكة.

وبقاء صنم قرشي إلى هذا العصر، والناس لا تعلم أنه صنم هو نفس العامل الذي جعل المقدسات غير المقدسة حول الكعبة تبقى والناس لا يعلمون عنها ولا عن تاريخها شيئاً[2].

المقام

من يعود لكتب التراث سيجد أن المقصود بالمقام (مقام إبراهيم) لم يُتفق عليه أبداً. وأن القول بأنه ذاك المحاط بالغطاء الزجاجي وعليه غطاء مذهب، الواقع أمام باب الكعبة، هو واحدٌ من آراء كثيرة مختلفة عن المقصود بالمقام. وإليكم بعض أقوال المفسرين، مع الاقتصار على النقل من تفسير الطبري دون غيره من كتب التفسير:

الرأي الأول: أن المقصود بمقام إبراهيم هو الحج كله، وممن قال بهذا: ابن عباس ومجاهد وعطاء. حيث قالوا: مقام إبراهيم هو الـحجّ كله، لأنـي قد جعلتُه إماما فمقامه عرفة والـمزدلفة والـجمار[3].

رأي ثانٍ قال به الشعبي أن مقام إبراهيم هو عرفة.

١ رابط اللقاء: https://www.youtube.com/watch?v=MXAgS_8ENJk&feature=youtube_gdata_player

٢ أبو حزم يميل إلى أن الحجر الأسود قطعة من صنم هبل كبير آلهة قريش والذكر بينها كون بقية الألهة إناث: اللات والعزى ومناة. وهبل هو الذي أعلاه أبو سفيان يوم أحد كما تقول كتب التراث. ولما كسره ابن الزبير بقيت منه قطعة احتفظت بها قريش واعادتها لجدار الكعبة. وكون لونه أسود لأن الأصنام في العادة لونها اسود كما هي الحال عند الهنود.

٣ إذا كان ابن عباس وهو من أهل مكة لا يعرف أن هناك مكاناً حول الكعبة يسمى مقام إبراهيم فهذا دليل على أن مقام إبراهيم كموضع عند الكعبة سمي بعد الرسول ولم تكن قريش تعرفه.



رأي ثالث قال هو الحرم.

وهناك من قال إنه ذلك الحجر المغطى بغطاء زجاجي.

وقد اختلفوا حول أصله.

بعضهم ومنهم ابن عباس قالوا هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناء الكعبة وضعف عن رفع الحجارة[1].

وقال آخرون ومنهم السدي: هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب، فغسلت شقه ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر، فوضعته تحت الشقّ الآخر فغسلته، فغابت رجله أيضا فيه، فجعلها الله من شعائره، فقال: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّى[2].

والخلاصة أن رجال كتب التراث لا يعرفون ما هو المقام ولا سبب تسميته.

أتدرون لماذا؟ لأن المفسرين والمحدثين قصاص يتكلمون من عند أنفسهم ويختلقون القصص لكل شيء يمرون به في كتاب الله وهم لا يعرفونه ويأولون الآيات لغير معانيها ولا يفهمون الآيات والعبارات القرآنية كما نزلت. وهو ما نكرر التأكيد عليه باستمرار.

ومن تخاريف المحدثين عن المقام سنورد مثالاً نقله شيخهم:

يقول البخاري: حدَّثنا مسدَّدٌ عن يحيى بن سعيد عن حُميدٍ عن أنس قال: «قال عمرُ: وافقتُ اللهَّ في ثلاث ـ أو وافقَني ربي في ثلاث ـ قلت: يا رسولَ الله، لو اتخذْتَ مقامَ إبراهيمَ مصلًّى، فأنزل الله: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّى.

فالبخاري هنا ينقل سبباً لنزول الآية مشاركاً المفسرين في ظنهم أو ناقلاً عنهم. وسنرى فيما بعد أن الآية لم ينزل جزء منها لموافقة اقتراح عمر ابن الخطاب.

ومن أغرب ما أورده المفسرون قولهم إن الأمر في «واتخذوا» موجه لبني إسرائيل زمن الرسول فأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، فهم يصلون خلف المقام[3].

---

[1] لاحظ أن ابن عباس ينسب له أنه قال إن المقصود بالمقام هو الحج كله، في الأسطر السابقة، والآن هنا ينسب له أنه قال هو الحجر الذي ارتقى عليه إبراهيم. وهو دليل على أن كل ما قيل عن المقام هو اختلاق.

[2] هذه التخاريف فيها استهزاء وقح على دين الله، حيث جعلت حجراً كان تحت أقدام إبراهيم من شعائر الله.

[3] وسورة البقرة مدنية، ونزلت بعد الهجرة عندما لم يكن لبني إسرائيل أي تواجد في مكة.



وكل ما تقدم يظهر كم هي أقوال المفسرين والمحدثين والنحويين تأويلات لكلام الله لغير معناه، ولا أساس لها.

واليوم فالناس لا يعرفون عن المقام إلا أنه ذلك الحجر الذي تعرض لعوامل تعرية حفرته فقيل للناس إنه موطئ قدمي إبراهيم فاحتفظوا به، كنوع من التقديس وحافظوا عليه. وقامت الجهات الرسمية بتغطيته بغطاء زجاجي وله غطاء علوي مذهب أو من ذهب.

ومما قاله ابن كثير في تفسيره: وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، وقد أدرك المسلمون ذلك فيه كما قال عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب: أن أنس ابن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم. انتهى كلام ابن كثير

ولبيان كذب هذا الكلام سنفترض أن أنساً رأى المقام زمن رسول الله وعليه آخر أصابع إبراهيم وأخمص قدميه. ثم رآه آخر مرة في العام الذي توفي فيه (٩٣ هـ) وقد محيت آثار قدمي إبراهيم، والسبب كما يقول: "أذهبه مسح الناس بأيديهم". أي تبرك الناس بهذا الحجر.

وسنفترض أن التبرك بدأ زمن رسول الله يعني في السنة العاشرة للهجرة التي هي السنة التي حج فيها الرسول. فهل ٨٣ سنة من لمس الحجر للتبرك كافية لمسح آثار أصابع وأقدام إبراهيم التي قاومت عوامل التعرية وبقيت ظاهرة من زمن إبراهيم الذي سبق عصر الإسلام بثلاثة آلاف عام؟

الجواب: لا أحد يختلف عليه، وهو كاف لتكذيب هذا الحديث.

وحتى لو افترضنا جدلاً أنه بالفعل آثار قدمي إبراهيم فيمكن وضعها في متحف، لكن لا توضع للتقديس والتبرك.

والآن سنتدبر الآيات التي ورد فيها ذكر مقام إبراهيم وهما في سورتي: البقرة وآل عمران. وسنبدأ بما ورد في سورة البقرة، مع مراعاة السياق والمخاطب وعوامل التدبر الأخرى:

يقول تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ



وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ(١٢٩).

وكما نرى فالآية التي ذكر فيها مقام إبراهيم وردت في خطاب موجه للناس زمن الرسول. ونوع الخطاب إخباري يخبرهم عن إبراهيم وبعض ما قام به، وليس هناك تشريع يأمر الناس بفعله. لذا فكلمة «واتخذوا» يجب أن تُقرأ على أنها فعل ماضي وليس فعل أمر. فالناس في عصر إبراهيم اتخذوا من مقام إبراهيم حول الكعبة مكاناً للصلاة، ولا تطلب الآية من الناس الآن أو في عصر الرسول أن يصلوا في مقام إبراهيم.

ويتبقى أن نفهم ما المقصود بمقام إبراهيم وهذا تبينه سورة آل عمران التي ورد فيها: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ(٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧).

الآية (٩٦) تقول إن أول بيت لله وضع للناس هو الذي ببكة.

الآية (٩٧) تقول في هذا البيت آيات بينات، وهذا البيت هو مقام إبراهيم، ومن دخل هذا البيت كان آمناً.

إذا، مقام إبراهيم هو البيت الحرام أو بالأحرى ما يطلق عليه الحرم لأن إبراهيم لا يقيم في الكعبة ولا في المسجد المحيط بها ولكنه يقيم في مكة، منطقة الحرم.

ولو عدنا لآية سورة البقرة وتمعنا فيها مرة أخرى فهي تقول: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥).

البيت (الكعبة والمسجد المحيط بها والحرم المحيط) مثابة للناس يأتونه للحج، وأمناً. ومن يأتي لمكة فهم يصلون في مقام إبراهيم الذي هو حرم مكة. فهم يأتون لمكة الحرام ويصلون



فيها التي هي مكان إقامة إبراهيم (مقام إبراهيم) وليس هناك حجر صعد عليه وطبعت عليه آثار قدميه.

هذا هو المقام بكل بساطة ووضوح.

أما هذا الحجر المزخرف بالرخام والمحاط بغطاء مذهب فهو مجرد حجر، ظن الناس بعد قرون من زمن إبراهيم أن له قدسية فقدسوه وبقي بعد الإسلام لأن الناس نسبوه لإبراهيم لكي يبقى مقدساً وبالقرب من الكعبة ولا يحطم أو يتم التخلص منه، وهو ما يجب أن يفعل به الآن.

وختاماً لحديثنا لابد من الإشارة إلى أن الكعبة بيت رمزي لله لكي يحج الناس له، وإليه يتوجهون في صلواتهم. لكنها كبناء لا قدسية لها، ويمكن أن تهدم ويعاد بناءها كلما دعت الحاجة بأي حجارة كانت، لأن العبرة في وجود الكعبة وليس فيما بنيت منه.

واليوم نشاهد أن الكعبة قد غطيت بقماش فاخر مكتوب عليه آيات بخيوط ذهبية يقوم بإنتاجها مصنع متخصص وعمالة وتكاليف بملايين الريالات غلو لا حاجة له وتقديس. ولو صرفت ملايين تزيين الكعبة على مشاريع إنمائية لساهمت في القضاء على الفقر ولكانت أنفع للناس.

كما أن الحكومة السعودية تساهم في ترسيخ الغلو في كسوة الكعبة وذلك بالقيام سنوياً بتقطيع كسوة العام الفائت إلى قطع صغيرة وتقديمها كهدايا لزعماء الدول وبعض الأشخاص كنوع من البركة وهذا الاعتقاد يدخل في التبرك والغلو كما أن تقطيع كسوة كلفت الملايين فيه تبذير محرم.

ولا حاجة لوجود باب للكعبة ولا حاجة لصرف الملايين لتحسين داخل الكعبة ولا قدسية للصلاة داخل الكعبة وليس هناك زيادة أجر لمن يصلي داخلها عمن يصلي خارجها وإلا لكان هناك تفضيل للسلاطين وأتباعهم عن بقية الناس، لأن الكعبة لا يدخلها إلا هم ومن حولهم، ومن يختارون.

كما نلاحظ أن (الميزاب) الذي يصرف ماء السيول من سطح الكعبة يسمى الآن مزراب الرحمة. وهذا بداية لتقديسه، لأنه ليس ميزاباً للرحمة ولكن لتصريف الماء مثله مثل أي ميزاب في أي مبنى.



وعليه فلو أعيد بناء الكعبة وألغي بابها ولا حاجة لكتابة آيات قرآنية عليها، وإن كان ولابد فتطلى جدرانها الخارجية بأي لون أسود أو غيره لا فرق. ولا حاجة لباب يؤدي لداخلها وكأن هناك سر الله الأعظم. لو فعلنا فقد طهرنا بيت الله مما يجب ألا يكون فيه.

حرم المدينة

المدينة موضع في يثرب بني فيه مسجد الرسول وسكن المهاجرون حوله، ثم عمت تسمية المدينة على كل يثرب في عصور لاحقة. وليس للمدينة مكانة مقدسة أبداً، ومسجد الرسول كأي مسجد آخر في أي مكان.

والحرم والبلدة الحرام هي مكة وفيها المسجد الحرام، وهو بيت الله الوحيد على الأرض.

وقد توفي الرسول والمدينة لا أحد يعتبرها حرماً، ولا أحد يقارن مسجد الرسول بالمسجد الحرام. وفي عصر الظلمات والفتن اعتبر الناس مسجد الرسول حرماً يضاهي الحرم، وأصبحت المدينة بلدة محرمة أخرى بجانب مكة. واختلقت أحاديث كثيرة عن حرم المدينة وحرمتها، ومسجدها. وتوالت التوسعات والتحسينات على المسجد الذي كان يصلي فيه الرسول بواسطة الحكومات المتعاقبة، بعدما أصبحت زيارة المدينة للحجاج عملاً مكملاً للحج، وكأن الحج لا يكتمل بدونه. وكان الواجب على المسلمين المحافظة على مسجد رسول الله على حاله زمن الرسول بحجراته وحجرات أزواجه والمداومة على ترميمه وصيانته. وإبقاء قبر الرسول وقبري أبي بكر وعمر كما كانت، ولو أمكن إبقاء مدينة عصر الرسول كما كانت، كشاهد حي على عصر صدر الإسلام.

لكن المؤسف هو أن كل آثار المدينة مسحت من الوجود وتم توسعة المسجد توسعة مبالغاً فيها لدرجة ابتلعت مساحته كل ما كان يعرف بالمدينة زمن رسول الله بل وحدود المدينة قبل (٣٠) عاماً، بآثارها التي لا تقدر بثمن. وصرفت باسمها مليارات الريالات التي لو صرفت في مجال مكافحة الفقر والبنية التحتية لزال الفقر وأصبحت البلاد أكثر تطوراً. وتوسعة المسجد أخرجته من كونه مسجداً لرسول الله إلى مسجد هائل الاتساع لا علاقة له بالرسول ولا يمثله.

وبطبيعة الحال فإزالة كل الآثار الإسلامية من المدينة لم تكن لمرضاة الله، لأن الله لا يرضيه



أن نمسح من الوجود الشواهد التاريخية والنقوش الدالة على عصر صدر الإسلام. ومن قام بتفتيت الحجارة التي تحمل النقوش في جبل سلع وغيره، وهدم البيوت القديمة وحول أماكن الآثار لمناطق سكنية في مكة والمدينة ليس موالياً لله، ولم يفعل ذلك خوفاً من تبرك الناس بها، لو بقيت. لأن من يريد التبرك بحجر أو سياج يتبرك اليوم بالسياج المحيط بقبر الرسول وبالمقام والحطيم وزمزم والملتزم والحجر الأسود، وغيرها مما تتم رعايته وتجديده والحث على التبرك به. ولأن من يتبرك بالأشياء لن تتنزه عقيدته الفاسدة بمجرد منعه من التبرك. ولأنه يمكن وبسهولة منع الناس من التبرك بالتوعية والقوانين والأنظمة وليس بهدم آثار لأعظم دين ظهر على الأرض، لدرجة أن مكة والمدينة تحولتا من أغنى المدن العالمية في الآثار إلى مدن كالمدن الأمريكية التي بنيت على أراض بكر لم يسبق أن سكنت.

والأكثر أسفاً أنه برغم أن الآثار ملك لكل العالم فإن كل المنظمات الدولية وعلى رأسها هيئة الأمم واليونيسكو لم تعترضا على ما حدث ولو بكلمة. واستمر تجريف الآثار وتخريب مكة والمدينة على مرأى ومسمع منهم، وهم ينظرون.

حسبنا الله ونعم الوكيل، فقد أجهض من يتسمون بالإسلام على مآثر الرسول والمسلمين وآثارهم.

الثواب ليس على قدر المشقة ولكن على قدر العمل

وهذه العقيدة تعتمد على حديث منسوب للرسول روي على لسان أم المؤمنين عائشة أن الرسول قال لها أثناء أداء العمرة: إنما أجرك على قدر نفقتك أو نصبك، وفي رواية أخرى: إِنَّمَا أَجْرُكَ فِي عُمْرَتِكَ على قَدْرِ مشقتك.

وهذه العقيدة على ما يبدو لها أصل مسيحي ثم صوفي، لأنها تدعو لحياة الرهبنة ولبس الخشن وشغف العيش والمشقة والتعب. ولهذا فهم يذهبون للحج لكي يقاسوا مشقته ظناً منهم أن هذه المشاق ستزيد من أجورهم. بل إن الفكرة السائدة منذ قرون هي أن كل من يموت في الحج فله أجر عظيم أو أن ذنوبه كلها تغفر. وهناك أحاديث كثيرة تقول بذلك، ومنها: بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تحنطوه - أي لا تطيبوه لأنه كان محرماً - ولا تخمروا



رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً. وقد رواه البخاري ومسلم وغيرهم.

وبطبيعة الحال من مات ملبياً فلن يبعث ملبياً، ومن مات مبطوناً فليس شهيداً، ومن مات مقتولاً فلن يبعث والدم ينزف من جرحه.. الخ.

ومن حج ولقي نصباً وتعباً فليس عليه أن يكمل الحج ولا يجب عليه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٨٦) البقرة.

فلو كلفنا أنفسنا ما لا طاقة لها به فسنأثم ولن ننال أجراً أكبر.

والمريض والعاجز ليس عليه حرج: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً(١٧) الفتح.

لذا فمن المفترض ألا نرى حجاجاً في أرذل العمر، لأن أوضاعهم البدنية والصحية لا تساعدهم على الحج وبالتالي فليس عليهم حرج.

ومن لا يحج أثناء شبابه وقوته وصحته – وهو يستطيع – وينتظر إلى أرذل العمر ظناً منه أنه أكثر أجراً فقد أخطأ وأثم. وخالف كلام رب العالمين، الذي يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، والذي يمنح حق إفطار رمضان للمريض والعاجز فما بالك بالحج: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥) البقرة.

فالدين لم يفرضه الله ليحرج به المسلمين، بل هو تسامح وتساهل، لدرجة أن من لا يجد ماء للوضوء أو الغسل يكفيه التيمم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ



وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦) المائدة.

وقد فرض الله على إبراهيم ومن بعده ابنه إسماعيل وذريته أن يُؤمِّنوا كل ما يلزم لراحة الحجاج لتأدية الحج بيسر وسهولة ودون تعب أو نصب. وأن تُوفر لهم كل وسائل الراحة من تنقل ومأكل ومشرب ومسكن. فهم ضيوف الرحمن ومن يتولى خدمة بيت الرحمن يجب عليه أن يستضيف ضيوفه كما أمر.

الشهيد

المعنى الشائع هو: من قُتل وهو يقاتل في سبيل الله.

ثم أضيفت الشهادة لمن يموت مطعوناً أو بمرض في بطنه، أو غريق، ومن انهدم البيت عليه، وغيرهم.

والشهيد بالمعنى الشائع تعني أن ذنوبه كلها مغفورة وسيدخل الجنة، لأنه مات بطريقة معينة.

فهل للفظ «شهيد» ذكر في القرآن؟

وهل من يموت شهيداً تغفر له كل ذنوبه؟

وهل الشهادة بهذا المعنى الشائع يختص بها المسلمون؟

لفظ «شهيد» تكرر في عشرات السور، لكن ليس منها آية واحدة في كل القرآن الكريم جاءت بالمعنى الشائع للشهيد. وبعبارة أخرى: القرآن لا يستخدم لفظ «شهيد» لمن يقتل في سبيل الله، ولا لمن يموت بتلك الحوادث المذكورة آنفاً. وبالتالي فاستخدام لفظ «شهيد» بمعناه الشائع لم يعرف عند نزول القرآن في عصر النبوة.

وشهيد بمعنى المقتول في سبيل عقيدته موجود في معتقدات كثيرة، ومنها اليهودية والمسيحية. لذا يبدو أن كلمة شهيد - بمعناها السائد الآن - دخلت للمسلمين بعد الفتوح وتأثر تراث المسلمين الديني بالمسيحية في البلاد المفتوحة. فأصبحت تطلق على من يقتل في حروب التوسع التي قادها حكام المسلمين أثناء حكم قريش (الأموي والعباسي)، واستمرت إلى اليوم. وتوسعت دائرتها لتشمل شهيد الواجب وشهيد الوطن وأصنافاً كثيرة.

فهل من يقاتل مع المسلمين ويقتله الكفار تغفر له معاصيه ويدخل الجنة؟



الله عز وجل وعد بالمغفرة لمن قتل أو مات في سبيل الله: وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ(١٥٨).

والآيات كما هو ظاهر تقول بصريح العبارة إن من يقتل أو يموت فإلى مغفرة الله ولم تقل الآية إن الغفران يكون بسبب القتل في ساحة المعركة فقط. فقد يموت المسلم ويغفر له وقد يقتل في سبيل الله ويغفر له. فالجنة تُستحق بالإيمان والعمل الصالح، ومن العمل الصالح القتال في سبيل الله.

ومن قتل في سبيل الله وهو مؤمن ويعمل صالحا فهو في الجنة، ومن يموت على فراشه وهو مؤمن ويعمل صالحا فهو في الجنة. فليس المهم كيف تموت ولكن المهم ما كتب في صحيفة أعمالك قبل الوفاة. والقتال في سبيل الله من أعظم الأعمال الصالحة، لكنه وحده لا يكفي لدخول الجنة. فمن يقتله الكفار وهو يقاتل في صفوف المسلمين، لكنه مستمر على كبيرة توعد الله بها بالنار فسيدخل النار، ولن يغفر له لأنه قتل مع من يقاتل في سبيل الله.

الموروث من كتب التراث أن الجنة سهلة المنال ومرتكب الكبيرة يدخل النار ويخرج للجنة والمقتول يدخل الجنة ولو كانت كبائره كجبل أحد. وغير ذلك كثير مما نجد ما يخالفه ويقول بعكسه كتاب الله.

والشهيد: بمعنى المقتول في سبيل الله لا وجود له في القرآن، ولكن الشهيد في كتاب الله تأتي من الرؤية والمعاينة والإقرار.

والشهيد بالمعنى السائد موجود في أديان كثيرة منها اليهودية والمسيحية، لكنه ليس اصطلاحاً إسلامياً، وليس اسماً من أسماء الله، ولا صفة له سبحانه، ولا يرد في القرآن لفظ «الشهيد» بالتعريف.

والمقتول وهو يقاتل في سبيل الله لا يعني أنه بداهة سيدخل الجنة، لأن دخول الجنة يعتمد على الإيمان والعمل الصالح وليس على نوع الوفاة. وهذا يخرج ما تقول كتب التراث عن المبطون والذي يموت حرقا أو امرأة تموت أثناء الولادة أو من يموت بالطاعون، أو شهداء الواجب أو غيرهم ممن أدخلهم الناس الجنة ولم يدخلهم رب العالمين.

وغفران الذنوب يكون بموجب قواعد ثابتة واضحة بينها القرآن، تتلخص بالتالي: إيمان وعمل صالح. والعمل الصالح يعني ترك كل نهي قرآني والعمل بكل أمر قرآني هكذا



يمكن ضمان الجنة: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

وبعد ذلك من استزاد من صغائر البر وترك صغائر الذنوب فسيدخل المستوى الأعلى في الجنة. وهم المقربون، ومن اجتنب الكبائر واقترف الصغائر فسيدخل الجنة ولكن في المستوى الثاني وهم أصحاب اليمين كما تصفهم سورة الواقعة: وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً(٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ(١١).

ومجرد أن يقتل شخص في جيش المسلمين لا يعني أنه مؤمن. فهناك الكثير من الوثنيين والمسيحيين وغيرهم شاركوا في الفتوح الأولى مع المسلمين وقتلوا. وهؤلاء لا يمكن أن يدخلوا الجنة لأن الإيمان مفقود.

كما أن من يشهد ألا إله إلا الله ويشهد برسالة محمد لكنه يقترف الكبائر ولا يتوب حسب شروط التوبة ثم يقاتل في جيش المسلمين ويقتل، فلن تغفر له ذنوبه والله جل شأنه توعد أمثاله بالنار لاقترافهم الكبائر.

فكيفية الموت لا تؤدي لغفران الذنوب.

والآية التي تعد من يقتل في سبيل الله بالجنة هي موجهة للمؤمن الذي يعمل صالحاً ولا يقترف الكبائر وجاء للقتال بهذه الصفة وقتل فهو في الجنة. ليس لأنه قتل في الحرب ولكن لأنه مات مؤمناً وعمل صالحاً. لذا فلا صحة لضمان الجنة لمن يموت مبطوناً أو مطعوناً أو بسبب هدم أو حريق أو موت المرأة أثناء الولادة أو من قتل دون ماله أو عرضه أو نفسه أو وهو يؤدي الواجب ... الخ.

فالعبرة فيما نسخ في صحيفة أعمالهم قبل الوفاة، وليس بالطريقة التي ماتوا فيها.

فالقرآن واضح ولا يتحدث بعاطفة بل بحقائق يجب أن تكون معلومة للجميع، ولو انتبه الناس لها لعرف المرء مصيره قبل موته، وإن كانت النتيجة لن تعلن رسمياً إلا يوم القيامة. لكن لا أحد يستطيع أن يجزم بمصير غيره، لأنه ليس هناك وسيلة يمكن بواسطتها التأكد من صدق إيمان بشر آخر مهما كان قريبا منا أو نعرفه جيدا. فحقيقة إيمانه وعمله الصالح وابتعاده عن الكبائر ستسجل في صحيفة أعماله وبناء عليها سيدخل جنة أو ناراً وهذا لن



يعلن قبل يوم القيامة. لذا فلا يمكن لنا كبشر أن نقول فلان قتل في القتال فهو في الجنة، لأننا لم نكشف ما سجل في صحيفة أعماله. وقد يقتل رجل في سبيل الله ممن يبدو عليهم الصلاح والتقوى ونظن أنه من أهل الجنة، لكنه يقوم بمنكرات أو يعتقد معتقدات تؤدي للنار، فسيكون مصيره النار. فالمظاهر لا عبرة لها، ولا يجوز أن يحكم بموجبها على صاحبها.

هل قتل القاتل قصاصاً كاف لغفران ذنب القتل؟

سورة الفرقان تقول إن من صفات المؤمن أنه لا يقتل النفس: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) الفرقان.

ويمكن ملاحظة أن الآية تبقي باب التوبة مفتوحاً لمن يشرك ويقتل ويزني.

وسورة الفرقان نزلت في مكة وقبل سورة البقرة التي تؤكد أن القتل العمد لا يقدم عليه مؤمن: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢) النساء.

وتأتي الآية التالية لتؤكد أن من يقتل عمدا فجزاؤه جهنم: وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣) النساء.

فمن يقدم على القتل العمد فهو ليس مسلماً ولو نطق بالشهادتين وأقام بعض العبادات والتشريعات. لأن المؤمن لا ينقض العهد الذي بينه وبين الله بقبوله الإسلام والمتمثل بطاعة كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه. ومخالفة أمر واحد مساوية لمخالفة كل الأوامر.

وقتل النفس كبيرة عقوبتها النار، والنار عقوبة في الآخرة، ولا يكفي عنها تنفيذ حكم القتل بالقاتل في الدنيا، لأن عقوبة الدنيا لا تكفي عن عقوبة الآخرة.

هذا بالنسبة للقاتل، فما حكم المقتول ظلماً.



هل يدخل المقتول الجنة لأنه قتل مظلوما؟

القرآن يقول: وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (٣٣) بني إسرائيل.

والآية لا تقول إن المقتول ظلما في الجنة، ولكنها تعطي لولي دمه الحق بقتل القاتل. أما المقتول فينطبق عليه ما ينطبق على المقتول في سبيل الله. فلو كان مؤمناً يعمل صالحا فهو في الجنة وإن كان مؤمناً ويقترف كبيرة أو كبائر فلن يعفيه قتله مظلوماً من دخول النار.

ولو ذهبنا لسورة النساء، وهي سورة نزلت قبل غزوة بدر وآياتها تحث المسلمين على الخروج للقتال، وتبين أن هناك مواقف مختلفة بين من أعلنوا إسلامهم (الصحابة)، ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً(٧١).

والآية تحث على الخروج جماعات وفرادا، ثم تواصل قائلة: وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً(٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً(٧٣).

الآيتان تبينان موقف بعض المسلمين الذين عقدوا العزم على التباطؤ عن القتال لكي تنتهي المعركة قبل وصولهم. فلو هزم المسلمون سيعتبرون أنفسهم اتخذوا القرار الصحيح، وإن انتصروا وغنموا تمنوا لو كانوا معهم للغنائم.

ولو أن واحداً منهم خرج للقتال وقتل فهل سيدخل الجنة فقط لأنه قتل في المعركة، برغم أنه لم يكن جهاده في سبيل الله؟

بكل تأكيد: لا.

ثم تقول السورة: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(٧٤).

فمن يقاتل في سبيل الله هم المؤمنون حقا (المتمسكون بأوامر الله ونواهيه) وهؤلاء من يقتل منهم أو لم يقتل سيجزى أجراً كبيراً. فهي تتفق مع ما سبق وذكرنا أن الجنة يستحقها المؤمن الذي يبقي أوامر الله ونواهيه وليس كيف يموت.

وتواصل السورة تخاطب الصحابة: وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ



الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً(٧٥) الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً(٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧٧).

إذاً، كيفية الوفاة لا تقرر مصير الإنسان في الآخرة، ولكن المصير يقرره العمل.

هل يعي المسلم حقا ما يقول القرآن عن القتل؟

يقول تعالى :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٩٥) المائدة.

الآية تقول إن من يقتل صيداً (طائراً واحداً مثلاً) في الحرم بعد نزول هذه الآية فسينتقم منه الله. وانتقام الله من شخص يعني خلوده في النار.

فإن كان قتل الصيد في الحرم موجباً لانتقام الله، فما هو مصير من يقتل عمداً شخصاً غيره بعد نزول تحريم القتل؟

يقول القرآن:

المؤمن بالله لا يمكن أن يقتل عامداً أبداً

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(٩٢) النساء.

وفي حال قُتل شخص بطريق الخطأ فعلى القاتل ما يلي:



- تحرير رقبة.
- دفع دية لأهل المقتول.
- من لا يجد المال الكافي لتحرير رقبة أو لم يجد رقبة لتحريرها فعليه الصوم شهرين متتابعين.

إجراءات عملية تشعر القاتل بعظم فعلته برغم أنها حدثت عن طريق الخطأ.

كل من قتل غيره عمداً فليس بمؤمن ولا توبة له

يقول تعالى :وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣) النساء.

- قتل شخص واحد كبيرة ومصير القاتل جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه.

إذا، القرآن يقول:

لا يمكن أن يقدم على القتل مؤمن بالله. وكل من يقدم على القتل العمد بعد نزول الآية فهو كافر بما أنزل الله ومصيره جهنم وعليه غضب الله ولعنته.

قد يقول قائل: كيف نوفق بين هذه الآية التي تقول لا توبة للقاتل العمد وبين ما ورد في سورة الفرقان في الآيات التالية، والتي يفهم منها أن القاتل العمد له توبة: وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا(٧١) الفرقان.

ونقول: أن آية سورة النساء نزلت بعدما تبين الرشد من الغي وتبين المسلمون تشريعات القرآن، وعرفوا أن مرتكب الكبيرة عمداً لا توبة له. وذلك في سورة النساء نفسها: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) .

بينما سورة الفرقان نزلت في مكة وفي وقت لم ينزل بيان أن مرتكب الكبيرة المتعمد لا توبة



له. وبالتالي فهي تقول إن كل من سبق له وارتكب كبيرة مثل الشرك أو قتل النفس أو زنا، فيمكنه التوبة. ومن تاب فعليه الالتزام بضوابط التوبة ومن خرقها فلا توبة له.

قتل نفس واحدة يوازي قتل الناس جميعاً

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ(٣٢) المائدة.

ما يتغافل عنه الناس أن القتل العمد لا توبة له ومن يقدم عليه فهو نفسه يعلم أنه لا يؤمن بالله. وكل من أعان عليه بشكل مباشر أو غير مباشر فهو شريك فيه. ولا يهم إن كان القاتل شخصاً أو جماعة أو حكومة، فكل من يقتل عمداً فقد غضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً. ولا يهم إن كان المقتول شخصاً واحداً اشترك في قتله جماعة أو حكومة كاملة.

التسامح هل يلغي ذنب المعتدي

مما رسخ من كتب التراث، أنه لو اعتدى شخص على غيره وسامحه المعتدى عليه، فالشائع هو أن المسامح سيكسب أجراً ولن يكتب على المعتدي ذنب.

تعالوا نتأكد مما ورد في القرآن، وعبر مثال بسيط.

لو أن التعدي كان بعبارات نابية وتنابز بالألقاب. فالمعتدي تجاوز نهياً إلهياً يقول إن التنابز بالألقاب فسوق يجب الابتعاد عنه ومن لا يفعل فهو من الظالمين وليس بمؤمن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) الحجرات.

وبمجرد أن يعتدي شخص على آخر بمثل هذا الاعتداء فقد كتب عليه ذنب هذا الظلم. بغض النظر إن سامحه المعتدى عليه أو لا. لأن ذنب التنابز بالألقاب ليس مشروطاً بعدم مسامحة المعتدى عليه.

أما المعتدى عليه فلو سامح فسيكتب له حسنة لأن الله أمر بالتسامح. ولو لم يتسامح فهو حق من حقوقه، ولن يكتب عليه ذنب.



تذكروا أن صحيفة الأعمال تكتب ما يصدر من المرء نفسه وليس ما يصدر من غيره له. فهي تسجل أنه اعتدى بالألفاظ على غيره، لكن لا تسجل ردة فعل المعتدى عليه ولا أنه سامح أو لم يسامح.

وعلى هذا المثل البسيط يمكن قياس الاعتداءات الكبيرة والظلم العظيم.

لكن المعتدي لو تاب والتزم بضوابط التوبة فتوبته مقبولة، ولو لم يسامحه المعتدى عليه. ومن أهم ضوابط التوبة عدم معاودة الكبيرة أو أي كبيرة مرة أخرى. ولو عاود التعدي على نفس الشخص أو على شخص آخر فسيعاقب ولن تقبل توبته لأنه لم يكن جاداً في التوبة.

التوبة

هي في كتب التراث: الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها. وإن كانت معصية بحق آدمي، فيشترط رد المظالم لأهلها.

ولا يشترط أكثر رجال الدين السنة في التوبة عدم العودة إلى الذنب مرة أخرى. أي أنه يمكن عندهم أن يتوب المرء من معصية الزنا الآن ويعود إليها مرة أخرى، ويتوب. فيعتبر كأنه يرتكب الزنا للمرة الأولى. يمكن عند كثير منهم التوبة عن معصية مع الاستمرار على معصية أخرى. أي أنه يمكن عندهم أن يتوب المرء من معصية الزنا ويداوم على السرقة أو أي معصية أخرى. وعند أحمد تصح التوبة من معصية والإصرار على معصية أخرى إذا كانت المعصية التي أصر عليها ليست من نوع المعصية التي تاب عنها. فمن تاب عن الخمر وأصر على الزنى أو من تاب عن السرقة ولم يتب عن الرشوة فتوبته عن الخمر صحيحة، ولكن من تاب عن ربا الفضل ولم يتب عن ربا النسيئة فلا تصح توبته.

واشترط بعض رجال الدين لقبول التوبة ظهور علامات الصلاح، وقدروا ذلك بستة أشهر وقال البعض سنة. ولم يذكروا كيف يمكن التأكد من علامات الصلاح، ولم يضعوا لها معايير.

وقالوا بأن باب التوبة مفتوح حتى الغرغرة، أي اللحظة التي تفارق فيها النفس الجسد.

وكل ما قالوه اعتمدوا فيه على أخبار وردت في كتب الحديث، ومنها ما جاء في مسلم: وحدّثنا أَبُو بَكْرِ وَ عُثْمَانُ ابْنَا أَبِي شَيْبَةَ. وَحَدَّثَنِي عَمْرٌو النَّاقِدُ .قَالُوا جَمِيعاً: حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ



الأَحْمَرُ عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ "لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ". (مسلم)

والمالكية والحنابلة وظاهر مذهب الحنفية ورأي عند الشافعية لا يجيزون توبة الزنديق.

ويعرف الزنديق – عندهم – بأنه الذي لا يتمسك بشريعة ولا يتدين بدين. (كما جاء ذلك في حاشية ابن عابدين ٣/ ٢٩٦ وحاشية القليوبي ٤/ ١٧٧ وكشاف القناع ٦/ ١٧٦ – ١٧٨).

*** هذا باختصار ما جاء عن التوبة في الموسوعة الفقهية- إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية –الكويت – الجزء الرابع عشر – توبة.

وهي عبارة عن مخدرات تحقنها كتب التراث للمسلمين ليستسهلوا ارتكاب المعاصي والكبائر، ويوم القيامة تتخلى عنهم.

والآن لنلتفت للقرآن ونذر كلام كتب التراث ورجال الدين وراء ظهورنا.

وسنجد أن ما ورد في كتاب الله يؤكد أن النطق بالشهادة ولو عن يقين راسخ، لحظة الوفاة، لا يسعف من نطق بها إن كانت أعماله سيئة في حياته: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(يونس:٩٠-٩١).

لأن الإيمان ليس قولاً ويقيناً فقط ولكنه يقين وأعمال: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(مريم:٦٠).

ولو لم يستطع المحتضر أن يتشهد فلا يعني أنه مات ميتة جاهلية أو أن مصيره النار، لأن مصيره يوم الحساب سيتقرر بناء على ما كتب في صحيفة أعماله منذ أن أصبح راشداً، وحتى مات، وليس بناءً على آخر لحظة في حياته.

والتوبة لا يقبلها الله إلا إذا استكمل المرء أربع أسس هي: التوبة المباشرة، والإيمان الصادق، والعمل الصالح، والاستمرار على الهدى (أي عدم معاودة المعاصي): وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(طه:٨٢).

وهو ما ينفي أن تكون الأعمال معلقة بخواتيمها، أي أن المرء يمكنه أن يعمل ما يشاء من المعاصي وعندما يهرم ويعجز ولا تسعفه قوته لمزيد من ارتكاب الموبقات يعلن توبته وسيجد الله تواباً رحيما، وإلا لقبلت توبة فرعون لأنه نطق بالشهادة وهو يعي ما يقول، ولم



يدخل في الغيبوبة التي يدخل بها الغريق والتي تستغرق وقتاً قبل أن يموت، أي أن فرعون تشهد قبل الغرغرة ولكن توبته لم تقبل.

والتوبة الموجبة للجنة في القرآن تكون عن الكبائر: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً(النساء:٣١) أي أن كل أمر أو نهي في القرآن يعاقب مخالفه بالنار فهو كبيرة يجب التوبة عنه.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(البقرة:١٨٦). والدعاء هنا لطلب التوبة من الذنوب والمعاصي وليس لأمور دنيوية أو مادية.

فتكون التوبة مفتوحة للعبد إذا تقيد بشروطها التي أوردها القرآن والتي جاءت على الشكل التالي:

١. أن ترتكب المعصية في لحظة ضعف بشري دون تخطيط مسبق وتعمد لفعلها، أو أن ترتكب جهلاً بحرمتها: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(النساء:١٧).

٢. وأن تكون التوبة الصادقة مباشرة بعد اقتراف الكبيرة، وهو المقصود بقوله تعالى: « ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ.»

٣. ألا يتكرر ارتكاب الكبيرة، سواء كانت من نفس نوع الكبيرة السابقة أو من غيرها. لتكون توبةً عن كل ما يخالف أوامر ونواهي الله، بكل صدق، حال فعل إحدى المعاصي دون تأخير: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران:١٣٥) فالتوبة تكون من الكبيرة المرتكبة ومن كل الكبائر الأخرى (فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ) وليس فقط التوبة عما تم اقترافه كل كبيرة على حدة.

٤. ويلزم أن يتبع التوبة الاستمرار بتأدية الأعمال الصالحة: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(الأنعام:٥٤).

ويستمر التائب على أداء العمل الصالح والتقوى حتى آخر حياته: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ



وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(طـه:٨٢).

ولا تقبل التوبة إذا كانت بسبب الإحساس بالموت الحقيقي، أو في حال الموت المعنوي، أي العجز وعدم القدرة، جسدياً أو لأي مانع آخر: وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (النساء:١٨).

ومما ورد يتضح أن القرآن يقول بأن الدين كلٌ لا يتجزأ، فمن أراد التوبة فليتب فوراً عن كل كبيرة – الكبيرة كل أمر أو نهي إلهي مصير مخالفه النار – ولا يعود لغيرها سواء كانت من نوعها أو كبيرة من نوع آخر، وليستمر بطاعة الله واجتناب نواهيه حتى مماته. لأن الإنسان عندما قبل بالإسلام فهو بذلك يقبل بالشروط التي تنص عليها اتفاقية الإسلام وهي موضحة في الفقرة التالية:

الإسلام

الإسلام يعني عقد اتفاق بين الله والعبد، يحصل العبد بموجبه على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة مقابل تعهده باتباع أوامر الله كلها وامتناعه عن نواهي الله كلها مدى الحياة. وأي مخالفة متعمدة مختارة لأمر أو نهي إلهي، معلوم لدى المخالف حكمه، فهو نقض للعقد الذي سبق توقيعه مع الله، شبهه القرآن بمن تنقض غزلها بعد أن نسجته وأصبح متماسكا قويا: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣) النحل.

فالدين إيمان وعمل صالح: رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً(١١) الطلاق.

وهذا الكل لا يتجزأ، فلا يكفي الإيمان وحده أو العمل الصالح وحده. ولا يكفي الإيمان



والامتثال لبعض الأوامر والنواهي وترك البعض. لأن ترك بعض أوامر الدين كالكفر به كله: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٨٥) البقرة.

كما أن عقد الإيمان ملزم مدى الحياة، وإلا أصبح مثل إيمان بعض اليهود بمحمد: وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٧٢) آل عمران.

وهذا ليس من الهدى، الموجب لرضا الله، في شيء: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢) طه.

ومن أصر على ترك العمل بأمر أو نهي إلهي، أو اعتقد أن الإيمان مع اتباع بعض الأوامر والنواهي كاف للبقاء على الإسلام فهو يخدع نفسه: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) البقرة.

لأنه قد نقض العهد الموقع مع الله، وأفسد في الأرض: الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) البقرة.

والإفساد في الأرض يتمثل في أن المنافق إن كذب أو سرق أو زنى أو تصرف بأي تصرف لا أخلاقي فتصرفاته تلك سيعتبرها، من يراه من غير المسلمين، مما يجيزه الإسلام. وفي هذا إعطاء صورة كاذبة وضارة بدين الله، وتنفير للناس منه، وليس هناك إفساد في الأرض أكثر من صرف الناس عن الدخول في دين الله: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) الرعد.

والإسلام دين يقوم على علاقة مستمرة بين الله والعبد تتمثل بطاعة الأوامر واجتناب النواهي، وأي خرق لهذا العقد يلغيه. مثله مثل أي عقد آخر. لكن لو أن العبد خرق هذا العقد بجهالة فإن التراجع والتوبة متوفرة له مرة أخرى ووحيدة، كما تبين في الحديث عن التوبة وضوابطها. أما من يوقع العقد مع الله ولا يهتم بشروطه، ويرتكب الكبيرة تلو الأخرى ويريد من الله أن يغفر له، فهذا عابث لا يستحق المغفرة حتى في العرف البشري.



الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً

كتب التراث رسخت بين المسلمين بواسطة أحاديث منسوبة للرسول، أن الجنة لا يمكن أن يدخلها الإنسان بعمله مهما عمل، ولكن يدخلها برحمة الله فقط. والمقصود بهذا الكلام المنمق هو أنه مهما تمسك الإنسان بأوامر الله ونواهيه واجتنب كل نواهيه مع الإيمان، فقد يدخل النار بأمر من الله. ولو كان عاصياً مستمراً على الكبائر فقد يدخل الجنة لأن الله أمر به فأدخل الجنة. وهذا تصرف الحكام المتسلطين من البشر الذين يرون أنه لا يحد تصرفاتهم لا شرع ولا قانون، وان كلمتهم هي القانون، وكل شيء يسير في ممالكهم بمزاجية الحاكم. هو تصرف عبثي لا يليق برب العالمين الذي خلق الخلق ويديره بقوانين ثابتة دقيقة. ومن تلك القوانين أن الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً كما نرى في الأدلة المقدمة.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٤) الأحقاف.

فدخول الجنة يشترط له الإيمان والعمل الصالح، ولا تدخل الجنة بالدعاء أو بالواسطة، أو بالإيمان دون العمل أو بالعمل الصالح دون الإيمان.

وتقول سورة النجم: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢).

الذين أحسنوا تعني من آمن وعمل صالحاً وهم – كما تصفهم الآية – "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ". فكل من يجتنب الكبائر واللمم، وهي صغائر الذنوب، فسيدخل الجنة مع المقربين في المستوى الأعلى للجنة. ومن اجتنب الكبائر مع شيء من صغائر الذنوب (اللمم) فسيدخل الجنة مع أصحاب اليمين في المستوى الثاني للجنة، كما وصفته سورة الواقعة[1].

وتقول سورة الجاثية: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا

---

١ انظر فقرة: الجنة بمستويين / قسم أدلة من القرآن.



الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٣١).

كل نفس آمنت وعملت صالحاً بناءً على ما سجلته صحيفة الأعمال فهي في الجنة. وكل نفس لم تؤمن أو آمنت ولم تعمل صالحاً، بناءً على صحيفة الأعمال، فهي في النار. فالجنة أو النار يدخلها المرء بما قدم، فهو من يقرر مصيره بنفسه، وليس الله جل وعلا من يقرر ذلك، وهذا منتهى العدل.

وتقول سورة فاطر: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهَّ الْغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٧).

فمن يكفر فقد سار بنفسه للنار، ومن آمن وعمل صالحاً فله الجنة.

وهو ما تؤكده سورة فصلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨).

وتقول نفس السورة: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهَّ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ(٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهَّ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣) فصلت.

فمن يؤمن ويعمل صالحاً فليطمئن بأن مآله الجنة يوم القيامة. وهذا يعني أن المرء يستطيع أن يعرف مصيره وهو ما زال حياً في الدنيا. وينفي مزاعم كتب التراث – وما هو شائع بين الناس – من أن المؤمن مهما عمل من أعمال صالحة فلا يعني أنه ضمن الجنة لأن دخول الجنة ليس بالإيمان والعمل الصالح ولكن بمشيئة الله ورحمته. ويقصدون بمشيئة الله ورحمته أنه سبحانه يمكن أن يقرر أن يدخل مستحق الجنة (من آمن وعمل صالحاً) النار، وقد يدخل مستحق النار (الكافر أو من يقترف الكبائر) الجنة. وهذا الكلام لا أساس له، وينفيه القرآن في هذه الفقرة وفي فقرة: من عدل الله المطلق ألا يدخل مستحق الجنة النار ولا مستحق النار الجنة.

وورد في سورة فصلت أيضاً: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠).



والآية تخاطب قريشاً وتقول بأنه لن يستوي الكافر (من يلقى في النار) بمن يأتي آمناً مطمئناً يوم القيامة على مصيره (لأنه آمن وعمل صالحاً) وهو تأكيد على أن من آمن وعمل صالحاً فليطمئن على مصيره يوم القيامة.

وتقول سورة الكهف: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً(٣١). من آمن وعمل صالحاً فلن يضيع أجره وسيدخل الجنة بكل تأكيد، قانون إلهي ثابت لا يتغير.

ومرة أخرى تعد نفس السورة من آمن وعمل صالحاً بالجنة:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً(١٠٨).

وتقول سورة الزخرف: يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠).

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ.

إيمان وعمل صالح يساوي الجنة.

وهو ما أكدته السورة ذاتها: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢) الزخرف.

فالجنة تورّث (تعطى) مقابل ما عمله الإنسان (إيمان وعمل صالح) وليست بالواسطة أو بالعواطف. بمعنى أن الله (تبارك وتعالى) يتأثر بدعوة أو بطلب من مخلوق لآخر فيدخله الجنة مع أنه يستحق النار، أو يخرجه من النار ويدخله الجنة، فهذه التصرفات الخاضعة للمشاعر توجد عند البشر لأنها ضرورية لاستمرار الحياة، بينما يتنزه عنها الخالق الذي يدير خلقه بقوانين ثابتة وبعدل مطلق.

ومثل دخول الجنة، فدخول النار يكون بناءً على ما قدم الإنسان: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦) الزخرف.

وهو ما تؤكده سورة سبأ: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤).



وسورة لقمان: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ(٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٩).

قانون ثابت لا يتغير: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٤٣) الأعراف.

الجنة تورث بالعمل الصالح (مع الإيمان) ولن يدخل الجنة أحد بشفاعة غيره. ولن يغفر الله لمن مات كافراً أو مرتكباً لكبيرة استمر عليها ولم يتب عنها.

وهو ما تؤكده الآيات التالية: وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُواْ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٥٣) الأعراف.

ومثله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٣) هود.

ولا ينجي من النار إيمان لوحده أو عمل صالح لوحده. والعمل الصالح يعني: التمسك بكل أوامر القرآن والانتهاء عن كل نواهيه عن الكبائر جملة وتفصيلاً.

وتورد سورة المعارج بعض ما يجب على المسلم لدخول الجنة: وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(٢٨) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). المعارج.

وكل ما ذكرته الآيات يدخل ضمن الإيمان.

ومثله ما جاء في سورة الفرقان: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً(٦٥) إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٦٦) ...... أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ



فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦).

وتقول سورة الشورى إن الاستجابة لله موجب للجنة: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

الاستجابة لله تكون بالامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه، وهذا هو العمل الصالح.

وتقول سورة النساء: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً(١٢٢) لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً(١٢٦).

الجنة لا تتحقق بالأماني والدعوات ولكن بالإيمان والعمل الصالح معاً.

وكل من يعمل سوءاً (كبيرة) سيجزى بها وسيدخل النار.

الجنة بمستويين

تقول سورة الواقعة: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ(٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً(٥) فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً(٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً(٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ(١١).

وتعود السورة في آخرها لتؤكد هذه الحقيقة: فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ(٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ(٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ(٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ(٩٥).

الآيات تقول بأن هناك مستويين في الجنة. المستوى الأعلى للمقربين والمستوى الأقل لأصحاب اليمين. والمقربون هم من آمن وعمل صالحاً وحرص على حفظ كل الجوارح من



صغائر الذنوب، مع أداء صغير الحسنات والسلوك والتعامل والبر، بحيث يمثل نموذجاً مثالياً للمؤمن في التعامل وفعل الخير. والمستوى الثاني سيكون لكل من آمن وعمل صالحاً (اجتنب الكبائر) ولو صدر منه بعض الصغائر أو قصر في صغير الفضائل والحسنات.

وهو ما تؤكده سورة الرحمن: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(٤٦) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ(٤٨) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ(٥٠) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ(٥٢) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ(٥٤) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٥٦) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ(٥٨) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٩) هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ(٦٠) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(٦٢) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٣) مُدْهَامَّتَانِ(٦٤) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ(٦٦) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٦٨) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(٧٠) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ(٧٢) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٧٤) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ(٧٦) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٧٨).

عمل الكافر وحده لا يدخله الجنة

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً(٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً(٢٤) الفرقان.

قريش كانت تقوم بأعمال دنيوية جليلة مثل خدمة الحجاج واستضافتهم وسقايتهم وتوفير كل ما يلزم لراحتهم لكن هذه الأعمال لن تنفعهم في الآخرة لأنهم لم يقرنوها بإيمان بالله. وهذا دليل على أن العمل الصالح وحده أو الإيمان وحده ليس كافياً لدخول الجنة. بل لابد من إيمان وعمل صالح. وهذا يقاس عليه الأعمال الجليلة التي قام بها المخترعون للبشرية.

وهذه الحقيقة تؤكدها سورة إبراهيم: مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ



الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ(١٨) إبراهيم. فقريش كان لها أعمالاً دنيوية جليلة لكنها هباء منثوراً، كما هي حال أعمال المفكرين والعلماء في الدنيا مثل آينشتاين وأديسون وغيرهما. فكل ما قاموا به خدم البشرية خدمات لا توصف لكن لم يكونوا مؤمنين بالله. والجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً وليس بواحد دون الآخر.

الوصية

فقه المذهب السائد يقول إن الوصية لا تجوز بأكثر من ثلث مال الموصي. ودليلهم حديث منسوب للرسول يقول: الثلث والثلث كثير.

ولا تجوز لوارث، وأدلتهم في ذلك حديث منسوب للرسول يقول: لا وصية لوارث.

فما الذي يقوله تبارك وتعالى في كتابه؟

تقول سورة البقرة: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠).

الوصية في القرآن كتبت على المسلمين، وأصبحت واجبة عليهم، لا خيار لهم بتركها. مثلما أنه لا خيار لهم بترك أي تشريع كتب عليهم، مثل الصيام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

والوصية في القرآن محصورة بالوالدين والأقربين فقط، دون غيرهم من الناس. والوالدان والأقربون هم الورثة. فالوصية في القرآن تكون للورثة وليس لغيرهم، بخلاف كتب التراث التي تحصر الوصية لغير الوارث.

وتؤكد سورة النساء أن الوصية تُخرج من المال قبل توزيع التركة، وما بقي بعد الوصية فيقسم على الورثة: يوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ .... مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ .... (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ .... مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .... وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢) النساء.

ويوجب القرآن توثيق الوصية في سورة المائدة التي نزلت بعد البقرة والنساء، كاستيفاء للتشريعات الخاصة بالوصية: يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ



الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ(١٠٦).

ومما تقدم يمكن القول بكل ثقة، ما يلي:

- القرآن يوجب الوصية، والفقه يجيزها.
- القرآن يحصر الوصية بالوالدين والأقربين فقط، ولا تكون للغريب ولا كصدقة جارية للميت. بعكس ما يقول الفقه الذي يحرم الوصية للورثة، وعلى رأسهم الوالدان والأقربون الذين نص القرآن على أنهم هم وحدهم من تكون له الوصية، ويجيز أن تكون الوصية على شكل صدقة جارية يعود أجرها للميت.

وعليه فلو قام المرء ببناء مسجد أو مستشفى أو أي مشروع خيري وهو حي يرزق فأجره سيحسب له، لأنه سيكتب في صحيفة أعماله.

لكن لو وصى ببناء هذا المشروع بعد وفاته، كجزء من وصيته.

فالفقه يقول إنه سيحصل على الأجر.

بينما يقول القرآن إنه لن يطاله أجر، لأن الوصية في القرآن ليست للميت ولكن للوالدين والأقربين.

(نحن هنا بين تشريع قرآني وتشريع حديثي فقهي تفسيري يقول بعكس ما يقول القرآن تماماً).

والقرآن يوجب إخراج الوصية قبل تقسيم التركة.

والقرآن يوجب توثيق الوصية، بشاهدين في ذلك الزمن، وهذا لا يمنع استخدام وسيلة توثيقية أنجع من الشهود في هذا الوقت، كالتسجيل في المحكمة.

والقرآن لم يجعل حداً أقصى للوصية، أما الفقه فقد جعل ثلث المال حداً أعلى للوصية مع الكراهية، والأفضل أن تكون الوصية أقل من الثلث.

ونتوقف عند ما جاء في الآية (١٢) من سورة النساء أعلاه، والذي يقول: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾.



فهي تنهى عن أن يضار غير الموصى لهم من الورثة.

ولو أضفنا لهذا قوله تعالى: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) النساء.

وهذه الآية تنهى عن ترك الذرية للعوز والفاقة. وهو مشابه لما تقوله الآية ١٢ «غَيْرَ مُضَآرٍّ».

ألا يعني هذا أن الموصي يجب عليه أن يتأكد من ترك مال كاف للقصر من ذريته حتى لا يضارهم، بتركهم للعوز، وما زاد عن ذلك فيمكن الوصية منه.

وإذا ما ترك الموصي ما يكفي لذريته، فليس هناك مانع من الوصية بكل ما بقي من ماله لمن لهم حق في الوصية.

وبما أن الفقه يحرم الوصية للوارث – عكس القرآن – فقد حوَّلَ الوصية بثلث المال وكأنها حق للموصي، تستخدم كصدقة جارية له بعد موته، كما سبق وذكرنا.

أما كيف استطاعوا تعطيل حكم الله واستبداله بحكم مخالف له من عند أنفسهم، فذلك عن طريق زعمهم أن الآية التي كتب الله فيها الوصية على الناس منسوخة، بالآية التي يسمونها آية المواريث.

وآية الوصية هي: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة

وآية المواريث هي: يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) النساء.

وسورة النساء نزلت مباشرة بعد البقرة، ولو أطعنا المفسرين وأهل الحديث والفقه، فالله كتب علينا تشريعاً، في البقرة، ثم اكتشف أنه يتعارض مع تشريع التوريث فقام بإلغاء تشريع الوصية للوالدين والأقربين «الورثة».

هذه الصورة القبيحة لله لا يمكن أن أقبلها بحق خالق السماوات والأرض: قُلْ أَتُعَلِّمُونَ



اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) الحجرات.

وهي من مصائب الموروث الذي فرض على الله ما أطلقوا عليه: الناسخ والمنسوخ، الذي ابتدعوه من عند أنفسهم. حيث زعموا أن القرآن ينزل آية آية ، وقاموا بتأويل كل آية بمعان من عند أنفسهم، فوقعوا في تضاد بين المعاني التي اخترعوها، ولم يجدوا مخرجاً ليعالجوا المشكلة التي اختلقوا إلا بمشكلة أخطر، تمثلت بالقول بالناسخ والمنسوخ الذي يطول الحديث عنه.

ونتوقف عند شبهة يثيرها المستشرقون ومن يتبع خطواتهم من المبطلين، وتتمثل في القول: إن الإسلام لا يعدل بين الرجل والمرأة، لأن تشريعات المواريث في الإسلام تنص على أن للذكر مثل حظ الأنثيين.

فتعالوا نفهم ما يقول كتاب الله.

القرآن يعطي ولد المتوفي أو المتوفاة مثل حظ بنتين، وهذا في ظاهره قد يبدو للبعض ظلماً.

لكن ما لم يحط به من يظن أنه كذلك هو أن قوانين (تشريعات) القرآن مترابطة، وتؤخذ كلها ولا تجزأ.

ومن ذلك الحقائق القرآنية التالية:

الحقيقة الأولى: أن الإرث لا يمكن توزيعه قبل تنفيذ الوصية وسداد الدين، إن كان هناك دين، كما تنص آيات المواريث. هذه حقيقة يجب ألا تغيب عن كل من يكتب في المواريث.

الحقيقة الثانية: أن من قوانين الوصية أنها واجبة إذا كان الشخص ذا مال «ترك خيراً»: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.

الحقيقة الثالثة: الوصية تكون للوالدين والأقربين الذين من بينهم أبناء الميت.

ولا تكون للميت (كأن يبنى له مسجد بعد موته)، ولا لغير وارث، كما تقول كتب التراث وما يفعله الناس، ولا تحدد بثلث المال فقط.

الحقيقة الرابعة: الوصية تكون للمحتاج من الورثة، بينما الإرث يكون للمحتاج ولغير المحتاج ممن يرثون.



فالوصية واجبة والإرث فضلة، وهذه النقطة تغيب عن الكثير من الناس.

الحقيقة الخامسة: المال أصلاً لصاحبه ما بقي يصونه ولا يبذره ولا يفسده وينفق منه بالمعروف وفيما أمر الله.

الحقيقة السادسة: الرجل أو المرأة بقدر ما هما مسئولان عن إعالة ورعاية وتربية أبنائهما في الصغر، فهما ليسا مسئولين عن إعالة الأبناء بعد أن يكبروا، وعلى الأبناء أن يعتمدوا على أنفسهم.

ولنفترض أن هناك أباً مليونيراً وله ولد يعيش على مرتب وظيفي في هذه الأيام. فليس للولد حق في دين الله في مال والده إلا بما تنص عليه قوانين الإنفاق: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَّ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) البقرة.

يعني أن للولد حقاً من مال والده بما يسد حاجته كأي محتاج، وليس لأنه ولده.

وللولد حق من مال والده بما تنص عليه قوانين الإحسان: وَاعْبُدُواْ اللهَّ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَّ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا(٣٦) النساء.

لكن لو أعطاه والده أكثر من ذلك فهو تفضل وليس واجباً عليه.

وهذا المليونير قبل أن يموت يجب عليه الوصية، والوصية لها قوانين محددة في القرآن لا يستطيع الموصي تجاوزها. وهي حق لأي واحد محتاج من الورثة، وهم: الوالدان والأقربون. والأقربون يدخل ضمنهم أبناء وبنات الميت.

وهنا لنفرض أن للميت بنتين وولدين. ولد فقير وولد ميسور الحال.

والبنات واحدة فقيرة، وواحدة ميسورة الحال. فيستطيع الوالد أن يوصي للولد الفقير والبنت الفقيرة بما يشاء، وقد يوصي للبنت أكثر من الولد أو ضعف ما يوصي للولد.

وعندما يموت وتوزع التركة فحتى لو جاء البنت التي كانت فقيرة نصف ما للولد فلن تتضرر لأن الوصية ضمنت لها الغنى.



وهناك قانون آخر يوجب على الوالد ألا يوصي بماله بما يضر بذريته ويتركهم للفقر: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا(٩)﴾ النساء.

فلا يستطيع الوالد أن يحرم بنته أو ولده الفقير من الميراث ولا من الوصية التي تغنيه (إن كان يملك المال الوفير) وفي هذه الحالة فالوصية يجب أن تكون لصالح المحتاج وليست لزيادة مال الولد أو البنت اللذين يملكان المال الوفير.

ولو حاول الرجل أن يوصي لأحد أبنائه ويترك بنتاً فقيرة أو محتاجة أو أقل دخلا فلا يقر على وصيته، كما تؤكد ذلك سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٨٢)﴾.

والجنف هو الميل والمحاباة.

والخلاصة: أن المال لصاحبه في حياته يصرفه بحدود ما أوجب الله، ولو خالف بإسراف أو تبذير أو أنفقه بغير ما أمر الله أو بحرام، فيحجر عليه، كما نص قانون الحجر. (تحدثنا عنه في فقرة مستقلة)

وليس على الرجل واجب أن يعطي أبناءه الكبار وهو على قيد الحياة. لكن يجب عليه الإنفاق للمحتاج منهم كما يجب عليه للوالدين ولكل محتاج، وكذلك يجب عليه الإحسان. وتجب عليه الوصية، وتكون محصورة بالوالدين والأقربين (الورثة) ومن بينهم أولاده وبناته.

وفي هذه الحالة يمكنه أن يوصي للفقير منهم بما يشاء من ماله دون تحديد ثلث أو أكثر أو أقل.

ولو كانت الوصية ستظلم أحداً أو وصى للغني وترك الفقير فلا يقر عليها ولا تنفذ، ويُلزم بتعديلها لصالح المحتاج.

ثم ما بقي فهو إرث يوزع كما نصت قوانين الإرث.

ولو لم يبق شيء من مال الغني مهما كثر للإرث فلا شيء عليه ما دام قد أنفقه بما أمر الله وبوصية متفقة مع قانون الوصية وليس فيها ظلم لأحد.

فترك وصية تغني الفقير من الورثة واجبة، أما ترك مال للورثة فليس واجباً ولكنه فضلة.



ولو بقي مال للورثة (فضلة) فيقسم حسب قوانين الإرث.

ما يعمل به الآن في واد، وما يقول القرآن في واد آخر.

وفي بعض البلاد العربية تحرم البنت من الإرث بطرق مباشرة أو ملتوية، وخاصة في المناطق الزراعية. والسبب الذي أعرفه لهذه العادة هو أن أولاد البنت لن يكونوا من نفس العائلة ولو أعطيت حقها من الميراث وهو جزء من الأرض الزراعية فسيذهب هذا الجزء لأبنائها ووالدهم وبما أنهم ليسوا من العائلة التي تملك الأرض فستخسر العائلة هذا الجزء. وهذه العادة هي التي ساعدت على إبقاء الأرض تتوارثها نفس العائلة.

وفي كل الأحوال هذه عادة اجتماعية لو حصل بسببها ظلم لفرد أو أكثر فالظالم سيتحمل الإثم. ويمكن أن تتدخل الدولة المسلمة وتضع قوانين مدنية تكفل حق البنت وحق إبقاء الأرض في العائلة.

المواريث وتوزيع التركة

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢).

الورثة بوجود أبناء للميت

- لو توفي رجل أو امرأة وله بنات وبنون، فيرثون كل المال، للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا يرث الأبوان، ولا يتبقى شيء من التركة.



- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان دون أبناء، وله أب وأم. فللبنتين ثلثا ما ترك. وللأب السدس والأم السدس. ولا يتبقى شيء من التركة.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان وليس له أبناء وأحد الوالدين. فلليبنتين الثلثان ولأحد الوالدين السدس... ويتبقى السدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحدة وليس له أبناء، فلها النصف. ولو كان له أبوان فلكل منهما السدس. ويبقى السدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحدة وليس له أبناء، وله أحد الأبوين. فللبنت النصف ولأحد الآباء السدس، ويتبقى الثلث.

ميراث ميت لم يتزوج وليس له أبناء

- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وليس له إخوة. فلأمه الثلث ولوالده السدس.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخ أو أخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، وللأخ أو الأخت السدس. ويتبقى النصف.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخوان أو أختان أو أخ وأخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، ولكل من الإخوة السدس (سدسان). ويتبقى الثلث.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله إخوة ثلاثة أو أكثر (بغض النظر عن جنسهم) وليس له أولاد. فلأمه السدس ولأبيه السدس ويقسم الثلث على الإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين) والباقي الثلث.

الزوج والزوجة

- لو ماتت الزوجة ولها زوج وليس لها أولاد، فله نصف ما تركت، ويبقى نصف التركة.
- لو ماتت الزوجة ولها زوج ولها أخ أو أخت وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدس للأخ أو الأخت، ويبقى الثلث.
- لو ماتت الزوجة ولها أخوان أو أختان وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدسان للإخوة. ويبقى السدس.



- لو ماتت الزوجة ولها ثلاثة إخوة (بنات أو ذكور أو مختلط) وليس لها أولاد. فللزوج النصف والثلث للإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين). ويبقى السدس.
- لو ماتت الزوجة ولها ولد أو بنت أو مجموعة من الأولاد (بنات وأبناء) ولها زوج وإخوة. فللزوج الربع، والباقي يقسم بين الأبناء للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا شيء للإخوة.
- لو مات الزوج وله زوجة وليس له أولاد. فلها ربع ما ترك.
- لو مات الزوج وله زوجة وله أخ أو أخت وليس له أولاد. فللزوجة الربع والسدس للأخ أو الأخت. والباقي ١٤ سهم من ٢٤ سهماً.
- لو مات الزوج وله ولد (فرد أو مجموعة، أولاد أو بنات) وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، والباقي للولد إن كان فيهم ذكور، وليس للإخوة شيء.
- لو مات الزوج وله بنت وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، وللبنت النصف، وليس للإخوة شيء. ويبقى ٣/ ٨ من الأسهم.

قاعدة: الأبناء واحد أو مجموعة ذكور أو إناث يحجبون الإخوة من الإرث.

ملاحظة: ليس هناك شيء اسمه عصبة في القرآن. وما بقي من مال يعود لبيت المال.

كما أنه يجب أن يؤخذ من التركة نصيب ليصرف على ذوي الحاجات: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٨).

وفي هذا العصر يكون هناك بند في الميزانية لمحاربة الفقر ولمواجهة الحالات الطارئة يغذى مما يبقى بعد توزيع التركة.

كما أن الخطيب له نصيب من إرث خطيبته، وللخطيبة نصيب من إرث خطيبها، لو مات أحدهما قبل الدخول، كما ذكرت الآية (٣٣) من سورة النساء. ويمكن الرجوع لتدبر الآية لمزيد من التفاصيل. ونصيب الخطيب والخطيبة مساو لنصيب الزوج والزوجة.



كل عمل ديني لا يؤخذ له أجر دنيوي

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(٤٧) ن والقلم.

الآية تقول لو إنك يا محمد تسأل قريشاً عوضاً مادياً مقابل دعوتهم وإرشادهم لدين الله فقد يثقل عليهم العوض ويتذمرون أو يبتعدون عنك ويرفضون دعوتك.

وهو ما أكدته حرفياً سورة الطور: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٠).

وكل الرسل كانوا يدعون لدين الله دون انتظار مقابل مادي ودون قبول أي منفعة دنيوية نظير ذلك حفاظاً منهم على أجر الآخرة.

وهو ما أكدته سورة «ص»: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ(٨٦).

وتقول سورة سبأ: قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٤٧).

ومثله: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(٥٧) الفرقان.

ولو كان يؤخذ أجر لكان الرسول أولى به ولم يعط مثل ما يعطى اليتيم والمسكين وابن السبيل: مَّا أَفَاء اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٧) الحشر.

فبعد جلاء قبيلة من بني إسرائيل من يثرب بسبب مؤامراتهم على المسلمين، نزلت السورة وفيها تحديد من يستحق أن يقسم لهم من الفيء. وتبين الآية لماذا يعطون بالقول: «كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ».

وتقول سورة الشورى: ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(٢٣).

والقربى هنا هم قريش عشيرة وأقارب ونسب وقبيلة الرسول، وليس المقصود بهم فقط علي ابن أبي طالب وزوجته وابنيه كما تأولت الشيعة. لأن الآية نزلت وعلي طفل في مكة وقبل زواجه بأم ابنيه بسنوات. ومعناها واضح إلا على من غم على عقله.



والآية تتحدث على لسان رسول الله موجهة لقريش التي تصر على الكفر وتقول لهم إن الرسول لا يدعوهم طمعاً بالأجر الذي لا يجوز له أخذه، ولكن أجره على الله الذي كلفه بإنذارهم.

لذا كرر الرسل هذه الحقيقة، كما ورد في سورة الشعراء:

فنوح يقول لقومه: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠٩) الشعراء.

وهو ما قاله هود: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٢٧) الشعراء.

وصالح: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٤٥) الشعراء.

ولوط: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٤) الشعراء.

وشعيب: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٠) الشعراء.

وهو ما يجب على كل الدعاة لدين الله في كل زمان ومكان. فكل منفعة دنيوية مادية أو معنوية يجنيها الداعي لدين الله مقابل دعوته فستفقده أجر الآخرة. لأن أجر الدعوة واحد، من حصل عليه في الدنيا فقد خسره في الآخرة.

ولو عدنا لعهد الرسول عليه الصلاة والسلام نجد أن بلالاً مؤذن مسجد رسول الله لم يكن يتلقى أجراً. كما أنه طوال عصر الخلفاء الراشدين الثلاثة لم يكن هناك وظائف دينية بأجر. فيما عدا العاملين على جمع الصدقات (الإنفاق) فكانوا يعطون منها حصة مساوية لحصص المحتاجين من فقراء ومساكين وابن السبيل واليتيم وغيرهم ممن يحق لهم الإنفاق. وعندما استولت قريش على الحكم سيست الدين وحولت الأعمال الدينية لوظائف حكومية لكي تمسك برجال الدين من رقابهم بما تهبه لهم من أعطيات ورواتب فلا يستطيعون قول الحق لو خالف سياسة السلطان. وأطلقت أيدي القائمين على الصدقات بعدما تحول الإنفاق إلى مكوس تؤخذ من الناس وتودع في خزينة الحاكم. فتحول الجباة إلى طغاة لسلب الناس أموالهم، مقابل سرقة جزء منها قبل أن تصل الحاكم. وأصبحت إمامة الناس في الصلاة والأذان وظائف حكومية بمرتبات شهرية، فتحولت إلى وظائف تنافسية كل عاطل يحاول أن يحصل عليها ليقتات من ريعها. فتم وضع شروط وضوابط لمنصب الإمامة يتم بموجبها اختيار الإمام من بين المتقدمين الكثرة. مع أن المصلين يمكن أن يؤمهم أي واحد منهم، ليس بالضرورة أن يكون أكبرهم سناً أو أحفظهم لكتاب الله. لأنه لو أمهم من لا يجيد



سوى قراءة الفاتحة فهي كافية لإتمام الصلاة. وظهرت العديد من الوظائف بمسميات دينية وبمرتبات شهرية يدفعها السلطان من الأموال التي استولى عليها كمكوس من الناس بغير وجه حق. ومنذ ذلك الحين صار الاشتغال بالدين أكثر الحرف كسباً للمال، ومن لا يتوفر له وظيفة دينية فكل ما عليه هو تنصيب نفسه كمحتسب يلاحق الناس ويراقبهم وسيتحصل على الهبات والعطايا. واليوم لا غرابة أن تصل حسابات رجال الدين في بلاد الحرمين إلى سبع وثمان وتسع وعشر خانات رقمية، كلها من مجالس الوعظ والبرامج الدينية على القنوات التلفزيونية والمحاضرات الدينية والندوات في المساجد والمراكز الخيرية والجلسات الخاصة والمناسبات والأفراح وصلوات التراويح والمواعظ في رمضان والفتوى البرقية والإنترنتية والهاتفية والهبات ومصادر أخرى.

ومما سبق عرضه من آيات يمكن استنتاج القوانين التالية:

القانون: كل عمل ديني له أجر واحد.

القانون: من تحصل على أجر مادي أو معنوي في الدنيا مقابل عمل ديني فليس له أجر في الآخرة.

الحساب بناءً على سجل صحيفة الأعمال ولا يخضع للعواطف

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ(٢٠) الأحقاف.

العقاب والثواب سيكون بناءً على أعمال المرء، وليس خاضعاً للعواطف. فالمرء يدخل النار أو الجنة بما قدم وهم لا يظلمون. والشائع خطأً بين الناس أنه قد يدخل الجنة مقترف الكبيرة الذي لم يتب منها، أو الذي استمر عليها وهو يعلم بحرمتها ووعيد الله لمن يقترفها، وذلك برحمة الله ومشيئته. واستخدام رحمة الله ومشيئته بهذا المفهوم خاطئ. لأن من رحمة الله أن وهب للمرء كامل الحرية لاختيار الأعمال، وبين له ما يحرم وما يحل، وما يوجب النار وما يجب فعله لدخول الجنة. وكل من يستحق الجنة بعمله سيدخل الجنة برحمة الله ومشيئته. وكل من يستحق النار بعمله سيدخل النار بمشيئة الله. ورحمة الله تحتم ألا يغفر



سبحانه لمستحق النار لأن فيه ظلماً لمن استحق الجنة. ورحمة الله تحتم ألا يدخل النار مستحق الجنة لأن فيه ظلماً له، والله جل وعلا لا يظلم أبداً[1].

وهذا ما تؤكده سورة الجاثية:

وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

فخلق الكون كان بالحق والحق يعني تسييره بقوانين ثابتة لا تتغير ولا تخع للعواطف، وبمثل هذا سيحاسب الناس.

والله جل شأنه لا يتعامل بالعواطف ولكن بالعدل المطلق:

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

الحساب سيكون بعدل مطلق يعتمد الحقائق والسجلات، وليس بالتسول والاستجداء.

والحساب سيعتمد صحيفة الأعمال التي تسجل كل ما يصدر من حواس الإنسان الخمس وتقوم بالتسجيل آلية في النفس. يعني الإنسان يسجل على نفسه ويحاسب بناءً على تسجيله (منتهى العدل والنزاهة والتجرد). وكل من يدخل النار فقد دخلها بناءً على خياره هو، وكل من يدخل الجنة دخلها بناءً على خياره هو دون تدخل فعلي مباشر من الله جل جلاله.

وتقول سورة الحجر: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ(٥٠).

فمن يستحق الجنة فسيدخلها بمغفرة الله ورحمته. ومن يستحق النار فلن يغفر له وله العذاب الأليم.

وتقول سورة بني إسرائيل:

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً(١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.

العرب كانت تتفاءل باتجاه طيران الطير أو تتشاءم قبل أي عمل أو سفر يريدون القيام به.

---

[1] انظر فقرة: من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة / في هذا القسم: أدلة ومواضيع من القرآن.



والآيات تقول بأن كل إنسان معلق طائره في عنقه ويستطيع أن يوجهه لأي وجهة يريد. بمعنى أن الإنسان هو من يصنع طريقه بنفسه. وهو وصف يظهر أن الآلية ملتصقة بالنفس البشرية، لا تفارقها. ويوم القيامة سيتعرف على مصيره الذي رسمه هو بنفسه لنفسه. وعبرت عنه الآية وكأن هناك كتاب كان الإنسان قد كتبه في الدنيا ويوم القيامة يحضر إليه ليقرأه وبناءً عليه يكون المصير.

والإنسان هو من يختار طريق الهداية أو الضلال بنفسه دون أي تدخل أو تأثير من الله جل وعلا. وهو من يكتب كل ما يصدر منه بنفسه. وهو من سيعود ويرى صحيفة أعماله التي كتبها بنفسه، ولو كان مصيره النار فهو من أدخل نفسه النار. ولو كان مصيره الجنة، فهو من ادخل نفسه الجنة.

صحيفة الأعمال

الله جل وعلا خالق كل شيء ويعلم تفاصيل ما يجري في ملكه: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) سبأ.

ومن عظمة الله سبحانه أنه لا يُسيّر كونه وما فيه من مخلوقات بشكل مباشر، ولكنه سبحانه يضع القوانين التي ينشأ بموجبها الخلق ويسير بكل دقة، سواء كان الكون كله أو جسد مخلوق حقير كالإنسان أو مخلوق أصغر كالبكتيريا: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) البقرة.

وعندما يقول سبحانه: «كن» فهي تشير للقوانين الفيزيائية والطبيعية التي ابتدع الله جل وعلا بموجبها الكون، وبموجبها يسير الآن بكل دقة واتزان بمجراته وبمخلوقاته الحية وبكل ما فيه من مواد جامدة وحية وغازات ... الخ.

فكل خلقه سبحانه يسير بموجب هذه القوانينّ الثابتة التي أبدعها الله، ولا يتدخل سبحانه مباشرة في تسيير خلقه ولا في تغيير أو التأثير على مساره، سواء كان في الدنيا ومخلوقاته الدنيوية في الكون، أو في الآخرة وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار. فكما أنه لا يُسيّر الشمس والكواكب مباشرة، ولكنها تسير بموجب قوانين الجاذبية وغيرها، فهو لا يعطي



شخصاً المال ويحرم منه آخر، ولا يهدي هذا أو يضل ذاك، أو يميت هذا ويبقي هذا. ولكنه أودع في الأرض من النعم ما تكفي لكل المخلوقات التي تعيش عليها، وأودع في النفس البشرية كل ما تحتاج لو اهتم بها صاحبها لوفرت له حياة صحية. وكل اختلال في التعامل مع هذه النعم هو ناجم من تعديات الخلق، ولم يقررها الخالق مسبقاً. فالفقر على سبيل المثال نتيجة لتسلط القوي على الضعيف، والموت في حادث سيارة نتيجة لأخطاء بشرية، والإصابة بالأمراض نتيجة لاختلال جهاز المناعة بسبب عادات غذائية وممارسات خاطئة من الإنسان. وهكذا فكل مصائب الدنيا نتيجة لممارسات الإنسان ولم يقررها الله. إضافة للحوادث التي لابد أن تحدث، بعضها بسبب الإنسان وبعضها خارج عن إرادته.

وكما في الدنيا فالله جل وعلا لن يقوم في الآخرة بمحاسبة الناس وكأنه محقق أو قاضٍ، ولكن حسابهم يتم منهم على أنفسهم. وذلك أن الله جل وعلا أودع في كل نفس حية من بشر أو غيرهم آلية نطلق عليها هنا «صحيفة الأعمال» قادرة على تسجيل كل ما يمر بكل حواس الإنسان أو يصدر منه بكل دقة، منذ ولادته وحتى وفاته. ويوم القيامة ينهض الخلق من الموت، ويستعرض كل مخلوق صحيفته: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) بني إسرائيل.

فإن كان مؤمناً وعمل صالحاً فقد فاز ودخل الجنة: الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ... (٧٠) الزخرف.

وإن كان مؤمناً بلا عمل أو عَمِلَ صالحاً بلا إيمان، فقد خسر ومصيره النار: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦) الزخرف.

وبهذا يكون الإنسان – وأي مخلوق حي – قد حكم بنفسه على نفسه، دون تدخل من خالقه، وهذا يمثل العدل المثالي المطلق: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٣١) الجاثية.



والله جل وعلا عدله مثالي مطلق، ولذا فمن الظلم أن يغفر سبحانه لمستحق النار أو يعذب مستحق الجنة: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨) غافر[١].

وآلية صحيفة الأعمال آلية مزروعة في النفس، تسجل كل ما يمر بالحواس الخمس. فحاسة التذوق ستسجل كل ما يطعمه الإنسان من شراب أو مأكل، وحاسة الشم ستسجل كل ما يشمه الإنسان عمداً أو دون قصد، وحاسة النطق ستسجل كل ما تلفظ به الإنسان وكل ما يعنيه بألفاظه، وكل ما يضمره. وحاسة اللمس ستسجل كل ما يلامس أي عضو من أعضاء الإنسان وهل كان اللمس مقصوداً أو عفوياً، ويشمل كل أفعال الإنسان وما يضمره أثناء اللمس. وحاسة السمع ستسجل كل ما سمعه الإنسان عمداً أو من غير قصد. وسيحاسب الإنسان بناءً على هذا السجل الدقيق: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(٤٩) الكهف.

فكل فعل أو قول أو أكل أو شرب وكل ما يضمره الإنسان أثناء قيامه بالنشاط وكل دوافعه الدفينة في نفسه ستسجلها هذه الآلية وستظهر يوم الحساب. والحديث عن صحيفة الأعمال في القرآن يأتي دائماً ضمن خطاب الدعوة الموجه لقريش كونهم لا يؤمنون بالبعث، وعندما توقف الخطاب الدعوي لقريش في القرآن، توقف معه الحديث عن صحيفة الأعمال. وهذا واضح في السور المدنية التي تخلو من ذكر صحيفة الأعمال.

وبما أن الخطاب في القرآن يتناسب مع مدارك المخاطب وما يعرف، فقد جاء الحديث عن صحيفة الأعمال وكل ما يتعلق بعالم القيامة بعبارات مجازية لتقريب الصورة من الذهن وفهم المغزى من ذكرها، وهو أن كل ما يصدر من الإنسان يسجل وبناءً عليه سيكون حسابه ومصيره يوم القيامة. وفيما يلي أمثلة للصور المجازية الحسية التي تصور صحيفة الأعمال:

١ انظر فقرة: من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة. وفقرة: كل نفس بما كسبت رهينة، وفقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة، وفقرة: الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً، وفقرة: الحساب بناءً على سجل صحيفة الأعمال ولا يخضع للعواطف / قسم أدلة من القرآن.



أثقال في ميزان

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١) القارعة.

الآيات تصور حال الناس يوم الحساب، فمن آمن وعمل صالحاً يصور وكأنه «ثقلت موازينه» ويصور نعيم الجنة «بالعيشة الراضية». ومن لم يؤمن صورته الآيات بأنه «خفت موازينه» وصورت النار «بأمه هاوية».

ومثله: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ(٩) الأعراف.

ومثله: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧) الأنبياء.

تسجل كل شيء

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(٨) الزلزلة.

هنا تأكيد على حقيقة أن آلية تسجيل الأعمال تسجل كل شيء يمر بالإنسان (الحواس الخمس) بتفاصيله الدقيقة مهما صغرت.

وهو ما كررته سورة القيامة: يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ(١٣).

ما قدم وأخر تعني منذ ولد حتى آخر لحظة في حياته.

وكررته سورة النبأ بعبارة أخرى: وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً(٢٩).

وهذه الآية تظهر وكأن الله جل وعلا هو من يحصي الأعمال ويكتبها فعلياً، وهو من باب المجاز، كونه سبحانه هو من أودع آلية تسجيل الأعمال في النفس، فهو من يحصي ويسجل بطريقة غير مباشرة. والرسالة التي تريد الآية إيصالها للمخاطب هي أن كل ما يصدر عن الإنسان يحصى ويسجل مهما صغر.

مخلوقات حية تكتب الأعمال

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ(١٢) الانفطار.

هنا تصور الانفطار صحيفة الأعمال وكأنها عبارة عن سجل تقوم مخلوقات حية بمتابعة



الإنسان وتسجيل أعماله وما يصدر منه، لأن قريشاً لا يمكن أن تتصور إمكانية تسجيل دون أن يقوم بها كائن حي. والمفسرون – كعادتهم – أطلقوا لخيالاتهم العنان واعتبروا أن هناك ملائكة (مخلوقات كونية حية) موكلة بتسجيل الأعمال والأقوال الصادرة من كل شخص، وتوسعوا في ذلك كثيرا بلا ضوابط.

وتصوير تسجيل الإعمال وكأن هناك مخلوقات حية قادرة على الحفظ وكتابة ما يصدر من النفس ومعرفة ما يفعل الإنسان، هو وصف لما تقوم به الآلية المزروعة في النفس لتسجيل الأعمال. فهي بالفعل كالكائن الحي من حيث قدرتها على حفظ وتسجيل الأفعال والأقوال والمشاعر والتعرف على كل ما يصدر من الإنسان، لكن المفسرين حولوها لملائكة.

وتقول سورة ق: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢).

هذه الآيات اعتبرها المفسرون تتحدث عن مخلوقات حية (ملائكة) كل اثنين منهم مكلفون بتسجيل كل ما يصدر من الإنسان. وقالوا بأن أحدهم يقبع على كتف الإنسان الأيمن لإحصاء الحسنات، والآخر على الكتف الأيسر لإحصاء السيئات. وتصوروا أن كلمة رقيب اسم أحد الملائكة والآخر اسمه عتيد. وهناك كلام كثير مختلف ومتعارض وخرافي فيما قالوا لا حاجة للرجوع له، لكني سأذكر منه أنهم يقولون إن هذه الملائكة لا تدخل بيوت الخلاء. وهذا التخريف غير معقول، لأنه بإمكان الإنسان أن يقترف كل الكبائر في بيوت الخلاء ويضمن أن الله لن يحاسبه عليها لأن المكلفين بالتسجيل لم يسجلوا.

وكتب التراث تقول بأنه لا يجوز ذكر الله في بيت الخلاء!

فهل يهم إن كان يجوز أو لا يجوز ما دام هذا الذنب لن يسجل، كون من ذكر الله في بيت الخلاء لم يكن مصحوباً بالملكين اللذين يسجلان أعماله.

مضحك مبكٍ ما يرد في كتب التراث من كلام المفسرين ورجال الدين كالعادة.

ولو تركنا تخاريف المفسرين لوجدنا أن الآيات تتحدث عن دقة تسجيل كل ما يصدر عن



المرء بصورة حسية مجازية. وهذه الآيات تصور نشر الأعمال يوم القيامة وكأن الإنسان قد غطي بغطاء ويوم القيامة يكشف ويصبح بصره حديداً، كناية على حدته وأنه يستطيع رؤية أدق تفاصيل الأفعال والأقوال والأفكار التي صدرت منه في الدنيا وتم تسجيلها عليه، ولا يعني أن بصره تحول لمعدن الحديد.

وتقول سورة الجن: إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨).

والآيات تصور صحيفة الأعمال وكأن هناك مخلوقات ترصد الإنسان وتسجل عليه أقواله وأفعاله. وهي موجودة أمامه «من بين يديه» ومن خلفه، أي محيطة به من كل جانب تعبير مجازي على دقة التسجيل وأنه لا يفوتها شيء يصدر من الإنسان مهما صغر أو خفي.

وتقول سورة الأنعام: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ(٦١).

وهذا لا يعني أن هناك حفظة (يكتبون ما يصدر من الإنسان) لا يرسلون للإنسان إلا عند موته. ولكنه تعبير مجازي يؤكد تسجيل الأعمال بكل دقة، وختمها بالموت.

كتاب

وتصور بعض السور عمل صحيفة الأعمال بأنها عبارة عن كتاب سجل فيه كل ما يصدر من الإنسان وما جال بذهنه. ومن ذلك ما ورد في سورة الانشقاق: يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً(١١) وَيَصْلَى سَعِيراً(١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً(١٥).

الآيات تصور صحيفة الأعمال مجازاً وكأنها كتاب – دون ذكر من كتبه – ويوم القيامة يصطف الناس ويُسلمون كتبهم. فمن أعطي كتابه بيمينه فقد نجا ودخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله فقد خسر ودخل النار.

وبطبيعة الحال لن يكون الحساب بهذه الطريقة، ولكن الآيات صورتها بهذه الصور المجازية:



أوتي كتابه بيمينه كناية عن صحيفة أعمال صالحة.

أوتي كتابه بشماله كناية عن صحيفة أعمال سيئة.

الحساب اليسير كناية عن الفوز.

الانقلاب للأهل مسروراً كناية عن ضمان الجنة، ولا تعني أنه سيعود لعائلته.

يدعو ثبوراً كناية عن ندب حظه للخسارة.

كان في أهله مسروراً كناية عن عبثه في الدنيا ونسيان أمر الآخرة.

ظن أن لن يحور كناية عن عدم التصديق بالآخرة.

ومثله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ(١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧) الحاقة.

ولن يقوم المؤمن يوم القيامة وهو ممسك بصحيفة ورقية (كتاب) ويناولها للمحكمة ويطلب قراءتها، ولن يقوم الكافر وهو ممسك بكتابه بشماله، فيولول بالويل والثبور، لأن مجرد وضع الكتاب باليد الشمال يعني أنه في النار، فكل الآيات مجازية.

ومثله: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) الجاثية.

الآيات تصور صحيفة الأعمال وكأنها كتاب يجمع فيه كل أعمال الأمة ويوم القيامة تحاسب الأمة بما في الكتاب. والحساب سيكون لكل مخلوق عن نفسه ولن يكون هناك محاكمة جماعية.

وتقول سورة الكهف: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً(٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً(٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(٤٩) الكهف.

الآيات تصور أن التسجيل سيكون دقيقاً جداً بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها



طوال حياة المرء.

وسيتفاجأ الإنسان أن كل شيء مهما صغر سجل عليه لدرجة أنه نسي كثيراً من الأشياء التي ظن أنه لا أهمية لها فإذا بها تعاد له أمام ناظريه: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) المجادلة.

وكثيرة هي الآيات التي تتحدث عن صحيفة الأعمال، لكنها في الغالب تصورها بصور مجازية، أما الآية (٤٩) أعلاه فتصف الصحيفة بالكتاب، وهي بالفعل كتاب أو سجل مزروع في النفس البشرية. وبما أن الله جل وعلا من زرعه فهو سبحانه من يحصي أعمال الإنسان بصورة غير مباشرة.

ومثله: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٦٢) المؤمنون.

الآية تصور صحيفة الأعمال وكأنها كتاب يكتب من لدن الله جل وعلا. وبما أن الله جل وعلا هو من خلق الآلية في النفس وبقدرته ومشيئته تسجل وتحتفظ بأعمال الإنسان، فالله هو سبحانه من يسجل بطريقة غير مباشرة.

ومثله: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً(١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) بني إسرائيل.

العرب كانت تتفاءل باتجاه طيران الطير أو تتشاءم قبل أي عمل أو سفر يريدون القيام به. والآيات تخاطب قريشاً بما تألف، وتقول بأن كل إنسان معلق طائره في عنقه ويستطيع أن يوجهه لأي وجهة يريد، دون حاجة لانتظار الطائر أن يطير كيفما يشاء ويتحكم بوجهة الإنسان. بمعنى أن الإنسان هو من يصنع طريقه بنفسه. والوصف يظهر أن الآلية ملتصقة بالنفس البشرية، لا تفارقها، وكأنها معلقة في الرقبة. ويوم القيامة سيتعرف المرء على مصيره الذي رسمه هو بنفسه لنفسه. وعبرت الآية عن تسجيل الأعمال وكأن هناك كتاباً كان الإنسان قد كتبه في الدنيا ويوم القيامة يحضر إليه ليقرأه وبناءً عليه يكون المصير.

وفي نفس السورة تصوير آخر للصحيفة: يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧١) بني إسرائيل.

والصحيفة هنا تصور ككتاب يكتب نيابة عن الشخص ويسلم له يوم القيامة، وينجو من يسلم كتابه بيمينه.



الصحيفة موجودة في النفس

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ(٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ(٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ(٤) الطارق.

الآيات هنا تؤكد أن كل نفس عليها حافظ يسجل ما يصدر منها من اقوال وافعال، وهذا بالفعل ما تقوم به الآلية التي أودعها الله في كل نفس. والآية تصف ما تقوم به الآية بدقة، فهي حافظ لكل ما يصدر من الإنسان وما يفكر فيه.

ومثله: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢).

هذه الآيات تقول بأن الله أقرب للمرء من حبل الوريد الموجود في جسمه، والقرب ليس مكانياً ولكنه تعبير مجازي على أن قدرة الله كفيلة بتسجيل كل ما يصدر من المرء. وهو ما يعني بطريق غير مباشر أن الله أقرب للمرء من نفسه.

وتصف الآيات آلية تسجيل الأعمال وكأن هناك مخلوقات حية مرافقة للمرء عن يمينه وشماله تسجل عليه أعماله بكل دقة.

وبعد نشأة كون القيامة يكون الحساب بناءً على ما سجل في الصحيفة. التي تصفها الآيات بأنها تسوق المرء لمصيره بناء على شهادتها المسجلة على ما صدر منه. فالصحيفة يوم القيامة ستكون سائقاً للمرء إلى المصير وشاهداً عليه. ثم تعبر الآيات عن غفلة المرء في الدنيا عن الحساب وتحققه يوم القيامة، وكأنه قد غطي بغطاء ويوم القيامة يكشف ويصبح بصره حديداً كناية عن وضوح الحقيقة في ذلك اليوم.

وورد في سورة الملك: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤).

وهو تأكيد على أن الصحيفة مستمرة بتسجيل كل شيء بتفاصيله الدقيقة طوال حياة المرء، سواء ما صدر من الإنسان من قول أو فعل أو حتى ما فكر فيه الإنسان وأضمره.



وتسجيل الأعمال والأقوال والأفكار والنوايا ليس لكي يطلع عليها الخالق جل وعلا لأنه هو من خلق الإنسان ويعلم كل دقائق جسده وتفكيره وما يصدر منه، ولكن الأعمال تسجل لكي يطلع عليها المخلوق نفسه يوم القيامة ويعلم أن الله عادل لم يظلمه شيئاً وأنه هو نفسه من قرر مصيره.

وتقول سورة النازعات: فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى(٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى(٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى(٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١).

والتذكر هنا إشارة لاسترجاع كل ما صدر من الإنسان ومر به في حياته من قول أو فعل أو تفكير ونوايا يوم القيامة وسيحاسب صاحبها بموجبها. وهذا يكون في تسجيل كل ما يصدر من الإنسان منذ ولد حتى يموت، ولا يكون بالاعتماد على الذاكرة، لأن الذاكرة قد تخون صاحبها وبالتالي لا يمكن محاسبته على قدر تذكره، بل على كل ما صدر منه فعلياً وسجل بتفاصيله.

السمع والأبصار والجلود تتكلم

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ(٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ(٢٤) فصلت.

الآيات تؤكد على أن كل ما يمر بالحواس الخمس من الولادة إلى الموت يسجل، وبناءً على هذا السجل يكون الحساب. فحاسة السمع تسجل ما تسمع، حاسة البصر تسجل ما ترى، الجلود تمثل حاسة اللمس، وكذلك حاسة الشم وحاسة الذوق. ولن ينطق السمع والبصر والجلود فعلياً، ولكن سيعاد للإنسان تسجيل كل ما مر بالبصر والمسع والجلود (ما مس وحرك ونقل وفعل). وبعبارة أخرى سيعرض له كل ما صدر منه وما مر بحواسه طوال



حياته، وبناءً عليه سيحاسب.

صحيفة الأعمال تسجل حتى النوايا

وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى(٧) طه.

كل شيء تدركه حواس الإنسان يسجل في الصحيفة حتى النوايا والأفكار وعليها يحاسب. والحساب لا يكون على فكرة أو نية لم تنفذ، ولكن النية تحدد فيما إذا كان الفعل الذي قام به الإنسان مبيتاً له ومتعمداً أم أنه وكردة فعل وبلا تخطيط مسبق.

كأن رسل الله هم من يقومون بكتابة الأعمال

لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(٨٠) الزخرف.

الآيات تخاطب قريشاً وتتوعدهم يوم القيامة، وتقول بأن كل ما يصدر من أي شخص منهم نقوم بتسجيله، وكأن رسل الله جل وعلا هم من يسجل، وليس آلية في نفس كل إنسان.

ومثله: وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٣) لقمان.

يوم القيامة سيعرف كل شخص مصيره إلى جنة أو نار بناءً على ما سجلته صحيفة أعماله التي زرعت في نفسه، ولن يرى الله ولن يحاكمه الله جل وعلا كما يفعل القاضي في الدنيا. ومع ذلك هذه الآية تقول إن مرجع الكفار لله الذي سينبئهم بما عملوا. وهو مجاز يعني أن صحيفة الأعمال خلقها الله والبعث خلقه الله وكذلك الجنة والنار ولو كان مصير المرء النار أو الجنة فكأن الله هو من قاده للنار أو الجنة، ولو لم يقم بذلك فعلياً. فكل شيء تم بأمر الله، وكأنه سبحانه قام به بنفسه تبارك وتعالى.

ومثله: وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٧٥) النمل.

ومثله: الله جل شأنه لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣) سبأ.



بما أن الله جل وعلا هو من أوجد هذه الآلية فهو سبحانه هو الذي يسجل.

ومثله ما ورد في سورة غافر: وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١).

وجاء في سورة «يس»: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ(١٢).

والله جل وعلا لا يحيي الموتى مباشرة، ولكنه سبحانه يضع القوانين التي تتكفل ذلك. لكن بحكم أنه سبحانه هو من أبدع تلك القوانين فهو سبحانه من يحيي الموتى. وهو سبحانه لا يكتب أعمال الإنسان لكنه أوجد تلك الآلية في كل نفس حية، فيكون هو سبحانه من يسجل بطريقة غير مباشرة.

صحيفة الأعمال على شكل آليات

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ(١١) الرعد.

الآية تصور تسجيل الأعمال والأقوال وكأن هناك آلية تحيط بالإنسان من كل جانب تحصي عليه كل ما يصدر منه.

الخلاصة

هناك آلية في النفس تسجل كل ما يمر بالحواس الخمس منذ الولادة إلى الوفاة ويوم القيامة يكون حساب الإنسان بناءً على ما سجل في هذه الآلية. وقد صورت بصور مجازية مختلفة في السور التي تخاطب قريشاً لتقرب الصورة من أذهانهم وليعرفوا أن كل ما يصدر منهم يسجل وسيحاسبون عليه. وقد توقف الحديث عن صحيفة الأعمال بتوقف الخطاب الدعوي الموجه لقريش.

وكل من يعي حقيقة تسجيل الأعمال والأفعال والأقوال وكل شيء يصدر من الإنسان ويحضرها في نفسه فلن يقدم على القتل أو السرقة أو الظلم أو ارتكاب المعاصي أو الكيد أو أي معصية أو تهاون في عبادة أو إهمال لمكارم الأخلاق. لأني لو فطنت إلى أن مجرد



تفكيري بارتكاب المعصية سيسجل كنية مسبقة وتعمد لارتكاب المعصية. وعندما أنفذ المعصية تسجل على أنها ارتكبت مع سبق الإصرار والترصد. ولو ارتكبت المعصية مع سبق الإصرار والترصد فهي تحد لله وعصيان سافر لأوامره، أي أنها جريمة من الدرجة الأولى. وجرائم الدرجة الأولى لا تغتفر، حتى في القوانين البشرية ولا تخفف عقوباتها.

ولو فكرت بهذا فلن أعصي ولن أعتدي على أحد ولن أفعل ما يمكن أن أحاسب عليه، وحتى السيئات الصغيرة (اللمم) التي لا تدخل النار ولكنها تحرم من المستوى الأعلى في الجنة، سأعود نفسي على تجنبها ما أمكن.

ولن تُقترف الكبائر إلا في حالات نادرة وفي أوضاع استثنائية. ولن يكرر ارتكاب الكبيرة أو الكبائر إلا من ترجح كفة الظن عنده على كفة الإيمان. وسيعرف المرء هل هو مؤمن فعلاً أو غير مؤمن، وهو حي.

من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ(٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ(٣٩) سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ(٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٤١) ن والقلم.

رجال قريش يظنون أنه لو كان هناك بعث فسيغفر الله لهم. والآيات تؤكد بشكل قاطع أن الجنة للمتقين، وأن الله لن يغفر لمستحق النار. لأنه لو غفر له فهو يساوي في التعامل بين المجرم وبين المسلم، وستكون «قسمة ضيزى» منافية لعدل الله المطلق الذي يحتم أن يدخل الجنة مستحقها ولا يعذب، ويدخل النار مستحقها ولا يغفر له.

وتقول سورة «ص»: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٢٨).

الخطاب لقريش التي يظن كبراؤها أنه إن كان هناك بعث فسيدخلهم ربهم الجنة لأنهم رجال قريش وما يعتنقونه هو الحق، ومن ذلك ما أشارت له سورة فصلت: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ



رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥٠).

وسورة ص تؤكد في الآيتين ٢٧-٢٨ أعلاه أن هذا لن يكون لأن الله جل وعلا لا يتعامل مع خلقه بالعواطف فيغفر لهذا ولو استحق النار ويعذب هذا ولو استحق الجنة. بل حكمه عدل مطلق مثالي بعيد لا يخضع للمزاج والتقلب، ومن يستحق الجنة فلن يعذب، ومن يستحق العذاب فلن يشم رائحة الجنة.

وتقول سورة الجاثية: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٢١).

فالله جل شأنه وضع ضوابط لدخول الجنة: «من آمن وعمل صالحاً فله الجنة». وهو وعد من الله ثابت لا يتغير ولا يُخلفه سبحانه. وكل من خالف هذا الميثاق كلياً بالكفر أو جزئياً باقتراف الكبائر فله النار[1].

والآية ترد على من يظن أنه يمكن أن يقترف السيئات (الكبائر) ومتى شاء تاب وسيغفر له الله. لأن هذا عبث، أما التوبة فلها ضوابط وشروط من التزم بها فستقبل توبته[2].

وتقول نفس السورة: وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

فكل شيء خلقه الله بالحق والعدل وستجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. فمن استحق الجنة فسيدخلها بما قدم وليس لأن الله غفر له وهو لا يستحق النار. ومن دخل النار فبما قدمت يداه وليس لأن الله عذبه وهو يستحق الجنة.

وسورة الجاثية نفسها تؤكد في آيات أخرى أن الإنسان نفسه — وليس الله جل وعلا — من يقرر مصيره بنفسه. فكل أعماله ستسجل في صحيفة أعماله وبناءً عليها سيحكم عليه. وهذا لا يخرج عن مشيئة الله، لأنه سبحانه هو من وضع هذا القانون العادل: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي

١ انظر فقرة: الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحا في هذا القسم.

٢ انظر فقرة: التوبة في هذا القسم.



رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٣١).

وتقول سورة فاطر: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَّ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢).

فالبصير والنور والظل والأحياء ألفاظ استخدمت مجازاً لتشير للمؤمن، والأعمى والظلمات والحرور والأموات ألفاظ استخدمت بصفة مجازية لتشير للكافر، والآيات تقول إنه لا يمكن أن يساوي الله – جل شأنه – في مصير المؤمن والكافر لأنه ضد عدله سبحانه. ولو غفر لمستحق النار أو عذب مستحق الجنة فقد ساوى بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور والأحياء والأموات. وهذا ظلم لمستحق الجنة ومحاباة للفاسق والكافر والعاصي.

وتقول سورة فصلت: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠).

والآية وردت ضمن آيات تخاطب قريشاً وتقول لن يستوي مصير المؤمن مع الكافر.

وتقول سورة الزخرف: أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ(٥).

الآية تقول بأنه ليس من عدل الله المطلق أن يغفر لمشركي قريش ويساويهم بالمؤمنين.

وتقول سورة غافر: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨).

وتؤكد سورة الحجر أن الله رحيم بمن يستحق الرحمة وشديد العذاب للمخالف: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ(٥٠).

الله جل شأنه غفور رحيم لكل من يستحق المغفرة، وهو من يتوب عن الكبائر ولا يعود لها، ويستمر بالإيمان والعمل الصالح. وعذابه سبحانه شديد لكل من يستحق النار، ولو كان يؤمن بالله ورسوله لكنه استمر على كبيرة أو أكثر، ولم يلتزم بالتوبة حسب ضوابطها القرآنية.



والمغفرة لمستحق النار مثل إدخال النار من يستحق الجنة، ظلمٌ لا يجوز على الخالق جل وعلا ولا يمكن أن يصدر منه سبحانه.

تقول سورة السجدة: أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ(١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ(٢٢).

عدل الله المطلق يُحتّم أن يعذب مستحق النار ولا يغفر له، وأن يدخل مستحق الجنة، الجنة ولا يحرم منها.

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ(٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ(٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ(٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ(٣٩) المعارج.

ومثله: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ(٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) الأعراف.

فمن استحق النار لن يغفر له. ومن استحق الجنة لن يحرم منها ولن يعذب: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) الزمر.

ولن يستوي الفريقان، فمن كفر أو عصى فعليه اللعنة وله العذاب، ومن آمن وعمل صالحاً فله الجنة: أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩) أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ(٢٠) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢١) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ(٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٢٤) هود.



وتقول سورة الأنعام: أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢٢).

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(١٤) محمد.

من عدل الله تعالى أن جعل في النفس البشرية آلية تسجل على المرء أفعاله وأعماله وكل ما يصدر من حواسه. وبناءً على هذا السجل الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وبكل صدق – بعيداً عن الرياء والتصنع – سيكون الحساب.

وكل من اقترف كبيرة واحدة نص القرآن على أنها موجبة للنار ولم يتب أو استمر عليها أو غيرها من الكبائر فهو مخلد في النار، بغض النظر إن جاهر بالإسلام أو الكفر. وقد بينا ذلك في موضوع التوبة.

ولأنه سبحانه عادل عدلاً مثالياً بعيداً عن العواطف، فمن عدله المطلق ألا يغفر لمستحق النار، ولا يعذب مستحق الجنة. وهناك عشرات الآيات التي تنص على هذا، ومنها:

- أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦) القلم.
- وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١) فاطر.
- وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨) غافر.
- أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ(١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١) السجدة.

وغيرها.



أدلة على أن رسالات الرسل تبدأ بالإيمان فقط دون تشريعات

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ(٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ(٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ(٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ(٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٣) وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ(٣٤) .... وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ(٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ(٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ(٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(٤٥) غافر.

الآيات أعلاه تتحدث عن رجل من «آل» فرعون، أي أنه كان فرداً من أفراد عائلة فرعون. هذا المؤمن تجنب أعمال الظلمة ونهاهم عنها وتبرأ منها وحاول الدفاع عن الحق وعن الضعفاء قدر إمكانياته. ولو أنه سكت ولم يصدع بالحق لحق عليه العذاب. والقرآن أورد محاوراته معهم ليقول بأن قول الحق واجب وتركه كبيرة.

ويمكن أن يستفاد من الآيات أيضاً أن الرسول عندما يبعث يبدأ بعثته بدعوة الناس للإيمان بالله وحده والكفر بعبادة غيره، ولا تنزل التشريعات والحلال والحرام إلا بعد تكون جالية مسلمة. وكل من يؤمن ويموت قبل نزول التشريعات فسيدخل الجنة، مثل هذا الرجل



المؤمن من آل فرعون.

ولو عدنا لما يقول القرآن عن قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وغيرهم سنجد أن الرسول والنفر القليل المؤمنين قد نجوا من الهلاك وسيدخلون الجنة مع أنهم لم يلتزموا بأي تشريعات لأنها لم تفرض عليهم تشريعات غير الإيمان بالله.

وتتحدث سورة «يس» على قرية أرسل لها ثلاثة رسل ولم يؤمن بهم سوى رجل واحد، ودخل الجنة لإيمانه دون أن يفرض عليه أي تشريع أو عبادات، لأن أهل القرية استمروا على كفرهم وهلكوا بكارثة طبيعية دون أن يؤمن منهم أحد سوى ذلك الرجل: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(٢٩) يس.

ولو تتبعنا الآيات التي تتحدث عن أقوام نوح وعاد وثمود وشعيب ولوط فسنجد أنه لم يطلب منهم سوى الإيمان بوحدانية الله والبعث والتشريعات الأساسية المتمثلة بالصلاة والإنفاق والغش التجاري فقط. وهي التي بدأت بها رسالة محمد، ولم تزد عليها إلا بعد سنوات، عندما تكاثرت أعداد المسلمين، وبدأت التشريعات تنزل تباعاً في أواخر العصر المكي واكتملت في المدينة. لأن التشريعات لا تنزل إلا بعد وجود مجتمع مؤمن، وتلك الأمم لم يؤمن برسلها سوى نفر قليل لا يشكلون مجتمعاً.

ولعل أول دين مكتمل من بين كل الرسالات التي ذكر القرآن هو التوراة. ولم يأتِ بعد



التوراة رسالة بدين مكتمل سوى رسالة محمد التي ختمت بها الرسالات لأنها بقيت كما نزلت على شكل قرآن مكتوب.

وهذا لا يعني أن البشر قبل موسى لم ينزل عليهم دين كامل، فقد يكون هناك ديانات اكتملت تشريعاتها خارج جزيرة العرب وفي مناطق مختلفة من العالم، لعل منها البوذية وديانات في أمريكا وغيرها. والقرآن يؤكد أن قوم يونس آمنوا: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨) يونس.

وهذا يعني أنه نزل عليهم دين متكامل من عبادات الحج والصلاة والصوم ومعاملات كالإنفاق وتحريم الربا وكل التشريعات الأخرى التي وردت في القرآن.

الله جل شأنه لا يحل في مخلوقاته

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٨٤) الزخرف.

بعض الفرق الباطنية تعتقد بأن الله يحل في بعض خلقه. والآية لا تقول إنه يحل في كل مكان ولا تقول هو عدة آلهة. ولكنها تقول إن الله جل شأنه موجود في كل مكان من خلقه ليس فعلياً، ولكن بقوانينه التي يسير بموجبها الكون وما فيه دون حاجة لله جل وعلا أن يباشر ذلك بنفسه أو يخلق مخلوقات تديره بدلاً عنه.

بنو آدم

ليس كل الناس من بني آدم، لأن آدم خلق والأرض عامرة بالبشر. فمن هم بنو آدم الذين تخاطبهم بعض سور القرآن؟

أول سورة ذكرت بني آدم هي سورة يس من سور المرحلة الرابعة: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٦٠).

والسورة تخاطب قريشاً، لأن السورة نزلت في هذه المرحلة التي تخاطب سورها قريشاً فقط، ولا تخاطب غيرهم من الناس. فبنو آدم هنا هم قريش، وهم كذلك. لأنهم من نسل إبراهيم الذي هو من نسل آدم.



ثم يأتي ذكر «بني آدم» في سورة الأعراف، والتي هي من سور المرحلة الخامسة حيث تغير الخطاب الدعوي في القرآن لكل الناس بعدما كان وقفاً على قريش فقط. وقد ورد اللفظ في السورة خمس مرات، أربع منها في سياق واحد، كما يلي:

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٥).

وهذه الآيات تخاطب قريشاً.

وهناك آية أخرى في سورة الأعراف لها سياق مختلف: وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(١٧٢) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ(١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(١٧٤).

والآيات تخاطب بني إسرائيل، وهم من بني آدم لأنهم من نسل إبراهيم، كما قريش.



والآية الأخيرة التي ذكرت «بني آدم» في سورة المائدة: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧).

وهي تخاطب بني إسرائيل.

وآدم هو أبو الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن، وهو ما أشارت له سورة مريم بعدما ذكرت عددا منهم: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(٥٨) مريم.

ولأن الرسل من بني آدم، فهو تكريم لآدم وذريته على غيرهم من الناس: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(٧٠) بني إسرائيل.

والخلاصة أن القرآن عندما يخاطب «بني آدم» فالمعني بهم إما قريش أو بنو إسرائيل، وهم من نسل إبراهيم الذي هو من ذرية آدم.

ولا يخاطب القرآن عموم الناس ببني آدم أبداً، لكن مفهوم أن بني آدم هم كل الناس موروث يهودي. فكتب اليهود هي من قالت إن آدم هو أبو البشر، وليس القرآن. وكالعادة فقد تسلل الموروث اليهودي وحل محل ثقافة القرآن.

وأد البنات

عندما نقرأ في سورة التكوير: وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(٩).

فالمخاطب هنا قريش، والوأد ليس حدثاً افترضه القرآن وتحدث عنه، ولكنه ظاهرة كانت سائدة في المجتمع المكي (الذين تخاطبهم السورة).

والوأد هو دفن البنت بعد مولدها مباشرة وهي حية، وسورة النحل تخبرنا عن السبب الذي يدفع بعض رجال قريش وأد بناتهم: وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ(٥٦) وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ(٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ



عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٥٩) لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦٠).

الآيات تصف مشاعر القرشي عند ولادة بنت له، وكيف أن فكرة وأدها تراوده في الحال. فبعضهم يئدها وبعضهم يمسكها على كره. فوأدهم للبنت نتيجة لشعورهم بأنها مصدر للعار والعيب، والتخلص منها حين ولادتها لئلا تتسبب في كبرها بعار يلطخ سمعة والدها. فهم يكرهون أن يكون لهم بنات لهذا السبب: وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ(٦٢) النحل.

والآية تستنكر على قريش قولهم إن الملائكة بنات الله، كونهم ينسبون له ما يكرون ويعتبرونه عاراً.

وهو ما تؤكده سورة الزخرف: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ(١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ(١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ(١٧).

فقريش تعتقد أن الملائكة بنات الله، في الوقت الذي لا يرحب رجال قريش بالمولودة البنت، بل يشتد بأحدهم الغضب وتتغير ملامح وجهه من الغيظ. والأهم هو: أنه يكاد يتوارى من القوم. والتخفي والاحتجاب عن القوم لأن هناك شيئاً معيباً أصابه. فالوأد سببه خشية العار الذي تجلبه البنت لوالدها، كما يظنون.

والقرآن يخبر أيضاً أن بعض رجال قريش يقتلون أولادهم (أبناء وبنات) لسبب آخر غير الشعور بالعار، وهو خشية إملاق: وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً(٣١) بني إسرائيل.

والسورة مكية تخاطب أهل مكة، من أسلم منهم ومن لم يسلم، وتبين أنه كان يحدث بينهم أن يقتل الوالد مولوده الولد أو البنت إذا كان فقيراً لئلا يضطر للتسول ليطعمه، كون التسول معيباً بحق القرشي.

كما أن هناك من قريش من قتل ولده ليحول بينه وبين الدخول في الإسلام: وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١٣٧) الأنعام.



وهذا لم يكن عرفاً ولا عادة منتشرة في مكة في عصر الرسول أو قبله، ولكنه تصرف شخصي قد لا يكون صدر من أكثر من شخص واحد. بينما كان وأد البنات ظاهرة سائدة في مكة عندما بعث رسول الله، نتيجة للثقافة الذكورية التي تحتقر البنت وتعتبرها مصدراً للعار، بينما الولد فخرٌ لوالده. فهو يحمل اسمه ويلقب به، ويعتبر امتداداً له. وهذا الشعور ما زال حياً قوياً بيننا إلى اليوم، وإن اختفى الوأد الفعلي وبقي المعنوي. فما زال البعض يبادر بالقول «أعزك الله» عندما يتحدث عن امرأة، وكأن مجرد ذكرها نجاسة. وهناك من لا يأكل مع المرأة، وممارسات أخرى تئد المرأة معنويا.

الخليل

تشكيل الحروف عرفه المصحف فيما بعد عصر نسخ المصاحف، ولم يكن موجوداً في المصحف الإمام[1]. وقد خضعت الكثير من الألفاظ في القرآن لتغييرات في تشكيلها من قبل المفسرين دون ضوابط، كل مفسر يشكلها كيفما يشاء لتلائم تأويله. وذكرنا أثناء التدبر بعض هذه الألفاظ. وهو ما يعني أن احتمال قراءة قوله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» قد يكون بشكل مختلف، خاصة أن تقديم المفعول به على الفاعل في اللغة العربية جائز. وهذا الاحتمال يعطينا الحق في النظر للموضوع من عدة زوايا.

والبداية مع:

معنى الخليل في اللغة

أي لفظ تذكر له معاجم اللغة عدة معانٍ بعضها معانٍ شاذة لا يؤخذ بها. وهذا ليس وقفاً على العربية، بل هو موجود في كل اللغات.

والخليل ليست استثناء، فهي تأتي في المعاجم بمعانٍ عديدة، نذكر منها:

- أنها تأتي من الخلال، أي إدخال الشيء من خلال شيء آخر.
- وخل الشيء فهو مخلول وخليل، أي مثقوب وثاقب.
- والخليل هو الصديق.
- والخليل هو المحب الذي ليس في محبته خَلَل.

[1] المصحف الإمام هو ذلك المصحف الذي كتب في حياة الرسول وراجعه الرسول قبل وفاته. وهو الذي نسخ منه عثمان المصاحف التي وزعها على الأمصار عام (٣٣) هجرية.



- والخليل الفقير المحتاج لخله.

وكتب التراث تقول إن الله اتخذ إبراهيم صديقاً ومحبوباً، في قوله تعالى: «وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً».

فيما يقول القرآن: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٠١) الأنعام.

فالله خالق كل شيء، ولا يتخذ من خلقه ولداً ولا صاحباً. لأنه سبحانه ليس بحاجة لولد ولا صاحب، لأنه هو من خلق الخلق وهو سبحانه غني عن كل خلقه بما فيهم إبراهيم: وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) العنكبوت.

في المقابل الناس هم الفقراء لله وبحاجته في كل شيء: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(١٥) فاطر.

والنبي إبراهيم فقير دائم لله. لذا فقد اتخذ إبراهيم ربه خليلاً، بمعنى الحاجة له والفقير لعونه، كما قال زهير ابن أبي سلمى يمدح هرم ابن سنان: وإن أتاه خَلِيلٌ يومَ مَسْغَبةٍ *** يقول: لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ.

ويكون إبراهيم الخَليلُ الفقيرُ المُخْتَلُّ الحالِ إلى الله.

وهذا المعنى لا يستقيم لو قرأنا الآية بالتشكيل الموجود في المصحف بحيث يكون إبراهيم هو المفعول به ولفظ الجلالة فاعلاً لكن المعنى يستقيم لو عُدّل التشكيل، بحيث يكون لفظ الجلالة بفتحة (مفعول به) وإبراهيم بضمة (فاعل). ليكون إبراهيم هو من اتخذ رب العالمين خليلاً – ليس بمعنى الحب أو الصداقة – ولكن بمعنى الحاجة والافتقار للعون.

والآن لنقرأ الآية بتمامها: وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) النساء.

والآية تقول: إن أحسن دين هو اتباع ملة إبراهيم الذي اتخذ الله خليلاً (معيناً وملجأ)، والعبد دائماً في حاجة لسيده وربه. لكن لو كانت العلاقة بين الله وإبراهيم علاقة صداقة، فهذا يوحي بنوع من التكافؤ بين الخالق – الله – والمخلوق الحقير إبراهيم. وهو ما يخالف الواقع الذي يقول إن الله ليس بحاجة لعباده ولا يجوز أن يقارن أو يشبه بهم: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).



ولو عدنا لسياق الآيات سنقرأ: لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) النساء.

هنا ذكر لأهل الكتاب الذين يقولون إنهم مفضلون على بقية البشر، ولن يؤاخذهم الله فيما يقترفون، فترد عليهم الآيات. وتواصل لتقول إن النجاة لمن يتبع ملة إبراهيم، الذي اختار أن يسلم أمره لله، وأعلن فقره لعونه.

ونختم باقتباس من تفسير القرطبي الذي نقل المعنى الصحيح للخليل، بجانب آراء أخرى مغايرة، يقول: وقيل: الخليل المحتاج؛ فإبراهيم خليل الله على معنى أنه فقير محتاج إلى الله تعالىٰ؛ كأنه الذي به الاختلال.

ويقول: وجائز أن يسمى خليل الله أي فقيراً إلى الله تعالى؛ لأنه لم يجعل فقره ولا فاقته إلاَّ إلى الله تعالى مخلصاً في ذلك. والاختلال الفقر.

وقد وافق المفسر القرطبي الحق هذه المرة.

ويكون التشكيل الصحيح في الآية هو فتحة على لفظ الجلالة، وضمة على إبراهيم. وما دمنا نتحدث عن النبي إبراهيم نورد تشكيلاً خاطئاً آخر، في قوله تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) البقرة.

فالتشكيل السائد والموروث هو (وَاتَّخِذُواْ) بكسرة تحت الخاء، كفعل أمر. وهو ما يخالف السياق ويصبح المعنى غير متسق. لأن أول الآية يتحدث عن زمن إبراهيم « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً» ثم فجأة وبدون مقدمات تبدو الآية وكأنها تأمر الناس – زمن الرسول – بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. قبل أن تعود للحديث عن زمن إبراهيم مرة أخرى: وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

أما لو كان التشكيل (وَاتَّخَذُواْ) بفتحة على الخاء، كفعلٍ ماضٍ، فسيكون الحديث في كل الآية عن زمن إبراهيم. وهذا فيه اتساق للمعنى والسياق يعضده.



الصدقات هي الإنفاق

مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ(٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٥).

الآيات عن الإنفاق، وهي تستخدم لفظ الإنفاق ولفظ الصدقة لنفس معنى الإنفاق مما يؤكد أن الإنفاق والصدقات تدل على نفس المعنى.

وهو ما تؤكده السورة مرة أخرى: إِن تبدو الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٧١) البقرة.

والآية جاءت ضمن سياق الآيات السابقة والتي تحث المسلمين على الإنفاق لتسليح الجيش وتجهيز المقاتلين. واستخدمت الآية لفظ «الصدقات» كمرادف للإنفاق. وإبداء الصدقات يعني إعطاءها مباشرة للمحتاج، كأن يدفع المنفق فرساً لرجل محتاج لكي يشارك في القتال في سبيل الله تحت سمع وبصر المسلمين. وإخفاء الصدقات كأن يدفع المنفق مالاً أو عيناً ويتجمع الصدقات ويجهز بها المقاتلة دون معرفة من دفع[1].

مكة بلد آمن

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ(٦٧) العنكبوت.

الآية تخاطب قريشاً مذكرة إياهم أن بلدهم آمنة.

١ تم الحديث بتفصيل عن الإنفاق في كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق / منشورات الجمل.



وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

فقد كانت آمنة منذ ظهرت على الوجود قبل عصر إبراهيم. ولم تكن آمنة لأن قريشاً عقدت حلفاً قبيل البعثة سموه حلف الفضول، كما تقول كتب التراث.

إسماعيل كلف بصيانة البيت وخدمة الحجاج مع أبيه دون إسحاق

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

ولهذا بقي هذا التكليف في نسل إسماعيل حتى ظهور الإسلام. وانتزاعه من قريش دليل على أنه كان حصرياً في نسل إسماعيل ما بقوا على دين الله، وعندما تحولوا للوثنية فليس لهم عند الله عهد ويسلم البيت للمؤمنين ولو كانوا من غير نسل إسماعيل.

التحية السائدة في عصر إبراهيم

السلام هو التحية السائدة زمن إبراهيم، وهو ما يعني أنها تحية دين الله قبل الإسلام: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٢٥) الذاريات.

واليهود إلى اليوم يرددون نفس عبارة السلام عليكم ولكن بلسان معوج من العجمة التي دخلت لهجاتهم فتحولت إلى لغة غريبة عن العربية (شلوم عليخم).

المدينة[1]

كتب التراث تزعم أن الرسول هو من سمى مقامه في يثرب، المدينة. ومن الصعب التصديق بأن هذا ما حدث، لأن مصادر تلك الكتب غير موثقة ولا موثوقة.

والمدينة، لفظ نُعرّفه اليوم بأنه يطلق على البلدة الكبيرة المكتظة بالسكان. وهو تعريب للفظ

١ منقول من كتاب أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول - منشورات الجمل.



'city'في اللغة الإنجليزية واصطلاح جغرافي حديث. وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على ذلك المكان الذي استقر فيه الرسول، ولم يتسع البنيان فيه طوال عصره لدرجة يمكن أن يسمى «مدينة» بمفهومنا العصري. لأن الأوس والخزرج بقوا في مساكنهم التي كانوا فيها قبل الهجرة، بينما توزع المهاجرون على مناطق متفرقة من أرض يثرب ولم تكتظ بهم المنطقة المحيطة بمسجد الرسول. وعندما توفي رسول الله لم يكن بجوار مسجده إلا القليل من المساكن لبعض المهاجرين، لا تشكل أكثر من تجمع سكاني محدود، ومع ذلك نعتت بالمدينة.

المدينة – بمفهومنا الحالي – في القرآن

القرآن نعت مكة، بالقرية، مع أنها تفوق يثرب سكاناً: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ(١٣) محمد.

ومرة أخرى أطلق عليها وعلى الطائف قريتين: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) الزخرف.

والقرآن يصف التجمع السكاني المدني المكتظ، بالقرية، عند الحديث عن الأمم السابقة: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً(٨) الطلاق.

ومن ذلك قوم لوط الذين كانوا يعيشون في قرية: وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً(٤٠) الفرقان.

وكل الأمم السابقة كانوا يعيشون في قرى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ(١١) الأنبياء.

بل إن مدينة كبيرة (بمفهومنا الحالي للمدينة) سماها القرآن قرية، برغم أن الله جل شأنه أرسل لها ثلاثة رسل في وقت واحد، بسبب اتساعها وكثرة سكانها: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(١٤) يس.

ورسول الله يونس بعث إلى مدينة (بمفهومنا الحالي) يقطنها أكثر من ١٠٠ ألف نسمة:



وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ(١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ(١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(١٤٨) الصافات.

هذه (البلدة المكتظة) التي بعث لها يونس، سماها القرآن قرية: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨) يونس.

إذاً، القرآن دائماً – وبلا استثناء – يطلق على البلدة الآهلة والمكتظة بالسكان اسم، «قرية»، ولا يسميها مدينة: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ(٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ(٥٩) القصص.

لكن مصطلح «المدينة» تردد ذكره في القرآن فما المقصود به؟

لفظ المدينة في القرآن

لفظ «المدينة» ورد في القرآن أربع عشرة مرة، أربع منها تتحدث عن موطن الرسول، وذلك في السور التالية: الأحزاب: ٦٠، والمنافقون: ٨، وبراءة: ١٠١-١٠٢.

وهذه المدينة مع تجمعات الأوس والخزرج ومزارع بني إسرائيل ومساكنهم تقع ضمن ما يعرف بيثرب.

وهناك خمس آيات ذكر فيها لفظ «المدينة»، كلها تتحدث عن مصر وفرعون. ثلاث آيات منها في سورة القصص، وواحدة في سورة الأعراف، وأخرى في سورة يوسف.

والآية: (١٢٣) من سورة الأعراف تظهر فرعون مخاطباً السحرة: قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

ومصر فرعون تعني بلدة واحدة، ولا تعني الدولة بمفهومنا الحالي التي تحوي عدة مدن وقرى وتجمعات سكنية، وذلك بشهادة القرآن. وذلك أثناء الحديث بين يوسف وإخوته: ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ



حَافِظِينَ(٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٨٢) يوسف.

فإن كانت القرية التي كان إخوة يوسف فيها هي مصر فرعون، فما هي المدينة التي ذكرتها الآية: (١٢٣) من سورة الأعراف أعلاه والتي يتحدث عنها فرعون؟

وفي سورة القصص ذكرت «المدينة» ثلاث مرات أثناء الحديث عن موسى، كما يلي: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ(١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢١).

وموسى ترعرع في قرية مصر فرعون، لكن الآيات تتحدث عن دخوله المدينة، على حين غفلة من أهلها، بعدما بلغ أشده. ولو كان المقصود بالمدينة بلدة فرعون التي ولد فيها موسى وترعرع، فلا يمكن القول بأنه دخلها، وخلسة، وبعد أن بلغ أشده، لأنه كان طوال عمره داخلها. أما لو كان معنى المدينة هو مكان في قرية فرعون، فإن العبارة ستستقيم.

ويكون موسى الذي يعيش في قرية فرعون، قرر ذات مرة الذهاب للمكان المسمى «المدينة» الواقع في نفس القرية. وهذه المدينة كان لها أبواب ولا يسمح بدخولها إلا من يحمل تصريحاً. لذا فقد تسلل موسى إليها « على حين غفلة من أهلها (حراسها)». وهناك – داخل المدينة – وكز الذي من عدوه وقتله، وهناك قضى الليل خائفاً يترقب ملاحقيه بسبب قتله للرجل. وفي نفس المدينة قدم رجل يسعى في اليوم التالي ليُحذِّره. وقد استطاع موسى التسلل خارج المدينة وهو خائف يترقب ملاحقيه.



فموسى دخل خلسة مبنى محاطاً بأسوار له أبواب، وعليه حرس لو رأوه لمنعوه من الدخول، مما يشير إلى أن هذا المبنى لا يدخله إلا المصرح لهم، كما سبق وذكر. وأثناء تنقله فيها وجد أحد بني إسرائيل يتعارك مع رجل آخر، وقد وكزه موسى بقبضته فقتله. ثم فر موسى من مكان الحادث لكنه بقي في ذلك المكان «المدينة» بقية اليوم وطوال الليلة التالية، وفي اليوم التالي كان يتجول في هذه «المدينة» عندما أقبل رجل يسير بسرعة إلى موسى وأخبره أنهم يبحثون عنه ليقتلوه بالرجل المقتول. كل هذا يحدث في «المدينة»، مما يعني أن هذه المدينة تحوي مساحات واسعة يتحرك فيها مجموعات بشرية كبيرة.

ولو تساءلنا ماذا يفعل هؤلاء البشر؟

لجاءنا الجواب من سورة يوسف، التي تتحدث عن أن يوسف أصبح مسئولاً عن مخازن مصر للمحاصيل الزراعية والتجارية المختلفة، وكانت هذه المخازن تقع في مبنى مغلق له أبواب عليها حرس. وهذه المواصفات تنطبق تماماً على المدينة التي دخلها موسى خلسة بعد أجيال من دخول أجداده لها زمن يوسف.

وتكون المدينة تعني المبنى المحاط بأسوار وله أبواب، كالمبنى الذي يضم مخازن مصر وسوقها الذي دخله موسى على حين غفلة من حراس إحدى البوابات.

وقد ذكرت سورة يوسف «المدينة» أثناء الحديث عن النسوة اللاتي كن يتكلمن فيما بينهن عن محاولة زوجة العزيز إغراء غلامها يوسف: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٣٠) يوسف.

وهذه الآية تضيف لنا تأكيداً آخر على أن المدينة تعني مكاناً يجتمع فيه خلق كثير، للبيع والشراء ويضم مجالس لتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار والحكايات وعقد الصفقات التجارية. وهذا المكان كان في نفس المبنى المحاط بسور والذي يضم مخازن المملكة. والنسوة اللاتي تحدثن عن امرأة العزيز كن يجتمعن في المدينة (السوق) للبيع والشراء كما كان يحدث وما زال في أسواق جنوب جزيرة العرب. وكن يتبادلن الأحاديث ويتناقلن الأخبار أثناء العمل.

وتكون المدينة هي سوق تجارية عادة ما تكون محاطة بسور وله أبواب.

وسورة الكهف تتحدث عن الفتية الذين ناموا في الكهف مع كلبهم لسنوات طويلة،



وعندما استيقظوا ظنوا أنه لم يمر عليهم سوى فترة قصيرة، فأرسلوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً من نفس بلدتهم التي خرجوا منها: فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً(١٩) الكهف.

والآيات تؤكد أن المدينة هو المكان الذي يباع فيه القوت « فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ». أي أنه السوق الذي يقع في بلدة الفتية، وليس البلدة كلها.

وتذكر سورة الكهف «المدينة» مرة أخرى في الحديث عن موسى والعبد العالم: فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً(٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٧٨) ....وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٨٢) الكهف.

والآيات تقول بأن موسى والعبد العالم دخلا «قرية» وفي تلك القرية كان هناك جدار آيل للسقوط فأقامه. وهذا الجدار يقع في «المدينة» ومخبأ فيه كنز. ويكون والد الغلامين اليتيمين قد جمع هذا الكنز من مزاولته للتجارة، وخبأه في جدار محله الواقع في المدينة التي هي مكان البيع والشراء، والتي تقع ضمن القرية.

وسورة النمل تذكر المدينة أثناء الحديث عن صالح وقومه: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(٤٨) النمل.

وقوم صالح مثل كل الأمم السابقة المذكورة في القرآن كانوا يعيشون في قرية: وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ(٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ(٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(٤٥) الحج.

والرهط التسعة المفسدون من قوم صالح الذين ذكرتهم الآية: (٤٨) من سورة النمل كانوا يتواجدون دائماً في المدينة داخل قرية قوم صالح، حيث يجتمع الناس للبيع والشراء وتناقل الأخبار.



وتتحدث الآيات (٥٨- ٧٧) من سورة الحجر عن قوم لوط، ومحاولة النيل من الملائكة - ظناً منهم أنهم رجال من البشر - ليفعلوا بهم الفاحشة، ومن ذلك قوله تعالى: وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ(٦٨) وَاتَّقُوا اللهَّ وَلاَ تُخْزُونِ(٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(٧٠) قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٧١).

وعلينا أن نتذكر أن القرآن ينعت بلدة قوم لوط بالقرية في عدة سور منها: (الأنبياء:٧٤)، (الفرقان:٤٠)، (العنكبوت: ٣١ : ٣٤). فتكون آيات سورة الحجر تدل على أن المقصود بالمدينة هو مكان داخل القرية، يجتمع فيه عدد كبير من الناس. وقوم لوط كانوا يأتون المنكر في ناديهم، أي مكان تجمعهم، كما تؤكد سورة العنكبوت: أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهَّ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٩) العنكبوت.

ويكون الرجال الذين جاؤا إلى لوط ليسوا كل رجال قريته، ولكن ممن كان في ناديهم الذي يمارسون فيه عهرهم والواقع في «المدينة» التي تقع داخل القرية.

ومن كل ما سبق يمكن القول إن المدينة عبارة عن مبنى واسع داخل القرية يكون فيه السوق والمحلات التجارية، وقد يكون مكاناً للاحتفالات.

وسورة الشعراء تذكر المدائن (جمع مدينة) مرتين، وهما المرتان الوحيدتان اللتان ذكر فيهما هذا اللفظ في القرآن. وفي كلاهما كان الحديث عن إرسال فرعون من يطوف في المدائن لإبلاغ من فيها بمرسوم فرعوني. والمرة الأولى بعث فرعون من يطوف في «المدائن» بحثاً عن سحرة حاذقين لمبارزة موسى: قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٣٨).

والمرة الثانية تتحدث عن إرسال فرعون من يطوف بالمدائن ليبلغهم رسالة تحذيرية لئلا يتعاونوا مع بني إسرائيل: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ(٥٦).

والمدائن في كلا الموضعين تشير إلى أنها أماكن يتواجد فيها أهل مصر، لذا كان فرعون يبعث لهذه المدائن من يوصلهم رسائله وأوامره وتحذيراته.

وتكون المدائن هنا تعني الأسواق الصغيرة التي كانت منتشرة في أرجاء قرية مصر الزراعية



والتي يبيع أصحاب المحلات فيها منتجاتهم الزراعية التي يجمعونها من مزارعهم على أهل المساكن القريبة أو على التجار الذين يجوبون تلك الأسواق الصغيرة لشراء منتجاتهم وجلبها للسوق المركزي (المدينة).

ولا تعني المدائن جمع مدينة بمفهوم هذا العصر، ذلك أن السحرة قبل أن تبدأ المبارزة نصحهم موسى بأن يتقوا الله، وكادوا أن يتراجعوا، لكنهم تناجوا وتشاوروا فيما بينهم ثم اتفقوا على أن موسى ساحر يريد أن يخرجهم بسحره من أرضهم (مصر)، فهم مصريون. ولو كانوا قد أتوا من خارج مصر، فهي ليست أرضاً لهم، وليسوا معنيين بالخروج منها، ولن يهتموا إن خرج المصريون منها أم لا. وهذه هي الآيات: قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى(٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى(٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى(٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى(٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) طه.

إذاً، هم من مصر ويعيشون فيها، وعندما أراد فرعون جمعهم أرسل لهم في مدائنهم الواقعة داخل مصر (القرية).

ولفظ المدينة معروف لدى بني إسرائيل يثرب لأنهم قدموا من مصر فرعون بعدما هربوا منها نتيجة الغزو الخارجي. ولابد أنهم أقاموا مدينة (سوق تجاري) في يثرب. ولما تعرض المستضعفون في مكة للاضطهاد والتعذيب من قبل كبراء قريش لردهم عن دينهم واشتد التضييق على الرسول ومن آمن، وجه مسلمو يثرب برئاسة من آمن من بني إسرائيل الدعوة للرسول والمسلمين للهجرة للمدينة. وقاموا ببناء مسجد للرسول وحجرة لسكنه ملحقة بالمسجد، في مكان قريب من المدينة (السوق الأسبوعية) التي تقام هناك. ولما أقيمت حجرات (منازل) لبعض المهاجرين فيما بعد حول مسجد الرسول، غلب اسم «المدينة على كل المنازل التي بنيت في المكان. وبعد جلاء بني إسرائيل من يثرب غلب اسم المدينة على كل ما كان يعرف بيثرب.

وما يؤكد هذا ما ورد في سورة الجمعة التي تتحدث عن ترك بعض المصلين الصلاة مع الرسول في مسجده للحاق بقافلة تجارية:



ولدينا شاهد ما زال حياً على أن المدينة تعني السوق المحاط بأسوار وله أبواب. فمدن بلاد المغرب العربي القديمة تسمى البلدة العتيقة فيها «المدينة»، وهي التي تحوي السوق التجارية.

ولمن يهتم بمعاجم اللغة، يقول صاحب لسان العرب: «المَدِينة الحِصْنُ يبنى في أُصطُمَّةِ الأَرض، وكلُّ أَرض يبنى بها حِصْنٌ في أُصطُمَّتِها فهي مدينة، والنسبة إِليها مَدِينّي، والجمع مَدائنُ ومُدُنٌ».

وهكذا يمكننا القول بأن «المدينة» لفظ يعني في القرآن السوق التجارية أو المبنى أو الفناء، المحاط بسور، والذي يضم السوق التجارية.

أما المدينة بمفهومنا المعاصر، فهي القرية في القرآن.

الشعر مذموم في القرآن

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧٠) يس.

الآيات ترد على مزاعم قريش أن ما يسمعونه من الرسول هو نوع من الشعر وليس وحياً من الله. وتنفي الآيات أن يكون محمد شاعراً: «وما علناه الشعر»، وتؤكد أنه لا ينبغي له عليه الصلاة والسلام ان يقول الشعر «وما ينبغي له»، سواء من نظمه أو من نظم غيره.

وهذا يظهر أن الشعر مذموم ويجب أن يتنزه رسول الله عن روايته أو نظمه، وهو ما ينفي نفياً قاطعاً كل ما نقلته كتب التراث من حب الرسول للشعر أو حثه لأصحابه أن ينظموه. كما يؤكد أن كل ما نسب لحسان ابن ثابت هو اختلاق ولم يحدث على أرض الواقع، وذلك لكي يتمكن من نسب لحسان الشعر أن يهجو الإسلام ورسول الله. وذلك بأن يقول شعراً يهجو الرسول وينتقص الإسلام ثم يختلق شعراً وينسبه لحسان، وكأنه يرد عليه.

وهو ما أكدته سورة الشعراء التي تقول: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦).

فالشعر عادة يقترن بالفسق والخمر والفواحش، في كل المجتمعات. والشعراء يقولون



كلاماً يبدو وكأنه حكم وفضائل ومكارم أخلاق، لكن الشاعر لا ينهج منه في حياته شيئاً. فهم يقولون ما لا يفعلون.

لكن الشعر تحول وصار ممدوحاً لأن السلاطين بعد عصر صدر الإسلام أصبحوا يمجدونه ويدنون الشعراء، ونحن ورثنا هذا التمجيد حتى أصبح الشعر اليوم نبلاً وكرامة. والتراث ممثلاً في كتب السير والتاريخ رسخ بيننا أن للرسول شاعراً خاصاً، بعد أن أصبح للحكام شعراء للبلاط. واختلقوا شعراً وقصائد نسبوها لحسان ابن ثابت، بل وقالوا بأن الرسول سمح له بألا يشارك في القتال والجهاد مقابل أن يقول الشعر. وكأن الدين للرسول يتصرف به كيفما يشاء، كما يتصرف السلطان بمال الدولة وسياستها.

وإلا فالشعراء «يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" و "يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ"، وهذه صفات ذميمة لا يمكن أن يقبلها الله لرسوله ولا يمكن أن يقبل بها الرسول، ولا يمدحها.

ولكن الناس لا يستمعون للقرآن ولا يصغون له، ويحاولون إيجاد أي مبرر للتمسك بما يعجبهم ولو خالف القرآن، ومن ذلك أن الشعر ليس مذموماً بدليل أن سورة الشعراء تقول: وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧).

وكأن «إلا» في الآية (٢٢٧) تستثني أي شاعر مسلم من أن يكون من الغاوين، وكأن للمسلم أن يقول الشعر. وهذا غير صحيح فالآية تبدأ موضوعاً جديداً لا علاقة له بالشعر، ولكن بما تتحدث عنه آيات سابقة في قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) .... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧).

فالسورة تحدثت عمن تتنزل عليه الشياطين، ثم عن الشعراء ثم عن موضوع ثالث هو من آمن وعمل صالحاً وذكروا الله وانتصروا لظلمهم.

وتكون «إلا» في الآية (٢٢٧) ليست للاستثناء ولكن بمعنى «أما»[1].

---

[1] انظر فقرة: استخدام «إلا» بمعنى «أما» / قسم من أساليب القرآن.



وإذا كان الشعر مذموماً في القرآن فإن على المسلم أن يتنزه عنه، وبالتالي فلن يكون هناك مسلم شاعر. لأن الشعر من اللغو والكلام المذموم الذي لا يليق بالمسلم: وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) المؤمنون.

عن الإسراء والمعراج

في كتاب سنة الأولين وكتاب أحسن القصص تحدثنا بإسهاب عن قصة الإسراء والمعراج الخيالية المختلقة، ونعود هنا للحديث عن جانب آخر قد يكون أحد العوامل الهامة لاختلاق القصة برمتها. تلك القصة الطويلة العريضة المتشعبة عن رحلة خيالية قام بها الرسول على ظهر حيوان خرافي بين الحمار والبغل، أسموه «البراق» مقتبس – على ما يبدو – من البرق ليدل على سرعته. وبرغم أنهم يقولون إنه لا يطير، إلا أن سيره سريع لدرجة أنه (يضع حافره عند منتهى بصره) كما ورد في وصفه في الأحاديث. وهذا يستحيل أن يحدث، لأن أي مخلوق لا يمكن أن يضع حافره عند منتهى بصره بدون طيران. نسوق هذا الكلام كمثال على سعة أفق القاص (أو القصاص) الذين ابتدعو قصة الإسراء والمعراج في كتب التراث.

والمسجد الأقصى الحالي في فلسطين لم يكن له وجود زمن رسول الله، بل لم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين إلى أن وصل خامس ملوك بني أمية عبد الملك ابن مروان للحكم في العام ٦٥ للهجرة. وأثناء فترة حكمه التي امتدت من (٦٥ – ٨٦) للهجرة أمر ببناء مسجد في إيليا (القدس) وأسماه المسجد الأقصى على المسجد المذكور في أول آية من سورة بني إسرائيل، في وقت كانت فيه مكة تحت حكم عبد الله ابن الزبير وخارج سيطرة حكم بني أمية. فالسياسة هي سبب بناء قبة الصخرة والمسجد الذي سمي «المسجد الأقصى»، لأن ابن الزبير كان يحكم مكة ويخطب الناس بالحج ويبين مثالب وعيوب ابن مروان ويحرض أهل الشام عليه. فقام عبد الملك ابن مروان ببناء القبة والمسجد وجعل الناس يحجون لها بدل مكة، لئلا يسمعوا ما يقول ابن الزبير. بناءً على ما ورد في كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وهذا نصه:

"ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى؛ وكملت عمارته في سنة ثلاث وسبعين، وكان السبب في ذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة، ومقام الناس بمكة، وينال من عبد الملك



ويذكر مساوي بني مروان، ويقول: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما نسل، وأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه، وكان يدعو إلى نفسه، وكان فصيحاً، فمال معظم أهل الشام إليه، وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج (إلى مكة) ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد ويحلقون رؤوسهم، ففتح بذلك على نفسه بأن شنع ابن الزبير عليه، وكان يشنع عليه بمكة ويقول: ضاهى بها فعل الأكاسرة في إيوان كسرى، والخضراء، كما فعل معاوية (ونقل الطواف من بيت الله إلى قبلة بني إسرائيل ونحو ذلك). انتهى كلام ابن كثير

أما المسجد الأقصى المذكور في سورة بني إسرائيل، فليس المقصود به مسجد عبد الملك ابن مروان الذي أسماه المسجد الأقصى، ليغري الناس بالحج إليه. والذي بني لضرورة سياسية ولم يكن تجديداً لمسجد قديم، لموسى أو إبراهيم كما تزعم الإسرائيليات، لأنهما لم يريا فلسطين في حياتهما، ولم يسجدا لله فيها سجدة واحدة.

والأقصى صفة وليس اسم علم. يعني لا يمكن أن يكون هناك مسجد اسمه مسجد الأقصى. وإنما الحديث عن مسجد بعيد، لذا وصف بأنه المسجد الأقصى. وهو قصي وبعيد عن المسجد الحرام الذي خرج منه «عبده» متجهاً لذلك المسجد البعيد. ولو تمعنا بما قيل عن المعراج فلن نجد له إلا غاية واحدة، وهي توصيل محمد (رسول الإسلام) إلى إيليا، فلسطين. التي سماها اليهود (أورشليم) تيمناً بمدينتهم التي كانت عاصمة لمملكة سليمان والتي تقع في مناطق جنوب غرب جزيرة العرب، واسمها يور سالم (أورشليم) أو مدينة سالم أو السلام.

يعني أن قصة الإسراء تقوم على تقديس أورشليم اليهود على حساب مكة، بحيث إنها جُعلت كبوابة للسماء والوصول لله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

هذا كل شيء!

وإلا لو كان هناك معراج فلماذا كان على الرسول السفر إلى إيليا، فلسطين، إذا كانت الوجهة إلى السماء؟

لماذا لم يرتفع من مكة؟



خاصة أن المسافة من أي مكان على الأرض إلى السماء متساوية، ولم يقل لنا المفسرون إن إيليا أقرب للسماء من مكة. بل قالوا إن الكعبة تقع مباشرة تحت البيت المعمور الذي زعموا أنه في السماء. وهذا يعني أن مكة هي التي يجب أن يعرج منها، لأنها بيت الله الحرام وأقرب نقطة على الأرض للسماء (بمفهوم المفسرين والمحدثين للسماء).

فإذا كان الهدف هو زيارة السماء، فلماذا لم تتم من مكة؟

أليس في مكة بيت الله الحرام؟

وما الذي يوجد في إيليا أقدس وأطهر من بيته سبحانه؟

الجواب:

هناك معابد لليهود، هناك حائط مبكى لليهود، وهناك بيت اليهود الحرام!

هذا هو بيت القصيد من اختلاق قصة الإسراء.

ومختلق القصة أراد أن يمجد معابد اليهود في إيليا، أو أورشليم كما سموها، وينقص من حرمة بيت الله في مكة، فزعم أن الإسراء تم من مكة إلى أورشليم. وتمجيد اليهودية على حساب الإسلام، استمر طوال قصة الإسراء والمعراج المزعومة. ومن ذلك تلك القصة عن فرض الصلاة والتي تصور أن الله جل جلاله فرض خمسين صلاة على الناس يستحيل عليهم توفير وقت لأدائها، وكأنه لا يعرف ما يفعل. لولا نبي اليهود موسى الذي برغم موته تحدث وأقنع الرسول أن يراجع ربه لتخفيض ركعات الصلاة عدة مرات حتى استقرت أخيراً على خمس بدل خمسين. والمشهد يصور محمد مسلوب الإرادة، يؤمر بخمسين فيقبل دون نقاش، فيأمره موسى بالمراجعة فيعود دون نقاش.

وعلى القراء تذكر أن الرسول صلى منذ اليوم الأول للبعثة، ولم تفرض الصلاة فيما بعد. مما يؤكد حقيقة اختلاق قصة الإسراء والمعراج.

وننتقل إلى التساؤل الآخر:

بما أن الإسراء والمعراج آية (من الخوارق والمعجزات)، فهذا يعني أنه لم يحدث لمحمد. لأن الله سبحانه وتعالى ينفي نفيا قاطعا أن يكون الرسول أعطي آية واحدة طوال حياته، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. بل ورد النفي في سورة بني إسرائيل نفسها التي يقول



المفسرون إنها تتحدث عن الإسراء والمعراج: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) بني إسرائيل.

فلا وجود للمعجزات الحسية للرسول محمد على الإطلاق.

ولم يعط عليه الصلاة والسلام معجزات حسية، لأنه لم يرسل لقومه فقط، ولا لزمانه فقط، وإنما لكل الناس في كل العصور.

والمعجزة أعطيت لرسل سابقين مرسلين لأقوامهم، فإن لم يؤمنوا بعد حدوث المعجزة حل بهم العذاب، أما قريش فليس إسلامها ضرورياً، وسيبقى دين الله بعدها لكل الناس.

ثم ما هي الفائدة من الإسراء والمعراج للرسول؟

إن كان لإثبات أنه رسول فهو يعلم ذلك منذ سنوات سبقت نزول هذه السورة ومنذ رأى الملك في الأفق ومنذ نزلت عليه سورة الفاتحة. والآيات والخوارق المعجزة لا تكون موجهة لشخص الرسول. لأن رسل الله جميعاً يعطون الآيات ليراها قومهم المكذبون برسالتهم لتكون حجة عليهم، أما الرسل فلا حاجة لهم بآية وخوارق تثبت لهم أنهم رسل من الله.

وسورة بني إسرائيل تنفي في آخرها نفياً قاطعاً أن يكون الرسول محمد قد عرج به للسماء. يقول تعالى على لسان قريش: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) بني إسرائيل.

فالسورة التي تم تأويل آياتها الأولى لتعني الإسراء والمعراج، تنفي نفياً قاطعاً واضحاً أن يكون الرسول عرج به للسماء: «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء».

ولو تمعنا بقصة الإسراء والمعراج فسنجدها قد حولت الرسول الحالم يحلم ويقص حلمه على أنه حقيقة. كما فعل حزقيال في كتاب اليهود المقدس، وكما فعل يوحنا في كتاب المسيحيين المقدس.

أو بعبارة أخرى، لقد نسب للرسول رحلة خيالية سماوية من أناس على علم واطلاع



بالكتاب المقدس لليهود والمسيحيين. (أرجوا ممن يهتم بالموضوع من القراء أن يقرأ كتاب حزقيال وكتاب رؤيا يوحنا اللاهوتي لمعرفة مصدر ما عرف عندنا بالمعراج). وتم إقناع الناس بهذه القصة الخيالية، برغم أن مختلقيها لم يتمكنوا من التفكير بسبب معقول ومقبول لها. لكن المهم عندهم هو ترسيخ فكرة أفضلية موسى على محمد ورب محمد، في موضوع فرض الصلوات.

وترسيخ أفضلية حرم اليهود في إيليا على حرم رب محمد في مكة.

وترسيخ فكرة أن رسول اليهود "موسى" هو المسيطر في السماء.

وترسيخ أفكار كثيرة شربناها وندافع عنها، مع أنها شرك وكفر بالله.

ومن قرأ سيرة كعب الأحبار، فسيعرف أنه أحد أهم مَسْلَمَة اليهود الذين رسخوا تقديس ما يعرف اليوم "بالقدس". وكان يقول إن الله (تعالى الله عن ذلك) قال عن الصخرة: أنت عرشي ومنك صعدت إلى السماء». وكان كعب حاضراً فتح إيليا (القدس) مع عمر ابن الخطاب، وحاول أن يختار لعمر موضعاً للصلاة بحيث يستقبل الصخرة، لكي يعظمها المسلمون فيما بعد. لكن عمر فطن لخبثه ونهره بشدة، كما ورد في كتب التراث.

وتقديس الصخرة وإيليا ترسخ عند اليهود، منذ أن جعلوها بيت الله بالنسبة لهم بدل مكة وطن الإسماعيليين. وهذا يظهر لنا أن مسلمة اليهود هم وراء قصة الإسراء والمعراج، وهم من تأول الآية الأولى في سورة بني إسرائيل لتبدو وكأنها تتحدث عن إسراء لمحمد من مكة لأورشليم الجديدة. وبعد ذلك اختلقوا قصة المعراج الطويلة العجيبة، لكي يترسخ تعظيمها عند المسلمين.

وقد نجحوا!!

ولو عدنا للآيات الثماني الأولى في سورة بني إسرائيل فسنجد أنها تتحدث عن إسراء (ترحال) لموسى مع زوجته في الليل عندما رأى النار وتم التكليم، كما ورد في سور كثيرة منها: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٢٩) القصص.

وقد ذكرنا في كتاب أحسن القصص أن موسى بعد أن قضى أجل العهد الذي بينه وبين الشيخ الذي كان يقطن قرب بئر مدين على رعي الغنم مقابل الزواج بابنته. وبعد الزواج



صحب امرأته إلى مكة للحج أو العمرة، وبعد ذلك خرج من مكة مساءً ليعود إلى بلاد والد زوجته التي أصبحت بلده. وبما أنهم مؤمنون فلديهم مسجد، هو المسجد الأقصى في الآية. ويقع جنوب غرب جزيرة العرب (موطن شيخ مدين وقرب قرية فرعون «مصر» التي كانت موطن موسى).

ولكن موسى عند خروجه من مكة مساءً ضل الطريق ووصل إلى وادي طوى الذي لا يبعد كثيراً عن الحرم، وقد اختفى الآن تحت العمارات الشاهقة والشوارع[1]. وفي بقعة ما في وادي طوى توقف موسى هو وزوجه للمبيت، عندما رأى النار، وذهب إليها لسؤال من على النار عن الطريق الصحيح وليجلب منها قبساً، وهناك حدث التكليم: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(١٧) النازعات.

وخلاصة الكلام أن قصة الإسراء والمعراج مستحيلة عقلياً وعلمياً، لاستحالة أن يرى أي بشر الله جل وعلا، ولاستحالة أن يكلم أحد الموتى (اجتماع الرسول بالرسل الذين ماتوا قبل مئات وآلاف السنين قبله)، ولاحتواء القصة على خرافات لا تعقل، ولأنها تؤول الآية لغير معناها.

نسف لمعتقد شيعي

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ(٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٣٥) الأنبياء.

الشيعة تظن أن إمامهم الثاني عشر دخل مغارة وهو طفل في العام (٢٥٥ للهجرة) وهو باق فيها إلى الآن، برغم مضي قرابة (١٢٠٠) عام على دخوله المزعوم.

والإنسان لم يجعل الله له الخلد الأبدي ولا حتى الخلود لمثل هذه المدة.

والمؤسف أن من يؤمن بهذه الخرافة لا يسأل نفسه لماذا هو في المغارة وماذا يفعل؟

وإن كان دخلها – جدلاً – وهو طفل، فمن أين سيتعلم ما يظن بعض أتباع المذهب الشيعي أنه سيكون عالماً به عندما يخرج؟

[1] انظر فقرة: وادي طوى / قسم مفردات من القرآن.



وكل المعتقد الشيعي يقوم على هذه الخرافة، ولو وعاها الناس لعادوا لرشدهم وأنقذوا أنفسهم. ولكنهم كغيرهم من المذاهب، أتباع موروث لا يفكرون بموروثهم ولا يقبلون نقده.

الطلاق في كتاب الله / كما فهمته

سورة النساء تتحدث عن تشريعات كثيرة تخص المرأة، اليتيمة والمتزوجة والمطلقة والوارثة والأم وكل الصفات الأخرى التي تكون عليها. وتشرع السورة معاملات جديدة تخالف ما اعتاده الرجل العربي عند تعامله مع المرأة في ذلك العصر.

وتبدأ السورة بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(النساء: ١).

مؤكدة أن الرجل والمرأة خلقهما الله من نفس واحدة، أي بنفس الصفات والمشاعر والقدرات الذهنية. وأن المرأة خلقت من نفس ما خلق منه الرجل (خلق منها زوجها) سواء جسدياً أو ذهنياً، ولا يعني اختلاف الجنس أن الرجل أكثر إنسانية من المرأة كما كان الناس يعتقدون قبل الإسلام.

والرجل نفسه هو نتاج تزاوج بين رجل وامرأة، أو بمعنى آخر هو نصف رجل ونصف امرأة، كما أن المرأة نصف امرأة ونصف رجل، كما أصبحنا نعرف الآن. حيث إن جسم المرأة يحوي هرمونات ذكرية، وجسد الرجل يحوي هرمونات أنثوية. ولو اضطربت النسبة لأي سبب عارض أو نتيجة لمعالجة معينة، وزادت هرمونات المرأة الذكورية فسينبت الشعر في أنحاء جسدها ووجهها كما الرجل، وسيصبح صوتها أجش، وسيضمر ثدياها. بينما لو حدث وزادت الهرمونات الأنثوية لدى الرجل فسيختفي شعر الوجه وفي مناطق من الجسم، وسيرق صوته وسيبدو كالمرأة.

المهم أن السورة تؤكد أنه لا فرق بين الجنسين، مخالفاً بذلك العرف السائد في المجتمع.

والتشريع الثاني في السورة جاء ليقول بأن الفتاة اليتيمة ليست أقل شأناً من أي فتاة أخرى في الإنسانية، ولا أقل من الرجل نفسه وتحرم استغلال ضعف المرأة اليتيمة، والزواج بها



فقط للاستيلاء على مالها: وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(النساء:٢).

والتشريع الثالث الخاص بالمرأة والذي خالف ما اعتاد عليه العرب هو أن التعدد مشروط بالعدل، وأول العدل هو أن توافق الزوجة الأولى على زواج زوجها بغيرها، ولو تزوج دون رضاها أو علمها فهو ظلم يبطل التعدد (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة).

وهناك آية أخرى في السورة تشير إلى أن الوضع الطبيعي هو زوج وزوجة واحدة: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(النساء:٢٠-٢١).

استبدال زوج مكان زوج، ولم تقل الآية الزواج بأخرى.

ومن التشريعات الجديدة المخالفة لعادات العرب في سورة النساء والخاصة بالمرأة أنها ترث مثلها مثل الرجل، وهو شيء لم يكن يعمل به رجال ذلك المجتمع الذي اعتاد أن يرث المرأة نفسها، حيث أن العادة جرت أن يرث الولد زوجة والده بعد وفاته.

يقول تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضا(النساء:٧).

وبعد سرد بعض تفاصيل المواريث تأتي الآيتان (١٣ - ١٤) لتقولا لذلك المجتمع بأن توريث المرأة من حدود الله ومن يتعد حدود الله ولا يعمل بها فله نار جهنم: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ.

وقد جاءت الآية (١٩) لتضع حداً للعادة التي تسمح بأن يرث الابن أو القريب زوجة أبيه أو قريبه من ضمن ما تركه من متاع: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً.

وبقية الآية تحرم عادات أخرى، هي العضل، وهو إجبار المرأة على الزواج بمن لا ترغب. وهذا هام جداً حيث يلغي أن يكون للأب حق تزويج ابنته بمن يريد وبدون رغبتها هي، سواء كانت بكراً أو ثيبا، فالعضل ليس فقط إجبار المرأة على البقاء مع زوج لا ترغبه لكي يضغط عليها لرد ما دفع لها من مهر: وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ.



وتكمل الآية (١٩) بتذكير رجال تلك الحقبة أن الزواج عقد بين الرجل والمرأة يقوم على المعاشرة الحسنة (بالمعروف) وأنه متى ما استحالت العشرة بين الزوجين فالحل هو الطلاق دون إضرار بالمرأة: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

والحديث وإن كان موجهاً للرجل لأنه هو سبب مشاكل المرأة، وهو من سلبها حقها وإنسانيتها، إلا أن الآيات تعطي الحق في التخلص من الزواج للمرأة أيضاً متى ما شعرت بأن العشرة مع زوجها أصبحت مستحيلة، وتلغي أن يكون الطلاق حقاً مطلقاً للرجل دون المرأة كما صورت لنا ذلك كتب التراث، وهذا سيتضح أكثر في الآيات اللاحقة.

ونعود إلى الآيتين التاليتين: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(النساء:٢٠-٢١).

فمتى ما دفع الرجل المهر للمرأة، قل أو كثر، فلا يجوز استرداد بعضه أو كله بعد المعاشرة الزوجية، ولو لم تتم إلا مرة واحدة بين الزوجين، لأن المهر مقابل مادي لقبول الزوجة الزواج بذلك الرجل. ولو كان الصداق مقابل الممارسات الجنسية فهو بغاء وليس زواجاً.

وتعود الآية التالية لتؤكد تحريم تلك العادة القديمة المتمثلة بنكاح زوجة الأب والذي ذكر في الآية (١٩) سواء كان بأن يرث الابن زوجة أبيه من بين المتاع الذي يرثه عنه، أو بزواجه منها برضاها: وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً(النساء:٢٢).

ثم تتحدث السورة عن أن الرجال يفضلون النساء ويتميزون عنهن بصفات، وأن النساء يفضلن الرجال ويتميزن عنهم بصفات أخرى، وأن كل جنس خلق بمواصفات تتناسب مع مهامه في الحياة، ولذلك يجب ألا يتمنى الرجال بعض ما للنساء من صفات ليست عندهم ولا تتمنى النساء بعض الصفات الرجولية التي ليست عندهن، لأن هذه الصفات المختلفة لا تعني تفضيل جنس على آخر من الناحية الإنسانية، أو أن لأي منهما حقاً في الزواج أو الطلاق أكثر من الآخر: وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ



عَلِيما.(النساء:٣٢)

والآية (٣٣) تؤكد ما قالته الآية (٧) من أن النساء أصبحن يرثن كالرجال مبطلة عادة قديمة تمنع النساء أن يرثن، حيث تقول بأن الرجال أو النساء يرثون أقرباءهم (موالي)، ومن التركة يجب أن يعطى أيضاً من له عهد بهبة أو وصية: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً.

والآية (٣٤) تقول: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً. وهي تتحدث عن موضوعين:

الأول يتمثل في قوله تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

حيث تؤكد الآية أن من الصفات التي يتمتع بها الرجال دون النساء، القوامة، وهي القيادة العائلية. ذلك أن التركيبة الجسمانية والمشاعر الرجولية خلقت بصورة أكثر مناسبة للدور القيادي « بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ »

والقيادة لا تختزل بالصرف المادي على العائلة بل وبكل أدوار القيادة التي يقوم بها الرجل ومن ذلك حماية العائلة، وأدوار أخرى تناسب طبيعة الرجل ولا تنقص من قيمة المرأة التي يناسبها أدوار أخرى.

هذه هي القاعدة في المعتاد، ولا عبرة للاستثناءات، كوجود امرأة تفوق زوجها في القيادة مثلا.

ولن أتعرض لبقية الآية لأن الحديث عنها مختلف وسبق الحديث عنه.

والآية رقم (٣٥) تقول: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً.

أي أنه في حال ووجد خلاف بين الزوج والزوجة يُعَرِّضُ استمرار الزواج للخطر، فأول ما يجب القيام به هو تحكيم الآخرين في محاولة لرأب الصدع والخروج بحل للمشكلة القائمة وتوقيع معاهدة تمنع وقوع مشاحنات في المستقبل حفاظاً على تماسك رابط الزواج.



والشحناء بين الزوجين تكون بسبب تعنت أو نشوز الزوجة وتكون بسبب تعنت أو نشوز الزوج. فالزوجة قد تعرض عن الزوج وقد يعرض الزوج عن الزوجة، وهذا ما تقوله لنا نفس السورة في هذه الآية وفي الآية رقم (١٢٨): وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

ويكون أول ما نقوم به هو محاولة الصلح كما ذكرت الآية (٣٥)، ولكن إن كان الشقاق بين الزوجين كبيراً فقد يكون الطلاق أفضل من استمرار الزواج مع تكرر المشاحنات، وهو ما تقول به الآية (١٣٠): وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً.

كيف يقع الطلاق في القرآن؟

في الأسطر السابقة تحدثنا عن الشحناء بين الزوجين، وذكرنا أن الرجل قد ينشر عن الزوجة كما تنشز الزوجة عن الرجل. وفي هذه الحالة يلجأ إلى لجنة من أهل الطرفين يحاولون راب الصدع. ولو كانت المشكلة كبيرة فالحل هو الطلاق.

ولا يقع الطلاق بمجرد تفوه الرجل بكلمة أو كلمات تعني الطلاق، كقوله لزوجته أنت طالق ولو كررها مائة مرة. فليس في القرآن ما يؤيد ذلك على الإطلاق. ولكن الطلاق في القرآن يمر بعدة إجراءات طويلة إذا استكملت حدث الطلاق.

ولو أردنا تطبيق الطلاق القرآني في هذا العصر فسيمر بالإجراءات التالية:

١. وجود رغبة للطلاق عند أحد الزوجين، بسبب خلافات بينهما، أو لكراهية أحد الزوجين للآخر لدرجة أصبح لا يستطيع الاستمرار في الحياة الزوجية، سواء كان نشوزاً من الزوج أو من الزوجة كما رأينا في الأسطر السابقة.

٢. فلا يجوز إبقاء الزوجة مع زوج لا ترغب في البقاء معه، مثلما لا يجبر الزوج على البقاء مع زوجة لا يرغب البقاء معها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(النساء:١٩).

والآية تقول: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً. وهذا لا يعني فقط ما قاله المفسرون من



أن المرأة كانت تورث كمتاع في الجاهلية فقط، بل ويشمل أيضاً تحريم أن تكره الزوجة على البقاء مع زوج لا ترغب البقاء معه. مثلما أن للزوج أن يترك زوجته التي يكره البقاء معها: فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيرا. وهذا يعني أن الطلاق حق مشاع للرجل والمرأة على حد سواء، دون أن يكون هناك أسباب معلنة. ومخاطبة الآيات للرجل لا تعني أن حق الطلاق له وحده، ولكن الآيات نزلت في مجتمع رجالي، كان لا يعتبر المرأة أكثر من وعاء للشهوة وإنجاب الأولاد. وإلا فيحرم على المرأة كل ما يحرم على الرجل في كل الآيات التي خاطبت الرجل في القرآن، لأنها تقصد الرجل والمرأة على حد سواء، إذ ليس هناك نواهياً على الرجل فقط ونواهياً على المرأة فقط.

٣. إذا رغب أحد الزوجين في الطلاق، فيجب أن تسجل تلك الرغبة رسمياً عند جهة مختصة بذلك، ولتكن دائرة الأحوال الشخصية في دولة الإسلام. ولا اعتبار لتلفظ الرجل بألفاظ الطلاق، لأنها لا تعتبر طلاقاً، فليس في القرآن ما يدل على أنها طلاق على الإطلاق، وإنما هي تدخل تحت رغبة إمضاء الطلاق وعليه أن يكمل الإجراءات اللاحقة ليتم الطلاق.

٤. يتبع هذه الخطوة، قيام دائرة الأحوال الشخصية بتحديد موعد للزوجين، للحضور أمام لجنة الصلح المختصة في محاولة لرأب الصدع وتذليل المشاكل الموجودة بينهما: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً. (النساء:٣٥) ويمكن أن تكون لجنة الصلح من أهل الاختصاص وليس بالضرورة من الأقارب: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.(النساء:١٢٨)

٥. يحق لأي من الزوجين فرض شروط يختارها للعودة لعش الزوجية وإلزام الطرف الثاني بالتقيد بها: ..... وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ(النساء:٢٢٨).

٦. إذا لم تتمكن جهود اللجنة، من حل النزاع، وكان الخلاف مستحكماً وفشلت جهود الصلح، فيمضى الطلاق لأنه في هذه الحالة سيكون الحل الأمثل لكليهما حتى يبحث



كل واحد منهما عن زوج أكثر مناسبة له وليعيشا حياة أفضل مع زواج جديد: وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً(النساء:١٣٠).

٧. عند هذه المرحلة تقوم دائرة الأحوال الشخصية بتسجيل رغبة الطلاق، وتبدأ عدة التربص منذ ذلك اليوم الذي سجلت فيه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ.....(الطلاق:١).

٨. مدة التربص ذكرت في الموضوع الذي نشر بالتفصيل.

٩. خلال مدة التربص تبقى الزوجة في بيت الزوجية وتتمتع بكامل حقوقها الزوجية ونفقتها، ولا يجوز أن تخرج من البيت، أو تحرم من أي من حقوقها أو نفقتها المعتادة: .... وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا(الطلاق:١).

١٠. إذا ما قرر الزوجان التراجع عن رغبة الطلاق خلال مدة التربص فلهما ذلك، ويتم توثيقه لدى دائرة الأحوال الشخصية. ويكون بشروط الزواج القديمة أو بشروط جديدة يتفقان عليها: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ..... (البقرة:٢٢٩).

١١. إذا انتهت مدة التربص ولم يتراجع الزوجان عن رغبة الطلاق، فيتم الطلاق: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا(الطلاق:٢). والشهادة هنا تعني بلغة العصر تسجيل أن الطلاق قد حدث للمرة الأولى في ملفي الزوجين لدى دائرة الأحوال الشخصية.

١٢. الطلاق في الإسلام يأتي كحل أخير لمشاكل قائمة بين الزوجين أو لوقف معاناة أحدهما، ولذلك يجب أن يتم بروح أخوية وبشكل إنساني لا ضرر منه ولا ضرار: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللهَ



وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(البقرة:٢٣١).

١٣. كما لا يجوز أن يسترد الزوج بعض أو كل المهر الذي دفعه للزوجة، لأن المهر كان مقابل رضاها بالزواج منه: .... وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً.

١٤. لكن إذا تبرعت الزوجة من تلقاء نفسها وعرضت على الزوج استرداد بعض المهر ليطلقها بسلام ودون انتظار مدة التربص فله الحق بالقبول، ليبقيا احترام حدود الله وعدم تجاوزها بالإضرار ببعض: ... إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهَّ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهَّ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهَّ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(البقرة:٢٢٩).

١٥. وهذا العرض ليس مفروضاً على الزوجة التي يمكنها التقدم لدائرة الأحوال الشخصية برغبة الطلاق والاستمرار بالإجراءات مثلها مثل الرجل وستحصل في النهاية على الطلاق رغب الزوج أو لم يرغب.

١٦. في حالة وقوع الطلاق قبل الدخول فللزوج الحق باسترجاع نصف المهر أو بعضه إن رغب، ولو تركه لكان أفضل. خاصة إذا كان الطلاق برغبة الزوج: وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(البقرة:٢٣٧).

١٧. إذا تم الطلاق قبل الدخول فلا عدة تربص له: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(الأحزاب:٤٩).

١٨. بعد الطلاق، للزوجة الحق بالزواج بمن ترغب من الرجال.

١٩. يحق للزوجين العودة للحياة الزوجية قبل انتهاء مدة التربص بنفس شروط الزواج الأولى أو بشروط جديدة، ويحق لهما العودة للحياة الزوجية بعد انتهاء مدة التربص وبعقد زواج جديد.

٢٠. إذا تكررت بينهما الرغبة بالطلاق بسبب تجدد المشاكل أو تجدد رغبة أحد الزوجين بالطلاق، فعليهما تسجيل رغبتهما لدى دائرة الأحوال الشخصية كما حدث في المرة



الأولى، ويمران بنفس الخطوات، من الاحتكام أولاً للجنة الصلح، ثم تسجيل رغبة الطلاق وابتداء فترة التربص، وبقاء الزوجة في البيت وتمتعها بكامل حقوقها ونفقتها خلال فترة التربص.

٢١. يحق للزوجين التراجع وللمرة الأخيرة أثناء فترة التربص للطلاق الثاني، بالشروط القديمة أو بشروط جديدة.

٢٢. إذا انتهت مدة التربص للطلاق الثاني قبل أن يتراجع الزوجان فيعتبر الطلاق بائناً (ماضياً) وتخرج الزوجة من بيت الزوجية وتتوقف نفقتها الزوجية، وتصبح امرأة أجنبية بالنسبة للزوج.

٢٣. لا يجوز للزوجين العودة للحياة الزوجية، بعد انتهاء فترة التربص للطلاق الثاني، إلا في حال أن الزوجة تزوجت برجل آخر وعاشت معه حياة زوجية جديدة، فإن نشأ بينهما خلافات أو كراهية استحال معها استمرار الزواج بينهما، وخضعا لنفس مراحل الطلاق السالفة الذكر وانتهى بهما المطاف للطلاق الثاني (البائن)، عندها فقط يجوز للزوج السابق التقدم لخطبة الزوجة، فإن رغبته فيجوز لها الزواج به مثله مثل أي رجل آخر تقدم لخطبتها. وليس هناك في الإسلام ما عرفه المسلمون بالمحلل: فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(البقرة: ٢٣٠).

٢٤. لو تقدم الزوج السابق يفضل أن تختاره الزوجة على أي رجل آخر، وذلك لمصلحة الأولاد، ولما بينهما من حياة مشتركة سابقاً: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(البقرة: ٢٣٢).

٢٥. الطلاق في الإسلام حل لمواقف شائكة بين الزوجين، وليس للتشفي أو الإضرار بأحد الزوجين، ولذلك يجب أن يتم بتسامح وإحسان: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ......(البقرة: ٢٣١).

٢٦. يجب حماية الزوجين من الضرر، وبما أن الزوجة عادة ما تكون المتضررة، فيجب



حمايتها من أن يقع عليها أي ضرر بسبب الطلاق. فلا تمنع من نفقة ولا تضار بأي طريقة، ويتم ذلك باستصدار القوانين الكفيلة بمنع تعسف الرجل: .... أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(البقرة:٢٣١).

٢٧. تكون عدة التربص ليس للتأكد من خلو رحم المرأة من الحمل، كما يظن رجال دين، ولكنها عدة تربص وانتظار ومراجعة للنفس لكلا الزوجين، لأن الآية الرابعة من سورة الطلاق تبين أن الطلاق يمكن أن يحدث للحامل، يقول تعالى: وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا(الطلاق:٤).

٢٨. يقع الطلاق إذا اقترف أحد الزوجين الفاحشة، أو تلاعنا، بدون أن يكون هناك حاجة للجنة المصالحة، أو فترة تربص.

ونختم موضوعنا بالقول بأن مفهوم الزواج في الإسلام هو اتفاق رجل وامرأة على أن يشتركا في تكوين حياة زوجية بينهما، لبناء أسرة وتربية أطفال، وبشروط يشترطانها ويجب عليهما الوفاء بها وإلا تعرضا لعقوبات جزائية.

أما زواج المسيار وزواج الصيف وكل أنواع الزيجات التي انتشرت حديثاً، فهي في ظاهرها مغلفة بتبريرات تقربها من مظهر الزواج الشرعي، وباطنها تحايل لجعل المتعة الجنسية المحرمة (الزنى) تبدو وكأنها علاقة شرعية. وهذه (الزيجات) يجب أن تستكمل ضوابط وشروط الزواج الشرعي، لتكون زواجاً شرعياً، ومن ذلك: الإعلان والتوثيق لدى الجهة الرسمية بتوثيق الزواجات، وليس توثيقاً صورياً، يتم في الشقق المفروشة في بعض البلاد العربية والإسلامية.

والتوثيق لا يجب أن يتم إذا ثبت أن للزوج زوجة ثانية، ما لم يسجل توثيق رضى الزوجة وهي بكامل أهليتها العقلية بأن يتزوج زوجها زوجة أخرى، لأن هذا يدخل ضمن العدل مع الزوجة وعدم ظلمها، ومن الظلم أن يخدعها الزوج بالتستر على زواجه الثاني أو بالزواج بامرأة ثانية بدون رضى الزوجة الأولى وما سيسببه لها من ألم نفسي وجرح للكبرياء



ومشاكل نفسية تعلمها جيداً نساء بلاد الحرمين أكثر من غيرهن من نساء العالم. وإذا لم ترغب الزوجة في زواج زوجها فله الخيار بتطليقها والزواج بالفتاة الأخرى، أو الإبقاء على زوجته والتراجع عن الشروع بزواجه الجديد.

وكل ما شرعه رجال دين بخلاف ذلك فهو مجرد تبريرات من عند أنفسهم لتعدد الزواج وتسهيل الطلاق، وذلك لكي يتمتعوا جنسياً بالتنقل بين نساء مختلفات، ولم ينزل به الله من سلطان.

وكل زواج لا يستكمل ضوابط الشرع فهو فحش وزنا، وكل زواج يعمل على تحويل الزواج لما يشبه الزنا فهو كذلك ولو أطلق عليه لقب شرعي. ومن يراقب تلك الزيجات ذات المسميات المتعددة، فسيجد أن المرأة الواحدة تشارك العديد من الرجال المختلفين الفراش خلال أشهر قليلة، وأنها هي نفسها تعلم ذلك وتسعى إليه، ليس من أجل تكوين أسرة وبناء عائلة كما هو الهدف الأساسي من الزواج الإسلامي الذي يقوم على الرحمة والمودة: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.(الروم:٢١) ولكن الهدف المبطن هو إمتاع أولئك الرجال الذين يدفعون لها مقابل ذلك مادياً. بينما يعلم الرجل بأنه يشارك المرأة في الفراش لمدة محددة وقصيرة قبل أن ينتقل لمرأة أخرى وهكذا، وهو يعلم أن الدافع هو إشباع رغباته الجنسية مع أكبر عدد من النساء المختلفات في أقل وقت ممكن، مع التبرير لنفسه بأنه يقوم بذلك تحت مسمى وغطاء ديني، حتى يبعد عن نفسه أي وساوس من أن ما يقوم به قد لا يكون جائزاً شرعاً، حتى لا يؤرقه ضميره فيما لو صحا ولو للحظة في يوم من الأيام.

وقد وجد هؤلاء العون من عدة جهات، فهناك سماسرة الجنس الذين لا يهتمون كثيراً بالتجاوزات الدينية وكل ما يهمهم كسب المال عن طريق تلك الدعارة الحلال، كما سماها عبد الله كمال في كتابه الدعارة الحلال، وشيلا حائري الكاتبة الإيرانية في كتابها المسمى المتعة. وهناك الحظ العاثر لفتيات معدمات مادياً الذي أوقعهن في تلك الطريق الشائكة وهن يعلمن أن ما يقمن به ما هو إلا فاحشة محرمة. كما ساعد أولئك الرجال في متعتهم ما وجدوه من تشريعات (فتاوى) رجال دين قديماً وحديثاً، ولا غرابة في تزاحم الفتاوى المحللة لتلك الزيجات لأن رجال دين أنفسهم هم أول من استفاد من ذلك.

فابن جريج (٨٠ — ١٥٠ للهجرة) كان ممن يرى إباحة زواج المتعة لأنه تزوج بتسعين امرأة



زواج متعة، كما نقل الذهبي في ترجمته للمذكور في كتابه سير أعلام النبلاء ما يلي: وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سمعتُ الشافعي يقول: استمتع ابن جُريج بتسعين امرأة، حتى إنه كان يحتقن في الليل بأوقية شيرج طلباً للجماع. إنتهى

وهناك رجال دين يجيزون زواج المسيار الحالي، وهناك رجال دين يجيزون التعدد بلا شروط لأنهم يمارسونه، وهؤلاء هم من يقول بأن الطلاق ملك خاص بالرجل يتم بمجرد نطقه بلفظ يدل على الطلاق ولا يسأل عن السبب ولا حاجة لتسجيل ذلك في المحكمة أو في أي جهة رسمية.

والجميع يعلم أن كثيراً من رجال الدين هم من يحرص على التعدد وتسهيل الطلاق والتزوج من جديد بجانب المسيار والمسبار وهذه المسميات التي اختلقوا للتحايل.

أما الزواج الشرعي فيقوم أساساً لتكوين أسرة وتربية أطفال وليس فقط للمتعة الجنسية، ولذلك فليس للزوج الحق بالتعدد إذا لم ترغب الزوجة بذلك لأنه إضرار بها وخلاف للعدل معها، ويؤدي للعول، وهو سوء تربية الأطفال: .... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا(النساء:٣)

ولكن يمكن للرجل والمرأة أن يتزوجا بشروط يشترطانها، ويجب احترامها، وتوقيع الشروط الجزائية على من يخالفها من الزوجين، ومن هذه الشروط، عدم ممانعة الزوجة بأن يتزوج عليها زوجها متى شاء أو بعدد محدد من النساء غيرها، فإن قبلت فله ذلك. كما يمكن للزوجة اشتراط عدم زواج زوجها بغيرها وإن فعل فلها الحق بعقوبات جزائية أو الطلاق أو بهما معاً.

وللزوجين اشتراط عدم الإنجاب، لمدة معينة أو على الدوام، كما يمكن للزوجين اشتراط إنجاب عدد محدد من الأولاد، أو أي شروط أخرى يريانها ويقرآنها عند عقد الزواج أو عند نشوب خلافات بينهما بعد الزواج.

لكن أن يتمتع الزوج بمتع جنسية بخفية وبخلاف موافقة الزوجة فهذا ليس بزواج، كما أن عدم تسجيل وتوثيق الزواج يجلب الضرر ليس لأنه يصعب تحديد عدد الزوجات ونسب الأولاد وغير ذلك الكثير من المشاكل فقط، بل لأنه تدليس وإخفاء للحقيقة وهذا لا يقره الإسلام.



وعليه ففي لغة العصر يجب أن يكون تسجيل الزواج وتسجيل الشروط التي اتفق عليها الزوجان والعقوبات الجزائية، وتسجيل الطلاق، حقاً مشروعاً للزوجين يجب أن تضمنه دولة الإسلام بموجب قوانين مكتوبة وثابتة.

عدد الطلقات وعدة الطلاق بين القرآن وكتب التراث

فقه كتب التراث يقول: هناك طلاق شرعي وطلاق بدعي.

الشرعي

هو أن يطلق الزوج زوجته طلقة واحدة في طهرٍ (غير حائض)، لم يمسسها فيه.

البدعي

هو أن يطلق الرجل امرأته ثلاثًا بكلمة واحدة، كأن يقول: أنت طالق، طالق، طالق. أو يطلقها في حيض أو نفاس أو في طهر جامعها فيه.
(وتصف كتب التراث هذا النوع بأنه محرم ولكنه يقع)
السؤال هنا: كيف يقع شيء محرم ويقبل في الدين؟

عدد الطلقات في فقه كتب التراث

ثلاث طلقات، وفي كل مرة يكون هناك طلاق يتبعها عدة للطلاق. مما يعني أن :

عدة الطلاق تتكرر ثلاث مرات بعدد تكرار الطلقات.

في القرآن الأمر مختلف

الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩) البقرة.

عدد الطلقات اثنتان

وهذا يعني أن هناك عدتين فقط.

حيث إن هناك عدة طلاق تلي الطلاق الأول، ويعود أثناءها الزوجان للحياة الزوجية.



ثم تكون مشاكل ويكون هناك خيار الطلاق للمرة الثانية ويكون هناك عدة مرة أخرى.

وإذا لم يتراجعا عن الطلاق خلالها انتهى الزواج.

وإن تراجعا وبعد فترة تجددت المشاكل واختارا الطلاق للمرة الثالثة فيقع الطلاق بلا عدة.

فعدة الطلاق تكون لإعطاء فرصة للزوجين للتراجع والعودة للحياة الزوجية.

ويفهم من هذا ما يلي:

العدة ليست لكي يتم التأكد أن هناك حملاً، وليس لها علاقة بحدوث الحمل من عدمه.

كما أن القرآن يحرم أن تخرج أو تُخرج المرأة من بيت الزوجية أثناء عدة الطلاق: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا(١) الطلاق.

بينما في فقه كتب التراث الرجل يطلق المرأة دون علمها ويخرجها من البيت قبل انقضاء عدة الطلاق دون أن يكترث لتجاوز حدود الله والتعدي عليها برغم تحذيره سبحانه.

عدة المطلقة في فقه كتب التراث البشري

من تناقضات كتب التراث قولهم: الحامل طلاقها حرام، لكن لو طلقها زوجها فالطلاق يقع. فكيف يكون حراماً ويقع؟

وعدتها وضع الحمل.

- المطلقة غير الحامل هناك نوعان من العدة حسب وضع المرأة من حيث إمكانية حيضها من عدمه:

الأول: إذا طلقت المرأة وكانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاثة قروء.

والمقصود بذوات الحيض، من بلغت سن الحيض، وليس من هي حائض عندما وقع الطلاق.

الثاني: إذا كانت المرأة من غير ذوات الحيض، كالصغيرة التي لم تبلغ أو الكبيرة التي لا تحيض حيث بلغت سن اليأس، فعدتها ثلاثة أشهر.

فالعدة إما ثلاثة قروء (حيضات) أو ثلاثة أشهر، يعني نفس المدة، بمسميين مختلفين.



والتصنيف تم بناءً على إمكانية الحيض من عدمه وليس على حالة المرأة عند الطلاق.
وسنعود للحديث عن الصغيرة فيما بعد.

في القرآن

الطلاق يقع بناءً على إجراءات عملية وليس بمجرد تلفظ الرجل بلفظ «طالق»، ويخلو القرآن تماماً من ذكر هذا اللفظ.

ويقع في أي وقت بغض النظر عن وضع المرأة من حيث الطهر أو الحمل، ولا عبرة لوقوع الجماع أو عدمه. وليس هناك طلاق شرعي وطلاق بدعي.

والعدة في القرآن تختلف باختلاف حالة المرأة عند الطلاق وليس على إمكانية حيضها من عدمه (كما في كتب التراث) وذلك كما يلي:

أولا: جاء في سورة البقرة ثلاثة قروء للمطلقة بإجمال دون تفصيل: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ(٢٢٨) البقرة.

ثم نزلت فيما بعد سورة الطلاق التي تتحدث بتفاصيل أكثر، ومما ورد فيها:

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً(٤).

وفي هذه الآية ثلاثة أنواع للعدة حسب حالة المرأة، وهي:

الحالة الأولى: اللائي يئسن من المحيض: ثلاثة أشهر.

واللائي يئسن من المحيض من تقدمن في السن وبلغن سن اليأس.

الحالة الثانية: اللائي لم يحضن: ثلاثة أشهر.

وهن من لم يكن في فترة الحيض عندما وقع الطلاق.

الحالة الثالثة: الحامل، وعدتها وضعها للحمل.

وهذه الأنواع تضاف للعدة المذكورة في البقرة، وهي:

الحالة الرابعة: التي يتم طلاقها وهي في الحيض، وعدتها: ثلاثة قروء.



ويكون هناك أربع أنواع من العدة في القرآن وليس نوعان كما يقول الفقه البشري في كتب التراث.

ونعود لقوله: واللائي لم يحضن

فقه كتب التراث اعتبرها الصغيرة (الطفلة التي لم تبلغ) وهذا تأويل قبيح.

فالطفل الصغيرة في الإسلام لا يجوز أن تتزوج، لأن الزواج لا يكون إلا بعد سن البلوغ: وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً(٦) النساء.

وبلوغ النكاح يعني تجاوز سن الطفولة إلى سن البلوغ واكتمال نمو الأعضاء التناسلية.

ويكون معنى قوله تعالى: « واللائي لم يحضن» اللائي لسن في فترة المحيض، أي من تطلق في طهرها.

ويكون هناك أربع أنواع من العدة للمطلقة - حسب حالة المرأة عند الطلاق - بينها القرآن بوضوح.

الخلع

الخلع كلفظ ليس موجوداً في القرآن. وما هو إلا اصطلاح فقهي (وضعه رجال الدين). ويعني أن تدفع المرأة تعويضاً مالياً لزوجها على أن يطلقها ويُخلي سبيلها إذا كرهته لأي سبب. في المقابل يعطون الرجل كامل الحق في طلاق زوجته متى شاء دون أدنى تبعية ودون أن يدفع تعويضاً للمطلقة. (هذا التناقض يظهر أنه ليس من دين الله الذي لا يفرق بين رجل وامرأة في التعامل).

ويستندون في هذا التشريع على جزء من الآية: (٢٢٩) من سورة البقرة وهو (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) ويقول بعضهم إن للزوج الحق في طلب أكثر مما دفع لكي يوافق على الطلاق. كما يقولون إن "الخلع" يتم فقط لو حكم به القاضي. لكن لو أن القاضي لم يحكم به فلا تحصل المرأة على الطلاق مما وقع عليها من ظلم. وكأنها لا تملك من أمرها شيئاً.



فهل دليلهم على ما سموه بالخلع صحيح، بحيث لا يمكن للزوجة الحصول على الطلاق إلا بهذه الطريقة؟

أم أن للزوجة الحق بالحصول على الطلاق مثلها مثل الزوج؟

لنبدأ بالسياق في سورة البقرة الذي جاءت ضمنه الآية التي يستدلون بجزئها. والآيات تخاطب المسلمين زمن رسول الله وفي المدينة، فتحظر عادات كانت متبعة وتبيح أخرى وتشرع ضوابط جديدة.

وتبدأ الآيات بتحديد الإيلاء بأربعة أشهر كحد أقصى. والإيلاء هو حلف الزوج أن يهجر زوجته وكانت تتم بلا حد أقصى. فشرع القرآن أربعة أشهر كحد أقصى، ومن ثم الطلاق أو العودة للحياة الزوجية العادية، في الآيتين: (٢٢٦-٢٢٧).

الآية: (٢٢٨) تتحدث عن مدة التربص للمطلقة.

والآية: (٢٢٩) هي التي يستشهد بجزء منها من يقول بالخلع، وتقول: الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

تبدأ الآية بتحريم استرداد أي شيء من الصداق المقدم للمرأة في حال الطلاق: « وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً" وهذه هي القاعدة والأصل.

لكن لو خافا ألا يقيما حدود الله، ففي هذه الحالة للزوجة الحق في التنازل عن بعض ما دفع الزوج للحصول على الطلاق.

والآيتان (٢٣٦-٢٣٧) تقول: لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ(٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٧). فلو قدم الزوج مهراً «فريضة» ثم طلق المرأة قبل أن يدخل بها، فله حق استرجاع نصف المهر «الفريضة». أي من حق الزوجة شرعاً وبقانون إلهي الاحتفاظ بنصف المهر «الفريضة» وإعادة النصف الثاني. وليس للرجل الحق



في استرجاع نصف المرأة. لكن لو أن المرأة أرجعت له كل ما دفع عن طيب خاطر فهو حلال عليه. فكيف يستقيم هذا مع قولهم إن المرأة إذا ما رغبت الطلاق (بعد زواجها بمدة ودخول الزوج بها) فعليها أن تدفع للزوج كل ما دفع بل وقد يزيد عما دفع؟

ونقارن هذا أيضاً بآيات من سورة النساء التي نزلت بعد البقرة: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(٢١) النساء.

تقول الآيتان إن الزوج لو طلق المرأة فلا يجوز له أن يأخذ شيئاً مما سبق ودفعه لها كمهر حتى ولو بلغ قنطار (القنطار = ألف ألف ألف ثلاث مرات، كما يقول ابن خلدون. أي مليار بلغة العصر).

ولو قال رجال الدين نعم لا يجوز للزوج أن يسترد مهره لو طلق هو، لكن لو أن المرأة طلبت الطلاق فهذا يختلف وبالتالي فله حق استرداد المهر كله أو يزيد.

نقول لهم الآية (٢١) من سورة النساء التي نزلت بعد البقرة، تقول متى ما دفع الرجل المهر للمرأة، قل أو كثر، فلا يجوز استرداد بعضه أو كله بعد أن (يفضي الزوج للزوجة)، لأن المهر مقابل مادي لقبول الزوجة الزواج بذلك الرجل.

إضافة لذلك هناك آية في سورة النساء تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(١٩) النساء.

الآية تقول للرجال: لا يجوز إكراه المرأة على البقاء في عصمة الرجل وهي كارهه فقط لكي يجبرها على أن تدفع له (بعض ما آتيتموهن) وليس كله أو أكثر منه (كما تقول كتب التراث).

والعضل من الزوج للزوجة هو منعها من الحصول على الطلاق لكي يبتزها.

فكيف تقول هذه الآيات إنه لا يجوز عضل المرأة لابتزازها وهي قد نزلت بعد آيات سورة البقرة، ويكون على المرأة أن تعيد للرجل مهره وقد أفضى إليها وأفضت إليه سنوات أو أشهراً أو حتى يوماً واحداً؟

والآن: هل يقع الطلاق بمجرد قول الرجل للمرأة أنت طالق؟

الفقه (تشريع رجال الدين) يقول نعم. لأن الطلاق في الفقه (وليس في القرآن) هو ملك



للزوج وحده، ويتم بعباراته وإرادته المنفردة يحدثه بلا سبب، فيقطع النكاح، ولا يسأل الزوج عن أسباب إقدامه على الطلاق.

القرآن لا يقول إن الطلاق يقع بكلمة طلاق تصدر من الزوج أبداً.

القرآن يضع ضوابط للطلاق ليس منها التلفظ بكلمة «طالق» على الإطلاق.

القرآن يقول إن الطلاق بين الزوجين يقع بعد استكمال مراحله بانتهاء مدة التربص، وليس بمجرد تلفظ الرجل بكلمة طالق. وقد وردت هذه التفاصيل في كتاب: سنة الأولين.

كما أن القرآن يقرر حق الطلاق للزوجة كما للزوج: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً(١٣٠) النساء.

فالآيات تقول إنه لو كان هناك نشوز وتنافر ورغبت الزوجة الطلاق فأول خطوة هي محاولة الصلح فإن لم ينجح الصلح فليتفرقا (الطلاق). ويتبع ذلك بالتأكيد مدة التربص ومتى انتهت فالطلاق يقع.

والنشوز يكون من الرجل للمرأة كما في هذه الآيات، ومن المرأة للرجل كما في آيات أخرى.

والنشوز لا يعني عدم الرغبة في الجماع (كما يقول المفسرون ورجال دين) ولكن يعني التنافر ولو بدون سبب ظاهر.

والآن ما المقصود بقوله تعالى: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ».

ولو عدنا لسورة الممتحنة التي نزلت في بداية الهجرة وقبل نزول سورتي البقرة والنساء، فسنجد أن السورة تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ



أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(١١).

والآيات تتحدث عن قدوم نساء من قريش مهاجرات، وتفرض تشريعاً مفاده: أن من لها زوج مشرك فتطلق منه ويعطى المال الذي قدمه لها كصداق. ومن من المسلمين له زوجة مشركة فيطلقها ويطالب بصداقه الذي سبق وقدمه لها، فإن لم يرجعه له الكفار يعوض عنه من بيت المال.

ويستفاد من هذا أن الطلاق لو كان بسبب كفر أو إلحاد الزوجة أو استمرارها على كبيرة فللزوج الحق باسترداد الصداق لأن الطلاق لم يكن بسبب خطأ منه أو سوء خلق ولكن بسبب معتقد الزوجة الفاسد.

وبناءً على هذا يمكن فهم قوله تعالى: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ". فكل من طلبت الطلاق من زوجها بسبب معتقده الفاسد، فله الحق بالمطالبة بصداقه أو بعضه، لكن لا يحكم له بأكثر من ذلك. ولو لم تملك الزوجة قيمة الصداق فيتم تعويض الزوج من بيت المال، قياساً على ما تقول سورة الممتحنة.

أما لو طلبت الزوجة الطلاق لأن زوجها سيء الخلق معها ولكنه مقيم لحدود الله، أو أنها كرهته بدون سبب ظاهر فلا تجبر بالبقاء معه (لأنه نوع من العضل) ولا يحق له استرداد شيء من صداقه: " وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً".

الحجاب

ورد لفظ «حجاب» في القرآن سبع مرات في سبع سور، بمعنيين مختلفين.

١. الاختفاء عن الأنظار

وجاء هذا المعنى في سورة «ص» ضمن سياق يتحدث عن سليمان وتعلقه بالخيل: وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ(٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ(٣٣).

فالآية تقول بأسلوب قرآني إن الخيل توارت وحُجبت عن ناظر سليمان، لأنها ابتعدت عنه ولم يعد يراها. ولا تتحدث الآية عن الحجاب بمعنى الحاجز والعازل.



وبنفس المعنى جاء الحجاب في سورة مريم، ضمن الحديث عن قصة الحمل بعيسى وولادته: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧).

فمريم خرجت من البلدة للخلاء، ولما توارت عن الأنظار ظهر لها الروح الذي تمثل (تشكل) على هيئة رجل بشر.

٢. الجدار العازل

وتقول سورة فصلت: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥).

والسياق هنا يظهر أن المخاطب هم قريش الذين أعلنوا رفضهم لدعوة الرسول ولن يتراجعوا عن موقفهم. والآية الخامسة تصف موقفهم الرافض وصفاً مجازيا، مصورة إعراضهم وكأنهم لا يسمعون الرسول وهو يتلو القرآن عليهم لأن في آذانهم صمماً، وكأن بينهم وبين الرسول جداراً عازلاً «حجاب».

وبنفس المعنى ورد الحجاب في سورة الأعراف: وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ(٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ.... (٤٦).

والتصوير هنا مجازي وكأن أهل الجنة يتخاطبون مع أهل النار، وتقول الآية: (٤٦) إن بين أهل الجنة وأهل النار «حجاباً» يفصل بينهما.

فحجاب هنا تعني حاجزاً وساتراً.

وقريب من هذا المعنى ما ورد في سورة الشورى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(٥١).

وكما هو واضح فالآية تقول إن الوحي لا يكون مشافهة ولكن وحي (كالإلهام)، أو من وراء حجاب (أي سماع صوت دون رؤية الملقن كما هو الحال مع موسى). أو يرسل رسولاً



فيوحي بإذن الله ما يشاء الله للرسول من البشر (كما هو الحال مع محمد حيث يحفر في ذاكرته).

فالحجاب هنا عازل يمنع اللقاء المباشر وجهاً لوجه.

وبنفس معنى الحجاب ما ورد في سورة بني إسرائيل: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦).

فالآيات تصور موقف قريش الرافض للدعوة تصويراً مجازياً، وكأن بينهم وبين الرسول جداراً عازلاً لا يسمعون ما يقول من ورائه.

ويكون الحجاب حسبما سبق من آيات هو جدار عازل يمنع الرؤية والتواصل المباشر، وهو مستقل بذاته يفصل بين أشياء أو أشخاص. وليس الجدار جزء من الأشخاص أو الأشياء التي يفصل بينها.

السورة السابعة هي سورة الأحزاب المدنية التي نزلت على رسول الله بعد حملة الأحزاب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً(٥٣).

والحجاب في الآية هو بنفس معنى الحجاب في الآيات السابقة، والذي يعني الجدار العازل. لأن المطلوب هو ألا يدخل الرجال حجرات أزواج النبي ولكن يتحدثون معهن وهم خارج الحجرة (المنزل) وبينهما جدار الحجرة.

وسورة الأحزاب تتحدث عن حدث وقع في المدينة أثناء غياب الرسول والمسلمين لحفر الخندق وعندما استأذنت مجموعة من المنافقين الرسول وعادوا للمدينة واستغلوا خلو البلدة من الرجال فلاحقوا النساء وكانوا يدخلون عليهن بيوتهن بحجج واهية وبلا استئذان لعلهم يغنمون نظرة محرمة أو حتى ممارسة الفاحشة معهن.

وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل في قسم الأحداث. وسورة الأحزاب وبعدها سورة النور



وضعت ضوابط وسنت إجراءات صارمة للقضاء على تلك الظاهرة التي أحدثها الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، ومن ذلك:

- **عدم دخول بيوت النبي (حجرات أزواجه) إلا بدعوة**

مما يعني أن رجال المسلمين اعتادوا الدخول لحجرات نساء الرسول بلا استئذان ولا دعوة، طوال السنوات الماضية. لكن بعد الأحداث التي قام بها من في قلوبهم مرض سن هذا القانون الاحترازي الطارئ: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ".

كما أن بعض الرجال كانوا يدخلون حجرات نساء النبي طلباً للطعام، فالآن – وبعدما حدث في المدينة – يمنع الدخول. وعلى طالب المتاع أن يطلبه وهو خارج الحجرة، لتكون جدران الحجرة بينه وبين زوجة الرسول وهو يسألها حاجته.

وبينت الآية سبب سن هذا القانون: "ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ".

حتى لا يكون هناك أي مجال للشك والريبة في سبب الدخول عليهن ممن يتحين الفرص لتسجيل أي هفوة على الرسول ونسائه ليستغلها ضد دعوته.

وأضافت الآية قانوناً آخر له علاقة، هو: "وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً".

تحريم الزواج بنساء الرسول بعد وفاته أو حتى مطلقاته. وهذا القانون يقطع الطريق على كل من في نفسه هوى بإحداهن. فحتى لو طلقها الرسول أو توفي عنها فلا يحل له أن يتزوجها. لأن نساء الرسول بمقام الأم للمسلمين كما تقول آية أخرى في بداية سورة الأحزاب: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ... (٦).

وكما هو واضح فالآية: (٥٣) من سورة الأحزاب لا تتحدث عن تغطية المرأة لوجهها ولا حتى تغطية نساء الرسول لوجوههن.

والبعض ما زال يظن أن الآية تأمر نساء الرسول – خاصة دون نساء المؤمنين – بتغطية وجوههن، وهذا لم تقل به الآية ولا كل سورة الأحزاب. بل إن نعت أزواج النبي بأمهات المؤمنين وتحريم الزواج بهن بعده يجعل تغطية وجوههن عن الرجال حراماً – بمقياس الفقه السائد – الذي يحرم على الأم ومن هي بمقام الأم كأم الزوجة أن تغطي وجهها عن



محارمها وعن زوج بنتها. أي أنه لا يمكن أن يكون معنى الآية غطاء الوجه، وخاص بنساء الرسول. لأنهن أمهات المؤمنين، والأم لا تتغطى عن أبنائها.

النتيجة: لفظ «الحجاب» في كتاب الله لا علاقة له بتغطية المرأة لوجهها.

واستمراراً لفرض ضوابط وإجراءات للقضاء على تلك الظاهرة التي أحدثها الذين في قلوبهم مرض من المنافقين في المدينة أثناء حفر الخندق، فرضت سورة الأحزاب القانون التالي:

- **ضرورة أن تدني المرأة عليها جلبابها، سواء كانت زوجة للنبي أو من نساء المسلمين**

وإدناء الجلباب هنا على الجسم، أي تغطيته. وذلك أثناء خروجهن للشارع، وهذا يفهم من قوله: «ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ» لأن المرأة أثناء سيرها في الشارع ستجد من يسير بمحاذاتها ويقابلها من الرجال الأجانب. وإذا ما حرصت على ستر جسدها بجلبابها فهذا سيميزها عن نساء أخريات – غير مسلمات – لا يمانعن إظهار مفاتن أجسادهن.

وهذه الآية تفرض الحشمة كعنوان للمرأة المسلمة يميزها عن غيرها.

هذا القانون هو الذي تخلت عنه كثير من نساء المسلمين فنجد من تضع قطعة قماش على رأسها وكأنه هو الستر وتصبغ وجهها بمساحيق بألوان الطيف، وتلبس ملابس ضيقة تصف تقاطيع البدن وتتحدث بصفاقة وتتصرف بسلوكيات مبتذلة لا حشمة فيها. فلا حاجة لها بقطعة قماش على رأسها.

ومثلها من تغطي وجهها إلا العينين، لكنها تبالغ في وضع أدوات التجميل حول العينين ووضع عدسات لاصقة بالألوان وتحديد الحواجب بطرق إغراء تفوق ممثلات الإغراء. فهذا ليس ستراً، وتغطية بقية الوجه تعني إضافة الإثارة وليست حشمة ولا وقاراً.

وهناك من تقوم بتغطية كامل جسدها بعباءة ثم تذهب لناد للعراة أو تسهر في ملهى ليلي وترقص بعباءتها، فيكون دخولها الملهى بالعباءة حشفاً، ورقصها ومجونها سوء كيلة.

وهذه السلوكيات تختزل قانون الحشمة العظيم في الإسلام إلى مجرد تغطية الوجه والشعر، وهي بهذا تضر بدين الله الذي تحمل اسمه.

فالمقصود والهدف من احتشام المرأة هو بعدها عن الابتذال والإغراء والفحش واعتدادها



بكونها محتشمة، وفخرها بشخصية المرأة المسلمة المتميزة.

وقانون الحشمة ليس موجهاً للنساء فقط، بل إن الرجل معني به تماماً كالمرأة أو أكثر (وهذا الجانب يتناساه الرجال عمداً).

وعليهم أن يعلموا أن الرجل والمرأة سواء بسواء، وأن المرأة لم يطلب منها الحشمة والبعد عن الإغراء، إلا بسبب فساد الرجل ومرض قلبه ومحاولاته نشر الرذيلة في المدينة. لذا طلب منه أولاً أن يغض بصره عن أكل النساء بعيونه: قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَّ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠) النور.

وهذا القانون الرباني الصريح لا يعيره الرجال أهمية، فهم أكثر من يخالفه، مع أن مخالفته أشد من ترك المرأة للحشمة والتبرج.

ونفس القانون فرض على النساء، مع شرح واف لقانون الحشمة الذي سبق الحديث عنه: وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهَّ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١)النور.

فكل إغراء في اللبس أو مساحيق التجمل أو تسريح الشعر أو الجواهر، أو غيرها محرم على المرأة إبداؤها في الأماكن العامة.

وقد أصبح من الواضح أن سورتي الأحزاب والنور اللتين فرضتا بعض ضوابط وقواعد سلوكية لمحاربة ظاهرة ملاحقة النساء لا تتحدث عن تغطية وجه المرأة ولا عن عزلها عن المجتمع بل على الحرص على التزام الحشمة في الأماكن العامة والعمل إن كان يشاركها الرجال، مع الكلام الرزين البعيد عن نزع الكلفة لئلا يطمع الذي في قلبه مرض: يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٣٢)الأحزاب فالقرآن يبين أن الرجل هو من يبدأ بالملاحقة – عادة – وعلى المرأة أن تصده قبل أن يبدأ



وذلك بتطبيق هذه القوانين القرآنية. وعلى الرجل – كما بين القرآن – أن يغض بصره ولا يلاحق به النساء، وعليه ألا يلين القول للمرأة الأجنبية التي قد تشاركه مكان العمل أو الأماكن العامة لئلا يكون ممن وصفهم القرآن (بمن في قلوبهم مرض) وتوعدتهم سورة الأحزاب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١).

فكل من يلاحق النساء فعلياً أو لا يغض بصره عن ملاحقتهن أو يتعمد التودد لهن بكلام معسول (لين) لخبث في نفسه ومرض في قلبه فهو ملعون وعقابه الطرد والعقاب الذي قد يصل للقتل. وهذه العقوبات لم تسن بحق النساء. وهو ما يتغافل عنه الكثيرون ويعتبرون أن سورتي الأحزاب والنور جاءت لتقييد النساء.

إذاً، لا وجود لأي تشريع قرآني لنساء المسلمين بعدم مخالطة الرجال ولكن هناك قواعد للحشمة يجب الأخذ بها.

ونساء الرسول – وحدهن – أمرن بالقرار في البيوت إذا لم يكن هناك حاجة للخروج، ذلك أن لهن وضعاً خاصاً كونهن نساء الرسول وأي إشاعة عنهن تؤثر سلباً على مصداقية دعوته عند الناس: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) الأحزاب.

ويجب على الرجال غض البصر، ويحرم عليهم ملاحقة النساء فعلياً أو مجرد تليين القول للنساء لمرض في قلوبهم. وكل من يلاحق النساء فيجب أن تسن بحقه عقوبات صارمة تصل للقتل.

والرجل هو المسئول عن انتشار الرذيلة التي تكون ضحيتها المرأة، وليست المرأة هي التي ولدت وبين فخذيها شيطان. فالمرأة ليست هي التي تبدأ بإغراء الرجال، لكن متى انتشرت الرذيلة تفننت النساء في طرق الاغراء لجذب من في قلبه مرض.

والرجال الذين يحرم موروثهم على المرأة أن تكشف وجهها، هم من يقترف معها الفاحشة بمسميات تبدو وكأن الإسلام يقرها، فهو يريد أن يغطي وجه المرأة ويمارس الزنا معها تحت مسميات تبدوا في ظاهرها زواجاً، مثل: زواج المسيار، المتعة، الصداقة، الزواج بنية



الطلاق، العرفي، الزواج السياحي، نكاح الجهاد.... ومسميات كثيرة كلها زنا حرام. وكلها من اختلاق الرجل وليس منها واحد اختلقته النساء أبداً. فالرجل هو وراء انتشار الرذيلة وهو من يجب عليه أن يلتزم بقوانين الحشمة التي أوجبها القرآن عليه، وأن يبتعد عن تأويل كلام الله البين لغير معناه.

الخمُر والجيوب لا تعني تغطية شعر الرأس

الخمار لباس كان معروفا في المجتمع قبل نزول السورة وقبل الإسلام وبالتالي السورة لا تفرض لبسه ولكنها تطلب من النساء أن يغطين جيوبهن بخمرهن: وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ والجيب ليس الوجه ولكنه أعلى الصدر وتحت العنق.

وتغطية الشعر لم يتحدث عنها القرآن لأن المجتمع حينها كان من المعتاد أن تغطي النساء شعورهن، وإلا فكشف الشعر يقلل الحشمة بكل تأكيد، بعكس الوجه الذي هو عنوان الشخص رجلا كان أو امرأة.

بعض أتباع الموروث يقول إنه يجب أن تتوارى المرأة عن الرجال وهذا يكون بتغطية كامل جسدها بما فيه الوجه. وهذا الكلام إغفال لكل ما ورد في الآيات عن الحجاب وما ورد في سورتي الأحزاب والنور، وإغفال أن القرآن كله لا يقول بغطاء وجه المرأة، ولا عزلها ولكنه يؤكد على الحشمة التي لا شأن لها بحجب المرأة عن المجتمع أو تغطية وجهها.

والقرآن يشدد على الحشمة وإخفاء الزينة، سواء كانت مساحيق تجميل أو مجوهرات أو قصة شعر. مع الاعتزاز بالشخصية المسلمة، لكي يعرفن فلا يؤذين.

وعندما نقول مسلمة، فليست التي تشهد الشهادتين، ولكن المؤمنة التقية التي تمارس الإسلام كسلوك.

وكثيرون يتساءلون: ماذا لو ذهبت المرأة المسلمة للغرب فهل تغطي شعر رأسها وتبدو مختلفة وتلفت لها الأنظار؟

لو كانت فخورة ومعتزة بإسلامها لما تساءلت هذا السؤال، ولن يكون المهم أن تذهب المسلمة لأوروبا وتبدو كأوروبية، لأنها إن كانت تبحث عما يرضي الأوربيون عنها، فعليها أن تعلم أنه لن يهتم بها أحد ولن يشعر بها من مر بجوارها للحظة في الشارع، ثم إن رضاهم



بما يخالف الدين معصية لله، وفقدان للثقة، ينتهي بفقدان التقدير والاحترام لها ممن حاولت البحث عن رضاهم.

ولو تذهب المسلمة لأوروبا وتبدو محتشمة وقوراً فلن ينقص من قدرها لمن يمر بجوارها لأن الناس هناك لا يعيرون انتباههم لما يلبسه الآخرون. وكما هو مشاهد فنساؤهم ورجالهم يلبسون الأعاجيب ولا أحد يتوقف للحظة للنظر إليهم أو يستغرب وجودهم.

ما يجعل المسلمة تتساءل عما تلبسه في بلاد الغرب هو فقدانها الثقة بما تعتقد، وهذا يعني أن يقينها بدينها لم يبلغ حد الإيمان وأنها تدين بالتبعية وليس بالاقتناع.

وعليها أن تكون إسلاماً يمشي على الأرض بحشمتها ووقارها. وهذا لا يكون بلبس العباءة السوداء وغطاء الوجه واليدين. لأن العباءة نوع من التخفي وهو ما يعني عدم ثقة المرأة بنفسها ووقارها ودينها لأن مجرد إظهار وجهها لرجل أجنبي يعني أنها لا تمانع أن تلين له، هذا ليس ديناً ولا ثقة.

هذه هي الثقافة المغروسة في نفوس نسائنا للأسف فإظهار الوجه يعني إظهاراً للعورة.

يجب أن نغرس في النفس أن المرأة شخص سوي كالرجل لها ما له وعليها ما عليه. وأن هناك فارق بين الحشمة وبين العزل والتهميش والتحقير ونزع الثقة من المرأة بنفسها وغرس أن عفلفها مرتبط بإخفائها، وأن وجهها عورة كما تحت سرتها.

والمرأة قادرة على أن تكون رأساً للدولة وقاضياً ومدير إدارة ومبرمجة ومحاضرة وزوجة وأماً وقدوة حسنة مع حشمة ووقار.

للأسف اليوم الغرب أخرج المرأة من وقارها وجعلها رمزاً جنسياً، ولم يتعامل معها على ما يزعم في الإعلام عنها.

لقد تعرت المرأة في الغرب وبقي الرجل في كامل ملابسه لأنه يعلم أن الحشمة لا يمكن أن تكون بالتعري ولو كان جزئيا.

العباءة رمز للهمجية وخلق الوقار والتبرج رمز للانتساب لدين الله واعتزاز بهذا الانتساب.

تقول أمينة السلمي[1]: ((على المسلمة أن تكون فخورة باختلافها عن الأخريات، بثقة وفخر

---

[1] اسمها Janice Huff صحافية أمريكية كانت تكره الإسلام وتتهم القرآن بالتخلف والرسول بأنه دجال. وبعد تحولها للإسلام في عام ١٩٧٧، أصبحت داعية إسلامية مميزة ونشطة جداً، وذات شهرة واسعة، حيث دأبت، خلال حياتها، على



نابع من ممارسة السلوك الإسلامي في الحياة اليومية، والذي يعطي المسلمة قوة وصلابة وشجاعة ونزاهة. فالمسلمة لا تكذب ولا تغدر ولا تغش. وفي نفس الوقت تمثل أفضل عاملة وأفضل مسئولة وأفضل صديق وأفضل ناصح وأفضل خبير، وأفضل منتج، ومحل للثقة التي لا يدانيها شك.

ويكون الاحتشام تحذيراً للآخرين (من في قلبه مرض) فكل من يراها يعلم أنها المرأة الواثقة من نفسها التي تعلم قيمة كلامها لو تحدثت وقيمتها كإنسان، فهي ليست لعبة ولا دمية فلا تحاول اللعب معها. والحشمة تجعل المقابل يأخذ التعامل معها بكل جدية ووقار. الحشمة تقول للآخرين: نعم أنا أريد أن أكون مختلفة، وعليك أن تتعامل معي من هذا المنطق. وعندما تتعامل معي اترك قذارة منطقك بعيداً عني، لأني لن أستمع لها، وعندما تتعامل معي لا تخبرني عن أناس آخرين لأن ديني يحرم علي أكل لحم أخي ميتاً. ولأن الإساءة تأتي نتيجة التصرف والسلوك والمنطق، فإن الحشمة تحمي المرأة المسلمة من التعرض للإساءة وقلة الأدب.

المرأة المسلمة هي التي تعلم ما قاله الله عنها، وعليها أن تظهره على شكل سلوك إسلامي مستقيم.

هي لست لعبة أو دمية، أنا حقيقة صادقة محل ثقة. وهذا السلوك سيبقى معها أينما تنقلت وسيفرض سلوكها على الآخرين. فعندما تذهب لمتجر، تجد من يفتح لها الباب (لأنها مختلفة) تتقبل هذا وتشكره. وعندما تركب الباص ويتخلى أحدهم عن مقعده لها تتقبل أريحيته وتشكره. وعندما تدخل مكاناً فيه من يتحدثون عن قصة خليعة، يتوقفون بمجرد رؤيتها لأنهم يعلمون أنها لا تقبله وضد سلوكها ومبادئها. السلوك الإسلامي يجعل الآخرين يتوقعون ما يصدر من المسلمة، وما يجب أن يتعاملوا به معها.

وإن كان هناك من يعتبر سلوك أو مظهر المرأة المسلمة مزعجاً، فليأت لها ويتحدث معها عن مشكلته هو مع سلوكي)). انتهى كلام أمينة السلمي رحمها الله.

التجوال الدائم في أرجاء الولايات المتحدة وإلقاء المحاضرات عن الإسلام. ومن أقوالها: «إنني في غاية السرور لكوني امرأة تنتمي إلى الدين الإسلامي، حيث إن الإسلام هو حياتي، وهو نبضات قلبي، وكذلك هو الدم الذي ينساب في شراييني، وهو مصدر قوتي، إذ جعل حياتي في غاية الجمال والروعة. وإنني لا شيء بدون الإسلام، ولا حياة لي إذا لم يرعني الله بوجهه الكريم».
وغيرت اسمها إلى: Aminah Assilmi بعدما تزوجت في وقت لاحق بمسلم.



هكذا ما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة، أما ما تفعله كثير من نساء هذه البلاد وغيرهن من نساء المسلمين عند سفرهن لبلاد العالم فهو مخز ومسيء لها وللإسلام. سواء تلك التي تجللت بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها أو تلك التي وضعت خرقة على رأسها وأبرزت مفاتنها أو تلك التي لم تخف لحمها ولا عهرها.

فالأولى تلبس السواد وتذهب إلى شواطئ العراة أو الأندية الليلية. ومن لا تذهب تتصرف بعزلة عن الناس وتوجس وخيفة يتوجس منها غيرها ويخاف منها، وهي محل شك من الجميع.

والأخريات لا علاقة لهن بالسلوك الإسلامي، ولبسهن في الداخل يفرضه عليهن كلام الناس وسوط المطوع، أما الله والقرآن فآخر اهتماماتهن.

والرجال أسوأ من النساء، وهم أنواع مثلهن.

فنجد رجالاً بثياب قصيرة وشماغ بلا عقال[1] ولحية كثة ومنظر بعيد عن الأناقة معه جلافة أخلاق وبعد عن التصرف الحضاري يجوبون العالم باسم الدعوة (ليس لدين الله ولكن للوهابية التي تشبعوا بها والتي تتحمل مصاريفهم).

ولو سألت أحدهم لم لا يلبس كما يلبس الناس في الدول الغربية؟ (كون اللبس العادي الغربي للرجل أنيقاً وبعيداً عن الفحش) ولماذا لا يأكل بطريقة عصرية بشوكة وملعقة بدل دوس الطعام بيديه؟ ولماذا لا يتعلم التعامل الراقي ويلتزم بالقوانين ويتعلم كل ما يزخر به الغرب من حسنات بدل أن يفترش المسجد وينام فيه وينشر في صحنه غسيل ملابسه ويأكل؟ ...الخ

يأتي الجواب: لأنهم يريدون أن يبدو مختلفين لكي يثيروا الاستغراب فيأتي الناس إليهم ليسألوهم عن حالهم فيدعوهم للدين. وهذا منطق أهوج أعوج.

فالناس سيلفت انتباههم مناظرهم ليس إعجاباً ولكن تقززاً، وهذا الشعور لا يساعد على الدعوة.

وكثير منهم اتخذ الدعوة مغنماً، فهو يكثر الزيجات بفتيات البلاد التي يحلون فيها، وهو يعلم

---

[1] الشماغ غطاء للرأس معروف عند رجال جزيرة العرب والعراق والشام. والعقال حبل مفتول يعقد على الرأس فوق الشماغ ويكون لونه أسود عادة.



في قرارة نفسه أنه يريد أن يستمتع بها ما بقي هناك، وينساها بمجرد عودته لبلده، معتبراً أن ما فعله زواج يبيحه الدين، وما هو سوى سفاح تسبب بمشاكل اجتماعية وولادة أطفال بلا آباء في كوريا واليابان ودول آسيا الوسطى وكل البلاد التي يتواجد فيها هؤلاء.

أما من لا يتقمص المظهر المتدين فخزيهم وعهرهم يتجاوز حد الوصف والعجب، وهم من رسخ فكرة أن العرب عربدة وسكر وفجور وقمار ومخدرات.

والكلام طويل.

فلا الرجل المسلم ولا المرأة المسلمة في هذا العصر يتصرفون كمسلمين، بينما نجد أخلاق وسلوكيات الإسلام في الغرب بلا إسلام، وهذه الحالة ليست وليدة اليوم ولكنها مستمرة منذ قرون. فقد لاحظها محمد عبده في العام ١٨٨٤ عندما عاش لبعض الوقت في باريس، وقال كلمته المشهورة: « وجدت الإسلام في الغرب بلا مسلمين، ووجدت المسلمين هنا بلا إسلام»[١].

والخلاصة الحشمة مطلوبة أولاً من الرجل ومن المرأة كذلك، وهي عبارة عن ثقافة سلوكية إسلامية متكاملة. تبدأ بإحضار أن الكبيرة لو ارتكبت مع علم بحرمتها لا تغتفر ومصير من ارتكبها النار. وأن النظر للمرأة بشهوة حرام. وأن الحشمة للمرأة واجبة والتي تعني اللباس المحتشم والسلوك والكلام المحتشم، وعدم عرض الزينة والتبرج، ولا علاقة لكل هذا بتغطية الوجه.

ملك اليمين

في البداية سنستعرض الآيات التي أوردت «ملك اليمين» وسنناقشها على أنها تعني تملك الإماء.

ثم سنتحدث عن احتمال آخر ونستعرض آيات أخرى في هذا المجال، لنخلص لنتيجة أخيرة حول معنى هذا الاصطلاح.

افتراض أن ملك اليمين هي الأمة المملوكة

١ وهذا رابط لتقرير صحفي صدر حديثاً يؤكد أن الغرب أكثر ممارسة لتعاليم القرآن من المسلمين:
http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/europe/ireland/10888707/Ireland-leads-the-world-in-Islamic-values-as-Muslim-states-lag.html



في مكة لم تفرض تشريعات كثيرة، ومع ذلك نقرأ في سورة المؤمنون: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧).

وكررت هذا سورة المعارج.

والآيات تحث على حفظ الفرج من الحرام والاكتفاء بالحلال المحصور بالأزواج أو «ملك اليمين.

وفي السور المدنية تقول سورة النساء: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٤).

الآية تقول: نكاح بأجر (صداق) محصنات وليس سفاحاً، ولا تجيز أي اتصال خارج نطاق الزواج، سواء كان زواجاً بالمحصنات أو بملك اليمين من الفتيات المؤمنات.

والآية تضع فرقاً بين المحصنات والفتيات المؤمنات. ولو افترضنا أن المقصود بالفتيات المؤمنات هن الإماء، فالآية تقول إنهن لسن للتسري والمتعة الحرام بل للزواج.

والخلاصة أن القرآن لا يجيز معاشرة ملك اليمين (لو كانت تعني الأمة) خارج نطاق الزوجية. أما الرق للرجال والنساء فكان موجوداً منذ القدم وعندما بعث محمد كرسول لله نزل القرآن يفرض تشريعات لعتق الرقيق. وليس في القرآن آية واحدة تجيز معاشرة الأمة خارج نطاق الزوجية. ولم يكن الرسول في حربه مع أعداء الإسلام يسبي النساء ولا يسترق الرجال (لو تجاوزنا ما اختلقته كتب التراث).

لكن الأوضاع تبدلت بعدما استولت قريش على حكم دولة المسلمين فيما سمي بدولة بني أمية والعباس وأعادت العادات الجاهلية كما كانت، ومنها سبي النساء ومعاشرتهن سفاحا. وفي تلك العصور أطلقوا على السبي ملك يمين، وتحولت مدن المسلمين لأكبر أسواق النخاسة في العالم القديم. واشتهرت بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة وطليطلة والقيروان وخراسان بذلك. بل وبقي الرق إلى الأمس القريب، كما بقي الزنا بيننا بمسميات احتيالية



أطلقها رجال الدين الذين يحرصون على ممارستها باسم الدين، ومن ذلك زواج المسيار والمسبار والصداقة والمتعة.. الخ.

ولم يتسر الرسول بامرأة خارج نطاق الزواج أبداً، ولا ينبغي له ولا يستطيع. وكل ما تحويه كتب التراث عن ذلك هو قصص اختلق شخصيات وهمية وكأنهن سبايا وسرايا للرسول، مثل من أسموها صفية بنت حيي، وزينب بنت جحش ومارية القبطية، واللاتي لم يعشن يوماً على وجه الأرض ولم يكن لهن وجود إلا في خيال من اختلق قصصهن وألصقها بالرسول.

الافتراض الثاني أن ما ملكت أيمانكم لا تعني الرقيق

يقول تعالى: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٣٣).

الآية تؤكد على من يكون له حق في الميراث، وهم الوالدان والأقربون إضافة للذين عقدت أيمانكم.

فمن هم الذين عقدت أيمانكم؟ أو الذين عُقدت لهم الأيمان؟

سنحاول التعرف على المعنى بعيداً عن تحاريف المفسرين والذين قالوا إن المقصود بهم (من بيننا وبينهم أحلاف من قبائل أخرى) وهذا مستحيل، لأن الميراث يكون للأقارب من النسب أو الزواج فقط، ولا علاقة له بأعراف جاهلية وأحلاف قبلية.

ولكي نعرف المعنى علينا التعرف على ما تعنيه "الأيمان" التي وردت في الآية.

يقول تعالى: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠) وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) النحل.

الأيمان وردت هنا بمعنى العهد والميثاق الذي قطعه المسلم على نفسه مع الله بالدخول في الإسلام.

ويكون معنى عقد اليمين هو أن يقطع المرء على نفسه عهداً وميثاقاً.



وامتلاك الرقيق سواء كان أمة أو عبداً كان يتم على شكل صفقة تجارية كأي صفقة بيع وشراء. ولا يدخل فيها عهد وميثاق، ولا تعقد لها الأيمان.

ولو أخذنا بهذا فإن ملك اليمين تعني امتلاكاً بموجب يمين أو بموجب عهد وميثاق. وهذا يخرج معنى «ملك اليمين» من أن تكون الأمة أو العبد.

ويكون الأشخاص الذين يمكن أن نطلق عليهم «ملك يمين» هم من بيننا وبينهم عهد وميثاق. والعهد والميثاق ليس لتملكهم لأن تملك الرقيق لا يحتاج من السيد أن يعقد عهداً مع الرقيق لكي يصبح ملكاً له.

يقول تعالى في سورة النساء: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(٢١).

يفهم من الآية أن الزواج ميثاق وعهد بين الزوج والزوجة. وهذا الميثاق هو ذلك الاتفاق على الزواج بينهما بقبول وإيجاب قبل دخول الزوج بزوجته، والذي أطلقت عليه الآية: «إفضاء الزوجين بعضهما لبعض» أي الخلوة والمعاشرة الزوجية.

وبمفهومنا الحالي، فالدخلة هي إفضاء الزوج لزوجته والزوجة لزوجها.

أما العهد والميثاق بين الزوجين فهو اتفاق بين الرجل والمرأة على الزواج. وهو الذي يسبق الإفضاء بفترة تطول وتقصر حسب العرف وظروف الزوجين.

وبناءً على ما تقدم، يكون معنى ملك اليمين هو من بيننا وبينهم عهد وميثاق بالزواج. أي من قبل الزواج بنا وقبلنا الزواج به، وليس ما نملكه من رقيق وإماء.

ويكون كل ما ورد في القرآن مصطلح «ملك اليمين" فالمقصود به الخطيب والخطيبة اللذين اتفقا على الزواج ولم يدخلا بعد.

وتأتي سورة النور لتقول: وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢).

والآية تحث على نكاح الأيامى والإماء. أي الحث على أن تتزوج المرأة المسلمة بعبدها الصالح (والصالحين من عبادكم) ويتزوج الرجل المسلم بأمته. ولا يوجد ذكر للتسري،



في آيات القرآن.

والآية التي تلت تؤكد على العفة لمن لا يستطيع النكاح: وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللهُ مِن فَضْلِهِ.... (٣٣).

وتستمر نفس الآية لتوضح المقصود بها ملكت أيمانكم: وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ .... (٣٣).

الآية تقول لو أن أحدكم كاتب امرأة للزواج (خطبة) وأرادت المرأة أن تتم الملكة (عهد وميثاق بالموافقة على الزواج)، فعلى الرجل أن يكاتبهن ويدفع لهن الصداق مما أتاه الله من مال[1].

والخلاصة أن ملك اليمين في القرآن تعني بالنسبة للرجل من بينه وبينها اتفاق وموافقة على الزواج لكن لم يدخل بها بعد.

في المقابل، القرآن يخلو من أي إشارة تبيح الاتصال الجنسي خارج الزواج. سواء كانت المرأة حرة أو كانت أمة. لأن استرقاقها لا يخرجها من الإنسانية، ولكنه ظلم وقع عليها من متسلط. ووطء الحيوان فاحشة من الفواحش وكبيرة. فكيف يتصور أن يكون في القرآن إباحة لوطء المسلوبة على أمرها من البشر.

وكالعادة استغل المتنفذون ورجال الدين تأويلات كتب التراث وتقولها على الله، وتوسعوا في متعهم الجنسية الحرام تحت غطاء ديني.

---

١ بقية الآية تتحدث عن موضوع آخر وأناس آخرين: وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٣) النور. والآية تقول: بأن هناك من يكره فتياته على البغاء للكسب المالي. والمفسرون اعتبروا الآية تخاطب رجالاً من المسلمين، سواء كانوا من الأنصار أو عبد الله ابن أبي. وكلامهم ليس قطعياً حتى لو ترسخ وأخذ به المستشرقون واعتبروه دليلاً على أن الإسلام يبيح ليس فقط ممارسة الزنا مع الإماء ولكن فتح مواخير للمكسب المادي من البغاء. وسورة النور التي من آياتها هذه الآية نزلت خصيصاً لتقضي على أي تصرف يؤدي للزنا أو يقرب منه، من ذلك تحريم الزواج بالزاني والزانية: الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣). ووضعت ضوابط متشددة للنساء والرجال لدرجة تحريم إظهار الزينة للرجال الأجانب ووجوب غض النظر من الرجل للمرأة والعكس وتحريم الملاطفة المؤدية للتفكير بالزنا وغيرها من الضوابط المتشددة. فهل يعقل أن تأتي بعد ذلك وتقول: لو سمحتم أيها المسلمون لا تجبروا فتياتكم اللاتي يردن التعفف على البغاء. واكتفوا بمن ترغب في ذلك. قطعاً لا. ونقول لكتب التراث والمستشرقين والمبطلين: حتى لو كان القرآن كتبه الرسول فلن يفوته هذا التناقض الذي سيفطن له حتى أغبى الناس. ولو فطن له الناس لتكلموا واعترضوا ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل في حياة الرسول، لأن الناس فهموا أن الآية تخاطب غير المسلمين في يثرب (سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم) كانوا هم من يجبر فتياته على البغاء. ولذا تقول الآية مخاطبة تعيسات الحظ: بأن الله غفور رحيم لمن تاب منهن وأسلم. ومن أسلم منهن فلن يتمكن سيدها من مواصلة إجبارها على البغاء بل ولن يستطيع أن يمارس هو معها الزنا. ولما ازدهر عصر اختلاق القصص وكتابة كتب التراث لم يجد المفسرون غضاضة في لي معنى الآية كيفما يريدون ونسبوها لبعض رجال الأنصار ولعبد الله ابن أبي في وقت قد مضى على عصر الرسول مئات السنين ولم يعد ممكنا سؤال أهله عما حدث.



التعدد

للحديث عن التعدد لابد من تذكر الحقائق التالية:

١. مراعاة أسلوب القرآن وأنه أحياناً لا يبدأ الموضوع من أوله.

٢. مراعاة أن القرآن قد يتحدث عن موضوع ثم يتركه ويتحدث عن مواضيع أخرى ثم يعود للموضوع الأول.

٣. وأن الحديث عن التعدد في القرآن جاء عرضاً ضمن الحديث عن وجوب معاملة المرأة اليتيم معاملة إنسانية وحفظ حقوقها.

٤. أن الحديث عن حقوق اليتامى ليس حديثاً افتراضياً، بل هو تفاعلي مع ما يحدث. فالناس حين نزول السورة اعتادوا هضم حقوق اليتامى وأكل أموالهم بسبل شتى، من بينها الزواج باليتيمة للاستيلاء على مالها.

وبناءً عليه فالحديث عن حقوق اليتيم يبدأ من أول سورة النساء: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نفس واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(١).

والخطاب موجه للمسلمين زمن الرسول ليقول لهم إن كل الناس متساوون في الإنسانية فقيرهم وغنيهم أسودهم وأبيضهم، يتيمهم ومن له أبوان، رجالهم ونساؤهم، وليس هناك من هو أدنى إنسانية من غيره. وهذه الآية مقدمة للحديث عن اليتامى، الذين كان ينظر لهم على أنهم أقل إنسانية من غيرهم. لدرجة اعتاد الناس على الاستيلاء على أموالهم ومعاملتهم بمهانة: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً(١٢٧).

وتوجب السورة حفظ مال اليتامى: وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(٢).

فالزواج من اليتيمة بغرض الاستيلاء على مالها يجب أن يتوقف لأنه لا يجوز. إذاً، الزواج باليتامى من أجل الاستيلاء على أموالهن هو الدافع للحديث عنهن، وتشريع قوانين تحق



حقوقهن وتحفظها. ومن ذلك منع الزواج باليتيمة ما لم يكن هناك ضمانات موثقة من أن الزوج سيعاملها معاملة إنسانية كاملة وألا يتعرض لمالها. فإن لم تتحقق هذه الضمانات فلا يجوز الزواج باليتيمة، وعلى من سعى للزواج باليتيمة أن يبحث عن الزواج بغيرها وبالعدد الذي يريد: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ... (٣).

فالحديث عن الزواج باليتامى من أجل مالهن ومن يخاف على نفسه أن يمد يده لمال اليتيمة فلا يجوز له الزواج بها، وليتزوج بغيرها. وهنا تقول له السورة: تزوج ما تشاء من النساء غيرها واحده، ثنتين، ثلاثاً، أربعاً، ... أي بأي عدد من النساء تشاء.

وكما هو واضح فالحديث هنا ليس عن التعدد.

ثم تواصل هذه الآية لتقول: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

على كل من يرغب الزواج بأكثر من امرأة أن يعدل، ومن لا يمكنه العدل فلا يجوز له الزواج بأكثر من واحدة. وليس العدل توفير الماديات بين الزوجات بالتساوي، بحيث يشتري لكل واحدة من الأغراض والملابس والسكن ما للأخرى أو الأخريات - كما سبق وذكر - بل العدل يعني ضد الظلم ويشمل المعنويات والمشاعر وكل شيء. والتأكد من تحقق العدل لا يكون بالسماح بالزواج بامرأة ثانية فإن لم يتمكن الزوج من العدل بين الزوجتين يمكنه أن يطلق إحداهما. فهذا ظلم مركب وإضرار لم يأمر به الله.

ولكن العدل يبدأ قبل الزواج بالثانية وذلك بعدم وقوع أي ظلم على الزوجة الأولى.

فهجرها ظلم، والتضييق عليها ظلم، وعدم رضاها بزواج زوجها بأخرى ظلم.

ويكون بداية العدل هو ضمان رضى الزوجة أن يتزوج زوجها امرأة ثانية، فإن لم ترض فقد وقع الظلم وانتفى العدل اللازم للزواج بأكثر من واحدة. ولو تزوج رجل بامرأة أخرى دون رضى الأولى فقد أوقع عليها الظلم وخالف أمر الله الذي تنص عليه الآية.

(وهذا يعني أن أي زواج سري باطل، لأنه لا يحقق العدل للزوجة الأولى)

وتقول الآية: أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).



كل من لا يستطيع العدل عليه أن يكتفي بواحدة أو الاكتفاء بالزواج بملك اليمين[1].

والآية (٢٠) من سورة النساء تؤكد أن الزواج يجب أن يكون بامرأة واحدة: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً.

فالآية تذكر استبدال زوج مكان زوج، بما يوحي بأنه ليس هناك سوى امرأة واحدة لرجل واحد في وقت واحد.

وبرغم أن القرآن جاء صريحاً بالاقتصار على زوجة واحدة، إلا أن المسلمين تناسوا ذلك، واستمر الزواج بأربع، كما استمر الطلاق بيسر وسهولة، بل واستطاع الرجل المسلم (العربي) أن يغلف ممارسته تلك بغلاف يبدو وكأنه من دين الله. فاستحدث زواج المتعة، والمسيار، والمسبار، والصداقة، ومسميات أخرى كلها زنا، ولو عقد لها مأذون أنكحة بيده قرآن.

وللعلم فالقرآن المجيد هو الكتاب الديني الوحيد الموجود على سطح الأرض، الذي ينص على أن الزواج يكون بواحدة فقط: " فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ".

وهنا أود أن أعرج ولو باختصار على موضوع له علاقة بالتعدد، وهو:

جمع الرسول لعدد من الزوجات في وقت واحد

فالرسول قد جمع عدداً من النساء في وقت واحد (وهناك فصل كامل في أحسن القصص يتحدث عن زوجاته عليه الصلاة والسلام)، ومع ذلك لم ير أعداء الرسول من أهل مكة ويثرب وغيرها أن الرسول قد فعل ما يوجب النقد. ولم يقولوا إنه تزوج بعدد من النساء لأنه استغل دعوته لتحقيق ذلك، لأن الزواج بأكثر من واحدة في عرف ذلك الوقت لم يكن خروجاً عن المألوف، ويمكن لأي رجل أن يفعله.

وبما أن الرسول بشر مثل غيره من البشر ويعيش في ذلك المجتمع فقد جمع ثلاثاً من النساء فقط وليس عشراً أو عشرين كما تقول كتب التراث، وكان ذلك مباحاً في معظم أيام بعثته عليه الصلاة والسلام. ثم حرم على الرسول الحصول على المزيد من الزوجات، وهو ما

---

١ انظر فقرة ملك اليمين.



ذكرته الآية (٥٢) في سورة الأحزاب: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا.

لا يحل للرسول زواج جديد ولا يحل له تطليق واحدة ليتزوج بديلاً لها. وهذه الحقيقة لا يتداولها رجال الدين ولا يحدثون بها في مجالس قصصهم وأمام أتباعهم.

أما لماذا لم يؤمر الرسول بالاكتفاء بواحدة؟ فهذا يعود إلى أن نساء الرسول اللاتي بقين معه حتى آخر حياته هن من اخترن العيش معه وتركن كل متع الدنيا من أجل ذلك بعد أن خيرتهن الآيتان (٢٨-٢٩) من سورة الأحزاب، بالبقاء والصبر على شظف العيش وبين الطلاق والتمتع بالدنيا: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا.

وطلاقهن بعد ذلك لن يبدو مكافأة مناسبة لصبرهن.

وقد كافأهن الله سبحانه بثواب عظيم في الآخرة وبنيشان دنيوي تمثل بتلقيبهن أمهات المؤمنين، وبذلك حرم على الرجال الزواج بهن بعد الرسول: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(٦) الأحزاب.

ولأنهن فضلن البقاء مع الرسول على متع الدنيا فكان من حقهن أن يؤمر الرسول على الإبقاء عليهن ومُنع من طلاقهن أو إحداهن، كما منع من التزوج عليهن بنساء أخريات.

ونأتي الآن للحديث عن قوله تعالى في سورة النساء: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا(١٢٩) النساء.

لأن هذه الآية يستشهد بها من يتزوج بأكثر من واحدة زاعمين أن الله يقرر أن الرجل لا يستطيع أن يعدل بين الزوجات لكن عليه أن يحاول قدر المستطاع.

وهذا تقويل لله ما لم يقل، لأن هذه الآية لا علاقة لها بالعدل بين الزوجات. وسنعيد قراءة الآية بسياقها ليتضح المعنى.

يقول تعالى: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا



صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا(١٢٩) النساء.

فالعرب يبدو أنهم لم يصدقوا أن القرآن قد جاء في أول سورة النساء ليقول بأن اليتيم ولو كان امرأة، لها حقوق موازية لكل فرد آخر في المجتمع، ومساوية لحقوق وكيلها الرجل. وأن للمرأة الحق برفض الزوج أو الامتناع عن معاشرة الرجل، وأن للمرأة حقوقاً مثلها له تماماً. فجاءت هذه الآيات لتؤكده.

والعدل الوارد في الآية: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. جاء بعد الآية رقم: (١٢٨) التي لا تتحدث عن العدل بين زوجتين وأكثر في اللبس والسكن والمآكل.. الخ، ولكنها تقول إن من حق الزوجة على الزوج ألا يهجرها زوجها ولا يتصرف معها بغلظة، وأن على الرجل معاملة زوجته بإنسانية ليس تفضلاً منه ولكن لأن ذلك من ضمن حقوقها التي ضمنها لها الإسلام، والتي تتعارض مع ما كان سائداً في ذلك العصر. فإن استحالت العشرة بينهما لتعنت كل جانب بموقفه (وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ) فالطلاق هو الحل الأمثل. فيكون معنى العدل في الآية: (١٢٩) هو إحقاق حقوق المرأة وعدم هضم حقوقها، ولكن بما أن المخاطب في الآية هم المسلمون زمن الرسول الذين اعتادوا التعامل مع الزوجة بجفاء وظلم، فمهما حرصوا على العدل كاستجابة لشرع الله فسيغلب الطبع الذي تطبعوا عليه خلال تاريخهم الطويل في معاملة المرأة على ما يحاول القرآن تطبيعهم عليه من وضع تعاملي جديد، ولذلك فالمطلوب منهم في تلك المرحلة الحرص على تذكر شرع الله الجديد وأن يتراجعوا قدر الإمكان كلما ظلموا المرأة أو قسوا عليها إن كانوا يتقون الله وأن يصلحوا ويعدلوا ما أفسده ظلمهم لها: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا.

أما بعد عصر الرسول وبعد أن تترسخ ثقافة القرآن، وبعد أن يصبح لدولة الإسلام دستور مستمد من القرآن، فيجب أن تنص فقراته على أن تعامل المرأة بكل عدل مع الرجل، ولا



يسمح بأي تجاوزات في هذا المجال.

وتختم الموضوع الآية: (١٣٠) بالقول بأنه إن لم تنفع الحلول الوسط، ولم يستطع الرجل العدل في تعامله مع زوجته، فالطلاق هو الحل المثالي لهما: وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا.

وهكذا منعت سورة الأحزاب على الرسول الزواج أو الطلاق في آخر أيامه، كما منعت بداية سورة النساء بقية الناس من التعدد، إلا بشرط العدل المطلق، والذي لا يمكن الوفاء به في الظروف العادية. كما منعت الآيات (١٢٧–١٣٠) من سورة النساء أن تعامل المرأة بأقل مما يعامل به الرجل في كل شيء، ومن ذلك أن لها حق الطلاق من زوجها كحق مماثل لحقه في طلاقها.

وكل أمر في القرآن أو نهي هو حد من حدود الله التي نهى الله عن المساس بها: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. (جزء من الآية ١٨٧ من سورة البقرة)

وإذا أمر الله بأمر فليس للناس أن يصنفوا العمل به إلى واجب ومستحب وجائز، لأن أي أمر ورد في القرآن فيجب العمل به: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً(٣٦) الأحزاب.

ويكون الإسلام لم يأمر بالتعدد لأن التعدد كان موجوداً قبل مجيئه، ولم يحدد عدد النساء اللاتي يمكن أن يتزوج بهن الرجل حتى لو زاد على الأربع أو التسع، ولكن الإسلام وضع شرطاً صارماً للزواج بأكثر من امرأة واحدة، من النادر تجاوزه.

ونكرر أن المنع جاء كعمل احترازي لمنع ظلم قد يقع، وليس علاجاً للظلم بعد وقوعه، بمعنى أن الزواج بأكثر من واحدة يمنع حتى لا يقع الرجل في الظلم، وليس المعنى أن يعطى الرجل فرصة للتعدد فإن ظلم إحدى زوجاته أو فرق في تعامله مع أبنائه أجبر على الاكتفاء بواحدة.

كما صحح الإسلام النظرة إلى المرأة من مخلوق جالب للعار وليس له من المشاعر ما يستحق المراعاة، إلى إنسان سوي مثله مثل الرجل سواء بسواء، ولا ينقص اختلاف جنس المرأة من قيمتها الإنسانية وحقوقها شيئاً.



ولو قدر وجاءت دولة إسلامية عصرية بعد الرسول، تعتمد على دستور مكتوب، لوجدنا في دستورها فقرة في قانون الأحوال الشخصية تنص على أن الزواج بأكثر من واحدة ممنوع، إلا برضى الزوجة. وهناك من النساء من لا تمانع أن تشاركها زوجة أخرى بينما هناك نساء لو تزوج عليها زوجها فقد سحق كرامتها وحولها إلى ركام.

وسينص الدستور على أن الرجل والمرأة شريكان متساويان في مؤسسة الزواج لكل واحد من الحقوق والواجبات ما للآخر دون تمييز[1].

لماذا فرض جلد الزاني والزانية

تحريم الزنا فرض في مكة، وفي سورة بني إسرائيل تحديداً: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢).

وجاء التأكيد على التحريم والتذكير به في سورة مكية أخرى هي الفرقان: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩).

فلماذا نزلت سورة النور بعد سنوات في المدينة لتفرض عقوبة دنيوية تتمثل بجلد الزناة، مع أن من يقترف الزنا سيلقى آثاماً في الآخرة وسيخلد في النار لو أصر على هذه المعصية ولم يقلع مباشرة ويتوب، كأي كبيرة أخرى؟

ومع أن المرتد نفسه لا يجلد في القرآن، وليس له عقوبة دنيوية، برغم أنه خالد في النار، وكذلك من يشرب الخمر أو يأكل الخنزير أو الربا أو الميتة... لا عقوبة دنيوية.

الجواب حملته لنا سورتا الأحزاب والنور، وإليكم القصة كاملة:

برغم هزيمة المسلمين في أحد نتيجة لخطأ تكتيكي أثناء المعركة، إلا أن قريشاً عرفت أن قوة المسلمين تزداد مع الأيام بينما قوتهم تضعف. ولابد من القضاء على المسلمين قبل أن يهاجموا قريشاً في عقر دارهم.

وكتب التاريخ والسير تتحدث عن لقاء بين أبي سفيان ووفد من قريش بهرقل –عظيم الروم – في إيليا (القدس الحالية)، وتقول هذه الأخبار إن أبا سفيان قد امتدح الرسول في

---

١ يمكن مراجعة موضوع القوامة.



تلك المقابلة، وهذا يستحيل أن يكون قد حدث. لأن أبا سفيان وكل كبراء قريش أعداء للإسلام ويسعون للقضاء التام عليه وتشويه سمعة محمد.

ولعل اللقاء قد حدث بين قيصر ورجال من قريش على رأسهم أبو سفيان، الذين قدموا لطلب معاونة الروم للقضاء على المسلمين، بحجة أن وجودهم في يثرب يشكل خطراً على إمدادات الروم من البخور والتوابل واللبان الذي تنقله قريش من بحر العرب جنوب الجزيرة.

وقد علم المسلمون بتحركات قريش وسفر أبي سفيان والوفد المرافق له للقاء هرقل. وقد يكون الرسول أرسل وفداً وخطاباً لهرقل يشرح له دعوته ولماذا تحاربه قريش، لعله يثنيه عن معاونتهم. وهو الخطاب الذي حور الإخباريون نصه وكأنه خطاب من محمد لهرقل يدعوه فيه للإسلام. لأنه من الصعب تصور أن يقوم الرسول بإرسال خطابات للروم والفرس وهو بالكاد يسيطر على المدينة التي لا تمثل إلا بقعة محدودة جداً من يثرب، ومحاطة بقبائل وثنية، ويعدها حواضر وثنية ومن بني إسرائيل وغيرهم، أقرب من الفرس والروم، على الرسول أن يدعوهم أولاً، ولو آمنوا ووصل الإسلام لحدود تلك الدولتين العظميين، حينها سيكون بإمكان الرسول مراسلة قيصر وكسرى، ودعوتهما للإسلام، ولكن ليس قبل ذلك.

وعاد وفد الرسول مسرعاً للمدينة ليخبرهم أن هرقل وافق على نجدة قريش وأنه أمر بإعداد جيش عرمرم للقضاء على المسلمين. وهو ما أدخل الرعب في قلوبهم وزلزل الأرض من تحت أرجلهم، وفي نفس الوقت كان لديهم الوقت الكافي لحفر الخندق قبل وصول جيش الروم.

وقد تحدثت سورة الأحزاب عن تلك الحملة، ووصفت الخوف الهائل الذي أصاب المسلمين عندما علموا أن جيشاً من الروم قادم لحربهم مع قريش: : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١).

وهذا الرعب لا يمكن أن يكون نتيجة لتجمع بعض قبائل جزيرة العرب مع قريش، كما



تقول كتب الأخبار. لأن محاربتهم ممكنة بالنسبة للمسلمين، وقد استعانت قريش ببعض القبائل في غزوة أحد، ولم يشعر المسلمون بالهلع.

لكن أن يتجه إليهم جيش رومي فهذا أمر مختلف. ذلك أن جيش الروم كثير العدد ومجهز بعدة وعتاد لا قبل للعرب به، وهو ما أقلق المسلمين ووصفته السورة بدقة. كما أن حفر الخندق دلالة على أن المسلمين متيقنون أنه لا قبل لهم بالجيش الغازي، وأن عليهم أن يحموا المدينة بطريقة أكثر فاعلية من القتال.

ولأن جيش الروم سيحتاج لأسابيع ليصل للمدينة فقد استطاع المسلمون حفر خندق يصل طوله ٥٠٠٠ ذراع (٢٥٠٠متر) وعرض تسعة أذرع وعمق سبعة إلى عشرة أذرع، كما ذكر الواقدي في المغازي.

واحتاج الحفر لجهود كل رجل يعلن إسلامه في المدينة، وكانوا يبيتون في مكان العمل، نظراً لبعد الخندق عن المدينة.

وقد تسبب هذا بوقوع أحداث في المدينة، أخبرتنا بها سورة الأحزاب وسورة النور التي تلتها في النزول وأكملت الحديث عن نفس المواضيع.

وسبب تلك الأحداث أنه أثناء حفر الخندق أعلنت فئة من المنافقين أنها مضطرة للعودة للمدينة (سواء للمبيت هناك فقط أو عودة نهائية)، وبحجة ذكرتها آيات سورة الأحزاب: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣).

وبقاؤهم في المدينة تسبب في إحداث مشاكل سنبينها فيما بعد، وقد أشارت لها السورة كما يلي:

الحدث الأول: شيء قاله الكافرون والمنافقون والآيات تنزل لتحذر الرسول من الاستماع له والتصديق به: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً(٣).

وهو ما أكدته السورة في آية لاحقة: (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى



اللهَّ وَكَفَى بِاللهِّ وَكِيلاً(٤٨).

فما الذي كان يقوله الكفار والمنافقون وصدقه الرسول؟

الحدث الثاني: تتحدث السورة عن نساء النبي وتشريع ضوابط عليهن التقيد بها: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً(٢٩) يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِّ يَسِيراً(٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِّ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهَّ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَّ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً(٣٤).

ما هو السبب في أن تُخير نساء النبي بين التمتع بالدنيا وسيطلقهن الرسول أو اختيار الآخرة والالتزام بضوابط صارمة: عدم الخروج من المنزل، تلاوة القرآن، عدم التبرج والتزين ...الخ.

لماذا يحذرن من الزنا، وأن من تزني منهن فسيكون عقابها ضعف عقاب أي امرأة مسلمة أخرى ليست زوجة للرسول، لأنهن لو لاكت سمعتهن الألسن فسيكون هذا مجالاً لشن حرب معنوية على الإسلام والرسول من قبل الأعداء. وسيؤثر على مسار الدعوة لله ودخول الناس في الإسلام.

فما الذي حدث لكي يتم تحذيرهن من الزنا؟

خاصة أن سور القرآن لا تفترض مواقف أو أحداثاً لم تقع ثم تبني عليها تشريعات أو أوامر.

الحدث الثالث: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُّ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ



مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً(٥٣) إِن تبدو شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٥٥)

هذه الآيات تنهى عن دخول بيوت (حجرات الرسول) بدون إذن.

يعني أنه قد حدث أن دخل مسلمون لبيوت الرسول بدون إذن واطلعوا على زوجات الرسول وهن متحللات من ملابسهن. والنهي لكي لا يتكرر رؤيتهن (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ).

وإن كان ولابد من الحديث معهن فقفوا بالخارج حتى يكون الجدار حاجبا بينكم وبينهن. أما الدخول بغتة وإطلاعكم على ما تكشف من أجسادهن فلا يجوز.

كما أنه يؤذي مشاعر الرسول ويضايقه (ويبدو أن الرسول كتم مشاعره لئلا يزعج أصحابه).

وما حدث هنا كان مناسبة لفرض تحريم زواج الرجال بزوجات الرسول بعده، لكي لا يفكر أحد بالتسلل للنظر إليهن. وتقول الآيات إن تلك الأفكار التي تراود الذين يتحينون الفرص لغياب الرسول ويدخلون بيوته دون استئذان طمعاً في الاطلاع على عورات نسائه، يعلمه الله ولو أنه مجرد تفكير.

وتؤكد السورة في آية لاحقة أن تلك التصرفات تؤذي مشاعر الرسول: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(٥٧).

الحدث الرابع: تقول السورة إن هناك أذى مماثلاً حصل لزوجات بعض المسلمين: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٥٨).

فالرجال الذين كانوا يجوبون طرقات المدينة ويتسللون لبيوت الرسول فجأة ودون استئذان، كانوا أيضاً يتسللون لأي بيت ممكن دون استئذان وليس فقط بيوت الرسول، وهذه الظاهرة عمت المدينة.

هنا يمكننا القول إن المنافقين الذين استأذنوا الرسول للعودة للمدينة وترك حفر الخندق – بحجة أن بيوتهم عورة – هم من عاث في طرقات المدينة فساداً، مستغلين خلوها من



الرجال.

وبما أن السورة نزلت بعد فشل حملة الأحزاب وعودة رجال المسلمين للمدينة، إلا أن ظاهرة مطاردة النساء ودخول البيوت خلسة لم تتوقف، والدليل أن تلك التصرفات كانت تتم تحت سمع وبصر المسلمين وكانت تؤذي الرسول.

فجاء تخيير نساء الرسول بأحد أمرين إما التزام أقصى حدود الحشمة (كما بينت الآية) أو تسريحهن، لأن تسامحهن وتبسطهن في الحديث مع الرجال، يعطي من في قلبه مرض انطباعا أنهن لا يمانعن الفاحشة، حتى لو أنهن بريئات. كما يفتح الباب على مصراعيه لأن يتقول عليهن من بقلبه مرض وينشر إشاعات كاذبة عنهن أنهن قلن كلاما لم يقلنه أو تصرفن تصرفاً لم يصدر منهن. وبحكم أن سمعة رسول الله هامة لنشر الدعوة فلا تساهل في هذا المجال. لذا فرض عليهن ضوابط للحشمة يجب عليهن التقيد والالتزام بها، ليقطعن دابر الإشاعات وليكن قدوة لكل نساء المسلمين اللاتي تعرضن لنفس المضايقات التي تعرضت له نساء النبي: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩).

والكلام الذي قد يكون بعضه صدقه الرسول هو تلك الإشاعات الكاذبة التي كان يطلقها المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن نساء المدينة.

وتفرض السورة عقاباً لأولئك العابثين مرضى القلوب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(٦٢).

إذا لم يتوقفوا عن عبثهم فوراً فيجب نفيهم: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً.

ومن لم يقبل بالنفي فيجب قتلهم: مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً.

((وهذا الحكم ساري المفعول في أي زمان، فكل من يعمل على إشاعة الفاحشة بأي وسيلة في المجتمع المسلم فيجب نفيه، فإن استمر يشيع الفاحشة وهو في منفاه فيجب قتله)).

وتواصل السورة لتؤكد على المسلمين أن يتقوا الله ولا ينقلوا إلا أقوالا سديدة (أي بعيدة عن تناقل الإشاعات الكاذبة التي يطلقها من في قلوبهم مرض على النساء): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ



آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً(٧١).

فمرضى القلوب لم يكتفوا بملاحقة النساء والتسلل للبيوت، بل وأطلقوا الإشاعات الكاذبة عن أن بعضهن مارسن الفاحشة معهم أو أنهن لا يمانعن ....الخ.

وتواصل سورة النور – التي تلت الأحزاب في النزول– فرض ضوابط فرضتها الأحداث التي نتجت عن ممارسات مرضى القلوب.

تبدأ سورة النور بالقول أنها نزلت لمعالجة ظروف طارئة: سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١).

فالمجتمع المسلم المدني يعاني من نتائج ممارسات مرضى القلوب ولابد من وضع ضوابط صارمة ليس فقط تجتث تلك الظواهر وتعيد المجتمع لحالته الطبيعية، بل وتضمن حماية المجتمع من تكرار حدوث مثل تلك الممارسات.

ومن الآيات (الضوابط) التي فرضتها الآية للقضاء على تلك الظاهرة التي عمت أرجاء المدينة:

(١) كل من ثبت عليه الزنا من رجل أو امرأة يجلد: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢).

(٢) كل من يكرر الزنا فلا يجوز للمسلمين الزواج به أو بها: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣).

لأن كل من يواصل اقتراف أي كبيرة وهو يعلم بتحريمها فلن تقبل توبته وبالتالي فهو خالد في النار ولو بقي يتنسب للإسلام (يمكن مراجعة شروط قبول التوبة).

وعليه فالزاني لا يجوز أن ينكح مسلمة والزانية لا يجوز أن تنكح مسلماً.

وهذا يعني عزل الزناة عن المجتمع المسلم عزلاً يعذبهم معنوياً، وكأنهم مصابون بمرض قاتل شديد العدوى.

(٣) فيما سبق ذكرنا أن مرضى القلوب أشاعوا الإشاعات الكاذبة عن بعض نساء المدينة،



ففرضت السورة حكماً بحق كل من يروج أن تصدر منه إشاعة كاذبة تتهم امرأة بالزنا: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فكل من يتهم امرأة بالزنا فعليه أن يحضر أربعة شهود يؤكدون زعمه، وإلا فليجلد ثمانين جلدة، ولا تقبل لهم شهادة أبداً. وهذا نوع آخر من عزلهم عن المجتمع كعذاب مستمر لهم. إلا من تاب.

((هنا يجب أن نشير إلى ما رسخه الفقه الموروث أن الزنا يثبت بأربعة شهود يؤكدون دخول الميل بالمكحلة. وكأن هذا ما تقصده الآية. والحقيقة أن رؤية الميل بالمكحلة مستحيل، كما أن الآية لم تقصده. الآية تقول إن الشهود مطلوبون في حال أشاع رجل أن امرأة بعينها تمارس الزنا. وفي هذه الحالة عليه أن يحضر أربعة شهود معه يؤكدون بطريقة لا تقبل الجدل أن المرأة تزني. والتأكد من صحة أقوال الشهود من عدمه لا يقاس برؤيتهم الميل بالمكحلة، بل بما يقدمونه من أدلة وقرائن)).

(٤) كل من يتهم زوجه بالزنا بدون دليل وقرينة فلابد من اللجوء لهذه الإجراءات: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ(٧) عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٩).

ولو حدثت الملاعنة فيفرق بينهما ويعتبر الزواج لاغياً.

(٥) ثم تواصل السورة الحديث عما حصل في المدينة وما اجتاح المجتمع نتيجة لممارسات مرضى القلوب وما أشاعوه من أكاذيب بحق النساء وتصديق بعض الرجال لما وصلهم لدرجة اتهام أزواجهم: (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١).

تقول الآية إنه رب ضارة نافعة. صحيح أن ما حدث كان مزعجاً وتسبب بمشاكل اجتماعية، لكنه كان سببا في نزول ضوابط تمنع حدوث ما حدث مرة أخرى، وهذا خير.



ثم تعود الآيات لمخاطبة المسلمين، الذين تناقلوا الإشاعات دون أن يتحققوا من صحتها، وتذكرهم بما كان يجب عليهم أن يفعلوه عندما سمعوا تلك الإشاعات الكاذبة عن نسائهم: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ(١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ(١٦) يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧) وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٨).

فلو أنهم أحسنوا الظن بأنفسهم ونسائهم، لقالوا لكل من يتكلم عن النساء بأن يؤكد كلامه بشهود أو أن كلامه مرفوض. لكنكم استمعتم لتلك الإشاعات، بل وتناقلتموها، في وقت كان يجب عليكم أن تقولوا: مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وتحرم الآيات العودة لتناقل مثل تلك الإشاعات والخوض في أعراض الناس تحريماً قاطعاً.

ثم توجه الآيات الحديث إلى مرضى القلوب الذين كانوا السبب وراء ما حدث: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٢٠).

وتعود لتحذير المسلمين مرة أخرى في الخوض في أعراض الناس، خاصة أن ما قد يقترفه شخص قد يقترفه شخص آخر ولا أحد معصوم، فكيف ننتقد تصرفاً قد نتصرف مثله نحن: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢١).

إذاً، حكم الزنا حرام لو حدث بين شخصين في الخفاء. لكن لو أن الزنا أصبح ظاهرة فيجب جلد الزناة ومعاقبة كل من شجع على انتشاره في المجتمع بكل صرامة.

ويكون جلد الزاني حكماً يطبق في حالات معينة، وهو عقوبة دنيوية وليس تشريعاً دينياً، ويمكن للمسلمين استبداله بعقوبة أشد لو انتشرت ظاهرة التفسخ الأخلاقي. وعقوبة



الزناة والشواذ بكل قسوة، لتطهير المجتمع المسلم منهم. وتشمل العقوبات القاسية كل من عاون على انتشار الرذيلة بأي وسيلة متاحة. وفي عصرنا فإن أشد الوسائل تأثيراً هي وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة، وكلها تم استغلالها لتسميم أفكار الشباب من الجنسين ونشر الانحلال الأخلاقي، في حرب عاهرة ظاهرة على دين الله يجب أن تواجه بكل ما يلزم وبكل عقوبة للقضاء عليها.

وتكون سورة النور لا تقص علينا حادثة ألصقها سلف المحدثين والمفسرين والمؤرخين بأم المؤمنين عائشة، والتي ورثناها كواحدة من القصص المختلقة الكثيرة التي رسخها التراث ولم نعد نفهم من آيات القرآن غيرها.

العصبية القبلية دعوها فإنها منتنة

الخضيري والبيسري وألقاب أخرى لمن لا يعرفها لفظ للتنابز يطلق في جزيرة العرب على من لا ينتمي لقبيلة عربية. وعرب جزيرة العرب والعراق وأجزاء من الشام الذين يجعلون من الانتساب للقبيلة أولوية في حياتهم لا يزيدون عن أربعين مليون من أصل ٣٥٠ مليون عربي.

ولن نتحدث عن أصول هذه التسميات، ولا عن أن من ينتسب للقبيلة قد لا يكون منها وأن القبيلة لا تعني بالضرورة نسباً واحداً أو حتى نسباً معروفاً، مما بدأ يتضح مع ظهور أبحاث الحمض النووي، فغيرنا كتب وأطال في هذه المواضيع، إضافة إلى أنها لا تفيد موضوعنا بشيء.

ما سنتحدث عنه هو موقف قريش (القبيلة) من الدين، مقابل موقف الموالي والعبيد السابقين (الذين يمثلون الخضيري والبيسري في عصرنا) ولنتعرف على ما قاله الله جل شأنه في كتابه عن مواقف الفريقين.

لقد بدأت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام في مكة وموجهة لقريش تلك القبيلة العريقة التي تنتمي للنبي إبراهيم. وكانت الموالي والعبيد السابقين هم من استجاب لدعوة الحق وشكلوا أغلبية المسلمين بينما أعرض عنها معظم أبناء القبيلة إلا نفراً قليلاً بعضهم اهتدى للحق وكفر بالقبيلة، وبعضهم أعلن إسلامه وأبقى على مفاخرته بالانتساب للقبيلة.



وهؤلاء وغيرهم من رجال القبيلة عرضوا على الرسول أن يطرد المستضعفين من الموالي (الخضيرية) وسيدخلون الإسلام، كونهم يعتبرون مساواتهم معهم إقلالاً وعيباً لهم.

فجاء الخطاب القرآني الموجه للرسول صارماً: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

فلو طردتهم يا محمد فستكون من الظالمين

والظالمون يقول الله إن مأواهم النار: لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) الأعراف.

فالرسول لو اتبع رجال القبيلة على حساب الخضيرية فسيكون مصيره مصير الظالمين.

وفي المقابل تواصل السورة لتقول للرسول إنه يجب أن يعامل (الخضيرية) بكل احترام لأنهم هم من جعل الدين أولوية: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤) وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ(٥٥) الأنعام

فما الذي حدث لرجال القبيلة الذين عرضوا على الرسول طرد الخضيرية؟

لقد ارتد البعض منهم كون القبيلة أهم شيء في حياته، أو كما يقول مثل عامي ساري المفعول حتى اليوم: النار ولا العار.

يعني أن يدخل القبيلي النار ولا يُعيّر في الدينا.

القبيلي الذي طلب طرد الخضيرية لكي يسلم، لأنه ينظر لهم أنهم أقل إنسانية منه: كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣) الأنعام وبقي غالبية من دخل الإسلام من القبيلية يوالون القبيلة ويعتبرون النسب أهم من الدين برغم تحذير القرآن: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(٤٣) العنكبوت.



ولكنهم لم يلتفتوا للتحذيرات القرآنية فتكرر التحذير: وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ(١١٣) هود.

واستمروا يعيرون المسلمين الخضيرية ويتفاخرون بقبليتهم فتكرر التحذير: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣).

ورجال القبيلة استمروا حتى بعد الهجرة في التفاخر بالقبيلة وتعيير من لا ينتسب لها، فكانوا يوالون الكفار من قبيلتهم ويعادون الخضيرية المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١) الممتحنة.

ورجال القبيلة هم من حاول ثني عزم الرسول والمسلمين عن قتال رجال قبيلتهم في بدر: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦) الأنفال.

وقبل بدر نزلت سورة محمد التي تنص على عدم أسر الكفار بل قتلهم لإثخانهم وإضعاف قوتهم: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

هذا القانون الإلهي عمل رجال القبيلة (قريش) على مخالفته في معركة بدر، فقد فضلوا أسر أقاربهم الكفار لكي لا يقتلوا: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧) لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٦٨) فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ



رَّحِيمٌ(٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٠) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٧١) الأنفال.

ورجال القبيلة هم من تسبب في هزيمة المسلمين في معركة أحد. ذلك أن المسلمين انتصروا في البداية وهرب المشركون ولما حاول المسلمون اللحاق بهم وإثخانهم بزيادة القتلى اعترضهم رجال القبيلة الذين يوالون أقاربهم الكفار وحصلت مشادة بين الفريقين تسببت في بلبلة الصفوف استغلتها قريش الكافرة وكرت على المسلمين وهزمتهم: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣) آل عمران.

واستمر رجال القبيلة بموالاة قبيلتهم المشركة حتى توفي رسول الله، وهو ما تظهره سورة براءة التي كانت من أواخر السور التي نزلت على رسول الله، والتي تقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤)).

مما يعني أن الرسول عندما توفي كان رجال القبيلة أكثر ميلاً وموالاة لمشركي قريش، مما مضى، وبينهم وبين بقية المسلمين فجوة لا يمكن رقعها. وإن حدث خلاف بين قريش المشركة وبين المسلمين، بعد رسول الله، فلن يكتفي رجال القبيلة بالموالاة والعمل كطابور خامس بين المسلمين، بل سيسارعون بالعون الفعلي للمشركين على المؤمنين وبكل وسيلة.

وهناك الكثير من الآيات التي تجاوزنا ذكرها تتحدث عن أن الإسلام هو ما يجب أن ينتسب له المسلم وأن يكفر بالانتساب للقبيلة كتفاخر وعصبية لأن هذا من الجاهلية وليس من الدين: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ



وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٢٦) الفتح.

فالذين في قلوبهم الحمية هم قريش أو القبيلة.

ونختم في وصف الله للمهاجرين (الذين غالبيتهم من الخضيرية) أو ممن انتسب للإسلام وتناسى الانتساب للقبيلة وما وصف الله به الأنصار الذين يمثلون النسب الأقل شأناً في يثرب من بني إسرائيل الذين يمثلون (القبيلة الأعلى شأناً)، يقول تعالى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠) براءة.

~~فرجال القبيلة هم من حاول قتل الرسول وهم من حارب الإسلام~~ بينما نصره الخضيرية كابن مسعود واليسري خباب والزنجي بلال وقلة من قريش نبذوا القبيلة وانتسبوا للإسلام كابي بكر وعمر وسعد وغيرهم.

وبعد

ما الذي استفاده الإسلام من الانتساب للقبيلة؟

لو كان الأعراب في الأندلس تخلوعن التفاخر بالأنساب لتعلموا صناعة السلاح واستطاعوا حماية أنفسهم من الصليبيين ولما طردوا منها كالجرذان.

مرة أخرى أتساءل: ما هي الفائدة من الانتساب القبلي للدين أو للبشرية أو للمجتمع أو للفرد نفسه.

ونقول لمن يضع الانتساب للقبيلة كأولوية وهو من أتباع كتب التراث والمذاهب، إن عقديته يأخذها من الخضيرية. فابن باز خضيري وابن تيمية والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم فأنت مدين بدينك ليس لرجال القبيلة بل للخضيرية.

المؤسف أن هناك عائلات كريمة محترمة مثقفة واعية وكثير منها ذات جاه دنيوي ومال، تسعى للانتماء لأي قبيلة لتحظى بما تظنه شرفاً قبلياً، وما هو سوى حمية يجب التخلص منها.



هل صاحب المال حر بماله

ثقافتنا الحالية تعتبر جمع المال غاية بذاتها، ونقيس نجاح الإنسان بقدرته على ذلك.

والمفهوم السائد اليوم هو أن الغني لو سكن قصرا جدرانه مطلية بالذهب وأوانيه من الذهب وسيارته بملايين الريالات ولبس أغلى المجوهرات، فهذا من باب إظهار نعمة الله عليه والتحدث بها مصداقاً لقوله تعالى: وأما بنعمة ربك فحدث.

فهل هذا ما تقوله الآية، وهل للغني الحق بصرف ماله كيفما يشاء؟

المعتاد بيننا الآن هو أن أصحاب الأموال يوصون بإخراج الثلث من أموالهم لتصرف – بعد موتهم – في أعمال يظنون أنها خيرية، وكأنهم بهذا أدوا ما عليهم في أموالهم لله. ولن نتحدث عن هذا لأننا سبق وبينا خطأ هذا المفهوم، في موضوع خاص بالوصية وأنها ليست للميت ولكنها للوالدين والأقربين.

وهنا سنحاول استعراض بعض الآيات ونرى هل لصاحب المال الحق في صرفه كيف يشاء وأين يشاء؟

يقول تعالى: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً(٢٨) وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) بني إسرائيل.

الآية (٢٦) تأمر بإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل (وكل محتاج) وتصف هذا الإيتاء بأنه حق مفروض لهم وليس تفضلاً من الغني، إن شاء فعله وله أجر وإن شاء منعه وليس عليه ذنب. بل هو واجب عليه.

وتنهى بشدة عن التبذير، في أي مجال.

وتصف الآية (٢٧) المبذرين بأنهم إخوان الشياطين، وكفروا بها أمر الله (الذي نهاهم عن التبذير).

ونهت الآية (٢٩) عن التقتير والبخل على النفس والآخرين.



فالصرف المعقول على النفس والغير هو المطلوب.

ويقول تعالى في سورة النور: وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢).

الآية واضحة المعنى فهي تنهى أصحاب الأموال من أن يمتنعوا عن إيتاء أولي القربى والمساكين والمهاجرين (وكل أهل الحاجة). فهي تؤكد أن المال لصاحبه ما صرفه فيما أمر الله وفي وقت الحاجة للمحتاج، وليس بعد موته.

ويقول تعالى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

الآية (٣١) تأمر قريشاً بالأكل والشرب بالمعقول، وتنهى ألا يصلوا إلى الإسراف في الأكل والشرب وغيره.

الآية (٣٢) تقول إن التزين في الملبس حلال (ما دام في حدود المعقول) فيمكنني أن ألبس لباساً أنيقاً نظيفاً لكن سعره لا يصل للإسراف (اللبس يدخل في ذلك الساعة والمجوهرات والعطور ونحوها). ويمكن الأكل والشرب والمركب والمسكن بالمعقول كذلك. هذا هو الحلال البعيد عن الإسراف الحرام.

وسورة الزمر تؤكد أن كسب المال ليس غاية في الدنيا، وعلى من يملك المال صرفه بالحق، وليس حفظه وجمعه: وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ(٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ(٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ



الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥٢) الزمر.

إذاً، المال هنا ليس أداة للتفاخر، ومن لا يصرفه في حقه فسيتحول فتنة لصاحبه وعذاباً له يوم القيامة.

وتخبرنا سورة سبأ أن أصحاب المال والجاه هم من يحارب الدين لأنه يحد من تصرفهم بأموالهم كيفما يشاؤون: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩) سبأ.

الآية (٣٤) تعني أصحاب المال والجاه ضد الدين لأنه يحد من فسقهم.

الآية (٣٥) قد يصل بالغني التفكير الخاطئ أنه يمكن له أن يصرف قليلا من أمواله في بعض مجالات الخير وسوف يغفر له الله ذنوبه وفسقه وتكبره ويدخله الجنة.

الآية (٣٦) المال ليس مقياساً لأي صفة نبيلة.

الآية (٣٧) المال لن يُقرّبَ صاحبه من الله إلا إذا صرفه فيما أمر الله وابتعد عن كل تصرف أو مظهر محرم.

الآية (٣٨) من فعل غير ما أمر الله بالمال ففي العذاب محضرون.

الآية (٣٩) الغنى والفقر ليس مقياساً للإنسانية، والإنفاق واجب على الغني.

وتخبرنا سورة القصص عما قال القرآن عن قارون، الذي هو رمز لكل من يملك رؤوس الأموال الهائلة ويتباهى بما يملك ويشعر بالكبر والخيلاء نتيجة لذلك (أو بمعنى مفهوم شائع الآن عند البعض بأنه إظهار النعمة والتمتع بها كيفما يشاء صاحبها): إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْض إِنَّ اللهَ لَا



يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ(٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣) القصص.

الآية (٧٦) تصف قارون بأنه من أصحاب الأموال الطائلة، وكان يتباهى بذلك (فرح).

الآية (٧٧) وكان عليه ألا يتباهى بل ينفق ثروته بمجالات الخير، ويبقي منها ما يكفيه في حياته: (ولا تنس نصيبك من الدنيا).

والمال عادة يؤدي لأنواع الفساد في مجالات كثيرة وشراء الذمم.

الآية (٧٨) تظهر منطق قارون وهو مطابق لمنطق كل قارون في كل زمان ومكان (المال مالي وأنا حر في صرفه كيفما أشاء) وهذا المنطق مرفوض من الله.

الآية (٧٩) تظهر قارون في صورة من صور التباهي، والتي عادة ما تأسر قلوب الفقراء والمحرومين ويتمنون لو كان لهم ما لقارون.

الآية (٨٠) العقلاء يعلمون أن مظاهر الدنيا ليست هدفا بحد ذاتها.

الآية (٨٣) الجنة لن يدخلها من يتعالى في الأرض (يتكبر) ويفسد أو ينشر الفساد، وهو ما يقوم به عادة أصحاب المال والنفوذ.

وكان عليهم أن يعلموا أن ميزان التفاضل بين الناس ليس الجاه والمال والسلطة والنفوذ، ولكن اتباع شرع الله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) الحجرات.

وخلاصة كلامنا السابق توجزه سورة البقرة بالقول إن البر الذي يفخر به المسلم هو إقامة شعائر الدين وإيتاء المال برغم تعلق النفس به (في كل مجالات الخير والتنمية وليس بجمعه



أو التباهي به أو صرفه كيفما يشاء بأشكال مبالغ فيها لدرجة التبذير): لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

وتفرض سورة النساء قانون الحجر على من يبذر ماله ولو بطرق مشروعة في الأصل، وتنعته بالسفيه: (وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٥) النساء.

ونختم بالتذكير بالمقصود بقوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) في الأسطر التالية:

الآية وردت في سورة الضحى: وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى(٦) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١).

والسورة نزلت في وقت اشتد فيه الأذى النفسي على رسول الله من قريش، وذلك لتشد من عضده وتذكره بأن الله معه وقد أسبغ عليه الكثير من النعم، وتقول: إن الله لم يترك، وسيجزيك خيرا في الآخرة، حيث ستنال في الجنة ما يرضيك.

وبالنسبة للدنيا فمن نعم الله عليك أن يسر لك المأوى وأنت يتيم في صغرك، وهداك لدينه، وكنت في ضائقة مالية فأغناك.

فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل، وبنعم الله المختلفة حدث من باب الشكر والعرفان.

فكما ترى نعمة ربك فحدث بها لا تعني التباهي بالمال والأملاك ولكن بشكر ما يسر الله للرسول خلال مراحل حياته.

وبالتالي فالاستشهاد بها على صرف المال كيفما نشاء بلا ضوابط فقط لأننا نملكه هو استشهاد في غير محله.

ويمكن القول إن تنمية المال مطلوبة في الإسلام لكي يصرف على بناء الأمة ومشاريعها وقوتها وعزتها وحرب الفقر والفاقة. ويحرم جمع المال من مجموعة من فرعون وهامان



وقارون يتلاعبون به ويتكبرون على غيرهم ويكون المال مجالاً للإفساد وفساد غيرهم كما يحرم اعتبار المال صفة للجاه والسلطة وتقسيم الناس بناء على مقدار رأس المال إلى بشر وأنصاف بشر.[1]

الإسلام وشهادة غير المسلمين

يبتهج كثير من المسلمين عندما يتحدث أحد من غير المسلمين عن الإسلام بأريحية أو عندما يدلون بشهادة حق عن الرسول.

والسؤال هنا هو: هل يحتاج الإسلام أن يشهد له هؤلاء لكي نتأكد أنه حق؟

أم أنه يجب ألا ينظر لأي كلام عن الإسلام أو عن نبي الإسلام من غير المسلمين – ولو كان حقاً – على أنه شهادة بصدق الإسلام والرسول، بل ينظر له على أنها مجرد رأي شخصي لشخص لا وزن له في تقييم دين الله.

وأن دين الله حق ولو كفر به كل الناس.

وهذا يجعلنا نتوقف عند:

البحوث الغربية عن الإسلام

أوروبا قارة وثنية منذ أمد طويل جداً، وبدءً من القرن الرابع دخلتها المسيحية وانتشرت في كل أرجائها مبقية على الكثير من الطقوس الوثنية عن طريق تبنيها في الدين الجديد. ولما جاء عصر النهضة ونادى بحرية الفكر والمعتقد أخضع الأوربيون دينهم الذي فرضته عليهم روما بالقوة والجبروت، إلى المحاكمات العقلية. فاكتشفوا أن دين روما ليس دينا لله ولا يمكن أن يكون، ولكنه دين بعيد عن العقل ويجعل الناس عبيدا للكنيسة والحكام. فتخلصوا من السلطة الدينية – وإن بقي التراث الديني المسيحي جزء من الشخصية الغربية.

ولأن الثقافة الغربية هي المسيطرة على العالم نتيجة لسيطرة الغرب وتفوقهم العلمي والعسكري، فإن الغرب ينظرون لكل ما لديهم على أنه هو الأكثر تطوراً وينظرون لغيرهم على أنهم أتباع لهم. لذلك فهم يفرضون ويروجون لثقافتهم وكل ما ينتمي لهم على أنه

[1] انظر فقرة: الوصاية على مال السفيه وفقرة: الوصاية على مال اليتيم / قسم تشريعات من القرآن.



الأفضل.

ولأنهم اكتشفوا تفاهة دينهم، فقد تعاملوا مع كل الأديان بما فيها الإسلام على أنها كدينهم - لا تصلح لتسيير الحياة، ولا يمكن أن تكون صادرة من خالق الكون. خاصة أن الإسلام الذي تعرفوا عليه قد خربته كتب التراث ورجال الدين.

والعداء الأوروبي للمسلمين متجذر وعميق. والمسلمون وحدهم من بين كل الشعوب الأخرى هم من هزم الأوربيون واستولى على أجزاء واسعة من بلادهم وطردوهم من بلاد الشام وشمال أفريقيا والأناضول، بل وقضوا على الكنيسة الشرقية في القسطنطينية ودكوا أسوار روما وكادت تقع في أيديهم. في المقابل كان هناك حملات صليبية وحشية على الشرق الأوسط المسلم دام لمئات السنين. ومنذ ظهور الإسلام وهناك ثارات متبادلة بين الغرب والمسلمين، أورثت كراهية وعداء عميقاً جداً بين الكنيسة والمسجد، لن تسمح للباحث الأوروبي أن يدرس القرآن دراسة أكاديمية بتجرد. خاصة أن الكنيسة هي التي كانت تمول رحلات المستشرقين للتعرف على المجتمعات الإسلامية ودراسة القرآن بهدف حربه وتنفير المجتمع الغربي منه. فلم يكن متوقعاً أبداً أن تظهر أي دراسة محايدة أو متجردة عن الإسلام والقرآن. وحتى لو حاول أحد المستشرقين أن يكتب ما تعرف عليه من القرآن وهو مخالف لما هو سائد في الغرب عنه، فلن يقبل منه ولن يجد من ينشره. لذا قامت دراسات الغربيين للإسلام على ما قالته كتب التراث ولم يدرسوا القرآن أو يتعرفوا عليه مباشرة.

وكل ما قيل عن أنِ البحوث الغربية بحوث علمية متجردة؛ يتحول إلى فرضية لا وجود لها عندما يدور البحث عن الإسلام وكتابه ورسوله. وتتحول إلى بحوث موجهة وتسعى لترسيخ فكرة موجودة مسبقاً عن الإسلام ومنتشرة في المجتمعات الغربية، تتمثل بتصوير الرسول برجل بوهيمي معتوه ومهووس جنسياً، وكتابه عبارة عن اقتباسات مشوهة من كتب المسيحيين واليهود.

وعادة ما تعتمد البحوث الغربية عن الإسلام على طرح الأسئلة، وهذا شيء هام، لكنها لا تطرحها لتبحث عن إجابة، ولكن لتثير الشك وتتركها بلا إجابة لترسيخ الشك الذي أثارته. كما تعتمد الإثارة في العناوين: الإسلام: القصة التي لم ترو، تاريخ القرآن، مصادر الإسلام، التطور التاريخي للإسلام، القرآن الجهادي في المدينة والقرآن الوادع في مكة.... الخ



هذه العناوين ترسخ لدى القارئ انطباعاً أن هناك نتيجة تم التوصل إليها في الكتاب أو الفيلم. بعبارة أخرى: العنوان يوحي إلى أن المعد أو المؤلف استطاع التوصل إلى حقيقة للإسلام غير تلك التي يروج لها المسلمون، فاختار هذا العنوان. أو أن المؤلف عرف وتوصل إلى أن للقرآن تاريخاً يختلف عما هو معروف فاختار اسم كتابه: تاريخ القرآن، أو أن المؤلف قد توصل وعرف أن الإسلام يقوم على مصادر بشرية فاختار عنواناً لكتابه: مصادر الإسلام. أو أن القرآن أصبح عدائياً في المدينة بعدما أصبح لأهله دولة... وهكذا.

وهذه العناوين من شأنها أن ترسخ في عقل القارئ أن الإسلام عمل بشري، وهذا هو المغزى أصلاً للتأليف، بحيث إنه لو لم يقرأ القارئ الكتاب أو لم ير الفيلم فسيترسخ في ذهنه ما رغب المؤلف أن يوصله من رسالة عن الإسلام.

للأسف كل ما تخرج به هذه البحوث سواء كانت مرئية أو مقروءة هو إثارة فقط وأسئلة – كثير منها تعسفي – بلا إجابة. يظهر تحيزاً وعدائية أكثر من الحيادية. وتنطوي سطورها على اتهامات وتهجم مبطن ومكشوف على الإسلام ورسوله. وتعتمد البحوث الغربية على أن المؤلف يضع فرضية لم تقع ويقر بأنها كذلك، ثم في صفحات لاحقة من الكتاب أو الفيلم نجده يعتمد تلك الفرضية كأنها حقيقة ويبني عليها ما يرغب في بثه وما يريد أن يلصقه بالإسلام ورسوله.

وتتبنى البحوث الغربية تبجيل الكتاب المقدس لليهود، وترسيخ فكرة أن اليهود هم أول من عرف التوحيد في العالم، وكل من جاء بعدهم هو مجرد مقتبس منهم، مما يرسخ أن الإسلام مجرد اقتباسات مشوهة من اليهودية.

والكتابات الغربية يستحيل أن تكتب عن الإسلام بتجرد. وهذا بالنسبة لي شيء مفهوم ومتوقع. فالكتاب الغربيون والمستشرقون القدماء والمعاصرون، تم تمويلهم من قبل الكنيسة والمؤسسات التبشيرية. ولن يكون من المتوقع ولا المقبول أن يكتب الكاتب بحيادية عن الإسلام أو يتحدث عن حقيقة الإسلام. وحتى لو فعل بقصد أو بدون قصد فلن تنشر كتاباته. ولهذا يمكن ملاحظة أن غالبية كتابات المستشرقين لا تنشر حال انتهاء الكاتب من كتابتها بل تمر سنوات بعد ذلك قبل النشر. ولعل هذا يعود إلى أنه يتم مراجعتها وتعديلها وتنقيحها.



وبما أن الكتاب الغربيون يكتبون للمجتمع الغربي فكل كلام يصور الإسلام ورسوله بمظهر سيء سيلقى الترحيب، لأن المجتمع خاصة – فيما مضى – تقوم ثقافته المتوارثة على تصور الإسلام ديناً وثنياً مقيتاً، ورسوله رجلاً فاسداً. ولو كتب شيء جيد عن الإسلام والرسول فسيكون مثار استهجان الرأي العام الغربي.

ويضاف لهم بعض الكتاب العرب الذين تملأ كتبهم المكتبات. وهي كتابات متشابهة تقول إنها تكشف للناس حقائق عن الإسلام مسكوتاً عنها ولا يعرفها عامة المسلمين. وعندما تقرأ هذه الكتب فهي – بلا استثناء – تورد قصصاً وروايات من كتب التراث التي كتبت في العصر العباسي، وهو ما يعني أن هذه القصص لم يسكت عنها ولم تكن مخطوطات أثرية وهؤلاء أول من اكتشفها.

وهذه المؤلفات لا تأتي بجديد وإنما تعتمد على إيراد خبر يمكن استخدامه لخدمة ما يريد المؤلف قوله ونسبته للإسلام من أي كتاب تراثي، ثم الحديث عنه على مدى صفحات من كلام الكاتب الشخصي لمهاجمة القرآن والإسلام.

وحتى اللحظة، لم أجد – وأنا أتحدث عن نفسي – وأكرر: "لم أجد كتاباً واحداً يكتب بحيادية وينهج منهجاً أكاديمياً يهمه نقد النص القرآني أو محاولة دراسته دراسة أكاديمية متجردة من بين عشرات ومئات الكتب التي قرأت، سواء كتبت بالعربية أو المترجمة للعربية من لغات أجنبية أو مكتوبةً باللغة الإنجليزية".

وكل ما قرأت تتبع أسلوباً واحداً ابتدعه أولاً المستشرقون، وقلدهم غيرهم بعد ذلك. ويعتمد البحث في أي كتاب عن عبارة أو خبر يمكن لهم أن يجدوا فيه ما يخدم ما يبحثون عنه ويريدون قوله، ثم يكتبون حوله صفحات وصفحات.

وليس هناك كتاب واحد حاكم القرآن بما ورد في القرآن، ولن يفعلوا ولن يستطيعوا.

وكل ما يستطيعون فعله هو الاقتباس مما ورد في كتب التراث التي كتبت في العصر العباسي بعد أن عرف العرب الكتابة وأدوات الكتابة، وبعد أن وجدت طوائف لا حصر لها من ملحدين ومذاهب وعقائد، كل يكتب كيفما يشاء وينسبه للإسلام والرسول بأثر رجعي. وكل ما في هذه الكتب اتهامات سطحية هشة تدين من قالها ومن نقلها وتفضح ضحالتها.

كما ابتلي الإسلام في عصرنا بمن يمكن تسميتهم:



قُصَّاص العصر

الليبراليون والعلمانيون والملحدون المعاصرون يلومون الإسلام على ما يفعل البعض باسم الإسلام من جرائم في طول الأرض وعرضها لأنه - كما يزعمون - اتباع لتعاليم الإسلام وتقليد لهدي الرسول.

ونقول لهم هذا الإسلام وهذا الهدي لم ينزل به الله من سلطان ولم يعلم به رسول الله، ولكنه من صنع أناس وجدوا في العصر الأموي والعباسي، يتفقون معكم في محاولة التشكيك بالدين كهدف وغاية.

وهم من قام باختلاق القصص على الرسول بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بعشرات ومئات السنين، ومنها تلك القصة التي جعلوا بطلتها شخصية يهودية خيالية أسموها صفية بنت حيي ونسبوا للرسول أنه قتل والدها ثم قتل زوجها وفي نفس اليوم سباها وتسرى بها. وكل القصص والأحاديث المختلقة عن السبي والتسري زمن الرسول اختلقها أولئك لكي يهدموا الدين بيد وليخدموا الحكام باليد الأخرى، وذلك بتصوير جرائمهم ضد الشعوب الأخرى بأنها سير على هدي النبوة.

وكأن من اختلق القصص على الرسول والإسلام في العصور الغابرة أسلاف لمن يسمى اليوم بالليبراليين والعلمانيين والملاحدة لأن غاية الفريقين واحدة والوسيلة كذلك. فالسلف اختلقوا القصص وهؤلاء الخلف استغلوها في محاولات التهجم على الدين.

وسيخسئون كما خسئ الغابرون. فالإسلام ليس ما قال كعب الأحبار وابن سلام وابن جريج وقتادة والزهري مثلما أنه ليس ما يزعم المبطلون المُحْدَثُون، ولكن ما قال الله في كتابه العزيز ونقله لنا رسوله الأمين.

الأحلام

الأحلام علم بلا شك، والإنسان والحيوان والطيور تحلم. والنائم لابد أن يحلم لكنه ينسى معظم أحلامه التي رآها في المنام بعد دقائق من يقظته. ولو لم يهتم بأحلامه فسينسى البقية الباقية ويكون كمن لم يحلم.

وسأورد تسؤلاً ساذجاً هنا: إن كانت الأحلام – كما يظن البعض – تخبرنا عن شيء



سيحدث مستقبلاً لكننا نحتاج لمفسر أحلام لكي يخبرنا بذلك ولا نستطيع معرفته بأنفسنا. فمن يخبر الحيوانات والطيور بأحلامها التي يعتمد عليها مستقبلها؟

ولماذا يجب أن يفسر الحلم، بدل أن تظهر الأحلام لنا بوضوح ونفهم ما تقول دون حاجة لمفسر؟

والناس درجوا على القول إن هناك أحلاماً وهناك رؤيا، وكأن بينهما فارقاً.

والحقيقة أن ما نراه أثناء النوم هو حلم، فنحن نرى الحلم وهو مشابه لما تراه العين أثناء اليقظة ولكن بطريقة خاصة ونحن نائمون فهو رؤية في وضع معين، وكونه ليس رؤية حقيقية فهو حلم.

الكل يحلم سواء كان رسولاً أو مؤمناً أو كافراً، صغيراً أو كبيراً، بل إن الأحلام تبدأ معنا منذ الولادة.

ومن الطبيعي أن يصدق البعض أن الأحلام تتحقق والبعض لا يصدق. المهم هو ألا ندخل التصديق بأي شيء يتعلق بالأحلام على أنه له علاقة بالدين. وكأن من يصدق به يؤمن ومن يكذبه يكفر أو حتى يأثم. ولو كان له علاقة بالدين لذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العلاقة ولقال بوجوب الإيمان به أو إنكاره. كما هي الحال بالنسبة للرقية والسحر والجن ونحوها.

لكن لو قال مفسرو الأحلام إنهم يفسرون من عند أنفسهم فلهم ذلك، ومن صدقهم فسيأتيهم ومن كذبهم فسيتجنبهم.

وأكرر أن ما يراه الرسول في حلمه سببه هو نفس سبب الأحلام التي يراها غيره من الناس وينطبق على ما يراه الرسول كل ما ينطبق على ما يراه الناس غيره.

وكل ما قيل عن الآيات التي يستدل بها عن حقيقة الأحلام هو مجرد تأويل للآيات عن معانيها وسياقها. وفيما يلي استعراض لآيات ذكرت فيها الأحلام.

تقول سورة الصافات:

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظر مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي



الْمُحْسِنِينَ(١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) الصافات.

كعادة القرآن عندما يسرد لنا حدثاً من التاريخ القديم، فالآيات لا تفرض تشريعاً ولكنها تروي ما حدث كما حدث، ولا تقرر ما يجب أن يكون أو هل ما حدث صحيح أو خطأ؟

ولو تمعنا في الآيات فيمكن أن نفهم ما يلي:

** المؤكد أن إبراهيم عاش في زمن ومجتمع يؤمن بالأحلام، لأنه بمجرد أن رأى في المنام أنه يذبح ابنه كقربان لله، صدق ذلك وكاد أن ينفذه.

** والآيات عندما روت ما حدث لا تشرع أن الأحلام يجب أن نصدقها أو ننفذ ما رأينا فيها.

** بل إن الآيات تنفي أن نصدق الأحلام وننفذ ما رأينا فيها، بدليل أنها وجهت إبراهيم لأن يضحي بذبح عظيم قد يكون من أي نوع من الأنعام: الإبل، البقر، أو الغنم (شاع أنه كبش).

فقوله تعالى: « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" لا تمتدح إبراهيم لأنه صدق الرؤيا، ولكنها تقول له: لقد كدت تضحي بابنك من أجل حلم رأيته في منامك. وإن كنت ستقدم قرباناً لله فاذبح واحدة من الأنعام. وإبراهيم يملك بعض الماشية بدليل أنه عندما قدمت عليه مخلوقات كونية بهيئات بشرية ذبح لهم عجلاً: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) هود.

لكن الناس رسخ لديهم – بسبب ما ورد في كتب التراث – أن إبراهيم أراه الله حلماً يطلب فيه منه أن يضحي بابنه – كاختبار لمدى قوة إيمانه – وقد نجح إبراهيم في الاختبار وكان سيضحي بالولد. وهذا تأويل للآيات عن معانيها.

فالله لا يحتاج لأن يمتحن إبراهيم عملياً لكي يعرف عمق إيمانه. وصحيفة أعماله المغروسة في نفسه كفيلة بتسجيل عمق إيمانه، ولن يتدخل سبحانه في الامتحان فعلياً. وسيكون الحساب يوم القيامة.

ثم إن الله جل شأنه لا يحتاج لأن يمتحن إبراهيم فعلياً ليعرف عمق إيمانه، فهو من خلقه



• أقرب إليه من حبل الوريد. ((نقول هذا الكلام من باب الجدل فقط))

• كل ما حدث هو أن إبراهيم رأى مناماً يظهر فيه وهو يضحي بابنه لله، فصدق هو أن ما يراه في المنام كطاعة لله يجب عليه أن ينفذه حقيقة وإلا نقص إيمانه. فإبراهيم هو من ظن أن الأحلام تمثل الحقيقة. وحلمه يظهر جزءً مما كان سائداً في المجتمع وليس له علاقة بالله، ولم يأمر به سبحانه. ولعل الآية تشير إلى أن التضحية بالبشر للآلهة ممارسة معروفة في المجتمع زمن إبراهيم، ولما رأى الحلم كان سينفذه لأنه شيء معتاد. ولو كانت التضحية بالبشر غير معروفة فلن يرى إبراهيم حلماً يصوره وهو يضحي بابنه، لأنه لن يخطر على باله. وما لا يخطر على البال لا يراه النائم في حلمه[1]. والله جل وعلا أرشد إبراهيم أن الحلم لا علاقة له بعلاقة المخلوق بالخالق، ولا الخالق بالمخلوق. وأن عليه أن يضحي بواحدة من الأنعام — إن كان سيضحي لله — وليس بابنه.

إذاً، هناك فارق كبير بين فهم ما تقول الآيات وبين ما قالته كتب التراث عنها.

إبراهيم رأى حلماً يصوره وهو يضحي بابنه لله،و صدق أن هذا مطلوب منه من الله، فكاد أن يفعله لوجه الله كونه هو من صدق الحلم وليس لأن الحلم من الله. الله جل شأنه هدى إبراهيم (بطريقة لم يذكرها القرآن) إلى أن يضحي بأحد الأنعام بدل أن يضحي بابنه.

ولو كان الله قد أمر إبراهيم (في المنام كحلم) أن يضحي بابنه ثم وفي اللحظة الأخيرة فداه بكبش فالله أراد أن يختبر قوة إيمان إبراهيم ولما تأكد أنه قوي فداه (قال له أن يضحي بأحد الأنعام بدل ابنه) لأن الله تأكد من إخلاص إبراهيم.

هذا ما تقول وهذا ما تقوله كتب التراث... أنا لا أستطيع أن أقول عن الله هذا الكلام. فالله لا يحتاج لأن يمتحن قوة إيمان إبراهيم. والآية تصف تصرف إبراهيم بالبلاء العظيم لأنه كان سيقتل ابنه تصديقاً لحلم. والمنام هو الرؤيا وهو الأحلام وليس هناك فرق بينها. مفسرو الأحلام يحاولون الإيحاء أن الرؤيا هي التي يتم تفسيرها والحلم لا يمكن. فقط ليضفوا شيئاً من الاحترافية لدجلهم. الرؤيا ما تراه وأنت نائم والحلم ما تراه وأنت نائم.

---

1 وقد ذكرنا في حاشية سفلية عند تدبر سورة الصافات أن الآية قد تشير إلى أن التضحية بالبشر للآلهة قد تكون منتشرة في المجتمع الذي كان يعيش فيه إبراهيم في قريته. وأن الآية تأمره باستبدال هذه الممارسة بتقديم أضاحي من الأنعام، وتكون لله.



وهناك آيتان تتحدثان عن رسول الله محمد، والآية الأولى هي: وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً (٦٠) بني إسرائيل.

والسورة من سور المرحلة السادسة للدعوة في مكة حيث بدأت قريش تصعد من تعدياتها الجسدية على ضعفاء المسلمين، وفي خضم هذه الظروف الحالكة المحيطة بالرسول والمسلمين القلة معه، يرى الرسول رؤياً أشعرته بالراحة والطمأنينة والقوة، وأغضبت قريشاً لما قصها عليهم.

فما هي هذه الرؤيا؟

لا يرد ذكر للرؤيا التي رآها الرسول في القرآن، ولا ندري ما تكون. حتى نزلت سورة الفتح المدنية، التي نزلت بعد أن دخل الرسول والمسلمون مكة فاتحين، وأعلنت قريش استسلامها: لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) الفتح.

ويكون الرسول في مكة قد رأى أن المسلمين سيتغلبون على قريش وسيحكمون مكة، وهو ما أغاظ قريشاً لما قص رؤياه عليهم، لأنهم ممن يعتقدون بالأحلام. وقريش سلالة إبراهيم، وقد بقيت عادة التصديق بالأحلام بينهم.

فرؤيا الرسول كانت تعبر عما كان الرسول يتمناه، وليست وحي ولم تنزل من الله. فالرسول وقلة المسلمين معه كانوا في ضائقة ويواجهون قسوة وتعنت قريش، ولو قال شخص أن الرسول والمسلمين سينتصرون على قريش لاتهم بالخبل والغباء. لأنه لا يمكن تخيل أن تنقلب الأوضاع ويتفوق نفر قليل من المستضعفين على كبراء وسادة قريش الكثر.

ومع ذلك تشاءم رجال قريش عندما قص الرسول ما رآه في منامه عليهم، لأنهم يؤمنون بالأحلام. ولما فتحت مكة فحلم الرسول كأنه تحول لحقيقة.

لكن تبقى الأحلام أحلاماً ولا تتحقق. لذا فالمثل يقول: حلم وتحقق، وكأنه مستحيل حدث. وإذا ما رغبنا في التعبير عن شيء لا يمكن حدوثه لكنه حدث نقول: ولا في الأحلام.

فالرسول رأى رؤيا تعبر عما كان يشعر به، والأحداث تتابعت وفتحت مكة لأن الظروف



وموازين القوى تغيرت وصار من الواجب تأديب قريش على مواقفهم العدائية للإسلام ففتحت مكة، ولم تفتح لأن الرسول حلم بذلك.

وللعلم فقط، ففتح مكة الذي تحدث عنه الآية قد نقضته قريش وعادت مكة خارج سلطة المسلمين إلى آخر سنة من حياة الرسول وبعد نزول سورة براءة التي نزلت بحق قريش ونقضهم معاهدة فتح مكة مع المسلمين.

ماذا قالت سورة يوسف عن الأحلام

سورة يوسف تتحدث عن يعقوب وأبنائه، وإبراهيم جد يعقوب، وهذا يعني أن المعتقدات الاجتماعية التي كانت منتشرة في عصر إبراهيم هي ذاتها التي يحملها ويصدق بها يعقوب وأبناؤه، ومن ذلك التصديق بالأحلام.

وعلينا أن نتذكر أن القرآن يقص الحدث دون أن يقول إن ما حدث صحيح أو خطأ.

وبداية السورة تظهر أن يوسف قد أخبر والده أنه رأى حلماً: إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤).

يستفاد من هذا أن الحديث عن الأحلام شائع. لذا أخبر يوسف والده بما رأى.

ويعقوب يعتقد – كجده إبراهيم – أن الأحلام لها مصداقية، لذا كانت ردة فعله عند سماع حلم يوسف أن حذره من الإفصاح عنه لإخوته: قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٥).

الآية تظهر ما شعر به يعقوب، ولا تقرر حقيقة.

فيعقوب يعلم مسبقاً أن يوسف وإخوته من أبيه ليسوا على وفاق، ويعقوب يقوم بدور الحامي ليوسف من أي ضرر يتوقع هو أنهم سيقومون به ضد يوسف.

وسبب هذه العلاقة المتوترة لم يفطن لها يعقوب كما يجب، وإلا لأدرك أنه هو السبب في حدوثها، كونه قرب يوسف وأخاه أكثر من أبنائه الآخرين، وأظهر مشاعره تلك بشكل أوغر صدور إخوته، كون يعقوب والد الجميع وكان عليه أن يعدل في التعامل معهم.

ويعقوب – وليس الله جل شأنه – هو من خاطب يوسف في تلك اللحظة قائلاً: وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا



عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦).

المفسرون أظهروا أن الله جل شأنه هو من قال إنه اجتبى يوسف وعلمه تأويل الأحاديث. وهم من قال إن الأحاديث هي الأحلام.

هذه بداية الحكاية... وكان يمكن أن ينسى يوسف ويعقوب الحلم لولا أن الأحداث تتابعت بطريقة مختلفة وانتهت بطريقة ذكرت يوسف بهذا الحلم.

وعندما سجن يوسف شاركه في السجن رجلان، وكل منهما رأى حلماً، وقصه على يوسف: وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٣٦).

يوسف لم يخبرهما بتأويل الحلمين مباشرة، لكنه بدأ يعظهما في خطبة طويلة مما قال فيها: قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٤٠).

يوسف هنا هو المتحدث، وهو في تلك اللحظة لم يكن رسولاً لله وينزل عليه الوحي، ومع ذلك قال: أنه يستطيع أن يخبر السجينين بنوع الطعام الذي يأتيهما في السجن قبل أن يصل إليهما. ويقول إن هذه المعرفة (مما علمني ربي) وهذا بمفهومه الحرفي لم يحدث. فالله لا ينزل وحياً على يوسف كلما جاء طعام ليخبره بنوعه، ولم يعط يوسف قدرة على التنبؤ بما سيأتي من الطعام والأحداث.

ولعل يوسف أراد بخطبته الوعظية تلك أن يظهر للرجلين أنه قادر بالفعل على تأويل أحلامهما لأن الله يعلمه بذلك.

وقد قام بتفسير الحلمين كما يلي: يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ(٤١).



واحد سينجو ويعفى عنه بل وسيعود لوظيفته السابقة وهي ساقي الملك، كما سنرى.

الآخر سيصلب.

والسجينان أمضيا فترة في سجن واحد مع يوسف وكل واحد أخبر الآخرين بقصة سجنه وببعض ما مر عليه من حياته.

وقد عرف من كلام أحد السجينين أنه بريء أو أن تهمته بسيطة. لذا كان من السهل أن يقول له يوسف إن حلمه الذي يظهره وهو يعصر خمراً، يعني براءته وخروجه من السجن، وعودته لممارسة وظيفته كساقٍ للملك. وبراءة الرجل ليس لأن الحلم يقول هذا ولكن لأن الرجل سبق وأخبر يوسف بتهمته. وحلم الرجل كان نتيجة لانشغاله بأمر سجنه وانتظاره قرار الإفراج عنه.

أما الرجل الآخر الذي عرف يوسف أن تهمته خطيرة وحكمها الموت، فقد كان هاجسه انتظار الموت الذي ترجم على شكل ذلك الحلم: "وقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً".

ويظهر أن الصلب هو وسيلة الإعدام على العموم في تلك الفترة والمكان أو أنه وسيلة للإعدام لقضايا معينة منها ما فعله هذا السجين وثبت عليه.

لذا كان من السهل على يوسف أن يخبره أن تأويل حلمه هو الصلب. وكان حلم الرجل يعكس ما يدور في تفكيره.

ثم كان حلم الملك الذي يعكس اهتماماته وقلقه:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣)

ويبدو أن هناك من لا يؤمن بالأحلام في مجتمع (قرية مصر) ولما أخبرهم الملك بحلمه جاء الجواب: قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ(٤٤).

الآيات تروي فقط ما حدث، لذا لم تقل إن كلامهم صحيح أو خطأ.

وبما أن السجين الذي خرج من السجن عاد يخدم ربه – الذي يبدو أنه الملك – فقد أتاح له عمله أن يسمع الملك وهو يتحدث عن حلمه فطلب منه أن يسمح له بزيارة يوسف في



السجن وسيأتيه بتفسير لحلمه، وقد وافق الملك، فكان أن فسر يوسف الحلم كما يلي: قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٤٩).

هنا بعض الحقائق التي يجب ذكرها:

- يوسف قدم من بادية قريبة من قرية (مصر) ولها نفس المناخ. ومن المعتاد تعرض المنطقة لسنوات جفاف يعقبها سنوات مطيرة، وهذا يعرفه الملك ويعرفه يوسف.

وقد استطاع يوسف أن يترجم حلم الملك إلى ما يقع في الطبيعة ويشغل فكر الملك في نفس الوقت.

مثلما استطاع أن يفسر حلم السجينين بما سيقع، كونه متوقعاً.

فيوسف استطاع أن يعيد ترجمة أفكار الرجلين التي صورتها أحلامهما بعبارته هو، وكذلك فعل مع الملك. ولم يكن يفسر حلماً غير واضح المعالم أو عبارة عن رموز غير مفهومة لأحداث ستقع.

فهل فعلاً حدث لمصر ما قال يوسف أنه سيحدث كتفسير لحلم الملك؟

وهل عاش الملك (١٤) عاماً ليرى تحقق حلمه؟

هذا ما لا تقوله الآيات، ولا نعلم عنه شيئاً.

المؤكد أن الملك وقتها لم يفكر إن كان هذا يحدث أم لا؟ ولكنه أعجب بتفسير يوسف. فأمر بإخراج يوسف من السجن وتم تعيينه مسئولاً على سوق المحاصيل الزراعية التي أتاحت له التعرف على إخوته واستدعاء والديه وإخوته للعيش معه في مصر: فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ(٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠).

والآيات هنا تقول إن يوسف رفع أبويه على العرش (الكرسي المخصص له) ثم خروا له



سجداً شكراً وعرفاناً، وليس كتحقيق للحلم الذي رآه في صغره..

وهنا نتساءل: هل خر له إخوته دون والديه؟ لأن الآية تظهر أن الأبوين جلسا على كرسي يوسف ثم كان السجود. أو أن الأبوين مع الأبناء سجدوا ليوسف؟

وحتى لو سجد له والداه وكل إخوته فليس لكي يتحقق حلمه الذي رآه وهو طفل، ولكن الموقف استوجب أن يظهروا له تقديرهم.

شيء آخر.

تقول الآية التالية على لسان يوسف: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١).

يوسف هنا هو من يقول: علمتني من تأويل الحديث، وليس الله سبحانه هو من يقول ذلك. فيوسف يعتقد أن لديه القدرة على تأويل الأحاديث. ويوسف يقول بنفسه إنه يؤول ما يسمع من الحالم، فهو يؤول كلامه ولا يؤول الحلم لأنه لم يره. وتأويله يتلاءم مع ما كان مجتمع يعقوب ويوسف يؤمنون به ولا يعني أن الله جل وعلا قد أعطى يوسف خاصية لم يعطها لأحد غيره. وقد استمر كثير من الناس يعتبرون أنفسهم قادرين على تعبير الأحلام. مع أنهم يعلمون وغيرهم يعلم أنهم لا يعتمدون في تأويلاتهم على حقائق. ولو أصابوا مرة فلأن الحلم – الذي يعكس مشاعر الحالم – واضحة. والناس لا يتتبعون مفسري الأحلام ويحصون عليهم أخطائهم. لذا فلو صدق مرة فلن يتذكر الناس كم مرة أخطأ.

وعندما تقول السورة: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٢١).

فهي تدل على أن يوسف كان عنده ملكة تأويل الأحاديث، ليس لأن الله جل وعلا زرعها فيه كمعجزة له دون غيره، ولكن لأنها ملكة طورها يوسف بالخبرة، وبما أن كل شيء لا يخرج عن مشيئة الله فكأن الله هو سبحانه من علمه إياها.

مثل أن يتقن شخص ما ملكة كالرسم ويقول إن الله علمه إياها. فالله علمه اياها ليس مباشرة وفعلياً، ولكن الشخص نفسه تعلمها وأتقنها بتجاربه ولولا مشيئة الله لما أتقنها.



ولولا أن الله غرس في النفس البشرية القدرة على الإتقان بالتجربة لما أتقنها. وهو ما حدث ليوسف الذي كان مهتماً بالأحلام منذ طفولته وبتأويل الأحلام ومع السنين أصبح متأولا للأحلام. لكن هذا لا يعني أن الأحلام ستقع كما يتأولها كل مرة.

ولا اعتراض على من درس الأحلام كعلم، وخلص لنتائج في هذا المجال، لكن الاعتراض على الزعم بأن الأحلام يمكن تفسيرها على شكل أحداث مستقبلية ستقع. لأن هذا يعني عرفة الغيب، ومعرفة الغيب يختص بها الله سبحانه. والاعتراض أكثر على من ينسب تأويله للأحلام إلى الدين، لأنه يوحي إلى أنه يتلقى وحياً خاصاً من الله.

القوامة والمحرم

سأقدم تعريفاً للقوامة وللمحرم كما أوردته كتب التراث ثم بعد ذلك وفي وقت لاحق سأبين ما يقول القرآن.

القوامة كما وردت في كتب الموروث الديني باختصار

((أرجو أن نتذكر أن ما سنقرأ هو ما ورد في كتب التراث وليس ما يقول رب العالمين))

يقول رجال الدين السلف في كتب الموروث إن القوامة من القيام على الشيء يعني المحافظة عليه ورعاية مصالحه. وجعلوا القوامة على القاصر وقوامة على الوقف وقوامة على المرأة وهو ما يهمنا.

حيث يعرفون قوامة الرجل على المرأة بالتالي:

ولاية يفوض بموجبها الزوج بتدبير شئون زوجته وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها من البروز.

ويقولون: الزوج قيم على زوجته.

يعني أميناً عليها يتولى أمرها ويصلحها في حالها ويقوم عليها آمراً ناهياً. كما يقوم الوالي على رعيته.

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء) أي أن الرجل قيم على المرأة. أي هو رئيسها كبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت.



ويقول الجصاص في تفسيره لنفس الآية: قيامهم (أي الرجال) عليهن (أي النساء) بالتأديب والتدبير والصيانة لما فضل الله الرجل على المرأة في العقل والرأي، وبما ألزمه الله تعالى من الإنفاق عليها.

فدلت الآية (والكلام للجصاص) على معان، أحدها: تفضيل الرجل على المرأة في المنزلة. وأنه هو من يقوم بتدبيرها وتأديبها، وهذا يدل على أن له إمساكها في البيت ومنعها من الخروج. وأن عليها طاعته وقبول أمره ما لم تكن معصية.

ويسرد رجال الدين السلف أسباب قوامة الرجل – كما عرفوها – بأنها ثلاثة اسباب، هي:

الأول: كمال العقل والتمييز. ويقول القرطبي في تفسيره: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير فجعل لهم حق القيام عليهن لذلك.

الثاني: كمال الدين للرجل ونقصه عند المرأة.

** لا نحتاج لذكاء خارق لنعلم أن هذين السببين اقتبسوهما من حديث منسوب للرسول (وهو مكذوب عليه) يقول: النساء ناقصات عقل ودين.

الثالث: بذل المال من الصداق والنفقة.

المحرم

برغم أنها تكتب بفتحة على الميم وسكون على الحاء وفتحة على الراء إلا أنهم يعرفونها وكأنها المُحرّم بضمة على الميم وفتحة على الحاء وشدة على الراء. فهم يقولون إن المحرم هو الحرام، وذو المحرم للمرأة الذي لا يحل له نكاحها.

*** من المهم جداً أن نتذكر أن لفظ (محرم) لا وجود له في كتاب الله على الإطلاق.

ما يرد هو الأرحام وأولو الأرحام والمقصود بهم الأقارب.

وليس في القرآن ما يدل على المرأة أن يجب عليها أن يمثلها رجل (محرم) لا في إثبات شخصيتها ولا في مرافقتها في السفر ولا في زواجها أو أي أمر آخر.

لكن رجال الدين السلف أسهبوا فيما يحل للمحرم ومن ذلك مما يندر تداوله ما يلي:

** يحل للمحرم النظر للنساء من محارمه كل جسدها ما عدا ما بين السرة والركبة – على خلاف بينهم كعادتهم – فبعضهم أجاز النظر للصدر والثديين والساقين . والبعض منع



النظر للظهر. وبعضهم منع النظر للثديين.

وكل ما أجازاو النظر إليه أجازوا مسه. (أشعر بقشعريرة وأنا أكتب)

وقد منعوا المرأة من السفر بدون محرم، واختلفوا هل تحج بدون محرم أم لا؟

*** يجب الانتباه إلى أن رجال الدين لا يستخدمون لفظ يحرم على المرأة السفر بلا محرم ولكنهم يستخدمون عبارة: ليس للمرأة أن تسافر بلا محرم.

ولعل هذا أنهم يعلمون أنهم لا يملكون دليلاً يعتبرونه صحيحاً يحرم سفر المرأ بدون محرم فقال: ليس عليها الخروج ولم يقول يحرم عليها الخروج.

هذا ما يقوله رجال الدين وكتب التراث وسنعود له – بعون الله – ونناقشه ونورد تعارضه مع كتاب الله ثم وفي وقفة ثالثة بعد ذلك سنبين المقصود بالقوامة التي وردت في كتاب الله.

القوامة في كتاب الله

يقول تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً(٣٤) النساء.

هذه الآية قوّلها سلف المفسرين وغيرهم من رجال الدين ما لم تقل كما رأينا.

فلا يمكن أن يفهم منها أنها تتيح للرجل أن يكون له ولاية وحق تدبير شئون زوجته وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها مغادرته. ولا تقول الآية للرجل أن يؤدب زوجته والحاكم عليها.

ولم تقل الآية إن الله فضل الرجل بالعقل على المرأة ولا الرأي.

ولم تقل هذه الآية أو أي آية أخرى في القرآن إنه يجب على المرأة أن يمثلها رجل (محرم) لا في إثبات شخصيتها ولا في مرافقتها في السفر ولا في زواجها أو أي أمر آخر.

لو تمعنا في الآية بهدوء فسنجد أنها تقول: « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ».

فالقوامة تفهم من أمرين ذكرتها الآية، هما:

ونبدأ بالأمر الثاني: هو بما أنفقوا من أموالهم.



أي أن الرجل هو المسئول بالإنفاق على الأسرة وليست المرأة...

هذا الأمر يقول إن القوامة مسئولية وليست تميزاً يتفوق فيه الرجل على المرأة. فهو مسئول عن إعالة العائلة، وهو يمثل العائلة في كل أمر. هو من عليه أن يعمل ، وهو المسئول في كل حال تجد العائلة فيها أنها بحاجة. المرأة ليس عليها أي مسئولية في الإنفاق وإعالة العائلة. وهذا لا ينفي أنه يمكنها لو كانت تملك المال أن تساهم أو حتى تكون المعيل للعائلة، لكن ليس عليها ذلك، وإنها تفضلاً منها. بينما الرجل عليه مسئولية إعالة العائلة كواجب وليس تفضل.

** إذا، الرجال يفضلون النساء بمعنى أنهم يتحملون مسئولية أكبر في إدارة البيت والعائلة.

الأمر الثاني: قوامة الرجل « بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ».

والآية تقول فضل بعضهم على بعض وليس بما فضل به الرجل على المرأة. أي أن هناك تميز للمرأة في جوانب وتميز للرجل في جوانب، نتيجة لطبيعة المرأة والرجل.

ومما تفضل به المرأة إدارة شئون البيت ولا أقصد المطبخ هنا، ولكن شئون أفراد العائلة في البيت بما فيهم الرجل. بينما مما يفضل الرجل هو قدرته على إدارة شئون العائلة مع الغير، كإعالة العائلة وتوفير الطعام والحماية والتمثيل دون تغييب لشخص المرأة أو إلغائها.

فمسئولية حماية العائلة والدفاع عن حقوقها وتمثيلها هو وظيفة رجولية.

إذاً، القوامة تعني قوامة مسئوليات تقسم بين الرجل والمرأة بما يتناسب مع تكوين كل منهما. وليست قوامة تسلط، أو إلغاء لشخص المرأة أو إذلالها أو جواز التعدي عليها أو تهميش وجودها أو التصرف بشئونها وكأنها قاصر. أو مرافقتها في السفر أو منعها من الخروج من المنزل.

فالزواج: اتفاق بين شخصين (ذكر وأنثى) لتكوين عائلة لا يلغي شخصية أحدهما ولا مكانته ولا حقوقه ولا يحوله لقاصر أو سفيه يحتاج رعاية وكأنه لا يستطيع تصريف شئونه بنفسه.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) الروم.



فكيف تسكن الزوجة لزوجها ويكون بينهما علاقة مشتركة تقوم على الود والتراحم إذا كان هو السيد وهي الأمة. هو الوالي وهي الرعية، هو المتصرف وهي القاصر، كما رسخ السلف وصدقتهم النساء وانقادت وخضعت ظناً منهن أن طاعة الرجل هي الطريق للجنة.

القرآن يقول قوامة الرجل قوامة مسئوليات وتعب وقيام بالأعمال المضنية وليست قوامة تسلط أو تغييب لشخص المرأة.

أما أن يكون للمرأة استقلاليتها وشخصيتها وحريتها الموازية لحرية الرجل فأمور بديهية في الإسلام لا يغفلها ويتجاهلها إلا سلف رجال الدين ومن تبعهم.

وكل من يقول أن على المرأة أن تكون كظل للرجل أن يأتي بدليله لنناقشه وكل من لا يملك الدليل فلا يقول القرآن ما لم يقل.

والآية التي تتحدث عن القوامة تختم بقوله تعالى: وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤) النساء. وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤) النساء.

وهذه الآية يستدل بها البعض على أن من حق الزوج ضرب زوجته.

ولكن لو تعمنا في الاية فهي تتحدث عن نشوز المرأة أي عدم رغبتها بمعاشرة زوجها. ولو كان النشوز بسبب كرهها لزوجها فلا يوجد في القرآن ما يجبرها على البقاء معه، بل أن القرآن ينهى عن إجبار المرأة على البقاء مع الرجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) النساء١٩

وآية النساء تقول: إلا أن يأتين بفاحشة

وهذا يأتي لعدة أسباب، أحدها أنها على علاقة شاذة بامرأة أخرى (السحاق).



الدفاع عن الإسلام والرسول ليس بالعويل والتهديد

صحيح أن الفيلم الذي أنتجه الأقباط في أمريكا واسمه «محمد رسول الإسلام» مسيئ للرسول، وكذلك الرسومات التي رسمها الرسام الدانمركي وغيره وكذلك كتاب سلمان شدي «آيات شيطانية». قابله المسلمون بتصرفات انفعالية وعويل وصراخ وصل لعنان السماء، لكنه لن يمنع تكرار حدوث ما حدث مستقبلاً. لأن كتب التراث الموجودة بين يدي المسلمين والتي يحامون عنها ويعتبرونها مصدراً موثوقاً يقول الحقيقة عن الإسلام وكتابه ورسوله، هي المصدر الذي اعتمد عليه الرسام في رسوماته المسيئة، والمنتج في فيلمه المسيء والكاتب في كتابه المسيء، ولم يختلقوا شيئاً من عند أنفسهم.

فلماذا نعتبر ما جاء في كتب التراث صحيحاً ويمثل الإسلام وأخلاق الرسول، وعندما ينشرها غيرنا بطرق مختلفة نعتبرها إساءة للدين وللرسول ونقابله بالاستهجان والاحتجاج والصراخ والعويل؟

أليس من الواجب علينا، إن كنا سنغضب لله والرسول ونمنع تكرار ما حدث أن نكون واقعيين وواعين للحقائق، ونقول بكل شجاعة إن ما في كتب التراث يمثل من قاله ولا يمثل الرسول ولا الإسلام. وبدل تقديس وترسيخ وتوارث تلك الكتب، علينا محاكمتها لما نسبت لله ما لا يليق، ولرسوله ما لا يعقل؟

وعلينا ألا ننسى أن الغرب له الحق - في نظر القانون - أن ينشر ما يجد في كتب تراثنا بالكيفية التي يرى، سواء على شكل رسومات، أو مقالات، أو أفلام، أو غيرها. وسيستمرون بين فترة وأخرى بنشر ما يرون مما تحمله كتب تراثنا الديني، ولو تعرضنا لهم بسوء فسيحميهم القضاء وسيحكم لهم علينا. فهم اعتمدوا مصادر كتبتها أيدينا، ولم يختلقوا أو يكذبوا.

وحتى لو رفعنا ضدهم قضية فسنخسرها ليس لأن قوانين الغرب ليست إسلامية، ولكن لأن تلك القوانين تضمن لهم ولنا نشر ما تسمح به تلك القوانين. ومثلما ينشرون ما يجدون في كتب تراثنا ونشعر أنه مسيء لرسولنا ولديننا، فهم ينشرون ما يجدونه في كتبهم الدينية ويجده المتدينون أو المنتفعون بالدين منهم مسيء لدينهم. لكن الكنيسة لا تستطيع أن توقف أو تمنع النشر، لأنهم يعلمون أن القانون ليس في صفهم.

علينا أن نعلم أن الوسيلة الوحيدة التي تمنعهم من نشر ما يسيء لديننا ورسولنا هي أن



نقف مع الدين بكل شجاعة ونعلن للعالم أن التفسير والحديث والسير والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وكل ما له علاقة بها من كتب التراث كتب لا تمثل الإسلام ولا تمت له ولا للرسول بصلة.

ثم نقوم باستبدال أوصاف الرسول وسيرته التراثية بوصف وسيرة من القرآن سيفخر كل مسلم بها، وستعجب كل من يعرفها من غير المسلمين، ولن يجد الساخر فيها ما يمكن السخرية منه.

ولو نبذنا كتب التراث فسنقدم للعالم إسلام الله كما في القرآن، وسيشهد له كل من يعرفه عن قرب أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، سواءً آمن به أو لم يؤمن.

ولو فعلنا فلن يستطيع أي شخص أن يسيء للإسلام أو للرسول بالنقل من نصوص القرآن، إلا أن يؤولها لغير معناها، وفي هذه الحالة فلن يجد من ينشر له إساءته المزعومة، ولو وجد فسيدان المسيء والناشر من أي محكمة يرفع فيها عليهم قضية، ولو كانت محكمة ابتدائية.

لكن أعداء الإسلام، لا يريدون أن ينزهوا الإسلام مما ليس منه. وأعداء الإسلام ليس فقط من ينقل من كتب التراث صوراً مسيئة، ولكن الأعداء الحقيقيون للإسلام هم من يحمون كتب التراث ويقدسونها ويمنعون نقدها باسم الله والرسول. هؤلاء هم أعداء الرسول والإسلام، لأنه لا يهمهم إسلام الله، فمصالحهم مرتبطة مع إسلام الموروث.

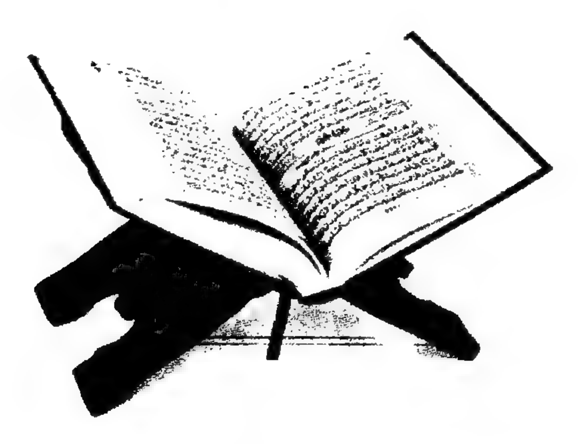


ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



القسم الثاني

أحداث من عصر الرسول




مكتبة
الفكر الجديد

هذا القسم يتناول بعض ما أمكن حصره
من أحداث ورد ذكرها في كتاب الله من
البعثة وحتى وفاة رسول الله.





المحتويات




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد



مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد



مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

«القرآن كتابٌ دينيٌ وليس كتاباً تاريخياً» هذه العبارة يرددها الناس كثيراً لدرجة وكأنها لا تقبل الجدل أو الشك. والحقيقة هي أن القرآن مصدر للتاريخ بتفاصيل دقيقة، سواء كان الحديث عن التاريخ القديم لشعوبٍ عاشت في مناطق من جنوب غرب جزيرة العرب كإبراهيم وبني إسرائيل، أو أمم آخرين كنوح وعاد وثمود وشعيب وغيرهم. أو كان عن تاريخ دعوة الإسلام والأحداث التي وقعت زمن رسول الله. إلا أن الناس أُبعدوا وابتعدوا عن القرآن بطرق شتى، وتشربوا القول بأنه كتاب تشريع فقط ولا علاقة له بالتاريخ.

ولو اقترب الناس من القرآن لعرفوا أنه وإن لم ينزل ككتاب تاريخي، إلا أنه في خطابه الدعوي تعرض لأمم قديمة بعضها تُروى أخبارها لعل قريشاً تعتبر من هلاكها كافرة. وبعضها أمم وشخصيات توجه القرآن بالحديث عنها لبني إسرائيل، لأنها تعطي تفاصيل لأحداث من تاريخهم كدليل على أن محمداً رسول من الله وإلا لما عرف بهذه التفاصيل التي لا توجد في كتاب، ولا يعرفها الناس. وقد خصص لهذه الأمم كتاب مستقل، اسمه: من آدم إلى محمد «تاريخ الأمم والأشخاص المذكورين في القرآن».

من ناحية أخرى فسور القرآن تتفاعل مع الأحداث الجارية للرسول والمسلمين، فتروي ما حدث، وتعطي توجيهات لما يجب القيام به حيالها إن كان لها شأن بالمسلمين وحياتهم. مما يجعل القرآن السجل الوحيد لتاريخ عصر الرسول الذي وثق في حينه. وهو ما سنتتبعه في هذا القسم، بدءً من نزول الوحي على رسول الله وحتى وفاته عليه الصلاة والسلام، بشكل أكثر تفصيلاً ودقة وتنقيحاً مما ورد في كتاب أحسن القصص. متتبعين السور حسب نزولها والمراحل السبع التي مرت بها الدعوة في مكة والمراحل الثماني التي مرت بها الدعوة في المدينة.




مكتبة
الفكر الجديد

أحداث المراحل الأربع الأولى للدعوة في مكة

بدء البعثة وميلاد الإسلام

في أمسية أحد أيام العقد الثاني من القرن السابع الميلادي، لاحظ أحد شباب قريش واسمه محمد مخلوقاً غريباً في الأفق: وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) التكوير. وتقول سورة النجم إن الملك بدأ يقترب منه شيئاً فشيئاً حتى كاد يلامسه: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١) النجم.

والقرآن لم يتحدث عن كيفية بداية الوحي فقط ليرويها كخبر، لأن القرآن ليس كتاباً قصصياً. وإن ذكر بعض الأحداث والأقوام التاريخية فليس من أجل رواية الخبر أو الحدث، ولكن لأن رواية الخبر وسيلة لغاية معينة. وقد ذكر القرآن أن الرسول رأى الملك المكلف بنقل الوحي مرتين في حياته جواباً لتساؤلات قريش المتواصلة عن كيفية تلقي الرسول الوحي. كما ذكر القرآن أن الوحي بدأ بالنزول في ليلة مباركة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٥) الدخان.

ولا ندري يقيناً هل كان الرسول في منزله في مكة أو خارج المنزل أو خارج مكة، عندما رأى الملك في الأفق، إلا أنه من البديهي أن يخبر أهله وأقرب الناس إليه بما حدث له. والمؤكد أن رؤية ذلك المخلوق الكوني في الأفق لم تصبه بالرهبة ولا بالخوف، ولم تجعله يهرول لخديجة وابن عمها «ورقة المسيحي المزعوم»، كما سطرت كتب التراث. لأن رؤية الملائكة



تكون للرسل وأناس مختارين فقط، وتكون مصحوبة بالطمأنينة والسكينة، كالتي شعر بها إبراهيم وزكريا ومريم.

ومع أن هذا المخلوق العجيب لم يخاطبه، إلا أن محمداً شعر حينها بأنه يحفظ نصوصاً غريبة لم يسمع بها من قبل: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) اهدِنَــــا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧).

ومحمد أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب[1]، حاله حال رجال قومه قريش: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) العنكبوت.

ولم يتخيل محمد أن تلك اللحظة المفاجئة البسيطة، مثلت إعلان ميلاد أهم حدث في تاريخ البشرية المكتوب.

لقد كان الوقت ليلاً: « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» وكان ذلك في شهر رمضان: « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .... (١٨٥) البقرة. وكان في فصل الربيع من عام ممطر، سمح بنمو الحشائش، بدليل أن الرسول عندما رأى الملك في المرة الثانية بعد أيام، كان الملك قد هبط في منطقة عشبية (جنة): وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦) النجم.

والنصوص التي نزلت على محمد تدعوه لأن يطلب من الله أن يهديه إلى الصراط المستقيم، المخالف لما عليه قومه من الضلال. كل هذا يؤكد أن ما رآه لم يكن من الجن أو الشياطين، ولم يكن خيالاً أو تهيؤات.

ومن المؤكد أن محمداً تساءل إن كان ما حدث له سيتكرر. لكن حيرته سرعان ما تبددت، حيث وجد – بعد عدة أيام – أنه يحفظ نصوصاً أخرى، تُذَكِّرُ قريشاً ببعض نعم الله عليهم، والتي منها رد كيد أصحاب الفيل وهلاكهم قبيل دخول مكة (سورة الفيل). ورحلاتهم المكوكية للتجارة، من أقصى جنوب جزيرة العرب إلى بلاد الشام، وحياتهم الآمنة في مكة (سورة قريش).

ثم نزلت عليه سور أخرى « العصر، التين، التكاثر، والعاديات» وهذه السور تؤكد أن

---

[1] انظر موضوع: أمية الرسول بين المستشرقين والقرآن/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



هناك بعثاً وحساباً، فسارع لتلاوة هذه النصوص على مسامع أهله وقبيلته قريش، برغم أن هذه السور ليس فيها أمرٌ بالتبليغ، ولكنها فقط سور تهيئ قريشاً للاستماع للدعوة، التي ستبدأ لاحقاً.

وقد صورت كتب التراث الرسول بتلك الصورة الخرقاء، وكأنه فقد صوابه عندما رأى الملك لولا ورقة المسيحي المزعوم الذي عرّفه بحقيقة ما رأى[1]. وهذه الصورة مماثلة لتلك الصور التي نسجتها لنا تلك الكتب، حول رعاية وحماية عمه أبو طالب له بعد البعثة، ولولا تلك الحماية لما تمكن الرسول من إبلاغ رسالة ربه. وكل ما قيل عن حماية الرسول من قبل أبي طالب هو مجرد قصص مختلق يهدف لتلميع صورة أبي طالب كونه والد علي ابن أبي طالب الذي ينتمي إليه أتباع المذهب الشيعي، ولا يهم إن صورت القصة الرسول بالشخص الساذج غير الواثق من نفسه الذي يحتاج لرجل آخر يحميه ويستظل بظله. وإلا فحقيقة أبي طالب أنه مثل عم الرسول المشرك الآخر «أبي لهب» الذي كان حرباً على الإسلام، ولم يمنعه كونه عم الرسول من السخرية منه ومضايقته وتعذيب المسلمين المستضعفين بالنار لإجبارهم على الردة: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥) المسد.

والرسول بعث بعدما أصبح رجلاً بالغاً عاقلاً لا يحتاج لوصاية، وكان محفوظاً بعناية الله وليس بجناح المشرك أبي طالب: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) الطور.

والقول بأن «ورقة» هو من طمأن الرسول أنه رأى ملكاً لا شيطاناً وأنه هو من أخبره أنه سيكون رسولا لله إلى غير ذلك، كله قصص مختلق، يهدف لتمجيد المسيحية، بدءً من شخصية ورقة التي لا وجود لها على أرض الواقع. وكالعادة استغل المستشرقون وجود هذه القصة في كتب التراث ليقولوا بأن ورقة درّس الرسول وعلمه، متغافلين عن التحقق من وجود شخصية ورقة على أرض الواقع. ولو كان ورقة هو من علم الرسول فلماذا لم يحظ هو بالشرف ويدع هو لما علم الرسول أن يدعو به؟

---

١ للدلالة على اختلاق قصة ورقة أن الديانة المسيحية لا تؤمن بأن هناك ديناً لله سيأتي بعدها، خاصة إذا كان ديناً توحيدياً كالإسلام الذي لا يؤمن بالتثليث الذي هو عماد دين المسيحية. والقول بأن الإسلام دين صحيح يعني الكفر بالقول إن يسوع ابن لله ومات لمغفرة ذنوب البشر.



وماذا يمكن أن يدرس رجل دين مسيحي؟

فالمسيحية فقيرة في المبادئ والتشريعات، وكل ما في المسيحية هو الإيمان بوجود ثلاثة آلهة، وهو ما يتنافى جذرياً مع القرآن. فكيف يعلم ورقة محمداً ما لا يؤمن به هو. ونقول هذا من باب الافتراض الجدلي فقط.

وورقة – كما كتبت كتب التراث – كان له موقف واحد مع الرسول لم يتكرر، فلم يكتب عنه أنه لازم الرسول بعد البعثة، بل قيل إنه مات مباشرة بعد أن بدأ الرسول دعوته[1] فمن علم الرسول دعوة امتدت بعد ذلك قرابة ربع قرن، حسب تقديرات كتب التراث؟

وورقة لو فحصنا ما ذكر عنه فلن نجد مصادر موثوقة تخبرنا عنه شيئاً ذا قيمة. وما قيل عنه لا يزيد عما قيل عن مسيلمة الكذاب، صاحب اليمامة، الذي تقول كتب التراث إن الرسول أخذ منه أيضاً. وسنكتفي بإيراد ما نسبته تلك الكتب لمسيلمة من سور على أنها هي أصل بعض سور القرآن، وسنرى كيف تبدو سور مسيلمة «الأصلية»، وسور الرسول «المقلدة»:

يقول مسيلمة: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى. أخرج منها نسمة تسعى. بين صفاق وحشا. وأن إلى الله المنتهى.

بينما يقول محمد: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥).

ويقول مسيلمة: والشمس وضحاها. في ضوئها ومجلاها. والليل إذا عداها. يطلبها ليغشاها. فأدركها حتى أتاها وأطفأ نورها ومحاها.

وقارن بينها وبين ما يقول محمد: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا

(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤).

والمؤكد أن مسيلمة نفسه لم يعلم أنه قال هذه الصفاقات، وأنها نسبت له في عصور لاحقة. في محاولة بائسة لمن اختلقها أن يجعلها تحاكي سور القرآن لعله ينجح في القول بأن آيات

[1] كان لابد على مختلق شخصية ورقة أن يميته بسرعة لأنه لو لم يقل مات فسيضطر لأن يروي أنه كان مصاحباً للرسول وسيضطر لاختلاق قصة بعد أخرى لهذا، فكان من الأسهل عليه أن يقول إن ورقة علم الرسول مرة واحدة ومات بعدها.



القرآن يمكن أن تحاكى، فظهرت بهذه الصورة المضحكة.

ومثله ما نسب لقس ابن ساعدة الإيادي الجاهلي، ومن ذلك: أين من بغى وطغى وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى. ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم آجالاً. طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله. فتلك عظامهم بالية. وبيوتهم خاوية.

وقارن هذا الذي يسمونه «الأصل» بالتقليد وهو القرآن كما يزعمون: فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) النازعات.

وبطبيعة الحال قس لم يعلم أنه ركبت باسمه تلك العبارات الركيكة في العصر العباسي لأنه قد هلك قبلها بمئات السنين.

ومثل ما اختلقت تلك العبارات الركيكة في القديم فقد اختلقت عبارات مشابهة في هذا العصر حيث ظهرت «سورٌ» في كتاب صدر في أمريكا وسمي «الفرقان الحق» قام بكتابته مبشر مسيحي فلسطيني الأصل اسمه شروش[1]، وإليكم واحدة من سوره، واسمها سورة الإيمان:

واذكر في الكتاب الحواريين إذ عصفت الرياح بهم ليلاً وهم يبحرون (١) إذ تراءى على المياه لهم طيف المسيح يمشي فقالوا أهو ربنا يهزأ بنا أم قد مسنا ضرب من جنون (٢) فجاءهم صوت المعلم أن لا تخافوا إني أنا هو أفلا تبصرون (٣) فهتف هاتف منهم يقول ربي مرني إن كنت حقاً هو آتي على المياه إليك عسى أن يبدل الله شكي بيقين (٤) قال فاسع إلي ولتكن للناس آية لعلهم يتذكرون (٥) وإذ طفق الحواري يمشي رأى شدة الريح فخاف وبدأ يغرق فصاح بربه يستعين (٦) فمد بيمينه له فأخذه بها وقال يا قليل الإيمان هذا جزاء الممترين (٧) وإذ ركب السفينة معه سكنت الرياح لتوها فسبح الحواريون بحمده وهتفوا له قائلين (٨).

وبما أن كل كتب السير والأخبار كتبت في العصر العباسي بعد مئات السنين من عصر الرسول، وبعد عصر الظلمات والفتن الذي وجدت فيه طوائف لا حصر لها من ملاحدة

١ أنيس شروش مبشر أمريكي مسيحي من أصل فلسطيني. واصل دراسته بجامعة الميسيسبي، وحصل على الدكتوراه في الكهنوت، وعمل مبشراً في أفريقيا. كما عمل في نيوزيلندا، وإنجلترا، والبرتغال. وقد اعتقلته شرطة مدينة دافني بولاية الألاباما الأمريكية بتهمة محاولة إحراق برج سكني، وإلصاق التهمة بالمسلمين.



وأتباع مذاهب وعقائد يكتبون كيفما يشاؤون، وينسبونه للتاريخ بأثر رجعي. امتلأت كتب التراث بالقصص والأحداث والشخصيات المختلقة ونسبتها لعصر الرسول، وكأنها حدثت ووجدت بالفعل.

وليست شخصية ورقة هي الشخصية المختلقة الوحيدة في السيرة فهناك الكثير، ومنهم:

شخصية ماعز وشخصية الغامدية اللذين اختلقا لكي يقال عنهما إنهما زنيا ورجما في عصر الرسول لترسيخ حكم الرجم للزناة، وهو حكم لم يرد في كتاب الله ولم يأمر به الله، ولم ينفذ مرة واحدة في عصر رسول الله.

وهناك «فنحاص» شخصية اختلقت لتكون سبباً في نزول العديد من الآيات، ومنها:

لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١) آل عمران.

فالطبري ينقل عن المفسرين أن سبب نزولها هو أن أبا بكر طلب من هذا الفنحاص اليهودي أن يُسْلِم فرد عليه أنهم ليسوا بحاجة لله لأنه فقير.

وبطبيعة الحال سياق الآية يكذب هذه القصة المختلقة، والسياق يقول: وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠) لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١) آل عمران.

فالحديث عن أهل الكتاب وأنهم بخلوا ولم ينفقوا كما طلب منهم، وأنهم قالوا بأن إله المسلمين فقير لأنه يطلب منا أن ننفق عليهم ولو كان غنياً لأنزل عليهم المال. وهذا التصور القاصر عن الله هو ما تتحدث عنه الآية.

ولكي يتأكد القراء أن فنحاص لا وجود له نُذكّرهم أنه استخدم عند المفسرين كسبب لنزول عشر آيات في سور مختلفة، بعضها مكي. أي قبل الهجرة وقبل أن يكون هناك احتكاك بأهل الكتب واليهود في يثرب، ومنها ما أورده الطبري في تفسيره:

أن فنحاص ومجموعة من اليهود سألوا الرسول من أين يأتيه الوحي فنزلت الآية: قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ



لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) بني إسرائيل.

وسورة بني إسرائيل مكية والآية جاءت من آيات تخاطب قريشاً ولا شأن لها بيهود: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً(٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً(٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً(٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً(٨٩) وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣).

وكما هو واضح فالخطاب لقريش التي لا تؤمن بأن القرآن وحي من الله، وجاء التحدي لإثبات أنه ليس كلام الرسول ولا كلام بشر بل هو من عند الله.

وحشر المفسرون اسم فنحاص كسبب لنزول الآية: (٩١) من سورة الأنعام المكية، والآية: (١٧٦) من سورة الأعراف، وفي غيرها.

وقالوا بأن فنحاص هو من قال: عزير ابن الله، وهو جهل فاضح للمفسرين بالقرآن، لأن القرآن ذكر أن قدماء اليهود هم من قال عزير ابن الله ولم يكن في عصر الرسول. وقد ورد هذا في القرآن مرة واحدة في سورة براءة التي نزلت قبيل وفاة الرسول وبعد أن خمد صوت يهود يثرب وأهل الكتاب فيها، والآية تقول: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) براءة.

ومن الشخصيات المختلقة صفية بنت حيي التي نسبت كتب التراث للرسول أنه تسرى بها يوم قتل زوجها، وبعد أن قتل أباها في وقت سابق. وهو ما يأباه الله ورسوله ويكذبه الواقع، ولو تجرأ الرسول على ذلك لفضحه القرآن وتوعده.

وكذلك مارية القبطية التي قالوا بأن المقوقس ملك مصر قد أهداها له وولدت له ولداً



أسموه إبراهيم. وليس هناك ملك لبلاد النيل زمن رسول الله اسمه «المقوقس» لكن بعض الباحثين يقول بأن هذا الاسم أطلقه العرب على كيرس، الذي عينه هرقل بطريقاً لكنيسة الإسكندرية وواليا لمصر عام (٦٣١) ميلادية. أي قبل وفاة الرسول بعام واحد، كون الرسول توفي في العام (٦٣٢م). بينما تزعم كتب التراث أن المراسلات بين المقوقس (كيركس) ورسول الله تمت قبل خمس سنوات من وفاة رسول الله، وهو ما يفضح أمر كذبتهم، وينفي وجود أي مراسلات بينهما. وقد بقي كيركس في منصبه منذ العام (٦٣١) حتى استولى المسلمون على مصر في العام (٦٤٢) الموافق للعام (٢١) للهجرة، بعد معارك ضارية قادها كيركس، مما يؤكد أنه لم يسبق له أن كان بينه وبين الرسول مراسلات ولا علاقات ود. وحتى الحديث الذي يقول: «استوصوا بالقبط خيراً». لا يمكن أن يكون صدر من الرسول، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب ولا يعلم أن المسلمين يوماً سيدخلون بلاد القبط.

كما اختلقوا شخصية بحيرا ذلك الراهب المسيحي المزعوم الذي عرف أن الطفل ذا التسع سنوات سيكون رسولاً، عندما رآه مع جده أبي طالب حين قدم الشام. وبطبيعة الحال الرسول لم يذهب للشام في تلك الرحلة المزعومة، لأنه طفل لا يقوى على تحمل مشاق السفر الطويل والشاق. ولم يكن من المعتاد سفر أطفال قريش مع قوافل أهلهم التجارية التي تسير من أقصى جنوب جزيرة العرب لبلاد الشام والعراق، والتي يسوقها عادة مجموعة من العبيد ومعهم بعض الكبراء. وهي رحلات ضنك ومشقة، وتتعرض للمتاعب غير المتوقعة، والظروف الجوية القاسية، ولا مجال فيها للأطفال. ولكن القصة اختلقت للتشكيك في صحة رسالة الرسول وأنها ليست ديناً لله بل هي دروس تلقاها من رجال دين مسيحيين، وأعاد صياغتها. وقد راجت القصة برغم أن كل من يعرف تفاصيل العقيدة المسيحية يعرف أنها فقيرة جداً بالتعاليم الإلهية، ولا يمكن أن تكون مصدراً لغيرها ليقتبس منها، كما أنها ديانة شرك تثليثي، والإسلام دينٌ توحيدي. فكيف يتعلم الرسول التوحيد ممن يؤمنون بالتثليث؟

وهناك الكثير من الشخصيات التي يختلقها القُصّاص الذين كانت المسيحية ديانتهم القديمة، في مجالسهم لحبك قصصهم ثم يتداولها الناس وتترسخ بينهم حتى يأتي كتاب السير والتفسير والحديث ويوثقونها، ويصدقها الناس بعد ذلك.



ولم يكتف القصاص باختلاق شخصيات من البشر لا وجود لها بل اختلقوا شخصيات من الجن ومنهم الذين نزلت فيهم آيات سورة الجن الذين استمعوا للرسول. بل واختلقوا لإبليس أسماءً لم يعلم هو بها، ومن أسمائه عند المفسرين: الحارث والحكم، ويكنى عندهم بأبي مرة وغيره ذلك. ومن أعجب أسمائه خنزب وعزازيل.

وخنزب جعلوه لإبليس عندما يقوم بالوسوسة أثناء الصلاة، أما عزازيل فقد اقتبسوه من كتب اليهود، حيث ورد في كتاب اللاويين[1].

واختلاق الشخصيات كان شائعاً في عصر تدوين كتب الحديث والتفسير وغيرها من كتب التراث، وكان الناس يستمتعون بقصص الشخصيات الخرافية لدرجة الهوس. فراجت قصص البطولات الخارقة لعنترة وسيف ابن ذي يزن والمهلهل وامرئ القيس، وقصص الجنس الخرافي كما في ألف ليلة وليلة وغيرها.

وإلا لو أن أحداً من قريش قد تحول للمسيحية في مكة لحاربه المجتمع ونبذه كما فعلوا مع الرسول والمسلمين، لأن التمسك بالموروث سنة أزلية لدى الناس لا تتسامح مع من يخالفها أو يخرج عنها، بغض النظر عن حقيقة المعتقد الجديد. ولو كان بالفعل هناك شخص اسمه ورقة تحول للمسيحية وأصبح قساً في مكة وله نشاط كنسي وتبشيري، كما يروج بعض المستشرقين بتعسف، فسوف تحاربه قريش ولن يستطيع البقاء في مكة ويتقبله المجتمع بسلام. والمزعوم «ورقة» لم يحاربه أحد، لأنه لم يكن له وجود.

ونعود لمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي كان قد رأى الملك للمرة الثانية والأخيرة[2]، وقد نزل على الأرض في تلك البقعة العشبية، كما تخبرنا سورة النجم في الآيات (١٣-١٧). وقد وجد الرسول نفسه يحفظ سورة الفاتحة، وبدأ يصلي قرب الكعبة حيث نادي قريش وملتقاهم[3].

---

١ ورد في الإصحاح (١٦) من كتاب اللاويين: ((٨) وَيُلْقِي هَارُونُ عَلَى التَّيْسَيْنِ قُرْعَتَيْنِ: قُرْعَةً لِلرَّبِّ وَقُرْعَةً لِعَزَازِيلَ (٩) وَيُقَرِّبُ هَارُونُ التَّيْسَ الَّذِي خَرَجَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ لِلرَّبِّ وَيَعْمَلُهُ ذَبِيحَةَ خَطِيَّةٍ (١٠) وَأَمَّا التَّيْسُ الَّذِي خَرَجَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ لِعَزَازِيلَ فَيُوقَفُ حَيًّا أَمَامَ الرَّبِّ، لِيُكَفِّرَ عَنْهُ لِيُرْسِلَهُ إِلَى عَزَازِيلَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ.)

وهناك رواية ليوسف زيدان باسم «عزازيل» يقول المؤلف إنها ترجمة لمجموعة لفائف مكتوبة باللغة السريانية، وجدت مدفونة في صندوق خشبي قرب حلب، وقد كُتبت في القرن الخامس الميلادي. وهي عبارة عن سيرة ذاتية للراهب المسيحي المصري هيبا، وتكشف فترة مضطربة من تاريخ الكنيسة والانقسامات حول شخصية يسوع.

٢ الرسول لم ير الملك سوى المرتين اللتين ذكرتا في سورة النجم، ولم يره غيرهما أبداً.

٣ أشارت سورة العلق إلى أن أحد كبراء قريش نهر الرسول عن الصلاة عندما شاهده يصلي (الآيات: ٩-١٩) ولا بد أنه صلى



وبعد عدة أيام نزلت عليه سورة الفيل فسارع لإسماعها قريش: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥).

وتوالى نزول السور كل بضعة أيام سورة، وكلما نزلت سورة سارع الرسول بحماس ظاهر لتلاوتها على قريش: لإيلاف قريش ... والعصر إن الإنسان لفي خسر ... والتين والزيتون وطور سينين ... ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ... والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا...

ورجال قريش يتساءلون عما حدث للشاب محمد بذهول!

وما هذه العبارات الغريبة التي يسمعونها منه؟

ولماذا يقول بأن الموتى سيحيون بعد أن تبلى عظامهم؟

وكانت هذه الفترة عبارة عن تهيئة لقريش لما سيدعوهم له الرسول في قادم الأيام من توحيد الله والإيمان بالآخرة ونبذ الوثنية.

تأهيل الرسول

استمر الرسول قرابة شهرين يتلو على قريش تلك العبارات العجيبة التي لم يسمعوا بها من قبل. ثم نزلت عليه في يوم من الأيام سورة المزمل. وهذه السورة ليست موجهة لقريش، بخلاف ما سبقها. فهي تخاطب الرسول، طالبة منه أن يخضع لبرنامج تأهيلي نفسي، شرحته السورة بالتفصيل، كما يلي:

- السهر أطول مدة ممكنة من الليل: « يا أيها المزمل(٢) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً(٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ».

وعلى الرسول أن يقوم خلال سهره بالتالي:

- قراءة ما سبق نزوله عليه من القرآن بتؤدة والتأمل: « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً».
- مع ذكر الله وتسبيحه: « وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً».

واختيار سهر الليل لأن: ناشئة الليل أشد وطئاً (أكثر تأثيراً في النفس) وأقوم قيلاً (تركيزاً).

عند الكعبة حيث المكان الذي تجتمع فيه قريش. ونهر القرشي للرسول يؤكد أنه لم يسبق له أن رآه يصلي قبل ذلك، وأن الرسول بدأ الصلاة مع بداية البعثة.



ويهدف هذا البرنامج للوصول بالرسول إلى مستوى عالٍ من الاستعداد النفسي والذهني يؤهله ليكون قادراً على تحمل المضايقات والضغوط النفسية جراء سخرية الناس المتوقعة وحربهم النفسية له عندما يبدأ دعوته: « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً». فالدعوة عبارة عن قول ثقيل على أنفس من لا يرغب في الإيمان، سينتج عنه تهجم وسخرية وحرب نفسية ضد الرسول.

ولأن سهر الليل سيتبعه نوم في النهار فلابد أن يختار الرسول مكاناً ملائماً لبرنامجه التأهيلي، وهو ما جعله ينتقل إلى غار حراء ويترك مكة طوال فترة البرنامج التأهيلي. ذلك أنه كان يعيش مع امرأته خديجة وولدها وبناتها في بيت واحد صغير مزدحم، لن يوفر للرسول الهدوء المطلوب.

الرسول وغار حراء

رسول الله لجأ إلى غار حراء بعد أن نزلت عليه سورة المزمل وأمرته بسهر الليل، وليس قبل بعثته كما يقول أهل السير والحديث والتفسير. لأنه قبل البعثة لم يعلم أنه سيكون رسولاً لله، ولم يعلم أنه سيحتاج لتأهيل نفسي ذهني للقيام بالدعوة، وذلك بشهادة القرآن: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢) الشورى.

ولم يَطَّلِع – ولو عن طريق المصادفة – على أي دين من الأديان السابقة، لا قراءة ولا كتابة: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) العنكبوت.

وكلام المفسرين والمحدثين وأهل السير مجرد قصص مختلق بأثر رجعي. بمعنى أن القُصَّاص بعد ظهورهم، كانوا في مجالسهم عندما يقرأون الآية يختلقون لها قصة، ومن ثم يتداولها الناس فيما بينهم، حتى يأتي كتبة الحديث والتفسير والسير ويوثقوها في كتبهم، بعد أن تكون قد اكتسبت سنداً يوصلها للرسول. وفيما يلي بعض ما جاء في كتاب شيخ المفسرين الطبري، وبعض ما ورد في كتاب شيخ المحدثين البخاري، كأمثلة على ما نقول:

يقول الطبري في قوله تعالى: يا أيها المزمل، «أن عكرمة يقول: «زُمِّلت (يا محمد) هذا الأمر فقم به». يعني ألزمت أو كلفت بالدعوة فقم بها.» وهذا المعنى من اختلاق عكرمة.



أما قتادة فيقول: « المزمل، هو: المُتَزمل في ثيابه، متأهب للصلاة.» والطبري يميل لهذا القول، وهذا ما يقول: «قال أبو جعفر (كنية الطبري): والذي هو أولى القولين بتأويل ذلك، ما قاله قتادة، لأنه قد عقبه بقوله: قُم اللَّيْلَ فكان ذلك بيانا عن أن وصفه بالتزمُّل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معنييه.»

وبطبيعة الحال لو كان الرسول قد تزمل (التف) بثيابه تأهباً للصلاة، فإن دعوته للصلاة تحصيل حاصل، لأنه متجه لتأديتها. وهذا تسطيح لكلام الله جل شأنه.

ويستمر الطبري ليقول: «وقوله: قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: قم الليل يا محمد كله إلا قليلاً منه، نِصْفَهُ يقول: قم نصف الليل أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ يقول: أو زد عليه خَيره الله تعالى ذكره حين فرض عليه قيام الليل بين هذه المنازل أيّ ذلك شاء فعل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما ذُكر يقومون الليل، نحو قيامهم في شهر رمضان فيما ذُكر حتى خفف ذلك عنهم. ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا أبو أُسامة، عن مسعر، قال: ثنا سماك الحنفي، قال: سمعت ابن عباس يقول: لما نزل أوّل المزمل، كانوا يقومون نحوا من قيامهم في رمضان، وكان بين أوّلها وآخرها قريب من سنة. (وقيل ثمان وقيل أكثر وأقل).» انتهى كلام الطبري.

ويمكن ملاحظة أن المفسرين يقولون إن أمر الرسول بقيام الليل في أول آيات سورة المزمل يعني إلزام المسلمين بقيام الليل واستمروا على هذا سنة أو سنوات حتى نزلت آخر آية من المزمل فخفف عنهم. وهذا لم يحدث لأسباب منها:

- أن الواقع يكذب وقوعه، فلم يكن المسلمون يقومون الليل في مكة.
- أن المزمل نزلت في مكة وفي أول أيام البعثة – وهو ما يوافق عليه المفسرون والمحدثون وأهل السير –. ففي ترتيبهم للسور يضعون سورة المزمل ثالث سورة نزلت من القرآن، بعد العلق، والقلم. وفي الأيام الأولى للدعوة الاهتمام ينصب على دعوة قريش للدخول في الإسلام، وليس على تشريع قيام ليل منهك.
- لو تتبعنا الأمر بالصلاة فقد ورد أول ذكر لأداء الصلاة في سورة العلق، وهو موجه لأحد كبراء قريش والذي يحاول أن ينهر الرسول عندما يراه يصلي. ولم تذكر الصلاة في سورة العلق كأمر للمسلمين بأدائها، لأنه لم يكن هناك مسلمون وقت نزول السورة،



مما يعني بداهة أنه لم يكن هناك مسلمون عند نزول المزمل التي سبقتها لكي يشرع لهم صلاة وسهر مضن.

- ولو كان المقصود بالآيات العشر الأولى لسورة المزمل، المسلمين، فستكون عامل طرد وتنفير لأي شخص يفكر في الدخول للإسلام. لأن عليه أن يسهر أغلب ساعات الليل للتسبيح والصلاة. والمسلم الجديد لا يمكن أن يقبل بمثل هذا التشريع المضني.
- ولم تذكر الصلاة بعد ذلك إلا بعد نزول خمسين سورة من القرآن، وفي سورة فاطر: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ(١٨) فاطر.

لأن السور المكية الأولى بالفعل معنية بالدعوة، والتشريعات - كقاعدة إلهية - لا تفرض إلا بعد وجود جالية مؤمنة. لذا نجد أن الأمر بالصلاة وفرض أوقات لأدائها لم يحدث إلا بعد أن بدأت السور تخاطب كل الناس ودخل بعض بني إسرائيل يثرب والمستضعفين في مكة للإسلام.

وكانت البداية مع الآية التالية: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢) طه.

فالآية تطلب من الرسول أن يأمر أهله بالصلاة وذلك قبل أمر الناس، وأن يصطبر عليها هو، ولا ذكر لأمر الناس. ثم وعندما تكونت جالية مسلمة قلة في مكة، وأكثر منهم في يثرب، بعد أن دخل بعض بني إسرائيل وغالبية الأوس والخزرج، نزلت سورة بني إسرائيل تحدد وقتين للصلاة: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(٧٨) الإسراء.

وفي نفس الفترة نزلت سورة هود، تفرض ثلاثة أوقات أخرى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤) هود.

وهكذا يتضح أن كلام المفسرين وأصحاب السير مجرد خيال مصحوب بجهل مطبق لأحداث عصر الرسول. وفيما يلي سنورد حديثاً من البخاري هو عبارة عن تهيئوات مماثلة لما قاله الطبري في تفسيره وابن هشام في سيرته:



يقول البخاري: «حدّثنا يحيى بن بُكير حدَّثنا الليثُ عن عُقَيل عن ابن شهاب ح وحدثني عبدُ الله بن محمد حدثنا عبدُ الرزّاق حدَّثنا معمرٌ قال الزُّهريُّ : فأخبرني عروة عن عائشة رضيَ الله عنها أنها قالت: «أوّلُ ما بُدِىءَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يَرَى رُؤيا إلا جاءتهُ مثلَ فَلَقِ الصُّبح فكان يأتِي حِراءً فيتحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبدُ ـ اللياليَ ذواتِ العدد، ويَتزوّدُ لذلك، ثم يَرجعُ إلى خديجةَ فتزوِّدُهُ لمثلها، حتى فَجِئهُ الحقُّ وهو في غارِ حِراء، فجاءهُ الملك فيه فقال: اقرَأ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني حتى بلغَ مني الجُهْدُ ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهدُ، ثم أرسلني فقال: اقرَأ، فقلتُ ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغَ مني الجهدُ ثم أرسلني فقال: (اقرَأ باسم ربِّكَ الذي خلق ـ حتى بلغَ ـ مالم يَعلم) (العلق: ١ ـ ٥)، فرجَعَ بها ترجفُ بَوادِرُه، حتى دخلَ على خديجةَ فقال: زَمِّلوني، زملوني. فزَمَّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوع فقال: يا خديجةُ مالي؟ وأخبرَها الخبرَ وقال: قد خَشِيتُ على نفسي، فقالت له: كلاّ، أبشِرْ، فوَ الله لا يُخزيكَ الله أبداً، إنكَ لتصِلُ الرَّحمَ، وتصْدقُ الحديث، وتحملُ الكلَّ، وتَقرِي الضيفَ، وتعين على نوائبِ الحقّ. ثمَّ انطلَقتْ به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بن نوْفل بنِ أَسَد بن عبدِ العُزّى بن قصيّ ـ وهو ابنُ عمِّ خديجةَ أخو أبيها ـ وكان امرأً تنصرَ في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العربيَّ فيكتبُ بالعربيةِ منَ الإنجيل ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ، فقالت له خديجةُ: أي ابنَ عمِّ، اسمَعْ منَ ابن أخيك. فقال ورقةُ: ابنَ أخي ماذا ترى؟ فأخبرهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما رأى، فقال ورقةُ: هذا الناموسُ الذي أُنزِلَ على موسى، ياليتني فيها جذَعاً أكون حياً حينَ يخرجُكَ قومك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخرجِيَّ هم؟ فقال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جِئتَ به إلاّ عودِي، وإنْ يُدرِكْني يَومكَ أَنصرْك نصراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنشبْ ورقةُ أن تُوفيَ، وفتر الوحيُ فترةً حتى حَزنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حُزناً غدا منه مراراً كي يَترَدَّى من رؤُوسِ شواهقِ الجبال، فكلما أوفى بذِروة جَبلٍ لكي يُلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمدُ، إنكَ رسولُ الله حقاً فيسكنُ لذلك جأشه وتقرُّ نفسه فيرجعُ، فإذا طالت عليه فَترةُ الوحي غدا لمثلِ ذلك، فإذا أوفى بذِروَةِ جبلٍ تَبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك»» .... انتهى.

ونقول: اعتكاف الرسول في غار حراء حقيقة تناقلها الناس مشافهة. وعندما بدأ القصاص



والمحدثون في عصر الفتن والظلمات، في تناول سيرته عليه الصلاة والسلام في مجالسهم، كان القاص يورد قصة سمعها عن الرسول ثم يضيف لها ويقلمها حسب المغزى الذي يريد توصيله لمستمعيه. وقد تسامع الناس أن الرسول كان معتكفاً في غار حراء، لكنهم لا يعرفون متى حدث هذا، فتصوروا أنه حدث قبل البعثة، وغذي بقصص مختلق ومتنوع.

والرسول لم يذهب لغار حراء إلا بعد نزول سورة المزمل وحاجته لمكان هادئ يزاول فيه برنامجه التأهيلي الذي أمرت به الآيات العشر الأولى من السورة. ولم يكن تواجد الرسول في حراء قبل البعثة، لأنه لم يكن يدري أنه سيكون رسولاً لله، ولم يكن يتعبد، لأنه لم يعرف الحق قبل البعثة: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) الشورى.

وقد تناقل الناس أخبار تواجد الرسول في غار حراء، وجاء القُصاص فحولوا وقتها لما قبل البعثة لكي تلائم ما أشيع من أن أول ما نزل هو أول سورة العلق. وأضيف لها اختلاق قصة استشارة ورقة ابن نوفل الخرافية، وقصص كثير مختلف.

أما آخر القصة في الحديث ففيها استخفاف بالرسول وتصوير له وكأنه معتوه: «ثمَّ لم يَنشبْ ورقةُ أن تُوفيَ، وفتر الوحيُ فترةً حتى حَزنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حُزناً غدا منه مراراً كي يَتَرَدَّى من رؤُوسِ شواهقِ الجبال، فكلما أوفى بذِروة جَبلٍ لكي يُلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمدُ، إنكَ رسولُ الله حقاً فيسكنُ لذلك جأشه وتقرُّ نفسه فيرجعُ، فإذا طالت عليه فَترةُ الوحي غدا لمثلِ ذلك، فإذا أَوفى بذِروَةِ جبلٍ تَبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك».

والملاحظ أن المفسرين والمحدثين ينقلون لنا أن الرسول لما رأى الملك وأصيب بالذعر رجع لبيته يرتجف ويقول: زملوني زملوني.... فتنزل عليه سورة تبدأ بيا أيها المدثر. ويفترض أن تنزل عليه سورة المزمل. لكنهم تجاهلوا هذا لأنه لا يستقيم مع قصصهم الذي اختلقوه حول بداية نزول الوحي. ويكون الرسول قد نزل عليه الوحي أولاً بسورة الفاتحة، وتلتها ست سور أخرى هي: الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات، قبل أن تنزل عليه سورة المزمل التي تهيؤه للقيام بالدعوة التي ستبدأ فعلياً بعد ذلك بنزول سورة المدثر: يا أيها



المدثر، قم فأنذر.

والمزمل في قوله «يا أيها المزمل» من الزمّل وليس من التزمُّل. والمُزَمَّل بفتحة على الميم الثانية هو التلفف بالثياب. أما المُزَمِّل – بكسرة تحت الميم الثانية فتعني العدو والحركة والنشاط[1]. وكأنها تشير إلى أن محمداً عندما نزلت عليه سور المرحلة الأولى أبدى حماساً ونشاطاً متقداً لملاحقة رجال قريش في أماكن تجمعاتهم لتلاوتها عليهم. فنزلت هذه السورة تقول له أن يتروى فالأمر أكثر ثقلاً وصعوبة مما يظن، لأنه سيواجه العنت والأذى النفسي من المشركين، وعليه أن يكون مستعداً نفسياً أولاً قبل البدء الفعلي بالدعوة. وهو ما يتطلب أن يخضع لبرنامج تأهيل نفسي قاسٍ، يتمثل بالسهر والتأمل والعزلة. فكان أن اختار أن يمضي وقته في غار حراء.

وقد اختفى محمد من شوارع مكة ولم تعد قريش تراه[2].

إعلان أن محمداً رسول من الله

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) المزمل.

لابد أن الرسول قد قرأ سورة المزمل على أهل مكة قبل أن يغادرها لغار حراء، وهذه الآيات إعلان يؤكد لهم أن محمداً – ذلك الفتى الذي يعرفون من فتيانهم – قد أصبح رسولاً لله.

وهذا الإعلان الإلهي جاء بعد عدة أشهر من رؤية الرسول للمَلَك، ونزول سورة الفاتحة كبداية لنزول الوحي وبدء البعثة. فبدء البعثة كان بنزول سورة الفاتحة، وإعلان أن الرسول أصبح رسولاً لله جاء في سورة المزمل.

١ مما ورد في لسان العرب: الزَّمَل الخِفَّة والسُّرعة. زَمَلَ يَزْمِل ويَزْمُلُ زِمَالاً: عَدَا وأَسْرَعَ مُعْتَمِداً في أحد شِقَّيْه رافعاً جنبه الآخر، وكأنه يعتمد على رِجْل واحدة. قال ابن جني: هكذا رويناه عن أبي عمرو الزَّمَل، بالزاي المعجمة، ورواه غيره الرَّمَل، بالراء أيضاً غير معجمة، قال: ولكل واحد منهما صحة في طريق الاشتقاق، لأن الزَّمَل الخِفَّة والسُّرعة، وكذلك الرَّمَل بالراء أيضاً، ألا ترى أنه يقال زَمَلَ يَزْمُل زِمالاً إذا عَدَا وأسرع معتمداً على أحد شِقَّيه، كأنه يعتمد على رجل واحدة، وليس له تمكن المعتمد على رِجْليه جميعاً.

٢ انظر فقرة: غار حراء/ قسم أماكن وشخصيات.



البدء الفعلي للدعوة

بعد فترة انقطاع عن الناس وانعزال في غار حراء - امتدت لبضعة أشهر — مارس خلالها محمد البرنامج التأهيلي، حان الوقت لبدء الدعوة، بعد أن أصبح جاهزاً نفسياً وذهنياً لتحمل المتاعب النفسية القادمة، فنزلت عليه سورة المدثر التي تأمره ببدء الدعوة:

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥).

كان الرسول متدثراً وهو نائم في النهار كعادته أثناء بقائه في الغار، وهو ما يشير إلى أن السورة نزلت في وقت الشتاء في مكة والذي يميل للبرودة. وإذا ما تذكرنا أن الرسول قد نزلت عليه السور السبع الأولى خلال شهرين، ثم بقي في غار حراء لبضعة أشهر، فيمكن القول بأن نزول سورة المدثر كان بعد مضي قرابة العام على بداية نزول الوحي. وبنزول سورة المدثر، حزم الرسول أمره وعاد لمكة بادئاً رحلته للدعوة التي امتدت طوال حياته.

وخلال الأشهر الأولى للبعثة لم يحدث للرسول أي أذى نفسي أو بدني من قريش، وهذا الموقف الذي يبدو في ظاهره متسامحاً، يمكن فهمه. فقريش تجاهلت الرسول خلال هذه الفترة برغم سماعها له وما يتلو عليهم من عبارات غريبة، معتبرة ما يقوم به مجرد نزوة عابرة من فتىً سرعان ما تخبو. وسارت الحياة في مكة بشكلها الاعتيادي، فيما عدا مواقف وأحداث قليلة متفرقة، وأحدها:

قرشي يستمع ثم ينكص

لقد استمع أحد كبراء قريش ممن يملك المال والولد للقرآن (سور المرحلة الأولى السبع) فمال للحق، لكنه تراجع وغلب عليه التمسك بالموروث. ولكي يبرر لنفسه أن تراجعه عن تصديق الرسول هو الحق، اتهم الرسول بأنه قرأ عليه طلاسم سحرية غيبت عقله، لكنه ثاب لعقله وأدرك أنها ليست من الله: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً(١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً(١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً(١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً(١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً(١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦) المدثر.



وهذا القرشي لم يذكر القرآن اسمه، لأنه كان معروفاً للرسول، ولأنه عرف أن هذه الآيات تتحدث عنه، وهذا هو المهم. فالحديث موجه لذلك الشخص وقد تبلغ الرسالة، وليس الحديث موجهاً لمن سيأتي بعد عصر الرسول لأنه لا حكمة من إبلاغهم بذلك الموقف الشخصي، لكن بما أن القرآن كلام الله فكل ما نزل على الرسول منه يجب أن يبقى كما نزل. وبما أن المفسرين لا يمكن أن يفوتوا فرصة لاختلاق القصص إلا وأقدموا عليها، فقد اهتموا بمن يكون، أكثر من اهتمامهم بالحدث. وقالوا (كما أورد الطبري في تفسيره للآية) إن المعني هو الوليد بن المغيرة، وكان ماله من الدنانير، بل قالوا هي ألف دينار، وزادها بعضهم إلى أربعة آلاف، وقال بعضهم ماله عبارة عن أراضٍ، ومرة أخرى قالوا بل ماله غلة شهر بشهر. وكالعادة فلم يخبرهم بما قالوا عن المغيرة من عاش زمن المغيرة، ولكنهم اختلقوا قصصهم كيفما يحلو لهم. والآية لا تحتاج لقصص المفسرين، لأنها تقول ببساطة إن الرجل ثري، بلغة ذاك العصر، لأن ثراءه أحد الأسباب في نكوصه عن الحق. وقد أبلغه القرآن برسالة التهديد، وعرفت قريش ذلك، وهذا المهم في إيرادها. وليس المهم أن يخبر القرآن أجيالاً قادمة باسمه أو مقدار ثروته، لأن القرآن ليس كتاب روايات، والخطاب ليس لدعوة من سيأتي بعد عصر الرسول.

وهذا القرشي عندما قال لا، فلن يؤمن أبداً، لأن هناك سنة أزلية ذكرها القرآن تؤكد أن من يرفض الدعوة مرة فلن يقبل بها أبداً[1]. لذا جاءت الآيات تتوعده، لأنه مهما طال به العمر فسيموت على كفره ولن يؤمن، مهما دعي ومهما تبين له الحق. ولم تتوعده الآيات لأن الله قد كتب عليه الشقاء والضلال. وهذا القرشي كان أول من جاء ذكره في القرآن يسخر من الدعوة والرسول.

استمرار الدعوة

بنزول سورة المدثر يكون قد مضى حوالي عام من بدء البعثة، ذلك أن نزول السور السبع الأولى من القرآن (مرحلة التعريف والتهيئة) استغرق ما بين شهرين إلى ثلاثة أشهر، قبل أن تنزل سورة المزمل ويبقى الرسول في غار حراء لبضعة أشهر، إلى أن نزلت عليه سورة المدثر معلنة بدء الدعوة الفعلي بعد حوالي العام من بدء البعثة.

---

[1] انظر فقرة: من يرفض الدعوة مرة لن يؤمن بها أبداً / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



ثم توالى بعد ذلك نزول السور للمرحلة الرابعة (مرحلة استمرار الدعوة) والتي نزل خلالها سبع وثلاثون سورة كلها تخاطب قريشاً فقط، وكأن الدعوة للإسلام موجهة لأهل مكة حصرياً. والسور هي: الأعلى، العلق، القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين، عبس، المرسلات، الجن، الفلق، الناس، الإنسان، الملك، يس، القدر، والرحمن، النجم، الهمزة، ن والقلم، الطور، الضحى، الشرح، نوح، والقمر.

ولو قدرنا أن الفترة بين نزول سورة وأخرى في هذه المرحلة، هو شهر، فقد استمرت هذه المرحلة لحوالي ثلاث سنوات أو تزيد قليلاً. كانت الدعوة موجهة لقريش فقط دون بقية الناس، ودون أن يغيروا موقفهم الرافض للحق.

ولو توفي رسول الله أو قتل في هذه المرحلة فلن يكون هناك إسلام، ولا قرآن مكتوب، ولا تشريعات. ولكن سيكون هناك قلة قليلة موحدة، تؤمن بعبادة الله وحده، وبالبعث والحساب، وأن عليها أن تنفق لسد حاجة المحتاج وتصلي في أي وقت تشاء دون تحديد. وسينتهي أمر هذه الفئة من الناس مع تتابع الأجيال.

وفي هذه المرحلة تجلت سنة الأولين التي تؤكد أن الدعوة لا يقبل عليها الكبراء والأغنياء وأصحاب المصالح والجاه، ولن يؤمنوا بها مهما دعوا. وسيقبل بها قلة قليلة من المستضعفين والمهمشين، وقلة ممن يبحث عن وضع أفضل في ظل الدعوة مما حصل عليه في مجتمعه، ومن هؤلاء يكون المنافقون عادة. وهناك أعداد أقل تقبل الدعوة من طبقات اجتماعية متنوعة. ومن لم يؤمن بالدعوة في هذه المرحلة فلن يؤمن بها مهما دعي بعد ذلك. وكل من يعلن إسلامه فيما بعد فلأسباب أخرى ليس منها الاقتناع بالدعوة.

أحد كبراء قريش ينهر الرسول عن أداء الصلاة

أول الأحداث التي وقعت في هذه المرحلة وذكرها القرآن كان في أول سور المرحلة نزولاً، العلق. وتروي لنا أن أحد كبراء قريش لاحظ أن الرسول منذ أن بدأ دعوته وهو يؤدي صلاة غريبة عند الكعبة - حيث يجتمع سادة قريش - فكان ينهره لئلا يؤديها: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَّ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥)



نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩) العلق.

ويمكن أن نفهم ما حدث كما يلي: فالرسول بعد أن بعث، بدأ يصلي في المسجد الحرام وقرب الكعبة – حيث مجالس قريش وتجمعهم – فلاحظوا هذه الحركات غير المألوفة لديهم التي يقوم بها الرسول، والتي لم يبدأ بأدائها إلا بعد أن زعم أنه رسول من الله ويدعو لدين جديد. ولما عاد من غار حراء وعاود تلاوة عباراته الغريبة عليهم، عاود الصلاة كما كان يفعل قبل اعتزاله في الغار. فما كان من أحدهم إلا أن سارع لنهر الرسول وزجره عن أداء صلاته.

قريش بدأت تتساءل عن البعث

وتساؤلهم عن البعث مشوب – عند غالبيتهم – بسخرية، فكانوا كلما التقوا الرسول سألوه: متى البعث يا محمد؟

فنزلت السور التي تبدأ «بإذا» كإجابة لتساؤلاتهم، وهي: الزلزلة، والانفطار، والانشقاق، والتكوير.

والبعث بالنسبة لقريش شيء محير، لأنهم يظنون أن الجسد الذي تحلل بعد الموت وانتهى سيعاد للحياة مرة أخرى، ويرون هذا ضرباً من الخيال. ولأن قريشاً لن تستوعب حقيقة البعث المتمثلة في أن الإنسان هو النفس وأن الجسد المتحلل هو عبارة عن حامل يمكن استبداله بحامل آخر يوم القيامة، فقد توجه القرآن لإقناع قريش بما يمكن لمداركهم أن تفهمه، وهو أن يؤمنوا أن هناك بعثاً وحياة بعد الموت، حتى لو تصوروا أن الإنسان سيبعث بجسمه الدنيوي. لذا جاءت السور لتقنعهم بإمكانية البعث بصور حسية مجازية يفهمونها، دون التصريح بما سيكون عليه الحامل الجديد للنفس يوم القيامة.

قريش بدأت تتهكم على الرسول

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ(١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ(١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى



الْغَيْبِ بِضَنِينٍ(٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩) التكوير.

الآيات تشير إلى أن رجال قريش بدأوا يتهمون الرسول بالجنون، وهم يعلمون أنه ليس كذلك، ولكن من باب التهكم والسخرية. كونه يتلو عليهم قرآناً عجيباً يدعو للإيمان بحياة بعد الموت التي يعتبرونها مستحيلة. وإن كان الرسول ليس بمجنون فلابد أن من يوحي له بهذه الأفكار شيطان، كونهم يؤمنون بالخرافات وتواصل شياطين الجن مع الناس. وهذا مؤشر على أن قريشاً لم تعد تتجاهل الرسول ودعوته، ولكنها بدأت تحتك به وتضايقه، وهذا تطور سيء سيتطور مع الأيام للأسوأ.

رجال قريش يختلفون حول البعث

استمرت الدعوة وتتابع نزول سور القرآن في هذه المرحلة: الأعلى، العلق، القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، والقيامة. وكلها سور تؤكد لقريش وقوع البعث، وتقول لهم إن التفكير بالخلق وقدرة الخالق دليل على إمكانية بعث الناس بعد الموت، مما أحدث آراءً مختلفة بين رجال مكة. فالبعض بدأ يميل للتصديق بإمكانية البعث وهؤلاء دخلوا في جدال ومناظرات مع الفريق الآخر الذين أصروا على إنكار إمكانية البعث. وأول سورة أظهرت هذا النزاع في مكة هي سورة النبأ، التي نزلت بعد القيامة: عَمَّ يَتَسَاءلُونَ(١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ(٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ(٣).

رجال قريش بدأوا يتساءلون في نواديهم: هل يمكن أن يحدث البعث؟

وقد انقسموا حول الإجابة: الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ(٣).

وهو ما أشارت له سورة «ق» التي تلت النبأ في النزول:

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣).

العجب والتعجب حول ما يقوله محمد - الذي هو منهم - عن البعث. والآيات تظهر حدة الجدل حول البعث في مكة بين رجال قريش. وفكرة البعث جديدة، ومن اقتنع بإمكانيته



صدم بآخرين ينفون حدوثه. ومع أن الأيام الأولى للجدل كانت مشحونة إلا أن كلا الفريقين متفقان على تكذيب محمد وعدم قبول دعوته، سواء كان هناك بعث أم لم يكن.

وقد استمر اختلاف رجال قريش حول إمكانية البعث، ولم يتوقف. فقد أشارت لاستمراره سورة «ص» أول سورة نزلت في المرحلة الخامسة للدعوة في مكة وبعد قرابة سنتين من بدء اختلاف قريش حول البعث: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢).

وهو ما أكدته سورة الذاريات التي نزلت في نفس المرحلة الخامسة: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ(٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ(٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ(٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ(١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ(١٢).

والخراصون الذين لا يعتمدون في كلامهم على مصادر وحقائق، وإنما على ظنون.

وتقول سورة الجاثية التي نزلت في نفس المرحلة، وبعد حوالي ثلاث سنوات من بدء بعض رجال قريش بالتصديق باحتمال وقوع البعث: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢) الجاثية.

قريش تطالب الرسول بدليل محسوس يؤكد البعث والقيامة ليؤمنوا، لأنهم لن يتركوا موروثهم لمجرد احتمال أن هناك بعثاً، والاحتمال مجرد ظن قد لا يقع. وهذا يظهر أن الاقتناع بالبعث أصبح عند بعض رجال قريش محتملاً، بعدما كان لا أحد منهم في بداية الدعوة يتصور احتمال حدوثه.

الرسول يتعرض للضغوط

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(٤٣) ق.

يمكن القول إن السورة تشير لبداية تعرض الرسول للمضايقات والسخرية من قريش، وذلك بعد مضى أكثر من عام على بدء الدعوة بالمدثر، وسنتين على بدء البعثة. فسورة «ق» رقمها من حيث تسلسل النزول (٢٤) منذ البعثة، وهي السورة الثالثة عشرة بعد نزول



المدثر، وبدء الدعوة. وكل السور التي نزلت قبلها في هذه المرحلة تدعو قريشاً للإيمان بالله والبعث، دون أن يتزحزحوا قيد أنملة عن التمسك بموروثهم الديني القائم على عبادة الأصنام. ولكي يبرروا لأنفسهم أنهم على حق، بدأوا يسخرون من الرسول بطريقة مؤذية لمشاعره، برغم أنه استعد جيداً في غار حراء ليكون قادراً على تحمل هذه المضايقات المتوقعة. لكنه بشر عرضة للأذى ويحتاج لتجديد برنامجه التأهيلي باستمرار، فجاءت هذه الآيات لتشد من عزيمته بتذكيره أن الله قريب منه.

وسنرى أنه كلما تدنت معنويات الرسول نتيجة للضغوط النفسية تنزل السور لتشد من عضده وترفع من معنوياته، وحثه على ذكر الله وتسبيحه ليشعر بقربه منه، ويتقوى نفسياً وذهنياً.

أول إشارة لوجود نفر مسلم في مكة

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ(٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ(٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦) المطففين.

هذه أول مرة يشير القرآن لوجود مسلمين، وذلك بعد نزول (١٨) سورة سبقت هذه السورة منذ بداية الدعوة، وسبع وعشرين سورة من بداية البعثة. وهي فترة يمكن تقديرها بسنتين ونصف منذ بدء البعثة، وسنة ونصف منذ بدء الدعوة.

الرسول والأعمى

الآيات العشر الأولى من سورة عبس (ورقمها من حيث تسلسل النزول هو:٢٩) تشير إلى أنه بينما كان الرسول مستغرقاً في حديثه مع أحد كبراء قريش، قاطعه رجل أعمى مسلم بسؤال، فأفلت القرشي وابتعد. فما كان من الرسول إلا أن امتعض وتغيرت ملامح وجهه «عبس»، لأنه – على ما يبدو – كان يأمل أن يقتنع القرشي بالدخول في الإسلام.

عَبَسَ وَتَوَلَّى(١) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى(٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى(٧) وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى(٨)



وَهُوَ يَخْشَى(٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى(١٠)

والأعمى هو أحد المسلمين القلائل في ذلك الوقت، والذين معظمهم من الضعفاء والمساكين، الذين عادة ما يسارعون للدخول في الدين كما درجت سنة الأولين، مع كل الرسل السابقين، ومنهم من آمن مع نوح: فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧) هود.

ومن آمن بصالح: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٧٥) الأعراف.

وتوبيخ الرسول على ما حدث، تحريمٌ للعبوس في وجه المسلم، أو الصد عنه. وهذا التشريع التوجيهي المبكر ومنذ الأيام الأولى للإسلام، جاء لضمان حياة كريمة للمسلم، تصان فيها كرامته ومشاعره، ولم يتهاون القرآن مع محمد، برغم أنه رسول الله، وأنه في بداية الدعوة، والضغوط النفسية عليه كبيرة جداً، وبحاجة للتشجيع وليس التوبيخ، لكن كرامة المسلم فوق كل اعتبار. والله جل وعلا لا يتعامل بالعواطف، فالقانون قانون ويجب أن يحترم من الجميع، مهما كانت الظروف.

استماع الجن للرسول وهو يتلو القرآن

مضى على بدء بعثة الرسول قرابة الثلاثة الأعوام، وعامين منذ بدء الدعوة[١]، كان الرسول خلالها يتلو ما ينزل عليه من الوحي على قريش التي صم رجالها آذانهم عن سماع الحق وأصروا على التمسك بموروثهم. وكانت الحياة في مكة تسير بشكل اعتيادي فيما عدا اللحظات التي يتواجد فيها الرسول مع جمع من كبراء مكة حيث يرفع صوته بتلاوة القرآن ويقابلونه بالسخرية. وفي لحظة من تلك اللحظات صدف مرور نفر من الجن بنفس المكان الذي كان رسول الله يتلو القرآن فيه – على قريش – فأثار انتباههم واستمعوا له، ثم ارتحلوا لأقوامهم يخبروهم بما سمعوا ويدعوهم للإيمان:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ

١ لنتذكر أن البعثة بدأت بتلقي الرسول الوحي ونزول الفاتحة، بينما بدأت الدعوة بنزول سورة المدثر، وذلك بعد حوالي عام على بدء البعثة.



فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً(٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً(١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً(١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً(١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلَا تدعو مَعَ اللهِ أَحَداً(١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يكونوانَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

ويمكن الرجوع لموضوع: الجن / قسم أدلة ومواضيع من القرآن، للتفاصيل.

تزايد الضغوط النفسية على الرسول

عندما نزلت سورة الإنسان (٣٤ من حيث ترتيب النزول) كانت قريش قد أعلنت رفضها التام للدعوة، ومن يرفض الدعوة لن يقبل بها أبداً، لكن الوحي استمر بالنزول واستمر الرسول يتلو ما ينزل عليه من القرآن. فكان رجال قريش يقابلونه بالسخرية التي تؤذي مشاعره. وقد سبق ونزلت آيات في سورة «ق» لتشد من أزره، لكن الرسول كان يتلقى السخرية يومياً من قريش. ومع مرور الوقت كانت معنوياته تتدنى فيأتي القرآن ليشد من أزره، ويرفع من معنوياته ويجدد تأهيله النفسي ويحثه على الصبر، ويشعره بقربه من خالقه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً(٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً(٢٦) إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً(٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً(٢٨) الإنسان.

وقوله: «ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً» تأكيد على أن برنامج التأهيل النفسي



الذي بدأ في غار حراء المعتمد على السهر للتأمل، مستمر بعد بدء الدعوة.

إشارة للمرة الثانية على وجود مسلمين في مكة

كانت سورة المطففين أول سورة أشارت لوجود نفر مسلم، وتأتي سورة الملك (وترتيبها ٣٥ حسب النزول) لتخاطبهم وتعدهم بالمغفرة والنعيم: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١٢).

وتعود سورة الملك في آخرها لتشير لوجودهم: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٨).

فالرسول أصبح معه مؤمنون، وانقسمت مكة إلى غالبية مشركة، وقلة قليلة مؤمنة.

الرسول يشعر بالحزن من سخرية قريش

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٦) يس.

ومما تتهم قريش الرسول به، هو أن ما يتلو عليهم نوع من الشعر وليس وحياً من الله: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧٠) يس.

وهذا التسطيح لفكرة الدعوة من قريش ليقنعوا أنفسهم أنهم على صواب برفضها، وكان رفضهم لدعوة الحق الواضحة يُحزن الرسول، لأنه يعلم أنهم بذلك يسعون للنار بأنفسهم، فضلاً عن سخريتهم من شخصه.

وتكرار الإشارة في السورة إلى أن الرسول يحزن ويشعر بالأسى يظهر أن قريشاً مستمرة بالسخرية منه كلما رأوه، وليس فقط في مناسبة دون أخرى.

ولنا أن نتخيل الحالة النفسية التي يكون عليها رسول الله عندما يخرج من بيته وهو يعلم أنه سيلاقي الاستهزاء والسخرية طوال الساعات التي يقضيها خارج المنزل وفي طرقات مكة أو حول الحرم وأينما يتواجد رجالٌ من قريش. فهو مكلف بالدعوة، ولا يمكنه تركها أو التراخي في تبليغها، بغض النظر عن الصعوبات التي يواجهها.

وعندما يعود في المساء يكون قد أنهك تماماً ليس جسدياً من المشي ولكن من الضغوط النفسية الهائلة التي تعرض لها خلال الساعات الطويلة البطيئة المتواصلة الماضية.



قرشي ينفق مرة واحدة ثم يمتنع

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى(٤١) النجم.

واحد من كبراء قريش وأغنيائهم استمع للرسول وهو يتلو آيات تحث على الإنفاق وسد حاجات المحتاجين بغض النظر عن معتقد المستفيد والمنفق، كما في المدثر: ٣٩-٤٧، والليل: ١-١١، والفجر: ١٤ -٢٠، والإنسان: ٧ – ٩ والجن: ٣٣ – ٤١، وغيرها. فما كان منه إلا أن بادر ودفع بعض المال لسد بعض حاجات المحتاجين، لكنه لما طلب منه أن يدفع مرة أخرى لسد حاجات أخرى امتنع. وكأنه ظن أن ما دفعه لمرة واحدة كاف ليكسب الأجر عند الله، فجاءت الآيات لتنفي هذا الظن: «أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى». وتقول له الآيات إن الأجر يكون لمن يفعل الخير بنفسه لنفسه، ولا يمكن أن يكتب الأجر بالنيابة عن الآخرين. والإنفاق عمل صالح يشترط له الاستمرارية، بحيث ينفق القادر كلما كان هناك حاجة لفرد أو مجتمع.

قريش تواصل سخريتها من الرسول وأذاها النفسي

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) ن والقلم.

من أشد ما يؤذي العربي قديماً أن تصفه بالجنون، فهو وصف مخزٍ ومُشين. لأنهم يعتبرون المجنون خرج من التصنيف البشري. وما زال بعض أبناء البادية في جزيرة العرب لا يحبذون التعامل مع المجنون ولو كان من أبنائهم.

وقريش تتعمد أن تصف الرسول به لتكيده وتؤذيه. وبالفعل فقد كان الرسول يتأذى كثيراً، لدرجة أن سورة ن والقلم تشير إلى أنه قد خطر له ترك الدعوة والهرب، كما فعل يونس، وذلك في الآيات: (٤٨-٥٠) التي سنأتي عليها.



قريش تتمنى مداهنة الرسول

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٩) ن والقلم.

بنزول سورة ن والقلم يكون قد مضى على بدء البعثة قرابة ثلاث سنوات ونصف «حسب تقديراتنا[١]» والرسول مستمر بدعوته برغم أن دعوته لم تلق آذاناً صاغية في مكة. بل إن رجال قريش فكروا في محاولة إقناع الرسول بالتوقف عن الدعوة. فجاءه التحذير الاستباقي: «فلا تطع المكذبين» فيما لو عرضوا عليك تسوية يتم بموجبها توقفك عن الدعوة مقابل توقفهم عن محاربتك والتضييق على أصحابك: «ودوا لو تدهن فيدهنون».

وعيد لأحد كبراء قريش

بعد مضي أكثر من ثلاث سنوات ونصف، ما زال الوضع في مكة لم يختلف كثيراً عما كان عليه منذ بداية الدعوة. فمن دخل الإسلام نفر لا يزيدون عن بضعة رجال مع الرسول، وقريش قد وصل بها الغيظ والغضب من استمرار الرسول في دعوته كل مبلغ، فكانت السور تنزل تتوعد كل من يصدر منه موقف عدائي للدعوة أو للرسول أو لأي مسلم، ومن ذلك: وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ(١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦) ن والقلم.

وهذا القرشي ممن حاز كل مقومات الشرف الاجتماعي الذي كانت قريش تتمتع به وتفاخر، وهو كثرة المال والأبناء الذكور. وكان يصف القرآن بأنه خرافات قديمة: «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». فيأتي الرسول محمد الذي لا يملك مالاً ولا سلطة وكل كبراء قريش ضده، ويقف أمام هذا الصنديد ويتلو عليه هذا الآيات وجهاً لوجه. برغم أنها تحمل له تهديداً شديد اللهجة وتعده بمصير أسود مستخدمة مثلاً شائعاً حينها في مكة للوعيد على ما يبدو، وهو: «سنسمه على الخرطوم». والأمثال يكون وقعها أشد في النفس. ويكون القرآن قد واجه هذا المتكبر بوعيد شديد وبعبارات قاسية، مقابل وصفه للقرآن بالأساطير القديمة، ومقابل أخلاقه السيئة «حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ».

---

١ تم تقدير الفترة من بدء البعثة وحتى نزول سورة المدثر بحوالي العام، وتقدير الفترة بين نزول سورة وأخرى في مرحلة استمرار الدعوة بحوالي الشهر. وسورة ن والقلم ترتيبها من حيث النزول هو التاسع والثلاثون. أي بعد ٣٠ شهراً من استمرار الدعوة، ويضاف لها سنة سبقت ذلك منذ بدء الدعوة.



الرسول فكر بالهرب

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(٤٨) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٥٠) ن والقلم.

الضغط النفسي كبيرٌ على رسول الله من رجال قريش، الذين يقابلونه بالسخرية والاستهزاء والنعت بالجنون وكل أنواع المضايقات والأذى النفسي. ونعت العربي القديم بالجنون وقعه أشد على النفس من القتل، ولا يقبل به رجل محترم بمواصفات ذلك المجتمع، كما سبق وذكر. وقد تكون من العيب الذي لا يغسله سوى قتل من صدر منه. ولذلك فقد كان الرسول محمد يعود لبيته في المساء وهو مثقل بالهموم والأسى والأذى، وهو يعلم ان مآسيه ستتكرر غداً. وكإنسان فقد كان لا يتوقف عن التفكير، وكانت الهواجس تدور في رأسه بمختلف أطيافها، ومن ذلك تفكيره بالهرب.

فنزل القرآن كالعادة يحثه على الصبر والمواصلة، فما بعد الهم إلا الفرج. وتحذره من أن ينفذ فكرة الهرب التي خطرت له في لحظة ضعف، فيكون كصاحب الحوت. وهو يونس الذي هرب بالفعل من قومه لما يئس من طاعتهم له، في موقف مماثل لموقف قريش من محمد. وقد تاب يونس، بعد أن تعرض لهجوم حوت. ولما شفي عاد مرة أخرى لقومه ودعاهم فاهتدوا، كما ستخبرنا الآيات: (١٣٩-١٤٧) من سورة الصافات إحدى سور المرحلة الخامسة، والتي ستأتي لاحقاً. ويمكن الاطلاع على كامل القصة في فقرة: يونس / كتاب: من آدم إلى محمد «تاريخ الرسل والأمم والأشخاص المذكورين في القرآن».

قريش يتميزون من الغيظ كلما رأوا الرسول

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(٥١).

كلما مر الرسول بجمع من قريش لاحقوه بنظراتهم الحادة وهم يتميزون من الغيظ، ويخاطبون بعضهم بأنه مجنون، لأنه يقول ما لا يعقل وهو البعث. تقول العرب: «كاد فلان يصرعني بشدّة نظره إليّ». ولا عبرة لاستدلال بعض رجال الدين المتأخرين بالآية على أنها دليل على ما يسمى بالعين، لأنهم لم يجدوا ما يسند ما يؤمنون به في كتاب الله، فتأولوا



هذه الآية لغير معناها وقالوا هي تعني أنهم يريدون إصابة الرسول بالعين. وهذا الكلام مخالف لمعتقد من يعتقد بضرر العين. لأنهم يقولون إن العائن لا يصيب عدوه، والرسول عدو لقريش، وبالتالي فلن يصيبوه بالعين حسب القانون الخرافي لمن يؤمن بالعين. كما أن العين – حسب ما يظنون – تكون لحسد المعيون على شيء يملكه أو على هيئته، وقريش لا تحسد الرسول على كونه رسولاً ولا تكاد نظراتهم الحادة تلتهمه لأن هيئته فيها ما يثيرهم. وإنما يكادون أن يزلقوه بأبصارهم، أن يحرقوه بنظرات حداد من الغيظ. فالنظرات الحادة البغيضة تدعى الزَّلْق، وهو حدة النظر للشخص المقابل بغيظ. بينما يطلق على الكلام الحاد البغيض «السَّلْق». وهو شدة القول باللسان، كما وصفت سورة الأحزاب المنافقين: فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٩) الأحزاب.

استمرار قريش بوصف الرسول بالمجنون

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(٢٩) الطور.

وهو ما ذكرته الآيات الخمس الأولى من سورة ن والقلم السابقة. ونعته بالجنون يتسبب بأذى نفسي عميق للرسول، فينزل القرآن يحثه على الصبر ويقوي عزيمته ويشد من أزره. وتقول له الآية إنه حتى لو نعته قرشي بأي نعت بذيء، فلن يتحول الرسول لما قيل عنه، ولكنه يظهر فساد خلق من صدر منه. فالرسول لن يتحول لكاهن ولا مجنون، لمجرد أنه نعت بذلك.

قريش بدأت تفكر بقتل الرسول

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢) الطور.

بعد مرور ثلاث سنوات ونصف أو أكثر قليلاً من بدء بعثة محمد، يتحدث القرآن لأول مرة عن طرح رجال قريش فكرة قتل الرسول للبحث، وكيف يمكن تنفيذها. وقريش لم تمتنع عن قتل الرسول بسبب دفاع عمه أبي طالب عنه، كما تزعم كتب التراث. لأن أبا طالب هلك وبقي الرسول بعده سنوات في مكة وهو لم يغير طريقته في الدعوة ولم يحفل من قريش



ولم يداهنهم، ومع ذلك لم تقتله قريش[1]. والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن سفيهاً لكي يحامي عنه عمه أو غيره بل كان رجلاً رسولاً يدعو لدين الله، بحمى الله. وقريش عندما فكرت وأرادت قتله لم يكن أبو طالب أو غيره ليمنعها، ولكن حرمة مكة منعتها من تنفيذ ما تصبو إليه. والدليل على ذلك أن قريشاً عندما خرج الرسول من مكة مهاجراً لاحقوه ولو ظفروا به لقتلوه. وقد يكون رجال قريش فكروا في استدراج الرسول خارج الحرم وقتله، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك. والآيات تصف مشركي قريشاً بأنهم «قوم طاغون» لن يتورعوا عن قتل الرسول لو استطاعوا. وحرمة مكة فرضت على قريش عدم المساس بالرسول لأن سمعة قريش وجاهها بين سكان جزيرة العرب تقوم على احترامهم لحرمة مكة وأنها بلد آمن لا يمس قاطنوه ولا يتعرض لهم بسوء، ولنفس السبب لم يمس بسوء أحد من القرشيين الذين دخلوا الإسلام، ولا أي مسلم ينتمي لقبيلة. وكل من تعرض لأذى جسدي وتعذيب كانوا من المستضعفين الذين هم موالي وعبيد مكة الذين أسلموا، كما سنرى عند تدبر سور المرحلة السابعة والأخيرة للدعوة في مكة.

الرسول يمر بمرحلة صعبة نفسياً

مع استمرار الرسول بالدعوة لم تعد قريش تتجاهله لأنه أصبح مصدر إزعاج دائم لهم. ومع أنهم سخروا منه منذ بداية دعوته، إلا أن السخرية تزايدت وتنوعت، وأضحت أشد إيلاماً، لدرجة أن الرسول فكر بالهرب، كما مر بنا. فكان القرآن ينزل ليشحذ همته ويشعره بأن الله معه. وقد تكرر نزول مثل هذه الآيات وتقاربت، لأن المضايقات التي يتعرض لها الرسول متواصلة وقاسية: فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ(٤٩) الطور.

ثم نزلت سورة الضحى بعد سورة الطور: وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ

[1] تقول كتب التراث إن أبا طالب مات قبل الهجرة بثلاث سنين، ولم يهن الرسول بعده ولم يضعف، مما يعني أن كل ما قيل عن نشاط أبي طالب لحماية الرسول والدفاع عن الإسلام تحريف مختلق، فقط لأن ابنه علي رأس أئمة الشيعة. ومما قالته كتب التراث أن الرسول حاول أن يقنع أبا طالب عند موته بأن ينطق بالشهادة، وأتباع المذهب الشيعي يقولون إنه نطق بها فهو مسلم وفي الجنة. وهذا ما يظهر أنهم لا يعرفون أن الإيمان عند الموت لا يفيد صاحبه. انظر فقرة: الإيمان عند الموت لا يقبل / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى(٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١).

وهي سورة تقول بأن الله الذي أعانه على تجاوز محن وأزمات وأوقات صعبة مرت به في بداية حياته، لن يتخلى عنه الآن. وسيعينه على تجاوز الأوقات العصيبة التي يمر بها نتيجة أذى قريش النفسي له.

وتلت الضحى سورة الشرح: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨).

وهي استمرار لما ورد في الضحى. حيث تذكر الرسول بما سبق عليه من نعم الله، وأن الله لن يتخلى عنه. وما يمر به من ظروف قاسية ستمر سريعاً، ويحل محلها اليسر والسرور.

أصبح للمسلمين وجود في مكة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ(٥٥) القمر.

الآية تتحدث عن المؤمنين، وهو ما يعني وجودهم في مكة ولو بأعداد قليلة، وليس من المتوقع أن تكون أعدادهم زادت عما كانت عليه منذ بداية الدعوة. لأن الدعوة موجهة لأهل مكة فقط، وغالبية قريش رفضت الدعوة ولن تؤمن، والقلة القليلة التي أسلمت منذ سمعت بالدعوة بقيت على حالها، ولم تتزايد أعدادها. وقد سبق وأشارت للمؤمنين القلة في مكة سورتا المطففين والملك.



المرحلة الخامسة للدعوة في مكة
مرحلة تحول الخطاب الدعوي لغير قريش

حسب تقديراتنا فمع بداية هذه المرحلة يكون قد مضى قرابة أربعة أعوام ونصف على البعثة حين رأى الرسول الملك في الأفق، ونزلت عليه سورة الفاتحة، وست سور قصار تلت. قبل أن ينعزل في غار حراء لبضعة أشهر خاضعاً للبرنامج التأهيلي النفسي الذي أمر به في سورة المزمل. ثم نزلت عليه سورة المدثر التي تعتبر بداية الدعوة، تلاها نزول (٣٧) سورة مثلت المرحلة الرابعة للدعوة في مكة.

وقد مرت هذه السنوات ثقيلة منهكة على رسول الله، ولم يزد عدد الداخلين في الإسلام عن النفر القليل الذين قبلوا الإسلام في بداية الدعوة. فسارت الأيام على وتيرة واحدة لا تتغير: الرسول يقضي جل يومه يتلو على قريش ما نزل عليه من القرآن، وقريش لاهية عن الحق ولا تصغي. وكلما مر الرسول بجمع منهم سخروا منه وأسمعوه أقذع العبارات. ولم يكن الرسول يرد على سخريتهم، لكنه كان يتألم، فتنزل عليه الآيات تطمئنه وتشعره بقربه من الله، وأن ما يمر به من محن سرعان ما تزول.

ولابد من ذكر أن الرسول أو أي مسلم، سواء كان من الموالي والعبيد أو من قريش لم يتعرض لأي أذى جسدي من مشركي مكة منذ بداية البعثة وحتى نهاية المرحلة الرابعة، وسبب ذلك عائد إلى أن من دخل الإسلام لم يزد عن نفر قليل غالبيتهم من المستضعفين وآخرين لا وزن لهم في المجتمع. فسارت الحياة في مكة على وتيرة واحدة: قريش لاهية في حياتها ومتعها، والرسول يدعو ولا أحد يصغي لما يدعو له، ومن يراه منهم يسخر منه. بينما يعيش المسلمون القلة حياتهم بهدوء، وإن كانوا منبوذين من المجتمع المكي وينظر لهم على



أنهم خوارج. دون أن يتعرض لهم أحد بأي أذى جسدي، وما يتلقونه من سخرية لا يكاد يذكر ولا يقارن بما يلقاه رسول الله.

وفي هذه المرحلة تغير الخطاب الدعوي من قريش فقط إلى كل الناس، وقد نزل في هذه المرحلة (٣١) سورة، ولو قدرنا الفترة بين نزول سورة وأخرى بحوالي الشهر كما هي الحال في المرحلة السابقة، فإن هذه المرحلة امتدت لحوالي سنتين ونصف.

وقد نتج عن تغير الخطاب الدعوي تغير في الأوضاع، ووقوع أحداث.

إعلان الإسلام ديناً عالمياً

طوال الست والأربعين سورة التي نزلت قبل سورة «ص» وعلى مدى أربع سنوات، كان المخاطب قريشاً، ولم يخاطب القرآن أحداً من الناس غيرهم، وكأنهم وحدهم من أرسل لهم الرسول. وعندما نقول قريشاً نقصد رجالها. فهم من يقود مجتمع مكة، ولو أمنوا آمن الجميع، وإن كفروا تبعهم غيرهم. وبما أن الناس في كل العصور ساروا على وتيرة واحدة تتمثل برفض الغالبية لدعوة الرسل وإيمان قلة قليلة من المستضعفين، فإن قريشاً قد صمت آذانها عن الحق، ولم تؤمن برغم استمرار الرسول بالدعوة. ولو بقي الرسول يدعو أهل مكة فلن يتغير الوضع كثيراً، وقد يموت الرسول ولم يؤمن إلا من قد آمن. ولو حدث هذا فلن يكون هناك دين لله اسمه الإسلام كما هو اليوم بتشريعاته وكماله، لأن السور الست والأربعين الأولى التي نزلت في مكة لم تحتو تشريعات – فيما عدا الإنفاق والصلاة – بدون تحديد أوقات – إضافة للدعوة إلى محاربة الغش التجاري، ولا شيء غير ذلك. وسينتهي أمر المؤمنين القلة كما انتهى أمر من نجا مع نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم، وسيبعث الله رسولاً آخر للناس.

لكن الخطاب الدعوي – في سورة ص – تغير لغير قريش بشكل غير مباشر أولاً. حيث تحدثت السورة أولاً عن داوود وسليمان وأيوب وخلق آدم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، كونها قصصاً لأحداث قديمة لا تهم قريشاً بقدر ما تهم بني إسرائيل الذين يقطنون إلى الشمال من مكة، في واحات ممتدة على طول طريق التجارة القديم الواصل بين بحر العرب في الجنوب وبلاد الشام. مثل تيماء، ووادي القرى، خيبر، ويثرب الواحة الأقرب لمكة.



وحديث القرآن عن أولئك الأشخاص المتميزين في تاريخ بني إسرائيل سيلفت انتباههم ويجعلهم يتساءلون عن الرسول وما يدعو له، وسيحضر البعض منهم للقائه والاستماع إليه.

وقد صرحت سورة «ص» في آخر آية أن دعوة الرسول المتمثلة بالقرآن هي دعوة لكل الناس وليست لقريش فقط: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٨٦)، وكررته سور أخرى فيما بعد[١].

وسنرى أن تحول الدعوة لمخاطبة بني إسرائيل جعل البعض منهم يدخلون الإسلام وينشرونه في يثرب، حيث تقبله غالبية المستضعفين هناك (الأوس والخزرج) وقلة من السادة من أهل الكتاب بمختلف معتقداتهم، بينما امتنع ورفض الدعوة الكبراء سواء كانوا غالبية بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب، أو زعماء الأوس والخزرج ومعهم من له مصالح في بقاء الوضع السابق. وعندما ضيقت قريش على من أسلم من المستضعفين وعذبتهم لتفتنهم في دينهم، دعاهم إخوانهم المسلمون الجدد في يثرب للهجرة إليهم، ورحبوا باستضافتهم في بلدهم. فهاجروا وهاجر معهم كل المسلمين ورسول الله. وفي يثرب أصبح للمسلمين دولة خاصة بهم وتغيرت أحوالهم، كما سنرى في الفترة المدنية.

وحديث القرآن في سور هذه المرحلة وما بعدها عن أحداث وشخصيات بني إسرائيل التاريخية إثبات لهم أن محمداً رسول لله وإلا لما استطاع أن يتحدث عن تفاصيل أحداث غابرة، وهو لا يقرأ ولا يكتب. وحتى لو ظن أحد أنه يقرأ ويكتب، فليس هناك مصادر مكتوبة يمكن لمحمد أن ينقل منها هذه التفاصيل التي يتلو عليهم.

وبنزول سورة «ص» أصبح القرآن بكل وضوح ذكراً ودعوة لكل العالم، ولم يعد حكراً على قريش. وهذا يعني ميلاداً جديداً للإسلام، وتحولاً هاماً جداً في مسار الدعوة من المحلية المحصورة بمكة إلى كل العالم. وبطبيعة الحال ستشهد هذه المرحلة وقوع أحداث تتماشى مع الوضع الجديد في مكة والذي فرضه تغير الخطاب الدعوي.

وقد نزل في هذه المرحلة (٣١) سورة سنتتبع الأحداث التي تذكرها، بنفس ترتيب نزولها،

---

١ عبارة «ذكر للعالمين» وردت في سور سابقة لسورة «ص» من سور المرحلة الرابعة التي كان المخاطب فيها قريشاً، في الآية (٢٧) من سورة التكوير، والآية (٥٢) من سورة ن والقلم، وكان المقصود بالعالمين أهل مكة فقط، لأن الخطاب موجه لهم. لكن العبارة وردت في هذه السورة مسبوقة بالحديث عن شخصيات تاريخية تهم بني إسرائيل مما يعني أن الخطاب الدعوي موجه لهم، وبالتالي فعبارة «ذكر للعالمين» المقصود بها هنا كل الناس.



كما فعلنا مع سور المراحل السابقة. وسنقدر أن القرآن كان ينزل في هذه المرحلة بمعدل سورة لكل شهر، وهي نفس الفترة التي قدرناها بين سورة وأخرى للمرحلة السابقة. والسور هي: ص، الصافات، النازعات، الذاريات، الأحقاف، الجاثية، فاطر، فصلت، الدخان، مريم، الإخلاص، الكهف، الزخرف، غافر، سبأ، الكافرون، لقمان، النمل، الحجر، طه، السجدة، المؤمنون، المعارج، الفرقان، الزمر، الأعراف، يونس، إبراهيم، يوسف، الأنبياء، والكوثر.

إعلان رفض الدعوة أصبح شعار المجتمع المكي

وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ(٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ(٧) ص.

رفض أي دعوة إصلاحية أو دينية يبدأ بمواقف فردية، ثم يتحول إلى نظرة اجتماعية يتفق عليها كل أفراد المجتمع. وعندما يصبح كذلك يكون حائلاً ضد الأفراد للاستجابة للدعوة خوفاً من تجريم المجتمع لهم ونقدهم. فيتمسك الناس بموروثهم، قلة منهم بقناعة، والغالبية بالتبعية.

وسورة «ص» تخبرنا في هذه الآيات ما وصلت إليه حال قريش في المرحلة التي سبقت تحول خطاب الدعوة لكل الناس، وأن قريشاً لن يتحول منها أحد للإسلام بعد الآن، وستمر علينا سور تؤكد واقع قريش هذا.

قريش تسخر من الدعوة

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ(١٨) ص.

سخرية قريش بالرسول التي بدأت مع بداية الدعوة، مستمرة، وتزداد شراسة.



رجال قريش يحاولون أن يشككوا من أسلم منهم بالبعث

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ(٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ(٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ(٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(٦١) الصافات.

الآيات عبارة عن مشهد مجازي يصور مجموعة من المسلمين (من قريش) في الجنة وهم يتجاذبون أطراف الحديث. وأثناء الحديث يتذكر أحدهم أنه كان له صاحب في الدنيا دائماً يحاول أن يشككه بالبعث بعد الموت، ويتساءل ما حدث له. فقيل له انظر للنار، فوجد صاحبه فيها، فخاطبه قائلاً: إني كدت أن أصدقك ولكن الله رحمني بثباتي على الحق.

وبرغم أن هذا المشهد افتراضي ولن يحدث لأن أهل الجنة وأهل النار لن يكون بينهم هذا التواصل الحسي المباشر، إلا أن الآيات تتحدث بهذا الأسلوب المجازي لتصوير ما كان يحدث في مكة بالفعل. فهناك بعضٌ من رجال قريش عندما يلتقون أصحابهم ممن أسلم يكون بينهم حديث يحاولون من خلاله أن يشككوهم باستحالة البعث. وكانت تمر لحظات تسيطر الشكوك فيها على أفكار بعض المسلمين.

إيمان أول رجل من بني إسرائيل

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) الأحقاف.

سورة الأحقاف ترتيبها من حيث النزول هو (٥١)، وهي خامس سورة تنزل في هذه المرحلة. أي أنها نزلت بعد حوالي خمسة أشهر من تحول الخطاب الدعوي، على اعتبار أن هناك فترة زمنية بين نزول سورة وأخرى تقدر بشهر. وخلال هذه المدة وصلت أخبار دعوة الرسول وحديثه عن تاريخ بني إسرائيل إلى يثرب فحضر بعضهم لمكة واستمعوا للرسول، وآمن أحدهم.

والآية وردت ضمن آيات تخاطب قريشاً وتتساءل عن إصرارهم على الكفر برغم وضوح



الحقيقة لدرجة أن أحد بني إسرائيل (يثرب) آمن. وهذا الرجل هو أول من آمن من أهل يثرب، لأنها المرة الأولى التي يذكر فيها القرآن إيمان أحد منهم. ولابد أنه عاد وبدأ يتحدث عن الإسلام هناك، ومن دعوته ودعوة غيره ممن تبعه في الدخول في الإسلام انتشر الإسلام على أيديهم بين الأوس والخزرج كونهم يمثلون الضعفاء في يثرب، بينما امتنع عن قبول الدين غالبية بني إسرائيل واليهود والنصارى كونهم يمثلون الكبراء وأصحاب المصالح.

ودخول بني إسرائيل أولاً في الإسلام ينفي ما تناقلته كتب السير من قصص لا أساس له حول إيمان رجال من الأوس والخزرج أولاً ومقابلة الرسول بما أسموه بيعة العقبة، وأنهم هم من نشر الإسلام في يثرب.

ويعتبر إسلام أول رجل من بني إسرائيل يثرب واقعة تاريخية هامة جداً لأنها تمثل منعطفاً هاماً في مسار الدعوة وبقاء الإسلام وانتشاره.

من أسلم في مكة كانوا من الضعفاء والمستضعفين

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢).

الآية (١١) فيها إشارة إلى أن من أسلم لم يكونوا من علية القوم اجتماعيا (مال وجاه)، وهذا متوقع. فسنة الأولين التي سارت عليها الأمم تقول بأن الضعفاء هم أغلب من يستجيب للدعوة، ومعهم بعض من يبحث عن وضع أفضل من الطبقات الأخرى. بينما يتمسك الكبراء وأصحاب المصالح ومن تبعهم بموروثهم. والضعفاء نقصد بهم من ليس من الكبراء في المجتمع وإن كانوا ينتسبون لقريش بالنسب، أما المستضعفون فهم الموالي والعبيد.

رجل من قريش يتأفف من دعوة والديه له لكي يسلم

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١٥)



أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ(١٦) الأحقاف.

الآيات أعلاه عبارة عن مقدمة لما ستتحدث عنه الآيات: (١٧-١٨) التالية. وهي عبارة عن تذكير ببعض واجبات الوالدين المتمثلة بالإحسان لهما في القول والفعل، كتقدير لفضلهما على الولد.

ثم يأتي الحديث عن صلب الموضوع:

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(١٨).

فالآيات تخبرنا عن حالة خاصة وليست تشريعاً عاماً. وتبدأ بالتذكير بالتأدب مع الوالدين والإحسان لهما، خاصة من رجل بلغ الأربعين. فبلوغ هذه السن مناسبة لأي عاقل أن يفكر ويهتدي للحق ولو لم يدعه أحد. لكن هذا القرشي الأربعيني ليس فقط رفض عرض والديه بغلظة، ولكنه تأفف من حديثهما ونهرهما ولم يتأدب معهما بدل أن يحسن إليهما ويلاطفهما. وكان بإمكانه رفض عرضهما بطريقة مؤدبة ودون تأفف، خاصة أن العرض فيه نجاته من النار.

ولا تتحدث الآية (١٥) عن أن المعاصي قبل الأربعين مقبولة أو أخف أو تغفر، وبعد الأربعين على المسلم أن يتوب، كما تأول المفسرون. لأن المعاصي حالها ومصيرها واحد للشاب وللعجوز، والتوبة شروط قبولها واحدة. وليس هناك تساهل مع الشاب وتشدد على العجوز. لكنه أسلوب القرآن في عرض المواضيع.

الضغوط النفسية تتزايد على الرسول

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

كلما وردت آية أو آيات تحث الرسول على الصبر والاستعانة بالله وتسبيحه فهي إشارة إلى تزايد الضغوط عليه من قريش. وسورة الأحقاف نزلت في وقت تحول فيه الخطاب الدعوي



لكل الناس بعدما كان حصراً على قريش. وهذه النقلة التاريخية أثارت حفيظة قريش على الرسول وقلقها من انتشار الإسلام. فصعدت من سخريتها من رسول الله ومضايقته، إلا أن هذه السورة وكل السور التي نزلت قبلها لا تذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد تعرض لأي أذى جسدي.

بعض رجال قريش يسخرون من القرآن

قريش سخرت من الرسول منذ بداية الدعوة، وفي هذه المرحلة تذكر لنا سورة الجاثية أن البعض بدأ يسخر من نصوص القرآن: وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠) الجاثية.

وهذا تطور سيء سيتبعه تطورات أسوأ.

لأول مرة، الضغوط بدأت تطال المسلمين أيضاً

قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥) الجاثية.

فيما سبق كررت العديد من السور الأذى النفسي الذي يطال الرسول من سخرية قريش، لكن لم يذكر القرآن في أي سورة سابقة، أن قريشاً كانت تؤذي المسلمين ولو بالسخرية. بل إن الآيات: (٥٠-٦١) من سورة الصافات تتحدث عن محاولات بعض مشركي قريش إقناع معارفهم أو أقاربهم ممن أسلم باستحالة البعث، ولا تذكر أي سورة نزلت سابقاً أن هناك أي أذى أو مضايقات لحقت بالمسلمين، سواء من هم من قريش أو من المستضعفين. لكن هذه الآيات تطلب من المسلمين أن يتسامحوا مع من يؤذيهم (نفسياً بالسب والسخرية) من مشركي قريش. مما يعني أن قريشاً بدأت تستفز المسلمين وتسخر منهم، فقام البعض برد السخرية بمثلها، فجاءت السورة تقول للمسلمين ألا يبادلوهم السيئة بالسيئة بل عليهم الصبر والتسامح. لأن مبادلة قريش السب والشتم سيعطيها ذريعة للتعدي الجسدي عليهم.



وهذه الآيات تحول خطير يظهر أن قريشاً تصعد من عدائيتها، ولم تعد تكتفي بالسخرية من الرسول بل بدأت تسخر وتؤذي المسلمين. وذلك لأن تحول الخطاب الدعوي لكل الناس وللمستضعفين (عبيد قريش ومواليها) بالذات أشعرها بالخطر، لأنهم لو آمنوا لشلت الخدمات في مكة، كون المستضعفين هم من يقوم بها. ولو انتشر الإسلام خارج مكة فهو نصر لمحمد وهزيمة لموروث قريش، وتهديد لمكانتها بين أهل جزيرة العرب. وستحدثنا سور قادمة عن تطورات أسوأ.

الرسول يلوم نفسه على رفض قريش للدعوة

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ(٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٢٦) فاطر.

الآيات تؤكد للرسول أن مسئوليته تتوقف عند التبليغ، وليس عليه هداية الناس للحق، فلا يشعر بأي حسرة ولا يلوم نفسه على بقاء قريش على الضلال. فرفضهم الحق ليس بسبب أن الحق غير واضح ولا يعني أنك يا محمد لم تقم بالتبليغ كما أمرت، لكنه عائد لتمسكهم بموروثهم الذي لن يتركوه ولو رأوا الله جهرة، فلا تبتئس.

قريش تؤكد التمسك بالكفر وعدم التراجع

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥) فصلت.

الآن الوضع في مكة أصبح واضحاً، قريش لن تتراجع عن موقفها الرافض للدعوة، وهو ما يتوافق مع السنة الأزلية التي ذكرها القرآن من أن من لم يؤمن بالدعوة من بداية سماعه بها ورفضها فلن يؤمن بها أبداً مهما دعي.

ما يلفت الانتباه في الآية الخامسة أنها تؤكد ما سبق وذكرته الآيات: (٦-٨) من سورة «ص» من أن رجال قريش بدأوا يتحدثون عن موقفهم الرافض للدعوة بشكل جماعي، وكمجتمع، وليس كآراء شخصية لكل فرد على حدة. وهو ما يعني أنهم اتفقوا على الكفر



ورفض الدعوة اتفاقا صريحاً ومن يخالف هذا الاتفاق «للأمة» فهو عدو يجب حربه. وهذا الإجماع المجتمعي هو الذي يقف حائلاً لكثير من الناس لتجاوز الموروث ولو اقتنعوا ببطلانه، لأنه يخاف من نقد المجتمع ونبذهم له. وهو يظهر في كل مجتمع وفي كل زمان، كقانون غير مكتوب وعرف لا يجوز تجاوزه. وقد عادت سورة فصلت نفسها لتأكيده: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فصلت

فحث رجال قريش بعضهم لبعض بالتمسك بالموروث سنة سارت عليها كل الأمم. ورفض دعوات الرسل برغم أنها منطقية وحجتها قوية، يعود إلى تغلغل الموروث في النفوس ورفض الناس نقده. وهو ما درجت عليه كل الأمم، ومنهم قوم إبراهيم: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٦٨) الأنبياء.

وهو ما قاله قوم نوح: وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً(٢٣) نوح.

فقرناء السوء يوحون لقرنائهم التمسك بما هم عليه من الضلال. والتمسك بالموروث دافعه القوي في النفوس هو اتفاق المجتمع عليه، والخروج عنه ينظر له على أنه شذوذ وعيب. ولهذا يتمسك به الأفراد خوفاً من نقد المجتمع، ولو لم يكونوا مقتنعين به. وهو ما تعود وتؤكده سورة فصلت: وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٧) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ(٢٩).

المسلمون أصبح لهم حضور في مكة

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) فصلت.

قليلة هي الآيات في المرحلة السابقة للدعوة التي تخاطب المسلمين في مكة، لأن أعدادهم



قليلة جداً، لكن يبدو أنه أصبح لهم حضور أكبر في هذه المرحلة نتيجة لدخول أعداد من المستضعفين وغيرهم الإسلام. والآية أعلاه واحدة من الآيات التي تخاطبهم في هذه المرحلة.

الحاجة لمشاركة المسلمين في مكة بالدعوة

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ(٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣) فصلت.

الآيات تخاطب المسلمين القلة في مكة، وبعد أن تعدهم بالجنة في الآخرة والطمأنينة في الدنيا، تحثهم على المشاركة في الدعوة لدين الله. وفيه إشارة إلى أن أعداد من يرغب في الاستماع للقرآن قد تزايدت، سواء قدموا من خارج مكة أو من مستضعفيها. ولم يعد الرسول وحده يستطيع إسماع كل من يريد سماع القرآن في نفس الوقت، فجاءت الحاجة لجهود المسلمين. وهذا دليل قوي على أن الدعوة لم يكن يستخدم فيها حديث الرسول، ولكنها تعتمد تلاوة القرآن على الناس. لذا ساهم المسلمون فيها، ولو كانت تعتمد حديث الرسول لما استطاع المسلمون المساهمة فيها لأنهم لا يعلمون ما الذي سيقوله الرسول في كل موقف.

الرسول لم يحتمل سخرية قريش ويرد على من سخر منه

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٦) فصلت.

سخرية قريش من الرسول بدأت مع بداية البعثة واستمرت بشكل متواصل ويومي، ولم يكن الرسول يرد على السخرية بمثلها أبداً طوال الفترة السابقة التي تقدر بحوالي خمس سنوات عند نزول هذه السورة. إلا أن الآيات أعلاه تظهر أن الرسول قد بادر برد الإساءة بمثلها، على غير العادة. ولعل هذا ناتج عن أن السخرية اتخذت منحى آخر أكثر إيلاماً،



لم يستطع معه الرسول السكوت والتحمل. والآيات تنهاه عن مبادلة قريش الشتائم، لأنه سيعطيها مبرراً لتصعيد أذاها ضده وضد المسلمين.

وتطور أذى قريش جاء نتيجة لتحول القرآن إلى دعوة المستضعفين في مكة للدخول في الإسلام وهو ما أشعر كبراء قريش بالقلق لأنه لو آمن المستضعفون لشلت الخدمات في مكة كونهم من يقوم بها. كما أن دخول غير قريش في الإسلام يعني قوة لمحمد الذي سفه معتقداتهم ولم يراع كبرياءهم، وهو وضع لن يرحب به سادة مكة.

قريش مستمرة بالسخرية من المسلمين

تحول القرآن لدعوة كل الناس، أثار قلق قريش من انتشار الإسلام. فصعدوا من سخريتهم من المسلمين، والتركيز على تذكير الناس القادمين لمكة لرؤية الرسول أنه لم يتبعه من الناس سوى الفقراء والعبيد، لعل هذا ينفرهم من الانضمام لمعسكر المسلمين: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً(٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً(٧٤) مريم.

وسخرية قريش من فقر وضعف المسلمين، لتقول للقادمين إلى مكة للاستماع للرسول: إنه من الغباء أن ينضم لهم أحد وهم بهذه الحالة المزرية.

أحد كبراء قريش يعتقد أن الله سيكرمه لو كان هناك بعث

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً(٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً(٨٠) مريم.

هذا القرشي من أصحاب المال والولد، يقول بتبجح إنه لو كان هناك بعث فسيكون له المال والولد يوم القيامة كما في الدنيا. وهذا المنطق موجود لدى كل الطغاة في كل زمان ومكان حيث يعتقدون أن الله سيتجاوز عنهم.



الرسول يشعر بالأسى على ضلال قومه

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) الكهف.

الرسول لا يفهم لماذا يصر رجال قومه العقلاء على رفض دعوة منطقية عقلانية تتمثل بعبادة الله الذي يعرفون، كبديل لعبادة الحجارة. ويشعر بالمرارة والحسرة عليهم، لأنه يعلم أنهم لو ماتوا على الكفر فسيخلدون في النار.

الرسول تتوق نفسه لبعض الماديات التي يتمتع بها أثرياء قريش

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) الكهف.

الرسول كبشر تميل نفسه لمتاع الدنيا، المتمثل بالمال الذي يملك رجال قريش منه الكثير. وهذا دليل قوي على أن الرسول لم يكن غنياً، مما ينفي ما روجته كتب الأخبار أنه تزوج سيدة أعمال ثرية (خديجة).

والآيات تقول للرسول ألا يهتم بالماديات الدنيوية وأن يهتم بحاله وحال المسلمين.

الرسول لا يملك مالاً ولا بنين

تعود سورة الكهف للحديث مرة أخرى عما تهفو نفس الرسول له كبشر:

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦).

ليس فقط المال الذي تهفو له نفس الرسول، ولكن الذرية أيضاً. وهذا دليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق من خديجة بذرية، وأن بناتها الأربع لسن بنات للرسول وولدها ليس ولده، ولكن من زوج قبله. ومن الطبيعي أن تصبح بنات خديجة بعد زواجها بالرسول ربيبات له عليه الصلاة والسلام ويعرفن ببناته. كما أن ولد خديجة من زوجها السابق سينظر له في ذلك المجتمع على أنه ابن للرسول. والآية ذكرت البنين دون البنات، لأن الابن عند العرب هو المهم، فهو من يحمل اسم أبيه، ويسمى أبوه به فيقال أبو (ابنه الأول).



قريش بدأت تدخل في جدال مع الرسول لدحض الحق

في المراحل الأربع الأولى من الدعوة في مكة كانت قريش تكثر من توجيه الأسئلة للرسول عن البعث ومتى يكون، وعن الحساب والجنة والنار للسخرية، بالإضافة لسخريتها منه. لكن بعد أن تحول خطاب الدعوة من قريش فقط إلى كل الناس ودخل أناس من غير قريش ومن خارج مكة الإسلام، بدأت قريش تدخل في جدل مع الرسول تسعى من خلاله إلى إثبات كذب دعوته وتنفير الناس القادمين من خارج مكة للقائه والاستماع إليه. وأول سورة أشارت لهذا هي الكهف التي نزلت بعد مضي قرابة عام على بدء المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، أي بعد أن بدأ تغير الخطاب الدعوي يؤتي ثماره: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً(٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً(٥٧) الكهف.

وقريش أعرضت من البداية عن الحق ولن تلتفت له أبداً كسنة أزلية سارت عليها كل الأمم. والجدال وسيلة يلجأ لها المخالف لكي يحرج خصمه ويظهره أمام الغير كمدع كاذب، وليس لتبادل الحديث والآراء أو للكشف عن الحقيقة. ولذلك تعرض له كل الرسل، ويتعرض له كل مناد بأي نوع من الإصلاح من قبل كل متمسك بالموروث.

وبما أن مكة أضحت قبلة للناس من كل فج عميق يأتون للقاء الرسول فقد نشطت قريش في استخدام كل وسيلة ممكنة لتنفير الناس منه وصد الناس عنه، ومن ذلك الجدال الذي ستستمر عليه قريش طوال بقاء الرسول في مكة.

قريش تجادل الرسول حول ما ذكر القرآن عن عيسى

أول ذكر في القرآن لحمل وولادة عيسى ورد في سورة مريم، وبرغم أن الآيات موجهة لبني إسرائيل إلا أن الرسول قرأ السورة على قريش، كعادته كلما نزل عليه الوحي. فأحدثت تساؤلاً عندهم، تخبرنا به سورة الزخرف في قوله: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ(٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ(٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩).



وجدال قريش ليس لبيان الحق ولكن لمحاولة دحضه وإثبات كذب الرسول. وهو دليل على أن قريشاً لم تكن تعرف عن النصرانية ولا عن عيسى شيئاً. ومن باب أولى أنها لم تكن تعرف شيئاً عن «المسيحية» وهو ما يؤكد أن ورقة ابن نوفل شخصية مختلقة. ولكن بما أن النصارى من سكان يثرب يحضرون لمكة للاستماع لما يقول عن عيسى ابن مريم فقد جادلت قريش الرسول حول عيسى لتنفير النصارى.

واستمرت قريش تجادل الرسول، وقد ذكرت ذلك سورة غافر التي تلت في النزول سورة الزخرف: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ(٤).

وتعود سورة غافر وتؤكد مرة أخرى جدل قريش للرسول:

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٥٦).

قريش تبدأ باختلاق نصوص وتنسبها للقرآن لتنفير غيرها من الاستماع للرسول

تؤكد سورة لقمان (من سور المرحلة الخامسة) استمرار جدال قريش الرسول في محاولة لإظهاره للقادمين إلى مكة أنه كاذب وليس رسولاً لله. وهذه المرة ابتكروا طريقة جديدة، تتمثل في اختلاق نصوص وعبارات منفرة وإسماعها للناس على أنها من القرآن:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٧) لقمان.

فلهو الحديث هو تلك النصوص الساخرة والقبيحة التي يختلقها رجالٌ من قريش ويسمعونها لمن قدم مكة للقاء الرسول، على أنها من القرآن. وأولئك الكبراء الذين يختلقون النصوص، كلما سمعوا تلاوة القرآن ولوا مستكبرين. وسيتكرر ذكر اختلاق قريش للنصوص ونسبتها للقرآن في عدة سور قادمة كما سنرى.

وكتب التراث نزعت جزءً من الآية (لهو الحديث) وحولت معناه إلى أنه يعني الغناء، فقط لكي يجدوا لهم دليلاً على تحريمه. وإلا فالسياق يظهر بوضوح أن الآيات تتحدث عن أناس



(كبراء قريش) يشترون لهو الحديث (نصوص مختلقة) ليسمعوها غيرهم على أنها قرآن، ليضلوهم عن سماع الحق. والعبارات المختلقة تدل على سخرية قريش من القرآن. والسورة مكية وقبل أن تفرض التشريعات.

وسورة لقمان تعود وتؤكد أن قريشاً مستمرة في جدال الرسول: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(٢٠).

تزايد أعداد الداخلين في الإسلام

سورة غافر رقمها (٦٠) حسب تسلسل النزول، أي أنها نزلت بعد مضي أكثر من خمس سنوات على بدء البعثة، وحوالي (١٤) شهراً منذ بداية المرحلة الخامسة التي تغير فيها خطاب الدعوة من قريش لكل الناس وبني إسرائيل يثرب ومستضعفي مكة. ولابد أن بعض مستضعفي مكة قد دخلوا الإسلام، والسورة تخاطبهم: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ(١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(١٤) غافر.

والآية تطلب منهم أن يخلصوا الدين لله ولو غضب أسيادهم السابقون من كفار قريش.

ومع تزايد أعداد المستضعفين الداخلين في الإسلام تتكرر دعوة الباقين للانضمام لركب الحق. فتأتي سورة غافر لتصور ما سيكون عليه حال من يبقى على الكفر منهم يوم القيامة، وكيف أنهم سيشاركون أسيادهم مصيرهم في النار:

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ(٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ(٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ(٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٥٠) غافر.

والآيات تقدم مشهداً حسياً للمستضعفين وهم يتحاجون مع أسيادهم في النار، ويلومونهم على أنهم تبعوهم في الضلال في الدنيا والآن لا يستطيعون تخفيف العذاب عنهم.



تزايد أذى قريش

سورة غافر تظهر أيضاً أن الرسول ومن معه من المؤمنين يتعرضون لأذى متزايد من قريش، وتطلب منهم الصبر، وسيكون النصر لهم في النهاية:

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٥٢) غافر.

وتستمر السورة لتقول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(٥٥).

والوعد بالنصر في النهاية لا يعني أن الله سيتدخل في الدنيا فعلياً، ولكن أسباب النصر ستتوفر للمؤمنين لو صبروا وثابروا[١].

الرسول يتصرف كبشر / مد عينيه

لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الحجر.

كانت سورة الكهف قد أشارت إلى أن الرسول تتوق نفسه لما لا يملك من مال وبنين، والآية هنا تشير إلى أن الرسول أيضاً تتوق نفسه لامرأة مثل بعض نساء قريش. ولابد أنه عليه الصلاة والسلام كبشر لفت انتباهه جمال امرأة أو تناسق جسدها فتابعها بنظره (مد عينيه). وإذا ما عرفنا أن الرسول تزوج وهو في العشرينات من عمره وقبل البعثة ببضع سنوات بخديجة التي كانت تكبره بسنوات كثيرة بعيداً عما تقول كتب التراث. وسورة الحجر نزلت بعد سنوات من البعثة في وقت تقدم العمر بخديجة بينما كان الرسول في مقتبل العمر وفي أوج نشاطه وحيويته وريعان شبابه، فمن البديهي أن يلفت انتباهه امرأة جميلة تمر أمامه. وهذه الآية تؤكد أن مجرد النظر للمرأة الأجنبية محرم، ومن باب أولى أن يحرم القرآن النظر لجسد الأمة أو مواقعتها.

وفي محاولة لتصوير الرسول وكأنه من عالم غير البشر قال المفسرون إن الآية لا تتحدث عن أن الرسول نظر لامرأة، وأولوا الآية لمعانٍ كثيرة منها:

---

١ انظر فقرة: وعد الله بنصرة الرسول ومن آمن / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



قال القرطبي في تفسيره: (يقال: إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأذْرِعات ليهود قُريظة والنَّضِير في يوم واحد، فيها البُرّ والطِّيب والجوهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» أي فهي خير لكم من القوافل السبع، فلا تمدّن أعينكم إليها).

وهذا التأويل الأعوج ليس فقط أخرج الآية من معناها بل وأظهر كم يجهل المفسرون القرآن وأين نزلت السور. فالحجر لم تنزل في المدينة بل في مكة والحديث ونفس الآية تظهر أن الرسول عليه الصلاة والسلام يشعر بالأسى والحزن على إصرار قومه على الكفر، لأنه لا يتمنى أن يذهبوا للنار، فتقول له الآية: « وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» وهو ما أشارت له العديد من السور مثل:

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) الكهف.

وقوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠) النمل.

فهو يحزن عليهم لإصرارهم على الكفر من ناحية، وتهفو نفسه لما يملكون من مال وبنين، كما تقول سورة الكهف، ولامرأة جميلة شابة كما تقول السورة هنا.

ولا تتحدث آيات الحجر عن المسلمين ولا تشير لهم، ولكن الخطاب موجه للرسول.

ومما أورد الطبري في تفسيره حول نفس آية الحجر قوله: يقول تعالى لنبيه محمد: لا تتمنينّ يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعا للأغنياء من قومك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن مِنْ ورائهم عذابا غليظا.

وهذا التأويل يتعارض مع ما يروج له المفسرون أنفسهم من أن الرسول قد تزوج خديجة التي صوروها كأغنى امرأة في قريش وتنافس كبار أغنياء قريش في التجارة.

وقد سهوا عن ذلك أو تناسوه، وإلا لو فطنوا لما نسبوه من ثراء لخديجة لما أمكنهم أن يأولوا آية الحجر على أنها تعني أن الرسول يتمنى بعض ما يملك أغنياء قريش من مال، لأنه عندما نزلت الآية كانت خديجة زوجته. وهو ما يعني أن الرسول يعيش في بيت غنى وليس بحاجة لتمني ما لدى أغنياء قريش لأنه يستطيع الحصول على مثله.

والرسول مد عينيه إلى امرأة أكثر من مرة عندما كان في مكة، وتمنى في داخل نفسه أن يكون له زوجة مثل جمالها وجاذبيتها، وليس المقصود أن الرسول تمنى بعض النعم والماديات التي



ترفل بها قريش، لأنه عندما تمنى ذلك ذكره القرآن في سورة الكهف: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨).

والفرق واضح بين مد العين لامرأة أو تمني بعض الثراء.

وقد كرر الرسول النظر لأحدى نساء قريش فجاءه النهي مرة ثانية في سورة طه التي تلت مباشرة في النزول سورة الحجر: وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١).

وكان هذا وزوجته خديجة ما زالت على قيد الحياة بدليل أن سورة طه بعد أن نهته عن النظر للنساء الأجنبيات تقول: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢). وسنتحدث عن هذه الآية عندما نصل إليها.

وأهل الرجل زوجته ومن يعول في بيته[1].

تزايد المضايقات على الرسول

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥) الحجر.

فدعوة الآية رسول الله بالصفح والتسامح يشير إلى ما يتعرض له الرسول من مضايقات وحرب نفسية وسخرية. والعفو والتسامح المطلوب من الرسول عليه الصلاة والسلام ليس لأن قريشاً تستحق التسامح، ولكن لأن رد السخرية التي يتلقاها الرسول على قريش يؤجج الموقف أكثر ويعطي قريشاً مبرراً تبحث عنه لتصعيد تهجمها على الرسول وعلى المسلمين. فكان الصبر والتسامح هو الحل الأمثل كون الرسول في موقف ضعف وليس حوله سوى نفر قليل من المستضعفين وسط مجتمع قرشي عدائي.

وتعود سورة الحجر مرة أخرى لتشير إلى ما يتعرض له الرسول في تلك الفترة: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩) الحجر.

١ انظر فقرة: آل الرجل وأهل الرجل/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



وما يتلقاه الرسول من قريش يتمثل بالسخرية والاستهزاء والاتهام بالجنون والكذب والسحر والشعر وغيرها. وهو ما يشعره بالإحباط، فتنزل الآيات تشد من عضده وتحثه على استحضار الله في النفس ليتقوى به على المصاعب، أما كبراء قريش فمآلهم للموت وسيندمون.

وتشير سورة طه التي نزلت مباشرة بعد الحجر إلى استمرار تلقي الرسول للمضايقات: طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى(٣) طه.

ولعل الرسول يشعر في قرارة نفسه وفي حالة ضعف أن تكليفه بالدعوة سبب له العناء، والآية تقول له إن التكليف بالدعوة والذي عبرت عنه الآية «بنزول القرآن» لم يكن لشقائك وتعريضك للأذى النفسي، ولكن تبليغ الرسالة يصحب بالصعاب التي على الرسول تحملها.

وفي آخر سورة طه تعيد السورة شحذ همة الرسول: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى(١٣٠).

فشعور الرسول بقرب الله منه سيريحه ويرضيه، ويقوي عزيمته.

أمر أهل الرسول بالصلاة

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢) طه.

نزلت سورة طه في النصف الأخير من المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، ورقمها حسب النزول (٦٦) أي أنها نزلت بعد حوالي خمس سنوات من بدء الدعوة في مكة، وست سنوات من بداية البعثة. كان الناس طوال هذه السنين يصلون دون تحديد لأوقات معينة لأدائها. وهذه الآية تطلب من الرسول أن يأمر أهل بيته (خديجة وبناتها وولدها) الحرص على تأدية الصلاة، وأن يستمر هو بالمداومة عليها.



الرسول يؤمر بمقابلة الإساءة بالحسنى

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ(٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ(٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ(٩٨) المؤمنون.

الآيات تشير إلى أن الرسول أحياناً لا يستطيع تمالك نفسه من الرد على إساءة قريش، مكررا ما سبق وأشارت له الآيات: (٣٤-٣٦) من سورة فصلت. والآيات تأمر الرسول بالتسامح مع من يسيء إليه، وهو ما يشير إلى أن قريشاً لم تتجرأ بعد لأذى المسلمين جسدياً. والشياطين هنا تعني وساوس النفس.

قريش مستمرة بالسخرية من الرسول والمسلمين والقرآن

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ(١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ(١١١) المؤمنون.

الآيات جاءت ضمن سياق يصور حال قريش يوم القيامة، ويقال لهم إن دخولهم النار بسبب رفضهم الدعوة وسخريتهم. وفي هذا إشارة إلى أن قريشاً عند نزول سورة المؤمنون مستمرة بالسخرية من الرسول والقرآن والمسلمين، كما كانت تفعل منذ بداية الدعوة.

قريش تتهم الرسول أنه يفتري القرآن

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣) السجدة.

منذ بداية البعثة وكبراء قريش صموا آذانهم عن سماع صوت الحق، وقد حاربوا الحق بوسائل مختلفة، كما يلي:

- في البداية اتهموا الرسول بالكذب وأنه يسحر عقولهم بكلام معسول لكنه غير صحيح، أو أنه مجنون يقول شعراً لم يسبق لهم أن سمعوا بمثل تركيب عباراته.
- ثم بدأوا يسخرون من الرسول.

وعندما تحول خطاب الدعوة وبدأ الناس من خارج مكة يفدون للاستماع للرسول، تحولت قريش لأساليب أخرى لحرب الحق ومحاولة منع انتشاره، كما يلي:



- الدخول مع الرسول في جدال لعلهم يظهرونه بمظهر المدعي الكاذب.
- ثم بدأوا يختلقون نصوصاً منفرة يسمعونها للناس القادمين لمكة للقاء الرسول على أنها من القرآن، لعلهم يصرفونهم عنه.
- وهذه الآية من سورة السجدة تقول بأن قريشاً انتهجوا أسلوباً جديداً يتمثل باتهام الرسول أنه يختلق نصوص القرآن من عنده ويقول هي من عند الله.

وهذه التهمة بدأت قريش ترددها في هذه المرحلة على مسامع الناس الذين يتوافدون من خارج مكة لرؤية الرسول والاستماع له. وهم أناس لا يعرفون الرسول، ولا يعرفون مكة.

- ثم تطورت هذه التهمة، وبدأت قريش تقول للناس إن ما لا يختلقه محمد من القرآن هناك أشخاص آخرون يعينونه على اختلاقه: وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً(٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً(٤) الفرقان.
- وأن القرآن يحوي قصصاً خرافية قديمة (أساطير الأولين) قام أشخاص بإعانة محمد على نسخها من كتب قديمة، وقال هي من عند الله: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥) الفرقان.

وهذه التهم لم تكن لتخطر على بال أحد من رجال قريش طوال المراحل الأربع الأولى للدعوة في مكة، عندما كانت الدعوة موجهة لقريش فقط. ذلك أن قريشاً تعرف محمداً معرفة تامة، فهو أحد رجالها. وتعرف أنه لا يقرأ ولا يكتب، وليس في مكة أشخاص يتداولون كتب الغابرين لكي يتهموا محمداً بالاتصال بهم. ولو كان في مكة من يقرأ ويهتم بكتب السابقين لعرفته مكة ولو كان الرسول اتصل به لذكروا اسمه. لكن الآن وبعد أن أصبحت مكة محجاً للناس من أنحاء جزيرة العرب المختلفة لمقابلة الرسول وسماع ما يقول، فقد سعى رجالٌ من قريش إلى نشر أن الرسول يعلمه أناس آخرون القرآن، لأن القادمين لا يعرفون مكة ولا يعرفون سيرة الرسول وقد يصدق بعضهم ما تنشره قريش حوله ويعود أدراجه ولا يسلم.

وبرغم كل الحرب الشعواء المتنوعة الأساليب على الإسلام من قريش ومحاولاتها المستميتة



في تشويه سمعة الرسول ودعوته وكل محاولاتها لتنفير الناس عنه والحيلولة دون الوصول إليه، فقد استمر قبول الناس الإسلام من خارج مكة ومن داخلها، وتكون مجتمع مسلم في مكة بدأت السور تتحدث عنه أكثر: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧) السجدة.

وهذا المجتمع المؤمن في مكة كان ينمو باطراد.

الهجرة إلى الحبشة

(الآية:١٠) من سورة الزمر تعطي الضوء الأخضر للمضطهدين من المسلمين في مكة في تلك الفترة، لكي يهاجروا: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠).

وهو ما يعني تزايد دخول أعداد من مستضعفي مكة للإسلام، مما ترتب عليه تصاعد الأذى عليهم من قريش. والآية تشير لما عرف في كتب التراث بهجرة الحبشة. وهي هجرة خاصة بالمستضعفين، وخاصة من دخل الإسلام منهم في هذه الفترة تحديداً. ولم يهاجر أي قرشي مسلم، لأنهم لم يتعرضوا لأذى يجبرهم على ترك مكة، وإن تعرضوا للسخرية.

وسورة الزمر ترتيبها حسب النزول هو (٧١) أي أنها نزلت بعد أكثر من ست سنوات على بدء الدعوة، وسبع سنوات من بدء البعثة. والهجرة كانت للحبشة، التي قالت عنها كتب التراث إنها تعني إثيوبيا الحالية، أو مملكة أكسوم القديمة. وكتب التاريخ التي نستقي منها المعلومات عن هذه الهجرة، تستند في مصادرها على أشخاص جلهم من اليمن. مثل عبيد ابن شرية الجرهمي الذي أوكل إليه معاوية كتابة أول كتاب تاريخي في الإسلام. ومثل مجموعة من يهود اليمن الذين أصبحوا مصادر لأهم أحداث التاريخ الإسلامي، وعلى رأسهم كعب الأحبار، عبد الله ابن سلام، ابن بنيامين، وغيرهم ممن أخذ عنهم ابن إسحاق وغيره. وهؤلاء اليمنيون يعرفون مملكة أكسوم جيداً، وغلب على ظنهم أن عرب مكة وما حولها لهم علاقة بتلك المملكة كما لليمنيين.



واليمن كانت على علاقة بأثيوبيا الحالية التي كانت تسمى مملكة أكسوم، والتي سيطرت على قطاعات واسعة من اليمن وعلى حضرموت وسبأ والمهرة في فترات تاريخية مختلفة، وكانت تدين بالمسيحية التي نقلتها وفرضتها على اليمن. بينما لم يكن هناك أي علاقات تجارية أو سياسية بين أثيوبيا المسيحية التي لا تتحدث العربية ولا تمت بصلة للعرب، وبين مكة. ولم يكن هناك بينهما إلا عداء قديم سببه غزوة أبرهة الأكسومي – حاكم اليمن – لمكة في محاولة لهدم الكعبة. لذا فمن المستبعد تماماً أن يكون مستضعفو المسلمين قد هاجروا لأثيوبيا. والراجح أنهم هاجروا إلى مناطق شرق ما يسمى اليوم بدولة السودان، والمحاذية لسواحل البحر الأحمر، قبالة جدة. وهي مناطق كانت مأهولةً بالعرب زمن رسول الله، من الذين نزحوا إليها في فترات تاريخية سابقة للإسلام من البر الشرقي للبحر الأحمر.

وكان من الطبيعي أن تبقى الصلات بين العرب على جانبي شواطئ البحر الأحمر، سواء العائلية أو التجارية منها. وبما أن أهل مكة يملكون المال، فقد كان من الطبيعي أيضاً أن يكون هناك تواصل تجاري مع البر السوداني، خاصة أن المسافة بين جدة القريبة من مكة، وبين البر السوداني المقابل، لا تزيد عن ١٩٠ كيلومتر بخط مستقيم، فيما تبتعد مصوع – أقرب الموانئ الأثيوبية – عن جدة بحوالي ٦٥٠ كيلو متر بخط مستقيم، وتبتعد الموانئ الجنوبية لأثيوبيا عن جدة بأكثر من ١٠٠٠ كيلو بخط مستقيم. وفي نفس الوقت لا يبتعد ميناء المخا اليمنية عن عصب الأثيوبية أكثر من ٦٠ كيلو متر فقط، والحديدة اليمنية عن مصوع الأثيوبية ٣٨٠ كيلومتر. لذا من المستحيل التصديق أن ضعفاء المسلمين قد فضلوا ركوب البحر في رحلة بعيدة صعبة مجهولة لأثيوبيا واللجوء لقوم هم أقرب للأعداء – بحكم التاريخ – لهم من الأصدقاء. ولا تربطهم بهم أي علاقة ولا يعرفون لغتهم، بينما كان بإمكانهم السفر برحلة قصيرة لعرب مثلهم يتحدثون لغتهم، ولديهم نفس العادات، والتي من بينها حماية المستجير، التي لا يعرفها الأثيوبيون.

أما كيف حدث الخلط بين السودان الحالي وأكسوم القديمة، فيعود إلى أن الحبشي يطلقه العرب على أي شخص لونه أسود وشعره قطط – أي من الجنس الزنجي، أو خليط بين الجنس الزنجي وغيرهم. فكل أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بالنسبة للعرب أحباش، وفي زمن متأخر (العصر العباسي) أطلق العرب على دولة أثيوبيا الحبشة، فظن القصاص وناقلو الأحاديث أن الحبشة (أثيوبيا) هي الحبشة (السودان) التي هاجر لها المستضعفون من



المسلمين، لأن الأذى الجسدي طال مستضعفي قريش من عبيد وموالي، دون بقية المسلمين الذين ينتمون لقريش بالنسب[1]. كما أطلقوا على مناطق الأنباط قرب وادي القرى شمال الحجاز، مدائن صالح، ظناً منهم أنها هي. وأطلقوا على محارق قديمة في نجران، الأخدود ظناً منهم أن سورة البروج تتحدث عنها .. إلى غير ذلك.

والهجرة للحبشة تشير إلى أن أعداد المسلمين في يثرب لم يكن كبيراً حينها، لأنه لو كان هناك أعداد كبيرة في يثرب لكانت الهجرة لهم. وهو ما سيحدث بعد أقل من عامين من هذه الهجرة، حيث اعتنق الإسلام غالبية الأوس والخزرج مع بعض بني إسرائيل ونفر من أهل الكتاب من طوائف مختلفة، وتزامن هذا مع تضييق قريش الخناق على من آمن من المستضعفين في مكة. فما كان من مسلمي يثرب إلا أن دعوا إخوانهم في مكة للهجرة إليهم واستضافوهم في بلادهم.

استمرار قريش باختلاق نصوص ونسبتها للقرآن

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٣٢) الزمر.

هذه الآية تؤكد أن قريشاً مستمرة باختلاق عبارات ونصوص ونسبتها للقرآن، الذي سبق وذكرته سورة الفرقان السابقة.

وتقول سورة الزمر: على الناس سماع الحق من مصدره «محمد» وممن آمن، وليس من قريش المعارضة: وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(٣٣) الزمر.

قريش بدأت تهدد وتتوعد محمداً بشكل علني

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٦) الزمر.

برغم كل ما قامت به من جهود ونشاط محموم لصد الناس عن الدخول في الإسلام والاستماع للرسول، إلا أن الناس استمروا يفدون لمكة ويقابلون الرسول ويدخلون في دين الله، وهو ما زاد من حنق قريش لدرجة أنها بدأت تتوعد وتهدد الرسول علانية.

---

١ منقول بتصرف من كتاب: أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول / منشورات الجمل.



وقد سبق وذكرت الآيات: (٣٠-٣١) من سورة الطور إحدى سور المرحلة الرابعة، أن قريشاً كانت تتربص بمحمد سراً لتقتله (لو خرج خارج مكة)، وسورة الزمر هنا تشير إلى أنهم بدأوا يهددون الرسول بالقتل علناً. وتقول للرسول أن يتوكل على الله فهو حسبه، ولا يقلقه تهديدات من هم دون الله (قريش).

الرسول يتحرج أحياناً من تلاوة بعض الآيات على قريش

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) الأعراف.

الآية تشير إلى أن الرسول كان يشعر بالحرج من تلاوة بعض الآيات على قريش، لكن وبرغم ما ستسببه له تلاوة بعض الآيات على قريش من حرج فإنه لا يستطيع إلا قراءتها. والآية تحث الرسول أن يطرد مثل هذه الأفكار.

قريش تقترف الفواحش والفجور تحت تأثير السكر

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

السورة هنا تخاطب بني آدم وليس المسلمين الذين يخاطبهم القرآن عادة (يا أيها المؤمنون). وآدم ليس أبا البشر كلهم، ولكنه أبو الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن، وقريش من بني آدم[١]. والآيات تنهى قريشاً عن تصرفات تصدر من رجالها، حيث يتحللون من ملابسهم ويمارسون العهر الجماعي تحت تأثير السكر. وهذه التصرفات تشابه ما حدث لأبويهم: آدم وزوجه في الجنة عندما أكلا من الشجرة فغاب عقلهما وتصرفا بعيداً عن الحشمة وخلعا ثيابهما: فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) طه.

---

١ يرجى العودة لكتابنا: من آدم إلى محمد/ تاريخ الأمم والأشخاص المذكورين في القرآن. والكتاب من منشورات الجمل.



رجال قريش يقولون بأن ممارستهم للفجور أباحها الله لهم

وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

الآية تؤكد أن رجال قريش كانوا يمارسون الفواحش في حفلاتهم الماجنة، ويبررون ذلك بأن الله لو لم يرد لهم ذلك ويرضاه، لمنعهم. وهو مفهوم للقضاء والقدر مماثل للمفهوم الشائع بين كثير من المسلمين اليوم للأسف. وقريش تؤمن بوجود الله، وعلى ما يبدو تؤمن بأنه هو من يقرر حدوث الأحداث مسبقاً[1].

وكانوا يحضرون للمسجد الحرام بملابس مدنسة وغير لائقة

يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...(٣١) الأعراف.

وعلى ما يبدو فقد كان البعض منهم يخرج من مكان إقامة الحفلات العاهرة ويتوجه لبيت الله بحالة من السكر الشديد وملابسه غير لائقة وفاضحة.

وكانوا يسرفون في الأكل والشرب

.... وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) الأعراف.

وخلال حفلات المجون كانت تقدم المأكولات بإسراف والخمور.

قريش تحرم بعض المظاهر والطيبات

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

في الوقت الذي تبيح قريش الفجور والخمور، فهي تحرم بعض المظاهر والملبس، وبعض المآكل. والآيات تقول إن الحرام هو الفواحش التي تمارسون في حفلاتكم وفي مجالسكم

---

١ انظر فقرة: القضاء والقدر / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



الخاصة. وكذلك البغي الذي تمارسون على المسلمين، والشرك. ومن الحرام الكذب على الله والتقول عليه مالم يقل « وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ». وهو ما أكدته نفس السورة في الآية التالية: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(٣٧) الأعراف.

وقريش جربت كل وسيلة استطاعت التفكير بها للصد عن الإسلام وتنفير الناس القادمين لمكة من الاجتماع بالرسول. وهذه الآية تتوعد بعض رجال قريش الذين بدأوا يختلقون نصوصاً ويسمعونها للقادمين لمكة ويقولون إنها نصوص من القرآن. وأول سورة ذكرت هذه الوسيلة من وسائل صد الناس عن الدين هي سورة الزمر السابقة في الآية: (٣٢)، وكررت عدة سور ذكرها.

الرسول يتملكه الغضب من سخرية قريش

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ(٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ(٢٠٢) الأعراف.

رجال قريش يسخرون عقولهم لعبادة الأصنام وهو أمر لا يعقل، ويسخرون من الحق، مما يشعر الرسول بالغضب. فتأتي الآيات لتقول له أن يهدأ وأن يتعامل مع الموضوع بحكمة. فرجال قريش يجب أن يتعامل معهم على أنهم جهلة وليسوا عقلاء كما يبدو. ذلك أن التمسك بالموروث يلغي العقل، وعلى الرسول أن يتعامل معهم من هذا المنطق.

وكلما شعر بالغضب فليتذكر وضعهم، ويستعذ بالله من شيطان النفس، وسيهدأ. ومس الطائف من الشيطان تعني موجة غضب عارم بسبب مشاعر الإنسان نفسه (شيطان من داخله).



بعض المسلمين «القلة» في مكة كانوا ينشغلون عن متابعة الرسول وهو يتلو القرآن

هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢٠٤) الأعراف.

الآية تظهر أنه عندما يبدأ الرسول تلاوة ما ينزل عليه من القرآن على مسامعهم، فإن البعض من المسلمين لا يعيرون التلاوة اهتمامهم أو يستمرون في الحديث أو الأعمال التي يؤدونها قبل التلاوة. وعادة الحديث الجانبي بين اثنين أثناء كلام المتحدث الرئيسي، من السلوكيات السيئة التي ما زالت شائعة بيننا.

قريش مستمرة باختلاق عبارات ونسبتها للقرآن

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ(١٧) يونس.

الآية هنا تكرر ما ذكرته الآية (٣٧) من السورة السابقة الأعراف، وهي عبارة عن وعيد لرجال من قريش كانوا يُسمِعُون الناس القادمين لمكة عبارات يختلقونها ويقولون هي من القرآن لتنفيرهم من لقاء الرسول. وهو ما يعني أن قريشاً استمرت تنتهج هذه الوسيلة.

وكلما وردت عبارة: «افترى على الله الكذب» فهي تتحدث عن اختلاق قريش لعبارات منفرة وإسماعها للناس على أنها من القرآن. وتكرر الآيات التي تذكر هذه العبارة يشير إلى استمرار قريش في اختلاق النصوص.

وتُحرِّم بعض المأكل

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ(٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ(٦٠) يونس.

سبق ومر بنا في سورة الأعراف أن قريشاً تحرم بعض المظاهر واللباس والطيبات، وتحل الفجور والفواحش، وسورة يونس هنا تذكر أنهم كانوا يحرمون بعض اللحوم. وتحريم ما لم يحرمه الله افتراء على الله، وهو ما ينطبق على الفتاوى المنتشرة بين المسلمين من رجال الدين.



قريش مستمرة بالسخرية من الرسول

وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٥) يونس.

معاناة الرسول من سخرية قريش وشتائمهم استمرت منذ اليوم الأول لبعثته، ولنا أن نتخيل الآثار النفسية التي تسببها تلك الضغوط. لقد كانت رحلة التبليغ صعبة ومرهقة، ولولا أنه عليه الصلاة والسلام خضع لبرنامج التأهيل النفسي في بداية البعثة واستمرت الآيات تنزل عليه لتجديد هذا البرنامج لما تمكن من مواصلة الدعوة بهذا العنفوان.

الرسول يصاب بالحيرة عن سبب إحجام عقلاء قريش عن قبول الدعوة

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧).

لقد كانت الخواطر تعبر مخيلة رسول الله:

هل يعقل ألا يعقل العقلاء؟

هل هو فعلاً على الحق وحده وكل قريش على الباطل؟

والآيات تقول له أن يسأل «الذين يقرأون الكتاب من قبلك» يعني بني إسرائيل الذين أصبح لهم تواجد في مكة بعد أن آمن بعضهم وأوصلوا أخبار الدعوة ليثرب. فحضر بعضهم إما لاستطلاع أمر الرسول أو للإيمان به. ولو كانت السورة من سور المرحلة الرابعة لما طلبت من الرسول أن يسألهم، لأنه لم يكن لهم وجود في مكة حينها.

والآية (٩٦) تؤكد للرسول عليه الصلاة والسلام أن رجال قريش استمروا على الكفر برغم ترديد قول الحق عليهم منذ سنوات وبشكل مستمر، لأن هذا راجع إلى حقيقة أن من لم يؤمن بالدعوة من البداية فلن يؤمن أبداً، حتى لو جاءتهم الآيات «الخوارق» التي طلبوا: وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧). لأن طلب الآيات فقط للتعجيز، ولو رأوها فسيجدون مبررات أخرى للبقاء على الكفر. وهذه سنة سارت عليها كل الأمم،



والاستثناء الوحيد هم قوم يونس: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨).

والخواطر التي كانت تمر بذهن الرسول كانت مصحوبة بعواطف جياشة تجاه رجال عشيرته قريش. فكان يتحسر على كفرهم واختيارهم طريق جهنم، مع ما يبدو عليهم من رجاحة عقل: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكونوا مُؤْمِنِينَ(٩٩).

فتأتي الهواجس التي تجر بعضها إلى أن جال بخاطره التساؤل إن كان هو وحده على الحق وكل رجال مكة على الباطل.

استمرار محاولات قريش صد الناس عن الدعوة

اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ(٣) إبراهيم.

قريش تسب وتشتم الرسول ومن معه

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ(٢٧) إبراهيم.

فالمخاطب هو الرسول والمعني هم المؤمنون الذين يسمعون من قريش أقذع العبارات. والآيات تقول إن الكلام الفاحش لا يضر من يقال له ولكنه دليل على فساد من قاله: فكل إناء بما فيه ينضح. ولو بادلهم الرسول والمؤمنون الكلام الفاحش بمثله لصاروا مثلهم.

وسب قريش الرسول ومن معه يظهر العدائية التي تضمرها قريش لهم لا لشيء سوى أنهم اختاروا الخروج عن الموروث واتباع معتقد مخالف. فأتباع الموروث – أي موروث – لا



يقبلون التعايش السلمي مع من يخرج على موروثهم أبداً في كل مكان وزمان. وبالتالي فمن البديهي أن يهاجم أتباع المذاهب كل من يحاول نقد مذهبهم بما فيه وبيان عيوبه. فالتمسك بالموروث لا يعني أنه حق ولكن يعني أنه شخصية الأمة. وقبول نقده ولو بما فيه قبول بأن الأمة كانت على ضلال، وهو ما لا يقبله الناس، إلا من تحلى بالشجاعة الكافية لقبول النقد وسمح لعقله بالتفكير، وهذا قليل.

بعض المسلمين يردون على من يسبهم من رجال قريش

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ(٢٧) إبراهيم.

الآيات تطلب من بعض المؤمنين في مكة أن يقابلوا كلام رجال قريش البذيء بكلام طيب، ذلك أنه يؤدي لتخفيف حدة التوتر بين الطرفين. ولأن مبادلتهم الكلام البذيء يعطي قريشاً المبرر الذي يبحثون عنه للتعدي على المسلمين.

الرسول يعاني من السخرية

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٤١) الأنبياء.

الآية ترفع من معنويات الرسول الذي يعاني من سخرية قريش التي تصاعدت، وتقول له إن كل الرسل عانوا مما تعاني فلا تحزن.

نعت الرسول بالأبتر

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ(٣).

سورة الكوثر نزلت في أواخر المرحلة الخامسة بحق أحد زعماء قريش الذي كان يعير الرسول وينعته بالأبتر. والأبتر تعني من لا عقب له.



ومن الواضح أنها نزلت بعد وفاة خديجة، زوجة رسول الله الوحيدة في مكة، ولو كان الرسول قد ولد له أولاد ذكور، كما يزعم المؤرخون، وإن ماتوا وهم صغار، فلن يعيره القرشي بأنه أبتر. وحتى لو أن خديجة لم تنجب لمحمد سوى بنات، فلا يمكن أن يعير بالأبتر، حتى لو حاول بعض اللغويين أن يقصروا معنى الأبتر بالذي ليس له ولد ذكر. لأن من يستطيع إنجاب الإناث يمكن أن ينجب ولداً ذكراً فيما بعد. والقرشي لم يعير الرسول بأبي البنات ولكنه عيره بالأبتر. مما يؤكد أن القرشي يعلم أن الرسول لم ينجب من خديجة كما أنجبت من أزواجها السابقين. ولو كان له منها بنات فالاحتمال ما زال قائماً بزواجه مرة أخرى وإنجاب الذكور. لكن إن كان الرسول لبث زوجاً لخديجة حيناً من الدهر، ولم ينجب، لا إناثاً ولا ذكوراً، وهي قد أنجبت من رجال قبله، فهو مدعاة للقرشي أن يعيره بالأبتر، لأنه ثبت بالبرهان أنه لا ينجب. وإن كان هذا ما حدث، فلم يكن للرسول بنات في مكة. وتكون رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة بنات لخديجة وربيبات لمحمد عليه الصلاة والسلام، أو بناته تجاوزاً. ولم يولد له ولد ذكر، ويحتمل أن يكون الرسول قد تبنى ابن خديجة والذي تسميه كتب التراث هند ابن أبي هالة. وسنتحدث عن هذا بالتفصيل في فقرة قادمة بعنوان: هل تبنى الرسول زيد ابن حارثة؟




مكتبة
الفكر الجديد

المرحلة السادسة

مرحلة الأذى الجسدي ودفع الظلم

هي مرحلة تصاعدت فيها تعديات قريش على المسلمين من السب والشتم والسخرية إلى التعديات الجسدية، وكانت عنيفة لدرجة أنها أدت لموت عدد من المعتدى عليهم من المسلمين، كما سنرى. فجاءت سور هذه المرحلة تعطي للمسلمين الحق بمعاقبة المعتدي بمثل ما اعتدى، مع الحث على التسامح لتهدئة النفوس وعدم تأجيج غضب قريش فتضاعف من تعدياتها.

وقد نزل في هذه المرحلة أربع سور طوال، هي: الشورى، بني إسرائيل، الشعراء، وهود. ويمكن تقدير فترة هذه المرحلة ببضعة أشهر، على اعتبار نزول سورة كل شهر ونصف إلى شهرين.

الرسول لم يذهب في بداية الدعوة للطائف

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧) الشورى.

أول سورة تذكر أن على الرسول أن ينذر أم القرى وما حولها، مما يحتم على الرسول أن يتصل بالقرى حول مكة. وبالتالي فإن كان عليه الصلاة والسلام قد ذهب للطائف بالفعل، فهو قد ذهب في هذه المرحلة وليس في بداية البعثة (كما تزعم كتب التراث). لأن بداية الدعوة كان الخطاب الدعوي في القرآن موجهاً لقريش وحدها ولم يخاطب القرآن أحداً غيرها. وبالتالي يستحيل أن يذهب الرسول لدعوة أهل الطائف أو حتى دعوة من يحضر



لمكة أو يمر بها من غير أهلها لأن دعوته تعتمد تلاوة القرآن على من يخاطبه القرآن. والقرآن لم يخاطب سوى قريش طوال السنوات الأولى للدعوة. وحتى المرحلة الخامسة للدعوة في مكة والتي تحول الخطاب لكل الناس ولبني إسرائيل ومستضعفي مكة، إلا أن الرسول لم يؤمر بالدعوة خارج مكة.

أما في هذه المرحلة فهذه الآية تأمر الرسول ولأول مرة بدعوة من هم حول أم القرى، ومنهم أهل الطائف. والرسول إن كان قد ذهب للطائف فلابد أنه خرج برفقة وحماية من أصحابه، لأن قريشاً تتربص به لتقتله، ولو خرج للطائف لوحده فستلحق به قريش وتتخلص منه للأبد. ولا يعنينا قصص كتب التراث وما قالوه عما حدث للرسول في الطائف لأنه مجرد اختلاق لا أساس له.

والآية لا تقول إن الدعوة لمكة وما حولها فقط، ولكن مناسبة الحديث هي أمر الرسول بتوصيل الدعوة لمكة وما حولها من مناطق.

المسلمون في مكة أصبح لهم حضور

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) الشورى.

الآية تخاطب المسلمين في مكة، مما يشير إلى أن أعدادهم تزايدت بقبول بعض المستضعفين دعوة القرآن بعدما توجهت السور لمخاطبتهم وتحذيرهم من مغبة اتباع ساداتهم في الكفر.

استمرار جدال قريش للرسول لدحض الحق

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١٦) الشورى.

وسيتكرر كثيراً ذكر جدال قريش للرسول في سور قادمة، كون قريش استخدمت هذا الأسلوب في محاولة يائسة للحد من دخول الناس للإسلام، مع وسائل أخرى مررنا على ذكرها في سور سابقة.



بعض المسلمين تساءل لماذا لا يَحْرِمُ الله قريشاً من أموالها لكفرها؟

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

وفاتهم أن الدنيا ومتاعها لا تساوي شيئاً، وأنها مشاعة لكل الناس بغض النظر عن المعتقد. وكسب المال يعتمد على عوامل عدة ليس منها الإيمان والكفر.

بعض رجال قريش كانوا يقتلون أولادهم لأنهم فقراء

وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطئا كَبِيراً(٣١) بني إسرائيل.

ونهيهم في الآية عن قتل الأولاد لا يعني إقرار بالسؤال عند الحاجة وإضاعة ماء وجه الإنسان الحر. ولكنها تقول حاولوا طلب الرزق وسيرزقكم الله بما يكفي لكم ولهم، بدل ندب الحظ العاثر والصبر على الفاقة.

قريش تقول: «الملائكة بنات الله»

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً(٤٠) بني إسرائيل.

وهذا المعتقد راسخ عند قريش وتحدثت عنه سور عديدة.

رجال قريش كانوا يتحدثون حول ما يسمعون من القرآن

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً(٤٧) انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً(٤٨) وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(٤٩) بني إسرائيل.

رجال قريش عندما يسمعون القرآن يتلى عليهم من الرسول لا ينصتون له ليتدبروه ولكنهم يستمعون له بحثاً عما يمكنهم مهاجمته ونقده منه. وكانوا إذا ما عادوا لمجالسهم يتحدثون



حول ما سمعوا. وكان بعضهم يعجبه، فيرد عليهم آخرون بأنه نوع من السحر الذي يسحر به محمد العقول فيؤمنون بما لا يعقل، وإلا فكيف نصدق أن من يموتون وتبلى عظامهم وتتحلل أجسادهم سيعودون أحياء؟

وقريش هنا تفكر بمدارك محدودة جداً عن كيفية البعث، لأنها تظن أن هذا الجسد الدنيوي سيعاد للحياة، برغم أن سوراً كثيرة أخبرتهم أن البعث لن يكون على هذه الأرض ولا في هذا العالم، ولكن في كون جديد. وبالتالي سيكون هناك هيئات جديدة للناس تتناسب مع عالم القيامة، مختلفة عن هيئاتهم الجسدية الحالية التي تناسب الدنيا.

وتستمر السور: قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً(٥٠) أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً(٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً(٥٢) بني إسرائيل.

أول خلاف بين المسلمين / أول ذكر لمسلمة قريش

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً(٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً(٥٤) بني إسرائيل.

السورة تتوجه لمسلمي مكة طالبة منهم أن يبتعدوا عن المشاحنات والخلاف. وهذه السورة لم تذكر من هما الفريقان من المسلمين اللذان حدث بينهم الخلاف، لكننا سنعرف فيما بعد أن أحدهما (مسلمة قريش) وهم مجموعة ممن أسلم من قريش، وفي الغالب من بني عبد مناف خصوصاً كما سنرى، واستمروا يوالون ويوادون مشركي قريش، والفريق الآخر من أسلم من مستضعفي مكة (موالي وعبيد قريش السابقين).

وهو وإن كان أول خلاف نشأ بين هذين الفريقين، إلا أنه سيتكرر كثيراً. كما أن مسلمة قريش سيهاجرون مع المسلمين إلى المدينة وسيسببون المشاكل إلى ما بعد وفاة رسول الله. وسيكون وجودهم من أهم أسباب ما حدث أثناء القتال في بدر وأسر المشركين بدل قتلهم. ومن أهم الأسباب التي أدت لهزيمة المسلمين في أحد، وبعد الرسول سيكون وجودهم



عاملاً هاماً في تقويض الإسلام، وتمكين قريش من حكم دولة المسلمين.

والخلاف نشأ في وقت تتابع دخول المستضعفين للإسلام، ولم يتمكن بعض المسلمين من قريش أن يتقبل مساواته بعبيد الأمس. ولابد أن التصرفات العنصرية كانت تظهر عليهم عند تعاملهم مع المستضعفين، وقد ينعتونهم بنعوت وضيعة ويذكرونهم بأنهم عبيد وسيبقون كذلك. مما يتسبب في إغاظة المستضعفين والرد عليهم. إلى أن جاء يوم وتطور الوضع إلى شجار، فجاءت الآيات تذكرهم أنهم جميعاً عباد لله، وأن أي خلاف بينهم يحركه الشيطان الذي يجب ألا يسمح له بإحداث عداء بين الإخوة في الإسلام.

والشيطان هنا مشاعر الكبر والعنصرية التي يشعر بها القرشي ضد المولى السابق.

رؤيا الرسول

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً(٦٠) بني إسرائيل.

الأحلام تعكس المشاعر التي تختلج في النفس وتسيطر على الوجدان، والرسول يشغله على الدوام أمر الدعوة وموقف قريش الرافض لها برغم قوة الحجة وسطوع الحق. ويشغله بقاء تسلط قريش ويتمنى لو تهتدي، أو ينتصر الحق.

والآية تذكر الرسول بما تردده بعض السور أن الله محيط بالكافرين وأن العاقبة للمتقين، وبوعود الله لهم بالنصر.

فما هي هذه الرؤيا التي سببت فتنة للناس؟

لا يرد ذكر للرؤيا التي رآها الرسول في القرآن إلا في سورة الفتح المدنية، التي نزلت بعد أن دخل الرسول والمسلمون مكة فاتحين، وأعلنت قريش استسلامها: لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) الفتح.

ويكون الرسول في مكة قد رأى أن المسلمين سيغلبون على قريش وسيحكمون مكة، وهو ما أغاظ قريشاً لما قص رؤياه عليهم، لأنهم ممن يعتقدون بالأحلام. وكون الرسول رأى أنه سينتصر على قريش وهو في مكة، ثم بعد سنين استطاع المسلمون دخول مكة فاتحين



منتصرين، واستسلمت قريش صاغرة، لا يعني أن الفتح تحقيق لحلم الرسول ولا تعني أن حلم الرسول تحقق. فما رآه الرسول في منامه يعكس حالة نفسية معينة وأمنية يتمناها على الدوام عندما كان الإسلام ضعيفاً في مكة. واستسلام قريش للمسلمين يوم الفتح نتيجة لتطور الأحداث. وقد كان استسلام قريش يوم الفتح استسلاماً مخادعاً، ضمن مكيدة قرشية في محاولة للقضاء على المسلمين لكنها لم تنجح. وذلك بحملة تقوم بها قوات حليفة قادمة من الطائف تهاجم المسلمين فيما تقوم قريش بمهاجمة المسلمين من الخلف لتسهل هزيمتهم والقضاء عليهم. وستحدث عن هذا عند الحديث عن معركة حنين. ولو كان الفتح تحقيقاً لرؤيا الرسول لدانت مكة للمسلمين ولم تخرج من سيطرتهم مباشرة بعد الفتح.

قريش معتادة على ركوب البحر

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(٧٠) بني إسرائيل.

ذكر السفن في البحر في عدد من السور التي تخاطب قريشاً دليل على أن أهل مكة معتادون على السفر في البحر، وقد يكون ذلك من وإلى الشاطئ المقابل في البر الأفريقي (شرق السودان الحالي)، وهو ما يعضد ما ذهبنا إليه من أن مستضعفي مكة قد هاجروا لتلك البقاع، في المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، وليس لما يعرف اليوم عند العرب بالحبشة (إثيوبيا).

قريش حاولت استمالة محمد وكاد أن يضعف

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥) بني إسرائيل.

كل ما قد يخطر على بال إنسان في أي لحظة قد يخطر على بال الرسول وأي رسول. والآية لم تبين ما الذي كاد الرسول أن يفعله أو يقوله، لكنها تقول إن قريشاً كادت أن تنجح في فتنة الرسول ليقول بخلاف القرآن. والرسول كان دائماً يتحسر على قريش ويتمنى أن



يؤمنوا رأفة بهم من النار. وكان يتمنى لو يعطيه الله آية ليظهرها لقريش لعلهم يؤمنون كما وعدوه. كما أخبرتنا الآية الثانية من سورة الأعراف أن الرسول كان يتحرج من تلاوة بعض الآيات على قريش ويتمنى لو كان باستطاعته ألا يقرأها. وأخبرتنا الآية: (٤٨) من سورة ن والقلم أن الرسول خطر بباله ترك الدعوة والهرب، كما فعل يونس. والآيات أعلاه تقول إن الرسول في لحظة من لحظات الضعف البشري كاد يميل (يركن) لرأي رجال قريش الذين كانوا يجادلونه وكادت بلاغتهم وسحر بيانهم أن تقنعه بما يقولون برغم أنه باطل، فجاءت الآيات تحذره.

فالحق لا يضيع لأن رجل الباطل استطاع في لحظة أن يحرجه أو يتفوق عليه في العبارات. ويمكن أن نرى مثيلا لهذا في مجادلات بعض المسلمين مع رجال الدين المسيحيين، حيث يستطيع بعضهم صياغة عبارات متماسكة تبدو أكثر إقناعاً مما يقول المسلم. لكن هذا لا يمكن أن يحول المسيحية لحق لأنها تقوم على معتقد يخالف العقل والمنطق، يقول بأن لله (خالق كل شيء) ابن من البشر ومعهما شريك آخر. لا إله إلا هو. بينما يقوم الإسلام على أن الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وقد يكون الرسول قد شعر في لحظة من اللحظات أن كلام رجال قريش حول استحالة البعث قد تكون صحيحة لأن بلاغتهم كانت كفيلة بتشويش الصورة في ذهنه للحظات.

ولما يئست من استمالته سعت لطرده

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً(٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) بني إسرائيل.

عندما لم تنجح قريش في إقناع الرسول بالباطل، سعوا لإخراجه وطرده من مكة. وهذه سنة سارت عليها كل الأمم، ولم تتفرد بها قريش. فأتباع الموروث سيحاولون إقناع من يخالفهم فإن لم يقتنع تحولوا لمهاجمته. وسعوا لطرده أو قتله او التخلص منه وإسكات صوته بأي طريقة.

وقد حاولت كل الأمم السابقة طرد رسلها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) إبراهيم.



فرض أول وقتين لأداء الصلاة

سورة بني إسرائيل رقمها من حيث تسلسل النزول هو (٧٩) وهو ما يعني أنها نزلت بعد قرابة سبع سنوات من بدء البعثة وفي الثلث الأخير للدعوة في مكة. وطوال الفترة الماضية كانت السور تنزل لتأمر وتحث المسلمين على الصلاة دون تحديد أوقات لأدائها. وقد ورد ذكر الصلاة في عدة سور من سور المرحلة الخامسة السابقة، مثل فاطر، مريم، طه، إبراهيم، الأنبياء وغيرها، فكان المسلمون يصلون في أي وقت أو أوقات يشاؤون.

وبنزول هذه السورة فرض وقتان للصلاة: أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً(٧٩) بني إسرائيل.

الوقت الأول حددت السورة بدايته ونهايته كما يلي:

- « أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ». بداية الوقت يكون مع دلوك (غياب) الشمس تحت الأفق.
- «إلى غسق الليل». وينتهي وقت هذه الصلاة بحلول ظلام الليل. فمجرد مغيب الشمس يحل الشفق جهة المغرب على شكل صفرة في السماء تختفي تدريجياً حتى يحل ظلام الليل بالكامل.

وكما هو واضح فهذا الوقت هو وقت صلاة المغرب.

والوقت الثاني أشارت له السورة: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً». ولأن وقت الفجر معروف لدى الناس بدايته بظهور خيوط الفجر وينتهي بشروق الشمس فلم تحدده السورة، واكتفت بالإشارة لصلاة الفجر بقرآن الفجر، لأن الصلاة يتلى فيها فاتحة الكتاب.

وقد ورد ذكر صلاة الفجر عرضاً في سورة النور أثناء الحديث عن الأوقات التي يمنع فيها دخول الأطفال مخادع نوم ذويهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) النور.



وأصبح المسلمون يصلون وقتين معلومين: الأول بعد غروب الشمس واستقبال الليل، والآخر قبل شروق الشمس وما قبل استقبال النهار.

الوجود الإسلامي أصبح ظاهراً

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً(٨٠) وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً(٨١) بني إسرائيل.

السورة هنا تخاطب الرسول ليس لشحذ همته بقدر ما تظهر كيف أصبح المسلمون أعزة ظاهرين ولم يعد المسلم ذليلاً يتحرج من إظهار التفاخر بدينه.

إسلام قريش لم يعد مهماً بعد إسلام أعداد من أهل الكتاب

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً(١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً(١٠٦) قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً(١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً(١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً(١٠٩) بني إسرائيل.

الآية تخاطب قريشاً وتقول لهم لم يعد مهماً أن تؤمنوا بالقرآن فالإسلام غني عنكم الآن بإسلام الذين أوتوا العلم من قبله، وهي إشارة لبني إسرائيل الذين تواصلوا مع الرسول وآمن بعضهم ونشروا الإسلام في يثرب.

الرسول استمر يشعر بالأسى على قريش الرافضة للحق

طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يكونوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٩) الشعراء.

الآيات تشير إلى أن الرسول برغم ما يتعرض له من سخرية وسب وشتم من رجال قريش إلا أنه استمر يحزنه رفضهم للدعوة برغم وضوح الحق وقوة الحجة. واستمر يتحسر عليهم



لأنه يعلم يقيناً أنهم يسيرون بأنفسهم نحو الهاوية.

كما تشير الآيات إلى أن الرسول يتمنى بينه وبين نفسه لو أعطي آية لتحقيق طلب قريش الذي يطلبونه منه باستمرار، ظناً منه أن قريشاً صادقة في أنها ستؤمن لو رأت منه آية.

والآيات تقول للرسول: لا تقطع نفسك أسى عليهم فلن يؤمنوا (فهم تبعوا سنة الأولين التي تتبعها كل الأمم) فمن لا يؤمن بداية سماعه للحق لن يؤمن أبداً مهما دعي.

وتخبر السورة رسول الله بسنة أخرى للأولين تتمثل في أن كل من طلب آية من الأمم السابقة ورآها لم يؤمن، وقريش - بالتالي - لن تؤمن لو رأت كل آية. لذا لن تعطى يا محمد آية لتظهرها لقريش، التي لو أرادت الإيمان لكفاها تفكيرها بما حولها من خلق عظيم يدل على قدرة الخالق على البعث الذي ينكرون.

بعض رجال الدين من بني إسرائيل أسلموا

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٩٧) الشعراء.

الآيات تخاطب قريشاً وتؤكد أن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول بواسطة أحد الملائكة، وهو نفس الدين الذي نزل على الرسل السابقين، لذا عرفه وآمن به بعض من رجال بني إسرائيل الذين على علم بدين موسى. وهم ممن حضر لمكة من يثرب وقابل الرسول واستمع للقرآن واقتنع بصدق رسالته وأسلم.

من التهم الجديدة للقرآن أنه من كلام الشياطين

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢) الشعراء.

قريش كانت في المرحلة الرابعة للدعوة في مكة تتهم الرسول بالجنون وأن القرآن كلام يسحر العقول أو أنه أساطير وكلام قديم. لكن لما تغير خطاب الدعوة وبدأ الناس يتوافدون على مكة للقاء الرسول والاستماع للقرآن، كان من محاولات قريش المستميتة لصد الناس عن



الدين أن بدأت تنشر إشاعات عن القرآن وأنه ليس من الله ولكن من كلام شياطين الجن.

وهذه التهمة يمكن أن تلاقي رواجاً في ذلك المجتمع الذي يؤمن بأن الجن يتواصلون مع البشر ويؤثرون عليهم ويتكلمون معهم. فجاء النفي من أن يكون من شياطين الجن، لأن الجن معزولون عن التجوال في الكون ولا يستطيعون أن يستمعوا للملائكة وينقلوا عنهم القرآن الذي تحمله الملائكة للرسول. وتبين السورة في آيات لاحقة على من تتنزل الشياطين: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) الشعراء.

دفع الظلم

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧) الشعراء.

آيات دفع الظلم نزلت في وقت كان عدد المسلمين في مكة قليلاً وضعيفاً، ومع ذلك أمروا بدفع الظلم ومعاقبة الظالم، وهو ما يتنافى مع ما في الحديث والتفسير وفتاوى رجال الدين من الصبر على الظلم ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك[١].

قريش تسخر: أين العذاب؟

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٨) هود.

قريش تتساءل من باب السخرية لماذا لا يعذبهم الله الآن على كفرهم، وتساؤلاتهم هذه للسخرية. والله سيعذبهم يوم الحساب، وعندها لن يكشف عنهم. وهذه السخرية باستعجال العذاب ذكرتها سور عديدة[٢].

١ انظر فقرة: دفع الظلم والبغي/ قسم تشريعات من القرآن.

٢ انظر فقرة: المكذبون يستعجلون وقوع الحساب والعذاب/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



رسول الله تمنى لو بإمكانه ألا يقرأ بعض الآيات على قريش

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢) هود.

الآية تقول إن الرسول تمنى لو بإمكانه ألا يقرأ بعض الآيات. والآية تخبرنا بالآيات التي كان الرسول لا يود قراءتها على قريش: «أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ».

فقريش كررت كثيراً الطلب من الرسول أن يظهر لهم آية وسيؤمنون. فكان القرآن ينزل ليؤكد أنه لن ينزل على الرسول آيات، ويبين سبب عدم إرسال الآيات: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) بني إسرائيل.

إذاً، فالرسول تمنى لو أنه يستطيع أن يخفي الآيات التي تؤكد أنه لن يكون هناك آيات ولا يقرؤها على قريش أملاً في أن ينزل عليه «آية» يقدمها لهم تحقيقاً لطلبهم فيؤمنوا كما أكدوا له.

وتقول سورة الشعراء: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يكونوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥).

والآيات تقول للرسول إن قريشاً لن تؤمن لو رأت الآيات، لأنهم لو أرادوا الإيمان لآمنوا بما يسمعون من القرآن دون حاجة لآية، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات لعدم إيمانهم.

الرد على تهمة قريش

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٤) هود.

في السور التي نزلت في المرحلة السابقة للدعوة، ذكر القرآن أن قريشاً تتهم الرسول أمام الناس القادمين لمكة لرؤيته، بأنه يختلق القرآن. وهذه الآيات تقول لقريش: إن كنتم تقولون إن محمداً يختلق القرآن فأتوا بعشر سور مماثلة لسور القرآن. لأن محمداً ابن مكة ولغته



لغتكم، وفصاحة لسانه مساوية لفصاحة ألسنتكم، بل إنكم قد تغلبونه في الخطاب، فلماذا لا تأتون بسور مثل سور القرآن؟

وتخاطب الآية (١٤) المسلمين قائلة إن قريشاً لن تستطيع محاكاة القرآن لتتأكدوا أنه أنزل بعلم الله فتمسكوا بدينكم.

بعض بني إسرائيل آمن وقبائل لم تؤمن

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٧) هود.

ولعل هذا إشارة إلى أن الرسول بعدما أمر بأن ينذر أم القرى وما حولها في الآية (٧) من سورة الشورى، بدأ يتصل برجال القبائل ويدعوهم للإسلام، أو يرسل لهم مبعوثين، والآية تظهر أن القبائل لم تستجب. وقد يكون عدم استجابة القبائل راجعاً إلى أن الدعوة كانت توجه للزعماء الذين من المتوقع رفضهم للدعوة بناءً على قانون سنة الأولين. وبما أنهم رفضوها فلم يكن من الممكن أن يسمحوا بنشر الإسلام في قبائلهم.

والآية تؤكد ما سبق أن ذكرته سور سابقة من أن بعض بني إسرائيل (يثرب) قد آمنوا.

قريش استمرت تختلق العبارات وتنسبها للقرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩) أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ(٢٠) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢١) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ(٢٢) هود.

وبدأ هذا منتصف المرحلة الخامسة، وتحديداً في الآية (٣٢) من سورة الزمر، بعد أن توالى حضور الناس من خارج مكة للقاء الرسول والاستماع له وهل هو رسول من الله بالفعل



كما سمعوا. فكانت قريش تحاول صدهم عن اللقاء وعن الدخول في الإسلام بطرق مختلفة منها: اختلاق نصوص منفرة ونسبتها للقرآن.

وسورة هود أوردت في بدايتها تحدياً لقريش بأن تأتي بعشر سور مثل سور القرآن لتثبت للناس أن الرسول لا يستطيع أن يختلق عبارات القرآن، وأن قريشاً لن يتمكنوا من محاكاة القرآن.

وفي آية لاحقة تقول سورة هود: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ(٣٥) هود.

لنفترض يا قريش أن محمداً يفتري القرآن، فسيكون عليه جرم افترائه، ولن يضركم. لكن لو كان القرآن من الله وكفرتم به، فسيكون مصيركم سيئاً. وكأن الآية تقول: لماذا لا تؤمنون من باب أنه لو كان هناك آخرة فستفوزون، لكن لو متم ولم يكن هناك بعث فلن تعلموا بذلك أبداً. وهذا جدل افتراضي.

بعض بني إسرائيل آمن وبعضهم لم يؤمن

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١١٠) وَإِنَّ كُـلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢) هود.

الآيات تشير إلى أن بعض بني إسرائيل ممن حضر لمكة لم يؤمن، وتخاطب الرسول قائلة إن بني إسرائيل اختلفوا في الحق زمن موسى وابتعدوا عن الدين، ولو لم يؤمنوا بالإسلام فهم وقريش على باطل وسيحكم بينهم يوم القيامة. وعليكم – كمسلمين – التمسك بالحق الذي معكم ولا تطغوا.

تحذير من يوالي المشركين «مسلمة قريش»

وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ(١١٣) هود.

الآية تحذر بعض من أسلم من قريش (مسلمة قريش) الذي أبقوا على موالاتهم لأقاربهم



المشركين، وتقول لهم إن استمرارهم في موالاة الذين ظلموا سيؤدي بهم للنار، ولو كانوا يشهدون بوحدانية الله وآمنوا برسالة محمد.

وهذه الآية تتحدث عن وضع جديد ظهر على الساحة الإسلامية، يتمثل بموالاة فئة من مسلمي قريش لأقاربهم المشركين وموالاتهم. وهذه الفئة هم من تحدثت عنهم (الآية: ٥٣) من سورة بني إسرائيل، وأخبرتنا أنهم اشتبكوا مع فئة مسلمة أخرى في خلاف. وسنرى أن هذه الفئة التي توالي قريشاً ستستمر في موالاتها برغم تحذير القرآن لهم، وسيستمرون بخلافاتهم مع الفئة الأخرى من المسلمين الذين ستتبين أنهم من المستضعفين، كما سيتسببون في مشاكل جمة للمسلمين والإسلام. و «مسْلَمَة قريش» اصطلاح يعني من أسلم من قريش ولكنهم أبقوا على موالاة أقاربهم من المشركين. وهم – كما سنرى – من بني عبد مناف[١].

فرض ثلاثة أوقات إضافية لأداء الصلاة

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤) هود.

ولو أضفنا هذه الأوقات الثلاثة للوقتين اللذين فُرضا في الآية (٧٨) من سورة بني إسرائيل، فإن الأوقات المطلوبة للصلاة أصبحت خمسة في اليوم والليلة، وليس هناك آية أخرى تضيف أي وقت آخر غير ما ذكر.

والملاحظ هو أن هناك صلاة عند طرف النهار الأول (أي بعد شروق الشمس)، وصلاة أخرى عند طرف النهار الأخير (أي قبيل غروب الشمس). ولا يذكر القرآن صلاة الظهر أو العصر اللتين يصليهما المسلمون اليوم، ويتركون صلاتي طرفي النهار المذكورين في القرآن.

البعض يقول إن المقصود بصلاتي طرفي النهار صلاتا المغرب والفجر. ولو تحرينا الدقة في تحديد بداية الليل والنهار، فستكون الشمس هي العامل الحاسم لتحديد بداية الليل وبداية النهار. فالنهار يبدأ مع بزوغ قرص الشمس وليس مع بداية انبلاج النور في الفضاء مع الفجر. فصلاة الفجر تكون في الليل، وليست في طرف النهار. وكذلك صلاة المغرب لأنها تؤدى بعد غروب الشمس وبالتالي فهي صلاة ليلية تكون في بداية الليل. ولا يمكن

---

١ كتاب: كعب الأحبار مسلمة بني إسرائيل في الإسلام لمؤلفه إسرائيل ولفنسون Israeal Wolfensohn استخدم مصطلح «مسلمة بني إسرائيل» الذي أوحى لنا بمصطلحي «مسلمة قريش» و «مسلمة يثرب».



أن نطلق على طرفي الليل (الفجر والمغرب) طرفي النهار، لأن لليل طرفين وللنهار طرفان أيضاً. ولو كان المقصود بصلاتي طرفي النهار هو المغرب والفجر لقال القرآن طرفي الليل. ولما ذكر وقت صلاة المغرب وحدد وقتها بدقة في الآية (٧٨) من سورة بني إسرائيل، وذلك بدلوك الشمس (غروبها) وانتهاء وقتها بغياب الشفق من السماء. ولو عدنا لآية بني إسرائيل لوجدناها تقول: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا». ويمكن القول إنها ذكرت وقتاً واحداً فقط للصلاة وهو صلاة المغرب. وبقية الآية تحث الرسول على قراءة القرآن وقت الفجر، وتستمر الآية التالية لتقول: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩).

فالحديث مستمر عن تلاوة القرآن وليس عن وقت لأداء الصلاة. ولو أضفنا لهذا الوقت الأوقات التي ذكرتها سورة هود فسيكون لدينا أربعة أوقات، هي:

صلاة بعد دلوك الشمس، وطرفي النهار، والصلاة بعد زلف من الليل (العشاء).

ولن يكون هناك حكمة من إعادة تكرار الأمر بوقت المغرب مرتين.

لكن لو قلنا إن سورة بني إسرائيل تأمر بوقتين: المغرب والفجر، وسورة هود تضيف ثلاثة أوقات أخرى، هي: طرفا النهار وصلاة العشاء، فسيكون عندنا خمس صلوات وليس أربعاً أو ثلاثاً. وبهذا تتفق مع ما يؤديه المسلمون الآن فيما عدا تعديل لوقت طرفي النهار باتجاه وسط النهار. وهذا قد يكون نتيجة عملية لمارسات المسلمين بعد عصر الرسول. حيث كان الخليفة مطلوباً منه إمامة المسلمين في المسجد، وفي عصور الأمويين والعباسيين، كان الخليفة يحرص على السهر والفجور أكثر من المحافظة على الصلاة. فكان يسهر حتى يصلي بالناس ثم يغلبه النوم حتى الظهر. والمتسلطون من الحكام حتى اليوم لا يوقظهم أحد حتى يستيقظوا. وبما أن القيلولة عرف عربي فقد كان الخليفة يصلي بالنهار بما عرف بصلاة العصر قبل أن يغفو في قيلولته.



أحداث المرحلة السابعة
التعذيب والهجرة

هي آخر مراحل الدعوة في مكة، وأشدها وطأة عليهم. حيث تعرض المستضعفون منهم لأشد أنواع التعذيب على أيدي كبراء قريش ليفتنوهم في دينهم ويردوهم للكفر. ومن الأساليب الجديدة التي استخدمتها قريش لتعذيب المسلمين في هذه المرحلة تعذيبهم بالنار. وقد نزل في هذه المرحلة ثماني سور تحدثت عن التعذيب والردة والهجرة وهي أهم الأحداث التي صبغت هذه المرحلة، والسور هي: الأنعام، العنكبوت، البروج، المسد، النحل، القصص، الرعد، والحج.

ولو افترضنا أن الفترة بين نزول سورة وأخرى هي شهر، فستكون هذه المرحلة امتدت إلى (٨) أشهر عصيبة.

تأكيد على إسلام بعض بني إسرائيل، وبالتالي لم يعد مهماً إسلام قريش

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٠) الأنعام.

الخطاب موجه لقريش التي رفضت الدعوة، وتقول الآية إن القرآن أوحي لينذر به كل الناس وليس أنتم فقط يا قريش، وقد آمن به بعض أهل الكتاب. ولم يعد مهماً أن تسلموا فالله قد نصر دينه بغيركم ومنهم بعض أهل الكتاب الذين تبينوا أنه حق فاتبعوه.

وما ذكرته الآيات هنا هو تأكيد وتكرار لما سبق وذكرته الآيات: (١٠٦-١٠٩) من سورة



بني إسرائيل من سور المرحلة السادسة السابقة. فالدين سينتصر بأقوام مختلفة، وليس حكراً على قريش أو غيرها. وحال الإسلام اليوم يبدو مشابهاً لهذا، فالعرب عموماً وسكان جزيرة العرب خاصة، يعتقدون أنهم من يمثلون الدين وهم المعنيون به، وإن لم يعودوا هم للدين فلن يعود الناس له وسيضيع دين الله. وهذا وأيم الله وهم، فدين الله يمكن أن يعود الناس إليه من أي لون وجنسية. ودخول غير العرب للإسلام سيجعل منهم القادة لعودة غيرهم لصافي الدين، لأنهم لم يتلوثوا بمذهبية ولا يعرفون الإسلام إلا من مصدره. وسيحدث هذا متى ما فطنوا ورفضوا مساعي أتباع المذاهب لجذبهم لحظائرهم.

استمرار قريش تلفيق عبارات وإسماعها للناس على أنها قرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢١) الأنعام.

وهو ما تكرره نفس السورة: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٩٤) الأنعام.

استمرار قريش بالكفر وصد الناس عن لقاء الرسول أو سماع القرآن

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٢٦) الأنعام.

من وسائلهم لصد الناس عن القرآن محاولة إقناع من يأتي لمكة للقاء الرسول بألا يفعل لأن ما سيسمعه منه مجرد حكايات (أساطير) قديمة جمعها ويتلوها على الناس.

وهي طريقة استخدمتها قريش في السابق كما أشارت لذلك سور منها الفرقان في الآية الثالثة. ويبدو أنها عادت لهذه الوسيلة في هذه المرحلة لأننا سنرى أن عددا من آيات سور هذه المرحلة ذكرتها.



الرسول يتأذى من سخرية قريش ويتحسر على كفرهم

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٧) الأنعام.

استمر الرسول يشعر بالأسى على قريش لاستمرارهم بالكفر الذي سيؤدي بهم للخلود في النار. واستمر عليه الصلاة والسلام يتمنى لو يعطى آية لعلهم يؤمنون لو رأوها. فيأتي القرآن يشد من أزره ويرفع معنوياته ويؤكد له أن ما يلاقيه قد سبقه إليه كل الرسل قبله، وأن الله وعد الرسول ومن آمن بالنصر والظهور في النهاية، وفي نفس الوقت يوبخه ويرشده.

يا محمد: الله لن يؤتيك آية لتريها قريشاً، لأن قريشاً لن تؤمن. وإن كنت تظن أنهم سيؤمنون لو رأوا آية – كما يزعمون لك – فلماذا لا تجرب أن تخرق الأرض أو تصعد للسماء وتأتي بآية لهم من دون الله. وخير لك أن تدرك هذا الأمر ولا تكن من الجاهلين.

وتستمر السورة لتقول: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) الأنعام.

من يرغب في الإيمان فسيؤمن دون آيات وخوارق، أما من صم أذنيه عن الحق واتبع الموروث فلن يؤمن، لأنه كالميت لا يشعر بما حوله، وسيحاسبه الله.

طلب قريش طرد المستضعفين

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

بعد أن توجه الخطاب الدعوي في مكة من قريش إلى المستضعفين بدأوا يدخلون في دين الله فصعقت قريش، لأن إسلامهم سيشل الحياة المدنية في مكة كونهم هم من يقوم بكل



الأعمال الخدمية. فحاولت بشتى الوسائل استعادة من أسلم ومنع من لم يسلم الدخول في الإسلام. ومن الوسائل التي قام بها كبراء قريش محاولة إقناع رسول الله بأن يطرد من أسلم من المستضعفين مقابل إيمانهم هم. لأنهم هم السادة ولا يمكن أن يقبلوا أن يعاملوا مع عبيدهم ومواليهم بمستوى واحد. وبطبيعة الحال لو طرد الرسول المستضعفين فلن تؤمن قريش ولكنها ستضمن أن المستضعفين لن يعودوا للإسلام وبالتالي سيبقون تحت سيطرة الكبراء وتعود الأوضاع في مكة لما كانت عليه.

ومحاولة قريش الماكرة سبقهم بها قوم نوح، الذين يبدو أنهم أيضاً كانوا تجاراً يعتمدون على الموالي والعبيد للقيام بالخدمات، ولما بدأوا يدخلون في دين الله الذي دعا له نوح سيطر الذعر على كبراء قوم نوح فعرضوا على نوح أن يسلموا مقابل طرد المستضعفين، لأنهم سادة ولا يمكن – حسب الأعراف والتقاليد – أن يساوى بين السيد والمسود. وهو ما تشير له سورة الشعراء: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤).

ولو طرد نوح المستضعفين لما آمن كبراء قومه ولكنهم سيضمنون عداوة مواليهم لنوح الذي طردهم، وهو ما حاولت قريش الوصول إليه.

يهود يجادلون الرسول في مكة

وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١) وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩٢) الأنعام.

الآيات تتحدث عن فئة من اليهود، أثناء جدالهم للرسول تعمدوا أن ينكروا أن يكون الله قد أنزل على بشر شيئاً (وحي). وهم يقصدون أن موسى لم يتلق وحياً ينسخ في ذاكرته كما يحدث لمحمد، ولكن الله كلمه. وبما أن الله لم يكلم محمداً فليس برسول لله.

والآيات ترد عليهم قائلة إن كلام الله الذي تقولون إنه كلم به موسى استنسختم منه في



قراطيس ما رغبتم وأخفيتم ما لا يعجبكم منه. فأنتم كفرتم بها تقولون إنه كلام الله. ولو كنتم تريدون الحق لقارنتم بين ما لديكم من بقايا التوراة وبين ما ورد في القرآن وستجدون أنهما متطابقان مما يؤكد أنهما كل من عند الله، ويتوجب عليكم اتباع الرسول محمد لتهتدوا.

القرآن يكرر أمر الرسول بدعوة من حول مكة

وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩٢) الأنعام.

للمرة الثانية يذكر القرآن أن محمداً رسولٌ لأهل مكة وما حولها مثل الطائف وكذلك لبني إسرائيل يثرب. بعد الآية السابعة من سورة الشورى، إحدى سور المرحلة السادسة السابقة. وهذا تأكيد للمرة الثانية أن الرسول لم يتصل بأهل الطائف – إن كان قد اتصل بهم أو ذهب إليهم – إلا في هذه المرحلة أو المرحلة السابقة، بعد تغير الخطاب من دعوة قريش فقط إلى دعوة كل الناس. وهو ما يخالف ما ورد في كتب التراث أن الرسول ذهب للطائف وكان يعترض القوافل في بداية بعثته، ويعرض نفسه على القبائل في أسواق العرب.

توجيه عند قراءة القرآن

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ(١٠٠) النحل.

الآيات تخاطب الرسول، وهو ما يشير إلى أن رسول الله قد يكون تعترضه بعض الوساوس عند قراءة بعض الآيات. وسبق وأخبرتنا السور أنه عليه الصلاة والسلام كان يتمنى لو تنزل عليه آية ليريها قريشاً كما طلبوا لعلهم يؤمنون.

والآيات توجهه إلى أن يستعيذ بالله من الشيطان ليطرد كل الوساوس. وتخبره أن سيطرة شيطان الوساوس على النفس يكون لمن يستسلم له، وليس على من يتوكل على الله. ولا يمكن أن تكون الآية تشريعاً يتوجب على المسلمين اتباعه عند تلاوة القرآن بحيث لا يجوز أن نتلو شيئاً من القرآن قبل أن نستعيذ من الشيطان. ولكن لو أن أحدنا كان مشوش الفكر عندما أراد قراءة القرآن فالاستعاذة من الشيطان ستعمل على عودة التركيز. كما أن الحرص



على الاستعاذة من الشيطان قبل التلاوة فضيلة ولكن لو لم يفعلها المسلم فلا ذنب عليه، لأنها وردت في خطاب توجيهي ولم ترد كتشريع.

قريش تبتدع تهما جديدة للرسول

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١٠٥) الأنعام.

إشارة إلى أن مما تحاول قريش إشاعته بين من يقدم لمكة للقاء الرسول أنه يتلقى ما يتلو عليهم من غيره (درسه وتعلمه). وهذا الكلام لم تكن قريش تقوله لمحمد عندما كانت الدعوة محصورة في أهل مكة فقط، لأنهم يعرفون أنه لا أحد يعلمه. لكن الآن وفي هذا الوقت، فمن يأتي من خارج مكة لا يعلم ذلك، فصار بإمكان رجال قريش أن يكذبوا على الرسول دون خشية من أن يكتشف الغرباء كذبهم.

بعض المسلمين يسبون آلهة قريش فتسب قريش الله

وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٠٨) الأنعام.

بعض المسلمين يسبون آلهة قريش، فيرد عليهم القرشيون بسب إله المسلمين، فيكون السب موجهاً لله الذي هو إله المسلمين. وإلا فقريش تؤمن بوجود الله وبأن اسمه «الله» جل جلاله، ولن تسب لفظ الجلالة بشكل مباشر.

قريش وكل مشرك من الإنس والجن يوحون لبعضهم البعض التبريرات والحجج لرفض الحق

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ(١١٣) الأنعام.

ما يسمعه الرسول من رجال قريش ويبدو متشابهاً هو شيء معتاد، فالكافر يحاول تبرير كفره بما يقترحه بعض الكفار لبعض. مثل طلب آيات أو نزول الملائكة أو كون الرسول بشراً ولماذا لم يكن من زعماء القريتين؟ ولو تحقق لهم ما يطلبون فسيجدون مبررات غيرها.



وقوله: «يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول» لا يعني أن الجن والمشركين يعقدون الاجتماعات ويقررون ما يقولون. ولكنه يعني أن شياطين الجن يتذاكرون فيما بينهم، وشياطين الإنس فيما بينهم. فتأتي حججهم متشابهة.

الإشارة لإسلام بعض أهل الكتاب

أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) الأنعام.

الإشارة جاءت ضمن آيات تخاطب الرسول وتؤكد له أن رسالته حق ولو رفضتها قريش فقد آمن بها بعض من أصحاب الديانات السابقة، والمقصود بهم بعض بني إسرائيل في يثرب.

بعض رجال قريش قتلوا أولادهم لئلا يسلموا

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١٣٧) الأنعام.

بعض المشركين يزينون لبعض قتل أولادهم لئلا يدخلوا الإسلام. والمفسرون يقولون الآية تتحدث عن الوأد وهذا غير صحيح، لأن الوأد يكون بعد الولادة مباشرة، والآية تتحدث عن قتل ولد بالغ عاقل أراد الإسلام، وليس مولوداً رضيعاً لم يعلم من الدنيا شيئاً. وسبب قتلهم أوضحته الآية: «لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ».

منطق الرضى عن النفس

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩) الأنعام.

قول قريش لو شاء الله ما أشركنا منطق يردده الناس في كل العصور، وهو مجرد تبرير للرفض. وإلا فالله لم يفرض عليهم ولم يجبرهم على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية، وبناءً على عقائد موروثة لا أساس لها.



وهو ما كررت ذكره عدة سور سابقة ولاحقة، مثل:

سورة يس: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ(٤٧).

وسورة الأعراف: وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

وسورة النحل: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ(٣٥).

وهو منطق التنصل من المسئولية ومن لوم النفس. وهذا الفهم الخاطئ لقدر الله وقضائه ما زال منتشراً بين المسلمين. حيث يربطون كل ما يصدر منهم على أنه مقدر عليهم ولا مناص لهم عنه. كمن يموت بحادث سير نتيجة تهوره، أو من يدهس طفله أمام عينيه لأنه أهمل مراقبته، أو أصيب بمرض أو أصاب ثروة أو خسر كل ماله في مضاربات مالية، أو تم القبض عليه بلا تهمة ....الخ.

وهذا يريحنا كثيراً لأننا ستتخلص من تأنيب الضمير الذي سيسيطر علينا لو اعترفنا بأننا كنا المتسببين بما حدث. والبديل هو أن ننسب تقصيرنا وعجزنا إلى القضاء والقدر وبالتالي نشعر أننا لا نستطيع محاكمة الله على ما يفعل بنا، فنحن ملكه يفعل بنا ما يشاء.

وقريش لم تؤمن لأنها اختارت طريق الضلال، دون أن يكتبه الله جل وعلا عليها: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٣٧).

وقوله: « فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ» وقوله: « فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ». لا يعني أن الله قرر من يهتدي ومن يضل مسبقاً، كما سبق وكررنا سابقاً، ولكنه يعني أن كل ما في الكون يسير بإذن الله ولو أراد الله فلن يتم. لكن هذا لا يعني أن الله يتدخل في تصرفات مخلوقاته في أي مكان كان في الكون. بل يترك لهم حرية الاختيار، ويوم القيامة سيحاسبهم بكل عدل بناءً على ما اقترفوه وسجلته صحف أعمالهم وهم لا يظلمون: وَاتَّقُواْ



يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٨١) البقرة.

بداية تعرض المهتدون للإسلام من المستضعفين للتعذيب

الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣) العنكبوت.

إشارة إلى ما بدأ المسلمون من مستضعفي مكة يتعرضون له من أذى من بعض رجال قريش لإرغامهم على الردة، وقد ارتد بعضهم بالفعل. وسنرى أن ما تشير له الآيات من التعذيب هو الحرق بالنار. ولابد من الإشارة إلى أن من بدأ هذا النوع من التعذيب هم بعض رجال قريش وليس كلهم، بل إن الغالبية منهم لم يشاركوا، وإلا لأشار له القرآن.

ثم تعود السورة لمخاطبة المستضعفين من المسلمين الذين يتعرضون للتعذيب، وتحثهم على الصبر، وتسمي صبرهم جهاداً، وتعدهم بالجزاء الحسن: مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٧).

فكل من يقينه قوي ويؤمن بالله واليوم الآخر فسيصبر على الأذى، وصبره جهاد سيحفظ له عند الله.

أحد المسلمين يواجه ضغوطاً من والديه المشركين ليرتد

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨) العنكبوت.

هذه الآية تبدو وكأنها تكرار لآية وردت في سورة لقمان من سور المرحلة الخامسة تقول: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥).

والآية هنا تتحدث عن مسلم آخر تعرض لضغوط من والديه في هذه المرحلة السابعة



لكي يكفر. والاحتمال أنه من المستضعفين، الذين يتعرضون للتعذيب، وأراد والداه إقناعه بالردة لئلا يهلك تحت التعذيب، بحجة أنه لا قبل له بقوة الظالم وجبروته.

وهذا الموقف من الوالدين نعيشه اليوم في عالمنا العربي، فكم من والد ضغط على أبنائه بألا ينتقدوا الحكومات وأن يصبروا على الظلم وهضم الحقوق ومصادرة الحريات لئلا يتعرضوا للاعتقال. والوالد يعلم أن الله لا يرضى بالظلم وأن كتابه أمر بدفعه وأن الحكام ليس من حقهم التصرف بالناس كيفما يشاؤون. ويرى أن عصيان الله قد يغفره الله، أما الحكام المتسلطون فسيبطشون بلا رحمة. ويرى أن كلباً حياً أفضل من أسد ميت. وبطبيعة الحال هذا وضع مزر لا يقبله الإسلام للمسلم، فمسلم ميت خير من خانع حي. ومن لا يموت مطالباً بالحق سيموت مع جلاده بطرق أخرى. فجاءت الآية تقول للولد: لا تطع والديك فيما يأمرانك به مخالف لما يأمرك به الله، الذي يأمر بدفع الظلم مهما كانت الظروف وعدم الاستسلام للظالم لأنه قوي.

ونظرة الوالدين آنية قاصرة، وأنانية في نفس الوقت. فما يهم الوالدين هو ألا يأسيا على هلاك ولدهما، وخير لهما أن يعيش حياة ذل من أن يكون ابنهما قدوة لغيره في تحقيق التصحيح.

أول ذكر للمنافقين في مكة

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ(١١) العنكبوت.

هذه أول مرة يتحدث القرآن عن «منافقين» في الإسلام. وهم نفر أعلنوا إسلامهم – كما تقول الآيات – ثم أعلنوا ردتهم خوف التعذيب، أو تحت التعذيب. ولو ظهر الإسلام فسيعلنون أنهم مسلمون. وقد أطلقت عليهم الآيات «منافقين» لأن المنافق هو من يعلن الإسلام ولو لم يؤمن به من داخله. وهم كانوا ممن لم يقتنع بالإسلام عندما أعلنوا إسلامهم، ولكن قد تكون غايتهم التخلص من الرق، ولما طالهم التعذيب تراجعوا لحياة العبودية التي اعتادوا مقابل البقاء أحياء.



قريش تستخدم وسائل الترغيب والترهيب مع الضحايا

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(١٣) العنكبوت.

كفار قريش الذين يعذبون مستضعفي المؤمنين يقولون لهم إن أنتم تركتم الإسلام فنعدكم أن نحمل عنكم ذنوبكم يوم القيامة ونتلقى العذاب بدلاً عنكم. مما يظهر أن قريشاً كانت تستخدم التعذيب البدني مصحوباً بالترغيب. تماماً كما يحدث في معتقلات المباحث العربية، تعذيب لا يحتمل ووعود خيالية لن تتحقق لو استجاب المعتقل لما يريد السجان.

تحذير لمسلمة قريش

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(٤٣) العنكبوت.

وهم من أشارت لهم الآية: (١١٣) من سورة هود، والآية: (٥٣) من سورة بني إسرائيل.

وآيات سورة العنكبوت تقول لهم إن موالاتهم للمشركين كمن اتخذ بيتاً من خيوط العنكبوت. وهو مثال للوهن والضعف حسب مدارك المخاطب الذي يعرف أن خيوط العنكبوت تتمزق بمجرد ملامسة اليد لها.

ولا تتحدث الآيات عن معجزة علمية، لم يكتشفها العلماء إلا في هذا العصر، وتتمثل في أن المادة التي تتكون منها خيوط العنكبوت قوية جداً لدرجة أنها لو جمعت لأمكن صناعة درع منها واق من الرصاص. لأن الخطاب في السورة موجه لرجال من قريش أعلنوا إسلامهم وأبقوا على موالاة أقاربهم المشركين. والخطاب في القرآن يأتي مناسباً لمدارك ومعارف المخاطب. وقريش لا تعرف الحقائق العلمية، ولكنها تعرف ما ترى وتلمس. وما يرونه أنه عندما تتعرض خيوط العنكبوت للمس تتهاوى. فهي من أوهن وأوهى المواد عندهم، ولذا ضرب القرآن بها المثل، مشبهاً موالاة بعض من أسلم للكفار بأنها موالاة واهية ضعيفة. وكان يجدر بهم موالاة المسلمين والتوكل على الله.



للمرة الثانية يذكر القرآن أن بعض أهل الكتاب يحضرون لمكة لمجادلة الرسول والمسلمين

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦) العنكبوت.

بعض أهل الكتاب يحضرون من يثرب لمجادلة الرسول والمسلمين ليس لإحقاق الحق ولكن لعلهم يظهرون كذب الرسول. وهو تأكيدٌ لما سبق وذكرته الآيتان: (٩١-٩٢) من سورة الأنعام، أول سور هذه المرحلة نزولاً.

وهؤلاء حضروا لمكة بعد أن انتشر الإسلام في يثرب بين الأوس والخزرج عموماً وقلة من غيرهم على أيدي من أسلم من بني إسرائيل. ولأن انتشار الإسلام يهدد مصالح أهل الكتاب ويسفه موروثهم فقد انبرى بعض عبدة الموروث لصد المد الإسلامي. فكانوا يسافرون لمكة ويدخلون مع الرسول والمسلمين في جدال. وهذه الآية تقول لا تجادلوهم إلا بالحسنى دون تشنج، وقولوا لهم: إن دين الله واحد، ودعوة الرسول لا تختلف عما تلقاه موسى، فإن كنتم تؤمنون بالله وبموسى رسول لله فآمنوا بمحمد، وإن لم تؤمنوا فدونكم وما تريدون، دون الدخول معهم في جدل لا طائل تحته.

والآية ليست تشريعاً يفرض على المسلمين أن نجادل اليهود وغيرهم من أصحاب الملل بالكلام اللين.

وترد عليهم السورة: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩) العنكبوت.

فالآية تقول لأهل الكتاب إن محمدا لو كان يقرأ ويكتب قبل نزول الوحي لكان هذا مثاراً للشك والريبة من أنه قد يكون يقرأ عليكم من كتب وجدها وبدأ يتلوها على الناس ويقول هي من عند الله. لكنه لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك يتلو عليكم كتاباً فيه ذكركم وذكر من سبقكم وتفاصيل عن تاريخكم لا يوجد لها مصدر غير الوحي.



بعض أهل الكتاب آمنوا مثلهم مثل بعض رجال من قريش

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧) العنكبوت.

هناك من آمن من أهل الكتاب ومن قريش، والكثيرون من الفريقين لم يؤمنوا.

قريش مستمرة بطلب آيات

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١) العنكبوت.

والرسول لم يعط أي آية. ولو كانت قريش جادة في البحث عن الحق لكفاها القرآن.

قريش ساخرة: أوقع علينا العذاب الذي تعدنا

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٥٥) العنكبوت.

نفس منطق الأمم السابقة، ومن ذلك ما قاله قوم شعيب: فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) الشعراء.

بداية الحديث عن الهجرة

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ(٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٥٩) وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٠) العنكبوت.

الوضع في مكة أصبح لا يطاق فالمسلمون المستضعفون يتعرضون للتعذيب بالنار لردهم عن دينهم، وقد ارتد البعض بالفعل. ويبدو أن أخبار مكة قد وصلت للمسلمين في يثرب،



الذين وجهوا دعوة لاستضافة إخوانهم – مسلمي مكة – عندهم في يثرب.

والآية (٥٦) أول آية تشير للهجرة إلى المدينة (سبق وذُكرت الهجرة للحبشة في الآية(١٠) من سورة الزمر، المرحلة الخامسة). وسورة العنكبوت ثاني سورة نزلت في هذه المرحلة، وبما أننا قدرنا أن الفترة بين نزول سورة وأخرى في هذه المرحلة هو أسبوعان فإن سورة العنكبوت قد نزلت بعد بدء قريش تعذيب المسلمين بأسبوعين أو ثلاثة.

والآية: (٥٧) تقول بأن كل بشر سيموت سواء تحت التعذيب أو بسبب آخر، ومن مات على الإيمان فهو في الجنة. وعلى من يعذب أن يصبر ولا يرتد عن دينه فيخسر الدنيا (كونه سيعود للرق) وسيخسر الآخرة بالردة.

وتقول نفس السورة: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩).

والجهاد في الله يعني الصبر على الأذى في سبيل التمسك بدين الله، ولا يعني القتال للذود عن الدين ودولة المسلمين والذي يسميه القرآن: الجهاد في سبيل الله. وهو جهاد لم يكن ممكناً طوال فترة الدعوة في مكة.

الآية (٦٠) تقول لمؤمني مكة هاجروا (ليثرب) وسيرزقكم الله ويعوضكم عما ستخسرونه من منازل وأثاث ومال في مكة. وهذا فيه إشارة إلى تردد بعض مسلمي قريش حول الهجرة لئلا يخسروا أموالهم.

ولابد أن الهجرة ليثرب أصبحت متاحة نتيجة لأن أهل يثرب من المسلمين استطاعوا إقناع أهل الكتاب الذين لم يسلموا بالموافقة على استضافة وإجارة المسلمين من أهل مكة. ولما وافق بنو إسرائيل وبقية اهل الكتاب سارع المسلمون منهم لدعوة المسلمين في مكة للهجرة إليهم.

قريش تعرف ركوب البحر

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٦٣) وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ(٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٦٦) العنكبوت.



الآيات تخاطب قريشاً بصورة عقلانية، وتذكرهم بما يتعرضون له في البحر وكيف أنهم متى تعرضوا لعواصف وأمواج عاتية دعوا الله أن ينجيهم ولا يدعون آلهتهم لأنهم يعرفون أنها مجرد حجارة صماء.

وهذا فيه دلالة على أن قريشاً تعرف ركوب البحر ومعتادة عليه. وهو ما ذكرته سور أخرى، ومن ذلك: قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٦٣) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ(٦٤) الأنعام.

ولو كانت قريش لا تعرف ركوب البحر فلا يمكن أن يخاطبها القرآن عن الموضوع. وقريش إن ركبت البحر فهذا يعني أنهم يقطعون البحر الأحمر ويذهبون للجهة المقابلة لجدة الحالية وهي السودان الحالية حيث يقيم قبائل عربية نزحت هناك منذ القدم وقبل الإسلام بزمن طويل.

ومثله: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤) النحل.

قريش مستمرة باختلاق عبارات منفرة ونسبتها للقرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٦٨) العنكبوت.

وقد تكررت كثيرا في عدة سور وتشير إلى اختلاق قريش بعض النصوص ونسبتها للقرآن وإسماعها لمن يأتي من خارج مكة لمقابلة محمد كطريقة للصد عن الإسلام.

كيفية التعذيب بالنار

تصف سورة البروج بوضوح ما كان يحدث:

وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ(١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ



وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠).

السورة تبدأ بقسم وتقول بأن يوم القيامة التي سيعتمد فيها على الشاهد (صحيفة الأعمال) لمحاسبة المشهود (عليه وهو الإنسان)، وسيهلك أصحاب الأخدود.

وأصحاب الأخدود هم قريش الذين حفروها. والأخدود حفرة مستطيلة تحفر في الأرض. وكان رجال قريش يخدون الأخاديد ويضعون فيها الحطب وتشعل فيها النيران لتعذيب من أسلم من المستضعفين (الموالي والعبيد) بالكي والحرق بالنار لإرغامهم على الكفر: وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨).

لأن إسلام المستضعفين سيتسبب في تعطل الأعمال الخدمية في مكة، كون من يقوم بها هم أولئك العبيد والموالي، وهذا ما لن تسمح به قريش.

وتتوعد السورة كل من عذب المسلمين ولم يتب.

وفي نفس السياق نزلت سورة المسد:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥).

السورة تقول تبت يدا أبي لهب وتباً له بما يقوم به من حفر للأخاديد وتسجير للنيران فيها لتعذيب المسلمين. (التب هو الخسران).

وتتوعده بنار جهنم.

كما تتوعد امرأته نظير حماسها في جمع الحطب. وقوله «في جيدها حبل من مسد» تصوير لما ستلقاه من عذاب في جهنم يتناسب لما تقوم به. فهي تنقل الحطب على جيدها الذي سيتعرض للعذاب، وإلا فإذا دخلت النار فستلقى العذاب كلها.

والتأكيد على أن أبا لهب في النار وهو ما زال حياً من باب ما يعرف بالضرورة. فالقرآن يخبرنا مراراً وتكراراً عن حقيقة أن من لا يؤمن بداية سماع لدعوة الحق فلن يؤمن أبداً. لذا فأبو لهب لن يؤمن وسيموت مهما طال به العمر وهو مشرك وسيدخل النار.



قريش مستمرة بمحاولاتها صد الناس من خارج مكة عن الإسلام

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٤) لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٢٥) النحل.

بعض القادمين لمكة للقاء الرسول يتلقفهم رجال قريش، فيسأل القادمون قريشاً عن الوحي: «مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ». يجيبهم رجال قريش بأنهم مخطئون فمحمد لا يأتيه وحي وإنما يتلو قصصاً أسطورية قديمة.

بدء الهجرة «في الله»

بعد نزول سورة العنكبوت التي كانت تحث المسلمين على الهجرة: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ(٥٦).

بدأ المسلمون الهجرة ليثرب، وهو ما تؤكده سورة النحل التي نزلت بعد حوالي شهر ونصف من نزول سورة العنكبوت، وتقول: وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ(٤١) الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٤٢).

والآيات تعد المهاجرين خيراً عند ربهم، نتيجة صبرهم وهجرتهم، التي تسميها «هجرة في الله» لأنهم تركوا أوطانهم وذويهم ومتاعهم في سبيل الله، وحفاظاً على دينهم.

قريش مستمرة بصد الناس عن لقاء الرسول بالحلف لمن يريد لقاء الرسول أنه كاذب

الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ(٨٨) النحل

ومن الأساليب التي تقوم بها قريش هي إقناع القادمين بما يقولون عنه وينسبونه له بالحلف لهم بأغلظ الأيمان إنهم لصادقون: وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤) النحل.



وهذه وسيلة أخرى

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ(١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤) النحل.

أخبرتنا سور سابقة بأن قريشاً نشطت في حربها المضادة للإسلام ومحاولاتها صد غيرها من الناس للدخول فيه أو لقاء الرسول. والآيتان أعلاه تخبران أن قريشاً بدأت تستخدم وسيلة جديدة تتمثل باعتراض طريق من يصل لمكة لمقابلة الرسول وتقول لهم إن ما سيتلو عليهم محمد هو كلام علمه إياه إنسان آخر، ويذكرون لهم اسم رجل أعجمي عابر سبيل صادف تواجده في مكة في الفترة التي نزلت فيها سورة النحل. وكونه أعجمي اللسان فمن الصعب على الناس أن يسألوه هل حقاً هو من يعلم الرسول القرآن؟ فيصدق البعض مزاعم قريش.

ومثل هذه المزاعم لم تكن قريش تتهم بها الرسول طوال السنوات التي كانت الدعوة موجهة لهم فقط دون الناس. لأن أهل مكة يعرفون بعضهم ولو قال كبراؤهم إن هناك من يعلم الرسول القرآن لما صدقهم بقية أهل مكة لأنهم يعرفون الرسول، ويعرفون كل من يعيش في مكة. لكن بعد تحول الخطاب الدعوي في القرآن لكل الناس وبدء الناس الوصول لمكة للاستماع للرسول فقد كان بعض كبراء قريش يعترضون القادمين ويحاولون أن يثنوهم عن لقاء الرسول ومن ذلك أنهم استغلوا وجود رجل أعجمي في مكة فكانوا يقولون للقادمين إن محمداً ليس رسولاً لله كما يزعم ولكن هذا الرجل الأعجمي هو من يعلمه ما يسميه قرآناً. وكان من الممكن أن يصدق بعض القادمين هذا الزعم لأنهم لا يعرفون مكة ولا من يقطنها. ولأن الرجل الأعجمي قد غادر مكة فلم تعد قريش تذكره للقادمين لمكة فيما بعد، كما سنرى في سور قادمة.

وتستمر السورة لتقول إن قريشاً تفتري الكذب، لأنها لا تؤمن بكلام الله: إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلـٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٠٥) النحل.

واستمرت قريش باختلاق العبارات ونسبتها للقرآن

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلـٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٠٥) النحل.

ولعلها الوسيلة التي استخدمتها قريش أكثر من غيرها، لأن السور كررت ذكرها أكثر من



الوسائل الأخرى، لأنها الأكثر نجاعة من الوسائل الأخرى التي استخدمتها قريش على ما يبدو.

بعض المعذبين صامدون

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩٦) النحل.

والآية تحثهم على الاستمرار بالتحمل والصبر وسيلقون جزاءهم من الله نظير جهادهم في الله.

النساء أيضاً عذبن بالنار

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩٧).

هذه الآية تؤكد أن لهن الجنة كما الرجال. وذلك لأن كل السور السابقة تعد من يؤمن من الرجال بالجنة، ولم تذكر النساء. ذلك أن الدعوة موجهة لرجال قريش كونهم صناع القرار في المجتمع ولو آمنوا لآمن المجتمع كله، وليس لأنهم وحدهم من سيدخل الجنة.

مسلمة قريش مرة أخرى

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠) وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) النحل.

الآيات تُذكِّر بأن الله يأمر بالعدل والإحسان والبعد عن الفحشاء والمنكر والبغي (التعدي على الآخرين). وتتجه للمسلمين محذرة من نقض عهدهم مع الله، وهو الإسلام.

وتقول: « أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ» وأميل هنا أن الآية تشير لمسلمة قريش الذين يعتبرون أنفسهم سادة وينظرون للمستضعفين بأنهم أقل إنسانية منهم. والآية



تقول إن هذه النظرة ستخرجكم من الإسلام وستكونون كمن نقضت غزلها بعد إحكام غزله.

مجمل أوضاع المستضعفين حين نزول سورة النحل

مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(١٠٧) أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ(١٠٩) النحل.

- البعض ارتد، وهم من أشارت لهم الآيات: ١٠-١١، ٩٥. وهؤلاء لهم عذاب عظيم عند الله، لأنهم نقضوا عهدهم مع الله مقابل البقاء أحياء لفترة وجيزة.
- البعض أعلن ردته وقلبه مطمئن بالإيمان، فهؤلاء سيجزيهم الله ويحسن إليهم.

حث المعذبين على الهجرة

بعد أن قالت السورة إنه لا بأس من إعلان الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان: مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) النحل.

تحث السورة من تعرض للتعذيب وأجبر على إعلان الكفر، على الهجرة (إلى يثرب) للنجاة بالنفس والدين: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١١١) النحل.

المسلمون كانوا يتسللون خفية من مكة إلى يثرب

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧) القصص.

الآية تتحدث على لسان كبراء قريش الذين يسخرون من الرسول بقولهم لو آمنا بك



فسيكون حالنا حال من آمن معك الذين يتسللون هاربين. وهي تشير إلى أن المسلمين كانوا يتسللون خارج مكة باتجاه يثرب خفية خوفاً من بطش قريش.

وضع المسلمين في مكة عند نزول سورة الرعد

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٨) أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ(٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ(٢٦).

الناس إما مؤمنون (استجابوا لربهم) ولهم الحسنى، أو رفضوا الدعوة (لم يستجيبوا) ولهم النار.

والمسلمون بعضهم بقي مؤمناً يفي بعهد الله ولا ينقض ميثاقه (يرتدون) مهما تعرضوا للشدائد.

وهناك من نقض عهد الله ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل (تركوا أوامره وتجاوزوا نواهيه) وأفسدوا في الأرض بردتهم.

الرسول استمر يتعرض للسخرية

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ(٣٢) الرعد.

الآيات تخاطب الرسول وتقول له ما تتعرض له تعرض له رسلٌ قبلك.



الرسول يتمنى لو تلبى مطالب قريش

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ(٣٨)

كل الرسل قبل الرسول بشر لهم أزواج وذرية، ولم يكونوا ملائكة كما تطلب قريش. ولن تعطى يا محمد أي آية، لأن الآيات تأتي بإذن الله الذي لن يري قريشاً أياً منها كما أكدت سور أخرى.

والآية تشير إلى أن الرسول استمر منذ سنوات يتمنى لو أظهر آية وخوارق أو نزلت الملائكة ورأتها قريش حتى تؤمن، كما كانوا يقولون له.

لم يعد مهماً أن تؤمن قريش

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ(٢) الحج.

سورة الحج آخر سورة في مكة ونزلت وقد بدأ المسلمون يهاجرون ليثرب. والسورة تعلن أن قريش لم تعد هي المقصودة بالدعوة، بعد أن آمن بالإسلام بعض رجال القبائل، وغالبية مستضعفي يثرب، ونفر من بني إسرائيل. وبعد أن هاجر كثير من المسلمين ومن بقي في طريقه للهجرة. وبالتالي فالدعوة من الآن وصاعداً لكل الناس ولا يهم إن استمعت قريش أم لم تستمع فلم يعد قبولها أو رفضها يمثل الأهمية للإسلام.

وهذه نقلة نوعية في الخطاب الدعوي.

استمرت قريش تجادل الرسول لدحض الحق

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ(٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ(٤) الحج.

لقد استمر رجال قريش يجادلون الرسول لكي يدحضوا الحق وليعطوا صورة مشوشة للإسلام لمن يحاول الاتصال بالرسول.



منع المسلمين من دخول المسجد الحرام

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥) الحج.

هذه الواقعة حدثت بعد نزول سورة الرعد السابقة، لأنها لم تذكرها. وتمثل تطوراً آخر لتضييق قريش على المسلمين بعد تعذيب مستضعفيهم.

وكيف تتجرأ قريش على منع الناس من البيت الحرام الذي جعل للناس كافة منذ القدم، وليس ملكاً لقريش. وإن كان الله قد كلف إبراهيم وإسماعيل – أجداد قريش – بخدمة الحجاج والقيام على البيت فهذا لا يعني أنه أعطاهم الحق ببسط سيطرتهم على مكة. لأن مكة لا يجب أن يحكمها بشر، ولا يجب أن تدخل تحت سيطرة أحد. هي بلد حرام وبيت الله آمن لمن فيه. ولكل الناس الحق بزيارته وتعبد الله فيه. وقريش احترمت هذا الميثاق، ولهذا كانت مكة بلا حاكم. ولم يكن أحد من قريش يزعم أنه حاكم لها. فهي الدولة (المدينة) الوحيدة في العالم في ذلك الوقت التي ليس لها حاكم.

المسلمون كانوا يعاونون الرسول بالدعوة

تقول سورة الحج: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٢).

ذكرت الآية (٣٣) من سورة فصلت أن من أحسن الأعمال هي الدعوة إلى الله. وما عدا ذلك فلم يذكر القرآن أن المسلمين كانوا يعاونون الرسول في الدعوة، قبل هذه الآية التي تخبرنا أنه كان من المعتاد انتشار المسلمين في مكة للدعوة وذلك بتلاوة القرآن على الناس تماماً كما يفعل عليه الصلاة والسلام.

وقوله: « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا». تصوير لمشاعر الغيظ والحنق التي يشعر بها كبراء قريش عند سماع الدعوة، وكأنه تكرار لنفس المشاعر التي سبق وأخبرت بها سورة القلم حينما ذكرت ما يشعر به رجال قريش عندما يتلو عليهم الرسول القرآن: وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ



بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١).

وبهذا انتهى العصر المكي.

تلخيصٌ لبعض الأساليب التي جربتها قريش لحرب دعوة الرسول

في بداية الدعوة اتهموه

مرة بالجنون: وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) التكوير.

وبتهم أخرى

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) الحاقة.

ثم سخروا منه

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) ق.

ثم حاولوا التوصل معه إلى اتفاق

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ن والقلم.

ثم فكروا بقتله

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢) الطور.

ولما تغير الخطاب الدعوي لكل الناس وبدأ الناس يحضرون لمكة لرؤية الرسول

بدأوا يجادلون الرسول ليدحضوا الحق

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١٦) الشورى.

ثم حاولوا استمالته

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ



الْمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥) بني إسرائيل.

ولما يئسوا من استمالته سعوا لطرده

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً(٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) بني إسرائيل.

ثم عادوا لاتهامه

مرة أن القرآن وحي شياطين

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢) الشعراء.

ومرة يقولون إن الرسول تعلم القرآن من كتب

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١٠٥) الأنعام.

ثم حاولوا أن يوقعوا بينه وبين من أسلم من المستضعفين

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

ثم بدأوا يختلقون عبارات منفرة وسيئة ويسمعونها للناس الذين يقدمون لمكة لمقابلة الرسول على أنها من القرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِّ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٦٨) العنكبوت.

وإذا سألهم الناس القادمون لمكة عن الرسول قالوا إنه يجمع قصصاً خرافية قديمة ويقول هي وحي

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٤) لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٢٥) النحل.



وأحياناً يحلفون للقادمين لرؤية الرسول أنه كاذب

وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤) النحل.

ولم تترك قريش وسيلة للصد عن الإسلام إلا وجربتها.

وبهذا نكون قد أتينا على ختام الأحداث التي صاحبت الدعوة في مكة.



أحداث مراحل الدعوة في المدينة

عندما وصل الرسول وصاحبه أبو بكر ليثرب كانت الغالبية العظمى من المسلمين قد سبقتهم إلى هناك، وبقي قلة في مكة. بعضهم التحق بركب المهاجرين فيما بعد، والبعض الآخر بقي في مكة ولم يهاجر أبداً: إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) براءة.

وقد أوجدت الهجرة بيئة مختلفة لكل من المهاجرين من مكة، ولأهل يثرب. من الأنصار المسلمين، ومن بقية أهل يثرب غير المسلمين على حد سواء. فنتج عن ذلك أحداث ومواقف بعضها له علاقة بما اعتاد الناس من سلوك، وبعضها فرضه وجود المهاجرين، وبعضها فرضه قيام دولة إسلامية في مواطن بني إسرائيل، إضافة لاستمرار قريش بملاحقة المسلمين وحربهم. فنزلت الآيات المدنية تعالج هذه المشاكل التي صاحبت الهجرة أو ظهرت بسببها، والظروف التي تولدت منها.

هجرة الرسول وصاحبه

إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) براءة.

القرآن لم يورد تفاصيل هجرة الرسول ولكن آية سورة براءة أعلاه ذكرت الرسول وهو في الغار يحاول أن يطمئن صاحبه أبا بكر بعدما غلبه القلق من أن تعثر عليهما قريش وتقتلهما، أثناء هجرتهما ليثرب. وقريش لم تقتل الرسول طوال دعوته في مكة التي امتدت لسنوات،



لأنهم احترموا حرمة البيت، الذي لا يضام ساكنه. ولهذا لم يتعرض أي مسلم ينتسب لقريش لأي عنف جسدي من كبراء قريش الذين صبوا جام غضبهم على المستضعفين وأوقعوا بهم أشد أنواع التعذيب بما في ذلك الكي والحرق بالنار. وجرأتهم على المستضعفين كونهم موالي وعبيداً ينظر لهم الكبراء كسقط المتاع والملكية الشخصية التي يتصرف بها صاحبها كيفما يشاء، وهذه النظرة المقبولة اجتماعياً في حينها أشعرت الكبراء أن تعديهم على عبيدهم ومواليهم لا يعتبر تعدياً على حرمة مكة التي حافظوا عليها منذ عصر جدهم إبراهيم. لذا لم يتعرض كبراء قريش لأي نوع من النقد من قبائل جزيرة العرب، الذين يشاركون قريشاً نظرتهم الاجتماعية للعبيد.

وما إن بدأ المسلمون يتسللون من مكة مهاجرين إلى المدينة زرافات ووحداناً حتى كثفت قريش من مراقبتها للرسول لكي يلحقوا به عند خروجه من مكة ويقتلوه. ولهذا السبب – الذي كان الرسول على علم به – اتفق مع أبي بكر للتسلل من مكة خفية وبسرية تامة، وكان لابد أن يسلكوا طريقاً غر معتاد لتضليل من قد يلحق بهم. وما تقوله كتب التراث أن الرسول قد طلب من علي ابن ابي طالب أن ينام في فراشه ليوهم رجال قريش على أنه هو بينما يكون قد ابتعد خارج مكة ليس صحيحاً، ولكنه مجرد تلميع لصورة علي وإضافة فضيلة له لم يقم بها. لأن كتب التراث تقول بأن قريشاً كانت تنتظر الصباح لتقتل الرسول. ولو قررت قريش قتل الرسول في مكة لقتلته، دون الحاجة لانتظاره حتى يستيقظ ويتناول طعام الإفطار، لأن من يريد أن يقتل لا يهمه إزعاج الضحية.

ولعل ما حدث هو أنه في الأيام التي سبقت خروج الرسول من مكة مهاجراً، كانت الغالبية من المسلمين في مكة قد هاجروا بالفعل ولم يبق إلا نفر قليل بعضهم لم يهاجر أبداً. وبالتالي فقد كانت قريش تتوقع أن يتسلل رسول الله من مكة في أي لحظة، فشددت مراقبتها لتحركاته واللحاق به متى خرج من مكة وقتله. لذا اتفق الرسول وصاحبه أبو بكر على أن يتسللا من مكة خفية وعندما تغفل العين ويستغرق رجال قريش في النوم.

وهذا القرار اتخذه الرسول مستفيداً مما كان يتلو من القرآن على قريش عن أخبار بعض الأمم السابقة، والتي هلكت. فقد كانت الرسل تؤمر بالخروج من القرية مع من آمن في الليل، عادة، ومن ذلك أمر رسول الله لوط: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ



وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(٦٥) الحجر.

ومثله أمر موسى بالخروج ببني إسرائيل من قرية مصر فرعون: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى (٧٧) طه.

فما كان من الرسول وصاحبه إلا أن اتفقا على التسلل لخارج مكة «بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ». وكتب التراث تقول بأنهما لجئا إلى غار ثور والذي يقع جنوب مكة ويبعد عنها بحوالي سبعة كيلومترات عبر طرق جبلية وعرة يستغرق قطعها للماشي في ذلك الوقت حوالي ساعتين إلى ثلاث ساعات. وقد يكون بالفعل هذا ما حدث، ووصل الرسول وصاحبه للغار قبل بزوغ الفجر واكتشاف قريش هربهما.

أما ما قيل عن تفاصيل هجرة الرسول في كتب التراث فلا يمكن الثقة به، ومن ذلك أن الرسول وأبا بكر (صاحبه) كان معهما عامر ابن فهيرة (مولى أبي بكر) ودليل اسمه ابن أرقط أو أريقط، وهذا عدد يحولهم لعصبة لا يتناسب مع حاجة الرسول للتخفي وسرعة التنقل لكي يفلت من ملاحقة قريش.

ولا يستبعد أن يكون الرسول وأبو بكر مكثا بالفعل في غار ثور ثلاثة أيام ثم توجها منه بمعية دليل دون حاجة لاصطحاب مولى أبي بكر لخدمتهما. ويحتمل أن يكون الدليل من أهل يثرب وليس من أهل مكة لما يلي:

- أن قريشاً قد رصدت لمن يدل على الرسول أو يحضره حياً أو ميتاً مكافأة ضخمة قوامها (١٠٠) من الإبل، يسيل لها لعاب رجل فقير كابن أريقط المشرك.
- أن ابن أريقط لو افترض أنه زهد بالمكافأة أو أنه لم يكن هناك مكافأة، وأراد أن يصحب الرسول وأبا بكر كدليل إلى يثرب للفرار من قريش، فسوف يلقى العنت من قريش وقد تتعرض حياته للخطر، كونه عاون المطلوب رقم واحد على الهرب. وهي جريمة تعتبر خيانة عظمى لا يمكن لمشرك من مشركي مكة أن يغامر بحياته من أجل خدمة رجل لا يؤمن بما يقول. وابن أريقط هذا لم يتعرض لأي أذى من قريش ولا حتى مجرد التوبيخ. مما يضع ألف علامة استفهام حول حقيقة شخصيته أو ما نسب له أنه قام به للرسول.
- أن هجرة المسلمين والرسول ليثرب لم تكن ممكنة لو لم يوجه أهل يثرب المسلمون



الدعوة للرسول وللمسلمين ليهاجروا إليهم ويعيشوا بينهم. وأهل يثرب هم من قام ببناء مسجد الرسول وحجرته قبل قدومه وكانوا يعلمون متى سيقدم، مما يعني أنهم هم من اتفق مع الرسول وأبي بكر على خطة الهرب من مكة، وكانوا على اطلاع من أن قريشاً تتمنى أن تجد الرسول خارج الحرم لتقتله. وبالتالي لن يقولوا للرسول تعال ليثرب وسنحميك، تاركين إياه عرضة للخطر طوال الطريق دون تقديم العون وحمايته منذ خروجه من مكة. وحمايته تبدأ بتأمين وصوله من مكة ليثرب، وذلك بوضع خطة تخفٍ وسلوك طريق لا يطرق عادة يوصل ليثرب. وهو ما قام به رجل من يثرب مؤمن برسالة رسول الله، ولن يخونه أو يسلمه لقريش طمعاً في مكافأة دنيوية وهو يؤمن بمكافأة أكبر عند الله.

وبالتالي فإن كان صحب الرسول أي دليل فلن يكون ابن أريقط المكي المشرك، ولكن سيكون مسلماً من يثرب. وقد تكون الخطة تضمنت خروج الرسول وصاحبه من مكة ليلاً والبقاء في غار ثور لثلاث ليال أو أكثر أو أقل، ثم السير مع الدليل باتجاه الشمال الشرقي سالكين الطريق التي تصل مكة بالعراق باتجاه الشرق حتى تجاوزوا جبال السروات واستقبلوا نجداً. ثم اتجهوا شمالاً بمحاذاة المرتفعات الجبلية عبر الطريق التي تسمى «الطريق النجدية». ومنها انحرفوا نحو الغرب حتى وصلوا لقباء ومنها إلى المدينة (مسجد الرسول). وهذه الطريق بعيدة عن الطريقين المعروفين المتجهين من مكة إلى الشام والمارين بالقرب من يثرب، أحدهما يمر بالقرب من ساحل البحر الأحمر والآخر يسلك طريقاً محاذياً من جهة الشرق وبين الجبال. وكلا الطريقين وما بينهما سيكونان عرضة لعيون قريش التي تلاحق الرسول. أما تلك الطريق التي سلكها الرسول وصاحبه ودليلهما «اليثربي» فمن المستبعد جدا أن تفكر قريش أنهما سلكاها.

وفي النهاية فقد وصل الرسول وصاحبه سالمين ليثرب واستقبلا من قبل المسلمين من المهاجرين ومن الأنصار (الذين يتكونون من نفر من بني إسرائيل وغالبية الأوس والخزرج). وكان المسجد قد بني وبنيت حجرة ملاصقة له كبيت للرسول الذي كان أعزب منذ وفاة زوجته خديجة.

ولا صحة – كالعادة – لأقوال كتب التراث، ومنها أن الرسول هو من اختار مكان إقامته،



لعدة أسباب، أهمها:

- أن الأعراف السائدة حينها تحتم أن يكون المستجير بحكم المجير، وليس بإمكانه أن يقدم لأرض أناس أجاروه ويختار مكان إقامته.
- أن النفر من بني إسرائيل الذين سبقوا للإسلام ونشروا الدعوة في يثرب هم من تبنى فكرة استضافة الرسول ومسلمي مكة وهم من دعاهم وليس الأوس والخزرج. لأن بني إسرائيل يمثلون طبقة الكبراء والسادة في يثرب ولهم تعود القرارات الاستراتيجية. ولو كانت فكرة استضافة الرسول ومسلمي مكة خرجت من الأوس والخزرج فلن يقبل بها بنو إسرائيل وبقية أهل الكتاب — الذين لم يسلموا — كونها فكرة من مستضعفين للسادة. والسادة لا يستمعون للمستضعفين، كما أن المستضعفين لا يستطيعون اقتراح أي قرار على السادة.
- وإن كان أهل يثرب هم من دعا الرسول والمسلمين فمن البديهي أن يقوموا باختيار مكان إقامتهم قبل قدومهم ويقوموا ببناء مسجد للرسول ومكان لإقامته كوسيلة للتعبير عن الترحيب به. فمن الصعب تصور أن يدعى الرسول للقدوم إلى يثرب وعندما يصل لا يجد من ينتظره ولا من يؤويه، وعليه أن يتدبر أمر ذلك سواء بشراء أرض كانت معاطن للإبل ومبركها، أو بنبش قبور المشركين وهدم الخرائب وتقطيع النخل، كما تزعم كتب التراث التي تصور الرسول بهذه الصور المشينة للنيل منه وليس لرواية حقيقة ما حدث والتي لا يعرفونها.
- ولابد أن موافقة أهل الكتاب - غير المسلمين - على قدوم المهاجرين مشروطة بأن تكون منازلهم بعيدة عن مزارعهم ومكان إقاماتهم. ولهذا تم اختيار مكان إقامة المهاجرين شرق جبل سلع البعيد وفي شمال غرب أرض يثرب فيما تقع مزارع أهل الكتاب في أقصى الجنوب.

ولابد أن الرسول عندما وصل يثرب كان كل من سبقه من المهاجرين قد استقروا في المنطقة التي بني فيها مسجد رسول الله وحجرته. وكانت بالقرب من سوق أسبوعي يقام كل جمعة. والسوق يسمى «المدينة» عند بني إسرائيل منذ أن كانوا في مصر فرعون. ويكون داخل أسوار وله أبواب. وقد غلب اسم المدينة على كل المنطقة التي تحوي مسجد الرسول



ومساكن المهاجرين، وفي عصور تالية غلب الاسم على كل يثرب[1].

وما إن استقر رسول الله في يثرب وفي حجرته المجاورة لمسجده، حتى بدأت الأحداث تتوالى:

1 انظر فقرة: المدينة/ قسم أماكن وشخصيات.



المرحلة الأولى للدعوة في المدينة
مرحلة التوطن والاستقرار

ما إن حط الرسول الرحال في المدينة حتى توالت الأحداث المصاحبة لوصوله. بعضها لها علاقة بوصوله، كمن جاء يسأله عن مسائل دينية وهناك من قدم للسلام ظناً منهم أنه سيحصل منه على منافع دنيوية ونحو ذلك. وهناك أحداث حدثت في هذه الأيام في المجتمع المسلم، كإبقاء مسلمة قريش علاقاتهم الودية والموالاة لمشركي قريش، ومثل ترك الصلاة مع الرسول ونحو ذلك.

وقد نزل في هذه المرحلة أربع سور، هي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، والجمعة. وكلها سور تخلو من الخطاب الدعوي أو التشريعي، وإنما هي سور تفاعلية، تتفاعل مع الأحداث التي جرت وتعطي التوصيات والتوجيه لما يجب حيالها. كما يلي:

استمرار موالاة مسلمة قريش للمشركين بعد الهجرة

برغم أن عدة سور مكية قد حذرت مسلمة قريش من استمرار موالاتهم لأقاربهم مشركي قريش، ومنها سور: بني إسرائيل وهود والعنكبوت والنحل. وبرغم هجرتهم ليثرب مع المسلمين، إلا أنهم أبقوا على موالاتهم ومودتهم لمشركي قريش وهم في المهجر. فنزلت أول سورة في المدينة لتبدأ أول آياتها بتكرار تحذيرهم من الإبقاء على صلة المودة والولاء مع المشركين. كأول حدث وقع للمسلمين في يثرب يخبرنا به القرآن، وتتحدث عنه الآيات: (١-٩، ١٣) من سورة الممتحنة. وتبدأ السورة بتكرار تحذير «مسلمة مكة» من الإبقاء على صلة المودة مع مشركي قريش، التي كررتها سور مكية سابقة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ.... .



لأن قريشاً حاربت الإسلام وأخرجت المسلمين والرسول من مكة: ... يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ....

فكانت هجرتهم طلباً لمرضاة الله وهرباً من اضطهاد قريش، فكيف يتعاطف بعض المسلمين مع من يحارب الله ودينه، إن كانوا مؤمنين حقاً: ... أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي...(١).

والآية تضع علامة استفهام لهجرة مسلمة قريش، وهل كانت بالفعل إيماناً بالله وجهاداً في سبيله، أم لمآرب أخرى. ولعل ما سيصدر منهم في قادم الأيام سيثبت أنهم هاجروا بالفعل لمآرب أخرى تأذى منها المسلمون والإسلام طوال عصر الرسول وبعد وفاته.

ولأن «مسلمة قريش» يشعرون في قرارة أنفسهم أن موالاة أعداء الإسلام خيانة، فقد كانوا يوالونهم في الخفاء: ... تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١)

وكبراء قريش لو تمكنوا من المسلمين لقذفوهم بشتى أنواع الشتائم، واعتدوا عليهم جسدياً، وأعادوهم للكفر إن استطاعوا: إِن يَثْقَفُوكُمْ يكونوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢).

وحجة «مسلمة قريش» في موالاتهم كفار قريش، أنه تربطهم بهم صلات قربى ونسب. وتناسوا أن الكفر يلغي قرابة النسب، لأن مصير الكافر يوم القيامة سيكون مختلفاً. فهم ليسوا من المؤمنين وليس المؤمنون منهم، مثلما أن ابن نوح الكافر ليس من أهل نوح ولم يعد ابنا له. وعلاقات القربى تنظيم أسري في الدنيا، لكنها لا تعني أن الابن جزء من والده. فكل إنسان روح منفصلة ومستقلة عن غيرها، ولن يكون هناك صلة قربى بين الناس يوم القيامة، لانتفاء الحاجة لها: لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣).

وكان يجب على «مسلمة قريش» إن كانوا مسلمين أن يتأسوا بإبراهيم ومن آمن معه الذين تبرءوا من قومهم وأقاربهم لأنهم استمروا على الكفر وأعلنوا حربهم على دين الله، ومن آمن: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ



وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٦).

إبراهيم لم يكن معه سوى لوط، عندما خرج من قريته، ولما وصل مكة تزوج وأصبح له عائلة، هم الذين معه.

وإبراهيم وإن دعا لوالده بالهداية إلا أنه لما تبين له أنه عدو لله ولدينه تبرأ منه: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ(١١٤) براءة.

ولو أن كفار قريش لم يحاربوا دين الله والمؤمنين، وقبلوا التعايش معهم بسلام، ولكل فريق دينه، فلن ينهاهم الله عن مودتهم والتقرب إليهم. لأن المسلم مأمور بالتعامل مع الناس بكل إنسانية إذا قبلوا التعايش معه بغض النظر عن المعتقد، ولم يحاربوا الإسلام أو يضيقوا على المسلمين: عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩).

فالنهي الصريح عن موالاة الكفار موجه للمعادين للإسلام، المنكرين للبعث، والذين غضب الله عليهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(١٣).

وصول مجموعة من نساء مكة مهاجرات ليثرب

المسلمون في مكة بدأوا الهجرة ليثرب قبل رسول الله واستمر تقاطر المهاجرين من مكة حتى بعد هجرته عليه الصلاة والسلام. وكان ممن لحق به، مجموعة من النساء، بعضهن أو جميعهن فارقن أزواجهن الكفار في مكة. ويبدو أن المسلمين ترددوا في قبولهن بينهم،



فنزلت الآيات تأمرهم بإخضاعهن لامتحان يكشف إن كن بالفعل مسلمات أو راغبات في الدخول في الإسلام. وهذا الامتحان فرضته الظروف القائمة في تلك الفترة، حيث أن المسلمين للتو وصلوا يثرب وكونوا مجتمعهم المسلم مع إخوانهم ممن أسلم من بني إسرائيل ومن الأوس والخزرج، إلا أن قريشاً لم تكف عن ملاحقة المسلمين ومحاولة القضاء على الإسلام. لذا كان هناك احتمال أن ترسل قريش بعض النساء ممن يتظاهرن بالإسلام، للتجسس على أحوال المسلمين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠) الممتحنة.

وبعد الامتحان، فكل امرأة مسلمة بالفعل أو لديها الرغبة الصادقة بالدخول في الإسلام، يجب قبولها في المجتمع المسلم ولا يجوز بأي حال من الأحوال إعادتها للكفار.

وإن كان بعضهن متزوجات بكفار من قريش، فيجب على المسلمين القيام بما يلي:

- يفسخ عقد النكاح، لأنها تحرم على زوجها الكافر، ويحرم عليها.

وبناءً على عدل الإسلام، فإذا فسخ النكاح، فيعاد للزوج الكافر ما دفعه للمرأة كصداق. ويتم تأمين المال عن طريق الإنفاق، أو من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق. وتصبح المرأة مطلقة ويمكنها الزواج بأي مسلم تختاره.

- كما أمر الرجال المسلمون بتطليق زوجاتهم القرشيات الكافرات، وإلحاقهن بأهلهن، ولا يجوز للمسلم أن يبقي على زوجه الكافر: « وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ».

وإذا ما سرح المسلم زوجته الكافر، فله الحق بالمطالبة باسترداد ما دفعه لها من صداق، كما للزوج الكافر الحق باسترداد صداقه: « وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠)».

- في حال سرح رجل مسلم زوجته الكافر، ولم تعد له زوجته أو أهلها صداقه، فعلى المسلمين أن يعوضوه بقيمة مماثلة، من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ



مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(١١)

والمهاجرات الجدد يلزمهن المبايعة للدخول في الإسلام. والمبايعة لا تعني نطق الشهادتين في جو احتفالي وتكبير وعرض مسرحي، كما يحدث الآن فيما يسمى بالهيئات الدعوية، ولكنها تتمثل بقطع العهد على النفس أمام الله أنها لا تشرك بالله شيئاً (كاتباع تشريعات غير تشريعاته سبحانه) ولا تسرق، ولا تزني، ولا تقتل أولادها، ولا تكذب، ولا تعص الرسول في كل معروف: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢).

وهذا لا يعني أنه يمكن للمسلمة الجديدة أو المسلم ألا يتبع بقية أوامر القرآن وينتهي عن نواهيه الأخرى. لكنه يعني أن من يريد الدخول في الإسلام فليعلم أنه عهد وميثاق بينه وبين الله، يتم بموجبه التزام العبد باتباع كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه، مقابل وعد من الله له بالجنة في الآخرة والعزة في الدنيا.

وفود من الأعراب حضرت للقاء الرسول

ما إن تسامع الأعراب حول يثرب بأن رسول الله وصل من مكة، حتى تقاطرت مجموعات منهم لرؤيته وإعلان الولاء أملاً في العطايا. وقد أظهروا سلوكيات فجة، فكانوا يتدافعون في المجلس بطريقة بعيدة عن التهذيب، ويتسابقون على أماكن الجلوس، ويجلسون بأي طريقة أو هيئة ممكنة. ويتحدثون بأصوات جهورية عالية، وبشكل جماعي — وما زال هذا السلوك يمارس من قبل الكثير من سكان جزيرة العرب — لدرجة أن المجلس الغاص بالناس يبدو وكأن من فيه يتحدثون جميعاً في وقت واحد، ولا أحد يستمع لما يقال. وهو ما كان يصدر من الأعراب، لدرجة أن أصواتهم تعج بالمكان وتطغى على صوت الرسول الذي كان يحاول التحدث إليهم:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ



أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣) الحجرات.

وقوله: «لا تقدموا بين يدي الله ورسوله» لا تستبقوا الحديث والرسول يتلو القرآن، ولا وهو يحاول التحدث إليكم. وعندما يتحدث رسول الله فلا تقاطعوه، ولا ترفعوا أصواتكم في الحديث فوق صوت الرسول. وعندما تتحدثون إليه فليكن بلطف وهدوء وليس كما اعتدتم الحديث فيما بينكم بأصوات عالية وتداخل في الحديث. وتصف الآيات من يغض صوته عند الرسول بمن عرف التقوى. والمخاطبة بلطف وتأدب وعدم تداخل المتحدثين ليست واجبة فقط للرسول ولكنها من آداب المجلس التي يجب أن يتحلى بها المؤمن التقي.

كما أظهرت تلك الجموع عدم مراعاة الخصوصيات الشخصية، والقيام بإزعاج الآخرين في أوقات غير مناسبة. ذلك أنه إذا قدم أحدهم ولم يجد الرسول، فإنه يتوجه لبيته ويناديه بصوت عالٍ أجش، دون مراعاة لخصوصية الرسول أو حريته الشخصية، ودون أن يكلف نفسه قرع الباب بهدوء فإن أجيب وإلا انصرف، بل كانوا يصرخون منادين بأصوات عالية في أوقات الراحة والنوم.

وهو تصرف ما زال حياً بيننا.

فمن غير المستهجن أن يتوقف صاحب الحاجة بسيارته أمام بيت صاحبه ويطلق مزمار سيارته بكل قوة لكي ينبه من في البيت أن هناك شخصاً في الخارج يريد التحدث إليهم، دون مراعاة لما يسببه من إزعاج لأهل البيت والبيوت المجاورة والمارة. وتصرفات أخرى لا حصر لها سيتذكرها القارئ أثناء قراءة هذه الأسطر.

والرسول كان يجلس معظم الوقت مع الناس، ولا يدخل بيته إلا في أوقات الأكل والشرب والراحة، والنوم. وهذه الآيات تتحدث عن أن الرسول فوجئ بهذه التصرفات الرعناء، التي نزلت الآيات لتهذيبها:

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) الحجرات.

وهذه التصرفات لا يمكن أن تكون صدرت من المهاجرين، لأنهم والرسول جاؤا من بيئة واحدة، وبما أن الرسول أزعجته تلك التصرفات فلابد أنه لم يعهدها في مكة ولا من المهاجرين. كما أن تلك التصرفات لا يمكن أن تصدر من الأنصار وأهل يثرب، لأنهم



بكل تأكيد كانوا أول من قابل الرسول عندما قدم مهاجراً، ولو كانت تلك التصرفات صدرت منهم فستتحدث عنها أول سورة نزلت في المدينة. ويكون من صدرت منهم تلك التصرفات الخشنة والبعيدة عن التهذيب أناس قدموا بعد فترة من وصول الرسول، وبالتالي هم من خارج يثرب، ويمتازون بالخشونة وهذه الصفات تنطبق على الأعراب، وهو ما ستؤكده الآيات في آخر السورة.

والآيات تحاول تهذيب سلوك أولئك الأقوام وتعطيهم بعض الدروس في آداب الجلوس والحديث.

ثم تعود آخر آيات السورة لاستكمال الحديث عن تلك الجموع من الأعراب: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨).

جموع الأعراب تلك وفدت على الرسول حال سماعهم أنه وصل يثرب، ظناً منهم أنه يحمل المتاع والمال، لعله يصيبهم شيء منها. وقدموا أنفسهم على أنهم مؤمنون، برغم أن الإيمان لم يدخل قلوبهم في ذلك الوقت، ولم يدخل الإيمان قلوب كثير منهم فيما بعد ولا في آخر أيام رسول الله، كما سيخبر القرآن في سور قادمة.

والذين قدموا على الرسول كانوا يرددون على مسامعه أنهم مؤمنون برسالته بطريقة مُلِحَّةٌ ظناً منهم أنها ستجعله يغدق عليهم الهبات. فنزلت الآيات تقول لهم إن أمرهم يعلمه الله، وإن إعلانهم الإسلام بألسنتهم، لا يعني أنهم بالفعل يؤمنون به: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤).

وأولئك الأعراب كانوا يكررون على مسامع الرسول دون كلل، تذكيره بأنهم دخلوا في الإسلام، لتوصيل فكرة أن لهم على الرسول معروفاً ومنّة، بسبب دخولهم الإسلام، وأن



عليه أن يدفع لهم مقابل ذلك. وإسلامهم ليس منة على محمد، ولكنه منةٌ من الله عليهم أن اهتدوا للإيمان، لو كانوا بالفعل يؤمنون بالإسلام: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨).

وتبين لهم الآيات أن الإيمان لا يكون بإعلان المرء نفسه مؤمناً، ولكن يحتاج للاعتقاد الصادق بوحدانية الله والإيمان باليوم الآخر إضافة للأعمال الصالحة المطلوبة في تلك الفترة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦).

والآيات تبين بعض طبائع الأعراب، المتمثلة بالتذكير بأي فعل قاموا به على أنه منة ومعروف للشخص المقابل، ولو لم يكن كذلك. كنوع من الابتزاز، لكي يتسنى لهم طلب مقابل مادي أو معنوي عنه. لأن المقابل المادي هو مقياس الولاء عندهم، دون أي اعتبار للمبادئ، وهو ما تؤكده سورة المجادلة التي تلت في النزول هذه السورة، والتي تقول بأن الأعراب إذا حضروا مجلس الرسول كانوا يتسابقون على احتلال الأماكن قبل غيرهم بشكل أرعن، ويجلسون بطريقة فوضوية، تحرم غيرهم من إيجاد مكان للجلوس. إضافة إلى أنهم كانوا يطيلون الجلوس بعد إعلان انتهاء الاجتماع وفض الجلسة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١) المجادلة.

والأعراب لا يعرفون اللباقة والتصرف المهذب، ولذا فهم يحضرون لمجلس الرسول دون أن يحضروا معهم ما يمكن أكله – والذي سمته السورة صدقة – لأن الصدقة تأتي بمعنى الهبة.

ولو كانوا يحرصون على اللباقة والتهذيب في السلوك لفكروا بإحضار ما يؤكل لأن مجلس الرسول دائماً عامر بالناس، وهو للتو وصل من مكة، ولا يملك ما يقدمه للحاضرين. ولو أن كل من حضر من الأعراب ومن غيرهم أحضر معه قليلاً من الطعام لتوفرت كميات كافية لكل الحضور.



وبما أن الأعراب يفتقرون للسلوك الحضاري فلن يفطنوا لتقديم ما تفرضه عليهم اللباقة، والله لن يوجبه عليهم.

اقتتال بين مسلمة قريش والمستضعفين

في هذه الفترة المبكرة من العصر المدني، ولم يمض على وصول الرسول ليثرب سوى أيام أو أسابيع، سعى أحد الأشخاص بوشاية بين مجموعتين عرقيتين من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨) الحجرات.

وتبين الآيات كيف يتم حسم مثل هذه المواقف: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠) الحجرات.

ونستطيع القول بأن النزاع كان بين «مسلمة قريش» والمستضعفين، وهو عبارة عن تجدد للنزاعات القديمة بينهما التي حدثت مراراً في مكة قبل الهجرة، وذكرته سور مكية مررنا بها، كما في سورة بني إسرائيل: (الآية:٥٣) وسورة النحل: (الآية: ٩١) وغيرها. وما يؤكد هذا الاحتمال هو الآيات التالية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) الحجرات.

إذاً، الوشاية كان لها علاقة بالتفاخر بالأنساب، لأن الآيات تُذكّر المتقاتلين أن انتسابهم لقبيلة معينة لا يعني أنهم خير من أفراد الفريق الآخر، الذي يبدو أنه ليس لهم نسب قبلي:



يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣). فالكريم عند الله ليس سليل النسب كقريش، بل التقي ولو لم يكن له قبيلة (المقصود العبيد والموالي). والتأكيد على أن النسب أو اللون ليس هو المعيار الذي يقسم الناس إلى كريم ولئيم، ولكن التقوى. والكريم هنا من الكرامة وليس من البذل والعطاء، لأن مسلمة قريش تفاخروا بنبل نسبهم وكرمه ووصفوا الفريق المقابل بأنهم عبيد وموالي أذلاء.

ولا عبرة لما ذكر في كتب السير والتاريخ التي كتبت بإشراف قريش والتي تقول بأن يهودياً قد ذكر واقعة حدثت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، فبدأ كل فريق يعيب على الفريق الآخر، وتطور الوضع للاشتباك ودُقت طبول الحرب بينهما. إذ لو كان الاقتتال بين الأوس والخزرج، فلن يكون السبب هو تفاخر فريق على آخر بالنسب، لأنهم ينتمون لقبيلة واحدة هي الأزد. وبالتالي يمكننا القول بأن «مسلمة قريش» والمسلمين من عبيد وموالي قريش قد تكررت بينهم الشحناء التي بدأت في مكة. وتبادل الفريقان الشتائم والتنابز بالألقاب، ثم تطور الوضع للاقتتال، بسبب نقل شخص لأحد الفريقين كلاماً قاله عنهم الفريق الآخر.

والاقتتال لم يقتصر على الرجال بل اشتركت فيه النساء من الفريقين، كما تبادلن الشتائم والسخرية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١).

وتختم السورة الحديث عما حصل بالنهي عن نقل الوشاية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢).

وقد نجم عن الاقتتال خسائر في الأرواح، فجاءت سورة البقرة التي نزلت فيها بعد تبين كيفية ودي القتلى بعدما تمت تهدئة الوضع، وذلك كما يلي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧٩).



ولو تمعنا في الآية لوجدنا أنها لا تتحدث عن قتل شخص لآخر عمداً أو خطأً، ولكنها تتحدث عن ودي القتلى الذين سقطوا في الاقتتال الذي ذكرته الآيات أعلاه من سورة الحجرات. ويبدو أنه لم يتم التوصل لاتفاق بين الفريقين في ودي قتلاهم، فنزل القرآن ليقول بإحصاء قتلى كل فريق وتصنيف القتلى: كم رجلاً حراً؟ وكم عبداً؟ وكم امرأة حرة؟ وكم أمه؟ ويقابل كل قتيل بمثيله: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. ولابد أن هناك فريقاً قتل منه أكثر مما قتل من الفريق الآخر، والقتلى الزائدون لن يكون لهم قتلى يقابلون بهم، فتدفع لهم دية. ولو تنازل الفريق الذي سيحصل على الدية لقتلاه فهو خير له.

وبما أن الاقتتال حدث للمرة الأولى فإن الله غفور رحيم، لكن لو تجدد القتال بين الفريقين أو بين أي فريقين من المسلمين فهو عدوان توعد الله من يصدر منه بالعذاب الأليم: « فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». ولن تقبل له توبة لأنه أقدم على كبيرة يعلم مسبقاً أن من يقدم عليها فهو في النار.

وبما أن هناك قتلى أحراراً وعبيداً فهذا يعني أن المستضعفين يتكونون من عبيد ومعهم بعض الضعفاء الأحرار، الذين هبوا لمعاونتهم. كما أن من ضمن قتلى فريق مسلمة قريش بعض عبيدهم. ويكون الاقتتال اشترك فيه مسلمة قريش الأحرار ومعهم بعض عبيدهم ضد المستضعفين من المهاجرين الذين يتكونون من عبيد وموالي سابقين وضعفاء أحرار وقد يكون ساعدهم بعض المسلمين الأحرار الذين ينتمون لقريش أو لغيرها.

وتعود سورة البقرة لتأكيد وجوب الدخول في السلم لكل فئات المجتمع المسلم ونبذ النزاعات العصبية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢١١) البقرة.

والآيات تحذر كل من يعود للعصبية والمشاحنات.

المؤسف هو أن العرب، وخاصة أهل جزيرة العرب الآن قد استعرت بينهم العصبيات القبلية أشد مما كان عليه الحال في الجاهلية، وإن جاء بتشجيع سياسي مبطن.



امرأة تشتكي زوجها للرسول لمظاهرته لها

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهَّ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَّ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَّ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهَّ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤) المجادلة.

الظهار عادة جاهلية يقوم فيها الزوج بإهمال زوجته وإسقاط حقوقها بقوله: «أنت علي كظهر أمي». وليس للزوجة حق المطالبة بحقوقها أو الطلاق، كما أن مدة الظهار ليست محددة ويعود تقديرها للزوج.

وفي الأيام الأولى للهجرة جاءت امرأة للرسول عليه الصلاة والسلام تشتكي له أن زوجها ظاهرها وأصبحت معلقة لا مطلقة ولا متزوجة. فنزل القرآن يحرم الظهار ويلزم كل من كان مظاهراً لزوجته حينها بالتوبة عن الظهار والتوقف نهائياً عن ممارسته. وكل من كان مظاهراً لزوجته حين نزول سورة المجادلة يجب عليه فدية ظهاره بتحرير رقبة. ومن لم يجد قيمة تحرير الرقبة أو لم يجد رقبة يحررها فعليه أن يصوم ستين يوماً متتابعة، ومن لم يستطع الصوم فإطعام مسكين عن كل يوم صوم. ولا يقبل الظهار بعد ذلك، ولا ينفذ بعد نزول السورة. ولو حلف زوج الآن بمظاهرة زوجته فلا يعتد بحلفه ولا يقع على المرأة، ويأثم بحلفه.

مسلمة قريش مصرون ومستمرون على موالاة أقاربهم المشركين

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧) أَلَمْ تَرَ



إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٠) المجادلة.

الآيات تبدأ بوعيد للمشركين (الذين يحادون الله ورسوله) ثم تقول لمسلمة قريش الذين أبقوا على موالاتهم إن الله يعلم أنهم يتناجون فيما بينهم بما يخالف كلام الله المنزل على الرسول، وكان عليهم ان تكون نجواهم في الخير لو كانوا مؤمنين. وكانوا إذا حضروا للرسول أبدوا أنهم قد انتهوا وامتثلوا. والسورة تتوعدهم بعذاب جهنم إن لم يتوبوا عن معصية الرسول في الخفاء.

وتعود الآيات لتهديدهم في نفس السورة مرة أخرى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ(٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) المجادلة.

لقد كانوا يوالون الذين غضب الله عليهم لكفرهم، وهم قريش، وكانوا يحلفون للرسول والمسلمين أنهم مسلمون ليخفوا حقيقة نواياهم.



والآية: (١٨) تقول إنهم سيحلفون لله يوم القيامة أنهم مؤمنون كما حلفوا للرسول والمسلمين، وهو تعبير مجازي يعني أن محاولة خداع الرسول والمسلمين تأصلت في نفوسهم لدرجة أنهم صدقوها. ولا تعني أنهم سيقابلون الله جل وعلا أو أنه سيخاطبهم يوم القيامة.

وتؤكد الآيات أن من يوالي غير المؤمنين فقد كفر بالله ولو أعلن الإسلام. ومسلمة قريش استمروا يوالون قريشاً لأنهم أقاربهم وعشيرتهم.

والسؤال هنا هو: لماذا هاجروا مع المسلمين وهم لم يؤمنوا؟

ويمكن القول إنهم عندما أعلنوا إسلامهم في مكة كانوا يطمعون أن يكون لهم شأن ومناصب، ولما اكتشفوا أن الإسلام لا يمنح وجاهات دنيوية، ارتد بعضهم، وبقي البعض ولم يعد بإمكانهم التراجع خوفاً من أن يعيروا بأنهم مذبذبون. فأبقوا على إعلان الإسلام وفي نفس الوقت موالاة عشيرتهم قريش.

لأول مرة يخاطب القرآن أهل الكتاب في يثرب مباشرة

جاءت بداية سورة الجمعة لتقول لأهل الكتاب أن الهداية ليست قصراً على قبيلة أو جنس أو شعب دون آخر، وأن الله سبحانه قد شمل برحمته قريشاً (الأميون). وأرسل لهم رسولاً منهم ليزكيهم ويهديهم سبيل الرشاد: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٤).

وتواصل السورة مخاطبة أهل الكتاب مشبهة إياهم بالحمار الذي يحمل الأسفار والكتب على ظهره ولا يستفيد من العلم الذي تحويه، كونهم لم يحملوا أمانة ما ورد في توراة موسى وتركوا العمل بها: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥).

وتستمر السورة قائلة، إن كنتم تظنون أنكم أولياء الله وأحباؤه من بين البشر، فلماذا لا تتمنون الموت لتسارعوا للقاء ربكم؟: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن



دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦).

وتؤكد السورة أنهم يكرهون الموت لأنهم لا يطمئنون لمصيرهم يوم القيامة: وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨).

وتظهر الآيات أن غالبية أهل الكتاب في يثرب أعلنوا موقفهم الرافض للإسلام منذ الأيام الأولى لهجرة محمد، وكسنة متبعة: فمن يعلن الكفر في البداية لن يؤمن أبداً مهما دعي.

خروج بعض المصلين مع الرسول من المسجد أثناء الصلاة

من أساليب القرآن ألا تبدأ الآيات الحديث عن موضوع من أوله، وهو ما نجده هنا. حيث تبدأ الآيات بفرض قانون (تشريع) يوجب ترك البيع والشراء بعد سماع أذان الصلاة في يوم الجمعة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) الجمعة.

وهذا التشريع جاء بسبب خروج مجموعة من المصلين من المسجد وترك الصلاة مع الرسول، كما تخبرنا الآية التالية من نفس سورة الجمعة: وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

ففي يوم جمعة من الأيام الأولى للهجرة كان الرسول يؤم المصلين في مسجده لفريضة ما حضر وقتها والسوق قائم. وأثناء الصلاة تراكض بعض المصلين خارج المسجد تاركين الصلاة مع الرسول. والآية تخبرنا أن هرولتهم خارج المسجد كان للحاق بقافلة وصلت للتو للحصول منها على ما يحتاجون من متاع. وهو ما يستفاد من قوله تعالى: « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً».

والاحتمال الأكثر أن من خرج من المسجد وترك الصلاة كانوا من مسلمي يثرب، وليس من المهاجرين. ذلك أن المهاجرين صلوا مع رسول الله مدة طويلة وعرفوا أهمية الصلاة، لأن الآيات التي تحث على المواظبة على الصلاة وأدائها بخشوع قد تكرر نزولها في عدد من السور المكية ومنها سورة المؤمنون: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) ...



وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩).

أما مسلمو يثرب فقد دخل بعضهم الإسلام بلقاء واحد مع الرسول، وعاد ليثرب، والبعض الآخر دخلوا الإسلام عن طريق شخص قابل الرسول، لكنهم هم لم يروه أو يجتمعوا به في مكة. وتكون معرفتهم بتفاصيل الدين - ومنها الصلاة – قليلة وبالسماع دون الممارسة.

وتسابقهم على القافلة قد يعود إلى أن من فاته الحصول على ما يحتاج منها، سيبقى زمناً طويلاً قبل أن تأتي قافلة أخرى، أو يضطر لدفع مقابل مادي أكبر للحصول على ما يريد ممن حصل عليها من القافلة قبله. فجاءت سورة الجمعة لتقول لهم إن ضياع أجر الدنيا لا يقارن بضياع أجر الآخرة، وأن التجارة الرابحة هي ضمان الجنة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ان فَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

والآيات تشير إلى أن هناك سوقاً تجارية تقام يوم الجمعة في يثرب، وبالقرب من مسجد الرسول « رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ». وسورة الجمعة لا تعني أن هناك صلاة خاصة بيوم الجمعة، ولكن بما أن السوق الأسبوعية تقام يوم الجمعة، فقد قالت السورة: «إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة». ولو كانت السوق تقام يوم السبت وخرج المصلون من المسجد فستقول السورة: « إذا نودي للصلاة من يوم السبت». والأسواق الأسبوعية كانت منتشرة في جزيرة العرب وما زالت إلى اليوم. وتبدأ مع شروق الشمس وتنتهي قبل الظهر في العادة. وليس هناك صلاة مفروضة في هذا الوقت إلا صلاة طرف النهار الأول. وهو الوقت الأول الذي يبدأ بعد شروق الشمس مباشرة، وبداية السوق وتوالي حضور البضائع. ومن ذلك تلك البضاعة التي قدمت للسوق والناس يؤدون الصلاة. والأسواق الأسبوعية تلك كانت تبدأ أول النهار مع شروق الشمس وتنتهي قبل الظهيرة، ولو كان هناك صلاة الظهر التي تقام الآن فسيحل وقتها بعد انتهاء السوق. لكن لو أن الصلاة طرف النهار فهي تؤدى في بداية وقت السوق وحضور البضائع.



المرحلة المدنية الثانية

فترة التشريع

أهل الكتاب في يثرب أعلنوا رفضهم لرسالة محمد ولن يؤمنوا

الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥) البقرة.

والسورة نزلت بعد أشهر قليلة على وصول الرسول مهاجراً، والآيات تقول لهم إن المتقين المفلحين الذين سينالون رضى الله هم من يؤمن برسالة محمد وعدم الاكتفاء برسالتهم السابقة.

وبما أنهم رفضوا دعوة الإسلام فالبقرة تصفهم بالكفار: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧).

ولن يهتدوا أبداً، ليس لأن الله كتب عليهم الضلال، ولكن لأن هناك سنة أزلية مفادها أن من لا يؤمن بداية سماعه للدعوة لن يؤمن بها أبداً.

أول ذكر لمنافقي يثرب «مسلمة يثرب»

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ



مُصْلِحُونَ(١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ(١٣) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠).

الآيات تتحدث عن فئة من أهل يثرب أعلنوا إسلامهم ولم يؤمنوا، وهؤلاء عادة ما يكونوا ان ممن كان يبحث عن مكانة أفضل مع الدين الجديد من وضعه في مجتمعه، ولم يعلن الإسلام لاقتناعه بالحق. وهؤلاء لا يؤمنون أبداً، ولا يعلنون العودة للكفر، لئلا ينظر لهم على أن مواقفهم مذبذبة.

وستؤكد لنا آيات قادمة أنهم من أهل الكتاب وقد يكون بينهم من ينتمي للأوس والخزرج وممن كانوا يمنون النفس بسلطة أو مناصب عالية. وانتماؤهم القبلي جعلهم ينظرون لأغلب المهاجرين على أنهم طبقة اجتماعية منحطة، كونهم من الموالي والعبيد السابقين. كما أن مسلمة يثرب منهم من يحب أن تنتشر الفاحشة في المجتمع، أو كما يطلق عليهم القرآن «في قلوبهم مرض». وهؤلاء ومعهم مسلمة قريش لن يؤمنوا أبداً وسيعاني منهم المسلمون باستمرار.

وتعود السورة للحديث عنهم: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.



فالدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه يعني عقد اتفاق وعهداً مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا. وأي نقض لجزء من المعاهدة مع الله فهو نقض لكل المعاهدة.

ولعلنا مررنا بآيات وسنمر بمثلها تؤكد أن من يقترف كبيرة وهو عالم عاقل ويصر عليها فهو مخلد في النار. وإن كانت فرق إسلامية قديمة قالت بهذا فقد وافقوا الحق، فالقرآن هو من يقول بذلك وليس الأشاعرة أو الخوارج أو المعتزلة أو غيرهم.

ومرة أخرى تعود سورة البقرة للحديث عنهم: وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٧٦) أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٧).

فقد كانوا يظهرون تصديق رسالة محمد ويقومون باطلاع المسلمين على بعض ما تقول بقية ما بقي من التوراة معهم، لمقارنته بما في القرآن - على ما يبدو - فيأتي أناس آخرون منهم وينهونهم عن ذلك، كون عقيدتهم ميزهم الله بها عن بقية البشر (كما يظنون).

وتعود البقرة للحديث عنهم: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ(٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦).

كلامهم يفيض بالتدين والخوف من الله، ولكنهم يضمرون عكس ذلك.

أول دعوة لبني إسرائيل يثرب بعد الهجرة

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ



إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦) البقرة.

ويأتي هذا الخطاب بعد أن أظهرت سورة الجمعة السابقة أن أهل الكتاب عموماً في يثرب قد أعلنوا رفضهم – الذي لن يتراجعوا عنه – لدعوة الإسلام.

والآيات تقول لبني إسرائيل أن يتعقلوا ويتريثوا ولا يعلنوا رفضهم دعوة تدعوهم للعودة لنفس الدين الذي جاء به موسى، وكثير منهم يعلمون ذلك. وليؤمنوا كما آمن بعض منهم: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

بنو إسرائيل يثرب لن يؤمنوا برسالة الإسلام

بعد أن سردت سورة البقرة أحداثاً تاريخية تظهر عدم قبول بني إسرائيل للحق في عصر موسى، تقول مخاطبة الرسول والمسلمين في يثرب: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥).

فمن كفر بموسى في عصره وحرف الكلم عن مواضعه برغم شهادتهم لنعم الله عليهم حينها، فلن يؤمن برسالة جاء بها أحد أبناء إسماعيل المغضوب عليهم من قبل بني إسرائيل.

وهذا التأكيد جاء مبكر جداً وفي الشهور الأولى بعد وصول الرسول مهاجراً، ليس لأن الله كتب عليهم الشقاء، ولكن مما يعرف بالضرورة. ومما يعرف بالضرورة هو أن من لا يؤمن بالدعوة عند سماعها أول مرة فلن يؤمن بها أبداً، وهي سنة سارت عليها كل الأمم.

ولهذا تكرر السورة التأكيد على أنهم لن يؤمنوا برسالة محمد وسيبقون على كفرهم: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠) البقرة.

عامة بني إسرائيل يثرب إمعات

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ(٧٨) البقرة.

وهؤلاء لا يقرأون كتبهم ولا يبحثون بأنفسهم ولكنهم إمعات يعتمدون في معرفة



معتقداتهم على ما يقوله لهم رجال الدين. مثلهم مثل غالبية أتباع المذاهب المختلفة عند المسلمين.

رجال الدين من بني إسرائيل يشرعون بخلاف ما أنزل الله وينسبونه لدينه

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ(٧٩) البقرة.

فهم من يشرع ويقول إن ما يشرعه من حلال وحرام وغيره يمثل دين الله. وهذا اقتبسه المسلمون منهم وترسخ بيننا في كل المذاهب، فأصبح لدينا من يكتب الكتاب بأيديهم على شكل فتاوى ويقولون هي من عند الله، ويجدون أميين إمعات يتبعونهم في كل ما يقولون دون تفكير.

حادثة وقعت لبني إسرائيل

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٨٥) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٨٦).

لقد اقتتلوا فيما بينهم وقام المنتصر بطرد المهزوم من الديار. فهل حدث هذا بعد هجرة الرسول والسورة تسجل حدثاً تاريخياً للتو وقع، أم أن السورة تُذَكِّرُ بحدث تاريخي قديم من تاريخهم؟

بنو إسرائيل يثرب رفضوا دعوة محمد ولن يؤمنوا

وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن



يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠) البقرة.

وكل من يكفر برسالة محمد فهو كافر. دليل لا يقبل الجدل في أن الإسلام (رسالة محمد) وحده المقبول عند الله ومن لا يؤمن بالإسلام فهو كافر. اليهود والنصارى والمسيحيون والهندوس والمجوس وغيرهم، كلهم كفار.

وتؤكد السورة مرة أخرى أنهم كفار، لتمسكهم بالإيمان بالله على ديانتهم، وعدم الدخول في الإسلام، والآيات تقول هذا غير مقبول: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٩١) البقرة.

وتقول الآية لهم: إن محمداً مجددٌ لدين الله، ومن لا يؤمن به كافر، وأنتم لو كنتم مؤمنين لتبعتم الرسل الذين أتوا بعد موسى والذين جاؤا لتجديد الدعوة، ولما قتلتموهم.

وتستمر الآية في نفس السياق وتقول إنكم أشركتم وموسى بينكم، وعصيتم وكفرتم: وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ(٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ(٩٣) البقرة.

تحذير من الإسرائيليات

وتحذر السورة المؤمنين أن يقلدوا بني إسرائيل في بعض ألفاظهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظرنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤).

وقد يكون للفظ «راعنا» معنى دارج سيء عندهم، وبالتالي يجب على المسلمين ألا يوجهوه لرب العالمين. وهو ما أكدت عليه سورة النساء التي نزلت بعد البقرة مباشرة: مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظرنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(٤٦) النساء.

والآيات تؤكد وتكرر التأكيد على أنهم كفار.



بعض المسلمين تأثروا بفكر بني إسرائيل

وتظهر السورة أن بعض المسلمين، ونتيجة لمعاشرة بني إسرائيل، تشبهوا بهم حتى في نوع الأسئلة التي يسألون الرسول عنها: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٠٨) البقرة.

وسؤال بني إسرائيل لموسى أخبرتنا به سورة النساء: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٥٣) النساء.

عود للتحذير من الإسرائيليات

وتستمر السورة تخاطب المسلمين وتحذرهم من الاستماع لبني إسرائيل: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٩) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٠) البقرة.

وسنرى أن تحذيرات القرآن من الاستماع لبني إسرائيل تكررت كثيراً على أسماع المسلمين، لكن الأيام ستثبت أن المسلمين سيتشربون الإسرائيليات وسيبنون عليها عقائدهم، وهو ما تغص به كتب التراث الديني لكل المذاهب اليوم.

يهود ونصارى يثرب لن يؤمنوا

وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١٢٠) البقرة.

وهو ما أشارت له السورة في آيتين سابقتين: وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢) البقرة.



والحديث هنا عمن لم يؤمن، لأن بعض اليهود والنصارى آمن أول سماعه للدعوة، كما تقول الآية التالية: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٢١) البقرة.

اليهود والنصارى في يثرب لم يكونوا على وفاق

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١١٣) البقرة.

والسورة تتحدث عن يهود ونصارى يثرب زمن الرسول، ولا تتحدث عن يهود ونصارى في مكان أو زمان آخر.

مقدمة للحديث عن تثبيت القبلة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١٤) وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١١٥) البقرة.

قريش هم من منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام في أواخر العهد المكي قبل الهجرة، كما أشارت لذلك سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥).

فهم صدوا المسلمين عن المسجد الحرام للصلاة فيه برغم أنه وجد أصلاً لذكر الله.

وتقول السورة إن التوجه في الصلاة لأي جهة مقبول، لأن المشارق والمغارب وكل اتجاه لله جل وعلا. وهو إشارة إلى أن بعض المسلمين – بعد الهجرة – كانوا يصلون باتجاه غير اتجاه البيت.

وكأن الآية تقول لهم إن صلاتهم السابقة مقبولة عند الله برغم أنهم كانوا يتوجهون إلى غير القبلة.



ثم تتحدث السورة عن مواضيع أخرى قبل أن تعود للحديث عن:

تثبيت القبلة

تتحدث سورة البقرة عن تحويل القبلة في الآيات: (١٤٢-١٥٠، ١٧٧)، وهو ما يعني أنه حدث في أول العهد المدني، لأن سورة البقرة خامس سورة نزلت في المدينة. وحسب تقديراتنا المذكورة في بداية الحديث عن هذه المرحلة، فالبقرة نزلت بعد حوالي ثلاثة أشهر من هجرة الرسول. والآيات تتحدث في الواقع عن تصحيح اتجاه القبلة التي وجد الرسول المسلمين في يثرب يتوجهون إليها في صلاتهم، وليس تغييراً لقبلة عرفها الرسول منذ بداية الدعوة.

فالرسول بعث في مكة، وصلى منذ اليوم الأول لله في بيته المسجد الحرام، فليس من المعقول أن يفكر بالاتجاه لغير البيت الوحيد لله على وجه الأرض. لكن كتب التراث بدل أن تناقش معاني الآيات الواضحة، قامت بلي معانيها لكي تقول إن الله جل شأنه، ومنذ فرضت الصلاة قد أمر الرسول بالتوجه في صلاته لإيليا، المعروفة اليوم بالقدس، والتي تقع في فلسطين الحالية. وبناءً على مزاعمهم، فالرسول طوال دعوته في مكة التي امتدت لثلاثة عشر عاماً — حسب تقديراتهم – كان يضع الكعبة بينه وبين إيليا أثناء صلاته، بحيث يتوجه لإيليا، كما أُمر، وللكعبة في نفس الوقت. وعندما هاجر إلى المدينة نزلت آياتٌ في سورة البقرة تأمره بتغيير القبلة من إيليا إلى مكة.

وبطبيعة الحال ليس في كتاب الله أي إشارة لهذه الأقوال الكاذبة، ولم يؤمر الرسول بالتوجه لغير الكعبة، ولم يكن منتظراً أن يؤمر بالصلاة لغير بيت الله الوحيد على الأرض.

ولو صدقنا هذه التفاهات اليهودية الأصل، فإن الرسول والمسلمين في مكة قبل الهجرة كانوا يصلون دائماً إلى الجنوب من الكعبة فقط، لكي تكون الكعبة وإيليا على خط واحد، ولا يصلون في أي مكان آخر حول الكعبة. وهذه التفاهات لم يقل بها أحد أبداً، لأنها لم تحدث.

ولا نحتاج لأنف حساس لكي نشتم رائحة يهودية وراء تأويل الآيات عن معانيها لكي يرسخوا لدى المسلمين أن إيليا المقدسة عندهم مقدسة عند الله، وأن مكة ليست بيت الله



الوحيد على الأرض وليس لها قدسية. وكالعادة هرع المفسرون والمحدثون لتلقف وتبني كل ما يدسه اليهود في دين الله ويرسخونه ويتوارثونه حتى وصلنا وكأنه هو الحق، ومعاني الآيات الواضحة هي الباطل. وأصبح الزعم بتوجه الرسول لإيليا عقيدة راسخة، بين المسلمين بمختلف طوائفهم، لا تقبل الجدل، مع أن إيليا وفلسطين كلها لم تذكر في القرآن ولو بشكل عارض، وليس لها عند الله أي قدسية أبداً.

ولم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين زمن رسول الله، بل لم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين إلى أن وصل خامس ملوك بني أمية عبد الملك ابن مروان للحكم في العام ٦٥ للهجرة. وأثناء فترة حكمه التي امتدت من (٦٥ – ٨٦) للهجرة أمر ببناء مسجد في إيليا (القدس) وأسماه المسجد الأقصى على المسجد المذكور في أول آية من سورة بني إسرائيل. في وقت كانت فيه مكة تحت حكم عبد الله ابن الزبير وخارج سيطرة حكم بني أمية.

فالسياسة هي سبب بناء قبة الصخرة والمسجد الذي سمي «المسجد الأقصى»، لأن ابن الزبير كان يحكم مكة ويخطب الناس بالحج ويبين مثالب وعيوب ابن مروان ويحرض أهل الشام عليه، فقام عبد الملك ابن مروان ببناء القبة والمسجد وجعل الناس يحجون لها بدل مكة. بناءً على ما ورد في كتب التراث، ومنها كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وهذا نصه:

ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى؛ وكملت عمارته في سنة ثلاث وسبعين، وكان السبب في ذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة، ومقام الناس بمكة، وينال من عبد الملك ويذكر مساوي بني مروان، ويقول: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما نسل، وأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه، وكان يدعو إلى نفسه، وكان فصيحاً، فمال معظم أهل الشام إليه. وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج (إلى مكة) ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد ويحلقون رؤوسهم، ففتح بذلك على نفسه بأن شنع ابن الزبير عليه، وكان يشنع عليه بمكة ويقول: ضاهى بها فعل الأكاسرة في إيوان كسرى، والخضراء، كما فعل معاوية ونقل



الطواف من بيت الله إلى قبلة بني إسرائيل ونحو ذلك. .... انتهى كلام ابن كثير

أما المسجد الأقصى المذكور في سورة بني إسرائيل، فليس المقصود به مسجد عبد الملك ابن مروان الذي أسماه المسجد الأقصى، ليغري الناس بالحج إليه. والذي بني لضرورة سياسية ولم يكن تجديداً لمسجد قديم، لموسى أو إبراهيم كما تزعم الإسرائيليات، لأنهما لم يريا فلسطين في حياتهما، ولم يسجدا لله فيها سجدة واحدة.

ولعل ما حدث فيما عرف عند المسلمين بتغيير القبلة، هو كما يلي:

عندما بدأت الدعوة في مكة وأُمر الرسول بالصلاة، كان رسول الله يصلي بالقرب من الكعبة ويتوجه لها، بشكل عفوي وطبيعي، من أي مكان كان يتواجد فيه حولها، لأن الصلاة لله، والكعبة بيت الله: جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ... ....(٩٧) المائدة.

وليس هناك بيت آخر لله ذكر في القرآن، وهذا البيت هو ما صلى نحوه إبراهيم قبل عصر محمد بآلاف السنين. ولم يخطر على بال الرسول أن يتوجه لأي اتجاه آخر، ولم يوجد سبب يحمله على التوجه لغير بيت الله الوحيد على الأرض.

وعندما نعود للكيفية التي أسلم بها من أسلم من يثرب، فسنجد أن قلة من بني إسرائيل هم أول من أسلم بعد لقاء الرسول في مكة والاقتناع بصدق دعوته – بخلاف ما تقول كتب التراث أن الأوس والخزرج هم أول من آمن – وأن النفر من بني إسرائيل الذين آمنوا بالرسول في مكة عادوا لموطنهم وبدأوا دعوة قومهم وبقية أهل يثرب للدخول في الإسلام، فدخل الإسلام الناس في يثرب بهذه الطريقة، دون أن يروا الرسول أو يعيشوا بالقرب منه. ومع أن غالبية من أسلم هم من الأوس والخزرج إلا أنهم وثنيون وسيتوجهون لأي جهة في الصلاة لمن علمهم الدين. أما بنو إسرائيل الذين أسلموا ونقلوا الإسلام ليثرب فقد كان لهم دين، ومن معتقداتهم الراسخة تراثياً تعظيم إيليا (القدس)، فكانت إيليا بالنسبة لبني إسرائيل في يثرب المكان المقدس الذي يتوجهون له عند «صلاتهم». ويبدو أن أوائل مسلمي يثرب من بني إسرائيل استمروا في التوجه لإيليا في صلواتهم الإسلامية، وتبعهم كل من أسلم على أيديهم من قومهم أو من وثنيي الأوس والخزرج والأعراب.

وعندما وصل الرسول مهاجراً، كان مسجده قد بني قبل وصوله. وقد بناه من دخل الإسلام من أهل يثرب، وليس صحيحاً زعم كتب التراث أن المسجد بني بعد وصوله.



وكان المسلمون في يثرب يتجهون في صلواتهم للشمال مع ميل قليل للغرب، بينما كعبة مكة تقع إلى الجنوب مع ميل قليل للغرب. وبحكم أن الرسول لا يستطيع أن يأمر الناس بأمر ديني أو ينهاهم إلا بعد أن ينزل عليه قرآن يتلى عليهم، فلم يستطع أن يتحدث معهم عن وجهتهم في الصلاة، حتى نزلت عليه سورة البقرة بعد ستة أشهر من وصوله مهاجراً ليثرب، وفيها آيات تغيير القبلة:

سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٠).

والسفهاء هنا المقصود بهم بقية أهل يثرب من غير المسلمين الذين سيتساءلون لماذا غير المسلمون قبلتهم التي اعتادوا هم رؤيتهم عليها؟ ولا يعني أن هذه قبلة الرسول والمسلمين منذ بداية الدعوة، قبل سنوات ثم غيروها الآن. فتغيير القبلة هنا لمن توجه لقبلة خطأ، وليس كما رسخ التراث أن قبلة الرسول كانت من البداية لغير مكة.



أما الرسول فلما هاجر وجد الناس تصلي للشمال، فلم يأمرهم بتحويل قبلتهم لمكة لأنه لم ينزل عليه قرآن بذلك.

فتغيير القبلة – لمن يتوجه لغيرها – جاء ليتوافق مع قبلة الرسول التي كان عليها منذ بعث وصلى لأول مرة: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ».

فمن يؤمن سيتبع الرسول ويغير قبلته لمكة، ومن بقي على يهوديته ولو أعلن الإسلام فسينقلب على عقبيه ويرتد.

وتستمر الآيات لتقول للرسول إن القبلة باتجاه الكعبة ثابتة، سواء كنت في مكة أو بعيداً عنها «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» فكونك هاجرت إلى المدينة لا يعني تغيير القبلة.

ولا يجوز لأحد التوجه لغيرها بأي حجة أو تبرير بعد الآن « لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.«

ومسلمو يثرب الأوائل من بني إسرائيل، توجهوا إلى إيليا لغلبة الموروث الديني عندهم، ظناً منهم أن إيليا بالفعل مقدسة عند الله، لأنهم توارثوا هذه القدسية. لذا قد يشعر بعضهم بعدم الارتياح للتوجه لمكة لأن موروثهم الديني والثقافي لا يحمل أي مشاعر تقديس لمكة، حتى بعد أن أسلموا، لأنهم يعتبرونها معبداً للأميين الإسماعيليين، وليست بيتاً لله. وهذه الثقافة غرست في بني إسرائيل منذ القدم. وقد طمأنتهم الآية: (١١٥) التي سبقت الحديث عن تثبيت القبلة، بأن صلاتهم السابقة التي صلوها باتجاه إيليا مقبولة: وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١١٥) البقرة.

أما بعدما ثبّت القرآن القبلة فلا يجوز لأحد أن يتجه لغير مكة في صلاته إن كان يستطيع. والمفسرون ذكروا قصصاً مختلقاً كثيراً ومختلفاً، ومنه يمكن دحض ادعاءاتهم. وسأعطي مثالاً على ذلك دون تتبع كل ما قالوا حتى لا نطيل: فهم يقولون إن تغيير القبلة حدث بعد أشهر من قدوم الرسول إلى المدينة، وكان ذلك في صلاة الظهر أو العصر، حيث نزل عليه الوحي بعد أن صلى ركعتين باتجاه فلسطين. فاستدار واستدار الناس معه، وأكملوا الركعتين باتجاه الكعبة. ويستحيل أن يكون هذا حدث، ويظهر أن من اختلق قصص تغيير



القبلة لا يعرف مكة بأي اتجاه. ولو عرف أن الاتجاه لإيليا في المدينة يكون باتجاه الشمال الغربي، والاتجاه لمكة يكون باتجاه الجنوب الغربي. ولو عرف ذلك لما قال إن الرسول استدار – وهو في صلاته – من اتجاه فلسطين إلى اتجاه مكة. لأنه لو كان الرسول يصلي بالناس باتجاه فلسطين وأراد أن يتجه لمكة التي تقع بالاتجاه المقابل، فعليه أن ينتقل من مكانه الذي يقع في مقدمة المسجد ليكون في بقعة ما آخر المسجد. كما أن المأمومين لن يتمكنوا من الدوران ١٨٠ درجة تقريباً وهم في أماكنهم وفي صلاتهم للتحول لمكة.

ويمكن لمن يرغب من القراء تطبيق هذه التجربة عملياً، وذلك بالوقوف في غرفة، ويكونوان على شكل إمام ومأمومين، ثم يحاولوا التوجه للجهة المعاكسة، والدوران (١٦٠) درجة تقريباً. وسيكتشفون أن هذا مستحيل، لأن المأمومين سيكونوان في مكان الإمام في المقدمة، والإمام سيكون في المؤخرة بعد الدوران، هذا لو استطاعوا الدوران وهم في الصلاة.

الخلاصة: لا يمكن أن يكون النبي قد صلى باتجاه فلسطين وترك التوجه لبيت الله الوحيد على الأرض، ولكنه وجد مسلمي يثرب يصلون إليها، ولم يكن يستطيع أمرهم بكلامه الشخصي فانتظر حتى نزل الوحي يأمرهم بالتوجه للقبلة، ففعلوا. وكان منذ قدم ليثرب يضيق صدره لتوجههم لغير بيت الله: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». لأن الرسول يعلم أن القبلة المقبولة هي التوجه لمكة.

وللعلم فقط نقول: إنه لم يكن لمسجد الرسول محراب، لأن المحراب لم يعرف إلا في عصور ما بعد الفتوح. ولابد أن مسجد الرسول الذي بني قبل وصوله مهاجراً يتجه إلى الشمال الغربي إلى إيليا. وقد يكون الرسول قام بهدمه لما نزلت آيات تثبيت القبلة لمكة، وتم توجيه قبلته لمكة أي باتجاه الجنوب الغربي. وهذا التعديل هو ما روته كتب التراث على أنه إنشاء مسجد الرسول، والذي يقولون إنه حدث بعد وصول الرسول إلى المدينة بعدة أشهر.

وتكون السورة نزلت على الرسول خارج وقت الصلاة، فتلاها على الناس وتم التحول لمكة بعد ذلك دون حاجة للدوران وهم يصلون في حركة مسرحية.



شحذ الهمم استعداداً للقتال

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٣) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧).

القتال لم يحدث بعد، بل إن القتال لم يفرض إلا في آيات قادمة، وهذا أسلوب متبع في القرآن رأينا آيات مشابهة في سور سابقة، حيث تبدأ الآيات بالحديث عن موضوع جديد وكأنه سبق الحديث عنه، مع أن الحديث عنه سيأتي بعد ذلك.

والآيات تهيئ المسلمين لما قد يواجهون عندما يبدأ القتال مع قريش التي يبدو أنها مصرة على ملاحقة المسلمين، وتنامت الأخبار عن حشودها ضدهم وقدومها لحربهم.

وعندما تقع الحرب سيكون هناك قتلى وعلى المسلمين احتساب قتلاهم عند الله والصبر على المحن وعلى نقص أموالهم نتيجة إنفاقهم على الحرب وتجهيز الجيش.

بعض المسلمين يكتمون الوحي

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ(١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(١٦٢).

الآيات تحذر كل من يكتم الوحي ولا يبلغه للناس الذين لا يعرفونه. وكل من يفعل ذلك فهو كافر وعليه اللعنة وسيخلد في النار.

والآيات تشير إلى أن هناك بعض من يحفظ بعض سور القرآن عندما يسأل عن حكم القرآن في مسألة لا يخبر السائل بما يقول القرآن، أو أنه يخبره بشيء مخالف وينسبه للقرآن.

وتعود السورة لتحذير رجال الدين من بني إسرائيل الذي أشارت له في الآية (١٥٩): إنَّ



الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(١٧٦).

الاستعداد للقتال

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤).

لأول مرة يأتي الأمر بالقتال في سبيل الله. والقتال في سبيل الله بينت معناه بقية الآية بالقول: «وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ». فالقتال في سبيل الله يعني صد العدوان وعدم مبادرة الغير بالاعتداء لأي سبب كان، لأن الله لا يحب المعتدين. وأي شيء لا يحبه الله فهو كبيرة.

وسورة البقرة نزلت بعد أشهر من هجرة الرسول، كما سبق وذكر، وبعد أن تواترت الأخبار عن أن قريشاً تحشد حشودها العسكرية لغزو المسلمين في يثرب والقضاء عليهم. فبدأت الآيات تحث المسلمين على الاستعداد لدفع الهجوم وعلى الإنفاق لكي يتم تسليح الناس تسليحاً مناسباً. وهذه أول آيات تتحدث عن القتال وتسميه: «جهاداً في سبيل الله» لأنه يدافع عن المسلمين وبقاء دين الله.

والآيات تفرض بعض ضوابط الجهاد التي تظهر أن القتال يجب أن يوجه لمن يعتدي ويحمل السلاح، أما من لا يشارك في القتال ولا يحمل السلاح فهو مسالم يحرم التعرض له. كما أن المعتدين متى ما كفوا وانتهوا فيجب التعايش معهم بسلام.

وبما أن شغل المسلمين الشاغل عند نزول سورة البقرة هو الحديث عن تحركات قريش واستعداداتها للحرب، وما يجب أن يفعل المسلمون حياله، فقد جاءت الآيات تشير لما



يحدث بين المسلمين. فبعضهم كان ضد الدخول في حرب مع قريش، وبعضهم اعترض على الحرب خلال الأشهر الحرم، لأنها أشهر تحترمها شعوب جزيرة العرب، وبعضهم تساءل إن كان بالإمكان حرب قريش في مكة بلد الله الحرام: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧) البقرة.

الآيات تظهر أن بعض المسلمين كرهوا قتال قريش، وهو ما يخالف ما ورد في كتب التراث التي وصفت المسلمين وكأنهم هم من بدأ الحرب وذلك باعتراض عير قريش.

كثير من المستضعفين في مكة بقوا على كفرهم

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ(١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(١٦٧)البقرة.

الآيات تخاطب من لم يسلم من مستضعفي مكة تبعاً لسادتهم، وتصور لهم الحال فيما يكونوا عليه يوم القيامة لو ماتوا وهم كفار.

اقتتال بين طائفتين من المسلمين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧٩) البقرة.



الناس تقرأ هذه الآيات وكأنها تتحدث عن حوادث القتل التي تحدث باستمرار، ولو توقفوا عندها وتدبروها لاتضح لهم أنه لا يمكن تطبيقها على مفهومها السائد. فلو أن امرأة قتلت رجلاً عمداً فالمفترض أن تقتل به، ولو قتل رجل امرأة قتل بها، ولو قتل حر عبداً يقتل به. وهكذا كل شخص يقتل آخر يقتل به بغض النظر عن جنس القاتل وجنس المقتول. فكيف تقول الآية: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى»؟

الجواب هو أن الآية تتحدث عن وضع آخر، لا علاقة له بقتل شخص لآخر، والدليل على ما نقول جاء في نفس الآية: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

لأن القاتل العمد لا يعفى عنه في القرآن، ولأن من قتل عمداً يقتل ولن يكون له فرصة أخرى ليعتدي على شخص آخر ويقتله: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) المائدة.

وما نفعله الآن من العفو عن القاتل العمد سواء بمال أو بدون مال هو تعد وتجاوز لحدود الله وأوامره، لأن العفو يكون عن دية المقتول خطأ فقط[1]. ودم المقتول عمداً ليس ملكاً لذويه ليشتروه بالمال أو ليعفوا عن قاتل تجاوز أمر الله.

والآيات: (١٧٨-١٧٩) من سورة البقرة، امتداد لما تحدثت عنه الآيات: (٦-١٣) من سورة الحجرات التي نزلت قبل بضعة أشهر من نزول البقرة. ومما ورد في تلك السورة: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) الحجرات.

والاقتتال الذي تحدثت عنه سورة الحجرات وقع بين مسلمة قريش والمستضعفين، ونتج عنه قتلى بين الفريقين، وكان لابد من ودي القتلى وإطفاء نار الفتنة لئلا يتجدد القتال. فجاءت الآيات التي تسمى «آيات القصاص» تقول: على المسلمين إحصاء قتلى كل فريق وتصنيف القتلى: كم رجل حراً؟ وكم عبداً؟ وكم امرأة حرةً؟ وكم أمه؟ ويقابل كل قتيل

---

[1] انظر فقرة: القتل / العمد والخطأ - قسم تشريعات من القرآن.



بمثيله: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، وكل من ليس له مقابل مثيل له فتدفع ديته. ولابد أن هناك فريقاً قتل منه أكثر مما قتل من الفريق الآخر – كما سبق وذرنا – والقتلى الزائدون لن يكون لهم قتلى يقابلون بهم، فتدفع لهم دية. ولو تنازل الفريق الذي سيحصل على الدية لقتلاه فهو خير له.

وبما أن الاقتتال حدث للمرة الأولى فإن الله غفور رحيم، لكن لو تجدد القتال بين الفريقين أو بين أي فريقين من المسلمين فهو عدوان توعد الله من يصدر منه بالعذاب الأليم: « فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». ولن تقبل له توبة لأنه أقدم على كبيرة يعلم مسبقاً أن من يقدم عليها فهو في النار.

ويكون الحديث عن تلك الواقعة المحددة التي اقتتل فيها مسلمة قريش مع المستضعفين ومن ناصرهم، ولم ترد الآيات (التي تسمى آيات القصاص) كتشريعٍ للقتل العمد أو الخطأ. وإنما هي حلٌ لمشكلة وقعت وليست تشريعاً لكل زمان ومكان. وسيأتي حكم القتل العمد والقتل الخطأ في الآيات: (٩٢-٩٣) من سورة النساء.

وقد عادت سورة البقرة لتحذير المسلمين من الاقتتال مرة أخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢١١) البقرة.

وتخبرنا سورة البقرة أن المستضعفين يمثلون الغالبية بين المسلمين: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٢).

وسخريتهم من أحوالهم المادية. والشعور بالتفوق الاجتماعي هو السبب وراء اقتتال مسلمة قريش مع المستضعفين. ويمكن تخيل الأوضاع هناك في تلك الفترة. فالمهاجرون خرجوا من مكة بلا أمتعة ولا أموال، إما هرباً من قريش أو لأنهم فقراء أصلاً كونهم من المستضعفين، وكانت أيامهم الأولى في يثرب قاسية عليهم فعلاً، فلم يعثروا على مصادر للرزق بعد، والأوس والخزرج لا يملكون من المال الكثير، بل إن أكثرهم فقراء.



بعض الحكام في يثرب يتلقى الرشوة

وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) البقرة.

الحكام هنا من الاحتكام، وليس من الحُكم والسلطة، فيثرب زمن الرسول لم يكن فيها حكام وملوك.

والآية تشير إلى وضع كان سائداً زمن الرسول وهو أن القضاء ليس منصباً دينياً، بل هو تحكيم دنيوي، لأنه يكون لفض المنازعات الدنيوية، وهذا ما يجب أن يكون عليه الآن. ويتولى القضاء أي شخص بغض النظر عن جنسه أو لونه أو معتقده بعد حصوله على شهادة دراسية من كلية حقوق يدرس فيها كل العقوبات والأحكام، ويكون على القاضي تطبيق الأحكام والعقوبات المقررة مسبقاً بناءً على الدستور الذي بموجبه فرض القوانين المدنية باستفتاء عام. بجانب القوانين الدينية (التشريعات القرآنية). وكلما دعت الحاجة لعقوبة أو جزاء فلا يبت فيه القاضي بمرئياته الشخصية ولكن يقنن عبر الاستفتاء العام كأي قانون يهم الأمة. وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل في كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق.

ونعود للآية التي تظهر أنه كان في يثرب حين نزول السورة حكام (قضاة) يتلقون رشوة من أحد الأطراف المتنازعة مقابل أن يحكم له فيأكل حق البريء بالباطل.

المؤسف هو أننا في هذا العصر سمينا المحكمة «بالشرعية» في إشارة إلى أن كل ما يقول القاضي يمثل حكم الله، برغم أنه عبارة عن موظف براتب، لا يستطيع أن يحكم على سيده. وفي هذا العصر وصلت رائحة رشاوي القضاة عنان السماء. وكلما اكتشفت قضية رشوة بالملايين، سارعت الجهات الرسمية بوقف التحقيق وتناسي القضية. ليبقى القاضي المرتشي يحكم بين الناس باسم الله والله منه براء. وليس فقط قضايا الرشوة والاستيلاء على الأراضي، هي التي يتم التكتم عليها ضد القضاة في هذا العصر في بلادنا، بل كل أنواع القضايا، بما فيها قضايا الزنا والقضايا الأخلاقية المختلفة.



غالبية المسلمين في يثرب في تلك الفترة فقراء ومن المستضعفين

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ(٢١٤) البقرة.

الذين كفروا في يثرب غالبيتهم من أهل الكتاب، وتسميهم الآيات بالكفار لأنهم رفضوا دعوة محمد وليس لأنهم كفروا بالله، لأن من لا يؤمن بالرسول محمد فهو كافر ولو آمن بالله. وهؤلاء يملكون المال ويسخرون من قلة ذات اليد لغالبية المسلمين. والآية: (٢١٤) تشير إلى الأوضاع المعيشية الصعبة التي يعيشها غالبية المسلمين في يثرب في بداية الهجرة، وتحثهم على الصبر بتذكيرهم أن من سبقهم ممن آمن في أزمنة قديمة مستهم الضراء.

ويمكن تخيل الأوضاع هناك في تلك الفترة. فالمهاجرون خرجوا من مكة بلا أمتعة ولا أموال، إما هرباً من قريش أو لأنهم فقراء أصلاً كونهم من المستضعفين، وكانت أيامهم الأولى في يثرب قاسية عليهم فعلاً، فلم يعثروا على مصادر للرزق بعد، والأوس والخزرج لا يملكون من المال الكثير، بل إن أكثرهم فقراء. والقلة القليلة التي تملك المال تتحفظ على الإنفاق لئلا يجدوا أنفسهم يشاركون غيرهم الفقر والفاقة. لذا تخبرنا السورة أنهم كانوا لا يسارعون في الإنفاق وإذا أمروا بذلك تساءلوا: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢١٥).

سؤال عن الخمر والميسر

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.



بعض المسلمين الذين قد يكونوان يتاجرون بالخمر والميسر، سألوا الرسول عن تجارتهم، فنزلت الآية تقول إن المتاجرة في الخمر والميسر قد تكون مربحة مادياً لكن فيها إثم ومعصية. ولا يمكن مقارنة الربح المادي الدنيوي مهما كان كبيراً بالإثم الذي سيكتب عليهم ويسألون عنه يوم القيامة.

فالآية تقول دعوا تجارة الخمر والميسر فهي حرام ولو كانت مكاسبها كبيرة.

الزواج من مشركي قريش

وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

قريش عدو محارب للمسلمين، وسبق وأخبرتنا سورة الممتحنة عن تحريم إبقاء الزوج المشرك أو الزوجة المشركة من قريش، وهي هنا تقول لا تتزوجوا منهم. ومن الواضح أن السبب ليس الكفر ولكن العداء للمسلمين وشن الحرب عليهم. والآية إشارة إلى أن قريشاً عازمة على حرب المسلمين وقد انتشر هذا الخبر بين القاصي والداني وصار جميع الناس في المناطق المحيطة بيثرب ومكة يعرفون أن قريشاً تعد العدة للهجوم على المسلمين.

عود للحث على القتال والإنفاق في سبيل الله

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٢٤٣) وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٤٤) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٥) البقرة.

الآية تقول إن الموت قادم ولن ينجو منه أحد، وإن كنتم مسلمين وتؤمنون أن هناك آخرة ونعيماً دائماً فلماذا تخافون الموت؟

وتكرر الآية (٢٤٥) أن الإنفاق في سبيل الله عبارة عن قرض لله سيسدده بفوائد مضاعفة.

وتؤكد الآية أن الإنفاق لن يقود المنفق للفاقة كما يظن بعض المسلمين الذين أحجموا عن الإنفاق خوف العوز.



وتقول سورة البقرة: الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٢).

بعض المسلمين كانوا ينفقون بمنة ويؤذون من يدفعون إليهم نفقاتهم بإشعارهم بالمهانة والذلة.

أحد المسلمين أو بعضهم حضروا للصلاة مع الرسول في المسجد وهم سكارى

تقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣).

السكران يفقد السيطرة على منطقه وتصرفاته، وهو ما حدث لمسلم أو نفر من المسلمين حضروا المسجد للصلاة مع الرسول وجماعة المسلمين وكانوا سكارى. فصدرت منهم عبارات وتصرفات أفسدت على بعض المصلين صلاتهم. فجاءت الآية تنهى أي مسلم عن الحضور للصلاة بعد أن يشرب الخمر حتى تزول تماماً آثار السكر ويكون بإمكانه التحكم التام بمنطقه.

وهذه الآية ليس فيها تشريع، ولكنها تتفاعل مع ما حدث وتوجه المسلمين لما يجب عليهم فعله في حالات مماثلة، وذلك قبل تحريم الخمر.

مسلمة يثرب يحتكمون لكتب اليهود

الآيات: (٥٩-٧٠) من سورة النساء تخبرنا بحادثة وقعت لمسلمة يثرب، تتلخص في أنهم احتاجوا لمعرفة حكم ديني حول مسألة فسارعوا لسؤال رجال دين بني إسرائيل واليهود عن حكمها.

وكمقدمة تقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٥٩).



الإسلام يعني الالتزام بأوامر الله ونواهيه وعدم الاحتكام لغير كتابه. وفي حال تنازع المسلمون حول مسألة لا يجدون لها حكماً في كتاب الله فعليهم سؤال الرسول عنها. والرسول كالعادة سينتظر الوحي، وعندما يأتيه يقوم بتلاوته عليهم ليتبينوا حكم الله فيما شجر بينهم. وبطبيعة الحال هذا كان قبل اكتمال تشريعات الدين، ولو أن النزاع حدث بعد نزول سورة المائدة، فلن يكون للمسألة حكم ديني، وعلى كل شخص أن يعتقد ما يراه حولها. فمن كرهها فلا يقدم عليها ومن ظن أنها مباحة فهي كذلك. وفي كل الأحوال لا يسأل غير الرسول في أي مسألة، لأن الرسول هو من ينزل عليه الوحي. وأي حكم بغير ما نزل به الوحي فهو ضلال، ويدخل في هذا كل فقه يعتمد كتب التراث، وكل فتوى خارج كتاب الله.

وتقول السورة: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً(٦٠)

هناك فئة من الذين يزعمون أنهم آمنوا يريدون أن يحتكموا لحكم «الطاغوت». أي حكم ضال غير إسلامي. والآية تظهر أنهم ممن أعلن دخول الإسلام من أهل الكتاب في يثرب، وهم من أطلقنا عليهم «مسلمة يثرب» لأن الآية تعرفهم بأنهم « آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ». أي ممن آمن بمن قبل محمد والإشارة هنا لموسى. ويبدو أنهم سارعوا للبحث عن حكم فيما اختلفوا فيه إلى كتب اليهود أو رجال دينهم، وكان عليهم أن يسألوا الرسول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً(٦١).

ومسلمة يثرب لم يحاولوا سؤال الرسول، وإنما سارعوا لسؤال رجال الدين من أهل الكتاب. وهذه الآية تصفهم بالمنافقين. لأنهم ممن يعلن الإسلام ولم يسلموا. وهم من تحدثت عنهم سورة البقرة في الآيات (٨-٢٠).

ولو أصابتهم مصيبة لتراكضوا للرسول ليدعو لهم وليعينهم، ويحلفون له أنهم مؤمنون: فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً(٦٢).



ثم تصفهم الآية التالية بأن قلوبهم (ضمائرهم وأفكارهم) ليست سليمة: أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً(٦٣).

وقد وصفتهم سورة البقرة أنهم: «في قلوبهم مرض (١٠).

وتقول السورة إن المؤمن يطيع الرسول لأن الرسول لا ينطق من هواه ولكنه يتلو ما يوحي به الله إليه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً(٦٤).

واستغفار الرسول لهم هنا لا يعني أن الله سيقبله ويغفر لهم لأن رسوله استغفر لهم، ولكن الآية تقول بأن المسلمين كانوا يستغفرون الله ويشهدون الرسول على التوبة. واستغفار الرسول لهم مثل دعوة الملائكة للمؤمنين معنوية تشعرهم بأن الله ورسوله معهم.

ثم تؤكد السورة حقيقتهم وأنهم كفار: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً(٦٥).

هنا الآية تؤكد أن المؤمن هو من يحتكم لكتاب الله (القرآن) وما عداه فلا يمثل دين الله.

ثم تقدم السورة خلاصة القول عنهم: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً(٦٦) وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً(٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٦٨) وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً(٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً(٧٠) النساء.

فهم ممن أعلن إسلامه من بني إسرائيل واليهود ولم يسلموا، بل كانوا يبحثون عن منافع سلطوية أو جاه أو معنويات.

ويكون قد ظهر في عصر الرسول حتى نزول سورة النساء فئتان منافقتان، ولم يمض على الهجرة إلا بضعة أشهر:

١. مسلمة قريش: وهم منافقون من بعض من أعلن إسلامه من قريش، بعضهم ارتد قبل الهجرة، وبعضهم هاجر ولكنه بقي يوالي أقاربه المشركين.

٢. مسلمة يثرب: وهم منافقون من بعض من أعلن إسلامه من أهل الكتاب في يثرب بحثاً



عن أوضاع أفضل. لكنهم بقوا يؤمنون بكتبهم ودياناتهم السابقة، ويوالون أقوامهم الذين لم يسلموا، ويتظاهرون بالإسلام فقط، وهم من تتكلم عنهم هذه الآيات.

وهو ما يظهر أن مجتمع الصحابة لم يكن مسلماً بمثالية، حتى في الأيام الأولى للهجرة، وبقي بعيداً عن المثالية طوال عصر الرسول.

وهناك وقائع تحدثنا عنها بتفصيل أثناء التدبر ولا نرى حاجة لإعادة الحديث عنها هنا، ومن ذلك:

مواقف المسلمين من القتال متباينة

الآيات: (٧٣-٨٥) تبين أن مواقف المسلمين من الخروج لقتال قريش متباينة.

فئتان من مسلمة قريش لم يهاجروا

الآيات: (٨٨-٩١)

والحديث عن ذلك مفصل أثناء تدبر سورة النساء.

حادثة وقعت وكاد الرسول أن يصدق الجاني ويتهم البريء

والتفاصيل مذكورة في تدبر الآيات: (١٠٥-١١٥) من سورة النساء.

مسلمة قريش كانوا يسخرون من القرآن في المدينة

في البداية تخبرنا سورة النساء أنهم كفار ولو أعلنوا الإسلام: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً(١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً(١٣٩) النساء.

ثم تقول السورة إنهم كانوا يسخرون من القرآن، وعلى المسلمين عدم مجالستهم:

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً(١٤٠) النساء.



والآية تؤكد أن الرسول والمسلمين يعرفون المنافقين بأشخاصهم وأسمائهم، ولو كانوا لا يعرفونهم كما تزعم كتب التراث لما أمرت الآية الرسول والمسلمين عدم الجلوس معهم.

وكان مسلمة قريش يتحرون هزيمة المسلمين وسحقهم على أيدي قريش القادمة لحربهم: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(١٤٣) النساء.

وبإعلانهم الإسلام يظنون أنهم يستطيعون خداع الله والله يعلم سرهم ونجواهم. وهم مذبذبون ليس لهم رؤية واضحة لما يجب عليهم فعله.

غارة على المسلمين

تقول سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١).

هناك من حاول أن يبسط يديه إلى المسلمين، بمعنى الاعتداء عليهم، لكن محاولاتهم فشلت، ولم يتعرض المسلمون لأذى.

فمن الذين حاولوا مهاجمة المسلمين في السنة الأولى للهجرة، وقبل معركة بدر ببضعة أشهر؟

كتب السير لم تشر لهذه الحادثة لأن القرآن أشار لها إشارة عابرة دون تفاصيل، مما تعذر على القصاص اختلاق القصص حولها، أو أنهم أهملوها عمداً.

ولو حاولنا البحث عمن حاول مهاجمة المسلمين فسنستبعد أهل الكتاب في يثرب، لعدة أسباب، منها:

- أن العلاقة بينهم وبين المسلمين ما زالت غير عدائية، لدرجة أن القرآن أباح الزواج بالكتابيات في نفس هذه السورة: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ



الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥) المائدة.

- لو كانت محاولة الهجوم من أهل الكتاب أو غيرهم من سكان يثرب لعاقبهم المسلمون عليها، وهذا لم يحدث.
- أنه حتى بعد أن استحكم العداء بين بعض أهل الكتاب والمسلمين لم يتعرض المسلمون لهجوم من أهل الكتاب أبداً.

كما يمكن استبعاد قريش من أن تكون هي من حاولت الهجوم على المسلمين، لأسباب منها:

- أن قريشاً ما زالت تعد العدة وتجهز جيشاً لمهاجمة المسلمين، ولن تكتفي بغارة خاطفة.
- أن قريشاً لا تستطيع التوغل في أراضي يثرب للوصول للمسلمين دون تنسيق مسبق مع أهل الكتاب (أهل يثرب) وإلا اعتبرت غارتهم تعدياً على حمى اليثربيين وإعلاناً للحرب بين قريش ويثرب. وهذا لم يحدث ولا رغبة لقريش ولا لأهل الكتاب في حدوثه.

فإن كان من حاول الهجوم على المسلمين ليس أهل الكتاب ولا قريشاً، فمن يكون؟

نتذكر أنه في الأيام الأولى لوصول الرسول مهاجراً توافدت جموع من الأعراب عليه معلنين إسلامهم وطامعين في الهبات والعطايا، كما أخبرتنا الحجرات: (١٣-١٧)، المجادلة: (١١-١٣) لكنهم لم يحصلوا على بغيتهم، وحصلوا على توبيخ على تصرفاتهم الفجة البعيدة عن التهذيب. وقد عادوا أدراجهم محملين بالخيبة وبمشاعر الحنق. وبما أن كثيراً من الأعراب كانوا يعيشون على غارات السلب والنهب في ذلك الوقت، فإن أصابع الاتهام تتجه إلى بعض من حضر للرسول. ومن الشواهد التي تؤيد هذا الاعتقاد أن ما حدث كان عبارة عن محاولة لغارة سلب خاطفة، ولم تكن جيشاً حربياً. لأن الآية تقول: «إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ». فالغارة كانت عبارة عن عدد محدود تسللوا إلى يثرب تحت جنح الظلام ووصلوا لمساكن المسلمين علهم يظفرون ببعض الإبل أو المتاع، لكن المسلمين تنبهوا لهم وتنادوا عليهم، ففشلت المحاولة وهرب الغزاة دون أن يكون هناك قتال. وهو تصرف معتاد من عصابات السلب والنهب، حيث يهاجمون بأعداد قليلة فإن



نجح مسعاهم ساقوا غنيمتهم وعادوا أدراجهم، وإن تمت مواجهتهم ولوا الأدبار.

وما يؤكد أن ما حدث عبارة عن غارة سلب ونهب، هو أن السورة فرضت عقوبات دنيوية على كل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل هذه الأعمال الإجرامية مستقبلاً، في قوله تعالى: إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٤) المائدة.

كما فرضت عقوبة على كل من يمد يده لسرقة أموال الغير: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

جاءت الآيات: (٣٨-٣٩) لتفرض عقوبة على من كان يحترف السرقة لعلاقتها بموضوع السلب والنهب. وللمزيد من التفاصيل يمكن العودة لفقرة: عقوبات على من يغير على أموال الناس ويسلبها/ وفقرة: عقوبة السارق والسارقة: قسم تشريعات من القرآن.

تحريم الخمر

ورد ذكر الخمر في الآية: (٢١٩) من سورة البقرة لأن بعض المسلمين سألوا الرسول عن المتاجرة بالخمر والميسر، فجاء الحكم كما يلي: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩).

ففيهما مكاسب مادية، لكن المتاجرة فيهما إثم كبير (كبيرة)، والكبيرة موجبة للنار.

ثم حدث أن بعض المسلمين حضروا للصلاة مع الرسول وجماعة المسلمين في المسجد وهم سكارى فصدر منهم كلام وتصرفات أفسدت الصلاة على المصلين، فنزل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُورا(٤٣) النساء.



ولم تحمل الآيات تحريماً للخمر.

ثم نزلت سورة المائدة والتي ورد فيها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(٩١) وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(٩٢) المائدة.

وهذا هو النص المحرم للخمر والميسر. فالآيات جعلتهما في منزلة واحدة مع الأنصاب والأزلام وهما من الأعمال الوثنية. ووصفتهما بالرجس ومن عمل الشيطان. وليس هناك وثنيات ولا رجس ولا عمل للشيطان جائز أو مباح في الإسلام. وليس هناك في الإسلام أعمال مباحة تصد عن ذكر الله وتسبب البغضاء. وتقول الآية مخاطبة المسلمين: «فهل أنتم منتهون» ليس كتساؤل متروك للمسلمين الخيار للإجابة عليه بنعم أو لا. ولكنه بمعنى «أفلا تنتهون». لأن الناهي هو الله ونهي الله للامتثال وليس للتخيير. لذا فقد قالت الآية التالية: « وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ». ومن لا يطع الله والرسول وينتهي عن نواهيه سبحانه فليحذر عذاب الله.

معركة بدر

صورٌ لفئات المجتمع المسلم في يثرب، قبيل معركة بدر المرتقبة

الآيات: (١٦–٣٨) من سورة محمد والخطاب إخباري

- مسلمة يثرب

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ(١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ(١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ(١٩).

وكانوا يظهرون الموافقة على ما يقول الرسول في مجلسه دون اقتناع. لأنهم لم يؤمنوا ولو



أظهروا الإسلام، وهم الذين طبع الله على قلوبهم ولن يهتدوا.

وقد أصيبوا بالهلع عندما فرض القتال: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ(٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ(٢١).

وهؤلاء لن يخرجوا للقتال: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(٢٢).

و (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ(٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤).

لأنهم بعزمهم على عدم الخروج اقترفوا عصيانا لأمر الله. وعصيان أمر الله ردة عن الإسلام: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ(٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ(٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ(٢٩) وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ(٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(٣١).

والآية: (٢٧) تعبير مجازي لسوء خاتمتهم وذلتهم، لأن ضربهم على وجوههم وأدبارهم لحظة الوفاة ليس عقاباً رادعاً ولا مؤثراً، والعذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة وليس لحظة الوفاة. كما أن استخدام الملائكة للموت وكأن هناك مخلوقات حية لنزع الأنفس من الأجساد هو تعبير مجازي أيضاً، لأن الموت يحدث بطريقة آلية لا يتدخل فيها مخلوقات حية، مثلها مثل كل ما يحدث في الكون الذي يسير بقوانين وآليات إلهية ثابتة ولا يسير الكون وما فيه بواسطة مخلوقات تديره.

- مسلمة قريش

وقد أعلنوا على الملأ معارضتهم لحرب قريش، الذين تصفهم السورة كما يلي: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً



وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ(٣٢).

ويتجه الخطاب لمسلمة قريش: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ(٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ(٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتدعو إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ(٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ(٣٧).

والآية: (٣٥) تظهر أن مسلمة قريش كانوا يقترحون عدم الدخول في حرب مع قريش: « فَلَا تَهِنُوا وَتدعو إِلَى السَّلْمِ». لأنهم يوالونهم ولا يرغبون في رؤيتهم يقتلون أو يتعرضون للهزيمة والذل.

- بعض المسلمين تباطأ في الإنفاق، وبعضهم امتنع

هَا أَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يكونوا أَمْثَالَكُمْ(٣٨).

وكما رأينا منذ نزول سورة البقرة والتي فرض فيها الجهاد وآياتها وآيات سورة النساء بعدها وهذه السورة تحث المسلمين على الاستعداد للخروج وعلى الإنفاق لتسليح الجيش وتجهيزه. ولكن فئات كثيرة من المسلمين امتنعوا عن الإنفاق، وغيرهم ينفق القليل، وأناس ينفقون أسوأ ما لديهم.

وهذه الصور التي كان عليها المسلمون في يثرب لم تكن مشجعة ولا مثالية قبيل أول معركة مصيرية للمسلمين ضد قريش التي تحاول القضاء عليهم وعلى دينهم. ولو هزم المسلمون في تلك المعركة فقد يمحون من الوجود ويزول دين الله، ومع ذلك فقد كانوا يبدون بصور بعيدة عن المثالية. وهي صور مخالفة لما ذكرت كتب التراث التي تصور المسلمين على أنهم هم من كان يلاحق قريشاً ويُغِيْرُ على قوافلها التجارية، وكانوا تواقين للقاء العدو، ويتسابقون للخروج والإنفاق.



الضعيف الملاحق لا يجرؤ على التحرش بالمتسلط الذي يطارده

لقد هرب المسلمين من مكة لأن قريشاً كانت مصممة على اضطهادهم وتعذيبهم حتى يرتدوا عن دينهم، ولم يكن لهم قبل بها ولا قدرة على صد عدوانها. وحتى بعد الهجرة وانضمام الأنصار لهم، لم تكن أعدادهم ولا قوتهم تقارن بأعداد قريش وقوتهم والدليل هو أن جيش قريش الذي دخل معركة بدر لم يكن هو كل ما تستطيع قريش تجهيزه، ومع ذلك كان يفوق جيش المسلمين عدداً بحوالي الضعف، ويتفوق عليهم عدة وتجهيزاً.

ومعركة بدر تحدثت عنها سورة الأنفال، والتي نزل قبلها عشر سور في المدينة. وقد وقعت بعد (٢١) شهراً من هجرة الرسول. وخلال تلك الفترة كانت قوافل قريش تجوب طريق القوافل المتجه للشام جيئة وإياباً، في وقت كان المسلمون في بداية استقرارهم في يثرب فقراء بحاجة ماسة لما تحويه تلك القوافل من متع وأموال. ولو كان سبب معركة بدر هو الحصول على ما تحمله قافلة قريش لتكررت غارات المسلمين على قوافل قريش طوال الأشهر الماضية.

ولماذا لم يغيروا على قوافل قريش منذ الهجرة، وتأخروا قرابة العامين لكي ينتفضوا فجأة بغارة فاشلة لم يحصلوا بموجبها على بعير واحد من عير قريش؟

والقرآن بدأ الحديث عن القتال من سورة البقرة، ثم في سورة النساء، ثم في سورة المائدة، ثم في سورة محمد، ثم في سورة الصف، قبل أن يحصل القتال في بدر، وهي مدة طويلة. وخلال هذه المدة الطويلة استمر القرآن يحث المسلمين على الاستعداد للخروج والإنفاق لتجهيز الجيش. فهل الاستعداد للغارة على قافلة تجارية لا يسير معها سوى نفر من العبيد يحتاج لهذه المدة الطويلة ويحتاج لإنفاق وتجهيز جيش؟

أم أن الأخبار تواترت أن قريشاً تعد العدة لمهاجمة المسلمين في يثرب، لأنها تسعى وستبقى تسعى للقضاء على الإسلام وأهله. وزاد إصرارها لأن الرسول استطاع التسلل من مكة ووصل ليثرب وأسس دولة. وقريش سعت من البداية ضد توسع الإسلام، وبالتالي فلديها دافع لحرب المسلمين. وانقضاء عدة أشهر قبل أن يخرج جيش قريش من مكة يعود لأن مهاجمة قريش للمسلمين في يثرب احتاجت لمفاوضات مع أهلها اليهود وبني إسرائيل والنصارى، لأن مهاجمة من في يثرب من المسلمين سيعتبر اعتداءً على أرض يثرب وأهلها.



وقد يكون هذا السبب هو الذي جعل المسلمين يخرجون من المدينة لملاقاة قريش عند بدر، لأن أهل يثرب لم يرغبوا أن تكون المعركة في بلدهم. وتم الاتفاق أن يلتقي جيش المسلمين بجيش قريش على الطريق المؤدية لمكة، وبعيداً عن يثرب.

وأول ذكر للقتال جاء في سورة البقرة ليضع ضوابط للقتال المرتقب الذي لم يعد للمسلمين مناص عنه: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠).

وأول أمر في هذه الآيات هو قتال من يقاتل المسلمين، والتحذير من قتال من لا يقاتلهم أو يبدأ بقتالهم: «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ». ولو كان المسلمون يخططون لغزوٍ على قافلة وبمباركة القرآن، فستأتي الآيات تحثهم على التربص بالقافلة والغدر بحراسها، وكيفية سوق الغنيمة ليثرب. بينما تشير الآية إلى أن الإغارة على قافلة تجارية تعدٍ وظلم وتنهى عنه. بل وتنهى عن قتال من لا يقاتل المسلمين ولو كان من قريش أو من عبيدها الذين يرافقون قوافلهم التجارية. وهذا يؤكد أن الحديث هو عن قتال فرض على المسلمين ولم يفرضه المسلمون على قريش، وليس الحديث عن الاستعداد لغارة سلب ونهب.

وتعود سورة البقرة لتؤكد أن القتال فُرِضَ على المسلمين ولم يختاروه، وذلك بإظهار مشاعر المسلمين حول الخروج للقتال: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧).

لقد كرهوا الخروج للقتال، قبل أن تفرضه عليهم سورة البقرة، لأن الأخبار تواترت عن حشد قريش واستعداداتها. ومن يكره القتال فسيتجنب أسبابه، ولن يقدم على مهاجمة عيرٍ لقريش، لأنه يعلم أنهم سيحمون عيرهم وسيقاتلون كل من يتعرض لها.

وتتوالى الآيات في الحث على الإنفاق في سبيل الله (تجهيز الجيش)، ومن ذلك: مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ



لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٢).

ولو كان المسلمون هدفهم الإغارة على عير قريش لما كان هناك داع لتجهيز جيش، لأن العير يكون معها عدد محدود من الرجال، وكل ما على المسلمين هو مباغتتهم بعدد أكثر قليلا والقضاء عليهم والاستيلاء على القافلة. وبما أن طريق القوافل يمر بالقرب من يثرب فسيتمكن الغزاة المسلمون من إيصال القافلة ليثرب قبل أن يصل الخبر لمكة وخروج رجال قريش للدفاع عن أموالهم.

ولو فعل المسلمون ذلك فسيحصلون على أموال طائلة تكفي لتجهيز جيشهم ولا حاجة لحث المسلمين متوسطي الحال على الإنفاق.

وتستمر سورة البقرة بالحث على الإنفاق حتى الآية: (٢٧٢) التي تخاطب الرسول: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٢).

لقد كانت استجابة المسلمين للخروج للقاء العدو والإنفاق لتجهيز الجيش غير مرضية.

والإنفاق والاستعداد كان لمعركة وليس لغزوة سلب ونهب.

وتظهر سورة النساء أن طائفة من المسلمين أصيبوا بالهلع لما كتب عليهم القتال خوف الموت: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً(٧٨).

والغارة للسلب والنهب عادة لا يصاب فيها المهاجمون أو يقتل منهم أحد إلا نادراً، وهو ما يعني أن الغزاة لا تعتريهم موجة من الهلع للخروج للغزو. بينما لو كانت الدعوة لمعركة وقتال للعدو وجهاً لوجه فالخوف من القتال حاضر.

ولو تذكرنا أن قريشاً لديها الدافع لملاحقة المسلمين وقتالهم، لأنها تسعى للقضاء عليهم،



بينما المسلمون يتكونون من مستضعفي مكة من عبيد وموالٍ تطبعوا على الخنوع للسيد، إضافة لمستضعفي يثرب من الأوس والخزرج الذين لا يريدون الدخول في قتال مع قريش. لو تذكرنا هذا لعرفنا أنه لا المستضعفون ولا الأوس والخزرج سيبادرون بقطع الطريق على قوافل قريش خوفاً من تبعات هذا العمل. خاصة أن قريشاً اكتسبت احترام كل سكان جزيرة العرب، ولذلك فقوافلها لا تتعرض للسلب والنهب من قبل تلك القبائل التي تعيش على النهب والسلب احتراماً لمكانة قريش. ولو قام أحد بالاعتداء على قوافل قريش فسيسخط عليه مجتمع جزيرة العرب قاطبة. ولهذا وجدنا فيما بعد أن قبائل عدة ناصرت قريش في حربها ضد المسلمين في الأحزاب وفي حنين، برغم معرفتهم أن قريشاً هي من بادر بحرب المسلمين. ودون أن يهاجمهم المسلمون أو يعتدوا عليهم ولكن استجابة لدعوة قريش التي دعتهم لنصرتها. وقد تكون قريش قد دفعت لرجال تلك القبائل الأموال بمعاونتها على حرب المسلمين، وقد تكون سورة الأنفال قد أشارت لهذا في قوله تعالى متحدثاً عن قريش: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦).

وتستمر سورة النساء تحث على القتال والإنفاق وفي نفس الوقت تظهر مواقف المسلمين من الخروج: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً(٨٤).

والخطاب للرسول وتقول له الآية إنه لو لم يخرج إلا أنت والقلة المخلصة فقاتلوا في سبيل الله والذود عن دينه. وهذه الصورة تظهر أن غالبية المسلمين لم يرحبوا بالخروج وظهرت مواقفهم الرافضة للعيان.

ولنتذكر أن أول آية ذكرت القتال أكدت على قتال المقاتلين فقط وعدم الاعتداء (على الأموال أو الأنفس التي لا تقاتل). وسورة النساء تعود وتؤكد على عدم التعرض لمن ألقى السلم ولم يقاتل المسلمين، ولو كان من الأعداء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤).

ونتوقف عند هذه الآية لأنها تنفي نفياً قاطعاً أن يخرج المسلمون لقطع الطريق والاستيلاء



على القوافل. وتقول لا يجوز لكم أن تعترضوا المسالمين (كالذين يقودون القوافل) لكي تستولوا على (عرض الحياة الدنيا من أموال ومتاع) بحجة أنهم ليسوا مؤمنين (مسلمين).

وتستمر السورة تحث على القتال في الآيات: (٩٥-٩٦).

ثم تتحدث السورة عن حالة قد يتعرض لها المسلمون عند لقاء العدو في أرض المعركة (الحديث عن لقاء جيشين للقتال وجهاً لوجه، وليس الاختباء خلف الصخور للانقضاض على حراس القافلة وقتلهم والاستيلاء على قافلتهم): وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً(١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٠٢).

ولو كان المسلمون خرجوا للغارة والسلب فلن يكون هناك لقاء بالعدو وجهاً لوجه، ولن يكونوا بحاجة لصلاة خوف لأن حراس القافلة هم الذين سيخافون لتعرضهم لهجوم خاطف، ولن يحتاج الغزاة لوقت طويل لتنفيذ العملية.

ثم تبدأ سورة المائدة بتحذير المسلمين من أن يتعرضوا لغير المقاتلة، حتى ولو كانوا من قريش: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

لا تحلوا شعائر الله والشهر الحرام بحجة أنكم تقاتلون العدو. ولا تتعرضوا لمن هو متجه للبيت ويسوق هديه، ولا لمن يقود قلائده، كالقافلة. وتعدي قريش عليكم وأنتم في مكة وخروج جيشها لملاحقتكم ليس مبرراً لتعتدوا.

مرة أخرى التحذير من مهاجمة العير ونحوها، فهدف المسلمين ليس عرض الحياة الدنيا (القافلة) ولكن قتال من يعتدي عليهم ويحاول القضاء عليهم وعلى دينهم، وهو ما سعت



له قريش. فقد آذت المسلمين في مكة وهرب المسلمون منها ليثرب اتقاء لشرها. فهل يعقل أن يلاحقوا قوافلها ويعطوا قريش سببا للهجوم عليهم والقضاء عليهم؟

وتستمر السورة لتؤكد على المسلمين ألا يعتدوا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٠) المائدة.

والتعدي على القوافل اعتداء وظلم.

وتستمر السورة تحث المسلمين على القتال وليس على غارات السلب والنهب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣٥).

وتأتي سورة محمد لتكمل فرض ضوابط للقتال المرتقب الذي استعدت وحشدت له قريش منذ فترة طويلة: فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(٦).

الاستعداد للقتال وليس للغارات، وحثٌّ عليه ووعد بالجنة لمن يخرج للقتال. إشارة إلى استمرار تثاقل كثير من المسلمين عن الخروج.

وتسمي السورة قتال قريش بنصرٍ لله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧).

وهو ما يشير إلى أن قريشاً هي القادمة لقتال المسلمين لكي تقضي عليهم وعلى دينهم، ونصر الله يكون بنصرة دينه والدفاع عنه، وليس بغارة سلب ونهب.

وتستمر السورة بوعد المؤمنين بالجنة، لكن المسلمين استمروا بالتثاقل وعدم الحماس للقتال.

وبعضهم أصيب بالهلع عندما فرض القتال: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ(٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ



لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ(٢١) محمد.

وهذه الصورة من الهلع الشديد لا يمكن أن يتسلح بها عصابات الغزو والسلب والنهب.

بل إن بعضهم ارتد عندما فرض القتال: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ(٢٦) محمد.

ولو كان الأمر يتعلق بالغارة على قافلة تجارية فلن يكون هناك مثل هذه المواقف المتشنجة والخوف والقلق، لأن المطلوب لقطع الطريق نفر قليل وليس كل من يستطيع حمل السلاح.

وتستمر سورة محمد كالسور السابقة تحث على الإنفاق في سبيل الله: هَا أَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(٣٨).

والإنفاق لا حاجة له لو لم يكن هناك جيش يجب تجهيزه، والصورة التي تقدمها السورة لاستجابة المسلمين للإنفاق ليست ناصعة.

وتأتي سورة الصف آخر سورة نزلت قبل معركة بدر تحث على القتال وليس الغزو: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ(٤).

وتظهر سورة الصف أن التردد للخروج والإحجام عن الإنفاق هو السائد برغم أن المعركة أصبحت على الأبواب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١٣) الصف.

ويستمر التلكؤ من المسلمين ويستمر الحث على الخروج: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ(١٤) الصف.

وهكذا كان حال المسلمين قبل بدر، وهي حال أناس أرعبتهم فكرة قتال قريش السيد



السابق، ومن معه مال أحجم أن ينفق لتجهيز جيش يظن أنه خاسر لا محالة، لأن إمكانيات الفارين من مكة والأوس والخزرج من يثرب لا تقارن بإمكانيات قريش.

ولكن قريشاً قادمة ولابد من قتالها لئلا تسحق المسلمين. فالمعركة فرضت على المسلمين ولم يطلبوها، كما أن المسلمين لم يكونواا في وضع يؤهلهم لتحدي قريش بالإغارة على قوافلها وجرها لقتالهم وهم لا قبل لهم بها.

إضافة إلى أن أول ما أوجب القرآن على المسلمين عندما فرض القتال هو تحريم التعدي على المسالم أو الأموال تحريماً قاطعاً، وقتال المقاتلة فقط.

سورة الأنفال تروي ما حدث في أرض المعركة

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦).

بعض من خرج مكرهاً استمر يجادل الرسول وهم في الطريق إلى المعركة على أن يجد وسيلة لتجنب القتال، لأنهم لا يريدون أن يقتلوا.

هؤلاء خرجوا مكرهين وهم خائفون من الموت، وإن كانوا يتمنون أن لو حصلوا على الغنائم. ولو كانوا مؤمنين حقا لأقدموا فإن قتلوا ففي الجنة وإن انتصروا حصلوا على الغنائم: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨) الأنفال.

لكن كثيراً من المسلمين لا يريدون ذات الشوكة (القتال) بل يريدون غنائم بلا قتال. والله جل وعلا فرض القتال ليقطع دابر الكافرين وليحق الحق ويبطل الباطل. فقريش ستبقى خطراً على الدين وها هي مصممة على ملاحقة المسلمين في مهجرهم، ولم تتركهم بعدما تركوا مكة. لذا توجب أن يواجهوا ويقاتلوا ويسحقوا ليأمن المسلمون شرهم مستقبلاً.

والحديث موجه لمن خرج وهو كاره للقتال ويمني النفس بالغنائم فقط. وليس المعنى أن الله قد أمر المسلمين بالغارات على قوافل قريش وتجنب قتالهم ولكن قريشاً لاحقتهم فقاتلوا مجبرين.



متى وقعت معركة بدر؟

كتب التراث تقول إنها وقعت في رمضان من العام الثاني للهجرة، ولن نسلم بهذا، وإنما سنحاول تقدير الفترة بين هجرة الرسول ووقوع المعركة بعدد السور التي نزلت في ذات الفترة. فقد نزل الوحي على الرسول إحدى عشر مرة منذ وصوله المدينة حتى معركة بدر والتي تخبرنا بها سورة الأنفال، والسور هي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، الجمعة، البقرة، النساء، المائدة، والسورة التي ألحقت بآخر المزمل، الماعون، محمد، والصف.

والسور الأربع الأولى نزلت في الأيام الأولى للهجرة وتناولت الأحداث حينها، ولم يكن بين نزول سورة وأخرى سوى أيام. ولو قدرنا الفترة بين نزول كل سورة وأخرى بأسبوعين فإن نزول الأربع سور الأولى لم يزد عن شهرين إلى ثلاثة أشهر من الهجرة. وهي فترة كافية للاستقرار وإفهام الأعراب أن الرسول لم يأت كملك ولا يملك المال، فعادوا أدراجهم ولم يبق في المدينة إلا المهاجرون وفي يثرب أهلها. فبدأ نزول سور التشريع: البقرة، النساء، المائدة، والسورة الملحقة بآخر المزمل. ولو افترضنا أن بين كل سورة وأخرى ثلاثة أشهر، فقد استغرق نزولها قرابة العام. ثم نزلت سور الحث على القتال والإنفاق: الماعون، محمد، والصف، وسنفترض أن بين كل سورة وأخرى شهراً. وهو ما يعني ثلاثة أشهر أخرى. فيكون قد مضى على الرسول في المدينة قرابة (٢١) شهراً حين وقعت معركة بدر.

وما قيل إن الهجرة كانت في ربيع مجرد تخمين وخرص وظن قالت به كتب التراث التي كتبت بعد عصر الفتن والظلمات، ولا يعتد بها قالت كالعادة. والهجرة ومعركة بدر يحتمل أن تكونا حدثتا في أي شهر. وقد تكون الهجرة حدثت بالفعل في محرم، ولهذا اعتبر أول شهور السنة الهجرية، من الهجرة. ولم يكن شهر محرم أول شهور السنة الهجرية، لأن الناس كانوا يعرفون الأشهر القمرية لكنهم لا يؤرخون بسنواتها. أي لم يكن لهم سنوات قمرية، تبدأ بشهر معين، لأنهم لا يؤرخون، وبالتالي لا يحتاجون لمعرفة متى تبدأ السنة القمرية. ولا يعني لهم شيئاً أن يكون للسنة أول أو آخر. ولكن يهمهم أن يكون لكل شهر قمري أسم، وهو ما يعرفون.

ولو كانت الهجرة حدثت في محرم، فإن معركة بدر قد وقعت في رمضان من السنة التالية (كما تقول كتب التراث). ويكون بين الهجرة وبدر حوالي (٢١) شهراً، وهو ما يتفق مع



تقديراتنا لنزول السور بين الهجرة ومعركة بدر.

لماذا تأخر القتال قرابة العامين بعد الهجرة؟

وهو ما أشرنا له في صفحات سابقة، وهنا نقول:

المعركة لم تحدث بسبب طمع المسلمين بقافلة قرشية قادمة من الشام، كما رسخت كتب السير والتاريخ التي دونتها قريش. ولكنها حدثت بسبب إصرار قريش على ملاحقة المسلمين، وهو ما بينته سور المرحلتين الأولى والثانية من مراحل الدعوة في المدينة، التي تحث المسلمين على الاستعداد للمعركة التي كانت مرتقبة قبل شهور، لأن الأخبار تواترت بأن مشركي مكة عازمون على ملاحقة المسلمين. وبما أن قريشاً لا تستطيع مهاجمة المسلمين في بيوتهم، لأنهم يعيشون ضمن أراضي يثرب. وأهل يثرب (أهل الكتاب) لن يسمحوا لجيش قريش أن يطأ أرضهم، حتى ولو لقتال المسلمين الذين لا يرغبون بهم. ولابد أن مفاوضات بين قريش وأهل يثرب حول ما يمكن فعله، قد طالت لبضعة أشهر وانتهت بإقناع الطرفين (المسلمين وقريش) بالاقتتال بعيداً عن يثرب، فكان التقاؤهم قرب آبار بدر. ومن المحتمل أن مكان المعركة قد تم الاتفاق عليه أيضاً، فقد ورد في سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً(٧١). وسورة النساء نزلت قبل المعركة بأشهر ومع ذلك تطلب من المسلمين أن يخرجوا من المدينة للمعركة إذا حان وقتها على شكل جماعات (ثُبات) وفي أرض المعركة يتجمعوا على شكل جيش واحد. أو يخرجون من المدينة كلهم دفعة واحدة على شكل جيش واحد.

وبالفعل التقى الجيشان بالقرب من آبار بدر التي يستقي منها عابرو طريق القوافل الدولية، وهناك دارت المعركة. ولم تكن خيول وجمال قريش تحمل المؤن، كما تزعم كتب التراث، ولكن تحمل السيوف والدروع.

ورفض أهل يثرب السماح لجيش قريش بدخول يثرب والمفاوضات التي دارت بينهم وبين قريش تفسر سبب تأخر قدوم جيش قريش لحرب المسلمين لأشهر طويلة، في وقت لا يحتاجون فيه سوى بضعة أيام للوصول إلى يثرب من مكة.



تتبع ما حدث حسب سير الأحداث

فيما يلي سنتخلى عن ترتيب الآيات، لنتتبع سير الأحداث حسب تسلسل وقوعها.

الخروج للمعركة ومحاولة مسلمة قريش ثني الرسول عن مواصلة المسير

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦) الأنفال.

مسلمة قريش والوا مشركي قريش في مكة، وعندما نزلت آيات الهجرة، وبدأ الرسول يحث الناس على الخروج من مكة، لم يرغبوا في الهجرة. وسورة الصف السابقة، والتي نزلت قبيل وقوع معركة بدر، أشارت إلى أنهم لم يرغبوا في حرب قريش الذين يوالونهم، وكانوا يطلبون من الرسول الدخول في مناقشات مع قريش بدل حربهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ(٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهَّ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ(٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتدعو إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥).

وحتى عندما تجهز المسلمون وخرجوا من يثرب لملاقاة جيش قريش استمر مسلمة قريش يحاولون ثني الرسول عن مواصلة المسير ودخلوا معه في جدال حاد: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦) الأنفال.

لأنهم اعتبروا قتال قريش موتاً لا محالة، ولم يعتبروه مرحلة صعبة لكنها ضرورية في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، لأنهم لم يؤمنوا. ورافقوا جيش المسلمين وهم يمنون أنفسهم بالحصول على الغنائم دون خوض الحرب: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨).

والوعد المذكور في الآية لم يكن وعداً مسبقاً من الله، نزل به نص. ولكن الآية تتحدث عما هو حاصل على أرض الوقع، فالمعركة ستخلف أسلاباً وغنائم. والخروج للمعركة يحتمل الهزيمة والنصر، ويحتمل القتل أو البقاء على قيد الحياة. لذا فهذه الفئة تمني نفسها بالحصول



على الغنائم دون التعرض للقتل. والسورة عبرت عن ذلك وكأن الله وعد بإحدى الحسنيين إما الغنائم أو القتل في سبيل الله والجنة. لأن الله وعد من يقتل في سبيل الله بالجنة، وأعطى المنتصر الحق باقتسام الأسلاب والغنائم.

في الطريق إلى المعركة

تشير الآية إلى أن المسلمين وهم متجهون لميدان المعركة كانوا يتضرعون لله أن ينصرهم، وكانوا قلقين، فأنزل الله سكينته عليهم: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٩).

ولم يمد الله المسلمين بمخلوقات حية تقاتل فعلياً معهم، ولكنه كان مدداً معنوياً وسكينة تشعرهم بالراحة وتذهب عنهم القلق ورهبة المعركة، وهو ما تبينه الآية التالية: وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(١٠).

وكان المدد المعنوي مؤثراً بالفعل لدرجة أن عدداً من المسلمين غلبه النعاس وهو ينتظر بدء المعركة، مما يعني أن القلق الذي تملكهم قد ذهب وحل محله حالة نفسية مسترخية تماماً: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ..... (١١).

كما نزل المطر عليهم في تلك اللحظة، مما زادهم ارتياحاً نفسياً: .... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ(١١).

ونزول المطر في المناطق الصحراوية يشعر الناس بالحبور والراحة النفسية، بعكس نزوله في المناطق المطيرة حيث يكون مصدر إزعاج.

رؤيا الرسول

في الطريق لميدان المعركة (قرب آبار بدر) احتاج المسلمون للمبيت في الطريق لعدة ليال لأن المسافة تقدر بحوالي (١٢٠) كيلومتر. وفي واحدة من تلك الليالي رأى الرسول رؤيا وكأن جيش المسلمين قد اصطف مقابل جيش المشركين في ميدان المعركة. وكان جيش العدو هزيلاً قليل العدد. وكعادة الناس في ذلك الوقت، قص الرسول رؤياه على أصحابه. وكان لها تأثير سحري في رفع معنويات الرسول والمسلمين، إذ قد يكون الناس ظنوا أن رؤيا الرسول ليست كرؤيا أحدهم، ولابد أن جيش قريش قليل بالفعل: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي



مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٤٣).

ورؤيا الرسول كأي رؤيا لأي شخص، ولا يمكن أن تصور الحقيقة. فقد رأى جيش المشركين أقل عدداً مما هم عليه بالفعل، مما يعني أن الحلم الذي رآه يصور ما يتمناه الرسول وشغل باله قبل المعركة، ولا يصور حقيقة عدد جيش المشركين.

في ميدان المعركة

تُحدثنا سورة الأنفال عن بعض أوضاع المسلمين قبل المعركة، كما يلي:

- بعض المسلمين حدّث نفسه بالهرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ(٤٥).
- كان هناك خلاف حول الكيفية التي تدار بها العمليات، وتداخلت الآراء ولم يعد الكثير منهم يستمع لتوجيهات الرسول: وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(٤٦) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤٨).

وهذه الآيات تحذر المسلمين من تكرار التضارب في الآراء أثناء المعارك، وأنه يجب على كل المحاربين الاستماع والطاعة لأوامر الرسول وتنفيذها. فالمعركة يجب أن تسير بمرئيات قائد واحد، ولو تعددت الآراء وتضاربت الأوامر فسيؤدي ذلك للخسارة وانتصار العدو. وقد وقع ما حذرت منه الآيات هنا، في غزوة أحد القادمة، وتسبب بهزيمة جيش المسلمين، كما سنرى.

- تورد السورة وصفاً لميدان المعركة قبل نشوب القتال، وأين تواجد جيش المسلمين وجيش الكفار؟: إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ



عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(٤٢).

لقد تمركز المسلمون على تل مرتفع من الأرض (عدوة)، وتمركز العدو على تل آخر مقابل له. لكن جيش المسلمين كان على مرتفع يعلو المكان الذي تمركز فيه المشركون، مما أعطاهم أفضلية استراتيجية هامة لكسب الحرب، لم يخطط لها المسلمون مسبقاً، ولكنها حدثت بالصدفة المباركة. وهو مخالف لما ذكرته كتب السير والحديث والتفسير من أن (رسول الله سار ليبادر قريشاً، إلى ماء بدر، فلما جاء أدنى ماء من بدر نزل عليه، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه، ولا نقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال الحباب: يا رسول الله، ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك، ثم غور كل قليب بها إلا قليباً واحداً، ثم احفر عليه حوضاً، فنقاتل القوم ونشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد أشرت بالرأي»، ففعل ذلك) انتهى ما ذكره ابن إسحاق في سيرته.

والقصة مختلقة لأنها تخالف الآية السابقة التي تقول إن نزول جيش المسلمين لم يكن نتيجة تخطيط لا من الحباب ولا من غيره ولا حتى من الرسول، ولكنها صدفة فقط.

- وعندما التقى الجمعان قبل نشوب المعركة، كان المسلمون بمعنويات مرتفعة، لدرجة كان يتراءى لهم أن جيش العدو أقل مما هو في الحقيقة، كما أن المشركين كان يتراءى لهم أن جيش المسلمين قليلو العدد، كما هو بالفعل. وهو ما شجعهم على أن يقدموا على المعركة ويقتل عدد من كبرائهم، وتحل بهم الهزيمة. ولو تخيلوا جيش المسلمين بعدد كبير، فقد يتراجعون عن القتال قبل نشوبه: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(٤٤).

أثناء المعركة

مسلمة قريش يخالفون أمر الله

في سورة محمد التي سبقت معركة بدر، فُرض قانونٌ حربيٌ ينص على وجوب قتل أكبر عدد ممكن من المشركين، لأن قريشاً أكثر عدداً من المسلمين، وقتل أكبر عدد منهم إضعاف وإثخان لهم. ولا يؤسر منهم أحد إلا في معركة يكون المسلمون فيها متفوقين عدداً وعتاداً:



فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

هذا القانون الإلهي عمل بعض المسلمين على مخالفته في معركة بدر، وهو ما أخبرتنا به الآيات التي أجلنا الحديث عنها من سورة الأنفال، وهي: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧) لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٦٨) فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٠) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٧١) الأنفال.

والذين أقدموا على مخالفة قانون سورة محمد، وأسروا مشركي قريش ولم يقتلوهم، هم من أسميناهم مسلمة قريش، الذين بدأوا موالاة مشركي قريش قبل الهجرة، والذين كرهوا الدخول في حرب مع قريش بعد الهجرة، والذين حاولوا إقناع الرسول بالدخول في محادثات مع قريش بدل الحرب، مع أن قريشاً هي من طردت المسلمين في مكة، وهي من لاحقتهم بعد هجرتهم.

والآيات تُذكِّرُ بقانون سورة محمد «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ».
وتبين سبب إقدام مسلمة قريش على أسر أقاربهم، لأنهم يوالونهم ولا يريدون قتلهم «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ». ولم يقع بهم عذاب من الله لأن الله سبحانه يؤخرهم ليوم القيامة: «لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ومسلمة قريش تابعوا مخالفاتهم للوحي، كما فعل بنو إسرائيل زمن موسى قبلهم. الذين طالبوا موسى باتخاذ أصنام، ثم اتخذوا العجل، ثم امتنعوا عن دخول القرية المقدسة..... الخ

وقد قال الله فيهم: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥) البقرة.

وهو ما ينطبق على مسلمة قريش، الذين ستستمر مخالفاتهم للوحي وسيتسببون بمشاكل



للمسلمين ودولته طوال عصر الرسول وبعد موته، ولن يحسن إسلامهم ولن يؤمنوا.

ولو عدنا إلى الآيات: (١٤١-١٤٣) من سورة النساء لوجدنا أنها تقول إن مسلمة قريش قد يصدر منه أي شيء لمؤازرة قريش وحمايتها:

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(١٤٣).

بعد المعركة

- **الأنفال وتوزيعها**

معركة بدر أول حرب يخوضها المسلمون في تاريخهم، وهي المواجهة الحربية الأولى مع قريش. وقد انتصر فيها المسلمون، وقتلوا عددا كبيراً من كبراء قريش، واسروا عدداً آخر، واستولوا على أسلاب وغنائم كثيرة. وغنائم الحرب لها قيمة عالية عند الناس في ذلك الزمان، لأنها عبارة عن سيوف ودروع وعتاد حربي يعز تواجده بكثرة بين أيدي سكان جزيرة العرب، كونها في الغالب لا تصنع محلياً، بل تأتي من الهند والشام ومن بلاد أخرى غيرها. لذا فهي قليلة وغالية الثمن.

والحروب في الجاهلية لها قوانينها المتعارف عليها في اقتسام الغنائم بين أفراد الجيش المنتصر، وتنص تلك القوانين على أن كل من قتل محارباً من العدو فله سلبه، أي ملابسه وسلاحه ومركبه إن كان راكباً. أما بقية الغنائم التي يتركها العدو خلفه بعد هزيمته فهذه هي الأنفال، وكان زعيم القبيلة هو من يقوم بتوزيعها، حسبما يرى.

ولأن بدراً أول حرب يخوضها المسلمون في الإسلام، فقد كان أول اهتماماتهم فيما لو انتصروا على عدوهم، هو كيف سيتم تقسيم الأنفال؟ أما الأسلاب فستذهب لمن حصل عليها، كما كان متبعاً في الجاهلية. فكان أول ما تحدثت عنه السورة هو توزيع الأنفال:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ



وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١).

ومعنى أن تصرف الأنفال لله، أي يصرف منها للنفقات التي تدفعها دولة المسلمين. ومن ذلك تجهيز الجيش وسد حاجات المحتاجين من فقراء ومساكين. ومعنى أن تصرف للرسول أي يؤخذ منها ما يقيم قوته اليومي، لأنه لا دخل له ولا عمل، حيث يقضي كل وقته في الدعوة، ويحتاج للإنفاق على مصروفاته وأهل بيته.

ولأن النفس البشرية ضعيفة فقد يتساءل البعض كيف لنا أن نعرف ما يقسم لدولة المسلمين وما يعطى الرسول؟

أو هل يمكن للرسول أن يأخذ كيفما يشاء من الأنفال دون محاسبة، مثلما يفعل بعض القائمين على الجمعيات الخيرية في بلادنا في هذا العصر بحجة تأويل أن الصدقة يعطى منها القائمون عليها؟

لذا جاءت آية أخرى في السورة توضح هذا الأمر:

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤١).

فالله له خمس الأنفال. أي أن الخمس يخصص لمصروفات دولة المسلمين، وأهمها في تلك الفترة تسليح الجيش وتجهيزه. ولا يذهب لرجل الدين كما يفعل أتباع المذهب الشيعي. والباقي يصرف للرسول والمحتاجين الذين أمر الله أن يعطوا من الإنفاق وهم: المحتاج من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وبنسب متساوية. أي أن الرسول يأخذ ما يأخذه اليتيم أو المسكين لا أكثر. وهو ما يجب أن يصرف للقائمين عليها، في حال تفرغهم للعمل في الجمعيات الخيرية وليس لهم دخل سواه. ولا يأخذون كيفما يشاؤون أو يعطون أكثر من سهم الفقير والمسكين.

وصرف الأنفال كما ورد في الآية لن يعجب البعض من القادرين وغير المحتاجين، الذين يرغبون في قسم منها لأنفسهم، متناسين أنهم لديهم مداخيل تمكنهم من الصرف على أنفسهم وأهلهم. ولن يتقبل حكم القرآن في الأنفال إلا من يؤمن بالله حقاً: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ



يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤) الأنفال.

والمؤمنون حقاً ليس فقط رضوا بحكم الله في الأنفال بل وينفقون من أموالهم في كل المجالات التي تحتاجها دولة المسلمين والمجالات التي أمر بها القرآن، ويقيمون الصلاة وكل أوامر الدين. بينما الذين يطالبون بجزء من الأنفال يتباطؤون في الإنفاق، وقد لا يقيمون كل أوامر الدين، وهم مسلمة يثرب الذين تحدثت عنهم سورة الصف ومحمد والنساء والبقرة وغيرها من السور، والذين أعلنوا إسلامهم ولم يؤمنوا.

- مسلمة قريش (بعد المعركة)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ(٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٥) وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩) الأنفال.

المخاطب هم «مسلمة قريش» الذين لا يستمعون لأوامر الرسول. وتذكرهم الآية (٢٦) ببداية الإسلام في مكة عندما كانوا مع بقية المسلمين قلة مستضعفين خائفين، وتقارن ذلك بحال المسلمين اليوم (بعد بدر)، وما هم عليه من عزة. وكون هذه الفئة توالي مشركي قريش معللين ذلك بصلات القربى وهو غير مقبول عند الله، كما حذرتهم سورة المجادلة: لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا



إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢).

- **ردة فعل المنافقين بعد بدر**

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٩) الأنفال.

لقد كان المنافقون يراهنون على نهاية الإسلام وسحق المسلمين في بدر، بناءً على معطيات الواقع. فقريش أكثر عدداً، وتملك المال الوفير لتجهيز جيشها بأفضل العتاد الحربي المتاح. بينما المسلمون أقل عدداً ولا يملكون المال الكافي لتجهيز جيشهم بتجهيزات موازية لتجهيزات قريش. لكن نتيجة المعركة أصابتهم بخيبة أمل، فقد انتصر المسلمون واندحرت قريش، بعكس كل التوقعات والمؤشرات. فعاد المنافقون إلى المدينة وهم غير مصدقين، وكانوا يتناجون فيما بينهم أن ما حدث هو مجرد صدفة، وأن المسلمين مقضي عليهم لا محالة، فلا يغرنهم انتصارهم غير المتوقع في بدر.

انقلاب الموازين

في بدر اشتبك المسلمون مع مشركي قريش في أهم معركة في التاريخ. إذ إن نتيجتها تحدد بقاء الإسلام وميلاد أول دولة إسلامية، أو زوال الإسلام من سطح الأرض وإبادة المسلمين.

وفي ذلك اليوم، وخلال وقت قياسي قصير، ألحق جيش المسلمين الضعيف والقليل العدد، بجيش مشركي قريش، القوي في كل شيء، إلا في المعنويات، هزيمة أليمة، لم تتعاف منها قريش أبداً. لقد سُحقت كبرياء قريش، التي قدمت ليثرب بصورة السيد الذي سيعاقب عبده الآبق (المسلمين). وكانت تشعر بأنها ليس فقط تتفوق عدداً وتسلحاً، بل إنها تتفوق نفسياً وبدون مقارنة. لأن كثيراً من المسلمين عبارة عن عبيد سابقين وموالٍ مستضعفين اعتادوا الخنوع وعدم القدرة على الوقوف في وجه السيد (قريش). لذا لم يخطر على بال أكثر المتشائمين من قريش أن تحل الهزيمة بهم على أيدي عبيد الأمس ومستضعفي مكة ويثرب.

لكن جرأة أتقياء المسلمين في القتال نتيجة معنوياتهم المرتفعة - والتي لم تتوقعها قريش - أدت لانهيار معنويات المشركين، ولم يفيقوا من الصدمة إلا ومن بقي منهم يهرولون فارين بأرواحهم قبل أن تتخطفها سيوف بلال وعمار وخباب وابن مسعود، تاركين وراءهم عتادهم وركابهم وجثث قتلاهم.



وقد قتل عدد كبير جداً من سادة قريش – بالنسبة لمجموعهم العام – تقول كتب السير والأخبار إنه بلغ سبعين رجلاً من خيرة كبراء مكة. والهزيمة انطوت على أكثر من خسارة الرجال والعتاد، فقد أحدثت في نفسيات قريش جرحاً غائراً، لم يندمل مع الأيام. واستمر ينزف تبعات هدت جسد أهل مكة حتى أنهكته، وأجبرت كبراءها على استسلام مهين لمستضعفيها وعبيدها السابقين بعد وقت قصير من هذه المعركة، دخلت بموجبه مكة تحت حكم المسلمين وأهلها صاغرون.

أما المسلمون فقد مثلت بدر مولداً جديداً لدولة المسلمين التي ولدت ضعيفة هزيلة في المدينة بعد الهجرة، وذلك قبل أشهر من هذه المعركة، وها هي تولد من جديد بروح معنوية وثقة عالية لأفرادها الذين خلعوا أردان الذل وتذوقوا للمرة الأولى ثوب العزة والتمكين.

ولم يعد مقبولاً الآن من المسلمين التفكير بالتردد في قتال العدو، أو التراخي عن القتال أو الهرب من المعركة، كما كان حالهم قبل بدر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ(١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦) الأنفال.

وقتال الكفار لم يأت لأن المسلمين أرادوا ذلك ورغبوا فيه. فقد حدثتنا سور سابقة عن وضع بعض المسلمين قبل بدر وكيف كانوا لا يرغبون في الحرب، لكن الله جل شأنه مهلك الكافرين الذين يحاربون دينه، كسنة مرت على كل الأمم، وهلاك كبراء قريش وقادة الصد عن الدين وحرب المسلمين، جاء علي أيدي المسلمين. فقتلهم كان لمشيئة الله، وما سيوف المسلمين إلا أداة لتنفيذ تلك المشيئة. كما أن الزلازل والبراكين أداة لهلاك قوم لوط، والطوفان أداة لهلاك قوم نوح: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ(١٨) الأنفال.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب لقريش قائلة: إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(١٩) الأنفال.

لقد قدمتم ليثرب للقضاء على المسلمين، كفتح ونصر لكم، كنتم تظنون أنه في متناول



أيديكم دون عناء. لكن الفتح والنصر تحول للمسلمين. ولم تغن عنكم قوتكم، ولن تغني عنكم مستقبلاً في صراعكم مع المسلمين. والخيار الأفضل لكم هو أن تنتهوا عن حرب المسلمين ومطاردتهم وصد غيركم عن الإسلام. وإن غلبت عليكم شقاوتكم وعدتم لحرب المسلمين فسيكون ذلك وبالاً عليكم.

لقد انقلبت الموازين بالفعل، بعد المعركة. فأصبح المسلمون في موقف أقوى وأصبحت قريش في موقف أضعف. مع نقص عدد كبراء قريش بشكل ظاهر بسبب من قتل منهم، بينما كان عدد المسلمين يزيد كل يوم، وسرعان ما ستجد قريش نفسها هي الجانب الأضعف عدداً وعتاداً ومعنويات.

ثم تخاطب السورة فئة من المسلمين الذين كان لهم موقف متخاذل من الحرب، وتحدثت عنهم السور السابقة.

استراتيجية المستقبل

من يخن معاهدة مع المسلمين يجب القضاء عليه

وقريش خانت معاهدة لها مع المسلمين بعدم الاعتداء وقدمت لحربهم، كما تبين الآية التالية: الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ(٥٦) الأنفال.

وهؤلاء لا عهد لهم عند المسلمين، ومتى لقيهم المسلمون في قتال وهزموا فعلى المسلمين ملاحقتهم وقتل أكبر عدد منهم لأنهم سيبقون خطراً على الإسلام: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٥٧) الأنفال.

والسورة تأمر الرسول بالاتصال بكل من تبدر منه بوادر بخيانة المعاهدات مع المسلمين وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ(٥٨) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ(٥٩) الأنفال.

وتذكيره بالعواقب الوخيمة المترتبة على ذلك، وأنها ستعني الحرب بلا هوادة.

في ذات الوقت على المسلمين أن يكونوا بكامل جاهزيتهم للحرب، وأن يكون جيشهم كامل التسليح، والاستعداد في حال خان العدو المعاهدة:

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ



مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٦٠) الأنفال.

فإن أبقت قريش على معاهدة السلام فعلى المسلمين احترامها وعدم التعرض للمشركين: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦١) الأنفال.

وإن تبين أنهم يريدون خداع المسلمين فليحذر المسلمون وليكونوا على أهبة الاستعداد دائماً، وليتذكروا أنه بسبب الدخول في الإسلام فقد ائتلفت قلوب فئتين من المسلمين كان بينهما عداء تاريخي، وأصبحوا يشعرون فيما بينهم بروح الأخوة في الإسلام: وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٣) الأنفال.

وتشير السورة إلى أنه كان هناك عدة معاهدات سلام بين المسلمين وقريش، وكانت قريش تنقض المعاهدات باستمرار. وبسبب عدم احترام قريش لتلك المعاهدات، حدثت معركة بدر، التي لم تكن لحرب قريش بسبب بقائهم على الكفر. وبعد المعركة يبدو أن هناك معاهدة سلام جديدة أبرمت بين الرسول وقريش، وقد أمرت الآيات الرسول أن يتصل بقريش ويحذرهم من التفكير بنقض تلك المعاهدة، لأن نقضها يعني إعلان الحرب بين قريش والمسلمين.

وعلى المسلمين إعداد العدة للحرب بكل الوسائل، من عتاد ومدد وسلاح ونفقة، وإذا ما وجب القتال فعليهم أن يتعاملوا مع العدو في ميدان المعركة بكل قسوة وغلظة لكي يرهب الدخول معهم في حرب مستقبلاً. وفي ذلك حقن للدماء، فالمسلمون لا يبحثون عن القتال، ولكنه فرض عليهم وأجبروا على الدخول فيه. وإذا كان لابد من القتال فليكن عنيفا لدرجة سحق الخصم وإضعاف قوته، لئلا يعاود الحرب مرة أخرى.

وإذا أعلن العدو رغبته في السلم، فيجب على المسلمين القبول مع الحذر والحيطة، لأن قريشاً نقضت المعاهدات عدة مرات في السابق، ومع ذلك فدولة المسلمين تقبل السلم لأنها لا تبحث عن الحرب. وتوقيع معاهدة سلام مع قريش لا يعني أن يهمل شأن الجيش، بل يجب أن يكون هناك تسليح واستعداد كامل، طوال الوقت.



معركة أُحُد

سورة آل عمران تتحدث عن معركة أُحُد، لكنها لا تتحدث عنها حسب ترتيب وقوع الأحداث. ولذا سنحاول سرد الأحداث حسب تسلسلها وليس حسب ترتيب الآيات، كما يلي:

أسباب الهزيمة

ويمكن تقسمها لقسمين:

أسباب قبل المعركة، وأسباب أثناء المعركة.

أسباب ما قبل المعركة

الشح في الإنفاق

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ(١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ(١٧) آل عمران.

وذكر الشهوات الدنيوية والتي منها النساء والأولاد في الآيات السابقة، يشير إلى ما سبق وتحدثت عنه الآيات (١١-١٨) من سورة التغابن التي نزلت قبل المعركة، والتي تشير إلى أن امتناع بعض المسلمين عن الإنفاق لتجهيز الجيش، جاء بإيحاء من أزواجهم وأولادهم، لأن الدخل كان قليلا بسبب القحط الذي أصاب المدينة، ولو أنفق منه على الجيش فسينقص عن الوفاء بمتطلباتهم. كما أن سورة الحديد بمجملها تتحدث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق على تجهيز الجيش لمعركة أحد، بسبب شح الأمطار في ذلك العام وقلة الدخل.

ويفهم من آيات آل عمران والحديد والتغابن أن الإنفاق على تجهيز الجيش المسلم قبل أحد



لم يكن كافياً، لأن الناس جبلوا على حب المال والمتاع والنساء والبنين. وبما أن القحط كان سائداً فقد امتنع البعض عن الإنفاق ليوفر المال لنسائه وبنيه ومتطلباتهم الدنيوية.

ونتيجة لذلك عانى جيش المسلمين من قلة التجهيز والعتاد في معركة أُحُد.

العامل النفسي

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ(١٢٤) بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ(١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ(١٢٨) وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢٩) آل عمران.

الآيات تُذكّر المسلمين بوضعهم في معركة بدر، وكيف كانوا قلة ضعيفة بالنسبة لجيش قريش، ومع ذلك انتصروا بفضل الاستعداد النفسي الذي كان ناجحاً، وكان هو العامل الحاسم في نصر المسلمين في تلك المعركة. وقد أنزل الله سكينته عليهم لأنهم كانوا مستعدين نفسياً، ومعنوياتهم عالية جداً، وألقى الرعب في نفوس أعدائهم.

أما في أحد فقد كان الوضع على العكس تماماً. فبرغم أن جيش المسلمين كان أكثر عدداً مما كانوا عليه في بدر، إلا أن معنوياتهم كانت ضعيفة، وهو سبب هام آخر أدى لهزيمتهم.

ولم تنزل عليهم ملائكة لتحل عليهم السكينة لأنهم نفسياً لم يكونوا مستعدين. وهذه نقطة هامة، تؤكد أن على المسلمين معاونة أنفسهم وتهيئة جيوشهم بكل ما يستطيعون مادياً ونفسياً وأسلحة، وسيأتي بعد ذلك دور إحلال السكينة والطمأنينة بواسطة جند الله الملائكة التي قد تكون مشاعر في النفس ذاتها.

التنافر والبعد عن التجانس

وهذا قد يكون مرده إلى الاقتتال والمشاحنات بين مسلمة قريش والمستضعفين والتي تحدثت عنها الآيات: (٦-١٣) من سورة الحجرات. ثم جاءت الآيات: (١٧٨-١٧٩) من سورة



البقرة توجه المسلمين لحل مشكلة ديات القتلى بين الفريقين.

ومن ذلك مواقف مسلمة يثرب من المسلمين وموالاتهم لأهل الكتاب والذي تحدثت عنه سور البقرة والنساء والمائدة. وقد لخصت سورة آل عمران مواقف المسلمين من القتال والإنفاق في سبيل الله: الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ وَالنبي مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧٥) وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٧) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٧٨) مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٩) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠) آل عمران.

الآيات تعطي صورة إجمالية لبعض المواقف المختلفة للمسلمين من الحرب، كما يلي:

- **كان هناك أناس صادقون في إيمانهم**

تقبلوا الأوضاع منذ البداية بكل صبر، ولم يرتعبوا قبل المعركة لما علموا بقدوم قريش ومن عاونها «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». كما لم يقنطوا ولم يحبطوا لما خسروا المعركة، لعلمهم أن الله معهم وأن النصر سيكون حليفهم في النهاية.

وهؤلاء بعضهم من مسلمي مكة (المهاجرون الأتقياء) وبعضهم من مسلمي يثرب من أهل الكتاب والأوس والخزرج والأعراب (الأنصار الأتقياء).

والآية تقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ». وقد تكون فيها إشارة إلى ما



ذكرته كتب السير: من أن قريشاً جمعت أحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة لحرب المسلمين.

- **البعض ممن أعلن إسلامه في يثرب ارتدوا**

وقد أعلنوا ردتهم عندما خرج المسلمون لملاقاة قريش في أحد «وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ». فهم أعلنوا إسلامهم ليس عن قناعة، ولكن بحثاً عن أوضاع أفضل. وبما أن الإسلام يعني حروباً مستمرة ضد الأعداء، فلا حاجة لهم به.

- **والبعض منهم امتنع عن الإنفاق لتسليح وتجهيز جيش المسلمين**

وهؤلاء مصيرهم جهنم، ولو استمروا بالتظاهر بالإسلام.

وهذه الصورة بعيدة كل البعد عن التراص والتكافل في المجتمع والتي أمر وحث عليها القرآن باستمرار، والتي بكل تأكيد كانت عاملاً هاماً وجوهرياً لهزيمة المسلمين.

استغلال الحرب للمتاجرة

يبدو أن سبب امتناع البعض عن الإنفاق لكي يستغلوا الحرب للكسب الربوي. فقد كانوا يجهزون ويسلحون غيرهم من المجاهدين الخارجين لمعركة أُحُد، على أن تعاد قيمة التجهيزات مع فوائد في وقت لاحق. فنزلت الآيات تحذرهم للمرة الأخيرة – بعد أن حذرتهم الآيات: (٢٧٥-٢٨١) من سورة البقرة، عن التعامل بالربا تحت أي ظرف. وتقول لهم الآيات إن من يؤمن بالآخرة فعليه أن ينفق، والإنفاق عكس الربا، إذ إنه بذل للمال أو العين دون توقع استرجاعه بفوائد أو بدون: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠) وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(١٣١) وَأَطِيعُواْ اللهَ وَالنبيلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٣٢) وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ



(١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) آل عمران.

والآيات واضحة الدلالة على ما كانت عليه هذه الفئة من المسلمين، الذين ينظرون للحرب على أنها فرص للكسب، وليست للذود عن دولة المسلمين وحماية الدين. وبالتالي فالدافع للقتال ضعيف عندهم، لأنهم لا يرغبون في الموت ويحبون الحياة والمال.

أسباب حدثت في ميدان المعركة تسببت في الهزيمة

التنافر وعدم الانسجام (في الميدان)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٢١) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٢٢) آل عمران.

هاتان الآيتان تظهران أنه أثناء تنظيم النبي لجند المسلمين في الميدان استعدادا للقتال، حدث خلاف بينهم حول المواقع والتمركز، وتطور الخلاف لدرجة أن فئتين من المسلمين كادتا تنسحبان من أرض المعركة. والانسجام يعني أن هناك رأياً واحداً يتبعه الجميع، وأن يكون العمل كفريق واحد، وهو عامل هام جداً ومطلوب للجيش لكي ينتصر. وقد دخل المسلمون المعركة وتركيزهم مشتت، والاستعداد النفسي والانسجام مواز في أهميته للعدة والعتاد، ودخول الجيش للمعركة وهو ناقص التسليح الفعلي أو النفسي يعرضه للهزيمة.

شجار في أرض المعركة

الله وعد المسلمين إن هم أخلصوا النية له وقاتلوا الكفار فسوف يلقي الرعب في قلوب أعدائهم وسينزل السكينة عليهم وسينصرهم. وقد صدق الله جل وعلا وعده للمسلمين في بدر، وفي أحد أيضاً. فبرغم أن جيش المسلمين ليس مسلحاً كما يجب، وبرغم الخلافات بين أفراده في أرض المعركة، وبرغم السلبيات الكثيرة والحالة النفسية الضعيفة التي كان عليها المسلمون، إلا أنهم استطاعوا في بداية المعركة أن يحسوهم بالسيف حساً، فانهزم المشركون وتسابقوا على الهرب. إلا أن الشجار الذي حدث بين المسلمين حول ملاحقة الكفار أدى إلى أن يستغل المشركون الوضع ويكروا عليهم ويهزموهم: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم



مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالنبي يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣) آل عمران.

لقد كان هناك شجار أثناء المعركة تسبب في خسارة المسلمين بعد أن كانوا منتصرين، ولم يكن كما روت كتب التراث أن السبب ترك الرماة أماكنهم لكي يحصلوا على بعض الغنائم قبل أن يصل إليها غيرهم. لأن غنائم المعركة لا تؤخذ غلاباً ومن التقط شيئاً فهو له. ولكنها تقسم حسب قانون الأنفال والفيء الذي بينته سورة الأنفال.

ولو عدنا للآيات: (١-١٣،٩) في سورة الممتحنة، والآيات: (١٦-٣٨) في سورة محمد، إضافة للأنفال، فسنجدها تتحدث عن إبقاء بعض مسلمة قريش على علاقة ود وموالاة لأقاربهم من المشركين، ومحاولاتهم ألا يدخل المسلمون في قتال ضدهم. ولما أصبحت معركة بدر حقيقة لا مناص منها، كادوا أن يتأخروا عن الخروج، وعندما التحم جيش المسلمين مع العدو، كانوا يقومون بأسر رجال قريش بدل قتلهم، مخالفين أمر الله بأن يثخن المسلمون عدوهم أولاً وذلك بقتل أكبر عدد منهم، ولا يكون الأسر إلا في المعارك التي يكون فيها تفوق المسلمين العددي واضحاً.

وفي سورة آل عمران التي بين أيدينا، يأتي التحذير لهؤلاء بأن من يصر منهم على علاقته بالمشركين فليس من الله في شيء، حتى لو أخفاها على النبي والمسلمين: لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ(٢٨) قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ(٣٠) آل عمران.

وعندما بدأ القتال في أحد، كان النصر في بداية المعركة للمسلمين، وبدأت جنود قريش بالتقهقر والانهزام، عندها حدث نزاع بين المسلمين. طائفة تقول بوجوب مطاردة فلول الأعداء وقتل أكبر عدد منهم، حتى ينهك العدو ويضعف، كما أمرت سورة الأنفال، وهذا



الفريق كان في مقدمته رسول الله. وفريق آخر وقف ضد تنفيذ ذلك بحجة أنهم هزموا وهذا هو المهم، ولا حاجة لقتلهم، وهؤلاء كانوا مسلمة قريش الموالين للمشركين.

وهذا الجدال الذي حدث في أرض المعركة، لاحظه المشركون. فالتفوا عليهم وأعملوا فيهم السيف، مما أصابهم بالارتباك، الذي أدى لفرار غالبيتهم من أرض المعركة تاركين خلفهم رسول الله وطائفة من المؤمنين: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالنبي يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ .... (١٥٣) آل عمران.

الرسول أصيب وأشيع أنه قتل

وعندما بدأ المسلمون بإعادة ترتيب أوضاعهم والعودة للمعركة، أشيع أن رسول الله قد قتل، فسارع عدد كبير منهم بالهرب من أرض المعركة: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥) آل عمران.

والنبي بالفعل أصيب أثناء المعركة، كما توحي الآيات، التي تقول للمسلمين: الدين لله، والدفاع عن دولته واجب في كل الأحوال والأوقات، وما محمد إلا رسول فقط، ولو قتل أو مات فلا يعني أن الناس تترك الدين أو تتخلى عن الدعوة له، أو حماية دولته والدفاع عن وجوده، أو محاربة أعدائه.

ويكون سبب الهزيمة المباشر هو الخلاف الذي وقع بين المسلمين حول محاولة بعض مسلمي مكة ثني بقية المسلمين عن ملاحقة جيش الأعداء المنهزم وإعمال السيف فيهم، مما أدى لنزاعهم ولاحظ المشركون ذلك فارتدوا عليهم وأحاطوا بهم، مما أربك المسلمين وأدى لهرب الكثير منهم وانهزامهم: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ...... (١٥٢) آل عمران.



وتستمر السورة تخبرنا بما حدث بعد ذلك: إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالنبي يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣) آل عمران.

لقد هرب غالبية المسلمين من أرض المعركة التي بقي فيها الرسول.

والسورة تقول: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ» فهل تقرأ (أَحَد) بمعنى شخص أو (أُحُد) ويعني المكان الذي سميت به المعركة. المعنى يستقيم لو تقرأ ولا تلوون على أُحُدْ، وليس على أَحَد. والمنهزمون هربوا باتجاه المدينة مخلفين أُحُداً الجبل ومكان المعركة التي وقعت تحت سفحه، خلف ظهورهم. والهارب الذي لا يلوي على شيء، هو من لا يلتفت. ومن هرب من المسلمين باتجاه المدينة وصفتهم الآية بأنهم: «لا يلوون على أُحُد» أي مسرعون في هربهم يلتفون إلى الجبل ومكان المعركة.

وتبين السورة أن مسلمة قريش أفصحوا بعد المعركة عن مشاعرهم الدفينة المعارضة لحرب أقاربهم المشركين، وذلك بإعلان عدم جدوى هذه الحروب التي فرضت عليهم قتال أهلهم وقبيلتهم. وصرحوا بأنه لو وافق المسلمون على رأيهم الرافض لحرب قريش منذ البداية، لكان بالإمكان إيجاد حل سلمي بين الطرفين، ولو تم هذا فسيكون القتلى قد بقوا على قيد الحياة بيننا ولم يموتوا، فنزلت الآيات تنهاهم عن هذا الشعور الذي يوحي بعدم إيمان من قال به بمغزى الجهاد والدفاع عن دين الله ودولته: ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٥٤) آل عمران.

وتعود السورة للتحذير من الهرب: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١٥٦) آل عمران.



فلا يوجد مبرر للمسلم يجيز له الفرار. إذ إنه إن قتل فله الجنة، وغاية المسلم في قبوله للإسلام هو دخول الجنة. لذا فمن قتل في المعركة فهو مدعاة للفرح وليس الحزن، وإن لم يمت وانتصر على العدو ففيه نصر لدين الله وإنهاك للعدو ودفاع عن دولة المسلمين.

ويفهم من الآيات السابقة أنه يجب مطاردة فلول العدو والتأكد من خلو أرض المعركة منهم.

ثم تتجه السورة لمخاطبة المؤمنين: وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ(١٥٨) آل عمران.

عدد قتلى المسلمين في أُحُد

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٦٥) آل عمران.

من هذه الآية يمكن أن نفهم أن خسائر المسلمين من القتلى في أحد لم تكن بعدد قتلى قريش في بدر، بل إنها لا تزيد عن النصف « أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا».

وكتب التراث تزعم أن قتلى قريش في بدر كانوا سبعين وأن قتلى المسلمين في أحد كانوا سبعين لكي يظهروا أن قريشاً أخذت بثأرها، وهذا لا أساس له من الصحة. فالآية تقول إن قتلى قريش في بدر ضعف قتلى المسلمين في أحد، وإن كان قتلى قريش سبعين في بدر، فقتلى المسلمين كانوا في الثلاثينات في أحد.

النتائج والعبر

تبتعد السورة عن الحديث عن أسباب الهزيمة لتتحدث عن النتائج والعبر التي ترتبت على خسارة المعركة، وتقييم ما حدث.

العلاج النفسي

وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(١٤٣) آل عمران.

لعل أول ما كان يحتاجه المسلمون بعد الهزيمة هو رفع المعنويات وشحذ الهمم وحثهم على الصبر والاستعداد للتضحية في قادم الأيام للذود عن دين الله. فقد كان وقع الهزيمة على المسلمين عظيماً، وأصابهم اليأس والحزن. فجاءت الآيات لتقول لهم إن عليهم أن يتذكروا أن الأيام دول، وأنهم وإن خسروا معركة، فالخاتمة في النهاية هي انتصارهم بالحرب الدائرة بينهم وبين قريش.

وقد كان المسلمون (بعضهم) يتمنون أن يلاقوا كفار قريش لينتقموا مما لاقوه منهم من تعذيب وطرد من مكة، لكن لما كتب عليهم القتال، حزنوا وأحبطوا من أول خسارة. والحرب هزيمة وانتصار، والهزيمة درس يستفاد منه لتفادي الأخطاء وليس مجالاً للحزن والأسى. كما أن الصبر على المحن جزء من الجهاد.

وتقول السورة للمسلمين إن الإسلام ليس محمداً، فلو قتل، وهو قد يقتل، فهذا لا يعني ضياع الإسلام أو يكون عذراً لترك الإسلام: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥) آل عمران.

وسنعود للحديث عن هذه الآيات فيما بعد.

وتستمر الآيات تحث المسلمين على أن يكون شعارهم في القتال هو نصرة دين الله، ولا شيء سواه. والصبر على المحن والشدائد، وعدم التخاذل أو الضعف أو الهرب من المعركة: وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٤٨) آل عمران.

تحذير من الاستماع لأهل الكتاب الكفار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ(١٤٩)



بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ(١٥٠) آل عمران.

لأنهم يستمعون لأهل الكتاب الذين يثبطونهم عن الخروج ويشككونهم في الدين.

تطمين للمسلمين أن كسبهم للحرب مع قريش مضمون

في وقت كانت المعنويات متدنية والحزن يعم المعسكر المسلم نتيجة هزيمتهم في أحد وقتل عدد كبير منهم، تأتي الآيات لتؤكد لهم أن النصر في النهاية سيكون حليفهم في هذه الحرب ضد قريش: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ(١٥١) آل عمران.

النبي تعامل مع المسلمين بعد المعركة بكل لطف

وتظهر لنا السورة تعامل النبي مع المسلمين بعد المعركة: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(١٥٩) آل عمران.

لقد كان النبي متسامحاً معهم ولم يوبخ أحداً على هروبه، كما لم يؤنب الفريقين المتنازعين من المسلمين أثناء المعركة، ولم يلق باللوم على أحد للهزيمة.

والآية تؤكد على النبي أن يستفيد المسلمون مما حدث للمستقبل، وأن تُرسَم خطط المعركة بالتشاور بين المسلمين، ومتى ما اتفقوا تنفذ. ولأن هذه الخطط وما يجب فعله أمور دنيوية تهم الأمة فيجب ألا يبتّ فيها رجل واحد أو جماعة دون الباقين، ولكن تقرر بالتشاور بين الجميع (شورى). (هنا دستور دولة المسلمين، يقرر كيف تشرع القوانين، ويقول: السلطة التشريعية لأمور الأمة لا يتفرد بسنها شخص واحد ولا مجموعة واحدة بل تسن بموجب استفتاء عام).

وتعود السورة للحديث عن النتائج والعبر

إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٦٠) آل عمران.

على المسلمين أن يخلصوا نيتهم لله، ومتى ما خلصت النيات لله، وخرج المسلمون للقتال



تحت شعار الدفاع عن الدين فسينصرهم الله على عدوه وعدوهم. وعلى المسلم أن يتوكل على الله ويثق أنه سيكسب الحرب مع الكفار، ولو خسر معركة من المعارك.

مخاطبة المسلمين

المعارك تمحيص للمواقف: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(١٨٦) آل عمران.

فالقتل ونقص الأموال بسبب القحط أو غيره وسماع الدعايات المغرضة وعبارات التثبيط والتشكيك من بني إسرائيل والمشركين كلها امتحان للمسلمين لمعرفة المؤمن من المنافق.

وبنو إسرائيل نسوا دين الله واتبعوا تشريعات بشرية: وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(١٨٧) آل عمران.

وهم يحبون المديح لأنفسهم، ويتباهون بما يملكون من مال، فلا تظن يا محمد أنهم سينجون من عذاب الله: لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨٨) وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٨٩) آل عمران.

مسلمة يثرب وموقفهم مما حدث في أُحُد

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ(١٦٦) وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ(١٦٧) الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٦٨) آل عمران.

كان هناك بعض مسلمة يثرب، لم يخرجوا مع المسلمين لأحد، ولم ينفقوا على تسليح الجيش المسلم. وقد استغلوا فرصة هزيمة المسلمين، وأخذوا يلومون المسلمين على الخروج للقتال، ويقولون لهم إنه لو لم يخرجوا لما قتل من قتل منهم، ولما هزموا وخسروا متاعهم ولما أصابهم



ما أصابهم.

وترد عليهم السورة: وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(١٧١) آل عمران.

وأسلوب الآيات يتناسب مع المناسبة، فالمنافقون اعتبروا القتال مجرد خسارة أرواح إلى الأبد، بينما السورة تقول إن من يقتل في الحرب فهو لم يخسر حياته، بل هو حي عند ربه. كون الفترة بين الموت وقيام الساعة بالنسبة للميت هي لحظات. فمجرد ما قتل سيجد نفسه وقد حوسب ودخل الجنة. ولا تعني أنه حي الآن بعد موته. وبهذا المعنى يمكن أن يقال للميت من الكفار بأنه يعذب في النار. لأنه بمجرد موته سيمر الزمن سريعاً ولن يشعر إلا وهو في يوم الحساب وقد دخل النار، وكأن هذا حدث لحظة وفاته.

المفسرون كالعادة حملوا الآية معاني لم تقلها، بزعمهم أن قتيل الحرب حي وموجود عند الله، وهو قول مشابه لما قالوه عن عيسى في تأويلهم لمعنى الآية: بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٥٨) النساء.

والله جل وعلا لا يجتمع عنده الأموات، حتى لو كانوا صالحين، لأنه سبحانه هو من خلق الموت كوسيلة عبور للآخرة، ولابد أن يمر بها كل مخلوق حي في الكون كله وليست حكراً على الإنسان أو مخلوقات الأرض: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) الرحمن.

ردة فعل بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب على ما حدث للمسلمين

لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ(١٨٢) الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤) آل عمران.



فبعد أن انجلت معركة أحد كانوا يتحدثون في مجالسهم بسخرية، عمن يصفون أنفسهم بجند الله – يقصدون المسلمين – وأن ربهم فقير لدرجة لم يستطع تسليحهم كما يجب لينتصروا في المعركة. وهم من طلبوا من النبي آية تثبت صحة رسالته ليؤمنوا، وقد كفروا بدين الله برغم رؤيتهم الآيات على زمن موسى، ولن يؤمنوا ولو رأوا كل آية.

وتقول لهم الآية التالية إن العبرة في نتيجة الحساب يوم القيامة، أما الحياة الدنيا فسرعان ما تزول: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ(١٨٥) آل عمران.

مشكلة عائلية في بيت الرسول

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(٤) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً(٥) التحريم.

لقد أسر النبي لإحدى أزواجه شيئاً، فأخبرت به بقية الأزواج. فجئن يسألنه عن حقيقة ما وصل لأسماعهن، ويطالبن بتفسير. فاعترف ببعضه، ولم يفصح عن بعضه الآخر.

ثم ذهب إلى زوجته التي أسر إليها الخبر، وعاتبها على نشره. وعندما سألته عمن أخبره، قال لها إن الله هو من أنبأه بذلك. ليس ادعاءً بأن وحياً أخبره، ولكنه استعارة تعني أنه علم بتوفيق من الله. وهو أسلوب من المعتاد استخدامه. يقال: كيف اهتديت إلى هذا البيت؟ فتجيب: هداني الله.

وكان من نتيجة هذا أن حلف النبي ألا يفعل شيئاً مباحاً له فعله في العادة، فنزلت الآيات تقول له لا يجوز له أن يحرم ما أحل له لكسب رضا أزواجه، وأن عليه أن يتحلل من قسمه بكفارة اليمين.



موقعة الأحزاب

الأحزاب تعني بلغة هذا العصر، اصطلاحاً قريباً من «قوات الائتلاف». فهي قوة مؤلفة من عدة جيوش من قبائل وشعوب مختلفة اتفقت فيما بينها لغزو المسلمين، ونصرة قريش[1].

وقبل الأحزاب، خاض المسلمون معركتين حربيتين ضد قريش، انتصروا في الأولى نصراً صريحاً، ومذلاً لقريش. وخسروا المعركة الثانية بطريقة غير متوقعة، بعد أن كانوا منتصرين في بدايتها، بسبب نزاع ومشاحنات بينهم أثناء المعركة. وقد اتفق الطرفان المتنازعان على معاهدات عدم اعتداء، لكن قريشاً لم تلتزم بها. مما أعطى دلالة واضحة على أن قريشاً لن تسمح للمسلمين بالعيش بسلام، وستعمل كل ما تستطيع للقضاء على دولتهم.

وفي يثرب كانت غالبية بني إسرائيل واليهود والنصارى قد وقفوا موقف العداء للإسلام، وكانوا يتمنون زواله، ويتعاطفون مع قريش ضد المسلمين: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً(٥١) النساء.

ومع أن معركة أحد قد خسرها المسلمون إلا أنها لم تثن من عزائمهم، ولم تضعف دولتهم. والآيات التي نزلت بعد المعركة كشفت لهم أسباب الهزيمة، وأظهرت لهم مواقف الناس منهم، ومن يعادي الإسلام ودولته. سواء ممن لم يؤمن من بني إسرائيل والأعراب، أو أولئك الذين يعلنون إسلامهم وما هم بمسلمين من المنافقين (مسلمة قريش ومسلمة يثرب). وهو ما ساهم بسرعة تجاوز المسلمين لآثار الهزيمة، واستفادتهم مما حدث. فأصبحت دولة المسلمين أكثر قوة مما كانت عليه، وأفرادها أشد تلاحماً، واستعداداً لملاقاة أعدائهم، بعكس أماني بني إسرائيل والمنافقين الذين كانوا قبل أحد يراهنون على زوال تلك الدولة.

---

١ مثلما حدث في غزو العراق عام ١٩٩٠ عندما هاجمت أمريكا بمعاونة بريطانيا وأستراليا وكوريا الجنوبية والدانمارك وبولندا وبمشاركة من عشرات الدول من بينها للأسف دول عربية. بل واستخدمت أراضيها لانطلاق الطائرات الحربية لضرب المدن العراقية وكمقرات للقيادة. والآن هناك حرب ضروس على غزة بدأت في ٨/ ٧/ ٢٠١٤ وافتعلت لها إسرائيل سبباً هو اختطاف ثلاثة شبان إسرائيليين في الضفة الغربية وقتلهم. وقد تأكد أن حماس لا علاقة لها بالحادث وأنه حادث تم بعمل إسرائيل وتدبيرها. ويقول رئيس الوزراء الإسرائيلي عن هذه الحرب إنها تعتمد على ائتلاف إقليمي مكون من إسرائيل والدول العربية «المعتدلة في المنطقة». كما ذكرت وسائل الإعلام الإسرائيلية والعالمية.



الجو العام في المدينة قبل الغزوة

عندما علم المسلمون بتوجه جيش الأحزاب إلى المدينة، أصيب بعضهم بحالة من الهلع والرعب والانهيار التام، وأيقنوا أنه مقضي عليهم لا محالة. وسرت بينهم حالة من الهستيريا غير الطبيعية، لدرجة وصفها القرآن بقوله: «وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا». كما ورد في الآية العاشرة من سورة الأحزاب.

وهذه المشاعر تخالف ما وصلوا إليه من استعداد نفسي لمواجهة الشدائد، فهم يعلمون أنهم محاطون بالأعداء، وأن قريشاً مستمرة بحربها عليهم. ولن يكون مفاجئاً لهم لو أن قريشاً حشدت جمعاً معها من القبائل وهاجمت المسلمين في أي لحظة.

فلماذا أصيبوا بهذا التوتر والقنوط المفرط، بمجرد سماعهم توجه الجيش إليهم، وقبل أن يروه؟

كما أن حفر الخندق دلالة على أن المسلمين متيقنون أنه لا قبل لهم بالجيش الغازي، وأن عليهم أن يحموا المدينة بطريقة أكثر فاعلية من القتال.

قرائن كثيرة تجعلنا نقول إن المسلمين شعروا أن الجيش القادم لحربهم لا يشبه جيش قريش في بدر وأحد. ولو كان جيش الأحزاب - كما تقول كتب الأخبار - مكوناً من قريش ومن عاونها من بعض القبائل في جزيرة العرب، لكان شبيهاً بجيش قريش في المعركتين السابقتين، حتى لو كان أكثر عدداً، ولن يصاب المسلمون بالهلع لدرجة أن دخل الشك قلوب بعضهم من الإسلام « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا».

ولقد استعانت قريش بقبائل كثيرة خرجوا معها لحرب المسلمين في أحد - كما تقول كتب الأخبار - وخرج المسلمون لملاقاتهم، دون وجل. وفي كلا المعركتين السابقتين - بدر وأحد - كان جيش المسلمين أقل عدداً من جيش العدو، لكن هذا لم يشعرهم بما شعروا به من قنوط عند سماعهم بتوجه جيش الأحزاب إلى المدينة.

وكلما اقترب وصول جيش الأحزاب إلى المدينة كلما انهارت المعنويات أكثر، لدرجة أن المنافقين استأذنوا الرسول بالرجوع إلى المدينة وترك بقية المسلمين يحفرون الخندق، بحجة أن بيوتهم عورة، وهم في الحقيقة عازمون على الهرب حتى لا يقضى عليهم مع المسلمين: وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) الأحزاب.



جيش الأحزاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهَِّ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١) الأحزاب.

لقد كان جيش الأحزاب يتكون من قوات مهاجمة «من فوقكم»، وقوات تتربص في الخلف «من أسفل منكم». والجيوش المهاجمة هي قريش ومن معها ممن ناصرها من قبائل عربية وغيرها. أما القوات المتربصة فهي من بني إسرائيل يثرب، والتي لن تشارك في القتال ولكنها ستستقبل المسلمين لو انهزموا بالسيف، كما سنرى.

فشل خطة الهجوم على المدينة

لقد كانت الخطة تقضي بأن تبدأ جيوش الأحزاب المهاجمة بالهجوم على المدينة من جهة الشمال – حيث حفر الخندق – وإذا ما انهزم المسلمون، خرج بنو إسرائيل (القوات المتربصة) من حصونهم في جنوب يثرب، وهاجموهم. فيقع جيش المسلمين بين كماشتي القوات المهاجمة من الشمال وبنو إسرائيل من الجنوب، وبالتالي يقضى عليهم عن بكرة أبيهم «إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

لكن القوات المهاجمة عندما وصلت لمشارف المدينة فوجئت بالخندق يحول بينها وبين الوصول للمسلمين، فعسكرت الجيوش على طول الخندق وبمحاذاته من الجهة الشمالية، في محاولة للبحث عن منفذ للتسلل إلى المدينة. لكن انتظارهم طال إلى أن هبت عليهم ريح صرصر عاتية في إحدى الليالي، بعثرت عدتهم ونفرت خيولهم ومطاياهم، فتفرق شملهم وارتدوا على أعقابهم دون أن يناولوا من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهَِّ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) الأحزاب.

وفي صبيحة اليوم التالي عاد المسلمون إلى المدينة، بعد تأكدهم أن جيش التحالف قد انفرط عقده وهرب جنده لا يلوون على شيء.



المشاركون في جيش الأحزاب

ما نقلته لنا كتب التراث عن الأحزاب لا يمكن الركون إليه. لذا سنقدم فيما يلي تصورنا عما حدث، معتمدين على إعادة لقراءة الآيات، ووضع الافتراضات، كما يلي:

جيش الأحزاب الذي هاجم المدينة لم يكن مكوناً من قبائل عربية كما يقول المؤرخون، وإن كان بينهم رجال من قريش وقضاعة وأفراد من قبائل أخرى. لأن الجيش الذي أرعب المسلمين قدم من مكان بعيد، ويمتلك عتاداً يفوق ما كان متوفراً في جزيرة العرب، وفيما يلي بعض النقاط التي تبين القناعات التي بنينا عليها هذا الاستنتاج:

- الجيوش التي سمع المسلمون أنها قادمة لحربهم كانت لا تقارن بما هو متعارف عليه في جزيرة العرب، بمقاييس ذلك العصر. بدليل أن المسلمين، وقبل أن تصل جموع الأحزاب إلى المدينة استشعروا عظم هذه القوات، وحجمها، وقدراتها وعتادها الذي يستحيل أن يكون لهم قبل بمواجهته، فقاموا بحفر الخندق.
- تقول كتب التراث إن جيش الأحزاب بلغ عشرة آلاف مقاتل كلهم من قبائل عربية قريبة من مكة والمدينة. وهذا الكلام غير مقبول، لأن أعداد القبائل كان بالمئات وليس بالآلاف، ولا يمكن جمع عشرة آلاف مقاتل من القبائل التي ذكرتها كتب التراث. وخلال تاريخ جزيرة العرب المعروف، لم يحدث أن اجتمع جيش مكون من رجال عدة قبائل من جزيرة العرب بأعداد تصل لآلاف المقاتلين لحرب قبيلة عربية. ولم يسبق أن اجتمع آلاف المقاتلين من قبائل جزيرة العرب في حرب ولا حتى يوم ذي قار (يوم انتصر فيه جيش مؤلف من قبائل عربية على جيش من الفرس قبل الإسلام).

وهذا المثنى ابن حارثة الشيباني الذي كان يغير على الفرس ويستولي على غنائم منهم قبل الإسلام، عندما سأله أبو بكر عن عدد مقاتلي قبيلته، قال متباهياً بكثرتهم التي يتفوقون بها على غيرهم من القبائل: «إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألفٌ من قلة» (كما ورد في سيرة ابن هشام).

فهو يرى أن الألف عدد استثنائي في القبائل العربية في ذلك الوقت، ولا يمكن أن يتوفر إلا في النادر، وفي قبيلة هائلة العدد مثل قبيلته. هذا في حال سلمنا أن المثنى عدهم بالفعل، وهو لم يفعل، ولكنه قدر عددهم الذي لابد أنه كان أقل. لأن العرب لا يجيدون التعامل



مع الأرقام بدقة، ولا يعتمدون على الإحصاء الدقيق، وإنما يعتمدون على التقديرات. لذا نجد أنهم يقولون إن جيش فتح مكة (١٠) آلاف وجيش الأحزاب (١٠) آلاف، للدلالة على ضخامته، وهم لم يقوموا بإحصاء دقيق لأي من الجيشين. وسوف نتبين عند حديثنا عن سورة الفتح، أن جيش فتح مكة لم يصل إلى عشرة آلاف بل ولا ربع هذا العدد.

وبالنسبة للأحزاب فقد يكون الجيش الغازي أقل أو أكثر من عشرة آلاف، لكن الرقم الذي ذكره المؤرخون العرب جاء تقديراً غيبياً من قصاص عاشوا بعد الأحداث بأزمنة طويلة، ولم يكونوا شهود عيان، ولم تأت تقديراتهم نتيجة تعداد وإحصاء.

- كما أنه من الصعب تصور أن تجتمع عدة قبائل لحرب المسلمين، في وقت لم يكن بين تلك القبائل والمسلمين عداء أو حروب، وإن كان هذا لا ينفي أن تكون قضاعة وقبيلة أخرى أو أكثر قد انضم منها أفراد لقريش من باب الحمية المدفوعة الثمن من قريش، وطلباً للغنائم.
- ولو افترضنا جدلاً أن كل تلك القبائل التي ذكرها المؤرخون، بالفعل اجتمعت على حرب المسلمين، فلن يخيفوا المسلمين بالدرجة التي صورها القرآن. لأنه مهما اجتمع من تلك القبائل فلن يكون بالآلاف، وإن فاق عدد جيش المسلمين. ولو افترضنا أن هناك سبع قبائل وكل قبيلة حشدت ١٥٠-٢٠٠ مقاتل فلن يزيد جيش الأحزاب عن ألف وخمس مئة رجل، بما فيهم رجال قريش. فيما يستطيع المسلمون جمع بضع مئات، وبالتالي فمن المتيسر على المسلمين مواجهة جيش يبلغ ضعفي عددهم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الأنفال.
- ولو تمادينا بالافتراض، وقلنا: إن جيش الأحزاب يتكون من قريش وجمع من كنانة وغطفان وفزارة وبني مرة وأشجع وبنو أسد وسُليم، فلن يستغرق وصولهم المدينة أكثر من أسبوع إلى عشرة أيام. ولن يتأخر وصولهم إلى المدينة لمدة طويلة تمكن خلالها المسلمون من حفر خندق يصفه الواقدي (١٣٠-٢٠٧ هـ) في كتابه المغازي، بقوله: «وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً». وهو ما يعني أن المسلمين قد



حفروا ما مجموعه (٣٤٠) ألف ذراع مكعب، نتيجة ضرب طول الخندق في عرضه في معدل عمقه. ويقول البلاذري إن كل عشرة رجال من الصحابة قد قاموا بحفر أربعين ذراعاً، بعرض تسعة أذرع، وعمق سبعة إلى عشرة أذرع، خلال فترة حفر الخندق التي قدرها بـ (٢٤) يوماً. أي أن الرجل الواحد حفر ما معدله (٢٧٢) ذراعاً مكعباً. وهو ما يعني أن هناك (١٢٥٠) رجلاً كانوا يعملون في وقت واحد في حفر الخندق من بدايته إلى النهاية. ولن نقف هنا عند عدد الرجال الذي لا يمكن أن يتوفر للمسلمين في تلك الفترة، لكننا نقول:

إذا كان الذراع يساوي نصف متر تقريباً، فإن طول الخندق سيكون (٢٥٠٠) متر، وعرضه (٤,٥) متر، ومعدل عمقه (٤,٢٥) متر. وإجمالي ما تم حفره (٤٧٨١٢) متراً مكعباً. أي أن الرجل الواحد حفر ما معدله (٣٨,٢٥) متراً مكعباً، في (٢٤) يوماً. أي بمعدل (١,٦) متر مكعب يومياً. وهذا يقرب من المستحيل في أرض صخرية جبلية صلدة، ومعدات بدائية، وكلما زاد عمق الحفر زادت الصعوبة. كما أن الحفر يحتم أن يكون هناك من يحفر وآخرون يخرجون التراب والصخور، مما يعني أن عدد الرجال الذين شاركوا في الحفر أكبر مما ذكرته كتب الأخبار، أو أن المدة التي قضوها في حفر الخندق تزيد عن (٢٤) يوماً. لذا أميل إلى أن حفر الخندق زاد عن شهر ونصف كما تقول بعض الروايات وليس كما يقول الواقدي.

وتصورنا هو أن هناك عدداً محدوداً من المعاول، وعدداً أقل من (١٢٥٠) رجلاً من المسلمين. وكان المسلمون يتناوبون العمل عليها لتكسير الصخور، ثم يقوم آخرون برفع الحجارة والتراب الذي أحدثته المعاول قبل أن يعاود الحفارون طرق الأرض مرة أخرى.

وكان العمل في حفر الخندق قد بدأ من نقطة معينة، بالقرب من جبل سلع، وبسرعة تحددها عدد المعاول المتوفرة للحفر. فلو كان هناك (١٠٠) معول وكل معول اتفق على أن يحفر ذراعاً طولياً، فإن الحفر سيستمر لفترة في خط طوله مئة ذراع، إلى أن يكتمل الحفر بعرض تسعة أذرع، وعمق تسعة أخرى. ثم ينتقل الحفر لخط تال، وهكذا حتى اكتمال حفر الخندق كله.

وأرجح ألا يكون هناك أكثر من (١٠٠) معول متوفر للمسلمين في ذلك الوقت، سواء كانوا



يملكونها، أو أنهم استعاروها من بني قريظة – كما تقول كتب الأخبار - الذين يملكونها بحكم مزاولتهم لمهنة الزراعة. ولن نناقش حقيقة إعارة بني قريظة المسلمين المعاول وفي نفس الوقت يعاونون الغزاة ضد المسلمين.

وبناءً على ما تقدم يمكن أن نقول:

إن جيش الأحزاب قدم من مناطق بعيدة، بجموع غفيرة لا يمكن توفرها في جزيرة العرب، وسمعته تسبقه في امتلاك عدة وعتاد تفوق ما يمكن للعرب توفيره. لذا أصيب المسلمون بالذعر والقنوط، لأنهم يعلمون ألا قبل لهم بهذا الجيش. وعندما تفتقت أذهانهم عن حفر خندق لصد العدوان، كان لديهم الوقت الكافي للانتهاء من الحفر قبل وصول الأحزاب، لأن المسافة بين موطن الجيش الغازي والمدينة بعيدة. وهذا لا ينفي أن يكون قد اشترك مع الأحزاب رجال من بعض القبائل إضافة لقريش.

ومن الوصف القرآني، فالجيش القادم من بعيد كان مخيفاً في عدده وعتاده بدرجة غير مألوفة لعرب الجزيرة، وعرف المسلمون ألا قبل لهم به، فقاموا بحفر خندق شمال المدينة يمتد من حرة وبرة غرب جبل سلع وغرب يثرب، إلى حرة واقم الواقعة شرق يثرب. وقد أغلق الخندق كل المساحة المفتوحة الوحيدة لمنطقة يثرب من جهة الشمال، وأصبحت يثرب بكاملها عبارة عن منطقة مغلقة. تحدها الحرات الشديدة الوعورة من ثلاث جهات، والخندق من الجهة الشمالية الباقية.

وبمجرد وصول قوات الائتلاف الغازية إلى المدينة، حتى هبت عليهم ريح عاتية، قضت على آخر معنوياتهم التي تكاد تكون منهارة من بعد السفر ومشقة الطريق. فأصابهم الذعر والخوف، خاصة أنه لم يكن لديهم دافع لحرب المسلمين، وليس بينهم عداوة، ولكنهم حضروا نتيجة لإقناع قريش بمعاونتهم. فما كان من قوات الائتلاف إلا أن لاذوا بالفرار وعادوا أدراجهم تحت جنح الظلام من حيث أتوا. وتفرق أفراد القبائل الذين انحازوا إليهم، وعاد القرشيون أدراجهم لمكة يجرون أذيال الخيبة. وعاد المسلمون لمساكنهم دون قتال. ليقابلهم المنافقون بألسنة حداد لإقناعهم أنهم معهم، وهم في الحقيقة سيهربون لو عاد الأحزاب.



سبب مهاجمة الأحزاب إلى المدينة

لعل الباعث لهذا الهجوم على المدينة من الأحزاب هو أن قريشاً – بقناعة من رجالها أو بإقناع من بني إسرائيل – قامت بطلب النجدة من الروم على حرب المسلمين. وكتب التراث تتحدث عن لقاء بين أبي سفيان ووفد من قريش وهرقل – عظيم الروم – في إيليا (القدس الحالية). وهو لقاء قد يكون تم بالفعل، ولكن لسبب آخر غير الذي أوردته كتب التراث التي تقول إن اللقاء تم بناءً على رغبة هرقل سؤال أبي سفيان عن محمد، الذي امتدحه. وهذا يستحيل أن يحدث، لأن أبا سفيان وكل كبراء قريش يعملون على تشويه سمعة الرسول والإسلام وصد الناس عن الدخول فيه كما أخبرنا القرآن: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩) هود.

وقد حاربوا الإسلام والمسلمين وحاولوا صد الناس عن لقاء الرسول والدخول في الإسلام كما أخبرتنا عدة سور مكية. ولعل اللقاء قد تم بناءً على رغبة قريش، وقد هول أبو سفيان لهرقل خطر المسلمين على قطع إمدادات البهارات واللبان والبخور التي تقوم قريش بتوصيلها للروم. وأقنع هرقل بضرورة إرسال جيش رومي للقضاء على محمد وأتباعه، وقد وافق هرقل على ذلك. ولما تسامعت قضاعة وبعض القبائل الأخرى بقدوم جيش الروم انضم بعض رجالها إلى الأحزاب كمرتزقة طلباً للغنائم كعادتهم في ذلك الزمن.

وموافقة هرقل على معاونة قريش من الممكن حدوثها، لأن تجار قريش هم من يجلب البخور واللبان والتوابل من جنوب الجزيرة إلى الشام ليبيعوها على تجار ينقلونها لروما وأوروبا، وقد أوحوا لهرقل أن وجود المسلمين في يثرب يشكل خطراً على هذه الإمدادات، كما سبق وذكر.

وقد علم المسلمون بتحركات قريش وسفر أبي سفيان والوفد المرافق له للقاء هرقل. ولعل الرسول قد أرسل وفداً وخطاباً لهرقل يشرح له دعوته ولماذا تحاربه قريش، لعله يثنيه عن معاونتهم. وهو الخطاب الذي حورت كتب التراث نصه ليبدو وكأنه خطاب من الرسول لهرقل يدعوه فيه للإسلام. لأنه من الصعب تصور أن يقوم الرسول بإرسال خطابات للروم والفرس وهو بالكاد يسيطر على المدينة التي لا تمثل إلا بقعة محدودة جداً من يثرب، ومحاطة بقبائل وثنية، وبعدها حواضر وثنية ومن بني إسرائيل وغيرهم، أقرب من الفرس



والروم، على الرسول أن يدعوهم أولاً، ولو آمنوا ووصل الإسلام لحدود تلك الدولتين العظميين، حينها سيكون بإمكان الرسول مراسلة قيصر وكسرى، ودعوتها للإسلام.

ولعل أبا سفيان ومن معه من قريش لم يتوجهوا مباشرة إلى إيليا ولكنهم قابلوا الحاكم الإقليمي الغساني أولاً، والذي اقترح عليهم مقابلة هرقل، لأنه لا يستطيع أن يجهز جيشاً ويأمره بالسفر لعمق جزيرة العرب لقتال دون موافقة مسبقة، وأمر من هرقل.

وقد عاد وفد الرسول مسرعاً إلى المدينة ليخبرهم أن هرقل وافق على نجدة قريش وأنه أمر بإعداد جيش عرمرم للقضاء على المسلمين. وهو ما أدخل الرعب في قلوبهم وزلزل الأرض من تحت أرجلهم، وفي نفس الوقت كان لديهم الوقت الكافي لحفر الخندق قبل وصول جيش الروم.

وإن كان هذا ما حدث فالأحزاب إعلان من الروم الحرب على المسلمين، وأول لقاء حربي بينهم. ويكون الروم هم من بدأ العداء، الذي نتج عنه أمر الله المسلمين في سور الأحزاب وبراءة بقتال كل من شارك في قوات الأحزاب وسحقهم، لأن بقاءهم سيشكل خطراً دائماً على وجود الإسلام. وقد نفذ المسلمون تعاليم القرآن، وأرسلوا الجيش تلو الآخر لحرب الروم في عصر رسول الله وبعد وفاته حتى تم القضاء على الوجود الروماني في الشرق الأوسط. نقول هذا لأنه يفسر الكثير من الغموض حول الأحزاب، وحول إرسال الرسول لجيش مؤتة لحرب الروم، وحملة تبوك بعدها، وجيش أسامة ابن زيد، فيما بعد، مع أنه محاط بأعداء أقرب منهم، وحول أسباب بدء ما عرف بالفتوح التي يصورها لنا التاريخ على أنها حروب توسعية[1].

كما يفسر جلاء قبيلة من بني إسرائيل عن يثرب، التي استوطنوها لمئات طويلة من السنين، وقد يكونوان هم أول من سكنها. فغدرهم بالمسلمين وتعاونهم مع قريش وإيحائهم لهم بطلب العون من الروم، واستعدادهم لفتح جبهة خلفية على المسلمين إذا بدأت الحرب، ذنب لا يغتفر، وهم يعلمون ذلك. لذا سارعوا بعرض أن يخرجوا من يثرب ويتركوا أملاكهم للمسلمين مقابل الإبقاء على حياة من بقي منهم، بعد أن انكشف تآمرهم ضد المسلمين. وقد يكون افتراضنا هذا بعيداً عن الواقع عند البعض لأول وهلة، لكن بقية

[1] انظر فقرة: حروب الردة والفتوح/ في هذا القسم.



السور المدنية التي لم نتطرق لها بعد، ستظهر أننا لم نجنح للخيال، وأن افتراضنا أقرب للحقيقة من أي رواية تقرأ في كتب التراث.

عودة مسلمة يثرب إلى المدينة وترك الحفر مع المسلمين

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً(١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً(٢٠) الأحزاب.

لقد عاد المنافقون (مسلمة يثرب) إلى المدينة أثناء حفر الخندق، بحجة أن بيوتهم ليست محمية، ولكن السبب الحقيقي هو خوفهم من الموت في سبيل قضية لا يؤمنون بها. وبعد عودتهم إلى المدينة، عاثوا فيها فساداً مستغلين خلوها من رجال المسلمين، وسنعود للحديث عنهم وما فعلوه.

ما بعد الغزوة

لقد اندحر الغزاة دون قتال: وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً(٢٥) الأحزاب.

وكانت خطة جيوش الأحزاب قاصمة، ولو نجحت فقد يسحق المسلمون ويفنون عن بكرة أبيهم. فكان لابد من معاقبة كل من ثبت تورطه في فكرة تجمع مثل هذه الجيوش، أو



اشترك فيها، لئلا يعاودوا التآمر على الإسلام ودولته. لأن فشلهم هذه المرة لا يعني أنهم سيفشلون مرة أخرى، وبقاؤهم يعني تهديداً مستمراً لوجود الإسلام والمسلمين.

الجلاء الأول لقبيلة من بني إسرائيل

بعد أن تأكد المسلمون يقيناً أن قوات الائتلاف ذهبت إلى غير رجعة، توجهوا للقبيلة الخائنة من بني إسرائيل لمعاقبتهم على المشاركة في فكرة جمع الأحزاب وعقدهم العزم على المشاركة في مهاجمة المسلمين من الخلف، ناقضين العهد والميثاق بينهم وبين المسلمين الذي ينص على عدم الاعتداء أو معاونة الأعداء أو الكيد للمسلمين.

ولأن هذا الفريق من بني إسرائيل يعلمون أن ما اقترفوه بحق المسلمين لا يمكن أن يغتفر، فقد حاولوا الدفاع عن أنفسهم في البداية لكن سرعان ما تبين لهم أن القتال يعني الفناء، فعرضوا على المسلمين استعدادهم للجلاء من يثرب، وتسليم قلاعهم ومنازلهم ومزارعهم للمسلمين، مقابل الاحتفاظ بأرواحهم وما يستطيعون حمله من متاع ومال، فوافق الرسول والمسلمون على ذلك: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧) الأحزاب.

وهكذا تم إجلاء قبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب، لخيانتهم المسلمين، أما بقية بني إسرائيل وأهل الكتاب الآخرون فلم يمسسهم سوء، لأنه لم يكن لهم يد فيما حدث. وكان هذا هو الجلاء الأول لأي قبيلة من بني إسرائيل من يثرب، بخلاف ما نقلته كتب التراث التي تقول إن الجلاء الأول كان بعد بدر، والثاني كان بعد أحد، أعقبه ثالث وأخير بعد الأحزاب، وكل هذا مجرد اختلاق لا وجود له على أرض الواقع، ولم يتحدث عنه القرآن.

ولابد من التوقف مع المفسرين حول جلاء القبيلة من بني إسرائيل بعد الأحزاب، الذين لم يبخلوا كعادتهم باختراع القصص، فجعلوا سبب إعلان المسلمين الحرب على بني إسرائيل أمراً إلهياً أرسل به جبريل ولم يطلع المسلمون على حكمته أبداً، يقول ابن هشام في سيرته، إن الزهري أخبره عما حدث (والزهري لعلم القراء ولد سنة ٥٨ للهجرة، ومات سنة ١٢٤، ولم يكن شاهد عيان، ومع ذلك يقص ويختلق كيفما يشاء، وينقله لنا ابن هشام وغيره على أنه



الحق من ربك) يقول الزهري: فلما كانت الظهر (أي ظهر اليوم التالي لرحيل الأحزاب)، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم، معتجرا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم؛ فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا، فأذن في الناس: من كان سامعا مطيعا، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

وقد تقمص جبريل شخصية دحية بن خليفة الكلبي، على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج، ومر بالمسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم. ((مرة أخرى كل ما ورد قاله الزهري، وليس شاهد عيان)).

أرجو أن يلاحظ القراء عبارة: «أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله صلى الله عليه وسلم» وهي عبارة لا تستقيم أبداً، لأنه إن كان المتكلم هو جبريل كما يزعم القاص، فالعبارة يجب أن تكون: يا رسول الله صلى الله عليك وليس عليه.

ومن الواضح أن المفسرين الذين منهم الزهري لا يعرفون القرآن، وإلا لعرفوا أن الرسول لم ير الملائكة إلا مرتين، كلاهما في بداية البعثة. ولعرفوا أن الملائكة لو رآها البشر لهلكوا بنص القرآن. وعرفوا أن الملائكة وكل المخلوقات النورانية لا تستطيع حمل الأشياء ولا تستطيع القتال.

وتستمر كتب السير بسرد القصص المختلق وتقول:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر سعد ابن معاذ، فحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. ((لاحظ أن مختلق القصة استخدم أرقعة، ويعني سماوات))

ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة من



بني النجار، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم (أي سوقها عندما وثقت القصة في عصر ابن إسحاق) فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناق كل من بلغ الحلم منهم ودفنوا في تلك الخنادق، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثِّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة[1].

هذا باختصار ما نقله ابن هشام في سيرته، وغيره من الإخباريين في كتبهم، نسوقها للقراء ليعلموا أن الرسول لم يفعل ولكن كتب السير والتاريخ والحديث والتفسير قولت الرسول ما لم يقل ونسبت له ما لم يفعل ولا يستطيع أن يفعل. فالرسول لا يستطيع فعل ما نسبت له كتب الأخبار ببني إسرائيل ولا بغيرهم، لأن القرآن يمنع ذلك، ولو فعل لعاقبه الله. وقد ناقشنا هذه القصص المختلقة في سنة الأولين، ولم يعد القراء يحتاجون لأدلة تثبت اختلاق هذه القصص، لأن القرآن أصبح رفيقهم الذي يخبرهم بحقيقة ما حدث، وليس ما تخيله واختلقه الرواة. وهو ما سبق وذكرته الآيات التي بين أيدينا والتي تقول إنه بعد قتال قصير عرض بنو إسرائيل الجلاء مقابل أرواحهم فوافق الرسول، ولم يكن هناك لا سبي للنساء ولا قتل للرجال العُزَّل. وسنرى في سور قادمة كيف واصل المسلمون معاقبة كل من شارك في جيوش التحالف، تنفيذاً لأمر القرآن.

زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني

مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥) الأحزاب.

الآيتان مقدمة للحديث عن زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني واسمه زيد. والآيات تطمئن الرسول أن زواجه بمطلقة ابنه بالتبني ليست معصية، لأن زيد ليس ابناً للرسول من نسله، والتبني عرف، كما كان الظهار عرف، والظهار اعتقاد الناس أن من يقول لها زوجها:

[1] ما يؤكد أن هذه القصة خرقاء مختلقة هو أن دار بنت الحارث (إن كان لها وجود) فلا يمكن أن تسع عشرة رجال لأن دور ذلك الزمن لا تزيد عن غرفة أو غرفتين وبمساحة إجمالية ما بين (٢٥-١٠٠) متر مربع. وقد بقيت بيوت أهل جزيرة العرب بهذا الضيق إلى منتصف السبعينات من القرن العشرين. ويستحيل أن تتسع لمئة أو ستمئة أو تسعمئة نفس.



«أنت علي كظهر أمي» تحرم عليه كما أمه، أو أنها تصبح أماً له، لأن الآية تقول: « وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ».

والحادثة تناولتها كتب السير بتفاصيل لا يمكن الركون إليها.

وتعود السورة لاستكمال الحديث:

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً(٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً(٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً(٣٩) الأحزاب.

وعلينا أن نقرأ الآيات بتأنٍ، بعيداً عما روي حولها من قصص وحكايات، ونقول:

- زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني حدث قبل نزول سورة الأحزاب، ولم تنزل هذه الآيات لتبيح للرسول الزواج بها.

الآية: (٣٧) تخبرنا عن أحداث متتالية وبينهما فترات زمنية، كما يلي:

- في البداية كان هناك خلاف بين زيد وامرأته وتدخل الرسول لإقناع زيد بأن يبقي المرأة ولا يطلقها وأن يحاول حل المشاكل التي أدت لهذا الخلاف: « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ».

والذي أخفاه الرسول في نفسه قد يكون إصراره على زيد أن يبقي المرأة في عصمته ولا يطلقها، وهو يعلم أن حياتها معه لا تطاق. وليس كما زعمت كتب التراث – كما سنرى – أنه عشقها.

- كل مساعي الإصلاح فشلت وانتهى الأمر بالطلاق.
- تلا ذلك تربص امرأة زيد عدة الطلاق والتي هي عبارة عن ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر حسب حالتها عندما وقع الطلاق.



- بعد انقضاء مدة التربص تقدم الرسول لخطبتها ووافقت على الزواج: « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا».
- والله لم يزوجها الرسول فعلياً ولم ينزل عليه وحياً يأمره بالزواج منها لكي يكسر عادة شائعة في المجتمع والتي تتمثل باعتبار الابن المُتَبَنى ابناً حقيقياً للمتبنِّي. ولكن الذي حدث هو أن الرسول تزوجها باختيار شخصي. ونزل القرآن يؤكد أن الزواج بمطلقة الابن بالتبني صحيح، لأنه ليس ابناً بالنسب. مثله مثل الظهار الذي يعتبر الزوجة أماً لزوجها الذي ظاهرها. وكان هذا العرف متأصلاً في المجتمع حتى نزلت سورة المجادلة بتعطيله: الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢).
- الرسول أقدم على الزواج وهو متحرج من كلام الناس لأنه خالف عرفاً موروثاً وليس لأنه اقترف معصية. فجاء القرآن يطمئنه أن ما فعله صواب.
- فسورة الأحزاب لا تتحدث عما سيقوم به الرسول وتباركه، ولكنها تخبر بما سبق وحدث قبل نزولها. فالآيات التي تتحدث عن الواقعة آيات إخبارية بما سبق وحدث، وليست توجيهية توجه الرسول لأن يتزوج بمطلقة ابنه بالتبني.

ويكون زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني سبق غزوة الأحزاب والتحضير لها وفي الفترة التي تقع بين تعافي المسلمين من هزيمة أحد وبين تنامي الأخبار حول سعي قريش لإقناع الروم بمعاونتهم على حرب المسلمين. وبعد عدة أشهر حدثت حملة الأحزاب التي تحدثت عنها سورة الأحزاب وتحدثت السورة عن زواج الرسول بعد وقوعها بفترة من الزمن تقدر بالأشهر.

- وقد انتهت القصة ولم يعد لها ذكر بعد ذلك.

لكن في عصر الفتن والظلمات توسع الناس في تناول ما حدث للنيل من الرسول والتشنيع عليه واختلقت لذلك القصص التي لم تبخل كتب التراث – كالعادة – في توثيقها وترسيخها لتبدو وكأنها عين الحقيقة. وأول من اختلق قصة عشق الرسول لزوجة زيد هو يوحنا الدمشقي[1] ثم تناقلها عنه المفسرون وتفننوا في تعديلها وتبديلها في روايات متعددة،

---

١ يوحنا ابن منصور ابن سيرجون مسيحي ولد في القصور الملكية الأموية أثناء عصر معاوية ابن ابي سفيان في العام ٥٦



وجاء من يوثقها في الكتب. ومن ذلك نورد بعض ما جاء في تفسير القرطبي، حيث يقول: واختلف الناس في تأويل هذه الآية (٣٧ من سورة الأحزاب) فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين، منهم الطبري وغيره إلى أن النبيّ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عِصْمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلّقها زيد فيتزوّجها هو؛ ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلظةَ قولٍ وعصيان أمرٍ، وأذًى باللسان وتعظُّماً بالشرف، قال له: «اتق الله أي فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك» وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إيّاها.

** يمكن ملاحظة أن الكلام أعلاه لم ينقل عن الرسول ولا عن زيد ولا عن مطلقته ولا عن شهود عيان، ولكنه اختلاق قال به قتادة (ت ١١٨هـ) وابن زيد (ت ١٨٢هـ) وجماعة من المفسرين ومنهم الطبري (ت ٣١٠هـ). وكل ما سنقتبس من تفسير القرطبي هنا هو قصص مختلق ممن نسب له كما سنرى، وليس له مصدر ولا أساس. وكل من اختلق القصص هم أناس عاشوا في أزمنة بعيدة عن عصر الرسول، كما يظهر من تاريخ وفياتهم، ويفصلهم عنه هوة سحيقة سميناها عصر الفتن والظلمات، وتحدثنا عنها في أول الكتاب.

يقول القرطبي: وقال مقاتل (ت ١٥٥هـ) زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلّم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً، ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمة، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتمّ نساء قريش، فهوِيَها وقال: «سبحان الله مقلّبِ القلوب» فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطِن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبراً، تعظُم عليّ وتؤذيني بلسانها، فقال عليه السلام: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله». وقيل: إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلة في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي صلى الله عليه وسلّم، وذلك لما جاء يطلب زيداً، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها.

وهذا الهراء الذي قدمه مقاتل من بنات أفكاره هو تلقفه المستشرقون واعتبروا سورة

هـ، عندما كان جده سيرجون يعمل ككاتب للقصر وصاحب أمر الحاكم معاوية. ولما مات سرجون خلفه ابنه منصور، والد يوحنا، والذي توفي في خلافة عبد الملك ابن مروان. ليرثه ابنه يوحنا وبقي يعمل في قصور بني أمية حتى العام (١١٢هـ) حيث ترك العمل والتحق بأحد الأديرة القريبة من إيليا (القدس) وبقي حتى مات عام (١٣٢هـ) حيث خلد اسمه عند المسيحيين كأول من هاجم الإسلام في كتابه (هرطقات محمد) والذي بقي مصدراً هاماً للمبشرين حتى اليوم، لما يحويه من قصص مختلق عن رسول الله، ومنها قصة زوجة زيد.



الأحزاب تتحدث عنه. وهذه بعض الأقوال عن هذا الأفاك مقاتل والتي نقلها الذهبي في سير أعلام النبلاء:

قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة.

وقال ابن عيينة: قلت لمقاتل: زعموا أنك لم تسمع من الضحاك. قال: كان يغلق علي وعليه باب. فقلت في نفسي (ساخراً): أجل، باب المدينة.

وكان من يعرفه يعلم كذبه ويسخر منه، فقد قيل: إنه قال: سلوني عما دون العرش. فقالوا: أين أمعاء النملة؟ فسكت. وسألوه: لما حج آدم من حلق رأسه؟ فقال: لا أدري. قال وكيع: كان كذابا.

وعن أبي حنيفة قال: أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبه.

وقال عنه البخاري: مقاتل لا شيء البتة.

ويقول الذهبي: قلت: أجمعوا على تركه.

فإن كان هذه بعض آراء من يعرفه فكيف تم توثيق قصصه الكاذب ليستغله المستشرقون للتهجم على الرسول؟

ومثل قتادة كل أعلام كتب التراث.

فابن عباس هو من قال إن الله جل وعلا هو من أخبر الرسول بالزواج من زوجة زيد وهي ما زالت في عصمته، يقول ابن عباس كما نقل القرطبي: وقيل: والله أحق أن تستحيي منه، ولا تأمر زيداً بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك، فعاتبه الله على جميع هذا.

ومثل ابن عباس عليّ بن الحسين الذي يقول: إن النبيّ صلى الله عليه وسلّم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب، وأنه يتزوّجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنبيّ صلى الله عليه وسلّم خُلُقَ زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم على جهة الأدب والوصية: «اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوّجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لِما علم أنه سيتزوّجها؛ وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يلحقه



قول من الناس في أن يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشِي الناس في شيء قد أباحه الله له؛ بأن قال: «أَمْسِكْ» مع علمه بأنه يطلّق. وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال.

ولو كان الله قد أوحى للرسول بشيء لقرأناه في كتابه الكريم، ولكن — وكما جرت العادة — يقول المفسرون ما يحلو لهم وتقوم كتب التراث بتسجيله ونقوم بتبنيه دون تفكير.

وكلام علي ابن الحسين المختلق يقول عنه القرطبي: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين؛ كالزهريّ والقاضي بكر بن العلاء القشيريّ، والقاضي أبي بكر بن العربيّ وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولا.

ويأتي متقول آخر على الله ويقول بأعظم مما قال من سبقه، يقول القرطبي: وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلّم «وَطَراً زَوَّجْتُكَها». ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلّم، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين. ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي صلى الله عليه وسلّم وتقول: زوجكنّ آباؤكنّ وزوّجني الله تعالى. أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تَفْخَر على نساء النبي صلى الله عليه وسلّم تقول: إن الله عز وجل أنكحني من السماء. وفيها نزلت آية الحجاب؛ وسيأتي. انتهى.

والله لم يزوج الرسول بمطلقة زيد، ولكن الرسول تزوجها بإرادته الشخصية. ولم يدخل بها الرسول سفاحاً، كما صور جعفر ابن محمد في قوله: « دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا». ولم يعشقها لأنه رأى من جسدها ما فتنه بها، ولم يحدث أي شيء مما اختلقه القصاص الذين استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا.



وسورة الأحزاب – كما سبق وذكرنا – تخبرنا بحادثة وقعت ولا تتحدث عن شيء سيقع. وعندما قالت «زوجناكها» لا تعني أن الزواج تم بوحي من الله، ولكنها تعني أن الزواج تم بمشيئة الله، كغيره من الأحداث.

وبداية القصة أن زيداً الذي تبناه الرسول وقع بينه وبين امرأته شقاق مؤدٍ للطلاق. وقد حاول الرسول إقناع زيد برأب الصدع: « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ». والرسول حينها يعلم أن الزوجة كانت ستتعرض للاضطهاد لو بقيت مع زوجها. لكن يبدو أن الرسول قد جامل ابنه بالتبني عندما حاول إقناعه بالإبقاء على زوجته، بدل أن يقول له إنها تعيش حياة بائسة معك ويجب عليك طلاقها: « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ»

وبعد الطلاق فكر الرسول بخطبتها لكنه شعر بنوع من الحرج فيما سيقوله الناس عنه من أنه تزوج مطلقة ابنه: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ».

ولعل هنا إشارة إلى أن الرسول فكر بخطبتها بمجرد إعلان زيد طلاقها، ليس لأنه عشقها ورأى من جسدها ما أثار شهوته كما لفقت كتب التراث، ولكن لشعور الرسول بالتعاطف معها فيما لاقته من ابنه فأراد أن يعوضها بمعاملة أفضل. وهذا الشعور جعله يتغلب على شعوره بالحرج من الناس، خاصة أنه يعلم أن التبني لا يحول المتبنى لولدٍ للمتبني.

وخلال فترة تربص المطلقة بعدتها، استقر رأي الرسول على خطبتها، فتقدم لخطبتها وتم الزواج. وقد يكون هذا الزواج أحدث ردة فعل في المجتمع حينها كون الناس تنظر للتبني على أنه إلحاق للمتبنى بالنسب وكأنه ولد من صلب المتبني وهذا بخلاف الواقع. لكن ردة الفعل كانت محدودة وانتهت في حينها مثلما انتهت ردة الفعل حول اعتبار من يظاهرها زوجها كالأم الحقيقية. ولكن التشنيع على الرسول جاء في عصور الفتن والظلمات حيث اختلقت القصص حول الحادثة.

وتؤكد السورة حقيقة يعرفها رجال قريش ورجال يثرب وكل من عرف الرسول، بأنه لم يرزق بأولاد أبداً ولن يكون أباً لأحد أبداً، كونه لا ينجب: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٤٠) الأحزاب.

فلم يكن أباً لأي طفل ذكر، سبق تبني زيد ولا بعده، ولن يكون أباً لأي طفل يكون لاحقاً



من رجال قومه. وزيد المتبنى لن يلحق بنسب الرسول الذي توقف ولن يكون له امتداد، لأنه لا ينجب عليه الصلاة والسلام[1].

هل تبنى الرسول زيد ابن حارثة

كتب التراث تقول إن زيداً هو زيد ابن حارثة، ويوردون له نسباً وقصصاً متخالفاً عن كيفية تبني الرسول له، نورد ملخصاً لها كما يلي:

نسبه في كتب التراث

يوردون لزيد نسباً طويلاً جداً يوصله إلى كلب ثم قضاعة ثم إلى قحطان.

كما يوردون لأمه نسباً مماثلاً يوصلها لطي ثم قحطان. وهذه الأنساب الطويلة والموغلة في القدم لا سبيل للتأكد من صحتها، كما أن إيرادها بهذه الدقة المبالغ فيها يجعل الشك يحوم حول اختلاقها، ولماذا اختلقت؟

ثم يصفونه بقولهم: «كان زيد رجلاً قصيراً، أسمرا، أفطس الأنف». وهذه الصفات تنطبق على رجل أسود من أصل زنجي، ولا يمكن أن تنطبق على رجل عربي سليم النسب لكلب فقضاعة ثم قحطان.

كيف حصل عليه الرسول

تقول كتب التراث إن حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة، وأهداه لخديجة، التي أهدته لزوجها محمد، الذي أعتقه ثم تبناه.

ومرة يقولون: إن حكيم ابن حزام ابن خويلد قد اشتراه من سوق عكاظ، وليس من الشام.

ومرة أخرى يقولون: إن الرسول هو من رآه بالبطحاء بمكة ينادى عليه ليباع، فأتى خديجة فذكره لها، فاشتراه من مالها، فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه.

وبطبيعة الحال تتفق هذه القصص في أن الرسول حصل عليه كعبد ثم تبناه، وهذا يؤكد خرافة هذه الأقوال. لأن التبني لا يكون للعبيد، ولكن للأيتام ومعروفي النسب.

---

[1] ولو كان للرسول أبناء فإن الناس سيغالون في تقدير نسل رسول الله لدرجة التعظيم. ولعل ما نراه من تعظيم لنسل علي ابن أبي طالب بحجة أن زوجته كانت بنتاً لرسول الله، خير دليل. مع أن المرأة لا تحمل النسب، ولا تورثه لأبنائها.



ولكي يتأكد القراء أن كل ما نقلته كتب الأخبار عن زيد ليس صحيحاً، وأنه ليس ابن حارثة، وأن تسمية زوجته بزينب بنت جحش ما هو إلا محض اختلاق، تعالوا نحلل بعض المعلومات التي قالوها عن زيد، مقتبسة من كتاب أحسن القصص:

يقولون إن زيد ابن حارثة مات سنة (٨) للهجرة في معركة مؤتة، وعمره خمس وخمسون سنة. أي أن عمره عندما هاجر الرسول كان (٤٧) سنة، وبما أن الرسول – حسب زعمهم – هاجر وعمره ثلاث وخمسين سنة، فإن فارق السن بين الرسول وزيد كان ست سنوات فقط[١].

وحسب زعمهم، فالرسول تزوج خديجة وعمره خمس وعشرون، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، أي عندما كان عمر الرسول خمسين سنة. والرسول تبنى زيداً، كما يقولون، في حياة خديجة، ولنقل قبل وفاتها بعامين. وكان عمر الرسول ٤٨ سنة، وعمر زيد ٤٢ سنة. فهل يعقل أن يتبنى الرسول رجلاً بعمر ٤٢ وقريباً من سنه؟

وحتى لو افترضنا أن الرسول تبنى زيداً في السنة الأولى من زواجه بخديجة، أي عندما كان عمره ٢٥، حسب زعمهم، فإن عمر زيد سيكون ١٩ سنة. أي أنه رجل بالغ عاقل. وحتى لو كان رقيقاً واشتراه الرسول أو غيره وأعتقه الرسول، فلا يمكنه تبنيه وهو في تلك السن، لأن التبني يكون للأطفال، ولا يكون للرجال أبداً.

ولن نتتبع كل ما قاله الإخباريون عن زيد، ولن نسلم به، وما يهمنا من أمره، هو أن محمداً قد تبنى طفلاً في مكة. وتبني محمد للطفل زيد كان فعلاً غير منكر، في بيئة اعتادت على التبني، وقام بإلحاقه بنسبه، كما يفعل الناس. وأصبح يسمى زيد ابن محمد، واستمر كذلك منذ تبنيه في مكة، وحتى نزول سورة الأحزاب في المدينة.

وزيد ابن حارثة المشهور كان له ولد اسمه أسامة ابن زيد قد ولاه الرسول قيادة جيش لحرب الروم في آخر حياته، مما ينفي نفياً قاطعاً أن يكون الرسول قد تبناه في وقت من الأوقات لقرب سنه من سن الرسول.

كما أن زينب بنت جحش «المزعومة» من المسلمين القدماء وتقول كتب التراث إنها ولدت

١ عمر الرسول – كما ثبت لدينا – كان أقل من الخمسين عندما توفي. على أساس أنه بعث قبل أن يصل عمره الثلاثين، وبقي يدعو في مكة قرابة ثمان سنوات، ومثلها أو أقل في المدينة.



قبل البعثة وكان عمرها (٣٣) عاماً عند هجرة الرسول. ولما تزوجها رسول الله كان عمرها يزيد عن (٣٨) عاماً. أي كانت قد هرمت بمقاييس ذلك العصر، وتجاوزت نضارة الشباب، وقاربت سن اليأس. مما ينفي أن تكون قد سحرت الرسول بجمالها كما زعمت كتب التراث. ولم يكن زواج الرسول بها زواج عجوز متصابٍ بفتاة يافعة، كما تحاول أن تصوره كتب التراث. ولكنه زواج رجل هرم بسيدة قاربت سن اليأس. نقول هذا الكلام على سبيل الافتراض من أن زوجة زيد هي بالفعل زينب بنت جحش.

من هو زيد ابن محمد؟

نقول كتب التراث إن الرسول تزوج بخديجة بنت خويلد التي سبق وتزوجت قبله برجيلين أحدهما هلك ولم تنجب منه، واسمه عتيق بن عائذ من بني مخزوم. والآخر أنجبت منه واسمه أبو هالة. وقد اختلف في اسمه، فقيل هو زرارة وقيل نباش وقيل هند، وقيل غير ذلك. وقد أنجبت خديجة منه ولد تذكر كتب التراث أن اسمه هند. وقال ابن الكلبي: أبو هالة هند بن النباش بن زرارة، كان زوج خديجة قبل النبي صلى الله عليه وسلم، فولدت له هند بن هند، وابن ابن ابنه هند بن هند بن هند. انتهى

وهذا التكرار في اسم هند يثير الريبة، ويضع احتمالاً ألا يكون ولد ابن أبي هالة اسمه هند.

وسنحاول في الأسطر القادمة التعمق أكثر في بعض الروايات، ونقول:

إن الأخبار عن أبي هالة زوج خديجة ضبابية وتم تعتيمها، لدرجة أن اسمه الأول ذكر فيه عدة آراء، منها: أنه نباش أو نباش أو زرارة أو مالك وقيل هند.

والتعتيم على حياة الرجل طال نسله من خديجة، فقيل إنه أنجب منها ولدين بينما أنجب منها الرسول أولاداً وبناتاً. ولو تساءلنا اين هم أولاد رسول الله من خديجة؟ لأجابت كتب التراث بأنهم: عبد الله والطاهر وأحياناً يضاف لهم غيرهم. وكلهم ماتوا وهم أطفال، بينما بقيت البنات.

والقرآن يؤكد أن الرسول لم ينجب من خديجة لا بنين ولا بنات. ولو كان قد أنجب فلن يعيره القرشي بالأبتر: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(٣) الكوثر.



وحتى لو افترضنا أنه لم يرزق من خديجة بأولاد ذكور وكان له بنات فقط، فلن يعيره القرشي بالأبتر التي تعني مقطوع النسب. لأن من ينجب بنات قد ينجب الذكور، ولأن القرشي لم يعيره بأنه أب للبنات، بل عيره بالأبتر مع وجود بنات خديجة. مما يعني أنهن لسن بناته صلوات الله عليه، ولكن ربيباته.

ويكون التعتيم على أبي هالة متعمداً.

وكتب التراث، فيما نقل الطبري، تقول: (تزوّج أبو هالة خديجة بنت خويلد، فولدت له هندا وهالة، رجلين فمات هالة، قال: فخلف عليها رسول اللهّ وعندها ابن أبي هالة، هند، فأدرك هذا الاسلام، فأسلم، وحدّث عنه الحسن بن علي).

فخديجة رزقت بولدين من أبي هالة، واحد اسمه هالة مات وهو صغير، والآخر «هند» أدرك الإسلام، وهو الذي وصف رسول الله للحسن ابن علي.

وهالة هذا يقول عنه صاحب كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة: (أخبرنا أبو موسى إجازة، أخبرنا أبو عدنان محمد بن أحمد بن المظهر بن أبي نزار وغيره قالا: أخبرنا محمد بن عبد الله الضبي، أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا علي بن محمد بن عمرو بن تميم بن زيد بن هالة بن أبي هالة التميمي بمصر، حدثني أبي محمد، عن أبيه عمرو، عن أبيه تميم، عن أبيه زيد، عن أبيه هالة بن أبي هالة: أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو راقد، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فضم هالة إلى صدره، فقال: هالة ! هالة ! هالة !.)

وكان هذا وهالة طفل صغير.

والمؤرخون وكتاب السير يكادون يجمعون على أن خديجة لم تنجب سوى ولد واحد من أبي هالة، فهل هذا يعني أن هالة هو ذاك الطفل وهو الذي يسمى أحياناً هنداً.

وهالة قد لا يكون اسمه، ولكن المؤرخين ظنوا أنه اسمه لأن لقب والده «أبو هالة» فظنوا أنه سمي بأبي هالة لأن له ولداً اسمه هالة. وهذا قد يكون أصبح سارياً في عصور لاحقة، لكن في الجاهلية وعصر الرسول كان الرجل يلقب باسم ليس بالضرورة أن يكون له ولد يحمل نفس الاسم، مثل أبي طالب، أبي بكر، وغيرهما كثير.

ويكون هالة ابن أبي هالة هو هند ابن ابي هالة وهو الولد الوحيد لخديجة، ولكن بما أن البعض نقل إن اسمه هالة والبعض ذكر أن اسمه هند قال بعض المؤرخين إن خديجة



أنجبت ولدين من أبي هالة، واحد مات صغيراً وهو هالة بينما أدرك الإسلام أخوه هند.

ويكون هالة الذي ضمه الرسول لصدره هو الولد الوحيد لخديجة، وكان طفلاً صغيراً بعدما تزوج الرسول بخديجة. أي أن أبي هالة قد توفي وابنه مولود حديثاً وبقيت بعده خديجة عاماً أو عامين ثم تزوجت الرسول.

وهذا الطفل هالة، كان يلقب بالطاهر، كما ورد في ترجمته في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: (الطاهر بن أبي هالة أخو هند وهالة، بنو أبي هالة الأسيدي التميمي، حليف بني عبد الدار بن قصي، أمّه خديجة زوج النبي). وذكره ابن ألأثير في أسد الغابة، وجاء ذكره في الإصابة أيضاً، وذكره البغوي أيضاً ضمن ترجمته لعبيد ابن صخر ابن لوذان.

وهذا يجعلنا نقول إن الطاهر الذي قيل إنه ابن رسول الله من خديجة هو لقب ولد خديجة من زوجها أبي هالة، والذي اختلف في اسمه هل هو هالة أو هند؟ أو كما نظن أنه زيد.

ويكون الولد الوحيد لخديجة من أبي هالة هو أصغر أولادها منه، وبالتالي ففاطمة أصغر بنات خديجة تكبر أخاها الذي سمته كتب التراث هالة أو هنداً.

وفاطمة تقول كتب التراث إنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين، وسنفترض أن أخاها ولد بعدها بسنتين وفي نفس السنة أو التي تليها توفي أبو هالة، أي قبل البعثة بسنتين أو ثلاث. وتزوجها الرسول في نفس السنة أو التي تلتها، أي قبل البعثة بثلاث سنوات أو سنتين. وكانت تعيش مع بناتها الأربع من أبي هالة وولدها.

وولد خديجة من أبي هالة الذي تسميه كتب التراث (هنداً، أو هالة وتلقبه بالطاهر) تربى في حجر الرسول. ويروي أبو عبيدة أن الرسول قد صحب ربيبه هذا معه ومع أبي بكر عندما خرج من مكة مهاجراً. وأنه بعدما وصل لغار ثور أمره بالرجوع إلى مكة[1]. وقد قتل مع علي يوم الجمل، ومات ابنه هند بالبصرة. وجاء في الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني: أخرج الزبير بن بكار والدولابي من طريق محمد بن الحجاج عن رجل من بني تميم قال رأيت هند بن هند بن أبي هالة وعليه حلة خضراء فمات في الطاعون فخرجوا به بين أربعة لشغل الناس بموتاهم فصاحت امرأة واهند بن هنداه وابن ربيب رسول الله قال

---

١ وإن كان الرسول عندما بعث كان عمر الطفل سنتين أو ثلاث فعمره حين هاجر الرسول كان عشراً أو إحدى عشرة سنة، على حسب تقديرنا أن الدعوة في مكة بقيت ثمان سنوات وليس (١٣) كما تقول كتب التراث. ويؤيد هذا أن هناك رواية تقول إن هذا الولد لم يحضر معركة بدر (لصغر سنه) لكنه حضر أحد، كما ورد في أسد الغابة.



فازدحم الناس على جنازته وتركوا موتاهم.

كما جاء في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: أخبرني خلف بن القاسم، ثنا الحسن بن رشيق، حدثنا الدولابي، نا أبو بكر الوجيهي أنا جعفر بن حدان قال: حدثني أبي، عن محمد بن الحجاج، عن رجل من بني تميم قال: رأيت هند ابن هند بن أبي هالة بالبصرة وعليه حلة خضراء من غير قميص، فمات في الطاعون، فخرجوا به بين أربعة لشغل الناس بموتاهم، فصاحت امرأة: واهند بن هنداه وابن ربيب رسول الله، فازدحم الناس على جنازته، وتركوا موتاهم، وهذا هو الصحيح إن شاء الله تعالى. انتهى.

هند هذا كان ربيباً لرسول الله لأنه ابن زوجته. ومن المعتاد حينها أن ينسب الربيب لمن تربى عنده، وقد يكون الناس يسمونه ابن محمد.

كما أن خديجة لديها أربع بنات بجانب الصبي مما يجعل حاجة الرسول لتبني طفل إضافة لابن وبنات خديجة غير موجودة ولا حاجة لها.

وهند ربيب رسول الله وابن زوجته هو من كان يتفوق على غيره في وصف هيئة وسلوك رسول الله. فقد جاء في المعجم الكبير للطبراني قوله:

حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، ثنا جميع بن عمر العجلي، قال: حدثني رجل بمكة، عن ابن أبي هالة التميمي، عن الحسن بن علي بن أبي طالب، قال: سألت خالي هند بن أبي هالة وكان وصافا عن حلية النبي -صلى الله عليه وسلم - وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به. فقال: كان رسول الله فخما مفخما، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. أطول من المربوع، وأقصر من المشذب. عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيصته فرق، وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره. أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب. أقنى العرنين، له نور يعلوه. يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان. دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة. معتدل الخلق، بادن متماسك، سواء البطن والصدر. عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس. أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط. عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر. طويل الزندين، رحب



الراحة، سبط القصب، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف. خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذا زال زال قلعا، يخطو تكفيا، ويمشي هونا. ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب. وإذا التفت التفت جميعا. خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. جل نظره الملاحظة، يسبق أصحابه، يبدر من لقيه بالسلام». قلت: صف لي منطقه. قال: «كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكت. يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم. فصل، لا فضول ولا تقصير. دمث، ليس بالجافي ولا المهين. يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئا، لا يذم ذواقا ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها. فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فيضرب بباطن راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى. وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه. جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام». انتهى[1]

وسؤال الحسن ابن علي لخاله عن صفات الرسول يؤكد أن الخال كان قريباً من الرسول، قرب الابن من والده[2].

ألا يكون هند هو زيد المذكور في سورة الأحزاب، وقد تم تغيير اسمه في عصور الفتن والظلمات عمداً، لكيلا يعلم الناس أن بنات وولد خديجة من ذرية ابن أبي هالة ولم تنجب من الرسول. ولا يمكن أن نحسن الظن هنا ونقول إنه قد يكون اشتبه الأمر على كتبة التراث فظنوا أن اسم ابن أبي هالة –الزوج السابق لخديجة– هو هند وليس زيداً. وأنه هو من أصبح ابناً للرسول بالتبني بحكم زواجه بأمه خديجة. ونقول إننا لا نحسن الظن، لأنه قد يحدث أحياناً أن يسمى الولد باسم والده فيقال سيف ابن سيف، لكن لم يحدث أن سمي رجل باسم والده وسمى ولده باسمه، كما تقول كتب التراث عن أبي هالة أن اسمه هند، وأن اسم ابنه من خديجة كان هنداً، وأن هنداً هذا أنجب ولداً سماه هنداً. هذه ليست صدفة

---

[1] ليس المهم إن كان هذا ما قاله أو أنه قيل على لسانه، لكن المهم هو سؤال الحسن له عن صفات الرسول وما يحمل من دلالة، أنه كان يعيش مع الرسول ويعرف تفاصيل حياته في بيته.

[2] سؤال الحسن ابن علي عن صفات الرسول يؤكد أنه عندما توفي رسول الله كان الحسن صغير السن. وقد قيل إنه ابن ثلاث وقيل خمس وقيل سبع. وهذه القصة تؤكد أنه لا يمكن أن يكون قد تجاوز الخمس. وكل ما نسب للحسن والحسين من أحاديث حتى لو كانت عن حياة الرسول وسلوكه فهي مكذوبة لصغر سنهما.



ولم تحدث، ولكنها فبركة لكي يتم ترسيخ أن من تتحدث عنه سورة الأحزاب على أنه ابن للرسول بالتبني ليس له علاقة بابن خديجة ربيب الرسول وابنه بالتبني. وذلك بالإصرار على تسميته هنداً لينسى الناس اسمه الحقيقي وهو زيد. فيكون هند ابن أبي هالة هو زيد ابن ابي هالة.

ويكون زيد القرآن هو هند كتب التراث، وهذا يزيل الريبة حول تكرار اسم هند من الأب للابن للحفيد كما ذكر ابن الكلبي، في ظاهرة لم تتكرر. ويكون اسم ابن الرسول بالتبني هو زيد ابن هند أبي هالة، الذي قتل مع علي ابن ابي طالب يوم الجمل. وله ولد اسمه هند ابن زيد ابن هند أبي هالة، وهو الذي مات بالطاعون بالبصرة وبكت عليه المرأة.

ولو كان هذا ما حدث فإن تبني الرسول لزيد ابن هند أبي هالة سيكون طبيعياً لأنه ابن زوجته. أما لو كان زيد شخصاً آخر فإن الرسول ليس بحاجة لتبني طفل وهو يعيش مع زوجته خديجة التي لديها أربع بنات وولد، وكلهم يعتبرون أبناء للرسول.

وإن كان ما تقدم صحيح فإن ابن خديجة أصغر من كل بناتها وهو ما يؤكد أنهن بنات لأبي هالة من باب أولى وليس للرسول.

لو هذا الكلام صحيحاً فكيف تأتي سورة الأحزاب وتقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩)؟

وفي سنة الأولين اعتبرت أن للرسول بنات ولكنه رزق بهن من إحدى زوجاته في المدينة ورجحت أن تكون عائشة، وأن البنات توفين وهن صغيرات. ولكني الآن أرى أن قول الآية: «وبناتك» تعني بها بنات خديجة اللاتي يعتبرن بنات للرسول تجاوزاً كونهن ربيباته، والحديث هنا ليس لتأكيد نسبهن للرسول ولكن الخطاب هنا لتوجيههن ونساء المسلمين لاتخاذ بعض الاحتياطات وتحري الحشمة. بينما جاء تقرير أن زيداً ليس ابناً للرسول ولكنه متبنى، لأن الخطاب تقريري وتشريعي يؤكد أن التبني لا يعني أن يلحق الولد بنسب من تبناه.

وعندما نزلت سورة الأحزاب، كانت زينب وأم كلثوم وفاطمة على قيد الحياة، فيما توفيت رقية بداية الهجرة، حسبما ورد في كتب التراث. ويكون الرسول عليه الصلاة والسلام لم



يرزق بذرية أبداً، وقد جاء القرآن يعزيه ويرفع من معنوياته في هذا المجال، ومن ذلك: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا(٥٩) الكهف.

حظر الزواج والطلاق على الرسول

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً(٥٢) الأحزاب.

- لا يحل للرسول بعد هذه الآية النساء، أي الزواج بالنساء.
- ولا يحل له استبدال، أي تطليق زوجة للزواج ببديلة لها.
- ويستثنى من هذا ما ملكت يمينه، وهي التي عقد عليها عقد النكاح ولم يدخل بها بعد[١].

ما الذي حدث في المدينة بعد عودة مسلمة يثرب إليها

أثناء حفر المسلمين للخندق استأذنت فئة من مسلمة يثرب رسول الله في العودة إلى المدينة بحجة أن بيوتهم عورة: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً(١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً(٢٠) الأحزاب.

١ انظر فقرة: ملك اليمين/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



استئذانهم للعودة خوفاً على أنفسهم من القتل وهروباً من مواجهة العدو، وليس كما زعموا أن بيوتهم عورة.

وذكر عودتهم ارتبط في السورة بذكر بعض الضوابط والاحترازات التي يجب أن تلتزم بها نساء النبي وبعض الضوابط على الرجال الالتزام بها وبعض الضوابط على نساء المسلمين الالتزام بها. وكل هذه الضوابط لحماية المجتمع ممن في قلوبهم مرض ويريدون أن تشيع الفاحشة في المجتمع.

وتتبع هذه الضوابط والاحترازات سيظهر لنا ما الذي حدث، والبداية مع تخيير الرسول لأزواجه بين المتع الدنيوية والطلاق، وبين البقاء معه والالتزام بضوابط صارمة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) الأحزاب.

وسبب هذا التخيير: يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهَّ يَسِيراً(٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهَّ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٣٢) الأحزاب.

نساء النبي لسن كغيرهن من النساء، لأن أي تصرف منهن يحسب على الدعوة ورسالة الرسول. لذا يجب عليهن أن يتقيدن بضوابط تنزههن من أي إشاعة كاذبة قد يسعى لترويجها من في قلبه مرض ويستغلها أعداء الدعوة للطعن في دين الله. ولهذا جاءت عقوبتهن أشد وثوابهن أعظم من بقية النساء.

الضوابط والاحترازات التي يجب أن تتقيد بها نساء الرسول

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) الأحزاب.

- يجب عليهن أن يقرن في بيوتهن ولا يخرجن إلا لحاجة ملحة.
- في حال اضطرارهن للخروج من البيت فعليهن أن يلتزمن بأقصى حدود الحشمة



والبعد عن التبرج، وهو التزين ووضع مساحيق التجميل وما ينحى منحاها، مما يثير الرجال «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى».

- وليكن اهتمامهن منصباً على التقوى وليس على أمور الدنيا « وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ»...... وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهَّ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَّ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً(٣٤).
- كل هذا لإبعاد الإشاعات عنهن وإبقاء سمعتهن نظيفة عفيفة « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».
- وكمكافأة لبقاء نساء الرسول والتزامهن بالضوابط، جاء الأمر الإلهي بحظر الزواج على الرسول أو الطلاق: لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) الأحزاب.

كما وضعت السورة:

ضوابط واحترازات ملزمة للرجال عند تعاملهم مع نساء الرسول

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُّ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهَّ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهَّ عَظِيمًا(٥٣) الأحزاب.

- لا يجوز الدخول لبيوت (حجرات) أزواج النبي إلا بدعوة (لطعام مثلاً): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ».
- وعلى المدعو أن يدخل غاض البصر ويكون نظره على الطعام، ولا يجول بناظريه في أرجاء المكان: «غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا» لأن البيت عبارة عن حجرة واحدة وستكون زوجة الرسول في نفس الحجرة.
- بمجرد الانتهاء من الطعام على المدعو الخروج مباشرة دون تباطؤ: «فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا».



- لا يجوز الدخول لبيوت أزواج النبي للحديث: «وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ». فهذه العبارة معطوفة على «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ».

وقد كان الدخول لبيوت الرسول دون استئذان يؤذي (يزعج) الرسول: «إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ».

- عندما يحتاج رجل سؤال أمهات المؤمنين متاعاً فليسألها وهو في الشارع وبينه بين أم المؤمنين جدار الغرفة يحجبه عنها ويحجبها عنه: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ».

وهذا السلوك يبعد وساوس النفس عن الرجل لو حدثته بفسق، ويذهب وساس النفس عن أم المؤمنين من أن تظن بالرجل أنه يسعى لفحش: «ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ».

وهذه الاحترازات ليس فقط تبعد الشبهات والإشاعات الكاذبة عن نساء الرسول بل وتريح الرسول الذي كان يزعجه حديث الرجال مع نسائه ودخولهم عليهن في بيوتهن: « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ».

- وعلى الرجال أن يعلموا أن زوجات الرسول أمهاتهم ولا يجوز لهم الزواج بهن بعد الرسول: « وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا». بما أن زوجة الرسول بمقام أم للمؤمنين فالزواج بالأم بهتان عظيم.
- وتخاطب سورة الأحزاب الرجال مذكرة إياهم أن كل ما يضمرون من وساوس ونوايا سيئة وخبيثة يعلمها الله ولو خفيت على الناس: إن تبدو شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤).
- كل الاحترازات السابقة تلتزم بها نساء الرسول أمام الرجال الأجانب فقط: لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٥٥) الأحزاب.

وكل من في قلبه مرض ويتعمد الحديث مع نساء النبي أو يدخل بيوتهن بلا استئذان فقد حقت عليه اللعنة: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(٥٧) الأحزاب.



وهؤلاء الذين كانوا يضايقون نساء النبي بالحديث معهن وبالدخول على بيوتهن بلا استئذان، تعرضوا لنساء المسلمين بأكثر من ذلك. فقد كانوا يلاحقونهن في الطرقات ويتعرضون لهن بفحش القول ويتهمونهن بأعراضهن: وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٥٨) الأحزاب.

ومما سبق يمكن القول إن هناك رجالاً كانوا يتعمدون الدخول على نساء النبي في بيوتهن بلا استئذان، في وقت قد يكن قد تخففن من ثيابهن وقد يرى من أجسامهن ما لا يجوز للرجال النظر إليه. وكانوا يتعمدون البقاء أطول مدة ممكنة والتحدث معهن. إضافة لملاحقة نساء المسلمين في الطرقات بغرض ممارسة الفاحشة. وهذه التصرفات المريضة لا تصدر إلا من في قلبه مرض، ولا يمكن أن تصدر ورجال المسلمين في المدينة. والذين في قلوبهم مرض عندما ترد في القرآن فهي وصف لبعض الرجال الذين يحبون أن تشيع الفاحشة. ومن هؤلاء تلك الفئة من المنافقين الذين استأذنوا الرسول لترك حفر الخندق مع المسلمين وعادوا إلى المدينة: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا(١٣) الأحزاب.

وتكون المدينة قد تعرضت لموجة عهر من قبل أولئك المنافقين والذين في قلوبهم مرض الذين استأذنوا الرسول وتركوا حفر الخندق مع رجال المسلمين[١]. وقد استغلوا خلو المدينة من الرجال فعاثوا فيها فساداً، تمثل بملاحقة النساء في الطرقات والتحدث لهن بفحش والطلب منهن أن يمارسن الفاحشة معهم، بل ونشر الأكاذيب عنهن بأنهن يرغبن ممارسة الفاحشة أو ممارستها. ولم تسلم نساء النبي من مضايقاتهم، كما سبق وذكرنا. فجاءت السورة تضع احترازات لحماية المجتمع من هذه الظاهرة القذرة، ومن ذلك ما يخص نساء النبي وما يخص الرجال، وهو ما سبق ذكره. ومنه ما يخص نساء الرسول والمسلمين عامة، كما يلي:

---

١ أبو حزم (المصحح اللغوي) ذكر أن تحجج المنافقين بالعودة إلى المدينة بحجة أن بيوتهم عورة، قد يكون إشارة إلى أن بعض المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول والمسلمين لحفر الخندق قد بدأوا العبث في شوارع المدينة وتسامع المسلمون بهذا. لذا جاء تحجج المنافقين بأن بيوتهم عورة وأن عليهم العودة لحمايتها من أولئك العابثين. وهذا قد يكون احتمال قائم. إلا أنه لو كان العابثون قد بدأوا العبث في المدينة قبل عودة المنافقين فسيتسامع به الرسول والمسلمين وسيفعلون شيئاً لحماية النساء ودفع العابثين. ولو حدث هذا فسيتحدث عنه القرآن. وبما أن القرآن يخلوا من أي إشارة إلى هذا.



احترازات لنساء النبي ونساء المسلمين

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩) الأحزاب.

- على النسوة في المدينة الالتزام بالاحتشام في اللبس بحيث يغطين كل ما يمكن أن يثير فتنة من في قلبه مرض من أجسامهن. والجلباب الثوب الواسع ومنه جلباب النوم، وليس له علاقة بغطاء الوجه.

عقوبة من لا يرتدع ممن في قلوبهم مرض

لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(٦٢) الأحزاب.

بعد أن ذكرت الاحترازات التي يجب أن يتقيد بها المسلمون (نساءٌ ورجال) تختتم سورة الأحزاب باقتراح عقوبة تجتث الظاهرة من المجتمع المسلم بشكل جذري. وتتمثل في طردهم من المدينة، ومن لا يمتثل يقتل.

وهذه العقوبة يمكن أن تطبق بحق كل من يسعى لنشر الرذيلة في المجتمع المسلم بأي طريقة، ومن ذلك وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء ومواقع الإنترنت وغيرها. وهذه العقوبات وكل العقوبات البدنية التي ذكرت في القرآن بعد اكتمال التشريعات في سورة المائدة، لا تعتبر تشريعاً دينياً. ولكنها عقوبات دنيوية من حق المسلمين توقيع عقوبات مختلفة على من يصدر منه مثل هذه التجاوزات وتكون كفيلة بقطع دابر أي ظاهرة فساد في المجتمع.

عقوبة الزناة

تواصل سورة النور التفاعل مع ما حدث، وتبدأ بفرض عقوبة جسدية للزنا، وهي الفاحشة التي يود الذين في قلوبهم مرض أن تشيع في المجتمع: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ



عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢).

وعقوبة الزنا تجمع الألم الجسدي من الجلد، والألم النفسي المتمثل بالإهانة وجرح الكرامة نتيجة الجلد أمام الناس، يبقى محفوراً في النفس الكريمة طوال الحياة، ولا يندمل جرحه الغائر مع الزمن. وهو موت معنوي يعذب الإنسان العزيز طوال ثواني ودقائق حياته. لذا فجلد الزناة يجب أن يكون على مرأى ومشهد الناس.

وعقوبة الزنا لا تتوقف عند الجلد فقط، فالسورة تواصل قائلة إن من يكرر الزنا وهو عالم بحرمته، فليس بمسلم، ولا يجوز أن يتزوج من المسلمين: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣).

ولو زنا شخص عاقل مختار وهو عالم بحرمة الزنا فقد خرج من الإسلام، ولو بقي يقر بالشهادة ويقيم العبادات ويتجنب بقية النواهي ويأتمر بكل أوامر القرآن. لأن الزنا كبيرة، والإقدام على فعل الكبيرة للعالم بحكمها موجب للخلود في النار، كما تؤكده هذه السورة وسور عدة مرت بنا.

وتحريم الزواج بالزناة عقوبة مناسبة، تعزلهم عن المجتمع وتشعرهم بأنهم منبوذون ملوثون وأعضاء فاسدون.

وتحريم الزواج بالزاني والزانية مماثل لتحريم الزواج بالمشركة أو المشرك، لأن من يمارس الزنا وهو يعلم بأنه كبيرة فليس من المسلمين: وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

لكن المعايير نُكّست، وأصبح المسلمون يمارسون الزنا بكل تبجح، وأصبح الذين في قلوبهم مرض هم قادتهم. ويريدون أن يتسموا بالمسلمين ويرجون لقاء الله وجنته، مع أنهم ألقوا بوعيد الله وراء ظهورهم. وكأن كلام الله مجرد آيات للتلاوة ولا شأن لها بحياة المسلم. والتشجيع على الزنا في بلاد المسلمين بلغ حداً تجاوز التشجيع عليه في بلاد الكفر، ويعرض على شاشات التلفزة العربية ما لا يمكن عرضه في بلاد غيرها. وعندما يُذكّرون بأن الزاني والزانية لا ينكحها إلا مشرك او مشركة ينعتون من يذكرهم بالتكفير. والتكفير أصبح



عصا ترفع أمام كل من يذكر الناس بأن دين الله كل لا يتجزأ، وأن من ترك أمراً إلهياً أو اقترف كبيرة وهو يعلم بحكمها فهو في النار، بنص القرآن، ولو أطلق عليه لقب أمير المؤمنين وإمام المهتدين.

ولم يعد بالإمكان تطبيق ما ورد في آخر سورة الأحزاب، ولا ما ورد في أول سورة النور، وغيرها من السور على من في قلوبهم مرض في بلاد العرب والمسلمين لأنهم هم من يمتلك وسائل الإعلام والسلطة، وهم من يسعون في الأرض فساداً: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (١٤) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٦) البقرة.

مما ترتب على عبث المنافقين في طرقات المدينة

تقول سورة النور: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فبعد عودة المسلمين من حفر الخندق وجدوا الأوضاع في المدينة في وضع سيء، والكلام في الأعراض مستشرياً، لدرجة أن الألسن بدأت تلوك سمعة بعض نساء المسلمين وتتهمهن باقتراف الفاحشة. فجاءت هذه الآيات ضمن إجراءات وعقوبة لبتر ظاهرة العبث الأخلاقي التي تسبب بها المنافقون. فكل من يلوك (يرمي) سمعة المحصن (العفيفة) فعليه إثبات أنها اقترفت الفاحشة أو يعاقب بما يلي:

- الجلد ثمانين جلدة.
- عدم قبول شهادته.

والجلد كفيل بإهانة المجلود اجتماعياً، بينما عدم قبول شهادته يعزله عن المجتمع ويسقط عنه الاحترام والثقة، ويجعله منبوذاً لا مكان له بين المسلمين.



إجراءات تطبق بحق من يتهم زوجه

لابد أن بعض الأزواج اتهم زوجه بالزنا أو شك بأنها اقترفت الزنا. فجاءت آيات في سورة النور تفرض إجراءات يجب أن تطبق في هذه الحالة:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ(١٠) النور.

كل من يرمي زوجته بالزنا فعليه إحضار أربعة شهود يشهدون أنها تزني

وشهادة الشهود لا تكون برؤيتهم للميل والمكحلة، لأن هذا مستحيل. ولكن الشهادة تكون بأن هناك قرائن تدل الزنا وتؤكد عليه مثل لقاءاتها برجال في قلوبهم مرض في أماكن معزولة أو ترددهم على بيتها أو نحو ذلك مما يؤكد أن سمعتها سيئة. ويجب ملاحظة أن الشهادة هنا ليست للحكم عليها بالجلد كزانية بل لإثبات صدق أو كذب اتهام زوجها لها. وفي هذا العصر يجب أن يكون الفيصل هو التحقيق النزيه والمحترف وامتحان شهادة الشهود وجمع القرائن، وليس فقط التسليم بشهادة الشهود.

فإن لم يتمكن الزوج من إحضار شهود فيتم اللجوء للملاعنة.

الملاعنة

- تكون بأن يشهد الزوج أولاً أنه صادق أربع مرات، ثم يقول: إن عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين.
- ثم تشهد الزوجة أربع شهادات بأنه من الكاذبين وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ولو لم تشهد الزوجة فتجلد (١٠٠) جلدة، ويفرق بين الزوجين.

وإن شهدت فيتم التفريق بينهما ولا يعاقب أحد منهما.

- نص الشهادة تكون كالتالي: أشهد الله أني صادق، أو أشهد الله أنه كاذب، ولا يستخدم الحلف هنا.



فلا يقول: والله العظيم أني صادق، ولا تقول الزوجة: والله العظيم أنه كاذب.

ويمكن الرجوع لتدبر السورة لتتبع سير الأحداث.

الغيث بعد القحط

في العام السابق أصاب القحط المدينة وما حولها، وتسبب في إحجام كثير من المسلمين عن الإنفاق فجاءت تجهيزات جيش المسلمين هزيلة في معركة أحد، وكانت أحد الأسباب التي أدت لهزيمة المسلمين. وقد أشارت الآيات (٢٠-٢٣) من سورة الحديد إلى ذلك: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣).

وأشارت له الآيات (١١-١٣) من سورة التغابن: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٢) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٣).

وفي العام التالي تغيرت الأحوال وأغيث الناس ونزلت أمطار غزيرة في ذلك العام. وقد أشارت لذلك سورة النور: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣).

وسورة الروم: وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧) اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ



خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ(٥١).

لقد كان عاماً مطيراً مصحوباً ببرق ورعد ومسبوقة برياح شديدة أحياناً، ومن ذلك تلك الرياح التي أدت إلى هروب جيوش الأحزاب الذين كانوا يحاصرون المدينة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(٩) الأحزاب.

والرياح الشديدة التي يتبعها أمطار ظاهرة معروفة في جزيرة العرب حتى اليوم، وعادة ما تكون في أواخر الشتاء وخلال فصل الربيع.

وتوفر المطر أدى لنمو الحشائش التي تقتات عليها الماشية فكثر الإنتاج وعم الرخاء، مما ساهم في قوة استعداد المسلمين وتجهيز جيشهم سواءً لفتح مكة أو لحرب الروم والقبائل التي شاركت في حملة الأحزاب.

فتح مكة

لم يخطط الرسول والمسلمون مسبقاً لفتح مكة، ولم يكن ذلك وارد أبداً في حساباتهم، لأنهم كانوا في وضع المدافع وقريش هي من يلاحقهم ويفرض الحرب عليهم. وكان من الممكن جداً أن يموت رسول الله ومكة بيد قريش وتحت سيطرتها. لكن الأحداث تسارعت بشكل غير متوقع، بعد حملة الأحزاب. فبعد فشل الحملة بسبب ظروف مناخية، كان لابد من أن يتخذ المسلمون كل ما يستطيعون لكي لا تتكرر الحملة عليهم. وقد ينجح المهاجون في المرة القادمة ويتمكنون من المسلمين ويقضون عليهم وعلى دينهم. وبما أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم ونقل المعركة لأرض العدو، فقد تقرر معاقبة كل من شارك في حملة الأحزاب، والقضاء عليهم لأن بقاءهم سيكون خطراً يهدد المسلمين على الدوام.

والذين شاركوا في حملة الأحزاب هم قريش، وقبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب، وبعض من قبائل عربية حول مكة ويثرب، إضافة للروم. وبمجرد فشل الحملة وتفرق الأحزاب



سارع المسلمون لمهاجمة القبيلة الإسرائيلية واشتبكوا معهم في قتال لفترة قصيرة تكبد فيه الإسرائيليون خسائر في الأرواح بين قتيل وأسير، قبل أن ينسحبوا داخل حصونهم ويحاصرهم المسلمون. ثم عرضوا على المسلمين أن يخلوا مساكنهم ويسلموا للمسلمين قلاعهم ومزارعهم مقابل استرداد أسراهم والسماح لكل القبيلة بالجلاء من يثرب بسلام. فوافق المسلمون على ذلك، وتخلص المسلمون منهم ومن مكائدهم. وقد حدثتنا عن ذلك سورة الأحزاب: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧).

وقد تسببت الأحداث التي وقعت في المدينة نتيجة لعبث بعض المنافقين بتأخر مواصلة المسلمين معاقبة كل من اشترك في حملة الأحزاب. ولما انجلت تلك الغمة، وتم القضاء على تلك الظاهرة اللاأخلاقية، كان لابد من مواصلة معاقبة المعتدين لأمن شرهم. وكان الخيار بين ملاحقة القبائل العربية التي شاركت في الأحزاب أو إرسال الجيوش لحرب الروم، أو التوجه لمكة لمعاقبة قريش.

ويبدو أن المسلمين اتفقوا على التوجه إلى مكة أولاً، وفيما يلي تفاصيل فتح مكة كما ورد في كتاب أحسن القصص[1]، ننقله حرفياً مع بعض التعديلات:

حشد الحشود والمسير إلى مكة

أعلن الرسول العزم على التوجه لمكة للقضاء على سلطة قريش، بعد أن قضى على وجود من عاونهم من بني إسرائيل في يثرب. وقد تقاطر المسلمون للانضمام لذلك الجيش، بعضهم خرج في سبيل الله، وكثير منهم خرج طمعاً في الحصول على الغنائم ظناً منهم أن مكة سوف تستباح، وسيحصلون على الأموال الطائلة التي تملكها قريش.

إلا أن بعضاً ممن كان يعتبر من المسلمين لم يخرج، لأسباب مختلفة، تخبرنا عنهم سورة الفتح كما يلي:

---

١ أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول - منشورات الجمل.



الأعراب

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً(١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً(١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٤) الفتح.

ونتذكر أنه عندما وطئت قدما رسول الله المدينة للمرة الأولى حضر إليه أعداد كبيرة من الأعراب يعلنون دخولهم الإسلام، والواقع أن أغلبية من أعلن إسلامه منهم لم يؤمن، ولكن كانوا يسعون للحصول على مغانم دنيوية: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) الحجرات.

وقد بقي المنافقون منهم على نفاقهم وسعيهم المستمر للحصول على المكاسب المادية، وبعد رجوع المسلمين من فتح مكة، حضروا يعتذرون للرسول من عدم خروجهم، وأنه بالفعل تعذر عليهم الخروج: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٥ الفتح).

فتجيبهم الآية التالية بأنه إن كان اعتذارهم للرسول عن عدم خروجهم لمكة، صحيحاً، فعليهم إثبات صدق نواياهم بالخروج مع جيش المسلمين القادم الذي سيقاتل قوماً قوتهم لا تقارن بقوة قريش: قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٦) الفتح.

والمقصود بالقوم أولي بأس شديد، الروم، الذين سيبادر المسلمون قتالهم بعد الانتهاء من تأديب قريش. وقد توجه المسلمون بالفعل لحربهم واشتبكوا معهم في قتال فيما عرف بمؤتة، كما سنتبين فيما بعد.



وبما أن الأعراب يسارعون في الخروج مع المسلمين عندما يتيقنون أن هناك غنائم دون قتال، فلن يخرجوا مع أي جيش يحتمل أن يلتحم مع العدو، وما اعتذارهم للرسول إلا محاولة منهم لأن يحصلوا على بعض ما غنمه المسلمون في غزوتهم تلك، ظناً منهم أن المسلمين قد استولوا على أملاك قريش.

بعض المسلمين تخلفوا

لم يكن الأعراب وحدهم من تخلف عن جيش الفتح، ولكن بعض المؤمنين الصادقين تخلفوا أيضاً، لكن تخلفهم كان بسبب صحي، لذا فليس عليهم حرج، وسيكون لهم أجر المجاهدين: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً(١٧) الفتح. فالخروج للقتال ليس مطلوباً من الأعمى أو الأعرج أو من لديه إعاقة أو مرض، ولكنه مطلوب من القادر.

البيعة / الحديبية

توقف جيش المسلمين عندما اقترب من مكة في مكان يسمى الحديبية، لأخذ الاستعداد اللازم، وهناك تمت مبايعة المسلمين للرسول على الثبات في قتالهم المتوقع ضد قريش: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(١٠) الفتح.

وقد تتابع المسلمون يبايعون الرسول بوضع أيديهم في يده، كرمز للتعهد أمام الله بالثبات في حربهم ضد قريش. وهي أول مرة يبايع المسلمون الرسول على الثبات في القتال، فلم يبايعوه في حروبهم السابقة ضد قريش في بدر وأحد.

والسبب يعود إلى أن هناك فئة من المسلمين ما زالوا يوالون مشركي قريش، وهم من أسميناهم «مسلمة قريش». والمبايعة تعني تعهدهم بالتفاني في القتال، وألا يصدر منهم ما صدر في بدر حين فضلوا أسر مشركي قريش على قتلهم، حفاظاً على أرواحهم ومحاباة لهم. ولا ما صدر منهم يوم أُحُد عندما اعترضوا طريق المسلمين الذين كانوا سيلاحقون فلول جيش قريش ويقتلون أكبر عدد منهم. فالبيعة هنا ضرورية لإظهار ولاء مسلمة قريش إما



للمسلمين وإعلان البيعة أو رفض البيعة وإعلان انحيازهم لقريش الذين يوالون.

وقد سبق وأباحت سورة البقرة قتال قريش ولو تحت جدران الكعبة، إن هم قاتلوا المسلمين ولم يستسلموا لهم: ......ولا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) البقرة.

وكل من تعهد بالثبات وثبت فقد باع نفسه في سبيل الله: لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨).

وكان بعض المسلمين يمني النفس بالفعل أن تواجههم قريش لأن ذلك سيكون سبباً للحصول على غنائم، لكن هذا لم يحدث: وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٩) وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢١) الفتح.

والله جل وعلا لم يسبق أن وعد المسلمين غنائم من مكة، ومع ذلك تقول الآية: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها». والمقصود هنا هو أنه لو حدث قتال وانتصر المسلمون فسيكون هناك مغانم على شكل أنفال، إضافة لأسلاب قتلى قريش. وبما أن الله جل وعلا أباحها في ساحات القتال فكأن الله وعد المسلمين بها.

وهذه البيعة التي يتحدث عنها كتاب الله بكل وضوح كانت يوم فتح مكة أو قبله بيوم. هي التي وقعت في الحديبية، وهي التي حورتها كتب التراث وكأنها وقعت في السنة السادسة من الهجرة، أي قبل التاريخ الذي وضعوه لفتح مكة بسنتين. واختلقوا لها أسباباً لم تحدث. وقالوا إنها انتهت بتوقيع صلح بين المسلمين وقريش جاء فيه:

- أن تتوقف الحرب بينهم لمدة ١٠ سنين.
- أن يعود المسلمون ذلك العام على أن يدخلوا مكة معتمرين في العام المقبل.
- أن يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلما بدون إذن وليه، وألا ترد قريش من يعود إليها من المسلمين.

وهذه البنود لا يمكن أن يكون المسلمون قد وافقوا عليها، وإليكم الدليل:



- المسلمون قدموا لمكة لتأديب قريش على تأليب الروم وقبائل عربية عليهم، ولم يقدموا لمكة للعمرة.

وحتى لو كانوا قدموا للعمرة (جدلاً) فلن يقبلوا بالعودة إلى المدينة دون عمرة على أن يعودوا لأداء العمرة في العام القادم. لأنه إن كان هناك صلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، ويدخل حيز التنفيذ بمجرد الموافقة عليه، فلماذا اشترطت قريش عودة المسلمين دون أداء العمرة؟ ولماذا قبل الرسول والمسلمين العودة إلى المدينة وهم على مشارف مكة، أن يعودوا لمكة في العام القادم، وكان بإمكانهم دخولها في ذلك اليوم؟

- والشرط الآخر ينص على أن يرُدّ المسلمون من يأتيهم مسلماً من قريش، هذا الشرط لا يستطيع الرسول قبوله لأنه يخالف ما ورد في سورة الممتحنة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١١).

والممتحنة نزلت بداية العصر المدني وقبل نزول سورة الفتح بسنوات. والآية تحرم تحريماً قاطعاً إعادة مسلمة جاءت للمسلمين إلى قريش: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ».

وبالتالي فقبول الرسول والمسلمين إعادة من يأتيهم مسلماً من قريش شرط لا يمكن أن يكون، مثله مثل كل شروط ما سمي بصلح الحديبية التي وضعت في عصور لاحقة ولم يسمع بها رسول الله والمسلمون في عصره.

وهذا لا ينفي أن يكون هناك اتفاق بين المسلمين وقريش في الحديبية يوم فتح مكة، لكنه عقد وميثاق مختلف تماماً عما اختلقته كتب التراث. فقد اتفق المسلمون مع قريش على أن تدخل قريش ومكة تحت حكم المسلمين وتحقن دماء كبراء قريش ويعفى عنهم من مواقفهم العدائية السابقة ضد المسلمين، وهو ما حدث. وسورة براءة التي نزلت في آخر عصر الرسول تخبرنا عن فحوى هذه المعاهدة: بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ



الْمُشْرِكِينَ(١).

فهناك معاهدة مع المشركين (قريش)، وتستمر السورة لتخبرنا أين تم الاتفاق بين المسلمين وقريش: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة.

لقد تمت المعاهدة عند المسجد الحرام، وهي التي كانت يوم فتح مكة وفي الحديبية، والتي تم تأويل أسبابها ونصها في كتب التراث. وتكون الحديبية معاهدة استسلام لقريش للمسلمين وتسليم مكة وتعهدهم بألا يكيدوا للمسلمين ولا يتعاونوا مع أعدائهم مقابل الإبقاء على أشخاص رجال قريش ومعتقداتهم. وقريش اضطرت صاغرة لعرض الاستسلام، ولم تحاول أن تواجه جيش المسلمين، لأنه لم يكن لهم قبل به في تلك اللحظة. فقد أصبح جيش المسلمين مرهوب الجانب، فيما أصيبت قريش بالذعر المماثل لما شعر به المسلمون عندما علموا بتوجه جيش الأحزاب إليهم، قبل وقت قصير مضى.

دخول مكة

بعد توقيع معاهدة الاستسلام في الحديبية تقدم الرسول المسلمين في مسيرتهم الخاشعة نحو بيت الله الحرام، وكانت مشاعرهم خليطاً من الغبطة والطمأنينة التي حلت عليهم: هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(٤) الفتح.

ودخلوا مكة منتصرين أعزة، بينما رجال قريش لزموا بيوتهم أذلة صاغرين، والألم يعتصر قلوبهم وقلوب كل منافق موالٍ لهم: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً(٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً(٦) وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(٧) الفتح.

لقد كان الفتح عذاباً معنوياً هائلاً على المشركين الذين فقدوا هيبتهم وعظمتهم وسلطتهم من قبل عبيد ومستضعفي الأمس. وهو عذاب نفسي للمنافقين مساو لعذاب المشركين، لأن المنافقين راهنوا على القضاء على المسلمين وزوال دولتهم، وعملوا على ذلك بجانب



قريش وبني إسرائيل، لكن الفتح يعني أن مساعيهم قد أحبطت ومشاريعهم انهارت، وهم قلقون لما قد يفعله المسلمون بهم.

وسار جيش المسلمين في أزقة مكة إلى أن وصل البيت الحرام، وكبراء قريش الذين كانوا بالأمس سادة قد أغلقوا عليهم بيوتهم، ولا يملكون الجرأة لحمل السلاح للدفاع عن سمعتهم التي تمرغت بالتراب: وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً(٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٢٤) الفتح.

لقد كان دخول مكة سلمياً، بلا قتال، لأن المسلمين هم الجانب الأقوى والأكثر عدة واستعداداً معنوياً، بينما كانت قوة قريش العسكرية وجبروتها المعنوي قد انهارتا تماماً، ولم يعد لدى أفرادها القدرة على أن يحملوا السلاح، وكل ما استطاعوا القيام به هو الاستسلام لمحمد بعد سنوات قليلة من طرد قريش المسلمين من مكة ومنعهم من الحج: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٢٥) الفتح.

وكان الفتح فرصة لتأديبهم، لكن الإسلام لا يسعى للقضاء على الأشخاص بقدر ما يسعى للقضاء على المعارضة. وما دامت قريش أعلنت استسلامها – ظاهرياً – فقد كان دخول المسلمين مكة بخشوع، بدون خوف، وبكل طمأنينة: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٢٦) الفتح.

صدق الله وعده

كان رسول الله قد رأى رؤيا وهو في مكة قبل الهجرة، أن الله نصره على قريش، وقد جاء ذكر الرؤيا في سورة بني إسرائيل: وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً(٦٠).



وقد تحققت الرؤيا بفتح مكة: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً(٢٨) الفتح.

ليس لأنها رؤيا للرسول، ولكنها تتوافق مع تحقيق وعد الله الدائم بنصر من ينصره، وهو ما تحدثت به سور مكية في وقت كان المسلمون قلة مستضعفين، وكل ما يتمنونه هو البقاء أحياء، ومن ذلك: ..... وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الحج.

وفي سورة غافر: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١).

والأنعام: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤).

وفي أحلك الظروف التي مرت على المسلمين تأتي سورة الحج لتذكرهم بأن وعد الله لهم بالنصر والتمكين كائن لا محالة: «مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ(١٥) الحج».

والآن وقد تحقق لهم وعد الله فعلى المسلمين ألا يداخلهم الشك في رسالة محمد وأن يطيعوه في كل ما نزل عليه: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً(٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٩) الفتح.

وبفتح مكة أصبح للمسلمين دولة مرهوبة الجانب، تضم بالإضافة إلى المدينة، مكة التي يقدسها كل سكان جزيرة العرب. كما تضم دولة المسلمين مجموعة من الناس أشداء على الكفار رحماء بينهم، ولهم حقوق متساوية: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(٢٩) الفتح.

والآية تبين استراتيجية دولة المسلمين في الوصول بالناس إلى أن يكونوا كحقل مزروع بسنابل القمح، كل سنابله متشابهة في القوة والصحة والغذاء والرعاية والأهمية، لا فرق



بين سنبلة وأخرى على الإطلاق.

وانهيار قريش لم يحدث فجأة يوم الفتح، لكنه بدأ في مكة قبل الهجرة بسنوات. عندما تغيرت وجهة الخطاب في القرآن من قريش إلى غيرهم من الناس، وكان ذلك مع بداية المرحلة الخامسة من مراحل الدعوة في مكة. وقد جن جنون كبراء قريش وصبوا جام غضبهم على المسلمين يعذبونهم بأقسى صنوف التعذيب ليردوهم عن دينهم، إضافة للعمل على صد الناس عن الدخول في الإسلام أو الاستماع للرسول، لأنهم يعلمون يقيناً أن دخول أناس من خارج مكة للإسلام يعني انتشاره واتساع رقعته. وكلما قوية شوكة المسلمين، ضعفت في المقابل قوة قريش.

وهذا بالفعل ما حدث. فقد دعا المسلمون الجدد من يثرب إخوانهم مسلمي مكة للهجرة إليهم والنجاة بدينهم وأرواحهم من اضطهاد قريش. وكانت هذه خطوة أخرى لقوة المسلمين ومسمار آخر دق في نعش قريش.

وجاءت هزيمة بدر لتبرز بالفعل مدى القوة التي وصل لها المسلمون في فترة وجيزة جداً بعد الهجرة، مصحوباً بارتفاع لمعنويات المسلمين وتخلصهم من الشعور بالذلة الذي فرضته عليهم قريش، عندما كان أكثرهم عبيداً ومستضعفين في مكة.

وبرغم هزيمة المسلمين في أحد، إلا أن معنويات المسلمين لم تتراجع، ولم تسترجع قريش ما فقدته من معنويات. ذلك أن الهزيمة لم تكن بسبب تصميم المسلمين، ولكن بسببٍ تكتيكي كان يجب ألا يحدث.

وبنهاية معركة أحد التي قتل فيها ما بين ١٤ – ٢٤ قرشي مشرك (حسب تقديرات كتب التراث)، تكون قريش قد فقدت ما يقارب التسعين من أبرز كبرائها وسادتها، منذ بدء نزاعها المسلح مع المسلمين. فيما فقد المسلمون ما يقارب نصف هذا العدد. لكن الفرق بين قريش وبين المسلمين هو أن قريشاً لا تستطيع تعويض من فقدته من كبرائها، ذلك أنهم يمثلون الجيل القديم المتمسك بالتراث والذي يقود المجتمع القرشي لحرب المسلمين. أما من يفقد من المسلمين فيمكن تعويضه بالمسلمين الجدد.

لذا استشعر من بقي من سادة قريش بعد أُحُد خطر موقفهم، وتنامي قوة الجانب المسلم، فسارعوا بطلب العون من الروم وبعض القبائل العربية، وقد يكون ذلك تم بإشراف



ومشورة وعون بعض بني إسرائيل في يثرب، الذين يرون أن قوة الإسلام خطر عليهم، كما هي على قريش.

ومثلت حادثة الأحزاب مفترق طرق. فلو تمكن جيش التحالف من اجتياح المدينة فسيكتب نهاية الإسلام والمسلمين، ولكنه فشل. وفشل الأحزاب وتفرقهم كشف للمسلمين موقف واحدة من قبائل بني إسرائيل في يثرب المعادي لهم والمتعاون مع أعدائهم قريش، وكان ذلك سبباً لإجلائهم من يثرب، والتخلص من عدو ملاصق للمسلمين يهدد أمنهم. وجلاء بني إسرائيل خسارة فادحة لا تعوض لقريش، فقد كانوا مصدر عون لوجستي يمدونهم بالسلاح والمشورة. وفقدان قريش لهذا الحليف الهام، أضعف موقفها كثيراً وبدرجة كبيرة جداً.

كما أن قدرة المسلمين على التفوق على بني إسرائيل، الأقوياء، الأغنياء، الذين يملكون السلاح والمال، أشعر قريشاً بأن قوة المسلمين وصلت لمستوى لا يمكن لأهل مكة وحدهم مواجهته. حتى لو ضمنوا ولاء أولئك الأعراب الذين انضموا للأحزاب، لأن عددهم قليل وتسليحهم هزيل، ولا يملكون الدافع، ولا يركن لولائهم.

ووجدت قريش نفسها بعد الأحزاب وحيدة تواجه عدواً تعاظمت قوته لدرجة لا تستطيع الوقوف أمامه. ولم يعد بإمكان قريش أن تتلقى أي معاونة عسكرية من هرقل والغساسنة، الذين كانت تجربتهم مع الأحزاب - غير الضرورية - مريرة للغاية.

وبمجرد ما وصلت الأنباء لقريش أن الرسول يقود جيشاً كبيراً باتجاه مكة، حتى انهارت معنوياتهم وبدأت تبحث عن وسيلة تؤمن بها حياة أفرادها، ولم يعد يهمها كرامة أو سمعة أو مكانة اجتماعية. إلا أن الرسول لم يحضر لمكة للانتقام أو سفك الدماء، وكل ما يرمي إليه هو أن تدخل مكة تحت حكم دولة المسلمين والقضاء النهائي على سلطة وتسلط كبراء قريش دون أشخاصهم. وبالفعل دخل المسلمون الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ، وأصبحت مكة تحت سلطة دولة المسلمين، ولم يكن متوقعاً إيمان رجالها بالدعوة بعدما رفضوها[1].

---

١ وهذه رواية تظهر أن رجال قريش لم يؤمنوا حتى بعد أن أعلن بعضهم إيمانه. حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال: حدثنا عبد الجبار بن الورد المكي عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال بعض الناس: يا عباد الله لهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة فقال بعضهم إن يسخط الله عليه هذا الأمر يغيره فأنزل الله عز وجل «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى» الآية وأخبرني جدي عن محمد بن ادريس الشافعي عن الواقدي عن أشياخه قالوا جاءت الظهر يوم الفتح فأمر رسول الله «ص» بلالاً أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فر وجوههم و تغيبوا خوفاً أن يقتلوا فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد امن فلما أذن بلال رفع صوته كأشد مايكون قال: فلما قال أشهد



ولا وجود لما يعرف بصلح الحديبية بالصورة التي وردت في كتب التراث، وكأنه عقد بين الرسول وقريش، وقع قبل الفتح بعامين. وينص على عودة المسلمين دون تحقيق ما قدموا من أجله (كما صورت كتب التراث) على أن يعودوا لمكة في العام القادم لأداء العمرة. وكأن مكة كانت تحت الصيانة في ذلك العام ولا تتسع للرسول والمسلمين. كما أن اشتراط دخول المسلمين مكة دون سلاح والبقاء في مكة ثلاثة أيام يعتبر انتحار. لأن هذا يناقض طبيعة العداء المستحكم عند قريش للمسلمين، ولا يمكن أن يؤمن جانب قريش التي حزبت الأحزاب بالأمس للقضاء على المسلمين، وهي ترحب بهم لدخول مكة والبقاء فيها ثلاثة أيام بسلام. والقرآن يؤكد أن قريش لو ظفرت بالمسلمين فلن تحترم أي عهد تعهدت به لهم: كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) براءة.

ويكون صلح الحديبية عبارة عن عقد استسلام قريش للمسلمين وتسليم مكة لتكون تحت حكم دولة المسلمين، مقابل الإبقاء على أرواح رجال قريش ومعتقداتهم، على ألا يخونوا المسلمين ولا يكيدوهم ولا يتعاونوا مع أعدائهم. وتم الاتفاق على هذا الميثاق في اليوم الذي فتحت فيه مكة أو قبله بيوم، وليس قبل ذلك بعامين.

معركة مؤتة

بعد عودة المسلمين من فتح مكة، قام الرسول بتعبئة سرية وأرسلها لقتال الروم . لأن الروم هم من ابتدر عداء المسلمين وأرسلوا جيشاً عرمرماً لقتال المسلمين نصرة لقريش دون أن يتعرض لهم المسلمون أو يعادوهم. وبالتالي أصبح القضاء عليهم - كغيرهم ممن شارك في حملة الأحزاب - ضرورة لبقاء دولة المسلمين ولكي يأمن المسلمون شرهم.

أن محمداً رسول الله تقول جويرية بنت أبي جهل: قد لعمري رفع لك ذكرك، أما الصلاة فسنصلي ووالله ماتحب من قتل الأحبة أبداً ولقد جاء إلى أبي الذي كان جاء إلى محمد من النبوة فردها ولم يرد خلاف قومه، وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم، وكان أسيد مات قبل الفتح بيوم، وقال الحارث بن هشام: واثكلاه ليتني مت قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة، وقال الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث الجليل أن يصبح عبد بني جمح ينهق على بنية أبي طلحة، وقال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطاً لله فسيغيره الله، وقال أبوسفيان بن حرب: أما أنا فلا أقول شيئاً لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصاة، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله «ص» فأخبره خبرهم فأقبل حتى وقف عليهم فقال: أما أنت يافلان فقلت: كذا، وأما أنت يا فلان فقلت: كذا، وأما أنت يا فلان فقلت: كذا، فقال أبوسفيان: أما أنا يارسول الله فما قلت شيئاً فضحك رسول الله «ص»،قال أبو الوليد: وكان بلال لأيتام من بني السباق ابن عبد الدار أوصى به أبوهم إلى أمية بن خلف الجمحي وأمية الذي كان يعذبه وكان اسم أخيه كحيل بن رباح. نقلا عن أخبار مكة وما جاء فيها من آثار للأزرقي - باب ماجاءفيرقيبلالالكعبة وأذانهعليهايوم الفتح.



وقد توغلت السرية في البلاد التي يسيطر عليها الروم ووصلت إلى مؤتة قرب الكرك في بلاد الأردن الحالية. وهناك التقوا بحامية رومية، الحقت الهزيمة بسرية المسلمين وقتل منهم (١٢) رجلاً، كما تقول كتب التراث. وهذه الموقعة هي التي تبدأ سورة الروم بالحديث عنها:

الم(١) غَلَبَتِ الرُّومُ (بفتح الغين واللام في غلبت)(٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيُغْلَبُونَ(بضم الياء في سيغلبون)(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥) وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٦).

وكعادة المفسرين قاموا بلي الآيات وتأويلها وكأنها تتحدث عن قصص اختلقوه. فقرأوا: غُلبت الروم (بضمة على الغين) وقرأوا: سيغلِبون (بكسرة تحت اللام) وكأن الروم هزموا وسينتصرون في بضع سنين. وقالوا إن الآيات تتحدث عن حرب بين الفرس والروم انتصر فيها الفرس فحزن المسلمون لانتصار المجوس على عباد الصليب، وعندما ينتصر عباد الصليب سيفرح المسلمون. وكأن هناك فرقاً بين ملل الكفر.

ثم إن القرآن لا يتحدث إلا عما له علاقة بحياة المسلمين أو ما له علاقة بالذين توجه لهم دعوة الدخول في الإسلام. والقرآن وجه الدعوة لقريش أو لأهل الكتاب في يثرب أو لكل الناس غيرهم. ولم يخاطب الروم ولا الفرس لأنهم بعيدون عن محيط مكة والمدينة، ولم تصل الدعوة لمن هم أقرب منهم وبينهم وبين المسلمين، ولم يقم الرسول بدعوتهم. ولا عبرة لما روته كتب التراث عن أن الرسول كاتبهم يطلب منهم الدخول في الإسلام.

وفيما يلي نقاش ما قيل عن أن الآيات تتحدث عن هزيمة الروم من الفرس، لإثبات أن ما حدث بين تلك الدولتين من حروب لا يعني المسلمين ولا يهمهم.

فالحرب كانت سجالاً بين الدولتين ومنذ قرون قبل الإسلام، ومن أواخر الحروب بينهما تلك الحرب الطويلة التي كانت إبان حكم كسرى الثاني (٥٩٠-٦٢٨) والتي بدأت في العام (٦٠٢) أي قبل بعثة الرسول بثمان سنوات. واستمرت إلى أن وصل الجيش الفارسي إيليا (القدس) واحتلها عام (٦١٤م الموافق للسنة الخامسة للبعثة حسب تقديرات كتب التراث) وهي المعركة التي يقولون إن سورة الروم تتحدث عنها.



وفي العام (٦٢٢) قام هرقل حاكم قرطاجة بانقلاب عسكري وتم له الاستيلاء على القسطنطينية، ثم بدأ حرب الفرس في العام (٦٢٤ الموافق للسنة الثانية للهجرة حسب تقديرات كتب التراث). وفي العام (٦٢٧ الموافق للسنة الخامسة للهجرة حسب تقدير كتب التراث) انتصر هرقل على الفرس في معركة نينوى الحاسمة.

وهناك قصص في كتب التراث تقول إن انتصار الروم حدث في نفس اليوم الذي انتصر فيه المسلمون في بدر على المشركين. وبدر – حسب تقديرات كتب التراث – وقعت في السنة الثانية للهجرة (الموافقة للعام ٦٢٤) وهو العام الذي بدأ فيه هرقل حرب الفرس، بينما معركة نينوى وقعت بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات.

وكل ما تقدم على افتراض أن سورة الروم نزلت في مكة، كما تزعم كتب التراث والمفسرين. ومع ذلك لا يوجد تطابق بين تواريخ انتصار الفرس وانتصار الروم عليهم وبين نزول السورة، وما قيل عنها من قصص مختلق.

ولو نبذنا تخاريف المفسرين وما تحويه كتب التراث، فإن سورة الروم نزلت في المدينة وبعد فتح مكة. وقد جاءت للحديث عن معركة مؤتة – كما سبق وذكر – والتي تزامن إرسال الرسول سريتها مع خروج المسلمين لفتح مكة. وقد هزمت سرية المسلمين في مؤتة، لكنها كانت رسالة تحذيرية للروم تقول بأن المسلمين سيأتون لمعاقبتكم، وهو ما حدث. فقد توالت جيوش المسلمين لحرب الروم، كان منها جيشان في عصر الرسول، هما حملة تبوك التي قادها بنفسه عليه الصلاة والسلام. وجيش أسامة ابن زيد الذي أمر بإعداده عليه الصلاة والسلام ولكنه توفي قبل أن يخرج، فأمر أبو بكر الجيش بالمضي في المهمة التي أعدها الرسول. وبالفعل خرج الجيش لحرب الروم، ثم استمر إرسال الجيوش للشام في خلافة أبي بكر وعمر انتهت باستسلام إيليا وجلاء الروم من أرض الشام. وقد وقعت معركة مؤتة (التي تتحدث عنها سورة الروم) بعد فتح مكة وفي أواخر عصر الرسول، وخسر الروم معركة اليرموك سنة (١٣) للهجرة، وبينهما بضع سنين. كما أن استسلام إيليا وقع في العام (١٧) للهجرة، وبينها وبين مؤتة بضع سنين أيضاً.

ولا يمكن أن تكون سورة الروم نزلت في مكة وفي السنوات الأولى للدعوة، وقبل نزول التشريعات، مما يعني أن عدد المسلمين كان قليلاً جداً. وكان اهتمامهم ينصب حول



مضايقات قريش لهم، وهل سيتمكنون من البقاء؟ أم أن قريشاً قد تعتدي عليهم أو تقوم بقتلهم، فهم قلة لا حول لهم ولا قوة. ولا يهمهم إن انتصرت الروم أو خسرت من الفرس، وليس في نزول القرآن بتلك الأخبار أي منفعة ولا تعزية ولا تشجيع،.ولا أي فائدة لهم. فكيف يهتم القرآن بنقل أخبار حرب بين أمتين كافرتين بعيدتين، لأناس يعانون من القلة والضعف والعنت والضغوط من قريش المستبدة؟

نقض قريش لمعاهدة الحديبية يوم فتح مكة

سورة براءة نزلت للتفاعل مع خيانة قريش للمعاهدة التي وقعتها مع المسلمين، وذلك بمظاهرتها لأعداء المسلمين الذي خططوا مع قريش بمهاجمة المسلمين والقضاء عليهم حينما كانوا في مكة بعد الفتح، فوقعت معركة حنين التي انتصر فيها المسلمون وفشلت خطة أعدائهم. وسنتحدث عن حنين لاحقاً.

والمعاهدة التي خانتها قريش هي التي وقعتها مع المسلمين يوم الفتح في الحديبية خارج مكة: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة.

فالمعاهدة تم إبرامها عند المسجد الحرام، ولم يلتق المسلمون وقريش عند المسجد الحرام إلا عندما توجهوا لفتح مكة. وعندما كان الرسول والمسلمون يعسكرون في الحديبية استعداداً للهجوم على مكة، جاء رجال من قريش وعرضوا على المسلمين أن يسلموا مكة لحكم دولة المسلمين مقابل ألا يتعرضوا لرجال قريش وأن يحتفظ القرشيون بمعتقداتهم. وهذه المعاهدة هي التي خانتها قريش بمظاهرة أهل الطائف وقبائل أخرى مع جيش فارسي لمهاجمة المسلمين أثناء تواجدهم في مكة، ولو حدث هذا فستطعنهم قريش من الخلف وسيتم القضاء عليهم. لكن ما حدث هو أن المسلمين سمعوا بقدوم جيش من الطائف لمهاجمتهم فخرجوا لملاقاته خارج الحرم وحدثت معركة حنين التي انتصر فيها المسلمين وأفسدوا مخطط قريش ومن ظاهرهم.

والسورة تبدأ بإعلان صحفي ببراءة المسلمين من خيانة المعاهدة الموقعة مع قريش يوم الفتح، وهو ما يعني تحميل قريش مسئولية نقض تلك المعاهدة: بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى



الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١) براءة.

وإعلان خبر خيانة قريش يجب أن يكون على رؤوس الأشهاد: وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) براءة.

وليس هناك أفضل من إعلان البراءة من الخيانة يوم تجمع الحجاج من كل بقاع جزيرة العرب في عرفات لينطلقوا من هناك لبدء حجهم. والآية تأمر الرسول أن يتلو على التجمع ما حدث مع قريش ونقضها لمعاهدتها مع المسلمين، وكل ما سيترتب على ذلك من إجراءات سيقوم بها المسلمون ضد قريش.

وهذا الإعلان ليظهر لكل شعوب جزيرة العرب أن المسلمين لا يمكن أن ينقضوا عهداً أبرموه، ولكي يقطعوا الطريق على قريش لنشر إشاعات بين الناس أن المسلمين هم من نقض المعاهدة.

وتعلن السورة عدة إجراءات ترتبت على نقض قريش للمعاهدة، كما يلي:

- **إعطاء قريش مهلة للتراجع**

فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) براءة.

المهلة المعطاة للتراجع مدتها أربعة أشهر.

- **عدم التعرض لمن لم يخن المسلمين ولم ينقض المعاهدة من كفار قريش**

إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

الآية تتعهد بعدم التعرض لمشركي قريش الذين احترموا معاهدتهم مع المسلمين ولم يتعاونوا مع أعداء الإسلام. فالحرب ليست على الكفر ولكن على من يسعى لحرب المسلمين والقضاء على الإسلام.

- **كل من خان المعاهدة يطارد ويحارب بكل الوسائل بعد انتهاء مدة التراجع**

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ



وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.

إن لم تتراجع قريش عن عدائهم للمسلمين بعد انتهاء المهلة المعطاة، فيجب حصارهم اقتصادياً، والترصد لهم، وملاحقة رجالها في كل مكان يتواجدون فيه، ومن عُثر عليه منهم فاقتلوه، لأن بقاءهم سيشكل خطراً دائماً على الإسلام والمسلمين بدسائسهم ومناصرتهم للأعداء.

- **كل مشرك محارب لو استجار يجار**

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ(٦) براءة.

برغم أن قريشاً خانت المعاهدة مع المسلمين وبرغم أنهم في حالة حرب مع المسلمين، تقول الآية بوجوب أن يجير المسلمون أي قرشي مشرك ينشق ويستجير بهم، بشروط:

  - يجيره المسلمون، ويسمعونه كلام الله.
  - إذا لم يقبل الدخول في الإسلام فلا يقتل ولا يسلم لمن انشق عنهم، بل تتكفل دولة المسلمين بإيصاله لمكان آمن لا يمكن لقومه الوصول له والنيل منه.

- **التعامل بحذر وبكل حزم وقسوة مع من خان المعاهدة من المشركين (قريش)**

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ(١٠) براءة.

تأكيدٌ على عدم التعرض للمشركين الذين احترموا المعاهدة ولم يظاهروا أعداء المسلمين عليهم.

والتعامل بحذر شديد مع من خانوا المعاهدة لأنهم لا يحترمون المواثيق. فقد عاهدوا المسلمين وهم في نفس الوقت يخططون مع أعدائهم. لذا يجب التعامل معهم بحزم وقسوة



لأنهم لو تمكنوا من المسلمين لسحقوهم، فوجب سحقهم لضمان سلامة المسلمين من شرهم.

- **بعد انتهاء المهلة**

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١١) وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ(١٢) براءة.

إن ثابت قريش وعاد من أعلن إسلامه منهم يوم الفتح للإسلام، فأهلا بهم. وإن نكثوا وطعنوا في الدين فقاتلوهم بكل قسوة حتى تقضوا عليهم. وفي هذه الحالة فقتالهم واجب لما سبق وصدر منهم: أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣) براءة.

فهم نكثوا أيمانهم بنقضهم للمعاهدة، وهموا بإخراج الرسول من مكة (قد يكون هذا قبل الهجرة)، كما أنهم هم من بدأ حرب المسلمين ولم يبدأ المسلمون حربهم. وهذا دليل قاطع آخر على أن معركة بدر لم تكن الخيار المفضل للمسلمين ولم تكن بسبب ملاحقة المسلمين لعير قريش كما صورت كتب التراث.

وإن لم تتب قريش لرشدها ولم تعد للالتزام ببنود المعاهدة فعلى المسلمين قتالهم بكل قسوة للقضاء عليهم لئلا يكونواا مصدر إزعاج ومكائد مستقبلاً.

والتراجع لا يعني أن يعلن كل رجال قريش الدخول في الإسلام أو يقاتلوا، ولكن الآية تقول على من أعلن إسلامه يوم الفتح أن يعود للإسلام كدليل على تراجعه عن نقض المعاهدة. لكن لو تراجع ولم يعد للإسلام أو أنه لم يعلن إسلامه أصلاً فليس مطلوباً منه الدخول في الإسلام. فالمدينة ويثرب مليئة بالمنافقين الذين يقول عنهم القرآن: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣) المنافقون.

ولم يأمر القرآن بقتالهم ولا قتلهم لأنهم كفروا بعد إيمان. فالقسوة في قتال قريش لأنهم نقضوا عهدهم مع المسلمين وليس لأن بعضهم أعلن إسلامه وارتد. وما يؤيد هذا أن سورة براءة تؤكد على عدم التعرض للمشركين من قريش الذين التزموا بالمعاهدة مع المسلمين ولم يخونوها في الآية الرابعة والسابعة. فهناك رجال من قريش - وليس كلهم



- أعلنوا إسلامهم يوم الفتح وهم كاذبون. لأنهم كانوا في نفس اللحظة يكيدون المكائد للمسلمين مع أعدائهم، ولما انكشف أمرهم في حنين ارتدوا. وهم من تطالبهم السورة بالعودة لحظيرة الدين.

أما بقية رجال قريش الذين لم يعلنوا الإسلام ولم يؤمنوا، فليس مطلوباً منهم الدخول في الإسلام، ولكن العودة للتمسك بالمعاهدة.

- **قتال من لم يقبل التراجع من قريش عذاب لهم على أيدي المسلمين في الدنيا**

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ(١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٥) براءة.

وشفاء صدور قوم مؤمنين المقصود بهم المستضعفون الذين تعرضوا لأقسى أنواع التعذيب على أيدي كبراء قريش، قبل الهجرة، لأنهم قالوا ربنا الله.

- **قتال المعاندين من قريش سيكون تمحيصاً وامتحاناً لمسلمة قريش**

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٦) براءة.

لقد كانوا يوالون مشركي قريش، والبيعة التي تبايع عليها المسلمون في الحديبية قبل دخول مكة كانت لأجل ضمان ولاء مسلمة قريش للمسلمين وتعهدهم بقتال مشركي مكة وعدم موالاتهم. وبما أنه لم يحدث قتال عند فتح مكة، لأن قريشاً عرضت الاستسلام، فإن قتال قريش الآن بسبب نقض المعاهدة سيكشف صدق نوايا مسلمة قريش، وهل ما زالوا يوالون مشركي قريش، أو أنهم سيقاتلونهم مع المسلمين.

وفي مكان آخر تعود السورة لتحذير مسلمة قريش: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤) براءة.

مما يشير إلى أن مشاعر الولاء للمشركين عندهم لم تتغير.



- **عقوبات على قريش**

إمعاناً في إهانة قريش الناقضة للعهد، تم فرض عقوبتين قاسيتين بحقها:

العقوبة الأولى: سحب شرف صيانة البيت من رجالها

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ(١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٩) الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ(٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ(٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٢).

تقول السورة إذا كانت قريش تتباهى بأنها تقوم على بيت الله وخدمة الحجاج، فهذه الخدمات لا تساوي شيئاً بدون الإيمان بالله.

وبما أن قريشاً فسقت عن معاهدتها مع المسلمين فيجب أن يسحب منها شرف خدمة بيت الله وحجاجه، ويسند للمسلمين الذين آمنوا بالرسالة ولا تترك بأيدي المشركين. فالمسلمون هم من يعمر مساجد الله بالطاعة، ولهم حق تعمير المسجد الحرام وصيانته وخدمة حجاجه، ولا تترك للمشركين.

والآيات تقول بإلغاء حق قريش في القيام على البيت وخدمة الحجاج، منذ تلك اللحظة التي نزلت فيها سورة براءة.

وهذا يعني أن قريشاً إن كانت عادت لتولي القيام على البيت وخدمة الحجاج بعد عصر الرسول فهو عود للجاهلية وتجاهل لأمر القرآن الصريح. كما ينفي أن يكون أحد من قريش بقي له خدمة وتشريف في المسجد الحرام، ولو غضبت أسرة بني شيبة القرشية الذين توارثوا الاحتفاظ بحق صوري لا يقدم ولا يؤخر وهو عبارة عن الاحتفاظ بمفتاح للكعبة، يؤمرون فيفتح ويؤمرون فيغلق[1]. وخدمة البيت أكبر من ذلك، وتتمثل بالقيام على

١ يطلق عليهم سدنة الكعبة، وهو لقب خاطئ بحق بيت الله. فالسدنة يكونوان للمعابد الوثنية أما بيت الله فليس له سادن كسادن بيت النار عند المجوس مثلا، لكن لبيت الله أناس يقومون على ترميمه وتنظيفه وتهيئته للحجاج، وهذا لا يقوم به بنو



صيانة وعمارة البيت وتوفير الضيافة المناسبة لحجاج وزوار البيت من سكن وتنقل وأكل وشرب بلا مقابل.

ويستفاد من هذه الآيات تشريع يقول: إن القيام على المسجد الحرام وخدمة الحجاج يجب أن يكون بأيدي مسلمين مؤمنين تقاة، ولا يكون بيد كفار أو فسّاق ولو أعلنوا إسلامهم. ويتم تأمين المبالغ المطلوبة من عامة المسلمين حول العالم.

العقوبة الثانية: حرمان مشركي قريش من دخول المسجد الحرام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٨).

الآية تحرم دخول المشركين المسجد الحرام بعد ذلك العام الذي نزلت فيه سورة براءة. والمشركون هنا المقصود بهم قريش فقط، لأن السياق يتحدث عن قريش وخيانتهم للمعاهدة مع المسلمين وفرض عقوبات عليهم بسبب خيانتهم.

وقد حولت كتب التراث هذا المنع من قريش إلى الكفار عموماً، ووسعت المنع ليشمل منطقة الحرم. وهو ما نراه مطبقاً الآن، حيث يمنع «رسمياً» غير المسلمين من دخول مكة، بل وزيد عليه منعهم من دخول المدينة، وهي ليست حرماً، ولا بلداً حراماً. والمنع الحالي رسمي فقط. لذا فلم يمنع أبداً دخول غير المسلمين مكة بالخفاء أو بالتواطؤ الرسمي لمن لديهم حظوة طوال القرون الماضية.

فمكة كبلد لم يمنع الكفار من دخولها، ولم تمنع قريش الكافرة من البقاء فيها. وإنما عوقبت قريش بعدم دخول المسجد الحرام، وسحب منها شرف القيام عليه وخدمة الحجاج. ولا تتحدث الآيات بصورة عامة، ولا تفرض تشريعاً ضد كل مشرك وكافر.

شيبة. إضافة لخدمة الحجاج واستضافتهم بتهيئة السكن والمأكل لهم، وهذا لا وجود له الآن للأسف. ويجب وجوده ويتم توفير المبالغ المطلوبة لاستضافة الحجاج من كل المسلمين حول العالم، لأن القرآن عندما سحب شرف استضافة الحجاج من قريش لم يعطها لعائلة بعينها، وإنما جعله واجباً على كل قادر من المسلمين. وكذلك الأمر بالنسبة لترميم البيت وتهيئته.



معركة حنين / الأحزاب الثانية[1]

سورة الفتح تتحدث عن فتح مكة وكيف دخلها المسلمون، وعن المتخلفين عن الفتح من الأعراب والمنافقين، لكنها لم تتحدث عن حنين. والإخباريون يقولون إن الفتح كان في أواخر رمضان من السنة الثامنة، وحنين بعده في شوال من نفس العام. وليس مهماً أن يكون الفتح قد وقع في رمضان، لكن المهم هنا هو أن المسلمين بعد الفتح، وأثناء تواجدهم في مكة وصلتهم أخبار تفيد أن هناك جيشاً قادماً من الطائف لمهاجمتهم، فخرجوا لملاقاته خارج بيت الله الحرام.

والقرآن يؤكد أن قريشاً قد خانت معاهدة الفتح التي تنص على دخول مكة تحت حكم دولة المسلمين، وتعهد قريش ألا تكيد للمسلمين ولا تعاون من يعاديهم. والقرآن يقول: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

والآية تشير إلى أن قريشاً ظاهرت على المسلمين أعداءً لهم.

وتكون معركة حنين نتيجة لتحريض قريش أهل الطائف وبعض رجال من القبائل، وأعتقد أن معهم جيشاً فارسياً حضر لمعاونتهم بناءً على طلب من قريش التي ترتبط بالحيرة بروابط تجارية وعلاقات قديمة. وكانت الخطة تقضي أن يشن القادمون من الطائف هجوماً على المسلمين، وإذا ما احتدمت المعركة، تهاجمهم قريش من الخلف لتربكهم وتشتت صفوفهم، ويسهل القضاء عليهم.

ولو كان هذا ما خطط له، فهو صورة طبق الأصل للسيناريو الذي كان متفقاً على تنفيذه في غزوة الأحزاب. والمتمثل بأن تهاجم جيوش التحالف المدينة من الشمال، فإذا احتدمت المعركة، أو هرب المسلمون، تلقاهم بنو إسرائيل من الجنوب.

وبعد هزيمة أحزاب الطائف، عاد الرسول والمسلمون إلى المدينة. ولعل المسلمين لم يكتشفوا مظاهرة قريش لجيش التحالف في حنين إلا في وقت لاحق، خاصة أن المسلمين استطاعوا حسم المعركة ولم يتقهقروا لكي تستقبلهم قريش بالسيوف وينكشف دورها التآمري.

---

١ ما ورد في هذه الفقرة مقتبس بتصرف من كتاب أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول. من منشورات الجمل.



ومعركة حنين حدثت بالقرب من مكة، وفيما يعرف اليوم بالشرائع العليا أو شرائع النخيل، والتي تبعد عن الحرم المكي بأقل من (٢٥ كم)، بينما تزيد المسافة بينها وبين الطائف عن (١٠٠كم) عن طريق السيل الكبير، طريق القوافل. مما يعني أن تحالف الطائف هم من خرج لمهاجمة المسلمين أثناء تواجدهم في مكة. إلا أن المسلمين علموا بخبر قدوم جيش الطائف وخرجوا لملاقاتهم، فحدثت المعركة في حنين خارج مكة التي قبعت فيها قريش بانتظار تقهقر جيش المسلمين لتتلقاهم بالسيوف من الخلف.

وتكون حنين هي الأحزاب الثانية، وهذه خارطة تبين موقع المعركة:



سير القتال

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٧) براءة.

منذ بدء الدعوة لم يكن هناك احتكاك أو عداء بين المسلمين وأهل الطائف، فيما عدا ما زعمته كتب التراث من طرد أهل الطائف للرسول وإغراء صبيانهم بالسخرية منه، وهو كلام لا يعتد به. وهذا يؤكد أن هجوم أهل الطائف ومن معهم جاء تلبية لطلب قرشي. ونميل إلى أن هناك جيشاً فارسياً شارك مع جيوش الإئتلاف في حنين ضد المسلمين، تلبية لطلب قريش. ولم يكن هناك أي عداء سابق بين المسلمين والفرس، ولا أي اتصال بأي



شكل من الأشكال.

ولعل قريشاً توجهت للفرس بعدما رفض الروم إرسال جيش آخر نتيجة لفشل جيشهم الأول الذي قدم إلى المدينة يوم الأحزاب، وعاد يجر أذيال الخيبة. خاصة أن الروم لم يكن بينهم وبين المسلمين أي عداء سابق، وليس للروم مصلحة بإرسال جيوشها لمناطق بعيدة صعبة. ويبدو أن هرقل قد تأكد أن المسلمين لا يشكلون خطراً عليه ولا يسعون لقطع إمدادات البهارات واللبان والبخور القادمة لروما من جنوب جزيرة العرب بواسطة قوافل قريش.

والاستعانة بالفرس لحرب المسلمين واردة ومحتملة، نظراً لقوة الروابط التي تربط قريشاً بهم، ووجود طريق قوافل مطروق بين مكة والعراق منذ القدم، يغذي فارس بما تحتاج من بهارات ولبان وبخور.

وما إن تيقن المسلمون - أثناء تواجدهم في مكة بعد الفتح - أن جيشاً قادماً من الطائف لحربهم، حتى خرجوا لملاقاته، إلا أنهم فوجئوا بالعدو وقد نصب لهم كميناً في أحد المضايق على الطريق. ولأن كثيراً من جيش المسلمين خرجوا من المدينة طلباً للغنائم، ظناً منهم أن الرسول سوف يستبيح مكة، ولم يخرجوا في سبيل الله، فإنهم لاذوا بالفرار، مما تسبب في بلبلة جيش المسلمين لبعض الوقت، إلى أن استطاع المؤمنين لملمة صفوفهم، والاشتباك مع العدو وهزيمته[1]: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٧) براءة.

وبعد هزيمة جيش الأحزاب الثاني في حنين توجه الرسول والمسلمون إلى المدينة، وليس هناك ما يشير إلى أنهم اكتشفوا حينها أي تواطؤ من قريش مع أعدائهم. ونؤكد استحالة أن يكون الرسول قد حاصر الطائف أو سبى نساءهم، واستحالة حدوث المعركة بالشكل الذي روته كتب التراث، التي شوهت الحقيقة لتغطية خيانة قريش.

١ ذكرت كتب التراث أن المشركين نصبوا كميناً لجيش المسلمين في حنين، والآيات تشير إلى أن هناك بلبلة وهروباً وفوضى حدثت في بداية المعركة في جيش المسلمين، مما يعني أن خبر كتب التراث قد يكون صحيحاً.



التأكيد على معاقبة بعض أهل الكتاب الذين ظاهروا أهل الطائف في حرب المسلمين

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

سورة براءة نزلت لتخبر الرسول أن قريشاً خانت معاهدة أبرمتها مع المسلمين يوم الفتح وكان الرسول في تبوك فعاد من هناك ولم يواصل مسيره لحرب الروم كما كان هدف الحملة. لأن السورة تطلب من الرسول أن يوصل لقريش رسالة أنهم أعطوا مهلة (٤) أشهر للتراجع، وأن يعلن على الملأ في عرفات أن قريشاً هي من خان الميثاق، وأن المسلمين أعطوها مهلة تنتهي بنهاية الأشهر الحرم. وأنهم إن لم يعودوا فسيقوم المسلمون بحصارهم وملاحقتهم وقتالهم في أي مكان يجدونهم.

وسورة براءة أيضا تشدد على أن يتابع المسلمون معاقبة كل من بدأهم الحرب سواء في الأحزاب الأولى وهم الروم وقريش وبعض القبائل العربية، إضافة لقبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب. أو من شارك في حرب الأحزاب الثانية (حنين) من أهل الطائف وبعض القبائل حولها مع جيش من فارس، وقبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب.

فكان فتح مكة لعقاب قريش وأرسلت سرية للروم هزمت في مؤتة، كانت لجس نبض الروم. وقد هوجمت القبيلة الإسرائيلية التي تعاونت مع الأحزاب، وحصل قتال بينهم وبين المسلمين لبعض الوقت ثم هزموا وتحصنوا بحصونهم ثم أعلنوا استسلامهم بشرط أن يخلى سبيل أسراهم ويتركوا يرحلون من يثرب، وقد وافق المسلمون على هذا العرض. وهو ما تحدثت عنه سورة الأحزاب التي سبقت في النزول سورة الفتح وبراءة.

وبعد حنين نزلت سورة براءة تؤكد على ضرورة معاقبة كل من بادر بحرب المسلمين أو تعاون مع أعدائهم، ومما ورد في هذا السياق قوله تعالى: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

والآية تتحدث عن عقوبة خاصة بقبيلة من قبائل بني إسرائيل التي تعاونت مع أعداء الإسلام في حنين، وتأمر المسلمين بحرب تلك القبيلة حتى يستسلموا صاغرين ويدفعوا



جزية كتعويض لما لحق بالمسلمين من أضرار نتيجة لتلك المعركة.

وستخبرنا سورة الحشر التي نزلت بعد براءة أن هذه الرسالة وصلت للقبيلة المعنية، فبادروا بلقاء الرسول حال وصوله المدينة قادما من تبوك وعرضوا عليه الجلاء وترك منازلهم ومزارعهم للمسلمين مقابل عدم التعرض لهم، وقد قبل الرسول والمسلمون العرض.

وعقابهم كان، كما تنص الآية، يتمثل بقتالهم، حتى يستسلموا ويرضوا بدفع جزية للمسلمين كبدل ضرر للمسلمين على خيانتهم، وهم صاغرون. والجزية هي تعويض مالي يدفع مرة واحدة من هذه القبيلة بالذات ولا يطبق على سواها، مقابل الضرر الذي تسببت به خيانتها للمسلمين وتعاونها مع الأعداء. لكن الأوضاع تغيرت بعد عصر الرسول واستيلاء قريش على حكم دولة المسلمين وبدأت حروبها التوسعية في العصر الأموي والعباسي فأولوها لتشمل كل أهل الكتاب في كل مكان. وحولوا الجزية إلى ضريبة سنوية على كل سكان البلاد المفتوحة الذين احتفظوا بدياناتهم ولم يعلنوا الإسلام. وهذا التعميم لم يعرفه عصر الرسول ولا الخلفاء الثلاثة من بعده.

فالمسلمون زمن الرسول لم يتعرضوا لأهل الكتاب في شمال الحجاز واليمن وغيرها. ولم يفرضوا عليهم جزية لأنهم أبقوا على دينهم.

فهذه الآية تأمر المسلمين بقتال قبيلة معينة من أهل الكتاب في يثرب حتى يستسلموا ويرضوا بدفع جزية (جزاءً) على ثبوت تورطهم في الكيد للمسلمين.

ولم تذكر الجزية في القرآن مرة أخرى أو بحق أحد آخر غير تلك القبيلة.

وسورة الحشر التي نزلت بعد براءة تخبرنا ماذا حدث لتلك القبيلة لما علمت بما نزل بحقهم في القرآن. حيث تشير الآيات الأربع الأولى من سورة الحشر أن رجال القبيلة قد سارعوا في الاتصال بالرسول حال وصوله إلى المدينة قادماً من تبوك وأبلغوه رغبتهم بالجلاء من يثرب كبديل للجزية ومقابل عدم تعرض المسلمين لهم: سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ



النَّارِ(٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤).

وطلب هذه القبيلة من أهل الكتاب (بني إسرائيل) الجلاء من يثرب بهذه الصورة، استباقٌ للأحداث، وتجنب لهجوم المسلمين عليهم قبل أن يحدث، لأنهم علموا أن سورة براءة قد أبلغت الرسول بخيانتهم، وأمرته بحربهم. وقد وافق الرسول والمسلمون على عرض قبيلة أهل الكتاب، الذين تركوا أملاكهم وقصورهم ومزارعهم وخرجوا من يثرب بلا رجعة.

وهو الجلاء الثاني والأخير لأهل الكتاب من يثرب في عصر الرسول، ولم يتم التعرض لمن بقي منهم بسوء، لأنه لم يثبت تورطهم بالكيد للمسلمين ولا معاونة أعدائهم. ولا نعلم متى خلت يثرب من سكانها من أهل الكتاب، وإن كنا نرجح أنهم نزحوا لفلسطين باختيارهم بعدما أصبحت تحت حكم المسلمين في عصر عمر ابن الخطاب، عندما تأكد لديهم أن اليهود فيها يعيشون بارتياح تحت حكم المسلمين[1].

غزوة تبوك

سمتها كتب التراث بهذا الاسم، ولعل السبب أن الرسول وجيش المسلمين وصلوا إلى تبوك وعادوا من هناك. وهي حملة لم تشتبك مع أحد في قتال، ولم تكن موجهة لأهل الكتاب بكل تأكيد، لأن قراهم التي تمتد على طول طريق القوافل المتجه للشام شمال يثرب، مر بها المسلمون ولم يهاجموها أو يتعرضوا لأهلها بسوء[2].

وبما أن أهل الكتاب لم يكونوا هم المستهدفين فالمستهدف بكل تأكيد هم الروم، كاستمرار لإرسال الجيوش لتأديبهم ومعاقبتهم ومحاولة القضاء عليهم لأنهم ابتدروا المسلمين بالاعتداء عندما اشترك جيش رومي مع جيوش الأحزاب للقضاء على المسلمين نصرة لقريش. وهذه الحملة هي الثانية بعد سرية مؤتة، التي كانت – على ما يبدو – لجس نبض الروم وامتحان قوتهم، وفي نفس الوقت رسالة لهم أن المسلمين قادمون لمعاقبتهم.

فلماذا عاد المسلمون من تبوك التي تقع على مشارف حدود الروم، ولم يواصلوا مشوارهم الذي قدموا لأجله؟

١ انظر فقرة: الجزية / سم تشريعات من القرآن.

٢ في كتاب أحسن القصص ذكر أن الحملة لتعقب بني إسرائيل الذين أجلوا من يثرب لأنهم استمروا يكيدون للمسلمين، وأن الرسول عاد من تبوك لأن بني إسرائيل دخلوا بلاد الشام التي تحكمها روما، ولم يرغب الرسول بالتعدي على الروم ومعاداتهم. وهذا الاستنتاج ثبت لي أنه خاطئ وأن الحملة كانت بالفعل موجهة للروم، ولكن الرسول عاد من تبوك بسبب نزول سورة براءة عليه في تبوك، كما سنرى.



لقد وضعت بعض الاحتمالات في كتب أحسن القصص، دون أن أملك ما يدعمها. أما الآن فهناك بعض المستجدات التي تجعلني أشعر أن الرؤية أصبحت أكثر وضوحاً، وأن هناك احتمالا معقولاً لعودة جيش المسلمين من تبوك دون أن يكمل مهمته، أعرضه كما يلي:

لعل سورة براءة نزلت على الرسول عندما وصل جيش المسلمين تبوك، وهي السورة التي تخبرهم بخيانة قريش لمعاهدة الفتح. كما أن السورة تخبر أن هناك قبيلة من بني إسرائيل يثرب قد تورطت في مظاهرة الأحزاب الثانية في حنين ضد المسلمين. فآثر الرسول العودة خشية أن تقوم قريش أو القبيلة الإسرائيلية أو كلاهما بمهاجمة العدد القليل من المسلمين في المدينة وقتل النساء والأطفال.

أحوال المسلمين من الخروج لغزوة تبوك

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(٣٨) إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤١) براءة.

هذه الآيات تلخص حال المسلمين عندما دعاهم الرسول للخروج لحرب الروم فيما عرف بغزوة تبوك.

لقد بدا على الأكثرية منهم التثاقل وعدم الحماس للخروج، والآيات تحذرهم من أن تأخرهم في الخروج للقتال في سبيل الله مآله جهنم. وتقول السورة إن دين الإسلام لا يتوقف عليهم، وسينتصر بهم أو بغيرهم، كما نصر الله عبده محمداً عندما هاجر لوحده مع صاحبه «أبي بكر»[1].

---

١ الآية (٣٩) تؤكد أن الصحابة ليسوا أفضل عصور المسلمين، وأن رؤية الرسول والعيش معه لا يعني أن إيمان الناس سيكون مثالياً، كما صورت لنا كتب التراث عن الصحابة. فغالبيتهم أعطوا صوراً بعيدة جداً عن مثالية المؤمن وطاعته لله والرسول، منذ بدأت الدعوة وحتى وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها مواقفهم المتخاذلة عن الخروج للجهاد في هذه الغزوة كما في بدر وأحد وكل الحروب التي خاضوها.



البعض كان قادراً على الخروج ولم يخرج

لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٤٢) براءة.

وهؤلاء هم المنافقون، سواء كانوا مسلمة يثرب أو مسلمة قريش، وقد حلفوا للرسول أنهم لا يستطيعون الخروج وهم كاذبون. ومع أن بعضهم سبق وكذبوا على الرسول أثناء حفر الخندق، واستأذنوه بحجة أن بيوتهم عورة، وما هي بعورة، إلا أن محمداً غلبت عليه بشريته مرة أخرى وصدقهم عندما حلفوا له أنهم لا يستطيعون الخروج، فأذن لهم بالبقاء. فجاءه العتاب من السماء على ذلك: عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣) براءة.

ولو أنهم كانوا يؤمنون بالله ورسوله لخرجوا.

فئة أخرى من المسلمين يريدون الحصول على الإنفاق وهم ليسوا بحاجته

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ(٥٩) براءة.

والصدقات هنا هي الإنفاق الذي ليس لهم حق فيه لأنهم يملكون المال: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠) براءة.

فئة أخرى سيئة

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وِيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦١) براءة.

فهم يسخرون من الرسول في مجالسهم ويقولون عنه إنه يغير رأيه كلما اقترح عليه رأي آخر. والآية تقول إن هذا لا يعني أنه لا رأي له، ولكنه نوع من الشورى وعدم التفرد بالقرار، وهو خير لمصلحة المسلمين.



فئة سيئة أخرى

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ(٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٨٠) براءة.

هذه الفئة كانت أحوالهم المادية ضعيفة، وكانوا قد عاهدوا الله لئن أغناهم من فضله ليتصدقن (ينفقون) لكنهم نكثوا عهدهم مع الله بعدما أصبح لديهم المال وامتنعوا عن الإنفاق. بل وكانوا يسخرون من بعض المسلمين الذين لا يجدوا ما يتصدقون به (ينفقون) إلا جهدهم في سبيل الله. وهؤلاء كفار ولو أعلنوا إسلامهم. فالإسلام إيمان وعمل صالح، وليس تظاهراً وشهادة.

المؤمنون حقاً

لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨٨) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٨٩) براءة.

الذين يجاهدون بأنفسهم وأموالهم مع الرسول هم المؤمنون الذين يحمون الإسلام ودولة المسلمين.

متخلفون من الأعراب

وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٠) براءة.

اعتذروا من الخروج وهم قادرون مثلهم مثل بعض مسلمة يثرب ومسلمة قريش.



توجيه للرسول بما يجب فعله حيال المتخلفين

فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ(٨٣) براءة.

- عندما تعود إلى المدينة، وجاءك المتخلفون ليستأذنوك في الخروج معكم للقتال فأخبرهم أنهم لن يخرجوا مع المسلمين أبداً، لأنهم اختاروا التخلف عنهم بلا سبب.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٤) براءة.

- سيأتون إليكم عند رجوعكم إلى المدينة معتذرين عن التخلف، فأخبرهم أنه لا يقبل عذرهم، ولن تصدق أقوالهم، وأن حسابهم على الله.

سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٩٥) براءة.

- سيحلفون لكم لكي تعرضوا عنهم ولا تلوموهم على عدم الخروج. فأعرضوا عنهم ولا تلوموهم، ليس لأنهم يستحقون من يعفو عنهم، ولكن لأنهم رجس ومأواهم النار. ولو صدقتموهم عندما يحلفون لكم فالله يعلم سرائرهم ولن يرض عنهم: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٩٦) براءة.

والأعراب فئات مختلفة كما يلي:

أعراب منافقون

الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) براءة.

بعضهم أشد كفراً ونفاقاً من مسلمة يثرب ومسلمة قريش.

أعراب ينفقون لابتزاز المسلمين

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٩٨) براءة.



وبعضهم ينفق لكنهم يحاولون استخدام إنفاقهم لابتزاز الرسول والمسلمين للحصول على منافع. كما أنهم يتربصون بالمسلمين ولو حلت بهم مصيبة استغلوها للاستيلاء على الأملاك والأموال.

ومنهم مؤمنون

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٩٩) براءة.

وهؤلاء يشكلون المؤمنون الأتقياء مع:

السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠) براءة.

وهناك منافقون لا يعلم بهم الرسول

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ(١٠١) براءة.

بعضهم من الأعراب وبعضهم من أهل المدينة، وهؤلاء لا يعلم الرسول ولا المسلمون أنهم منافقون، لأنهم لا يوالون غير المؤمنين، وهم مع المسلمين في كل شيء، ولا تبدر منهم أي علامات تدل على نفاقهم. أما مسلمة يثرب ومسلمة قريش وأغلب منافقي الأعراب فالرسول والمسلمون يعرفونهم، وتصرفاتهم واضحة تفضحهم. وهؤلاء الذين يجيدون التخفي قلة قليلة من المنافقين، أما الغالبية فهم معروفون بأشخاصهم من الرسول والمسلمين.

وهناك مسلمون عصوا

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ



سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥) براءة.

هؤلاء مسلمون تقاة لكن الضعف غلبهم، بعضهم لم ينفق لتجهيز جيش الحملة، وبعضهم لم يخرج مع الحملة، وهم يعلمون أنهم عصوا الله. ولو تابوا فسيتوب الله عليهم. وخلطهم العمل الصالح بالسيء لا يعني أنهم يقترفون الكبائر عالمين بحكمها ويعملون الصالحات، وأن الصالحات ستمحو ذنوب الكبائر كما هو شائع. لكنه يعني أنهم مؤمنون تقاة يعملون الصالحات ويجتنبون الكبائر لكن بعضهم لم يخرج للقتال أو لم ينفقوا كما يجب. ولو تابوا ولم يعودوا فسيتوب الله عليهم، ومن أصر على تكرار المعصية فسيعذب.

فئة متأرجحة

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠٦) براءة.

لو حسن إسلامهم فسيتوب الله عليهم، وإن مالوا على الضلال فسينالهم عذاب النار.

مسلمة قريش وبناء مسجد خاص بهم

وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ(١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠٩) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١١٠) براءة.

في الفترة التي غاب فيها الرسول والمسلمون عن المدينة أثناء حملة تبوك، قامت مجموعة من مسلمة قريش ببناء مسجد ليكون خاصاً بهم لئلا يختلطوا بالمستضعفين. وهو مسجد قام على العنصرية البغيضة المحرمة.

وما يؤكد أنهم مسلمة قريش أنهم دائماً يرون أنفسهم أعلى درجة اجتماعية من المستضعفين. ومنذ أن كانوا في مكة وقبل الهجرة وهم يريدون من الرسول أن يطرد المستضعفين: وَلاَ



تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

واستمروا يسخرون من المستضعفين، ومن ذلك ما أخبرتنا به سورة الحجرات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يكونوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١). ثم استمرت مصادماتهم كما تخبرنا عدة سور، بل ووصل بهم الحال للاقتتال، كما ورد في نفس سورة الحجرات: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠).

وبقي نفورهم من المستضعفين واحتقارهم.

جلاء قبيلة ثانية من قبائل بني إسرائيل يثرب

سورة براءة - كما سبق وذكر- تطلب من المسلمين أن يتابعوا معاقبة كل من بدأهم الحرب سواء في الأحزاب الأولى أو الأحزاب الثانية (حنين).

ومن ذلك معاقبة قبيلة من قبائل أهل الكتاب في يثرب، ظاهروا على المسلمين أعداءً لهم، في حنين، وإن لم يشتركوا مباشرة في القتال. وقد نزل بحقهم في سورة براءة: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

عليكم أن تقاتلوا هذه القبيلة لأنهم خانوا العهد وعاونوا أعداءكم عليكم، وإجبارهم على دفع جزية لكم على ما سببه تعاونهم مع الأعداء من أضرار لكم. والجزية تعني تعويضاً مادياً يدفع مرة واحدة بذلة وصغار.

وسورة الحشر التي نزلت بعد براءة تخبرنا بما حدث لتلك القبيلة لما علمت بما نزل بحقهم في القرآن: سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم



مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤).

ما أن وطئت قدما الرسول المدينة عائداً من تبوك حتى تسامع أفراد تلك القبيلة بما نزل بحقهم، فبادروا بلقاء الرسول وعرضوا عليه تسليم مزارعهم وقلاعهم وممتلكاتهم (كتعويض وجزية) والجلاء من يثرب مقابل عدم التعرض لهم، أو الدخول معهم في قتال. وقد قبل الرسول والمسلمون العرض، ولم يحدث قتال بين الفريقين، وغادرت القبيلة يثرب إلى غير رجعة.

وهو الجلاء الثاني والأخير لأهل الكتاب من يثرب في عصر الرسول، ولم يتم التعرض لمن بقي من بني إسرائيل أو اليهود أو من بقي من النصارى في يثرب بسوء، لأنه لم يثبت تورطهم بالكيد للمسلمين ولا معاونة أعدائهم. ولا نعلم متى خلت يثرب من سكانها من أهل الكتاب، وإن كنا نرجح أنهم نزحوا لفلسطين باختيارهم بعدما أصبحت تحت حكم المسلمين في عصر عمر ابن الخطاب، عندما تأكد لديهم أن اليهود فيها يعيشون بارتياح تحت حكم المسلمين هناك.

والجزية تعويض مالي يدفع مرة واحدة من هذه القبيلة بالذات ولا يطبق على سواها. مقابل الضرر الذي تسبب به خيانتها للمسلمين وتعاونها مع الأعداء. ولم تذكر الجزية في القرآن مرة أخرى أو بحق أحد آخر غير تلك القبيلة. لكن الأوضاع تغيرت بعد عصر الرسول واستيلاء قريش على حكم دولة المسلمين وبدأت حروبها التوسعية في العصر الأموي والعباسي فأولوا ذلك التوجيه الإلهي الخاص بتلك القبيلة من أهل الكتاب في يثرب، وكأنه تشريع إلهي يطبق بحق كل من لا يقبل الاستسلام لجيوش قريش الغازية في كل مكان. وحولوا الجزية إلى ضريبة سنوية على كل سكان البلاد المفتوحة الذين احتفظوا بدياناتهم ولم يعلنوا الإسلام. وهذا التعميم لم يعرفه عصر الرسول ولا الخلفاء الثلاثة من بعده، لأن دين الله بريء منه. بل إن الجزية لم تطبق أبداً لأن القبيلة المعنية بها قررت الجلاء مقابل عدم التعرض لها. ولو بقيت في يثرب، فستجبر على دفع الجزية مرة واحدة فقط نظير خيانتهم،



ولن يتكرر أخذها منهم لو لم يعاودوا خيانة المسلمين. ولم يكن بالإمكان تطبيقها على غير تلك القبيلة لأن الجزية نزلت بحق تلك القبيلة بعينها، وليست تشريعاً عاماً. ولهذا لم يتعرض المسلمون زمن الرسول لبقية أهل الكتاب في يثرب ولا في تيماء ووادي القرى واليمن وغيرها.

أين غزوة خيبر؟

كل الأحداث التي تهم المسلمين زمن الرسول ولها علاقة بهم ذكرها القرآن، حتى لو كانت أحداثاً صغيرة مثل استماع أحد كبراء قريش ممن يملك المال والولد للقرآن فمال للحق، لكنه تراجع وغلب عليه التمسك بالموروث (المدثر: ١١-٢٦). ومثل: ذكر القرشي الذي أنفق مرة واحدة ثم امتنع (النجم: ٣٣-٤١). أو ذكر رجل من قريش يتأفف من دعوة والديه له لكي يسلم (الأحقاف: ١٤-١٨). أو ذكر خبر منع قريش المسلمين من دخول المسجد الحرام (الحج: ٢٥). أو هجرة نساء من مكة (الممتحنة: ١٠) أو حضور وفود الأعراب للقاء الرسول (الحجرات: ١-٥، ١٤-١٨). أو ذكر مشاحنات واقتتال بين مسلمة قريش والمستضعفين (الحجرات: ٦-١٣). وغيرها العديد من الأحداث الصغيرة التي تحدث عنها القرآن بتفصيل، مثلما تحدث عن المعارك والمواقع التي مرت بالمسلمين: بدر وأحد والأحزاب وفتح مكة وغزوة مؤتة والحملة ضد الروم (التي سميت غزوة تبوك في كتب التراث)، وحتى عام الوفود ذكرته سورة النصر.

وباختصار فالقرآن لم يترك حادثة مرت بالمسلمين منذ بعثة الرسول وحتى وفاته إلا ذكرها، فكيف لم يتحدث القرآن عما سمي بغزوة خيبر ولو حتى بإشارة عارضة؟

وهي تلك المعركة التي تقول كتب التراث أنه حدث فيها سبي للنساء وقد حظي الرسول بأجملهن التي أسموها صفية بنت حيي ابن أخطب اليهودي. بل إن ما قيل عن غزوة خيبر يعتبر أسوأ صورة سيئة قدمتها كتب السير للرسول عليه الصلاة والسلام، بجانب ما قيل عما حدث لبني قريظة. وكلا الخبرين اختص برواية تفاصيلهما ابن إسحاق، وكلاهما لم يرد لهما ذكر ولا إشارة في القرآن، لأنهما لم يحدث على أرض الواقع.

والأسطر التالية مقتبسة من كتاب سنة الأولين بتصرف وبعض التعديل تناقش مزاعم ما



قيل عن موقعة خيبر. وسنبدأ بمن قيل إنهم قتلوا من المسلمين يوم خيبر. وسنجد أن تلك الأسماء في المجمل وجودها مشكوك فيه أو أنها قتلت بأسباب أخرى وليس في قتال يهود خيبر، وجلها أسماء ليس لها تراجم ولا يتحدث عنها إلا ابن اسحاق.

يقول ابن هشام (الناقل عن ابن إسحاق) أن ممن استشهد من بني أسد ابن عبد العزى: عبدالله الهبيب، ويقال: ابن الهبيب، فيما قال ابن هشام ، ابن أهيب بن سحيم بن غيره، من بني سعد ابن ليث، حليف لبني أسد، وابن أختهم.

وليس لعبد الله الهبيب أو ابن أهيب بن سحيم أي ذكر في كتب الرجال مثل الإصابة في تمييز الصحابة أو الاستيعاب في معرفة الأصحاب أو تهذيب الكمال، إلا ما ذكره عنه ابن إسحاق أنه قتل في خيبر. بينما عده ابن سعد في طبقاته ممن قتل في أحد. أي أنه لم يقتل في خيبر إن كان له وجود.

ويقول ابن إسحاق أن ممن استشهد من الأنصار ثم من بني سلمة : بشر بن البراء بن معرور ، مات من الشاة التي سم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفضيل بن النعمان. رجلان. انتهى

وسوف نسلم جدلاً أن بشر قد مات من السم كما يزعم ابن هشام، وهذا يعني أنه لم يقتل في قتال لفتح خيبر.

أما فضيل بن النعمان، فهذا ما قيل عنه في الاستيعاب في معرفة الأصحاب: الفضيل بن النعمان الأنصاري، من بني سلمة، قتل بخيبر شهيداً فيما ذكر ابن إسحاق، قال محمد بن سعد: هكذا وجدناه في غزوة خيبر، وطلبناه في نسب بني سلمة، فلم نجده، قال، قال: ولا أحسبه إلا وهماً في الكتاب، وإنما أراد الطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان والله أعلم.

ونفس الصيغة وردت في الإصابة في تمييز الصحابة. وهذا يعني أنه لا وجود لرجل بذلك الاسم ينسب لبني سلمة، وبالتالي فوجوده كشخص، مجرد وهم.

وحتى الطفيل بن النعمان بن خنساء لا وجود له، وهذا ما قيل عنه في الإصابة: بن خنساء بن سنان بن عم الماضي ذكروه كلهم فيمن شهد بدرا وذكره عروة فيمن شهد العقبة وقال بن إسحاق وموسى بن عقبة استشهد الطفيل بن النعمان بالخندق.

ويواصل ابن هشام قائلاً: من زريق: مسعود بن سعد بن قيس بن خلده بن عامر بن زريق.



وهذا ما أورده ابن حجر العسقلاني عنه في الإصابة: مسعود بن سعد بن قيس بن خلدة بن عامر بن زريق الأنصاري الزرقي ذكره موسى بن عقبة عن بن شهاب فيمن شهد بدرا وكذا بن إسحاق وقال أبو نعيم قال بن عمارة استشهد بخيبر وخالفه الواقدي فقال قتل يوم بئر معونة وأخرجه البغوي مختصرا وكرره أبو عمر فذكره مطولا ومختصرا. (أي أنه لم يقتل في خيبر).

ويقول ابن هشام أن ممن استشهد من الأوس ثم من بني عبد الأشهل: محمود بن مسلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث، حليف لهم من بني حارثة. أدلى عليه مرحب رحى، فأصابت رأسه فهشمت البيضة رأسه، وسقطت جلدة جبينه على وجهه. ويكون موته نتيجة سقوط الرحى عليه وليس نتيجة لمواجهة قتالية.

ويقول ابن هشام أن ممن استشهد من بني عمرو بن عوف: أبو ضياح بن ثابت بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف؛ والحارث بن حاطب؛ وعروة بن مرة بن سراقة؛ وأوس بن القائد؛ وأنيف بن حبيب؛ وثابت بن أثلة؛ وطلحة.

والاسم الأول ليس له وجود لأنه اختلف فيمن يكون، ومن ذلك ما قاله ابن الأثير الجوزي صاحب كتاب أسد الغابة في ترجمته، بعدما ذكر الاختلافات: قلت: قد أخرج أبو موسى عن ابن شاهين في هذه الترجمة نسب ثابت بن النعمان كما ذكرناه فقال: ثابت بن النعمان بن زيد بن عامر بن سواد بن ظفر، قال: ويقال: ثابت بن النعمان بن الحارث بن عبد رزاح بن ظفر، وقال: ويقال: ثابت بن النعمان بن أمية بن امرىء القيس بن ثعلبة ابن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، كنيته: أبو الضياح، فقد ظن أبو موسى وابن شاهين أن هذه الأنساب الثلاثة لرجل واحد، فلهذا جمعاها في ترجمة واحدة؛ أما النسبان الأولان فلهما فيهما بعض العذر، إذ هما من بطن واحدة وهو ظفر، وعلى الحقيقة فلا عذر؛ فإن أحدهما من بني سواد بن ظفر والآخر من بني عبد رزاح بن ظفر، وأما النسب الثالث الذي هو من بني ثعلبة ابن عمرو بن عوف فلا عذر لهما؛ فإن ظفراً وثعلبة لا يجتمعان إلاّ في مالك بن الأوس، فكيف يشتبه أن يكون هو هو، هذا بعيد وقوعه، وأما النسبان اللذان إلى ظفر فقد فرّق أبو عمر بينهما كما ذكرناه عنه، وجعلهما اثنين؛ الأول: ثابت بن النعمان بن الحارث بن عبد رزاح بن ظفر، والثاني: ثابت بن النعمان بن زيد بن عامر ابن سواد بن ظفر، والحق معه؛ فإنه ليس



بينهما ما يوجب أن يكونا واحداً إلاّ اجتماعهما في ظفر، وكل البطون يكون منها جماعة من الصحابة، فعلى هذا يجعل الجميع واحداً؛ لاجتماعهم في بطن واحد، والله أعلم. انتهى.

فشخصيته ليست مؤكدة مما سهل القول إنه قتل في خيبر.

أما الحارث ابن حاطب فقد ورد عنه في كتاب الإصابة وكتاب أسد الغابة أنه شهد صفين مع علي. والواقدي فقط هو من قال أنه قتل في خيبر، ونص ما قال: « رماه رجل من فوق الحصن فدمغه». وحتى لو سلمنا بهذا الخبر الواقدي، فالرجل لم يقتل في معركة وقتال تحت صليل السيوف.

وعروة بن مرة بن سراقة الأنصاري الأوسي لا يعرف عنه إلا أنه قتل بخيبر نقلاً عن ابن هشام، ولا يعرف عنه شيء غير هذا، مما يؤكد أنه شخصية وهمية.

وأوس ابن القائد ليس له وجود، وأنيف بن حبيب من بني عمرو بن عوف ذكره بن إسحاق فيمن استشهد يوم خيبر وعزاه أبو عمر للطبري، وما عدى ذلك فلا يعرف عنه شيء. أي أنه لا وجود له أيضاً.

وثابت بن إثلة الأنصاري الأوسي من بن عمرو بن عوف ذكره بن إسحاق فيمن استشهد بخيبر واستدركه أبو موسى عن عبدان وحرف بن عبد البر أباه. وذكر ابن هشام رجل آخر قال قتل في خيبر وهو طلحة ولم يضع له نسب.

وباستعراضنا لجميع من زعم ابن اسحاق أنهم قتلوا في معركة مع يهود خيبر، نجد أن كلهم فيما عدا اثنين لم يذكرهم أحد غيره، مما يؤكد الشك حول صحة وقوع قتال بين المسلمين ويهود خيبر.

كما تفرد ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق برواية تفاصيل ما حدث في خيبر، بقصص وأخبار مهلهلة وغير محبوكة، ومن ذلك ما كتبه في سيرته تحت عنوان:

مصالحة الرسول أهل خيبر

وهذا نص الخبر: وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ، ففعل.

ويفهم من هذا أن المسلمين لم يشتبكوا مع اليهود في قتال، وأن الرسول قد حقن دمائهم



وسيرهم أي أجلاهم عن خيبر. ولكن الخبر لا ينتهي هنا فابن هشام يواصل قائلاً: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم، وأن يحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل ويفهم من هذا أن الرسول أجلى أهل فدك أيضا.

لكن ابن هشام يواصل قائلاً: وكان فيمن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود، أخو بني حارثة، فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها.

فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم؛ فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدك خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب. انتهى كلام ابن هشام

ويفهم هنا أن الرسول صالح خيبر وفدك ولم يكن هناك جلاء لا لأهل خيبر ولا لأهل فدك، وأنهم بقوا في مساكنهم ومزارعهم على أن يدفعوا نصف المحصول للمسلمين. وهذا بعد أن كانوا قد اتفقوا مع الرسول على الجلاء؟

ويبدوا أن ابن هشام اقتبس كلاماً من هنا وكلاماً من هناك ولم يحسن تنسيقه، فظهر بهذه الصورة المتناقضة ـ التي مرت مرور الكرام على الناس ولم يتوقف عندها أحد.

وابن هشام فيما ينسبه لابن إسحاق اختلق أعظم من موقعة خيبر. فهو من اختلق قصة قتل (٦٠٠ – ٩٠٠) رجل من بني قريظة صبراً وسبي نسائهم واسترقاق أطفالهم، في قصة تصور منتهى الوحشية والهمجية للرسول. وهو هنا يكمل تلك القصة بصورة همجية أخرى سماها موقعة خيبر، لكي يقول إن الرسول قد سبى نساء خيبر أو بعبارة أخرى، أن الرسول كان يلاحق اليهود (المساكين) ويقتل رجالهم ويسبي نسائهم ليتمتع بهن. فاختلق شخصية صفية بنت حيي التي قال إن الرسول كان قد قتل والدها مع قتلى بني قريظة ثم



أتي بها ابن هشام (ابن إسحاق) إلى خيبر ليقول إن الرسول قد قتل زوجها ثم نزا عليها في نفس اليوم. ولم يتوقف رجل واحد ذو عقل، وتساءل: صفية بنت حيي ابن أخطب من بني قريظة، فكيف نجت هي من السبي لما سبى السول نسائهم وقتل رجالهم؟ وكيف أصبحت صفية القرظية من يهود خيبر؟ وكيف تتزوج في وقت كان المسلمين محاصرين خيبر وكانت الأوضاع داخل حصون اليهود ينتشر فيها الخوف والترقب ولم تكن أوضاع زواج (على افتراض مزاعم ابن هشام فيما ينسبه لابن إسحاق)؟ فكيف تزوجت هذه الصفية في ذلك اليوم الذي استسلم فيها يهود خيبر للرسول؟ وكيف يقتل الرسول زوجها وقد استسلموا؟

ليس المهم عند ابن إسحاق وخليفته ابن هشام دقة حبك القصص لكن المهم هو المغزى.

ونعود لتخاريف السيرة ونقول: لو كان هناك قتال واقتحم المسلمون قلاع وحصون يهود خيبر بالقوة لنفذ فيهم ما نفذ في حق بني قريظة (حسب مزاعم ابن هشام وشيخه ابن إسحاق) من قتل الرجال وسبي النساء، فكيف وافق المسلمون على جلائهم؟

ثم كيف عاد المسلمون بعد أن اتفقوا معهم على الجلاء وقبلوا منهم أن يبقوا ويدفعوا للمسلمين الجزية؟

نقول هذا ليس لأنه قد يكون حدث قتال في خيبر أو حتى حملة على خيبر، ولكن فقط لمناقشة نصوص قصص السيرة المختلقة.

ولم يناقش أحد لماذا بادر أهل فدك بعرض نصف محصولهم للرسول، وهو لم يهاجمهم، ولم يكن بينه وبينهم أي عداء؟ ولم يتساءل أحد إن كانت قصة فدك كلها مختلقة لكي يصبح لها تلك الهالة الكبيرة التي يرددها عنها الشيعة اليوم؟ والتي لن نتعرض لها.

ولتأكيد أن جل ما زعمه ابن هشام من أحداث وقعت في غزوة خيبر ما هي إلا أساطير، نورد ونناقش ثلاثة منها، وهي:

أمر الشاة المسمومة

يقول ابن هشام: فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها؛ فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، تناول الذراع، فلاك منها



مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأما بشر فأساغها. وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، فاعترفت؛ فقال: ما حملك على ذلك قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومات بشر من أكلته التي أكل.

ولا يمكن تصور أن يقاتل الرسول اليهود ويقتل رجالهم ويسبي نسائهم ويتبقى منهن واحدة لكي تطبخ للرسول وليمة.

ولو افترضنا أن اللامعقول حصل، فكيف يأمن الرسول امرأة من قوم للتو قتل رجالهم وسبى نساءهم لتقدم له الطعام. وحتى لو افترضنا أن هذه القصة قد حدثت، فإن الرسول وإن سامح المرأة على محاولة قتله، فقد كان يجب أن يقيم عليها حد القصاص لأن سمها قتل بشر، وهذا ما غفل عنه مختلق القصة.

ومثل هذه القصة ما رواه ابن هشام في قوله:

مقتل غلام رفاعة الذي أهداه للرسول

قال ابن إسحاق : فحدثني ثور بن يزيد، عن سالم، مولى عبدالله بن مطيع، عن أبي هريرة، قال: فلما انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادي القرى نزلنا بها أصيلا مع مغرب الشمس، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام له، أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي، ثم الضبيني. قال ابن هشام: جذام، أخو لخم. قال: فوالله إنه ليضع رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه سهم غرب فأصابه فقتله؛ فقلنا: هنيئاً له الجنة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، والذي نفس محمد بيده، إن شملته الآن لتحترق عليه في النار، كان غلها من فيء المسلمين يوم خيبر. أهـ

ويلاحظ أن الرجل قتل بعد انصراف الناس من خيبر ووصولهم لوادي القرى، ولم يكن في جيش المسلمين إلا المسلمين. ويكون السهم الذي قتل الغلام قد جاء من جيش المسلمين. فكيف لم يُعرف القاتل ولم يقتل قصاصاً؟

ثم كيف يحكم عليه الرسول بأنه في جهنم، وكأن أمر عباد الله ومصيرهم في الآخرة، يشاور فيه الرسول أو يكون له فيه رأي، تعالى الله عن ذلك. فالرسول لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما



سيحل به وبأمته يوم القيامة: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ.(الأحقاف:٩)

والخبر الثالث الذي أورده ابن هشام، جاء بهذا النص:

عقوبة كنانة بن الربيع

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من يهود، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك قال: نعم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه. أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام، فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزندٍ في صدره، حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.

انتهى هذا الخبر الذي من الواضح أن من اختلقه عاش في عصر تسلط السلاطين وزبانيتهم على الناس، وإلا فرسول الله لا يستطيع أن يأخذ الناس بالتهمة بدون تثبت، ولا يستطيع أن يعذب الناس ليجبرهم على الاعتراف، ولا يستطيع أن يستولي على أموال الغير ولو كانوا يهوداً، ولو فعل الرسول ذلك فإن ما يفعله شطار المباحث والاستخبارات العرب بالمسلمين سنة نبوية يثابون عليها عند أرحم الراحمين.

وإن كان في هذا الخبر أي حقيقة فهي أن هناك رجل يهودي قتل محمود ابن مسلمة وأن أخيه محمد ابن سلمة قتل اليهودي بثأر أخيه، ويكون الرسول عليه الصلاة والسلام لا ناقة له في القصة ولا جمل. ومحمود يزعم ابن هشام أنه قد أسقط عليه رحى من أحد حصون خيبر، ولكنه يقول بأن من أدلى الرحى يهودي إسمه « مرحب » وليس كما يقول هذا الخبر من أن اسمه كنانة ابن الربيع.

ويكون ما حدث هو أن الرسول لم يحاصر خيبر ولم يقاتل أهلها ولم يسر إليها، ولا إلى فدك، ولم يوقع على أهل البلدتين جزية. ويبدو أن كتاب السيرة تسامعوا أن القرآن يتحدث عن جزية، وبما أنه لم يوقع جزية على قريش في مكة ولا على غيرها في معارك الرسول الفعلية



التي ذكرها القرآن، فما كان منهم إلا اختلقوا موقعة خيبر وقالوا بأنه قد فرضت الجزية على أهلها.

والجزية لم تطبق بحق أحد أبداً في عصر الرسول، لأن سورة براءة نزلت تطلب من الرسول أن يطبقها بحق قبيلة من بني إسرائيل يثرب الذين ظاهروا أعداء المسلمين في حنين على المسلمين، وذلك كجزاء لخيانتهم المسلمين. إلا أن تلك القبيلة بادرت بعرض الجلاء على الرسول بعد وصوله إلى المدينة راجعاً من تبوك، قبل الرسول ولم يكن هناك جزية، كما سبق ومر بنا.

ولو رجعنا إلى كتب الحديث فستجد مالك ابن أنس يورد حديثاً في الموطأ برقم (١٦٢٨) يؤكد فيه أن عمر ابن الخطاب هو من أجلى يهود خيبر ويهود فدك وليس الرسول، وهذا نص الحديث: وَحَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ. قَالَ مَالِكٌ: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَفَحَصَ عَنْ ذٰلِكَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ حَتَّى أَتَاهُ الثَّلْجُ وَاليَقِينُ، أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ. فَأَجْلَى يَهُودَ خَيْبَرَ.
قَالَ مَالِكٌ: وَقَدْ أَجْلَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَهُودَ نَجْرَانَ وَفَدَكَ. فَأَمَّا يَهُودُ خَيْبَرَ فَخَرَجُوا مِنْهَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الثَّمَرِ وَلاَ مِنَ الأَرْضِ شَيْءٌ. وَأَمَّا يَهُودُ فَدَكَ فَكَانَ لَهُمْ نِصْفُ الثَّمَرِ وَنِصْفُ الأَرْضِ. لأَنَّ رَسُولَ الله كَانَ صَالَحَهُمْ عَلَى نِصْفِ الثَّمَرِ وَنِصْفِ الأَرْضِ. فَأَقَامَ لَهُمْ عُمَرُ نِصْفَ الثَّمَرِ وَنِصْفَ الأَرْضِ. قِيمَةً مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ وَإِبِلٍ وَحِبَالٍ وَأَقْتَابٍ. ثُمَّ أَعْطَاهُمُ القِيمَةَ وَأَجْلاَهُمْ مِنْهَا.

مع ملاحظة أن من زعم أن الرسول قال لا يجتمع دينان في جزيرة العرب هو ابن شهاب الزهري، وليس الرسول، لأن الرسول وبكلام ابن شهاب نفسه، لم يجلهم، ومات عليه الصلاة والسلام وفي جزيرة العرب إسلام ويهودية ووثنية ومسيحية، على الأقل، ولم يخرج اليهود من خيبر إلا عمر ابن الخطاب، إن كان قد أخرجهم بالفعل.

ومما يؤيد أن ابن شهاب لم يكن دقيقاً في خبره حول اجتماع دينان في جزيرة العرب، أن يهود نجران الذي يزعم أن عمر أجلاهم بقوا فيها على الأقل إلى أن قامت إسرائيل، إن لم يبقوا فيها إلى اليوم، مثلما بقي يهود اليمن فيها حتى الآن.

ويكون ما نقله ابن هشام من زعمه أو زعم ابن إسحاق أو غيره، عن موقعة خيبر ما هو



إلا أساطير مختلقة لا تتوافق مع الواقع. ولو كان هناك موقعة في خيبر لأخبر بها القرآن ولن نكون بحاجة لتتبع قصص ابن إسحاق وابن هشام وابن شهاب وغيرهم ممن لا يتحرجون في اختلاق القصص ونسبتها للرسول للنيل منه وتصويره بصور شيطانية يأبى الله أن يتصف بها رسوله.

غزوات الرسول

لقد نزلت سورة الأحزاب والنور تأمر المسلمين بمعاقبة كل من شارك في الأحزاب الأولى. فتم فتح مكة، بعد استسلام قريش (الظاهري) للمسلمين وإعلانها قبول دخول مكة تحت حكم دولة المسلمين، مقابل عدم التعرض لأشخاص رجال قريش ومعتقداتهم مقابل عدم قيام قريش بمظاهرة أعداء المسلمين أو الكيد للإسلام وأهله. كما قام الرسول بإرسال سرية لحرب الروم، قبل أن يتوجه على رأس جيش لحربهم، لكنه عاد قبل أن يلتقيهم، لأن القرآن أخبره أن قريشاً قد خانت معاهدة يوم الفتح وأنها ظاهرت الجيش الذي قاتلهم في حنين.

وسورة براءة تؤكد على وجوب الاستمرار بقتال كل من ابتدر المسلمين بالعداء، ومن ذلك قبيلة من قبائل أهل الكتاب في يثرب، ظاهرت أعداء المسلمين الذي شنوا حرباً عليهم في حنين، فجاءت براءة بوجوب معاقبتهم: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

لابد من قتالهم والتضييق عليهم حتى ينصاعوا صاغرين لدفع الجزية للمسلمين عقاباً لهم على مظاهرة أعدائهم عليهم، وهذه العقوبة خاصة بهذه القبيلة[١].

وطالبت السورة أن يقاتل المسلمون المشركين الذين قاتلوهم كافة، لأنهم قاتلوا المسلمين كافة: وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) براءة.

كما أكدت براءة على الاستمرار بمعاقبة القبائل التي شاركت في الحروب ضد المسلمين،

١ فالجزية لم ترد في القرآن مرة أخرى، ولم يأمر القرآن بفرضها كعقوبة على غير هذه القبيلة من أهل الكتاب، وهي عقوبة مالية تؤخذ لمرة واحدة وليست ضريبة تؤخذ كل عام. لكن جيوش المسلمين بعد استيلاء قريش على حكم الدولة، كانت تهاجم البلاد المجاورة وتخير أهلها بين ثلاث: الدخول في الإسلام، أو دفع ضريبة سنوية يقررها الجيش الغازي باسم الجزية، أو القتال.



سواء في الأحزاب الأولى أو الثانية (حنين): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣) براءة.

والكفار الذين يلون المسلمين، هم تلك القبائل بالقرب من المدينة ومكة الذين اشتركوا مع قريش وبقية الأحزاب في محاربة المسلمين. والسورة نزلت في العام الذي توفي فيه الرسول، ولم يكن القتال للتوسع، ولا للسلب والنهب كما تقولت كتب التراث.

والأمر بقتال تلك القبائل هو ما عرف في كتب التراث بغزوات الرسول، والتي لم تبدأ كما تزعم كتب التراث من الأيام الأولى للهجرة ولكنها بدأت بعد نزول هذه الآية، التي تعتبر أول آية قرآنية تأمر بقتال القبائل. ولعل ذلك عائد إلى أن الرسول والمسلمين انشغلوا بعد حملة الأحزاب عن تأديب القبائل بفتح مكة وإرسال الجيوش لتأديب الروم. فنزلت هذه الآية تأمر بتأديب تلك القبائل على مبادرتهم بالاعتداء على المسلمين في الأحزاب الأولى والأحزاب الثانية. ووجوب القضاء على شوكتهم لئلا يعاودوا الاعتداء على المسلمين.

وتكون الغزوات التي شنها المسلمون على القبائل بدأت بعد فتح مكة، وتحديداً بعد نزول سورة براءة، أي في السنة الأخيرة من حياة الرسول، ولم تستمر لأكثر من بضعة أشهر لأن القبائل سارعت لإعلان استسلامها لدولة المسلمين بعد أن عادت قريش للخضوع لدولة المسلمين.

عام الوفود

وهذه التسمية أطلقتها كتب التراث على آخر عام من حياة الرسول والتي توافد فيها على المدينة رؤساء القبائل لتقديم الولاء لدولة المسلمين والدخول تحت حكمها، وهو ما تحدثت عنه آخر سورة نزلت من القرآن، سورة النصر: إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً(٣).

وسورة براءة التي سبقتها بالنزول، تطلب من الرسول أن يذهب إلى عرفات ليتلو على الناس في يوم الحج الأكبر آيات سورة براءة التي تعلن أن الله ورسوله لم يخونا معاهدة الفتح التي وقعت في الحديبية يوم فتح مكة مع قريش: بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١).



وأن قريشاً هم من خانوها وتعاونوا مع أعداء المسلمين: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِّ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) براءة.

وبما أن موقعة حنين حدثت بعد الفتح مباشرة فهي المعركة التي ظاهرت فيها قريش أعداء المسلمين عليهم، وبذلك خانت معاهدة الفتح.

وتعلن سورة براءة على مسمع من الحجاج القادمين من كل أرجاء جزيرة العرب أن قريشاً أعطيت مهلة أربعة أشهر لتعود عما بدر منها وتعلن تمسكها بالمعاهدة، والتي تدخل بموجبها مكة تحت حكم دولة المسلمين، ويبقى رجال قريش على معتقداتهم بشرط عدم التعاون مع أعداء المسلمين أو الكيد لهم: فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِّ وَأَنَّ اللهَّ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِّ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَّ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِّ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣).

وكل قرشي لم يتورط في مظاهرة أعداء المسلمين ولم يكدهم، فلن يتعرض له المسلمون بسوء: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤).

وأن مهلة الأربعة أشهر المعطاة لقريش تنتهي بنهاية الأشهر الحرم: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥).

وبنهايتها سيضيق على قريش وسيحاصرون وكل من يعثر عليه منهم سيقتل.

ولابد أن قريشاً اضطرت أن تعلن تراجعها وإعادة مكة لسيطرة دولة المسلمين، لأن القرآن لا يذكر أن المسلمين قاتلوا قريشاً ولا ضيقوا عليهم ولا حاصروهم. ولما تسامعت هوازن وثقيف وبقية أهل الطائف بما حدث لمكة سارع رؤساء قبائلهم إلى المدينة لتقديم الولاء.

وكتب التراث تقول إنه بعد حنين وصل وفد من أهل الطائف إلى المدينة يطلبون من الرسول رد ما سبى من نسائهم ويعلنون استسلامهم، فقبل منهم الرسول ذلك، ورد لهم ما طلبوا.

ولعل الحقيقة تتمثل في أن أهل الطائف بالفعل حضروا إلى المدينة وأعلنوا ندمهم على ما



بدر منهم واستسلامهم لدولة المسلمين، ولم يحضروا لطلب رد النساء، لأن الرسول لم يسب لهم نساء ولا لغيرهم، لأنه لا يستطيع فعل ذلك، ولم يسجل عليه ولا على أصحابه في حياته أن صدر منهم هذا. ولما تسامعت بذلك القبائل الأخرى التي شارك بعض رجالها في حرب المسلمين مع قريش أو مع أهل الطائف، سارع زعماؤها للحضور إلى المدينة وإعلان الاستسلام، بعد أن علموا أن الرسول لم يعاقب أهل الطائف ولا قريشاً.

ولما تسامعت القبائل والتجمعات السكانية الأخرى في جزيرة العرب بما حدث، سارعت هي الأخرى لإرسال وفودها إلى المدينة لتقديم ولاء الطاعة لدولة المسلمين التي أصبحت قوة ضاربة لا تضاهى في جزيرة العرب.

وفي خلال بضعة أشهر، وقبل وفاة رسول الله، أصبحت جزيرة العرب كلها تحت حكم دولة المسلمين، ولو لم يسلم إلا عدد قليل جداً، يعيشون في المدينة ويشاركهم السكن فيها طوائف مختلفة ممن أعلن إسلامه ولم يسلم، وما بقي من قرى وبلاد جزيرة العرب فاستسلموا ولم يسلموا، بما في ذلك من بقي من كبراء قريش والطائف.

وفاة رسول الله

مما سبق عرفنا الحقائق التالية:

- أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو من قرأ على الناس في عرفات آيات سورة براءة، لأن القرآن يأمره بذلك فهو الرسول وهو المتحدث باسم دين الله، ولا يحق له أن ينيب في جزء من رسالته غيره من البشر: «وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ». وليس كما تتقول كتب التراث من أنه أرسل بها أبا بكر ثم غير رأيه وأرسل بديلاً عنه علي ابن ابي طالب. فهذه الأقاويل لا أساس لها، وكلها أقاويل مذهبية تحاول ترسيخ فضيلة لعلي ابن ابي طالب الرأس المقدس للمعتقد الشيعي على حساب أبي بكر الرمز للمعتقد السني.
- أن مهلة الأربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم، وهو نهاية شهر محرم، كون الأشهر الحرم، هي: شوال، ذو القعدة، ذو الحجة، ومحرم، ولو كان رجب أحد الأشهر الحرم فلن يكون بالإمكان تحديد المهلة بالأربعة أشهر الحرم، لأن رجباً بعيد عن ذي القعدة



وذي الحجة ومحرم، ولابد أن تكون الأشهر الحرم متتابعة. لذا فهي شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم[1].

- أن إعلان براءة الله والرسول من خيانة قريش ستكون يوم الحج الأكبر، وهو يوم تجمع الحجاج في عرفات يوم التاسع من ذي الحجة، ومنه ينطلق الحجاج باتجاه المسجد الحرام لبدء الحج.

ويستحيل أن يكون إعلان خيانة قريش يوم الحج الأكبر هو نفس اليوم الذي تبدأ فيه مهلة قريش. لأن مدة المهلة أربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم، أي أن المهلة تكون طوال الأشهر الحرم الأربعة. والأشهر الحرم تنتهي بعد يوم الحج الأكبر بأقل من أربعة أشهر، على اعتبار أن يوم الحج الأكبر هو يوم التاسع من ذي الحجة، والأشهر الحرم تنتهي بنهاية محرم، أي بعد شهر وعشرين يوماً من يوم الحج الأكبر. وحتى لو افترضنا – جدلاً – أن المقصود بقوله تعالى: «الحج أشهر معلومات» يعني إمكانية الحج في أي يوم خلال الأشهر الحرم، فلن يكون هناك أربعة أشهر حرم بعد إعلان الرسول المهلة يوم للحج الأكبر. ويكون ما حدث هو أن إعلان خيانة قريش على الناس قام به الرسول يوم الحج الأكبر، لكن المهلة المعطاة لقريش للتراجع بدأت ببداية شوال الشهر الأول من الأشهر الحرم، وتنتهي بنهاية الشهر الأخير وهو محرم.

- وتكون سورة براءة نزلت في رمضان أو شعبان، واحتاج الرسول والمسلمون شهراً تقريباً للعودة إلى المدينة ومدة إضافية لوصول الخبر إلى قريش، وتبلغهم أنهم قد أعطوا مهلة الأربعة الأشهر الحرم ليتراجعوا عن نقضهم الميثاق مع المسلمين.
- وسورة براءة فيها آية تشير إلى أن مسير الجيش من المدينة كان في فصل الصيف: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(٨١).

ولو افترضنا أن غياب الرسول عن المدينة ذهاباً لتبوك شهراً والعودة استغرقت شهراً آخر. وأنهم قد عادوا إلى المدينة قبل بدء الأشهر الحرم، يعني في رمضان. فيمكن القول إن الرسول وجيش المسلمين خرجوا من المدينة باتجاه الروم في شهر رجب. وسنحاول

[1] انظر فقرة: الأشهر الحرم/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



التعرف على السنة التي كانت فيها حجة الوداع وفي أي سنة توفي رسول الله، بعيداً عن تقديرات كتب التراث.

ولعل ما حدث هو أن الرسول بعد وصوله إلى المدينة قادماً من تبوك وجلاء القبيلة من أهل الكتاب وضمان قطع ألسنة المنافقين والحد من تصرفاتهم، توجه بنفس الجيش لمكة، وقاموا بأداء الحج لإعلان البراءة من قريش على ملأ الحجاج، فما كان من قريش إلا أن أعلنت الإذعان وتم استعادة مكة، ومنعت قريش من دخول المسجد الحرام ونزع منها شرف خدمة الحجاج والقيام على البيت وأعطيت لمسلمين أتقياء قد يكونوا من قريش. وقد يكونوا من المهاجرين الذين أعيدوا لمكة.

بينما عاد الرسول وبقية من معه من مهاجرين وأنصار إلى المدينة بعد قضاء الحج، وما إن استقر الرسول في المدينة بعد حجة الوداع حتى تقاطرت وفود القبائل تقدم ولاء الطاعة. وقد حدث هذا في الفترة ما بين عودة الرسول والمسلمين الذين معه من الحج، ووفاته صلوات الله عليه. وتلك الحجة هي التي أعلنت فيها براءة الله ورسوله من خيانة قريش وأن قريشاً هم من خانوا الميثاق. وهي حجة الوداع، والحجة الوحيدة للرسول. ويكون عام الوفود عبارة عن بضعة أشهر ولم يدم عاماً كاملاً. ويحتمل أن قبائل أخرى لم يسبق لها محاربة المسلمين، قد تسامعت بوفود القبائل فحذوت حذوهم، وأرسلت وفودها للرسول لتقديم الطاعة. وقد نزلت سورة النصر بعدما أصبحت جزيرة العرب بكامل ترابها تخضع لدولة المسلمين في المدينة. ولم يطل بالرسول البقاء على قيد الحياة بعد نزول سورة النصر، وانتقل للدار الآخرة بعدها بقليل.

متى توفي رسول الله

لا عبرة أبداً بما تقول كتب التراث، كما نقول باستمرار. لذا فالقول إنه عليه الصلاة والسلام توفي في شهر ربيع من العام الحادي عشر للهجرة لا يمكن التسليم به. وتحديد العام الذي توفي فيه الرسول عليه الصلاة والسلام غامض، وقد يكون قد توفي بتاريخ يختلف عما يشاع بسنوات وليس بأشهر أو أيام.

ومما نعرفه مما مر بنا من القرآن أنه توفي بعد نزول سورة النصر بفترة قصيرة، لأنه لو عاش عليه الصلاة والسلام فترة طويلة فلابد أن تنزل سورة أو سور لتتفاعل مع الأحداث التي



تقع في تلك الفترة. وسورة النصر نزلت بعد اكتمال وصول وفود القبائل إلى المدينة، ووفود القبائل بدأت تتقاطر على المدينة بعد عودة الرسول من الحج. وقلنا بأن تتابع الوفود استغرق بضعة أشهر، بعد تلك الحجة التي حجها الرسول وقرأ على الحجاج في عرفات آيات براءة الله ورسوله عن خيانة قريش، وهي الحجة التي سمتها كتب التراث حجة الوداع.

وحجة الوداع جاءت بعد أشهر من نزول سورة براءة في تبوك، والتي أدت إلى عودة الرسول وجيش المسلمين إلى المدينة، لكي يتمكن الرسول من الحج في ذلك العام وإعلان خيانة قريش على الملأ. وفي نفس الوقت يصل خبر سورة براءة لقريش لتعلم أنها قد أعطيت مهلة أربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم. وهو ما يعني أن بلوغ الخبر لقريش حدث قبل بدء سريان المهلة، أي قبل بدء الأشهر الحرم، أي أن وصول الرسول وجيش المسلمين للمدينة كان في شهر شوال أو رمضان. والمسافة بين تبوك والمدينة تقدر بحوالي (٧٥٠) كيلومتر، ولو قدرنا أن جيش المسلمين كان يقطع حوالي (٢٥) كيلومتر في اليوم، فقد استغرقت رحلة العودة إلى المدينة حوالي شهراً. وتكون مغادرتهم المدينة عندما توجهوا لتبوك قبل شهرين من عودتهم، على اعتبار أن وصولهم لتبوك من المدينة استغرق شهراً أيضاً. فإن كانوا عادوا إلى المدينة في رمضان فقد غادروها في رجب، وإن كانوا عادوا في شوال فقد غادروها في شعبان.

ولو تعرفنا على السنة التي خرج فيها الرسول لحرب الروم فسنعرف متى توفي عليه الصلاة والسلام؟ ولمعرفة ذلك علينا أن نعرف متى جاء شهر رجب وشهر شعبان في الحر، لأن سورة براءة تؤكد أن الحملة خرجت من المدينة في الحر.

وفصل الحر في المدينة وما جاورها يمتد من الشهر الشمسي الخامس إلى الشهر نهاية الشهر العاشر، حيث تصل الحرارة إلى ما فوق الأربعين درجة مئوية، فيما تكون درجة الحرارة خلال الأشهر الثاني عشر والشهر الأول والثاني في العشرينات، وفي الثلاثينات في الشهرين الثالث والرابع والحادي عشر[1].

ولو استخدمنا برامج تحويل التاريخ من هجري إلى ميلادي وبالعكس فسنجد أن رجباً يبدأ المجيء في فصل الحر من السنة السادسة للهجرة، وشعبان يبدأ في فصل الحر من السنة

---

١ حسب إحصائيات الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة السعودية.



الثامنة. ويكون خروج الرسول لتبوك حدث في رجب من العام السادس أو السابع أو الثامن أو التاسع الهجري، وعاد في رمضان. أو أن الرسول والمسلمين خرجوا إلى تبوك في شهر شعبان من السنة الثامنة أو التاسعة أو العاشرة وعادوا في شوال، وفي نفس العام كانت حجة الوداع.

والأقرب أن تكون عودة الرسول والمسلمين من تبوك قد حدثت قبل بدء الأشهر الحرم بوقت يسمح بوصول خبر المهلة لقريش قبل أن تبدأ، ليقال لهم متى تبدأ ومتى تنتهي. أما وصولهم في شوال وقد بدأ سريان المهلة فستبلغ قريشاً أنها أعطيت مهلة أربعة أشهر بدأت قبل تبليغهم ببدايتها.

وقد حج الرسول عليه الصلاة والسلام في نفس العام حجة الوداع وأعلن براءة الله ورسوله من خيانة قريش.

لكن في أي عام كان ذلك؟

لابد من العودة للسور المدنية ومراحلها ومحاولة تقدير معدل للفترة التي تفصل بين نزول سورة وأخرى في كل مرحلة على حدة، حسب الظروف والأحداث، للتعرف على العام الذي نزلت فيه سورة براءة.

المرحلة الأولى / مرحلة الاستيطان والاستقرار

نزل فيها أربع سور – كما سبق وذكر – وهي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، والجمعة.

فيما سبق قدرنا أن الرسول بعد وصوله المدينة بأسبوع أو حتى شهر نزلت عليه سورة الممتحنة التي تتحدث عن وصول نساء من مكة مهاجرات إلى المدينة. وخلال هذه الفترة تسامعت الأعراب حول يثرب بوصوله فتقاطرت جموع منهم للقائه أملاً في العطايا، وهو ما تخبرنا به سورة الحجرات وسورة المجادلة. وهما سورتان تتحدثان عن نفس المواضيع وهو ما يعني أنهما نزلتا تباعاً، وبفاصل أسبوعين بينهما على الأكثر. ولا يمكن أن يستمر بقاء الأعراب في المدينة أكثر من أسبوعين. وبعد أسبوعين آخرين نزلت سورة الجمعة، ليكون قد مر على هجرة الرسول قرابة ثلاثة أشهر، عند نزول آخر سور المرحلة المدنية الأولى.



المرحلة الثانية/ مرحلة التشريع

ونزل فيها ست سور إضافة للسورة التي ألحقت بآخر سورة المزمل، والسور هي: البقرة، النساء، المائدة، السورة الملحقة بالمزمل، الماعون، محمد، والصف.

وسنقدر أن هناك فترة فاصلة بين نزول سورة الجمعة وسورة البقرة، طولها شهر.

وثلاثة أشهر بين نزول البقرة ونزول النساء، ومثلها فترة بين نزول النساء والمائدة.

وبعد ثلاثة أشهر نزلت السورة التي ألحقت بآخر سورة المزمل[1].

وبعد شهر آخر نزلت سورة الماعون، وبعدها بشهر نزلت سورة محمد، ثم سورة الصف بعد شهر آخر. ليستغرق نزول سور المرحلة (١٣) شهراً. ولو أضفنا لها (٣) أشهر التي نزلت فيها سور المرحلة الأولى للدعوة في المدينة، فيكون قد مر على هجرة الرسول (١٦) شهراً بنهاية المرحلة الثانية.

المرحلة الثالثة/ ما بعد بدر

ونزل فيها أربع سور: الأنفال، الحديد، التغابن، والطلاق.

ولو قدرنا أن معركة بدر التي تحدثت عنها سورة الأنفال قد وقعت بعد ثلاثة أشهر من نزول سورة الصف، فيكون قد مضى على هجرة الرسول قرابة (١٩) شهراً حين وقعت معركة بدر.

ولنقل إن هناك فترة هدوء ونقاهة بعد المعركة استمرت ثلاثة أشهر قبل نزول سور الحديد، والتغابن، والطلاق. وهي سور تخاطب المسلمين وتدعوهم للاستعداد للحرب، ولو قدرنا أن بين سورة وأخرى شهرين، فإن سور المرحلة الثالثة قد تكامل نزولها خلال فترة تقدر بحوالي (٧) أشهر. ويكون قد مضى قرابة (٢٦) شهراً على هجرة الرسول بنهاية المرحلة الثالثة.

المرحلة الرابعة/ ما بعد أُحُد

ونزلت فيها ثلاث سور: آل عمران، التحريم، والبينة.

ولو قلنا إن الفترة بين سورة الطلاق وآل عمران التي تتحدث عن معركة أحد هي ثلاثة

[1] وهذه الفترات الفاصلة بين نزول سورة وأخرى مبالغ فيها جداً، لكي نقول إنه مهما بالغنا في تقدير الفترات الفاصلة بين السور فلن يصل بقاء الرسول في المدينة إلى عشر سنوات كما تقول كتب التراث.



أشهر فسيكون قد مر عشرة أشهر بعد معركة بدر، حين وقعت معركة أُحُد. كما مر (٢٩) شهراً بين الهجرة ومعركة أُحُد.

ثم نزلت سورة التحريم بعد ثلاثة أشهر، وسورة البينة بعد ثلاثة أشهر من التحريم. فيكون قد مر على هجرة الرسول بنهاية هذه المرحلة (٣٦) شهراً.

المرحلة الخامسة/ ما بعد الأحزاب

ونزل فيها ثلاث سور، هي: الأحزاب، النور، والمنافقون.

وقد يكون مر بضعة أشهر ما بين نزول سورة البينة من المرحلة السابقة وبين نزول سورة الأحزاب التي تروي أخبار حملة الأحزاب، تم خلال هذه الفترة تواصل قريش بالروم لإقناعهم بمعاونتهم للقضاء على المسلمين، ومحاولة المسلمين ثني الروم عن ذلك.

ولتكن الفترة بين نزول سورة البينة ونزول سورة الأحزاب ستة أشهر تضاف على الـ(٣٦) شهراً السابقة، ليكون قد مر (٤٢) شهراً على هجرة الرسول عندما وقعت الأحزاب.

ثم نزلت سورة النور التي تواصل الحديث عما تحدثت عنه سورة الأحزاب، مما يعني أنه لم يكن بينهما مدة طويلة، ولتكن شهراً واحداً. وتلتها سورة المنافقين التي تكمل ما تتحدث عنه السورتان قبلها وبفترة مقاربة، أي بعد شهر من نزول سورة النور.

فيكون قد مر (٤٤) شهراً على هجرة الرسول بنهاية هذه الفترة.

المرحلة السادسة/ فتح مكة

ونزل فيها سورتان: الفتح، والروم.

ولنقل إنه مر فترة للتأهب والاستعداد تقدر بستة أشهر بين نزول سورة المنافقين وبين سورة الفتح. وبما أنه بين الأحزاب ونزول سورة المنافقون شهران فإن الفتح قد وقع بعد الأحزاب بثمانية أشهر، أو (٥٠) شهراً من الهجرة.

وبعد الفتح بثلاثة أشهر نزلت سورة الروم التي تتحدث عن السرية التي بعثها الرسول للروم وقاتلتهم في مؤتة. ولما عاد من مكة وعاد جيش مؤتة نزلت سورة الروم، أي بعد حوالي ثلاثة أشهر من نزول سورة الفتح التي نزلت في مكة بعد دخول المسلمين إليها.

وبنهاية هذه المرحلة يكون قد مر على هجرة الرسول (٥٣) شهراً.



المرحلة السابعة/ قلاقل ما بعد الفتح

ونزل فيها سورتان: براءة والتحريم.

وسنقدر أن جيش تبوك قد خرج من المدينة بعد عودة السرية المرسلة لمؤتة والتي تحدثت عنها سورة الروم، بشهر لأن الرسول حاول الرد على هزيمة المسلمين في مؤتة بسرعة، وكان خروج الجيش في شهر رجب. ولم يمر على هجرة الرسول سوى (٥٤) شهراً أي أربع سنوات وستة أشهر منذ اللحظة التي وطئت فيها قدما رسول الله أرض يثرب. وعاد في رمضان إلى المدينة وفي نفس العام حج وأعلن براءة الله ورسوله من خيانة قريش بعد مضي (٥٩) شهراً على هجرته.

وكانت سورة الحشر قد نزلت في الفترة ما بين عودة الرسول من تبوك وحجته.

وبعد بضعة أشهر من حجة الرسول نزلت سورة النصر، ونقدر أن الفترة بينهما ثلاثة أشهر. كما نقدر أن الرسول توفي بعد نزول سورة النصر بثلاثة أشهر، أي ستة أشهر بعد الحج.

فتكون وفاته عليه الصلاة والسلام بعد مضي (٦٥) شهراً على الهجرة.

وإن كانت التقديرات قريبة من الصحة فإن الرسول قد توفي بداية السنة السادسة للهجرة وليس الحادية عشر كما تقول كتب التراث، وبينهما فرق هائل يقدر بخمس سنوات، لا يستطيع كثير من الناس تصديق حدوثه. لكن كل من هو على إطلاع تام بها في كتب التراث سيعلم أن مثل هذه الفروق تمتلئ بها كتب التراث وليست مستغربة، لأنها كلها تقديرات لا تقوم على أسس وليس لها مصدر.

ومن ذلك أن الطبري في تاريخه ينقل عدة تواريخ لوفاة أبي التاريخ الهجري عمر ابن الخطاب، حيث يقول: قيل توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقيل لأربع ليال بقين من ذي الحجة. وقيل إن وفاته كانت في غرة محرم سنة أربع وعشرين، وهناك من قال بأن عمر طعن لسبع بقين من ذي الحجة وقال غيرهم لست. وكما اختلف في يوم طعنه ووفاته، اختلف في مدة خلافته. فهل كانت عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة، أم عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، أم غير ذلك.

وكل كتب السير والتاريخ والرجال تعطي عدة تواريخ لولادة أو وفاة أحد الأعلام، ويكون بين كل تاريخ وآخر فارق زمني بالسنوات. ومن ذلك ما تم إيراده عن زيد ابن



خالد الجهني الذي اختلف بكنيته وتاريخ وفاته مع أنه من كبار الصحابة وكان قد تولى لواء جهينة يوم الفتح (كما تقول كتب التراث) فقيل كان يكنى أبا عبد الرحمن، وقيل أبا طلحة، وقيل أبا زرعة. وقيل توفي في مصر سنة (٦٨) وهو ابن خمس وثمانين (يعني ولد قبل بعثة الرسول بأربع سنوات حسب تقديرات كتب التراث)، وقيل سنة (٥٠) وهو ابن ثمان وسبعين (يعني ولد قبل بعثة الرسول بخمسة عشر عاماً). وقيل توفي بالكوفة في آخر خلافة معاوية (يعني حوالي عام ٦٠). وقيل توفي سنة (٧٨) وهو ابن خمس وثمانين (يعني ولد قبل الهجرة بسبع سنوات)، وقيل سنة (٧٢) وهو ابن ثمانين.

يعني أن هناك فارقاً زمنياً يقدر باثنتين وعشرين سنة حول تاريخ ميلاده، وفارق زمني يقدر بثمان وعشرين سنة حول تاريخ وفاته. ولا يعرف هل توفي في مصر أو في الكوفة أو في مكان آخر، ولا ما هي كنيته على وجه التحديد.

وهذا نص ما نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء عن واحد من أشهر رجال كتب التراث: «قال أبو عمر الضرير: مات مجاهد سنة مائة. قلت: هذا قول شاذٌّ، فإنَّ مجاهداً رأى عُمَر بن عبد العزيز يموت. وقال أبو نُعيم: مات مجاهد وهو ساجد سنة ثنتين ومائة. وكذا أرَّخَهُ الهيثم بن عديّ، والمدائنيُّ، وجماعة. وقال حمَّاد الخياط، وأبو عبيد، وجماعة: مات سنة ثلاث ومائة. وقال ابن المدِينيّ وغيرُه: سنة أربع ومائة، وجاء عن ابنِ المدينيّ: سنةَ ثمان ومائة. رواه عنه ابنُه عبدُ الله. وعنه سنةَ سبع ومائة.

وكما نرى هناك فوارق في تاريخ موت مجاهد وصلت لثمان سنوات، مع أنه مات بعد انتشار الكتابة والتدوين، فلا نستغرب من فارق خمس سنوات لفترة الدعوة في المدينة المجهولة لهم. خاصة أن عصر الرسول كان عصراً لا يهتم الناس فيه بتدوين تواريخهم ولا متى حدثت وقائعهم. وإنما يؤرخون بالواقعة، وإذا ما وقعت حادثة أخرى أرخوا بها ونسوا متى وقت الحادثة الأولى ... وهكذا. وهو ما بقيت الحال عليه في كثير من أجزاء جزيرة العرب إلى سبعينيات وثمانينيات القرن الرابع عشر الهجري. فلا غرابة أن يكون الرسول قد توفي في السنة السادسة للهجرة أو السابعة على أكثر تقدير، ويكون أبو بكر قد بقي خليفة أكثر مما قيل عنه. وكتب التراث تقول إن أبا بكر استعاد كامل تراب جزيرة العرب لسيادة دولة المسلمين في عام واحد تقريباً وبدأ حرب فارس وتوغل في بلادهم خلال عام آخر،



هي مدة خلافته حسب تقديرات كتب التراث. وهي فترة قصيرة جداً وشبه مستحيلة. لكن لو أن أبا بكر امتدت خلافته لسنتين أخريين أو ثلاث فستكون الفترة معقولة. وقد تكون خلافة عمر أيضاً أطول بعام أو عامين عما قدرته كتب التراث، وكذلك خلافة عثمان.

وقد يقول قائل إن هناك فارقاً بين تاريخ وفاة شخص مهما كان مشهوراً وبين تواريخ سيرة الرسول وما حدث فيها من أحداث. فنقول من حيث الأهمية نعم هناك فروق ولا وجه للمقارنة، لكننا نتحدث عن تدوين تلك الأحداث في عصور لاحقة وبعيدة ولم تعتمد على مصادر موثوقة ولكنها خضعت لتقديرات من كتبها. لذا لم يكن مستغرباً أن نجد أن كل ما نسب لعصر الرسول في كتب التراث يختلف عما قاله القرآن عنها، ونجد أن كتب التراث اختلقت أحداثاً نسبت لعصر الرسول لم تحدث، ولعل من أهمها ما سمي بغزوة بني قريظة وقتل مئات منهم صبراً بعد أسرهم، وسبي نسائهم. فمن يختلق مثل هذه القصة ويجد من يسجلها كحادثة تاريخية مع عدم حدوثها، يجعل من تمديد العصر المدني من ست وسبع سنوات لأحدى عشر سنة أسهل وأيسر.

وبالتالي فمن يريد التأكد من إمكانية أن يكون العصر المدني كما قلنا أو قريباً منه، فعليه أن يعود لمراحل الدعوة ويضع بنفسه فواصل زمنية تتناسب مع الظروف السائدة بين سورة وأخرى كما يقدرها هو، وسيجد أنه لن يبتعد كثيراً عن التقديرات هنا.

عمره عليه الصلاة والسلام

جاء في كتب التراث أن الرسول عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل، وبُعث وعمره أربعون سنة، وهاجر بعد (١٣) سنة، وتوفي بعد عشر سنوات. وكل هذه الأقوال لا يمكن اعتبارها حقائق لأن ميلاد الرسول وبعثته وهجرته ووفاته كانت في زمن الأمية عندما كانت قريش لا توثق أحداثها، ومن قال بهذه التواريخ أناس عاشوا بعد عصر الرسول بمئات السنين.

والمؤكد أنه لا يمكن أن يكون الرسول قد بعث وهو في الأربعين من عمره، لأن ابن الأربعين يكون في منتصف العمر وقد تشبع بالموروث وهدأت فيه روح الثورة والمغامرة، ولا يتقبل التغيير. أما الثوار والمصلحون فيبدأون نشاطهم بسن الشباب والعنفوان كما هي حال الرسل. بل إن ابن الأربعين في تلك العصور يعتبر متقدماً في العمر وأقرب للشيخوخة



والهرم من الشباب والحيوية. والقرآن يظهر لنا أن إبراهيم عليه السلام كان فتى عندما ثار على معتقدات قومه وكسر أصنامهم: قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ(٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(٦٠) الأنبياء.

والفتى هو الشاب اليافع في مقتبل العمر.

ومثله موسى عليه السلام الذي هرب من مصر بعدما قتل الذي من عدوه وكان مراهقاً، ثم بقي يعمل كأجير عند الشيخ الذي وجد بنتيه عند بئر مدين لمدة ثمان أو عشر حجج، ليبعث بعد ذلك لفرعون وعمره في منتصف العشرينات.

لكن المفسرين الذين حولوا العروة الوثقى التي وردت في سورة البقرة، إلى حلقة معدنية، وحولوا الصراط – الطريق المستقيم – إلى ممر فوق جهنم يجب على كل من يريد دخول الجنة أن يعبره. وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف، وكأننا في لعبة تحد هزلية كالتي تعرضها القنوات التليفزيونية. أولئك المفسرون لن يصعب عليهم تقدير أن عمر الرسول عندما بعث كان أربعين سنة لأن هناك آية قرأوها تقول: « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ... (١٥) الأحقاف».

وقالوا ولد عام الفيل لأنهم قرأوا إن القرآن يتحدث عن حملة أصحاب الفيل. ولو افترضنا أن رسول الله قد تزوج خديجة وهو في الخامسة والعشرين فلابد أن زواجه بها كان قبل البعثة بعامين أو ثلاثة لا أكثر، كما سبق وذكرنا عند الحديث عن ابن الرسول بالتبني. ويكون قد بعث عليه الصلاة والسلام وعمره أقل من الثلاثين.

وبقي في مكة قرابة الثماني سنوات يدعو قبل الهجرة، وفي المدينة لم يطل به المقام أكثر من ست سنوات، حسبما تقدم. ويكون عمره في بداية أو منتصف الأربعينات عندما توفي.

عليه الصلاة والسلام.

أمر دولة المسلمين بعد الرسول

قريش استسلمت صاغرة لدولة المسلمين مرة عند الفتح، لأنها كانت أضعف من أن تقاتلهم. وحاولت أن تظاهر أهل الطائف ومعهم بعض القبائل وجيش فارسي لسحق المسلمين لكنها فشلت وانتصر المسلمون في حنين، فاضطرت قريش أن تعود للاستسلام



صاغرة مرة أخرى لئلا تتعرض للمطاردة والحصار. واستسلامها لم يخفف من عدائها، بل زاده تأججاً، واستمرت تحيك المؤامرات في الخفاء.

وبمجرد وفاة رسول الله سعت قريش بقيادة أبي سفيان والعباس ومن بقي من بني عبد مناف خصوصاً إلى محاولة تأجيج الفتنة بين المسلمين فيما عرف بسقيفة بني ساعدة والتي لا نملك عنها تفاصيل إلا ما قالت كتب التراث، وهو مجرد تخيل لما حدث قيل بعد قرون من حدوثه. لكنه يظهر أن رأسي الفتنة القرشيين – أبا سفيان والعباس – كانا متواجدين في المدينة عند وفاة رسول الله. وهو ما يثير التساؤلات والشبهات حول سبب وجودهما، والذي لا يمكن أن يكون للاطمئنان على صحة رسول الله.

لقد تواردت الأخبار إلى مكة أن رسول الله مريض فهبا مسرعين للتواجد في المدينة في محاولة لتحويل حكم الدولة ليد واحد من مسلمة قريش الموالين. ولو تمكنا ومن معهما من ذلك فسينتقمون من الإسلام والمسلمين باسم حكومة مسلمة. أو بث الفرقة بين المسلمين في محاولة لتنازعهم وذهاب ريحهم وتفكك دولتهم.

وكتب التراث تقول إنهما تحزبا في دار علي ابن أبي طالب معه ومع طلحة والزبير وخالد ابن سعيد ابن العاص، ومعهم رجال من بني عبد مناف. وهؤلاء سعوا لتولية علي ابن أبي طالب، ولم يقبلوا بتولي أبي بكر.

وتفاصيل ما حدث فيما عرف بالسقيفة لا يمكن الركون له، لكنه يظهر أن الأوس بوجه عام والمهاجرين كانوا مع تولي أبي بكر أمر المسلمين بعد الرسول، بينما لم يقبل به غالبية الخزرج ومالوا لتولي سعد ابن عبادة. ومن الأسماء التي ذكرتها كتب التراث كمعارضين من الخزرج لتولي أبي بكر: الحباب بن المنذر والبراء بن عازب وأبي بن كعب.

ولنتذكر مواقف مسلمة يثرب ومسلمة قريش المعادية للإسلام زمن رسول الله، وفي وقت يتنزل القرآن، ولا غرابة لو يصدر منهم أي تصرف أو مكائد للمسلمين علنية بعد وفاة الرسول.

فهل كان مسلمة يثرب يتكونون في غالبيتهم من الخزرج؟

ومسلمة قريش يتكونون في غالبيتهم من بني عبد مناف؟

بينما كان المهاجرون الآخرون يمثلون أتقياء الصحابة مع الأوس وقلة من الخزرج الذين



يمثلون أتقياء الأنصار.

شخصياً أميل لهذا، لأن مسلمة قريش كانوا يتتسبون لقريش ومن خيرتهم، وكانت لهم مواقف عنصرية جداً ضد من أسلم من مستضعفي مكة لأنهم كانوا يرون أنفسهم سادة من سادة ولا يقبلون مساواتهم بأي وجه أو موقف بالموالي والعبيد. لقد حاولوا إقناع الرسول في مكة طرد المستضعفين: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

واقتتلوا معهم في بداية الهجرة، وبنوا مسجدا لكي يصلوا فيه وحدهم ولا يختلطوا بالمستضعفين، وكان ذلك في أواخر عصر الرسول: وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٠٧) براءة.

ومسلمة يثرب كانوا يمثلون عدداً كبيراً ممن أسلم من أهل يثرب، فهم إما من الأوس أو الخزرج أو منهما. والمواقف بعد وفاة الرسول أظهرت أن أكثرهم من الخزرج، القبيلة الأكثر عدداً. وأن الأوس الذين كانوا يمثلون أتقياء الأنصار، قد اصطفوا مع أبي بكر وبقية أتقياء المهاجرين.

ومع أن أتقياء المهاجرين (المهاجرون من غير بني عبد مناف)، وأتقياء الأنصار (الأوس في الغالب) كانوا عند وفاة الرسول يمثلون القلة بين من أعلن إسلامه، إلا أنهم أبقوا إدارة دولة المسلمين بين أيديهم بتولي أبي بكر، مبعدين عنها قريشاً، ولو إلى حين.

وما يجب التشديد عليه هنا هو أن أبا بكر لم يبايعه الناس بمفهوم إعلان الطاعة له والولاء، أو على المنشط والمكره أو بأي صيغة أخرى للبيعة، لأن مثل هذه البيعة لم تظهر على الساحة إلا بعدما فقد المسلمون الأتقياء إدارة الدولة باستيلاء قريش على حكمها. والقول بأن عمر مد يده وبايع أبا بكر وتوالى الناس بعد ذلك وحذو حذوه، هو من تصورات القصاص في عصور لاحقة. لذا لم يكن هناك بيعة خاصة في السقيفة وبيعة عامة في مجلس أبي بكر اصطف الناس لمصافحته وإعلان البيعة له. ولم يكن هناك ملاحقة لكل من لم يقبل بتولي أبي بكر، كما قالت كتب التراث عن أن علي ابن ابي طالب تمت ملاحقته أو أجبر على البيعة.



لأنه لو كان هناك إجبار للناس على إعلان البيعة لأجبر العباس وأبا سفيان وغيرهم من أهل مكة الذين حضروا إلى المدينة للتأثير على قرارات المسلمين حول من يتولى أمرهم بعد الرسول. لكن لا العباس ولا صديقه أبو سفيان طُلب منهم البيعة، مثلما أنه لم يطلب من علي ابن ابي طالب ولا من سعد بن عبادة ولا من غيرهم.

لكن عدم التعرض لشخصي أبي سفيان والعباس وأشخاص بني عبد مناف (مسلمة قريش) وغيرهم، لم يوقف مكائد هؤلاء ضد المسلمين ودولتهم.

حروب الردة

لقد خسرت قريش ومن والاها من بني عبد مناف جولة أخرى ضد أتقياء المسلمين، بعدم تمكنهم من الإبقاء على إدارة دولة المسلمين بعد وفاة الرسول، وهي خسارة تضاف لخساراتهم المتكررة منذ البعثة، لكن هذا لم يثنهم أبداً عن مواصلة المكائد. فقد وجد المسلمون أنفسهم وقد انتقضت عليهم القبائل والشعوب في كل جزيرة العرب، بعد وقت قصير من وفاة رسول الله. وانتفاض القبائل لابد أن قريشاً سعت له وحثت عليه، موحية لرؤساء القبائل أن وفاة الرسول فرصة للانتفاض والتخلص من التبعية لمستضعفي مكة ويثرب الذين أصبحوا سادة عليهم.

إلا أن المسلمين استطاعوا بصرامة أبي بكر، استرداد السيطرة على أرض جزيرة العرب، بل والاستمرار بمعاقبة من عاون على حرب المسلمين من الفرس والروم، التي بدأت في عصر الرسول، وهو ما عرف تاريخياً بالفتوح.

ولتناول موضوع حروب الردة والفتوح لابد من بيان المنهجية المتبعة لكي يسهل تتبعها وفهمها، وهي كما يلي:

- بحثنا لا يسعى لتبرئة أحد ولا إلصاق التهم، ولكن نحلل ونعلل ونستنتج لعلنا نصل للحقيقة أو أقرب ما يمكن منها.
- سنستند على الأدلة فإن لم توجد فسنعتمد القرائن.
- لابد من العودة للتعرف على الأحداث في عصر الرسول لأن حروب الردة والفتوح امتداد لتلك الأحداث.



- أحداث عصر الرسول سنعتمد في روايتها على القرآن وحده، ولا عبرة لما ورد في كتب السير والحديث والتفسير وغيرها من كتب التراث.
- سنورد بعض الآيات القرآنية التي تظهر ضوابط القتال التي يجب على المسلمين مراعاتها وعدم تجاوزها.
- الخطأ وارد، وليس عائقاً عن البحث، ويمكن العودة عنه متى اكتشف.
- في عصر ما بعد الرسول وتوقف الوحي، سنعتمد على أحداث عصر الرسول ونستنتج امتدادها فإن لم نستطع سنلتفت لما تقول كتب التراث بعين فاحصة وأخذ ما لا يخالف أوامر القرآن ونواهيه، ولا سير الأحداث.
- سنعتبر تصرفات أبي بكر تصرفات شخصية ولا تمثل الإسلام، لكن في نفس الوقت، سنرجح عدم مخالفة تلك التصرفات أوامر القرآن – عمداً – لأننا سننظر لأبي بكر على أنه صاحب رسول الله ورفيق صباه وهجرته، وأنه من أتقياء الصحابة ومن الحريصين على تنفيذ أوامر القرآن، وهو ما أثبتته الوقائع، وما عرفناه مما مر من أحداث.

وللدخول في الموضوع لابد من أن نتعقب حروب المسلمين زمن الرسول وكيف بدأت، وهذا يعيدنا إلى ما كان عليه المسلمون في مكة قبل الهجرة. فالقرآن من بداية الدعوة وهو يدعو للتعايش السلمي في مكة بغض النظر عن المعتقد، ومن ذلك: سورة الكافرون وسور غيرها. والسور التي تدعو قريشاً للإنفاق لبناء مجتمع متكافل اجتماعياً ولو لم يؤمنوا، لكن قريشًا أعلنت الحرب وعداءها للمسلمين ورفضها المطلق لأي تعايش سلمي، وسخرت من الرسول وضايقت المسلمين القلة. ثم بدأت الاعتداء الجسدي على المستضعفين منهم في المرحلة الخامسة. وبما أن الرسول مرتبط بتعاليم وإرشادات القرآن ولا يستطيع أن يتصرف بمرئياته الشخصية فيما يخص أمور الإسلام والمسلمين، فهو لم يدعو المستضعفين للهجرة إلى الحبشة – برغم تعرضهم للأذى – حتى نزل القرآن: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠) الزمر.

وهو لم يستطع أن يقول للمسلمين في مكة أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم ضد قريش المتسلطة ويعاقبوهم بمثل ما عاقبوا به المسلمين في المراحل اللاحقة عندما صعدت قريش



من اعتداءاتها على المسلمين حتى نزل القرآن: وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣) الشورى.

وكما رأينا في سور المرحلة الأخيرة للدعوة في مكة كالعنكبوت والبروج والمسد كيف أن المستضعفين كانوا يتعرضون لأشد أنواع التعذيب والحرق بالنار لإجبارهم على الردة ومع ذلك لم يستطع الرسول أن يطلب منهم أن يفروا خارج مكة، حتى نزل القرآن يبيح لهم ذلك: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ(٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٥٧) العنكبوت.

وعندما هرب المسلمون من مكة لم تكف قريش عن ملاحقتهم، وبدأت تعد العدة لحربهم لأنها مصممة على القضاء عليهم. ففرض القتال على المسلمين فرضاً لكي يدافع المسلمون عن أنفسهم ودينهم وأموالهم. ولم يظهر المسلمون ترحيباً بالقتال ولا رغبة فيه بل كرهوه: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) البقرة.

وقد نزلت خمس سور قبل بدر تحث المسلمين على الاستعداد لقتال المعتدي قريش، وهي: البقرة، النساء، المائدة، محمد، والصف. مما يدل على كراهية المسلمين للقتال ورغبتهم تجنبه.

والآيات تطمئنهم مرة بأن من يموت منهم في القتال سيكون حياً عند الله (بمعنى أنه سيذهب للجنة) وتحثهم على تقبل فقد الأقارب في الحرب: وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧) البقرة.

وفي مكان آخر من السورة تأتي الآيات لتقول: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ



مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ(٢١٤).

وتبين السورة أن القتال ليس لمهاجمة أي أحد ولكنه دفاعي بحت، وهو في هذه الفترة ضد قريش التي تعد العدة للهجوم على المسلمين: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢).

والآيات تؤكد أنه للدفاع: فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم.

وتواصل السورة لتبين للمسلمين أنه إن لم يدافعوا فستتمكن قريش من تحقيق ما خرجت من أجله وهو استئصال الدين (الفتنة) والقضاء على المسلمين: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣).

مع التشديد على أن الحرب للدفاع: «فإن انتهوا فلا عدوان»، فالحرب ليست للهجوم ولا للقضاء على قريش الكافرة هي فقط للدفاع ضد اعتداء قريش القادم.

وتستمر السورة تظهر أن المسلمين كرهوا القتال، ولم يرغبوا فيه: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦).

ثم تأتي سورة النساء ليستمر حث وتشجيع المسلمين المتثاقلين عن الخروج لصد جيش الغزاة (قريش). وتحذر السورة بحزم - مستبقة الأحداث - من قتل أي شخص مسالم، فالكفر وحده ليس سبباً لقتال الناس: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤) النساء.

أرجو ألا نهتم بما يقول المفسرون ههنا فالآية نزلت مع بقية آيات سورة النساء مرة واحدة وفي وقت سبق أول معركة يخوضها المسلمون وهي تفرض على المسلمين أن يتحروا أعلى درجات الحذر فلا يقتلوا كافراً لأنه كافر: «وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً». فالذي ألقى إليكم السلم يعني المسالم (المفسرون حولوها إلى من ألقى عليكم السلام) والآية واضحة : لمن ألقى إليكم وليس عليكم، والسلم من السّلميّة ويعني المسالم.



فالآية تؤكد وتشدد أن القتال موجه للمحاربين الذين يبادرون بالحرب... وهذا الشعار بقي ساري المفعول طوال حياة الرسول وهو عنوان لكل حروب دولة المسلمين.

واستمرت سور النساء والمائدة والصف ومحمد تشجع وتحث المسلمين على القتال الدفاعي وسنكتفي بما ذكر من آيات لئلا نطيل.

ويبقي شعار قتال المحاربين المعتدين فقط دون المسالمين هو شعار القتال في الإسلام حتى توفي رسول الله، فسورة براءة التي توفي رسول الله بعد نزولها بأقل من عام تؤكد على هذا المبدأ: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧).

ومعركة بدر وقعت قرب آبار بدر التي تقع على الطريق التجاري للقوافل الذي يمر بمكة ثم يثرب ثم يواصل للشام. ويبعد مكان المعركة عن مكة أكثر من (٣٠٠) كيلو متر وعن يثرب حوالي (١٢٠) كيلو متر. وهو ما يشير على أن قريشاً هي من خرج من مكة ليثرب بقصد الحرب، ولو كان المسلمون هم من هاجم قريشاً فستكون المعركة أقرب لمكة. (ولا يلتفت لكتب التراث التي صورت المعركة وكأنها لطمع المسلمين بقوافل قريش التجارية وأن قريشاً المسكينة اضطرت للخروج لحماية قافلتها وتورطت بالحرب ضد المسلمين)[1].

لأنه لو كان الأمر يتعلق بالاستيلاء على قافلة تجارية فسيتولى هذا عصابة مكونة من عشرة رجال أو عشرين أو حتى (٥٠)، ولن يذيعوا بالخبر لكي يصل مكة وتخرج قريش لحماية قافلتها. كما أن قريشاً لو خرجت لحماية القافلة فلن تخرج بجيش قوامه مئات الأشخاص وهو ما يعتبر جيشاً عرمرماً بأرقام جزيرة العرب في ذلك الوقت، ولخرج عشرة أو عشرون أو مئة.

لكن المعركة كانت امتداداً لمساعي قريش التي بدأت في مكة للقضاء على المسلمين.

وطوال حياة الرسول التزم المسلمون بضوابط القتال القرآنية ومات الرسول على هذا. لا سبي ولا قتل لمسالم ولا هجوم على كفار لم يبادروا بالعداء والحرب[2].

---

١ ويمكن الرجوع للحديث عن معركة بدر في هذا القسم لمعرفة لماذا وقعت المعركة قرب آبار بدر.

٢ يمكن الاطلاع على ضوابط الجهاد بالعودة لفقرة: الجهاد/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



الحدث يولد أحداثاً

لقد جاءت قريش إلى بدر لتؤدب الرسول وتقضي على المسلمين مصحوبة بمواليها وعبيدها، لكنها تلقت هزيمة نكراء بشكل غير متوقع، وقتل عدد كبير من كبرائها، وانقلبت الموازين. فالمسلمون أصبحوا أعزة لهم اليد الطولى على قريش بينما كسر جبروت قريش وعادت تجر أذيال الخيبة إلى مكة.

وقد حاولت أن تلملم شملها وتضمد جراحها وتأخذ بثأرها من المسلمين في العام التالي، عندما عاودت الهجوم على المدينة مستعينة ببعض القبائل الموالية لها من كنانة وبعض أهل تهامة (حسبما جاء في كتب التراث)، وقد تلقاهم المسلمون تحت سفح جبل أُحُد. وحلت بالمسلمين الهزيمة بسبب تكتيكي، بعدما كانوا قد انتصروا في بداية المعركة وبدأ رجال قريش يفرون[1]. إلا أن قريشاً فقدت عدداً لا يستهان به من رجالها الذين لن تستطيع تعويضهم، بعكس المسلمين الذين قتل منهم عدد لا يزيد عن نصف عدد قتلى المشركين في بدر: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١٦٥) آل عمران.

ومع أن النصر سجل في المعركة لصالح قريش، إلا أن أهل مكة أدركوا أنهم لن يتمكنوا من كسب الحرب مع المسلمين بجهودهم الذاتية أو بمعاونة قبائل تهامة القريبة من مكة. فقرروا أن يطلبوا من الروم معاونتهم وإرسال جيش يقضي على المسلمين. وكتب التراث تذكر أن أبا سفيان ووفداً من قريش قابلوا هرقل. وإن صدق الخبر فوفد قريش جاء لإقناع هرقل بمعاونتهم على سحق المسلمين.

كما أن كتب التراث تذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أرسل لقيصر كتاباً في نفس الوقت الذي كان فيه أبو سفيان ووفد قريش عنده. ولو صدق الخبر، فإن الرسول قد أرسل وفداً وكتاباً لقيصر في محاولة لتطمينه أنه لا يشكل أي خطر على مصالح الروم ولن يقطع إمداداتهم من جنوب جزيرة العرب من التوابل واللبان والبخور والذي قد تكون قريش استخدمته لتكسب تعاطف هرقل وموافقته على معاونتهم. ويبدو أن وفد المسلمين قد عاد بخيبة أمل وبأخبار غير سارة، بل ومخيفة للمسلمين، فقد وافق هرقل على إرسال جيش

[1] انظر الحديث عن معركة أحد في هذا القسم/ أحداث من عصر الرسول.



لحرب المسلمين معاونة لقريش[1].

فكانت حملة الأحزاب والتي اشترك فيها عدد من رجال بعض القبائل حول مكة والمدينة إضافة لقريش في قوات ائتلاف دولية في ذلك العصر مماثلاً لقوات ائتلاف أمريكا ضد العراق. وقد صورت سورة الأحزاب الرهبة والقنوط الذي أصاب المسلمين عندما تأكد لديهم قدوم جيش الائتلاف بقيادة الرومان: إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١) الأحزاب.

لأن امبراطورية الروم بجيوشها النظامية وأسلحتها الفتاكة لا يمكن لبضع مئات من المسلمين بقدرات مالية محدودة جداً وتسليح متواضع، أن ينازلوهم أو يقفوا ضدهم. مما حدا بهم لأن يقوموا بحفر الخندق على طول الجهة الشمالية ليثرب، لكي يكتمل إغلاق يثرب من جميع الجهات، كون الجهات الثلاث الأخرى محاطة بحرات يستحيل على الجيوش أن تجتازها بسبب حجارتها الحادة.

وما يؤكد أن جيش الروم قدم للهجوم على المدينة، هو أن حفر الخندق استغرق شهراً أو يزيد، وتم إنجازه قبل وصول الجيوش الغازية. ولو كانت الجيوش من قبائل غطفان وبني أسد وسليم وكنانة ومعهم قريش لأمكنهم الوصول إلى المدينة خلال أسبوع، وقبل أن ينتهي المسلمون من حفر الخندق. بل ولما لجأ المسلمون لحفر الخندق أصلاً، لأن ما يمكن جمعه من تلك القبائل لن يزيد كثيراً عما جمعته قريش في معركة أحد، وسيكون بإمكان المسلمين مواجهتهم، حتى ولو كان تعدادهم ضعف جيش المسلمين: فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٦٦) الأنفال.

وهذا أحد النقوش التي كتبت في جبل سلع أثناء حفر الخندق:

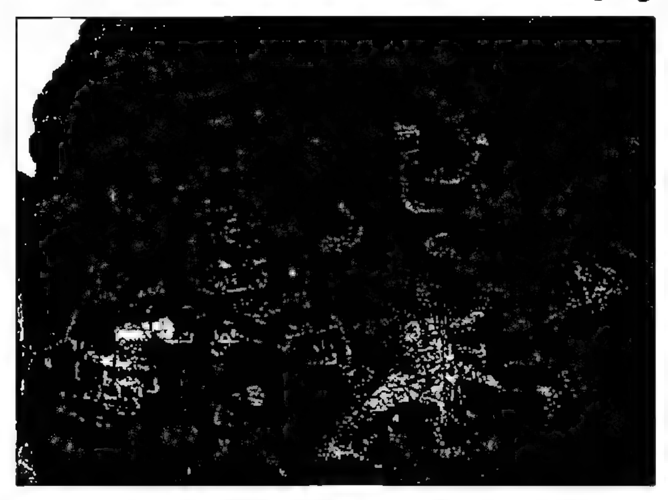
١ انظر ما كتب عن حملة الأحزاب في هذا القسم/ أحداث من عصر الرسول.





والنص المكتوب يظهر قلقاً ووجلاً، ونصه: «أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يتضرعان إلى الله من كل ما يكره»[1].

وهذا نقش آخر:



ويظهر في النقش أسماء بعض الصحابة مثل عمارة بن حزم، وميمون، والرسول محمد بن عبد الله، وابن عوسجة، وسليمان الأحمر، سهل، معقل الجهني وسعد ابن معاذ وعلي ابن أبي طالب[2].

١ المصدر: http://www.islamic-awareness.org/History/Islam/Inscriptions/hamid1.html

٢ المصدر: http://www.islamic-awareness.org/History/Islam/Inscriptions/hamid2.html
وهذه النقوش بكل أسف وأسى لم يعد لها وجود لأن الجبل طالته يد التجريف سواء لعوامل اقتصادية وكسب مادي لتحويله إلى منطقة سكنية أو على أيدي «مطاوعة» تم استغلالهم باسم الدين ليقضوا على شواهد إسلامية هامة لا يمكن أن تقدر بثمن. وهذا واحد من مضار المذهبية الكثيرة على دين الإسلام. ونقدم الشكر الجزيل للعاملين على الموقع المذكور الذين لولا الله ومن ثم جهودهم لضاعت صور هذه النقوش التي لا تقدر بثمن.



وكانت خطة الهجوم على المسلمين تقضي بأن تبدأ قوات الائتلاف بالهجوم على المدينة من جهة الشمال - حيث حفر الخندق - وإذا ما انهزم المسلمون وهربوا باتجاه المدينة، خرج بنو إسرائيل من حصونهم في جنوب يثرب، وهاجموا المسلمين. فيرتبك جيش المسلمين وينهار لوقوعه بين كماشتي قوات الائتلاف من الشمال واليهود من الجنوب، فيقضى عليهم عن بكرة أبيهم «إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

لكن قوات الائتلاف عندما وصلت لمشارف المدينة فوجئت بالخندق يحول بينها وبين الوصول للمسلمين، فعسكرت الجيوش على طول الخندق وبمحاذاته من الجهة الشمالية، في محاولة للبحث عن منفذ للتسلل إلى المدينة. لكن انتظارهم طال إلى أن هبت عليهم ريح صرصر عاتية في إحدى الليالي، بعثرت عدتهم ونفرت خيولهم ومطاياهم، فتفرق شملهم وارتدوا على أعقابهم دون أن ينالوا من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) الأحزاب.

وفي صبيحة اليوم التالي عاد المسلمون إلى المدينة، بعد تأكدهم أن جيش التحالف قد انفرط عقده وهرب جنده لا يلوون على شيء. ومن هنا صار التحول في مسيرة دولة المسلمين وعلاقتها بكل من شارك مع الجيش الغازي.

وكان أول شيء قام به المسلمون هو مهاجمة تلك القبيلة من بني إسرائيل الذين تواطأوا مع جيش الائتلاف، وكانوا سيغدرون بالمسلمين من الخلف: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧) الأحزاب.

كان هناك قتال بينهم وبين المسلمين وقتل المسلمون منهم فريقاً وأسروا فريقاً، لكن لم يكن هناك سبي، ولا قتل أحد من الأسرى.

وكان هناك تهجير وجلاء: «وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا». وهذا يعني بداهة أنهم قايضوا أسراهم وبقاءهم في يثرب بأرضهم، فقبل المسلمون وتم جلاء من بقي حياً منهم بنسائهم وأطفالهم لم يمسسهم سوء. فالقتل والأسر كان للمحاربين، ولم يتم



التعرض للنساء والأطفال، بل وأعيد الأسرى وخرجوا مع قومهم من يثرب.

أما كتب التراث فقد ورد فيها: ((فأنزل الله: يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أماناتكمْ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت المهاجرين بالعقار علينا قال: فإنكم كنتم ذوي عقار، وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم)).

وكما نرى هنا فالسبي وتوزيع العقار الظالم للمهاجرين (قريش) دون الأنصار (أهل يثرب) فيه محاباة لقوم الرسول وظلم لأهل يثرب، لا يمكن أن يصدر من الرسول. لكن من ألصق بالرسول والمسلمين تهم السبي وقتل الأسرى من اليسير عليه اتهام الرسول بالظلم والمحاباة.

وللعلم فالآية التي ذكر المفسرون أنها نزلت بعد الأحزاب لتقول للرسول اقتل بني إسرائيل لم تنزل في ذلك اليوم كما يزعم المفسرون ولكنها نزلت بعد معركة بدر وقبل أحد التي سبقت الأحزاب. أي قبل أن يعلم أحد أنه سيكون حملة أحزاب، والآية في سياق آيات تخاطب المسلمين ولا علاقة لها ببني قريظة أو غيرهم من بني إسرائيل يثرب، ومن ذلك:
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ(٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٥) وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩) الأنفال.

إذاً، المسلمون هاجموا قبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب دون المساس بباقي القبائل الإسرائيلية في يثرب لأنهم لم يظهروا معاداة للمسلمين ولم يظاهروا الأعداء. أما تلك القبيلة



فخانت معاداتها مع المسلمين وغدرت بهم وتعاونت مع أعدائهم...فكان قتالهم مشروعاً، بل واجباً لأنهم أعلنوا العداء وأصبح وجودهم خطراً على المسلمين وبقاء الدين. مثلهم مثل القبائل العربية التي ساهمت بحملة الأحزاب، ومثل قريش التي ثبت يقيناً أنها لن تستكين حتى تقضي على المسلمين فوجب القضاء عليها. إضافة للروم الذين بدأوا حربهم للمسلمين ولم يتعرض لهم المسلمون بسوء.

وبقي القانون القرآني بعدم التعرض للكفار المسالمين، حيث ورد في نفس سورة الأحزاب: وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً(٤٨) الأحزاب. والخطاب موجه للرسول، لا تطعهم لكن لا تؤذهم، أما من بدأ العداء فيجب تأديبه. ومن يسعى للقضاء على الإسلام والمسلمين فيجب القضاء عليه.

فكانت الأحزاب سبباً لتوجه المسلمين لمكة لتأديب قريش وكسر شوكتها للأبد، وهو ما نتج عنه فتح مكة الذي لم يكن ضمن جدول أعمال المسلمين لولا موقعة الأحزاب. فهذه الموقعة هي التي تسببت في فتح مكة، الذي قصد منه إخماد نشاط قريش العدائي للإسلام الذي لن يتوقف بطرق سلمية.

ولو تتبعنا ترتيب سور القرآن حسب النزول لوجدنا أن سورة النور تلت سورة الأحزاب تلاها سورة المنافقون، وكل السور الثلاث تعالج ظاهرة تفشت في المدينة أثناء حفر الخندق بسبب ملاحقة منافقين لنساء المدينة، والذي تحدثنا عنه ضمن الحديث عن هذه السور.

وبعد أن عولجت المشاكل في المدينة نزلت سورة الفتح والتي تتحدث عن فتح مكة، وهو ما يعني أن الفتح تم بعد اندحار الأحزاب وجلاء فريق من بني إسرائيل، والقضاء على ظاهرة الفساد التي تسبب فيها فئة من المنافقين أثناء حفر الخندق.

وسورة الفتح تنقل ما حدث، ومن ذلك مبايعة المسلمين على الصبر والقتال ضد قريش، فقد كان متوقعاً خروج قريش للدفاع عن مكة: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(١٠) الفتح.

والمبايعة باسم الله على القتال لضمان قتال مسلمة قريش الموالين لأقاربهم من مشركي قريش والذين تحدثت عنهم سور كثيرة مررنا بها. والسورة تكمل الحديث عن هذه البيعة، وتبين



مغزاها وهو الصبر على قتال قريش والظفر بغنائم الحرب: لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٩).

ولكن قريشاً أتت صاغرة تعرض على المسلمين إبرام معاهدة تدخل بموجبها مكة تحت حكم دولة المسلمين، مقابل احتفاظ قريش بمعتقداتها وحياتها. وهو ما تبينه الآيات التالية: وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً(٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً(٢٨) الفتح.

وهذه المعاهدة هي التي سمتها كتب التراث صلح الحديبية، وقد أبرمت في الحديبية بظاهر مكة في نفس يوم الفتح، وليس كما تقول كتب التراث إنها وقعت قبل فتح مكة بسنة أو سنتين وأن الرسول والمسلمين عادوا دون فتح مكة كما تزعم كتب التراث.

وتتحدث سورة الفتح أن بعض الأعراب تخلفوا عن الخروج مع الجيش المتوجه لمكة ثم أبدوا أسفهم، وتخاطب السورة الرسول بحقهم قائلة: قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٦) الفتح.



والقوم أولو البأس الشديد (غير المعتاد وفوق العادي) هم الروم.

فالسورة تقول لمن تخلف من الأعراب سيمنحون فرصة لإثبات صدق زعمهم وذلك بالخروج مع جيش للمسلمين الذي سيخرج لمقاتلة الروم. فقد تم إجلاء بني إسرائيل وفتحت مكة ولابد من التوجه لتأديب الروم ليتبقى تأديب القبائل التي اشتركت في حملة الأحزاب.

وكما قلنا في البداية: فالحدث يولد أحداثاً.

إرسال جيش لحرب الروم

وسورة الروم نزلت بعد سورة الفتح، وهي تبدأ بالحديث عن هزيمة جيش المسلمين المرسل لحرب الروم: الم(١) غُلِبَتِ الرُّومُ(٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥) وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٦) الروم.

والمفسرون قلبوا تشكيل الآيات فأخفوا ما تتحدث عنه السورة، ونسبوه لحرب قامت بين فارس الروم لا ناقة فيها للمسلمين ولا جمل. فالأمر سيان لو انتصر الروم (المسيحيون) على الفرس (المجوس) أو العكس.

ولو قرأنا الآيات كما نزلت فعلينا أن نقرأ «غلبت الروم» بفتح الغين. فالروم غلبوا جيش المسلمين، في أدنى الأرض، لأن الحديث عما عرف بمعركة مؤتة.

ونقرأ «وهم من بعد غلبهم سيغلبون» بضم الياء في يغلبون. لأن الروم بالفعل غُلبوا في اليرموك وفي غيرها في بضع سنين من انتصارهم في مؤتة، وتم تطهير بلاد الشام منهم بسبب اعتدائهم غير المبرر في الأحزاب على المسلمين الذين لم يتعرضوا لهم.

ثم نزلت سورة براءة التي تتحدث عن خيانة قريش لمعاهدة يوم الفتح التي أبرمتها مع المسلمين والتي بموجبها دخلت مكة تحت حكم المسلمين دون قتال. وهو ما تشير له الآيات التالية: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.



كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة ((لاحظ أن قانون القتال في الإسلام لم يتغير ولم يتبدل، والذي ينص على قتال المقاتلة فقط وكل من رضي بالسلم فلا يقاتل)).

وتخبر السورة كيف حدثت الخيانة: أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣) براءة.

نكثوا أيمانهم، وهي معاهدة الاستسلام يوم فتح مكة.

فمتى حدث هذا؟

بما أن سورة براءة تتحدث عنه، ولم تتحدث عنه سورة الفتح، فلابد أن المسلمين عندما كانوا في مكة بعد الفتح لم يكتشفوا خيانة قريش ومظاهرتهم لجيش الائتلاف الثاني في حنين.

وسورة براءة نزلت على الرسول عندما وصل تبوك متوجهاً في حملة عسكرية لقتال الروم. فما كان من الرسول إلا أن عاد إلى المدينة من هناك، بعد اكتشاف غدر قريش، ومعهم قبيلة من بني إسرائيل يثرب. وما إن وصل الرسول إلى المدينة حتى قدم وفد من القبيلة الإسرائيلية التي ظاهرت قوات الائتلاف الثانية ضد المسلمين يعرضون فيها جلاءهم من يثرب وتسليم مزارعهم وممتلكاتهم للمسلمين مقابل عدم تعرض المسلمين لأرواحهم، وهو ما حدث.

ولابد أن الرسول لم يطل به المقام في المدينة بعد عودته من تبوك، وواصل المسير لمكة لأداء الحج وإعلان خيانة قريش على الملأ يوم عرفات، بتلاوة سورة براءة. وهي سورة تعطي قريشاً مهلة أربعة أشهر للتراجع: بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١) فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) براءة.

وإلا فالحرب: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ



إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.

ومع ذلك فيجب احترام قانون القتال في القرآن، فالمشرك القرشي الذي لم يخن ولم ينقض المعاهدة لا يمس: لاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

والسورة تتحدث عن معركة حنين: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(٢٦) براءة.

وحنين حدثت أثناء وجود الرسول والمسلمين في مكة يوم الفتح، حيث علموا بقدوم جيش كبير لمهاجمتهم من الطائف، فالتقاهم المسلمون خارج مكة وبالقرب من حي الشرائع الحالي في أعلى وادي المغمس (عرنة).

وحنين حملة أحزاب أخرى تمت بتدبير من قريش وأهل الطائف وقبائل أخرى ومدد فارسي (لما بين فارس ومكة والطائف من علاقات تجارية) ومعهم قبيلة أخرى من قبائل بني إسرائيل في يثرب، وهو ما ستحدثنا عنه سورة الحشر التي تلت براءة في النزول.

ويبدو أن خطة حنين تتشابه مع خطة غزوة الخندق، بحيث يقوم الجيش الغازي القادم من الطائف بمهاجمة المسلمين فإن تقهقروا تلقت قريش فلولهم، فيما يقوم بنو إسرائيل في يثرب بسبي النساء وقتل الرجال والأطفال.

وكادت الخطة أن تنجح وينهزم المسلمون: « وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ». لولا تماسك الرسول وقلة من الأتقياء وصمودهم مما جعل الهاربين يكرون وتنتهي المعركة بهزيمة المعتدين[1].

---

[1] وسورة الحشر التي تلت في النزول سورة براءة تحدثنا بتفاصيل ما حدث للقبيلة الإسرائيلية: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ(٥) الحشر.
وكما تقول الآيات، فبمجرد وصول الرسول إلى المدينة من تبوك سارعوا بعرض استسلامهم وجلائهم من يثرب مقابل الحفاظ على حياتهم، فقبل منهم الرسول ذلك. وتخريب بيوتهم بأيديهم دلالة على أنهم كانوا يخفون مدخراتهم المالية في الجدران فلما



والسورة تؤكد للرسول ما يجب عليه القيام به ضد كل من ابتدر المسلمين بالعداء والحرب، سواء من القبائل أو قريش أو الروم أو الفرس: وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) براءة.

فكل من ابتدأكم بالعداء وجب حربه وملاحقته، وأولهم تلك القبيلة من بني إسرائيل يثرب: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

ويكون المسلمون حتى الآن قد أدبوا قريشاً وبدأوا تأديب الروم وأدبوا فريقين من بني إسرائيل يثرب وجلوا منها. وبقي الفرس ومواصلة تأديب الروم وتأديب القبائل العربية التي شاركت في قوات الائتلاف الأولى في الأحزاب من حول مكة وفي الثانية في حنين من القبائل حول الطائف.

وهنا يمكن لنا أن نكمل ما بدأ القرآن الحديث عنه ونقول إن المسلمين بدأوا تسيير جيوشهم لقتال القبائل. وبما أن القبائل أعدادهم قليلة فلابد أن المسلمين سيروا لهم ما يعرف بالسرايا وهي جيوش قليلة العدد، وهذا قد يشير لما عرف في كتب التراث بغزوات الرسول. والتي لم تبدأ منذ قدم الرسول المدينة – كما تزعم كتب التراث – ولكنها بدأت في آخر حياة الرسول وبعد الأحزاب وبعد نزول براءة تحديداً، أي في آخر سنة من حياة الرسول.

وبما أن قريشاً تراجعت وعادت لحكم المسلمين فقد تبعهم أهل الطائف وفعلوا نفس الشيء. ومن ثم تتابعت القبائل في إرسال وفودها لإعلان الدخول في طاعة الدولة المسلمة، وهو ما عرف بعام الوفود والذي تلا نزول سورة براءة والذي تصفه آخر سورة نزلت من القرآن وهي سورة النصر: إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً(٣).

الناس (القبائل) يدخلون تحت حكم الدولة أفواجاً، تصوير لحضور الوفود أفواجاً إلى المدينة من كافة أصقاع جزيرة العرب.

وتكون السرايا والغزوات لتأديب القبائل المعتدية قد بدأت في آخر سنة في حياة الرسول،

عزموا الجلاء بدأوا يهدمونها ويستخرجون أموالهم. ولما خرجوا جاء المسلمون وبدأوا يخربون ما بقي قائماً بحثاً عن أموال باقية.



لكنها توقفت بعد أشهر قليلة لأن القبائل سارعت بإرسال وفودها إلى المدينة معلنة الاستسلام والدخول في طاعة دولة المسلمين. ولم يبق سوى فارس والروم التي لابد من الاستمرار بإرسال الجيوش لتأديبها حتى ترضخ، والبادئ أظلم.

ويمكن تخيل آخر الأيام من حياة الرسول بأنها فترة اتسمت بسلام شامل مع سكان جزيرة العرب الذين استسلموا ولم يُسلموا، مثلهم مثل قريش التي لم تؤمن بالرسالة ولكنها اضطرت للاستسلام. وسنرى أن بعض القبائل ستسارع بالانتفاض والخروج عن الطاعة بمجرد وفاة الرسول.

ولا ندري هل وقعت معارك بين المسلمين والفرس في حياة الرسول أو أن الرسول توفي قبل ذلك؟ لكن المهم هو أن الرسول توفي وقد توحدت كل جزيرة العرب تحت راية دولة المسلمين بمختلف معتقدات أهلها. فكانت دولة إسلامية لأناس يعتنقون عقائد مختلفة.

وكتب التراث تقول إن الرسول قد أعد جيشاً لحرب الروم بقيادة زيد ابن حارثة وأنه توفي والجيش لم يخرج من المدينة فقام أبو بكر بإرساله.

حروب ردة أم حروب زكاة أم حروب فرضت على المسلمين

الصورة التي قدمنا تظهر أن الحرب مع الروم والفرس بدأت في حياة رسول الله، وأنهم هم من بدأها تعدياً وعدواناً. وأصبحت ملاحقتهم ضرورة ملحة لبقاء دولة المسلمين لأنهم لن يقبلوا بالتعايش السلمي معها، وستستمر محاولاتهم للقضاء عليها. وهو ما دفع بالمسلمين إلى الدخول في حرب مع الروم في آخر حياة الرسول، بدأت بسرية مؤتة، ثم حملة تبوك، ثم جيش أسامة ابن زيد. ثم توفي الرسول فجأة، فكان من البديهي أن تستمر بعده حتى تكمل مهمتها.

وأميل إلى أن المسلمين لم يتمكنوا من إرسال جيش لحرب الفرس زمن الرسول. وهذا قد يعود إلى أن موقعة حنين – التي شارك فيها جيش فارسي – وقعت في أواخر حياة الرسول ومات عليه الصلاة والسلام ولم يتمكن من إرسال جيش لقتال الفرس. لكن هذا لا يلغي مشروعية حربهم درءً لشرهم الذي ابتدروا به الإسلام. وقد تأخر إرسال الجيوش لفارس بعد وفاة الرسول لبضعة أشهر بسبب انشغال المسلمين بحروب الردة.



وعرفنا أن القبائل التي ابتدأت العداء للمسلمين لنجدة قريش استسلمت لدولة المسلمين ولم تؤمن لكي تأمن، بعد أن بعث لها الرسول السرايا لتأديبها. فبقيت عبارة عن قنابل موقوتة تتحين الفرص للانقضاض على المسلمين. ومثلهم بعض القبائل الأخرى التي لم تبادر بقتال المسلمين لكنها دخلت مستسلمة تحت حكمهم، والتي لو شعرت أن دولة المسلمين تراخت قبضتها فستنتفض.

وهناك قريش العدو اللدود الأول والدائم للإسلام والتي استسلمت بخبث للمسلمين يوم الفتح ثم نقضت العهد وظاهرت على المسلمين أعداءهم في حنين وخسرت الرهان فاضطرت لإعلان العودة والتوبة الظاهرية مرة أخرى. وبقيت مشاعر العداء وأضيف لها مشاعر الكراهية التي نتجت عن إذلال المسلمين لها. فكانت تظهر الولاء وهي تتحين الفرص لإذلال المسلمين والقضاء عليهم وعلى دينهم الذي أمد مواليها وعبيدها السابقين بالعزة والغلبة عليهم، فأصبح السيد مسوداً والمسود سيداً. ولن تألو جهداً – متى سنحت الفرصة – أن تؤلب القبائل مرة أخرى، وتتحالف مع الشيطان ولن توفر وسيلة إلا استخدمتها للقضاء على الإسلام والثأر من دولته، وأفضل وسيلة هي الاستيلاء على الحكم، ولو بطريق غير مباشر.

يضاف لهم بنو إسرائيل، سواء من بقي في يثرب أو من اضطر للجلاء منها. وهؤلاء يتعاطف معهم كل يهود جزيرة العرب وما حولها، لأن القرآن أظهر هشاشة دين بني إسرائيل واليهود وأنه دين بشري وليس كما خدعوا غيرهم بزعمهم أنه دين الله، وأنهم خلقه المصطفون. لذا فقد أصبح همهم وغايتهم السعي إلى تخريب دين المسلمين من الداخل.

كل هؤلاء وغيرهم أعداء مغلوبون على أمرهم يتحينون الفرصة للانقضاض على الدولة المسلمة.

ونضيف أن أعداد المسلمين الأتقياء في المدينة لا يزيد عن بضع مئات، إلا أن رهبتهم في قلوب المنافقين والكفار جعلتهم كالبنيان المرصوص لا يستطيع غيرهم اختراقه، فكانت لهم اليد الطولى في تسيير شئون الدولة.

وفي أوج النشاط السياسي والحربي لدولة المسلمين يسقط الرسول عليه الصلاة والسلام مريضاً وخلال أيام يفارق الحياة.



فانتفضت القبائل انتفاضات متنوعة: سياسية وثورية.

والسياسية إن كانت حصلت فقد قامت بها قريش، وتتمثل في محاولة الوصول للحكم ولو بطريق غير مباشر، وذلك بدفع أحد الأشخاص المقربين لها للوصول لحكم دولة المسلمين لكي يتسنى لهم التأثير عليه.

وهذا إن كان حدث لم يلق نجاحاً لأن المسلمين الأتقياء ما زالت هيبتهم قوية ولا يمكن اختراقهم، فتولى مهمة تسيير شئون الدولة أبي بكر. صاحب رسول الله ورفيقه في الهجرة وأقرب الرجال إليه، وتقواه لا يرقى إليها الشك.

أما الانتفاضات الثورية على الدولة فقد اندلعت في كل أرجاء جزيرة العرب، بمجرد وفاة رسول الله، ولم يمض على انضوائها تحت حكم دولة المسلمين سوى بضعة أشهر.

وكتب التراث تصور المسألة وكأنها مجرد امتناع عن تأدية الزكاة لأبي بكر وأنهم سيقومون هم بتوزيعها بأنفسهم. وبطبيعة الحال هذا ينفيه الواقع.

فأشهر حرب طاحنة حدثت فيما يسمى بحروب الردة كانت في اليمامة وضد مسيلمة الكذاب. الذي لم يكن ممتنعاً عن دفع الزكاة فقط بل حارب دولة المسلمين لأنه لا يؤمن بدينها، بغض النظر إن كان ادعى النبوة أو لم يفعل.

ومثله الأسود العنسي وطلحة ابن خويلد.

والسؤال هنا: لو رغب مسيلمة أو غيره في الانفصال عن الدولة — كونه غير مسلم — فهل يجوز للمسلمين قتاله لهذا السبب؟

القانون القرآني الذي سار عليه المسلمون زمن الرسول ويسير عليه المسلمون الأتقياء بعده هو: لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩) الممتحنة.

وحتى لو عاد الكفار وخرجوا عن طاعة دولة المسلمين وهم لم يقاتلوهم فلا يجوز للمسلمين قتالهم: عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) الممتحنة.



إذاً، قتال الناس ليس لكفرهم ولكن لمعاداتهم المسلمين ومبادرتهم حربهم، وقد يكون من حركهم قريش، وهو الراجح عندي.

فهل قام مسيلمة وطلحة والأسود بتجييش الجيوش للغارة على المدينة والقضاء على المسلمين؟

حروب الردة كتب عنها الكثير من الكلام المتناقض والذي يظهر أن هناك عدة أشخاص تقولوه في عصور متأخرة وكل شخص لا يعلم ما قاله غيره. ثم جاء من يجمع هذه الأقوال والقصص مثل الطبري، حيث نجد الرواية ونقيضها.

ومن الأخبار وصف حال المسلمين في المدينة يوم وفاة رسول الله، على لسان أم المؤمنين عائشة قائلة: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق، والله لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كأنهم معزى في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة».

ومما أورد الطبري: «عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفصل أسامة ارتدت العرب عوام أو خواص وتوحى مسيلمة وطليحة فاستغلظ أمرهما واجتمع على طليحة عوام طيئ وأسد وارتدت غطفان إلى ما كان من أشجع وخواص من الأفناء فبايعوه وقدمت هوازن رجلاً وأخرت رجلاً أمسكوا الصدقة إلا ما كان من ثقيف ولفها فإنهم اقتدى بهم عوام جديلة والأعجاز وارتدت خواص من بني سليم وكذلك سائر الناس بكل مكان».

لقد كان هناك انتفاضة عامة على دولة المسلمين. ولم يكن الدافع هو مجرد مطالبتهم بأن تتولى كل قبيلة توزيع زكاتها بنفسها، لأن هذا يمكن أن يناقش كلاماً ولا يمكن أن يبادر فيه بالسيف. وطليحة ومسيلمة والأسود وغيرهم جيشوا الجيوش بمجرد سماعهم وفاة الرسول.

يقول الطبري: «حدثنا شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد قال: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طليحة إلا ما كان من خواص أقوام في القبائل الثلاث فاجتمعت أسد بسميراء وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة وطيئ على حدود أرضهم. واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من



مرة وعبس بالأبرق من الربذة وتأشب إليهم ناس من بني كنانة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين فأقامت فرقة منهم بالأبرق وسارت الأخرى إلى ذي القصة وأمدهم طليحة بحبال فكان حبال على أهل ذي القصة من بني أسد ومن تأشب من ليث والديل ومدلج. وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان وعلى ثعلبة وعبس الحارث ابن فلان أحد بني سبيع وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عباساً فتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق وقال: لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه - وكانت عقل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة - فردهم فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة من أهل المدينة وأطمعوهم فيها».

ستتوقف هنا لبعض الوقت لمناقشة النص ثم نتابع قراءة بقيته.

بمجرد وفاة رسول الله اجتمع محاربو أسد وغطفان وطي تحت إمرة طليحة.

واجتمع بقية أسد بسميراء ومحاربي فزارة ومن يليهم وبقية رجال غطفان تحت إمرة ثانية.

واجتمع محاربو ثعلبة ومن يليهم وعبس وبعض كنانة (فلم تحملهم البلاد لكثرتهم، فانقسموا فرقتين) فرقة بالأبرق والأخرى بذي القصة.

هذه حشود جرارة للحرب، وليست وفوداً لأبي بكر لكي يأذن لهم بتوزيع زكاتهم في بلادهم لا يحتاج لتجييش الجيوش.

فالقبائل بمجرد وفاة الرسول حشدت جيوشها في مناطق مختلفة للغارة على المدينة ولا شيء آخر. وقد سبق تجييش الجيوش وفود قدموا المدينة للتجسس على أحوال المسلمين وليس لطلب الإذن بتوزيع الزكاة بأنفسهم. وقد عرف أبو بكر ذلك فكان لابد من الحذر واليقظة، فجعل مراقبين على أطراف المدينة وأمر كل رجال المسلمين بالاجتماع بالمسجد ليكونوا على أهبة الاستعداد لصد أي هجوم محتمل، خاصة أن أقرب الأعداء على مسافة بريد من المدينة.

ونواصل مع الطبري الذي يقول: «وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم فاستعدوا وأعدوا».

وليس بالضرورة أن يكون الخبر صحيحاً بتفاصيل عباراته، وهذه الفقرة قد تكون مضافة



لتأكيد أن الحرب سببها منع الزكاة.

ونواصل مع ما يقول الطبري: «فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذي حسي ليكونوا لهم ردءاً فوافق الغوار ليلا الأنقاب وعليها المقاتلة ودونهم أقوام يدرجون فنبهوهم وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم ففعلوا. وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم فانفش العدو فاتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسي فخرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال ثم دهدهوها بأرجلهم في وجوه الإبل فتدهده كل نحي في طوله فنفرت إبل المسلمين وهم عليها – ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الأنحاء – فعاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة فلم يصرع مسلم ولم يصب».

لقد بدأت حروب الردة بغارة على المدينة، سواء سبق ذلك وفود أم لا... وتكون القبائل هي من ابتدر المسلمين الحرب.

والخبر يروي استدراجاً للمسلمين إلى كمين أقاموه مسبقاً وهو الأنحاء[1] المنفوخة والمربوطة بالحبال لإجفال الإبل والخيل وبالتالي سهولة القضاء على المسلمين. ولا يهمنا هل هذا ما حدث أم لا، وإنما المهم هو أن المرتدين هم من بدأ الحرب والهجوم على المدينة.

ويواصل الطبري الخبر قائلاً: «فظن القوم بالمسلمين الوهن وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر فقدموا عليهم اعتماداً في الذين أخبروهم وهم لا يشعرون لأمر الله عز وجل الذي أراده وأحب أن يبلغه فيهم فبات أبو بكر ليلته يتهيأ فعبى الناس ثم خرج على تعبية من أعجاز ليلته يمشي وعلى ميمنته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف فاقتتلوا أعجاز ليلتهم فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم وقتل حبال واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة – وكان أول الفتح – ووضع بها النعمان ابن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة فذل بها المشركون فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة وفعل من وراءهم فعلهم. وعز المسلمون بوقعة أبي بكر وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلة

---

[1] الأنحاء هي القِرب جمع قربة.



وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة».

لقد بدأت حرب الردة من قبائل انتفضت على حكم دولة المسلمين، وهم نفس القبائل التي عاونت قريشاً وأهل الطائف في حربهم على المسلمين، ولم تكن الزكاة هي السبب.

وكتب التراث فيها غث وغث ومن ذلك، وصية أبي بكر – المزعومة – لجيوش حرب الردة، والتي يقول الطبري إنها كما يلي: «إذا نزلتم منزلا فأذنوا وأقيموا فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ثم اقتلوهم كل قتلة الحرق فما سواه وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة».

الحرق فما سواه؟

أي دين هذا الذي يأمر بالحرق؟

حتى لو افترضنا أن أبا بكر خان الله ورسوله وعمل بخلاف القرآن فهل يعقل أن يوافق مئات الصحابة الأخيار الذين ما زالوا أحياءً ولا تأخذهم بالحق لومة لائم؟

هذا مستبعد تماماً، وينفي أن يكون قد حدث. وكل ما في الأمر أن هذه الخطبة كتبت لأبي بكر في العصر العباسي ولم يعلم بها. والدليل هو خطبة مزعومة أخرى لأبي بكر يوصي بها جيش أسامة ابن زيد الذي خرج لحرب الروم قبل بدء حروب الردة. يقول الطبري إن أبا بكر قال: «يأيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله أفناكم الله بالطعن والطاعون».

هي بعكس وصيته لحروب الردة لكنها غير معقولة أيضاً. فكيف عرف بما قال إنه سيحدث لهم، وكيف عرف أن الرهبان يحلقون وسط الرأس ويتركون ما حوله مثل العصائب؟

ثم كيف يقول ستمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، ثم يقول في آخر



الخطبة اخفقوهم بالسيف؟

كلها قصص مختلق في العصر العباسي لا قيمة له.

ولا ندري هل بالفعل انتفضت كل جزيرة العرب، أم أن هناك قبائل بعينها هي التي اجتمعت لحرب المسلمين لثارات في نفوسهم واجتمع معها غيرها حمية ونجدة؟

لنتذكر أن قبائل مثل غطفان وبني أسد وسليم وكنانة ومعها عبس وذبيان هي نفس القبائل التي شاركت في حرب الأحزاب الأولى (الخندق) وهي نفسها التي قادها طلحة ابن خويلد لحرب المسلمين بمجرد وفاة رسول الله، وهي التي وقع بينها وبين المسلمين أول معركة في حروب الردة. وحروب الردة يستحيل أن تكون بسبب منع الزكاة، لأن ما قيل على لسان أبي بكر من أنهم لو منعوه عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربهم عليه. فيه إشارة إلى أن النص اختلق في عصور لاحقة.

لأن الإنفاق يؤخذ من الأغنياء في أي مكان ويرد للفقراء في نفس المكان، وعادة الإنفاق يؤخذ قدر الحاجة ولا يؤخذ بمقادير تزيد عن الحاجة. وهو ما ينفي أن تستفيد المدينة من إنفاق بلاد أخرى مثلاً. لكن في أوقات لاحقة أصبحت الإتاوات تفرض على الناس بتقديرات رجال يجبونها وكلما زادوا على الناس زاد ما يأخذونه منها، ثم تجمع وترسل للحاكم. هذا لم يكن معروفا زمن الرسول ولكنه كان معروفا عندما بدأ القصاص يختلقون القصص عما حدث في الردة فاختلقوا القصص بما يتناسب مع ما يعرفون والدارج في أيامهم.

ولأن الإنفاق زمن الرسول كان في الغالب يدفع كقيمة للأشياء ولا يؤخذ من كل شيء إنفاق من جنسه. فلا يؤخذ ممن لديه إبل حقة أو جدعة بل يؤخذ مال. والحقة والجدعة وبنت لبون وغيرها باتت معروفة عندما تحول الإنفاق إلى زكاة قسمها رجال الدين إلى زكاة عروض وغيرها. وهم من اخترع الحقة والجدعة وهم من قال زكاة الماشية رؤوس من الماشية ...الخ

ولهذا فمختلق الكلام المنسوب لأبي بكر لم يفطن أن الرسول لم يكن يأخذ من الناس عقالاً ولكنه يأخذ من الأموال. ولا يوجد في القرآن ما يشير لأخذ العين إلا آية واحدة تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ



الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧) البقرة.

فالإنفاق العيني يكون مما يؤكل من الطيبات ومن المزروعات. وليس من العقل أو نحوها. لأن ما يؤكل يستفيد منه المحتاج بينما العقل لن تغنيه، وبدل أن يعطى عقالاً يعطى طعاماً أو مالاً.

وتكون حروب الردة بدأتها تلك القبائل التي عاونت المعتدين على المسلمين زمن الرسول وانضم لها قبائل أخرى لأسباب متنوعة. كما أن حرب اليمامة ضد مسيلمة لابد أن لها أسباباً أغفلها التاريخ كانت السبب وراء مبادرة مسيلمة حرب المسلمين.

وإن كان هناك ممارسات لا أخلاقية حدثت في حروب الردة فلا يمكن أن تكون ممنهجة أو أقرها أبو بكر أو غيره من المسلمين الأتقياء لأنها ضد تعاليم القرآن الذي ما زال حياً في قلوبهم ولا يمكن مخالفته. لكنها قد تكون حدثت كتصرفات شخصية لعل أشهرها أو لنقل لعلها الحادثة الوحيدة التي حدثت أثناء حروب الردة عندما قتل خالد ابن الوليد مالك ابن نويرة ودخل بامرأته. ولم يكن هناك سبي لنساء غيرها لا من قبيلة مالك ولا من غيرها. وإن كانت بالفعل حدثت فخالد ابن الوليد ممن دخل الإسلام بعدما تأكد له أن قريشاً في طريقها للانهيار، وكان يبحث عن نجاحات شخصية تيقن أنه سيجدها في الإسلام فأعلن الإسلام، مثله مثل عمرو ابن العاص. وقد تحدثنا في فصل خاص عن إسلامهما ودوافعه في كتاب سنة الأولين.

وإن كان حدث من خالد ما نسب له فمتوقع، وفي نفس الوقت هو دليل على أن حروب الردة لم يحدث فيها سبي أو قتل مسالم وإلا لما أصبحت فعلة خالد ابن الوليد منكرة، ووصمة لا ينساها التاريخ.

ويمكن الجزم أن سياسة حروب الردة كانت سياسة إسلامية، لا سبي ولا قتل للمسالمين، ولا يمكن أن تكون بسبب ما سمي بالزكاة، لكنها لصد عدوان حدث أو متوقع.

ولا علاقة لها بالفتوح لأن الفتوح بدأت في حياة رسول الله بمؤتة وتبوك وكان لابد من مواصلة حرب الروم والفرس الذين ابتدروا حرب المسلمين، فأصبح بقاؤهم خطراً على الإسلام.



ولابد أن حروب الردة قد أشغلت المسلمين، ولما انتهت التفت الناس للروم والفرس وكان هذا في نهاية أيام أبي بكر وتواصلت في عهد عمر.

وتكون حروب الردة لا علاقة لها بالفتوح، ولو لم تحدث حروب الردة لواصل المسلمون حربهم ضد الفرس والروم مباشرة بعد وفاة الرسول.

الفتوح أحداث تولدت من حدث

لو لم يرسل هرقل جيشه لنصرة قريش في محاولة لسحق المسلمين لما كان هناك حملة أحزاب.

ولو لم يكن هناك حملة أحزاب لما كان هناك حرب مع الروم امتدت لما عرف بفتوح الشام ومصر.

ولو لم يكن هناك حملة أحزاب لما كان هناك ما سمي بحروب الردة، لأن الدولة المسلمة في المدينة لن تهاجم القبائل ويضطرون للاستسلام ثم يثورون بعد وفاة رسول الله.

ولو لم يكن حملة أحزاب لما فتحت مكة، ولو لم تفتح مكة لما كان هناك حملة أحزاب ثانية في حنين.

ولو لم يكن هناك حملة أحزاب ثانية في حنين لما كان هناك فتوح للعراق وفارس.

ولو رضيت قريش بالتعايش السلمي مع المسلمين في مكة لما كان هناك هجرة.

ولو لم يكن هجرة فلن يكون هناك أي نوع من الحروب بين المسلمين وغيرهم. وسينتشر الإسلام سلمياً.

ولو أن قريشاً لم تصر على ملاحقة المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة لما كان هناك معارك في بدر وأحد والأحزاب.

ولو لم يكن هناك عداء مستمر من قريش للمسلمين لما تجرأت قبيلتان من بني إسرائيل يثرب للدخول في مؤامرة مع أعداء المسلمين في الأحزاب وحنين. ولو لم يحدث هذا فسيعيش المسلمون وبنو إسرائيل واليهود والنصارى في يثرب بسلام.

والخلاصة أنه لو أن قريشاً عندما لم تقبل الدخول في الإسلام قبلت التعايش مع المسلمين سلمياً لما كان هناك معركة واحدة في تاريخ الإسلام في عصر الرسول.



أما أن تتطور الأحداث بالشكل الذي سردنا ويصبح بقاء الإسلام مشروط بالقضاء على المعتدين من الروم وفارس فالفتوح مبررة بل ومشروعة بل وواجبة وضرورية فهي صراع من أجل البقاء ولم تكن خياراً للتوسع والبغي.

وإن حدث في تلك الحروب تجاوزات إنسانية ومخالفة لقوانين القتال في القرآن، فهي قد تكون حدثت وقد لا تكون، لأن المصادر التي تقول إنها حدثت غير موثوقة.

لكن لو أنها حدثت فهي لا تمثل رأي دولة المسلمين وإن كان الخليفة وافق عليها فقد عصى الله ورسوله وإن لم يعلم بها فقد قصر في مراقبة جيوشه.

وكما رأينا فإن حروب ما سمي بالردة وصفت بأن فيها تجاوزات لكن لا نجد إلا حادثة واحدة صدرت من شخص خالد ابن الوليد وقد أنكرها من كان معه وشكوه للخليفة وكان لها وقع سيء وأصبحت وصمة عار وهو ما يؤكد أنه لم يكن هناك تجاوزات غيرها.

وفي الفتوح نجد أن الحديث عن التجاوزات في تاريخ الطبري مثلاً تتعاظم في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (المتوفى عام ٦٣٠ للهجرة) يعني بعد أكثر من ٦٠٠ عام على الأحداث وبعد أن تغيرت المفاهيم في الحروب ولم يعد أحد يتذكر قوانين القتال في القرآن.

وقريش كانت هي الجيش المحارب للمسلمين في بدر وأحد، أو طرفاً مشاركاً مع غيرها في تلك الحروب مثل حملة الأحزاب، أو كانت مشاركة بالمكيدة والتحريض، كما في حنين (الأحزاب الثانية) وحروب الردة. وبقيت تحيك المؤامرات على الإسلام والمسلمين حتى استطاعت الاستيلاء على حكم دولتهم ولم يمض على وفاة رسول الله سوى ثلاثين عاماً.

ولم يؤمن كبراء قريش الذين بقوا على قيد الحياة بعد رسول الله، وعلى رأسهم أبو سفيان والعباس. وكما رأينا فقد حاولت قريش أن يصل لحكم دولة المسلمين رجل موالٍ لهم، كعلي ابن أبي طالب، لكنهم فشلوا.

ولابد أن قريشاً اتصلوا بزعماء القبائل وبمسيلمة والأسود العنسي وكل من ثار على دولة المسلمين لحثهم على الثورة وصورت لهم أوضاع المسلمين بأنها ضعيفة وأعدادهم قليلة. ولكن المسلمين استطاعوا إخماد الثورات واستعادة السيطرة على كامل تراب جزيرة العرب في عصر أبي بكر الذي كان صخرة صماء تكسرت عليها آمال قريش في زعزعة استقرار الدولة.



ثم تولى عمر ابن الخطاب الذي لا يقل صلابة في الحق من سلفه، وواصل حرب الفرس والروم، في وقت لم يعد بإمكان أبي سفيان والعباس وبني عبد مناف ومن معهم رفع أصواتهم، لكنهم واصلوا مكائدهم بخفية. واستطاعوا التخلص من عمر بقتله على يد عبد مجوسي اسمه أبو لؤلؤة للثقفي المغيرة ابن شعبة الموالي لبني عبد مناف وبتواطؤ وتخطيط من بعض اليهود مثل كعب الأحبار.

وظنت قريش أن بإمكانها استمالة عثمان ابن عفان، لكن توقعاتهم لم تكن صائبة، وثبت أن عثمان لا يقل صلابة عن صاحبيه اللذين سبقاه.

قتل عثمان

لم نتوسع في الحديث عن قتل عمر، لأننا سبق وتحدثنا عن ذلك في أحسن القصص، ولأن تورط قريش في قتله لا يحتاج لنقاش. أما عثمان فقد يظن البعض ألا علاقة لقريش بما حدث له وأدى لقتله.

وفيما يلي بعض الحقائق التي بنيت عليها استنتاجي لما حدث لعثمان، كما يلي:

الحقيقة الأولى: رجال قريش لم يؤمنوا أبداً

رجال قريش الذين لم يؤمنوا برسول الله وهو يدعوهم في مكة لم يؤمنوا أبداً والأدلة على هذا وردت في القرآن، وفيما يلي بعضها:

- وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) الأنعام.
- وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ(١١١) الأنعام.
- وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ



لَنَاكِبُونَ(٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٥) المؤمنون.

- يس(١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ(٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(٩) وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١).

فالقرآن يقول من لم يؤمن عند سماعه الدعوة لن يؤمن أبدا، وبالتالي فكل رجال قريش الذين لم يؤمنوا بدعوة الرسول لم يؤمنوا بها بعد فتح مكة وأبقوا على عدائهم للإسلام ومكائدهم[1].

الحقيقة الثانية

قريش خانت معاهدتها مع المسلمين يوم فتح مكة، ونزلت سورة براءة – التي سبقت وفاة الرسول بعدة أشهر – تعطيهم مهلة أربعة أشهر للتراجع. بينما كتب التراث تقول إن قريشاً آمنت يوم الفتح وحسن إيمانها.

قريش لم تؤمن أبداً.

الحقيقة الثالثة / استمرار قريش لكيد المسلمين

القرآن يخبرنا أن قريشاً تآمرت مع الروم وكل من استطاعت استمالته لسحق المسلمين في الأحزاب، ثم تآمرت مع أعداء آخرين بعد الفتح وفي حنين.. مما يعني أنها ليس فقط لم تؤمن بل وستستمر في المؤامرات على الإسلام والكيد للمسلمين.

الحقيقة الرابعة

لو عدنا للواقع فسنجد أن قريشاً لما استولت على حكم دولة المسلمين (الأمويين والعباسيين) أضاعت الدين وحولت إدارة دولة المسلمين إلى حكم عضوض. وهو ما يعني أن أبا سفيان

١ انظر فقرة: من يرفض الدعوة مرة لا يؤمن بها أبداً/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



والعباس ومن بقي من كبراء قريش ليس فقط هم الذين لم يؤمنوا ولكن نسلهم أيضاً.

من هذه الحقائق يمكن القول إن قريشاً وما يصدر منها لا يمكن أن يكون في مصلحة الإسلام بل ضده وحرب عليه، ولن نستغرب أي شيء يقومون به بعد وفاة رسول الله. وكل ما يخدم مخططات قريش لا يمكن أن يقوم به إلا من يواليهم على المسلمين.

الحقيقة الخامسة

بعد الرسول وخلافة أبي بكر استمرت المدينة هي التي تقرر الخليفة دون استشارة لأهل الأمصار، لعدة أسباب، لعل منها أن الصحابة والأتقياء منهم بالذات هم من يعتبرون أهل الإيمان وهم المؤهلون لإدارة دولة المسلمين، ولم يعترض أحد من الأمصار على هذا أبداً.

وعندما تولى عثمان سارت أمور الدولة دون مشاكل من بداية العام (٢٤) الذي تولى فيه الخلافة وحتى العام (٣٣).

الحقيقة السادسة

في العام (٣٣) قام عثمان بحرق المصاحف المشبوهة التي بدأت تنتشر في الأمصار. ونقول مشبوهة لأنها تحوي عبارات محرفة وإضافات لا وجود لها في القرآن.

والسؤال هنا هو: من المستفيد من انتشار المصاحف المشبوهة؟

لا يمكن أن يكون الإسلام ولا المسلمون الأتقياء، ولكن من يتمنى فساد الدين.

ومن يتمنى فساد الدين هم قريش من والاهم ممن يعلن إسلامه من مسلمة قريش ومسلمة يثرب، وبني إسرائيل لأن الإسلام كَلَمَهم ومسح بوجاهتهم الأرض.

فإن كانت قريش مستفيدة فهي التي كانت وراء نشر تلك المصاحف، بعد أن يئست من استمالة عثمان. وما يؤكد هذا أن تلك المصاحف انتشرت في الأمصار المفتوحة والبعيدة وبين أهلها الذين لم يعرفوا من الإسلام سوى الإسلام ولم يسبق لهم التعرف على القرآن. ولم يكن لتلك المصاحف وجود في المدينة التي يعرف أهلها القرآن كما نزل ويمكنهم التعرف على أي تلاعب.

ولما وقف عثمان ضد هذه الفتنة وأحرق المصاحف المشبوهة ونسخ نسخاً صحيحة من المصحف الإمام، قررت قريش التخلص منه كما تخلصوا من عمر ابن الخطاب قبله.



الحقيقة السابعة

ما إن نجحت مساعي عثمان في التصدي للعبث بالقرآن وأحرق تلك المصاحف المشبوهة واعتمد نسخ المصحف الإمام حتى بدأت الإشاعات تنتشر حول استبداد عثمان وكل التهم التي قيلت بحقه.

بعبارة أخرى: بقي عثمان (١٠) سنوات دون أن توجه له أي تهمة، ثم فجأة وفي عام واحد وجهت له تهم كثيرة وقتل.

ولو قال قائل: التهم وجهت لعثمان في آخر عام من حياته لأن مخالفاته تراكمت حتى وصلت لحد لا يمكن السكوت عليها.

والجواب هو:

الحقيقة الثامنة

لو كانت الاتهامات الموجهة لعثمان صحيحة لبدأت تنتشر في المدينة أولاً، ولتولى أهل المدينة مساءلة عثمان. فهم الصحابة وأهل الحل والعقد بالنسبة لدولة المسلمين، وليس أناس في الأمصار لا يعرفون من الدين إلا اسمه.

التاريخ يقول إنه لم يتقدم صحابي واحد من الأتقياء لمساءلة عثمان، ولم يتم مساءلة عثمان أبداً من أهل المدينة.

ولم يكن من بين الثوار صحابة أتقياء إلا ما قيل إن أم المؤمنين عائشة كانت تشجع على قتل عثمان، وتقول: «اقتلوا نعثلاً».

وهذا لا يمكن الاطمئنان له لأنه لا يمكن أن يصدر من أم المؤمنين ولو كانت منتقدة عثمان فستنتقده بما فعل وليس بالتنابز بالألقاب وهي تقرأ كتاب الله ومن أقرب المسلمين له. ثم كيف تجتمع هذه التهمة مع التهمة الأخرى التي تقول إنها جيشت الجيوش ضد علي لتأخذ بثأر عثمان.

فكيف تجتمع التهمتان؟

قصص مختلق متناقض.

وقريش رسخت في كتب التراث الويل والثبور عن أم المؤمنين في محاولة لتلطيخ سمعتها



لأنها كانت ممن وقف مع الحق ضد استيلاء قريش على حكم المسلمين، فلا عبرة بكل ما نسب لها.

الاستنتاج

عثمان لم تصدر منه تلك التهم لأن من اتهمه بها ليس أهل المدينة ولكن أهل الأمصار المفتوحة الذين لا يعرفون قدر عثمان وليست لديهم ثقافة الإسلام النقي الذي عرفه أتقياء الصحابة.

وعدم اتهام عثمان من قبل الصحابة واتهامه من الأمصار دليل قاطع على نزاهته وبراءته. وفي نفس الوقت دليل على أن الاتهامات الكاذبة تم بثها وإشعالها بفعل فاعل مستفيد من نتائجها.

وليس هناك مستفيد سوى قريش.

وتقول كتب التراث إن ثوار الأمصار لما قابلوا عثمان وشرح لهم الوضع اقتنعوا بكذب الاتهامات وبراءته منها، ورجعوا لديارهم، لكن أناساً يديرون المكيدة ضد عثمان أعادوهم مرة أخرى بحجة أن عثمان يكذب.

ومن ذلك زعم كتب التراث أن عثمان قَبِل أن يستبدل عبد الله ابن أبي السرح بمحمد ابن أبي بكر لولاية مصر. بمعنى أن ثوار مصر لم ينقموا على عثمان إلا بسبب تولي ابن أبي السرح ولما قبل عثمان تغييره عادوا. وهذه التهمة – لو ثبتت على عثمان – فلا توجب قتله.

وتقول كتب التراث إنهم أثناء سيرهم قافلين لمصر كان يمشي بمشيهم رجل غريب فاستوقفوه وسألوه عن أمره ووجدوا معه كتاباً من عثمان يقول لابن أبي السرح أن يقتل الوفد المصري ويبقى في منصبه.

وهذه القصة تصور عثمان مجرماً مخادعاً وهو ما لم يفعله ولم يقدم عليه في بداية حياته ونشاطه فكيف يعقل أن يفعله وقد تجاوز الثمانين.

كما أن رسول عثمان – لو كان بالفعل رسولاً له – فلا يمكن أن يسير بمحاذاة الركب المصري وكأنه يقول لهم : إنه مريب فخذوه. هذه سذاجة غفل عنها مختلق القصة.

وتقول كتب التراث إن وفد مصر قابل عثمان وأن عثمان أنكر إرسال الرسول المزعوم. ولو



كان الأمر كذلك فالمنطق يقول إن وفد مصر سيطلب من عثمان أن يرسل لواليه على مصر – ابن أبي السرح – ويعيده إلى المدينة ويولي غيره وعندها يمكنهم العودة لمصر وتستقر الحال.

لكن ما حدث هو أنهم لم يقبلوا من عثمان أي تبرير ولا تصرف وكان ممن قتله محمد ابن أبي بكر (الذي تزعم كتب التراث أنه المفضل لأهل مصر ليكون بديلا عن ابن أبي السرح) ومحمد ابن أبي بكر لم يتول مصر ولم يعرف مصر زمن عثمان فكيف رشح المصريون والياً عليهم ليس منهم ولا يعرفونه وفي مصر أناس من الصحابة يمكنهم أن يرشحوا واحدا منهم للولاية (لو كانت المشكلة هي تغيير الوالي) كما تزعم كتب التراث.

يعني الزعم بأن نقمة ثوار مصر على عثمان تنحصر في تغيير الوالي زعم باطل غير صحيح.

وإن كان وفد ثوار مصر عاد إلى المدينة لأن عثمان خدعهم فما الذي أعاد ثوار الأمصار الأخرى إلى المدينة بعد أن وصل بعضهم لبلاده؟

فحسب ما ورد في كتب التراث أن ثوار البصرة والكوفة وغيرهم عادوا ووصل بعضهم لبلاده وانشغلوا بحياتهم العادية ثم عادوا إلى المدينة وحاصروا عثمان مرة أخرى وانتهى الحصار بقتله.

الاستنتاج المنطقي هنا هو: أن من حرك الثوار في البداية بإشاعة الاتهامات ضد عثمان وأوحى لهم أنه تقع على عواتقهم محاكمة الخليفة وليس أهل المدينة كالمعتاد، هو من أعادهم إلى المدينة بعد مغادرتها بعد لقاء عثمان واقتناعهم ببراءته.

وبما أن بني إسرائيل لم يعد لهم وجود في الحياة العامة للمسلمين، فإن قريشاً لوحدها هي من كان يحرك الأحداث ضد عثمان للتخلص منه، كآخر عقبة ضد استيلائها على الحكم.

وكتب التراث تروي لنا تصريحاً لعمرو ابن العاص (أحد دهاة تلك الفترة الأربعة، بجانب معاوية والمغيرة وزياد ابن أبيه) أنه ممن شارك بتحريك الأحداث لقتل عثمان وهو بعيد عن المدينة وفي أرض الشام.

حقيقة أخرى

لم يقم من سموا بمعتزلي الفتنة (من الصحابة) بالدفاع عن عثمان. فلم نسمع صوتاً في هذا المجال لسعد ابن أبي وقاص أو غيره ممن وردت أسماؤهم ممن آثروا السكوت.



بالنسبة لعلي ابن ابي طالب - الذي حاول الحصول على الحكم بعد عثمان - فهناك أقوال في كتب التراث تقول إنه كان يراقب بيت عثمان وأنه يمده بالماء والطعام، وهناك بعض الأقوال تتهم علي بتأجيج الفتنة ضد عثمان.

وإن صدقت كتب التراث التي تقول إن محمد ابن أبي بكر هو من قتل عثمان أو شارك في قتله، فمحمد المولود في العام العاشر للهجرة وتوفي والده وهو رضيع، تربى في كنف علي ابن ابي طالب كواحد من أولاده، لأن علياً تزوج بأم محمد وهي أسماء بنت عميس. وقد شارك محمد ابن أبي بكر في معركة الجمل مع علي ابن أبي طالب، ثم كان والياً له على مصر. وقتله معاوية ابن خديج القائد العسكري الممثل لمعاوية ابن أبي سفيان وعمرو ابن العاص وقام بحشو جثته في جيفة حمار وإحراقها.

ولو كان ابن أبي بكر هو من قتل عثمان أمام سمع ونظر والده (الذي رباه) علي ابن أبي طالب فهذا يجعل القول أن قتل عثمان كان تنفيذاً لرغبة علي ابن أبي طالب، وقبول القول الذي يقول أن علياً تآمر أو على الأقل رضي بقتل عثمان أو على الأقل لم يدافع عن عثمان، أقرب من القول بأن علي دافع عن عثمان أو لم يرض بقتله.

وعلي ابن أبي طالب لديه دافع لقتل عثمان لأنه كان يتطلع للحكم، وكان ممن نافس عليه بعد وفاة الرسول. وإن كان هذا ما حدث فرغبة علي توافقت مع رغبة كبراء قريش في التخلص من عثمان وإن اختلفت النوايا. أو أن نوايا علي تتفق مع نوايا قريش.

وما إن قتل الثوار عثمان حتى توجه بعضهم لمبايعة علي. ولا صحة لما قيل إنه قال: «والله إني لأستحي أن أبايع قومًا قتلوا عثمان، وإني لأستحي من الله تعالى أن أبايع وعثمان لم يدفن».

لأن الواقع يقول إنه سعى للحكم وقبل مبايعته من قبل بعض الثوار.

وفيما يلي بعض الأخبار التي تظهر براءة عثمان:

تقول كتب التراث: «إن عثمان عندما قتل حاول بعض الصحابة غسل جثمانه والصلاة عليه وقبره، لكن الثوار رفضوا، وألقي جثمانه على مكان للكناسة لعدة ليالي حتى هب نفر قليل وحملوا جثمانه في الليل لقبره، لكن الثوار علموا بذلك ولحقوا بهم عند مدخل مقبرة البقيع ورفسوا الجثة بقوة كسرت معها بعض الأضلاع، فاضطر النفر لدفنه في «حش كوكب» وهو مكان كان اليهود يقبرون فيه موتاهم، ومنع الناس من تكفينه وتغسيله.... الخ».



هنا نقول:

هناك احتمال أن هذا ما حدث برغم غرابته ووحشيته، وهناك احتمال أنه لم يحدث وكل ما قيل قصص مختلق.

لكن إن كان حدث أو لم يحدث فهو ينم عن حقد شخصي دفين وتشف من عثمان، أظهرته هذه الروايات، وتعكس وجهة نظر رسمية ترعى هذه الروايات وتحرص على نشرها، ولا يمكن أن تصدر من أناس قتلوا عثمان من أجل تجاوزات يعتقد أنها صدرت منه.

وهذا يعني أن من مثّل بعثمان بعد موته ومنع تغسيله أو دفنه في مقبرة المسلمين البقيع، يريد أن يرسخ للأجيال أن عثمان خرج عن الدين. وهذا لم يفكر به الثوار ولا يمكن أن يكونوا فعلوه.

لكن قريشاً هي من فعل، لأنها تسعى وتخطط للاستيلاء على الحكم، ولن تنجح دون الظهور بمظهر الممثل للمسلم الحق في نظر أهل البلاد المفتوحة. ولا يهمها رأي من بقي من الصحابة في المدينة الذين يعرفون حقيقتها، لأنهم قلة وتحت السيطرة ولو تكلم أحد منهم فمن السهل أن يخمد صوته.

وبالتالي فما روته كتب التراث عما حدث لجثمان عثمان يشير إلى أن كل ما اتهم به عثمان كان غير صحيح، وأن من بقي من الصحابة يعرفون ذلك، لكن من أثار تلك الشبهات وجهها للرأي العام في البلاد المفتوحة لأنه يسعى للاعتماد عليهم عندما يستولي على الحكم.

واستيلاء قريش على الحكم حرب على من بقي من الصحابة وعلى دينهم.

ولعل قلة أعداد الصحابة الأتقياء أحد الأسباب في اضطرارهم للسكوت.

وتروي بعض كتب التراث أن طلحة والزبير غادرا المدينة بعد أن ثبت أن الثوار عقدوا العزم على قتل عثمان. فهل شعرا بالندم على السكوت عن الدفاع عن الحق وفضح المؤامرات التي أدت لقتل عثمان، أم أنهما على اطلاع بتفاصيل المخطط لقتل عثمان ومتى سينفذ فخرجا ليبقيا على سمعتهما بعد مقتل عثمان، أملا في المنافسة على الحكم؟



علي ابن ابي طالب

عندما قتل عثمان كان العباس وأبو سفيان قد سبقاه للآخرة حيث توفيا في العامين (٣٢) و (٣٣) على التوالي. وبموتهما تحولت إدارة مخططات قريش إلى معاوية وعمرو ابن العاص والمغيرة ابن شعبة وآخرين ومن بقي من بني عبد مناف وإلى علي ابن ابي طالب، إضافة لمن وقف معهم مثل طلحة والزبير. وأصبح كرسي دولة المسلمين سهل المنال بعدما تم تحييد من بقي من أتقياء الصحابة وأجبروا على السكوت وسكتوا دون مقاومة.

لكن كرسي الحكم الذي أصبح في متناول اليد، كان كرسياً واحداً يتنافس عليه كل أفراد الحزب الواحد ومن كان معهم، وكل واحد منهم يعتقد أنه الأفضل.

لذا عندما أُعلن عن ترشيح علي ابن ابي طالب للكرسي، شعر طلحة والزبير بأنهما أحق منه، أو على الأقل بمستوى مساوٍ له، فلماذا يتفرد بالسلطة دونهما. فقاما بالاتصال بأم المؤمنين عائشة وأخبراها أن علياً قد وقف مع من قتل عثمان، وأن قتلة عثمان هم من انتخبوه ليكون خليفة. فتعالى صوت أم المؤمنين في فضح مؤامرة قتل عثمان، والتي شارك فيها علي مع قريش، كما رواها لها طلحة والزبير. فقرر علي إسكات أم المؤمنين والتخلص من المنافسين طلحة والزبير، لكن الثلاثة استطاعوا التسلل من المدينة وتوجهوا لمكة، فلحق بهم علي على رأس جيش من أتباعه. وبما أن مكة – بلد قريش – حلفاء علي، فلن تجد أم المؤمنين فيها الملاذ الآمن. لذا قرر الثلاثة التوجه للبصرة، التي لم تقبل بتولي علي.

لكنه لحق بهم هناك، فخرج أهل البصرة لملاقاة جيش علي حماية ودفاعاً عن أم المؤمنين، فوقعت المعركة على مشارف البصرة من جهة الغرب وفي مكان قريب من بلدة الزبير الحالية. وقد قتل طلحة والزبير في المعركة، إضافة لآلاف غيرهم. وكانت أم المؤمنين معرضة للقتل لولا أن علياً على ما يبدو منع ذلك لئلا يثور عليه مناصروه، لمكانة أم المؤمنين في قلوب الناس. وقد شوهت هذه الحقائق وقلبت فأصبحت أم المؤمنين وطلحة والزبير هم الأشرار، بينما أسبغ على علي ثوب الطهر والقداسة، وصورت حملات التطهير التي قادها للتخلص ممن يعارض توليه سلطة الدولة المسلمة لعلمهم بميوله، إلى حملات لخدمة الإسلام.

هنا نستطيع القول إن السعي لنيل الكرسي أصبح هو الهدف والغاية، وتوارى الحكم



الإسلامي بتواري صوت أتقياء الصحابة الذين غيبهم الموت أو الخوف من البطش. ولم يعد قتل الناس جريمة، ولكنه أصبح وسيلة لغاية أهم منه، ممثلة بالحكم. ومنذ ذلك التاريخ بقي الكرسي هو الإله المقدس، تهون له رقاب الناس في بلاد المسلمين. وطويت صفحة حكم الله، الذي كان يحكم بين الناس، واعتبر الدين شعارات يرفعها السياسي لتحقيق مآربه. ومنذ ذلك الحين أصبح رأس الدولة مالكاً لها ولأهلها ومالها ومائها وهوائها، وأعطى لنفسه الحرية المطلقة للتصرف بملكه كيفما يشاء. ومنذ ذلك الحين أصبح من يعصي الله فهو شأنه، ومن يعصي الحاكم فقد خرج عن الدين وأصبح من المغضوب عليهم والضالين.

لذا لم يجد علي ابن أبي طالب غضاضة في نقل مقر حكومته إلى الكوفة، وترك المدينة التي لم يعد له علاقة بها، ولا بما كانت ترمز له. إضافة إلى أن أهلها لا يرحبون به.

تحول المفاهيم

عندما أعلن معاوية عدم قبوله تسليم الشام لعلي أعلن علي الحرب عليه وتوجه بجيوشه للشام لمقاتلته وإرغامه على الطاعة، وقد التقى الجيشان في صفين قرب حلب. وبعد اقتتال عنيف لم يتمكن أي من الطرفين التغلب على الآخر، برغم قتل عشرات الآلاف من كل جانب. فقرر الزعيمان اقتسام الدولة بينهما، بحيث يكون لعلي جزيرة العرب والعراق وما يقع شرقها، ويكون لمعاوية الشام ومصر ما يقع غربها.

وهذا الاتفاق السياسي أغضب القراء. وهم جماعة من حفظة القرآن ومن أول من بايع علياً ظناً منهم أنه سيقيم حدود الله ويحكم بالقرآن، لكن موافقته على اقتسام دولة المسلمين مع معاوية أظهر لهم الجانب السياسي من علي البعيد كل البعد عن الصورة التي رسموها عنه، والتي حملتهم على القتال معه، وقتل الكثير منهم في حرب ظنوها في سبيل الله، وتبين لهم أنها في سبيل حصول علي على الكرسي. فأعلنوا تخليهم عن معاونته، واعتزال العمل السياسي والقتال مع أي أحد، بعدما تبين لهم أن ما يحدث صراعات لا علاقة لها بدين الله. ومع أنهم فضلوا التنحي والعيش في معزل عن الفتن والتطاحن على السلطة، إلا أن علياً لحق بهم لمسافة تزيد عن (٨٠٠) كيلومتر وأدركهم في النهروان (قرب بغداد الحالية)، وقضى عليهم. وأصبح حفظة القرآن خوارج على دين الله وليس على سلطة علي وقريش. ومنذ ذلك الحين فالخوارج عن الدين هم من يخرج على الحاكم.



وقد قام التاريخ السياسي بمسخ الحقائق، وأظهر أم المؤمنين على أنها امرأة سوء، وحفظة القرآن على أنهم خوارج على الدين، أما علي ومعاوية وعمرو ابن العاص والمغيرة ابن شعبة ومن وراءهم من قريش فهم الفرقة الناجية. وبقي علي وأبناؤه خارج دائرة الشك والنقد، عندما أسبغت عليهم قداسة ربانية لم يحظ بها رسول الله. ولو أن العباسيين استولوا على حكم الدولة أولاً ثم تلاهم الأمويون فلن يكون هناك تشيع لعلي ولن يكون لعلي أي تقديس، بل سيسطر التاريخ له صورة سيئة مماثلة لما سطره العباسيون عن الأمويين.

وما حدث لتشويه تاريخ أم المؤمنين ومواقفها الصارمة ضد استيلاء قريش على السلطة، هو مماثل للتشويه الذي أسبغه بنو إسرائيل على تاريخ بني إسماعيل ومكة وعموم تاريخ منطقة الشرق العربي.

وقد ساهم في استشراء السياسة على حساب الدين، أن البقية الباقية من الصحابة الأتقياء قد آثروا الصمت والانعزال بدل أن يتحملوا مسئولياتهم الدينية أمام الله والصدح بالحق وفضح مكائد قريش ونشرها للأكاذيب في الأمصار عن عثمان حتى يتم التخلص منه لأنه كان عقبة في طريق استيلاء قريش على الحكم[1]. ثم واصلوا صمتهم بعد مقتل عثمان، ولم يعلنوا أن ما يحدث هو عراك على الكرسي وأن علياً ومعاوية خرجا من حزب واحد تمثله قريش التي لم تؤمن. وهذا الحزب ظهر للوجود منذ توفي رسول الله بهدف إلغاء حكم الله والثأر من الإسلام الذي حطم كبراء قريش.

وصمتهم أوجد فقهاً موروثاً يقدس الحكام ويحرم نقدهم أو سؤالهم حقوق الناس والصبر على أذاهم، واعتبار كل من يخالف الله في علاه. وساهم في طي صفحة عصر رسول الله وصحابته الأخيار، ونسيانها وكأنها لم توجد يوماً على أرض الواقع. وبدأ إسلام غريب ينبت في تلك البيئة السياسية المشحونة، وهذه الفترة هي ما سميناها عصر الفتن والظلمات، وتحدثنا عنها في بداية الكتاب، والتي أنتجت كل مذاهب وفرق المسلمين الحالية.

---

١ ومن الأحاديث التي اختلقت في هذا المجال: خير الناس في الفتنة رجل معتزل (مسند أحمد). إذا رأيت الناس يقتلون على الدنيا فاعمد بسيفك على أعظم صخرة في الحرة فاضربه بها (الطبراني). جاهد بهذا في سبيل الله فإذا اختلفت أعناق الناس فاضرب به الحجر (الطبراني). ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي (البخاري ومسلم). كسروا قسيكم وقطعوا أوتاركم ولزموا أجواف البيوت (أحمد والترمذي وابن ماجه). سلامة الرجل في الفتنة أن يلزم بيته (كنز العمال). الزم بيتك واملك عليك لسانك (أبو داوود النسائي والحاكم والطبراني). إن السعيد لمن جنب الفتن (أبو داوود). وكثير غيرها. وكلها تدعو الناس أن يلزموا الصمت عندما يقتل الحكام ولا يجرمون المجرم، وهو ما يرغبه الحكام حتى اليوم ويشجعون عليه.



ومن آثر السلامة والسكوت وعدم فضح مخططات قريش ومن والاها: سعد ابن أبي وقاص، سعيد ابن العاص، محمد ابن مسلمة، أسامة ابن زيد، أبو أسيد مالك ابن ربيعة الساعدي، عمران ابن حصين، شداد ابن أوس الأنصاري، سلمة ابن الأكوع، حنظلة ابن الربيع، الحكم ابن عمرو الغفاري، عبد الله ابن عمر، سعيد ابن زيد، صهيب ابن سنان الرومي، هبيب ابن مغفل، عبد الله ابن مغفل، معاوية ابن حديج، زيد ابن ثابت، كعب ابن عجرة، سليمان ابن ثمامة بن شراحيل، جرير ابن عبد الله، عقبة ابن عمرو الأنصاري، أبان ابن صيفي. وقد نسب لسعد ابن أبي وقاص أنه قال لن أقاتل لا مع علي ولا مع معاوية حتى يعطيني الله سيفاً إن ضربت به مؤمنا نبا عنه، وإن ضربت به كافرا قتلته. ونسب للآخرين أقوال مماثلة.

وصمتهم الذي ظنوا أنه اعتزال للفتن، كان خير معين لقريش للاستيلاء على حكم دولة المسلمين، ووجود بيئة منحرفة أنتجت المذاهب، وأبعدت الناس عن القرآن الذي يدين كل تصرفات الحكام ويلغي وجود حكم مستبد، ويعتبر الدولة ملكاً للجميع تدار ولا تملك.

وقد قتل علي ابن ابي طالب على يد أحد القراء، كعقوبة له على قتله آلافاً منهم في النهروان وغيرها. وبمقتله دانت دولة المسلمين لقريش وكان أول ملوكها معاوية ابن أبي سفيان، وبقيت فيهم إلى منتصف القرن السابع عندما انهارت خلافة العباسيين في بغداد على أيدي المغول. لكن الحكم القرشي بقي حاضراً في كل الحكومات التي تتابعت على دول المسلمين حتى اليوم. فقد بقي الحكم الفردي المتسلط الذي يحق له أن يتجاوز القرآن وكل القيم لكي يحافظ على حكمه ولو اضطر لقتل أقاربه وأبناء عمه وإخوته بل ووالده أو بنيه.

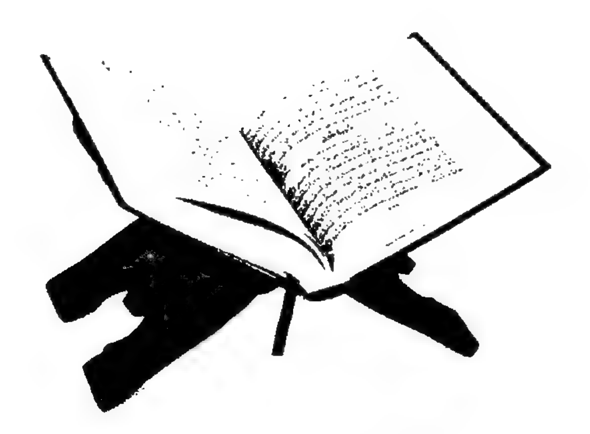


ابن قرناس

الشرعة والـمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



القسم الثالث

تشـريعات مـن القـرآن






مكتبة
الفكر الجديد

هذا القسم يحتوي على بعض التشريعات
التي وردت في كتاب الله




مكتبة
الفكر الجديد

المحتويات




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

مدخل

التشريعات في القرآن هي كل أمر أو نهي أو أمر بالاجتناب ورد في خطاب تشريعي عادة[1].

والتشريعات الإلهية يجب تطبيقها في كل مكان وزمان. والقرآن لا يعطي التفاصيل الدقيقة للتشريعات، وإنما يعطينا المادة الأصلية للقانون وعلينا نحن أن نكتب التفاصيل بما يتلاءم مع الزمان والمكان. مثل تغيير طريقة قتل القاتل بالرصاص بدل السيف، دون المساس بحكم قتل القاتل العمد. وتشريعات القرآن تشمل السلوك والآداب والمعاملات والأحوال الشخصية والعبادات والحلال والحرام، وغيرها. ويتم فرض هذه التشريعات، بإحدى الطرق التالية:

- الأمر الصريح

مثل: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ .....(٩) الرحمن.

- النهي الصريح

ومن ذلك: وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) البقرة.

- الأمر بالاجتناب

ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) المائدة.

- النص الصريح بالتحريم

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ...... (٣) المائدة.

---

١ انظر أنواع الخطاب في مقدمة الكتاب.



- النص الصريح بالحل

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .... (١٨٧) البقرة.

وهذه التشريعات ثابتة في كل الأديان، مثل الصلاة والصيام والحج والإنفاق والبعد عن الفواحش والربا وقتل النفس، ونحوها.

- وهناك توجيه إلهي للرسول أو المسلمين بسبب وقوع حدث ما، وكل توجيه يتحول لتشريع واجب الامتثال في كل حالة مماثلة. ومن ذلك: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) الأنفال.

والآية تتحدث عن الحرب مع قريش وتأمر المسلمين بأن يعدوا كل قوة في استطاعتهم للقتال: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٦١) الأنفال.

ثم تقول متى ما أعلنت قريش قبولها التعايش السلمي مع المسلمين ووقف الحرب فعلى المسلمين أن يوافقوا على الفور.

وهناك توجيهات لا يمكن تطبيقها بعد عصر الرسول لانتفاء وجودها في دولة المسلمين، ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٩) البقرة.

فتحريم الربا حدث زمن الرسول ولا يجوز لمسلم ممارسته بعد ذلك، ومن يمارسه بعد ذلك فليس بمسلم ولو أعلن الإسلام. كما أنه يجب على دولة المسلمين أن تسن القوانين التي تمنع تداول الربا لئلا يمارسه غير المسلمين في بلادهم. لذا فالآيات تخاطب المسلمين زمن الرسول وتعطي من يتوب منهم ويقلع عن الربا فرصة للاحتفاظ برأس ماله. أما بعد ذلك فلا يطبق على الناس هذا الحكم، لأنه يجب ألا يكون هناك ربا في بلاد المسلمين.

- وهناك توجيهات ردع، وهي تفرض بسبب انتشار ظاهرة فساد في المجتمع المسلم يتوجب القضاء عليها. ومن ذلك فرض جلد الزانية والزاني وتحريم الزواج بهما من



المسلمين، وجلد القذف. فهي أحكام تفرض في حال تكرر انتشار هذه المفاسد، ويمكن للمسلمين أن يفرضوا قوانين أشد قسوة للقضاء على ظواهر الفساد.

وكل ما لم يتحدث عنه القرآن فلا يعتبر من دين الله، ولكنه أمور دنيوية، يمكن للناس سن قوانين لها، كما يمكنهم تعديلها وتبديلها بما يتوافق مع الزمان والمكان، ولا ينسبونها لدين الله.

وعندما يحتاجون لفرض تشريع فالقرآن أخبرنا أن التشريع لا يكون بيد شخص ولا جماعة تنوب عن الآخرين، ولكن تفرض التشريعات بموجب استفتاء عام يشارك فيه كل مسلم ومسلمة أو مواطن صالح من غير المسلمين. وهو ما يعرف بقانون الشورى، والذي تحدثنا عنه بالتفصيل في كتاب اسمه: رسالة في الشورى والإنفاق.

وفي هذا الفصل سنعرض ما تم حصره من تشريعات القرآن، متتبعين السور حسب ترتيب نزولها:




مكتبة
الفكر الجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح الوحي «باسم الله»، كونها أول آية في سورة الفاتحة، التي هي أول سور القرآن نزولاً.

وهذا يعني أن أي نشاط ينوي المسلم القيام به لابد أن يبدأ باسم الله، كما بدأ الله سبحانه الوحي. فالبدء باسم الله فُرض في البداية بأسلوب الاقتداء ثم فرض بالأمر المباشر في سور لاحقة.

والقرآن يخبرنا أن سليمان قد بدأ بها رسالته التي وجهها لملكة سبأ: إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) النمل.

وهذا نوح يركب السفينة ويبدأ رحلتها باسم الله: وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) هود.

ثم جاء في القرآن أن كل مأكل حلال إذا ذكر اسم الله عليه (عند الذبح) في خطاب تشريعي: فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١١٨) الأنعام.

ثم جاء أمر صريح في خطاب تشريعي بوجوب ذكر اسم الله قبل أن نُطلق الجوارح أو كلاب الصيد أو السهام أو القذيفة، أو نضع الشباك للصيد: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) المائدة.

فالبدء باسم الله لازم لكل نشاط، والمقصود بالبدء باسم الله هو النشاط نفسه (الكتابة أو الحديث أو الفعل) وليس ما تحويه الرسالة أو الحديث من عبارات وألفاظ تعبر عما يقوله الشخص.

فأنا أبدأ الكتابة مستعيناً باسم الله، وأبدأ الأكل مستعيناً باسم الله، وأبدأ الكلام مستعيناً



باسم الله. ولا تعني أني أكتب أو آكل أو أتكلم نيابة عن الله ..... كما يظن البعض.

القانون: يجب الاستعانة باسم الله قبل البدء بأي نشاط.

ذكر اسم الله قبل الأكل

فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩) الأنعام.

الخطاب هنا تشريعي.

القانون: ذكر اسم الله على الأكل من صفات المؤمن.

القانون: صفات المؤمن تتمثل بالتمسك بالأعمال الصالحة.

وتقول السورة: وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(١٢١) الأنعام.

الآية تشير إلى أن مشركي قريش يعرضون على بعض المسلمين أكل ذبائحهم، والآية تقول لهم لا يجوز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وذبائح قريش لم يذكر اسم الله عليها. وعندما يمتنع المسلمون عن أكل ما يعرض عليهم، يحاول رجال قريش إقناعهم بأنه حلال. فتأتي الآية لتقول إن جدالهم لكم لإضلالكم، ومن وافقهم بأن أكلهم حلال فهو مشرك مثلهم.

القانون: ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه فأكله فسق.

فإن كانت ذبائح قريش التي تتحدث عنها الآية هي مما يذبح على النصب كقرابين للأصنام، فإن أي ذبيحة لغير المسلم إن كان ذبحها للأكل وليست كقربان لآلهة فلا تدخل في هذا التحريم.

وفي هذه الحالة يمكن أن يسن القانون التالي:

يحل للمسلم أكل اللحم الذي ذبحه غير المسلم إن لم يذبح كقربان لآلهة.

لأن التحريم ليس لأن قريشاً الكافرة ذبحت الذبيحة، ولكن لأنها لم تذكر اسم الله عليها عند ذبحها، أي أنها ذكرت اسم الآلهة، وهذا هو سبب التحريم.

ولو أن الذبيحة قام بذبحها ياباني غير مسلم ليأكلها فللمسلم أن يأكل منها.



الحمد لله

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الفاتحة.

الحمد هو الشكر المثالي، وأرفع درجات الشكر، ولا يستحقه سوى الله جل جلاله. فلا يقال لشخص ما: حمداً لك والحمد لك، بل يقال شكراً لك، والشكر لك.

والحمد يكون لله على الدوام في الدنيا: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا(١) الكهف.

ومثل قوله تعالى: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١) سبأ.

والله جل شأنه يُحمد لكل ما أنعم به سبحانه علينا: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ(١٥) النمل.

كما دعا بها إبراهيم في آخر حياته: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٩) إبراهيم.

وكما طُلِبَ من نوح أن يفعل: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٨) المؤمنون.

وكما طلب من محمد: وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً(١١١) بني إسرائيل.

والحمد لله مستمر في الآخرة، فالمؤمنون يحمدون ربهم أن أدخلهم الجنة: وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٧٤) الزمر.

وحمد الله على كل شيء.

وإذا كانت "بسم الله" يُبدأ بها كل نشاط، فإن «الحمد لله» يختم بها كل نشاط.

فهي خير ختام لكلام الرحمن: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٢) الصافات.

والحساب يوم القيامة يختم بها: وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ



وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٧٥) الزمر.

وتقول سورة يونس: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠).

الآيات تتحدث عن أهل الجنة وتقول بأنهم يذكرون الله على الدوام، وتحيتهم السلام، ويختمون أفعالهم واقوالهم بعبارة: الحمد لله رب العالمين.

القانون: تحية المسلم السلام.

القانون: ختم النشاط بالحمد لله رب العالمين فضيلة.

وتقول سورة الصافات: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٢).

كما أن سورة الزمر تتحدث عن الحساب ودخول الناس الجنة او النار وبعد أن ينتهي ويدخل الناس الجنة أو النار وتنتهي أعمال الآخرة تختم الحديث بالحمد لله رب العالمين: وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٧٥).

وبهذا يمكن أن نقتدي. فنختم كلامنا المنطوق أو المكتوب على شكل موضوع بعبارة: والحمد لله رب العالمين. كما بدأناها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

القانون: يختم المسلم كلامه أو خطابه أو كتابته بقول: الحمد لله رب العالمين.

القانون: هذا الختام استخدمه الرحمن، وسيكون من العلامات الفارقة للمسلم.

الله وحده المعبود

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) الفاتحة.

ولا معبود سواه. والعبادة تعني أحد شيئين:

الأول: القيام بعبادة المعبود عبر أوضاع وهيئات محددة يتلو فيها العبد عبارات تمجد المعبود، كالصلاة والحج.



الثاني: قبول تشريعات المعبود، بإتباع كل أوامره، والانتهاء عن كل نواهيه.

والعبادة بشقيها خاصة بالله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له فيها. وأي اتباع لتشريع صادر من غير الله فهو عبادة لمن صدر منه، وإشراك له في العبادة مع الله. ويدخل في ذلك أي تشريع خارج نصوص كتاب الله، ولو نسبت للرسول على شكل حديث. كما يدخل في ذلك فتاوي رجال الدين وتشريعاتهم وما يحللون ويحرمون، ومن تبعهم فقد عبدهم من دون الله.

القانون: الله وحده هو المعبود.

القانون: يحرم قطعياً عبادة غير الله.

القانون: اتباع تشريع لغير الله عبادة للمشرع وشرك بالله.

** وكل الآيات التي تنهى عن الشرك تدخل في هذا.

الله وحده المستعان

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) الفاتحة.

كما أن الله وحده هو المعبود فهو وحده المستعان، لكن هناك تفصيل.

والاستعانة بالله تعني: طلب العون للوصول للهداية، وهذه لا تطلب من غير الله.

أما الاستعانة بأمور الدنيا فتعني أني وضعت ثقتي بربي ليكون معيناً لي في كل ما يصدر مني من قول أو نشاط. والاستعانة بالآخرين في الأمور الدنيوية لا تتعارض مع طلب العون من الله.

القانون: طلب العون للهداية لا يكون لغير الله.

القانون: الاستعانة بالآخرين في أمور الدنيا لا تتعارض مع طلب العون من الله.

القانون: طلب العون من الله في أمور الدنيا لا يعني أن الله سيتدخل مباشرة لعوننا بل يعني أن نعمل ونخلص في العمل ونبحث عن أسباب النجاح وسنصل لها بفضل ما أودعه الله من قوى داخل النفس وقوى أخرى حولنا ستعين على النجاح.



الصلاة واجبة

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩) العلق.

الآيات تتحدث عن نهر أحد كبراء قريش الرسول عندما رآه يؤدي الصلاة، وهي صلاة لا تعرفها قريش واقترن أداء الرسول لها ببعثته. والآيات تقول للرسول أن يصلي ولا يتوقف بسبب نهر القرشي له، وهو ما يعني التالي:

القانون: أداء الصلاة واجب تحت أي ظرف ما دام الإنسان قادراً على أدائها.

وتقول سورة لقمان: الم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

وتقول سورة الشورى في خطاب تشريعي: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

فمن ميزات المسلم أنه يقيم الصلاة، أي يؤديها باستمرار وبلا تهاون.

القانون: إقامة الصلاة عمل صالح.

القانون: التهاون في الصلاة أو تركها كبيرة.

الخشوع في الصلاة

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) المؤمنون.

الخطاب تشريعي.

القانون: من لا يخشع في الصلاة فلم يؤد الصلاة، ومن لا يصلي فقد ارتكب كبيرة.



المداومة على الصلاة

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩) المؤمنون.

وتقول سورة المعارج: إِلَّا الْمُصَلِّينَ(٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(٢٣) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). وتقول: وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٣٤) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥).

القانون: من يترك الصلاة أو بعض أوقاتها كبيرة والوفاء بها عمل صالح.

وتقول سورة الفرقان: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً(٦٤) .... أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦).

تعبير مجازي يقصد به المداومة على الصلاة.

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

والخطاب في الآيات أعلاه تشريعي.

خلع النعلين في أماكن العبادة

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى(١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢) طه.

الخطاب إخباري قصصي.

الآيات تتحدث عن موسى وهو في الوادي المقدس: طوى، حيث التكليم. وقد أمر بخلع نعليه تقديساً واحتراماً للمكان الذي أصبح مقدساً بالتكليم.

ويقاس عليه القانون التالي: وجوب خلع النعلين في المساجد كونها بيوت الله، وبيوت الله مقدسة.

القانون: وجوب خلع النعلين في أي مكان تقام فيه الصلاة ولو لم يكن مسجداً، لأن الصلاة عبادة لله وتقديسه سبحانه يوجب خلع النعلين كما في وادي طوى.

القانون: لا تجوز الصلاة بالنعلين.



الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد

يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) الأعراف.

الخطاب لقريش التي كان رجالها يكثرون من شرب الخمر لدرجة يفقدون الوقار ويرتكبون الفواحش في نواديهم ويخرج بعضهم للمسجد الحرام وملابسه بعيدة عن الحشمة.

المسجد هنا المقصود به المسجد الحرام ولكن يمكن أن يقاس عليه أي مسجد.

القانون: الأمر بأخذ الزينة لدخول المسجد.

القانون: الزينة تعني الملابس المناسبة المحتشمة والنظيفة.

تحريم ترك الصلاة أو الإنفاق لأي سبب أو ظرف

قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ(٣١) إبراهيم.

الآية تأمر المسلمين في مكة الاستمرار بأداء الصلاة (التي لم تحدد لها أوقات لأدائها بعد) والاستمرار بالإنفاق متى وجد محتاج، بغض النظر عن ظروف المسلمين.

الملاحظ هنا هو أن السورة نزلت في وقت اشتدت وطأة قريش على المسلمين، لدخول الكثير من المستضعفين الإسلام. ومن المؤكد أن المسلمين لن يتمكنوا من أداء الصلاة في بيت الله. لكن هذا لا يعني أنه يحل لهم تركها. بل يجب عليهم أداؤها في أي مكان. ولابد أن من أسلم من قريش حتى ولو كانت ظروفه المادية جيدة قبل الإسلام فهو يمر في هذه المرحلة بظروف حرجة لأن قريشاً ستضيق الخناق عليهم وعلى تجارتهم. ومع ذلك فالآية تطلب منهم الإنفاق لمعاونة المحتاجين وخاصة العبيد والموالي السابقين الذين أسلموا. حيث إنه لا دخل لهم وكثير منهم يحتاج لمؤونة الهجرة للحبشة للحاق بمن سبقه هناك.

وهناك عشرات الآيات التي تمر بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة.

القانون: الصلاة لا تسقط على العاقل القادر تحت أي ظرف.

القانون: الإنفاق واجب على الدوام متى وجد محتاج.



القانون: الإنفاق لا يسقط على القادر لأنه يمر بظروف مالية صعبة. بل يجب عليه مشاركة ما يجد مع من لا يجد.

التقويم القمري هو المعتبر للعبادات

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥) يونس.

قدر القمر منازل لتعلموا عدد السنين والحساب.

القانون: التقويم القمري هو المعتمد في دولة المسلمين لأنه تقوم عليه عباداتهم.

القانون: التقويم الشمسي هو الأنسب للزراعة، ولا يتعارض مع اعتماد التقويم القمري للعبادات، وتحديد بدء اليوم.

وبما أن التقويم القمري يعتبر الليلة السابقة تابعة لليوم الذي يليها. فمثلاً عند رؤية الهلال بعد مغيب الشمس أول الشهر فهذا يعني أن يوم الغد أول أيام الشهر.

القانون: اليوم بمعنى (اليوم والليلة) في دولة المسلمين يبدأ بغياب الشمس وينتهي بغياب الشمس من اليوم التالي، أي ليلة كاملة ويوم كامل يليها. ولا يبدأ بمنتصف الليل، كما اقترح الغرب حالياً، بحيث يكون اليوم عبارة عن منتصف ليلة ثم يوم كامل ثم منتصف ليلة تالية.

وجوب التراحم والتلاحم بين المسلمين

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) البلد.

الآيات تخاطب قريشاً التي أعلنت كفرها ولن تتراجع، متسائلة: كيف لا تنتبه قريش إلى أن الله جل وعلا خلق لهم القدرة على البصر والكلام والعقل، فكيف لا يقتحمون عقبة تخطي الموروث ويؤمنون لينعموا بالجنة. والتمسك بالموروث عقبة كأداء، لابد من



تحلي بالشجاعة والإقدام لتخطيها. والإيمان يحتاج معه لعمل لدخول الجنة. ومن العمل
طلوب عند نزول السورة كان بالإنفاق، الذي يجب أن يوجه لتحرير الرقاب من الأسر
لعبودية. ومكة كانت مليئة بالعبيد والموالي الذين استرقتهم قريش للقيام بأعمالها الخدمية.
تحرير الرقاب مبدأ ينص على تساوي الناس في الإنسانية والعيش بكرامة، بلا فروق طبقية
جتماعية وسيد ومسود، وهو ما يجسد التلاحم والتراحم في المجتمع المسلم.

انون: تحرير الاسترقاق.

انون: الإسلام يضمن حق المساواة بين البشر.

انون: لا مكان للطبقية الاجتماعية في الإسلام.

انون: الإسلام يضمن حفظ الكرامة لكل إنسان بغض النظر عن لونه وجنسه ودينه ما
م مسالماً.

انون: لا كرامة مع الفقر والفاقة والعوز. لذا يجب محاربة هذه الآفات والقضاء عليها.

انون: الإنفاق واجب على الأغنياء لسد حاجات المجتمع والأفراد. سواء كانت الحاجة
رئة: «إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. حدثت بسبب أزمة اقتصادية، مما يوجب توفير الغذاء
لحاجات الأخرى للمتضررين. أو كانت ظاهرة مثل رعاية الأيتام وتوفير احتياجاتهم،
لأجواء الصحية والطبيعية لنشأتهم.

انون: يجب القضاء على ظاهرة الفقر والعوز في المجتمع بخطط استراتيجية فعالة وطويلة
ى.

انون: وجوب التلاحم والتراحم بين المسلمين بكافة الوسائل.

انون: الإنفاق وسد حاجة المحتاج وسيلة عملية للتراحم والتلاحم بين المسلمين.

انون: لا يمكن أن يكون المجتمع مسلماً وهناك فقير أو محتاج أو رقيق أو اسير.

انون: تحرير الرقيق واجب. وهو ما خالفه المسلمون في عصور لاحقة بعد عصر النبوة،
سبي واسترقاق للأمم المغلوبة.



العبوس في وجه المسلم

تبدأ سورة عبس بتوبيخ الرسول على موقفه من رجل أعمى قابل الرسول ليستفسر:

عَبَسَ وَتَوَلَّى(١) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى(٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى(٧) وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى(٨) وَهُوَ يَخْشَى(٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى(١٠).

فالرسول عبس وتغيرت ملامح وجهه لأن الأعمى سأله في وقت غير مناسب – حسب تقديره الشخصي – فقد كان مستغرقاً في الحديث مع أحد كبراء قريش الذي كان يصغي لما يسمع من الرسول مما جعل الرسول يظن أنه في طريقه للدخول في الإسلام.

وتوبيخ الرسول على ما حدث، تحريمٌ للعبوس في وجه المسلم، أو الصد عنه. وهذا التشريع المبكر ومنذ الأيام الأولى للإسلام، جاء لضمان حياة كريمة للمسلم، تصان فيها كرامته ومشاعره، ولم يتهاون القرآن مع الرسول، برغم أنه رسول الله، وأنه في بداية الدعوة، والضغوط النفسية عليه كبيرة جداً، وبحاجة للتشجيع وليس التوبيخ، لكن كرامة المسلم فوق كل اعتبار. والله جل وعلا لا يتعامل بالعواطف، فالقانون قانون ويجب أن يحترم مهما كانت الظروف.

القانون: لا يجوز بأي حال من الأحوال العبوس في وجه أي مسلم.

القانون: العبوس في وجه المسلم معصية.

القانون: كرامة المسلم مصانة في كل الظروف ولا يجوز إهانتها أو الإنقاص منها أو مسها بأي حال من الأحوال.

القانون: عندما يستحق شخص اللوم يوجه له اللوم حتى ولو كانت حالته النفسية منخفضة.

خفض الجناح للمسلم واجب

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الحجر.

الخطاب موجه لمحمد عليه الصلاة والسلام، رأس الدولة ورسول الله، ويوجب عليه أن يخفض جناحه للمؤمنين وأن يتعامل معهم بكل رحابة صدر ولين.



القانون: يجب على كل مسئول وموظف أن يتعامل مع المسلم بكل رحابة صدر ولين بعيداً عن الخشونة أو التغطرس والكبرياء.

طرد المسلم كبيرة

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

الخطاب موجه للرسول عندما طلبت قريش منه أن يطرد المستضعفين وسيؤمنون. والآية تتوعد الرسول بأنه لو فعل فسيكون من الظالمين. والظالمون مأواهم النار: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤١) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤٢) الأعراف.

فإذا كان القرآن توعد الرسول لو طرد العبيد والموالي بأنه سيكون من أصحاب النار، فهذا يعني ما يلي:

القانون: الإسلام يوجب العزة للمسلم.

القانون: لا يجوز طرد المسلم لأي سبب.

القانون: طرد المسلم ظلم، والظالم في جهنم.

القانون: طرد المسلم كبيرة.

القانون: تسن عقوبات رادعة لمن يطرد مسلماً أو يسيء معاملته.

القانون: ما يجب للمسلم هنا يجب لغيره من غير المسلمين المسالمين.

القانون: كما تسن قوانين كفيلة بحماية المسلم خارج دولته.

احترام شخص المسلم

وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤) الأنعام.

الآيات تخاطب الرسول وتوجب عليه أن يخفض جناحه للمسلم.



القانون: يجب أن يعامل المسلم بكل ود.

القانون: يجب أن يعامل المسلم بكل بشاشة.

القانون: يجب تدريس التعامل الودي ونشره كثقافة اجتماعية.

القانون: يجب وضع برامج توعية مستمرة للتعامل الراقي بين الناس.

القانون: كل ما يجب للمسلم يجب لكل مسالم.

التعايش السلمي بين الناس بغض النظر عن المعتقد

لا يوجد في القرآن آية واحدة تقول بعداء الناس لأنهم ليسوا مسلمين أو لم يقبلوا بالإسلام. والمتتبع للحروب التي وقعت زمن رسول الله والخلفاء الثلاثة من بعده سيجد أنها كانت حروباً دفاعية عن بقاء الإسلام ودولته، ومختلفة عما يمارس في حروب ذلك الزمان من وحشية وتعديات. فلم تسب النساء ولم يقتل المسالمون ولم يعتد على أملاك أحد. برغم ما ترسخ بين غير المسلمين من أن الإسلام انتشر بالسيف وأنه يخير أهل البلاد المفتوحة بين ثلاث: إما الإسلام، أو الجزية (ضريبة يحدد مقدارها الغزاة)، أو القتال. والقتال يعني قتل كل من يعترضهم أو يرفع السلاح عليهم، وسبي نسائهم واغتصاب أملاكهم. وهذه الممارسات وقعت بالفعل، لكن بعدما استولت قريش على الحكم في العصر الأموي وما بعده. فقد ابتدرت تلك الدولة الناس المجاورين لها بالحرب من أجل التوسع وزيادة الخراج والجزية التي كانت تصب في خزينة الحاكم، ولم تكن جهاداً في سبيل الله. فتمددت تلك الدولة بسرعة مفرطة وفي وقت قصير وصلت فرنسا غرباً والصين شرقاً، ومورست فيها التعديات على المسالمين وعلى الأملاك وسبيت النساء. وقد ساهم رجال الدين في أسلمة تلك الممارسات الشنيعة، بأحاديث وقصص مختلقة نسبت للرسول، وتطورت لتكون علماً قائمة بذاتها من بينها ما عرف بالناسخ والمنسوخ. وفي هذا «العلم» الضار قال رجال الدين إن كل الآيات التي تدعو للتعايش في القرآن وعددها يربو عن (١١٠) آية نسخت بآية واحدة أسموها: «آية السيف». وآية السيف في الواقع أربع آيات كل واحدة منها تسمى آية السيف، وكلها في سورة براءة التي نزلت قبل وفاة الرسول ببضعة أشهر. ولو وافقناهم فكأن الرسول طوال عمره كان ملتزماً بقتال من يبدأ بقتال المسلمين ويعتدي عليهم، ولا يقاتل إلا المقاتلة منهم ويتجنب المسالمين. وقبيل وفاته نزل عليه الوحي يأمر الناس بقتال



كل الناس والاستيلاء على أراضيهم ونهب ممتلكاتهم وسبي نسائهم.

وسورة براءة تتحدث عن قريش التي خانت معاهدة وقعتها مع المسلمين يوم فتح مكة، وتعطيهم مهلة أربعة أشهر للعودة والالتزام وإلا سيشن عليهم المسلمون حرباً شاملة ويلاحقون ويقضى عليهم أينما كانوا لأنهم استمروا في حرب الإسلام والكيد له، ووجودهم خطر عليه. كما أن السورة تأمر بقتال كل من اعتدى على المسلمين من قبائل جزيرة العرب أو من أهل الكتاب الذين تعاونوا مع قريش ومع الروم والفرس للقضاء على الإسلام ودولة المسلمين. ولا تتحدث السورة عن حرب غير أولئك المعتدين، بل إن السورة ذاتها تُذكّر المسلمين بالالتزام بتجنب حرب المسالمين ولو كان قومهم ممن اعتدى على المسلمين: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) براءة.

والسورة توجب إجارة المشرك إذا استجار بالمسلمين ولجأ إليهم، ولو كان قومه محاربين للمسلمين: وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٥) براءة.

ولو عرض على المستجير الإسلام ولم يقبله فلا يقتل أو يسلم لقومه ليقتلوه على هروبه منهم، بل يوصل لمكان آمن.

وتؤكد السورة أن الأصل في تعامل المسلمين مع غيرهم هو التعايش السلمي، ولا يجبر أحد على قبول الإسلام: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٨) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(٢٩) براءة.

وفيما يلي نورد الآيات التي سمتها كتب التراث بآية السيف وبيان كيف تأولوها لغير معناها واقتطعوها من سياقها ومن تخاطب:

الآية الأولى: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) براءة.

والحديث في الآية عن قريش التي خانت معاهدة يوم الفتح مع المسلمين، ضمن سياق



الآيات من بداية السورة كما يلي: بَرَاءَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) براءة.

ولا شأن للآيات بقتال الناس الذين لم يعتدوا على المسلمين.

الآية الثانية: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

والمقصود هنا هم قبيلة من بني إسرائيل يثرب تعاونت مع أعداء الإسلام وظاهرت على المسلمين في حنين، والسورة توجب أن يهاجموا ويقاتلوا حتى يقبلوا بدفع جزية (جزاء وتعويض) للمسلمين على ما تسبب فيه مظاهرة أعداء الإسلام عليهم. وهي خاصة بهم دون الناس، لكن المسلمين في عصور لاحقة جعلوها ضريبة تفرض على كل من لا يرغب في دخول الإسلام من البلاد التي يستولي عليها المسلمون[٢].

الآية الثالثة، هي جزء من الآية ٣٦ ونصها: « وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً".

وتمام الآية هو: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) براءة.

والمقصود «بالمشركين كافة» هم تلك القبائل التي قاتلت المسلمين كافة عوناً لقريش وحرباً على الإسلام، في الأحزاب وحنين، فأولئك يقاتلون كافة عقاباً لهم على البدء بحرب المسلمين.

---

٢ انظر تدبر سورة براءة.



الآية الرابعة، هي جزء من آية، ونصها: «انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا».

وتمام الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(٣٨) براءة.

لقد كان هناك حرب شعواء على المسلمين من قريش والقبائل وأهل الكتاب ومن ورائهم الروم والفرس، وتجلى هذا في موقعتي الأحزاب وحنين. وبالتالي فالجيش الإسلامي يحتاج لكل مسلم ولكل عون وإسهام في تجهيز الجيش لحرب أولئك المعتدين، ولا تتحدث عن قتال أي أناس فقط لإجبارهم على الإسلام أو لسبي نسائهم والاستيلاء على أملاكهم.

وهناك آيات سيف أخرى عند من قال بالناسخ والمنسوخ منها: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

وسورة محمد نزلت قبل معركة بدر – كما سبق ورأينا في قسم التدبر – وتحث الناس على الخروج لحرب قريش التي ثبت يقيناً أنها تعد العدة للقدوم لحربهم ولن تتركهم بعد أن هاجروا ليثرب وغادروا مكة. وتضع السورة وسور أخرى نزلت في نفس الفترة بعض الضوابط للقتال المرتقب، ومنها ما تتحدث عنه الآية. ومن ذلك ألا يكون هناك أسر لكفار قريش لأن قريشاً أقوى من المسلمين وأكثر عددا، ولكن يقتلون لكي يثخنوا (يضعفوا) وتقل قوتهم ويسلم المسلمون من شرهم. ومتى أصبح المسلمون هم الأقوى وقريش أو أي عدو هو الأضعف، فللمسلمين حق الأسر بل ويفضل الأسر. وبعد انتهاء المعركة للمسلمين الحق بالمن على الأسير وتحريره دون مقابل لأن ذلك سيؤلف قلبه على المسلمين ويبث دعاية حسنة عنهم وأنهم تعاملوا معه بإنسانية. أو يكون فك أسره بفدية يستعين بها المسلمون على تجهيز جيوشهم وسد حاجات مجتمعهم. ولم تقل الآية باسترقاق الأسرى، كما أنه لا شأن للآية بنسخ آيات التعامل الإنساني والتعايش السلمي مع المسالمين من غير المسلمين.

وسورة براءة نزلت قبل وفاة الرسول ببضعة شهور – كما أسلفنا – وبالتالي فكل حروب الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده لدفع العدوان ولم تبادر أحداً بالحرب. وكانت استثناء



من كل حروب ذلك العصر، فلم يعتد فيها على مسالم ولم تسب نساء المهزومين ولم تغتصب أملاكهم.

وممارسات دولة قريش الأموية والعباسية التي اتسمت بالتسلط والسبي وابتدار الناس بالحرب، وإن كانت غير مبررة ولا مقبولة إلا أنها كانت سمة لكل الحروب في ذلك العصر في كل العالم القديم، وليست وقفاً على المسلمين. لكن روما الكاثوليكية كانت وراء ترسيخ أن هذه الممارسات إسلامية يدعو لها القرآن، لأنها طردت وأهينت على أيدي المسلمين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجزيرة ليبيريا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط، بل إن مدينة روما – معقل الفاتيكان – كانت قاب قوسين من السقوط في أيديهم.

وفي هذا الفصل سنورد أدلة من القرآن الكريم تحث على التعايش السلمي مع كل المسالمين بغض النظر عن المعتقد، وتوجبه على المسلمين، للتأكيد على أن الإسلام دين سلام، وليس دين حرب مع كل من يقبل التعايش معه بسلام. أما من يبادر الإسلام والمسلمين بالعداء والحرب أو المكائد فيجب حربه بقسوة وبلا هوادة والقضاء عليه لئلا يقضي على دين الله:

في بداية الدعوة وردت آيات تحث على الإنفاق لتحرير الرقاب ومعاونة المسكين وإطعام الأسير وسد حاجة كل محتاج، ومن ذلك: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) البلد.

وكانت دعوة عامة للمسلمين ولغيرهم من أهل مكة، فتجاوب معها أحد كبراء قريش الأثرياء، وقام بدفع قدر من المال للمساهمة في الإنفاق الذي يصرف على احتياجات المحتاجين في المجتمع بغض النظر عن المعتقد. وبما أن الحاجات مستمرة فقد طلب منه أن يستمر في الإنفاق لكنه امتنع، كما تخبرنا سورة النجم: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى(٤١).

ثم نزلت سورة الهمزة: وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ(٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ(٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ(٩).



وهي تتوعد من يجمع المال ولا ينفقه في مصلحة المجتمع والتكافل الاجتماعي. والمقصود هنا كبراء قريش الذين يملكون الأموال الطائلة ولا ينفقون منها القليل لسد حاجة المحتاجين في مكة. وهذه السورة والآيات السابقة التي تتحدث عن القرشي الذي أنفق مرة وتوقف، دليل على أن الإسلام سعى للتعايش السلمي مع قريش الكافرة إذا ما قبلت الإسهام في الإنفاق للصرف على المحتاجين بغض النظر عن المعتقد، لكن قريشاً لم ترغب في ذلك.

وتقول سورة سبأ: قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠).

قريش تعتبر الرسول ومن تبعه ضالين، والآية تقول إن كُنْتُ (أنا محمد) قد ضللت، فضلالي على نفسي ولا يوجب حربكم علي.

وتقول سورة الكافرون: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ(٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(٦).

دعوة صريحة للتعايش السلمي في مكة بين المسلمين وغيرهم، لكن قريشاً لم تقبل بالتعايش السلمي مع المسلمين وحاربتهم. لأنه لم يحدث أبداً في كل المجتمعات وفي كل زمان ومكان، أن تُرِكَ الناس يؤمنون بما يشاؤون دون محاربتهم والتضييق عليهم. حتى في أوروبا الكافرة فمن يغير دينه يعاديه أهله وأصدقاؤه، برغم أن القوانين تنص على حرية المعتقد.

وجاء في سورة يونس: وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٤١).

الآية تكرر ما طلبته آيات في سور أخرى للتعايش السلمي بين المسلمين وقريش، لكن قريشاً رفضت وستستمر بالرفض ولن تقبل أبداً ولن تتوقف عن عداء المسلمين.

وتقول سورة الأنبياء: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ(١٠٩).

ومثله: وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ(٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨) فصلت.

والآيات تطلب من قريش الكافرة أن تنفق لبناء مجتمع متسامح ومتعاون بغض النظر عن العقيدة، لأن الكفر لا يلغي التعامل الإنساني: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى



وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) لقمان.

القانون: الكفر لا يبيح معاملة الكافر المسالم بجفاء أو كراهية، بل يجب معاملته بإنسانية ومعروف.

وبعد أن تنهى سورة الممتحنة مسلمة قريش من موالاة ومودة مشركي قريش لأنهم أخرجوا المسلمين من مكة ولو ظفروا بهم فسيبيدونهم، تقول السورة: عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩).

فحتى مشركو قريش الذين ناصبوا الإسلام والمسلمين العداء وسعوا للقضاء عليهم، يأمر القرآن المسلمين أن يتعاملوا مع المسالمين من قريش – إن وجد بينهم مسالمين – بالحسنى والمعروف والمودة.

القانون: الأصل في تعامل المسلم مع غيره هو المودة والحسنى.

وليس في القرآن آية واحدة تشير ولو إشارة خفية إلى إباحة بدء الناس بالقتال والغارة عليهم وسلبهم أموالهم واستحياء نسائهم. لكنها كتب التراث التي صبغت الإسلام بصبغتها المقيتة.

مخالطة من يسخر من القرآن

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٦٩) الأنعام.

الآيات تشير إلى أن الرسول كان يخالط بعض مشركي قريش ويشاركهم مجالسهم، ولم تنهه عن ذلك إلا في حال تعرضوا للقرآن بالسخرية.



القانون: مخالطة الناس بغض النظر عن المعتقد هي الأصل.

القانون: في حال سخر غير المسلمين من القرآن فلا يجوز مجالستهم أثناء سخريتهم.

القانون: يمكن معاودة الجلوس معهم لو كفوا عن السخرية من القرآن" وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ".

القانون: في حال عاودوا السخرية من القرآن فلا يجوز مخالطتهم أبداً « وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

القانون: على كل المسلمين الدعوة لله، دون أن ينصبوا أنفسهم هداة لدين الله والاكتفاء بما أمر به الرسول من تبليغ القرآن فقط « وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (لا للوعظ القصصي).

وتقول سورة النساء: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا(١٤٠).

القانون: لا يجوز القعود ولا الحديث مع من يسخرون من القرآن أو يتقولون عليه أو يؤولون عباراته لغير معناها.

التعامل مع الوالدين

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) لقمان.

القانون: يجب على الولد شكر والديه وإظهار العرفان لهما.

القانون: لا يطاع الوالدان في معصية الله.

القانون: كفرهما ليس سبباً في هجرهما أو التعامل معهما بغلظة.

القانون: الوالدان الكافران تجب لهما الطاعة والتعامل اللطيف والإحسان كما المؤمنين.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً .... (٢٣).



الإحسان يدخل فيه كل تعامل حسن ودود وكل معاونة مادية أو معنوية أو مشاركة وجدانية.

القانون: الإحسان للوالدين عمل صالح، ومخالفته كبيرة.

وتقول نفس السورة: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) بني إسرائيل.

القانون: مجرد التأفف وإظهار الانزعاج أو الملل منهما مخالف للإحسان إليهما.

القانون: نهر الوالدين أو توجيه كلام بذيء لهما مخالف للإحسان.

القانون: القول الكريم والكلام الودي اللطيف هو ما يجب أن يعامل به الوالدان.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤).

القانون: من الإحسان للوالدين إظهار التذلل لهما.

القانون: الدعاء لهما من الإحسان لأنه يدخل البهجة لنفسيهما.

القانون: حقوق الوالدين لا تسقط بكفرهما.

وتواصل نفس السورة قائلة: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً(٢٨).

القانون: إذا كان الوالدان (أو أحدهما) كافراً فمن حق الولد الإعراض عنهما. والإعراض هنا يعني عدم مشاركتهما في أي نشاط مخالف للدين.

القانون: كفر الوالدين لا يسقط حقوقهما.

القانون: كفر الوالدين لا يبرر هجرهما.

القانون: الكلام اللين والميسور للوالدين من حقوقهما ولو كانا كافرين.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ...... (١٥١).

القانون: الإحسان للوالدين بالقول والفعل والعون المادي والمعنوي عمل صالح.



الغش التجاري

أول سورة ذكرت الغش هي سورة المطففين: وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦).

وبما أن القرآن لا يفترض واقعة ويتحدث عنها، ولكن السورة تنزل لتتفاعل مع ما يجري على الأرض عند نزولها، فالحديث عن المطففين هنا يشير إلى أن بعض تجار مكة يتعاملون بالغش التجاري كونهم يبحثون عن الربح بأي وسيلة. وهو منطق رأسمالي ما زال حياً بيننا إلى اليوم. فالغرب الرأسمالي أغرق أسواق العالم بأطعمة ومنتجات غذائية متنوعة كلها تحوي على أضرار جسيمة للمستهلك وتسبب أمراضاً مهلكة. والرأسمالية تعتمد في تسويق منتجاتها على الإعلانات الدعائية التي تقوم على جذب المستهلك وليس على توضيح محتويات السلعة. حيث نجد إعلاناً عن مشروب غازي أو وجبة سريعة يبين كم هي لذيذة المذاق، لكنه يتجاهل أنها تحوي دهوناً ثلاثية وأصباغاً ومواد مسرطنة. فالمهم في الفكر الرأسمالي هو الربح وليس المصلحة العامة، وهو مناقض لما يدعو له الإسلام.

ونعود للآيات التي تبدأ مع لفظ وعيد «ويل» المستخدم في اللغة العربية حتى اليوم بنفس المعنى وفي كل اللهجات العربية، لكن المفسرين أولوه ليكون وادياً في جهنم، وكلامهم لا عبرة به ولكن يُظهر أنهم يجهلون العربية وأن مجتمعاتهم التي عاشوا فيها مجتمعات انتشرت فيها العجمة لا تماثل من تخاطبهم السورة وقت نزولها.

والآيات تتوعد بشدة المطففين من قريش، الذين وصفتهم بأنهم: «إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ». فهم لا يشترون إلا الجيد والنافع من البضائع ولكنهم يبيعون بضائع مغشوشة ورديئة. وتحريم الغش التجاري يشمل كل نوع أو أسلوب للغش التجاري، الذي اعتبرته السورة من أعظم الكبائر. ويدخل في ذلك الإعلانات التجارية التي تروج لمنتج بإخفاء أضراره. أو تبالغ بمنافعه أو الحديث عنه بما ليس فيه. كما أن قوانين مكافحة الغش التجاري المستمدة من القرآن تلزم المنتجين أو المستوردين ببيان كل محتويات المنتج وما تسببه من أمراض أو ضرر بالصحة وما تفيده وما تنفع له بكل شفافية. وهذا سيغير جذرياً الإعلانات وكذلك المنتجات المباعة. ولن يكون



هناك مجال في دولة المسلمين لبيع المشروبات أو المأكولات الضارة. فالقرآن قال بحرمة الغش التجاري وترك للمسلمين حق تشريع القوانين الرادعة التي تضمن ذلك.

القانون: الغش التجاري بكافة أساليبه وطرقه، وفي كل مراحل الإنتاج، كبيرة.

القانون: الإعلانات التجارية التي لا تبين حقيقة المنتج والضار منها والمفيد تدخل ضمن الغش التجاري.

القانون: الإعلانات التجارية يجب أن تقوم على بيان حقيقة المنتج وليس التسويق لبيعه.

القانون: تشرع العقوبات الرادعة لكل من يقوم بإنتاج أو بيع أو تسويق أي منتج مغشوش.

القانون: المنتج المغشوش يعني كل منتج مضر بالصحة أو البيئة، أو يحوي عيوباً تصنيعية.

وجاء في سورة الرحمن: وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(٩).

فالله جل وعلا خلق الكون بالميزان أي بدقة مثالية، وأوجب أن يكون التعامل التجاري بدقة مثالية لا طغيان فيها ولا ظلم متمثل بالغش (الخسران في الميزان).

القانون: يجب أن تخلو التعاملات التجارية من أي مظهر من مظاهر الغش بأي أسلوب ولو خفي على العميل.

القانون: التجارة أمانة ويجب أن تتم بكل نزاهة وشفافية.

القانون: الله خلق كل خلقه بدقة مثالية، والتعامل التجاري يجب أن يكون بدقة ونزاهة متناهية.

القانون: يجب القضاء النهائي على كل أنواع وأساليب الغش التجاري بأنواعها.

القانون: كل ما يؤدي للغش فهو غش يجب محاربته بنفس الصرامة التي يحارب فيها الغش.

وتقول سورة الأعراف في حديثها عن قوم شعيب: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٨٥) الأعراف.

والآيات تظهر أن الغش التجاري فساد في الأرض.



وتقول سورة بني إسرائيل: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥).

وتقول سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

الوفاء بالكيل والوزن بالقسط يعني بلغة العصر عدم غش المنتج بأي وسيلة والبعد عن التدليس في الدعاية له.

القانون: أي تدليس في التعامل التجاري كبيرة.

القانون: إخفاء أي حقيقة في المنتج يعتبر غشاً تجارياً.

القانون: يجب فرض عقوبات رادعة لكل من يخالف قوانين الحماية من الغش.

القانون: يجب التوعية المستمرة من الغش.

وتقول سورة البقرة: وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨).

وأكل أموال الناس بالباطل (بغير وجه حق مشروع) فهو تحايل ومن الغش التجاري.

القانون: يجب سن القوانين التي تحمي الناس من التحايل.

القانون: يجب سن العقوبات الرادعة لمن يتحايل.

وتقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً(٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً(٣٠)

لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تعني بلغتنا البسيطة: لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل (بالتحايل) لأن الشخص لا يتحايل ليأكل ماله هو بالباطل.

والتحايل هو نوع من الغش التجاري وإخفاء الحقائق والتدليس في البيع والشراء. أما الحلال فهو عرض البضاعة كما هي وبيان عيوبها ومحاسنها ومن رغب شراءها حصل عليها.



السورة هنا تفرض تشريعاً (قانون) يحرم أي نوع من أنواع الخداع والحيل للاستيلاء على أموال الغير، ومن يفعل ذلك فسيصلى النار. سواء تعرض لعقوبة بشرية في الدنيا أو لم يعاقب.

القانون: المسلم لا يغش، ومن يغش فقد ارتكب كبيرة، ومرتكب الكبيرة عالماً بحكمها فليس بمسلم ولو تسمى بالإسلام.

وتقول سورة الحديد، ومما جاء فيها: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥).

والآية تؤكد أن التعامل بين الناس يجب أن يقوم على القسط، وهو أعلى مراتب العدل. ولو أردنا أن نستخلص قانوناً مدنياً يعمل به في دولة الإسلام لكان كما يلي:

- وجوب أن يكون المشتري على علم تام بقيمة إنتاج السلعة – إن كانت منتجة محلياً – وكل التكاليف الأخرى ونسبة ربح المنتج وربح بائع الجملة وربح بائع التجزئة. ويكون سعر السلعة محدداً بناء على ما تقدم.
- وجوب معرفة المستهلك لكل ما تحتويه السلعة من عناصر.
- يجب عدم السماح ببيع أي سلعة تحتوي على مضار صحية أو بيئية أو أي مضار أخرى.

وهكذا ... ويجب سن قوانين واضحة شاملة تضمن خلو السوق من الغش، وتحمي المستهلك والبيئة. ومن ذلك عقوبات رادعة للتجاوزات في الدنيا، تسبق عذاب النار في الآخرة.

ومما تقدم يمكن تعريف الغش بصيغ عدة، منها:

ممارسة متعمدة للكسب غير المشروع أو العادل أو النزيه، عبر تضليل وتوجيه متعمد لإخفاء حقيقة المنتج عن المستهلك.

مهارة شيطانية للإقناع بقبول ما لا يقبل، وخداع وتغرير لاستغلال جهل وحاجة المستفيد لتصريف بضاعة أو خدمة سيئة.

وخيانة للأمانة وموت للضمير، واحتيال وغدر للكسب المادي.



ويدخل فيه صناعة أو بيع أو تسويق أو ترويج سلعة أو خدمة رديئة أو تحتوي على محاذير صحية أو مبالغة في أسعارها.

الغش التجاري، إذاً، يمكن تعريفه بصيغ عدة، مثل:

هو عبارة عن ممارسة متعمدة للكسب غير المشروع أو العادل. فهو تضليل وتوجيه متعمد لإخفاء الحقيقة. ومهارة شيطانية للإقناع بقبول ما لا يقبل. وخداع وتغرير لاستغلال جهل وحاجة المستفيد لتصريف بضاعة أو خدمة سيئة. و خيانة للأمانة وموت للضمير، واحتيال وغدر لتبرير الوسيلة للكسب المادي.

الإنفاق (تعامل)

هو مصطلح يعني أن يدفع القادر جزء من ماله كلما كان هناك حاجة لمحتاج أو للمجتمع، دون انتظار لاسترداد ما ينفق. ومن مسمياته في القرآن: الصدقات، ويدخل فيه ما أسماه القرآن الإحسان. وقد عطل العمل بالإنفاق كما ورد في القرآن منذ العصر الأموي واستبدل بما يعرف اليوم بالزكاة، مع أن الزكاة تأتي في القرآن لوصف الإنفاق وليس للدلالة على تشريع مستقل.

والزكاة الحالية يخلو القرآن من ذكر نصابها والنسبة الواجبة لدفعها وشروطها وكل ضوابطها. فكل ما يطبق باسم الزكاة هو مجرد فقه بشري محض يعتمد على ما ورد في كتب التراث ولا وجود له في القرآن. بينما يتكرر الأمر بالإنفاق كثيراً في القرآن منذ بداية الدعوة (سورة المدثر) وحتى وفاة رسول الله (سورة براءة)، مؤكداً أنه يجب أداؤه على المسلم القادر متى كان هناك حاجة سواء كانت لأفراد أو للمجتمع ككل. كما أن الإنفاق القرآني يشمل الدعم المالي والتعامل الإنساني واللباقة الاجتماعية، مما يوجد الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع. ويضمن حياة كريمة لكل محتاج دون إهدار لكرامته أو النيل من إنسانيته.

ولأنه تم الحديث عن الإنفاق في كتاب مستقل فلن نعيد الحديث عنه هنا. والكتاب اسمه: رسالة في الشورى والإنفاق[٣].

---

٣ من منشورات الجمل.



النهار للمعاش والليل للسبات

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً(١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً(١١) النبأ

القانون: كل الأعمال التجارية تكون في النهار.

القانون: العمل بالليل للأعمال الضرورية التي يحددها وينص عليها القانون.

القانون: يجب تحديد الأعمال التي يسمح بمزاولتها في الليل.

تحريم الطغيان

فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) النازعات.

كل من يؤثر مباهج الحياة على الآخرة فهو في النار.

وكل من يطغى ويتجبر فهو في النار.

وعادة من يطغى ويتجبر فهو ممن يؤثر مباهج الدنيا.

القانون: مباهج الدنيا لا يجب أن تؤخذ كغاية وهدف.

القانون: التكبر والغطرسة من الممارسات المحرمة التي يجب أن يحاربها المجتمع المسلم.

القانون: فرض توعية مستمرة للبعد عن أي مظهر من مظاهر الطغيان والغطرسة.

القانون: فرض توعية مستمرة لزرع أن مباهج الحياة ليست هدفاً بذاتها ولكنها وسائل لعمل الخير وما ينفع الناس.

النهي عن الصغار والذلة والبعد عن الكبرياء

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨) لقمان.

الآية تورد ما قاله لقمان لابنه وهو يعظه، وهو مما فهمه من تعاليم الدين.

القانون: نهي المسلم عن الصغار والذلة.

القانون: المسلم عزيز ويجب أن يبقى عزيزاً لا يهان.

القانون: البعد عن أي شكل من أشكال الكبرياء والخيلاء.



وتقول سورة الفرقان: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً(٦٣).

المشي على الأرض هوناً تعبير مجازي يقصد به البعد عن الخيلاء.

القانون: كل تصرف أو قول فيه رائحة كبر وخيلاء فهو كبيرة.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً(٣٧).

القانون: أي نوع من الخيلاء كبيرة.

القانون: يجب على الإنسان أن يتصرف كإنسان بحجمه الطبيعي بلا خيلاء وبلا صغار.

وسورة القصص بعد أن أخبرت عن قارون وأنه كان يملك المال وكان متكبراً تقول: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣).

العلو التكبر والخيلاء، والفساد يكون بالظلم والتعدي.

القانون: الجنة لا تكون لمتكبر أو ظالم أو معتد.

التوبة

يقول تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٢٥) الشورى.

فهل يقبل عز وجل التوبة على الدوام وبلا شروط؟

وهل يعفو سبحانه عن أي سيئة؟

وتقول سورة غافر: غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ(٣) غافر.

فمن الذي يُغفر ذنبه، وتُقبل توبته؟

ومن الذي ينتظره عقاب شديد؟

سنحاول الإجابة فيما يلي:



توبة غير المسلم

دخول الإسلام يعني التوبة عن الكفر، وهذه التوبة مقبولة في أي وقت ما لم تحضر الوفاة، لأن الله جل وعلا لم يقبل توبة فرعون: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) يونس.

القانون: غير المسلم يمكنه الدخول في الإسلام في أي وقت يشاء ما لم تحضره الوفاة.

القانون: توبة الكافر أو مرتكب الكبيرة عند الوفاة لا تقبل.

وقد أكدت هذه الحقيقة سور كثيرة نختار منها ما ورد في سورة غافر: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(٨٥).

والآيات تخاطب قريشاً وتدعوهم للتفكير والاعتبار بما حدث لأمم سابقة هلكت وهي كافرة.

وتقول بأن بعضهم حاول أن يعلن إيمانه وتوبته لما رأى أن الكارثة حلت بهم، لكن مثل هؤلاء لن تقبل توبتهم لأنها جاءت متأخرة ولم يؤمنوا وقت الرخاء. وهذا دليل على أن التوبة لا تقبل من الكافر عند الموت، وهو ما يخالف ما تقول كتب التراث من أن التوبة مفتوحة حتى الغرغرة، لأن العاصي مصيره مصير الكافر ولو كان يعلن الإسلام كما سنرى.

القانون: التوبة للكافر أو مرتكب الكبيرة لا تقبل عند تأكد وقوع الكارثة كالزلزال أو البركان أو غيرها.

القانون: الكافر ومرتكب الكبيرة إن كان عالماً أن ما يفعله كفر أو كبيرة، فلا تقبل توبته عند العجز.



التوبة للمسلم

عندما يعتنق المرء الإسلام فهو قد وقع عقداً وعهداً وميثاقاً مع الله تنص بنوده على طاعة كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) المائدة.

القانون: دخول الإسلام يعني توقيع ميثاق وعهد مع الله يستمر مدى الحياة يقوم بموجبه العبد بطاعة كل أمر إلهي والانتهاء عن كل نهي إلهي، مقابل أن يحصل على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

والدين كل لا يتجزأ، وهو ما يمكن فهمه من الآيات التالية التي تخاطب بني إسرائيل: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) البقرة.

وشاهدنا هو قوله تعالى: « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ:".

القانون: الدين كل لا يتجزأ، وترك بعضه كتركه كله.

وتعهد المسلم بطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه يقابله تعهد من رب العالمين له بسعادة في الدين (لو طبق تشريعات القرآن):

الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ(٨٢) الأنعام.

القانون: من يؤمن ولم يدنس إيمانه بظلم (كبائر) فلهم الأمن.

ويقول تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٦) الأعراف.

القانون: سعادة الدنيا مضمونة لمن يؤمن (ويعمل صالحاً).



كما يتعهد رب العالمين للمسلم بجنة في الآخرة: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً (١٢٢) النساء.

القانون: الجنة مضمونة بالإيمان والعمل الصالح.

والآن: هل لمرتكب الكبيرة وهو مسلم توبة؟

يقول تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٢١) الجاثية.

من اجترح السيئات (الكبائر) ولو كان مسلماً فمصيره لن يكون كمصير من آمن وعمل صالحاً. وبما أن الآخرة فيها طريقان: الجنة، أو النار، فمن كان مصيره مختلفاً عن مصير من آمن وعمل صالحاً، فهو في النار.

والآية تقول بأن من اجترح (اقترف وكسب) الكبائر فهو في النار. وهذا لمن لم يتب.

أما من تاب فتقول عنه سورة غافر: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧).

المغفرة للذين تابوا، وهو ما يؤكد أن التوبة متوفرة.

وتقول سورة الفرقان بعدما سردت بعض الكبائر: وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً(٧١).

لكن التوبة ليست مطلقة ومتيسرة في أي وقت وفي كل الظروف، ولكنها مقيدة بضوابط بيّنها كتاب الله، ومن ذلك:

ما ورد في سورة النساء: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٧).

الضوابط المذكورة في الآية لقبول التوبة، كما يلي:



- «للذين يعملون السوء بجهالة» تقبل التوبة لمن يعمل السوء (الكبائر) جاهلاً حكمها في الإسلام أبداً أو في تلك اللحظة.
- «ثم يتوبون من قريب» يجب أن تكون التوبة مباشرة بعد كسب الكبيرة.

«من قريب» تعني مباشرة بعد اقتراف الكبيرة. فقريب تعني وقتاً قصيراً، أي وقت غير بعيد. وهو ما يمكن فهمه مما ورد في سورة النمل أثناء الحديث عن تفقد سليمان لطيوره، وملاحظته أن الهدهد متغيب: وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ(٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(٢٢).

وشاهدنا من الآيات هي قوله: «فمكث غير بعيد». والمقصود هنا هو أن سليمان بعدما افتقد الهدهد لم يمكث غير قليل من الوقت وحضر الهدهد المتغيب. «فمكث غير بعيد» تعبير عن الوقت القصير، وهو نفس التعبير الذي استخدمته سورة النساء لتقول بأن شرط قبول التوبة يجب أن يتبع الفعل مباشرة دون تأخير: « ثم يتوبون من قريب».

القانون: تقبل توبة من اقترف الكبيرة لمرة واحدة جاهلاً حكمها وما يترتب عليه في الآخرة.

فقد يعرف العاصي أن الخمر حرام لكن غاب عنه أن من لا يتوب عنه «من قريب» سيخلد في النار.

القانون: تقبل التوبة ممن اقترف الكبيرة وتاب مباشرة ودون تأخير.

وما ذكرته سورة النساء سبق وجاء في سورة الأنعام: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤).

القانون: التوبة تقبل من الجاهل للحكم، إذا أصلح.

"أصلح" تعني استمر بفعل الأعمال الصالحة ولم يعد لاقتراف كبيرة.

القانون: قبول توبة من يقترف كبيرة جاهلاً بحكمها، ولا يعود لها مرة أخرى ولا لغيرها من الكبائر ويستمر بالأعمال الصالحة.

في المقابل!

كل من يخالف ضوابط قبول التوبة لا تقبل توبته، ويستفاد من ذلك القوانين التالية:



القانون: كل من يرتكب كبيرة وهو عالم بحرمتها فلا تقبل توبته.

القانون: كل من يستمر بفعل كبيرة عالماً بحكمها فلا تقبل توبته.

وقد ذكرت سورة النحل نفس هذه الضوابط: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩).

القانون: تقبل توبة من يعمل السوء (الكبيرة) بجهالة، بشرط أن يتوب (مباشرة) ويصلح بعدها.

"أصلح" استمر في عمل الأعمال الصالحة والبعد عن السوء (الكبائر).

القانون: من عاود الكبيرة فقد خالف ضوابط التوبة، ومن خالف ضوابط التوبة فلا توبة له ولو بقي يعلن الإسلام.

ومعاودة الكبيرة أو الإقدام عليها ولو لمرة واحدة عالماً بحكمها يعتبر نقضاً للميثاق الموقع مع الله: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ (٢١) الرعد.

وقد توعدت نفس سورة الرعد من يفعل ذلك: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) الرعد.

القانون: فعل الكبيرة عالماً بحكمها نقض لعهد الله.

القانون: من ينقض العهد مع الله وهو عالم فليس له توبة.

وتؤكد سور كثيرة أن عدل الله المطلق يحتم عدم الغفران لمستحق النار أو تعذيب مستحق الجنة، ومن ذلك ما ورد في سورة الجاثية: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ (٢١).

ومجترح السيئات (الكبائر) بعلم مستحق للنار وكذلك من داوم عليها ولم يتب من قريب. ولو غفر الله له فقد ساواه بمن آمن وعمل صالحاً وهذا ظلم مناقض لعدل الله المطلق الذي لا يخضع للعواطف.

وتقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً



عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا(٣١).

الآية (٢٩) تحرم أكل أموال الناس بالباطل، وتحرم قتل النفس.

الآية (٣٠) تقول إن من يفعل ذلك عدواناً وظلماً (متعمد) فسوف نصليه ناراً(ومن دخل النار خلد فيها).

الآية (٣١) تقول إن من يجتنب الكبائر تكفر سيئاته (الصغائر) وسيدخل الجنة. (أي أن مرتكب الكبيرة عالماً بحكمها مخلد في النار ولا توبة له).

القانون: من لا يجتنب الكبائر لن يدخل الجنة.

القانون: من يقترف الكبيرة وهو عالم بحرمتها وبحكمها فهو مخلد في النار.

التوبة للمرتد تحت التعذيب

تتحدث سورة النحل عن المستضعفين المسلمين الذين يتعرضون للتعذيب والكي بالنار لإجبارهم على الردة: مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(١٠٧) أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ(١٠٩).

كل من أكره على الردة وقبل الردة فعليه غضب من الله وله عذاب أليم. وهذا يعني:

القانون: لا تجوز الردة حتى ولو تعرض المسلم للتعذيب.

القانون: يجوز إعلان الردة دون اعتقادها في القلب بشرط.

وهذا الشرط تخبرنا به نفس سورة النحل: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١١١).

كل من يعلن الردة تحت التعذيب، عليه عقد العزم على الهجرة والعمل الصالح وعدم البقاء



في أرض الكفر « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ».

ويستفاد من هذا ما يلي:

القانون: إعلان الردة تحت التعذيب جائز إذا عقد المعذب النية على مفارقة البلد بأسرع وقت يستطيع.

القانون: إذا هاجر وعمل صالحاً فتوبته مقبولة.

القانون: من أعلن الكفر وهو مؤمن فلا يجوز له البقاء في بلد العدو، وعليه مغادرته بأقرب فرصة سانحة.

القانون: من بقي في بلد العدو مخفياً إيمانه وهو يستطيع الهجرة فلا يقبل إيمانه.

القانون: قبول الإيمان مشروط بمغادرة بلد العدو، لأن البقاء فيه يعني إجباره على التخلي عن الدين، أو بعضه.

النطق بالشهادة عند الموت

نطق الشهادة عند الموت لا يكفي لقبول التوبة – كما سبق وذكر – وبالتالي فهي لا تضمن لقائلها الجنة ولا تغير من مصيره قبل أن يتفوه بها. فمن آمن وعمل صالحاً فسيدخل الجنة ولو لم ينطق بالشهادة عند الموت، ومن كان كافراً أو مرتكباً للكبائر فمصيره النار ولو نطق بالشهادة عند الموت. فالأعمال ليست بالخواتيم للمسلم، كما تقول كتب التراث، ولكن بالمداومة على الإيمان والعمل الصالح في الحياة.

والنطق بالشهادة عند الموت موروث يهودي، قد يكون تسلل لموروث المسلمين بعد الفتوح.

ولو نطق المسلم بشهادة التوحيد قبل موته فمن الفضائل وسيكتب له بها أجر إن كان مؤمناً يعمل صالحاً، لكن لو كان فاسقاً مرتكباً للكبائر فلن يشفع له نطقه بها. مثلما أن التوبة عند الموت للكافر والعاصي لا تقبل: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(٨٥) غافر.



القانون: لا تقبل التوبة (من مرتكب الكبيرة أو الكافر) ممن يتوب عند الوفاة، سواء كانت وفاته طبيعية أو بسبب كارثة طبيعية.

كل مخالفة لأمر أو نهي إلهي فعاقبته النار

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٧) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٢٨) فصلت.

الآيات تخاطب قريشاً الكافرة، ولكنها دليل على أن من يخالف أمر الله أو نهيه فهو عدو لله وجزاؤه جهنم، لأنه جحد أمراً أو نهياً لله. ولا أهمية لكونه كافراً أو أنه يؤمن بالله وبرسوله، لأن الدين لا يتجزأ ولا يكفي أن نؤمن بأمر أو نهي ونكفر بآخر، لأن كل أوامر الله ونواهيه لها نفس الأهمية، ومخالفة واحد منها جحود بآيات الله موجب للنار.

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

فمن صفات المسلم أن يستجيب لربه. والاستجابة هنا تعني الامتثال لأوامره وتنفيذها، والانتهاء عن نواهيه والبعد عنها.

القانون: كل أمر إلهي واجب التنفيذ.

القانون: كل نهي إلهي يجب الابتعاد عنه.

القانون: مخالفة أوامر الله ونواهيه كبيرة.

وتقول سورة النساء:

تجنب اللغو

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) المؤمنون.

اللغو هو سقط الحديث والإسفاف والكلام البذيء والفاحش.

القانون: الإعراض عن اللغو عمل صالح، ومخالفته كبيرة.



وهو ما تؤكده سورة الفرقان: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً(٦٣).

وتقول سورة الفرقان في آية أخرى: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢).

القانون: إذا تعرض المسلم لكلام بذيء فعليه تجاهله والترفع عن مواجهته.

وتقول سورة الحج تصف المؤمنين: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ(٢٤).

القانون: من صفات المؤمن الالتزام بالكلام الطيب، والبعد عن القول الفاحش.

وهذا لا يعني أن نتصنع الوقار الزائد عن الحد لدرجة الكبر، كما يظهر على رجال الدين اليوم. حيث يتعمدون تصنع الكلام المقتضب والتصرف بنوع من الجلافة والتقعر في الكلام وعدم التبسط في الحديث، ويتواصون بهذا على أنه المقصود بالوقار والطيب من القول.

هذا عبارة عن تجاهل للمتحدث ومن يخاطبهم إما لأنهم لا يريدون أن تنكشف سطحية معارفهم، أو لأنهم يحرصون على أن يحيطوا أنفسهم بهالة. وفي كلا الحالين فهو كبر وتكبر ولا علاقة له بالكلام الطيب والبعد عن فحش القول.

وتقول سورة النساء: لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً(١٤٨) النساء.

مقابلة السيئة بالحسنة

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٦) فصلت.

الآيات تخاطب الرسول الذي وصلت إساءات قريش له إلى وضع مزعج في الفترة التي نزلت فيها سورة فصلت. وقد أمر الرسول بضرورة مبادلة الشتيمة بكلام حسن، لأن هذا سيجعل الشاتم يشعر بالأسف على شتيمته. لكن مبادلة الشاتم الشتائم تؤجج الوضع وتوجد للشاتم المبرر للتصعيد.



القانون: مبادلة التصرفات السيئة بالحسنى فضيلة[4].

القانون: مبادلة الكلام البذيء بالكلام الطيب الحسن فضيلة.

القانون: ضبط النفس فضيلة.

القانون: ضبط النفس يكون بالاستعاذة من الشيطان لكي يبتعد الإنسان بتفكيره بالإساءة والتحول من الغضب للهدوء.

البعد عن الغضب

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧).

من صفات المؤمن أنه متى غضب من تصرف أو قول سيء صدر بحقه من الغير سارع للغفران والتحول من الغضب للهدوء.

القانون: من الفضائل أن تقابل السيئة بالحسنة.

القانون: من الفضائل ألا يغضب المسلم ولو أغضب.

القانون: الغضب صفة مذمومة، والمؤمن يجب أن يتحلى بالصفات الحميدة.

القانون: حث المسلم على التعود على السيطرة على النفس وعدم الغضب من أي موقف.

القانون: في حال حاول الغير إغضاب المسلم فعلى المسلم الهدوء، والتسامح مع من أغضبه.

القانون: عدم الغضب من المعتدي لا يلغي دفع عدوانه وظلمه وإيقافه عن التعدي.

التشريعات واحدة للرجل والمرأة على حد سواء

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

الآية دليل على أن الرجل والمرأة متساويان كلياً أمام الله، والمطلوب منهما من أعمال واحدة، وليس هناك تشريعات خاصة بالرجل وأخرى خاصة بالمرأة. وبناءً عليه يمكن القول بأنه

٤ الفضائل هي تلك الأعمال والسلوكيات الحسنة التي تزيد أجر صاحبها ليكون من الأبرار في المستوى الأعلى من الجنة، لكنها لا تؤدي بتاركها للنار.



ليس هناك جنة للرجل وجنة أخرى للمرأة أو نعيم في الجنة للرجل يختلف عن المرأة. وهذا ما يؤكد أن تلك الصور المجازية الحسية التي تصور ما في الجنة من نعيم بصور حسية معروفة لدى قريش هي لتقريبها لذهن المدعو وهو الرجل القرشي. فكأنها تقول له إن كنت تعتقد أن المتع في الخمر والنساء والجو البارد والطبيعة الخضراء، فالجنة كذلك. لذا فكل المتع التي تصورها الآيات بصور حسية موجهة لمخاطبة كبراء قريش الرجال لأنهم هم من يقود المجتمع المكي إلى البقاء على الكفر ولو آمنوا لآمنت مكة بنسائها وأطفالها ومواليها وعبيدها. ولم يخاطب القرآن المرأة لأنها لم تكن تقف ضد الدعوة ولم يكن لها كلمة فصل في تقرير مستقبل المجتمع أو العائلة.

حفظ الفرج

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧) المؤمنون.

وتقول سورة المعارج: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٣١) .... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥) المعارج.

حفظ الفرج يكون من ممارسة أي فاحشة كانت، أو حتى الإثارة المتعمدة الجنسية الحرام.

القانون: حفظ الفرج عن الحرام عمل صالح، ومخالفتها كبيرة.

القانون: الممارسة الجنسية يدخل ضمنها: اللمس والتقبيل وكل المقدمات الجنسية الأخرى، بين شخصين خارج نطاق الزوجية المباح، ولو لم تؤد لممارسة الفاحشة بشكل كامل.

القانون: كل من يبتغي شيئاً من هذه الممارسات - قلت أو كثرت - فهو من العادين المتجاوزين لأمر الله وحدوده.

القانون: كل من تعدى حدود الله واوامره فهو من الظالمين، كما تقول الآية: (٢٢٩) من سورة البقرة: « ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون».



القانون: جزاء الظالمين النار: لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) الأعراف.

القانون: من يحفظ فرجه فهو في الجنة (لو التزم ببقية الأعمال الصالحة).

القانون: إن كان الملتزم بحفظ الفرج في الجنة فمن لا يحفظ فرجه فهو في النار.

القانون: توعية المجتمع توعية مستمرة مؤثرة بالبعد عن الفواحش وغرس القيم والفضائل، بعض ما يجري الآن في بلاد المسلمين من تحريض على الفساد والانحلال والمتع الحرام بما تعرضه شاشات التلفزيون من برامج وأفلام لا تعرض في قنوات التلفزة في كثير من الدول الكافرة.

كل ما قرب للفواحش من قول أو عمل فهو كبيرة

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٧) الأعراف.

الآيات تخاطب قريشاً وتذكرهم ببعض نعم الله عليهم، ومن ذلك نعمة توفر اللباس والحشمة. ثم جاءت آيات تتحدث عن آدم وامرأته وكيف أغواهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي كانت شجرة مخدرة فخلعا ثيابهما وتصرفا بعيداً عن الحشمة ولما أفاقا واكتشفا أنهما عاريان طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليواريا سوآتهما.

القانون: يحرم التعري الكامل أو الجزئي لأنه مخل بالحشمة ومدعاة للفجور وتحبيب للفاحشة.

القانون: السباحة على البحر بالشكل الجماعي الشائع في العالم اليوم مخل بالحشمة ومدعاة للفجور والفاحشة فهو حرام.

القانون: لا يجوز السماح بالسباحة العارية أو العارية جزئياً على الشواطئ.

القانون: كل أكل أو شرب يغيب العقل حرام.

وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء



أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

على ما يبدو أن جلسات المدام القرشية يتخللها فجور وفقد للحشمة، وكانت قريش تقول إن هذا اباحه الله لها، بحجة أنه سبحانه هو من خلق الثمار التي يصنع منها الخمر، ولو لم يبحها الله لما خلقها.

القانون: أي نوع من الفواحش قل أو كثر فهو حرام.

القانون: كل ما يصدر من شارب الخمر يعاقب عليه كفعل عمد.

القانون: كل فعل أو قول أو تصرف فاحش أو يؤدي لفاحشة أو يحبب لها فهو حرام.

القانون: لا يجوز الترويج لأي نشاط يُقرّب من الفواحش بأي وسيلة.

وتستمر آيات الأعراف لتقول في نفس الموضوع: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣).

القانون: أي فاحشة كبيرة بغض النظر اقترفت بالخفاء أو بالجهر.

القانون: كل محرم لا تقل حرمته لو مورس في الخفاء عن حرمته في العلن.

القانون: كل كبيرة حرام.

لأن الله جل وعلا لا يخفى عليه شيء، وهو المعني بتجنب الكبائر وليس المهم في الكبيرة التخفي عن الناس: وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ(٦٩) القصص.

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧).

الآية تقول إن من صفات المؤمن اجتناب كبائر الإثم، واجتناب الفواحش. فاجتناب الفواحش يعني اجتناب كل ما يقرب لها ويرغب فيها ويحسنها من قول أو عمل، بما في ذلك المسلسلات والأفلام والبرامج.

القانون: كل ما يعتبر تحريضاً على الفواحش كبيرة.

القانون: يجب سن قوانين تمنع ما يقرب من الفواحش بأي وسيلة وسن عقوبات رادعة للمخالف.



وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

القانون: الاقتراب من الفواحش بأي وسيلة كبيرة سواء كان في الخفاء أو الجهر.

وتقول سورة النحل: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

النهي الإلهي ليس للتخيير ولكن للتنفيذ.

القانون: الانتهاء عن الفواحش عمل صالح، وإتيان أي شيء منها كبيرة.

الزنا

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً(٧١) الفرقان[٥].

القانون: الزنا محرم، ومن يقترفه فقد ارتكب كبيرة.

القانون: من يمارس الزنا وهو عالم بحرمته، فهو في النار.

القانون: من فعل فاحشة الزنا وهو لا يعلم بعظمها وتاب، والتزم بضوابط وشروط التوبة، فالله تواب رحيم.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢).

القانون: كل ما يقرب للزنا أو يحبب له أو يهون إتيانه فهو منهي عنه بنفس مستوى النهي عن ممارسة الزنا.

القانون: كل ما له علاقة بالزنا فهو كبيرة كما الزنا.

والآية تنفي زعم قريش أن الفواحش التي يرتكبونها في مجالسهم الخاصة للشراب مباحة.

٥ «إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً» إلا هنا بمعنى «أما». وشكراً لأخي موسى المالكي الذي لفت انتباهي لها.



وتكرر سورة الشورى هذه الأحكام: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧).

القانون: تجنب كبائر الإثم (المعاصي) والفواحش عمل صالح.

القانون: اقتراف أو الاقتراب من كبائر الإثم والفواحش كبيرة.

حفظ الأمانة والعهد

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) ..... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٨) المؤمنون.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٣٢) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). المعارج.

حفظ الأمانة يعني الالتزام بكل وعد أو عهد أو ميثاق، صغيراً كان وعلى المستوى الشخصي أو كبيراً وعلى مستوى الأمم.

القانون: الأمانة في كل شيء صغر أو كبر عمل صالح.

ويدخل في ذلك الحرص على إجادة العمل ودقته، وقول الحق.

القانون: المحافظة على العهد عمل صالح.

ويدخل في ذلك المواعيد والمواثيق والمعاهدات.

القانون: الالتزام بالمواعيد والعهود والمواثيق عمل صالح، وخيانتها كبيرة.

وتخاطب سورة النساء المسلمين قائلة: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً(٥٨).

القانون: أداء الأمانة أمر إلهي مباشر.

القانون: خيانة الأمانة خيانة لأمر الله وكبيرة.

إحضار الله والحساب في النفس

إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٥٧) المؤمنون.

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(٢٨) المعارج.



وتقول سورة الفرقان: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً(٦٥) إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٦٦).

القانون: المؤمن يحضر الله والحساب في نفسه على الدوام.

وإحضار الله في النفس على الدوام رادع عن فعل السيئات، مثل تذكر أن كل شيء تسجله صحيفة الأعمال حتى الأفكار، وإحضار هذا في النفس على الدوام يعمل على إحجام المرء عن فعل السيئات من قول أو عمل، والسعي لفعل الخيرات.

البعد عن الشرك

وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ(٥٩) المؤمنون.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) ...... أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦) الفرقان.

البعد عن الشرك يعني عن كل ما له علاقة بالشرك أو يقرب منه، ويدخل في ذلك أمور كثيرة، منها:

- الاستعانة بغير الله.
- اتباع تشريع لغير الله. ويدخل في هذا فقه المذاهب لأن مصادرها بشرية.
- الاعتقاد بأن هناك من يضر أو ينفع من دون الله. كالاعتقاد بالسحر والعين وتلبس الجن والاعتقاد بالطالع والتشاؤم.

القانون: الشرك مع الله بأي وسيلة كبيرة موجبة للنار.

وتقول سورة الأعراف: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣).

الشرك بالله يعني عبادة غير الله مع الله، ويعني اتباع تشريعات غير الله.

القانون: اتباع أي تشريع من غير الله شرك مع الله.



القانون: فقه المذاهب التي تعتمد على غير القرآن مما لم ينزل الله به سلطاناً.

القانون: ما يسمى بالفتوى تدخل ضمن التقول على الله ما لم يقل.

وتقول سورة بني إسرائيل: لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢) .... ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً(٣٩).

ومن يتوعده الله بالذم والدحر لن يشم رائحة الجنة.

القانون: اتخاذ أي إله مع الله شرك موجب للنار.

القانون: اتباع أي تشريع لغير الله إشراك له مع الله.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

موالاة غير الله شرك وعبادة لغير الله

أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(٣) الزمر.

الآية تخاطب قريشاً وتنكر عليهم موالاة غير الله. والآية تسمي عبادة الأصنام موالاة، وهو ما يعني أن الموالاة عبادة، ومن والى شيئاً أو إنساناً فقد عبده من دون الله.

القانون: موالاة غير الله عبادة له من دون الله.

القانون: موالاة غير الله شرك.

وتقول سورة بني إسرائيل: لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢).

القانون: كل مشرك مذموم من الله، مدحور منه سبحانه.

القانون: من يذمه الله أو يدحره فلن يدخل الجنة.

وتقول سورة الأنعام: وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن



سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣).

صراط الله المستقيم مثله كتابه، وكل كتاب يمثل من قاله.

القانون: اتباع أي تشريع من خارج القرآن خروج عن صراط الله المستقيم.

الخروج عن الصراط يؤدي لجهنم.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ(٥٦) الأنعام.

الآية تخبر قريشاً أن الرسول نُهي عن عبادة ما تعبد قريش من دون الله، وهي الأصنام. وهي عبادة تقوم على الهوى.

ويستفاد من هذا ما يلي:

القانون: يحرم اتباع أي تشريع لم يقل به الله.

القانون: الرسول كغيره من الناس يجب عليه الإيمان بدين الله.

القانون: الرسول ليس مشرعاً ولكنه متبع لدين الله الذي يوحى إليه.

كل ما حرم بدون دليل من القرآن فليس حراماً ولكنه تقول على الله

تقول سورة الأنعام مخاطبة قريشاً: قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١٥٠).

والآية ترد عليهم ما أشارت له الآية السابقة التي تقول: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨).

فقريش يحرمون أشياء ويقولون بأن الله لو لم يشأ أن نحرمها فلن نحرمها، ولو شاء لنا ألا نشرك لما أشركنا. وكلامهم هذا مردود عليهم لأنه مجرد خرص وظن ولا يعتمد على علم ولا مصدر.

وقد تكرر ذكره في سورة النحل: وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا



حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ(١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١٧).

القانون: كل ما يحرمه الناس دون دليل صريح من القرآن فليس من دين الله.

القانون: كل تحريم أو تشريع بخلاف القرآن فهو خرص وليس من دين الله.

تحريم الإسراف والبخل

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً(٦٧) الفرقان.

وتقول سورة الأعراف: يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١).

القانون: النهي عن الإسراف.

القانون: الإسراف يكون في الأشياء المباحة أصلاً كالأكل والشرب والملبس والمسكن والمركب. لأن الصرف على محرم حرام ولو قل، ولا يعتبر إسرافاً.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(١٤١) الأنعام.

الآية تخاطب قريشاً ومع ذلك تطلب منهم أن يأكلوا ولا يسرفوا. ويستفاد من هذا ما يلي:

القانون: الإسراف في كل شيء حرام.

القانون: يمنع الإسراف لكل من يعيش في دولة الإسلام ولو لم يكن مسلماً.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩).

الآية تعبر عن البخل بتعبير مجازي واصفة إياه وكأنه غل اليد وربطها بالعنق لئلا تمتد للجيب وتخرج بعض المال منه. ويكون البخل هو التقتير على المصروفات الحلال من أجل الاحتفاظ بالمال. وعبرت الآية عن الإسراف بتعبير مجازي أيضاً واصفة إياه وكأنه بسط لليد فلا يستقر على راحتها شيء من المال. ويكون الإسراف هو صرف المال على أشياء غير



ضرورية ومتع ولو كانت في الأصل حلالاً ولو لم تكن أسعارها مبالغاً فيها.

ويكون الفرق بين التبذير والإسراف هو أن التبذير صرف بعض المال على أشياء حلال في الأصل لكن أسعارها فاحشة. بينما الإسراف هو إضاعة المال في مجالات مباحة لكنها ليست ضرورية، حتى لو كانت أسعارها زهيدة. لكنها تؤدي مجتمعة إلى ضياع المال.

فالمبذر قد لا يضيع ماله ولكنه يدفع للسلع الفاحشة الغلاء، بينما المسرف يدفع لسلع رخيصة لكنه يضيع عليها المال.

القانون: البخل رذيلة.

القانون: الإسراف رذيلة.

القانون: الإسراف مذموم مماثل لذم البخل.

البخل

هو الامتناع عن الصرف الحلال أو التقتير.

تقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩).

فوصف اليد المغلولة (المربوطة) للعنق وصف مجازي وكناية عن الامتناع عن الصرف الحلال.

القانون: البخل رذيلة.

وتقول سورة النساء: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا(٣٧).

البخل هنا يقصد به الامتناع عن الإنفاق بدليل سياق الآيات، حيث نقرأ في الآيتين التاليتين ما يلي: وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا(٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا(٣٩) البقرة.

القانون: الامتناع عن الإنفاق مورد للنار.



الأمر بالقسط والنهي عن الظلم

تقول سورة الأعراف: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩).

القانون: القسط في التعامل مع كل خلق الله.

وتقول سورة النحل: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

الآية تُذكّر بتشريعات سبق وفرضها القرآن، ولابد أن حادثة وقعت كانت وراء التذكير بهذه التشريعات. والسورة نزلت في وقت كانت قريش قد شددت من تضييقها على المسلمين وكانت تقوم بتعذيب المستضعفين منهم، وتأتي السورة في مثل هذه الظروف لتأمر بالعدل، ليس فقط في تعامل المسلم مع المسلم ولكن في تعامل المسلمين مع قريش التي تعذبهم وتضطهدهم، وهو ما أكدته سور أخرى، مثل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨)المائدة.

القانون: العدل واجب على المسلم بأمر من الله.

القانون: العدل يشمل كل تعامل، قول أو فعل، أو اتفاقيات أو غيرها.

القانون: العدل يكون بين المسلمين وبينهم وبين غيرهم.

وتقول سورة النساء موجهة الحديث للمسلمين: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً(٥٨).

الحكم بالعدل ليس في المحكمة، ولكن في الحياة اليومية.

القانون: التعامل بالعدل من الأعمال الصالحة.



قول الحق وعدم كتم الشهادة

وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ(٣٣) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). المعارج.

قول الحق بغض النظر عمن سيتضرر عمل صالح.

القانون: كتم الشهادة كبيرة.

وتقول سورة الفرقان: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢).

القانون: قول الحق عمل صالح، والكذب، أو إخفاء شهادة الحق، كبيرة.

القانون: الكذب وشهادة الزور من الكبائر، وتجنبها عمل صالح.

وتقول سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

إذا قلتم فاعدلوا أو لا تقولوا، والعدل هنا يقصد به قول الحق المجرد دون مواربة بغض النظر عمن يتضرر « وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى".

القانون: قول الحقيقة عمل صالح، ومخالفته كبيرة، ولو كان قول الحقيقة سيضر بذي قربى وينصف عدواً.

وتقول سورة الحج: ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠).

القانون: قول الزور كبيرة.

والزور هو بخلاف الحقيقة وهو الكذب. والتزوير هو التدليس وإخفاء الحقيقة.

الشهادة بالظن

تقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦).

الآية تنهى عن التحدث أو الشهادة بالظن.

القانون: الشهادة بالظن كبيرة.

القانون: سوء النية بالآخرين بلا دليل رذيلة.



دفع الظلم والبغي

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣) الشورى.

أول سورة تنزل في المرحلة السادسة للدعوة في مكة التي بدأت قريش فيها بالتعدي الجسدي على مستضعفي المسلمين من موالي وعبيد قريش السابقين. وهذه الآيات أول آيات توجه المسلمين بما يجب عليهم فعله حيال هذه التعديات، برغم أن عدد المسلمين قليل وليس لهم قوة تمنعهم من سطوة قريش وبطشها. ومع ذلك تقول الآيات إن الانتصار ضد البغي واجب، وعليهم معاقبة كل من يسيء لهم بمثل إساءته. ولم تطلب السورة من المسلمين الصبر لأنهم ضعفاء قلة، وهو ما يخالف ما رسخ وشاع بين المسلمين من أقوال في كتب التراث تطلب ألا يطالب الناس بحقوقهم ضد الباغي إذا كان متسلطاً وأن عليهم الصبر عليه.

ومن القوانين المستفادة من الآيات ما يلي:

القانون: يجب دفع الظلم والبغي بغض النظر عن ضعف المسلمين وتسلط وجبروت الباغي.

القانون: دفع البغي والظلم عمل صالح.

القانون: ترك دفع البغي والظلم أو التهاون فيه كبيرة.

القانون: معاقبة المسيء بمثل ما أساء واجب.

القانون: التسامح مع المسيء والمعتدي فضيلة.

القانون: الانتصار من الظالم والباغي حق للمظلوم والمعتدى عليه.

القانون: يجب رد المظلمة على المظلوم.

القانون: البغي والظلم كبيرة موجبة للنار.

القانون: تسامح المظلوم لا يعفي الظالم والباغي من العقاب ما لم يتب عن البغي ولا يعود.

وتقول سورة الشعراء التي نزلت في نفس مرحلة سورة الشورى:



إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧).

من الأعمال الصالحة الموجبة للجنة الانتصار للظلم الواقع عليهم.

القانون: دفع ظلم الظالم انتصار على الظلم.

القانون: الانتصار على الظلم عمل صالح موجب للجنة.

القانون: دفع الظلم واجب تحت أي ظرف.

فالآية أمرت المسلمين القلة الضعيفة بدفع الظلم ولم تأمرهم بالصبر عليه لأنهم ضعفاء.

وتقول سورة الأعراف: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣).

القانون: البغي بغير الحق جريمة.

البغي هو التعدي على حقوق الآخرين أياً كانت، ولا فرق إن كانت معنوية أو مادية، قليلة أو كثيرة.

وتقول سورة النحل من سور المرحلة الأخيرة للدعوة في مكة:

إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

القانون: الانتهاء عما نهى الله عنه عمل صالح ومخالفته ولو بالقليل كبيرة.

القانون: البغي مما نهى الله عنه.

وتقول نفس السورة: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ(١٢٦).

القانون: عقاب المعتدي بمثل ما اعتدى دون تجاوز.

القانون: الصبر وعدم معاقبة المعتدي عمل صالح.

وتقول سورة الحج آخر سورة نزلت في مكة والمسلمون يتعرضون لأشد أنواع التعذيب: ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٦٠).

القانون: لا يجوز ترك دفع الظلم تحت أي ظرف ولأي سبب.



ما يحرم من المآكل

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

قريش كانت تحرم أموراً لم يأمر الله بتحريمها فجاءت هذه الآيات تبين ما الذي حرمه الله، وتقول بأنه لا حرام إلا ما يحرمه الله، وليس ما يحرمه الناس.

القانون: كل ما لم يحرمه الله من الزينة والطيبات من الرزق فهو حلال.

القانون: الزينة تعني الملابس والحلي. ويدخل فيها المركب والمسكن وضروريات الحياة حسب الزمن.

القانون: كل مباح يكون بشرط عدم الإسراف المنهي عنه في آية سابقة: يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) الأعراف.

القانون: كل إسراف في مباح فهو حرام.

القانون: كل الطيبات من المأكل حلال.

القانون: الطيبات هي التي لا تكرهها النفس السوية عادة. (يوضع لها تعريف مفصل).

القانون: الخبائث حرام.

الخبائث: هي كل ما تعافه النفس السوية عادة. (يوضع لها تعريف مفصل).

قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤٥) الأنعام.

وقد أعادت سورة النحل ذكره: فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥).

القانون: الحرام هو: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والفسق الذي أهل به لغير الله (ما ذبح



لنصب أو وثن أو بأي مسمى ليس لله).

القانون: من اضطر غير باغ ولا عاد (أي متجاوز للحلال وهو يعلم) فلا إثم عليه.

وتأتي سورة المائدة بتفاصيل ما يمكن اعتباره من الميتة أو في حكمها: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

الميتة تشمل: « المنخنقة وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ".

القانون: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به (ما ذبح كقرابين للآلهة) أكلها حرام وكبيرة.

القانون: ما يدخل في حكم الميتة: «مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ»، « وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ».

القانون: ما اصطاده السبع أو الطائر المدبر على الصيد إذا ما ذكي قبل موته فهو حلال.

القانون: الاستقسام بالأزلام وكل ما في حكمها للتطير أو التفاؤل أو الاعتقاد بنفعه أو ضرره من الجماد فهو ممارسة وثنية. ويدخل في ذلك الاعتقاد بما يسمى «العين».

وتقول السورة نفسها: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ .. (٥).

الطيبات هي ما لا يكره في العادة، وليس من القاذورات. وهي قد تختلف من مجتمع لآخر.

القانون: كل ما هو طيب وطاهر فهو حلال.

القانون: كل ما صاده طير أو حيوان مدرب على الصيد وذكر اسم الله عليه فهو حلال.

القانون: طعام أهل الكتاب حلال.



القانون: كل طعام طيب لأي ملة حلال ما لم يتأكد ذبحه لنصب أو أوثان أو ذكر غير اسم الله عليه.

وتقول سورة الحج: وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِّ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٣٦) لَن يَنَالَ اللهَّ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَّ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ(٣٧).

البدن تقول قواميس اللغة أنها حيوان الوعل وإذا كانت حلالاً فيمكن أن يقاس عليها حيوانات أخرى، على ألا يكون قتلها إلا بسبب الحاجة لأكلها وليس للمتعة.

وقد يكون المقصود بالبدن هنا الجمال.

ذوات الظفر مباحة

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٤٦) الأنعام.

الآية تذكر أن الذين هادوا حرم عليهم ما ليس محرماً عقوبة لهم لبغيهم. والمفسرون يقولون إن الظفر يعني «كل ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنَّعام». وهذا الكلام غير دقيق، فالنعام طائر وليس حيواناً، كما أن الإبل والبقر والضأن والمعز لها أقدام (حوافر) مزدوجة تبدو كإصبعين. بينما نجد أن الخيل والبغال والحمير لها حافر واحد وليست مشقوقة. وتبدو وكأنها ظفر، فتكون هي المقصودة في الآية والتي حرمت على الذين هادوا ولم تحرم على غيرهم.

وكلام المفسرين لا يعتمد عليه لأنهم يعتقدون أن ذوات الظفر (الحافر المفرد) يحرم أكلها، وهو ما أخذ به بعض أتباه المذاهب، ولم يقل به القرآن.

القانون: الأنعام بأنواعها الأربعة مباحة.

القانون: ذوت الظفر مباحة أصلاً لكنها حرمت على الذين هادوا عقاباً لهم لظلمهم.

وتقول سورة البقرة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ



الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ(١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣) البقرة.

يبدو أن بعض من دخل الإسلام بقي يحرم ما كان يراه محرماً قبل إسلامه ولا يأكله برغم أن الله لم يحرمه. فجاءت السورة لتقول لهم أن يتركوا تمسكهم بالموروث كما يتمسك المشركون، وأن يتبعوا ما يقول لهم القرآن. ولا يحرموا إلا ما حرم، والقرآن لم يحرم سوى ما ذكرته الآية (١١٥) من سورة النحل المكية والذي تذكر به الآية (١٧٣) هنا بالنص: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥) النحل.

معاملة المخلوقات الحية على الأرض

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨) الأنعام.

كل المخلوقات الحية لها حياة اجتماعية تتناسب مع ما خلقت من أجله. وكلها ستبعث، وهو ما يعني أنها ستحاسب. وسيكون منها ما هو من أهل الجنة ومنها ما هو من أهل النار كالبشر.

هذه الآية تحتم على البشر أن يتعاملوا مع المخلوقات الأخرى بكل إنسانية ولا يجوز التعامل معها بخلاف ذلك.

القانون: سن قوانين لحماية الحيوان تضمن عدم تعرضه للتعذيب أو تؤدي لانقراضه.

القانون: وضع برامج تثقيفية تزرع احترام المخلوقات الحية والتعامل معها بكل إنسانية.

القانون: سن القوانين الرادعة لكل من يعرض حياة المخلوق للخطر أو يعذبه أو يضر به أو ببيئته.



ذكر الله والتسبيح يكون في النفس

وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ(٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ(٢٠٦) الأعراف.

الملاحظ والمعتاد الآن هو سماع التسبيح وذكر الله بصوت جهوري، والآية - كما هو واضح - تأمر الرسول بأن يكون التسبيح وذكر الله فيما بين المرء ونفسه، وليس بصوت جهوري.

القانون: التسبيح وذكر الله يكون في النفس.

القانون: التسبيح وذكر الله بصوت جهوري قد يدخل في باب التظاهر.

التحريم، بلا دليل من كلام الله، افتراء على الله

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ(٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ(٦٠) يونس.

قريش تحرم بعض المآكل، والآية تقول بأن الحرام يحتاج لدليل من الله، ولا يحرم ما يحرمه الناس من عند أنفسهم.

وكل تحريم بدون دليل من كلام الله فهو كذب على الله مفترى، مصير صاحبه النار.

القانون: كل تحريم يجب له دليل من كلام الله.

القانون: ما ليس عليه دليل من كتاب الله، أو يمكن قياسه على دليل من كتاب الله، فليس حراماً.

القانون: ما يحرمه الناس بدون دليل من القرآن فهو افتراء على الله.

القانون: الافتراء على الله – قل أو كثر – مصير صاحبه النار.



رجال الدين

في عصر رسول الله لم يكن هناك رجال دين ولم يكن هناك مذاهب وفرق. بل إن رسول الله كان لا يستطيع أن يصدر حكماً حتى ينزل عليه القرآن فيتلوه على الناس. ولو سئل في مكة فسينتظر حتى ينزل عليه الحكم فيها، ثم سئل نفس السؤال في المدينة بعد الهجرة فسينتظر حتى ينزل عليه الوحي، حذراً من أن يكون هناك حكم بعد الهجرة لأهل يثرب والمدينة يختلف عن ذلك الحكم في مكة الموجه لقريش. لأن محمداً مجرد رسول، لا يستطيع أن يشرع نيابة عن الله.

ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام سئل في مكة عما يحرم من المأكل فنزلت سورة النحل التي منها آية تقول: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥) النحل.

ونفس الحكم تكرر نزوله في المدينة لأن الرسول سئل عنه مرة أخرى، فنزلت سورة البقرة وفيها آية تبدو وكأنها تكرار حرفي لآية النحل المكية: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣) البقرة.

وما إن توفي رسول الله إلا وبدأ التحول عن الدين – كما فعلت كل الأمم – وأصبح المسلمون يعتقدون عقائد موروثة تخالف ما كان عليه الإسلام زمن رسول الله، ويعضون عليها بالنواجذ على أنها هي دين الله.

وبما أن البلاد المفتوحة (العراق، والشام، ومصر) كانت المسيحية منتشرة فيها، والمسيحية تعتمد على سلم كهنوت لرجال الدين فيها، فقد وجد هذا الموروث طريقه لتراث المسلمين. وأصبح للمسلمين «رجال دين»، كما للمسيحية. وكان دورهم في البداية لا يزيد عن حفظ القصص التي يتداولها الناس عن زمن رسول الله والتحدث بها في مجالسهم التي تغص بالمستمعين. ثم تحولوا إلى أئمة يقتدى بهم، ولهم الحق بالأخذ برواية من روايات الأخبار المنسوبة للرسول – التي انتشرت في المجتمع المسلم يتناقلها الناس مشافهة – وبناء حكم عليها وترك أخبار أخرى منسوبة للرسول تخالف ما أخذوا به، وهو ما أدى لظهور الفرق والمذاهب.



ثم أصبح لهم الحق بالتشريع ليس فقط باعتماد ترجيح حديث على آخر، ولكن بسن تشريع ليس له دليل. وهو ما عرف بالاجتهاد الذي حول رجل الدين إلى «قس» يملك الصلاحية بالتحريم والتحليل اعتماداً على رأيه الشخصي. ولكي يسهل انقياد الناس لهم وطاعتهم فيما يشرعون انتشرت أحاديث منسوبة للرسول تقول: إن «العلماء» ورثة الأنبياء، كما ورد في سنن أبي داوود (ت ٢٧٥ هـ)، والترمذي (ت ٢٧٩ هـ). مع أن الإسلام الذي جاء به الرسول، مطلوب من كل الناس على حد سواء، وكلهم ورثة للأنبياء من هذه الزاوية.

لكن" ورثة الأنبياء» حُصرت برجال الدين، وكأن لديهم قدرة التعرف على الحلال والحرام الذي فات النبي قوله، وعلى الله إنزال وحي به. وهذا المعتقد يعتمد الإيحاء إلى أن الله أودع في رجال الدين هذه القدرة، دون غيرهم، لكي يستمر تواجد رسل الله «الأنبياء» في أشخاصهم. وهو معتقد موجود عند الشيعة والسنة والمذاهب الأخرى على حد سواء، وإن اتخذ مسميات مختلفة.

ولأن الابتعاد عن الدين لا يتوقف عند حد بل يتعاظم بمرور الزمن، فما كان منكراً في وقت يتحول إلى مقبول وواقع في وقت لاحق. لذا أصبح رجال الدين يوقعون عن الله في القرون التالية، لدرجة أن ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) لم يجد أي حرج من أن يسمي أحد كتبه بـ (أعلام الموقعين عن رب العالمين) وهو على يقين أن الناس ستتقبله قبولاً حسناً، ولن يجد من يقول له إنه تطاول على الله.

فالله ليس له نواب من خلقه ولم يعين من يوقع عنه في الأرض.

والدين اكتمل باكتمال تشريعاته بنزول سورة المائدة: .... ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

وكل ما لم يذكره القرآن فلا يجب أن يسأل عنه المسلمون الرسول في حياته، ولا يعتبر من دين الله بعد وفاته: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) المائدة.

وكل مسألة تستجد وتحتاج لتشريع فهي مسائل دنيوية وتشريعها يتم بواسطة المسلمين بما يتفقون عليه.



القانون: لا وجود لرجال الدين في الإسلام.

القانون: يجب إلغاء كل وظيفة دينية في دولة المسلمين.

القانون: لا يجوز التشريع بغير ما في القرآن.

القانون: كل ما لم يرد له حكم في القرآن فليس من الدين.

القانون: كل ما ليس من الدين فتشريعاته مدنية يتفق على تشريعها المسلمون[٦].

الشورى

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨) الشورى.

السورة نزلت في مكة وتخاطب المسلمين القلة وتوجههم بأن يكون البت في أي أمر يهمهم كجماعة ناتجاً من تشاورهم جميعا فيما بينهم والتوصل لقرار يتفقون عليه. ولا يكون أمر المسلمين لشئون دنياهم بيد رجل واحد أو مجموعة قليلة تنوب عن الغالبية.

القانون: كل القوانين والقرارات الدنيوية التي تهم الأمة يصوت عليها من قبل الجميع في استفتاء عام.

القانون: الشخص الواحد في دولة المسلمين مواز لأي شخص آخر بلا زيادة أو نقصان.

القانون: لا ينوب شخص عن آخر في المشاركة في اتخاذ القرارات الوطنية أو تعديلها أو إلغائها.

القانون: لا ينوب مجموعة قليلة عن بقية المجتمع في اتخاذ القرارات أو رسم السياسات للمسلمين. سواء كانت الجماعة تم اختيارها أو كانت منتخبة.

القانون: نيابة مجموعة عن بقية المجتمع في اتخاذ القرارات تعني وصاية البعض على البعض الآخر، والوصاية في الإسلام لا تكون إلا على غير القادر على تصريف شئون نفسه كالمجنون والسفيه.

٦ انظر فقرة: ما لم يذكره القرآن فليس له حكم في الإسلام، وفقرة: اكتمال الدين / قسم تشريعات من القرآن.



التبذير

وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) بني إسرائيل.

التبذير هو صرف المال في أي مجال بكميات كبيرة للزهو والتفاخر والتباهي حتى لو كان المجال في الأصل حلالاً. مثل شراء السيارات الفارهة، والمجوهرات الغالية الثمن والملابس والبيوت ...الخ.

القانون: المبذر أخ للشيطان، أي مثيل له.

القانون: الشيطان كافر بربه.

القانون: مثيل الشيطان كافر مثله.

القانون: التبذير كبيرة.

قتل الأولاد

وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطئا كَبِيراً(٣١) بني إسرائيل.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ .... ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

الآيتان تخاطبان أهل مكة حيث كانت تنتشر ظاهرة قتل الولد إذا ولد في أسرة فقيرة لئلا يثقل على والديه بمصروفاته ويضطر والداه للتسول أو القيام بحرف وضيعة لا تليق بقرشي. إلا أن قتل الأولاد لسبب آخر خطأ مماثل لقتل قريش لأولادها.

والخِطْء يعني الذنب العظيم وليس الهفوة الصغيرة. لأن المتحدث هو رب العالمين، ووصفه سبحانه لشيء بأنه خطأ يعني أنه جريمة وذنب عظيم. ولذا فالنار جزاء من يفعل ذلك أو أي مما ذكر ضمن الآيات: ٢٢-٣٩ من سورة بني إسرائيل. والنار لا يدخلها إلا من يرتكب الكبائر وليس الهفوات.

القانون: قتل الأولاد كبيرة لأي سبب كان.



قتل النفس

وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً(٣٣) بني إسرائيل.

وتؤكد هذا سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

النفس التي حرم الله، هي كل نفس لم تعتد علينا ولم تقاتلنا، بغض النظر عن المعتقد. وليس التحريم كما ورد في كتب التراث من أن النفس يقصد بها المسلم فقط، وأن قتله بالحق يعني أن يكون قتل عمداً أو زنا وهو متزوج، أو ارتد عن الإسلام. فالزاني لو زنا عمداً وهو يعرف فقد ارتكب كبيرة ولا توبة له وهو في النار، ولا يجوز الزواج به من المسلمين، لكن لا يقتل.

والمرتد لا يقتل، لأنه ارتد. أما القاتل العمد فيقتل لأن الله في كتابه أمر بذلك.

والآية تقول بتحريم القتل لأي نفس سواء كانت مؤمنة أو كافرة. هذا هو القانون.

وقوله «إلا بالحق» يعني ألا نقتل غير المسلم غير المحارب. ولا يقتل إلا المحارب لنا، وهذا هو القتل بالحق.

القانون: قتل الإنسان كبيرة بغض النظر عن المعتقد.

القانون: الاستثناء الوحيد لقتل إنسان هو أن يحارب الإسلام وأهله بالسلاح أو بأي وسيلة.

القانون: حرب الإسلام جريمة لا تغتفر، ويجب التعامل مع المحارب بكل قسوة لقطع دابره وتخليص الإسلام والمسلمين من شره.

من حقوق اليتيم

كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠) الفجر.

الآيات تخاطب قريشاً، ومما تعيب عليهم أنهم لا يكرمون اليتيم. وإكرامه يكون بالتعامل الحسن وسد حاجاته المادية إن كان فقيراً.



القانون: إكرام اليتيم عمل صالح، ومخالفته كبيرة.

القانون: إكرام اليتيم ليس عطفاً ومنة، بل واجب.

وتقول سورة البلد مخاطبة قريشاً:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(١٨).

القانون: إطعام اليتيم يوم المجاعة عمل صالح مطلوب لدخول الجنة.

وتقول سورة الضحى مخاطبة الرسول: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩).

قهر اليتيم يكون بالحط من قدره أو إشعاره بالضعة والنقص أو التعامل معه بفوقية وترفع.

القانون: قهر اليتيم كبيرة.

وسورة بني إسرائيل التي تفرض على المسلمين تشريعات واجبة لدخول الجنة تقول: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤). وهو ما تؤكده سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

وقرب مال اليتيم يعني التلاعب به أو أكل بعضه أو حتى إهماله وتعريضه للضياع والتلف.

القانون: قرب مال اليتيم كبيرة.

القانون: المحافظة على مال اليتيم وتنميته عمل صالح.

القانون: التعامل مع مال اليتيم يتم بالطرق الحسنة والبعد عن سوء النية.

الوفاء بالعهود والمواثيق والمواعيد

وتقول سورة بني إسرائيل ضمن فرض بعض التشريعات الواجبة لدخول الجنة: وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤).

الوفاء بالعهد والمواعيد والمواثيق للفرد والجماعة (وهذا مفقود تماماً في حياة المسلمين اليوم، للأسف).



القانون: الوفاء بالعهد عمل صالح، ومخالفته كبيرة.

وتفتتح سورة المائدة التي تختتم بها تشريعات الإسلام بالتذكير بهذا القانون العظيم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١).

القانون: الوفاء بالعهد والوعد والمواثيق عمل صالح.

القانون: ترك العمل بهذا القانون أو مخالفته كبيرة.

الوفاء بالنذر لازم لدخول الجنة

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(١٠).

الآيات تتحدث عما يجب أن يكون عليه المرء لكي يضمن الجنة في الفترة التي نزلت فيها سورة الإنسان. والسورة نزلت في بداية الدعوة وعندما كانت أعداد المسلمين قلة قليلة لا تسمح بنزول التشريعات التفصيلية للإسلام. فكان كل المطلوب لدخول الجنة حينها الإيمان والإنفاق والصلاة دون تحديد أوقات لأدائها. وهذا يعني أن الوفاء بأي تعهد شأنه عظيم في الإسلام ومخالفته تورد صاحبها النار. والمؤسف هو أن المسلمين اليوم أقل الناس اكتراثاً بالوفاء بالعهود والمواثيق سواء الشخصية أو الجماعية أو الدولية.

والنذر يعني عهداً وميثاقاً يقطعه المرء على نفسه مشروطاً بتحقق أمر ما. والنذر وإن كان مباحاً إلا أن الإسلام لم يفرضه، فقد كان موجوداً قبل بعثة الرسول. ولكن الإسلام أوجب الوفاء به متى حدث، دون ترغيب فيه أو حث عليه.

القانون: عدم الوفاء بالنذر كبيرة موردة للنار.

الدين هو ما في القرآن، وما عداه كلام الناس

أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ



اللهّ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) الأنعام.

الآيات تؤكد أنه لا يوجد حكم (تشريع) بديل لحكم الله أو حتى يؤخذ معه، والقرآن فيه كل ما يحتاج المرء لدينه. وما عداه فكلام لأهل الأرض (كلام بشري) لو أطعناه لأضعنا دين الله.

القانون: اتباع تشريع ما عبادة لقائله.

القانون: اتباع حكم الله وتشريعاته عبادة له سبحانه.

القانون: دين الله يمثله كتاب الله المفصل فيه كل ما يحتاج المرء لدينه.

القانون: تمام الدين بتمام كلمات الله.

القانون: ما يقال في الدين بغير القرآن كلام أهل الأرض (البشر).

القانون: كلام أهل الأرض خرص لا يمت للحقيقة بصلة، بغض النظر عمن قاله.

القانون: كلام الله هو اليقين الوحيد.

القانون: دين الله يقوم على اليقين.

القانون: طاعة كلام أهل الأرض عبادة لهم، بغض النظر عن الشخص الذي قال أو شرع.

القانون: كل تشريع من رجل دين خرص وتقول على الله ودينه، واتباعه عبادة له من دون الله.

القول بالأهواء

فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهّ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهّ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩)

القانون: القول بالأهواء (الآراء والفتاوى) في الدين ضلال.



نقض العهد مع الله

تقول سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

"وبعهد الله أوفوا"

الإسلام عبارة عن عهد وميثاق بين العبد وربه، يحصل العبد بموجبه على سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة، مقابل أن يلتزم بأوامر الله ويتجنب نواهيه طوال حياته.

القانون: عهد الله عهد دائم مدى الحياة.

وتقول سورة العنكبوت: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِّ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِّ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِّ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُّ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ(١١) العنكبوت.

الآيات تشير إلى أن بعض من أعلنوا إسلامهم من المستضعفين لم يؤمنوا، ولعل إعلان إسلامهم لكي يتحرروا من الرق. ولما تعرضوا للتعذيب بالنار، أو أنهم رأوا غيرهم يعذبون، سارعوا للردة خوف التعذيب.

ويستفاد من الآيات القانون الإلهي التالي: لا تجوز الردة لأي سبب كان.

وهناك استثناء تذكره الآيات التالية:

مَن كَفَرَ بِاللهِّ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِّ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(١٠٧) أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ(١٠٩) النحل.

هذه الآيات تقول:

القانون: الردة لا تجوز تحت أي ظرف من الظروف.

القانون: إعلان الكفر دون الاعتقاد به جائز كوسيلة للتخلص من العذاب والتمكن من الهجرة.



وتقول سورة النحل: وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١).

نقض الأيمان هنا لا تعني الحنث في يمين، ولكنها تعني الخروج من الإسلام. ذلك أن الإسلام معاهدة بين العبد وربه كما سبق وذكر.

القانون: لا يجوز نقض العهد مع الله.

وتقول نفس السورة: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢).

ميثاق الدخول في الإسلام صورته الآية كأنه صوف تم غزله بإتقان، والردة كأنها نقضت الغزل أنكاثاً، وصوف متطاير منفوش.

القانون: هدم ونقض للميثاق الموقع مع الله.

وتقول سورة الرعد: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ(٢٦).

الردة نقض لعهد الله وميثاقه، وقطع ما أمر الله به أن يوصل لأنه ميثاق لمدى الحياة مستمر. وفساد في الأرض لأنه منع لانتشار دين الله.

القانون: المرتد عليه لعنة الله.

وتقول سورة المائدة مخاطبة المسلمين: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧).

الآية دليل على أن الدخول في الإسلام يعني عقداً واتفاقاً وميثاقاً بين العبد وربه، يوجب على العبد الالتزام التام بأوامر القرآن والانتهاء التام عن كل نواهي القرآن. مما يعني أن أي خرق لهذا العقد بارتكاب كبيرة غير مسموح، وبالتالي فكل مرتكب للكبيرة عالماً بحرمتها وحكمها فهو في النار.



القدوة الحسنة والتربية

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦) الفرقان.

"اجعلنا للمتقين إماماً" تعبير مجازي يعني أن نكون قدوة صالحة. والدعاء بأن يهب الله ذرية صالحة مقترن بأن نكون (كوالدين) قدوة صالحة، فينشأ الأولاد صالحين.

القانون: المسلم يجب أن يكون قدوة صالحة قولاً وفعلاً.

القانون: الوالدان الصالحان سيربيان أبناءهما تربية صالحة لأنهما سيكونان مثالاً يحتذى في التعامل.

القانون: تنشئة الذرية في بيئة صالحة عمل صالح، ومخالفتها كبيرة.

اليمين والحلف

وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤).

القانون: اتخاذ اليمين وسيلة للإقناع بحدوث حدث لم يحدث كبيرة.

القانون: لا يجب استخدام الحلف في المحكمة بين المتخاصمين، فمن ظلم وبغى وهو يعلم أنه كبيرة لن يتورع عن الحلف بأغلظ الأيمان كذباً.

مكة يجب أن تبقى بلدة محرمة

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) النمل.

القانون: مكة حرمها الله، ولا يجوز لبشر أن ينتهك حرمتها أو يلغيها.

ومن حرمة مكة ألا يطال من فيها أذى ويأمنون على أنفسهم وأموالهم.

ومن حرمة مكة ألا يتم التصرف بها كيفما يشاء شخص أو جماعة. ويجب أن يكون لها إدارة خاصة مستقلة تحكم بقوانين واضحة تحميها من الجشع والتعديات وتضمن بقاءها منطقة



محايدة لا تخضع لحكم دولة كما أرادها الله على الدوام[7].

المسجد الحرام لا يملك

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥).

الآيات تقول إن قريشاً منعت المسلمين من دخول المسجد، مستنكرة هذا التصرف. لأن قريشاً لا تملك حق منع الناس أو السماح لهم لدخول البيت. فهو بيت الله جعل للناس كافة منذ القدم، وليس ملكاً لقريش. وإن كان الله قد كلف إبراهيم وإسماعيل – أجداد قريش – بخدمة الحجاج والقيام على البيت فهذا لا يعني أنه أعطاهم الحق ببسط سيطرتهم على مكة. لأن مكة لا يجب أن يحكمها بشر، ولا يجب أن تدخل تحت سيطرة أحد. هي بلد حرام وبيت لله آمنا لمن فيه. ولكل الناس الحق بزيارته وتعبد الله فيه. وقريش احترمت هذا الميثاق، ولهذا كانت مكة بلا حاكم. ولم يكن أحد من قريش يزعم أنه حاكم لها. فهي الدولة (المدينة) الوحيدة في العالم في ذلك الوقت التي ليس لها حاكم.

القانون: مكة بيت الله الذي لا يجوز أن يحكمه بشر.

القانون: مكة يجب أن تكون إدارتها تحت هيئة إسلامية دولية تتولى القيام على البيت وخدمة الحجاج. وتكون خارج سيطرة أي حكومة، مباشرة أو بتأثير غير مباشر.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) الحج.

مما يجب على الهيئة القائمة على شئون مكة:

- ترميم وتوسعة وصيانة البيت، وتنظيفه باستمرار.

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) الحج.

- نشر المعلومات عن الحج وعن مكة وما يقدم للحاج والمعتمر.
- الترويج للحج والعمرة وزيارة مكة.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ

٧ انظر فقرة الحج/ قسم تشريعات من القرآن.



فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) الحج.

- تحديث الطرق والخدمات
- ونشر البرامج التوعوية للحاج والزائر.
- توفير السكن والأكل والشرب للحاج.

على أن يتحمل الحاج تكاليف سفره من بلده للمسجد الحرام والعودة، والمواصلات في مكة والمشاعر والأضحية ومصاريفه الشخصية غير الوجبات اليومية الثلاث.

موالاة أعداء الإسلام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١) الممتحنة.

أول سورة مدنية وأول آية منها تخاطب مسلمة قريش الذين أبقوا على موالاتهم لمشركي مكة وتحذرهم أن هذه الموالاة تؤدي بهم للضلال.

والقرآن يصف الكافر المخلد في النار بمن ضل سواء السبيل، ومن ذلك: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٠٨) البقرة.

ومثله ما ورد في سورة المائدة: ..... فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٢).

القانون: موالاة الكفر المعادين للإسلام والمسلمين ضلال عن سواء السبيل.

القانون: من يضل سواء السبيل فقد كفر.

القانون: من كفر فهو مخلد في النار.

القانون: من يوالي أعداء الإسلام والمسلمين ولو بالسر فهو كافر مخلد في النار ولو أعلن الإسلام.

القانون: من يوالي أعداء الإسلام والمسلمين قليلاً أو كثيراً فهو كافر مخلد في النار ولو أعلن



الإسلام.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢) الممتحنة.

القانون: من مظاهر العداء الاضطهاد أو الطرد أو المضايقة أو الملاحقة أو التقتيل.

القانون: السب والشتم أو السخرية بأي وسيلة من مظاهر العداء، مثلها مثل حياكة المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين.

لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) الممتحنة.

الآيات تقول بأن مسلمة قريش يوالون المشركين بحجة أنهم أقارب ونسب، وكان يجب أن يقتدوا بإبراهيم الذي تبرأ من والده عندما تيقن أنه مصر على الكفر.

القانون: موالاة الأعداء لا تجوز تحت أي مبرر كان.

القانون: موالاة الأعداء لا تجوز ولو كانوا آباءنا وإخواننا وأقاربنا وعشيرتنا.

القانون: كل من يعادي الدين ويسعى لحرب المسلمين فهو عدو بغض النظر عن صلة النسب.

القانون: صلة الدين أهم وأولى من صلة النسب.

الأصل التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم

عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) الممتحنة.

الآية تتفاءل بحلول السلم بين المسلمين وقريش التي أعلنت عداءهم.

القانون: الإسلام دين التعايش مع الآخر شريطة ألا يحاربوا المسلمين وأن يقبلوا التعايش السلمي معهم.



لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩) الممتحنة.

القانون: يجب التواصل الإنساني مع غير المسلمين الذين يتعاملون مع المسلمين بود.

القانون: الموالاة للمسالم الذي لا يحارب الإسلام والمسلمين مباحة.

القانون: الأصل في التعامل بين المسلم وغيره هو السلم والمودة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(١٣) الممتحنة.

القانون: موالاة المعادين للإسلام عداء للإسلام.

زواج المسلمين بالمشركين

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢) الممتحنة.

نساء قرشيات حضرن للمدينة مهاجرات، في وقت هرب فيه المسلمون من مكة للمدينة خوفاً على حياتهم ودينهم من قريش. والآيات تضع بعض القوانين الواجب اتباعها في مثل هذه الحالة، كما يلي:

القانون: عند حضور نساء يدعين أنهن مسلمات من دولة أو مجتمع في حالة عداء وحرب على المسلمين، فيجب امتحان إيمانهن والتأكد من أنهن لم يقدمن للتجسس.



القانون: عند ثبوت أنهن مسلمات فعلاً لا يجوز بأي حال من الأحوال إرجاعهن لقومهن الكفار.

القانون: كل ما ينطبق على النساء ينطبق على الرجال.

القانون: لا يجوز رد أو إرسال مسلمين لأرض عدو محارب أبداً بأي حال من الأحوال، حتى ولو كانوا أبناءً لأباء مشركين أو إخوة لهم.

القانون: النسب ليس كافياً لأن يَحْضُن الكافر صغيره المسلم.

القانون: في حال كان هناك مسلمون متزوجون بمشركات قومهم أعداء محاربون للإسلام والمسلمين فيجب التفريق بينهم.

القانون: إذا تم التفريق بين رجل مسلم وزوجته المشركة، فللزوج حق المطالبة بمهره الذي دفعه لها.

القانون: إن لم يقبل أهل الزوجة المشركة رد الصداق للزوج يقوم المسلمون بتعويضه بمقدار صداقه من بيت المال.

القانون: إذا تم التفريق بين الزوجة المسلمة وزوجها المشرك بفسخ نكاحها فيجب عليها رد صداقه إليه.

القانون: إن لم تكن تملك الصداق أو قيمته، يقوم بيت المال بدفعه عنها.

القانون: لا يجوز لمسلم أن يبقي على زوجته المشركة التي من قوم معادين للإسلام ومحاربين للمسلمين.

القانون: كل من جاء للمسلمين من بلاد المشركين المعادين للإسلام والمحاربين للمسلمين يريد الدخول في الإسلام وهو صادق فيقبل ولا يرد للمشركين.

وجاء تأكيد التحريم في سورة البقرة: وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

المشركون قد يكونون من قريش ومن غيرها، لكن ما يؤكد أن الكلام هنا موجه لقريش هو:



أنهم عدو محارب للمسلمين.

القانون: لا يجوز التزاوج مع المشركين المحاربين للإسلام والمسلمين.

القانون: منع التزاوج بسبب معاداتهم للإسلام وليس لكفرهم.

القانون: كل من كانت دولته معادية لدولة المسلمين فلا يجوز التزاوج معهم.

القانون: مما سبق ذكره في سورة الممتحنة فكل من هو متزوج بمشركة أو مشرك من دولة معادية يفسخ النكاح بينهما.

يضاف هنا جواز الزواج بأهل الكتاب

سلوكيات

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) الحجرات.

الآيات تتحدث عن سلوكيات بعض الأعراب.

القانون: احترام الخصوصية واجب.

القانون: الزيارات المفاجئة غير حضارية.

القانون: الزيارات بدون موعد وفي أوقات الراحة غير حضارية.

القانون: الإزعاج بأي شكل مرفوض.

القانون: ضرورة وجود برنامج توعية مستمر لاحترام الخصوصية والبعد عن إزعاج الناس في بيوتهم أو خارجها.

الإيمان قول وفعل

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ



أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) الحجرات.

القانون: ليس كل من أعلن الإيمان مؤمناً.

القانون: الإيمان يعني تصديقاً في القلب وعملاً للجوارح.

القانون: الإيمان وحده لا يكفي.

القانون: العمل الصالح بدون إيمان لا يكفي.

القانون: الدخول في الدين ليس منة يكافأ عليها المسلم الجديد.

المتهم بريء حتى يثبت العكس

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) الحجرات.

الآية جاءت ضمن سياق يتحدث عن شجار وقع بين مسلمة قريش والمستضعفين نتيجة لوشاية كاذبة.

القانون: المتهم بريء حتى يثبت العكس. (وهو بخلاف المعمول به في كثير من بلاد المسلمين)

القانون: الوشاية لا يؤخذ بها.

القانون: من ينشر وشاية فهو فاسق.

القانون: نشر الوشاية جرم يجب أن يوضع له عقاب.

"الوشاية ما له علاقة بالناس وليس الحديث في سياسات دول فاسقة، هي تقوم بنشر الوشايات التي تخدم سياساتها التي فيها الغاية تبرر الوسيلة".

الفسق والعصيان مخالف للإيمان

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨) الحجرات.



القانون: الوشاية فسق.

القانون: الوشاية معصية.

القانون: العاصي والفاسق ليس مؤمناً ولو أعلن الإسلام.

التنابز بالألقاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) الحجرات.

القانون: السخرية محرمة.

القانون: السخرية يسن لها عقوبة.

القانون: التنابز بالألقاب يعاقب عليه.

القانون: يسن عقوبات للتنابز.

القانون: التنابز بالألقاب يعني مثل نعت أحدهم بالخضيري، أو نعت صاحب البشرة السوداء بالعبد.

القانون: التنابز بالألقاب والسخرية فسوق.

القانون: الفسوق مناف للإيمان.

القانون: الفسوق كبيرة ومن استمر عليها أو لم يتب منها فهو من الظالمين.

القانون: الظالمون مأواهم النار.

القانون: مما يحرم في الإسلام: الظن، التجسس، الغيبة، وهي كما لو أن أحدنا أكل لحم الآخر وهو ميت.



القانون: النسب ليس للتفاخر، ولكن للتعارف فقط. فيقال فلان من آل فلان للتفريق بينه وبين شخص آخر يحمل نفس الإسلام.

القانون: القبلية حمية جاهلية لا يجب إقرارها في الإسلام[8].

الظهار

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤) المجادلة.

القانون: الظهار حرم زمن الرسول.

القانون: لا يقبل تفعيل الظهار تحت أي مسمى وبأي شكل من الأشكال.

القانون: الحديث عن الظهار للإخبار بتاريخ تحريمه وليس لإقراره الآن.

القانون: من عاد للظهار فقد تجاوز حدود الله وله ما للكافرين من عذاب أليم.

القانون: كل من عاد لممارسة كبيرة نهى عنها القرآن فله عذاب مماثل لعذاب الكفار ولو كان يؤمن بالله ورسوله.

وجاء في سورة البقرة: لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٧).

والإيلاء هو الظهار ولكن بدون حلف. حيث يقوم الرجل بهجر زوجته وإهمالها دون تطليقها. والآيات تقول: إن أقصى مدة لترك الزوجة هو أربعة أشهر، وبعدها الطلاق أو الوفاق.

القانون: الحد الأقصى لهجر الزوجة هو أربعة أشهر.

القانون: هجر الزوجة ليس فقط في المعاشرة الجنسية ولكن بالنفقة والتعامل.

٨ انظر موضوع: دعوها فإنها منتنة/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



القانون: يجب وضع قانون ينص على أن من هجر زوجته لأكثر من أربعة أشهر فلها حق الطلاق الفوري.

الإثم واحد سواء جهر بالمعصية أو كانت في الخفاء

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩) المجادلة.

الآيات تتحدث عن منافقين من يثرب كانوا يعلنون إسلامهم ويحلفون للرسول والمسلمين أنهم مسلمون ولكنهم يضمرون الكفر وموالاة أهل الكتاب. وفي جلساتهم الخاصة كانوا يأتون المعاصي.

القانون: إتيان المعاصي في الخفاء لا يقلل من ذنبها ولا من عقابها عن إتيانها جهراً.

القانون: أن تكون مسلماً يعني العمل بكل أوامر الله ونواهيه.

القانون: موالاة الكافر كفر ولو صدرت من مسلم يؤدي الواجبات وينتهي عن النواهي.

السلوك الحضاري واللباقة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٣) المجادلة.

هذه الآيات تخاطب عموم المسلمين في تلك الفترة وإن نزلت ضمن سياق بحق الأعراب الذين سارعوا للقاء الرسول عندما سمعوا بوصوله ليثرب مظهرين إيمانهم طمعاً في



الأعطيات، وأظهروا الكثير من التصرفات الفجة. وكان عليهم التحلي بالسلوك الحضاري، وأن يحرصوا على تقديم بعض الطعام لمجلس الرسول للمشاركة في توفير الطعام للحضور.

ويستفاد من هذا:

القانون: المشاركة في توفير الطعام لاجتماع يهم الجميع سلوك حضاري لئلا يتحمل البعض تكاليف توفير الطعام للجميع.

القانون: من السلوك الحضاري الذي يجب أن يحرص عليه المسلم هو إحضار هدية بسيطة لمن يزور للمرة الأولى ولا يذهب بأيد فارغة.

موالاة الأعداء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ(٢٠) كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) المجادلة.

الآيات تتحدث عن موالاة منافقين من يثرب لأهل الكتاب الذين رفضوا الإسلام، وأخرجوا الرسول والمسلمين من مكة، الذين هاجروا طلباً لمرضاة الله وهرباً من الاضطهاد. فكيف يتعاطف بعض المسلمين مع من يحارب الله ودينه، إن كانوا مؤمنين حقاً؟

القانون: كل من يوالي غير المسلمين الرافضين دعوة الإسلام فليسوا مسلمين ولو أعلنوا الإسلام.



القانون: من يوالي الأعداء فمصيرهم النار.

القانون: التظاهر بالدين لا يعني الإسلام،

القانون: موالاة غير المسلمين ناقض للإسلام.

القانون: موالاة غير المسلمين لا تقبل ولو كانوا من الأقارب ومشاركين في النسب.

القانون: النسب لا أهمية له ولا تبنى عليه علاقة المسلم بالغير.

القانون: يجب معاداة الأقارب المعادين للإسلام.

القانون: العلاقة بين المسلمين تقوم على الإيمان وليس النسب.

القانون: من يوالي الأعداء فقد حاد الله ورسوله.

القانون: الإسلام كل لا يتجزأ، ولو قام المرء بكل أوامر القرآن وانتهى عن نواهيه وأبقى على واحدة كموالاة الكفار فهو في النار.

البيع أثناء الصلاة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١) الجمعة.

القانون: وجوب إغلاق المحلات وترك البيع عند دخول وقت الصلاة.

القانون: تحريم الخروج من المسجد بغرض التجارة أو اللهو أو أي سبب أثناء الصلاة إلا للضرورة.

القانون: وجوب ترك البيع وعدم الخروج من المسجد يكون في كل يوم وليس خاصاً بيوم الجمعة. وذكر الجمعة في السورة لأن السوق كان يقام فيها.

القانون: صلاة الجماعة واجبة.

القانون: لا يوجد صلاة خاصة ليوم الجمعة.



الدخول في الإسلام

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

الدخول في الإسلام يعني عقداً اتفاقاً وعهداً مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

القانون: الدخول في الإسلام ليس احتفالاً علنياً بالنطق بالشهادتين.

القانون: الدخول في الإسلام يعني معاهدة بين المخلوق والخالق باتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه.

القانون: عصيان أمر لله كعصيان كل أوامره.

القانون: عصيان أوامر الله نقض لميثاق الإسلام المبرم بين العبد والخالق.

القانون: العمل بخلاف أمر الله أو نواهيه قطع لتلك الأوامر.

القانون: مخالفة أوامر الله ونواهيه فساد في الأرض.

الحج / الطواف بالصفا والمروة

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ(١٥٨) البقرة.

قد يكون بعض المسلمين الجدد في يثرب سأل الرسول إن كان الطواف بين الصفا والمروة من الحج؟ فأجابته السورة بأنه لا جناح على من يتطوف بالصفا والمروة ومن لم يفعل فلا جناح عليه أيضاً.

القانون: الطواف بين الصفا والمروة ليس واجباً على الحاج.

القانون: يباح الطواف بين الصفا والمروة.

القانون: ليس هناك عدد محدد للطواف بين الصفا والمروة.



كتمان الوحي

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ(١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(١٦٢) البقرة.

الآيات تشير إلى بعض من يعلن الإسلام الذين إذا ما سئلوا عن بعض ما يقول القرآن لم يخبروا به وكتموه وهم يعلمون.

القانون: كل من يعلم شيئاً من القرآن ويكتمه عمن لا يعرفه فعليه لعنة الله واللاعنين.

قوله: «يعلنه اللاعنون» تعني جواز لعنه من الناس.

القانون: كل من يكتم شيئاً من القرآن ومات ولم يتب فهو كافر وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومخلد في النار.

القانون: يأتي تحت كتم القرآن تأويله عمداً لغير معناه. أو التشريع بما يخالف صريح القرآن.

وتعود سورة البقرة لتحذير من يكتم الوحي: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(١٧٦).

من كتمان الوحي كتمان الوحي التغافل عن بعض الآيات التي تخالف سياسة السلطان، أو تجرمه. ومن ذلك أيضاً تأويل بعض الآيات لغير معناها لتخدم مصالح السلطان أو مصالح من يستفيد منه كالسلطان، ويغفل آيات صريحة تقول بخلاف تأويله.

القانون: كل من يكتم بعض الوحي أو يغفله لئلا يفطن له الناس فهو في النار.



الدين كل لا يتجزأ وليس هناك عبادة تعوض عملاً صالحاً

لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

فالدين كل لا يتجزأ. ولا يكفي أن نصلي باتجاه الكعبة لنصل لمرتبة البر، بل علينا أن نأتمر بكل أمر قرآني وننتهي عن نواهيه. ومن الأوامر ما ذكر هنا من تشريعات. ومنه: إيتاء المال (الإنفاق) على كل ما يحتاجه المجتمع المسلم وذكرت الآية بعضها.

القانون: الدين كل لا يتجزأ، و ترك أمر أو نهي كفر يؤدي للنار.

القانون: الصلاة لا تكفي لدخول الجنة.

القانون: الصلاة لا تكفر المعاصي.

القانون: الدين إيمان وعمل صالح.

القانون: الإيمان بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ.

القانون: العمل الصالح يعني طاعة كل أمر والانتهاء عن كل نهي في القرآن.

القانون: من العمل الصالح: وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

وتقول سورة البقرة متحدثة عن أهل الكتاب في يثرب الذين يطيعون بعض أوامر الله ويعصون البعض: ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) البقرة.

وتقول الآيات إن من يؤمن ببعض ويكفر ببعض فهو كافر ومصيره جهنم.



الوصية

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٨٢) البقرة.

فقه المذهب السائد يقول بأن الوصية لا تجوز بأكثر من ثلث مال الموصي، ودليلهم حديث منسوب للرسول يقول: الثلث والثلث كثير.

ولا تجوز لوارث، ودليلهم على ذلك حديث منسوب للرسول يقول: لا وصية لوارث.

فما الذي يقوله تبارك وتعالى في كتابه؟

بعدما استقر رسول الله في المدينة حيث المجتمع المسلم وتكونت نواة الدولة المسلمة، توالت التشريعات بالنزول، بدءً من سورة البقرة.

ومما فرض في هذه السورة، الوصية:

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.

والآية تقول بأن الوصية كتبت على كل مسلم «ترك خيراً» يملك المال الفائض عن حاجته وحاجة عياله. ومن تجب عليه، فلا خيار له بتركها. مثلما أنه لا خيار بترك أي تشريع كتب على المسلمين، مثل الصيام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

والوصية محصورة بالوالدين والأقربين فقط، دون غيرهم من الناس.

وتؤكد سورة النساء أن الوصية تُخرج من المال قبل توزيع التركة، وما بقي بعد الوصية فيقسم على الورثة: يوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ...... مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ...... (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ...... مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ...... وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢) النساء.

فالوصية للمحتاج من الوالدين والأقربين، بينما التركة تقسم على المحتاج وغير المحتاج من الورثة.



ويوجب القرآن توثيق الوصية في سورة المائدة التي نزلت بعد البقرة والنساء، كاستيفاء للتشريعات الخاصة بالوصية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ(١٠٦) المائدة.

ومما تقدم يمكن القول بكل ثقة، ما يلي:

- القرآن يوجب الوصية، والفقه يجيزها.
- القرآن يحصر الوصية بالوالدين والأقربين فقط، ولا تكون للغريب ولا كصدقة جارية للميت. بعكس ما يقول الفقه الذي يحرم الوصية للورثة، وعلى رأسهم الوالدان والأقربون الذين نص القرآن على أنهم هم وحدهم من تكون له الوصية، ويجيز أن تكون الوصية على شكل صدقة جارية يعود أجرها للميت.

وعليه فلو قام المرء ببناء مسجد أو مستشفى أو أي مشروع خيري وهو حي يرزق فأجره سيحسب له، لأنه سيكتب في صحيفة أعماله أنه فعل عملاً صالحاً.

لكن لو وصى ببناء هذا المشروع بعد وفاته، كجزء من وصيته، فالفقه المذهبي يقول بأنه سيحصل على الأجر. بينما يقول القرآن إنه لن يطاله أجر، لأن الوصية في القرآن ليست للميت ولكن للوالدين والأقربين الأحياء.

ونحن هنا بين تشريع قرآني وتشريع حديثي فقهي تفسيري بشري يقول بعكس ما يقول القرآن تماماً.

- والقرآن يوجب إخراج الوصية قبل تقسيم التركة.
- والقرآن يوجب توثيق الوصية، بشاهدين في ذلك الزمن، وهذا لا يمنع استخدام وسيلة توثيقية أنجع من الشهود في هذا الوقت، كالتسجيل في المحكمة، أو تسجيل أليكتروني في حال تطبيق حكومة أليكترونية.
- والفقه البشري جعل ثلث المال حداً أعلى للوصية مع الكراهية، والأفضل أن تكون الوصية أقل من الثلث.



ولمعرفة ما يقول القرآن حول هذه النقطة نتوقف عند ما جاء في الآية: (١٢) من سورة النساء أعلاه، والذي يقول: «مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ."

فهي تنهى عن أن يضار غير الموصى لهم من الورثة، والمقصود بهم المحتاجون منهم.

ولو أضفنا لهذا قوله تعالى: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) النساء.

وهذه الآية تنهى عن ترك الذرية للعوز والفاقة. وهو مشابه لما تقوله الآية ١٢ «غَيْرَ مُضَآرٍّ."

وهذا يعني أن الموصي يجب عليه أن يتأكد من ترك مال كاف للقصر من ذريته حتى لا يضارهم، بتركهم للعوز، وما زاد عن ذلك فيمكن الوصية منه.

وإذا ما ترك الموصي ما يكفي لذريته، فليس هناك مانع من الوصية بكل ما بقي من ماله لمن لهم حق في الوصية.

وبما أن الفقه يحرم الوصية للوارث – عكس القرآن – فقد حوَّلَ الوصية بثلث المال وكأنها حق للموصي، تستخدم كصدقة جارية له بعد موته، كما سبق وذكرنا.

أما كيف استطاعوا تعطيل حكم الله واستبداله بحكم مخالف له من عند أنفسهم، فذلك عن طريق زعمهم أن الآية التي كتب الله فيها الوصية على الناس منسوخة، بالآية التي يسمونها آية المواريث.

وآية الوصية هي: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة

وآية المواريث هي: يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) النساء.

وسورة النساء نزلت مباشرة بعد البقرة، ولو أطعنا المفسرين وأهل الحديث والفقه، فالله كتب علينا تشريعاً، في البقرة، ثم اكتشف أنه يتعارض مع تشريع التوريث فقام بإلغاء



تشريع الوصية للوالدين والأقربين «الورثة.»

هذه الصورة القبيحة لله لا يمكن أن أقبلها بحق خالق السموات والأرض: قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) الحجرات.

وهي من مصائب الموروث الذي فرض على الله ما أطلقوا عليه: الناسخ والمنسوخ، الذي ابتدعوه من عند أنفسهم. حيث زعموا أن القرآن ينزل آية آية، وقاموا بتأويل كل آية بمعان من عند أنفسهم، فوقعوا في تضاد بين المعاني التي اخترعوها، ولم يجدوا مخرجاً ليعالجوا المشكلة التي اختلقوا إلا بمشكلة أخطر، تمثلت بالقول بالناسخ والمنسوخ.

القانون: الوصية تكون للوالدين والأقربين حصرياً، ومن أوصى بغير ذلك فقد بدله بعدما سمعه.

القانون: يجب عدم قبول تسجيل الوصية المخالفة للقرآن.

القانون: يجب عدم تنفيذ الوصية المخالفة للقرآن.

القانون: الوصية ليست محددة بثلث المال أو أقل أو أكثر بشرط عدم الإضرار بورثة محتاجين.

القانون: في حال اتضح أن الموصي تعمد الإضرار بورثة آخرين بواسطة الوصية فلابد من نصحه وثنيه عن وصيته.

القانون: إن أصر على وصيته التي تضر بورثة آخرين محتاجين فلا تسجل ولا تنفذ.

القانون: يجب أن يكون هناك ضوابط ثابتة لتسجيل الوصية.

القانون: كل ما قيل عن الوصية من خارج القرآن فلا ينفذ ويعتبر خارج القانون.

القانون: الوصية ليست للميت ولكن للحي من الوالدين والأقربين.

وتقول سورة المائدة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ(١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ



الظَّالِمِينَ(١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(١٠٨).

القانون: يجب توثيق الوصية بدقة.

القانون: التوثيق زمن الرسول كان بشهادة الشهود ولذلك جاءت الآيات بالحرص على أن تُبلغ الوصية ولا تكتم.

الصيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

الصيام كتب على الأمم السابقة، وهو ما يعني أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد صامه. لكن – على ما يبدو – فإن قريشاً قد نسيته تماماً منذ زمن قديم، ولم يعد له ذكر حتى في موروثهم الشعبي.

أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤).

القانون: المريض والمسافر فقط هم من يحق لهم الإفطار.

القانون: من أفطر لأحد هذين السببين فهو مخير بين صيام أيام مماثلة فيها بعد كقضاء، أو فدية طعام يوم كامل (فطور، غداء، عشاء) لمسكين عن كل يوم أفطره.

القانون: يمكن تقدير قيمة الوجبات وتعطى للمسكين بدل الطعام.

القانون: من يرغب في زيادة ما يعطي المسكين فهو خير يحسب له. (لأنه سيكون من الإحسان المطلوب على الدوام).

القانون: من يصوم في السفر أو في المرض (إن استطاع) فهو خير له من الإفطار.

وهذا هام، فالناس يظنون أن الإفطار في السفر أفضل.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ



مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

القانون: الصيام المطلوب من رب العالمين هو شهر رمضان، فقط لا غير.

القانون: كل صيام لغير أيام رمضان فهو زيادة لم يقل بها كتاب الله.

القانون: إباحة الإفطار للمريض ومن هو على سفر للتيسير على الناس.

القانون: المشقة ليست مطلوبة في العبادات.

القانون: السفر الشاق هو ما يجوز للصائم إفطاره، وليس السفر بالسيارة أو الطائرة كما اليوم.

القانون: من أفطر يوماً أو أياماً لمرض أو كان على سفر فعليه قضاء الأيام التي أفطرها وإن كان الشهر ٢٩ يوماً فعليه اعتباره كاملاً ٣٠ يوماً. وهذا القانون يفهم من قوله تعالى: « فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ». فإكمال عدة الشهر ٣٠ يوماً ولو كان في ذلك العام ٢٩ للصائم المقيم السليم.

وتكمل السورة الحديث عن الصيام: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧).

القانون: ليالي رمضان يباح فيها كل ما يباح في الأيام العادية في غير شهر رمضان، ومن ذلك مباشرة النساء.

القانون: الاعتكاف لا يعني المكوث في المسجد لعدة أيام، ولكن المكوث في المسجد لبعض الوقت بعد الصلوات.

القانون: المكوث في المسجد لعدة أيام رهبانية لا شأن للإسلام بها.



أكل البعض أموال البعض الآخر بالتحايل أو القوة

وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) البقرة.

الآية تعني المتنفذين الإقطاعيين الذين لا يتورعون عن أكل أموال الغير بالباطل وبأي وسيلة وهو ما ينطبق على الحكام.

القانون: كل كسب مادي أو معنوي بغير وجه حق فهو أكل مال الغير بالباطل.

القانون: أكل مال الغير بالباطل كبيرة.

الأهلة

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٨٩) البقرة.

الأهلة جمع هلال، والمقصود الأشهر القمرية.

القانون: الأشهر القمرية هي المعتبرة للعبادات في الإسلام كرمضان والحج.

دخول البيوت والأحراز

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٨٩) البقرة.

القانون: الطريقة الوحيدة المباحة لدخول البيوت هو الباب المخصص للدخول.

القانون: لا يجوز أن يدخل من النافذة أو من فتحة في الجدار أو من فتحة تؤدي إلى أي مكان في المنزل أو عن طريق بيت مجاور أو بواسطة حفرة موجودة حول البيت أو بعيدة عنه تؤدي لداخله أو بواسطة قنوات المجاري وتصريف السيول أو أي قنوات أخرى. أو باستحداث حفرة قريبة أو بعيدة من المنزل وتؤدي إليه. أو باستحداث فتحة في الجدار..... إلخ.



من ضوابط الجهاد

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤)البقرة.

القانون: القتال موجه لمن يقاتل المسلمين فقط.

القانون: لا يجوز بداية الناس بالقتال، فهو تعد لا يحبه الله.

القانون: عندما يضطر المسلمون لقتال المعتدي، عليهم أن يقاتلوه بكل قوة وصرامة لكي يقضوا عليه وينتهي أمره ولا يعاود حرب المسلمين.

القانون: الأصل أنه لا قتال في المسجد الحرام، لكن لو قاتلتهم قريش فيه فعليهم قتالهم.

القانون: القتال يكون للدفاع عن النفس والمال والدين.

القانون: إن توقفت قريش عن قتال المسلمين فيجب التوقف عن قتالهم، ويحرم التعدي عليهم.

القانون: لا يقاتل الناس لأنهم كفار ولكن لأنهم معتدون.

القانون: لا يجوز التعدي والعدوان، بل يعتدى على المعتدي بمثل ما اعتدى على المسلمين.

وتقول سورة البقرة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧) البقرة.



القانون: الأصل أن يتجنب المسلمون القتال في الأشهر الحرم.

القانون: إذا قاتل المعتدون المسلمين في الشهر الحرام فيجب على المسلمين قتالهم.

القانون: القتال في الحرم محرم، لكن لو قاتل الأعداء المسلمين في الحرم فيجب على المسلمين قتالهم.

القانون: يجب على المسلمين احترام المعاهدات الدولية، لكن لو أن احترامها يضر بمصالح المسلمين أو يعرضهم أو بلادهم للخطر، فعلى المسلمين المحافظة على أرواحهم وبلادهم ولو خالفوا تلك المعاهدات.

الإنفاق أو التهلكة

وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٩٥) البقرة.

القانون: من لا ينفق فهو يلقي بنفسه بيديه إلى التهلكة (النار).

الحج

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٩٦).

القانون: من لم يتمكن من إتمام الحج فلينحر الهدي ويحلق ويعود لبلاده.

وعدم التمكن من الحج هو عدم القدرة لدخول مكة للطواف بالبيت لأي سبب. كما حدث للمسلمين عندما منعوا من دخول المسجد الحرام في أواخر العصر المكي زمن رسول الله.

القانون: إتمام الحج هنا المقصود به تعذر الوصول للبيت بعد أن حضر للحج. إما لمنعه من قريش كما فعلت مع المسلمين في أواخر العصر المكي. أو لأسباب أخرى.

القانون: حلاقة الرأس تكون بعد نحر الهدي، وليس قبله



القانون: من لم يتمكن من حلاقة شعره كونه مريضاً أو لأن رأسه به أذى (مرض جلدي) فعليه فدية.

القانون: الفدية تكون أحد ثلاثة أمور: صيام، أو صدقة، أو نسك.

ولم يحدد هنا الصيام هل هو ليوم أو أكثر، وكتب التراث تقول ثلاثة أيام.

كما لم يحدد كمية الصدقة هل هي إطعام مسكين ليوم أو أكثر.

وبالنسبة لي فالأمر يحتاج لبحث أعمق.

..... فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٩٦).

القانون: الهدي يكون بعد أداء الطواف حول الكعبة للحج.

القانون: من لا يجد هدياً فعليه فدية صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد العودة للديار.

القانون: صيام ثلاثة أيام في الحج تبدأ من بعد يوم النحر (المسمى العيد اليوم) .

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧).

القانون: الرفث والفسوق والجدال من مبطلات الحج.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ(١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ(٢٠٠) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢) وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ



وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٠٣)البقرة.

الآيات أعلاه تشرح كيف يكون الحج:

القانون: يبدأ الحجاج التجمع في عرفات، وليس هناك خطبة.

القانون: الإفاضة من عرفات باتجاه المشعر الحرام (البيت) والإفاضة تعني السير الجماعي للحجاج.

القانون: رفع الصوت بالتكبير وذكر الله أثناء الإفاضة وأثناء الطواف عند المشعر الحرام (الكعبة).

القانون: بعد الطواف يتجه الحاج إلى منى حيث يتم نحر الهدي ثم حلاقة شعر الرأس.

تجارة الخمور والميسر

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. البقرة.

من سأل الرسول هم من كانوا يتاجرون بالخمر والميسر، والجواب جاء يحمل التشريعات التالية:

التجارة في الخمر والميسر تدر ربحاً مادياً كبيراً، لمن تهمه الدنيا.

القانون: لمن يؤمن بالله واليوم الآخر وتهمه الآخرة فإن التجارة في الخمر والميسر كبيرة (إثم كبير).

والإثم سيترتب عليه عذابٌ في الآخرة، وهو أكبر من الانتفاع بالأرباح في الدنيا.

هذا القانون يقول إن كل من اشتغل بتجارة الخمور من المسلمين أو أماكن الميسر سواء كمالك للمحل أو عامل فيه فله عذاب شديد. وكم من مسلم يعمل في الملاهي الليلية والبارات ومحلات القمار في بلاد المسلمين. وكم من

منع الزواج بالأعداء المحاربين

وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ



وَاللهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

المعني هم قريش وهي عدو محارب للمؤمنين، ولذلك حرم الزواج منهم، وليس التحريم لكفرهم.

وقد ورد في الآيات: (١٠-١١) من سورة الممتحنة، وجوب التفريق بين أي زوجين مسلم وقرشي مشرك أو قرشية مشركة ومسلم.

كما ورد في سورة المائدة إباحة الزواج بنساء أهل الكتاب: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥).

ومما تقدم يمكن أن نستنتج القوانين التالية:

القانون: كل من كان متزوجاً من الأعداء المحاربين يفسخ النكاح، ويعوض الزوج المسلم أو الكافر عن صداقه من بيت مال المسلمين.

القانون: لا يجوز الزواج من الأعداء المحاربين.

القانون: يجوز الزواج من الكفار المسالمين كما كانت حال أهل الكتاب في يثرب عند نزول سورة المائدة.

المعاشرة الزوجية أثناء المحيض

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٢٢٣) البقرة.

الآيات توجيهية تجيب على سؤال سأله بعض الناس للرسول، وتتضمن تشريعاً بوجوب تجنب المعاشرة الزوجية أثناء المحيض، ليس لأنه ضار بالصحة كما تقول البعض ولكن لأنه فيه دم والله يحب للمسلم النظافة والتطهر. والتطهر هنا من الدم ولا يعني أن الحائض أصبحت مخلوقاً نجساً.



فالبعض سأل الرسول عن المعاشرة الزوجية أثناء المحيض فجاء الجواب.

القانون: المعاشرة الجنسية أثناء المحيض لا تجوز.

القانون: المحيض أذى بمعنى وسخ وقذارة.

القانون: المرأة الحائض ليست نجسة.

اليمين

وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٤) لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٢٥) البقرة.

القانون: لا يجوز استخدام الحلف في الكلام، كما يفعل الناس الآن.

القانون: لا يجوز استخدام الحلف لتأكيد صدق المتكلم.

القانون: قياساً على عدم جواز استخدام الحلف لتأكيد صدق المتكلم فإنه لا يجوز أن يستخدم الحلف لإثبات حق أو نفي باطل في المحاكم[٩].

القانون: اليمين المنهي عنه هو الأيمان المغلظة وليس قول: والله كلفظ عابر.

الإيلاء

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٧).

والإيلاء هو هجر الزوجة وإهمال نفقتها دون طلاق لفترة غير محدودة، فجاءت الآية تقول بأنه لا يجوز ترك الزوجة أكثر من أربعة أشهر، ثم الطلاق أو الوفاق.

القانون: لا يجوز للزوج إهمال زوجته أكثر من أربعة أشهر.

القانون: بعد ذلك إما التوافق أو الطلاق.

القانون: لا يجوز للزوج إهمال نفقة زوجته يوم واحد. وهذا يفهم من سور أخرى.

٩ في السعودية تقوم المحاكمات على مبدأ خاطئ وجاهلي المنشأ يقول: البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. وهذا المبدأ باطل فمن جاء للمحكمة وهو يعلم أنه ظلم خصمه فلن يتوانى عن اليمين. كما أن التوصل للحقيقة يجب أن يتم بواسطة الاستجواب والتحقيق وتحليل كلام المدعي والشهود.



وتقول سورة البقرة: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢).

القانون: لا يجوز أن يبقي الزوج زوجته بعد انتهاء عدة الطلاق ضراراً وتعدياً.

القانون: يجب أن يوثق بدء عدة الطلاق.

القانون: عند انتهاء العدة ولم يتراجع الزوجان فالطلاق يقع.

القانون: إذا وقع الطلاق فعلى الزوجة الخروج من بيت الزوج.

القانون: يجب سن القوانين الكفيلة بحماية الزوجة من أي ضرر يلحقه بها زوجها.

القانون: أثناء عدة الطلاق لو رغبت الزوجة العودة لزوجها فلا يجوز لأهلها منعها.

القانون: يجب فرض القوانين الكفيلة بحفظ حق العودة للزوجة.

القانون: كل القرارات المتعلقة بحياة الزوجين حق محفوظ للزوجين دون تدخل خارجي بغير رغبتها ورضاهما.

العلاقة بين الزوجين

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢) البقرة.

القانون: العلاقة بين الزوجين يجب أن تكون إنسانية في حال التوافق وفي حال الخلاف.

القانون: لو حدث خلاف وتم الطلاق للمرة الأولى ثم أراد الزوجان التراجع، فلا يقف ذوو الزوجين ضد هذه الرغبة لأي سبب.

القانون: لا يجوز لأهل الزوجة منعها من العودة لزوجها أثناء عدة تربصها بعد الطلاق.



رضاعة المولود وحضانته

في حال أن الأب والأم يعيشان حياة زوجية عادية فالمولود ترضعه أمه لو كانت تستطيع ذلك وعلى الأب توفير حياة صحية للأم والرضيع. نتحدث هنا عما كانت عليه الحال قديماً عندما كان الأب هو المسئول عن إعاشة الأسرة والأم ربة بيت. لكن الوضع الآن تغير فالمرأة أصبحت تعمل، وهذا وضع صحي. لكن غير الصحي حوله هو أن هناك حالات من الشحناء والخلاف بين الزوجين حول التعاون فيما بينهما وتقاسم تحمل تكاليف الحياة فيما بينهما.

والقرآن لا يتحدث عن رضاعة الوليد في حال ولد في بيت يعيش فيه أبواه حياة زوجية عادية، مما يعني أن عليهما الاعتناء بالطفل مشاركة بينهما كل بما يستطيع.

فالأب قديما عليه توفي سبل العيش كونه كان العائل، واليوم يمكن للمرأة أن تساهم في هذا المجال لو كانت تعمل أو لديها دخل مادي. لأن الحياة الزوجية تقوم على الود والتعاون: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) الروم.

والقرآن تحدث عن الرضاعة في سورتين هما البقرة والطلاق.

تقول سورة البقرة: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٣).

الآية تتحدث عن قوانين الإرضاع: حيث يجب على الأم إرضاع وليدها حولين كاملين إذا أرادت أن تتم الرضاعة، وهذا يعني أنه يمكنها ترك الرضاعة قبل ذلك. هذا إذا كان الزوجان يعيشان حياة زوجية مشتركة.

وفي حال وقع الطلاق بين الأبوين فيجب على الزوج أن ينفق على مطلقته وعلى الوليد.

ويجوز للوالدين أن يسترضعا لوليدهما، أي يبحثان له عن مرضعة. وهو ما يعني جواز الرضاعة البديلة الحالية من الحليب الصناعي شريطة ضمان توفر احتياجات الرضيع



الغذائية. أو عدم قدرة الأم على الرضاعة.

المهم هنا هو مصلحة الرضيع وليس الأب أو الأم. كما أنه لا يجوز أن تضار الأم بوليدها، مثل أن يؤخذ قسراً من حضانتها. ولا يجوز أن يضار الأب بوليده مثل أن يمنع من رؤيته.

ويمكن استخلاص القوانين التالية:

القانون: يجب على الأم القادرة على الرضاع أن ترضع وليدها.

القانون: المدة الكاملة لإرضاع الوليد هي حولان كاملان.

القانون: يجوز للأم أن تتوقف عن إرضاع وليدها قبل تمام الحولين عند وجود سبب جوهري.

القانون: في حال وقع الطلاق بين الأبوين، فيجب على الزوج أن ينفق على الأم والوليد.

القانون: وجوب بقاء الرضيع مع أمه ولا يعطى الرجل حق الحضانة طالما رغبت الأم بحضانة ورضاعة ولديها، ولا يجوز أخذها منه «لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا».

القانون: لا يمنع الرجل من رؤية وليده «وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ».

القانون: في حال وجود سبب أدى لتوقف الأم عن إرضاع الوليد فيباح للزوجين طلب إرضاع طفلهما من امرأة أخرى.

القانون: يفهم من الآية جواز الرضاعة البديلة من الحليب الصناعي شريطة ضمان توفر احتياجات الرضيع الغذائية.

القانون: لو ترتب على الرضاعة البديلة أتعاب مالية فعلى الزوج دفعها، سواء كانت لمرضعة بديل أو حليب صناعي.

وقوانين أخرى.

وتقول سورة الطلاق:

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى(٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً(٧).



في حال الطلاق والمرأة حامل، فيجب على الزوج الإنفاق عليها وتوفير احتياجاتها حتى تضع حملها.

ومن الآيات يمكن أن تفرض القوانين التالية:

القانون: بعد الولادة فلو أرضعت الأم وليدها فيلزم الزوج أن يفرض لها أجراً مقابل الإرضاع يتفقان عليه.

القانون: للمطلقة حق رفض إرضاع وليدها وابن مطلقها.

القانون: يجب أن يكون الاهتمام بين الزوجين هو بالرضيع فهو المهم « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ».

القانون: لو اختلفا حول الإرضاع أو الأجر أو غيره، فعلى الزوج أن يبحث عن مرضع بديل لطفله.

القانون: النفقة والأجور وتأمين متطلبات الرضيع تكون على الزوج لو كان دخله يسمح وبقدر ما يستطيع. وللمرأة المساهمة بما تستطيع.

وقوانين أخرى.

مدة التربص لمن توفي عنها زوجها

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٣٤).

القانون: المتوفى عنها زوجها تتربص أربعة أشهر وعشرة أيام قبل أن تتزوج برجل آخر.

القانون: لا يوجد في الإسلام ما يعرف بحداد المرأة على زوجها المتوفى.

القانون: التربص للزواج برجل آخر وليس تقديساً للزوج المتوفى.

القانون: المتوفى عنها زوجها تعيش حياتها العادية ولا تمنع من أي مباح.

التعارف بين الرجل والمرأة بقصد الزواج

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ



حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٣٥) البقرة.

القانون: يباح أن يصرح الرجل برغبته خطبة امرأة بعينها.

القانون: يباح أن يلتقي الرجل بالمرأة ليعرفها بنفسه ويبلغها رغبته الزواج بها.

القانون: يكون اللقاء في مكان عام.

القانون: لا يجوز اللقاء في مكان منعزل.

القانون: الكلام يجب أن يكون جاداً من الطرفين.

القانون: يحرم الكلام الذي يوحي بها لا يجوز.

القانون: في حال كان اللقاء أثناء فترة تربص المتوفى عنها فلا يجوز إتمام الزواج إلا بعد انتهاء المدة.

من طلقها زوجها قبل الدخول بها

لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ(٢٣٦) البقرة.

القانون: الذي يطلق زوجته قبل الدخول بها فلا يجب عليه شيء لها.

القانون: القادر يجب عليه أن ينفق على المطلقة فترة التربص.

القانون: غير القادر لا يجب عليه نفقة.

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٧).

القانون: الذي يطلق زوجته قبل أن يدخل بها وقد قدم لها صداقاً فله حق استرجاع نصفه.

القانون: الأفضل أن يترك الزوج كامل الصداق للمطلقة ولا يسترد منه شيء.

القانون: لو أعادت الزوجة كامل الصداق للرجل فيباح له أخذه.

القانون: لابد من تذكر وترسيخ أن العلاقة بين الرجل والمرأة هو المودة والإحسان حتى في حالة الطلاق.



وجوب أداء الصلاة في وقتها

حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ للهِ قَانِتِينَ(٢٣٨) فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(٢٣٩) البقرة.

القانون: وجوب المحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها.

القانون: أداء الصلاة خارج وقتها لا يجزئ.

القانون: أداء الصلاة خارج وقتها، مماثلٌ لتركها.

القانون: في حال مطاردة عدو للمسلم وحضر وقت الصلاة أثناء المطاردة فعليه أن يؤديها ولو كان على ظهر راحلته ولو توجه لغير القبلة.

القانون: في حال المطاردة لن يتسنى للمسلم أن يتوضأ، وهذا يمكن القياس عليه ما يلي:

القانون: في حال عدم التمكن من الوضوء فيمكن الصلاة بدون وضوء.

القانون: إن تمكن من التيمم وإلا يسقط عنه.

من حقوق المتوفى عنها زوجها

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٤٠) البقرة.

القانون: يجب على الزوج أن يوصي ببقاء زوجته في المنزل لمدة عام كامل.

القانون: من حق الزوجة الخروج من المنزل قبل نهاية العام، إن هي رغبت بذلك.

من حقوق المطلقة

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢٤٢).

القانون: حق النفقة الكاملة للمطلقة واجب على الزوج طوال فترة التربص.



الإنفاق العيني يجب أن يكون من أطايب الطعام والأشياء ولا يقبل الرديء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧) البقرة.

الطيب هو ما يقبله المنفق لنفسه من طعام أو منتج.

القانون: كل طعام أو منتج تعافه النفس ولا يقبل المنفق شراءه لرداءته (إلا أن يُغش فيه) فلا يجوز إنفاقه.

القانون: لو أنفق الخبيث فلن يقبل من المنفق ولن يكون له به أجر، بل يأثم.

الدين خيار شخصي

لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧) البقرة.

الآية نزلت بعد قيام دولة للمسلمين وتحررهم من تسلط قريش، ودخول كثير من الناس من أطياف مختلفة للإسلام. والآية تقول بأن الدخول في الإسلام خيار شخصي لا إكراه فيه، ولا يحق للمسلمين إجبار غيرهم على قبول دينهم.

القانون: الدين خيار شخصي.

القانون: لا يجوز للمسلمين أن يجبروا غيرهم على قبول الإسلام.

القانون: قوة دولة المسلمين ليست مبرراً لفرض الإسلام على الغير.

القانون: عدم فرض الإسلام على الناس بالقوة يؤكد أن الإسلام المقبول ليس إسلام الاتباع ولكن إسلام الاقتناع. والمقصود بإسلام الاتباع هو الولادة على الإسلام وتأدية بعض واجبات الدين والانتهاء عن بعض نواهيه كموروث، وليس نتيجة لاقتناع بالدين



وخوف من عذاب الآخرة.

وبناءً عليه يفرض القانون التالي:

القانون: يجب توعية المسلمين بدينهم وما يجنونه منه في الدنيا والآخرة منذ الصغر وباستمرار.

وتتحدث سورة النساء عن فئتين من مسلمة قريش لم يهاجروا وبقوا في مكة: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(٨٨) وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً(٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً(٩١).

والفئة الأولى يخيرون بين الهجرة والانضمام للمسلمين أو يعتبرون أعداء ويعاملون كبقية قريش المحاربين.

والفئة الثانية: لا يرغبون في قتال المسلمين ولا قتال عشيرتهم قريش، والآيات تقول أن يتعامل المسلمون معهم بالحسنى لأنهم وإن ارتدوا (كونهم منافقين والمنافق كافر) إلا أنهم لم يحاربوا المسلمين ولم يتعاونوا مع أعدائهم، فلا يجوز قتالهم أو التعرض لهم.

القانون: من تعاون مع الأعداء فهو عدو.

القانون: من ارتد واعتزل المسلمين ولم يقاتلهم أو يتعاون مع أعدائهم فيجب التعامل معه بسلمية.

القانون: القتال موجه لمن يعادي الإسلام لعدائه للإسلام وليس كفره.

القانون: الكفر وحده ليس سبباً في عداء الناس أو قتالهم.



الناس سواسية

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(١) النساء.

الناس جميعاً متساوون في الإنسانية فقيرهم وغنيهم أسودهم وأبيضهم يتيمهم ومن له أبوان، رجالهم ونساؤهم، وليس هناك من هو أدنى إنسانية من غيره. والآية تؤكد أن الرجل والمرأة خلقا من «نفس واحدة» أي من نفس المواصفات وليس من إنسان واحد.

القانون: كل شخص مساو لشخص آخر في الحقوق والواجبات بغض النظر عن اللون والجنس والمعتقد.

القانون: المعادي للإسلام لا يعامل كشخص أقل إنسانية، ولكن كشخص عدو.

الدين والرهن

المقصود بالرهن ضمان استرداد الدائن لماله من المدين، وذلك بتقييد وحجز التصرف بعين لها قيمة كعقار أو حلي أو معدات أو غيرها يملكها المدين لصالح الدائن. بحيث يمكنه أن يبيعها ويستوفي ماله في حال تأخر الدائن عن السداد في الوقت المحدد.

ولابد من الإشارة إلى أن التداين في القرآن يكون بين قادر وقادر ولا يكون بين غني ومحتاج. لأن المحتاج تضمن له قوانين الإنفاق القرآنية سد حاجته دون اضطراره للدين. وبالتالي فالرهن لا يكون من المحتاج، ولكنه تعامل تجاري بين التجار أو بين البنك والتاجر.

ولأن التداين يكون بين قادر وقادر فالقرآن يشدد على ضمان حق الدائن ووجوب رد ماله له. وقد ورد قانون التداين في سورة البقرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ



فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣).

ويمكن استخلاص القوانين التالية:

القانون: التداين لا يكون لسد حاجة المحتاج، لأن حاجات المحتاج تكفل قوانين الإنفاق سدادها من مال القادر بلا مقابل.

القانون: التداين يكون بين قادر وقادر، مثل حاجة الغني لتوسيع تجارته، واستدانته مالاً من أجل ذلك. فالتداين لا يكون للحاجات الضرورية، ولكنه تعامل تجاري خاص بالتجار.

القانون: وجوب توثيق الدين وقيمته وتاريخه وتاريخ استحقاقه وكل ما يتعلق به « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ".

القانون: الآية تؤكد على توثيق الدين بالكتابة، وهو توثيق غير معتاد في عصر الرسول عندما كانت الأمية سائدة، ومع ذلك فالآية تنص على أن يكون التوثيق بالكتابة. ويستفاد من هذا:

القانون: التوثيق يكون بأدق وسيلة متاحة، وهذا يعني استخدام التوثيق الإليكتروني حاليا أو أي توثيق مستقبلي يكون أكثر دقة.

القانون: يجب أن يتأكد الدائن والمدين من نص اتفاقية الدين ويوقعا عليها، وهذا مقابل تأكيد الآية على أن يكون الكاتب والمملي حريصان ويخافان الله. فالمهم هنا هو تأكد الدائن والمدين من أن التوثيق دقيق وصحيح.

القانون: الآية تقول إن المملي هو المستدين « وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ" لكي يؤكد بنفسه ما عليه. وهذا يمكن استبداله بتوقيع اتفاقية ببنود يوافق عليها الدائن والمدين. وقد تكون اتفاقية تم صياغتها بصيغة قانونية تتفق مع القواعد المرعية ومع القوانين. وهو متاح في هذا العصر.

وتقول الآية: « فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ". ويفهم من هذا أن ولي السفيه والضعيف (القليل العقل) يحق له الاستدانة



باسم السفيه أو الضعيف لتنمية أموالها واستثماراتها.

القانون: لولي السفيه والضعيف الحق في الاستدانة لتنمية مالها، ولا يحق له الاستدانة باسميها لمصلحته الشخصية.

وتقول الآية: « وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْا أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ".

وهو ما يبين أن القرآن يشدد على حفظ مال الدائن وذلك بكتابة الدين إضافة لشهادتين من شخصين.

القانون: التأكد من أن الدين تم توثيقه بأفضل آلية متاحة، حسب العصر. ففي ذلك العصر كانت الكتابة ومعها الشهود هي أكثر الوسائل دقة وضماناً واماناً، وفي هذا العصر فهناك التوثيق الإليكتروني والذي يمكن أن يكفي دون حاجة لشهادة شهود.

في حال كان البيع والشراء حاضراً بحاضر، يعني بيع وشراء بالنقد فيباح بدون كتابة: « إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا".

القانون: البيع بالنقد لا يجب توثيقه، لكن لو وثق فمباح. وفي هذا العصر فالتوثيق هام حتى للبيع المباشر لعدة أسباب لعل أقلها ارجاع البضاعة.

وجزء الآية هذا يؤكد على أن التداين يكون بين تاجر وتاجر وليس لحاجة محتاج.

القانون: التلاعب بالشهادة ومثلها التوثيق فسوق لأن فيه إضاعة حق صاحب الحق « وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ".

متى يكون الرهن؟

"وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ".

القانون: الرهن يكون في حال عدم توفر وسيلة لتوثيق الدين.

وفي عصر الرسول كان ذلك إذا ما كان الدائن والمدين على سفر ولم يحضر عملية الدين غيرهما وليس بإمكانهما توثيق الدين. ففي هذه الحالة فالرهن هو الوسيلة الوحيدة لضمان



الدائن استرداد ماله من المدين. بحيث يقوم المدين تسليم الدائن مطيته أو عين آخر يملكه كرهن يحتفظ به الدائن حتى يسترد ماله.

في حال أمن الدائن المدين ووثق به سقط الرهن، وأصبح الدين وكأنه أمانة استودعها الدائن عند المدين وعلى المدين أن يردها في وقتها ولا ينكرها « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ".

إذاً، الرهن عبارة عن وسيلة يقرها القرآن لضمان استرداد مال الدائن. كونه قد قدم معروفا للمدين وأقل حقوقه ضمان استرداد ماله.

ومتى وجدت وسيلة لضمان استرداد مال الدائن فالرهن ليس لازما.

ويدخل في الرهن التأجير المنتهي بالتمليك، والضمان البنكي.

من حقوق اليتامى

وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣) النساء.

القانون: يجب حفظ مال اليتيم حتى يرشد ويسلم له.

القانون: لا يجوز إضاعة مال اليتيم أو إهماله أو التلاعب به أو استبداله.

القانون: في عصرنا لا يسلم مال اليتيم لشخص ليرعاه بل يجب أن يكون هناك لجنة رسمية مختصة ترعى أموال اليتامى وتنميها وتستثمرها وتحافظ عليها.

القانون: كل من لا يجد في نفسه القدرة على معاملة الفتاة اليتيم بالعدل وحفظ الحقوق فيحرم الزواج بها.

قوله: « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ" فهمها الناس على أن القرآن هو من أباح التعدد وهو من قال إن سقف التعدد هو الجمع بين أربع زوجات. وهذا الكلام فيه تقويل لله ما لم يقل.

فالآية تقول لمن يخاف ألا يعدل في معاملته للفتاة اليتيم ألا يتزوجها وليتزوج بغيرها من



النساء وبالعدد الذي يريد. وهناك آية مماثلة، وهي الآية التي تفتتح بها سورة فاطر: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١).

فقوله: «مثنى وثلاث ورباع» لا تعني أن العدد محدد بأربعة كحد أعلى، وهو نفس المعنى في آية سورة النساء. ولا تحدد الآية الزواج بأربع نساء كحد أعلى.

التعدد

من الآية السابقة يمكن استنتاج ما يلي:

القانون: لا يجوز الزواج بأكثر من واحدة إلا بتوفر العدل.

القانون: العدل هنا يعني عدم وقوع الجور والظلم على أحد له علاقة باقتران الزوج بزوجة أخرى.

القانون: عدم قبول الزوجة الأولى بزواج زوجها بأخرى من الظلم والجور المانع للتعدد.

القانون: في حال الخوف من وقوع الظلم على الزوجة الأولى فلا يجوز التعدد.

القانون: يجب أن يشترط قبول الزوجة لكي يستطيع الزوج الزواج بأخرى. ويكون القبول بدون ضغوط وبكامل رضاها وهي بكامل قواها العقلية.

القانون: القرآن هو الكتاب الديني الوحيد في العالم الذي ينص على أن الأصل واحدة.

القانون: التعدد ينتج عنه العول « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ".

والعول له عدة معانٍ، منها: الميل والجور أو كثرة العيال وقلة ذات اليد لإعالتهم.

وكلا المعنيين يمكن أن يكونا نتاج التعدد.

وقوله: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ"

فهل يفهم من الآية أن معاشرة ملك اليمن جنسياً مباح؟

الجواب: لا! والتفاصيل يجدها القراء في موضوع: ملك اليمين / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



لصداق

وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً(٤) النساء.

لصدقات هنا هي جمعٌ للصداق أو المهر. وهو ما يدفعه الرجل في بعض المجتمعات مقابل زواجه بالمرأة. والنحلة إعطاء الشيء بلا عوض أو مقابل.

لقانون: الصداق يجب على الزوج.

لقانون: الصداق يكون نحلة دون استرداد.

لقانون: للزوجة الحق في التنازل عن الصداق أو بعضه.

لقانون: لو اعتاد الناس الزواج بلا صداق فهو مباح وكأنه تنازل من الزوجة لحق من حقوقها برضاها.

لوصاية على مال السفيه

وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً.(النساء:٥)

لقانون: المال لمالكه ما دام يصونه ويستثمره بالحلال.

لقانون: الوصاية تكون لحفظ المال من العبث.

لقانون: صاحب المال إذا أساء استخدامه فهو سفيه يجب الحجر عليه والوصاية على المال.

لقانون: المال يجب أن يعود بالخير للمجتمع.

لقانون: إذا حجر على السفيه فيصرف على احتياجاته من طعام وشراب وكسوة وغيرها دون إسراف أو تبذير.

لقانون: يجب التعامل مع السفيه بكل إنسانية ومودة ويخاطب بكل أدب.

لقانون: التبذير والإسراف يجب أن يوضع لهما مواصفات تتفق مع مفاهيم المجتمع في عصر معين. ويمكن تعديلها حسب تغير المفاهيم.



الوصاية على مال اليتيم

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً. (النساء:٦).

القانون: الوصاية على مال اليتيم تكون قبل بلوغه سن الرشد.

القانون: إذا بلغ سن النكاح يسلم له ماله إذا كان راشدا.

الرشد هو التصرف بحكمة وعقلانية بعيداً عن الشطط.

القانون: لا يجوز للوصي أن يأكل مال اليتيم كله أو بعضه، بأي حجة أو تبرير.

القانون: الوصاية على مال اليتامى تكون حسبة بدون مقابل مادي.

القانون: إذا كان الوصي فقيراً أو افتقر، فله أن يأكل من مال اليتيم ما يقيم أوده دون تبذير أو إسراف.

القانون: إباحة الأخذ من مال اليتيم للوصي الفقير مشروط بعدم تضرر مال اليتيم أو نقصه أو ضياعه.

القانون: لضمان عدم نقص مال اليتيم يجب استثماره بوعي.

القانون: في عصر مثل عصرنا لا يقوم بالوصاية أفراد ولكن هيئة رسمية مختصة بموظفيها الرسميين لديها القدرة على استثمار المال وحفظه.

القانون: يتم تسليم اليتيم ماله بعد بلوغه سن النكاح وثبات رشده تسليماً رسمياً موثقاً بأفضل طريقة توثيق ممكنة.

وتعود سورة النساء لتتوعد كل من تسول له نفسه أكل مال اليتيم – كلّ أو جزء – تحت أي مسمى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً(١٠).

القانون: قد يفلت آكل مال اليتيم من العقوبات الدنيوية التي ينص عليها قانون الدولة، لكنه لن ينجو من نار جهنم.

القانون: آكل مال اليتيم أو المتلاعب به مصيره جهنم[١٠].

١٠ انظر فقرة: هل صاحب المال حر بماله؟ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



لا يجوز الزواج بطفل

وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً(٦) النساء.

الآية تقول بكل وضوح إن مال اليتيم يدفع له بعد سن الرشد وهو سن النكاح.

القانون: لا يجوز الزواج قبل سن الرشد.

القانون: لا يجوز الزواج بطفل.

يجوز للإنسان أن يصرف كل ماله في حياته بشرط

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) النساء.

الآية تحذر من صرف المال قبل الموت في حال أن ذرية الميت ستتضرر وتشكو العوز، لكن لو أن ذريته تملك ما يكفي لحياة كريمة فللرجل أو المرأة حق صرف كل المال في أعمال الخير أو لمن يحق الوصية.

القانون: يحرم صرف المال لو أن الذرية ستتضرر.

القانون: في حال أن أبناء الميت لديهم ما يكفي لحياة كريمة، فيجوز للمرء صرف كل ماله في حياته على وصيته وأعمال الخير.

ويستفاد من القانونين السابقين ما يلي:

القانون: الرجل ليس مسئولاً عن إعالة أبنائه بعد بلوغهم سن الرشد. وفي هذا العصر يمكن أن يكون (بعد تخرجهم من الجامعة وحصولهم على عمل).

وآيات المواريث تؤيد هذه القانون، حيث إنها لا تعطي الأبناء كل مال أبيهم، في كثير من الأحيان.



المواريث

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢) النساء.

بناءً على ما ورد في الآيات أعلاه يمكن تقسيم الإرث حسب الورثة كما يلي:

الورثة فيهم أبناء للميت

- لو توفي رجل أو امرأة وله أبوان وبنات وبنون. فيرث الأب السدس والأم السدس، وبقية المال يرثه الأبناء، للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا يتبقى شيء من التركة.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان أو أكثر دون أبناء، وله أب وأم. فللبنتين ثلثا ما ترك. وللأب السدس والأم السدس. ولا يتبقى شيء من التركة.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان أو أكثر وليس له أبناء وأحد الوالدين. فللبنات الثلثين ولأحد الوالدين السدس، ويتبقى سدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحة وليس له أبناء، فلها النصف. ولو كان له أبوان فلكل منهما السدس، ويبقى السدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحدة وليس له أبناء، وله أحد الأبوين. فللبنت النصف ولأحد الآباء السدس، ويتبقى سدسان.



الورثة ليس بينهم أبناء للميت

- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وليس له إخوة. فلأمه الثلث ولوالده السدس.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخ أو أخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، وللأخ أو الأخت السدس. ويتبقى النصف.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخوان أو أختان أو أخ وأخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، ولكل من الإخوة السدس (سدسان). ويتبقى سدسان.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله إخوة ثلاثة أو أكثر (بغض النظر عن جنسهم) وليس له أولاد. فلأمه السدس ولأبيه السدس ويقسم الثلث على الإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين)، والباقي سدسان.

الزوج والزوجة

- لو ماتت الزوجة ولها زوج وليس لها أولاد. فله نصف ما تركت.
- لو ماتت الزوجة ولها زوج ولها أخ أو أخت وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدس للأخ أو الأخت. ويبقى سدسان.
- لو ماتت الزوجة ولها أخوان أو أختان وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدسين للإخوة. ويبقى السدس.
- لو ماتت الزوجة ولها ولها ثلاثة إخوة (بنات أو ذكور أو مختلط) وليس لها أولاد. فللزوج النصف والثلث للإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين). ويبقى السدس.
- لو ماتت الزوجة ولها ولد أو بنت أو مجموعة من الأولاد (بنات وأبناء) ولها زوج وإخوة. فللزوج الربع، والباقي يقسم بين الأبناء، للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا شيء للإخوة.
- لو مات الزوج وله زوجة وليس له أولاد. فلها ربع ما ترك.
- لو مات الزوج وله زوجة وله أخ أو أخت وليس له أولاد. فللزوجة الربع والسدس للأخ أو الأخت. والباقي ١٤ سهم من ٢٤ سهم.



- لو مات الزوج وله ولد (فرد أو مجموعة، أولاد أو بنات) وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، والباقي للولد إن كان فيهم ذكور، وليس للإخوة شيء.
- لو مات الزوج وله بنت وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، وللبنت النصف. وليس للإخوة شيء. ويبقى ٣/ ٨ من الأسهم.

قاعدة: الأبناء واحد أو مجموعة ذكور أو إناث يحجبون الإخوة من الإرث.

هل يرث المسلم الكافر أو العكس

قوانين الإرث في الإسلام وردت في سورة النساء، ثاني سورة من بين ثلاث سور متتالية في النزول تعتبر سوراً للتشريع في القرآن وبها اكتملت، والسور هي: البقرة، النساء، والمائدة. وقد نزلت بعد فترة من هجرة الرسول واستقراره في المدينة مع أصحابه المهاجرين والأنصار.

والآيات هي: (٧-٨)، (١١-١٤)، والآية (١٧٦) وفيما يلي بعض النقاط الهامة:

- لو نظرنا لورثة أي ميت فسنجد أن هناك ورثة يرثون في حالات معينة وورثة يرثون على الدوام، والوالدان من الورثة الذين يرثون على الدوام إلا في حال وجود أبناء ذكور وبنات للميت.
- والوالدان أمرنا القرآن بهما خيراً، بغض النظر عن معتقدهما: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤) بني إسرائيل.
- وأوجب القرآن لهما من الإنفاق وسد حاجاتها بغض النظر عن معتقدهما: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢١٥) البقرة.
- بل وفرض القرآن الوصية لهما حصرياً ومن نختار من الورثة الآخرين: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.



- وأوجب القرآن البر بهما ولو كانا كافرين: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) العنكبوت.

بعد كل هذا الحرص عليهما في القرآن، فلو مات شخص عن والديه اللذين يعتمدان عليه في معيشتهما وليس لهما معيل غيره، فليس من المنتظر أن يحرم توريثهما؟

وبما أن القرآن يخلو من حرمانهما من الميراث بسبب الكفر، فهل يحرمان؟

وإن كان الوالدان لا يحرمان من الميراث بسبب كفرهما، فغيرهما من الورثة لهم نفس الحكم.

وإن كان ما قدم صحيحاً، فالدين ليس عائقاً من الميراث.

مخالفة أمر أو نهي إلهي واحد كمخالفة كل أوامر الدين

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣) وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٤).

بعد أن ذكرت السورة عدداً من التشريعات والتي في غالبها لم يعتدها الناس من قبل تقول بأن من يتقيد بهذه الحدود (التشريعات والقوانين الإلهية) فقد أطاع الله ورسوله، ومن خالفها كلها أو بعضها فقد عصى الله ورسوله. ومن يعص الله ورسوله يخلد في نار جهنم.

والرسول لم يشرع منها شيء، ومع ذلك قرنت السورة اسمه باسم الله، لأنه هو من يبلغنا ما يوحى له من ربه.

القانون: كل أمر أو نهي في القرآن فهو واجب الطاعة.

القانون: كل من يعصي أمراً (تشريعاً) في القرآن فهو مخلد في النار.

القانون: الإسلام ليس إيماناً فقط، ولكن إيمان وعمل صالح. والعمل الصالح يعني طاعة أوامر الله كلها والانتهاء عن نواهيه كلها.

القانون: طاعة بعض الأوامر أو عصيان البعض كعصيان كل الأوامر. فالدين كل لا يتجزأ.



الإسلام عقد بين الله والعبد

تخاطب المائدة المسلمين: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧).

الآية دليل على أن الدخول في الإسلام يعني عقداً واتفاقاً وميثاقاً بين العبد وربه. يحصل العبد بموجبه على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة مقابل تعهده باتباع أوامر الله كلها وامتناعه عن نواهي الله كلها مدى الحياة. وأي مخالفة متعمدة مختارة لأمر أو نهي إلهي، معلوم لدى المخالف حكمه، فهو نقض لعهد الدخول في الإسلام الذي سبق توقيعه مع الله، شبيه بمن تنقض غزلها بعد أن نسجته وأصبح متماسكاً قوياً، كما تقول سورة النحل: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣).

وكما تؤكد سورة الرعد أن الدخول في الإسلام عهد طوال الحياة موقع بين العبد وربه: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(٢١).

القانون: الردة نقض للعهد مع الله.

القانون: مخالفة أمر لله أو نهي نقض للعهد مع الله، مماثل للخروج من الإسلام.

عقوبة من تقترف الفاحشة مع نساء

وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥) وتفرض السورة حداً للأنثى التي تقترف الفاحشة مع أنثى، وحداً للذكر الذي يقترف الفاحشة مع الذكر:

القانون: اقتراف المرأة الغير متزوجة الفاحشة مع امرأة أخرى تكون بحبسها في البيت.

القانون: معالجتها واجبة.



عقوبة من يقترف فاحشة قوم لوط

وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً(١٦).

والأذى ليس بالضرب، ولكن نفسياً، لكي يضيق عليه، ويشعر بالخزي. ولا ينظر له كما هو حاصل الآن وكأنه مريض. بل هو فاسق ويجب أن يعزل، ويلفظ من المجتمع، إلا أن يعود لرشده ويستقيم ويتوب. فهذه الفواحش في منتهى القذارة ولا يجب التهاون معها، وليس مهماً، تأثير الإعلام الغربي المنحرف.

وقف أن يرث الابن زوجة أبيه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(١٩) النساء.

الآية تشير لعرفين كانا سائدين قبل الإسلام:

الأول: أن يرث الابن زوجة أبيه

هو أنه كان من المعتاد أن يرث الابن زوجة أبيه، كما ورد في كتب التراث وأكدته الآية التي تحرمه وتدعو لوقف العمل به. وقد بقي له بقايا حتى الآن حيث ما زالت بعض مجتمعات جزيرة العرب تجبر زوجة المتوفى على الزواج بأخيه.

القانون: لا يحل وراثة النساء.

الثاني: إذا كان الطلاق بسبب أن الزوجة اقترفت فاحشة (سحاق أو زنا) فتطلق ويسترد منها الصداق. وهذا موافق لقوله تعالى: الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣) النور.

القانون: اقتراف الفاحشة موجب للتفريق بين الزوجين.

القانون: من يقترف فاحشة فلم يعد مسلماً (ككل من يقترف أي كبيرة).



العضل

وهو التضييق على المرأة المطلقة لإجبارها على أن تدفع لمطلقها مقابل حصولها على الطلاق: «وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ». وقد وصفت الآية التالية العضل بأنه: « بهتان وأثم مبين»

والمؤسف هو أنه حتى الآن ونحن في القرن الخامس عشر الهجري هناك من يمارس العضل في جزيرة العرب حيث نشهد أن الزوج يأبى تطليق زوجته إلا بمبلغ قد يفوق ما دفع لها كصداق. وتصل القضية للمحاكم ويقف القاضي في صف الزوج ليس فقط ضد المرأة المظلومة، بل ضد حد من حدود الله وشرعه وصريح قرآنه: تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣) وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٤) النساء.

والعضل يمكن أن يكون على شكل إرغام البنت على الزواج بمن لا ترغب.

القانون: تجريم العضل بكل أشكاله وأساليبه.

القانون: من العضل التضييق على الزوجة لكي تدفع مقابل حصولها على الطلاق.

القانون: من العضل إجبار البنت على الزواج بمن لا ترغب.

يقول تعالى: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(٢١).

الآية تقول: إذا دخل الزوج بزوجته ولو لليلة واحدة، فلا يجوز أخذ شيء مما سبق ودفع لها على شكل صداق. وكل من يسترد شيئاً من الصداق فقد اقترف بهتاناً وإثماً مبيناً.

فالصداق يكون مقابل قبول الزوجة الزواج، ولو كان لمواقعتها فهو بغي. وبمجرد أن يفضي الرجل لزوجته في الليلة الأولى فقد حصل على المقابل للصداق. فالصداق لقبول الزواج وليس لشيء آخر.

القانون: استرداد أي مبلغ من الصداق من المطلقة بهتان (فرية وظلم عظيم).

القانون: استرداد أي مبلغ من الصداق من المطلقة إثم مبين، وهو مواز للكذب على الله:



انظر كَيفَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً (٢١) النساء.

القانون: الكذب على الله هذا جزاؤه: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ(٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٧٠) يونس.

القتل/ العمد والخطأ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{٢٩} وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً{٣٩} النساء.

بعد نزول القرآن لا يمكن لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقتل عمداً، لأنه يقرأ في كتاب الله أن قتل العمد موجب للنار. ومن قتل وهو يعلم فمصيره النار ولا توبة له: « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً" .... "مَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً".

قتل العمد

القانون: قاتل العمد ليس مسلماً ولو أعلن إسلامه.

القانون: من يقتل عمداً فهو مخلد في النار.

القانون: من يقتل عمداً وهو عالم بالحكم فلا توبة له.

القانون: قتل العمد ليس فيه دية، ويقتل القاتل.

قاتل الخطأ

هناك حالتان لقتل الخطأ:

الحالة الأولى: أن يكون القاتل والقتيل من مجتمع مسلم واحد. أو كان القتيل من دولة بينها وبين دولة المسلمين ميثاق وتعايش سلمي، ففي هذه الحالة يكون التالي:

القانون: من يقتل شخصاً عن طريق الخطأ فعليه التالي:

تحرير رقبة مؤمنة.



دية مسلمة لأهل القتيل.

ولأهل القتيل أن يتنازلوا عن الدية.

الحالة الثانية: أن يكون القتيل مؤمناً ولكنه من مواطني دولة عدو للمسلمين.

القانون: يتم تحرير رقبة مؤمنة، ولا يدفع لأهل القتيل دية.

القانون: لو تعذر وجود رقبة مؤمنة لتحريرها، أو أن القاتل لا يملك المال الكافي لتحرير رقبة فعليه صيام شهرين متتابعين.

القانون: القاتل عمداً يجب أن يقتل ولا يملك أحد حق التنازل عن قتله. ولا يستعاض بالدية مهما كبرت عن قتل القاتل.

القانون: دم القتيل ليس له ثمن يباع ويشترى، وليس ملكاً لأهله وورثته.

القانون: الدية للمقتول خطأً ليست مقابل الدم بل هي تعويض للورثة عن فقدان القتيل.

التحذير من قتل المسالمين بحجة أنهم كفار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤) النساء.

كتب التراث حولت «من ألقى السلم» إلى «من ألقى السلام». والآية تحذر المسلمين من التعرض لغير المسلم المسالم الذي لا يرفع السلاح على المسلمين ولا يعاديهم، لأن الإسلام لا يقاتل الناس لأنهم كفار، ولكنه يقاتل من يعاديه منهم فقط.

فحول المفسرون والمحدثون معنى الآية إلى قتل الكافر لكفره سواء حارب المسلمين أو كان مسالماً. وقالوا إن الآية تتحدث عن مسلمين لقوا رجلاً فسلم عليهم فقتلوه لأنهم اعتبروه غير مسلم وسلامه عليهم خداعا لهم. فنزلت الآية تلومهم لأنهم قتلوه وهو مسلم. ولو كان بالفعل كافراً فلن تلومهم الآية ولو كان مسالماً، وهذا قلب لمعنى الآية وتقويل لله ما لم يقل.

القانون: لا يجوز بأي حال من الأحوال قتل غير المسلم المسالم.

القانون: لا يجوز بأي حال من الأحوال التعرض لغير المسلم المسالم.



قول الحق ولو تضرر الإنسان أو أقرب قريب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٣٥) النساء.

والآية جاءت بعد ان تحدثت السورة عن تهمة ألصقت بشخص لم يقترف الجرم وحاول أهل من صدرت منه تضليل العدالة، وذلك في الآيات: (١٠٥-١١٥) من سورة النساء. وتعود في الآية لتؤكد على قول الحق بغض النظر عن المتضرر.

القانون: يجب قول الحق ولو تضرر المرء أو والداه أو أقاربه واستفاد شخص بعيد أو عدو.

وتستمر السورة لتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١٣٦) النساء.

القانون: الإيمان بالله ورسوله تعني طاعة أوامره سبحانه وتطبيقها على حياتنا اليومية.

القانون: من لا يطبق أوامر الله ونواهيه على حياته فليس بمؤمن.

الجهر بالسوء

لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً(١٤٨) إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً(١٤٩) النساء.

الآيات جاءت تستكمل الحديث عن تلك الحادثة التي تحدثت عنها الآيات (١٠٥-١١٥، ١٣٥) حول اتهام بريء ظلماً وعدواناً. والآيات هنا تقول إن المجاهرة بالسوء (الكلام الفاحش والسب) لا يحبه الله في الأحوال العادية ولا يجب أن يصدر من مسلم، لكن لو صدر من مظلوم لمن ظلمه فهو مباح.



الوفاء بالعهود

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١) المائدة.

القانون: الوفاء بالعهود عمل صالح ومخالفته كبيرة.

القانون: الوفاء بالعهود تكون على المستوى الشخصي وعلى مستوى المجتمع والدول.

الصيد يحرم والمسلم حُرُم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١) المائدة.

والحُرُم تعني حاضري المسجد الحرام ولا تعني وأنتم تلبسون ما سمي «بملابس الإحرام».

فأنتم حرم أي حاضرو الحرم أي موجودون داخل منطقة الحرم.

القانون: الصيد داخل منطقة الحرم في أي وقت حرام.

وتقول سورة المائدة: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

"وإذا حللتم" تعني إذا خرجتم خارج الحرم، ولا تعني إذا خلعتم ملابس الإحرام التي ليس لها ذكر في القرآن أبداً.

القانون: يحل الصيد خارج الحرم في أي وقت.

القانون: حل الصيد لا يعني أنه جائز بدون حاجة ولمجرد المتعة كما يفعل الكثير منها في هذه الأيام.

وتعود سورة المائدة للحديث عن الصيد مرة أخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ



مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦).

القانون: بعد تحريم صيد الحَرَم، تقول السورة أن من يعود له فله عذاب أليم.

القانون: من سبق منكم وقتل صيد الحرم فعليه كفارة إطعام مساكين أو صوم.

القانون: عفا الله عما سلف وسيغفر لمن يلتزم بأمر الله ولا يصطاد في الحرم.

القانون: من تعمد قتل الصيد في الحرم وهو عالم بحكمه في هذه الآيات والآيات في أول السورة فقد ارتكب كبيرة لا تغتفر، وسينتقم الله منه.

القانون: صيد البحر كله حلال. وبما أن البحر خارج نطاق الحرم فصيد البحر حلال على الدوام وفي كل الأوقات.

أوامر الله ونواهيه للانصياع وتحذير لمن يتجاوزها

اعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٩٨) مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ(٩٩) المائدة.

القانون: الله غفور لمن يتبع أوامره ويجتنب نواهيه ويلتزم بعهده مع الله.

القانون: الله شديد العقاب للكافر ولمن ينقض عهده مع الله بالخروج من الإسلام، أو بمخالفة أمر أو نهي إلهي.

القانون: مخالفة أوامر الله ونواهيه في السر مساوية لمخالفتها في العلن.

لا يجوز التعدي حتى على المعتدي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شعائر اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

إن كانت قريش قد منعت المسلمين من الحج ومن دخول المسجد الحرام قبل الهجرة وسعت



لمنع الناس من الوصول للرسول فلا يحل للمسلمين أن يفعلوا مثلهم.

القانون: لا يجوز حل شعائر الله والأشهر الحرم ولا الهدي ولا القلائد.

القانون: لا يجوز للمسلمين منع من يريد الذهاب لبيت الله.

وتستمر سورة المائدة تخاطب المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨).

القانون: التعدي والظلم من الآخرين لا يخولنا لأن نظلم أو نعتدي.

القانون: التعدي والظلم حرام حتى ضد المعتدي وضد الظالم.

القانون: معاقبة الظالم والمتعدي يكون بمثل تعديه وظلمه لا أكثر.

القانون: التعامل بأقصى درجات العدل عمل صالح ومخالفته كبيرة.

الزواج بالكتابيات

التفاصيل ذكرت في تدبر الآية الخامسة من سورة المائدة.

تحريم الاستقسام بالأزلام

" وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ "

وهي (عادة قدح أحجار معينة للتفاؤل أو التشاؤم). ويدخل في هذا أي تصرف للتفاؤل أو التشاؤم، وما أكثره بيننا اليوم، ومن ذلك الاعتقاد بالعين فهو من التشاؤم. ومثله رش الملح على أرضية البيت وقرع الخشب باليد وتعليق ما يسمى بالحجاب حول عنق الطفل، وممارسات كثيرة غيرها.

القانون: الاستقسام بالأزلام كبيرة.

القانون: كل ما يدخل ضمن التشاؤم والتفاؤل فالاعتقاد به كبيرة.



اكتمال الدين

بنزول سورة المائدة اكتمل الدين الإسلامي باكتمال تشريعاته: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) المائدة.

القانون: كل ما أضيف للدين بعد اكتمال التشريعات فهو على قسمين:

الأول: ذكر في القرآن، مثل جلد الزانية والزاني وجلد القاذف والملاعنة بين الزوجين ونحوها. فهذه عقوبات جسدية للقضاء على ظاهرة انتشرت في المجتمع، ويمكن تطبقيها في حالات مماثلة. كما يمكن تطبيق أشد منها للقضاء على ظاهرة فساد إذا ما ارتأى المسلمون ذلك، ولو فعلوا فهو من الأمور الدنيوية وليس من الدين.

الأمر الثاني: أن ما أضيف للدين يكون من غير القرآن، فهذا ليس من الدين ومن اعتقد به فقد أدخل في دين الله ما ليس فيه. ومن ذلك معتقدات وفقه المذاهب التي تعتمد على كتب التراث أو أقوال رجال الدين.

وتقول نفس سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١٠١) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ﴾(١٠٢).

بعد إعلان الآية الثالثة اكتمال الدين تأتي هذه الآية ناهية المسلمين (زمن الرسول) عن السؤال عن حكم أي مسألة لم يسبق أن ذكرها القرآن. وكل ما يعترضهم في حياتهم وليس له حكم قرآني فهو أمر دنيوي عليهم أن يضعوا له حكماً بآلياتهم الدستورية. وتعلل الآية النهي عن السؤال لأنه لو سألوا فسينزل القرآن بحكم، ولو نزل بحكم فهو ملزم.

القانون: الدين الإسلامي اكتملت تشريعاته.

القانون: كل ما ليس له حكم في القرآن فليس له حكم ديني.

القانون: كل ما ليس له حكم في القرآن فهو أمر دنيوي وكل حكم فيه فلا علاقة له بدين الله.

القانون: كل الأحكام التي يسير عليها المسلمون على أنها من دين الله وهي تعتمد على أدلة من غير القرآن فليست من دين الله في شيء.



الغسل والتطهر

تقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣).

تجنب الصلاة تحت تأثير الخمر كان خطاباً توجيهياً للمسلمين، لأن الآية نزلت والخمر لم تحرم بعد. وكانت لتوجيه المسلمين لأن بعضهم أو أحدهم جاء للصلاة وهو سكران وتلفظ بألفاظ لا تليق أفسدت على المصلين صلاتهم.

والآية تفرض التشريعات التالية للصلاة:

القانون: عدم الصلاة مع الجنابة « لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ .... وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ».

القانون: من هو جنب وهو عابر سبيل ليس له مكان يستحم فيه، فليس عليه غسل.

القانون: الجنابة تكون من الاحتلام أو ملامسة النساء (مباشرتهن).

القانون: من جاء من الغائط أو ما في حكمه كالبول والريح فعليه تطهير السبيلين بالماء.

القانون: لا يجزئ التراب كبديل للماء لتطهير السبيلين.

القانون: الآية تنفي ما يسمى الاستنجاء والاستجمار.

القانون: من كان عابر سبيل ولم يجد مكاناً للاغتسال أو مريضاً أو على سفر فليس عليه غسل، ويكفيه التيمم.

القانون: صفة التيمم: ضرب راحتي اليد بالتراب ومسح الوجه والكفين.

ثم جاءت سورة المائدة لتوضح وتفصل موضوع الغسل والتطهر، وتضيف الوضوء:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ



نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦).

وتبدأ الآية بفرض تشريع الوضوء:

القانون: الوضوء يجب عند القيام إلى الصلاة، أي بعد دخول الوقت على المسلم والمسلمة أن يتوضأ استعداداً للصلاة.

القانون: لا يكون الوضوء قبل دخول وقت الصلاة، ولا يجوز الصلاة وقتين أو أكثر بوضوء واحد، كما هو دارج الآن عند الكثير من المسلمين.

القانون: الوضوء غسل خاص بالصلاة، يجب أن يؤدى والإنسان على طهارة. فلا يجزئ الوضوء لمن عليه جنابة إلا بعد أن يغتسل، ولا يجزئ الوضوء لمن أتى شيئاً من الغائط حتى يتطهر.

القانون: التطهر بالماء من الغائط وما في حكمه (البول والريح) يسبق الوضوء ولا علاقة له به.

القانون: الوضوء يبدأ بغسل الوجه واليدين إلى المرافق، ثم مسح شعر الرأس باليدين المبللتين بالماء دون حاجة لغسل الشعر. ثم غسل الرجلين إلى الكعبين.

وأرجلكم معطوفة على أيديكم، وبالتالي فتقرأ بفتحة على اللام وليس كسرة.

واللغة العربية تسمح بتقدم عبارة (وامسحوا برؤوسكم) لتكون بين الجملتين المعطوفتين: «فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» و « وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ». لأن مسح الرأس يسبق غسل الرجلين في ترتيب الوضوء. كما سمحت بتقدم المفعول به (الله) على الفاعل (إبراهيم) في قوله تعالى: « واتخذ اللهَ إبراهيمُ خليلاً». فإبراهيم هو من اتخذ الله خليلاً وليس العكس، لئلا يتقدم ذكر إبراهيم على لفظ الجلالة[11].

القانون: عند خروج الريح فيجب غسل مكان الخروج قبل الوضوء، ولا يجزئ الوضوء بدون ذلك. المؤسف هو أن كثيراً من المسلمين إذا ما خرجت ريح قاموا بالوضوء دون غسل لمكان خروج الريح. وهذا لا يجزئ لأن المعني بالتطهر هو مكان خروج الريح أولاً لكي يكون الإنسان طاهراً ومستعداً للوضوء الذي يجب أن يتم والإنسان على طهارة. فالوضوء غسل خاص بالصلاة وغسل مكان الخارج من السبيلين تطهر.

١١ انظر تدبر الآية: ١٢٥ من سورة النساء.



حكم الخمر

انظر تدبر الآيات: (٩٠-٩٢) من سورة المائدة.

حكم الصيد

تبدأ سورة المائدة بالقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١).

الحرم تعني البقاء في الحرم ولا تعني لبس ملابس الإحرام المعروفة الآن. فلبس ملابس خاصة للحج والعمرة لم يرد لها ذكر في القرآن، وسماها الناس ملابس «الإحرام» ولم يطلبها القرآن للحج والعمرة، ولم يسمها. ولهذا فالحرم تعني ما بقي المرء داخل محيط الحرم فلا يجوز له الصيد. ولذا فلا يجوز قتل الطيور أو الحيوانات في مكة وفي محيط الحرم في كل الأوقات. وهو ما يعني وجوب جعل منطقة الحرم محمية طبيعية للحياة الفطرية من حيوان ونبات لا تمس.

القانون: لا يجوز الصيد في الحرم بأي حال من الأحوال وفي كل الأوقات وعلى الدوام.

القانون: منطقة الحرم يجب أن تكون محمية طبيعية للحياة الفطرية لا يمس حيوانها ولا نباتها. وتقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شعائر اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ القلائد وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

القانون: الصيد خارج الحرم حلال.

وتقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي



إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦) المائدة.

القانون: الصيد حلال في الأصل، لكنه مقيد بعدم التعدي.

القانون: الصيد لمن لا يجد ما يأكل سوى الصيد فله حق الصيد بما يسد رمقه ويشبع جوعه.

القانون: التعدي يكون في الصيد الجائر والإسراف فه وصيد ما يزيد عن سد الجوع، كما يحدث حالياً من كثير من أبناء جزيرة العرب في بلادهم وبلاد أخرى.

القانون: الصيد الجائر تعد توعد الله من يصدر منه بالعذاب الأليم.

القانون: كل من يقتل طائراً في الحرم فجزاؤه فدية من النعم ، فمن لم يجد فإطعام مساكين بحدد عددهم، أو صيام عشرة أيام قياساً على قوله تعالى: وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب (١٩٦) البقرة.

القانون: ويمكن سن عقوبات صارمة لصيد الحرم.

القانون: إذا كان صيد الحرم حراماً والبلد حرام وشجره حرام فهذا يعني وضعه كمحمية طبيعية لا يمس شجرها ولا طيرها ولا حيواناتها البرية، وتكون كل المنشئات الحضرية خارج حدود الحرم. ويكون ما يتم في مكة حالياً باسم توسعة الحرم انتهاكاً لحرمة بيت الله بمباركة رجال الدين.

التعرض للظلم ليس مبرراً للظلم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شعائر اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ القلائد وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

برغم الظلم العظيم الذي واجهه المسلمون من قريش فالآيات تقول إن تعدي قريش ليس



مبرراً لتعتدوا.

القانون: التعدي والظلم يجب صده بكل وسيلة فعالة.

القانون: التعدي لا يجوز ولو مقابل التعدي، والظلم لا يجوز حتى ولو كان مقابل ظلم وقع.

وتستمر السورة تخاطب المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٠).

القانون: مهما تعرض المسلم للظلم والتعدي فليس مبرراً لظلم من ظلمه أو التعدي عليه أو هضم حق من حقوقه أو شهادة كاذبة ضده او كتم شهادة حق لصالحه وغيرها.

ما لم يذكره القرآن فليس له حكم في دين الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ(١٠٢) المائدة.

سورة المائدة آخر ثلاث سور تشريعية هي: البقرة، النساء، والمائدة، نزلت متتالية في المدينة لتفرض كل ما تبقى من تشريعات الإسلام، وذلك بعد أن استقر الرسول والمهاجرين وأصبح للإسلام دولة وكيان مستقل.

والآيات تعلن ختام التشريعات، وكل ما لم يذكر في القرآن له حكم فليس له حكم في الإسلام. وعلى المسلمين ألا يسألوا الرسول عن حكم ما لم يسبق أن شرع له القرآن حكم. ويعتبروه مباحاً، من رغب منهم فعله فليفعله ومن رغب تركه فله ذلك. وتنهاهم عن سؤال الرسول لأنه لو سألوا الرسول فسينزل الوحي، وسيفرض للمسألة حكم، ولو فرض لها حكم فسيكون ملزماً للمسلمين وتركه يوجب غضب الله، بعدما كان مباحاً لهم تركه أو فعله. فكل أمر لله يجب الالتزام به، ولا خيار للناس في تركه.

القانون: كل ما لم يذكر القرآن له حكم فهو مباح.



القانون: كل ما سأل الناس عنه الرسول نزل فيه حكم في كتاب الله، وهذا ينفي أن يكون الرسول يتحدث بكلامه الشخصي ويعتبر من دين الله.

القانون: كل أمر أو نهي من الله فهو واجب الامتثال ومن يخالفه فقد وجب عليه غضب الله، لأن أوامر الله تسامح في تجاوزها. وهذا ينفي أن يكون هناك غفران لمرتكب الكبيرة وهو يعلم بحكمها.

عقوبات على من يغير على أموال الناس ويسلبها

إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٤).

هذه الآيات استخدمها الحكام للتخلص ممن لا يرغبون فيه باسم الدين، فكل معارض سياسي أو مصلح بالنسبة لهم هو مفسد في الأرض ويحكم عليهم بالقتل. وهذا لا شأن له بالآية التي لم تنزل لخدمة الحكام. وليس في القرآن آية واحدة تعين الحكام أو تقر بوجودهم.

ولكي نفهم فيمن نزلت وعلى من تطبق لابد من التذكير في بعض ضوابط فهم القرآن، ومن ذلك:

- أن من أساليب القرآن أن يتحدث عن موضوع ثم تبتعد الآيات للحديث عن مواضيع أخرى قبل أن تعود للحديث عن الموضوع الأول.
- وأن فهم السياق هنا يعني أن نتتبع كل الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد.
- وأن السورة تنزل كلها مرة واحدة.

ولو فعلنا هذا فسنجد أن سورة المائدة تحدثت عن تعرض المسلمين لغارة سلب لم تنجح وهرب الغزاة في الآية: (١١).

وهاتان الآيتان: (٣٣-٣٤) جاءتا لفرض عقوبات صارمة لكل من يقوم بغارة سلب، تتمثل بقتلهم في حال ملاحقتهم. أو صلبهم في حال القبض عليهم ومحاكمتهم إن كانت جريمتهم عظيمة. أو يكتفى بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف لو كانت جرائمهم أقل.



والهدف من هذه العقوبة القضاء التام على ظاهرة عمت جزيرة العرب ومنذ زمن قديم، تتمثل في غارات الأعراب على القوافل وعلى التجمعات السكانية والقرى والمزارع والمراعي وقتل الحراس والمزارعين والرعاة والاستيلاء على الجمال والأغنام. وهي فساد في الأرض يجب تطهيرها منه.

على أن تعطى الفرصة لكل من يرغب في التوبة ولن يحاسب على ما سبق وقام به من سلب ونهب.

وتلا ذلك فرض عقوبة دنيوية أخرى لها علاقة بالسلب والنهب، وهي عقوبة من يدخل البيوت والأحراز ويسرق ممتلكات الغير: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

وعقوبة السرقة تكون بقطع يد السارق، لأن السرقة عادة تقتصر على ما في البيوت من طعام أو متاع قليل أو بعض المال، ولا يصحبه قتل ولا ترويع للناس، بخلاف غارات السلب والنهب.

وتمنح الآية: (٣٩) الفرصة لمن احترف السرقة للتوبة، ومن يتوب فلن تقطع يده ولن يحاسب على سرقاته السابقة. وهذا ما يؤكد أن العقوبة لقطع دابر ظاهرة السرقة من المجتمع للأبد. على أساس أن المجتمع بعد أن يطهر من السرقة لن يوجد فيه من يعاود السرقة بعد ذلك لأن قوانين الإنفاق تضمن لكل من يعيش في دولة الإسلام حياة كريمة بعيدة عن العوز والفاقة. وستسد حاجاته الضرورية بحيث لا يفكر بالسرقة او الحصول على المال بطرق غير مشروعة او حرام.

فمن كان ينهب عليه التوبة وستوفر له حاجياته دون مقابل وكذلك الحال بالنسبة لمن كان يحترف السرقة.

وبما أنه يفترض أن تسود قوانين الدين (القرآن) في دولة المسلمين على الدوام فإن السرقة والسلب والنهب لن يكون لها وجود بعد ذلك ولن يكون هناك حاجة لتطبيق عقوباتها. لكن استيلاء قريش على حكم دولة المسلمين ألغى الإنفاق، فعم الفقر. وترك العمل بالقرآن فانتشرت البدع. وكان لابد للناس من توفير طعامهم واحتياجاتهم فعادوا لما اعتادوا قبل



الإسلام من سرقة وسلب ونهب.

وتم تحويل معنى الآيات: (٣٣-٣٤) لتطبق بحق كل من يخرج على ظلم الحاكم أو ينتقد سياساته الظالمة. فكانت سيفاً للظالم على المظلوم بدل أن تكون قوانين حماية له ولأمنه وماله.

كما تم تنفيذ قطع اليد بمساكين سرقوا ليأكلوا. وهؤلاء ليس عليهم قطع يد. لأن قطع اليد فرض ضد من يعتدي على أموال الناس ظلماً وعدواناً مع سد احتياجاته. ولم يفرض لقطع يد الجائع لأن الحكام أوقفوا العمل بقانون الإنفاق الذي سيوفر له لقمة بالحلال.

القانون: يجب إعادة تطبيق قوانين الإنفاق.

القانون: الإسلام يضمن الأمن لسكان دولة المسلمين: ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ(٨٢) الأنعام.

القانون: السلب والنهب استيلاء على مال الغير وقتل لأنفس بريئة وترويع للناس.

القانون: كل من يقوم بالسلب والنهب يطبق بحقه العقوبات الواردة في الآية: (٣٤) كل حسب جريمته.

فمن قتل يقتل. ومن قتل وأفسد يصلب. ومن سلب دون قتل تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. ومن سلب القليل ينفى من الأرض.

القانون: كل من كان يسلب وينهب قبل نزول سورة المائدة، وأعلن توبته تقبل توبته ولا يحاكم على غزواته السابقة.

القانون: كل من يعيش في دولة المسلمين تسد حاجاته الضرورية بموجب قوانين الإنفاق.

القانون: كل من يسرق بعد ذلك تقطع يده.

القانون: كل من كان يسرق قبل نزول سورة المائدة وأعلن توبته، تقبل توبته ولا يحاكم على سرقاته السابقة.

القانون: بعد استتباب الأمن في دولة المسلمين وسد حاجات الناس في كل الدولة بموجب قوانين الإنفاق لن يكون هناك سرقات ولا سلب ونهب.

القانون: لو حدث سلب ونهب أو سرقة بعد ذلك مع انتفاع الغزاة أو السارق من قوانين الإنفاق فليس هناك مجال للتوبة ولا تقبل. لأنه سلب وسرق وهو يعلم بالحكم مسبقاً.



القانون: تطبيق قوانين الإنفاق سبقت تطبيق عقوبة السلب والسرقة.

ويمكن تطبيق العقوبة الواردة في الآيات: (٣٣-٣٤) بحق كثير من الحالات المعاصرة، منها من يستولي على أموال الناس بطريقة مشابهة للسلب والنهب الجاهلي. وكل من يستولي على الأموال العامة شريطة أن يستتاب فإن تاب فترد الأموال ولا يعاقب، وإن أصر تنفذ فيه العقوبة. وكذلك على كل من يغتصب شخصاً آخر.

عليك بنفسك ولا تهتم بكثرة المخالفين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥).

الآية تخاطب المسلمين زمن الرسول في يثرب، وهي تنطبق على أي مسلم في أي مكان وزمان. فكثرة الخبيث لا يعني أنه طيب. وكما قالت سورة المائدة في آية سابقة: قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠٠).

والخبيث في الآية يقصد به غير المسلمين وهم الكثرة. وسيبقى المؤمنون هم القلة في كل زمان ومكان: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) يوسف.

القانون: عندما يهتدي الإنسان للحق لا يهتم بما يعتقد غيره.

القانون: كثرة المخالفين لا يعني أنهم على حق.

عقوبة السارق والسارقة

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

القاعدة في الإسلام أن الكبائر ليس لها عقوبة جسدية، فليس هناك عقوبة لمن يأكل لحم الخنزير أو الميتة أو يشرب الخمر أو الربا أو غيرها، لأن عقوبتها ستكون يوم القيامة بالخلود في النار. ومع ذلك فهناك عقوبة جلد الزاني والقاذف وعقوبة قتل القاتل العمد وعقوبة قطع يد السارق. وهذه العقوبات ليست بديلاً لعذاب النار، ولكنها عقوبات ردع لمنع انتشار ظاهرة فاسدة من أن تنتشر في المجتمع المسلم، فوجب تطهير المجتمع منها تطهيراً تاماً. وسنتحدث عن كل عقوبة في حينها.



وبين أيدينا الآن قطع يد السارق والسارقة، فإن كان هناك واقعة وقعت في المجتمع أدت إلى فرض هذه العقوبة فهي عقوبة ردع، وليست تشريعاً ثابتاً في الدين. وإن لم يكن هناك حادثة تسببت في وقوع الآية، فالتشريع ثابت في الدين مثل قتل القاتل أو الإنفاق أو الصلاة ... الخ.

وآيات عقوبة قطع يد السارق والسارقة لم تنزل في سياق يفهم منه وقوع حوادث سرقة في المجتمع. لذا فهي عقوبة ثابتة في كل الرسالات التي سبقت رسالة محمد.

وهكذا كل عقوبة سواء جسدية أو معنوية فهي لمن اقترف الإثم قبل نزول الآيات التي تحرمه وتفرض العقوبة. وبعد نزول الحكم فلا توبة لأن من يقترف الإثم عالماً مختاراً فلا توبة له.

ولهذا فلا يجب أن يكون هناك مسلم يسرق أبداً، وتكون عقوبة السرقة أو الزنا أو قطع الطريق أو غيرها من العقوبات الجسدية موجهة لغير المسلمين لتطهير المجتمع من هذه القاذورات.

ونعود لآيات السرقة: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) المائدة.

الآية واضحة في القول إن هناك قطعاً فعلياً للأيدي جزاءً بما كسبا، وهو ما يبعد أي احتمال للمجاز. والقطع في اللغة: إبانةُ بعض أجزاء الجِرْمِ من بعضٍ فَصلاً، كما يقول ابن منظور في لسان العرب. وقَطَعاتُ الشجرِ: أُبَنُها التي تَخْرُجُ منها إذا قُطِعَت، الواحدة قَطَعَةٌ. والمِقْطاعُ: ما قَطَعْتَه به. والأَقْطَعُ المقطوعُ اليَدِ ويَدٌ قَطعاءُ: مقطوعةٌ.

ولأن كل لفظ في اللغة يمكن أن يستخدم للمجاز فمن المجاز أن نقول:

قَطَعَ النهر إذا شَقَّه وجازَه وعبره. وقَطَعَ لسانه إذا أسكته. وقطع الرحم إذا لم يتواصل مع أقاربه وذوي رحمه. وآية قطع يد السارق والسارقة جاء القطع فيها بمعنى بتر وفصل جزء من اليد. وسنعود للحديث عما اعتبره البعض خلافاً فيما يقطع.

والقطع بمعنى فصل جزء من اليد مماثل لما ورد في قوله تعالى ضمن الحديث عن هلاك عاد ونجاة هود ومن آمن معه: فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ(٧٢)الأعراف.



فهلاكهم عبرت عنه الآية بقطع دابرهم وأثرهم بمعنى بترناهم واجتثثناهم.

ومثله ما ورد في سورة الأنعام عن هلاك أمم كفرت: فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٥) الأنعام.

ومثله ما ورد في الحديث عن هزيمة قريش في بدر وقتل عدد من الكبراء: وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ(١٢٧) آل عمران.

فقطع طرفاً من الذين كفروا (بترهم واجتثهم وأبادهم) وهم قتلى قريش في بدر.

ومن الآيات التي تتحدث عن القطع بمعنى البتر بأسلوب مجازي قوله تعالى: هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(١٩)الحج.

وكأن هناك قطعة كبيرة من الثياب النارية تقطع إلى قطع صغيرة بحجم ثوبٍ للكافر يلبسه.

فقطع هنا تعني فصلَ وبترَ وأبانَ جزءً من الجرم.

وقريب منه، قوله: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١) يوسف.

فقطعن أيديهن تعني خدشن أيديهن وهو قول ما زال مستعملاً في كل اللغات: تقول: قطعت يدي بالسكين. وتعني خدشتها ولم أبترها (مجاز).

ومثله تحذير موجه للرسول عليه الصلاة والسلام لو تقول على الله غير القرآن: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) الحاقة.

فقطع الوتين لا يعني اجتثاثه ولكن فصد الوتين (العرق) وخدشه، والعبارة هنا مجازية تعني هلاك الرسول وموته لو فعل.

ونعود لتشكيكٍ طالما أثير حول قطع يد السارق ومن أين تقطع؟ ويعتبرون أن القرآن عندما لم يحدد من أين فهو نقص فيه وعيب.



واليد في اللغة تطلق على الكف، وهو الأصابع وراحة اليد.

هذا هو المعنى الأول لليد بلا خلاف، وهو في كثير من اللغات وليس في العربية فقط.

وتطلق اليد على الأجزاء الثلاثة: اليد (الكف) والذراع والعضد (الزند) معاً، يعني من بداية الأصابع إلى الكتف.

وإطلاق اليد على هذه الأعضاء الثلاثة من باب إطلاق البعض ليقصد به الكل. مثل قولنا رأس فلان ونقصد به كله. ومثل قوله تعالى: فتحرير رقبة والمقصود تحرير كل الإنسان.

لذا فالآية واضحة لا لبس فيها: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) المائدة.

ويكون القطع من الرسغ، وهو الفاصل بين اليد والذراع.

إلا أن بعض أتباع المذاهب قالوا بخلاف ذلك، فبعضهم يقول إن القطع يكون للأصابع دون الإبهام وغيرهم قال تقطع اليد من الكوع. ولو قطعت الأصابع فسيتبقى جزء من اليد، كون اليد تطلق على راحة الكف والأصابع معاً، وهو قصور عن نص الآية. ولو قطعت من الكوع فهذا يعني قطع لليد والذراع، وهو زيادة عن نص الآية.

ولابد أن يتذكر القراء أن هذه الخلافات لم تكن تثار في عصر الرسول أو الخلفاء الأوائل (الراشدين) ولكنها أثيرت في عصور الفتن والمعتقدات الضالة في العصر العباسي، كغيرها من الخلافات بين رجال الدين. وبقيت هذه الأقوال الجدلية حية إلى اليوم، حيث نجد من يتباكى على قطع يد السارق.

مرة بحجة أن كلمة قطع لا تعني قطعاً ولكن تعني كف يد السارق ومنعه من السرقة. وهذا الكلام يفترض أن يتم التنبؤ بعزم السارق على السرقة قبل الإقدام عليها فيتم منعه. لأنه عندما يسرق فلا يمكن منعه، حتى لو سجن أو أخضع لجلسات نفسية لإقناعه بعدم السرقة، لأن فعل السرقة قد حدث.

ومرة تجدهم يتباكون على السارق وأن قطع يده سيؤدي لضرر أكثر من السرقة. كون السارق سيصبح معاقاً ولن يتمكن من تأمين قوته وقوت عياله، والإسلام لا يمكن أن يأمر بمضرة.



وهذا الكلام فضفاض لمن يراه من بُعْد، وليس ملماً بتشريعات القرآن، وإلا لعرف أن المسلم لا يسرق. لأن إعلان الإسلام لا يعني المفهوم السائد وهو الإيمان (باعتقاد أن الله موجود ومحمد رسول وإقامة بعض الأوامر والنواهي) ولكن الإسلام في القرآن يعني إبرام المسلم ميثاقاً مدى الحياة مع ربه يتعهد بموجبه باجتناب كل نواهي القرآن، والامتثال لكل أوامره: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهَ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧) المائدة.

وأي مخالفة لأمر أو نهي قرآني فهو نقض لذلك الميثاق. لذا فالمسلم لا يسرق ولا يزني ولا يرتكب أي كبيرة، مع الحرص على كل الأعمال الصالحة، والأبرار من المسلمين يحرصون فوق هذا على أداء الفضائل والبعد عن اللمم وهي صغائر الذنوب. (انظر فقرة: نقض العهد مع الله / قسم تشريعات من القرآن).

وبما أن المسلم المرتكب للكبيرة لمرة واحدة تقبل توبته لضوابط ذكرناها في فقرة: التوبة / قسم تشريعات من القرآن، فإن آية السرقة تمنح السارق الفرصة للتوبة: فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

والتوبة ستمنع قطع اليد، فإن كان مسلماً فلن يعود للسرقة أبداً. وإن عاد للسرقة فليس بمسلم – ولو أعلن الإسلام – ويجب تطبيق العقوبة بحقه «جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهَ». ومن لا يقبل بحكم الله، فلم يحكم بما أنزل الله: ...ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون(٤٤) المائدة.

والمسلم لن يسرق لسد العوز والفاقة والفقر والحاجة، لأن قوانين الإنفاق في القرآن تضمن لكل من يعيش في دولة المسلمين توفير حاجاته ليعيش حياة كريمة، تكفيه من السرقة أو التسول وإهانة النفس غير اللائق للمسلم. وكل دولة تدعي الإسلام وينتشر فيها الفقر وهي دولة غنية فهذا دليل على عدم تطبيق قوانين الإسلام.

وحتى لو ارتكب من لا يخاف الله السرقة وقطعت يده فهو ومن يعول سيتكفل بهم قانون الإنفاق، ولن تحرم عائلة السارق وأولاده من الإنفاق لأن والدهم ارتكب السرقة أو أي معصية أخرى ولو قتل غيره عمداً وقُتل، لأن قوانين القرآن تنص على أنه لاتزر وازرة وزر أخرى.



والتباكي على من يخالف أمر الله ويسرق برغم النهي الصريح، رفض لأمر الله: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) الأحزاب.

أما محاولة تكييف الإسلام على أهواء الناس فالأهواء لا تتوقف عند حد. لذا نهي محمد وهو رسول الله عن اتباع أهواء الناس: وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) الرعد.

بل إن الله جل وعلا يقول: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ(٧١) المؤمنون.

أهل الكتاب كفار

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ(٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ(٦٠) وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ(٦١) وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٦٢) لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ(٦٣).

الآيات تخاطب أهل الكتاب في يثرب زمن الرسول، وتتساءل لماذا لا يؤمنون (يدخلون الإسلام)؟

القانون: كل من لا يؤمن بالرسول محمد وبالإسلام فهو كافر ولو كان يؤمن بالله كما هي حال أهل الكتاب في يثرب زمن الرسول.

القانون: أهل الكتاب كفار.



النهي عن الحلف

لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٨٩) المائدة.

اللغو في اليمين، مثل قول: « لا والله» أثناء الحديث، والأيمان المغلظة هي المقصودة بقوله: «عقدتم الأيمان».

القانون: اللغو في اليمن ليس المنهي عنه.

القانون: الأيمان المغلظة هي المنهي عنها.

القانون: الحنث في اليمين المغلظة يوجب كفارة.

القانون: كفارة اليمين المغلظة، كما يلي:

إطعام عشرة مساكين من أفضل الطعام.

أو كسوتهم من أفضل الملابس.

أو تحرير رقبة.

فمن لا يجد المال أو رقبة، فعليه صيام ثلاثة أيام.

القانون: برغم أن اللغو في اليمين مباح إلا أنه من الأفضل عدم استخدام اليمين أثناء الحديث أبداً: « وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ".

القانون: حفظ اليمين فضيلة.

تحريم الخمر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(٩١).

الآية: (٩٠) تذكر: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام على أنها كلها بمستوى واحد من



التحريم، وكلها رجس من عمل الشيطان. وتقول: «فاجتنبوه» وهو امر إلهي صريح بتجنب هذه الأشياء. وكل أمر صريح في القرآن فهو واجب الاتباع، وتركه كبيرة.

والآية: (٩١) تبين بعض ما تسببه الخمر والميسر، ثم تقول: « فهل أنتم منتهون». بمعنى لقد حان لكم يا مسلمون أن تنتهوا عن ممارسة هذه الأرجاس، لأن الخطاب للمسلمين زمن الرسول.

وليس التساؤل في «هل أنتم منتهون» للتخيير كما يحلو للبعض أن يعتبره، لكي يبرر لنفسه أن يكرع كأساً من الخمر.

القانون: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان.

القانون: كل رجس حرام وفعله كبيرة.

القانون: الأمر باجتناب هذه الأرجاس واجب الطاعة.

القانون: كل أمر إلهي صريح واجب الطاعة.

القانون: «فهل أنتم منتهون» ليست للتخيير ولكن لتقول: لقد حان الوقت للانتهاء والتوقف.

القانون: ليس هناك أمر أو نهي إلهي في القرآن للتخيير ولكن للتنفيذ: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُّبِينًا (٣٦) الأحزاب.

وتحريم الخمر واضح بوصفها أنها رجس. والرجس في القرآن وصف للأعمال الوثنية: ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) الحج.

والرجس هو وصف للميتة والدم ولحم الخنزير المحرم: قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤٥) الأنعام.

ومقارنة الخمر بالميسر والأنصاب والأزلام الوثنية، إضافة لأمر الله جل وعلا باجتنابه:« فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».



وبرغم كل هذه الأدلة، إلا أن هناك من يتمنى ألا تكون الخمر محرمة فيبحث عن أي مبرر لتحقيق أمنيته. ومن ذلك قولهم إنه لا وجود لتحريم الخمر في القرآن لأنه يخلو من نص صريح يقول «حرمت عليكم الخمر».

تلك أمانيهم، فعدم وجود نص التحريم لا ينفي أن تكون الخمر حراماً. لأن هناك أمراً إلهياً بعدم شربها. وعصيان أمر أو نهي إلهي واحد وارد في القرآن، يوازي عصيان أوامر الله ونواهيه كلها.

والنهي الإلهي يوازي نص التحريم، وإلا لأصبح الزنا مباحاً لأنه ليس في القرآن عبارة: حرم عليكم الزنا، وإنما عبارة مشابهة لتحريم الخمر، وهي: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢) بني إسرائيل.

ولا عبرة لما أوردته كتب التراث من قصص كله مختلق، ومنه أن أبا حنيفة (أحد أئمة المذاهب السنية الأربعة) كان يبيح شرب النبيذ المصنوع من الْعَسَل وَالتِّينِ وَالْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بل نسب عنه قوله إن المحرم هو السكر وليس ما صنع منه. بمعنى أنك لو شربت قليلا من أي مسكر ولم تصل لحد السكر فهو مباح. وبطبيعة الحال فنحن عباد الله ولسنا عباداً لخلقه. وتشريع أبي حنيفة لاقى ترحيباً من السلاطين العباسيين الذين كانت موائد طعامهم تتصدرها الخمور بأنواع ومسميات مختلفة. وفتاوى رجال الدين عموماً لا عبرة بها في الإسلام، فهي دين ليس من دين الله.

من ضوابط القتال

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(٦) محمد.

السورة نزلت قبيل معركة بدر وتوجه المسلمين لما يجب عليهم فعله في تلك المعركة، ومن ذلك عدم اللجوء لأسر مقاتلة قريش بل قتلهم، لأن قريشاً العدو اللدود للإسلام والمسلمين أقوى من المسلمين وأكثر عدداً ويجب إضعافهم (إثخانهم). لأن أسرهم سيجعلهم يعودون لقتال المسلمين بعد تحريرهم. لكن متى ما أثخنوا وكان المسلمون



الأقوى والأكثر عدداً فيفضل الأسر على القتل.

ويستفاد التالي:

القانون: في حال قابل المسلمون عدواً يفوقهم عدداً وعدة، فيجب على المسلمين عدم أخذ أسرى، لأن المطلوب في هذه المرحلة من الصراع هو إضعاف العدو، بقتل كل من يقدر عليه المسلمون منهم.

القانون: إذا دخل المسلمون حرباً مع العدو وهو مثخن وضعيف، فيفضل الأسر على القتل، لأن الأسر فرصة لتأليف قلوب الأسرى للإسلام، ولو لم يسلموا، نتيجة للتعامل الحسن الذي يلقونه من المسلمين.

القانون: يمكن للمسلمين إطلاق سراح الأسرى بلا مقابل إن كانت دولة الإسلام غنية، للدلالة على سماحة الإسلام. أو إطلاق سراح الأسرى بفدية لدعم الاقتصاد لو كان اقتصاد الدولة بحاجة.

القول بخلاف الفعل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(٣) الصف.

القانون: القول بخلاف الفعل مقت.

المقت هنا تعني الجرم البغيض عند الله.

عقوبة الزنا

تحريم الزنا فرض في مكة، وفي سورة بني إسرائيل تحديداً: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢).

وجاء التأكيد على التحريم والتذكير به في سور مكية أخرى مثل الفرقان: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩).

فالحكم واضح هنا.



فلماذا نزلت سورة النور بعد سنوات في المدينة لتفرض عقوبة دنيوية تتمثل بجلد الزناة، مع أن من يقترف الزنا سيلقى آثاماً في الآخرة وسيخلد في النار لو أصر على هذه المعصية ولم يقلع مباشرة ويتوب، كأي كبيرة أخرى؟

ذلك أن الكبائر لا يعاقب فاعلها جسدياً في الدنيا، فالمرتد لا يجلد في القرآن، وليس له عقوبة دنيوية، برغم أنه خالد في النار، وكذلك من يشرب الخمر أو يأكل الخنزير أو الربا أو الميتة أو غيرها من كبائر.

الجواب حملته لنا سورتا الأحزاب والنور، وإليكم القصة كاملة:

برغم هزيمة المسلمين في معركة أُحد نتيجة لخطأ تكتيكي أثناء المعركة، إلا أن قريشا عرفت أن قوة المسلمين تزداد مع الأيام بينما قوتها تضعف، ولابد من القضاء على المسلمين قبل أن يهاجموا قريشاً في عقر دارهم.

وكتب التاريخ والسير تتحدث عن لقاء بين أبي سفيان ووفد من قريش مع هرقل –عظيم الروم – في إيليا (القدس الحالية)، وتقول هذه الأخبار إن أبا سفيان قد امتدح الرسول في تلك المقابلة، وهذا يستحيل أن يكون قد حدث. لأن أبا سفيان وكل كبراء قريش أعداء للإسلام ويسعون للقضاء التام عليه وتشويه سمعة محمد. فكيف يمتدحونه عند هرقل؟

ولعل اللقاء قد حدث بالفعل بين قيصر ورجال من قريش على رأسهم أبو سفيان، الذين قدموا لطلب معاونة الروم للقضاء على المسلمين، بحجة أن وجودهم في يثرب يشكل خطراً على إمدادات الروم من البخور والتوابل واللبان التي تنقلها قريش من بحر العرب جنوب الجزيرة العربية. وقد علم المسلمون بتحركات قريش وسفر أبو سفيان والوفد المرافق له للقاء هرقل، فما كان من الرسول إلا أن أرسل وفداً وخطاباً لهرقل يشرح له دعوته ولماذا تحاربه قريش، لعله يثنيه عن معاونتهم. وهو الخطاب الذي حور الإخباريون نصه وكأنه خطاب من محمد لهرقل يدعوه فيه للإسلام. لأنه من الصعب تصور أن يقوم الرسول بإرسال خطابات للروم والفرس وهو بالكاد يسيطر على المدينة التي لا تمثل إلا بقعة محدودة جداً من يثرب، ومحاطة بقبائل وثنية، وبعدها حواضر وثنية ومن بني إسرائيل وغيرهم، أقرب من الفرس والروم، على الرسول أن يدعوهم أولاً، ولو آمنوا ووصل الإسلام لحدود تلك الدولتين العظميين، حينها سيكون بإمكان الرسول مراسلة قيصر



وكسرى، ودعوتها للإسلام، ولكن ليس قبل ذلك.

وقد عاد وفد الرسول مسرعاً للمدينة ليخبرهم أن هرقل وافق على نجدة قريش وأنه أمر بإعداد جيش عرمرم للقضاء على المسلمين. وهو ما أدخل الرعب في قلوبهم وزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وفي نفس الوقت كان لديهم الوقت الكافي لحفر الخندق قبل وصول جيش الروم.

وأثناء حفر الخندق أعلنت فئة من المنافقين أنها مضطرة للعودة للمدينة، وبحجة ذكرتها آيات سورة الأحزاب: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣).

وبقاؤهم في المدينة تسبب في إحداث مشاكل اجتماعية خطيرة تمثلت في أنهم كانوا يجوبون طرقات المدينة ويتسللون للبيوت دون استئذان، بما في ذلك بيوت الرسول. وبعد عودة المسلمين من الأحزاب كانت الإشاعات الكاذبة قد عمت المدينة وطالت سمعة الكثير من النساء العفيفات، لدرجة أن بعض الرجال صدقوا ما أشيع عن زوجاتهم واتهموها بالزنا. فكان لابد من فرض عقوبات رادعة للقضاء على هذه الظاهرة القبيحة التي لا تليق بالمجتمع المسلم.

فنزل في سورة الأحزاب لأولئك العابثين مرضى القلوب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً(٦٢).

إذا لم يتوقفوا عن عبثهم فوراً فيجب نفيهم: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً.

ومن لم يقبل بالنفي فيجب قتلهم: مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً.

ولابد من وضع ضوابط صارمة ليس فقط تجتث تلك النتائج وتعيد المجتمع لحالته الطبيعية، بل وتضمن حماية المجتمع من تكرار حدوث مثل تلك الممارسات. فنزلت سورة النور خصيصاً لتفرض عدداً من الضوابط للقضاء على تلك الظاهرة التي عمت أرجاء المدينة، والتي منها:



- كل من ثبت عليه الزنا من رجل أو امرأة يجلد: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢).
- كل من يكرر الزنا فلا يجوز للمسلمين الزواج به أو بها: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣).

لأن كل من يواصل ارتكاب أي كبيرة وهو يعلم بتحريمها فلن تقبل توبته وبالتالي فهو خالد في النار وخرج من جماعة المسلمين، ولو بقي ينتسب للإسلام. وعليه فالزاني لا يجوز أن ينكح مسلمة والزانية لا يجوز أن تنكح مسلماً.

وهذا يعني عزل الزناة عن المجتمع المسلم عزلاً يعذبهم معنوياً، وكأنهم مصابون بمرض قاتل شديد العدوى.

- بما أن مرضى القلوب أشاعوا الإشاعات الكاذبة عن بعض نساء المدينة، فقد فرضت السورة حكماً بحق كل من يروج أو تصدر منه إشاعة كاذبة تتهم امرأة بالزنا: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فكل من يتهم امرأة بالزنا فعليه أن يحضر أربعة شهود يؤكدون زعمه، وإلا فليجلد ثمانين جلدة، ولا تقبل لهم شهادة أبداً. وهذا نوع آخر من عزلهم عن المجتمع كعذاب مستمر لهم، إلا من تاب.

هنا يجب أن نشير إلى ما رسخه الفقه الموروث أن الزنا يثبت بأربعة شهود يؤكدون دخول الميل بالمكحلة، وكأن هذا ما تقصده الآية. والحقيقة أن رؤية الميل بالمكحلة مستحيل، كما أن الآية تقول إن الشهود مطلوبون في حال أشاع رجل عن امرأة بعينها أنها تمارس الزنا. وفي هذه الحالة عليه أن يحضر أربعة شهود معه يؤكدون بطريقة لا تقبل الجدل أن المرأة تزني، والتأكد من صحة أقوال الشهود من عدمه لا يقاس برؤيتهم الميل بالمكحلة، بل بما يقدمونه من أدلة وقرائن.

- كل من يتهم زوجه بالزنا بدون دليل وقرينة فلابد من اللجوء لهذه الإجراءات: وَالَّذِينَ



يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ(٧) عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٤).

ولو حدثت الملاعنة فيفرق بينهما ويعتبر الزواج لاغياً.

- وتقول السورة إنه رب ضارة نافعة. صحيح أن ما حدث كان مزعجاً وتسبب بمشاكل اجتماعية، لكنه كان سببا في نزول ضوابط تمنع حدوث ما حدث مرة أخرى، وهذا خير: إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١).
- ثم تعود الآيات لمخاطبة المسلمين، الذين تناقلوا الإشاعات دون أن يتحققوا من صحتها، وتذكرهم بما كان يجب عليهم أن يفعلوه عندما سمعوا تلك الإشاعات الكاذبة عن نسائهم: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ(١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨).

فلو أنهم أحسنوا الظن بأنفسهم ونسائهم، لقالوا لكل من يتكلم عن النساء بأن يؤكد كلامه بشهود أو أن كلامه مرفوض. لكنكم استمعتم لتلك الإشاعات، بل وتناقلتموها، في وقت كان يجب عليكم أن تقولوا: مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وتحرم الآيات العودة لتناقل مثل تلك الإشاعات والخوض في أعراض الناس تحريماً قاطعاً.

ثم توجه الآيات الحديث إلى مرضى القلوب الذين كانوا السبب وراء ما حدث: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٢٠).



إذا، حكم الزنا حرام لو حدث بين شخصين في الخفاء. لكن لو أن الزنا أصبح ظاهرة فيجب جلد الزناة ومعاقبة كل من شجع على انتشاره في المجتمع بكل صرامة.

ويكون جلد الزاني حكماً يطبق في حالات معينة، ولم يفرض لكي يكون عقوبة للزاني وكأنها تطهره من ذنب الزنا ويعود بعدها نظيفاً من المعاصي. ويكون جدل الزناة ليس موجهاً للمسلمين، لأن المسلم والمسلمة لا يزنون ولا يرتكبون أي كبيرة نص القرآن على أنها تؤدي لجهنم وهم يعلمون بالحكم. لأن من فعل ذلك فقد خرج من ربقة الإسلام ولو تسمى بالمسلم.

إقامة دولة للمسلمين واجبة

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥) النور.

- إقامة الدولة واجب على المسلمين، وليس ضرورة فقط، لأنه لا يمكن تطبيق شرع الله إلا في دولة للإسلام.
- ومتى ما أخلص المسلمون النية لله وعملوا على تأسيس دولة الإسلام فسيعينهم الله على تحقيق ما سعوا إليه.
- ومتى أقيمت دولة مسلمة تحكم شرع الله فسيتمتعون في ظلها بالأمن، وسيتغلبون على من يعاديهم.

الجزية

سورة براءة نزلت لتخبر الرسول أن قريشاً خانت معاهدة أبرمتها مع المسلمين يوم الفتح وكان الرسول في تبوك فعاد من هناك ولم يواصل مسيره لحرب الروم كما كان هدف الحملة. لأن السورة تطلب من الرسول أن يوصل لقريش رسالة أنهم أعطوا مهلة (٤) أشهر للتراجع وأن يعلن على الملأ في عرفات أن قريش هي من خان الميثاق وأن المسلمين أعطوها مهلة تنتهي بنهاية الأشهر الحرم. وأنهم إن لم يعودوا فسيقوم المسلمين بحصارهم وملاحقتهم وقتالهم في أي مكان يجدونهم.



سورة براءة – كما سبق وذكر- تشدد أيضاً على أن يتابع المسلمون معاقبة كل من بدأهم الحرب سواء في الأحزاب الأولى أو الأحزاب الثانية (حنين).

ومن ذلك معاقبة قبيلة من قبائل أهل الكتاب في يثرب، ظاهروا على المسلمين أعداءً لهم، في حنين، وإن لم يشتركوا مباشرة في القتال. وقد نزل بحقهم في سورة براءة: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

عليكم أن تقاتلوا هذه القبيلة لأنهم خانوا العهد وعاونوا أعداءكم عليكم، وإجبارهم على دفع جزية لكم على ما سببه تعاونهم مع الأعداء من أضرار لكم. والجزية تعني تعويضاً مادياً يدفع مرة واحدة بذلة وصغار.

وسورة الحشر التي نزلت بعد براءة تخبرنا بما حدث لتلك القبيلة لما علمت بما نزل بحقهم في القرآن: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤).

ما إن وطئت قدما الرسول المدينة عائداً من تبوك حتى تسامع أفراد تلك القبيلة بما نزل بحقهم، فبادروا بلقاء الرسول وعرضوا عليه تسليم مزارعهم وقلاعهم وممتلكاتهم (كتعويض وجزية) والجلاء من يثرب مقابل عدم التعرض لهم، أو الدخول معهم في قتال. وقد قبل الرسول والمسلمون العرض، ولم يحدث قتال بين الفريقين، وغادرت القبيلة يثرب إلى غير رجعة.

وهو الجلاء الثاني والأخير لأهل الكتاب من يثرب في عصر الرسول، ولم يتم التعرض لمن بقي منهم بسوء، لأنه لم يثبت تورطهم بالكيد للمسلمين ولا معاونة أعدائهم. ولا نعلم متى خلت يثرب من سكانها من أهل الكتاب، وإن كنا نرجح أنهم نزحوا لفلسطين باختيارهم بعدما أصبحت تحت حكم المسلمين في عصر عمر ابن الخطاب، عندما تأكد

لديهم أن اليهود فيها يعيشون بارتياح تحت حكم المسلمين هناك.

وتكون الجزية تعويضاً مالياً كعقوبة نزلت بحق هذه القبيلة بالذات دون غيرها من قبائل بني إسرائيل وأهل الكتاب في يثرب وغيرهم من الكفار، مقابل الضرر الذي تسببت به خيانتها للمسلمين وتعاونها مع الأعداء.

ولم تنزل الجزية كتشريع يطبق على الدوام على غير المسلمين. ولذلك لم يتعرض المسلمون لأهل الكتاب في تيماء ووادي القرى واليمن وغيرها. ولم يفرضوا عليهم جزية لأنهم من اهل الكتاب[١٢].

لكن الأوضاع تغيرت بعد عصر الرسول واستيلاء قريش على حكم دولة المسلمين. فعندما بدأت حروبها التوسعية في العصر الأموي والعباسي، قام رجال الدين بتأويل معنى الآية التي ورد فيها ذكر الجزية، وكأنها تشريع يطبق بحق كل من لا يقبل الدخول في الإسلام من سكان البلاد التي تقع تحت حكم قريش. وجعلوا الجزية ضريبة سنوية على كل سكان تلك البلاد الذين احتفظوا بدياناتهم ولم يعلنوا الإسلام. وهذا التعميم لم يعرفه عصر الرسول ولا الخلفاء الثلاثة من بعده.

كما أن الجوية نزلت بعد اكتمال التشريع وكعقوبة دنيوية. والإسلام يعطي المسلمين الحق بتطبيق العقوبات الدنيوية على من يحارب الإسلام أو يسعى في الأرض فساداً، بما يتناسب معها ويقضي عليها. لكن هذه العقوبات دنيوية ولا علاقة لها بالإسلام، ولا يجب أن تنسب للإسلام. فلو أصدر المسلمون قانوناً بقتل من ينشر الفساد الأخلاقي فهذا من حقهم، لكنه ليس تشريعاً دينياً ولا يجب أن ينسب للإسلام.

الرهن

المقصود بالرهن ضمان استرداد الدائن لماله من المدين، وذلك بتقييد وحجز التصرف بعين لها قيمة كعقار أو حلي أو معدات أو غيرها يملكها المدين لصالح الدائن. بحيث يمكنه أن يبيعها ويستوفي ماله في حال تأخر الدائن عن السداد في الوقت المحدد.

---

١٢ سنضع احتمالًا هنا يقول: إن كان هناك ما سمي بموقعة خيبر، فلعل الجزية كانت موجهة لأهل خيبر، لأنهم هم من عاون أعداء الإسلام ضد المسلمين، دون ان يتعرض لهم المسلمون. وان كان هذا ما حدث فيكون الرسول والمسلمون تجهزوا لخيبر وعند وصولهم قبل أهل خيبر بدفع الجزية للرسول والمسلمين ولم يقع قتال بين الفريقين. وكانت الجزية لمرة واحدة كما نص القرآن. وتكون خيبر قد وقعت في آخر عام من حياة الرسول.



ولابد من الإشارة إلى أن التداين في القرآن يكون بين قادر وقادر ولا يكون بين غني ومحتاج. لأن المحتاج تضمن له قوانين الإنفاق القرآنية سد حاجته دون اضطراره للاستدانة. وبالتالي فالرهن لا يكون من المحتاج، ولكنه تعامل تجاري بين التجار أو بين البنك والتاجر.

ولأن التداين يكون بين قادر وقادر فالقرآن يشدد على ضمان حق الدائن ووجوب رد ماله له. وهذا ما ورد عن التداين في سورة البقرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣).

ومن الآية أعلاه يمكن استخلاص القوانين التالية:

القانون: التداين لا يكون لسد حاجة المحتاج، لأن حاجات المحتاج تكفل قوانين الإنفاق سدادها من مال القادر بلا مقابل.

القانون: التداين يكون بين قادر وقادر، مثل حاجة الغني لتوسيع تجارته، واستدانته مالاً من أجل ذلك. فالتداين لا يكون للحاجات الضرورية، ولكنه تعامل تجاري خاص بالتجار.

القانون: وجوب توثيق الدين وقيمته وتاريخه وتاريخ استحقاقه وكل ما يتعلق به « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ».

القانون: الآية تؤكد على توثيق الدين بالكتابة.

وهو توثيق غير معتاد في عصر الرسول عندما كانت الأمية سائدة، ومع ذلك فالآية تنص على أن يكون التوثيق بالكتابة. ويستفاد من هذا:



القانون: التوثيق يكون بأدق وسيلة متاحة، وهذا يعني استخدام التوثيق الإليكتروني حاليا أو أي توثيق مستقبلي يكون أكثر دقة.

القانون: يجب أن يتأكد الدائن والمدين من نص اتفاقية الدين ويوقعا عليها، وهذا مقابل تأكيد الآية على أن يكون الكاتب والمملي حريصان ويخافان الله. فالمهم هنا هو تأكد الدائن والمدين من أن التوثيق دقيق وصحيح.

القانون: الآية تقول إن المملي هو المستدين « وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ" لكي يؤكد بنفسه ما عليه. وهذا يمكن استبداله بتوقيع اتفاقية ببنود يوافق عليها الدائن والمدين. وقد تكون اتفاقية تم صياغتها بصيغة قانونية تتفق مع القواعد المرعية ومع القوانين. وهو متاح في هذا العصر.

وتقول الآية: « فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ". ويفهم من هذا أن ولي السفيه والضعيف (القليل العقل) يحق له الاستدانة باسم السفيه أو الضعيف لتنمية أموالها واستثماراتها.

القانون: لولي السفيه والضعيف الحق في الاستدانة لتنمية مالها، ولا يحق له الاستدانة باسميها لمصلحته الشخصية.

وتقول الآية: « وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْا أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ".

وهو ما يبين أن القرآن يشدد على حفظ مال الدائن وذلك بكتابة الدين إضافة لشهادة شاهدتين من شخصين.

القانون: التأكد من أن الدين تم توثيقه بأفضل آلية متاحة، حسب العصر. ففي ذلك العصر كانت الكتابة ومعها الشهود هي أكثر الوسائل دقة وضماناً واماناً، وفي هذا العصر فهناك التوثيق الإليكتروني والذي يمكن أن يكفي دون حاجة لشهادة شهود.

القانون: في حال توفر التوثيق الإليكتروني فلا حاجة للشهود.

في حال كان البيع والشراء حاضراً بحاضر، يعني بيع وشراء بالنقد أو المقايضة الحاضرة



فيباح بدون كتابة: « إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا".

القانون: البيع بالنقد لا يجب توثيقه، لكن لو وثق فمباح. وفي هذا العصر فالتوثيق هام حتى للبيع المباشر لعدة أسباب لعل أقلها ارجاع البضاعة.

وجزء الآية هذا يعيد تأكيد أن التداين يكون بين تاجر وتاجر وليس لحاجة محتاج.

القانون: التلاعب بالشهادة ومثلها التوثيق فسوق لأن فيه إضاعة حق صاحب الحق « وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ".

متى يكون الرهن؟

"وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ".

القانون: الرهن يكون في حال عدم توفر وسيلة لتوثيق الدين.

وفي عصر الرسول كان ذلك إذا ما كان الدائن والمدين على سفر ولم يحضر عملية الدين غيرهما وليس بإمكانهما توثيق الدين. ففي هذه الحالة فالرهن هو الوسيلة الوحيدة لضمان الدائن استرداد ماله من المدين. بحيث يقوم المدين تسليم الدائن مطيته أو عين آخر يملكه كرهن يحتفظ به الدائن حتى يسترد ماله.

في حال أمن الدائن المدين ووثق به سقط الرهن، وأصبح الدين وكأنه أمانة استودعها الدائن عند المدين وعلى المدين أن يردها في وقتها ولا ينكرها « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ".

إذاً، الرهن عبارة عن وسيلة يقرها القرآن لضمان استرداد مال الدائن. كونه قدم معروفا للمدين، وأقل حقوقه ضمان استرداد ماله.

ومتى وجدت وسيلة أكثر ضماناً لاسترداد مال الدائن فالرهن ليس لازما.

ويمكن القول إن التأجير المنتهي بالتمليك، والضمان البنكي، يدخلان ضمن الرهن.

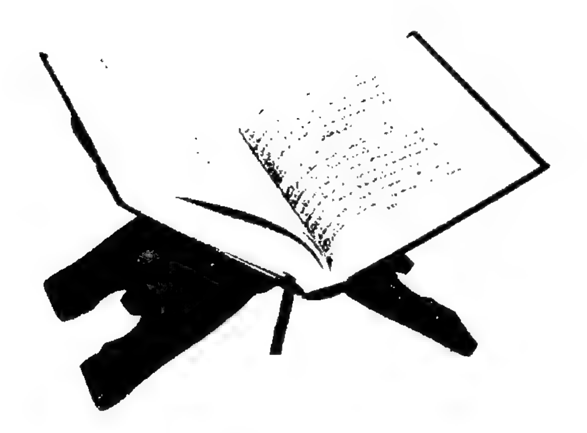


ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

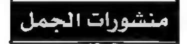
نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



القسم الرابع

أماكن وشخصيات






مكتبة
الفكر الجديد

في هذا القسم عدد محدود من الأماكن والشخصيات المذكورة في القرآن وذلك لأن البقية تم الحديث عنها بتفاصيل مرضية أثناء تدبر السور، ولا حاجة لتكرار ذكرها هنا.




مكتبة
الفكر الجديد

المحتويات





مكة

فيها بيت الله الوحيد على الأرض، ووجدت في واد لا يصل اتساعه (٥٠٠) متر، ويمتد من الشمال إلى الجنوب، ومحاط بالجبال من الغرب والشرق. ولا تتوفر أي معلومات تشير إلى تاريخ نشأتها أو أول من سكنها، كون سكانها (بنو إسماعيل) لا يوثقون. لذا فليس لهم تاريخ مكتوب، وليس لهم تاريخ يؤرخون به أحداثهم، ولا تواريخ ميلاد كبراؤهم، ولا يعرف عنهم شيء قبل الإسلام، إلا ما أشار له القرآن، كحملة الفيل، ورحلاتهم التجارية[1].

ونحن لا نعير كتابات المستشرقين أدنى انتباه، لأنها لا تقدم حقائق في كل البحوث المقدمة منهم عن تاريخ غرب جزيرة العرب وتاريخ مكة. لأنهم لا يملكون أي مصادر عنها. وكل ما قالوه هو كتابات متحاملة في الغالب وليس لها جدوى. ولأننا نؤمن أن القرآن وحي من الله، فإن القرآن يشهد مرتين أن مكة موغلة في القدم، وكفى بالله شهيدا:

الشهادة الأولى

سورة الحج تصف البيت بالعتيق في آيتين: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن

---

١ وهذا ما حدا ببعض المستشرقين القول إن مكة لا وجود لها أو أنها في مكان آخر أو أن الإسلام لم يظهر في مكة وما إلى ذلك من تفاهات بحجة أنه ليس لها ذكر في التاريخ. ومن هؤلاء باتريشيا كرون Patricia Crone الدانماركية والمولودة عام ١٩٤٥. وقد انزعج البعض من أقوالها وقام بالرد عليها ومن هؤلاء: د. آمال محمد محمد الروبي / أستاذ مشارك في قسم التاريخ اليوناني والروماني / جامعة الملك عبد العزيز - جدة. والكتاب بعنوان: الرد على كتاب باتريشيا كرون: (تجارة مكة وظهور الإسلام).



تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٣٣).

ووصف البيت بالعتيق في سياقٍ يتحدث عن إبراهيم يعني أن البيت الذي في مكة موغل في القدم ليس فقط بالنسبة لعصرنا ولكن حتى بالنسبة لعصر إبراهيم. وإذا كان إبراهيم قد عاش قبل بضعة آلاف من السنين، فإن البيت سبق ذلك العصر بآلافٍ من السنين.

الشهادة الثانية

سورة آل عمران تؤكد: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ(٩٦).

والآية تؤكد أن أول بيت لله (مسجد) بني للصلاة والتعبد لله هو البيت الحرام في مكة. ولعله يكون أول بيت وضع للناس في كل الأرض، وليس فقط في جزيرة العرب.

ومنطقة جنوب غرب جزيرة العرب هي التي عاشت فيها كل الأمم المذكورة في القرآن، وكل الرسل الذين ذكرهم كتاب الله. وهذا يعني أن المسجد الحرام بني قبل آدم، وهو أقدم رجل ذكر في القرآن الكريم عاش في تلك المنطقة، وليس أقدم رجل وجد في تلك المنطقة، وبطبيعة ليس أول رجل خلق على الأرض.

إلا أن أمية أهل المنطقة المحيطة بمكة عتمت على تاريخها الذي لا يعرف عنه شيء حتى ظهور الإسلام. فيما وجدت آثار ونقوش تتحدث عن تاريخ مناطق أقصى جنوب جزيرة العرب – اليمن الحالية وحضرموت – وقدرت تواريخها ما بين ١٣٠٠ – ٦٠٠ عام قبل الميلاد. مما يعني أنها بعد عصر النبي إبراهيم الذي عاش في مكة.

والنقوش السبأية المكتشفة تردد فيها ذكر إله عظيم اسمه «المقه»(𐩱𐩡𐩣𐩤𐩠) أكثر من (١٢٠٠) مرة. وقد توقف عند معناه علماء الآثار الغربيون، وأولوه لمعانٍ مختلفة لم يتفقوا على أي منها. لأنه لم يكن من المحبذ لهم أن يضعوا احتمال أن يكون المعنى هو (إله مكة) لئلا يضطروا للاعتراف بوجود توحيد سبق وجود اليهود. لأن ثقافة علماء الأديان والآثار الغربيون متأثرة وخاضعة للثقافة اليهودية التي ترسخ لكذبة مفادها أن الديانة التوحيدية لم تعرفها البشرية قبل موسى، لكي ينسب لليهود أنهم أول من عرّف الناس بالله.

والنقوش تؤكد أن السبئيين كانوا يحجون إلى المقه ويذبحون أضاحيهم في وقت معين من العام.



كما أن هناك نقوش تؤكد أن السبئيين أقاموا معبداً بالقرب من عاصمتهم مأرب على شكل دائري وأصبحوا يحجون إليه كبديل لمحجهم السابق.

والمعبد مشهور جداً وهو أكبر معبد اكتشف في اليمن ويسمى معبد أوام وهو المعبد الرئيسي للإله (المقه). ويقع إلى الشرق من سد مأرب. وهذه صورة لموقعه من Google قووقل إيرث وقد غطته الرمال، لكن شكله الدائري واضح:



ومما أخبرنا به القرآن عن سبأ ما يلي: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ(١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ(٢١) سبأ.

ما يهمنا هنا ليس انهيار السد، ولكن إشارة الآيات إلى أن سبأ كانوا مؤمنين بدين الله،



فأعرضوا، وابتعدوا عن دين الله (تبعاً لسنة الأولين).

والآية (١٩) تقول: " فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ".

والراجح هو أن القراءة الصحيحة تقول: «ربنا باعَدَ بين أسفارنا»، وليس كما يقرأها البعض بكسرة تحت العين في «باعد أو بعِّد».

وما يؤيد أنها القراءة الصحيحة هو أن قراءة: «ربنا بَاعِد بين اسفارنا» لا معنى لها. لأنها تبدو وكأنهم يطلبون من الله أن يباعد بين أسفارهم. لكن لو كانت القراءة: «ربنا باعَدَ بين أسفارنا» فهم تعللوا ببعد السفر، وكأنهم يقولون: لدينا الرغبة في السفر لو كان قريباً، لكن الله أبعده.

وهو مماثل لما منع المنافقين من الخروج مع الرسول لحملة تبوك: لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) براءة.

وتبين لنا الآية السابقة إلى أين كان ذلك السفر المطلوب من السبئيين لله، والذي بدأوا يتقاعسون عن الذهاب إليه متعللين ببعده: وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨).

وليس هناك قرى بارك حولها سوى مكة (وما جاورها وفي حدود حرمها). وكان هناك بين سبأ وبين القرى التي بارك حولها (مكة وما جاورها) قرى ظاهرة (يمرون بها في طريقهم من سبأ لمكة). وكانت الرحلة تمتد لأيام وليالي ولكنهم كانوا يرتحلون فيها آمنين. ولو رجعنا لطريق تجارة البهارات واللبان والخور سنجد أنه يمر بسبأ ويصعد شمالاً مروراً بالقرى الظاهرة (التي تتناثر على امتداد طريق القوافل بعيداً عن أعالي جبال السروات. ويكون معنى القرى الظاهرة، هي تلك القرى التي تقع في السفوح الشرقية لجبال السروات وفي أراض مستوية، فهي ظاهرة. ومنها: نجران، بيشة، تثليث، رنية، تربة (مصر)، والطائف.

ويكون السفر المطلوب من الله لمكة (القرى التي باركنا حولها) هو لأداء الحج ونحر الهدي. وعندما كانوا على الدين الحق، كانوا لا يجدون مشقة في هذا. ثم بدأوا يتقاعسون عن الحج بعد أن بدأت أجيالهم اللاحقة تتراخى عقيدتها ويصيبها الزلل، بحجة أن المسافة طويلة:



«فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم».

ثم أقاموا معبدهم المستدير المشابه باستدارته لاستدارة المسجد حول الكعبة، ولابد أنهم بنوا كعبة في وسطه وأصبحوا يحجون لها كبديل لمكة وينحرون عندها الأضاحي.

وهو وضع له في التاريخ الإسلامي شبيه، حين قام عبد الملك ابن مروان ببناء قبة الصخرة في القدس فيما بين أعوام: (٦٦-٧٢) للهجرة، وأمر أهل الشام بالحج لها كبديل لمكة.

وما حدث للسبئيين إشارة أخرى على أن مكة معروفة جداً في جنوب غرب جزيرة العرب منذ القدم. لأن معبد أوام بني حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، وبيت الله في مكة كان موجوداً قبل ذلك بزمن طويل.

والنبي إبراهيم وصل مكة هارباً من قومه وبرفقته لوط، قبل بناء معبد أوام بمئات السنين. ووجد البيت قد تهدم ودرست معالمه، وهو ما يؤكد قدمه بالنسبة لزمن إبراهيم: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) الحج.

وأرض مكة جرداء لا تصلح للزراعة: رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(٣٧) إبراهيم.

وما يجعل الناس يأوون إليها هو وجود بيت الله، لذا فالكثير زارها والقلة استوطنوها في الأزمنة الغابرة، وهو ما يفسر تهدم البيت. وقد وصف الكعبة المؤرخ الصقلي ديو دورس، الذي عاش قبل المسيحية بخمسين عاماً «بأنها كانت في وقته أشرف معابد العالم طهراً وأقدمها»، حسبما نقل توماس كارليل في كتابه «محمد المثل الأعلى»[1] في فصل الحجر الأسود والكعبة.

وكان ممن استقر في مكة النبي إبراهيم وتزوج ورزق بابنيه إسماعيل وإسحاق فيها. وقد كلف الله إسماعيل بصيانة البيت وخدمة الحجاج مع والده قبل أن يولد إسحاق: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

١ الكتاب ترجمه للعربية محمد السباعي وطبعته مكتبة الآداب بالقاهرة في ذي الحجة ١٤١٣ هـ / مايو ١٩٩٣.



واستمر أولاد وأحفاد إسماعيل وأحفادهم في أداء المهمة. وعندما ظهر الإسلام كانت قريش (أحفاد إسماعيل) مستمرون بالقيام على صيانة البيت وخدمة الحجاج. وهذا يعني أن سلالة إسماعيل بقوا في مكة ولم يخرجوا منها أبداً بخلاف ما تزعم كتب التراث. واستمروا يقومون بنفس المسئوليات تجاه البيت وصيانته والحجاج واستضافتهم بتقديم الطعام والشراب دون أن يتقاضوا مقابلاً مادياً نظير خدماتهم، برغم تكاليفها الباهظة. وقد رسخ في التاريخ مصطلحات قرشية لخدمة الحجاج، مثل: السقاية وهي توفير الماء للحجاج، والرفادة وهي توفير الطعام للحجاج، وغيرها. وهو ما يعني أن الحج لم يكن مصدر دخل لقريش، ولم يحول مكة لسوق تجارية، لأن غالبية الحاج فقراء يحضرون لمكة للاستفادة من الخدمات المجانية التي تقدمها لهم قريش. فتحولت مكة إلى ملجأ للمساكين والفقراء الذين يحضرون في موسم الحج للتعبد في بيت الله، وليحصلوا على الطعام والشراب، وليموتوا هناك ظناً منهم أن من يموت في بيت الله يحسب له أجر أضافي، وهو معتقد لازال حياً عند بعض الناس. وأرض مكة ليست شحيحة في المياه فقط، بل وفي كل الموارد، ولا يمكن أن تقدم لأهلها أي مصدر دخل يقيم أودهم، فضلاً عن تحويلهم لأثرياء. ومع ذلك فقد كان كبراء قريش من ذوي الثراء الفاحش، مكنهم من الصرف على خدمات البيت والحج بسخاء، والعيش حياة بذخ وترف.

والقرآن يقول لنا أنه كانت لهم رحلات تجارية منتظمة: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(٢) قريش.

وكتب التراث تقول إنهم كانوا يتاجرون في سوق عكاظ التي تبعد عنهم مسيرة يومين أو ثلاثة، وكانت تلك السوق تقام لمدة أيام بضع مرات في السنة. فهل هذه التجارة الموسمية هي التي جعلتهم من ذوي الثراء الفاحش، ومكنتهم من الصرف على خدمات البيت والحج بسخاء؟

أم أن قريشاً تمارس تجارة مستمرة تؤمن لهم الثراء العريض والدائم، والذي لا يتأثر بالصرف على حجاج بيت الله؟

والذي لا يختلف عليه اثنان أن تجارة قريش كانت تقوم على نقل قوافلها البخور واللبان والبهارات من قرب سواحل بحر العرب إلى العراق ومنها لفارس، ولبلاد الشام ومنها



لروما وأوروبا. وهي تجارة توارثها رجال قريش كابراً عن كابر، كتجار وسطاء للآلاف السنين. وتكون سوق عكاظ تقام في الفترة التي تصل فيها القوافل للسوق، سواءً كانت قادمة من الجنوب محملة بالبضائع أو كانت قادمة من الشام والعراق وقد باعت حمولتها وعادت بمنتجات استهلاكية كالملابس والطعام والأدوات. فإن كانت القوافل قادمة من الجنوب ففي السوق يتم تحويل مسار بعضها للعراق ويكمل الباقي مساره للشام. وإن كانت قافلة من الشام أو العراق فيتم بيع حمولتها في السوق للتجار المحليين في مكة والطائف وما حولها.

وتجارة البهارات واللبان والبخور قديمة، قدم التاريخ، لذا فمن المرجح أن عشيرة إبراهيم كانوا يتاجرون بها، خاصة وأن قريتهم تقع على نفس طريق القوافل التي كانت عير قريش تسلكها. وهو ما يفسر قدرة إبراهيم العيش في مكة الجرداء، وتملكه قطعان من الماشية ذبح منها عجل كضيافة للمخلوقات الكونية التي حضرت له وبشرته بإسحاق ظناً منه أنهم بشر. وقد ذكر كتاب اليهود المقدس أن إبراهيم كان يمتلك الأموال الطائلة[1].

ويبدو أن بنو إسماعيل قد استمروا بممارسة تجارة الأجداد، وتوارثتها أجيالهم. والقرآن يقول إن قريشاً كانت لها رحلات موسمية في الشتاء والصيف في سورة قريش، ويقول في سورة العنكبوت أن قريش تمر بمساكن عاد: وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(٣٨) العنكبوت.

ومساكن عاد في الأحقاف: وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٢١) الأحقاف.

والأحقاف هي مناطق التقاء السفوح الشمالية لجبال حضرموت، والسفوح الشرقية لجبال اليمن. والممتدة من سبأ باتجاه الشرق، والتي تتخللها الأودية المنحدرة باتجاه الربع الخالي، وتغطي أراضيها الرمال: لَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(٢٥) الأحقاف.

في تلك المنطقة تقع سبأ كواحدة من أهم الأسواق التي يبيع فيها منتجو اللبان محاصيلهم،

[1] ذكر بعض ما ورد في كتاب اليهود المقدس من باب الاستشهاد بكتاب تاريخي، وإن حوى الكثير من الأكاذيب فقد يكون فيه بعض الحقائق ولو كانت مشوهة.



بجانب أسواق أخرى تجلب لها محاصيل البخور والبهارات من الهند. ويبدو أن قوافل قريش أصبحت الناقل الحصري للبان والبهارات والبخور من تلك الأسواق، مارين بمساكن عاد. ثم يعودون لسوق عكاظ ومن هناك، ينقلونها إلى العراق أو إلى أسواق بصرى الشام وغزة ومنها ينقل لأوروبا.

وأصبح سادة قريش من ذوي الثراء الفاحش، أو أولي النعمة كما وصفهم القرآن: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً(١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً(١٤) المزمل.

وامتلكوا كل المظاهر المصاحبة للثراء من العبيد والإماء والأنعام والأثاث وغيرها: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ(٥٦) المؤمنون.

وكانوا يتباهون بكثرة أولادهم وأموالهم: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً(١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً(١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً(١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(١٥) المدثر.

كما كانوا يتباهون بخدمة البيت والحجاج وانحدارهم من نسل إبراهيم: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) براءة.

فصار لهم نظرة تعظيم من كل سكان جزيرة العرب، تحولت إلى ما يشبه التقديس الذي استفادوا منه. فعاشوا سادة أعزاء آمنين سواءً كانوا داخل حرم بيت الله الذي نذروا أنفسهم سدنة له وخدماً لحجيجه، أو في ترحالهم خارج مكة. فلم تكن تتعرض قوافلهم للنهب ولا نساؤهم للسبي ولا رجالهم للحروب. فكان الانتهاء لقريش جواز سفر دبلوماسي اعترف به كل سكان جزيرة العرب سواءً كانوا من البدو الذين تعتمد حياتهم على السلب والنهب، أو من شعوب المهالك المستقرة والمتحضرة.

وعاش أهل مكة برغد عيش، ولم يتعرضوا لحروب أو اجتياحات أجنبية كما حل ببني إسرائيل. ولعل حملة أبرهة كانت المحاولة الأولى والأخيرة قبل الإسلام لغزو مكة، والتي انتهت بهلاك الجيش الغازي قبل دخولهم البلدة الحرام، وهو ما سنتحدث عنه في موضوع مستقل.

ولم يكن أمن وأمان مكة ومن فيها بسبب حلف فضول، كما يقول الإخباريون، ولكن لأنها



بلد آمن منذ ظهرت للوجود، وقبل آلاف السنين من حلف الفضول إن كان قد حدث بالفعل.

وفيما يلي خارطة تظهر طريق تجارة اللبان والبخور والبهارات وهي التجارة التي مارستها قريش عبر مئات السنين:

وإن كان طريق اللبان والبهارات والبخور يمر بالقرب من مملكة سبأ القديمة، فلابد أن هناك أسواق أخرى لشراء المنتجات من المنتجين تقع أبعد من سبأ وأقرب لبحر العرب، وقد كانت شبوة إحداها، لعدد من العوامل، منها:

- أن شبوة كانت العاصمة القديمة لحضرموت لفترة طويلة من الزمن.
- أنها أقرب للبحر حيث تتلقى شحنات البخور والبهارات من الهند.

- أن الرحالة والمؤرخين اليونان والرومان، أمثال هيرودوت، استرابون، ارتيميدوس، بطليموس، وبوليبيوس قد ذكروا أن حمولات اللبان تصل إلى شبوة من مناطق إنتاجه في المهرة وظفار وحضرموت، مثلما يصلها البخور والبهارات من الهند ولبان سقطرى من الموانئ التي ترسوا بها السفن على سواحل البحر العربي، ومن هناك ينقل بواسطة الجمال إلى شبوة حيث يجمع المحصول على شكل أكوام يوضع على كل كوم منها لوحة تشير إلى وزنها وسعرها ويتجول التجار بينها ويضعون على اللوحة السعر الذي يريدون الشراء به. وعندما تتم صفقات البيع والشراء يقوم التجار بتحميل شحناتهم على الجمال سالكين الطريق التجارية القديمة مروراً بقتبان ومعين وغيرها.

وقد تكون هناك سوق في سبأ وفي شبوة وفي أماكن أخرى غيرها في نفس الوقت فاللبان يأتي من مناطق متفرقة، من الجنوب من سقطرى ومن الشرق من ظفار والمهرة. والبخور والبهارات تأتي من مناطق مختلفة من الهند وترسوا السفن في موانئ متعددة على بحر العرب.

والملاحظ أن طريق القوافل لا تمر عبر الحواضر (القرى الظاهرة) ولكن بالقرب منها، على الدوام. من سبأ، نجران، بيشة، تربة، مصر، مكة، يثرب، خيبر، وادي القرى، وتيماء، قبل أن تصل إلى بصرى الشام أو غزة.

كما أن هناك طريق أخرى، وإن كانت أقل أهمية تحمل اللبان والبخور والبهارات إلى بلاد فارس، وكانت قريش أيضاً هي من يوصله للعراق. وأرجح أن قوافل قريش لا تذهب للعراق مباشرة من اليمن، عبر الطريق الواصل من نجران فتثليث، ثم الاتجاه إلى ذات كاهل (قرية الفاو) ثم اليمامة ثم إلى الشمال حيث تقطع نفود الدهناء باتجاه المدائن، التي كان اسمها القديم قطسيفون، وتسمى اليوم سلمان باك. وكانت مقر كسرى أنوشروان زمن رسول الله. ولكن قوافل قريش تنقل حمولتها إلى سوق عكاظ، وهناك يتم تقسيم القوافل إلى قسمين. قوافل تتجه إلى الشمال باتجاه الشام، مروراً بيثرب، وادي القرى، تيماء، تبوك، وبصرى أو غزة. وقوافل تتجه شرقاً إلى المدائن عبر طريق يصل مكة بالمدائن، وهو نفس الطريق الذي جددته زبيدة زوج الرشيد لأنه يربط بغداد العباسيين والمدائن القديمة بمكة، وذلك تحسباً فيما لو عادت هي أو بعض أسرتها الحاكمة لمكة، فجعلت الطريق مريحة للسفر، حيث أمرت بإقامة فنادق للمبيت والراحة يتوفر فيها الطعام، وأماكن لراحة الدواب وأعلافها، وبرك للمياه لسقي المواكب الملكية ودوابهم في المقام الأول.

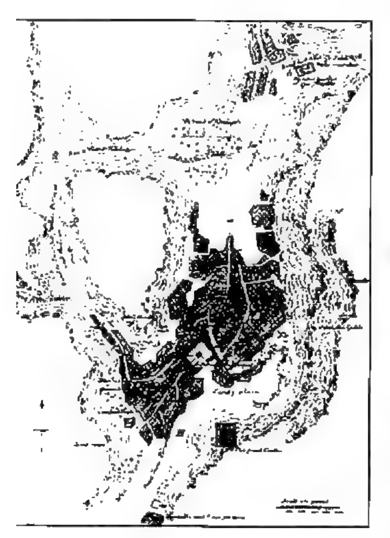


طبوغرافية مكة

الشكل الطبوغرافي لمكة تغير جذرياً هذه الأيام نتيجة للتوسع العمراني الذي لم يراع التاريخ ولم يحترم قدسية الأماكن الأثرية وأهميتها القصوى. لذا قمنا بتوضيح شكل وادي مكة الذي يقع فيه البيت على جزء من الخارطة الطبوغرافية المرفقة تحت (إلى اليمين)، دون أن نغير شكل الخطوط الكنتورية. وقد ظهر شكل الوادي في الخارطة التي أنتجتها إدارة المساحة[1] الجوية عام ١٩٧٥، كما كان في العام ١٨١٤ الذي يظهره الرسم اليدوي لبوركهارت إلى اليسار[2]. ويمكن القول إنه نفس شكل الوادي كما كان زمن إبراهيم، لأن تضاريس مكة في الخارطة لم تتغير، برغم امتداد العمران خارج الوادي وفوق الجبال المحيطة، والذي يظهر باللون الأحمر، لأن المساكن كانت تقام على الجبال دون تغيير لتضاريسها.



فوق: جزء من الخريطة الطبوغرافية مع توضيح لوادي مكة ومكان الكعبة والمسعى ومقبرتي كداء شمال جبل قعيقعان وكدى جنوبه. "قعيقعان هو الطير الأيمن"
وإلى اليسار: نسخة من رسم بوركهارت لمكة عام 1814 ويظهر أن العمران لم يتجاوز الوادي.



واليوم لم يعد لمكة ما قبل آدم وإبراهيم ولا حتى مكة زمن الرسول محمد ولا حتى شكلها قبل مئة أو خمسين عاماً أي وجود. هي اليوم (١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥) تجمُّعٌ رأسمالي بكل معنى

١ الخارطة الطبوغرافية من إنتاج إدارة المساحة الجوية [وزارة البترول والثروة المعدنية [الرياض] السعودية.

٢ ولد في لوزان في ٢٥/ نوفمبر/ ١٧٨٤، ودرس في ألمانيا وإنجلترا، وعاش في البلاد العربية متنقلا في بلاد النيل والشا من العام ١٩٠٩ إلى أن توفي في القاهرة عام ١٨١٧ بسبب تسمم غذائي. وقد سافر إلى مكة صيف العام ١٨١٤، وبقي فيها إلى منتصف العام التالي. وهو أول أوروبي يكتشف معبد أبو سمبل الذي كانت الرمال قد دفنته.



الكلمة، مع مواصلات غاية في السوء، وبنية تحتية مهترئة. تتناطح في سمائها وحول كعبتها البنايات الشاهقة التي تصل لعنان السماء، كفنادق وشقق سكنية ومتاجر تستغل موسم الحج ومواسم العمرة المستمرة طول العام للكسب المادي الفاحش. وقد قامت على أنقاض بيوت قريش التي كان يجب أن تبقى كما هي وأن تكون ضمن قائمة منظمة اليونيسكو العالمية للتراث الإنساني. لكن الجشع المادي لأصحاب النفوذ وقصر نظرتهم وقلة تدينهم وفقرهم للحنكة وضحالة مداركهم، خولهم للاستيلاء على مكة ونقضها وبناء مجمعاتهم السكنية والتجارية التي هلك بعضهم قبل أن يهنأ بها وسيلحق بهم قريباً من بقي منهم على قيد الحياة، ليذهب الفاعل ويبقى الفعل عاراً على جبين الإنسانية التي لم تستطع هيئاتها الدولية أن تمنع حدوث ما حدث.

وعند الانتقال لمنى يمكن رؤية سهل منى الذي يتخلله شوارع محاطة بسياج حديدي يفصل خيام حملات الحجاج عن حجاج الافتراش، كما يطلق على حجاج من داخل السعودية قدموا للحج بدون الانضمام لحملة من حملات الحج. وأرضية شوارع منى عبارة عن أكوام من القاذورات بأنواعها. ودورات المياه العامة قليلة جداً بالنسبة لعدد الحجاج. لذا المضطر للجوء إليها سيواجه صف انتظار بشري طويل ومياه آسنة تحت قدميه وتغطي منطقة الحمامات. قبل أن يحظى بدور للدخول لبيت الخلاء القذر. كما تطفح الأراضي المحيطة بأماكن الوضوء الملاصقة لدورات المياه بمياه آسنة هي الأخرى.

ولغياب المواصلات العامة فإن القادم من مكة لمنى عليه أن يترجل من السيارة في حي العزيزية والسير على الأقدام لمسافات طويلة ليصل خيمته. وقد افتتح قبل أعوام قليلة قطار ذو مسار واحد يصل لمنى، والكل يعرف أنه مخصص للأمراء والوفود مجاناً، وبعض الحملات بأسعار خيالية برغم أنه مسار واحد وقطار واحد وحالته بائسة وطريقة تشغيله أكثر بؤساً وامكانياته متواضعة، ولا يمكن أن يصنف كوسيلة مواصلات فعالة، وكأنه للاستعراض أكثر من تقديم الخدمة.

وعرفات تتفوق على منى في حجم القاذورات ونوعيتها. فالشوارع تتغطى أرضيتها بالكامل بأكوام من القاذورات السائلة: من مياه وبقية مشروبات غازية وأعاصير.... وغيرها. والصلبة: من معلبات وكرتون وبلاستيك ومظلات شمسية مهترئة وملابس



وأقلام وأحذية وإكسسوارات، وكتيبات الحج، وبقايا أطعمة مطبوخة كالدجاج والرز والشربة والكبدة، وأطعمة معلبة... وكل ما يخطر على البال. إضافة لما يلقي به الباعة على جانبي الطريق من مخلفات وزبالة.

ودورات المياه العامة للرجال فقط على طول الشارع رقم (٧٩) الذي يقطع عرفات من المنتصف باتجاه جبل "الرحمة"، ولم أر دورات للنساء في ذلك الشارع.

كل هذه المضايقات والمشقة والأوضاع السيئة يلقاها ضيف الله في بيت الله.

مع أن الحاج ضيف على الله، في بيته، لبى دعوته. وواجب الضيف الإكرام بما يتناسب مع قدر ومقدار المضيف ومكانته. لذا جاء تكليف الله نبيه إبراهيم بتطهير البيت من القاذورات، كخطوة أولى لاستقبال الضيوف بعد إعادة بنائه: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) الحج.

ثم جاء تكليف آخر لإسماعيل ليواصل هو ونسله المهمة بعد أبيه إبراهيم: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

وهذا التكليف يضمن إكرام الضيوف بكل ما يلزمهم من حقوق الضيافة، بمواصفات إلهية مثالية بلغة العصر الذي يعيشون فيه.

وقد استمرت قريش تقوم بحق الضيافة على أكمل وجه، منذ أيام إسماعيل - تحت مسميات السقاية والرفادة والسدانة والحجابة والعمارة – ولم تكن تلك الأعمال من اختراع قريش، كما يقول التاريخ.

بعبارة أخرى، تطهير البيت وترميمه، وتوفير المأوى والمأكل والمشرب وتيسير بقية أمور الحاج، هي ما كان يفعله إبراهيم وإسماعيل بناءً على تكليف الله لهما وليس منة أو تفضلاً أو معروفاً منهما، واستمرت في نسلهما إلى أن جاء الإسلام. ولم تكن قريش هي من اخترع هذه الخدمات للحجاج تفضلاً كما يقول من كتب التاريخ في العصر العباسي جهلاً منهم بحقيقة ما حدث، أو خبثاً وطمساً للحقائق.

وقد قامت قريش بالتكليف الإلهي خير قيام، فكانوا يصرفون الأموال الطائلة لتأمين نظافة بيت الله على الدوام. وتأمين كل ما يلزم الحجاج من شرب ومأكل ومأوى. وبرغم صعوبة



جلب المياه من مناطق بعيدة عن مكة، لشح مياهها، فقد كانت قريش توفر المياه للحجاج، بكميات كافية.

ولما خانت قريش معاهداتها مع الرسول يوم الفتح، سحب الله منهم شرف خدمة الحجاج والقيام على البيت كعقوبة لهم وأسندت للمسلمين، ولو لم يكونوا من نسل إسماعيل، كما أخبرتنا سورة براءة: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ(١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٩).

وعلى من ينوب عن إسماعيل أو يحل محله في حمل الأمانة، أن يقوم بكل هذا، ليس تفضلاً ولكن تنفيذاً لتكليف الله. وليعلم أنه خادم ذليل مكلف باستقبال ضيوف الرحمن بكل ترحاب وتقدير. وتقديم كل الخدمات الضرورية اللازمة مجاناً لهم، لكي يؤدوا زيارة بيت ربهم وحجهم بكل راحة وأمن. وألا يعتبر نفسه حاكماً لمكة، لأن بيت الله لا يحكمه بشر، وهو ما عرفته قريش وأقرته، فطوال تاريخ مكة لم يكن لها حاكم بشري على الإطلاق، إلا في العصر الأموي والعصور التي تلت.

ومكة بيت الله، يجب أن تكون مدينة مثالية لا يضاهيها مدينة أخرى في عصرها، في الخدمات والمواصلات والمتاجر والبيئة الصحية النقية وكل المجالات الأخرى. وهذه تدخل ضمن السقاية والرفادة والسدانة والحجابة والعمارة، بلغة عصرية.

مكة اليوم لم تعد درة المدن، كما وصفها المؤرخ الروماني قبل الميلاد والذي سبق ذكره. بل أضحت تئن تحت وطأة الفوضى والقاذورات والعشوائية والتلوث، في كل شيء. وتحول الحج والعمرة إلى وسائل لسلب الحاج – ضيف الله في بيته – وتحميله ما لا يطيق، بدل أن يوفر له كل شيء بالمجان، كما أمر الرحمن.

في مكة اليوم لا توجد وسيلة للمواصلات العامة سوى السيارات، والتي لم توفرها الدولة، ولكن الدولة ألزمت شركات الحملات توفيرها. وكثرة الحافلات حولت البلد الحرام إلى بيئة خانقة ملوثة، مزدحمة، لا يحلها تنظيم مروري بائس وعشوائي، يعتمد إغلاق الشوارع



أو صراخ رجال المرور بالسيارات: «إطلع ... إطلع ... تحرك ... تحرك."

مكة تعيش منذ قرون من الزمن هذه الحالة المزرية جداً.

شوارع مكة، زحام فوضوي مختلط، بين السيارات بمختلف أنواعها، وبين البشر الذين يحاولون الوصول للحرم على الأقدام أفضل من الاحتباس لوقت طويل وسط حافلة توصلهم لمنتصف الطريق. والسير على الأقدام بين الحافلات يعرضهم لخطر فقدان القدرة على السمع، نتيجة للأبواق العالية جداً، التي لا تتوقف عن الزئير. إضافة لما تسببه الضوضاء من ارتفاع ضغط الدم وأمراض خطيرة كثيرة أخرى. ناهيك عن التلوث الناتج عن عوادم السيارات في الهواء، والتلوث على الأرض من النفايات التي تغطي الشوارع. وهذه إهانة متعمدة لضيوف الرحمن، وليس كراماً لهم كما أمر الله.

مكة تعيش حالة من الفوضى والقذارة في المطاعم، والمحلات التي تبيع الأطعمة، وفي كل المحلات التجارية الأخرى وفي المساكن. وقرب المحلات من الحرم لا يكون لسد الحاجة ولكن لأن مالكها من أصحاب القرار أو من المقربين لهم. والقذارة لا يلام عليها الحاج الذي يلقي بفضلاته في الشارع وهو يسير بتثاقل للحرم، لأنه لم توفر له أماكن كافية للتخلص من النفايات.

والفوضى في المواصلات لا يلام عليها الحاج لأنه لم توفر له مواصلات مريحة توصله للحرم، كما أمر الله. كل شيء في مكة يلام عليه من أعلن أنه يقوم على البيت ويخدم الحجاج، نيابة عن إسماعيل.

أما ضيوف الرحمن فلم يفقدوا حقوقهم التي فرض الله لهم من مأوى ومسكن ومشرب، فقط، بل أصبح عليهم أن يدفعوا الأموال الطائلة، مقابل استضافتهم في بيت ربهم. مع أنه من المعيب أن يستضيف شخصاً ضيوفه ويطلب منهم مالاً مقابل استضافتهم وإيوائهم وإطعامهم، فما بالك لو كان المستضيف هو رب العالمين.

والحل الجذري واجب لا يقبل التأخير.

يجب أن تكون مكة مدينة مثالية بمفهوم هذا العصر، مثلما كانت مدينة مثالية في مفهوم عصر قريش، ومدينة مثالية في مفهوم عصر إبراهيم.

يجب أن تخلوا المدينة من أي سيارة لا تسير بطاقة صديقة للبيئة. كما يجب أن تخلوا المدينة من



المصانع، أو أي ملوثات حفاظاً على صحة ضيف الرحمن.

مكة يجب أن تخلوا من أي وباء، ويجب أن تحظى بشبكات مثالية لتصريف السيول، ومجاري الفضلات، وشبكات المياه، وبنية تحتية، وكل الخدمات الأخرى بمواصفات مثالية.

يجب أن تخلوا المدينة من البروتوكولات البشرية لأنها بيت الله، وكل البشر عبيد له بلا مقامات. فمن رغب في الحج أو العمرة فعليه ما على بقية الناس وله ما لهم. وعليه أن يعيش عيشتهم ويسير بينهم. ورسول الله لم يكن له موكب يطرد الناس أمامه ليصل بفرسه أو ناقته لتحت الكعبة، بينما بقية الناس يطوفون على سطح الحرم. كما لم يبن له قصر قرب الحرم أو في منى، بينما يفترش ثلاثة أرباع الحجاج القاذورات على الأرض.

يجب أن يتخلص بيت الله من هذه المشاريع العقارية العملاقة التي تهدف للربح، لأن مكة ليست دبي أو نيويورك. هي بيت الله، وبيت الله ليس معروضاً للبيع والمتاجرة بين البشر.

يجب توفر الخدمات - بمواصفات المستقبل - بكثافة في كل مكة والمشاعر، كنوع من الرفادة والسقاية بلغة العصر. بدل أن تبقى بلد موبوء ملوث ومزعج، يعج بالفوضى العارمة والضوضاء والقاذورات بعد أن طمست هويتها وجرفت تضاريسها.

ما الذي يجب القيام به؟

يجب أن يعاد بناء مكة كما كانت عليه أو أقرب صورة لما كانت عليه زمن الرسول، لتبقى كمتحف تاريخي حي على هذه المدينة المقدسة. وهذا ممكن جداً ولو على أرض منبسطة بعد أن سويت الجبال بالأرض. بحيث تكون قرية نموذجية للعرض وليس للسكن.

وفيما يلي الخطوات لتحقيق ذلك:

- تجرف كل البنايات الشاهقة وتسوى بالأرض كما جرفت الجبال التي كانت موجودة في نفس المكان.
- يعاد بناء البيوت التي كانت عليها مكة زمن الرسول، وهذا ممكن مما في كتب التاريخ، والدليل هو إعادة أبنية الدرعية القديمة ومبان أخرى اندثرت كان سلاطين الدولة السعودية الأولى والثانية يقيمون فيها.
- يستصدر قانون يمنع بناء أي مساكن أو منشئات جديدة حول الكعبة وفي محيط دائرة



يبلغ نصف قطرها (٢٠) كيلومتر على الأقل.

- تبنى الفنادق والأسواق والمجمعات السكنية والتجارية خارج هذه الدائرة وترتبط بالحرم بشبكة مواصلات حديثة من قطارات تحت الأرض وفوقها وباصات، على أن تكون بمواصفات عالمية عملية، كالمعمول بها في طوكيو، سيئول، لندن، وباريس.
- يخصص الحرم للطواف كما أمر الله ويكون التوسع فيه عمودياً وليس افقياً. بحيث يزاد في ارتفاع الكعبة لتكون هي أعلى مبنى في العالم، ولتكون رمزاً لمكة بالفعل ويمكن رؤيتها من بعيد بدلاً من رؤية الساعة الحالية الدخيلة على أرض الحرم المقدسة.
- يكون هناك مسارات دائرية حول الكعبة بأدوار متعددة للطواف والصلاة فقط وليس للراحة أو النوم. ومن انتهى من الطواف يخرج ويستقل المواصلات عائداً لمناطق السكن والتسوق التي تكون خارج مكة.
- إضافة لتوفير دورات المياه بأعداد كافية.
- كل هذه الخدمات من مواصلات وسكن وأكل وشرب تقدم مجاناً لزوار البيت والحجاج، كما أمر الله نبيه إبراهيم. وهذا من الممكن توفيره فأهل الخير كثر في كل العالم الإسلامي ومستعدون للإنفاق في هذا السبيل لوجه الله.

وسيبقى الحرم المكي محدود المساحة أفقياً لكنه عملي وقادر على استيعاب الحجاج مهما تضاعفت أعدادهم. بدل التوسع الأفقي الذي لا يمكن أن يسد الحاجة مع هذه الفوضى وانعدام التنظيم الذي لن يكون مرضياً مهما بذلت من جهود.

- وبعد اكتمال هذا المشروع فلن يكون بإمكان الحجاج البقاء في الحرم أو حوله للنوم لأنه متوفر لهم مكان للنوم والأكل في مناطق السكن وبعيداً عن الحرم.

أما الوضع الحالي وكل ما سيدفع للتوسع فيه فلن يزيد الوضع إلا سوءً وستبقى الفوضى والأوساخ والأوبئة التي لا تليق ببيت الله الحرام، وتبقى مشاريع التوسعة لا تخدم الحجاج ولكن تتخم جيوب الفاسدين والمنتفعين.



طوى / الوادي المقدس

من الأماكن القريبة من المسجد الحرام والتي ذكرها القرآن.

يقول تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٦) النازعات.

وفي سورة طه يقول تعالى: وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى(١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢).

وطوى وادٍ كان يسيل من سفوح جبل أذاخر والحجون من الغرب، ويذهب حتى يصب في المسفلة[١]. منحدراً باتجاه الجنوب الغربي ويكون على يساره جبل كان يسمى الجبل الأحمر ثم جبل آخر كان اسمه جبل هندي.

وبما أنه ليس هناك سوى بيت واحد لله على الأرض وهو الموجود في مكة وما حوله بقعة حرام مقدسة، وبما أن وادي طوى المذكور أعلاه يوجد ضمن هذه البقعة المقدسة فإنه هو الوادي المقدس طوى، الذي اختفى تحت الزحف العمراني الذي مسح كل الآثار الإسلامية في مكة.

ولا يمكن أن يكون تكليم موسى تم خارج الأرض المقدسة وبعيداً عن بيت الله الوحيد على الأرض. ولا يمكن أن يكون فيما سماها اليهود سيناء منذ وصلوا كلاجئين لفلسطين قبل الميلاد ليرسخوا أن موسى وإبراهيم في تلك البلاد لكي تكون وطناً لهم بديلاً للوطن الأم الذي كان جنوب غرب جزيرة العرب وهُجِّروا منه ولا يريدون أن يتنسبوا له ولا يعرف العالم موقعه. وتقول كتب التراث أن الرسول عليه الصلاة والسلام بات بالقرب من بئر طوى عند فتح مكة واغتسل منها.

وقد أورد الفاكهي (ت ٢٧٢ هـ)[٢] في كتابه أخبار مكة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَرَ، قَالَ: ثنا

١ محمد إلياس عبد الغني / تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً.

٢ يقال إن الفاكهي توفي في العام ٢٧٢ للهجرة، وقيل في أعوام أخرى ما بين ٢٧٢ - ٢٧٩ هـ.



سُفْيَانُ ، عَنْ مِسْعَرٍ ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالَ: « كَانَتِ الأُمَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا جَاءُوا ذَا طُوًى خَلَعُوا نِعَالَهُمْ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ»..... ويستمر الفاكهي إلى أن يقول: وذو طوى هو بطن مكة الذي ذكره الله تعالى في القرآن في سورة الفتح، كما يقول صاحب معجم البلدان. وكان يطلق على منطقة واسعة، بل وقيل إن مكة وما حولها كانت تسمى طوى. وهو ما نقله أيضاً الأزرقي (ت ٢٥٠) في تاريخ مكة: حَدَّثَنِي جَدِّي، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتَقْدُمُ مَكَّةَ، فَإِذَا بَلَغَتْ ذَا طُوًى، خَلَعَتْ نِعَالَهَا تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ».

ومثل هذه الأخبار المنتشرة على شكل قصص وحكايات، تولدت من حقيقة أن بني إسرائيل زمن موسى وبعده كانوا بالفعل يقدسون وادي طوى كونه مكان التكليم.

وبكل أسف لم يعد للوادي وجود الآن بسبب هدم وتجريف كل المواقع التاريخية بحجج تافهة، ومنها أن تركها قد يحولها لمزارات شركية. وقد بدأ هدم البيوت والمواقع التاريخية في الدولة السعودية الأولى وتواصل في الدولة الثانية وبلغ أشده في الدولة الأخيرة والحالية، حيث شجع أصحاب النفوذ بطرق غير مباشرة على القضاء على كل ما له علاقة بالتاريخ ليسهل الاستيلاء على الأراضي حول الحرم وإقامة مشاريع عقارية عليها ومن ثم الحصول على تعويضات خرافية عند كل توسعة للحرم. وقد أدت هذه التصرفات الغير - مسئولة إلى تغيير طبوغرافيا المنطقة واختفى معها وادي طوى تحت الزحف العمراني، وجزء منه تحت اسفلت شارع سمي شارع طوى. ولم يتبق سوى بئر طوى، التي هجرت وأحيطت ببناء لكي يسهل نسيانها ومن ثم الاستيلاء عليها وتحويل أرضها إلى مشروع عقاري. وهي تقع أمام مستشفى الولادة في جرول وخلف عمارة مبنية حديثاً. وهي البئر التي تقول كتب التراث أن الرسول عليه الصلاة والسلام بات عندها واغتسل منها يوم فتح مكة.

وعلى المسلمين كافة إنقاذ البئر وإعادة الوادي لما كان عليه بإزالة كل المباني المقامة عليه وإعادته لما كان، وكذلك العمل على تنظيف البئر وتحويل البئر والوادي إلى مزار سياحي ديني وليس شركي. فهنا كلم الله موسى، وهنا كتبت التوراة، وهنا بات الرسول.



طور سيناء

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ(٢٠) المؤمنون.

الآيات تخاطب قريش للتفكير بما حولها من طبيعة خلقها الله لعلها تقتنع أن من خلق هذا الخلق قادر على بعث الإنسان بعد الموت. وكل ما ذكرته الآيات حول قريش وتعرفه، ومن ذلك طور سيناء.

والطور هو الجبل المنتصب، وهو جبال السراة المنتصبة كالجدار أمام مكة. والمؤكد أن سيناء ليست سيناء الحالية التي بين بلاد النيل وفلسطين، لأنها بعيدة عن مكة ولا علاقة لقريش بها، وليس لتلك البلاد ذكر في القرآن. والآيات تخاطب قريش وتحدثهم عن شيء في بيئتهم ويعرفونه. فطور سيناء هو جبال الطائف الحالية المطلة على مكة وكأنها جدار عملاق. وسيناء المصرية سماها اليهود في عصور قديمة بهذا الاسم، لتحل محل سيناء الأصلية (جبال الطائف المطلة على مكة)، ضمن مسخهم لتاريخهم وتاريخ العالم.

والشجرة التي تنبت الدهن وصبغ للآكلين ليست الزيتون كما يزعم المفسرون، لأن الزيتون لا ينبت في مناطق جنوب غرب الجزيرة العربية، كما أنه لا ينبت في جبال سيناء لأن تلك الجبال ليست مناطق زراعية وليس هناك من يزرع الزيتون فيها وفي صحراء سيناء حتى اليوم. وقد تكون الشجرة المذكورة في الآية هي شجرة السمسم، والتي تنبت في جنوب غرب جزيرة العرب ويستخرج منها الزيت ويؤدم منها، فهو دهن وغذاء في تلك المناطق منذ القدم وحتى الآن.



أصحاب الفيل

"ما ورد في هذا الفصل مقتبس بتصرف من كتاب أحسن القصص".

حادثة هلاك أصحاب الفيل، وقعت قبل ولادة رسول الله، ولما بعث عليه الصلاة والسلام كان معظم من عاصروا تلك الحادثة قد فارقوا الحياة. ولعل أشهرهم جد الرسول لأبيه، عبد المطلب، الذي اقترن اسمه بحادثة الفيل كونه القرشي الوحيد الذي التقى أبرهة، إن صدقت كتب التراث. وكان يمكن أن لا نسمع عن حادثة الفيل، وتموت بموت من عاصرها، مثلها مثل كل أحداث قريش قبل الإسلام - لأنهم قوم لا يوثقون أحداثهم كتابياً - لولا أن القرآن الكريم تحدث عنها في سورة سميت "الفيل": أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥).

وهذه السورة أبقت ذكر تلك الحادثة حياً، لكن أسلوب القرآن المختصر المفيد، لم يقنع المفسرين فأطلقوا لخيالاتهم العنان لتصوير ما تعنيه الطير الأبابيل، وماذا حل بأصحاب الفيل، بما يتناسب وما يظنونه من معتقدات وما يؤمنون به من خرافات وأساطير وما اختلقوه من قصص لإثارة من يستمع لهم في مجالس قصصهم.

وكان يمكن أن يعفوا الزمن على تلك التخيلات الأسطورية، ويأتي من يفهم السورة بشكل أكثر واقعية، لولا أن أقوال أولئك المفسرين الأوائل أضحت مقدسة للأجيال التي جاءت بعدهم، وحرم المساس بها، وأضحت وكأنها فعلاً تمثل ما أراد الله جل وعلى أن يقول في كتابه الكريم.

أبرهة وعزمه على تخريب الكعبة

تبدأ حادثة أصحاب الفيل عندما قرر أبرهة - الحاكم الأكسومي على اليمن في تلك الفترة - هدم الكعبة لسبب من الأسباب. وكتب الأخبار تقول إنه لهدم الكعبة لكي يجبر العرب على التحول للمسيحية، أو لأن أحد سكان مكة أحدث نجاسته في كنيسة بصنعاء بناها



أبرهة.

وهذه الأخبار مشكوك فيها ولا يمكن الركون إليها كغيرها من أخبار العرب قبل الإسلام، بل وأخبار صدر الإسلام، كون من كتبها أناس جاؤا بعدهم بمئات السنين ولم يتحدث بها شهود عيان وأغلبها مختلق.

وقد وصل أبرهة وجيشه وعسكر قرب مكة، بمعونة عدد من زعماء قبائل الجزيرة العربية – كما تقول كتب التراث – منهم ذو نفر أحد ملوك القبائل اليمنية، ونفيل ابن حبيب الخثعمي الذي رافق أبرهة في مسيرته، ومسعود ابن معقب الثقفي، الذي أرسل مع أبرهة أحد رجاله لكي يدله على الطريق إلى مكة، وكان اسم ذلك الدليل أبو رغال. وأبو رغال هو الذي اشتهر لأنه من ثقيف، وقام بدور الدليل لجيش أبرهة القادم لهدم الكعبة التي في مكة، برغم ما بين قريش وثقيف من أحلاف وروابط أسرية، فكان ما فعله أبو رغال منكراً لديهم. فلم تنسه قريش، ووصف بكل ألقاب العار والخزي، وأصبح قبره يرجمه كل من يمر بجواره، وبقي ذكره سيئاً على مر العصور مع أنه كان منفذاً لرغبات زعيمه وزعيم ثقيف مسعود ابن معقب الثقفي الذي أمره ليكون دليلاً لجيش أبرهة، وتنفيذ أمر الزعيم العربي واجب على الرعية، ومن تخاذل عن تنفيذه فقد خان الوطن واستحق أشد أنواع العقوبة. ويبدو أن قريش لم ترد خلق موقف عدائي مع ثقيف ولذلك فقد وجهت اللوم للمواطن المسكين أبو رغال المكلف بالتنفيذ ولو لم يكن لديه خيار بالرفض، بينما لم تشر لا من بعيد ولا من قريب لمسئولية الزعيم الثقفي وموقفه المداهن للغازي الأجنبي.

وقد اتفقت كتب الأخبار مع ما رسخ في التراث الشفهي من أن معسكر أبرهة الاستعدادي الأخير لدخول مكة كان في وادي المُغَمَّس الذي كان يمر بالقرب منه طريقان يصلان بين مكة والطائف. أحدهما إلى الشمال منه ويمر بالسيل الكبير حالياً، وهو طريق القوافل. والآخر إلى الجنوب من المُغَمَّس وهو طريق قصير بين مكة والطائف ولكنه وعر لا تطرقه الخيل والجمال. ويشرف على وادي المُغَمَّس جبل يسمى كَبْكَبٌ (حسبما يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان). ووادي المُغَمَّس هو المسمى اليوم وادي عرنة، والذي يحف أطراف سهل عرفات. ولازال هناك مزارع تحمل اسم المُغَمَّس. ولازالت هناك حمم بركانية تغطي أرض الأجزاء الشمالية للوادي، ويمكن رؤيتها من خلال قووقل إيرث Google Earth على الإحداثيات التالية وحولها: N 50 55 39 E 54 30 21



المفسرون وأصحاب الفيل

بما أن حادثة الفيل وقعت قرب مكة، وبالتحديد في بقعة ما من وادي المغمس خارج مكة، فقد كان من المفترض أن تنسب أخبار تلك الحادثة إلى عبدالمطلب الذي تقول الروايات أنه قابل أبرهة، وإلى رجال مكة الذين عاصروا الحادثة مثل حرب ابن أمية والحارث ابن علقمة والعاص ابن أمية وهشام ابن الحارث وغيرهم، أو على الأقل تنقل عن نسابة قريش من الجيل التالي، ولكن الملفت أن كتب الأخبار (السير والتاريخ والتفسير) التي تحدثت بإسهاب منقطع النظير عن تلك الحادثة نسبت رواياتها إلى أناس ولدوا بعد زمن الرسول، وبعد حادثة الفيل بعشرات ومئات السنين. وأولئك الرواة عاشوا طوال حياتهم في العراق وخراسان وما جاورهما، ولا يعرفون من مكة إلا بقدر ما يعرفه عنها الحاج من خارج جزيرة العرب الذي يعتزم الحج لأول مرة. ولم ينقلوا أقوالهم عن أشخاص كانوا شهود عيان أو حتى ممن أدركوا عام الفيل ووعوا ما حدث، وإن نسب أولئك رواياتهم إلى بعض صغار الصحابة، لدعم أقوالهم فقط.

وقد اتسمت تفسيرات أولئك وأمثالهم من سلف المفسرين، لسورة الفيل بأشكال أسطورية بعيدة عن الواقع، لأنهم اعتمدوا فيها على تخيلاتهم التي تأثرت بها كان عليه مجتمعهم من تدن في الوعي والثقافة العامة والعلوم وما اعتادوا من تصديق الخرافات والأساطير.

وكانوا ينسبون قصصهم أحياناً إلى بعض من سموا صغار الصحابة خاصة ابن عباس، وأحياناً لأم المؤمنين عائشة، أو للرسول صلوات الله وسلامه عليه، وعادة ما يتوقفون دون أن يذكروا من أين استقى ابن عباس أو أم المؤمنين رواياتهم، وغالباً ما يدلون بقصصهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء ذكر مصادرهم التي استقوا معلوماتهم منها.

ونقل القرطبي في تفسير قوله تعالى: فجعلهم كعصف مأكول: أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. رُوِي معناه عن ابن زيد وغيره.

والعَصْف: جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة. وأدخل الكاف في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: ١١). ومعنى «مأكولٍ» مأكول حبه. كما يقال: فلان حسن؛ أي حسن وجهه. وقال ابن عباس؛ «فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ»



أن المراد به قشر البر؛ يعني الغِلاف الذي تكون فيه حبة القمح. ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة. وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِندة.

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. فالله أعلم. وقال ابن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشاً وقالوا: أَهلُ اللهِ، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

وكتب التفاسير الأولى واللاحقة تنقل روايات متشابهة في الغرابة، ومن ذلك ما جاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للخضيري، حيث يقول:

وأخرج أبو نعيم عن حكيم بن حزام قال: كانت (أي الحجارة) في المقدار من الحمصة والعدسة حصى به نضح أحمر مختمة كالجزع فلولا أنه عذب به قوم أخذت منه ما اتخذه لي مسجدا وهي بمكة كثير.

وأخرج أبو نعيم عن أم كرز الخزاعية قالت: رأيت الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل حمرا مختمة كأنها جزع ظفار فمن غير ذلك فلم ير منها شيئا، ولم يصبهم كلهم، وقد أفلت منهم. وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن معاوية الديلمي قال: رأيت الحصى التي رمي بها أصحاب الفيل مثل الحمص وأكبر من العدس حمر مختمة كأنها جزع ظفار. انتهى

وعن الجزع، يقول صاحب لسان العرب: والـجَزْعُ والـجِزْعُ: الأَخيرة عن كراع: ضرب من الـخَرَز، وقـيل: هو الـخرز الـيمانـي، وهو الذي فـيه بـياض وسواد تشبَّه به الأَعين؛ قال امرؤ القـيس:

كأَنَّ عُيُونَ الوحْشِ حَوْلَ خِبائنا   وأَرْحُلِنا الـجَزْعُ الذي لـم يُثَقَّبِ

وكانت نساء العرب تصنع منه عقود تتحلى بها.

وحسبما رواه المفسرون فإن حجارة أصحاب الفيل قد كتب على كل واحدة منها اسم من ستصيبه من جيش أبرهة. ولا تتوقف غرائب الخضيري في نفس تفسيره الدر المنثور، حيث يقول: وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي صالح أنه رأى عند أم هانئ بنت أبي طالب



من تلك الحجارة نحوا من قفيز مخططة بحمرة كأنها جزع ظفار مكتوب في الحجر اسمه واسم أبيه.... انتهى

والذي لم يقله لنا الخضيري هو بأي لغة كتبت الأسماء؟

بالعربية أو بالسبأية أم بالأكسومية؟

ولماذا تكتب الأسماء ولمن؟

هل كتبت للطيور التي ألقتها لكيلا تخطئ وتصيب رجل بحصاة غيره؟

وهل كانت الطيور تقرأ وتكتب؟

"إنها لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ".

وجميع المفسرين تقريباً على مر العصور نقلوا تلك التفاسير بغرائبها وتخاريفها، ولم يشذ إلا القليل عن تلك القاعدة. حتى أن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، قد قالا كلاماً حول حادثة الفيل لا يمكن أن يتلاءم مع ما نعتا به من عقلانية. وهذا ما قرأته في كتيب صفحاته (٦٣) صفحة من تأليف محمد متولي الشعراوي بعنوان: تفسير سورة الفيل وقريش. يقول الشعراوي في الصفحة (٢٣) إن محمد عبده قال: « أن الطير الأبابيل جاءت بميكروبات الجدري».

وإن ثبت هذا الكلام عن محمد عبده فيكون قد وافق أقوال المفسرين الأوائل بأن هناك طيوراً أرسلت من السماء وأنها تحمل عذاباً لجيش أبرهة، وإن اختلف معهم بأن ما تحمله لم يكن حجارة بحجم الحمص أو مخططة أو كجزع ظفار، ولكنها كانت تحمل مواد جرثومية تتمثل بميكروبات الجدري، ويكون قد استعار ثقافة مفسري الجيل الأول في عالم القرنين التاسع عشر والعشرين.

بينما يوافق الشعراوي ما قال به المفسرون الأوائل بأن هناك طيوراً، وأنها حملت حجارة في مناقيرها وأرجلها، واعتبر ذلك من المعجزات الحسية التي حصلت بأمر الله، ومن لا يقتنع بذلك « يقول الشعراوي» فلا يعنينا أن تقتنعوا بهذه أو لا تقتنعوا (ص ٣١).

وتكون تفاسير الرعيل الأول من المفسرين قد بقيت هي السائدة حتى الآن، ليس لأنها هي القول الحق، ولكن لأن المسلمين لا يقرأون قرآنهم، وإن رددته حناجرهم فلا يصل إلى عقولهم.



قصة أصحاب الفيل كما فهمتها من القرآن

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ.(سورة الفيل)

ومفاتيح فهم ما حدث للقوم يكمن في قوله تعالى «طيراً أبابيل» وقوله تعالى «حجارة من سجيل» وقوله تعالى «عصف مأكول».

وكلمة (طير) الواردة في الآية إما أنها تعني الطيور كما نعرفها ذات الجناحين من الريش. وهذه المخلوقات تطير باختيارها ولديها القدرة على الطيران والهبوط متى شاءت.

أو أنها تأتي من الطيران، أي التحليق فترة في الهواء قبل أن تقع على الأرض. وهذا الطيران ليس اختيارياً ولا يكون عن مقدرة، ولكنها أرغمت عليه بقذفها في الهواء سابحة لفترة قبل أن تسقط على الأرض.

وفي هذا المعنى يمكن لإنسان أن يطير إذا قذف بواسطة آلة أو قوة دافعة أو سقط من علو. ومثل الإنسان كل حيوان أو جماد ليس لديه القدرة على الطيران بذاته والهبوط بشكل اختياري.

ويدخل في هذا الحمم البركانية إذا قذف بها البركان عند ثورانه.

وهذا المعنى لـ « طير» هو المقصود في سورة الفيل، وليس الطير بمعنى الطيور القادرة على الطيران والهبوط.

واختيار «طيراً أبابيل»، للتعبير عن تطاير الحمم البركانية. لأن الحمم تقذف في الهواء وتطير متتابعة حتى تسقط على الأرض.

ولا عبرة لما قال المفسرون حول معنى «تضليل» ومنه ما كتب الطبري في تفسيره، ونصه: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصحَابِ الْفِيلِ الذين قَدِموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحَبَشة ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ يقول: ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل في تخريب الكعبة فِي تَضْلِيلٍ يعني: في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها. انتهى

فالله لم يضلل أبرهة وجيشه عن مكة، بل أبطل خططهم وجعل كيدهم في خسران بهلاكهم. فالتضليل هنا هو الخسران والفشل، وليس له علاقة بالضياع.



و« أبابيل » جمع لا مفرد له، وتعني مجتمعة، أو جماعات جماعات، أو كتل كتل، ووصف القرآن الكريم للحمم البركانية بالطير الأبابيل، لأن الحمم البركانية جمع لا مفرد له، فلا يمكن أن يثور البركان بقذف حمة بركانية واحدة، وثوران البركان يكون بقذف حمم متتالية ومتتابعة «أبابيل». وبما أنها تتطاير في الفضاء تابعة بعضها بعضاً فهي «طير أبابيل».

وسجيل، اعتبرها المفسرون كلمة أعجمية. فقال بعضهم هي فارسية تتكون من كلمتين: سنك: حجارة، و كل: وتعني طين. وقال آخرون بل هي سنك وجل. فيما قال سعيد ابن جبير: أنها عبارة عن كلمة فارسية هي سج، والتي تعني حجارة. وكلمة نبطية هي إيل، والتي تعني طين. ولا يهمنا إن كانت عربية أو أعجمية، بقدر ما يهمنا ما تعني.

ولأنه لا عبرة لما قال المفسرون، فعلينا أن نعود للقرآن لنتبين معنى سجيل. يقول تعالى: قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. (الذاريات:٣٢-٣٣) هذا الطين الذي أهلك قوم لوط، وصف في آيات أخرى بأنه حجارة من سجيل، ومن ذلك: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. (هود:٨٢) فسجيل تعني حجارة من طين، أو حجارة سالت بسبب الحرارة كما يسيل الطين، أي أنها الحمم البركانية.

ومنضود معناها - كما في لسان العرب - إذا صار الشيء بعضه فوق بعض. وأَنضادُ الـجِبالِ: جَنادِلُ بعضُها فوق بعض. وكذلك أَنضادُ السحاب: ما تراكبَ منه. فالسجيل هو الطين أو التراب أو الحجارة المطبوخة، أو بلغة العصر الحالي: الحمم البركانية التي تطاير بعضها خلف بعض في الفضاء على شكل كتل (طيراً أبابيل) قبل أن تهبط على الأرض. والدليل على أنها سقطت من علو كالمطر، قوله تعالى ضمن الحديث عن قوم لوط: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (الحجر:٧٤).

والحمم البركانية (السجيل) تندفع من باطن الأرض بدرجات حرارة تتراوح ما بين (٧٠٠-١٢٠٠) درجة مئوية[١]. ولو وقعت على جسم الإنسان لحولته، خلال لحظات، إلى ما يشبه العصف المأكول. أي إلى ما يشبه تجاعيد القشرة الخارجية للتفاحة المتعفة، أو تجاعيد قشرة أي ثمرة أخرى أو حبة قمح قد أفرغت من ثمرتها وبقيت قشرتها المتجعدة، وذلك

١ كما ورد في الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica.



نتيجة لتبخر السوائل من جسم الإنسان في لحظات، وكأنه فُرّغ من الداخل.

وليس في القرآن ذكر لسجيل إلا في الحديث عن عذاب قوم لوط وعذاب أصحاب الفيل فقط. وقوم لوط عذبهم الله بالزلازل والبراكين، وكل ما أصاب الأمم السابقة كان كوارثاً طبيعية.

ومن المؤكد أن ما حل بقوم لوط كان بركاناً مصحوباً بزلازل، يقول تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (الحجر:٧٣).

والصيحة ذاتها هي التي أهلكت قوم صالح: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (القمر:٣١).

والصيحة التي أخذت قوم صالح هي الرجفة أيضاً أو بلغة العصر الزلزال: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. (الأعراف:٧٨).

ويكون ما حدث لأبرهة وجيشه هو أنهم تعرضوا لثوران بركان طمرهم بحممه، ومن الشواهد الواقعية التي تؤكد ذلك، ما يلي:

أن من هلك من جيش أبرهة لم يجده أهل مكة، ولما لم يجد المفسرون والمؤرخون تبريراً مقنعاً لاختفاء أجسادهم، قالوا بأن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر، كما نقل ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن النقاش في تفسيره[1].

وبالطبع هذا لم يحدث والذي قد يكون حدث هو أن من طمرته الحمم البركانية قد اختفى تحتها إن بقي منه شيء. ومن أصيب ببعض الحمم ولكنها لم تطمره تفسخ جلده، وقد يكون هلك في وقت لاحق أو برئ.

وقد يكون المؤرخون والمفسرون الأوائل نقلوا وصفاً قريب من الواقع برغم تصويرهم الخرافي عندما قالوا: قال ابن إسحاق: فخرجوا (أصحاب الفيل) يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مَهْلك على كلّ مَنْهَل. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تمث قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدرُه عن قلبه فيما يزعمون[2]. انتهى.

---

١ البداية والنهاية/ فصل ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة/ ج١ ص ١٧٠.

٢ الطبري/ تفسير سورة الفيل.



ومن يتعرض لحمم بركانية تصل حرارتها لمئات الدرجات المئوية فسيتفسخ جسمه ويسقط لحمه متبوعاً بالقيح والدم، كما حدث لأبرهة.

وبطبيعة الحال فمنظر التفسخ الذي يصيب من يتعرض للحمم البركانية يتشابه نوعاً ما مع منظر جسد المريض بالجدري الذي تلتهب قروحه وكأن لحمه يتفسخ، ولذلك اعتقد بعض المؤرخين إن ما حدث لأصحاب الفيل قد أوجد الجدري. يقول ابن كثير في البداية والنهاية: قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدّث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أوّل ما رُئيت بها مرائر الشجر الحرمل، والحنظل والعشر ذلك العام.

ومع أن هذا الكلام عار من الصحة إلا أنه وبكل أسف قال به مفكرون بحجم محمد عبده الذي نقل عنه محمد متولي شعراوي كما أسلفنا أنه يعتقد أن عذاب قوم أبرهة كان بالجدري الذي بثت ميكروباته تلك الطيور الغريبة ذات المخالب التي نزلت من السماء.

ومرة أخرى لو كان في بلاد الحرمين تقدم واهتمام علمي كما في الغرب، لأمكن تحديد المكان الذي وقعت فيه حادثة الفيل وأمكن التنقيب والكشف عنها، وسنجد بكل تأكيد جثثاً متحجرة وقد لا نجد الفيل محمود لأنه قد يكون نجا بنفسه.

يقول القرطبي في تفسيره لسورة الفيل: فَبَرَكَ الفيلِ ...... وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وضربوا في رأسه بالطَّبَرْزِين ليقوم، فأبى، فأدخلوا محَاجن لهم في مراقّه، فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجَّهوه راجعا إلى اليمن، فقام يُهَرْوِل، ووجَّهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك. إنتهى

وهذه الرواية تصور الحقيقة لأن الفيل عندما أبى أن يسير باتجاه مكة كان يتبع حاسة خاصة، لأن الحيوانات قد زودها الله بأجهزة استشعار عالية الحساسية في أجسادها تمكنها من التنبؤ بوقوع الزلازل والبراكين والكوارث الطبيعية الأخرى قبل وقوعها. وهذه حقيقة علمية يعرفها الجميع. ولذلك كان فيل أبرهة يسرع مهرولاً بأي اتجاه آخر عدا وجهة مكة التي يبدو أن البركان قد ثار في منطقة بين الموقع الذي عسكر فيه جيش أبرهة وبين مكة. وقد ثار البركان بعد ذلك فطمر البعض بالحمم وهرب البعض وقد أصيب وقد يكون هناك من لم تلحقه أي إصابة.



وبرغم أن غالبية الأخبار التي تحملها كتب السير والتفسير حول حادثة الفيل عبارة عن تصورات خرافية إلا أن بعضها قد يكون له أصل، ومن ذلك قصة امتناع الفيل عن التوجه لمكة، التي سبق وأشرنا إليها، إضافة إلى هذين الخبرين التاليين:

ذكر ابن كثير في تفسيره، أن محمد بن إسحاق قال: حدثنا عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وروى الواقدي عن عائشة مثله، ورواه أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: كانا مقعدين يستطعمان الناس عند أساف ونائلة حيث يذبح المشركون ذبائحهم.

(ونحن هنا نستشهد ببعض أقوال الإخباريين على مسألة تاريخية لا علاقة لها بالدين، والتاريخ فيه غث وغث وغث وقليل من السمين)

وورد في الدر المنثور ما قد يكون خبراً لشاهد عيان وهو يصف ما حدث لأبرهة وجيشه. على أنه يجب أن يؤخذ الخبر وقد وضع في الحسبان حقيقتان، هما:

١. أن الخبر إن صدق فهو عبارة عن وصف لشاهد يصف شيئاً يراه لأول مرة في حياته، ولم يسمع عنه من قبل. ووصف من يشاهد شيئاً لأول مرة يكون مشوشاً، لأنه يصف انطباعه الشخصي عما يراه للمرة الأولى وليس حقيقة ما يراه فعلاً. فهذا ابن بطوطة في رحلته يصف النارجيل الذي رآه أول مرة في ظفار، فيقول: ذكر النارجيل: وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً، وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه تثمر تمراً وتلك تثمر جوزاً. وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ، إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر[1]. انتهى كلام ابن بطوطة الذي يصور انطباعه الشخصي الأول عن تلك الثمار، وليس وصفاً حقيقياً لها.

٢. الحقيقة الثانية حول الخبر الذي سنسرده، تتمثل في أنه إن كان خبراً صحيحاً في الأصل، فقد تم تناقله بعد أن انتشرت الأقاويل التي وجدت فيها بعد طريقها لكتب المفسرين حول ما حدث لأصحاب الفيل، مما أثر على مضمون الرواية، إما من قبل الشاهد الذي رواها بما يتلاءم مع الرأي السائد أو أن الرواية تعرضت للتحوير في وقت لاحق من

١ ص ٢٦٣-٢٦٤ رحلة ابن بطوطة/ دار صادر - بيروت.



قبل الرواة.

وهذا هو نص الخبر: وأخرج أبو نعيم عن عثمان بن عفان أنه سأل رجلا من هذيل قال: أخبرني عن يوم الفيل، فقال: بعثت يوم الفيل طليعة على فرس لي أنثى فرأيت طيرا خرجت من الحرم في كل منقار طير منها حجر، وفي رجل كل طير منها حجر، وهاجت ريح وظلمة حتى قعدت بي فرسي مرتين فمسحتهم مسحة، كلفته كرداك وانجلت الظلمة، وسكنت الريح. قال: فنظرت إلى القوم خامدين[1].

وصياغة الخبر ليست مترابطة، ويبدو أنه قد طرأ عليها بعض التعديل والتغيير والحذف والإضافة، ولذلك جاءت بعض عباراتها وكأنها مبتورة أو خافية المعنى، ومع ذلك بقي من أصل الخبر ما يفيد بأن ذلك الرجل كان على فرس له وأنه كان في موقع مكنه من رؤية ما حدث في سماء المنطقة المنكوبة، ولو لم يتمكن من رؤية ما حل بالقوم مباشرة، وقد يكون ذلك ناتج لأن البقعة التي كانوا فيها متوارية عنه خلف الجبال التي تتكون منها تضاريس المنطقة.

ومن المحتمل أنه قد رأى طيوراً تطير فارةً بعيداً عن مكان البركان، ولما جاء الإسلام ونزلت سورة الفيل وفيها الآية التي تقول: وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ظن الراوي الذي سمع من الشاهد أو الشاهد نفسه أن الطيور التي رآها تطير قرب موقع الحدث هي الطير الأبابيل التي أرسلت بالعذاب، ومن ثم أضيفت لها قصة حملها للحصى وبقية الصورة الخيالية بعد ذلك من رواة لاحقين.

ويكون الشاهد قد رأى بالفعل ظلمة (أي سحب سوداء ودخان) من النوع الذي يتكون عادة بفعل ثوران البركان، فوق المنطقة المنكوبة.

ومما قد يكون وقع بالفعل، حديث الشاهد عن الفرس وأنها قعدت به ولم ترد التقدم باتجاه الموقع، لأن الفرس قد استشعرت خطر البركان مثلها مثل أي حيوان آخر، بواسطة ملكاتها الخاصة.

ويبدو أن الشاهد قد بقي في مكانه يرقب الحدث حتى هدأ البركان وزالت السحب والأعاصير المرافقة له، ولاحظ أنه خلف هدوءً مميتاً في الموقع الذي كان يعج بجلبة عسكر

---

[1] تفسير سورة الفيل/ الدر المنثور/ الجلال السيوطي/ دار الفكر - بيروت.



أبرهة. " قال: فنظرت إلى القوم خامدين." ثم فضل الابتعاد ولم يجرؤ على الاقتراب من الموقع.

ومنطقة مكة تقع ضمن امتداد جبال السروات التي تكونت بفعل صدع البحر الأحمر الممتد من شرق أفريقيا جنوباً إلى تركيا شمالاً عبر البحر الميت، ولا زال الصدع يتسع بمعدل طفيف سنوياً وبالتالي فإمكانية حدوث براكين وزلازل على طول جانبي هذا الصدع واردة وحدثت وستحدث. وكان آخر ثوران لبركان في جزيرة العرب تم تسجيله في العام ٦٥٤ للهجرة قرب المدينة، وقد ذكره ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ضمن حوادث تلك السنة نقلا عما كتبه شهاب الدين أبو شامة المقدسي وغيره. والحرات المنتشرة

وكل العقوبات التي أهلكت بها الأمم السابقة التي ذكرت في القرآن كانت بسبب كوارث طبيعية تحدث عادة على الأرض من زلازل وبراكين وأعاصير ورياح وفيضانات وطوفان وغيرها، وهي التي أهلكت بها كل الأمم السابقة. ففرعون أهلك بالغرق بلا جدال، وكذلك قوم نوح. وقوم عاد أهلكوا بالريح بلا جدال، وقوم هود أهلكوا بالرجفة أو الصيحة وهي الزلازل كما أوضحنا، ومثلهم قوم لوط وقوم شعيب، وقد أجمل القرآن ذلك في الآية (٤٠) من سورة العنكبوت: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. وأبرهة وجيشه أهلكوا بثوران بركاني أيضاً، وليس هناك من أهلك بعقوبة غير أرضية كما صور ذلك رجال التفسير.

أين يمكن أن يكون قد حدث البركان؟

وادي المُغَمَّس الذي يقول رجال الأخبار أن أبرهة وقومه قد عسكروا فيه استعدادا لدخول مكة وهدم الكعبة وأنهم قد أهلكوا فيه، لم يبق منه اليوم إلا مزارع لازالت تحمل اسم المُغَمَّس. والوادي اليوم يسمى وادي عرنة، والذي ينحدر باتجاه الجنوب، مخترقاً حافة فوهة بركانية قديمة هائلة الاتساع. تقع إلى الجنوب الشرقي من حي الشرائع الحالي، ويطل عليها من جهة الغرب الجبل المسمى حالياً بجبل أسلع الذي يرتفع عن سطح البحر بحوالي (٥٣٠ متر) ويجري في الطرف الغربي من الفوهة وبمحاذاة جبل أسلع من الشرق وادي عرنة، ويحاذيه مهبط للطائرات معبد ومبنى لمطار صغير.



ويحد الفوهة من الشرق جبل يسمى كبكب ويرتفع حوالي (١٦٠٠ متر) ومن الجنوب يحدها جبل يسمى حالياً جبل سعد وارتفاعه يصل إلى (٨٠٠ متر)، ويرتفع سطح الفوهة ما بين (٣٥٠ – ٤٠٠ متر). ويخترقها وادي المُغَمَّس القديم، وتبعد عن الحرم بحوالي (٢٥ كم) بخط مستقيم، ولكن يفصلها عنها سلاسل متوازية من الجبال يجعل من العسير تبين الحرم من ذلك الموقع.

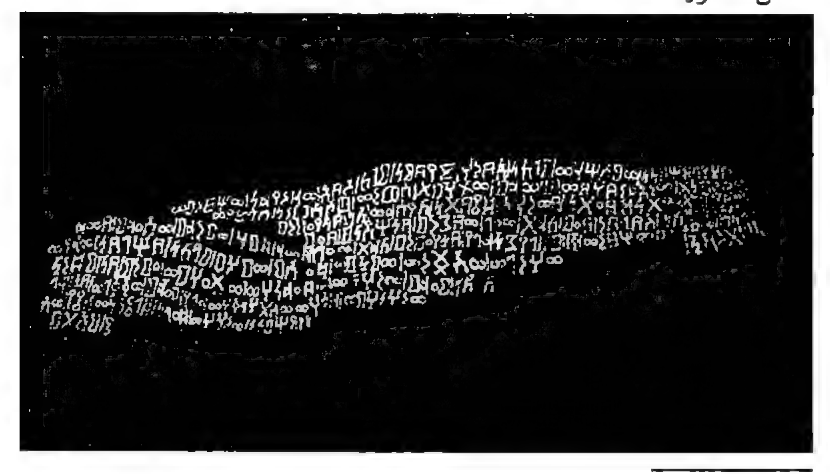
وهذه الفوهة يصل نصف قطرها إلى أكثر من أربعة كيلومترات، ولابد أنها من الفوهات الموغلة في القدم لبراكين صاحبت أو تلت انفلاق البحر الأحمر قبل عشرات الملايين من السنين. ولا يمكن أن يكون البركان الذي أهلك أصحاب الفيل قد انفجر في كل الفوهة، ولكنه ثوران محدود في بقعة ما من الفوهة القديمة، أو في المنطقة التي تقع إلى الشمال منها فيما بين الشرائع والجعرانة الحاليتين، وهي منطقة تغطي أراضيها لافا قديمة كدلالة على أنها منطقة براكين. وقد يكون جيش أبرهة هلك بثوران بركان في بقعة ما من هذه المنطقة التي تم تحديدها بخطوط سوداء مقطعة في الخارطة أدناه:



ولو تمكنا يوماً من الاهتمام العلمي فقد يكون هناك دراسة أثرية للموقع والقيام بالحفريات المطلوبة، ولو تم هذا فمن المحتمل أننا سنجد بعضاً من أفراد جيش أبرهة مطمورين تحت الحمم البركانية المتحجرة.

من هو أبرهة

هو من ملوك اليمن الأكسوم[1]، ولا نعرف متى قدم لمهاجمة مكة تحديداً، ولكننا نعرف أنه كان ملكاً على سبأ وذو ريدان وحضرموت، في العام (٥٥٢) من السنة السبأية، التي توافق (٥٤٧) من السنة المسيحية، حسب تقديرات بعض علماء الآثار الغربيين. وذلك أن عالم آثار بلجيكي فرنسي اسمه ريكمنس (G. Ryckmans) عثر على نقش سبأي في مأرب، اليمن، أوائل الخمسينات من القرن العشرين، يروي أن أبرهة قد خرج في حملة لتأديب بعض القبائل التي خرجت عن طاعته، واشتبك معهم في معركتين واحدة في تربه القريبة من الطائف، والأخرى بالقرب من حلبان. وتربه من الحواضر القديمة التي قامت على ضفاف الأودية المنحدرة من جبال السروات باتجاه الشرق. أما حلبان فهي ماء لبني معاوية ابن قشير في الجاهلية كما تقول كتب التراث. وهي وتربه لازالا يحملان نفس الاسم، وهما الآن بلدتان عامرتان. وحملة أبرهة تلك سبقت حملته على مكة بسنوات. وهذه صورة النقش المذكور:



[1] نسبة لمملكة أكسوم، الاسم القديم لما يعرف اليوم بأثيوبيا، والتي حكمت اليمن فترات طويلة قبل الإسلام.



وفيما يلي نص النقش وترجمته للعربية سطراً سطراً[1].

١. بخيل (بقوة) الرحمن ومسيحة الملك أبرهة زيبمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت
٢. ويمنت ورا عرب حامر، جبال وتهامه، سطر هذا النقش عندما غزوا
٣. معد غزوة في الربيع بتاريخ ذا ثبتن لثورة بني عمرو
٤. وعَيّنَ الملك أبا جابر مع كدت (كتبت كنده وقد لا تكون كذلك) وعل وبشر ابن حصن مع
٥. سعد ومراد والخضر وعلياً ابن يعمر كدت (كتبت كنده) وايل بوادي ذا مرخ ومراد وسعد بوادي
٦. بمنهج (بطريق) تربن وذبحوا وأسروا وغنموا بوفرة وحارب الملك بحلبان ودنوا
٧. كزال معد ورهنوا (أسروا) وبعدين هاو وسعاهمو (تصالحوا مع) عمرو بن مزرن
٨. ورهنوا ابنه واستخلفه على معد ورجعوا
٩. بان (تم) بقوة (بخيل) الرحمن. ورخه ذو علان للسنة الثانية والستين وس
١٠. ث / مأتم (ت مائة.

وكما أن حملة أبرهة على مكة لم تكن الأولى له على بلاد نجد والحجاز، فإنه لم يكن أول من هاجم تلك المناطق، فقد تم اكتشاف حجر في وادي مأسل الجمح، القريبة من حلبان، وعليه كتابة سبأية، تتحدث عن ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن «معد كرب يعفر»، الذي جاء إلى مأسل لنصرة الأعراب الذين ثاروا على المنذر. والنص يرجع تاريخه إلى سنة ٦٣١ سبأية التي يقجرها الغربيةن على أنها توافق عام ٥١٦ مسيحية. أي قبل حملة أبرهة على حلبان وتربه بواحد وثلاثين عاماً.

ولابد أن أبرهة قد سلك طريق التجارة القديمة للبخور واللبان والبهارات - التي تمتد من قرب سواحل البحر العربي إلى بلاد الشام - ماراً بما يعرف اليوم بالسيل الكبير، ومنحدراً باتجاه وادي عرنة، حيث قرر المبيت هناك. ليدخل مكة صباح اليوم التالي. لكن هذا لم يحدث أبداً، ولم يعد لأبرهة وجود. ولأن ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن قد هلك، فلم توثق حملته على مكة، كما وثقت حملتيه السابقتين على تربه وحلبان.

---

١ قمت بترجمة النص وقد لا تكون الترجمة دقيقة لكنها تعطي المعنى العام من أن أبرهة خرج بحملة عسكرية إلى نواحي تربة وحلبان. وترجمة ريكمنس مكتشف النقش سيئة وفيها إضافات وتعديلات كثيرة على النص الأصلي.



غار حراء

مكة زمن رسول الله، تقل مساحتها الإجمالية كثيراً عن مساحة المسجد الحرام في الوقت الحالي (١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥). وغار حراء يبعد عن وسط الحرم – باتجاه الشمال الشرقي – بحوالي خمسة كيلو مترات بخط مستقيم، وتزيد المسافة لمن يقطعها على قدميه عبر الطرق البرية القديمة للمشاة.

وترتفع قمة الجبل الذي يقع فيه الغار حوالي (٦٠٠) متراً عن مستوى سطح البحر، وعن مستوى ارتفاع الأرض حول الجبل بحوالي (٢٥٠) متراً[1]. ويمكن تسلق الجبل عبر جادة مشاة خطرة جداً، كونها تشرف على هاوية سحيقة لسفح الجبل بدون موانع. وعادة ما يلقى العديد من الزوار سنوياً حتفهم جراء سقوطهم إلى المنحدر. وتبدأ رحلة التسلق من أطراف مساكن الحي الحالي الواقع تحت سفح الجبل الجنوبي والجنوبي الشرقي والذي يسميه البعض حي النور[2]. حيث يسير الزوار باتجاه طرف الحي الشمال الشرقي، حتى نهاية المباني. وهناك يبدأون الصعود باتجاه الشمال، عبر الجادة المتعرجة متسلقين حوالي (١٠٠) متر في مسافة لا تزيد عن (٢٨٠) متراً. أي بمعدل صعود متر تقريباً لكل (٢,٨) متر سيراً. وعندما يصلون لعلو (٥٣٠) متر فوق سطح البحر، تنعطف الجادة باتجاه الشرق لمسافة (١٧٠) متر تقريباً، صاعدين قرابة (٢٥) متر إضافية. بعد ذلك تبدأ الجادة بالانحدار باتجاه الجنوب الغربي، للوصول إلى الغار بعد (١٠٠) متر تقريباً، والذي يرتفع عن سطح البحر بحوالي (٥٤٠) متراً، منخفضاً عن قمة الجبل بحوالي (٦٠) متراً.

وغار حراء عبارة عن فجوة في الجبل، مفتوحة نحو الشمال الشرقي، بارتفاع لا يزيد عن (١٧٠) سم. وعمق الغار لا يزيد عن (٢,٤) متر، وعرضه حوالي متر إلى متر ونصف. وفي آخر الغار، ممر خلفي ضيق لا يزيد اتساعه عن (٧٠) سم، يفضي إلى بقعة مكشوفة باتساع ثلاثة أمتار وعرض مرتين، وبانحدار بزاوية (١٥) درجة تقريباً، مما يجعلها عبارة عن شرفة

---

١ الارتفاعات تم تقديرها من خلال برنامج (Google Earth).

٢ نسبة لجبل حراء الذي صار يسمى حالياً بجبل النور.



خلفية للغار. والجالس في هذه الشرفة يكون مواجهاً للكعبة، التي تقع بالنسبة له با
الجنوب الغربي[1].

وهذه صورة للجبل الذي يقع فيه الغار، وقد يطالها التجريف يوماً، كما طال كل م
القديمة والمدينة.



كتب التراث وحراء

تقول كتب الحديث والسير والتفسير أن الرسول كان يتحنث قبل بعثته في حراء، والتح
يقصد به التعبد. وابن اسحاق يقول بأنه كان يتحنث في الغار شهر من كل سنة، ويقول
رواية أخرى أنه يتحنث ومعه أهله. واستمر حتى جاءه جبريل بالوحي في ليلة من الليـ
فمحمد – من وجهة نظر الإخباريين وكتبهم التراثية – كان يتعبد ويتأمل قبل أن ينزل ع
الوحي ويصبح رسولاً لله بزمن. وتكرار هذه الأخبار في كتب التفسير والحديث وال

١ المسافات الواردة في هذه الفقرة تقديرات من مشاهداتي الشخصية، قد لا تكون دقيقة.



لا يقويها، أو يؤكد صحة وقوعها، ولكنه مؤشر على أن تلك الكتب وثقت ما كان منتشراً بين الناس من قصص حول بقاء الرسول في غار حراء، وما كانوا يتصورونه عن الوحي، وشخص الرسول، نتيجة لما ترسخ من قصص زيدت وعدلت واختلقت عن عصر الرسول الذي يفصلهم عنه مئات السنين. فكتب السير والحديث والتفسير وغيرها من كتب التراث ظهرت في القرن الثالث والرابع للهجرة، وكتبت ما انتشر بين الناس وليس ما وقع بالفعل. وهو يصور ما كانوا يعتقدون حين ظهور تلك الكتب، ومن ذلك:

- أنهم يظنون أن القرآن ينزل آية آية وليس سورة كاملة، وأن أول ما نزل من الوحي هي الآيات الأولى من سورة العلق، فعدلوا حادثة الغار لتلائم ما ذهبوا إليه.
- وأن جبريل يلقن الرسول الآيات تلقيناً.
- وأنهم كانوا يتخيلون الرسول شخصية فوق بشرية. وكان يعرف الله قبل البعثة، وغير ذلك.

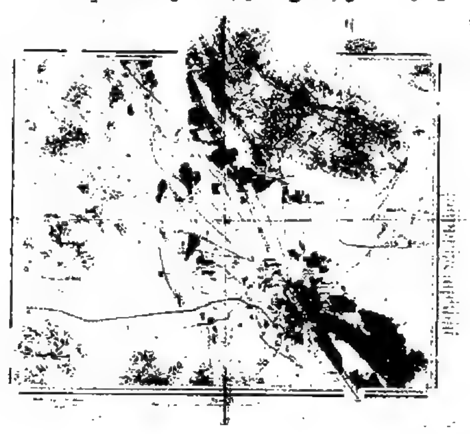
وهذه المعتقدات انتشرت في عصور لاحقة، فتوسعت القصص مع الأجيال وتضخمت. وما يؤكد ذلك أن موطأ مالك ابن أنس لا يذكر شيئاً عن لقاء جبريل بمحمد في حراء، وتلقينه آيات العلق، أو تحنث محمد في الغار قبل البعثة. والموطأ يعتبر أول كتاب حديث رسمي، سبق كتاب البخاري بعقود. حيث كانت وفاة مالك في العام (١٧٩)، بينما مات البخاري في العام (٢٥٦) للهجرة.

والرسول صلوات الله وسلامه عليه لجأ لغار حراء ليمارس برنامج التأهيل النفسي الذي ألزمته سورة المزمل القيام به ليكون جاهزاً نفسياً لتحمل المتاعب والضغوط النفسية قبل بدء الدعوة.



يثرب[1]

في عصر الرسول عبارة عن أرض تميل إلى الاستواء النسبي، وسط حمم بركانية شديدة الوعورة، وجبال يزيد ارتفاعها عن (١٠٠٠) متر عن سطح البحر. ففي الشرق هناك حرة واقم، التي تتصل بحرة شوران التي تحد يثرب من الجنوب مع جبل عير. وتمتد حرة وبرة بطول الجانب الغربي ليثرب. وإلى الشمال من هذه الحرة ممر يجري فيه عدة أودية، يفصل الحرة عن جبل أحد، الذي يحد يثرب من جهة الشمال. والمنطقة الجنوبية الشرقية من أرض يثرب عبارة عن مزارع للنخيل يمتلكها بنو إسرائيل، ويتخللها أودية صغيرة - مثل مهزوز ومذينب - تصب في وادي بطحان الذي يخترق غرب يثرب، متجهاً من الجنوب للشمال نحو الغابة[2]. وفي الأرض المفتوحة في يثرب شمال المزارع وغربها تتناثر منازل الأوس والخزرج بشكل عشوائي. حيث يجتمع كل فخذ قبيلة في مكان، يفصله عن مساكن الآخرين مساحات خالية. وتبلغ المسافة بين جبل أحد في الشمال وقباء في الجنوب، قرابة (١٠،٠٠٠) متر، وتمتد يثرب من الغرب للشرق بحوالي نصف هذه المسافة.



١ هذه الفقرة منقولة من كتاب أحسن القصص.

٢ الغابة منطقة مستنقعات تكثر فيها الأشجار البرية تقع إلى الشمال الغربي من يثرب. ويصب فيها العديد من الأودية م ومنها وادي العقيق الذي يقع إلى الغرب من يثرب وخلف حرة وبرة.



وعندما هاجر رسول الله كان كل سكان يثرب المستقرين فيها نازحون من مناطق جنوب غرب جزيرة العرب، سواءً كانوا من أهل الكتاب أو من الأوس والخزرج. ولا غرابة أن يمتهن بنو إسرائيل زراعة النخيل، لأنهم اعتادوا ممارستها في موطنهم الأصلي مصر، قبل أن يتركوه بسبب الغزوات الخارجية. أما الأوس والخزرج، فلم يذكر القرآن عنهم شيئاً يمكن أن يدلنا على سبب هجرتهم، ولن نذكر شيئاً مما تقوله التراث، لأنها أقوال لا يمكن الركون إليها فهي مجرد ظنون. والأزد، التي ينتمي لها الأوس والخزرج، لها تواجد في سلطنة عمان الحالية وفي حجاز جنوب مكة – منطقة الباحة الحالية – وأماكن أخرى، مما يعني أنه قد حدث لأفرادها نزوح جماعي، وتهجير قسري من بلادهم الأصلية، جعلهم يتفرقون في عدة اتجاهات، وقد يكون الاجتياح الأجنبي هو السبب.

والأوس والخزرج قدموا من مناطق حضرية مستقرة، ويحترفون الزراعة، لأنهم استقروا في يثرب ويعملون في مزارع بني إسرائيل كأجراء. وهذا يقود إلى التساؤل إن كانت الأزد، القبيلة التي ينتمي لها الأوس والخزرج، هم من سكان مصر، كما بني إسرائيل. وقد هربوا منها مثل بني إسرائيل عندما اجتاحتها الجيوش الغازية بعد زمن موسى، وهو الشتات الأول. فتوجه بعضهم لعُمان والبعض لحجاز جنوب الجزيرة والبعض جاء مع بني إسرائيل واستقر في يثرب.

قد نكون مخطئين، ولكن إن كان هذا ما حدث، فهو يفسر سر توافق الأوس والخزرج مع بني إسرائيل في العيش معاً في مكان واحد. ويحتمل أنهم وصلوا يثرب معاً وفي وقت واحد، وعلى شكل عائلة واحدة لرجل اسمه أوس وعائلة أخرى لرجل اسمه خزرج، وهما أخوين ينتميان لأب واحد اسمه أزد. وثلاث عائلات من بني إسرائيل (قينقاع، نضير، وقريظة)، ثم تزايدت أعدادهم وتكاثروا مع الزمن، حتى وصلوا لبضع مئات لكل من الأوس والخزرج، وعائلات بني إسرائيل الثلاث، عند هجرة الرسول. وتكون يثرب مهجراً لبعض أهل مصر، استقروا فيها ومارسوا حرفتهم الزراعية التي كانوا يجيدونها في بلادهم الأصلية، وأبقوا على لغتهم وأسمائهم وعاداتهم العربية، مع احتفاظ بني إسرائيل بدينهم وما بقي معهم من توراتهم العربية. واحتفظ الأوس والخزرج بنفس العادات واللغة وعقائدهم الوثنية.

وقد أكد القرآن أن رجال دين بني إسرائيل لازالوا يحتفظون ببعض توراتهم عندما بعث



محمد عليه الصلاة والسلام: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ(٤٣) المائدة.

ولما حدث التهجير الثاني لبني إسرائيل بعد انهيار المملكة التي أسسها داوود، لابد أن بعض بني إسرائيل قد مروا بيثرب واستقر بعضهم فيها، وهؤلاء يمكن التعرف عليهم بأنهم اليهود والنصارى الذين يخاطبهم القرآن. ذلك أن هجرتهم حدثت بعد أن ظهر مذهب ما يسمى باليهودية. كما أن الهجرة الثانية حدثت بعدما ظهر – النصارى – مذهب أتباع عيسى ابن مريم. وبعد أن خرج منهم من اعتقد بألوهية عيسى، مع الله ومريم: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) براءة.

وكان انتشار النصرانية ومن قال بألوهية عزير محدود جداً في غير يثرب، ومع الأيام اضمحلت عقائدهم ولم يعد لها وجود، بسبب ذوبان أهلها في المجتمعات التي عاشوا فيها، بينما بقيت هذه العقائد في يثرب حتى ظهور الإسلام، لأنهم عاشوا في مجتمع إسرائيلي صرف، وإن كان مختلف العقائد. وبما أن الأزد لم يكونوا من سكان المملكة التي أسسها داوود، فلم يتعرضوا للتهجير والشتات مرة أخرى عندما انهارت تلك المملكة، مثلما حدث لسكانها من بني إسرائيل. وبالتالي لم يكن هناك موجة ثانية من هجرة الأزد إلى يثرب، كما هو الحال مع أهل الكتاب.

وعندما هاجر الرسول إلى يثرب كانت عائلات بني إسرائيل التي وصلت ليثرب في النزوح الأول هم الأكثر عدداً وقوة وتمكناً من العائلات التي وصلت في الهجرة الثانية التي بقي عدد أفرادها قليل. فالكل يعرف من هم بنو قريظة، والنضير، وقينقاع، لكن قلة يعلمون أن بنو زعورا وبنو ماسلة – على سبيل المثال – كانوا من يهود يثرب في ذلك الوقت. ذلك أن الثلاث قبائل المشهورة، هي التي نزحت أولاً ليثرب برفقة عائلتين من الأزد، بينما بني زعورا وماسلة وقبائل صغيرة غيرهم كانوا ممن نزحوا في المرة الثانية. ومنهم كان اليهود الموحدون واليهود الذين اعتبروا عزيراً ابن الله، ومنهم النصارى الموحدون والنصارى الذين اعتبروا عيسى وأمه آلهة مع الله[1]. أما القبائل الثلاث الأقدم – بني قينقاع والنضير

[1] النصارى ليسوا هم المسيحيون الحاليون ولا علاقة لهم بهم. كما أن عيسى ابن مريم ليس يسوع ولا علاقة له به لا في المكان ولا في الزمان ولا في المعتقد. أنظر كتاب: مسيحية بولس وقسطنطين من منشورات الجمل.



وقريظة – فيمثلون بني إسرائيل قبل اليهودية والنصرانية، ويحتفظون ببعض توراتهم التي نزلت على موسى. وبطبيعة الحال فالأجيال التالية أغلبها ابتعدت عن الدين ولم يتمسك به إلا القلة القليلة: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظَّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣) المائدة.

ولابد أن نشير إلى أن بني إسرائيل الذين هجروا بلدهم مصر إلى مملكة سليمان في أقصى جنوب غرب جزيرة العرب قد تفرقوا إلى أقصى اليمن أو بلاد فارس والخزر أو الشام وبلاد النيل وغيرها بعد أن تعرضت مملكتهم للغزو الخارجي. وقد تسببت هجرتهم لأماكن يتحدث أهلها لغات شتى، ولهم ثقافتهم المختلفة، أن يفقدوا لغتهم العربية وثقافتهم. فدخلت ألفاظ وعبارات أجنبية على لغتهم، وأصبحت لغتهم خليط من اللغة الأم العربية، واللغات المحلية في أقصى جنوب جزيرة العرب، وفيما بعد تأثرت بلغات البلاد التي هاجروا إليها في فارس والخزر، وتأثرت مخارج الحروف عندهم. فتولد لديهم لغة هجين، تشبه نشأة ما عرف في جنوب أفريقيا باللغة التي تسمى أفريكانا. وهي لغة حديثة يتحدثها المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا، عبارة عن خليط من الهولندية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والزولو والسواحلية، ولكنها ليست واحدة من هذه اللغات. ولغة بني إسرائيل الهجين، هي التي سميت العبرية القديمة، وفرضت على العالم على أنها أصل لغات الشرق الأوسط كله. لهذا نجد أن ما سمي «العبرية» لغة فيها تشابه مع لغات اليمن، ولغات عراقية وغيرها، وهي مستمرة بالتغير والتلون وآخر أشكالها ما سمي بالعبرية الحديثة التي ظهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالاعتماد على قواعد اللغة العربية.

والمهاجرون منهم الذين اختلطوا بمجتمعات شتى هم الذين أصبحوا يمثلون اليهود، ويتأثر بهم غيرهم من بني إسرائيل. وحل كتابهم المقدس، محل توارة موسى. مع أنه كتاب تاريخي بدأ تصنيفه أثناء الأسر البابلي، واستمروا يضيفون له أحداثهم على مدى أكثر من (١٠٠٠) عام، كما يقول علماء تاريخ الكتاب المقدس. ولم يعد أحد منهم يتذكر التوراة التي نزلت مرة واحدة على موسى عندما نسخها في الألواح، قبل شتاتهم بمئات السنين[١].

١ يمكن الرجوع لكتاب: من آدم إلى محمد للمزيد عن بني إسرائيل.



المدينة[1]

كتب التراث تزعم أن الرسول هو من سمى مقامه في يثرب، المدينة. ولا يمكن الركون لأخبار تلك الكتب لافتقارها إلى مصادر موثقة وموثوقة.

والمدينة، لفظ نُعرّفه اليوم بأنه يطلق على البلدة الكبيرة المكتظة بالسكان. وهو تعريب للفظ 'city' في اللغة الإنجليزية واصطلاح جغرافي حديث. وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على ذلك المكان الذي استقر فيه الرسول، ولم يتسع البنيان فيه طوال عصره لدرجة يمكن أن يسمى «مدينة» بمفهومنا العصري. لأن الأوس والخزرج بقوا في مساكنهم التي كانوا فيها قبل الهجرة، بينما توزع المهاجرون على مناطق متفرقة من أرض يثرب ولم تكتظ بهم المنطقة المحيطة بمسجد الرسول. وعندما توفي رسول الله لم يكن بجوار مسجده إلا القليل من المساكن لبعض المهاجرين، لا تشكل أكثر من تجمع سكاني محدود، ومع ذلك نعتت بالمدينة.

المدينة – بمفهومنا الحالي – في القرآن

القرآن نعت مكة، بالقرية، مع أنها تفوق يثرب سكاناً: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ(١٣) محمد.

ومرة أخرى أطلق عليها وعلى الطائف قريتين: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) الزخرف.

والقرآن يصف التجمع السكاني المدني المكتظ، بالقرية، عند الحديث عن الأمم السابقة: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً(٨) الطلاق.

ومن ذلك قوم لوط الذين كانوا يعيشون في قرية: وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً(٤٠) الفرقان.

١ منقول بتصرف من كتاب أحسن القصص.



وكل الأمم السابقة كانوا يعيشون في قرى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ(١١) الأنبياء.

بل إن مدينة كبيرة (بمفهومنا الحالي للمدينة) سماها القرآن قرية، برغم أن الله جل شأنه أرسل لها ثلاثة رسل في وقت واحد، بسبب اتساعها وكثرة سكانها: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(١٤) يس.

ورسول الله يونس بعث إلى مدينة (بمفهومنا الحالي) يقطنها أكثر من (١٠٠) ألف نسمة: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ(١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(١٤٨) الصافات.

هذه (البلدة المكتظة) التي بعث لها يونس، سماها القرآن قرية: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨) يونس.

إذاً، القرآن دائماً – وبلا استثناء – يطلق على البلدة الآهلة والمكتظة بالسكان اسم، «قرية»، ولا يسميها مدينة: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ(٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ(٥٩) القصص.

لكن مصطلح «المدينة» تردد ذكره في القرآن فما المقصود به؟

لفظ المدينة في القرآن

لفظ «المدينة» ورد في القرآن أربع عشرة مرة، أربع منها تتحدث عن موطن الرسول، وذلك في السور التالية: الأحزاب: (٦٠)، والمنافقون: (٨)، وبراءة: (١٠١–١٠٢).

وهذه المدينة مع تجمعات الأوس والخزرج ومزارع بني إسرائيل ومساكنهم تقع ضمن ما يعرف بيثرب.



وهناك خمس آيات ذكر فيها لفظ «المدينة»، كلها تتحدث عن مصر وفرعون. ثلاث آيات منها في سورة القصص، وواحدة في سورة الأعراف، وأخرى في سورة يوسف.

والآية: (١٢٣) من سورة الأعراف تظهر فرعون مخاطباً السحرة: قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

ومصر فرعون تعني بلدة واحدة، ولا تعني الدولة بمفهومنا الحالي التي تحوي عدة مدن وقرى وتجمعات سكنية، وذلك بشهادة القرآن أثناء الحديث بين يوسف وإخوته: ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٨٢) يوسف.

فإن كانت القرية التي كان إخوة يوسف فيها هي مصر فرعون، فما هي المدينة التي ذكرتها الآية: (١٢٣) من سورة الأعراف أعلاه والتي يتحدث عنها فرعون؟

وفي سورة القصص ذكرت «المدينة» ثلاث مرات أثناء الحديث عن موسى، كما يلي: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ(١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢١).

وموسى ترعرع في قرية مصر فرعون، لكن الآيات تتحدث عن دخوله المدينة، على حين غفلة من أهلها، بعدما بلغ أشده. ولو كان المقصود بالمدينة بلدة فرعون التي ولد فيها موسى وترعرع، فلا يمكن القول بأنه دخلها، وخلسة، وبعد أن بلغ أشده، لأنه كان طوال عمره داخلها. أما لو كان معنى المدينة هو مكان في قرية فرعون، فإن العبارة ستستقيم.



ويكون موسى الذي يعيش في قرية فرعون، قرر ذات مرة الذهاب للمكان المسمى «المدينة» الواقع في نفس القرية. وهذه المدينة كان لها أبواب ولا يسمح بدخولها إلا من يحمل تصريحاً. لذا فقد تسلل موسى إليها « على حين غفلة من أهلها (حراسها)». وهناك – داخل المدينة – وكز الذي من عدوه وقتله، وهناك قضى الليل خائفاً يترقب ملاحقيه بسبب قتله للرجل. وفي نفس المدينة قدم رجل يسعى في اليوم التالي ليُحذِّره. وقد استطاع موسى التسلل خارج المدينة وهو خائف يترقب ملاحقيه.

فموسى دخل خلسة مبنى محاط بأسوار له أبواب، وعليه حرس لو رأوه لمنعوه من الدخول، مما يشير إلى أن هذا المبنى لا يدخله إلا المصرح لهم، كما سبق وذكر. وأثناء تنقله فيها وجد أحد بني إسرائيل يتعارك مع رجل آخر، وقد وكزه موسى بقبضته فقتله. ثم فر موسى من مكان الحادث لكنه بقي في ذلك المكان «المدينة» بقية اليوم وطوال الليلة التالية، وفي اليوم التالي كان يتجول في هذه «المدينة» عندما أقبل رجل يسير بسرعة إلى موسى وأخبره أنهم يبحثون عنه ليقتلوه بالرجل المقتول. كل هذا يحدث في «المدينة»، مما يعني أن هذه المدينة تحوي مساحات واسعة يتحرك فيها مجموعات بشرية كبيرة.

ولو تساءلنا ماذا يفعل هؤلاء البشر؟

لجاءنا الجواب من سورة يوسف، التي تتحدث عن أن يوسف أصبح مسئولاً عن مخازن مصر للمحاصيل الزراعية والتجارية المختلفة، وكانت هذه المخازن تقع في مبنى مغلق له أبواب عليها حرس. وهذه المواصفات تنطبق تماماً على المدينة التي دخلها موسى خلسة بعد أجيال من دخول أجداده لها زمن يوسف.

وتكون المدينة تعني السوق التجاري، وهو في قرية مصر كان داخل مبنى محاط بأسوار وله أبواب، ويضم مخازن مصر. وهو المدينة التي دخلها موسى على حين غفلة من حراس إحدى بواباتها.

وقد ذكرت سورة يوسف «المدينة» أثناء الحديث عن النسوة اللاتي كن يتكلمن فيما بينهن عن محاولة زوجة العزيز إغراء غلامها يوسف: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٣٠) يوسف.

وهذه الآية تضيف لنا تأكيداً آخر على أن المدينة تعني مكاناً يجتمع فيه خلق كثير، للبيع



والشراء ويضم مجالس لتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار والحكايات وعقد الصفقات التجارية. وهذا المكان كان في نفس المبنى المحاط بسور والذي يضم مخازن المملكة. والنسوة اللاتي تحدثن عن امرأة العزيز كن يجتمعن في المدينة (السوق) للبيع والشراء وتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار، كما كان يحدث ولازال في أسواق جنوب جزيرة العرب.

وسورة الكهف تتحدث عن الفتية الذين ناموا في الكهف مع كلبهم لسنوات طويلة، وعندما استيقظوا ظنوا أنه لم يمر عليهم سوى فترة قصيرة، فأرسلوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً من نفس بلدتهم التي خرجوا منها: فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً(١٩) الكهف.

والآيات تؤكد أن المدينة هو المكان الذي يباع فيه القوت « فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ». أي أنه السوق الذي يقع في بلدة الفتية، وليس البلدة كلها.

وتذكر سورة الكهف «المدينة» مرة أخرى في الحديث عن موسى والعبد العالم: فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً(٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٧٨) ....وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٨٢) الكهف.

والآيات تقول بأن موسى والعبد العالم دخلا «قرية» وفي تلك القرية كان هناك جدار آيل للسقوط فأقامه. وهذا الجدار يقع في «المدينة» ومخبأ فيه كنز. ويكون والد الغلامين اليتيمين قد جمع هذا الكنز من مزاولته للتجارة، وخبأه في جدار محله الواقع في المدينة التي هي مكان البيع والشراء، والتي تقع ضمن القرية.

وسورة النمل تذكر المدينة أثناء الحديث عن صالح وقومه: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(٤٨) النمل.

وقوم صالح مثل كل الأمم السابقة المذكورة في القرآن كانوا يعيشون في قرية: وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ(٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ(٤٣) وَأَصْحَابُ



مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(٤٥) الحج.

والرهط التسعة المفسدين من قوم صالح الذين ذكرتهم الآية: (٤٨) من سورة النمل كانوا يتواجدون دائماً في المدينة داخل قرية قوم صالح، حيث يجتمع الناس للبيع والشراء وتناقل الأخبار.

وتتحدث الآيات (٥٨- ٧٧) من سورة الحجر عن قوم لوط، ومحاولة النيل من الملائكة - ظناً منهم أنهم رجال من البشر - ليفعلوا بهم الفاحشة، ومن ذلك قوله تعالى: وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ(٦٨) وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ(٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(٧٠) قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٧١).

وعلينا أن نتذكر أن القرآن ينعت بلدة قوم لوط بالقرية في عدة سور منها: (الأنبياء:٧٤)، (الفرقان:٤٠)، (العنكبوت: ٣١ : ٣٤). فتكون آيات سورة الحجر تدل على أن المقصود بالمدينة هو مكان داخل القرية، يضم السوق والنوادي التي يجتمعون فيها. وقوم لوط كانوا يأتون المنكر في ناديهم، أي مكان تجمعهم، كما تؤكد سورة العنكبوت: أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٩) العنكبوت.

ويكون الرجال الذين جاؤا إلى لوط ليسوا كل رجال قريته، ولكن ممن كانوا في ناديهم الذي يمارسون فيه عهرهم والواقع في «المدينة» التي تقع داخل القرية.

ومن كل ما سبق يمكن القول إن المدينة تعني السوق التجارية والتي عادة ما تكون في الساحة العامة وسط القرية والتي تضم بجانب السوق النوادي وأماكن التجمعات والاحتفالات.

وسورة الشعراء تذكر المدائن (جمع مدينة) مرتين، وهما المرتان الوحيدتان اللتان ذكر فيهما هذا اللفظ في القرآن. وفي كلاهما كان الحديث عن إرسال فرعون من يطوف في المدائن لإبلاغ من فيها بمرسوم فرعوني. والمرة الأولى بعث فرعون من يطوف في «المدائن» بحثاً عن سحرة حاذقين لمبارزة موسى: قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٣٨).



والمرة الثانية تتحدث عن إرسال فرعون من يطوف بالمدائن ليبلغهم رسالة تحذيرية لئلا يتعاونوا مع بني إسرائيل: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ(٥٦).

والمدائن في كلا الموضعين تشير إلى أنها أماكن يتواجد فيها أناس من أهل مصر، لذا كان فرعون يبعث لهذه المدائن من يوصلهم رسائله وأوامره وتحذيراته.

وتكون المدائن هنا تعني أسواق كانت منتشرة في قرية فرعون. ويجتمع فيها عدد من الناس للبيع والشراء. ولا تعني المدائن جمع مدينة بمفهوم هذا العصر، ذلك أن السحرة قبل أن تبدأ المبارزة نصحهم موسى بأن يتقوا الله، وكادوا أن يتراجعوا، لكنهم تناجوا وتشاوروا فيما بينهم ثم اتفقوا على أن موسى ساحر يريد أن يخرجهم بسحره من أرضهم (مصر)، فهم مصريون. ولو كانوا قد أتوا من خارج مصر، فهي ليست أرضاً لهم، وليسوا معنيين بالخروج منها، ولن يهتموا إن خرج المصريون منها أم لا. وهذه هي الآيات: قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى(٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى(٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى(٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى(٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) طه.

إذاً، هم من مصر ويعيشون فيها، وعندما أراد فرعون جمعهم أرسل لهم في مدائنهم الواقعة داخل مصر (القرية).

وتكون المدائن عبارة عن الأسواق الفرعية، والمدينة هي السوق التجارية الرئيسية، سواءً كانت محاطة بسور له أبواب ويضم المخازن وأماكن التجمعات والنوادي كما في قرية مصر، أو بدون أسوار.

ولفظ المدينة معروف لدى بني إسرائيل يثرب لأنهم قدموا من مصر فرعون بعدما هربوا منها نتيجة الغزو الخارجي. ولابد أنهم أقاموا مدينة (سوق تجاري) في يثرب. ولما تعرض المستضعفون في مكة للاضطهاد والتعذيب من قبل كبراء قريش لردهم عن دينهم واشتد التضييق على الرسول ومن آمن، وجه مسلمو يثرب برئاسة من آمن من بني إسرائيل الدعوة للرسول والمسلمين للهجرة ليثرب. وقاموا ببناء مسجد للرسول وحجرة لسكنه



ملحقة بالمسجد، في مكان مجاور للمدينة (السوق الأسبوعية) التي تقام هناك. ولما أقيمت حجرات (منازل) لبعض المهاجرين فيها بعد حول مسجد الرسول، غلب اسم «المدينة على كل المنازل التي بنيت في المكان. وبعد جلاء بني إسرائيل من يثرب غلب اسم المدينة على كل ما كان يعرف بيثرب.

وما يؤكد هذا ما ورد في سورة الجمعة التي تتحدث عن ترك بعض المصلين الصلاة مع الرسول في مسجده للحاق بقافلة تجارية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

ولدينا شاهد لازال حياً على أن المدينة تعني السوق المحاط بأسوار وله أبواب. فمدن بلاد المغرب العربي القديمة تسمى البلدة العتيقة فيها «المدينة»، وهي التي تحوي السوق التجارية.

ولمن يهتم بمعاجم اللغة، يقول صاحب لسان العرب: «المَدِينة الحِصْنُ يبنى في أُصطُمَّةِ الأَرض، وكلُّ أَرض يبنى بها حِصْنٌ في أُصطُمَّتِها فهي مدينة، والنسبة إِليها مَدِينِّي، والجمع مَدائِنُ ومُدُنٌ.

وهكذا يمكننا القول بأن «المدينة» لفظ يعني في القرآن ساحة تضم السوق التجارية، وأماكن التجمعات والاحتفالات، سواءً كانت محاطة بسور وله أبواب أو ساحة مفتوحة دون أسوار.

أما المدينة بمفهومنا المعاصر فقد وردت في القرآن بلفظ القرية.



عائشة

هل هي امرأة ملعونة كما تقول كتب الشيعة، أو امرأة فاجرة كما تقول كتب السنة، أم أنها أم المؤمنين؟

لو تصفحنا كتب الموروث عند مذاهب المسلمين لوجدنا أنه كلما كثرت المثالب المنسوجة حول شخصية من شخصيات عصر الرسول عند أتباع مذهب كلما كثرت الفضائل المنسوجة عنه عند أتباع مذهب مخالف، وليس هناك نظرة محايدة عند أي من الطرفين، وهذا لم يأت صدفة.

فأبو بكر وعمر ابن الخطاب يمثلان التقوى والصلاح عند أتباع المذهب السني، بينما صورتهما عند الشيعة على النقيض.

معاوية صحابي جليل وكاتب للوحي عند السنة بينما هو أقرب للشيطان عند الشيعة... وهكذا.

ومن اليسير أن نشتم تأثير المواقف السياسية على هذه المشاعر، بجانب عوامل أخرى.

أما فيما يخص عائشة زوج الرسول، فالسنة والشيعة تبادلوا اتهامها.

وكل من يقرأ كتب التراث السني فسيجد أنهم يلقبونها بأم المؤمنين، وصوراً زاهية أخرى عنها، لكن وفي نفس الوقت فكل من يقرأ نفس الكتب بحثاً عن إدانتها فسيجد الكثير من الصور القبيحة، وقد أوردنا فيما سبق الكثير من الأحاديث البخارية التي تصورها بصور قبيحة جدا.

وسنورد بعض أهم ما قيل عنها في تلك الكتب، ثم ما يمكن فهمه من الواقع والقرآن عنها، لنخرج بما كانت عليه فعلاً.

الموقف الشيعي

لا حاجة للقول إن كتب الشيعة التراثية تغص بصور سيئة عن زوج الرسول، إلا أنه من المهم ملاحظة أن كل ما قيل عنها في هذه الكتب كان نتيجة لموقفها المعارض من تولي



علي ابن أبي طالب للحكم. ومن المحتمل أنها لو لم تقف ضد علي فقد لا تتهجم عليها كتب الشيعة. ولن يتجاوز التعرض لها في تلك الكتب أكثر من كونها بنت أبي بكر (الذي اغتصب حق علي في الحكم كما صور موروث الشيعة)، ولما وجدنا عنها منقصة واحدة في كتب التراث الشيعي.

هذه هي حقيقة الموقف الشيعي من زوج الرسول عائشة. وكل ما قيل عنها في تلك الكتب تشعب وكثر لكنه في الأصل لا يتجاوز موقفها من تولي علي، ونابع منه. وليس للشيعة أي مآخذ أخرى عليها.

وبما أن المعتقد الشيعي يقوم على أساس واحد فقط، وهو اعتبار علي ابن أبي طالب ولياً لله ووريثاً للنبوة فإن أي معارضة لتولي علي الحكم اعتبر كبيرة موجبة للنار في الآخرة واللعن في الدنيا، وهذه هي جريمة زوج الرسول عائشة (حسب معتقدهم). ونتج عن هذا أن استبيح سبها شخصياً ونسي العامة السبب الرئيسي لهذا الموقف. وإن كان هناك قصص أخرى موجودة في كتب التراث الشيعي للنيل من عائشة كقولهم إنها ووالدها قد أسقيا السم للرسول، وإن كانت هذه القصص لا تحظى بالقبول حتى من الشيعة أنفسهم لأنهم يعلمون أنها لم تحدث.

في المقابل فكثير من القراء يجهل أن كتب التراث الشيعي برغم لعنها لزوج الرسول فقد برأتها من تهمة قالتها عنها كتب السنة، وهي تلك القصة المختلقة التي ترسخت بعنوان «الإفك». فكتب التراث الشيعية تبرئ عائشة من قصة الإفك وتقول إنها قصة مختلقة على عائشة، وأن آيات «الإفك» نزلت لتبرئة «مارية القبطية» التي اتهمتها عائشة بالزنا وأن ولدها «إبراهيم» ليس ولداً للرسول ولكنه ولد لعبد قبطي أيضاً كان هدية من المقوقس للرسول مع مارية. وقد غضب الرسول من كلام عائشة وأرسل علي ابن أبي طالب ليقتل العبد. ولكي تنسجم القصة قالوا إن العبد يعمل في بستان وأنه لما رأى علياً مقبلا وبيده السيف صعد على شجرة فنظر علي إلى الأعلى فوجد القبطي ليس له عضو ذكري. فعاد وأخبر الرسول فنزلت آيات سورة النور لتبرئة مارية. ولأن القصة مختلقة فمختلقها لم يفطن إلى أنه لو افترض أن عليا قتل القبطي وهو بريء، فكيف سيكون موقف الرسول الذي أمر علياً؟ وكيف أمر الرسول بقتل رجل بتهمة لم تثبت؟



المهم ليس نقاش قصة مختلقة ولكن للتأكيد على أن كتب التراث الشيعي تعتبر عائشة ملعونة لأنها وقفت ضد تولي علي ابن أبي طالب الحكم، لكنها تنزهها من الفجور.

الموقف الإباضي

يتفق مع الموقف الشيعي أن معارضة تولي علي الحكم تعتبر كبيرة، لأنهم يعتقدون بوجوب وجود حاكم، ولا يجوز الخروج عليه. لكنهم يقولون إن زوج الرسول عائشة قد تابت. يعني هم قالوا هي أخطأت واقترفت كبيرة معارضة استيلاء علي على الحكم، لكن لا يلعنونها ولا يختلقون مثالب عليها كما يفعل الشيعة، ويتجنبون سبها.

الموقف المعتزلي

نابع من أن كل المتحاربين في موقعة الجمل ارتكبوا كبيرة، دون أن يتعرضوا بالسب لأحد من الطرفين.

الموقف السني

ظاهرياً بين العامة هو أن الموروث السني هو الذي ينصف عائشة وبقية المذاهب تنال منها، لكن هذا المفهوم الشائع غير صحيح على الإطلاق وبعيد عن حقيقة ما تحويه كتب تراثهم. فكتب التراث السني تحتوي على كم متنوع من النقائص لزوج الرسول أكثر تنوعاً من أي كتب مذهب آخر تعرضت لعائشة. وإن كان عدد الصفحات التي تعرضت لزوج الرسول في كتب الشيعة أكثر بكثير من الصفحات في كتب السنة. فالتراث السني يتفوق على التراث الشيعي في عدد المواضيع التي تعرضت لعائشة، والمذهب الشيعي يتفوق بعدد الصفحات. ولو لم يكن في كتب التراث السني من مثالب ضد عائشة سوى ما عرف بالإفك لكفى.

قصة الإفك

وهي قصة مختلقة تُسوّغُ لقراءة متعسفة وتأويل لآيات في سورة النور إلى غير معناها قام به المفسرون والمحدثون ورسخته كتب التراث السني. والقصة بمجملها تثبت سوء الظن بعائشة، ولا يمكن لمن يقرأها وهو يظن أنها وقعت بالفعل إلا أن يميل داخل نفسه أن عائشة لم تكن بريئة. والقصة تقول إن زوج الرسول كانت بصحبة الرسول في غزوة له



(الرسول لم يثبت أبداً أن أخذ واحدة من نسائه في الحروب ولم يكن هذا متوقعاً). وأثناء عودتهم للمدينة وبعد توقف الجيش للمبيت، وناموا لبعض الوقت، أعلن الرسول فجأة الرحيل قبل مطلع الفجر، على غير العادة. وفي تلك اللحظة ابتعدت عائشة زوج الرسول عن الجيش لقضاء الحاجة (مع أن الوقت كان ليلا والظلام يلف المكان وكان بإمكانها أن تقضي حاجتها على بعد بضع خطوات دون أن يلاحظها أحد) لكن مختلق القصة أراد أن يقول إن الجيش أكمل شد الرحال وتحرك وغادر وابتعد لمسافة طويلة جدا لدرجة أن عائشة لم تتمكن من اللحاق بهم ولا من رفع صوتها بطلب التوقف. (مع أن قضاء الحاجة لا يستغرق سوى لحظات وشد الرحال يستغرق وقتاً أطول، كما أن مسير الجيش مرتبط بحركة الجمال التي تسير بتؤدة ويمكن اللحاق بها خلال وقت قصير). وتناسى مختلق القصة أنه لو أن عائشة أرادت الابتعاد لقضاء الحاجة فأول من يعلم هو الرسول وسيكون من الطبيعي الانتظار حتى تعود وتعتلي هودجها ليتحرك الجيش.

ويقول مختلق القصة إن صفوان ابن المعطل صادف أنه هو أيضاً قد تأخر عن الجيش. ولم يذكر مختلق القصة لماذا تأخر صفوان عن الجيش في نفس القصة؟ ولعل مختلق القصة تغافل عن ذكر سبب لتأخر صفوان عمداً ليوحي بسوء النية لمن يرغب في التفكير بمنكر حدث بين ابن المعطل وعائشة. وقد حاولت كتب التراث أن تقول إن الرسول قد أوكل له مهمة ساقة الجيش. أي أن يسير خلف الجيش ليلتقط ما قد يسقط من الركب من متاع في محاولة بائسة لسد ثغرات القصة المختلقة. واختلقت كتب التراث قصة أخرى لترقيع فجوات القصة المختلقة بقولهم إن ابن المعطل كان قد تأخر عن الجيش في عرس له. أي أنه تأخر ليدخل بعروسه. ولهذا قالوا إن الحملة كانت ضد بني المصطلق التي انتهت بسبي نسائهم وتوزيعها على المسلمين. ولذا فالقول إن ابن المعطل تأخر عن الجيش ليفتض بكارة السبي التي كانت من نصيبه.

المشكلة أن نفس كتب التراث – كالعادة – تأتي بالقصة وتأتي بقصة تناقضها، لذا فقد قالت كتب التراث إن ابن المعطل في قصة الإفك المفبركة قال: «والله ما كشفت كنف أنثى قط» وفي رواية «والله ما أصبت امرأة قط حلالاً ولا حراماً». فكيف يكون قد تأخر عن الجيش لأنه في عرس؟ وحتى لو لم يكن في عرس فلماذا تؤكد وتحلف أنك لم تقرب الحرام؟ هذا التأكيد يجلب الشك ولا يفيد النزاهة. (وبطبيعة الحال ابن المعطل بالفعل لم يكن في عرس



وقد لا يكون في الجيش أصلاً).

وتستمر قصة الإفك لتقول إن ابن المعطل رأى سواد إنسان نائم فعرف أنها عائشة؟ (كيف يرى سواد ويعرف أنها عائشة؟) وأن عائشة خمرت وجهها بجلبابها (لاحظ أن العبارة مأخوذة من تفسير آية سورة الأحزاب التي تقول: «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» وأنها تعني تغطية الوجه. وهذا الفهم لم يكن موجودا زمن الرسول ولكنه عرف في عصور لاحقة.

ولن نواصل مع هذه القصة التي ينفي وجودها القرآن، لأن آيات سورة النور لم تنزل لتبرئة شخص كائناً من كان ولكنها تضع ضوابط وعقوبات للقضاء على ظاهرة فساد أخلاقي نشره منافقون رجعوا من حفر الخندق واستغلوا غياب الرجال فلاحقوا النساء ودخلوا البيوت كليا للفجور.

ولا وجود للقصة المختلقة بحق عائشة ولا للقصة المختلقة بحق الشخصية الخرافية المختلقة (مارية القبطية).

من هو ابن المعطل؟

تقول كتب الرجال إنه أسلم قبل معركة المريسيع. وهي غزوة تقول كتب التراث إن الرسول قام بها ضد بني المصطلق في السنة السادسة وهي غزوة مختلقة ولم تحدث. لأن الرسول لم يقم بأي غزوة إلا بعد نزول سورة براءة التي نزلت قبل وفاة الرسول بعام أو أقل. وكل غزوات الرسول كانت موجهة للقبائل التي عاونت قريشاً وأهل الطائف ضد المسلمين. ولم يكن فيها سبي ولا رق. وقول كتب التراث إن صفوان ابن المعطل أسلم قبل المعركة المزعومة لكي يقحم اسمه في القصة المكذوبة على عائشة.

ويكون تاريخ إعلانه الإسلام غير معروف. وبما أنه ليس من أهل المدينة ولا مكة فهو سلمي فالمؤكد أن إعلانه الإسلام كان في آخر عام من حياة الرسول وهو عام الوفود حيث تقاطرت وفود القبائل على المدينة لإعلان الدخول تحت حكم دولة المسلمين.

وما ورد في كتب التراث عن ابن المعطل ليس باهراً.

فقد روي أن امرأته اشتكته لأنه ضربها على قراءتها سورتين في صلاتها. وقالت تلك الكتب



إنه كشط جلدة رأس حسان ابن ثابت لأنه هجاه بأبيات شعرية. وقيل إنه ممن اتهم في الدخول على حجرات الرسول وأن الرسول قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، ولا يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي» يعني صفوان بن المعطل.

وإن كان لهذا الخبر شيء من الصحة فقد يكون ابن المعطل ممن نزل بحقهم قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا(٥٣) الأحزاب.

على كل حال صفوان ابن المعطل ليس له سمعة عطرة في كتب التراجم، ولا يعرف متى أعلن إسلامه كما أن تاريخ وفاته ليس متفقاً عليه. وهذا يعني أن اختياره لدور البطولة في الفيلم المفبرك ضد عائشة جاء لأنه يلائمه لأنه مجهول.

وهذه القصة المفبركة عن عائشة أضرت كثيراً بسمعتها لأنها صورتها بالفجور. ولو لم يقل عن عائشة إلا أنها عارضت تولي علي الحكم لما أضر بسمعتها، كما أضرت بها ما أوردته كتب التراث السني، ومن ذلك ما أورده البخاري في كتابه:

أم المؤمنين عائشة تتعرى أمام رجلين

يقول البخاري: حدَّثنا عبدُاللهَّ بنُ محمدٍ قال: حدَّثني عبدُ الصمدِ قال: حدَّثني شُعبةُ قال: حدَّثني أبو بكرِ بنِ حَفصٍ قال: سَمعتُ أبا سَلَمَةَ يقولُ: دخلتُ أنا وأخو عائشةَ عَلَى عائشةَ فسألها أخوها عن غُسلِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فدَعَتْ بإناءٍ نحوٍ من صاعٍ فاغتَسَلَتْ وأفاضَتْ على رأسِها، وبَينَنا وبينَها حجاب.

مناقشة النص

إذا كان الحجاب ساتراً لا يرى من خلاله، فلا فائدة من غسلها، لأنهما لن يريا كيفية الغسل.

وإن كان الحجاب شفافاً يرى من خلاله، فقد سمحت أم المؤمنين لأخيها ولرجل معه



بالنظر إلى ما حرم الله من جسدها.

فهل يؤخذ الدين بهذه الطريقة المثيرة للغرائز؟ أم أن من اختلق الحديث كان يهدف للنيل منها.

ولو أن الرجلين قد سألا أم المؤمنين بالفعل، فيكفي أن تشرح لهما طريقة الغسل بعباراتها دون الحاجة للتعري المخالف للحشمة والدين.

والحديث أورده البخاري لأنه يتناسب مع الباب الذي ورد فيه الحديث واسمه « الغسل بصاع ونحوه»، مع أن الغسل من الجنابة لا يحتاج لسؤال أم المؤمنين ولا حتى الرسول عنه، لأن الله قد طلب منا الغسل دون تحديد لكمية الماء أو كيفية غسل الأعضاء، لأن المفهوم العام هو الاستحمام الكامل، بحيث يغسل الجسم كله من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين.
وإن لم يتوفر الماء الكافي للغسل فقد شرع الله التيمم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً (النساء: ٤٣).

والصورة المخزية التي يقدمها الحديث ويمكن لأي شخص في العالم رسمها هي كما يلي:

رجلان يدلفان بيت عائشة، تستقبلهما باشة وتقول من أنتما فيقول أحدهما أنا أبن أختك من الرضاعة أبو سلمة، فيقول الآخر: يمكنك اعتباري أخاك من الرضاعة أيضاً.

فتقول ضاحكة: أهلا بأخي وابن خالتي.

ماذا تشربان؟

نبيذ لو سمحتِ!

تناولهما الكأسين وتجلس أمامهما، قائلة: والآن كيف أخدمكما؟

يجيب أبو سلمة: في الواقع لقد اختلفنا في كيفية الغسل فجئنا لترينا بطريقة عملية كيف يتم الغسل.

تتبسم وتقول: حالاً

تغيب للحظة وتعود وهي تحمل إناء فيه ماء ثم تأتي للمنطقة التي تسقط عليها أشعة الشمس



وعلقت قماشاً خفيفاً ثم خلعت ملابسها وهم يشاهدون ظلها على القماش. ودلقت الماء على رأسها وفركت بقية جسدها وهي تقول: هكذا كان يفعل رسول الله.

فهل يمكن لمسلم أن يصور أم المؤمنين بهذه الصورة التي لا يمكن أن تصدر من امرأة شريفة؟

وكتب الحديث والتفسير السنية مليئة بصور مخزية عن زوج الرسول، أسوأ بكثير مما تحويه كتب التراث الشيعي.

عائشة في القرآن

تقول كتب التراث إن عائشة تزوجها رسول الله في العام الهجري الثاني، ولابد أنه تزوجها قبل معركة أحد، لأن سورة آل عمران التي تتحدث عن معركة أحد تقول: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٢١).

وحينها لم يكن الرسول متزوجاً إلا بعائشة، فتكون آية سورة آل عمران هي أول آية في القرآن تشير لها.

وبعد سنوات تزوج خلالها الرسول بغير عائشة جاءت سورة التحريم التي تروي مشكلة عائلية بين الرسول وزوجاته وعائشة إحداهن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(٤) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا(٥).

بعد ذلك نزلت سورة الأحزاب التي نزلت بعدما تسببت فئة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض في ظاهرة عهر في المدينة، فنزلت سورتي الأحزاب والنور لوضع ضوابط للقضاء على تلك الظاهرة وتطهير المجتمع المسلم منها، وشملت توجيه نساء النبي بالتقيد بأعلى درجات الحذر والحيطة في تصرفاتهن لأن أي ريبة تحوم حولهن ستضر كثيراً بالرسول ودعوته.



وأول ما بدأت الآيات به هو تخيير نساء الرسول بين أن يتمتعن بمتع الدنيا ويطلقهن الرسول، أو يبقين معه على شظف العيش ويكون اهتمامهن بالدين وقراءة القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

وكل من يختار البقاء مع الرسول فعليها التقيد بضوابط صارمة لا تقبل بها إلا امرأة قوية الإيمان: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا(٣٤).

وبما أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يطلق أياً من نسائه اللاتي معه، فهذا يعني أنهن التزمن بأوامر الله لهن، واخترن الحياة مع الرسول والآخرة على متع الدنيا. فجاء القرآن ليكافئهن على هذا الاختيار، وذلك بتحريم تطليق الرسول لأي واحدة منهن أو الزواج بغيرهن عليهن: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا(٥٢) الأحزاب.

وهذا يعني أن نساء النبي اللاتي كن معه عند نزول سورة الأحزاب قد رضي الله عنهن ورضين عنه. ولو كان فيهن ما يثير الريبة فسينزل القرآن بفضحهن، ولو خفي أمرهن على الرسول. لكن القرآن نزل يحرم على الرسول تطليق واحدة من هن، كشهادة بالنزاهة والعفاف والطهر لهن ورضى الله عنهن.

ولم يتوقف القرآن هنا بل أضاف فضيلة لنساء الرسول وعائشة إحداهن في سورة الأحزاب نفسها: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي



الْكِتَابِ مَسْطُورًا(٦).

فالله جل وعلا علق على عائشة وبقية نساء الرسول نياشين إلهية تتمثل في اعتبارهن أمهات المؤمنين. وهذا اللقب لن يعطيه الله لامرأة سيئة في السلوك أو الإيمان.

الواقع

لو نظرنا للواقع بعيداً عن قصص كتب التراث المختلق فسنجد ما يلي:

الرسول عندما مرض المرض الذي توفي فيه، اختار أن يكون في حجرة عائشة.

وهذه شهادة وفاء ونزاهة وطهر ومحبة وتقوى لعائشة.

الرسول صلوات الله وسلامه عليه دفن في حجرة عائشة بناء على وصيته، وهي الحجرة التي ضمت معه فيها بعد أبا بكر وعمر دون بقية الناس الذين عاشوا زمن رسول الله.

وهي شهادة أخرى تؤكد الشهادة السابقة لعائشة.

كما أن دفن أبي بكر وعمر مع الرسول في نفس الحجرة شهادة ممن بقي من أتقياء الصحابة على فضلهما على رجال عصرهما.

والخلاصة: أن عائشة بنت أبي بكر الصديق تحمل شهادات من رب العالمين ومن رسوله الأمين. ولا أهمية لما قاله عنها أتباع الأهواء سواء كان لنقمتهم عليها من وقوفها ضد استيلاء علي ابن أبي طالب على الحكم، أو كان لمحاولتها فضح مخططات قريش للاستيلاء على حكم دولة المسلمين بعدما سكت الرجال وتواروا عن الأنظار مفضلين سلامتهم الشخصية على الصدع بالحق بدءً من حصار عثمان وقتله ومروراً بحروب علي على السلطة وانتهاء باستيلاء قريش إلى الحكم ممثلة بمعاوية.

وبما أن عائشة زوج للرسول فقد تجنبت قريش قتلها لئلا تثير عليها الرأي العام وتفسد خططها للاستيلاء على الحكم. فتحولوا لقتلها معنوياً. فلوثت سمعتها الطاهرة في كتب السنة، ونسب لها الكفر في كتب الشيعة.

والسلام عليك يا أم المؤمنين.

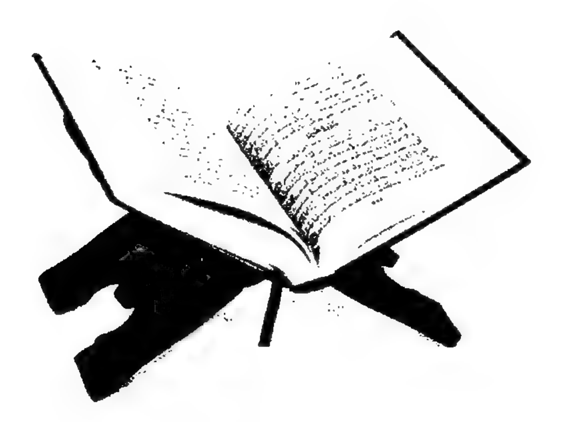


ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



القسم الخامس

مفردات من القرآن

منشورات الجمل




مكتبة
الفكر الجديد

هـذا القسـم يحتـوي عـلى مفـردات وردت في القـرآن الكريـم ومعانيها حسـب سـياقها وليـس كـما تقـول عنهـا المعاجم.



المحتويات




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

تمهيد

عند الحاجة لمعرفة معنى لفظ من الألفاظ فمن البديهي أن نبحث في المعاجم اللغوية، لكن هذا المنطق البديهي لا يمكن تطبيقه على المعاجم العربية المشهورة لكي نتبين معاني ألفاظ القرآن. ذلك أن ما تحويه المعاجم العربية القديمة المشهورة عبارة عن اقتباس لأقوال المفسرين لمعاني المفردات، وليست معاني مستقاة من مصادر موثوقة أو منقولة من العرب الذين نزل القرآن بينهم، أو أن من ألفها كان خبيراً لغوياً. فالذين ألفوا تلك المعاجم أشخاصٌ عاشوا ما بين أواخر القرن الرابع والقرن التاسع الهجري. أي في عصور متأخرة وبعيدة – في المكان والزمان – عن كتاب الله ومفرداته والحس اللغوي الذي كان سائداً في مكة ويثرب عندما نزل القرآن. وكل ما فعلوه هو تجميع معاني الألفاظ التي أوردها المفسرون في كتبهم، وهي معانٍ لا تستقيم مع دلالة اللفظ في السياق الذي ورد فيه الآيات، ولكنها تتفق مع تأويلات المفسرين لمعاني الآيات. وبالتالي فأي معنى نجده في هذه القواميس هو معنى مشكوك في صحته حتى يثبت العكس.

وفيما يلي أهم معاجم اللغة ونبذة عن مؤلفيها:

- لسان العرب لابن منظور الأمازيغي. ولد في قفصة / تونس عام ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢، وتوفي في مصر عام ٧١١ هـ/ ١٣١١ م.
- مقاييس اللغة لابن فارس القزويني الرازي، المتوفى عام ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤م.
- تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢م.



- العباب الزاخر في اللغة، ألفه الحسن بن محمد الصغاني، المولود في لاهور عام ٥٧٧ هـ / الموافق ١١٨١م، والمتوفى عام ٦٣٧ هـ/ الموافق ١٢٤١م.
- القاموس المحيط، ألفه محمد ابن يعقوب الفيروزآبادي، المولود بكازرون - بلدة بفارس - عام ٧٢٩ هـ/ الموافق ١٣٢٩م، وتوفي عام ٨١٧ هـ/ الموافق ١٤١٤م.

والمفسرون أناس مثل قتادة والزهري وابن جريج وأمثالهم، عاشوا في بيئات بعيدة في الزمان والثقافة واللغة والمفردات عن زمان وثقافة ولغة ومفردات مكة ويثرب في عصر الرسول. والتعريف الذي يقدمه هؤلاء هو مجرد ظن وتصور لا يعتمد على أسس أو مصادر، أو حتى خلفية لغوية. ومع ذلك اعتبر تعريفهم للألفاظ هو الصحيح، حتى ولو قالوا إن لفظ الرحمن عبري، والقرآن سرياني، لضحالة معرفتهم اللغوية وتأثرهم بالعجمة التي كانت سائدة في عصورهم.

ويضاف لهذا عاملٌ هامٌ آخر يتمثل في جرأتهم على تأويل الآيات لمعان لم يقل بها القرآن ولو تعارض مع سياق الآية، فجاءت تعريفاتهم للألفاظ لتتفق مع ما يريدون قوله ولو أخرجوا اللفظ عن معناه. ومن يتجرأ على تحريف كلام الله فمن السهل عليه أن يضع للفظ معنى لا صلة له به. لذا فمعاني الألفاظ في المعاجم وفي كتب التفسير المشهورة ليست بالضرورة صحيحة، بل هي في الغالب غير صحيحة، ولو ورد تعريف صحيح فهو استثناء. لذا سنقوم في هذا القسم بتحري معنى اللفظ من سياق الآيات التي ذكر فيها وإهمال ما ذكرته المعاجم والمفسرون.

فمثلاً لفظ «قطمير» ورد مرة واحدة في كتاب الله: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣) فاطر.

والحديث موجه لقريش التي تعبد أصناماً من جماد لا تشعر ولا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئاً، بينما يدعوهم الرسول أن يعبدوا الله خالق الأرض التي يعشون عليها وكل كائن حي من حيوان ونبات وحشرات وهو سبحانه خالق الكون كله وما فيه من حياة وكواكب وشموس ومجرات وعوالم وهو القادر على كل شيء. ولا مجال لمقارنة معبود قريش بالله العظيم. والقارئ الذي لا يعرف معنى «قطمير» لو انتبه إلى أن اللفظ جاء في سياق يقول



إن الله يملك كل شيء وخالق كل شيء، بينما الأصنام لا تملك ولا تخلق شيئاً مهما بلغ من الحقارة والصغر. فسيعرف أن «قطمير" تعني شيئاً في منتهى الحقارة والصغر، وهذا التعريف كافٍ دون الحاجة لأن يقرأ أن بعض المفسرين قالوا إنه القشرة الشفافة الخفيفة التي تحيط بنواة التمر، وقال آخرون هو الأثر على النواة، وقال غيرهم غير ما قالوا. فالقارئ العادي يهمه أن يعرف المقصود بإيراد اللفظ في الآية والذي يدل على حقارته، وهو ما يمكن فهمه من سياق الآية ومعرفة من تخاطب.

وبيان مفردات القرآن يكون لمعناها الذي ورد في الآية ويتفق مع السياق، وليس البحث لغوياً عن اللفظ وسرد معانيه الغريبة والشاذة التي أوردها المفسرون، فهذا لا يهم القارئ ولا يعينه على فهم اللفظ كما ورد في الآية.

فالغرفة مثلاً وردت في القرآن مرة واحدة وفي سورة الفرقان. واللفظ في القاموس له عدة معانٍ، منها ما هو مشهور ومعروف ومنها غريب شاذ، ومن المعروف: الغُرْفة هي العِلِّيَّةُ، والجمع غُرُفات وغُرَفات وغُرْفات وغُرَف، أي الحجرة.

وقد جاءت الغرفة في سورة الفرقان بمعنى الجنة: وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)أُولَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا (٧٥)خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) الفرقان.

وقد عرفنا أن الغرفة هنا تعني الجنة بالسياق، برغم أن الغرفة لا تأتي بمعنى الجنة عادة.

وتقول سورة الذاريات: وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً(١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً(٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً(٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً(٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ(٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(٦).

فالدين هنا بمعنى القيامة، وليس من الديانة والمعتقد. لأنه ورد في هذه الآيات لتأكيد وقوعه لقريش التي تنكر البعث والقيامة.

ولأنه ورد في القرآن وفي عدة سور «يوم الدين» بمعنى يوم القيامة، ومن ذلك: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) الصافات.

مثال آخر: تقول سورة السجدة: وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ(١٠).



والحديث عن قريش التي تنكر البعض، وقد عبرت الآية بـ « ضللنا» ليس بمعنى الضياع والتيه، ولكن تعني تحللت أجسادنا. وهذا الفهم «لضللنا» بمعنى اندثرنا وتحللنا، من السياق وليس من معاجم اللغة.

ومثله: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٢٩) السجدة.

المخاطب قريش، والسياق يخبرنا أنه إذا جاء «يوم الفتح» ستندم قريش التي تسأل بسخرية.

وهناك عديد من الآيات كررت سؤال قريش الساخر هذا وتأتي الآيات لتؤكد أنها ستندم. والآيات استخدمت عبارة: «هذا الوعد» في سورة الملك: ٢٥، يس: ٤٨، سبأ: ٢٩، السجدة: ٢٨، النمل: ٧١ وغيرها.

وقريش تنكر البعث واستمرت تسأل الرسول عن موعده، فيكون الفتح الذي تسأل عنه قريش والذي إذا ما جاء ستندم، هو الوعد، وهو يوم القيامة.

وليس يوم الفتح بمعنى يوم النصر والسرور كما ورد في قله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح (١) النصر.

وبناءً على ما تقدم يمكن القول إن الكلمة في القرآن يعرف معناها من سياقها الذي جاءت فيه وليس ما تعنيه في قواميس اللغة. واعتماد السياق في التعرف على المعنى الحقيقي للفظ في الآية، قاعدة عملية صائبة. فمن يرغب بتعلم لغة أجنبية يسمح له في البداية بالرجوع للقاموس باللغتين العربية والأجنبية، لكي يتعرف على معنى اللفظ الذي لم يعرف معناه. ثم في مرحلة لاحقة من برنامج التعلم، يسمح له اللجوء للقاموس باللغة الأجنبية فقط، ليقرأ معنى اللفظ بتلك اللغة، ولا يسمح له الرجوع إلى قاموس عربي - أجنبي. وعندما يصل لمرحلة متقدمة من تعلم اللغة، يمنع من استخدام أي قاموس، حتى ولو كان باللغة الأجنبية، وعليه أن يعتمد كلياً على سياق الجملة ليتعرف على معنى أي لفظ لا يعرف معناه.

وإن كان المقام يسمح بذكر توصية فستكون بالتشديد على إعادة كتابة معاني الألفاظ العربية وحصرها بطريقة أكثر دقة بعيداً عن تخاريف مفسرٍ، أو شعرٍ مختلق. والاعتماد على القرآن كمصدر رئيسي للتعريف بكل الألفاظ التي وردت فيه. ولا بأس من الاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة في صناعة القواميس، كالإنجليزية مثلاً التي تضخمت وتوسعت وأصبحت



قواميسها لا تقارن بقواميس اللغة العربية، مع أن العربية أغنى منها بالمفردات والعبارات.

وفي هذا القسم سنمر ببعض الألفاظ التي وردت في كتاب الله، للتدليل على أن معاني ألفاظ القرآن تؤخذ من القرآن ولا تؤخذ من كتب التراث. وما لم يذكر هنا - وهو كثير - يمكن للقراء التعرف على معانيه من السياق ومعرفة من تخاطب الآية.

وبالله التوفيق.




مكتبة
الفكر الجديد

الرحمن

لفظ فريد من نوعه. فهو اسم للخالق مع أسم الجلاله المعروف «الله»، وفي نفس الوقت صفة لله لا تجوز لغيره. وكل ما يسمى في القرآن بأسماء الله الحسنى هي - حسب مفهومنا في هذا العصر - صفات له سبحانه وليست أسماء: هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤) الحشر.

الرحمن كإسم لله

هناك الكثير من الآيات التي تذكر «الرحمن» كاسم لله، ومن ذلك: قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تدعو فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١١٠) بني إسرائيل.

ومثلها: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً(٤٥) مريم.

وهذا مماثل لقوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ(٤٧) الأنعام.

ويقول تعالى: جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) مريم.

وهو مماثل لقوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً(١٢٢) النساء.

ويقول تعالى: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً(٨٥) مريم.



وهو مماثل لقوله تعالى: وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ(١٥٨) آل عمران.

ويقول تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً(٨٨) مريم.

وهو مماثل لقوله تعالى: وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ(١١٦) البقرة.

وقوله تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ(٣٣) ق.

وهو مماثل لقوله تعالى: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِّ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَّ وَكَفَى بِاللهِّ حَسِيباً(٣٩) الأحزاب.

فالله اسم للخالق، وليس صفة له سبحانه، والرحمن اسم لله جل وعلا، كما في قوله تعالى: قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ(٤٢) الأنبياء.

ولو كان لله جل وعلا اسم أعظم كما تزعم كتب التراث أو أي اسم آخر غير الله والرحمن لذكره القرآن.

الرحمن صفة له سبحانه

فالله جل شأنه هو الرحمن لذاته، وهو سبحانه مصدرُ الرحمة. أي أن الله تبارك وتعالى من صفاته أنه (رحمن) أي مصدرٌ للرحمة. إضافة إلى أنه رحيم لغيره. فهو رحمن رحيم. وهذا الوصف (رحمن) لا يختص به سواه سبحانه، فليس هناك من هو مصدر للرحمة سواه جل وعلا. لكن الله رحيم، وهناك من هو رحيم من خلقه، وهو سبحانه كريم، وهناك من هو كريم من خلقه، والله جل شأنه عليم، وهناك من هو عليم من خلقه، ولو بقدر لا يضاهي ما لله جل وعلا.

ولفظ "الرحمن" حصل حوله جدل ولغط كثير، بدأه المفسرون ونشره المستشرقون، وتلقفه منهم البعض ممن لم يكلف نفسه عناء البحث واكتفى بتبني ما يقولون. ومما قال ثيودور نولدكه، صاحب كتاب تاريخ القرآن: إن الرحمن اسم صفة لله أصلها عبري «رحمانا». ويقول:" ربما كان محمد يريد أن يستخدم الرحمن بدل الله لأن المشركين يستخدمون لفظ الله".

و(ربما) نولدكه بُني عليها كتب ومقالات، كما "الربما" الكثيرة غيرها التي يستخدمها



المستشرقون الذين يأتون بظنون يعبرون عنها (بربما) ثم يبنون عليها استنتاجات يسوقون لها على أنها حقائق، وليست مجرد ظنون.

والمستشرقون - كالعادة - تبنوا كلام المفسرين، عندما قالوا إن الرسول محمد استعار لفظ (الرحمن) من مسيلمة الكذاب، الذي يزعم المفسرون أنه (قد يكون) يسمى رحمن اليمامة. وهذا بعض ما قالوا:

يقول الطبري في قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَـنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً(٦٠) الفرقان.

"يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرّهم: اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ: أي اجعلوا سجودكم لله خالصا دون الآلهة والأوثان، قالوا: أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا.

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة: لِمَا تَأْمُرُنا بمعنى: أنسجد نحن يا محمد لما تأمرنا أنت أن نسجد له؟ وقرأته عامة قرّاء الكوفة: «لِمَا يَأْمُرُنا» بالياء، بمعنى: أنسجد لما يأمر الرحمن؟ وذكر بعضهم أن مُسيلمة كان يُدعى الرحمن، فلما قال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: اسجدوا للرحمن، قالوا: أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة؟ يعنون مُسَيلمة بالسجود له".

ويقول القرطبي: "وقال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سَلاَم وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: (قُلِ ادْعُواْ اللهَّ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تدعو فَلَهُ الأَسْمَآءَ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) (بني إسرائيل: ١١٠) فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمنْ والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب؛ فنزلت: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَـذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَـنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء: ٣٦).." انتهى

ويمكن للقراء ملاحظة أن المفسرين يقومون باختلاق القصص بعد أن يقرأوا الآيات، لكي تبدو وكأنها أسباب نزول للآيات. وإلا فسورتا بني إسرائيل والأنبياء من السور المكية



وقبل الهجرة وابن سلام أعلن إسلامه بعد الهجرة. وهذا يؤكد أن الآيات لا علاقة لها بتخاريف المفسرين الذين لم يفهموا القرآن ولا يعيرو انتباههم لفهمه أي أهمية.

وقوله تعالى على لسان قريش: «قالوا وما الرحمن؟» لا تعني أنهم لا يعرفون «الرحمن» ولكنه تساؤل مشابه لتساؤل قريش عن الساعة في قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢) الجاثية.

وقريش تعرف معنى الساعة والقيامة ويوم البعث، لكنها لا تؤمن بحدوثها، ولهذا جاء التساؤل الإنكاري في الآية. فهو إنكار لوقوع الساعة وليس إنكاراً لمعنى الساعة. كما هو الحال بالنسبة لآية الفرقان. فإنكار قريش لعبادة الرحمن وحده وليس إنكاراً للفظ الرحمن ومعناه الذي يعرفون. والدليل قوله تعالى: وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٦) الأنبياء.

لكن ما قاله المفسرون من تخاريف هو ما رسخ وفرح به المستشرقون. بل إن ترجمة «الرحمن» إلى اللغات الأجنبية جاءت تبعاً لذلك، بشكل خاطئ. فهي تترجم للإنجليزية في المصحف بهذه الصيغة: The Beneficent وهي تعني الخيِّر الرحيم المحسن المنّان. وأحياناً تترجم بهذه الصيغة: Most Gracious وهي تعني الرؤوف، الكريم، اللطيف. وأحياناً تترجم الرحمن بهذه الصيغة: The Entirely Merciful والتي تعني الرحيم المثالي.

وكان يجب أن تترجم "الرحمن" كما هو معناها في القرآن «مصدر الرحمة»، ولو لم تكن لفظاً واحداً، كأن يقال: The Source of Mercy وذلك في الآيات التي تأتي فيها الرحمن كصفة. بينما تبقى بلا ترجمة في الآيات التي تأتي فيها الرحمن كاسم لله، وتكتب بالأجنبية كما تلفظ بالعربي: Ar-Rahman لأن الأعلام لا تترجم.

والرحمن لفظ معروف منذ القدم عند العرب، وهناك «صحابة» سموا أو سمي آباءهم عبد الرحمن، مثل: ثعلبة بن عبد الرحمن الأنصاري، عبد الرحمن بن أزهر بن عوف (ابن عم أو ابن أخي عبد الرحمن ابن عوف المشهور) عبد الرحمن بن أمية بن أبي عبيدة بن همام التيمي حليف قريش، عبد الرحمن بن بديل بن ورقاء الخزاعي، عبد الرحمن بن جابر العبدي أحد من كان مع وفد عبد القيس، عبد الرحمن بن سمرة وكثيرون غيرهم.

كما ورد اسم الرحمن في الشعر، ومن ذلك، قول بيت منسوب لسلامة بن جندل الطهوي



في الجاهلية:

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم ... وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وبيت منسوب لامرؤ القيس:

تِلْكَ السَّحابُ إذا الرَّحمَنُ أرْسلَهَا ... رَوّى بها مِنْ مُحُولِ الأرْضِ أيباسَا

وآخر لأمية ابن الصلت:

منهم رجال على الرحمن رزقهمُ ... مكفَّرٌ عنهم الأخباثُ والوَزَرُ

وقول الأعشى:

وإنّ تُقَى الرَّحْمَنِ لا شَيْءَ مِثْلُه ... فصَبْراً إذا تَلقَى السَّحاقَ الغَرَائِيَا

وقول أبي طالب القرشي، عم الرسول:

إلى الرحمنِ والكرم استَذَمُّوا ... وكلُّ فَعالِهم دَنِسٌ ذَميمُ

وقول كعب ابن زهير:

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

وورد لفظ "الرحمن" في النقش السبأي الذي عثر عليه قرب آبار مريغان القريبة من تثليث[1] في العام ١٩٥١ وإحداثيات الموقع كما يلي: N19,543923 E43,7935209 أثناء رحلة كشفية مكونة من ثلاثة أجانب هم ريكمنس الفرنسي G.Ryckmans الذي اكتشف النقش، وشخص آخر اسمه ليبنز Lippiens وقادها العميل الاستخباراتي البريطاني الشيخ عبدالله فيلبي أو هاري سينت جون بريج فيلبي Harry St. John Bridger Phillby وهو نقش يعود لما قبل ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكتبه أحد الجنود لتخليد غزوة أبرهة وهم في طريق العودة بعد تأديب بعض القبائل العربية في وادي ذي مرخ قرب الطائف وفي حلبان، ويبدأ النقش بما يلي:

"بخيل الرحمن ومسيحه الملك أبرهة زيبمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات".

فالرحمن اسم لله وصفة من صفاته سبحانه معروف قبل الإسلام ومنذ القدم، ولا غرابة لو

---

١ تثليث بلدة قديمة جداً، كانت من القرى الظاهرة التي يمر بقربها طريق القوافل التي تحمل البخور واللبان والبهارات من قرب بحر العرب جنوباً إلى غزة وبصرى الشام ومنها إلى روما وأوروبا. وهذه إحداثياتها: N19,530242 E43,507490



ورد في كتب بني إسرائيل - إن كان قد ورد - لأنهم في الأصل عرب، نزلت عليهم توراة عربية[٢]. ولا أهمية لكلام المستشرقين الذين يقولون بأن الرحمن لفظ عبري في الأصل، لأن العبرية لغة هجين تولدت بعد أن فقد بنو إسرائيل لغتهم العربية بسبب هجراتهم واستيطانهم في بلاد أجنبية خارج الجزيرة العربية، وليست سابقة للعربية في الوجود، بخلاف زعم علماء اللغات الغربيين المتأثرين بثقافة اليهود والذين يحاولن ترسيخ أن العبرية هي أصل لغات جزيرة العرب.

---

٢ وهو ما سيتأكد للقارئ عند الحديث عن بني إسرائيل أثناء تدبر السور.



القرآن

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) الجن.

افتتاح سورة الجن تعطي أوضح تعريف، وماذا يعني اللفظ «قرآن».

الجن سمعوا قرآناً، فما الذي سمعوه؟

سمعوا الرسول يتلو نصوصاً على جمع من قريش، وهذه النصوص عبارة عن آيات تتكون منها السور. والرسول لم يكن ممسكاً بصحيفة ويقرأ منها، ولكنه كان يتلو القرآن عن ظهر قلب، وكأنه يقرأ من صحيفة منشورة أمامه. فهو قرآن لأنه يتلى مشافهة ولا يقرأ من صحف مكتوبة. وليس لفظاً سريانياً، كما روج المستشرق الألماني نولدكه (Theodor Nöldeke) في كتابه: تاريخ القرآن (Geschichte des Qorans) وتبعه المستشرق الألماني الآخر شفالي (F. Schwally) بافتراض أن أصل كلمة (قرآن) هو كلمة قِريانا (qeryānā) السريانية بعدما تعسف في تصريفها. فأصبح هذا الزعم المفترض حقيقة لا تقبل الجدل عند المستشرقين، معتبرين أن السريانية والعبرية يسبقان العربية، وهذا زعم متحامل ينفيه الواقع وعلوم اللغة، التي تظهر أن التصريف اللغوي في اللغتين كان من العربية وليس سابقاً لها[٣].

مَلِكِ يوم الدين

البعض يقرأها «مالك يوم الدين» والله جل وعلا مالك كل شيء، لكنه وحده سبحانه هو ملك يوم الدين والمتحكم فيه. والفاتحة أول سورة نزلت على رسول الله محمد في دعوته الموجهة لقريش التي تنكر البعث ويوم الدين. وقد أكدت عدة آيات أن الله جل شأنه هو وحده ملك يوم الدين، منها: يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(١٦) غافر.

وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(٧٣) الأنعام.

---

٣ هناك بحث دقيق في هذا الموضوع كتبه: د. أحمد محمد علي الجمل، بعنوان: القرآن ولغة السريان. ونشر في مجلة اللغات والترجمة ـ جامعة الأزهر، عدد (٤٢) لعام ٢٠٠٧.



وقوله تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ للهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٥٦) الحج.

وقوله تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً(٢٦) الفرقان.

ولم يرد في القرآن عبارة: «مالك يوم الدين» أو أي عبارة تقول إن الله هو مالك يوم الدين أبداً.

العالمين

تم إحصاء (٦١) مرة ورد فيها ذكر «العالمين» في القرآن، إضافة إلى (١٣) مرة تكرر لفظ «للعالمين». بعضها يعني الناس ككل، وبعضها يعني أهل بقعة في زمان ومكان محدد، وليس كل الناس على الأرض، وفيما يلي مثال على المعنيين:

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٨٧) ص.

والآية تتحدث عن الوحي الذي يتلو الرسول محمد على الناس، وهو القرآن. وتصفه الآية بأنه ذكر لكل الناس (في كل زمان ومكان).

وفي كل مرة يرد لفظ «على العالمين» ضمن الحديث عن بني إسرائيل فهو يعني من حولهم من الناس في وقت معين، ولا يعني كل الناس في كل زمان ومكان، ومن ذلك: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) الجاثية.

الصراط

اهدِنَـــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧) الفاتحة.

برغم أن المفسرين ذكروا في كتبهم بعض الأقوال التي تؤكد أن الصراط المستقيم هو الطريق القويم أي الدين الصحيح، وهو كذلك، إلا أنهم نقلوا أيضاً أقوالاً خرافية عن معنى الصراط، أخذها البعض على أنها حق. والتي تصور الصراط على أنه جسر معلق فوق جهنم يوم القيامة. وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف، وعليه كلاليب مثل شوك



السعدان، وعلى الناس عبوره، فمن تجاوزه دخل الجنة وإلا سقط في جهنم. ووصف هذا الجسر «الصراط» ورد ليس فقط في كتب التفسير بل وفي أحاديث في البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرهم.

وهذا من تخاريف المفسرين، الذي اقتبسوه من الزرادشتية. فعند الديانة الزرادشتية سيكون هناك جسر يمر عليه كل من يموت. فإن كان صالحاً اتسع الجسر ومر بسلام، وإن كان ضالاً ضاق عليه الجسر ويخرج له شيطان يسحبه للجحيم معه.

المغضوب عليهم والضالون

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧) الفاتحة.

نجد في كتب التفسير أن المعنيُ «بالمغضوب عليهم» هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى. واليهود والنصارى بعد بعثة محمد ضالون لأنهم لم يتبعوا دين الله الحق الإسلام، ومن يضل عن دين الله مختاراً، فقد غضب الله عليه، لكن هذه الآية لا تتحدث عنهم.

لأن سورة الفاتحة أول سورة نزلت على رسول الله، كواحدة من السور التي تُعَرِّفُهُ وقريش، أنه قد تم اختياره ليكون رسولاً لله، وذلك قبل أن يؤمر بالبدء بالدعوة فعلياً. لذا فعند نزول الفاتحة لم يحن الحديث عن الكفار، سواء كانوا مشركي قريش - الذين بعث فيهم الرسول - أو يهود ونصارى يثرب الذين لن يخاطبهم القرآن إلا بعد سنين من بدء الدعوة. لأن الرسول سيستمر في دعوة قريش خاصة من دون الناس، في سنواته الأولى من البعثة، قبل أن يتحول الخطاب في القرآن لدعوة كل الناس بدءً من سورة ص. وبالتالي فليس من المعقول أن يبدأ الوحي بمهاجمة اليهود والنصارى قبل أن يوجه لهم الدعوة للدخول في الإسلام.

والقرآن دعا الناس أولاً، واستمر يدعو، حتى أعلن الناس أنهم لن يؤمنوا مهما دعوا، فبدأ القرآن يصفهم بالكفار والمشركين أو المغضوب عليهم أو الضالين أو غير ذلك.

ودعوة بني إسرائيل يثرب - بما فيهم اليهود والنصارى - بدأت قبل الهجرة والرسول في مكة، لكن القرآن لم يصف اليهود بالمغضوب عليهم إلا في السور المدنية، بعد أن أعلنوا موقفهم الرافض للإسلام. ومن السور التي وصفتهم بالمغضوب عليهم، البقرة في الآية:



٦١، ٩٠، وفي الآية: ٦٠ من سورة المائدة، وسور أخرى بعد ذلك.

والمغضوب عليهم ليسوا فقط اليهود أو بني إسرائيل، بل كل من شاق الله ودينه فقد غضب الله عليه ولعنه، ومن ذلك، أن من يقتل مؤمناً متعمداً فهو من المغضوب عليهم: وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً(٩٣) النساء.

ومن يهرب من المعركة من المسلمين فهو من المغضوب عليهم: وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦) الأنفال.

ومن ارتد من المسلمين: مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) النحل.

والمنافقون والمشركون من المغضوب عليهم: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً(٦) الفتح.

كما أن الضالين ليسوا فقط نصارى يثرب، بل هم كل من ضل عن دين الله الحق:

فكل من لا يؤمن بالإسلام فهو ضال: وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢) النمل.

ومن لا يؤمن بالرسول محمد، ودين الإسلام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١٣٦) النساء.

ومن يبدل الإيمان بالكفر: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٠٨) البقرة.

ومن يشرك بالله: إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١١٦) النساء.

وكل من خالف القرآن: إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن



ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٤١) الزمر.

المفسرون - كالعادة - أولوا كلام الله لغير معناه، بقولهم إن المقصود بالمغضوب عليهم والضالين الوارد في سورة الفاتحة هم اليهود والنصارى. وقد استدلوا في قولهم هذا بحديث منسوب لعدي ابن حاتم، ورد في كتب الحديث، بعدة صيغ، منها: حدثني أحمد بن الوليد الرملي، قال: حدثنا عبد الله بن جعفر الرقي، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عديّ بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الـمَغْضُوبُ عَلَـيْهِمْ: الـيَهُودُ».

وعدي ابن حاتم أعلن الإسلام في عام الوفود، أي قبل عام واحد من وفاة رسول الله. وحتى لو كان قد أعلن إسلامه قبل ذلك - كما تقول بعض الروايات - فهذا لا يعني أن الناس طوال فترة دعوة رسول الله لم يعرفوا المقصود بآية سورة الفاتحة إلا بعد أن أسلم عدي.

ولعل الحديث المنسوب لعدي هو كما ورد في إحدى رواياته التي تقول: حدثنا حميد بن مسعدة الشامي، قال: حدثنا بشر بن الـمفضل، قال: حدثنا الـجريري عن عبد الله بن شقيق: أن رجلاً أتـى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مـحاصرٌ وادي القرى فقال: من هؤلاء الذين تـحاصر يا رسول الله؟ قال: «هَولاءِ الـمَغْضُوبِ عَلَـيْهِمْ: الـيَهُودُ».

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يحاصر يهود وادي القرى (العلا الحالية). لذا فقد يكون عدي ابن حاتم حضر للمدينة في وقت كان الرسول يحاصر قوماً من بني إسرائيل يثرب، الذين ذكر ما حدث لهم القرآن، فسأل عنهم الرسول فجاء الجواب: بأنهم المغضوب عليهم.

وهناك قبيلتان من بني إسرائيل يثرب خانوا معاهداتهم مع المسلمين وتعاونوا مع قريش وغيرهم من أعداء الإسلام للقضاء على المسلمين، مما تسبب في حصارهم وطردهم من يثرب. وقد حدثتنا سورة الحشر عن إحدى الواقعتين في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢).

وهذه الحادثة وقعت قبل وفاة الرسول بنحو عام. أما الحادثة الأولى فوقعت بعيد موقعة



الأحزاب وحدثتنا عنها سورة الأحزاب: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧).

وكان هذا في السنة الرابعة على الأرجح أو السنة الخامسة كما تقول كتب التراث.

وعليه فلا علاقة لهذه الرواية - لو صحت - بسورة الفاتحة، لأن الرسول هنا ينعت بني إسرائيل - المحاصرين لحظة وصول عدي - بما نعتهم به القرآن بعد أن أعلنوا رفضهم التام لقبول دعوة الإسلام، بل وكادوا المكائد للإسلام وأهله. ومكائدهم كانت السبب وراء إجلائهم من يثرب، والذي يبدو أن عدي ابن حاتم قد شهده عند حضوره للمدينة لمقابلة الرسول. وبالتالي فهم من المغضوب عليهم وليسوا هم فقط المغضوب عليهم.

ويبدو أن المفسرين التقطوا الرواية وأضافوها كتفسير لآية سورة الفاتحة ثم أضافوا لها أن الضالين تعني النصارى، كون الحديث عن اليهود يقترن عادة بالنصارى.

تضليل

تضليل في قوله: أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) يسهل فهم أنها لا تعني الضلال. لأن أصحاب الفيل كان كيدهم (مخططهم) دخول مكة وتخريب البيت، فجعل الله كيدهم في نحورهم. والآية تستخدم لفظ «تضليل» للوصول لهذا المعنى، فكيدهم في تضليل تعني في خسران. لأن مخططهم (كيدهم) فشل ولم يتمكنوا من تحقيق ما قدموا من أجله وتخريب البيت. فتضليل جاءت للتعبير عن الخسران والفشل، وليس لها علاقة بالضلال.

طيراً أبابيل

تأول المفسرون معنى طيراً أبابيل، إلى طيور حقيقية تحمل حجارة وتلاحق رجال جيش أبرهة وترميهم بحجارة تحملها بين رجليها ومنافيرها. وهذا تفكير سطحي، يتناسب مع مدارك المفسرين، الذين يؤمنون بالخوارق وتصوروا أن هناك طيوراً جاءت من خارج الأرض لا تؤثر فيها حرارة الحجارة التي تحملها والتي إذا ألقيت على رجل من جيش أبرهة اخترقت رأسه وخرجت من دبره، كما تخيلوا وزعموا.



وما حدث لأصحاب الفيل لم تقم به طيورٌ خاصة نزلت على الأرض من خارجها. لأن كل من ذكرهم القرآن من الأمم قد أهلكوا بكوارث طبيعية تحدث دائماً على الأرض، ولم يهلك قوم بعذاب نزل من خارج الأرض، بشهادة القرآن: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٠) العنكبوت.

فالحاصب هو البركان، وقد هدد الله قريشاً بأنه قد يصيبهم: أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً(٦٨) بني إسرائيل.

وثمود هلكت بالصيحة: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ(٣١) القمر.

والصيحة هي الرجفة، أي الزلزال، لأن القرآن يقول بأن ثمود هلكت بالرجفة: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨) الأعراف.

وقوم لوط أهلكوا بحجارة من سجيل كما حدث لأصحاب الفيل: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٧٤) الحجر.

والحجارة من سجيل كانت مصحوبة بالصيحة (الزلزال). أي كان هناك زلزال أعقبه ثوران بركان. أو مطر من حجارة من سجيل، كما وصفت الآية الحمم البركانية.

وهو ما حدث لأصحاب الفيل، وقد صوره القرآن بصورة أخرى: وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤).

فالحجارة من سجيل - الحمم البركانية - هي من أهلكت قوم لوط وأصحاب الفيل. وهي حمم تتطاير متتابعة وتقع من الأعلى. وهذه الحمم المتطايرة وصفتها سورة القمر بأنها «حاصب»: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ(٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(٣٤) القمر.

وكأن الحجارة ترمى عليهم. وحصبه في اللغة تعني رماه بالحَصْباءِ وتحاصَبُوا: تَرامَوْا بالحَصْباءِ. فأصحاب الفيل حُصبوا بالحمم ولم يكن هناك طيور ضد الحريق تحمل في مخالبها ومناقيرها حجارة منصهرة.



سِجِّيل

سنبدأ بما يقول أصحاب المعاجم اللغوية عن معنى سجيل، وهو مطابقٌ لما قال المفسرون، ثم نبين المعنى كما يفهم من سياق الآيات ويتوافق مع الواقع.

سجيل في كتاب لسان العرب

يقول ابن منظور: وفي التنزيل العزيز: تَرْمِيهم بحِجارة من سِجِّيل؛ وقيل: هو حجر من طين، مُعَرَّب دَخِيل، وهو سَنْكِ رَكِل. قوله «وهو سنك وكل» قال القسطلاني: (سنك، بفتح السين المهملة وبعد النون الساكنة كاف مكسورة. وكل، بكسر الكاف وبعدها لام) أي حجارة وطين؛ قال أَبو إِسحق: للناس في السِّجِّيل أَقوال، وفي التأويل أَنها من جِلٍّ وطين، وقيل من جِلٍّ وحجارة، وقال أَهل اللغة: هذا فارسيٌّ والعرب لا تعرف هذا؛ قال الأَزهري: والذي عندنا، والله أَعلم، أَنه إِذا كان التأْويل صحيحاً فهو فارسي أُعْرِب لأَن الله تعالى قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط فقال: لنُرْسِل عليهم حجارةً من طين؛ فقد بَيَّنَ للعرب ما عَنى بسِجِّيل... انتهى

وكما نرى فقد حول اللغويون لفظ «سجيل» إلى لفظين فارسيين: «سنك»، التي تعني حجارة. و «كل»، التي تعني طين.

ويواصل ابن منظور في لسان العرب، قائلاً: قال أَبو عبيدة: من سِجِّيل، تأْويله كثيرة شديدة؛ وقال: إِن مثل ذلك قول ابن مقبل: ورَجْلَةٍ يَضْرِبون البَيْضَ عن عُرُضٍ، ضَرْباً تَوَاصَتْ به الأَبْطالُ سِجِّينا قال: وسِجِّينٌ وسِجِّيلٌ بمعنى واحد.... انتهى

وهو ما أكده في أسطر لاحقة بقوله: وقيل مِنْ سِجِّيلٍ: كقولك مِن سِجِلٍّ أَي ما كُتِب لهم، قال: وهذا القول إِذا فُسِّر فهو أَبْيَنُها لأَن من كتاب الله تعالى دليلاً عليه، قال الله تعالى: كَلاً إِن كتاب الفُجَّار لَفِي سِجِّينٍ وما أَدراك ما سِجِّينٌ كتابٌ مَرْقومٌ؛ وسِجِّيل في معنى سِجِّين، المعنى أَنها حجارة مما كَتَب اللهُ تعالى أَنه يُعَذِّبهم بها؛ قال: وهذا أَحسن ما مَرَّ فيها عندي.... انتهى

هنا جعلوا سجين وسجيل بمعنى واحد. وقالوا بأن سجيل من السجل أي المكتوب.

ويواصل ابن منظور: وقال بعضهم: سِجِّيل من أَسْجَلْته أَي أَرسلته فكأَنها مُرْسَلة عليهم.



قال أَبو إِسحق: وقال بعضهم سِجِّيل من أَسْجَلْت إِذا أَعطيت، وجعله من السَّجْل؛ وأَنشد بيت اللَّهَبي: مَنْ يُساجِلْني يُساجِلْ ماجدا. ويقول الجوهري: وقوله عز وجل: حجارة من سِجِّيل؛ قالوا: حجارة من طين طُبِخَتْ بنار جهنم مكتوب فيها أَسماء القوم لقوله عز وجل: لنُرْسِل عليهم حجارة من طين... انتهى

وسيلاحظ القراء أن تعريفات اللغويين مجرد نقل لأقوال المفسرين، لذا سنكتفي بما أوردنا من المعاجم عن إيراد كلام المفسرين.

سجيل حسب سياق الآيات

كل ما ورد عن معنى سجيل - سواء في كتب التفسير أو في المعاجم اللغوية - مجرد أقاويل مختلفة ومتخالفة، صدرت من أناس ثقافتهم العربية ضعيفة، ولأنهم لا يعرفون معنى سجيل، وليست لديهم القدرة على استنباط معناها من السياق، فقد قالوا أنها لفظ أجنبي. ولو كان اللفظ كذلك لاعترضت عليه قريش التي خاطبها القرآن، لكن قريشاً لم تعترض لأنهم فهموا معنى سجيل، كونه لفظاً متداولاً عندهم وليس لفظاً أجنبياً. والحجاز أرض زلازل وبراكين، لذا يستبعد تماماً أن تخلو لغة أهلها من لفظ يعني الحمم البركانية. وحتى لو كانت «سجيل» لفظاً فارسياً فهي عربية بالاستخدام، درج الناس في الحجاز على استخدامه للحمم البركانية عند نزول القرآن. فيكون القرآن لم يستخدم لفظاً فارسياً ولكنه استخدم اللفظ الذي يعرفه المخاطب (وهم قريش) ويستخدمونه. نقول هذا فقط من باب الافتراض.

ولو عدنا لآيات سورة المطففين التي استشهدوا بها فسنجد أن سجين تعني كتاباً مرقوماً، والمقصود به صحيفة الأعمال التي تسجل عليها أفعال وأقوال المرء ويحاسب بموجبها يوم القيامة. ولا تعني كتاب القدر المسبق كما قالوا، ولا علاقة لها بسجيل. لأن كلمة سجيل حجارة من نوع خاص أمطر بها قوم لوط: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٧٤) الحجر.

وأُمطر بها أصحاب الفيل: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥).



فهي لفظ يعني الحمم البركانية، بلغة العصر الحالي. وآية الحجر واضحة، في قولها بأن القرية حدث لها زلزالٌ أولاً: «فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا» ثم أُمطرت بالحمم البركانية: « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ». ولو كان ما حدث - كما زعم المفسرون - فلن يكون هناك حاجة لجعل عالي القرية سافلها، ما دام هناك حجارة من سجيل تحملها طيورٌ أرسلها الله، كل طير معه حجارة يعرف من سيصيب بها من القوم، ورسل الله لا تخطئ. فالحجارة كافية لهلاكهم، ولا حاجة للزلزال. لكن لو أن ما حدث هو زلزال متبوع بثوران بركان، فهذا هو ما يحدث على الطبيعة دائماً وبشكل معتاد. لكن يأبى المفسرون إلا أن يُحَرِّفُوا الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، ونتوارث ما قالوا ونعتمده بديلاً لكلام الله.

ويخبرنا القرآن أن القوم قد حولتهم الكارثة إلى ما يشبه العصف المأكول: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥) الفيل.

والحمم البركانية (الطير الأبابيل) تندفع من باطن الأرض بدرجات حرارة قد تصل إلى (١٢٠٠) درجة مئوية[٤]، ولو وقعت على جسم الإنسان لحولته، خلال لحظات، إلى ما يشبه العصف المأكول. أي إلى ما يشبه تجاعيد قشرة أي ثمرة أو حبة قمح قد أفرغت من ثمرتها وبقيت قشرتها المتجعدة، وذلك نتيجة لتبخر السوائل التي تكون ٨٠٪ من جسم الإنسان في لحظات، وكأنه فُرِّغ من الداخل وبقي جلده المتجعد يغطي العظام تحته.

إيلاف

ما ورد في المعاجم خليط من كلام المفسرين واللغويين ونقل لأقوال القراء، ولا يخرج عن ذلك. لذا سنكتفي ببعض ما ورد في تفسير الطبري، كما يلي:

الإيلاف يعني المعاهدات

فقريش عقدت معاهدات مع الروم وكسرى الفرس ونجاشي الحبشة وملوك حِمْير، فكان تُجّار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحِبال هؤلاء الإخوة فلا يُتَعَرَّضُ لهم.

وهذا الزعم غير صحيح، لأن تجارة قريش قديمة جداً، وتسبق كسرى الفرس ونجاشي الحبشة اللذين عاصرا الرسول.

---

٤ كما ورد في الموسوعة البريطانية.



الإيلاف والمشقة

عن مجاهد، في قوله: إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ قال: إيلافهم ذلك فلا يشقّ عليهم رحلة شتاء ولا صيف. وهو أيضاً غير صحيح، لأن المعنى لا يستقيم، لكن يبدو أن مجاهداً لا يعرف معنى التآلف والموالفة التي جاء منها «إيلاف».

الإيلاف يعني عدم التفرق والخلاف بين القرشيين

وقال بعض أهل التأويل: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ تعني: إلى أُلفة بعضهم بعضا. قال ابن زيد، إن الله أنزل سورة الفيل ليقول لقريش: هذا لإيلاف قريش، صنعت هذا بهم لألفة قريش، لئلا أفرّق أُلفتهم وجماعتهم، إنما جاء صاحب الفيل ليستبيد حريمهم، فصنع الله ذلك.

وهذا الرأي أسوأ من كلام مجاهد السابق.

الإيلاف يعني ابقوا في مكة

بعض المفسرين قالوا: قال الله اعجب يا محمد لنِعَم الله على قريش، في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. ثم قال: فلا يتشاغلوا بذلك عن الإيمان واتباعك.

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، في قوله: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ قال: نهاهم عن الرحلة، وأمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت، وكفاهم المؤنة وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، فلم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فأطعمهم بعد ذلك من جوع، وآمنهم من خوف، وألفوا الرحلة، فكانوا إذا شاءوا ارتحلوا، وإذا شاءوا أقاموا، فكان ذلك من نعمة الله عليهم.

وهو تأويل بعيد جدا، وأبعد منه تأويلهم التالي:

حدثني محمد بن المثنى، قال: ثني ابن عبد الأعلى، قال: ثنا داود، عن عكرِمة قال: كانت قريش قد ألفوا بُصْرَى واليمن، يختلفون إلى هذه في الشتاء، وإلى هذه في الصيف فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ فأمرهم الله أن يقيموا بمكة.

وهناك تأويلات أكثر شذوذاً مما سبق منها:



الإيلاف يعني حب قريش للشام

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن إسماعيل، عن أبي صالح لإيلافِ قُرَيْشٍ إيلافِهِمْ قال: كانوا تجارا، فعلم الله حبهم للشام.

الإيلاف يعني شتاء في مكة وصيفاً في الطائف

حدثنا عمرو بن عليّ، قال: ثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، قال: ثنا خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة قال: ثني أبي، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ قال: كانوا يَشْتُون بمكة، ويَصِيفون بالطائف.

ولا ينسى المفسرون أن يؤولوا الأمن من الخوف لكي تكون الأمن من الجذام. يقول الطبري: وقال آخرون: عُنِي بذلك: وآمنهم من الجُذَام.

وجميع هذه التأويلات العجيبة الغريبة لا تساعد على فهم اللفظ بل تشوش معناه الواضح.

وإن كانت التأويلات مضللة فقد نتج عنها قراءات ضالة لكي تتفق مع تأويلاتهم.

القراءات

الآية تقول: لإيلاف قريش، والقراء أصروا على أن يقرأوها: لإلاف قريش، وبعضهم قرأها: لإلف قريش.

قال أَبو إسحَق في «لإيلافِ قريش» ثلاثة أَوجه: لإيلاف، ولإِلاف، ووجه ثالث لإِلْفِ قُرَيْشٍ.

وفي التنزيل العزيز: لإيلافِ قُريش إيلافِهم رِحْلةَ الشِّتاء والصَّيْفِ؛ في من جعل الهاء مفعولاً ورحلةَ مفعولاً ثانياً، وقد يجوز أَن يكون المفعول هنا واحداً على قولك آلَفْتُ الشيء كأَلِفْتُه، وتكون الهاء والميم في موضع الفاعل كما تقول عجبت من ضَرْبِ زيدٍ عمراً.

وكل ما تقدم لا يبين معنى الإيلاف بقدر ما يظهر تقول المفسرين على الله وتحريفهم لكتابه.

فما هو الإيلاف؟

ينقل ابن منظور، كلام أحد اللغويين: أبي عبيد الذي يقول: أَلِفْتُ الشيء وآلَفْتُه بمعنى واحد لزمته، فهو مُؤْلَفٌ ومأْلُوفٌ.



وإيلاف الواردة في سورة قريش من آلفت الشيء وألفته، بالفعل. لأن قريشاً ألف رجالها السفر وألفت قوافلهم الترحال من شواطئ بحر العرب أقصى جنوب الجزيرة إلى بلاد الشام والعراق على مدار العام. وهو المقصود برحلة الشتاء والصيف، وليس كما قال المفسرون أن هناك رحلة واحدة في الصيف وأخرى في الشتاء فقط. فقوله تعالى رحلة الشتاء والصيف تعني على الدوام، مثل قوله تعالى «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل» في حديثه لقريش عن مساكن قوم لوط: وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ(١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ(١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٣٨) الصافات.

فقريش تمر على مساكنهم في كل الأوقات وليس فقط في الصبح والليل. وعير قريش ترتحل كلما كان هناك بضاعة تنقلها، سواء كان صيفاً أو شتاء.

ولقد توسعنا عمداً في الحديث عن إيلاف لتكون نموذجاً لتأويلات المفسرين لكل ألفاظ القرآن وكيف يحرفون الكلم عن مواضعه، وما يترتب على ذلك من تحريف كلام الله بما أسموه بالقراءات لكي تتفق مع تأويلاتهم المنحرفة، وليطلع القراء على أن معاجم اللغة ما هي إلا اقتباس حرفي لكلام المفسرين ولا تعني أنها تعطي المعنى الحقيقي للألفاظ. وبالتالي فمعنى اللفظ في القرآن يمكن أن يعرف من سياقه وليس بالرجوع لكتب التراث من تفسير أو معاجم.

طُورِ سِينِينَ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١) وَطُورِ سِينِينَ(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ(٣) التين.

نبدأ باستعراض بعض ما صدر عن المفسرين حسبما رواه الطبري في تفسيره، لنعرف أن أقوال المفسرين لا تعدو عن كونها ظنوناً وقصصاً مختلقاً لا أكثر.

ومما قال الطبري في تفسيره:

قال بعض المتأولين: التين: مسجد دمشق، والزيتون: بيت المقدس.

وممن قال بذلك: كعب الأحبار.

وممن قال: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل لذي عليه القدس، قتادة.



ابن زيد قال: التين: مسجد دمشق، والزيتون، مسجد إيلياء.

عكرِمة قال: هم جبلان.

وقال آخرون: التين: مسجد نوح، والزيتون: مسجد بيت المقدس. وممن قال ذلك، ابن عباس.

وابن عباس يقول أيضاً: التين والزيتون وطور سينين: ثلاثة مساجد بالشام.

ومما نقل الطبري عن أقوال المفسرين حول تأويلهم لمعنى «طور سينين»، قوله: اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: هو جبل موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه ومسجده. ذكر من قال ذلك: قتادة، والحسن، وكعب الأحبار.

وقال ابن عباس هو الطُّور.

وقال ابن زيد: هو مسجد الطور.

وقال آخرون: الطُّور: هو كلّ جبل يُنْبِتُ.

ويقول المفسرون عن «سينين» إنها تعني: حسن. وممن قال ذلك: عكرمة، الذي قال: هو الحسن، وهي لغة الحبشة، يقولون للشيء الحسن: سِينا سِينا. وبطبيعة الحال ما زعمه عن لغة الحبشة ليس صحيحاً، لأن أهل الشام لن يستخدموا لفظاً حبشياً لوصف جبل عندهم، لو كان الجبل عندهم بالفعل. لكن يفهم من كلامهم أنه حتى عصر المفسرين لم تكن سيناء الحالية تعرف بسيناء.

ويقول الطبري: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا الصباح بن محارب، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: صليت خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه المغرب، فقرأ في أوّل ركعة وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وطُورِ سِينِينَ قال: هو جبل.

وممن قال بأن الطور هو الجبل: مجاهد، ومجاهد يقول إن سينين تعني المبارك.

والكلبي يقول هو: الجبل ذو الشجر.

ولو نبذنا ما صدر من المفسرين وراء ظهورنا فسنجد أن المعنى واضح، فالتين فاكهة معروفة، وكذلك الزيتون. أما البلد الأمين فهو مكة ولا يوجد بلد أمين وآمن وحرام وبيت لله غيرها على الأرض.



والطور هو الجبل المنتصب بارتفاع حاد، وهو ما ينطبق على جبال السروات التي تقع بالقرب من مكة وتقع الطائف في أعلاها. ولابد أنها كانت تسمى طور سينين، وقد حرفت سينين في عصر العباسيين وكأنها تتحدث عن سيناء الحالية.

وقد جاء ذكر الزيتون في عدد من السور، منها:

وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٩٩) الأنعام.

والزيتون لا ينبت حول مكة ولا في جزيرة العرب في ذلك الوقت، لكنه معروف لقريش، كونها اعتادت الترحال للشام وجلب المنتجات الشامية لمكة، ومنها الزيتون والملابس (كالذي يسمونه السندس والإستبرق) وغيرها.

ومثله التين الشامي، الذي لابد أن قريشاً كانت تجلبه من الشام مجففاً. وينمو في مناطق جنوب غرب جزيرة العرب نوع من التين ذكر في القرآن ضمن الحديث عن السيل العرم الذي أغرق أراضي سبأ: فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) سبأ.

فالخمط هو ما يعرف اليوم بالحمط والحماط في جنوب غرب جزيرة العرب وهو تين بري لون ثمرته أسود يميل للزرقة، وهي حلوة المذاق وأصغر من ثمر التين الشامي.

المزمل

يقول الطبري في تفسيره: المُزَّمِّلُ هو الملتفّ بثيابه. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي وصف الله به نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية من التزمُّل، فقال بعضهم: وصفه بأنه مُتزمل في ثيابه، متأهب للصلاة. ذكر من قال ذلك: قتادة.

وقال آخرون: وصفه بأنه متزمِّل النبوّة والرسالة. وممن قال بذلك: عكرِمة.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون المعنى متزملاً بالنبوة، لأنه لا يمكن أن يلتف بالنبوة كالتفافه بثيابه.

والمزمل هنا ليست من التزمل، ولكن من الزمل، كناية عن العدو والحركة والنشاط، كما



ذكر ابن منظور في لسان العرب. وكأنها تشير إلى أن محمداً عندما نزلت عليه سور المرحلة الأولى أبدى حماساً ونشاطاً ظاهراً لملاحقة رجال قريش في أمكان تجمعاتهم لتلاوتها عليهم. فنزلت هذه السورة تقول له أن يتروى فالأمر أكثر ثقلاً مما يظن لأنه سيواجه العنت والأذى النفسي من المشركين، لذا عليه أن يكون مستعداً نفسياً أولاً قبل البدء الفعلي بالدعوة.

الرجز

في المعجم: صاحب لسان العرب يقول: الرِجْزُ: القَذَرُ، مثل الرِجْسِ.وقرئ قوله تعالى: «والرِجْزَ فاهْجُرْ» بالكسر والضم. قال مجاهدٌ: هو الصنم.

القراءات

يقول الطبري: اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قرّاء المدينة وعامة قرّاء الكوفة: «والرِّجْز» بكسر الراء، وقرأه بعض المكيين والمدنيين والرُّجْزَ بضم الراء، فمن ضمّ الراء وجهه إلى الأوثان، وقال: معنى الكلام: والأوثان فاهجر عبادتها، واترك خدمتها، ومن كسر الراء وجَّهه إلى العذاب، وقال: معناه: والعذاب فاهجر، أي ما أوجب لك العذاب من الأعمال فاهجر. انتهى.

وهناك فرق بين الرِّجز بالكسر، والرُّجز بالضم، كما سنرى في فقرة معنى الرجز في القرآن اللاحقة.

في التفسير

بعضهم قال هي الأوثان أو الأصنام، وقتادة قال هي إساف ونائلة، وهما صنمان كانا عند البيت يمسح وجوههما من أتى عليهما، فأمر الله نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أن يجتنبهما ويعتزلهما.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: والمعصية والإثم فاهجر. وقال الضحاك وغيره: وَالرُّجْزَ فاهْجُرْ يقول: اهجر المعصية.

في القرآن

الرجز في سورة المدثر، جاء بضم الراء وسكون الجيم، وهو يعني كل ما له علاقة بالوثنية: يا



أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥).

فالآية تأمر محمداً بالبدء بالدعوة، ولأنه للتو أصبح رسولاً لله، فعليه أن يذكر ربه ويطهر ثيابه ويبتعد عما له علاقة بالوثنية.

ولم يرد في القرآن بهذا التشكيل في أي سورة أخرى.

لكن الرجز، بكسر الراء، جاء في عدة آيات، وكلها بمعنى العذاب، ومن ذلك:

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(١١) الجاثية.

الآية ضمن سياق يخاطب قريشاً، وتقول من لم يتبع هذا القرآن، فله عذاب (رجزٌ) أليم.

ومثله: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(٥)سبأ.

ومثله معنى الرجز الوارد في سورة الأعراف: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(١٣٥).

والرجز هنا عذاب، وهو « الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ».

وقد تكرر ذكره في سورة البقرة، في آيات منها: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(٥٩).

وفي سورة العنكبوت، ورد الرجز بمعنى العذاب، الذي أهلك قوم لوط: إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٣٤).

وقد أهلكوا نتيجة هبوط الحمم البركانية على قريتهم، نتيجة لثوران بركان مصحوبٌ بزلازل، كما بينته سور أخرى. (يمكن الرجوع لموضوع كيف أهلكت أمم مذكورة في القرآن).

ويكون الرُّجز بالضم يعني الذي له علاقة بدنس الوثنية، والرِّجز بالكسر هو العذاب، وليسا مترادفين، كما يزعم المفسرون. وعند الحديث عن الرجس سنرى أنه ليس مرادفاً للرجز، كما قال اللغويون والمفسرون.



الرجس

ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) الحج.

الرجس هنا تعني الأردان والأوساخ، وقد وردت بنفس المعنى في قوله تعالى: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا(٣٣) الأحزاب.

وقد جاء الرجس بمعنى آخر في قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠) يونس.

والرجس هنا نقيض الإيمان. وبنفس المعنى ورد الرجس في قوله تعالى: فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٢٥) الأنعام.

الناقور

ذكر هذا اللفظ مرة واحدة في القرآن، وذلك في سورة المدثر - أول سورة تعلن بدء الدعوة - والمقصود به يوم القيامة، كما يفهم من سياق الآيات التي تقول بأنه يوم عسير على الكافر: فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(١٠) المدثر.

الطبري ينقل أن معنى «نقر في الناقور» يعني نفخ في الصور. والصور عند المفسرين هو القرن الذي ينفخ فيه كالبوق. فيكون النفخ في الصور عندهم يعني حرفياً: النفخ في بوق أو قرن. والنفخ بالبوق هو تصور اقتبسه المفسرون من التراث اليهودي (الإسرائيليات)، الذين ينفخون في البوق لإعلان المناسبات الدينية والهامة عندهم، وفي إعلان الحروب وعند العزم على إبادة الأعداء. وهو عبارة عن قرن حيوان غير البقر، حتى لا يرتبط بذكرى العجل الذي عبدوه زمن موسى. وقد وجد هذا العرف اليهودي المتمثل بنفخ البوق طريقه لتراث المسلمين، فأصبح الإعلان عن يوم القيامة يتم بنفخ أحد الملائكة البوق «اليهودي» حسب زعم المتأولين، برغم أن المسلمين والعرب لا يستخدمون النفخ في البوق لإعلان مناسباتهم الهامة.



وقد أوردوا حديثاً على لسان ابن عباس أن الرسول خرج إلى أصحابه، فقال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنى جَبْهَتَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِأُذُنِهِ يَسْتَمِعُ مَتى يُؤْمَرُ بِالصَّيْحَة» (تعالى الله ورسوله عن ذلك علواً كبيراً).

وممن قال بأن الناقور هو الصور، وأن الصور هو البوق: مجاهد، عكرمة، الحسن، قتادة، الضحاك، ابن زيد، وابن عباس وغيرهم.

والصور في القرآن لا يعني البوق بل يعني «الكون» بلغة العصر، وهو ما تحدثنا عنه تحت لفظ «الصور» في هذا الفصل.

والنقر في اللغة يعني الطَّرْق والضرب ويعني الثَّقب. وعلى هذا الأساس فالناقور هو الذي يحدث النقر بالطرق أو الثقب. وبالتالي لا يمكن أن يكون معنى «نقر في الناقور» نفخ في البوق. لأن النقر لا يأتي بمعنى نفخ، والناقور ليس البوق.

ومما يفهم من سياق الآيات يمكن القول بأن المقصود بـ «نقر في الناقور" هو يوم القيامة والحساب، لأن الآيات تصفه بأنه يوم عسير على الكافرين. والقرآن يستخدم المجاز في عدة مجالات، ومن ذلك وصف يوم القيامة بالقارعة: الْقَارِعَةُ(١) مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤).

والسياق سهل لنا فهم أن المقصود بالقارعة هو يوم القيامة، ولا علاقة لها بالقرع.

وهناك العديد من الألفاظ المجازية الأخرى التي تعني القيامة، سيمر عليها القراء في هذا الفصل والتي يمكن فهم المقصود بها من السياق بسهولة دون حاجة لتأويلات المفسرين.

سقر

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ......(٣١) المدثر.

أورد ابن منظور في لسان العرب عدة معان لسقر، أحدها قوله: والسَّقْرُ البُعْدُ. وكالعادة فكلام ابن منظور وغيره من أصحاب المعاجم القدماء منقول عن المفسرين كالطبري.

وجهنم لا يمكن أن توصف بالبعد، لكن من يدخلها فيوصف بأنه في سقر. مثل قوله تعالى:



وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ(٦٠) هود.

والبعد هنا ليس في المكان، ولكن كناية عن النبذ والإبعاد من رحمة الله. وهو موافق لمعنى سقر المفهوم من سياق الآيات. وهذا المعنى لسقر ما زال مستخدماً في اللهجة العامية عندنا، خاصة بألسن العجائز، حيث يقال لمن ابتعد وهو غير مرحب به: «إلى سقر».

وسقر وردت في القرآن أربع مرات، ثلاث في سورة المدثر، الآيات:٢٦،٢٦، ٤١، والرابعة في سورة القمر، الآية: ٤٨ والتي هي أوضح آية تزهر أن سقر هي النار، والتي تقول: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ.

وكعادة المفسرين، يأولون الآيات لغير معناها ولو كان بوضوح الشمس في رابعة النهار. يقول الطبري في تفسيره: يعني تعالى ذكره بقوله: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ سأورده بابا من أبواب جهنم اسمه سقر. ... ثم يقول: ثم بين الله تعالى ذكره ما سقر، فقال: هي نار لا تُبْقي من فيها حيا وَلا تَذَرُ من فيها ميتا، ولكنها تحرقهم كلما جدّد خلقهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. انتهى

لاحظ أنه يزعم أنها باب من أبواب جهنم ثم يقول «هي نار لا تبقي ولا تذر» فهو هنا يعود إلى أن سقر هي النار، دون أن يدرك، لأن الباب لا يمكن أن يقال عنه إنه نار لا يبقي ولا يذر.

فسقر في الآيات المقصود بها النار لأن السياق يؤكد هذا دون حاجة لتأويل المتأولين.

عليها تسعة عشر

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ(٣١) المدثر.

من تخاريف المفسرين حول الآية ما نقله الطبري بقوله: حدثني به محمد بن سعد قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ. إلى قوله:



وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزَنة النار تسعة عشر وأنتم الدَّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يأتي أبا جهل، فيأخذه بيده في بطحاء مكة فيقول له: أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى فلما فعل ذلك به رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئا فأخزاه الله يوم بدر... انتهى

القصة اختلقت للسخرية، ومن سخريتها بالرسول تسميته ابن أبي كبشة، وهو لقب نبز به الرسول في كتب التراث ولم تنبزه به قريش ولم يسمعه في حياته، ولكن من اختلاق القصاص في عصور لاحقة. ومن اختلق القصة تعمد هذا، لكي يلازم هذا اللقب رسول الله، ولا يهمه كيف كان مسار قصته المتهالكة، والتي ضرب فيها آيات القرآن ببعض دون حرمة لها ودون احترام. وإلا فقوله تعالى: " أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى" لا علاقة لها بالقصة ولا بأبي جهل. لأنها وردت ضمن آيات في سورة القيامة التي نزلت بعد المزمل بفترة من الزمن. والآيات تتحدث عن موقف قريش بعدما أعلنت رفضها الدعوة وتكذيبها البعث، وتصور ما سيحدث للمكذبين يوم القيامة بصورة افتراضية: كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ(٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ(٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ(٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ(٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى(٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى(٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠).

ولو ابتعدنا عن تخاريف المفسرين، فالتعبير بالملائكة وكأنهم من يقوم على تشغيل النار هو مجازي، لأن النار لا تحتاج لمخلوقات تشغلها، مثلها مثل الشمس وحركة الكواكب وكل الكون وكل خلق الله في الدنيا والآخرة والذي يقوم على قوانين ثابتة لا تحتاج لمشغل ولا مراقب ولا صيانة ولا إدارة. والملائكة في الآيات تشير لهذه القوانين، مثلما أشارت سورة السجدة لملك الموت: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١١) السجدة.



مع أن الموت لا يحتاج لمخلوق حي (ملك) لنزع النفس من الجسد كما صورت لنا كتب التراث، ولكن الموت يتم متى عجز الجسد عن حمل النفس بسبب مرض أو هرم أو حادث[5].

قسورة

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(٥١) المدثر.

قسورة هنا وردت ضمن الحديث عن الكفار في سقر، وكأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة. وبرغم أن المعنى واضح، إلا أننا سنورد ما قال المفسرون لتأكيد ضلاله:

يقول الطبري في تفسيره: قال بعض المتأولين: القسورة هم الرماة. ذكر من قال ذلك: ابن عباس، أبو موسى، مجاهد، قتادة، سعيد ابن جبير، وعكرمة.

وعكرمة قول آخر، حيث يقول هي قسورة النبَّل.

وقال آخرون: هم جماعة الرجال. ذكر من قال ذلك: ابن عباس.

وقال آخرون: هي أصوات الرجال. ذكر من قال ذلك: ابن عباس.

وقال آخرون: بل هو الأسد. ذكر من قال ذلك: أبو هريرة، زيد ابن أسلم، ابن زيد، وابن عباس.

يقول الطبري: حدثني محمد بن خالد بن خداش، قال ثني سلم بن قتيبة، قال: ثنا حماد بن سلمة، عن عليّ بن زيد، عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله: فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: هو بالعربية: الأسد، وبالفارسية: شار، وبالنبطية: أريا، وبالحبشية: قسورة.

ابن عباس هنا يظهر نفسه أمام محدثيه أنه ملم بلغات الأرض، ويبدو أنه لم يكن من بين الحضور من يجيد أي لغة من اللغات التي ذكر ابن عباس وإلا لخطأه. فقسورة بالنسبة له غير واضحة المعنى بلغته هو العربية، حيث كان يقول بأنها تعني الرماة، ومرة قال: جماعة الرجال، ومرة قال: أصوات الرجال، ومرة رابعة قال: هي الأسد. كما أن المعاني التي ذكر

٥ انظر فقرة الموت / في هذا القسم للمزيد.



في اللغات الأخرى ليس بالضرورة أنها صحيحة.

ومثل ابن عباس - كل المفسرين- فهذا عكرمة، مرة يقول بأن قسورة تعني الرماة، ومرة أخرى يقول هي النبل وغير ذلك. وقد أورد الطبري عن عكرمة هذا الخبر: حدثنا هناد بن السريّ، قال: ثنا أبو الأحوص، عن سِماك، عن عكرِمة، في قوله: فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: القسورة: الرماة، فقال رجل لعكرِمة: هو الأسد بلسان الحبشة، فقال عكرِمة: اسم الأسد بلسان الحبشة عنبسة.

عنبسة عربية التركيب، وليست حبشية، لكن عكرمة أراد أن يحافظ على صورته المزعومة أمام العامة التي تظهره وكأنه محيط بكل شيء، مثله مثل كل القصاص والمتأولين.

ونعود لسياق الآية لنعرف المقصود بقسورة: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(٥١).

فالكفار شبهوا بالحمر (الحمير) المستنفرة، التي نفرت بسبب فرارها من القسورة. فالقسورة هي ذلك المخلوق الذي تسبب في نفور الحمر. ولو كان المعنى النبل فسيصيب أحدها ولكن البقية لن تنفر لأن النبل لا صوت لها، ولا يمكن أن يثير انطلاقه فزع القطيع. بينما لو كانت القسورة حيواناً مفترساً، فبمجرد هجومه على جمعٍ من الحمر فستنفر وستفر من أمامه طلباً للنجاة.

هل القسورة أسد أو حيوان مفترس آخر؟

هذا يعتمد على ما كان موجوداً من حيوانات مفترسة تعيش في جبال مكة أو قريباً منها. ومن المعروف حتى وقت قريب أنه كان يعيش في جزيرة العرب النمر والفهد والضبع والذئب ... وغيرها. وهذه الوحوش تصطاد بمفاجأة طريدتها والهجوم عليها بسرعة، وعليه فيمكن أن يكون معنى قسورة الحيوان المفترس، وهو شبيه لمعنى السبع، دون الحاجة لأقوال المتأولين.



اقرأ

تأتي في القرآن على عدة معانٍ، منها:

التلاوة مما حفظ في الذاكرة

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥) العلق.

اقرأ في الآيات السابقة ليست بمعنى نطق حروف من صحيفة مكتوبة، ولكنها بمعنى: التلاوة. أي التحدث بما يُحفظ. مثل قراءة الإمام للفاتحة في الصلاة، فهو يتلوها من صدره وليس من صحيفة مكتوبة، ومن هذا المعنى جاء لفظ القرآن.

والآيات تبين للرسول كيف سيكون تبليغه للدعوة، وذلك بتلاوة القرآن الذي سجل وحفر في ذاكرته. وليست بمعنى اقرأ من صحيفة أو بمعنى ردد ما تسمع من الملك، كما زعمت كتب التراث بلا علم.

فاقرأ في الآيات بنفس معنى القراءة في قوله تعالى: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) بني إسرائيل.

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يقرأ القرآن في مكة على قريش من صحيفة مكتوبة ولكنه يتلو عليهم من ذاكرته. وهو نفس معنى القراءة في قوله تعالى:

وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً(١٠٦) بني إسرائيل.

ومثله قوله تعالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٩٨) النحل.

التلاوة من صحيفة مكتوبة

ومن ذلك: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً(١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) بني إسرائيل.

فالصورة المقدمة هنا عن الحساب صورة مجازية تظهر كل إنسان وهو يتلو ما كتب في صحيفته.



اقرأ تأتي بمعنى التسجيل والتثبيت والحفر في الذاكرة

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩) القيامة.

فجمعه وقرآنه يعني حفظه في ذاكرة الرسول، وهو نفس معنى: « فإذا قرأناه».

أما قوله: «فاتبع قرآنه» فتعني: فقرأه على الناس كما حُفِظ في ذاكرتك.

ومثله قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦) الجاثية.

فالله جل وعلا ولا ملائكته يتلون القرآن بصوت مسموع على محمد، ولكن المعنى هنا هو نوصلها إليك بنسخها في ذاكرتك لتتلوها على الناس.

تزكى

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى(٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥) الأعلى.

تزكى هنا بمعنى تطهر. والتطهر هنا عام من كل ما يوجب النار، ولا علاقة لها بالزكاة. ولكن هناك آيات تصف الإنفاق بالزكاة، لأن الإنفاق يزكي ويطهر المال، وتصف المنفق بمن تزكى أي تطهر.

وهو نفس المعنى الذي أوردته سورة الشمس: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(١٠).

فزكاها تعني طهرها، ودساها تعني دنسها.

وتقول سورة الليل: وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى(١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(١٨).

وتزكية المال تعني تطهيره، وذلك بالإنفاق.



القارعة

الْقَارِعَةُ(١) مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ(٥).

القارعة هنا وصف مجازي ليوم القيامة، مثل وصفها بالصاخة، كما في الآية (٣٣) من سورة عبس أو الطامة، كما في الآية (٣٤) من سورة النازعات. وليست القارعة اسماً من أسماء يوم القيامة، كيوم الحساب، ولكنها وصف مجازي لذلك اليوم، مثل وصفه بالساعة.

وقد تكرر ذكر القارعة بمعنى القيامة في سورة الحاقة: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ(٤).

الصلب والترائب

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ(٨) الطارق.

بعض من يروج لوجود معجزات طبية وعلمية في القرآن تناول هذه الآيات وكأنها تتحدث بطريق عليمة على مكان تخلق ماء الرجل فجوبهت أقوالهم بالتكذيب من وجهة نظر علمية. فالمني لا يخرج من بين الظهر والعظام قرب الترقوة كما أعطي معنى الصلب والترائب عندهم.

والمخاطب في القرآن على الدوام هم الناس الذين تتجه لهم الدعوة زمن الرسول، إما قريش أو بني إسرائيل في الغالب. وهذه الآيات تخاطب قريشاً، ومن المستحيل على قريش أن يعرفوا أين يتكون المني. وحتى الإنسان الجاهل يعرف أن المني لا يتكون في منطقة تمتد إلى أعلى الصدر.

والآيات – دائماً – تخاطب الناس بما يفهمون، وهذه الآيات لا يمكن أن تكون استثناء، لذا علينا فهمها كما فهمها المخاطب – قريش – في عصر الرسول.

يقول تعالى في سورة النحل مخاطباً قريشاً: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ(٦٦) النحل.

وعملياً وعلمياً لا يخرج اللبن من بين الفرث والدم، كما أن الفرث والدم لا يختلطان. فالفرث هو ما تحويه الأمعاء، والدم يجري في العروق والشرايين والأوردة والشعيرات



الدموية، ولو اختلط الدم بالفرث فهذا يعني نزيفاً لو لم يوقف لأودى بحياة المصاب.

ومع ذلك قال القرآن إن اللبن يخرج من بين الفرث والدم، وفهمتها قريش ولم تعترض.

وبالنسبة للإنسان البسيط زمن الرسول، فالحليب يراه بعينه يخرج من ضرع الحيوان المتدلي من البطن، والبطن يحوي الفرث والدم الذي يراه عندما يذكي الحيوان ويشق بطنه.

فالآية تقول لقريش إن عظمة الخالق أخرجت لكم لبناً من بين الفرث والدم ولم يختلط بهما. ولا تقول بأنه يتخلق بينهما.

وهذا هو ما يجب أن تفهم عليه آيات سورة الطارق التي تقول: « فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧)».

والترائب – لو عدنا للمعاجم فلن نجد لها تعريفاً واحداً مؤكداً، بل هناك عدة تعريفات غير مؤكدة. ومما ورد في لسان العرب: والتَّرائبُ مَوْضِعُ القِلادةِ من الصَّدْر، وقيل هو ما بين التَّرْقُوة إِلى الثَّنْدُوةِ؛ وقيل: التَّرائبُ عِظامُ الصدر؛ وقيل: ما وَلِيَ التَّرْقُوَتَيْن منه؛ وقيل: ما بين الثديين والترقوتين. ... وقيل: التَّرائبُ أَربعُ أَضلاعٍ من يَمْنةِ الصدر وأَربعٌ من يَسْرَتِه.... وقيل: التَّرائبُ اليَدانِ والرِّجْلانِ والعَيْنانِ، ... وتَرِيبةُ البَعِير: مَنْحَرُه.

إذاً، المعضلة الأولى هي أن المفسرين لا يعرفون ما هي الترائب، واختاروا أن تكون عظام أعلى الصدر.

والصلب أيضاً لم يحددوه بدقة، فصاحب لسان العرب ينقل أنه: الصُّلْبُ والصُّلَّبُ: عَظْمٌ من لَدُنِ الكاهِلِ إِلى العَجْب... ويقول: والصُّلْب من الظَّهْر، وكُلُّ شيءٍ من الظَّهْر فيه فَقَارٌ.... ويقول: إِنْ أُصِيبَ صُلْبه بشيءٍ ذَهَبَ به الجِماعُ فلم يَقْدِرْ عَلَيهِ، فَسُمِّيَ الجِماعُ صُلْباً، لأَنَّ الـمَنِيَّ يَخْرُجُ منهُ.... ويقول: ويقال للظَّهْر: صُلْب.... ويقول: والصَّلَب أَيضاً: ما صَلُبَ من الأَرض... الخ

فالمفسرون لا يعرفون أين هو الموضع في الجسم المسمى الصلب على وجه التحديد؟

ونقول المفسرون لأن كل ما قالوا عن معاني الألفاظ هو ما اقتبسه منهم أصحاب المعاجم. فكل معاني الألفاظ في المعاجم جاءت من المفسرين، خاصة الألفاظ الواردة في القرآن. وهو ما يجعل القطع بصحتها بعيداً عن الحقيقة، كون المفسرين عاشوا في عصور انحدار لغوي وكثير منهم من غير العرب، ولديهم استعداد على التقول على الله واختلاق القصص



وتحريف الآيات، واختلاق المعاني. ولهذا فلا عجب في قولهم إن صلب الرجل هو أسفل الظهر والترائب خاصة بالمرأة، معتبرين أن الآية تتحدث عن ماء الرجل وبويضة المرأة، وهو تأويل يخرج الآية من معناها.

والخلاصة: أن المفسرين لا يعرفون ما هو الصلب ولا الترائب، وجاء من بعدهم من يعتقد بوجود معجزات علمية في القرآن وأخذوا بكلام المفسرين الخاطئ على أنه حقيقة فكان كلامهم الذي نسبوه للقرآن كلاماً مضحكاً لمن يحاول البحث عن أي مدخل للتهجم على القرآن ومحاولة إثبات كذبه.

ونقول بأن الآية تخاطب قريشاً بما تعرف، وقريش تعرف أن المني يخرج من بين الصلب والترائب بمعناها الذي تعرف، وغاب عن المفسرين. وبما أن جهاز الرجل التناسلي موجود بين الفخذين ويمتد إلى أسفل الظهر فلابد أن الصلب هو أسفل الظهر والترائب هي المنطقة التي تُكوّن تلاحم أعلى الفخذين. لأن الإنسان بمعارف زمن رسول الله يمكنه فهم أن المني يخرج من هذه المنطقة، لكنه لن يفهم أن المني يخرج من منطقة في أعلى الصدر.

الشفع والوتر

مع أننا لا نعير أقوال المفسرين الانتباه إلا أننا أحياناً نتوقف عند أقوالهم لبعض الآيات لبيان تخاريفهم وبعدهم عن الواقع وأن كل ما يقولون هو مجرد ظنون وتخيل لا أساس له. وهنا نتوقف لبعض الوقت مع قوله تعالى: وَالْفَجْرِ(١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(٣).

فقد قالوا المعني بالليالي العشر هي أول عشرة أيام من ذي الحجة وقال آخرون بل هي أول عشرة أيام من محرم، لأنها أول أيام السنة.

وسورة الفجر نزلت في بداية الدعوة وقبل أن يقرر المسلمون زمن عمر ابن الخطاب أن يكون لهم تقويم هجري تبدأ سنته بمحرم وقبل أن يكتب الحج. والآية لا تتحدث عن عشر ليال بعينها، مثلما أن قوله: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، وقوله: والشمس وضحاها، وغير ذلك من افتتاحيات السور التي تبدأ بقسم.

ويستمر تخريف المفسرين وهذا بعض ما قالوا عن الشفع والوتر: فمرة يقولون إن الشفع يوم النحر، والوَتر: يوم عرفة، ومرة قالوا العكس: فالوتر يوم عرفة، والشفع: يوم الذبح.



ومرة قالوا: الشفع اليومان بعد يوم النحر، والوَتر: اليوم الثالث. وقالوا الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. ثم تجرأوا على الله وقالوا: الله وتر والمخلوقات شفع.

والوتر هو المفرد والشفع هو المزدوج، ولا حاجة لأن يكون المعني به ما حاول المفسرون قوله. وصلاة الوتر لم يكن يعرفها المسلمون عند نزول السورة في بداية الدعوة في مكة، والتي نزلت في وقت لم تفرض فيه أوقات لأداء الصلوات المفروضة.

ولكن - كالعادة - في زمن البدع بعد رسول الله وظهور ما سمي «النوافل» حاول القصاص أن يجدوا أي دليل على بدعهم من القرآن ولو بتقول الآيات ما لم تقل.

كَبَد

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ(١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ(٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(٤) البلد.

حياة الإنسان معاناة ومشقة. وقد ذكر لفظ «كبد» في القرآن مرة واحدة وفي هذه الآية.

الواقعة

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ(٣).

الواقعة هنا وصف مجازي ليوم القيامة، مثل وصفها بالصاخة كما في الآية (٣٣) من سورة عبس أو الطامة، كما في الآية (٣٤) من سورة النازعات، والقارعة كما في بداية سورة القارعة. ومثل وصف الرجفة (الزلزال) بالصيحة، كما في الآية (٦٧) من سورة هود.

وليست هذه الصفات أسماء ليوم القيامة - كيوم الحساب - ولكنها وصف مجازي لذلك اليوم، مثل وصفه بالساعة.

الغاشية

وصف آخر ليوم القيامة، وليس اسماً من أسماء يوم القيامة، لأن الغاشية معناها غير مرادف للقيامة. لكن يمكن وصف يوم القيامة بأنه يوم الغاشية.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ(٣) تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً(٤).



الصور

أول ذكر للصور في القرآن ورد في سورة النبأ: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠).

يوم الفصل (القيامة) سيأتي في وقت محدد. وكانت سور سابقة أكدت أن البعث سيكون بعد انهيار هذا الكون وقيام كون جديد للقيامة وكل هذا سيتم حسب زمن محدد. وسيكون يوم الفصل بعد النفخ في الصور.

والصور As-Sur في لغة القرآن يعني الكون The Universe بلغة العصر، وليس كما يقول المفسرون من أنه بوق ينفخ فيه أحد الملائكة لإعلان القيامة. لأن القيامة لن تكون في هذا الكون الذي سينتهي بكل من فيه من مخلوقات ومن ضمنهم الملائكة. وعندما ينشأ كون القيامة لن يكون هناك ملائكة أحياء لكي ينفخ أحدهم ببوق لن يسمعه أحد لأن كل المخلوقات ستكون ميتة: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) الرحمن.

وزعم المفسرين أن الصور يعني البوق، يبين أمرين:

١. ضعف لغتهم العربية، فكانوا كلما مر بهم لفظ أو عبارة في كتاب الله غير معتادة أو لا يعرفونها لا يتورعون عن اختلاق معنى لها من عند أنفسهم، وهو ما يطغى على كلام المفسرين على الدوام.

٢. تبنيهم لأقوال اليهود، الذين هم أول من قال بأن القيامة يتم الإعلان عنها بالنفخ في بوق. لأن اليهود يعلنون عن كل أحداثهم الهامة بالنفخ بالبوق (الشوفار كما يسمونه الآن) ويريدون أن يقولوا بأن الله يستخدم البوق للإعلان عن الحدث الهام المتمثل بالقيامة[٦].

وتصوير نشأة كون القيامة بالنفخ مماثل لما يسمى "الانفجار العظيم" لحظة ولادة هذا الكون، وكأنه نفخة عظيمة تولد منها المجرات بشموسها وكواكبها. والقرآن يقول بأن هناك نفخة لنهاية هذا الكون. وهو تصوير حسي لاضطراب نظام الكون وتهاوي نجومه

٦ انظر فقرة: الناقور في هذا القسم للمزيد عن البوق.



ومجراته، وكأنها بالونات تعرضت لنفخة هواء. وسيكون هناك نفخة أخرى لنشأة كون القيامة كما سنقرأ في سور قادمة.

فنهاية هذا الكون ستكون باضطراب نظامه وتهاوي مجراته ومجموعاته وتطاير شموسه وكواكبه بلا ضوابط وكأنها تعرضت لنفخة عظيمة. وهو ما تتحدث عنه سورة «ق»: وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١).

وتقول سورة الحاقة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦).

النفخة الواحدة، تعني نفخة واحدة، وقد تعني النفخة الأولى والتي ستشكل نهاية هذا الكون، ومن مظاهرها التي ذكرت الآيات: حملت الجبال ودكت، وانشقاق السماء وهي يؤمئذ واهية. ويلي ذلك النفخة الثانية والتي سيولد منها كون القيامة.

وجاء في سورة «يس»: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢).

النفخ في الصور هنا لنشأة يوم القيامة وليس لانهيار كون الدنيا، بدليل أن خروج الناس من الأجداث «الافتراضي» سيكون بعد نشأة كون القيامة.

وهو ما أكدته سورة الكهف: وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً(٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً(١٠٠).

والنفخ في الصور لنشأة يوم القيامة ورد ايضاً في سورة النمل: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ(٨٧).

وفي سورة «طه»: يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢).

وسورة الزمر تقول بكل وضوح إنه سيكون هناك نفخة لنهاية هذا الكون، ونفخة أخرى لنشأة كون القيامة: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

وتؤكد سورة المؤمنون النفخ لنشأة كون القيامة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ(١٠١).



وتؤكد سورة الأنعام على أن هذا الكون سنتهي بنفخة استجابة إرادة الله التي تتمثل بكن فإذا هو كائن: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(٧٣).

وقوله: «كن فيكون» لا تعني أن الله جل وعلا في لحظة ما سيقول للكون: كن! فينهار.

ولكنه تصوير لإرادة الله بما يفهمه المخاطب، وإلا فالكون يسير بقوانين ثابتة خلقها الله (كن فكانت) وخلق الله الكون بعمر افتراضي سينتهي يوماً ما، وهذا ما يمثل إرادة الله (كن فكان).

الطاغية

ورد هذا اللفظ في القرآن مرة واحدة في سورة الحاقة:

الْحَاقَّةُ(١) مَا الْحَاقَّةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ(٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ(٥).

والطاغية وصف للزلزال أو الرجفة كما تطلق عليها بعض السور، مثل الأعراف: فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨).

فثمود أهلكوا بالزلزال الذي تصفه الحاقة بأنه «الطاغية»، وسنمر بسور أخرى تصفه بألفاظ أخرى.

المطففون/الغش التجاري

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦) المطففين.

الآيات تتوعد بلهجة شديدة المطففين، وهم - كما عرفتهم الآيات - الذين: إذا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ.

فالتطفيف هو ما يعرف الآن بالغش التجاري، والقرآن يحرمه بكل صوره وأشكاله وأساليبه وطرقه.



والآيات السابقة تمثل المادة الأصلية للغش التجاري، أما التفاصيل تحت هذا القانون العظيم فستشمل كل ما يهم حماية المستهلك. من مأكل ومشرب ودعايات ومواد بناء ونجارة وتجارة ....الخ. ولو طبق هذا القانون فلن نجد مشروبات غازية تباع وتسبب الفشل الكلوي أو هشاشة العظام، ولن نجد مزروعات تسقى بمياه المجاري، ولن نجد دعاية تروج لبرغر مقلية بدهون ثلاثية..... فحتى الإعلانات الدعائية لتسويق المنتجات ستتغير جذرياً.[٧]

الويل

ويل لفظ وعيد وتهديد بالخزي والفضيحة والمصيبة والشر. وليس كما قال المفسرون من أنه واد في جهنم التي لن يعرفوا ما فيها إلا يوم القيامة. وقد وردت في القرآن في عدة سور بمعنى الوعيد الشديد بعذاب النار، ومن ذلك:

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٠) المطففين.

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الهمزة.

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(١١) الطور.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) ص.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(٦٠) الذاريات.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٦٥) الزخرف

أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٢٢) الزمر.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧) مريم.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨) الأنبياء.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ(٧٩) البقرة.

٧ انظر فقرة: الغش التجاري / قسم تشريعات من القرآن.



وورد في سورة المرسلات: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ» في الآيات التالية: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.

وسور أخرى.

سِجِّين

نبدأ بذكر بعض تحريفات المفسرين المضحكة حول معنى سجين، حيث يقول الطبري في تفسيره الشهير: أن سِجِّين تعني كتاب «سجل» تكتب فيه أعمال الكفار، وهو محفوظ في الأرض السابعة. والمفسرون يظنون أن هناك سبع أراضٍ متطابقة فوق بعض، والناس يعيشون في الأرض الأولى أو العليا، بينما الأرض السابعة أو السلفى يوجد فيها سجل أعمال الكفار.

فسجين عندهم هي تصريف على وزن فعّيل من السجن، مثل سكير من السكر.

ومما نقله الطبري في هذا قوله: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف، قال: كنا جلوسا إلى كعب أنا وربيع بن خيثم وخالد بن عُرْعُرة، ورهط من أصحابنا، فأقبل ابن عباس، فجلس إلى جنب كعب، فقال: يا كعب، أخبرني عن سجِّين، فقال كعب: أما سجِّين: فإنها الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكفار تحت خد إبليس. إنتهى

فكعب الأحبار اليهودي هو مصدر هذه التخاريف.

وقال مفسرون آخرون إن سجين واد في جهنم، وما أكثر الأودية التي اختلقها المفسرون في جهنم، مثل:

موبقا: في قوله تعالى: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً(٥٢) الكهف.

الآثام: في قوله تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) الفرقان.

سحقا: في قوله تعالى: فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ(١١) الملك.

غياً: في قوله تعالى: فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ



يَلْقَوْنَ غَيّاً(٥٩) مريم.

ضريع: في قوله تعالى: لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ(٦) الغاشية.

الفلق: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(١) الفلق.

وغيرها .. فكلما مر بأحدهم لفظ لا يعرف معناه قال هو واد في جهنم.

ونعود لسورة المطففين لنتعرف من آياتها على معنى سجين، تقول السورة: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ(٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ(٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ(٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ(١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ(١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ(١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ(٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ(٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(٢٢).

سجين: كتاب مرقوم، مثلما أن "عليين" كتاب مرقوم. فمرقوم يعني محفوظاً.

الفارق بينهما أن "سجين" تعبير لسجلات المكذبين، التي ستؤدي بهم إلى النار، بينما «عليون» يمثل سجلات أعمال الأبرار التي ستؤدي بهم للجنة.

وليست سِجّين على فِعّيل من السجن ولا سجلات موجودة في الأرض السابعة التي لا وجود لها إلا في خيال المفسرين.

القَضْب

وردت في القرآن مرة واحدة في سورة عبس ضمن آيات تدعو قريشاً للتفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث، وتقول الآيات: فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً(٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً(٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً(٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً(٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً(٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً(٣١) مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٢).

والآيات تتحدث عن النباتات والأشجار المثمرة التي يقتات عليها البشر والأنعام التي تعرفها قريش (المخاطب). وينقل الطبري تأويلات مختلفة لمعنى القضب عند المفسرين ليس لها مصدر سوى تخيلاتهم، فبعضهم قال بأن القضب هو الفِصفِصة، وبعضهم قال



هي الرطبة، إلى أن قال: «وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب». وبما أن الآيات تتحدث عن متاع الناس والأنعام، فإن كان أهل مكة يسمون القت – وهو البرسيم – القضب، فهو المقصود في الآية. وتكون الفواكه والزيتون والحدائق متاعاً للناس والقضب متاعاً للأنعام، سواءكان البرسيم أو غيره[8].

أبّاً

في نفس الآيات السابقة من سورة عبس ورد ذكر «الأبّا»: وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(٣١) مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٢).

والآيات تتحدث عما ينبت ويأكله الناس وأنعامهم، والآيات ذكرت: الحب، العنب، القضب، الزيتون، النخل، الحدائق، الفاكهة، والأب.

المفسرون والمحدثون أوردوا قصصاً عجيبة حول «أبّا»، ومن ذلك ما نسبوه لأبي بكر وعمر أنهما لا يعرفان معنى اللفظ. وأن أبا بكر أحجم عن إعطاء معنى له بحجة أنه لا يريد أن يقول بشيء لم يقله القرآن. كما أن عمر كان يتساءل: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟

والقُصاص – الذين ابتلي بهم الإسلام بعد الفتوح – في مجالس تفسيرهم وأحاديثهم لا يعلمون متى نزلت سورة عبس، وإلا لما اختلقوا هذه القصص الخرافية. لأن السورة نزلت في مكة ولو كان أبا بكر أو عمر لم يعرفا معنى لفظٍ ورد فيها فسيسألان الرسول وسينزل الوحي بالجواب. ولن يكون من المعقول ألا يجول بخاطر أبي بكر أو عمر التساؤل إلا بعد وفاة الرسول وهما يقرءآن السورة على مدى عشرين سنة والرسول على قيد الحياة، وبعد وفاته يتذكران أنهما لا يعرفان معنى الكلمة.

ولعل الأب هو الخضراوات، وتكون الآية ذكرت ما يأكل الناس: الحب، العنب، الزيتون، النخل، الفاكهة، والأب.

وذكرت ما تأكله الحيوانات العاشبة وهو القضب، الذي يدخل فيه الحشائش. كما ذكرت الآية الحدائق.

---

٨ القضب في لهجات جنوب غرب جزيرة العرب هو البرسيم وما قام مقامه مما تعلفه الحيوانات العاشبة، ولازال هذا اللفظ بهذا المعنى مستخدماً حتى اليوم.



الصاخة

وردت مرة واحدة في القرآن: فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ(٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) عبس.

الصاخة وصف مجازي للقيامة مثل الطامة والقارعة، وليست اسماً للقيامة، أو وصفاً ليوم القيامة لأن لها صوتاً يصخ الآذان كما يزعم المفسرون.

سندس وإستبرق

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً(٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً(٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً(٢٢) الإنسان.

الآيات جاءت ضمن سياق آيات تتحدث عما في الجنة للمؤمنين من نعيم، ومنه الثياب التي يلبسون وهي من أقمشة السندس والإستبرق.

والسندس والإستبرق لابد أنه أقمشة فاخرة كالحرير أو من الحرير والديباج، تعرفها قريش وتسميها بهذه المسميات، زمن الرسول. وليست أسماء أعجمية ذكرها القرآن وقريش لا تعرفها ولا تستخدمها كما يقول المفسرون. فكل الألفاظ التي ورد ذكرها في القرآن يعرفها المخاطب الذي تخاطبه الآيات، وحتى لو كانت الألفاظ ليست مشتقة ولا تخضع لتصريف قواعد النحو العربي مثل سندس وإستبرق فهي ألفاظ مستخدمة لدى قريش قبل نزول القرآن.

وقد ورد الإستبرق في الشعر الجاهلي، ومن ذلك ما نسب للشاعر المرقش[٩]:

تَرَاهُنَّ يَـلْبَسْنَ الـمَشَاعِرَ مَرَّةً   واسْتَبْرَقَ الدِّيبـاجِ طَوْرا لِبـاسُها

وقد يكون سبب تسمية هذه الأقمشة بالسندس والإستبرق يعود إلى أنها أقمشة تجلبها قريش من بلاد أجنبية كفارس أو بلاد الروم وأطلقوا عليها هذه التسميات التي أصبحت مألوفة ومتداولة قبل الإسلام، فاستخدمها القرآن ليس كألفاظ غير عربية ولكن كألفاظ متبناة في العربية مثلما نستخدم اليوم كلمات مثل: كمبيوتر أو كوب أو جبس، أو سمنت وغيرها.

٩ المرقش هو ربيعة أو عمرو ابن سعد ابن مالك، من بني ثعلبة.



وقد ورد ذكر السندس والإستبرق في موضعين آخرين في القرآن، هما:

في سورة الدخان: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ(٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ(٥٣).

وفي سورة الكهف: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً(٣١).

الحور والولدان

كل الصور الحسية المذكورة في القرآن لما في الجنة والنار مجازية لا تنقل لنا الواقع كما هو، ولكنها تقربه من ذهن المخاطب وهم على الدوام قريش من أجل زيادة الترغيب والترهيب.

وقد ورد لفظ «ولدان» في القرآن مرتين، الأولى في سورة الواقعة: عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ(١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ(١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ(١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ(١٨).

والثانية في سورة الإنسان: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً(١٩).

وليس في معاجم اللغة التراثية معنى واحد محدد للولدان، لأن ما في تلك المعاجم عبارة عن نقل لأقوال المفسرين الذين - كعادتهم - لم يتفقوا على معنى اللفظ، كونهم لا يرجعون لمصادر يستقون منها أقوالهم، وكل ما يقولون عبارة عن تخمين وتخريص شخصي. ومما قالوه إن الولدان أولاد المؤمنين الذين يموتون وهم صغار، وقال آخرون بل أولاد الكفار. وقال آخرون هم غلمان خلقوا في الجنة لخدمة أهلها.

وولدان لفظ لا مفرد له مثل قرآن. ولا يمكن أن يعني مخلوقات حية، لأن كل مخلوق حي لا يمكن أن يخلق في الآخرة، كونها داراً لبعث من خلق في الدنيا. ولا يمكن أن يخلق مخلوق في الآخرة لكي يعمل، لأن الآخرة دار ثواب وعقاب وليست دار عمل وتحصيل.

وكل مخلوق حي خلق ليعمل في الدنيا ويثاب في الآخرة، فليس في الدنيا أجر وثواب



وعقاب. مثلما أنه ليس في الآخرة عمل وتحصيل، لأنه لن يكون هناك حياة أخرى بعد حياة الآخرة الأبدية، لكي تخلق فيها مخلوقات حية لتعمل ثم تموت، لتحاسب في حياة تالية لحياة القيامة.

كما ورد لفظ «غلمان» بنفس معنى «ولدان» مرة واحدة في سورة الطور: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ(٢٤).

وكما الولدان جاء ذكر «الحور» التي أولها المفسرون على أنها تعني نساء من لحم ودم خلقهن الله في الجنة لمتعة الرجال المؤمنين جنسياً.

ومما قالته كتب التراث عن الحور العين، قول مجاهد: "وزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ قال: أنكحناهم حورا. قال: والحُور: اللاتي يحار فيهنّ الطرف بادٍ مُخُّ سوقهنّ من وراء ثيابهنّ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهنّ كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون"[10].

وها الوصف الذي قاله مجاهد لم يخبره به الله ولا رسوله ولم يطلعه الله على ما سيكون في الجنة لينقله لنا، ولكنه مجرد تخمين وتصور شخصي فيه جرأة وقحة على كلام رب العالمين لأنه يحمله ما لا يحتمل، ويقوله ما لم يقل. وهذا ديدنهم في كل ما يسمى بالتفسير. كما أن قول مجاهد هذا مخالف لمعنى الحور في اللغة، وهي جمع حوراء، والحوراء شديدة البياض. وكل ما قالوه عن معنى الحور أقوال تعكس رغباتهم الجنسية ومقاييسهم في الجمال حينها.

وقد ورد ذكر الحور في عدد من السور، منها:

سورة الواقعة: وَحُورٌ عِينٌ(٢٢) الواقعة.

سورة الدخان: كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ(٥٤) الدخان.

سورة الطور: مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ(٢٠) الطور.

ووردت عبارة «قاصرات الطرف» بنفس معنى الحور في عدد من السور منها:

سورة الدخان: فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٥٦).

وسورة «ص»: وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ(٥٢).

وسورة الصافات: وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨).

١٠ تفسير الطبري.



والولدان (الغلمان) والحور قد تشير لصور حسية مجازية لخدمات آلية يتلقاها المؤمنون في الجنة وليست مخلوقات حية لأن القيامة ليست دار عمل ولا خلق مخلوقات جديدة كما أسلفنا.

الروح

بعيداً عن أقوال المفسرين التي لا أساس لها، وأقوال بعض الكتاب أيضاً، سنعتمد الآيات التي ذكرت الروح للتعرف على ما تعنيه. وسنجد أن هناك الرَّوح بفتحة وشدة على الراء، والرُّوح بضمة وشدة على الراء.

والروح (بشدة وضمة على الراء) تأتي بمعنى مخلوقات حية ودلالات أخرى، كما يلي:

الروح مخلوقات حية تختلف عن الملائكة

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً(٣٨) النبأ.

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) القدر.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤) المعارج.

الآيات السابقة تظهر أن «الروح» مخلوقات حية تختلف عن الملائكة. فالروح مخلوقات حية من طاقة تختلف عن الملائكة وتعيش في مكان ما من الكون.

الوحي المنزل على الرسل

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ(١٥) غافر.

ومثله: يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ(٢) النحل.

ومثله: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢) الشورى.

والذي أنزل الوحي على الرسول هو أحد الملائكة واسمه جبريل كما ورد في قوله تعالى: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى



لِلْمُؤْمِنِينَ(٥٢) البقرة.

فالوحي روح لأنه غير مشاهد ولا محسوس.

الروح هم الملائكة

وإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) الشعراء.

والذي نزل القرآن على قلب (ذاكرة) الرسول هو جبريل:

ومثله: فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧) مريم.

والذي تمثل لمريم أحد الملائكة بشهادة ما ورد في سورة آل عمران: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٥٢).

فالملائكة روح لأنها غير مشاهده وليس لها أجساد محسوسة.

روح القدس

لا يرد في القرآن عبارة «الروح القدس» بالتعريف، ولكن يرد روح مضافة للقدس: «روح القدس». وروح القدس هو من أنزل القرآن ونسخه في ذاكرة الرسول: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢) النحل.

وهو أحد الملائكة، واسمه جبريل كما ورد في قوله تعالى: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٥٢) البقرة.

فروح القدس هو جبريل بالذات، وهو الذي أيد الله به عيسى ابن مريم: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ(٨٧) البقرة.

وكررت ذكره البقرة في الآية: (٢٥٣)، والمائدة في الآية: (١١٠).

وهو الذي يؤيد المؤمنين: لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم



بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) المجادلة.

والتأييد يكون معنوياً ونفسياً فقط.

طاقة

والروح تأتي بمعنى طاقة، ومن ذلك:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(٩١) الأنبياء.

فالنفخ الذي تعرضت له مريم كان طاقة تسببت بتخصيب البويضة والحمل بعيسى.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) ص.

ومثله: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ(٢٩) الحجر.

والنفخ في آدم طاقة أدت لبعث الحياة فيه.

وتقول سورة السجدة عن تخلق الجنين: ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٩) السجدة.

فالروح هنا هي تلك الطاقة التي تنفخ في الجنين في عمر محدد فتدب في جسمه الحياة.

الرَّوح بالفتح

يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(٨٧) يوسف.

والكلام في الآية ليعقوب وهو يوصي أبناءه، والروح في كلام يعقوب قصد بها قدرة الله أو رحمته للعثور على يوسف وأخيه. والروح بهذا المعنى لم ترد في القرآن إلا على لسان يعقوب.

الشفاعة

يقصد بها في كتب التراث: كلام الشَّفِيعِ للسلطان في حاجة يسألها لغيره. والشفيع هو الشخص ذو الحظوة عند السلطان. وكتب التراث تقول بأن رسول الله محمد سيكون شفيعاً لكل من يشهد بشهادة الإسلام عند الله وسيحظون بالغفران من الله بموجب شفاعته عليه الصلاة والسلام. فيخرجون من النار ويدخلون الجنة، ولو كانوا فساقاً وعصاة ومرتكبين



للكبائر وماتوا ولم يتوبوا. بل وتقول تلك الكتب إن الأنبياء سيشفعون، وكثير من الناس سيشفعون لغيرهم يوم القيامة.

ومن اعتقد أن الرسول محمداً أو أي رسول بشري أو أي مخلوق في الكون يمكن أن يكون شفيعاً أمام الله بهذا المعنى للشفاعة، فهو لم يقدر الله حق قدره، وصوره على أنه عاطفي تجذبه الكلمة الحلوة كما البشر. وهو تحقير لذات الله، الذي لا يتعامل مع خلقه بالعواطف: مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(٢٩) ق.

ولكنه سبحانه يدير خلقه في الدنيا والآخرة ويحاسب الناس بقوانين ثابتة لا تتغير: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) النساء.

ولا مجال لوساطة ولا شفاعة ولا وجاهة أمام الله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٣٣) لقمان.

والرسول محمد عليه الصلاة والسلام بشر لا يزيد عن غيره من البشر، وتكليفه بتبليغ الرسالة لا يجعله محظياً عند الله أكثر من غيره. فهو مأمور بطاعة الله وعبادته كما أمر بقية الناس سواء بسواء: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(١٢) الزمر.

وسيتعرض للعذاب لو عصى الله أو كفر: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣) قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي(١٤) الزمر.

ويوم القيامة سيحاسب مثله مثل أي إنسان آخر: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ(٣١) الزمر.

وكل الرسل سيحاسبون: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٦٥) الزمر.

ويوم القيامة لن يجد من يشفع له عند الله سوى أعماله، وسيكون أمر الحساب والعقاب والثواب لله وحده، ولن يكون بمقدور الرسول تقديم العون لنفسه ولا لغيره: لَيْسَ لَكَ



مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ(١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢٩) آل عمران.

الشفاعة في القرآن

ليس في القرآن آية واحدة تقول بأن رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام سيشفع لأمته، كما تزعم كتب التراث. وقد ورد لفظ «الشفاعة» في عدة سور من القرآن، منها: المدثر:٤٨، سبأ: ٢٣، طه: ١٠٩، الزمر: ٤٤، الزخرف: ٨٦، مريم: ٨٧، النساء: ٨٥، وفي ثلاث آيات من سورة البقرة، هي: ٤٨، ١٢٣، ٢٥٤.

وفيما يلي استعراض لبعض الآيات للتعرف على معنى الشفاعة فيها:

تقول سورة المدثر ضمن حديث عن الكفار: وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨).

والمدثر أول سورة تبدأ بها دعوة الرسول[١١]، ولم يكن مطلوباً لدخول الجنة حين نزلت سوى الإيمان بالله والبعث فقط، لأن التشريعات لم يفرض منها شيء بعد. ومن يؤمن ويموت في تلك الفترة فسيدخل الجنة دون حاجة لشفاعة. لذا فالشفاعة هنا لا تعني الوساطة عند الله من قبل شخص من البشر طلباً لمغفرة شخص آخر. لأنه لن يكون هناك حساب على الكبائر التي لم تحدد بعد. فالناس حينها إما مسلم (آمن بالله وحده وبالبعث وليس مطلوب منه عمل صالح) أو كافر. ولا مجال للشفاعة بمعناها الشائع التي تقول بأن الرسول سيشفع للعصاة.

فمن هم الشافعون لكفار قريش الذين تتحدث عنهم الآية؟

سورة الزمر تخبرنا بذلك: أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ(٤٣) قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٤٤).

الآيات تتساءل تساؤل استنكار إن كان الكفار اتخذوا أصنامهم شفعاء لهم يدعونهم من دون الله. فالشفاعة لله وحده هو من يشفع، بقبوله سبحانه عمل وإيمان عباده.

وورد في سورة سبأ: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ

---

[١١] لنتذكر أن البعثة بدأت بنزول سورة الفاتحة، ونزل بعدها ست سور، هي: الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات. ثم نزلت المزمل، قبل أن تنزل المدثر وبها بدأت الدعوة.



وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ(٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٢٣).

الآية تقول: « وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ». وهذا لا يعني أن هناك من يأذن الله لهم بالشفاعة لغيرهم، ولكنه أسلوب القرآن، مثل قوله تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

فالمخلوقات كلها ستموت ولن يتبقى أحد ثم يبعثون ليوم القيامة، ومع ذلك فإن الآية تقول بأنه سيكون هناك من سيبقى.

والشفاعة هنا تشير إلى أن الكفار يعتقدون أن عبادة الأصنام ستكون العمل الذي يقبله الله ويرضى عنهم بسببه، كما في السورة السابقة.

وتقول سورة الأنعام: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٩٤).

فما ظننتم أن عبادة الأصنام عمل صالح عند الله، هو ظن خاطئ.

وورد في سورة الزخرف: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٨٦).

فأصنام قريش لا تملك القدرة على أن تدعو الله ليغفر لقريش، وليست عملاً يرضاه الله، وكل من يرغب بمغفرة الله عليه أن يؤمن به سبحانه. فالإيمان شفيع لصاحبه، ولا شفيع له من غيره.

وتقول سورة مريم: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً(٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٨٧).

واتخاذ العهد عند الله يكون بالإيمان. ويكون عهد الإيمان هو الشفيع لصاحبه المقبول عند الله.

وجاء في سورة النساء: من يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً



يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً(٨٥).

والشفاعة هنا قد تعني الطريقة والسنة، فمن يشفع شفاعة حسنة يعني من يسن سنة حسنة، وذلك في الدنيا ولا شأن لها بالشفاعة بمعناها الشائع.

وتقول سورة طه: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً(١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً(١١٠).

الآيات تتحدث عن يوم القيامة لحظة الحساب، وتقول: « يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً".

فهل هناك من البشر من يستطيع أن يشفع عند الله لبشر؟

الآية لا تقول بهذا، لكنها لا تنفي احتمال حدوثه بشرط أن يأذن به الله.

فهل يمكن أن يأذن الله لمحمد عليه الصلاة والسلام – كما تقول كتب التراث – ليشفع في أمته وتكون النتيجة أن يدخل الله جل وعلا الجنة من أمة محمد من كان يستحق النار لو حوسب بما قدم وسجلته صحيفة أعماله؟

لو حدث هذا فهو يتنافى مع آيات كثيرة تؤكد أن من عدل الرحمن ألا يعذب مستحق الجنة ولا يغفر لمستحق النار، ومن ذلك ما ورد في سورة «ص»: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٢٨).[١٢]

ولو حدث هذا فما ذنب الأمم السابقة لمحمد التي ليس لها شفيع من رسلها؟

ولو حدث هذا فهو خرق لقانون إلهي ينص على أن الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً كما ورد في سورة الأنعام: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٤٨).

وخرق لقانون إلهي آخر يقول بأن من يدخل النار لن يخرج منها: وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨١)

١٢ انظر فقرة: من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة / قسم أدلة من القرآن.



وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨٢) البقرة.

فبنو إسرائيل لديهم عقيدة تقول بأن المذنب منهم ومرتكب الكبائر سيدخل النار لأيام معدودة مقابل ذنوبه ثم يخرج منها للجنة. والآيات تكذب هذا وتقول بكل وضوح: إن من ارتكب خطيئة تستحق دخول النار فسيخلد في النار (ولو آمن بالله) ولن يخرج من النار من دخلها. أما الجنة فسيدخلها من آمن وعمل صالحاً (ومن العمل الصالح تجنب الوقوع في الكبائر).

إذاً، من يستحق النار سيدخل النار ولن يسمع فيه شفاعة، ومن يستحق الجنة سيدخل الجنة دون حاجة لشفاعة. فلماذا قالت الآية: « يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً"؟

لو تتبعنا أساليب القرآن لوجدناها مختلفة عن أساليبنا ومميزة، ومن ذلك استخدام الاستثناء بإلا والذي لا يعني الاستثناء، مثل قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ(١٠٨) هود.

فمن في الجنة لن يخرجوا منها أبدا بشهادة القرآن: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً(١٢٢) النساء.

ومع ذلك تقول سورة هود: « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ».

فقوله «إلا ما شاء ربك» لا تعني أن أهل الجنة سيخرجون منها يوماً، لكنها تقول بأن بقاءهم فيها بمشيئة الله، ولو شاء الله فلن يبقوا. وهذا لا يعني أنهم سيخرجون ولكنه يعني أن كل شيء بإذن الله ومشيئته سبحانه.

ولو طبقنا هذا المفهوم على آية سورة طه التي تقول: « يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً" فليس هناك خيار لأي بشر أن يشفع لغيره، لأن الأمر كله يومئذ لله. لكن لو شاء الله لسمح بشفاعة بشر لغيره من البشر. وهذا لا يعني أنه سيحدث، لكنه



يدخل ضمن مشيئة الله وإذنه ولا شيء يحدث خارج ذلك.

فالحديث ليس لإقرار أن هناك شفاعة، ولكنه حديث على أن كل فرد سيكون مسئولاً عن مصيره بما قدم كما تقول آيات كثيرة: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) المدثر.

وليس هناك ظلم مطلقاً: الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٧) غافر.

ولن يستطيع غيره أن ينقذه أو يشفع له أو يحول بينه وبين مصيره، لأن كل إنسان مسئول عما صدر منه، ولا يمكن لأحد أن يتطوع من تلقاء نفسه لكي يقوم بشيء لغيره. فالعمل والتحصيل كان في الدنيا، والآخرة لا مجال فيها لعمل الخير وتسجيل الأعمال أو للغفران.

وهو ما تؤكده سورة طه في نفس سياق الآيات التي تذكر الشفاعة: وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً(١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً(١١٢).

فكل الوجوه عنت للرحمن بلا استثناء، وكل من عمل منهم في الدنيا صالحاً وهو مؤمن فلن يخاف ظلما ولا هظماً. ومن هظم الحقوق أن يدخل الجنة معه مستحق للنار. فهو عمل صالحاً وأطاع الله وآمن به فاستحق الجنة كوعد من الله، ولو تسامح الله مع مستحق للنار وأدخله الجنة فهو هظم لمستحق الجنة.

لا شفاعة يوم القيامة

تقول سورة البقرة: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(٤٧) وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٤٨).

فليس هناك مجال للتشفع والتوسط يوم القيامة عند الله من بعض خلقه لبعض.

وهو ما كررته حرفياً السورة في مكان آخر: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٢٢) وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(١٢٣).

وتخاطب سورة البقرة المؤمنين بما خاطبت به بني إسرائيل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا



رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٥٤).

فيوم القيامة ليس فيه وساطة إلا الإيمان والعمل الصالح. والمؤمن لن يتوفر له شفيع (بالمعنى الشائع). وهو نفي قاطع لا يحتمل التأويل بأن الشفاعة بمعناها الشائع لا وجود له يوم القيامة.

وليس في القرآن ما يفيد أن الشفاعة تعني التوسط من قبل شخص أمام الله يوم القيامة وطلب المغفرة للغير. ولن يكون بمقدور مخلوق أن يهتم لمخلوق آخر يوم القيامة: يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ(٢) الحج.

والوسيلة الوحيدة للنجاة والشفيع من النار هي الأيمان والأعمال الصالحة: وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى(٧٥) طه.

ويوم القيامة سيتم الحساب بطريقة آلية ولن يحضر سبحانه ويحاسب خلقه وجهاً لوجه، ولن يكون هناك حديث بينه تبارك وتعالى وبين أحد من خلقه.

وقد ورد لفظ الشفاعة والشفيع في عدد من السور ليس من بينها واحدة تقول إن هناك شفاعة بمعناها الشائع ولا يقبل الله شفاعة إلا شفاعة الإيمان والعمل الصالح.

كل الآيات التي تذكر الشفاعة في القرآن لا تعني الشفاعة بمعناها الشائع.

والجنة لا تضمن بالشفاعة ولكن الجنة تضمن بالإيمان والعمل الصالح والبعد عن الكبائر: وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) النجم.

فالشفاعة هي الإيمان والعمل الصالح والبعد عن الكبائر، ولن يكون هناك مخلوق من الملائكة أو الرسل ليشفع لغيره عند الله.



أساطير الأولين

الأساطير هنا تعني: قصصاً خرافياً مختلقاً في عصور قديمة يتناقله الناس مشافهة. وقد ورد في القرآن في عدة سور كلها ضمن الحديث عن قريش ورفضها للدعوة ووصفها للقرآن بأنه أساطير وخرافات قديمة.

فقد ورد في سورة المطففين: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤).

والحديث هنا عن موقف كفار قريش عموماً.

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦) ن والقلم.

والحديث هنا عن أحد كبراء قريش.

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَّ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٧) الأحقاف.

والآية تتحدث عن قرشي أسلم والداه ودعواه للإسلام فرفض الدعوة.

وورد في سورة النمل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ(٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٦٨).

والحديث هنا عن موقف قريش عموماً من الدعوة.

وهو ما كررته سورة المؤمنون: قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٨٣).

وفي سورة الفرقان تقول قريش عن القرآن: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥).

وذلك بعد أن بدأت مجموعات من الناس من خارج مكة تفد إليها لمقابلة الرسول والاستماع له فكانت قريش تتعمد صد الناس بعدة أساليب منها قولهم للوافدين أن محمداً اكتتب



نصوصاً من أناس لهم اطلاع بقصص وخرافات الأولين ويقوم بتلاوتها زاعماً أنها من عند الله.

وهو ما تؤكده سورة النحل قائلة بأن رجال قريش إذا ما سألهم الناس عما يقول محمد أجابوهم أنه يتلو قصصاً وخرافات قديمة زاعماً أنها من الله: وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٤) النحل.

وتقول سورة الأنعام إن قريشاً بدأت تدخل مع الرسول في جدل في اواخر العصر المكي لكي تظهره أمام الناس الوافدين من خارج مكة على أنه كاذب يتلو على الناس خرافات قديمة ويقول هي من عند الله: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٥) الأنعام.

وآخر ذكر لأساطير الأولين كان في سورة الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر مباشرة: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ(٣١).

والآيات تتحدث عما سبق ولقيه الرسول في مكة قبل الهجرة، ومنه أنهم كانوا يصفون القرآن بخرفات قديمة يسهل قول مثلها. وهو زعم لم تتمكن قريش من تأكيده عندما تحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة.

ولم يأت ذكرٌ لعبارة: «أساطير الأولين» بعد ذلك لأن قريشاً لم تعد هي المخاطبة في الدعوة للإسلام بعد الهجرة.

اليوم

يأتي اليوم في القرآن بعدة معان كما هو الحال بالنسبة للغة. وسنورد بعضاً منها، كما يلي:

اليوم بمعنى وقت غير محدد الطول

والقرآن يصف الآخرة بيوم القيامة، واليوم هنا يعني وقتاً غير محدد الطول، وليس يوماً مكون من نهار وليل. ذلك أن عالم القيامة لن يكون فيه شمس ونهار وليل، ولكن سيكون



هناك وقت للحساب ومن ثم أوقات للعذاب والثواب. وفيما يلي بعض ما ورد في القرآن بهذا المعنى:

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) المزمل.

يوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(١٠) فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً(١١) الإنسان.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٣٣) لقمان.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً(٢٦) الفرقان.

وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٤٨) البقرة.

وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(١٢٣) البقرة.

وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٨١) البقرة.

اليوم بمعنى فترة لها نفس السمات والملامح

وقد تكون مكونة من عدة أيام ومن ذلك:

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ(١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ(٢٠) القمر.

فقوم عاد أهلكوا بريح صرصر عاتية سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧) الحاقة. ومع ذلك فسورة القمر تطلق على تلك الأيام: يوماً، لأن تلك الأيام كانت متشابهة في استمرار هبوب الرياح العاتية دون توقف.

وقد يتكون اليوم الواحد من عصر جيولوجي يمتد لمئات وآلاف الملايين من السنين، كما في الآيات التي تتحدث عن خلق السماوات والأرض (الكون)، ومن ذلك: وَلَقَدْ خَلَقْنَا



السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) ق.

وتقول سورة فصلت: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

فالكون خلقه الله في ستة أيام (عصور) وليس في ثمانية، ولكن كان هناك أيام (عصور) احتوت على أيام (عصور) أصغر، كما تدل عليه هذه الآيات.

والعصر الجيولوجي مثل الأبد (Eon) الذي يمثل أطول مراحل الزمن الجيولوجي يحتوي على عصور أصغر هي الدهور (Era) وهذه تتضمن فترات أصغر هي الحقب (Period) وهكذا.[١٣]

الزبر

تأتي بمعنى السجلات الإلهية، كما ورد في سورة القمر:

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣).

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢).

ووردت كلمة «الزبر» بمعنى السجلات أيضاً في قوله تعالى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) القمر.

فالزبر هنا بمعنى السجلات التي يسجل فيها عمل الإنسان، أو صحيفة أعماله.

وفي قوله تعالى: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) القمر.

الزبر هنا بمعنى السجلات الإلهية، وهو تعبير مجازي يقول بأن قريشاً ليس لها ضمانات عند الله مكتوبة موثقة ومسجلة.

كما تأتي الزبر بمعنى الرسالة، كما في الآيات التالية:

---

١٣ انظر الموسوعة البريطانية.



وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(٢٥) فاطر.

وفي سورة النحل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٤٤).

وفي سورة آل عمران: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤).

فالزبر هي البينات وهي الكتاب المنير التي هي أوصاف لدين الله الذي أرسلت به الرسل.

وجاءت الزبر لتشير إلى الوحي والرسالة في سورة فاطر: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥).

وبمثل هذا جاءت الزبر في سورة النحل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤).

فأهل الكتاب لديهم علم بالرسالات السابقة، والزبر هنا هي السجلات التي تحتوي على نسخة الرسالة الأصلية. وهو نفس المعنى الوارد في الآية (١٨٤) من سورة آل عمران: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

الزبور

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ(١٠٥) الأنبياء.

الزبور (بالتعريف وضمة على الباء) تعني السجل الإلهي. وهو الأرشيف الإلهي الذي يحفظ فيه نسخة الوحي الأصلية، ومن مسمياته في القرآن: اللوح المحفوظ والكتاب المكنون وأم الكتاب وأسماء أخرى.[١٤]

فالزبور في الآية أعلاه تعني السجلات الإلهية.

---

١٤ انظر فقرة: الإرشيف الإلهي/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.



أما «زبور» بدون تعريف فجاءت مرتين في القرآن كلها تقول: «وآتينا داوود زبوراً» وداوود ليس له رسالة مكتوبة ولا غير مكتوبة خاصة به، لو تجاهلنا تخاريف المفسرين الذين قالوا إنه أنزل عليه كتاب كله دعاء وليس فيه لا تشريع ولا عبادات ولا دين. وداوود أوتي علماً وحكماً ونبغ في كثير من المجالات، فيكون معنى «زبورا» العلم والحكمة والنبوغ.

المسكين

هو المحتاج الذي لا يستطيع لقلة دخله توفير احتياجاته من الغذاء والدواء واللبس والمسكن وخلافه، لأي سبب من الأسباب.

وأول ذكر للمسكين كان في سورة المدثر: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧).

والآيات تعطي صورة افتراضية مجازية وكأن أهل الجنة سيسألون أهل النار لماذا دخلوا النار فيأتي الجواب أنهم لم يؤمنوا بالدعوة، والتي تعبر عنها الآيات بعدم أداء الصلاة والامتناع عن إطعام المسكين إضافة للبعد عن التفكير بالآخرة والعمل لها.

فالآيات تقول: لا يمكن دخول الجنة بدون إطعام المسكين.

والقانون هنا يقول: إطعام المسكين واجب على القادر وحق للمسكين وليس منة أو معروفا.

ومن ثم ورد في سورة الفجر: كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠).

ويستفاد من هذه الآيات وجوب نشر التوعية في المجتمع المسلم بأن إطعام المسكين ضرورة لا يمكن دخول الجنة بدونها.

وإطعام المسكين يقاس عليه سد حاجاته الأخرى.

وتقول سورة البلد: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(١٨) وَالَّذِينَ



كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ(٢٠).

فمن لا يطعم المسكين في يوم مسغبة (مجاعة) وهو قادر فلن يدخل الجنة.

وقد ورد الحث على إطعام المسكين وسد احتياجاته في سور عدة، منها: الإنسان: (٨)، الحاقة: (٣٤)، بني إسرائيل: (٢٦)، المجادلة: (٤)، البقرة: (١٨٤)، الماعون: (٣)، والروم: (٣٨) وغيرها.

اليتيم

هو من فقد أحد والديه وليس من فقد والده فقط، كما تقول قواميس اللغة. وهناك يتيم فقير، لأنه لم يرث، وهناك يتيم يملك مالاً ورثه من والديه أو من ذوي القربى. وسنستعرض بعض الآيات التي ورد فيها ذكر اليتيم، ونجمل ما أشارت له.

والقرآن بدأ بالأمر بإكرام اليتيم، قبل أن يأمر بإطعامه، لأن كرامته أهم من ملئ بطنه. وأول سورة ذكر فيها اليتيم هي سورة الفجر :كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠).

والسورة نزلت في بداية الدعوة في مكة، وإكرام اليتيم يعني كل ما يحفظ له كرامته وإنسانيته ومشاعره وحياته. ومن ذلك تأمين حياة كريمة له - إن كان فقيراً - من مسكن ومأكل وملبس ومصدر دخل ثابت يبعد عنه شبح الفاقة ويغنيه عن الحاجة. ومن حفظ الكرامة أن يعامل معاملة إنسانية سوية باحترام وتقدير. وملاجئ الأيتام الموجودة في بلادنا لا تؤمن هذه المطالب، ولكنها تنظر للأيتام وكأنهم منحرفون يحتاجون لإصلاحيات تفصلهم عن الحياة العامة. وكان يجب على المسلمين في دولهم أن تكون بيوتهم ملاذاً صالحاً للأيتام ومن في حكمهم، يعيشون بينهم كأبنائهم. يأكلون ما يأكلون ويلبسون ما يلبسون، ويشعرون بنفس الحنان ويعاملون بنفس الدرجة والمساواة مع الأبناء، برفق وإحسان واحترام. ولا يتم تجميعهم في ملاجئ هي أقرب للسجون أو المصحات العقلية، تهان فيها كرامتهم وتمتهن إنسانيتهم، فينشئون على الهوان والشعور بالنقص وكأنهم خلق مختلف. وهو ما يتنافى مع نهي الله لرسوله: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١) الضحى.



وقهر اليتيم يدخل فيه مضايقته والتعدي عليه بأذى بدني أو نفسي أو جرح مشاعره ولو بكلمة، أو إهماله أو التعامل معه بفوقية وتفرقة أو إشعاره أنه ناقص أو غير مرحب به أو مثير للشفقة. ولو كان للمسلمين دولة تقيم الإسلام، فلا يمكن تصور وجود ملاجئ للأيتام تحت أي مسمى، بل سنجدهم يعيشون بين عائلات تتبنى تربيتهم والتعامل معهم بنفس تعاملهم مع أطفالهم.

وفي حال كان اليتيم ذا مال، فيجب أن يصان ماله وينمى ويحافظ عليه. وتنميته واجبة: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤) بني إسرائيل.

والحرص على مصالح اليتيم بكافة الوجوه واجب وليس تفضلاً، وهو من البر، الذي يعني أسمى درجات الإيمان :لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

ويدخل في الحرص على مصلحة اليتيم تأمين مستقبله، وهنا يتضح أن حفظ ماله بلا حراك ولا استثمار يدخل في باب الإهمال. فلو ورث اليتيم مالاً يكفي لشراء منزل، فإن هذا المبلغ من المال لن يكون كافياً لشراء المنزل عندما يكبر اليتيم ويرشد ويُمكّنُ من ماله، لأن الأسعار ستختلف. لكن لو تم استثمار المبلغ خلال العشر سنوات التي تفصل بين امتلاك اليتيم للمال وبين تسليمه له فقد يتضاعف.

وتأتي سورة النساء لتكمل الحديث عن اليتامى، قائلة بعدم جواز أكل مال اليتيم بأي وسيلة أو تبرير. ولا يجوز خلط أموالهم بأموال الوصي عليهم. ولا يجوز استبدال أموالهم بأموال أقل جودة. ولا يجوز الزواج بيتيمة طمعاً في مالها :وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣) وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ



عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً(٤) وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٥) وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً(٦) النساء.

فالحرص على مال اليتيم وتنميته في مجالات مضمونة، أوجبه الله، لأن مجرد حفظه ضرر له. واستثمار مال اليتيم لا يجيز للوصي أن يأخذ منه شيئاً بحجة أنه يستثمره له لأن هذا مسئولية قبلها الوصي بمجرد قبوله الوصاية على اليتيم.

ومن الحرص على مال اليتيم ألا يسلم له إلا بعد أن يبلغ سن الرشد ويظهر رجحان عقل وبعد عن الطيش لئلا يتلاعب بالمال كسفيه يجب الحجر عليه.

وحتى الوالد لا يجوز له تبذير ماله قبل وفاته، ويجب أن يمنع من ذلك لئلا يترك أبناءه يتامى محتاجين: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً(١٠) النساء.

وتفرض سورة النساء الإحسان لليتامى كالإحسان للوالدين ولغيرهم من الناس: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦) النساء.

والإحسان هنا لا يعني المفهوم السائد الذي يعني الشفقة، ولكنه يعني التعامل الإنساني بكل معنى الكلمة. وكل تصرف يقوي الترابط الاجتماعي مقروناً بالاحترام والتقدير فهو إحسان. مثل الحرص على المجاملات الاجتماعية وبذل الهدايا ومشاركة المشاعر في المناسبات.

والخلاصة أن اليتيم عهدة في أعناقنا جميعاً عهد به الله إلينا، فإن كان فقيراً فعلى الجميع أن يكونوا أوصياء عليه بكل احترام وتقدير. وأن يعيش بيننا كأحد أطفالنا له ما لهم وعليه ما عليهم، حتى لا يشعر بالذلة والخنوع والصغار، وحتى ينمو شخصاً سوياً.



وإن كان ذا مال وجب على من يكون وصياً عليه أن يصون ماله ويستثمره ويخطط لمستقبله ويؤمنه مستعيناً بمن له خبرة وحرفية. ولا يجوز له أن يضار اليتيم بماله فيهمله أو ينقص منه أو يستولي عليه تحت أي تبرير.

وفي هذا العصر يجب أن تسن القوانين التي تحمي اليتامى ويكون هناك هيئات متخصصة لاستثمار أموالهم وتوفير الحياة الكريمة لهم، وصرف معونات لمن يتولى تربيتهم. وتوعية المجتمع باستمرار وحثهم على تقبل فكرة تربية اليتيم بينهم كطفل لهم.

وقفة هامة:

ما يمنع الناس في جزيرة العرب عن تربية اليتامى وتركهم للملاجئ الرسمية يعود لسببين، هما:

سيطرة فكرة أن التبني حرام.

والتبني الحرام هو إلحاق المتبنى بنسب من يتبناه، وليس تربيته ومعاملته كابن له، والذي حثت عليه سور القرآن.

تربية اليتيم بين بنات العائلة أو اليتيمة بين أولادها لأنه يتعارض مع ما يعرف «بالمحرم».

وتربية طفل يتيم بين أطفال العائلة لا يحرم، لأننا لو تدبرنا القرآن فسنجد أن العورات يجب سترها بين أفراد العائلة الواحدة (أي بين الوالدين وأولادهم وبين الإخوة والأخوات) وهو ما يفهم من قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) النور.

فالستر والحشمة مطلوبة في البيت، وأخذ الاحتياطات من أن يطلع الأطفال على عورات الكبار واجبة. وهذا يدخل فيه ابن الرجل وبنته أو ربيبه اليتيم وربيبته اليتيمة.

واليتيم الذي يعيش في كنف عائلة كفلته، يدخل في «التابعين» الذين يمكن إبداء الزينة



له من بنات البيت كالأب والإخوة في قوله تعالى: ... وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) النور.

فمن الذين يباح لهم الاطلاع على زينة النساء المحتشمة: ما ملكت أيمانهن، والتابعون. واليتيم من التابعين.

والزينة التي يمكن للأب رؤيتها من ابنته أو الأخ من أخته هي ما لا يصل لمحرم. فلا يجوز للأب رؤية عورة ابنته البالغة ولا الأخ لعورة أخته، وكذلك اليتيم، أو اليتيمة.

فالمانع هو عرف اجتماعي وليس ديناً، مع التوعية والتوجيه يمكن للناس تفهم هذا وتقبله عندما يعون كيف سيكون تأثيره على نفسية اليتيم ونشأته كفرد عادي في المجتمع المسلم.

الرق

ممارسة موجودة منذ القدم بين كثير من شعوب العالم، وجاء الإسلام وهذه الممارسة منتشرة في جزيرة العرب وفي مكة.

وأول ذكر للرق في القرآن كان في سورة البلد: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ(٢٠)

والآيات تخاطب قريشاً وتحثهم على تجاوز الموروث برغم صعوبته التي وصفتها السورة بالعقبة وتجاوزها بالاقتحام، لأن اتباع الموروث مترسخ في النفس ويصعب قبول نقده أو مخالفته أو تركه. وتبين السورة ما يجب فعله، وهو تحرير الرقيق: «فك رقبة» وهذا صعب جداً في مكة لأن العبيد هم من يقوم بالأعمال الخدمية ولو تحرروا فستصاب مكة بالشلل، لأن القرشيين يترفعون عن القيام بالأعمال الخدمية والرقيق لو حرروا فسيحصلون على



حقوق مساوية للقرشيين، ويمكنهم الامتناع عن القيام بتلك الأعمال، أو القيام بها بشروط ومقابل مادي، وهو ما لم يكن يتلقاه الرقيق.

والآيات تحث على تخطي واقتحام عقبة الموروث، وأعتاق الرقيق.

وجاءت سورة المجادلة لتفرض تحرير الرقاب (من الرق) كعقوبة للظهار: وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) المجادلة.

وتأتي سورة النساء لتفرض على من يقتل نفساً بالخطأ تحرير رقبة: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(٩٢) النساء.

وتفرض سورة المائدة تحرير رقبة على كل من يحنث بيمين: لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٨٩) المائدة.

وبعد ذلك تأتي سورة البقرة لتضع الإنفاق على تحرير الرقاب من أعمال البر. والبر هنا يعني أعظم الأعمال الصالحة الموجبة للجنة: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

وسورة براءة التي لم ينزل بعدها من القرآن سوى سورة النصر، تضع تحرير الرقاب من المجالات التي يجب الإنفاق فيها: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠) براءة.



ولو تمسك المسلمون بهذا القانون لما بقي رقيق واحد بعد الإسلام، لكن قريشاً التي استولت على حكم دولة المسلمين بعد الرسول ممثلة ببني أمية والعباس، أعادت الرق بصور أقوى مما كان قبل الإسلام. وصبغت به حروبهم التوسعية وكأن الإسلام يقره أو هو من أوجده.

إذاً، الإسلام وضع قوانين لعتق الرقيق من استجاب لها دخل الجنة، لكن قريشاً بعد عصر الراشدين أعادته وشجعته. في المقابل ليس في القرآن آية تعطي المسلمين الحق في سبي النساء كما كان الناس يفعلون قبل الإسلام وبعد عصر الرسول.

الرب

بعض المسلمين استمرأ استخدام كلمة «الرب» بالتعريف فيقول مثلاً: «باركك الرب» والتي تقابل الإنجليزية (God Bless You)، وكأنها تعني رحمك الله أو بارك الله فيك. وهذا خطأ شائع وفادح. فهذه كلمة مسيحية ولا يمكن قبولها في الإسلام، لأنها تعني فليبارك الرب (يسوع). ولو قالها المسلم فكأنه يقر بألوهية رب المسيحيين «يسوع».

ولا وجود في الإسلام للفظ «الرب» بالتعريف، وإنما تأتي «رب» مضافة دائماً. نقول: رب العالمين، ربي الله، ربك الله، لكن لا يمكن استخدام لفظ «رب» بالتعريف بأل (الرب).

عَدْن

العدن - كما ورد في لسان العرب - الإقامة في المكان وملازمته، وهو أن تلزم الإبل المكان فتألفه ولا تبرحه، وهو وصف صحيح.

فجنات العدن، تعني جنات الخلود في المكان، وتكون «عدن» صفة للجنة وليست اسماً لها. فليس هناك جنة تسمى عدناً، ولكن هناك جنة وصفت بالعدن وهو الخلود والاستمرار.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ(٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ(٥٠) ص.

وقد ورد وصف الجنة «بجنات عدن» في عدة سور من القرآن منها: مريم: ٦١، الكهف: ٣١، طه: ٧٦، فاطر: ٣٣، الصف: ١٢، البينة: ٨، النحل: ٣١، الرعد: ٢٣، وبراءة: ٧٢.



رجيم

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧) ص.

الرجم هو الطرد في الآية. وقوله: اخرج منها: أي اخرج من مقر الملائكة في الكون «الملأ الأعلى» فأنت (يا ابليس) رجيم، أي مطرود. وقد حبس في محيط الأرض إلى يوم القيامة.

حاصب

الحاصب من الحصباء وهي الحجارة الصغيرة التي لا تملأ أكبرها الكف. وقد ورد اللفظ في أربع سور هي:

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ(١٧) الملك.

ومثله ما ورد في سورة بني إسرائيل: أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً(٦٨).

والخطاب لقريش، والآيات تتوعدهم لو استمروا بكفرهم فكيف يطمئنون أن الله لن يرسل عليهم حاصباً. ومكة تقع بعيداً عن الرمال وبين الجبال، والحاصب لا يكون بتلك الأتربة التي تذروها الرياح كما حدث لقوم عاد. وأي حاصب يصيب أهل مكة سيكون بفعل كارثة غير الريح.

وتقول سورة القمر: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(٣٤).

والآية تتحدث عن قوم لوط، وأنهم أهلكوا بالحاصب. وفي سور أخرى أنهم أهلكوا بحجارة من سجيل: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٧٤) الحجر.

فيكون معنى الحاصب حجارة من سجيل.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٠) العنكبوت.

والآية تذكر بعض الكوارث الطبيعية التي هلكت بها أمم سابقة، ومنها الحاصب الذي يعني الحجارة من سجيل، أو الثوران البركاني.



الخرص

هو أن يقول المرء ما لا يعلم، أو أن يعتقد ما يظن، دون أن يملك الدليل على صحته.

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ(١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ(١٢) الذاريات.

والخراصون هنا رجال قريش الذين يقولون بأن البعث لن يحدث، دون أن يكون لهم علم بهذا أو أن يملكوا دليلاً عليه، وما هم إلا يخرصون.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ(٢٢) الزخرف.

والحديث عن قريش التي تعبد الأصنام لأنهم ورثوا عبادتها من أسلافهم، وليس لأنهم يملكون دليلاً على صحة معتقدهم. ولكي يبرروا لأنفسهم ما يفعلون قالوا إنه لو كانت عبادة الأصنام باطلة لمنعنا الله منها .. وهذا الكلام خرص بلا دليل.

أَلا إِنَّ للهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(٦٦) يونس.

قريش تشرك أصنامها مع الله دون أن يمتلكوا دليلاً على صحة ما يفعلون.

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) الأنعام.

أكثر الناس لا يؤمنون ومن يتبعهم سيضل معهم، لأنهم يعتقدون معتقدات لا يملكون عليها دليلاً، وما هي سوى ظنون وخرص.

وكل أتباع المذاهب خراصون، لأنهم يتبعون تشريعات لا يملكون لها دليلاً من الله، وإنما أدلة منسوبة للرسول من باب الظن، والخرص.

عقيم

العقيم تعني الذي لم ينجب، وقد لا ينجب أبداً: للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ



عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠) الشورى.

كما أن العقيم تعني الذي لن ينجب مستقبلاً، لكن قد يكون أنجب في الماضي. فزوجة إبراهيم وصفت نفسها بالعقيم كما ذكرت سورة الذاريات: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ(٢٩).

وسبب العقم هو تجاوزها سن اليأس، وليس عدم قدرتها على الإنجاب. فهي تقول بأنها عجوز «لا يمكن أن تنجب» أو «أنها لم تعد نافعة للإنجاب» مع أنه سبق وأنجبت ولدها البكر إسماعيل في شبابها. ومعنى عقيم هنا هو نفس معنى «عقيم» الذي وصف القرآن به الريح التي أهلكت قوم عاد: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ(٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٤٢) الذاريات.

أي أنها ريح لا تحمل منفعة وفائدة، لأنهم لما رأوها ظنوا أنها تحمل المنافع المتمثلة بالمطر: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٤) الأحقاف.

لكنها لم تكن كذلك، فلم تحمل المنفعة بل الضرر والهلاك. فهي عقيم، من باب أنه لا منفعة فيها: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)، لأنها: مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٤٢).

الرميم

يعني البالي منذ زمن طويل. رمّ وأرم، فهو رَميم، وقد وردت في القرآن بنفس المعنى:

وضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨) يس.

الرميم هنا وصف لعظام ميت بليت جثته ونخرت عظامه وتفتتت.

ما تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٩) الذاريات.

والحديث عن الريح التي أهلكت قوم عاد، والتي بدت الأشياء بعد العاصفة وكأنها بالية منذ القدم.

ويكون الرميم، هو الذي بلي وتلف منذ وقت طويل.



السماء

تأتي في القرآن على ثلاث معانٍ، هي:

بمعنى العلو

كما في سورة البقرة: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤).

بمعنى الكون

كما في سورة «ص»: مَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧).

بمعنى الغلاف الجوي للأرض

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١).

الآيات تشير إلى سماء دنيا، وبالتالي فالسماء هنا لا تعني الكون، ولكن تعني السماء الأقرب للأرض، أو الغلاف الجوي للأرض - حسب تسميتنا لها الآن - وما يؤيد هذا أن الآيات تصف السماء الدنيا (الغلاف الجوي) بأنه مزين بزينة الكواكب وتظهر فيه الشهب. وهذه الطبقة تكون درعاً يمنع خروج شياطين الجن من محيط الأرض للتجوال في الفضاء، وهو ما سبق وذكرته الآيتان:٨-٩ من سورة الجن وكذلك الآية:٣ من سورة الملك التي تشير إلى أن الغلاف الجوي يتكون من طبقات.

والآيات تخاطب قريشاً بما يتناسب مع محدودية علمهم، والذي لا يزيد عن مخاطبتهم بما يرون بعيونهم المجردة. فهم يرون السماء مرصعة بالنجوم، ويرون الشهب وهي تحترق، لكنهم لا يعلمون لماذا؟

والآن الكل يعلم أن رؤية النجوم بسبب انتشار ذرات صغيرة من الغبار والأوزون



والأكسجين والتي تعمل على امتصاص ضوء الشمس والنجوم وإعادة إرسالها. كما نعلم أن الشهب - التي هي عبارة عن صخور- عندما تقترب من الأرض تجذبها الجاذبية وبمجرد دخولها للغلاف الجوي وهي تسير بسرعة هائلة[15] تحترق بسبب ارتفاع درجة حرارتها ووجود الأكسجين.

والآيات تقول بأن السماء الدنيا محفوظة من اختراق أي شيطان مارد. والمقصود بهم شياطين من الجن، بدليل أن الآية: (٨) تقول بأنه لم يعد بإمكانهم أن يستمعوا للملأ الأعلى (كما كانوا يفعلون قبل الحجب).

المشارق

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ(٥) الصافات.

المشارق هنا كما يراها القرشي العادي زمن نزول السورة، حيث يرى أن الشمس - أو الشمس والقمر - تختلف مشارقهما باختلاف الشهر والمواسم.

شيعة

كل مجموعة من الناس اجتمعت على أمر أو فكر واحد فهم شيعة.

سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(٨٣) الصافات.

برغم أن نوح سبق إبراهيم في الزمان واختلف عنه في المكان، إلا أن الآيات تذكر أن إبراهيم من شيعة نوح، لأنهما يحملان نفس الفكر الديني والمعتقد.

الكرب العظيم

وردت ثلاث مرات في القرآن، مرتين أثناء الحديث عن نوح، وهما كما يلي:

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) الصافات.

وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) الأنبياء.

---

١٥ ذكرت وكالات الأنباء أن النيزك الذي سقط على منطقة الأورال الروسية منتصف شهر فبراير لعام ٢٠١٣ بلغت سرعته قرابة ٥٣ ألف كيلو متر، أو ٣٣ ألف ميل في الساعة، وقد تصل لثلاثة أضعاف هذه السرعة أحياناً.



وكلها تعني الغرق.

والثالثة ضمن الحديث عن موسى وهارون: وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(١١٥) الصافات.

شجرة الزقوم

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ(٦٧) الصفات.

كل الصور المجازية الحسية لما في الجنة والنار تصوير حسي لتقريبها من ذهن المخاطب للترغيب والترهيب، وهم قريش بمداركهم ومعارفهم المحدودة زمن رسول الله، ومن ذلك القول بأن شجرة "الزقوم" يأكل منها أهل النار. وما يؤكد أنها للترهيب، هو أن الآيات تصف طلعها برؤوس الشياطين، مع أنه ليس هناك بشر رأى رأس شيطان. فالتشبيه لما في أذهان الناس – حين نزول السورة وحتى اليوم عند البعض – أن رؤوس الشياطين مقززة، لدرجة أن البعض يرسمها على شكل رأس أحمر فاقع العينين أو مائلة وبقرنين فوق الرأس.

فشجرة الزقوم مجرد تصوير مجازي للترهيب من العذاب والتنفير منه، ولن يأكلها أهل النار، لأن أهل النار لن يكونوا بحاجة للأكل لكي يبقوا أحياء، كما كانوا في الدنيا. فكل الخلق في الآخرة سيبقون أحياء على الدوام، ولن يكون لهم أعمار افتراضية يموتون بعدها.

اليم

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(٤٠) الذاريات.

اليم في القرآن تأتي على عدة معانٍ، منها:

بمعنى البحر: وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٠) البقرة.

وفرعون أغرق باليم كما تقول آية سورة الذاريات أعلاه.

والبحر عبارة عن مسطح مائي، سواء كان نهراً، كالذي ألقي فيه موسى وهو رضيع:



وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧) القصص.

أو كان محيطاً متلاطم الأمواج: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٩٧) الأنعام.

وفرعون غرق في اليم، أي في مسطح مائي قد يكون بحيرة، بمفهومنا الحالي، وليس بحراً واسعاً.

وفي سورة طه ورد ذكر اليم: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى(٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي(٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى(٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(٤١).

ولابد أن اليم هنا عبارة عن مجرى مائي ضيق كالقناة أو الوادي، بحيث يمكن لأخت موسى السير بمحاذاته وبنفس سرعة جريان الماء الذي يحمل التابوت. ولو كان بحراً فقد تأخذ الأمواج التابوت بعيداً عن الشاطئ ولن يكون بالإمكان مراقبته. كما أنه لو قذف التابوت في البحر فسيكون عرضة للغرق، بينما لو قذف في الوادي أو في جدول مائي فستراقبه أخته التي تسير بمحاذاته، ولو تعرض التابوت للانقلاب فستتمكن أخت موسى من إنقاذه.

فاليم ليس بالضرورة هو البحر المتلاطم الأمواج، والبحر ليس بالضرورة أن يكون بتعريفنا المعاصر للمسطح المائي العريض الذي تتلاطم فيه الأمواج. لأن هذا التعريف العصري تعريف جغرافي ليتوافق مع التعريف الجغرافي وتعريب للفظ «Sea» في الإنجليزية.

البحر

يطلق على المسطح المائي الكبير المتلاطم الأمواج، والذي تجري فيه السفن والبواخر، كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) لقمان.

لكنه أيضاً يرد في القرآن بمعنى مسطح مائي محدود، كالبحيرة الصغيرة أو النهر بمعناه



الحالي. ومن ذلك ما ورد في سورة الكهف في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً(٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً(٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً(٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً(٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً(٦٤) فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً(٦٥).

فموسى وفتاه كانا يسيران على أرجلهما، وقرر موسى تتبع أحد الأنهار المحلية حتى يصل للالتقائه ببحر آخر (نهر آخر). ولو كان الحديث عن بحر بمسطح مائي بآلاف الكيلومترات المربعة لما سار موسى بمحاذاته حتى يلتقي ببحر آخر. وجنوب غرب جزيرة العرب منطقة جبلية والأمطار تهطل عليها بكميات تكفي لجريان بعض الأنهار المحلية في الأودية والتي تلتقي ببعضها قبل أن تصب في البحر الأحمر، إن كانت منحدرة من سفوح السروات الغربية، أو قبل أن تتجمع في بحيرات موسمية على حدود الربع الخالي إن كانت منحدرة من سفوح السروات الشرقية. وبالتالي فتتبع أحدها ممكن على الأقدام، والوصول لالتقائه بنهر آخر ممكن بعد وقت ليس بالطويل.

والآيات تظهر أن موسى وفتاه بلغا مجمع البحرين (النهرين) بعد فترة قصيرة لدرجة أنهما عادا أدراجهما في نفس اللحظة، متتبعين آثار أقدامهما عند قدومهما: « قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً".

النهر

في استخدامنا الحالي يعني الوادي الدائم الجريان، أو ما يقابل لفظ River بالإنجليزية. فهو تعريف جغرافي حديث، ولا يعني المدلول اللغوي للفظ في أصل اللغة العربية، ولا استخدام اللفظ في العصور القديمة. ولو عدنا للقرآن لوجدنا أن النهر يعني المسيل المائي ولو كان صغيراً على شكل ساقية في مزرعة: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً(٣٣) الكهف.

نهر هنا بمعنى أنهار، أي جداول مائية تسقى منها أحواض المزروعات، وهو نفس المعنى



للأنهار الواردة في الآيات التي تعطي صوراً مجازية لما في الجنة، مثل: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٢٣) الحج.

والجداول المائية هي تلك الأنهار في قرية فرعون: وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١) الزخرف.

وليس المعني مسطحات مائية بعرض الفرات أو النيل.

وهي المعنية في قوله تعالى: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) بني إسرائيل.

الآية تتحدث على لسان قريش التي رفضت دعوة الرسول ما لم يظهر لهم الآيات التي طلبوا، ومنها أن يكون للرسول مزرعة (جنة من نخيل وعنب) يتخللها الجداول المائية التي تسقي المزروعات (فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً) وتفجير الأنهار يتضح في جريان الماء في تلك الجداول المتفرعة وكأنها تتفجر. وجداول المزارع لا يزيد اتساعها عن نصف متر.

اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ(٣٢) إبراهيم.

الأنهار هنا تعني المجاري المائية في الأودية والتي يطلق عليها في مناطق جنوب غرب الجزيرة العربية «غيل» وهي مجاري لا يزيد اتساعها عن متر أو مترين شبه دائمة الجريان في الأودية، حيث تجري لعدة أشهر دون توقف، نتيجة لهطول الأمطار على رؤوس الجبال المحيطة.

ولا تعني الأنهار بمعناها الجغرافي الحالي، لأن المخاطب في الآية قريش، التي تعرف الغيول التي تجري في الأودية، ولكنها لا تعرف الأنهار لخلو بيئة جزيرة العرب منها.

كما أن الأنهار تعني الماء المنبثق من النبع: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤) البقرة.



والنبع ماء يسيل من شق في الصخور بعرض ضيق، ومع ذلك سمته الآية نهراً.

وكل ما سبق من معانٍ للنهر يعني ماء يجري في مجار وجداول وسواقٍ صغيرة ضيقة وليس مسطحاً مائياً عريضاً كما نُعَرِّف النهر الآن.

الصاعقة

الصاعقة وصف للكارثة التي تحدث بلا مقدمات وبسرعة خاطفة، بغض النظر عن نوعها.

فالريح التي أهلكت عاداً، والزلزال الذي أهلك ثمود، توصفان بالصاعقة: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(١٣) فصلت.

وعاد أهلكوا بالريح، وثمود أهلكت بالزلزال أو الرجفة: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨) الأعراف.

وبنو إسرائيل أصيبوا بالصاعقة: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٥) البقرة.

وصاعقة بني إسرائيل كانت زلزالاً: وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(١٥٥) الأعراف.

التلاوة تعني الحضر في الذاكرة

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦) الجاثية.

قوله «نتلوها عليك» لا تعني نلقنك. لأن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول، كما صرحت سور عديدة، منها: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) الشعراء.

ومثلها: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) البقرة.



قطمير

ورد هذا اللفظ في القرآن مرة واحدة في سورة الملائكة المسماة «فاطر»: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣).

وقد عرفه الفيروزأبادي في القاموس المحيط وابن منظور في لسان العرب بأنه : القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ بين النَّواةِ والتَّمْرَةِ، أو النُّكْتَةُ البَيْضاءُ في ظَهْرِها.

لكن أحمد ابن فارس في مقاييس اللغة لم يوافق على هذا التعريف وقال بأن قطمير تعني: الحبة في بطن النواة.

وأورد الخليل ابن أحمد الفراهيدي في العين تعريفاً مختلفاً بقوله: القِطْمير: الذي تعلق به النّواة مع القِمَع إذا أخرجتها من التّمر.

فأصحاب اللغة لم يتفقوا على تعريف واضح محدد للقطمير، لأنهم اقتبسوا كلام المفسرين.

ولسنا بحاجة لتبني أي قول من أقوال المفسرين وأصحاب المعاجم، لأن الآية تقول بأن الله خلق كل شيء وهو على شيء قدير، بينما آلهتكم يا قريش لا يملكون «من قطمير» أي لا يملكون أتفه التوافه وأحقرها وأصغرها. وهذا هو المهم.

خليفة

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ص.

خليفة بمعناها العام تعني القائم بأمر مقام من سبقه القيام به، لكنها في الآية تعني أن يكون الإنسان مؤتمن على إعمار الأرض من قبل الله، ولا تعني أن داوود خلف أقواماً سبقوه في الأرض.

وفي نفس المعنى تقول سورة فاطر: هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً(٣٩).

فالله جل وعلا كلف الناس بمسئولية إعمار الأرض وأتمنهم عليها، ولا تعني أن الناس خلفوا أناساً قبلهم، أو تشير إلى سلالات منقرضة.



وتقول سورة يونس: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ(١٤) يونس.

والمخاطب هنا قريش، والآية تقول إنهم جاؤا بعد قرون من الناس أهلكت بكفرها. فقريش خلفوهم في الأرض، أي عاشوا بعد زمانهم، ولا تعني عاشوا في نفس مكان من سبقهم.

وتقول سورة الأنعام: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) الأنعام.

خلائف الأرض سكانها والقائمون عليها.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٠) البقرة.

آدم خليفة على الأرض التي خلق فيها أي مؤتمن عليها ومكلف بعمارتها، وليس خليفة لأناس سبقوه، أو خليفة على كل الكرة الأرضية.

الجن تعني الاختفاء

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠) الكهف.

الآية يستشهد بها كل من يظن أن إبليس من الجن، وهو استشهاد خاطئ وتأويل تعسفي لمعنى «كان من الجن» ليعني أنه من جنس المخلوقات التي تسمى الجن. لأن كونه من الجن لا يعني أنه فاسق كافر. فالجن مثل بقية خلق الله في كل الكون، منهم المؤمن ومنهم دون ذلك: وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا(١١) الجن.

والجن تعني عدة معانٍ منها الاختفاء ولذلك سميت المخلوقات الخفية التي لا يمكن رؤيتها بالجن. وإبليس فسق عن أمر ربه بالسجود لآدم واختفى من مكان السجود، وليس المعنى أنه لم يسجد لآدم لأنه من المخلوقات الجن. كما أن المعنى لا يستقيم لو قلنا بأنه كان من الجن لأن سبب امتناعه عن السجود هو شعوره بتميزه عن آدم، كونه مخلوقاً من طاقة وآدم - كبقية البشر - مخلوق من طين، كما تقول عدة سور تحدثت عن موقف إبليس من السجود.



وتؤكد سورة الأنعام أن الجن تعني المختفي: وَجَعَلُواْ لله شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ(١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٠١).

الآيات ترد على ظن قريش أن الملائكة بنات الله - كما ورد في عدة سور - وتطلق على الملائكة الجن. وذلك لأن قريشاً لم تر الملائكة أبداً ومع ذلك اعتبرت أنهم إناث وأنهم بنات الله.

ومثله ما ورد في سورة الصافات: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) الصافات.

والآيات تستنكر على قريش اعتقادهم بأن الملائكة من جنس البنات، وأنهم بناتٌ لله. وتتساءل الآيات باستنكار: كيف جعلوا لله نسباً مع الجِنة؟ والجِنة هنا تعني الملائكة، لأنهم جِنّة بالنسبة للناس، كونهم لا يمكن لهم رؤيتهم فهم مخلوقات بلا أجساد حسية يمكن رؤيتها.

وتقول سورة سبأ: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ(٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ(٤٢).

المشهد مجازي وكأن الملائكة وقريش جمعوا أمام الله يوم القيامة، ويسأل سبحانه الملائكة إن كانت قريش تعبدهم وهم راضون بذلك. فيأتي الجواب من الملائكة: أن قريشاً لم ترهم ولا تعرف هيئاتهم وبالتالي فهم يعبدون شيئاً خافياً وغير معروف. فالجن تعني المختفي الذي لا يرى، كون الملائكة بالنسبة لقريش جنٌّ بهذا المعنى. فقريش تقدس مجهولاً بقولهم إن الملائكة بنات الله، والتقديس عبادة.



الجن تعني العبقري من البشر

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣) سبأ.

الجن في الآية يقصد بهم نوابغ من البشر، وليسوا من تلك المخلوقات الخفية اللاجسدية الذين يسمون الجن. لأن الجن المذكورين في الآيات " يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ". وهذه الأعمال يقوم بها البشر، لأن المخلوقات النورانية اللا- جسدية مثل الملائكة والجن لا يستطيعون حمل الأشياء ولا الإمساك بها ولا يتقنون الحرف، ذلك أنه ليست لديهم أجساد مادية بل هم مخلوقات من طاقة.

وحتى في اللغة الإنجليزية فلفظ «Genius» يأتي بمعنى أحد الجن، وبمعنى العبقري من البشر والموهوب والنابغة، وهو نفس المعنى للجني في العربية.

العلم

هو المعرفة والإحاطة. واللفظ إذا جاء معرفاً بأل في القرآن فله عدة معانٍ، منها:

الرسالة أو الدين

كما في قوله تعالى: وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) الجاثية.

ومثله: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (٨٣) غافر.

ومثله: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٦) سبأ.

ومثله: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) الشورى.



ومثله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١) المجادلة.

والذين آمنوا هم الذين أوتوا العلم.

ومثله: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ (١٦) محمد.

المعرفة والإحاطة بشيء محدد

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) الملك.

ومثله: قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) الأحقاف.

والمراد هنا أن الله جل وعلا هو من يعرف موعد البعث والقيامة.

ومثله: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) بني إسرائيل.

المعرفة العامة

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) النجم.

فقريش تظن دون علم أن الملائكة بنات الله.

الذين أوتوا العلم

كلما وردت في القرآن عبارة «الذين أوتوا العلم» فهي تعني المؤمنين.

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٦) سبأ.



ومثله: قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) بني إسرائيل.

ومثله: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ(٢٧) النحل.

ومما ورد في سورة القصص ضمن الحديث عن قارون: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠).

ومثله: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) العنكبوت.

وسور أخرى.

ما بين يديه

عبارة «ما بين يديه» تأتي بعدة معاني في القرآن، كما يلي:

الذي سبقه

وهو المعنى الأهم والأكثر ذكراً في القرآن، وتأتي العبارة عادة مقترنة بذكر أن القرآن مصدق للرسالات التي سبقته. لذا نجدها وردت في سور موجهة لأهل الكتاب. وبالتالي فليس من المنتظر أن ترد في سور المرحلة الرابعة للدعوة في مكة، لأن المخاطب فيها قريش الوثنية التي لا تؤمن برسالات سابقة. ومن الآيات التي وردت فيها العبارة ما يلي:

- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) الأحقاف.

الكتاب مصدقاً لما بين يديه (أي لما سبقه).

- وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) فاطر.



الخطاب موجه للرسول: والكتاب (القرآن) الموحى للرسول مصدق لما بين يديه (لما سبقه) من وحي.

ومثله:

ومثله ما ورد في سورة الأنعام: وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢).

ومثله ما ورد في سورة البقرة: ٩٧، آل عمران: ٣، والمائدة: ٤٨.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) سبأ.

فقريش تقول بأنها لن تؤمن برسالة محمد ولا بأي رسالة سبقتها «بالذي بين يديه».

وفي سورة سبأ نفسها ورد قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٤٦).

الآية تخاطب قريشاً وتطلب منهم التفكير الجدي والمجرد بما يدعوهم له محمد، ليتبينوا أن محمداً ليس مجنوناً كما يحاولون وصفه، وأنه نذير لهم يسبق يوم الحساب حيث عذاب جهنم للمكذبين.

وقول الآية» نذير لهم بين يدي عذاب شديد» نذير يسبق العذاب.

ومثله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) يوسف.

فالقصص التي يرويها القرآن عن الأمم السابقة ليست مجرد قصص مختلق ولكنها حقائق تتفق مع الواقع ومع ما جاء في الكتب السماوية السابقة.



ومثله ما كررته سورة يونس: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) يونس.

وتقول سورة فصلت: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢).

وجاء في سورة البقرة: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) البقرة.

تقول سورة المائدة: وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦).

وتقول السورة نفسها: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) المائدة.

وتقول سورة آل عمران: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣).

وهناك آية واحدة ذكرت العبارة ضمن حديث عن لعن بني إسرائيل يوم السبت: وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(٦٦) البقرة.

فلعنهم كان نكالاً (عبرة) لما سبق الحادثة من مواقف لبني إسرائيل وما سيأتي بعدها من مواقف يخالفون بها أوامر الله.

وقد تأتي أحياناً بمعنى له أو أمامه وبأمره

كما في قوله تعالى:

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) سبأ.



وتأتي بمعنى كل وسيلة ممكنة

كما في قوله تعالى:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(١٣) إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(١٤) فصلت.

فالرسل حاولوا بكل وسيلة دعوية هداية قومهم للحق، وهو ما عبرت عنه الآية بقوله: «إذ جاءتهم رلهم من بين أيديهم ومن خلفهم».

ومعانٍ أخرى.

المحراب

المحراب في الأصل يطلق على الغرفة المنيعة في أعلى الحصن التي يطلق منها الحراب لصد هجوم العدو، ثم أطلقت على الحصن والقلعة، وعلى الغرفة العلوية في المنزل، وعلى الغرفة الواسعة. ومن ذلك: وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ(٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ(٢٢) ص.

فالخصم تسوروا جدار الغرفة العلوية التي يجلس فيها داوود في قصره.

ومثله: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(١١) مريم.

والحديث عن زكريا الذي خرج من غرفته «صالونه بلغة العصر».

ومثله: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٧) آل عمران.

فالمحراب هنا يعني غرفة من غرف البيت الذي يقطنه زكريا الذي كفل مريم، وكانت تعيش في بيته. ولم يكفلها وأسكنها المسجد، كما كنت أظن في وقت سابق بتأثر من كتب التراث.

ومثله: فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(٣٩) آل عمران.



فزكريا كان يصلي في محراب في بيته (صالونه الذي يقضي فيه معظم أوقاته).

والمحراب جمعه محاريب، ومن ذلك محاريب سليمان التي تقوم على أعمدة من نحاس وكونت ما يسميه اليهود هيكل سليمان، وهو قصر - بمفهومنا الدارج حالياً - يحتوي على عدة محاريب غرف واسعة وصالونات: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣) سبأ.

وفي عصر العباسيين أصبح لفظ «محراب» يطلق على تلك الكوة غير النافذة في حائط القبلة في المسجد، والتي يؤدي فيها الإمام الصلاة.

الجسد

ذكر في عدد من الآيات، منها:

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ(٨٨) طه.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ(١٤٨) الأعراف.

وهاتان الآيتان تتحدثان عن ذلك التمثال الذي صنعه أحد بني إسرائيل وهو «السامري» من الحلي على هيئة عجل وعبدوه حينما كان موسى يكتب التوراة.

فالجسد هنا يعني: التمثال الجماد. أي تمثال بغض النظر عن المادة التي صنع منها.

ويرد الجسد في سورة الأنبياء للرد على تساؤلات قريش التي تطلب أن يرسل لها أحد الملائكة:

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨) الأنبياء.

فكل الرسل قبلهم أرسلوا من البشر، ولم يكونوا ملائكة، كما تقول الآية السابعة. وتواصل الآية الثامنة لتقول: كما أن الرسل لم يكونوا تماثيل لا حياة فيها « جسداً» لا يأكلون الطعام، ولم يكونوا خالدين (ملائكة). كون الملائكة وكل مخلوقات الله اللاجسدية تبقى على قيد الحياة ما بقي الكون، فهم خالدون بقدر معلوم وليس للأبد.

ويكون الجسد في الآيات السابقة يعني بلغة العصر: التمثال الذي لا حياة فيه بغض النظر



أكان على هيئة عجل أو إنسان أو غيره.

أما الإنسان فيطلق عليه القرآن كلمة "جسم"، ومن ذلك: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٤٧) البقرة.

وقوله تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٤) المنافقون.

ولا يطلق «جسد» في القرآن على شيطان من الجن أو جسم الإنسان.

وقد ورد الجسد في سورة «ص»: وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ(٣٤).

وكالعادة فقد أطلق المفسرون لأنفسهم العنان في اختلاق القصص وتصوير الجسد المذكور بصور خيالية لا يمكن وقوعها على أرض الواقع. ومن ذلك قولهم بأنه جسد شيطان من الجن، وتسابقوا في اختلاق اسم له. فالبعض قال اسمه صخر، وغيرهم قال آصف، وآخرون قالوا آصر، وغيرهم قال حبقيق.

وبعيداً عن هذه التخاريف، وبناءً على تعريف آيات القرآن السابقة للجسد، فالملقى على كرسي سليمان تمثال لا روح فيه.

ويمكن تعريف التماثيل بأنها: الأجساد المعدنية أو الصخرية أو الخشبية المصنعة على هيئة إنسان أو حيوان أو شجر أو غيرها. ولابد أن هيكل سليمان يغص بها وتتزين بها جنباته. ومفردها تمثال.

الجفان

مفردها جفنة، وهي أواني الطعام الضخمة التي يتحلق حولها العدد الكبير من الناس، وتكون على شكل حوض قائم على سيقان معدنية، وفي عصر سليمان كانت تصنع من النحاس - كما تقول الآية - وقد بقيت هذه الجفان يقدم فيها الطعام في الولائم حتى اليوم في جزيرة العرب، بعضها يتسع لجمل مطبوخ بكامله مع الرز وبعضها أصغر، وتسمى:



القصعة

جمعها قصاع، وهي الصحفة الكبيرة. يقال: القصعة تشبع العشرة.

الصحفة

هي المثكلة الكبيرة، يقال: الصحفة تشبع الخمسة.

المثكلة

هي الصحيفة الكبيرة، يقال: المثكلة تشبع الإثنين.

الصحيفة

هي إناء لطعام شخص واحد «صحن»، يقال: الصحيفة تشبع الرجل.

وكلها أواني يوضع فيها الطعام، وبما أن العرب تأكل الجماعة منها من إناء واحد فهناك أحجام مختلفة، لكل حجم اسم، ولها مسميات محلية.

الجواب

جمعها: جابية. وهي الحوض الضخم الذي يملأ بالماء لتشرب منه الإبل.

المنسأة

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(١٤) سبأ.

المنسأة هنا تعني المؤخرة من النسأ وهو التأخير.

ودابة الأرض (نوع من أنواع الخنافس) شمت رائحة تعفن جثة سليمان وبدأت تأكل الجثة[١٦]. ولا عبرة بكلام المفسرين الذين أخذ عنهم أصحاب المعاجم قولهم بأن المنسأة هي عصا غليظة. لأن هذه الحشرات لو كانت عصا سليمان تجتذبها، لالتهمتها أثناء نومه. ولكن الحشرات وهي أنواع من الذباب ومن الحشرات الزاحفة لديها قدرة عجيبة على شم رائحة تعفن الجثث فتسارع إليها وتضع بيضها على الجثة والتي سرعان ما تفقس وتبدأ التهام اللحم الذي بدا يتفسخ.

١٦ هناك عدة أنواع من الخنافس ومن الحشرات التي تتغذى على الجثث، ومنها الذباب الأزرق الذي يضع بيضه على الجثة وسرعان ما يفقس البيض ويبدأ بالتهام ما حوله.



العرم

الشديد، والسيل العرم وصف له بأنه عاصف شديد مدمر. بخلاف قول المفسرين، الذين نورد بعض أقوالهم التي اقتبسها منهم صاحب لسان العرب:

والعَرِمَةُ سُدٌّ يُعْتَرَضُ به الوادي، والجمع عَرِمٌ، وقيل: العَرِمُ جمعٌ لا واحد له. وقال أَبو حنيفة: العَرِمُ الأَحْباسُ تُبْنى في أَوْساط الأَوْدِيَةِ.

قالوا بهذا لأنهم قرأوا عبارة «سيل العرم» في القرآن فظنوا أن العرم اسم يعني السد، وهو في الحقيقة وصف للسيل، بأنه سيل عرم قوي شديد مدمر. وقريب منه قولنا جيش عرم، وعرمرم.

وقالوا: والعَرِمُ أَيضاً: الجُرَذُ الذَّكَرُ. قال الأَزهري: ومن أَسماء الفأْر البِرُّ والثُّعْبَةُ والعَرِمُ.

لأنهم اختلقوا قصة خرافية مفادها أن فأراً كان السبب في دحرجة أحجار سد مأرب مما تسبب بتهدم السد وفيضانه. فجعلوا من أسماء الفأر العرم.

وقالوا: والعَرِمُ السَّيْلُ الذي لا يُطاق؛ ومنه قوله تعالى: فأَرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ؛ قيل: أَضافه إِلى المُسَنَّاة أَو السُّدِّ، وقيل: إِلى الفأْرِ الذي بَثَق السِّكْرَ عليهم. قال الأَزهري: وهو الذي يقال له الخُلْد، وله حَدِيثٌ، وقيل: العَرِمُ اسم وادٍ، وقيل: العَرِمُ المطر الشديد.

وكما هو واضح من تضارب كلام المفسرين أنهم لا يمتون بعلاقة قوية لعربية القرآن وكل ما يقولون مجرد اختلاق لا أساس له، لأن العرم صفة للسيل وليس اسماً. وقصة فأر سد مأرب أسخف من أن تصدق، ومع ذلك ترسخت وأصبحت تأويلاً لكلام الله.

العروة الوثقى

ورد اللفظ مرتين في كتاب الله، كما يلي:

(١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(٢٢) لقمان.

(٢) لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) البقرة.

وفيما يلي بعض خزعبلات المفسرين، كما نقلها السيوطي:



سفيان قال العروة الوثقى: كلمة الإخلاص.

وكتب الحديث تعتبر العروة الوثقى حلقة معدنية، ومن ذلك حديث أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن سلام قال: «رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت كأني في روضة خضراء، وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة فقيل لي: اصعد عليه فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة. فاستيقظت وهي في يدي، فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أما الروضة فروضة الإسلام وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت».

والحديث يظهر أن عبد الله ابن سلام اليهودي اختلقه بهذه الصورة الخرافية البعيدة عن الواقع لكي يؤكد إسلامه للمتشككين فيه، ووجد من يصدقها ويعتبرها تفسيراً لكلام الله.

والمتدبر للآيتين يجد أن المقصود بالعروة الوثقى هي الطريق المستقيم أي دين الله الحق أي الإسلام، بعيداً عن تخاريف المفسرين.

العرش

طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى(٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى(٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى(٥) .

المفسرون فهموا أن العرش ما هو إلا كرسيٌ للجلوس، وكأن الله جلس على كرسي بعد انتهائه من خلق ملكوته، لحاجته للراحة. وكأنه (تعالى عن ذلك علواً كبيراً) كان بحاجة للجلوس والراحة ولم يكن له مكان يستريح فيه قبل خلقه السماوات والأرض. وكلام المفسرين هذا مقتبس من اليهود، إلا أنهم لم يتجرأوا على القول بأن الله استراح بنفس الطريقة التي وصفها رجال الدين اليهودي. لأن هناك آية قرآنية تنص على أنه سبحانه لم يعتره تعب جراء ما قام به: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) ق.

ولذلك لم يكن بحاجة للراحة.

ولكنهم - كما اليهود - لم يستطيعوا تصور معنى الاستواء بغير معناه الحرفي، الذي يدل



على نوع من أنواع الجلوس، وأن الباعث للاستواء هو الجهد المبذول في خلق السماوات والأرض في الستة الأيام الماضية. فحاولوا أن يثبتوا الاستواء بالكيفية التي يصورها الخيال البشري، ولكنهم لايريدون أن يبدو وكأنه للراحة، فقالوا: والعرش والكرسي حق، وهو مستغن عن العرش وما دونه. (العقيدة الطحاوية)

فالله جلس ولكنه ليس بحاجة للجلوس، كما أن جلوسه كان بطريقة تختلف عن جلوسنا، ولم يقولوا لماذا جلس. وما قالوه أربك قائله وقارئه على حد سواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[١٧].

والعرش يأتي بعدة معانٍ، منها: كرسي الملك، والسقف، وإدارة شئون الحكم.

وإذا استولى الحاكم على الملك يقال: جلس على العرش، ولو لم يجلس على كرسي الملك.

والرحمن على العرش استوى تعني توليه سبحانه إدارة كونه. فهو سبحانه خلق الخلق ثم تولى إدارته، دون أن يجلس على كرسي. وحتى توليه إدارة الكون لا تعني إدارته حرفياً، ولكنه سبحانه خلق الكون بموجب قوانين فيزيائية ثابتة كفيلة بإدارته دون تدخل مباشر منه سبحانه أو من أي من مخلوقات الحية.

السحر

سورة طه التي تتحدث عما حصل بين موسى وفرعون ذكرت أن السحر مشهور ومعروف في قرية فرعون (مصر) لدرجة أن فرعون جمع منهم عددا بكل سهولة، واختارهم من أعداد أكثر لأنهم أمهرهم: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى(٥٨) طه.

وتستمر السورة تروي كيف بارزهم موسى وهزمهم، وكيف آمنوا: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(٧٠) طه.

فالسحر موجود لكنه ليس كبيرة من الكبائر ولا يتعارض مع الإيمان بالله، كونه مجرد خدع

١١ عبارة ،ستهر مالك ابن أنس بقولها وكررها الفقهاء السنة على الدوام، انظر ترجمة مالك في سير أعلام النبلاء.



بصرية كما تؤكد سورة طه التي تصف سحر سحرة فرعون: .... فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦).

فيمكن أن يكون المرء مؤمناً ويعمل صالحاً ويتقن الخدع البصرية والألعاب السحرية.

وحتى الآية التي تصف شعور موسى بالرهبة عندما رأى حبال وعصي السحرة وكأنها تسعى لا يفهم منها أن السحر حرام: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) طه.

موسى أوجس خيفة ثم تماسك وألقى عصاه بعد أن شعر أن قوة عصاه التي اكتسبها بقدرة الله أقوى من أي خدعة سحرية. والله جل شأنه لم يكلمه في تلك اللحظة ولكن الآيات تصف تماسك موسى ورباطة جأشه وكأنه سمع نداءً من الله يأمره بإلقاء عصاه وستلقف ما صنعوا، لأن ما صنعوا شيء تافه لا يزيد عن خدعة بصرية، وهو ما تصفه سورة الأعراف في قوله: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(١١٦) الأعراف. فكل ما يملكه الساحر هو خداع بصري: « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى". فالسحر لا يمكن أن يفلح لأنه زيف وليس حقيقة، ولا يعني أنه كبيرة وجرم.

ويمكن تعريف السحر مما تقدم بأنه: ألعاب خفة وخدع بصرية.

وما يسمى سحراً بالمعنى الشائع الآن لا علاقة له بالسحر المذكور في القرآن، ولكنه مجرد خزعبلات لا أساس لها منبعها استغلال جهل الناس وتعطشهم للخوارق للكسب المادي. وقد يقوم من يسمى بالساحر بتسميم المسحور بأدوية سمية قد تقضي عليه أو تتلف خلايا في مخه، لكنه لا يستطيع استخدام الجن كما يظن البعض ولا يستطيع استخدام قوى خفية يمكن أن تغير شعور شخص تجاه آخر، ولا يضر ولا ينفع بواسطة تمتمات وشخبطات على الورق.

عصا موسى

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(١٨) طه.



بحكم أن موسى كان طوال ثماني أو عشر سنين يرعى الغنم والإبل للشيخ الذي وجد بناته يسقين من بئر مدين، فقد اتخذ عصاً مشابهة للعصا التي تكون مع كل راع من الرعاة، يهش بها على الماشية ويتوكأ عليها في حال احتاج ويستعملها لاستخدامات أخرى.

وليس لها أي تميز عن أي عصا مماثلة قطعت من شجرة من أشجار المنطقة التي كان موسى يرعى فيها غنم والد زوجته. لكنها اكتسبت قدرة عجيبة من بعد تعرضها للطاقة أثناء التكليم.

ولكي يستطيع موسى إظهار طاقة العصا لابد أن تمسك بها يده التي اكتسبت طاقة مماثلة. ولا يمكن أن يظهر للعصا قدرة لوحدها بدون يد موسى، فاليد والعصا يعملان كقطبين: سالب وموجب. ولو كان للعصا طاقة يمكن أن تصدر منها بدون يد موسى، لتم استغلالها بعد وفاته وبقيت طاقتها إلى اليوم، لكنها بعد وفاة موسى فقدت طاقتها ولم يعد لها أي ميزة عن أي عصا أخرى.

وقد اكتسبت العصا قدرات فوق عادية متنوعة، منها:

القدرة على تحلل الأشياء وتحويلها إلى عدم خلال ثوان، دون حاجة لتكسيرها أو حرقها أو إذابتها، كما حدث مع حبال وعصي السحرة: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(٧٠) طه.

وتفجير الماء، وتوقف الماء.

يوم الزينة

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى(٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى(٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى(٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى(٦٠) طه.

يوم الزينة هو ما نسميه العيد في وقتنا الحالي. حيث إظهار الزينة في الملابس والفرح



والنشاطات المرحة والتسلية. وقد اختار موسى يوم عيد سنوي يجتمع فيه أهل مصر في ساحة القرية ويلعبون ويتسلون ويشربون ويأكلون ويلهون، وذلك لكي يشهد أكبر عدد من سكان قرية مصر على صدق آياته ورسالته وأنه لم يكن كما زعم فرعون مجرد ساحر كذاب.

الذِّكْر

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً(١٠٠) طه.

الذكر هو وصف للوحي، والوحي المنزل على محمد هو القرآن.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠) الأنبياء.

والذكر هنا وصف للوحي المنزل على موسى وهارون (التوراة).

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(٥١) القلم.

وصف للقرآن: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١)فصلت.

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١)ص.

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(٢٥)القمر.

أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ(٨)ص.

وفي هذا المجال تقول الذاريات: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ(٥٥)الذاريات.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١)يس.

والضياء وصف مماثل للوحي.

أهل الذكر

عبارة «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» وردت مرتين في كتاب الله، كما يلي:

الأولى في سورة الأنبياء: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن



كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨).

والسورة نزلت في أواخر المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، وبعد قرابة ست سنوات من بدء البعثة، وترتيبها من حيث النزول (٧٦) أي أنه نزل قبلها (٧٥) سورة، بعض هذه السور ذكر أن قريشاً كانت تطلب من الرسول أن ترى آية أو تنزل عليهم الملائكة كدليل على أنه رسول من الله. ومن السور التي تذكر طلب قريش نزول الملائكة سورة الحجر والتي ترتيبها حسب النزول (٦٥)، وقد جاء فيها على لسان قريش: لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ (٨).

وسورة الأنبياء تقول لقريش إنه لن ينزل عليهم ملائكة، لأن الله جل وعلا لم يسبق أن أنزل ملائكة كرسل للبشر، وعليكم أن تسألوا «أهل الذكر» إن كنتم لا تعلمون هذه الحقيقة.

والذكر صفة الوحي ورسالة رب العالمين: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً(١٠٠) طه.

وجاء في سورة الحجر: وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦).

وهو ما أكدته نفس السورة في آية أخرى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩).

فيكون أهل الذكر هم أهل الديانات السابقة مثل بني إسرائيل. وبنو إسرائيل يثرب كان لهم تواجد مكثف في مكة منذ أن توجه الخطاب الدعوي في القرآن لهم بدءً من المرحلة الخامسة للدعوة في مكة. فأقبلوا للقاء الرسول والسماع منه، ولهذا كان من اليسير سؤالهم. ولو أن سورة الأنبياء نزلت في المرحلة الرابعة للدعوة حيث كان الخطاب الدعوي في القرآن موجهاً لقريش فقط لما طلبت السورة سؤال أهل الذكر لأنه لا تواجد لهم في مكة.

إذاً، بمراعاة السياق الذي ورد فيه جزء الآية والآية كاملة، ومعرفة متى نزلت السورة، ومن تخاطب، صار من السهل فهم المعنى الصحيح للآية والمقصود بأهل الذكر.

وقد وردت عبارة «فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" مرة أخرى في سورة النحل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤).

والنحل نزلت في المرحلة السابعة والأخيرة للدعوة في مكة وترتيبها (٨٦) حسب النزول. أي أنها نزلت بعد أن أصبح لأهل الذكر (بنو إسرائيل يثرب) تواجد في مكة. وهي تكرر ما



قالته آية سورة الأنبياء من حيث إنها تخاطب قريشاً وتقول لهم إنه لن ينزل عليكم ملائكة لأنه لم يسبق أن حدث هذا، ولكم أن تتأكدوا بسؤال من جاءهم الذكر قبلكم.

المكر والكيد

هو التحايل، وهو تخطيط خفي للإيقاع بالمقابل أو التسبب له بضرر.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ(٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ(٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ(٩٩) الأعراف.

مكر الله هنا بينته الآيتان: ٩٧-٩٨ وهو وقوع كوارث مهلكة بأهل القرى فجأة. فنعت بالمكر لأنه خطط لوقوعه دون علم أهل القرى الذين فسقوا عن أمر ربهم وانشغلوا بمتعهم الدنيوية ونسوا الله ودينه.

وهو ما تشير له السورة في مكان آخر: وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ(١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(١٨٣) الأعراف.

وهو ما سبق وذكرته سورة ن والقلم: فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(٤٥).

فمن يغرق في مباهج الدنيا ويكفر بالآخرة كأنه استدراج لهم لكي يموتوا على الكفر ويكون مصيرهم النار. وكأن الله استدرجهم للكفر لكي يعذبهم ويخطط للمكر بهم وكيدهم.

وهذا ليس ما حدث، فالله سبحانه ترك الخيار للناس، يختارون الضلال أو الهداية بحرية. لكن من يختار الضلال فكأنه الله هو من تسبب له وحجب عقله عن رؤية الحق. وبما أن الله هو من خلق العقل وهو من مكن الإنسان من الخيار فإن اختيار الضلال كان بأمر الله.

والدليل على أن الله جل وعلا لم يحجب عنهم الحق وكان لهم الخيار جاء في الآيات التي تلت: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٨٦) الأعراف.



فلو استخدموا عقولهم للتفكير بعظمة الخلق استدلوا على قدرة الله على البعث الذي ينكرون.

وتكرر الآية ١٨٦ أن الله أضلهم، بشكل غير مباشر كما سبق وذكرنا.

ومثله: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ(٢١) يونس.

الإنسان يعرف الله في داخله ويعود له في الشدة وفي وقت الرخاء يتصرف وكأنه لا يعرف الله. وهو تصرف ماكر، لكن الله الذي خلقهم وأودع في أنفسهم آلية تكتب ما يصدر منهم وما يفكرون به ويمكرون.

الفرقان

الفرقان وصف للوحي المنزل على أي رسول.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠) الأنبياء.

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(١) الفرقان.

الرشد

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ(٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢) الأنبياء.

أن يكون المرء راشداً يعني أن يحكم عقله ويسمح له بالتفكير الحر. فالرشد يعني إعمال العقل بقدرة وحرية واتزان.

زوج تعني مثيلاً وشبيهاً

تقول سورة الصافات: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢) مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ(٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ(٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ(٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦).



تتحدث الآيات عن مصير من يموت من قريش ولم يؤمن، والآية ٢٢ تقول: « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ». فأزواجهم لن يدخلوا النار لأنهم أزواج كفار، ولكن لأنهم كفار مثلهم، وهو مشابه لما ورد في سورة الطور: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ(٢١) الطور.

فالمغفرة والجنة لمن يؤمن، وستتبعهم ذريتهم - لأنها مؤمنة - وليس لأنها ذرية من آمن ولو لم تؤمن. والعذاب والنار لمن لم يؤمن، وسيتبعهم أزواجهم - لأنهم لم يؤمنوا - وليس لأنهم أزواج من لم يؤمن.

جُرُز

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً(٨) الكهف.

الجرز هنا تعني الأرض القفر التي لا نبات فيها ولا حياة. بعدما كانت عامرة بالنبات والحياة، أضحت جرزا. وهو كناية على نهاية الأرض وزوالها، كما بينت سورة السجدة: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ(٢٧).

الحنيذ

هو شي اللحم بنار الفحم وغمه في حفرة حتى ينضج لحمه ويتقاطر ماؤه.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) هود.

والحنيذ لازال وجبة شعبية شائعة في مناطق جنوب غرب جزيرة العرب وانتشر على نطاق واسع الآن في كل جزيرة العرب.

الاستحياء

هو الاغتصاب.



الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٢٥) غافر.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) القصص.

وتقول سورة البقرة: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(٤٩).

فالاستحياء الذي تعرضت له نساءٌ من بني إسرائيل في مصر فرعون، هو ما يعرف في عصرنا بالاغتصاب.

عضين

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ(٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(٩٤) الحجر.

الحديث في الآيات عن قريش، التي اتفقت وتحالفت على رفض الدعوة والإعراض عن الحق. وقد استخدمت الآية عبارة: «جعلوا القرآن عضين» للتعبير عن رفض القرآن وعدم الالتفات له. وبالتالي فعضين ليس كما قال المفسرون بأنها تعني التقطيع والتجزئة، لأن هذا المعنى لا يستقيم. فقريش لم يقسموا القرآن ولكنهم أعرضوا عنه جملة وتفصيلاً.

فجعل القرآن عضين تعني الإعراض عنه وعدم الاهتمام به.

الحكمة

تأتي على عدة معانٍ، منها:

التشريعات

كما في سورة بني إسرائيل التي بعد أن سردت بعض التشريعات تقول: " ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ". وهذه الآيات كاملة: لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ



الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً(٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً(٢٨) وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً(٣١) وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢) وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً(٣٣) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥) وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦) وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً(٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً(٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً(٣٩).

ومثله: وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(١١٣) النساء.

ومثله: تتحدث سورة آل عمران عن عيسى قائلة: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٤٨).

وكما في سورة البقرة: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ(١٥٢).

والحكمة تأتي بمعنى:



الرشد والتعقل

ومن ذلك ما ورد في سورة «ص» عن داوود: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠).

ومثله ما تخاطب به سورة الأحزاب نساء النبي: وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤).

ومثله: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) النحل.

الفتنة

إجبار المؤمن على ترك دينه تحت التعذيب.

تقول سورة العنكبوت: الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣).

والحديث عمن أسلم من مستضعفي مكة الذين يتعرضون للتعذيب بالنار على أيدي بعض كبراء قريش لإجبارهم على ترك الإسلام والعودة لطاعتهم وخدمتهم.

الكتاب

تأتي بعدة معان، سنورد بعضها مع دليل أو دليلين، كما يلي:

الدين

تقول سورة العنكبوت: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧).

فالكتاب المنزل على محمد هو الوحي المنزل عليه. والذين أوتوا الكتاب، هم أهل الديانة السابقة وهم بنو إسرائيل.

وتقول سورة النحل: وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(٨٩).

ومثله ما ورد في سورة البينة: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى



تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ(١).

فأهل الكتاب هنا تعني أهل الدين (السابق).

وتقول سورة المائدة: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٤٨).

فالكتاب الذي أنزل على الرسول محمد، هو وحي مصدق لما بين يديه (سبقه) من الكتاب (وحي) أي مماثل له. ومهيمناً عليه أي حل محله واستبدل به، لأنه يمثل الوحي النقي الذي لم يتم التلاعب بنصوصه.

القرآن

مثل: اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥). اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥) العنكبوت.

وتقول نفس السورة: وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١).

لو أرادت قريش الإيمان لكفاها القرآن، الذي نعتته الآية بالكتاب مع أنه لم يكتب منه حرف واحد في مكة.

ومثله: حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) الجاثية.

السجلات المكتوبة

كما في قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) البقرة.



فهناك رجال دين من بني إسرائيل واليهود يكتبون تشريعات ابتدعوها ويقولون هي تمثل دين الله. كما هي حال الفتاوى عند المسلمين، وفقه المذاهب الذي يعتمد غير القرآن.

وتتحدث سورة آل عمران عن أولئك الذين يكتبون التشريعات التي يختلقون وينسبونها لدين الله، وأنهم كانوا يتلونها على الناس كتلاوتهم للتوارة ليظن العامة أنها من التوارة: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨).

"يلوون ألسنتهم بالكتاب" (الكلام المختلق)، "لتحسبوه من الكتاب" (من الوحي المنزل: التوراة)، "وماهو من الكتاب" (وهو ليس من الوحي: التوراة).

قوانين الله الثابتة في الكون

وجاء في سورة الأنعام: وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨).

فالكتاب المذكور في الآية يعني القوانين الثابتة التي نشأ بموجبها الكون ووفرت متطلبات الحياة للمخلوقات.

العذاب

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ (٣٧) الأعراف.

سينال من كذب على الله نصيب من الكتاب (العذاب)، سيعذبون.

صحيفة الأعمال

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(٤٩) الكهف.

الكتاب في الآية يعني صحيفة الأعمال المغروسة في النفس والتي تسجل كل ما يصدر من المرء طوال حياته وبناءً عليها يكون الحساب والمصير يوم القيامة.



الموعد المحدد

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) البقرة.

"حتى يبلغ الكتاب أجله" أي حتى تنقضي عدة التربص للمتوفى عنها زوجها، لأن الحديث عنها في الآيات التي سبقت هذه الآية، والتي تقول: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) البقرة.

ومعان أخرى.

اختلفوا واختلفوا فيه

كلما وردت عبارة: «اختلفوا، أو اختلفوا فيه» فهي تعني اختلفوا عن الحق وابتعدوا عنه باتباع تشريعات من غير الله.

تقول سورة الجاثية: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨).

بنو إسرائيل أرسل فيهم موسى لكنهم اتبعوا تشريعات من عندهم على تشريعات التوراة، كما يفعل أتباع المذاهب من المتنسبين للإسلام.

وتقول سورة يونس: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩).

فقد خلقت الأجيال الأولى للإنسان مؤمنة، لكن الأجيال مع الزمن تحولت لتشريعات مبتدعة (اختلفوا في الحق).

وهو ما أكدته سورة البقرة: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ



مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣).

وتقول سورة يونس: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣).

وتقول سورة النحل: تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٦٤).

فكل أتباع الرسالات السابقة للإسلام بما فيهم بنو إسرائيل، قد اختلفوا في الحق وعنه واتبعوا تشريعات ليست من دين الله. والقرآن وحده هو الممثل الوحيد للدين القويم بعد بعثة محمد، وكل من يختلف عن القرآن ويتبع المذاهب فعليه الرجوع لدين الله واتباع القرآن.

الأنعام

وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٤٣) وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٤٤) الأنعام.

الأنعام هي الحيوانات الأليفة المجترة والتي يحل أكلها وشرب لبنها، وقريش تستخدم منها أربعة أنواع كل نوع مكون من ذكر وأنثى، وهي: الضأن، المعز، الإبل، والبقر.

وجاء في سورة النحل: وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨) وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩).



الأنعام ثمانية أزواج (أربعة أنواع): الضأن والمعز والبقر والإبل كما ورد في الأنعام.

خلقت أليفة مذللة للإنسان ولم تكن يوماً متوحشة ودجنها الإنسان أبداً، لأن الحيوان يحتفظ بطباعه التي خلق عليها ولا تتعدل تصرفاته بالوراثة. ولو كانت الأنعام مدجنة لعادت لطباعها المتوحشة في بعض الأوقات كما تفعل الحيوانات المتوحشة المدجنة في السيرك.

والأنعام ينسج من صوفها وشعرها ووبرها ملابس وأغطية «دفء» ويستفاد منها بأوجه كثيرة، ويؤكل لحمها. وحتى منظرها جميل سواء وقد انتشرت على الأرض وقت راحتها ورعيها أو وهي تتحرك كقطيع أو قافلة، كما أنها تحمل الأمتعة والناس.

وهذه الأوصاف تختص بها الإبل أكثر من الغنم أو البقر.

الخيل والحمير والبغال ذوات الظفر وليست أنعاماً، وهي للركوب والزينة.

وهناك حيوانات خلقت أصلاً جائرة «متوحشة» لا تدجن أبداً.

الطور

هو الجبل الشامخ المنتصب كالجدار العظيم، وهو ما ينطبق على الجبال حول مكة - قبل أن تطالها أيدي العابثين من البشر - حيث كان يتواجد بنو إسرائيل المرافقون لموسى في وادي طوى تحفهم الجبال المنتصبة إلى الأعلى كالأسوار العظيمة.

البينات

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ(٨٧) البقرة.

وقد ورد لفظ «البينات» في أكثر من ٣٠ مرة في القرآن الكريم، كلها تأتي بمعنى الحجج والبراهين الواضحة.

فما جاء به الرسول محمد هو البينات: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٦)غافر.

وموسى جاء بالبينات: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ(٣٩)العنكبوت.



وكل الرسل جاؤا بالبينات: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤)آل عمران.

فالبينات هي الوحي بحججه وبراهينه الواضحة.

والناس يتخلون عن البينات (الوحي) ويتمسكون بمعتقدات مبتدعة حججها واهية: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣)البقرة.

الرفث

هو الإفضاء والجماع بين الزوجين وكل ما يؤدي لذلك من مقدمات وتقبيل وتحسس وعبارات.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧)البقرة.

والرفث من مبطلات الحج: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧)البقرة.

الفسوق

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.



الفسوق غير الفسق.

ومن الفسوق التهم غير الصحيحة و النميمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) الحجرات.

ومن الفسوق الكلام البذيء والتنابز بالألقاب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) الحجرات.

ومن الفسوق جحد الحق والشهادة الباطلة: .... وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٨٢) البقرة.

والفسوق من مبطلات الحج: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

الفسق

هو الخروج عن الطاعة والعصيان والجحود والكفر، ومن ذلك:

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠)السجدة.

الذين فسقوا الذين كفروا بالدعوة وعصوا ولم يؤمنوا.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠)الكهف.



إبليس عصى (فسق).

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً(١٦) بني إسرائيل.

فسقوا تمردوا وعصوا أوامر الدين واقترفوا الموبقات.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٣٤)العنكبوت.

يفسقون: يعصون ويكفرون.

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٣٣)يونس.

الآية تقول: كل من يفسق ولا يؤمن بداية سماعه للدعوة لن يؤمن أبداً.

الجدال

هو اختلاف وتضارب رأيين وتعارضهما حول مسألة أو موضوع، يوصل للشحناء والبغضاء. وهو من مبطلات الحج: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

الملأ الأعلى

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) ص.

الملأ تعني المجموعة، والأعلى تشير إلى تفوق نوعهم على مخلوقات أخرى، أو تشير إلى بعدهم في الكون وهو ما أرجحه بلا تحفظ، لأن القرآن لا يتحدث عن تفوق جنس مخلوقات على آخر، لكن يمكن أن يذكر التباعد في الأماكن.

والكون مليئ بالمخلوقات مما لا علم لنا بهم، لكن من المؤكد أن هناك مخلوقات من طاقة ليس لها أجساد مادية، وغيرها بأجساد مادية، وكلا النوعين يندرج تحته مخلوقات مختلفة لا حصر لها.

والملائكة الذين أخبرهم الله سبحانه عن خلق آدم هم من «الملأ الأعلى» أي من المخلوقات



اللاجسدية البعيدة في الكون. ووصف بالأعلى لأنه بالنسبة لأهل الأرض باتجاه الأعلى.

وما يؤكد أن المقصود بالأعلى البعيد باتجاه الأعلى وليس المتفوق، ما ورد في سورة الصافات: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩).

والآيات تقول إن شياطين الجن المردة - الذين يعيشون في محيط الأرض - لم يعد بإمكانهم التحول في الكون والدنو من أماكن تواجد الملائكة الموجودة في مكان قصي في الكون: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) الصافات.

المحصن

المحصن يأتي على عدة معان.

يقول القرآن عن أم عيسى: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(١٢).

فالإحصان هنا يعني لمن لم يسبق لها ممارسة الجماع من قبل، بزواج أو خارجه.

وورد لفظ المحصنات، بمعنى العفيفات غير المتزوجات، ومن ذلك:

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥)المائدة.

ومثله: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٥)النساء.

وجاء الإحصان بمعنى العفيفات سواء متزوجات أو لم يتزوجن:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) النور.

ومثله: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٢٣) النور.

وبهذا نكون قد انتهينا من بحثنا هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هذا الكتاب

هذا البحث يتيح المجال للقرآن لكي يتحدّث معنا مباشرة دون وسيط، ليعرّفنا بالألفاظ التي وردت فيه، والمواضيع التي تناولها وأساليبه في بناء العبارات والجمل والسرد القصصي، وكيف تتفاعل سوره مع الأحداث حين نزولها. وللتأكيد على أن اللّه وحده قادر على بناء دين كامل دون عون أو مساعدة من فقيه أو محدّث أو مفسّر أو أي رجل دين آخر.

صدر للمؤلف عن منشورات الجمل














9 789933 351106

